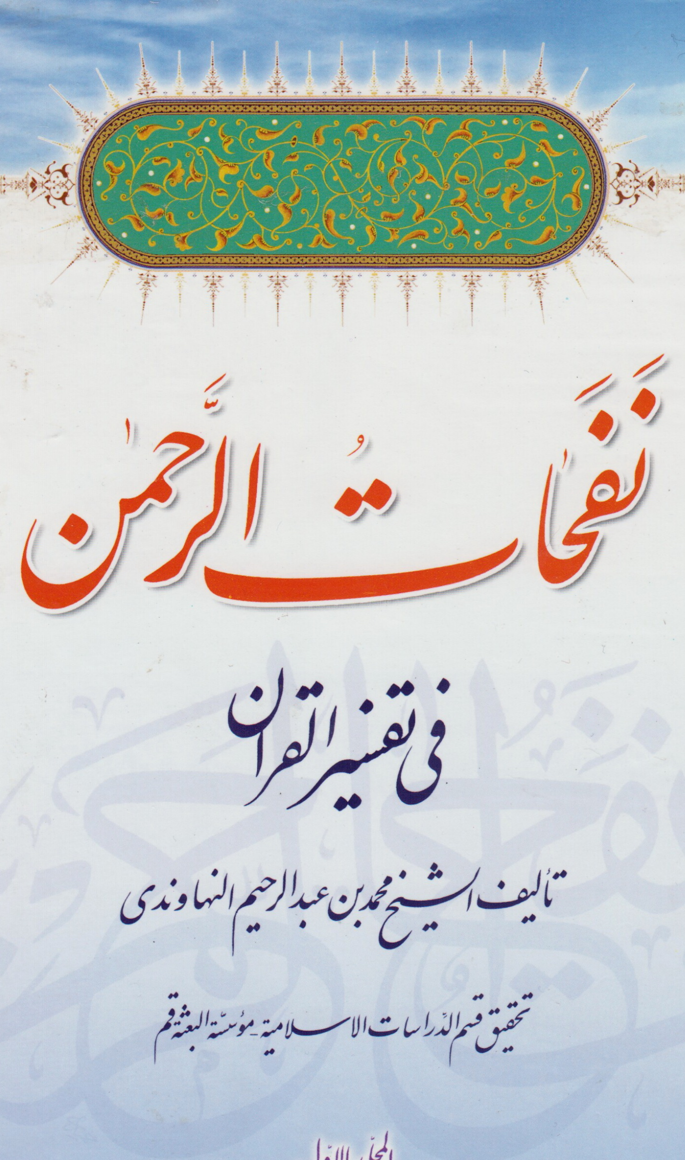


نفحات الرحمن

فی تفسیر القرآن

تألیف الشیخ محمد بن عبد الرحیم النهاوندی

تحقیق قسم الدراسات الاسلامیة ـ مؤسسة البعثة قم

المجلد الاول

بسم الله الرحمن الرحيم





نفحات الرحمن

في

تفسير القرآن

تأليف

الشيخ محمد بن عبدالرحيم النهاوندي

(١٢٩١-١٣٧١هـ)

الجزء الأول

تحقيق

قسم الدراسات الإسلامية - مؤسسة البعثة - قم

نهاوندی، محمد ۱۲۵۲- ۱۳۳۰
نفحات الرحمن فی تفسیر القرآن/تالیف محمد بن عبدالرحیم النهاوندی؛
تحقیق
قم: موسسه البعثه، مرکز الطباعه و النشر ۱۳۸۶
۶ج.
دوره: X-۷۶۵-۳۰۹-۹۶۴؛ ج.۱: ۵-۷۵۹-۳۰۹-۹۶۴؛ ج.۲: ۹-۷۶۰-۳۰۹-۹۶۴؛ ج.۳: ۷-۷۶۱-۳۰۹-۹۶۴؛ ج.۴: ۵-۷۶۲-۳۰۹-۹۶۴؛ ج.۵: ۳-۷۶۳-۳۰۹-۹۶۴؛ ج.۶: ۱-۷۶۴-۳۰۹-۹۶۴
فیپا
عربی.
کتابنامه.
تفاسیر شیعه –قرن ۱۴.
بنیاد بعثت. واحد تحقیقات اسلامی
بنیاد بعثت. مرکز چاپ و نشر
BP۹۸/ن۹ن۷
۲۹۷/۱۷۹
۸۴/۳۷۴۹۰م



مرکز الطباعة و النشر فی موسسة البعثة

نفحات الرحمن فی تفسیر القرآن ج۱

الشیخ محمد بن عبدالرحیم النهاوندی

تحقیق: قسم الدراسات الاسلامیة – موسسة البعثة – قم

الطبعة الاولی ۱۴۲۹ق.

الکمیة: ۲۰۰۰ نسخه

التوزیع: موسسة البعثة

طهران – شارع سمیه – بین شارعی الشهید مفتح و فرصت – الرقم ۱۰۹

هاتف: ۸۸۸۲۲۳۷۴ فاکس: ۸۸۳۲۵۴۶۴

شابک ج.۱: ۵-۷۵۹-۳۰۹-۹۶۴
شابک دوره: X-۷۶۵-۳۰۹-۹۶۴

مقدمة المؤسسة

إن تأسيس مؤسسة البعثة تعود الى الشهور الاولى بعد إنتصار الثورة الاسلامية حيث بدأت نشاطاتها فى مدينة طهران أولاً و كان الهدف من وراء إنشاء هذه المؤسسة تجميع كافة البرامج الثقافية و الخدمية الاجتماعية التى كنت نظمتها و أنجزتها قبل إنتصار الثورة ضمن مؤسسة موحدة، و بفضل من الله سبحانه و تعالى و رعاية بقية الله الأعظم المهدى الموعود عجل الله فرجه الشريف فقد تم انجاز خطوات هامة جداً فى الأقسام المختلفة من المؤسسة لا أرى أن الفرصة سانحة لذكرها الآن.

و من نشاطاتها، قسم الدراسات الإسلامية، فقد نشط هذا القسم فى مدينة طهران أولاً، ثم انتقل إلى مدينة قم، و باشر ادارته سماحة العلامة حجة الاسلام و المسلمين الحاج الشيخ جعفر الخراسانى.

و خلال اربعة عشر عاماً من النشاط المستمر حسب الخطة المرسومة تم انجاز أكبر حجم من البحوث و الدراسات حول تراث، متقدمى أعلام الامامية و التى تدور حول موضوعين أساسيين هما القرآن و العترة و كذا ترجمة آثار فارسية مفيدة للقارىء العربى.

و من جملة كتب التفسير التى تم تحقيقها بأسلوب علمى فنى تفسير البرهان و تفسير آلاءالرحمن و تفسير العياشى و تفسير نفحات الرحمن، و كما تم تحقيق كتاب الأمالى للصدوق و أمالى للشيخ الطوسى و دلائل الإمامة، و من الكتب التى قام قسم الترجمة فى المؤسسة مجموعة طيبة من المؤلفات الفارسية الحديثة التى يستفيد منها القارئ العربى كـ«تفسير الأمثل فى كتاب الله المنزل» و ترجمة مؤلفات الخطيب المعروف الشيخ الفلسفى رحمه الله و الكاتب الاسلامى الشهير الشهيد مطهرى رحمه الله و كتب قيمة أخرى.

و من ضمن التحقيقات التى اجريت بشأن التفاسير، نشير هنا إلى التفسير المروى عن أهل البيت عليهم السلام حيث جمعت كافة الروايات التفسيرية المتنشرة فى ما يقارب من مئتى مصدر من المصادر المعتبرة، و تم تصنيفها و تبويبها فى كتاب بعنوان «معجم تفسير أهل البيت عليهم السلام» و هو

جاحز للطبع. و قد جاهز كل الروايات التفسيرية في الاقراص CD المظبوطة لتكون الكتاب في تناول ايدى المحققين و يسهل الرجوع اليه.

فقد توقف عمل المؤسسة بصورة موقتة بسبب بعض مشاكل و أملناكبير بأن نباشر العمل من جديد و من جملة البرامج التى نحاول اعادة العمل بها و تنشيطها هى نهضة الترجمة، لأنّ اللغة العربية هى اللغة الأولى للعالم الإسلامى، و نعتقد أن أى تأليف مفيد للمجتمع الإسلامى يجب أن ينشر باللغة العربية اولاً و من ثم باللغة الفارسية و اللغات الأخرى.

و فى الوقت الذى نسعى إلى تنشيط و تفعيل هذه الوحدة من جديد، يعصر قلوبنا ألماً لفقد صديقنا العزيز و الغالي الذى كان محور الحركة فى المؤسسة ألا و هو الشيخ الخراسانى، فقد لقى ربه، و ندعو الله بأن يمطر على روحه شآبيت رحمته و رضوانه، و يكون نهجه مستمراً و ماثلاً أمام أعين تابعيه و محبيه. آمين رب العالمين.

علي الاسلامي

مؤسسة البعثة



مقدمة التحقيق

الحمد لله ربّ العالمين وأفضل الصلاة وأتمّ التسليم على محمّد الأمين وآله الهداة الميامين.

وبعد:

لقد حثّ الله تعالى عباده على تدبّر آيات الكتاب الكريم وفهم معانيه السامية وألفاظه الدقيقة، فقال تعالى: ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ القُرْءَانَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [1] وقال سبحانه: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا ءَايَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ [2].

وكان الرسول الاكرم صلى الله عليه وآله هو الذي تحمّل خلال حياته المباركة عبء تفسير آيات الكتاب الكريم وبيان مضامينه المتعلّقة باقامة الدلائل على أُصول الاعتقاد وأحكام الشريعة وتنظيم حياة المجتمع الاسلامي وشؤون الدولة الإسلامية وغيرها.

قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِم﴾ [3] وكان بيان الرسول صلى الله عليه وآله وما صدر عنه من التنزيل والتأويل وحياً من الله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [4].

وتوجّهت رجالات الأُمة منذ عصر الصحابة وإلىٰ يومنا هذا جيلاً بعد جيلٍ إلىٰ تفسير آي القرآن الكريم، وتدبُّر آياته، والبحث في إعجازه وعلومه المختلفة، ممّا أدى إلىٰ إيجاد نهضةٍ فكريةٍ قيّمة، وبناء تراث علمي فَذّ زخرت به حياة الأمة في مختلف فروع العلم والمعرفة.

ولكي نتّجه صوب تحقيق البناء الفكري السليم والتحصين العقائدي الصحيح، لابدّ أن نميّز بين التفسير الخالص لوجه الله المجرّد عن الهوى والميول، وبين التفسير العقيم الذي يميل بكلام الله حيثما شاء هوى المفسر وميوله وأغراضه. فاذا كان الأول يسهم في بناء الذات أخلاقاً وعقائداً، وفي بناء المجتمع أفراداً وأُسراً، فانّ الثاني من أشدّ عوامل الهدم والانحراف.

---

١. محمّد: ٢٤/٤٧. ٢. سورة ص: ٢٩/٣٨. ٣. النحل: ٤٤/١٦. ٤. النجم: ٣/٥٣ و ٤.

وممّا لا ريب فيه أنّ التفسير القويم تجده عند أهله، أولئك الذين نزل في بيوتهم، واقترنوا به إلى قيام الساعة، فقد تواتر عند جميع المسلمين أنّ الرسول الأعظم ﷺ قال: «إني تارك فيكم، ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي؛ كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي، لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض، فانظروا كيف تخلفوني فيهما»[1]. فقرن ﷺ بين الكتاب وعترته المعصومين منذ فجر الرسالة وحتى يوم القيامة.

فأهل البيت عترة النبي المصطفى صلوات الله عليهم هم الأجدر بإدراك مضامين الكتاب الكريم وفهم دقائقه، وأبعاد مضامينه العالية، وتصاريف أغراضه ومراميه، وقولهم الصدق، وتفسيرهم عين الحقّ، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الله لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾[2].

قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: «والله ما نزلت آية إلا وقد علمت فيما نزلت، وأين نزلت، وعلى من نزلت، إنّ ربي وهب لي قلباً عقولاً، ولساناً طلقاً سؤولاً»[3].

وقال الإمام محمد بن علي الباقر عليه السلام: «إن رسول الله ﷺ أفضل الراسخين في العلم، فقد علم جميع ما أنزل الله عليه من التنزيل والتأويل، وما كان الله لينزل عليه شيئاً لم يعلمه إياه، وأوصياؤه من بعده يعلمونه كلّه»[4].

وقال الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «نحن الراسخون في العلم، ونحن نعلم تأويله»[5].

وعليه فانّ حديث أهل البيت عليهم السلام من أهمّ مفاتيح فهم كتاب الله تعالى، ولا يتيسّر للمفسّر أن يفهم القرآن الكريم على وجهه الصحيح إذا لم يستأنس بأحاديثهم عليهم السلام في فهم دقائق مضامينه وإدراك معانيه، وإذا لم يضع أمامه تصوراً عن المنهج الذي اتبعه أهل البيت عليهم السلام في تفسير القرآن الكريم والخطوط الأساسية التي رسموها لفهم الكتاب العزيز.

من هذا المنطلق نهض قسم الدراسات الإسلامية ـ مؤسسة البعثة ومنذ فجر تأسيسه بمهمة إعداد وتحقيق ونشر سلسلة من التفاسير التي تصبّ في هذا الهدف السامي، فكان حاصل الجهود الخيرة العاملة في هذا الحقل هو إعداد (معجم تفسير أهل البيت عليهم السلام) والذي يضمّ ما تفرّق من حديثهم عليهم السلام الوارد في التفسير من مصادر الحديث والرواية المعتبرة باستثناء كتب التفسير.

ومن نتائج أعمال قسم الدراسات الاسلامية في هذا المجال تحقيق ونشر (تفسير العياشي)

---

١. سنن الترمذي ٥: ٣٧٨٦/٦٦٣ و٣٧٨٨ ـ كتاب المناقب، مستدرك الحاكم ٣: ١٤٨.

٢. الأحزاب: ٣٣/٣٣.

٣. كنز العمال ١٣: ٣٦٤٠٤/١٢٨.

٤. تفسير القمي ١: ٩٦، تفسير العياشي ١: ٦٤٦/٢٩٣.

٥. الكافي ١: ١/١٦٦، تفسير العياشي ١: ٦٤٨/٢٣٩.

لمحمد بن مسعود العياشي المتوفى نحو سنة ٣٢٠ هـ، وكتاب (البرهان في تفسير القرآن) للسيد هاشم البحراني المتوفى سنة ١١٠٧ هـ، وكتاب (آلاء الرحمن في تفسير القرآن) للشيخ محمد جواد البلاغي المتوفى سنة ١٣٥٢هـ، وغيرها من التفاسير والدراسات التي صدرت، أو لا تزال قيد الطبع أو التحقيق وتنتظر دورها في النشر والتوزيع باذن الله وتوفيقه.

والكتاب الذي بين يديك (نفحات الرحمن في تفسير القرآن) واحد من سلسلة التفاسير التي تبنّى قسم الدراسات الاسلامية تحقيقها وإخراجها بشكل أنيق يناسب مكانة مؤلفيها وجلالتهم، وهو من تأليف الشيخ محمد بن عبدالرحيم النهاوندي أحد أعلام الطائفة الحقّة وشيوخها المبرّزين قدس الله روحه ونور ضريحه، نرجو من الله تعالى أن ينفع به الاخوة المؤمنين سيما طلبة القرآن وعلومه السامية.

ترجمة المؤلف

هو الشيخ محمد بن الميرزا عبد الرحيم بن الميرزا نجف المستوفي بن الميرزا محمد علي الشيرازي النهاوندي[1].

ولادته ونشأته ورحلاته

ولد الشيخ محمد النهاوندي في الخامس عشر من شهر رجب سنة ١٢٩١هـ[2] في النجف الأشرف، فنشأ منذ طفولته المبكرة في بيئة علمية ووسط يزخر بالفضيلة والمعرفة، حيث أمضى نحو ثلاث سنوات من أيام طفولته في النجف الأشرف مهد العلم والورع والتقوى، و عاش في كنف أبيه العالم المتبحر والفقيه البارع الميرزا عبدالرحيم النهاوندي نحو ثلاثة عشر عاماً (١٢٩١-١٣٠٤هـ) نهل خلالها من فيض علمه ومعرفته واكتسب معالم تقواه وزهده.

وعندما لبّى أبوه نداء الحق في التاسع من ربيع الثاني سنة ١٣٠٤هـ توفّر الشيخ محمد على الأخذ عن أخيه الميرزا محمدحسن النهاوندي الذي كان عالماً عاملاً وفقيهاً بارعاً، وأخذ عن مدرسي المدرسة الفخرية (مدرسة الخان مروي) في طهران والتي كان والده مدرساً بها.

وفي سنة ١٣١٧ هـ تشرف الشيخ محمد مع أخيه الميرزا محمد حسن بزيارة مشهد الامام الرضا عليه السلام وجاور هناك مدةً أخذ فيها عن فضلاء عصره المعروفين كالحاج الشيخ حسن علي الطهراني ومير سيد علي الحائري اليزدي وغيرهما.

وفي نحو سنة ١٣٢٤ هـ توجّه الشيخ محمد إلى العراق لزيارة العتبات المقدسة وإدامة الدرس

---

١. ترجم له الشيخ آقا بزرك في نقباء البشر: ١٢٨ (مخطوط)، و في الذريعة ٩: ١٠٠٦ عند ذكر ديوانه، و ١٢: ١٦٣ عند ذكر كتابه (سراج النهج) و ١٥: ١٢٢ عند ذكر كتابه (ضياء الأبصار) و ٢٤: ٢٤٧ عند ذكر كتابه (نفحات الرحمن).
وذكره في أثناء ترجمة والده الميرزا عبد الرحيم النهاوندي في نقباء البشر ٣: ١١٠٨، فوائد الرضوية: ٢٢٨، ريحانة الأدب ٦: ٢٦٦، الذريعة ٩: ٦٨٧ عند ذكر ديوان والده.

٢. وذكر الشيخ آقا بزرك في نقباء البشر ٣: ١١٠٩ (ترجمة الشيخ عبدالرحيم النهاوندي) أن ولادته كانت في سنة ١٢٨٩ هـ وهي السنة التي عاد فيها والده من النجف إلى إيران، وما أثبتناه بناءً على ما رواه في الذريعة ٩: ٦٨٧ عن الشيخ محمد النهاوندي في تاريخ ولادته وبعض تفاصيل حياته. وما أثبتناه موافق أيضا للذريعة ٩: ١٠٠٦ و١٢: ١٦٣، ونقباء البشر (القسم المخطوط): ١٢٨ - ترجمة الشيخ محمد النهاوندي.

والتحصيل، فتلمذ في كربلاء للسيد إسماعيل الصدر الأصفهاني، وتوفّرت له فرصه التلمذة في الفقه والأُصول والعقائد والأخلاق عند فضلاء ذلك العصر وأعلامه المعروفين حيث حضر أبحاث الملا كاظم الخراساني، والسيد محمد كاظم اليزدي، والحاج ميرزا حسين الخليلي، والشيخ عبدالله المازندراني، والملا لطف علي، وحضر في سامراء دروس آية الله الميرزا محمد تقي الشيرازي، وغير هؤلاء من جهابذة العلم والمعرفة حتى وصل إلى كمال الاجتهاد في العلوم النقلية والعقلية.

وعاد إلى خراسان على أثر وفاة أخيه الميرزا محمد حسن وذلك نحو سنة ١٣٢٩ هـ وجاور المشهد الرضوي المقدس، وقام مقام أخيه في التصدّي لشؤون الزعامة الدينية وتولي شؤون المرجعية والافتاء في المسائل الشرعية والأحكام، واشتغل أيضاً خلال مدة إقامته في مشهد بالتدريس والبحث والتأليف.

وفي سنة ١٣٦٠ هـ توجه إلىٰ الديار المقدسة لأداء مناسك الحج، وفي هذه الرحلة زار العتبات المقدسة في العراق ثمّ عاد إلىٰ مشهد وبقي هناك حتى وافاه الأجل.

وفاته:

توفي الشيخ محمد النهاوندي في الخامس من جمادىٰ الأُولىٰ سنة ١٣٧١هـ ودفن في الحرم الرضوي الشريف في مشهد[١].

أُسرته العلمية

١ ـ جدّه أبيه

كان جدّه أبيه محمد علي الشيرازي حاكماً في نهاوند من قبل السلطان محمد شاه القاجاري، واستوطن أولاده وأحفاده بها، ومنهم والد المؤلف الميرزا عبدالرحيم النهاوندي.

٢ ـ والده

كان والده الميرزا عبدالرحيم النهاوندي[٢] عالماً متبحراً وفقيهاً بارعاً وزاهداً تقياً، ولد في نهاوند سنة ١٢٣٧هـ، واشتهر في أول أمره بحسن الخطّ وتجويده حتىٰ بلغ الكمال فيه، ثمّ توجّه إلىٰ تحصيل العلوم الدينية، فهاجر من موطنه إلىٰ بروجرد، فقرأ علىٰ علمائها المعروفين آنذاك، ثمّ توجه إلىٰ العراق فتلمذ للشيخ محمد حسن صاحب الجواهر حتى توفّي الأخير سنة ١٢٦٦هـ، فقرأ بعده علىٰ

---

١. راجع نقباء البشر (مخطوط): ١٢٨، الذريعة ٩: ١٠٠٧ و١٢: ١٦٣.

٢. راجع ترجمته في أعيان الشيعة ٧: ٤٧٠، نقباء البشر ٣: ١١٠٨، الفوائد الرضوية: ٢٢٨، ريحانة الأدب ٦: ٢٦٦، الذريعة ٩: ٦٨٧.

الشيخ الأعظم مرتضىٰ الأنصاري، وتصدّى خلال ذلك للتدريس، فحظي بتأييد أُستاذه الشيخ الأنصاري وتقديره.

وبعد وفاة الشيخ الأنصاري في سنة ١٢٨١هـ تفرّغ للتدريس في النجف، وأصبح من مشاهير علمائها وأعلامها المحقّقين وتخرّج عليه جمع من الفضلاء.

وغادر الشيخ عبدالرحيم النهاوندي أرض العراق بعد إقامة استمرت نحو ثلاثين عاماً، وذلك سنه ١٢٩١هـ[١]، وهي السنة التي ولد فيها ابنه محمد صاحب النفحات، وتشرف بزيارة مرقد الامام الرضا عليه السلام في مشهد، وأقام لمدة سنة مجاوراً للمشهد الرضوي المقدس، ثمّ غادر بعدها ماراً في طهران، وهناك ألحّ عليه جماعة من فضلائها وعلمائها لطلب الاقامة بها وتولي التدريس في المدرسة الفخرية (المعروفة بمدرسة مروي) فأقام في طهران ملبياً طلبهم، وفوّض إليه الحاج ملا علي الكني مهمة التدريس في المدرسة المذكورة، وتولّىٰ أيضاً مهام المرجعية والافتاء وإقامة صلاة الجماعة حيث كان يقتدي به عامة متديني المدينة وأعلامها، لما يتصف به من زهد وتقوىٰ وما يحظىٰ به من وجاهة تامة ومكنة مرموقة.

وتخرج عليه جماعة من الأعلام كالحاج ميرزا علي تقي سبط السيد محمد المجاهد، والسيد محمد الطباطبائي، والحاج ميرزا مهدي كلستانه وغيرهم.

وبقي الشيخ عبدالرحيم مقيماً في طهران حتىٰ وافاه الأجل في يوم الثلاثاء التاسع من ربيع الثاني سنة ١٣٠٤هـ وحمل جثمانه إلى قم[٢] فدفن في أول حجرة من حجرات الصحن الجديد للسيدة فاطمة بنت موسى بن جعفر عليه السلام علىٰ يسار الداخل من الباب الشرقي.

وترك الشيخ عبدالرحيم مجموعة من الآثار العلمية منها في الأُصول مقدار من أصل البراءة، وحاشية القوانين، وفي الفقه: كتاب العتق، وكتاب الوقف، وديوان شعر فيه مجموعة من أشعاره في كراريس بخطه كانت عند ولده الشيخ محمد.

٣ ـ أخوه

---

١. قيل أيضاً: سنة ١٢٨٩هـ كما في نقباء البشر ٣: ١١٠٩ (ترجمة الشيخ عبدالرحيم النهاوندي) وريحانة الأدب ٦: ٢٦٨. وما أثبتناه موافق لرواية الشيخ آقا بزرك عن الشيخ محمد النهاوندي. في الذريعة ٩: ٦٨٧. وراجع أيضا: نقباء البشر (مخطوط): ١٢٨ ترجمة الشيخ محمد، والذريعة ٩: ١٠٠٦ و١٢: ١٦٣.

٢. ذكر الشيخ آقا بزرك في نقباء البشر ٣: ١١٠٩ أنه حمل جثمانه إلىٰ النجف، وهو وهمٌ. فقد ذكر في الذريعة ٩: ٦٨٧ أنه دفن في قم، وهو مطابق لحقيقة الحال ولكافة المصادر التي ترجمت له. راجع الفوائد الرضوية: ٢٢٩. ريحانة الأدب ٦: ٢٦٨.

أكبر إخوته الشيخ الميرزا محمد حسن[١]، وكان عالماً عاملاً وفقيهاً بارعاً، تشرف بعد وفاة أبيه سنة ١٣٠٤هـ بزيارة الامامين العسكريين في سامراء، ومكث هناك مدّة حضر فيها دروس المجدد الشيرازي، ثم عاد إلىٰ طهران ومنها إلىٰ مشهد، فأقام بها متولياً شؤون التدريس والمرجعية والافتاء حتىٰ وفاته في نحو سنة ١٣٢٩هـ[٢] فقام مقامه بالتدريس والامامة أخوه الشيخ محمد صاحب النفحات.

مصنفاته:

ذكر الشيخ أقا بزرك في الذريعة أربعة مصنفات تركها الشيخ محمد النهاوندي، وهي:

١ ـ ديوانه، قال الشيخ آقا بزرك: له ديوان شعر ... وقد استكتبت منه قصيدته المستزاد في رثاء الحسين الشهيد عليه السلام[٣].

٢ ـ سراج النهج في مسائل العمرة والحج، قال الشيخ آقا بزرك: استدلالي مبسوط، يقرب من ثلاثة آلاف بيت[٤].

٣ ـ ضياء الأبصار في مباحث الخيار، قال الشيخ آقا بزرك: تكلم [فيه] على الخيارات السبعة وبحث في كل منها في سبعة مقامات، وبحث في الخاتمة عن أحكام الخيار في تسع كراريس، يقرب من ٨٠٠٠ بيت[٥].

٤ ـ نفحات الرحمن في تفسير القرآن، وهو هذا الكتاب، قال الشيخ آقا بزرك: ملمّع عربي وفارسي، للمحدّث النهاوندي محمد بن عبدالرحيم الطهراني النهاوندي، نزيل مشهد خراسان، المجلد الأول منه طبع سنه ١٣٥٧هـ على الحجر في ٤٩٦ صفحة مع مقدمة تشتمل على ٤٠ طرفة فيما يتعلق بالقرآن، والمجلد الثاني الى آخر سورة الاسراء[٦]، وطبع الرابع سنة ١٣٧٠هـ في ٥٠٤ صفحة[٧].

---

١. راجع ترجمته في نقباء البشر ١: ٤٠٦ و٣: ١١٠٩.

٢. كذا في الذريعة ٩: ٦٨٧ و١٠٠٧، ونقباء البشر ٣: ١١٠٩، لكن في نقباء البشر ١: ٤٠٦ أرّخ وفاته في حدود سنة ١٣٢٨ هـ وكلا التاريخين ليس فيهما جزم وتحديد.

٣. الذريعة ٩: ١٠٠٦.

٤. الذريعة ١٢: ١٦٣.

٥. الذريعة ١٥: ١٢٢.

٦. وطبع الجزء الثالث في النصف من شهر رمضان المبارك سنة ١٣٦٣ هـ.

٧. الذريعة ٢٤: ٢٤٧.

هذا الكتاب

هو تفسير مزجي متوسط بين البسط والايجاز، كتبه المؤلف بأسلوب واضح وعبارة سائغة خالية من التعقيد والابهام، وسمّاه في المقدمة حيث قال: وسمّيته بـ(نفحات الرحمن في تفسير القرآن) وهكذا جاء اسمه في الذريعة على ما تقدّم، لكنّه جاء بزيادة (وتبيين الفرقان) كما في صدر الجزء الأول والثالث والرابع من الطبعة الحجرية، المذكورة. وفرغ منه في آخر سنة ١٣٦٩هـ.

منهجه في التفسير

رسم المؤلف في اوّل مقدمته الخطوط العامة التي اتبعها في تفسيره، وهي بمجموعها تمثل طريقته التي نهجها في تفسير القرآن، ويمكننا أن نحصرها في سبع نقاط اعتماداً على ما ذكره حيث قال:

١ ـ اصطفيت من التفاسير ماهو لبابها.

٢ ـ اكتفيت من الوجوه بما هو صوابها.

٣ ـ بالغت في الجدّ بنقل ما وصل إليّ بطرق الخاصة والعامة من الروايات.

٤ ـ استفرغت الوسع في بيان وجه النظم بين السور والآيات.

٥ ـ صرفت الهمّ في التعرض لأسباب النزول الواردة في الآثار.

٦ ـ بذلت الجهد في الاسفار عن وجوه بعض النكت والأسرار.

٧ ـ كففت عن التكلم في أعاريب الكلمات وبيان وجوه القراءات التي كانت مُخالفة للقراءة المشهورة، إلّا التي وجدتها عن أهل الذكر مأثورة.

طُرف الكتاب

قبل أن يشرع المؤلف في التفسير مهّد لتفسيره بأربعين طرفة وخاتمة، وقد تضمّنت الطرف بحوثاً مهمة في علوم القرآن كاعجاز القرآن ودلائله، ونزوله، وترتيبه وجمعه، وأسمائه، ومحكمه ومتشابهه، وناسخه ومنسوخه، وسلامته من التحريف، وثواب تعلّمه وتعليمه، وآداب تلاوته وحفظه، وفضائل السور والآيات وغيرها من البحوث والتحقيقات المهمة في علم التفسير.

مصادر الكتاب

وجعل المؤلف خاتمة طرفه الأربعين في ذكر المصادر التي اعتمدها في تفسيره، وهي عشرة من

مصادر التفسير والحديث:

١ ـ جوامع الجامع في التفسير، لأمين الاسلام الشيخ الفضل بن الحسن الطبرسي.

٢ ـ بحار الأنوار، للعلامة محمد باقر المجلسي.

٣ ـ حواشي على كتاب أنوار التنزيل، للشيخ محمد بن حسين بن عبدالصمد العاملي المعروف بالشيخ البهائي.

٤ ـ الصافي في تفسير القرآن، للمولى محمد محسن المعروف بالفيض الكاشاني.

٥ ـ مفاتيح الغيب، لفخر الدين الرازي.

٦ ـ الاتقان، لجلال الدين السيوطي.

٧ ـ تفسير أبي السعود.

٨ ـ أنوار التنزيل، للبيضاوي.

٩ ـ روح البيان، للشيخ إسماعيل حقي البروسوي.

١٠ ـ تفصيل وسائل الشيعة، للشيخ محمد بن الحسن الحرّ العاملي.

طبعاته

طبع هذا التفسير طبعة واحدة في أربعة أجزاء على الحجر في حياة مصنفه؛، وذلك في الفترة الواقعة بين سنة (١٣٥٧ ـ ١٣٧٠هـ) وهذه الطبعة نادرة الوجود عزيزة الحصول فضلاً عن أنها تزخر بكثير من التصحيف والتحريف والعيوب الطباعية، ولهذا عمد قسم الدراسات الاسلامية ـ مؤسسة البعثة إلى تجديد طباعته بعد تحقيقه وفقاً لأساليب التحقيق العلمي المعروفة، ليأخذ حيّزه في المكتبة الاسلامية، ويكون أكثر فائدة لمريدي التفسير ومحبّي الكتاب العزيز.

منهج التحقيق

اتبعنا أُسلوب التحقيق الجماعي المعمول به في قسم الدراسات الاسلامية ـ مؤسسة البعثة، أي تقسيم العمل ثم انجازه خطوة خطوة من قبل مجاميع متخصصة ومتدربة في هذا الفن.

وقبل أن نذكر خطوات العمل في هذا التفسير المبارك، لابد من الاشارة إلى مسألتين:

١ ـ إننا قد اعتمدنا في تحقيقنا هذا على الطبعة الحجرية المشار إليها آنفاً، بعد تخليصها من عيوب الطباعة القديمة.

٢ ـ إنّ المؤلف قد ذكر مختصراً من التفسير باللغة الفارسية في تلك الطبعة، ولم نورده في طبعتنا هذه، لأنّ المؤلف لم يمزجه أثناء تفسيره العربي بل جعله منفصلاً عنه بحيث يمكن جعله كتاباً

مستقلاً، وإذا تمّ طبعه بشكل مستقلّ سيكون أسهل تناولاً وأكثر فائدة لقرّاء اللغة الفارسية.

أما خطوات العمل في هذا التفسير فيمكن تلخيصها بالنقاط التالية:

١ ـ تخريج النصوص القرآنية والحديثية وأقوال المفسرين وغيرهم من المصادر التي اعتمدها المؤلف أو من مصادرها الأولية، وقد لاحظنا أنّ نُقول المصنف من مصادر الحديث كالتهذيب والكافي ومصنفات الشيخ الصدوق وغيرها، منقولة بالواسطة عن (تفسير الصافي) وذلك لكثرة الفوارق بين نصوص (نفحات الرحمن) ونصوص المصادر المشار إليها مع تطابقها تماماً مع (تفسير الصافي) ولذلك خرّجنا مثل هذه الأحاديث عن مصادرها الأولية وعن (تفسير الصافي) أيضاً، ليتضح للقارئ مدى التفاوت بين الروايتين.

٢ ـ مقابلة النصوص والمتون المنقولة بالمصادر التي نقل عنها المصنف أو بمصادرها الأولية مع الاشارة في حال الاختلافات الضرورية أو في حال اعتمادنا نسخة المصدر.

٣ ـ ترقيم الآيات الواردة في متن التفسير ليكون أسهل تناولاً.

٤ ـ تقويم النص بتخليصه من التصحيف والتحريف الوارد في طبعته الحجرية الأُولى، وشرح الغريب، ووضع الحركات الضرورية في مواضع الحاجة.

٥ ـ وضعنا ما أثبتناه لاقتضاء السياق بين معقوفتين إشارة إلى عدم وجوده في نسخة التفسير، وكذلك ما رأيناه ضرورياً من المصادر.

٦ ـ صياغة هوامش الكتاب بالاعتماد على سلسلة الخطوات السابقة.

٧ ـ الملاحظة النهائية وتتضمن مراجعة متن الكتاب وهوامشه بدقة للتأكد من سلامة النصّ وضبطه.

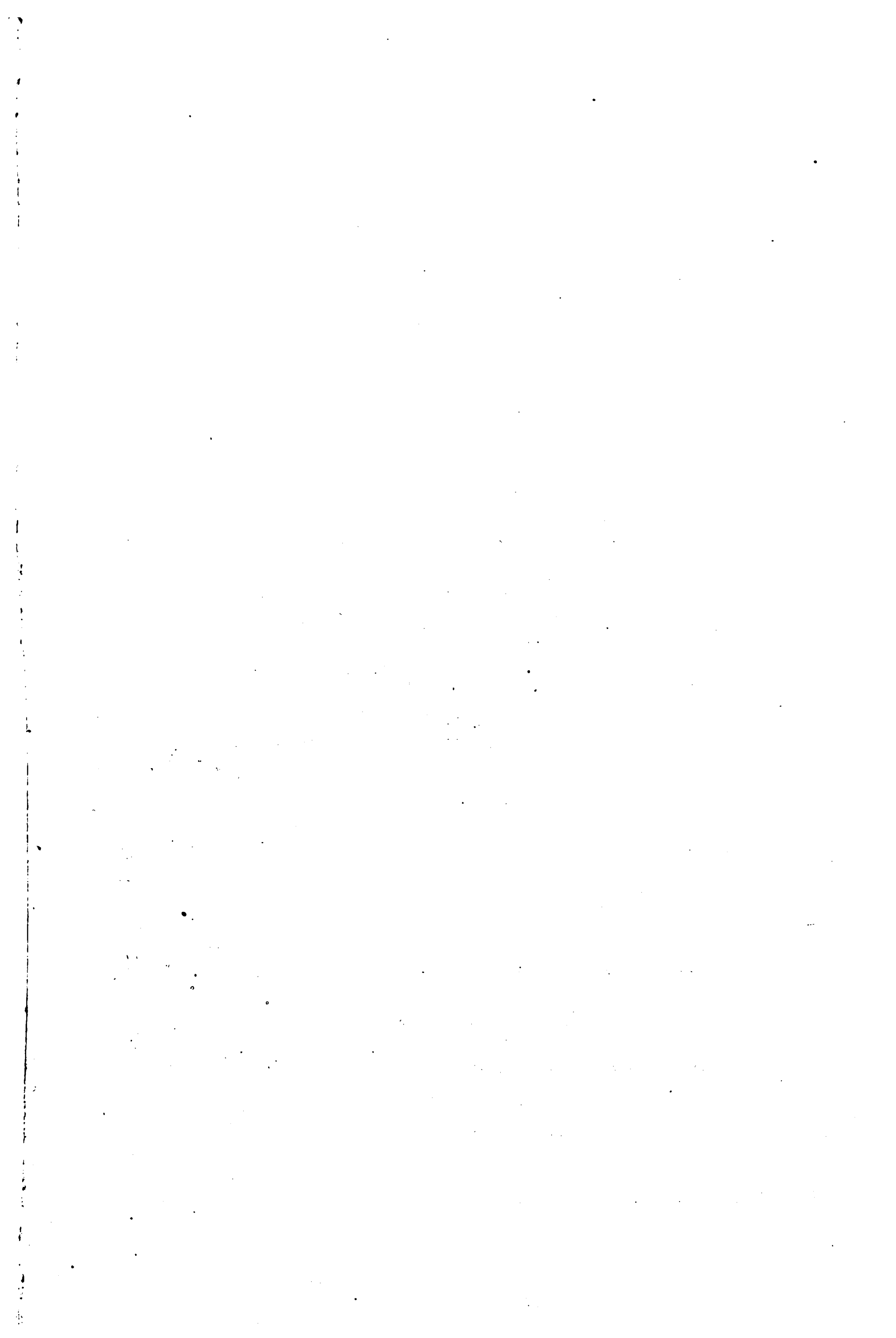
تقدير وثناء

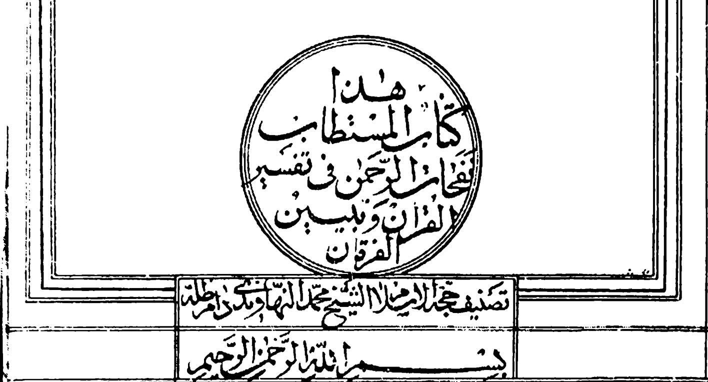
نقدّم وافر الشكر ومزيد الامتنان للاخوة العاملين في (قسم الدراسات الاسلامية ـ مؤسسة البعثة ـ قم) على جهودهم القيمة التي بذلوها لانجاز تحقيق هذا السفر المبارك، ونخصّ بالذكر منهم الاستاذ المحقق الاخ علي الكعبي دام فضله، والسادة الأفاضل عبدالحميد الرضوي وموسى دانشمند محولاتي وعصام البدري وفّقهم الله لمراضية.

ولله سبحانه الفضل والمنة ومنه نستمد العون والتوفيق.

قسم الدراسات الاسلامية

مؤسسة البعثة ـ قم





بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا وانزل الكتاب ولم يجعل له عوجا قيما ليبشر المؤمنين بان لهم
من الله فضلا كبيرا وجعله في ظلمات الارضين شمسا مضيئة وقمرا منيرا وابلج به عن هدى رسوله واوضح به الحق وارشد
الى سبيله وذكرهم به تذكيرا وتحدى الجاحدين في اتيان سورة من مثله فلم يفعلوا ولن يفعلوا ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا وجعله
مظهر قدرته ومظهر حكمته ومطلع نور عظمته حتى رآه بقلبه من كان بصيرا والصلوة والسلام على من ارسله برحمته وفضله
وختم به الرسالة وبشر به المرسلون من قبله تبشيرا وشرف الملائكة المقربين بان جعلهم له ظهيرا ونصيرا وعلى ابن عمه وكاشف غمه وزوج

الرسالة

ابنته والمنصوص باخوته الذي وهبه الله له وصيا ووزيرا وعلى الائمة من ذريته الذين اذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا
اما بعد فقد طال ما جال فكري في ان اكتب للكتاب الكريم تفسيرا لكي يكون ذخرى لحين فقري ونجاتي في يوم يكون شره مستطيرا
وان كان قصوري باعي وقلة اطلاعي على عسيرا الا ان شوقي الاكيد هاج وجدي وكلفني السعي فوق ما في وسعي فشرعت الغوص في هذا البحر الزاخر
فيه سائلا من الله الاعانة والتوفيق فاصطفيت من التفاسير ما هو لباب لها واكتفيت من الوجوه بما هو صواب لها وبالغت في تحقيق ما وصل الي من
الخاصة والعامة من الروايات واستفرغت الوسع في بيان وجه النظم بين السور والآيات وصرفت الهمة في التعرض لاسباب النزول الواردة في
الآثار وبذلت الجهد في الاسفار عن وجوه بعض النكت والاسرار وكشفت عن التكلم في غرائب الكلمات وبيان وجوه القراءات التي كانت مخالفة للقراءة
المشهورة الا التي وجدتها عن اهل الذكر مأثورة وسميته **بنفحات الرحمن** في تفسير القرآن ثم اني رأيت ان هدى المهتدي البصير ...
الشروع في التفسير ... تثبيتا للقلوب وتمهيدا للمطلوب وتشحيذا للاذهان وتنبيها للوسنان فنبهت مع قلة البضاعة
وعدم التدرب في الصناعة وبذل الجهد وتحمل الكلفة من المطالب المرتبطة بعلم القرآن ... وجعلتها مقدمة وجعلت لها خاتمة راجيا من الله
ان يجعل ذلك لي ولاخواني المؤمنين نعمة دائمة وان يمن علي بالاعتصام في مزال الاقدام **الطرفة الاولى** لا ريب في ان الكتاب العزيز

فإن الكتاب العزيز أعظم معجزات خاتم النبيين ص

كان من اعظم معجزات خاتم النبيين صلى الله عليه وآله وسلم حيث انه كان من جهة الاعجاز فيه اظهر من المعجزات الباهرة التي كانت لسائر الانبياء وانفع
وتأثيره في النفوس اشد من تأثيرها لبداهة ان المؤمنين به صلى الله عليه وآله من العرب مع علمهم بشدة العصبية واللجاج كانوا في زمانه اكثر من
المؤمنين بسائر الانبياء في زمانهم وكان ايمان اتباعه به وانقيادهم لامره مع كونهم اشد الخلق تكبرا واكثرهم تفاخرا اقوى واشد من ايمان
سائر الامم بانبيائهم وانقيادهم لاوامرهم وكان حبهم للعرب وشغفهم به مع كونهم اقسى الناس قلبا واقلهم رأفة اشد واكثر من حب بني اسرائيل
بن عمران ع مع كونه صاحب تسع آيات بينات ومن حب الحواريين لعيسى بن مريم ع مع كونه محيي الاموات ومبرئ الاكمه والابرص حيث ان مؤمني
نبينا ص كانوا يبادرون الى بذل المهج والغوص في اللجج ويتسارعون الى معانقة السيوف وشرب الحتوف تحفظا لسلامته وترويجا لشرعه
بنو اسرائيل كانوا احفظ لانفسهم من نفس موسى ع حيث انه لما قال لهم يا قوم ادخلوا الارض المقدسة التي كتب الله لكم قالوا ان فيها قوما

إنا

جبارين ولن ندخلها ابدا ما داموا فيها فاذهب انت وربك فقاتلا انا ههنا قاعدون ولم ينقل من حواري عيسى ع فزع شديد حين
رأوه على الصليب ونقل انه لما مات نبينا صلى الله عليه وآله عرض في فراشه غشي على بعض المؤمنين من شدة الحزن وجن آخر وصار يوم موته
مثلا في شدة البكاء والحزن ولم يكن جميع ذلك الا لكون اعجاز كتابه الكريم اشد تأثيرا في نفوسهم من آيات نبوة موسى وعيسى ع في نفوس
اتباعهما مع ان القرآن العظيم اوجد في نفوس العرب آثارا لم يوجدها معجزات سائر الانبياء حيث انه اخرجهم بسماعه من ظلمات الجهالة وعمر ...
بعد تماديهم فيها وتمرنهم عليها الى نور الهداية واوج الحكمة وصيرهم بعد ما تهم علماء حكماء بل كادوا ان يكونوا من الحكمة والمعرفة ...

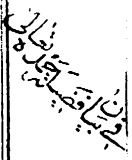
يلعنوا

صورة الصفحة الأولى من التفسير

اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، اَلرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ ، مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ

پس براى تنبيه بكيفيت حمد وسپاس خود در هر امرى بعد از استعانت باسم سامى خود تعليم كيفيت آن فرموده حمد وسپاس تمام انواع افراد است بذات واجب الوجودى كه داراى تمام صفات كماليه ومبراى از جميع عيوب ونقايص است پس بجهة اشاره بعلت اختصاص حمد بخود وصف فرمود پرورش دهنده همه موجودات ونعمت دهنده بهمه عوالم ملك وملكوت وجن وانس ودنيا وآخرت چنانكه منقول است كه خداوند هزار هزار عالم وهزار هزار فرموده وما در آخر اين عالم واقع شده ايم پس توصيف فرموده خود را بكلمه رحمان ورحيم تا دانسته شود كه تربيت او چون تربيت با ثرات طبيعيه نيست بلكه تربيت او عامه موجودات بمبدء صفت عطوفت واراده نظام اتم وتربيت نفوس مستعده را بمبدء صفت عطوفت خاصه است كه بذوات طيبه پس چون لازمه اين عطوفت خاصه ايجاد خوف وهيبت در قلوب از سطوت وعقاب خود تذكر داد نفوس را بسلطنت مطلقه خود باين مضمون كه خداوند قاهر وحاكم مقتدر هست وروزيكه جزاى كردار نيك وزشت در آن داده شود.

وغايتها كما تماذكرالله تعالى بكل اسمائه **وروى** عن النبي صلى الله عليه وآله في فضيلة هذه الاية المباركة انه قال لما اسري بي الى السماء عرض علي جميع الجنان فرايت فيها اربعة انهار نهرا من ماء ونهرا من لبن ونهرا من خمر ونهرا من عسل فقلت يا جبرئيل من اين تجئ الانهار والى اين تذهب قال تذهب الى حوض الكوثر ولا ادري من اين تجئ فادع الله تعالى ليعلمك او يريك فدعى ربه فجاء ملك النبي صلى الله عليه وآله ثم قال يا محمد غمض عينيك قال فغمضت عيني ثم قال افتح عينيك ففتحت فاذا انا عند شجرة ورايت قبة من درة ولها باب من ذهب احمر وقفل لو ان جميع ما في الدنيا من الجن والانس وضعوا على تلك القبة لكانوا امثال طائر جالس على جبل فرايت هذه الانهار الاربعة تخرج من تحت القبة فلما اردت ان ارجع قال لي ذلك الملك لم لا تدخل القبة قلت كيف ادخل وعلى بابها قفل لا مفتاح له قال مفتاحه بسم الله الرحمن الرحيم فلما دنوت من القفل قلت بسم الله الرحمن الرحيم انفتح القفل فدخلت في القبة فرايت هذه الانهار تجري من اركان القبة ورايت مكتوبا على اربعة اركان القبة بسم الله الرحمن الرحيم ورايت نهر الماء يخرج من ميم بسم الله ورايت نهر اللبن يخرج من هاء الله ونهر الخمر يخرج من ميم الرحمن ونهر العسل يخرج من ميم الرحيم فعلمت ان اصل هذه الانهار الاربعة من البسملة فقال الله عز وجل ذكره بهذه الاسماء من امتك فقد خالص من ربابه وقال بسم الله الرحمن الرحيم سقيته من هذه الانهار **وروى** عن النبي صلى الله عليه وآله عن جبرئيل عن ميكائيل عن اسرافيل عليهم السلام قال الله تعالى يا اسرافيل بعزتي وجلالي وجودي وكرمي من قرء بسم الله الرحمن الرحيم متصلا بفاتحة الكتاب مرة واحدة فاشهدوا علي اني قد غفرت له وقبلت منه الحسنات وتجاوزت له عن السيئات ولا احرق لسانه بالنار من عذاب القبر وعذاب النار وعذاب يوم القيمة والفزع الاكبر ونقل عن عارف انه كتب بسم الله الرحمن الرحيم واوصى ان يجعل في كفنه فقيل له ما تقول يوم القيمة قال اقول الهي انزلت كتابا وجعلت عنوانه بسم الله الرحمن الرحيم فعاملني بعنوان كتابك وفي البسملة مقام صفات الخوف والرجاء والخوف التي هي اصول التقوى والعبودية ولا انفكاك للعابد من احد هذه الاحوال وقيل ان البسملة تسعة عشر حرفا والزبانية تسعة عشر فالمرجو من الله ان يدفع بليتها بهذه الحروف التسعة عشر وروى انه لا يرد دعاء اوله بسم الله الرحمن الرحيم **الحمد** والثناء الجميل بجنسه او بجميع افراده وتمام مراتبه وانواعه من القولي والفعلي والحالي والافعالي خاص ومملوك **لله** لانه لاختصاصه بحسن الفعال من جميع الجهات ليس فيها شائبة القبح والنقص فالقولي منه هو اظهاره باللسان والفعلي هو استشعار القلب والحالي هو الرضا بجميع ما يصل منه تعالى والافعالي هو القيام بطاعته وعبادته عن محبة وشوق ونشاط والنكتة في تخصيص الحمد به تعالى انه حسن افعاله من سواه راجع اليه تعالى وحمد غيره على فعله يكون حمده بل لا يجوز حمد غيره الا باذنه لانه هو مستحقه وما لكه ثم لا يمكن لاحد لعدم امكان احصاء نعمائه والاحاطة بحقيقة حسن افعاله ولذا **قال** النبي صلى الله عليه وآله ليلة المعراج لما امره الله بالثناء عليه لا احصي ثناء عليك وفي افتتاحه تعالى كتابه المجيد بالبسملة والتحميد اشعار بانه لا ينبغي الشروع في امر الا بعد البسملة والحمد **عن** امير المؤمنين عليه السلام ان رسول الله صلى الله عليه وآله حدثني عن الله عز وجل انه قال كل ذي بال لم يذكر فيه بسم الله الرحمن الرحيم فهو ابتر **وفي** كل امر ذي بال لم يبدء فيه بالحمد لله فهو اقطع **وعن** تفسير الامام عليه السلام عن امير المؤمنين صلوات الله عليه انه سئل عن تفسيرها هو ان الله عرف عباده بعض نعمه عليهم جملا اذ لا يقدرون على معرفة جميعها بالتفصيل لانها اكثر من ان تحصى او تعرف فقال قولوا الحمد لله على ما انعم به علينا وعلى ذكرنا بخير عليه في الاية لعدم الاحتياج في المقام ثم وصفه انه المقدسة بقوله **رب العالمين** الاشعار بعلة الحمد واختصاصه به وهو كونه مربي جميع الكائنات والموجودات وفي العيون وتفسير الامام عليه السلام **عن** امير المؤمنين صلوات الله عليه مالك الجماعات من كل مخلوق وخالقهم وسائق ارزاقهم اليهم من حيث يعلمون ومن حيث لا يعلمون يقلب الحيوانات في قدرته ويغذوها ويحوطها بكنفه ويدبر كلا منها بمصلحته ويمسك الجمادات بقدرته يمسك ما اتصل منها من التهافت والمتهافت من التلاصق والسماء ان تقع على الارض الا باذنه والارض ان تنخسف الا بامره وقيل ان الرب هنا بمعنى المالك وقيل ان المراد بالعالمين عالم الملك وعالم الانس وعالم الافلاك وعالم النبات وعالم الحيوان وقد اختلفت الاخبار في عدد العوالم **عن** الصدوق في الخصال انه روى عن الباقر عليه السلام ذكر في قوله تعالى بل هم في لبس من خلق جديد ان الله قد خلق الف الف عالم والف الف آدم ونحن في اخر العوالم واخر الادميين نقل عن الجبر





صورة الصفحة الأخيرة من التفسير

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي نزّل الفرقانَ على عبدِه ليكونَ للعالمين نَذيراً، وأنزَل الكتابَ ولم يجعَل له عِوَجاً قَيّماً ليُبشّر المؤمنين بأنّ لهم من الله فضلاً كبيراً، وجعله في ظلماتِ الأرَضين شَمساً مُضيئةً وقَمَراً منيراً، وأبلَج به عن هدى رسوله، وأوضح به الحقّ وأرشَدَ البريّة إلى سبيله، وذكّرهم به تذكيراً، تحدّى[1] الجاحدين في إتيانِ سورةٍ من مِثله فلم يفعَلوا ولَن يفعَلوا ولو كان بعضُهم لبعضٍ ظهيراً، وتجَلّى فيه بظُهور قُدرتِه، وبهُور حِكمته، وسُطوع نورِ عظَمتِه، حتى رآه بقَلبه مَن كانَ بَصيراً.

والصلاة والسلام على مَن أرسَله برحمته وفَضله إلى النّاس بَشيراً، وختَم به الرسالة، وبشّر به المرسَلون أُمَمَهُم تبشيراً، وشرّف الملائكة المُقرّبين بأن جعَلهم له ظهيراً ونصيراً.

وعلى ابن عمّه، وكاشِف غَمّه، وزوج ابنتِه، والمَخصوص بأُخوَّتِه، الذي وهَبه الله له وصيّاً ووزيراً، وعلى الأئمّة من ذُرّيّتِه الذينَ أذهَب الله عنهُم الرِّجسَ وطهّرهم تطهيراً.

أمّا بعد: فقد طال ما جال فكري في أن أكتُبَ للكِتاب الكريم تفسيراً، كي يكونَ ذُخري لحين فَقْري ونَجاتي في يومٍ يكونُ شرُّه مُستَطيراً، وإن كان لقُصورِ باعي وقلّة اطّلاعي عليَّ عسيراً، إلاّ أنّ شَوقي الأكيد هاجَ رُوعي، وكلّفني السّعي فوق ما في وُسْعي، فشمّرتُ لِلغَوْص في هذا البَحر العَميق، فشرَعتُ فيه سائلاً من الله الإعانةَ والتوفيق.

فاصطَفَيتُ من التَفاسير ما هو لُبابُها، واكتَفيتُ من الوجوه بما هو صَوابُها، وبالَغتُ في الجِدّ بنَقل ما وصَل إليَّ بطُرُقِ الخاصّةِ والعامّةِ من الروايات، واستَفرَغتُ الوُسْعَ في بَيان وَجه النَظْم بين السُوَر والآيات، وصرَفتُ الهَمّ في التعرّض لأسبابِ النُزولِ الواردة في الآثارِ، وبذَلتُ الجُهدَ في الإسفار عن وجوه بعض النكت والأسرار، وكفَفتُ عن التكلّم في أعاريبِ الكلمات، وبيان وجوه القراءات التي

---

١. في النسخة: وحدّ.

كانت مخالفة للقراءة المشهورة، إلّا الّتي وجَدتُها عن أهلِ الذِّكر مأثورة، وسمّيتُه بـ(نفحات الرّحمـٰن في تفسير القرآن).

ثمّ إنّي رأيتُ أن أهدي للمُهتَدي البَصير، قبل الشّروع في التفسير، طرائفَ بارعةً، ولطائفَ نافعةً، تَثْبيتاً للقُلوب، وتَمهيداً للمَطلوب، وتَشْحيذاً للأذهان، وتَنبيهاً للوَسْنان، فَهيّأتُ مع قلّة البِضاعة، وعدَم التدرّب في الصناعة، ببَذل الجُهدِ وتحمّل الكُلفَةِ، من المَطالب المرتَبِطة بعِلم القُرآن أربعينَ طُرْفَةً، وجعَلتُها مقدّمةً، وجئتُ لها بخاتمةٍ[1]، راجياً من الله أن يجعَل ذلك لي ولإخوانـيَ المـؤمنينَ نِـعمةً دائمةً، وأن يُنعِمَ عليّ بالاعتِصام في مَزالّ الأقدام.

---

١. في النسخة: خاتمة.

الطُرفة الأُولى

في أنّ الكتاب العزيز
أعظم معجزات خاتم النبيّين صلى الله عليه وآله

لا رَيْبَ في أنّ الكتابَ العزيز كان من أعظَم مُعجِزات خاتَمِ النبيِّين صلى الله عليه وآله حيث إنّه كانت جِهةُ الإعجازِ فيه أظهَرَ من المُعجِزات الباهِرة التي كانت لسائر الأنبياء العظام، وتأثيرُه في النفوس أشَدّ من تأثيرِها؛ لبَداهةِ أنّ المؤمنين به صلى الله عليه وآله من العرَب مع عَرافتِهم بشدّة العصبيّة واللّجاج، كانوا في زَمانِه أكثَر من المؤمنين بسائر الأنبياء في زمانِهم، وكان إيمانُ أتباعِه به، وانقيادُهم لأمرِه ـ مع كونهم أشدّ الخَلق تكبّراً، وأكثرهم تَفاخُراً ـ أقوى وأزيَد من إيمان سائر الأُمم بأنبيائهم، وانقيادِهم لأوامرهم.

وكان حُبُّ العرَب له، وشَغَفُهم به ـ مع كونهم أقسىٰ النّاس قَلْباً، وأقلّهم رأفةً ـ أشدّ وأكثَر من حُبّ بني إسرائيل لموسى بن عِمران عليه السلام مع كونه صاحِبَ تِسع آياتٍ بيّناتٍ، ومن حُبّ الحَواريّين لعيسى بن مريم عليه السلام مع كونه مُحيي الأموات، ومبرئ الأكمَه والأبرص.

حيث إنّ المؤمنين بنبيّنا صلى الله عليه وآله كانوا يتسابقون إلى بَذْلِ المُهَج، والغَورِ في اللُّجَج، ويتَسارعون إلى مُعانقَة السّيوف، وشُرْبِ الحُتوف، تَحَفظاً لسلامتِه، وترويجاً لشريعته، وبنو إسرائيل كانوا أحفَظَ لأنفُسِهم من نفس موسى عليه السلام حيث إنّه لمّا قال لهم ﴿يَا قَوْمِ ٱدْخُلُوا ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾[1] ﴿قَالُوا يَا مُوسىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْماً جَبَّارِينَ﴾[2] و﴿إِنَّا لَن نَدْخُلَهَا أَبَداً مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَا هُنَا قَاعِدُونَ﴾[3].

ولم يُنقَل عن[4] حواريّي عيسى عليه السلام فزَعٌ شديد حين رأَوه على الصَليب، ونُقل أنّه لمّا ماتَ نبيُّنا صلى الله عليه وآله عزيزاً في فِراشه غُشي على بعض المؤمنين من شِدّة الحُزن، وجُنَّ آخر، وصار يومُ مَوتِه مثلاً في شِدّة البُكاء والحُزن، ولم يكن جميع ذلك إلّا لكَونِ إعجازِ كتابه الكريم أشدّ تأثيراً في

---

١. المائدة: ٢١/٥. ٢. المائدة: ٢٢/٥. ٣. المائدة: ٢٤/٥. ٤. في النسخة: من.

نُفوسهم من آياتِ نبوّة موسى وعيسى عليهما السلام في نفوس أتباعِهما.

مع أنّ القُرآن العظيم أوجَد في نفوس العرَب آثاراً لم تُوجِدْها[1] مُعجزات سائر الأنبياء، حيث إنّه أخرَجهم بسَماعِه من ظُلمات الجَهالةِ وغَمَراتِ الضَلالةِ، بعد تَمادِيهم فيها وتَمرُّنِهم عليها، إلى نور الهداية وأوج الحكمة، وصيَّرهم بعد أُمّيّتِهمْ عُلماءَ حُكَماء، بل كادوا أن يكونوا من الحِكمة والمعرفة أنبياء، وبلغوا من العلم إلى أن صاروا بعد وحشيّتِهم أساتيذ الأمم، وسادَةَ العجَم.

اُنظُر إلى حَوارِيّي عيسى مع كونهم أكمل مَن آمن به، وأعلم بما جاء به، قالوا: ﴿يَاعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ ٱلسَّماءِ﴾[2] وأطفال أُمّة نبيّنا صلى الله عليه وآله في زَمانِه كانوا يقولون: إنّ الله على كُلّ شيءٍ قَدير، ولا يُعجِز الله شيءٌ في الأرضِ ولا في السَّمَاء.

والحاصل أنّ العاقل المتأمّل في آياتِ[3] القرآن المجيد، لا يَرتاب في أنّها كلامُ الله، وأنّـها أعظَم المعجزات، وقد أفرَد جمعٌ كثيرٌ من علماء الاسلام إعجازَ القرآن بالتّصنيف، ومع ذلك حاروا في كشفِ حُجُب البَيان عن وجوه إعجازه بعد أن ثبتت عندهم بالوجدان والبرهان.

فالمنصِف يرى القرآن في الهداية والبيان كالروح في الجسَد، يعرف بمَظاهره وآثاره، ويعجِز العارفون عن بيان حقيقته وكُنْهِه. فإنّ قُرَيشاً[4] كانت أفصَح العرب لِساناً، وأعذبَهم بياناً، وأخلَصَهم لغةً، وأرفعَهم عن الرداءة لهجةً، ومع ذلك كان النبيّ صلى الله عليه وآله يحتَجّ عليهم بالقرآنِ صباحاً ومساءً، ويحثّهم على أن يُعارِضوه بسورةٍ واحدةٍ أو بآياتٍ يَسيرةٍ، فكلّما ازداد تَحدّياً لهم بها وتَقريعاً عليهم، كشَف عَجزهم عن نَقْصِهم ما كان مستوراً[5]، وظهَر منهم ما كان خَفياً، فحينَ لَم يَجِدوا حيلةً ولا حُجّةً، قالوا: أنتَ تَعرِف أخبارَ الأمم، ولذا تَقدِر على ما نَعجز عنه، فقال: جيئوا بها مُفتَرَيات، ولِذا لَم يأتِ بمِثلِهِ أريبٌ عن مُعارضةٍ، ولم يُبرِم ذلك خَطيبٌ، ولا طَمِع فيه شاعِرٌ، ولا تَكلّفه طَبعُ فصيحٍ ماهرٍ، ولو تكلّفه لظهَر ذلك، فَدَلَّ ذلك على عَجز القَوم عن معارضته مع كَثْرَةِ كلامهم، وسُهولة ذلك عليهم، وكَثْرَة شُعَرائهم، وكَثْرَة من هَجاهُ منهم وعارَض شُعَراءَ أصحابِهِ وخُطَباءَ أتباعِه.

ومن الواضِح أنّهم لو جاءوا بسورةٍ واحدةٍ أو آياتٍ يَسيرةٍ بدَل الهجاء ومعارَضةِ الشُعَراء، لكانَ

---

١. في النسخة: يوجدها. ٢. المائدة: ١١٢/٥. ٣. في النسخة: الآيات.

٤. في النسخة: القريش.

٥. كذا، ولا تخلو العبارة من اضطراب. ولعلّها: كشف عجزهم ما كان مستوراً من نقصهم.

أنقَض لِقَولِهِ، وأفسَد لأمرِه، وأضَرّ عليه وعلى أصحابه، مع أنّ الكلامَ سيّد عَمَلهِم وقد احتاجوا إليه، والحاجَةُ تبعَثُ على الفِكر والجِدّ في الأمرِ الغامِض المُشْكِل، فكيف بالسّهل الجَليل المَنْفَعة والعظيم الفائدة!

روي عن ابن عباس ﷺ، قال: جاء الوليد بن المغيرة إلى النبي ﷺ فقرأ عليه القرآن، فكأنّه رقّ له، فبلَغ ذلك أبا جَهْلٍ فأتاه، فقال: يا عمّ، إنّ قومَك يُريدون أن يجمَعوا لك مالاً ليُعطوكَهُ لأن لا تأتي[1] محمّداً، ولِتُعرض لما قالَه[2]. قال: قد علِمَت قُريش أنّي من أكثرِها مالاً. قال: فقُلْ فيه قولاً يبلُغ قومَك أنّك كارهٌ له. قال: وماذا أقول؟ فوالله ما فيكم رجل أعلَم بالشِعر منّي، ولا بِرَجَزِه، ولا بِقَصيدِه، ولا بأشعارِ الجِنّ، والله ما يُشبِه الذي يقولُ شيئاً من هذا، و والله إنّ لقوله الذي يقوله حلاوةً، وإنّ عليه لَطِلاوة[3]، وإنّه لمُثمِرٌ أعلاه، مُعذِق[4] أسفَلُه، وإنّه ليَعلو ولا يُعلى عليه، وإنّه ليَحطِمُ ما تحته.

قال: لا يَرضىٰ عنك قَومُك حتّى تقولَ فيه. قال: فدعني حتّى أُفكّر. فلمّا فكّر قال: هذا[5] سِحرٌ يُؤثَر، يأثُره عن غيره[6].

روي أنّ قوله عزّ وجلّ في أوّل حم السجدة إلى قوله: ﴿فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾[7] نزل في شيبَة وعُتْبَة ابنَي ربيعة، وأبي سُفيان بن حَرب، وأبي جَهل، وذُكر أنّهم بعثُوا هُم وغَيرُهم من وجوه قريش بعُتْبَة بن رَبيعة إلى النبي ﷺ ليُكلّمه، وكان حَسَنَ الحَديثِ، عجيبَ الشّأن، بليغَ الكَلام، وأرادوا أن يأتِيَهُم بما عنده. فقرأ النبيّ صلوات الله وسلامه عليه سورة حم السجدة من أوّلها حتّى انتهى إلى قوله: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾[8] فوثَب مخافةَ العَذاب، فاستَحْكَوهُ ما سَمِع، فذكَر أنّه لم يسمَع منه كلمةً واحِدةً، ولا اهتَدى لجَوابه[9]. ولو كان ذلك من جنس كلامهم لَم يخْفَ عليه وجه الاحتجاج والرَدّ.

قال عُثمان بن مَظعون: والله، لعَلِموا أنّه من عند الله إذ لم يهتَدوا لجوابه[10].

وروي أنّ جُبَير بن مُطْعِم ورَد على النبي ﷺ في حَليفٍ له أراد أن يُفاديه، فدخَل والنبيُّ صلوات

---

١. في الاتقان وحياة الصحابة: فانك أتيت.
٢. في الاتقان وحياة الصحابة: لما قِبَله.
٣. الطلاوة: الحُسن والرَّونق.
٤. في الاتقان وحياة الصحابة: مغدق.
٥. في حياة الصحابة: إن هذا إلّا.
٦. الاتقان في علوم القرآن ٤: ٥، حياة الصحابة ١: ٦٣.
٧. فصلت: ٤/٤١.
٨. فصلت: ١٣/٤١.
٩. الدر المنثور ٧: ٣٠٩.
١٠. في النسخة: بجوابه، وكذا في المورد المتقدّم.

الله عليه يقرأ سورة ﴿وَالطُّورِ * وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ﴾[١] في صلاة الفَجر، قال: فلمّا انتهى إلى قوله: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ * مَالَهُ مِن دَافِعٍ﴾[٢] قال: خَشِيتُ أن يُدْرِكَني العَذابُ فأسلَمتُ[٣].

ورويَ أنّ ابن أبي العَوْجاء وثلاثة نَفَر من الدّهريّة[٤] اتّفقوا على أن يُعارِضَ كلُّ واحدٍ منهم رُبْعَ القُرآن، وكانوا بمكّة، وعاهَدوا على أن يجيئوا بمُعارضَتِه في العام القابل، فلمّا حالَ الحَوْلُ، واجتَمعوا في مَقام ابراهيم عليه السلام قال أحدُهم: إنّي لمّا رأيتُ قولَه: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ٱبْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَماءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ ٱلْمَاءُ وَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ﴾[٥] كَفَفتُ عن المُعارضة.

وقال الآخر: وكذلك أنا، لمّا وجَدتُ قوله: ﴿فَلَمّا ٱسْتَيْئَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيّاً﴾[٦] أيستُ عن المُعارضة. وكانوا يُسِرّون بذلك، إذ مرّ عليهم الصادِق صلوات الله عليه فالتفَت [اليهم] وقرأ عليهم: ﴿قُلْ لَئِنِ ٱجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلقُرآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ﴾[٧] فبُهِتوا[٨]. وأمثال هذه الروايات كثيرة جدّاً.

وممّا يشهَد على أنّ القرآنَ العَظيم فوق طَوْقِ البشَر، أنّ مَن قايَس بين آياتِه وكلمات رسول الله صلى الله عليه وآله وخُطَبِه البَليغة، وجَد التَفاوُتَ بينَهُما تَفاوُتَ الخالِق والمَخلوق، والواجِب والمُمكِن، مع أنّه صلوات الله عليه كان أفصَح مَن نطَق بالضّاد، ولم يُسمع بكلامٍ أحسَن أُسلوباً، وأَلطَف لَفظاً، وأعدَل وَزناً، وأجمَل مَذْهَباً، وأحسَن مَوقِعاً، وأسهَل مَخرَجاً، وأفصَح بَياناً، وأبيَن فَحوىً، وأكرَم مَطلعاً من كلامه صلى الله عليه وآله.

والحاصل: أنّ الكتابَ العزيز في لسانِ العربيّة بلَغ مبلغاً من الفَصاحةِ والبَلاغةِ وحُسن النَظْمِ والأُسلوب لايُمكِن للبَشَرِ أن يُدانيه بالفِطرَةِ والعَقل والاكتِساب. وقد صدَق الصادِق صلوات الله عليه حيثُ قال: «لقد تجلّى الله تعالى لخَلقِه في كلامه، ولكنّهم لا يُبصِرون»[٩].

وعن النبيّ صلى الله عليه وآله في وصَفِ القُرآن قال: «ظاهِرُه أنيقٌ، وباطِنُه عميق، لا تُحصىٰ عَجائبُه، ولا تُبلى غَرائبُه»[١٠].

---

١. الطور: ١/٥٢ و٢. ٢. الطور: ٧/٥٢ و٨. ٣. الكشاف ٤: ٤٠٩.
٤. رجل دهري: ملحد لايؤمن بالآخرة، يقول ببقاء الدهر. المعجم الوسيط ٢: ٢٩٩.
٥. هود: ٤٤/١١. ٦. يوسف: ٨٠/١٢. ٧. الإسراء: ٨٨/١٧.
٨. الخرائج والجرائح ٢: ٥/٧١٠. ٩. أسرار الصلاه/للشهيد الثاني: ١٤٠.
١٠. تفسير العياشي ١: ١/٧٤، الكافي ٢: ٢/٤٣٨.

وعن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «لا تَنْقَضي عجائبُه، ولا يَشبَعُ منه العُلَماء، هو الذي لم تَلبث[١] الجِنّ إذ سمِعَتْه أن قالت: ﴿إنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً * يَهْدِى إِلَىٰ الرُّشْدِ﴾[٢].

وسيأتي ـ إن شاء الله ـ عند تفسير قَوله عزّ وجلّ: ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا﴾[٣] مَزيدُ بيانٍ لذلك والتعرّض لوجوه إعجازِه بمِقدار فَهمِيَ القاصِر.

الطّرَفة الثانية

في تعريف المعجزة
وأنّ القرآن العظيم معجزةٌ عقليةٌ

المُعجِزَةُ: هي الأمرُ الخارِقُ للعادَة، المَقْرونُ بالتَحَدّي السالم عن المُعارضة مِن مُدَّعي النبوّة عند احتِمالِ صِدْقِه في الدَعوى، وهي قسمان: حسّيّةٌ؛ كصَيْرُورَةِ العَصا ثُعباناً، وإحياء المَوتىٰ، وإطعام الجَمْع الكَثير بالطعامِ اليَسير. وعقليّة: كإعجاز القرآن المَجيد.

قيل: كانت معجزات أنبياء بني إسرائيل أكثرها حسّيّة، لِبَلادَةِ أمَمِهم، وقِلّةِ ذَكائهم، بخِلاف مُعجِزات نبيّنا صلوات الله عليه وآله فإنّ عُمْدَتَها عقليّةٌ لفَرْطِ ذَكاءِ أمّتِه، وكَمالِ فَهْمِهم، ولأنّ هذه الشَريعة ونبوّةَ هذا النبيّ باقيةٌ دائمةٌ مَدى الدَهر، وأحكامه مستمرّةٌ إلى يوم القِيامة، فخصّ نبيّنا بأن أعظَم مُعجِزاته عقليّة باقية ليَراها ذوو[٤] البَصائر قَرناً بعد قَرْن، كالشَمس تَجري ما استقَرّت الأرَضون ودارت السَماوات.

عن النبيّ صلى الله عليه وآله قال: «ما مِن الأنبياء نَبيٌّ إلّا أُعطِيَ ما بمثله آمن[٥] البشر، وإنّما كان الذي أُوتيته[٦] وَحْياً أوحاهُ الله إليّ، فأرجو أن أكونَ أكثرَهم تابِعاً»[٧].

قال بعضُ العُلَماء: إنّ معناه أنّ معجزات الأنبياء انقرَضت بانقِراض أعصارِهم، فلم يُشاهِدها إلّا مَن حضَرها، ومُعجِزةُ القرآنِ مستمرّة إلى يوم القيامة. وخَرقه العادة في فَصاحتِه وبَلاغتِه ونَظْمِه وأُسلوبه وإخباره بالمُغَيّبات باقٍ إلى آخِرِ الدَهر، فلا يمرّ عَصرٌ مِن الأعصارِ إلّا ويَظهر فيه شيءٌ ممّا أخبَر به أنّه

---

١. في تفسير العياشي: لم تكنّه.
٢. تفسير العياشي ١: ٢/٧٥، والآيتان من سورة الجن: ١/٧٢ و٢.
٣. البقرة: ٢/٢٤.
٤. في النسخة: ذو.
٥. في صحيح البخاري: ما مثله آمن عليه.
٦. في صحيح البخاري: أوتيت.
٧. صحيح البخاري ٦: ٣/٣١٣، وزاد فيه: يوم القيامة.

سيكون[١]، وكلّ مَن سَمِعه في القرون المُتَطاولة، وكان عارفاً بكلام العرب وأُسلوب بيانِهم، تتِمّ عليه الحُجّة بسَماعه، كما قال الله عزّ وجلّ: ﴿أَوَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيهِم﴾[٢] وقال تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللهِ﴾[٣] فإنّ الآيتَين دالّتان على أنّ الحُجّةَ بتِلاوة الكِتاب العزيز وسَماع كلام الله تَتِمّ على كلّ أحدٍ من العارفين بكلامِ العرَب ومُحاوراتهم.

روي أنّ رجلاً سأل أبا عبدالله عليه السلام: ما بالُ القُرآنِ لا يزداد على النشر والدَرس[٤] إلّا غَضاضَةً[٥]؟ فقال عليه السلام: «لأنّ الله تبارك وتعالى لم يجعَلْه[٦] لزَمانٍ دون زمان، ولا لناسٍ دونَ ناس، فهو في كلّ زمانٍ جديدٌ، وعند كلّ قومٍ غَضٌّ إلى يوم القيامة»[٧].

وفي خطبةٍ طويلة لأمير المؤمنين صلوات الله عليه: «ثم أنزَل عليه الكتابَ نوراً لا تُطفأ مصابيحُه، وسِراجاً لا يَخبو تَوَقُّده، وبَحراً لا يُدرَك قَعرُه، ومِنهاجاً لا يُضِلّ ناهجه[٨]، وشُعاعاً لا يُظلِم ضَوءُه، وفُرقاناً لا يُخمَدُ بُرهانُه، وبنياناً لا تُهدَمُ أركانُه»[٩].

وفي روايةٍ عن الرضا عليه السلام: «لا يَخلَقُ على الأزمنة، ولا يَغِثُّ[١٠] على الألسِنة، لأنّه لم يُجعل لزَمانٍ دون زمانٍ، بل جُعل دليلَ البُرهان، وحجّةً على كلّ إنسانٍ ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾»[١١].

وفي خطبة فاطمة عليها السلام في أمرِ فَدَك: «لله فيكم عهدٌ قدّمه إليكم، وبقيّةٌ استَخْلَفها عليكم: كتاب الله، بيّنةٌ بَصائرُه، وآيٌ مُنكَشِفَةٌ سَرائرهُ[١٢]، وبُرهانٌ متَجلّيةٌ ظواهِرُه، مديمٌ للبريّة استِماعه، وقائِدٌ إلى الرِضوان أتباعَه، ومُؤدٍّ إلى النّجاةِ أشياعَه، فيه تِبيانُ حُجَج الله المنيرة، ومَحارِمِه المُحرّمة، وفضائلة المُدوّنة، وجُمَله الكافية، ورُخصته الموهوبة، وشرائطه المكتوبة، وبيّناته الجاليه»[١٣]. إلى غير ذلك من الروايات.

---

١. فتح الباري ٩: ٥. ٢. العنكبوت: ٥١/٢٩. ٣. التوبة: ٦/٩.
٤. في عيون أخبار الرضا عليه السلام: عند النشر والدراسة. ٥. الغضّ: الطريّ، والغَضاضة: الطَّراوة والنَّضارة.
٦. في عيون أخبار الرضا عليه السلام: لم ينزله.
٧. عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ٣٢/٨٧، أمالي الطوسي: ١٢٠٣/٥٨٠. ٨. في النهج: نهجه.
٩. نهج البلاغة: ٣١٤ الخطبة ١٩٨. ١٠. خلق الثوب: بلي، وغثّ حديث القوم: ردؤ وفسد.
١١. عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ٩/١٣٠، والآية من سورة فصلت: ٤٢/٤١. ١٢. في النسخة: سرائرها.
١٣. بلاغات النساء: ٢٥، دلائل الإمامة: ١١٣، الاحتجاج: ٩٩.

هذا في حقّ العارِف بلِسان العرَب، وأمّا غير العارِف فتتمّ عليه الحجّة بتَصديق أهلِ اللّسان إعجازَه، كما تمّت الحجّة على بني إسرائيل الجاهِلين بعلم السحرة بتَصديقِ السَحَرةِ إعجازَ العصا، وعلى الجاهِلين بعِلْم الطبِّ بتَصديقِ الأطبّاء إعجازَ إبراءِ الأكْمَه والأبرَص وإحياء المَوتى.

الطَّرَفة الثالثة

في أنّ الكتاب العزيز مع قطع النظر عن وجوه إعجازه دليل صدق النبي ﷺ

لا شُبهةَ أنّ الكتابَ العزيز مع غضّ النظر عن وجوه إعجازه، يكون من أقوى دَلائل صِدْق نبيّنا ﷺ لوجوهٍ، منها:

[١] ـ أنّه ﷺ أعلَن في النّاس بصريحِ كتابه الكريم بأنّ موسى بن عِمران عليه السلام بشّر اُمّته بظُهورِه صلوات الله عليه وبِعثَتِه، وأخبَر بعَلائمِه ونُعوتِه، وأنّ عيسى بن مريم عليه السلام بشّر مع ذلك باسمِه السامي، حيث قال في كتابه العزيز: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَىٰ ٱبنُ مَرْيَمَ يَا بَنِى إِسْرَائِيلَ إِنِّى رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ التَّوْراةِ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنْ بَعْدِى ٱسْمُهُ أَحْمَدُ﴾[١].

فلو لم يكن نبيّنا ﷺ صادِقاً في دَعواه، وعلى حُجّةٍ فيما ادّعاه، ما كانتِ اليَهودُ والنَصارى مع كَثرة عدَدِهم ورُهبانِهم، وشِدّة عَداوتهم له ﷺ ولَجاجِهم في ملّتهم، ساكِتين عن مُعارَضتِه مع تمكّنهم من إدحاضِ حُجّته، وقُدرتِهم على إبطالِ دَعوَتِه، ولَبادَروا إلى تكْذيبِه، ولتَسارَعوا إلى تَفْضِيحِه وَتنكيبِه بأن كانتِ الأحبار والرُهبان لحِفظ رياستِهم وملّتهم حرّموا على أنفُسِهم الرُّقادَ، وَتنادَوا بأعلى أصواتِهم في البلاد، وأحضَروا الناسَ في الميعاد، وأتَوا بكتُبهم في مَحْضَرِ الحاضِرِ والبادي، وفتَحوها على رؤُوس الأشهاد، وألزَموا النبيَّ ﷺ على أن يُريهُم مِنها آيةً فيها اسمُه أو نَعتُه، ويُخرج منها عبارةً فيها عَلامتُه وصِفتُه فيظهَر عند ذلك بعَجْزِه، إفحامُه وبَهْتُه، فلم يُمكن أن يخضرّ له بعد ذلك عُودٌ، ولم يَقُم له عَمودٌ، فلمّا لم يظهَر تَظاهُرُهم في رَدِّه ـ ولَو كانَ لَبانَ ـ علِمنا بثُبوت نُعوتِه في كتُبهم، وتَيقّنّا بصِدْقِه في إخباره.

إن قيل: قد نطَق الكتابُ العَزيز في عِدّة مواضع، بأنّ اليهودَ والنَصارىٰ حرّفوا الكِتابَين، وغيَّروا

---

١. الصف: ٦/٦١.

الآياتِ المُبشِّرات ببِعْثتِه، الدالات على نُعوتِه، واتّفق المُسلمون عليه، ولازِمُ ذلك أنّه لم يكن في ذلك الوقت في الكتابَين آيةٌ دالّةٌ على نَعْتِه، ولم يكُنِ النبيُّ ﷺ قادراً على إثباتِ بشارة موسى وعيسى عليهما السلام بمَجيئه ورسالته، ولذلك لم يؤمن أكثر أهل الكِتابَين بنُبوّته، ولو كانَ في الكِتابَين ذِكرُ علائمِه المُنطَبِقة عليه، لم يَبْقَ لهُم عُذرٌ في عدم الايمان والتسليم.

قُلنا: نعَم، ولكنّه لم يقَع التحريف في جميع النُسَخ الموجودة في ذلك العصر من الكتابَين، وإنّما وقع في عدّة كتبٍ كانوا يُظهِرونها لعَوامّهم، ويَتلونها عليهم إضلالاً لهم، وحِفْظاً لرياستِهم في السرّ والخَفاء، ولم يَقدِروا على التَجاهُر بالمُعارضة لكون النُسَخ غير المُحّرفة كثيرة الوجود، وكانت عدّة من المسلمين من عُلماء الفَريقَين مُطّلعين على الآيات غير المحرّفة، قادِرين على إفحام المُعارضين الجاحدين، فلم يَجسُر أحد على التَظاهُر بالتكذيب والإنكار، بل سلَك المتمرّدونَ مع النبيّ والمسلمين سبيلَ النِفاق.

[٢] ـ ومنها: أنّ العادة قاضيةٌ بأنّ كلّ من يُريد أن يُثبِت لنَفسِه بين الناس مَرتبةً من الكَمال التي ليست له، ويدّعي كونَه في مرتبةِ الواجدين أو فوقَهم، وكان لتلك المرتبة من الكمال آثارٌ في الأنظار، لابدّ لذلك المدّعي الكاذب من السّعي في إلقاء الشُبُهات في مُلازمة تلك الآثار لتلك المرتبة من الكمال، وإزالةِ اعتقاد الناس بها، ومن المُبالغة في تَنقيص مَن عُرِف بهذه المَرتبة وتكذيبه في دعوى وُجدانِه الآثار، وتكذيب نَقَلَتها عنه، ومن الجدّ في الإزراء به حتّى تَحصُل له رِفعةُ القَدر وسماعُ الدَعوى.

مثلاً إذا ادّعى مُدّعٍ كاذبٌ لنَفسِه مَرتبةَ النبوّة، وكانت في اعتِقاد الناس ملازِمة لإتيان المُعجِزة وعملٍ خارقٍ للعادة، وكان المُدَّعي عاجِزاً عن ذلك، فلابُدّ له من إنكارِ مُلازمَةِ النبوّة للاعجاز، ومن السَّعي في إلقاء الشُبُهاتِ في أذهانِ المُعتَقِدين بصُدور الإعجاز وخوارق العادات من الأنبياء عليهم السلام، ومن حَطِّ رُتبَتِهم وقَدْرِهم، ومِن سَلْبِ العِصْمَةِ عنهم حتّى يُمكِنَه دعوىٰ التساوي معهم أو التعالي عليهم.

كما ترى ذلك من الفُرقةِ الضالّةِ البابيّةِ[١]، حيث إنّهم على ما نُقِل عنهم أنكروا جميع المُعجِزات

---

١. البابيَّة: فرقة أسسها علي محمد، الملقب بالباب، المولود بشيراز سنة ١٢٣٥ هـ والمقتول سنة ١٢٦٦ هـ في تبريز بإيران، وادّعى أنه الباب الذي لا يجوز الدخول إلاّ منه، وقال بنسخ فرائض الإسلام. وإنه أفضل من الرسول الأكرم ﷺ، وإن أقرانه أفضل من الصحابة، وإن البشر يعجز عن الإتيان بقرآنه، وسمّى كتابه (البيان) وكان يقول إنه المهدي. معجم الفرق الإسلامية: ٤٨.

ونَسبوها إلى الكَذِب وقالوا: إنّه لا بُرهانَ على صِدْقِ دعوى مدّعي النبوّة إلّا نفوذ قوله وتأثيره في النفوس وقبول الناس.

وكما نرى من أهل السُنّة من القول بعدم لزوم عِصمة الإمام، حتّى يتَمشّىٰ من الفرقةِ الأُولىٰ دعوى النبوّة أو مرتبة فوقَها، ومن الفُرقةِ الثانية دَعوى إمامةِ أئمّتِهم مع اتّفاق المسلمين على أنّهم كانوا مُشركين في المدّة المَديدة من عُمُرهم.

ولمّا رأينا أنّ نبيّنا ﷺ بالَغ في كتابهِ العزيز في تعظيم سائر الأنبياء أكثر من تعظيم اُمَمِهم لهم، وأثبت لهم من المُعجزات وخَوارِق العادات أزيَد ممّا اعتقَد بها المؤمنون بهم، كتكلّم عيسى عليه السلام في[1] المَهْد، وعُروجه حيّاً إلى السّماء، وإلقاء شَبَهه على غيرِه، ثم ادّعى لنَفسِه النبوّة، بل ادّعى أنّه أفضَل وأعظَم شأناً من الأنبياء الذين هم ذَوو المَعاجز الباهرة، ثم عَلِمنا أنّه آمن به كثيرٌ من العُقَلاء وجَمْعٌ من اُمَم سائر الأنبياء كاليَهود والنّصارىٰ وغيرُهم من مُشركي العرَب مع نهاية افتِتانهم بآلِهَتِهم وكمال ثَباتهم في مِلّتهم، علمنا أنّ هذا المدّعي للنبوّة كان قادراً على ما كان سائر الأنبياء قادرين عليه من المعجزات، وأتىٰ بخارِق عادةٍ دالٍّ على صِدقه كما أتى غيره من الأنبياء، وكان له من العلم ما كان لهم، ومن الأخلاق والأعمال ما يُشبِه أخلاقَهم وأعمالَهم، وإلّا لم يكَد يُمكن أن ينتَظِم آخره، ويَبهر نورُه، ويَزداد على الشَمس ظُهوره.

إن قيل: إنّ كتابه ناطِقٌ أنّه لم يكن له مُعجزة من مَعاجز موسى بن عمران عليه السلام حيث قال سبحانه: ﴿فَلَمّا جاءَهُمُ الحَقُّ مِنْ عِنْدِنا قالُوا لَوْلا أُوتِيَ مِثْلَ ما أُوتِيَ مُوسىٰ﴾[2] بل فيه آياتٌ دالّةٌ على أنّه لم يكن له معجزة أصلاً كقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّما الْغَيْبُ لِلّٰهِ﴾[3] ثمّ لم يُجبهم الرسولُ بأنّي قد جِئتُكم بما جاء به موسى أو: آتيكم بعدُ بِه، أو: أتيتكم بمِثل ما أتى به سائر الأنبياء والرّسل، بل أجابهم بقوله: ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِما أُوتِيَ مُوسىٰ مِنْ قَبْلُ﴾[4] أو قوله: ﴿فَقُلْ إِنَّما الْغَيْبُ لِلّٰهِ﴾ أو قوله: ﴿إِنَّمَا الآياتُ عِنْدَ اللّٰهِ وَإِنَّما أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾[5] وأمثال ذلك.

قلنا: إنّه يكفي في إثبات النبوّة إتيانُ أمرٍ خارقٍ للعادة بحيث يكون إيجادُ الله له بِيَدِ ذلك النبيّ تَصديقاً منه تعالى لِدَعواه، وإن لم يكن من أنواع إعجاز سائر الأنبياء، كما أنّه كان لكل واحِدٍ من أنبياء

---

١. في النسخة: علىٰ. ٢. القصص: ٢٨/٤٨. ٣. يونس: ١٠/٢٠. ٤. القصص: ٢٨/٤٨.
٥. العنكبوت: ٢٩/٥٠.

بني إسرائيل نوعٌ خاصٌ من الإعجاز، أو أنواعٌ مخصوصةٌ، ولم يكونوا مُتَوافقين على نوع واحدٍ أو أنواعٍ خاصّةٍ، فإنّ موسى عليه السلام كان له مُعجِزة العَصا، واليَد البَيضاء، وفَلْق البَحر، وسائر الآيات التِسع، لاقتِضاء زَمانه لها وعدم اقتِضائه لغَيرها، ولم يظهَر من عيسى عليه السلام هذه الأنواع من المُعجزات، بل ظهَر منه ما ناسَب زمانَه من إحياء الأموات وإبراء الأكمَه والأبرَص وغير ذلك.

فلازم النبوّة إتيان جِنس المُعجِزة كي يكونَ دليلاً على صِدق الدَعوى، فإذا أتىٰ مدّعي النبوّة بمُعجِزةٍ دالّةٍ على صِدق دَعواه، وجَب الإيمانُ به، والتَصديق بنبوّته، واتّباع أحكامِه، ولو لم يكن من الأنواع التي كانت لغيره.

نعم إذا توقّف هِداية شخصٍ على الإتيان بمسؤوله، وكانَ سؤاله عن إرادة الاهتداء لا عن التعنّت واللّجاج، كانَ على النبيّ إجابَة مسؤوله وإزالة شُبهَتِه، وأمّا إذا كان السؤال عن تعنّتٍ ولَجاجٍ بعد وُضوحِ الحقّ، فلم يحسن إجابة السائل المُتَعَنِّت، بل يجب جوابه بما يدلّ على تعنّته، كما أجابهم الله بقوله: ﴿أَوَ لَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسىٰ مِنْ قَبْلُ﴾ [١].

والغَرض من التقرير السابق، هو عِلمُنا من الأمارة القاطِعة بأنّه كان له عليه السلام معجزة ظاهِرة دالّة على صِدقه إجمالاً، ولو لم يكن من أنواع معجزات سائر الأنبياء عليهم السلام بل كان أقلّ، كتحرّك الشجَر من مكانه بأمرِه، أو تسبيحِ الحَصاة في يَدِه، أو أعظم كانشِقاق القمر، وإحياء الرّمم، فبعد ثُبوت إتيانِه بما كان مُشتَركاً مع معجزات سائر الأنبياء في جِنس الإعجاز، وإن كان مغايراً لها بالنوع، يظهَر صِدقه ويجب اتّباعه.

ولا يُنافي هذه الآيات ما ادّعيناه حيث إنّ الظاهر أنّ الكفّار سألوا إتيان الأنواع المَعهودة من سائر الأنبياء كموسى وعيسى، لا أنّهم سألوا صدور جِنس المُعجِزة منه صلى الله عليه وآله بل الكتاب العزيز دالٌّ بالصَراحةِ على أنّه كان له معجزةٌ وآيةٌ حيث قال: ﴿وَإِذَا جَاءَتْهُم آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتّى نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ آللهِ﴾ [٢] وقال في تقريع معارضته: ﴿وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ﴾ [٣] وأمثال ذلك.

ولمّا كان سؤالهم تعنّتاً لم يحسن إجابة مسؤولهم، ولذا لم يُجبهم إلّا بالتَقريع والتَبكيت كقوله: ﴿أَوَ لَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسىٰ مِنْ قَبْلُ﴾ [٤]، وقوله: ﴿الله أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [٥]، وقوله: ﴿إِنَّ الله

---

١. القصص: ٤٨/٢٨. ٢. الأنعام: ١٢٤/٦ ٣. القمر: ٢/٥٤. ٤. القصص: ٤٨/٢٨.

قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً وَلٰـكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[٦]، وقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلآيَاتُ عِنْدَ ٱللهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾[٧] إلى غير ذلك.

[٣] ـ ومنها: أنّ العاقل المُنصِف، البَصير ببَيانات الأنبياء والمُرسَلين، وكلمات الأولياء المُقرّبين، والحُجَج المعصومين، إذا تأمّل في الكتابِ العزيز ومَطاليه، وتدبّر في مَضامينه وجَوانبه، عَلِم أنّ هذه المَطالب المهمّة الشافية، بهذه البَيانات اللطيفة العالية الوافية، لايُمكن أن تصدر إلّا من لِسان النبوّة، وأنّ هذه الدُرَر الثمينة لا تخرج إلّا من مَعدِن الرسالة، وهذه الأنوار الباهِرة لا تُشرِق إلّا من عالَم الربوبيّة، حيث إنّه ليس فيه إلّا بيان التوحيد بأنواعه، من الذاتيّ والصِفاتيّ والأفعاليّ، وبيان الصفات الجلاليّة السلبيّة، والجَمالية الثبوتيّة، والحَثّ على القيام بالعُبودية، والدعوة إلى المُحَسّنات العقليّة كالعدل والإحسان وإيتاء ذي القُربى واليَتامىٰ والمَساكين والجارِ ذي القُربىٰ وابنِ السَبيل، وصِلة الرَحم، والوَفاء بالعقود والعهود وغير ذلك، والزَجر من المُنكَر والفَحْشاء والبَغي، وبَيان أحكام العِبادات والمُعاملات، وقوانين السياسات، والتَرغيب إلى تَهذيب الأخلاق، والزُهد في الدُنيا، والتوجّه إلى الآخِرة، وبَيان العِبَر والمَواعظ، وذِكر حُكم بَعض الأحكام، وقَصَص الأنبياء السالفة، وعظَمة شأنهم وتفصيل مَعاجزهم وكيفية دَعوتهم وشَرح معاملة أُمَمِهم معهم، واستئصال مَن خالفهم بالعَذاب، وبَيان المَعاد، وإقامة الأدلّة عليه وكيفيّة الحَشر والصِراط والميزان والحِساب، والتَلَطّف والعِتاب، وبَيان الجَنّة وكيفية نِعَمِها، وبَيان النّار وتَفصيل شَدائِدها.

وقال بعضٌ: إنّ القرآن العظيم قد اشتمَل على كلّ شيء، أمّا أنواع العلوم فليس منها بابٌ ولا مسألة هي أصل إلّا وفي القرآن ما يدلّ عليها، ولا يعلَمُها إلّا الراسِخون، وفيه الأمرُ والنَهيُ، والوَعدُ والوَعيدُ، ووَصْفُ الجنّة والنّار، وتعليمُ الإقرارِ بالله وبصِفاته وأفعالِه، وتعليمُ الاعتِراف بإنعامه، والشُكر عليها، والاحتِجاجُ على المخالفين، والرَدّ على المُلحِدين، وبيانُ الرَغبة والرَهبة، والخَير والشَر، والحَسَن والقَبيح، ونَعْت الحِكمة، وفَضل المعرفة، ومَدح الأبرار وذَمّ الفُجّار، والتسليم والتَحسين، والتوكيد والتقريع، وبيان الأخلاق الذَميمة، وشرَف الآداب.

وفيه عجائب المخلوقات، وملكوت السماوات والأرض، وما في الأُفُق الأعلى وتَحت الثَرى، وبَدْء الخَلق، وأسماء مَشاهير الأنبياء والرُسُل والملائكة، وعيون أخبار الأُمم السالفة، وقِصّة آدم مع

---

٥. الأنعام: ١٢٤/٦. ٦. الأنعام: ٣٧/٦. ٧. العنكبوت: ٥٠/٢٩.

إبليس في إخراجه من الجنّة، ورفع إدريس إلى السماء، وإغراق قوم نوح، وقِصّة عادٍ الأُولى والثانية، وثمود والناقة، وقوم يونس، وقوم شُعَيب، وقوم لوط، وقوم تُبّع، وأصحاب الرَّسّ، وقِصّة إبراهيم في مجادلة قَومه ومناظرته نمرود، وقصّة ابنه إسماعيل مع أُمّه بمكّة، وبنائه البيت، وقصّة الذَبح، وقصّة يوسف بطولها، وقصّة موسى في وِلادَته وإلقائه في اليَمّ، وقَتل القِبْطي، ومسيره إلى مَدْيَن وتزوّجه بنت شُعَيب، وكلامه تبارك وتعالى معه بجانب الطُور، ومجيئه إلى فِرعَون، وخروجه مع بني إسرائيل من مصر، وإغراق عدوّه فِرعَون وجنوده، وقصّةُ العِجْل، والقوم الذين خرَج بهم إلى الطُور وأخذتهم[1] الصاعقة، وقصّة القَتيل من بني إسرائيل، وذَبْح البقرة، وقصّتُه مع الخِضْر[2]، وقصّتُه في قتال الجبّارين، وقصّة القوم الذين ساروا في سَرَبٍ[3] من الأرضِ إلى الصّين، وقصّة طالوت وداود مع جالوت، وقصّةُ سليمان وفِتْنَته وخبَرهُ مع مَلِكة سبأ، وإتيان عَرْشها[4].

وقصّة القَوم الذين خرَجوا فِراراً من الطاعون، فأماتَهم الله ثمّ أحياهم، وقصّة ذي القَرْنَين ومسيرهُ إلى مَغرِب الشمس ومَطْلعِها، وبنائه السَدَّ، وقصّة أيّوب، وذي الكِفل، وإلياس، وقصّة أصحاب الرّقيم، وقصّة بُخْت نَصّر[5]، وقصّة الرَّجُلين اللذين لأحدِهما الجنّة، وقصّة أصحاب الجنّة، وقصّة مؤمن آل ياسين، وقصّة أصحاب الفيل.

وفيه من شأن النبي ﷺ دعوة إبراهيم به، وبشارة عيسى بمجيئه، وبعثته، وهجرته، ومن غَزَواته سَريّة ابن الحَضْرَميّ في سورة البقرة، وغَزْوَة بَدْر في سورة الأنفال، وغزوة أُحُد في سورة آل عمران، وقصّة بدر الصُغرى فيها، وغزوة الخَندق في سورة الأحزاب، وقصّة الحُدَيْبِيَة في سورة الفتح، وقصّة بني النَّضير في سوره الحَشر، وغزوَة حُنَين وتَبوك في سورة البراءة، وحجّة الوداع في سورة المائدة، ونكاحه زينب بنت جَحْش في سورة الأحزاب، وتحريم سُرِّيَّتِه وتَظاهُر أزواجه عليه، وقصّة الإفك، وقصّة الإسراء، وانشِقاق القَمر، وسِحْر اليَهود إيّاه.

وفيه بَدْءُ خَلقِ الإنسان إلى موته، وكيفية الموت وقبض الروح وما يفعل بها بعده، وصُعودُها إلى السّماء، وفتح باب السماء للروح المؤمنة، وإلقاء الكافِرَة في النّار، وعَذاب القَبر والسّؤال فيه، ومقرّ الأرواح، وأشراط الساعة الكُبرىٰ؛ وهي نُزول عيسى، وخروج الدّجّال، ويأجوج ومأجوج، ودابّة

---

١. في النسخة: وأخذهم.
٢. في النسخة: خضر.
٣. السَّرَب: الحفير تحت الأرض.
٤. في النسخة: عرشه.
٥. في النسخة: بخت النصر.

الأرض، والدُّخان، ورَفع القرآن، والخَسْف، وطُلوع الشَمس من مَغرِبها، وغَلق باب التَوبة، وأحوال البَعْث من النَّفَخات الثلاث: نَفْخَة الفزَع، ونَفْخَة الصَّعْق، ونَـفْخَة القِيام، والحَشْـر والنَشْـر وأهـوال المَوقف، وشِدّة حَرّ الشَّمس، وظِلّ العَرْش، والميزان، والحوض، والصِراط، والحِساب لقومٍ ونَجاة آخرين منه، وشهادة الأعضاء، وإيتاء الكتُب بالأيمان والشَمائل وخَلف الظَهر، والشَـفاعة والمـقام المحمود، والجنّة وأبوابها، وما فيها من الأنهار والأشجار والأثمار والحُليّ والأواني والقصور والحور والدّرجات ومَقام الرِضوان، والتَجَلّيات الإلٰهيّة، والنار وأبوابـها ومـا فـيها مـن الأوديـة والسَـلاسل والأغلال وأنواع العقارب وألوان العذاب والزقّوم والضَريع والحَميم.

وفيه جميع أسمائه تعالى الحُسنى كما ورد في حديث[1]، وجُمَلة أسماء النبيّ ﷺ.

وفيه شُعَب الإيمان، ومَقامات المُتّقين، وشرائع الاسلام، وأنواع الكبائر، وكثير من الصَغائر، وغير ذلك من العلوم.

وقد أفرَد جمعٌ من العُلماء كتُباً فيما تضَمّنَه القرآن. والظاهر أنّ جميع ما تـضمّنَه ظـاهِرُ الكِـتاب تحت ثلاثة عناوين:

التوحيد: ويدخُل فيه معرفة الله بصِفاته وأفعاله، ومعرفة أنبيائه ومخلوقاته.

والتذكير: وفيه قَصَص الأُمم الماضية، والمَعاد، والوَعد، والوعيد، والجنّة، والنار.

والأحكام: من العمليّات والأخلاقيّات.

قيل: ولذلك ورَد أنّ الفاتحة أمّ القُرآن لأنّ فيها الأقسام الثلاثة، وسورة الإخـلاص ثُـلُثه لأنّ فـيها التَّوحيد كلّه، فهل يأتي بمثل هذا الكتاب غير النبيّ ﷺ؟ وهل يكون الغَرض من بَعْث النبيّ ﷺ إلّا تكميل النُفوس بمَعرفة المَبْدَأ والمَعاد والحكمة النظريّة والحِكمة العمليّة من العبادات والمُعاملات والسِياسات والأخلاق وتربية النفوس بالقيام بها؟ وهل يُقاس القرآن بسائر الكـتُب السـماويّة التـي ليس فيها عُشر ما في القرآن من العلوم والحكم؟ فإن كان سائر الكتب السماويّة من عند الله ومنتَسِباً إلى الله، فهذا الكتاب الكريم أحَقّ وأولىٰ بالانتِساب منها، فإنّ جميع ما ذكرنا فهو ظاهِرُه، وأما باطنه فبَحرٌ لا يَنزِف ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى الأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللهِ﴾[2].

---

١. راجع التوحيد للصدوق: ١٩٤/٨.

٢. لقمان: ٢٧/٣١.

نُقل أنّه قيل لموسى بن عِمران: يا موسى، إنّما مَثَل كتاب أحمد في الكتُب بمَنزِلة وعاء فيه لَبَن، كلّما مَخَضْتَه أخرَجْت زُبْدَتَه.

الطّرفة الرابعة

في بيان سرّ نزول القرآن جملة إلى البيت المعمور في ليلة القدر

قد اتّفقت الأمّة من الخاصّة والعامّة، وتَظافرت بل تَواتَرت نصُوصُهم على أنّ الكِتابَ العزيز نزَل أوّلاً في ليلة القَدْرِ مجموعاً من اللّوح المَحفوظ إلى البَيت المَعمور الذي يكون في السماء الرابعة، أو إلى بيت العزّة في سَماء الدّنيا إلى السَّفَرة الكرام البَرَرة، ثمّ نزَل به جَبْرَئيل نُجوماً على خاتم النبيّين ﷺ في مُدّة عِشرين، أو ثلاث وعشرين، أو خَمس وعشرين سنةً على حسب اختِلاف العُلماء في مدّة إقامَتِه ﷺ بمكّة بعد بِعْثَتِه وقبل هِجرَته.

وقيل في سِرّ إنزالِه جُملةً أوّلاً إلى سَماءِ الدّنيا أو إلى البَيت المَعمور: إنّه تَفخيمُ أمرِ القرآن وأمر النبيّ الذي أُنزِل إليه، وذلك لأنّ فيه إعلام سُكّان السماوات السبع بأنّ هذا الكتاب آخر الكُتب، مُنزَلٌ على آخر الرُّسُل وخاتَمهم لأشرف الأُمم، قد قرّبناه إليهم لِتُنْزِلَهُ عليهم، ولولا أنّ الحكمة الإلهيّة اقتَضَت وُصولَه إليهم مُنَجَّماً بحَسَب الوقائع لنَزّلناه إلى الأرض جُملةً كسائر الكتُب المُنزَلة قبله، ولكنّ الله بايَنَ بينه وبينها، فجعَل لهذا النبيّ الكريم الأمرَين: إنزاله جُملةً، ثم إنزاله مُفرّقاً، تَشريفاً للمُنْزَل عليه.

وقيل: إنّ السّرّ هو تَسليمه تبارك وتعالى لهذه الأمّة ما كان أبرَز لهم من الحَظّ من الرّحمَة التي استَحَقّوها لأجلِ مَبْعَث محمّد ﷺ، وذلك أنّ بِعثَة محمّد ﷺ كانت رحمةً، فلمّا خرَجت الرحمةُ وفُتح بابُها جاءت بمحمّد ﷺ وبالقرآن معاً، فوُضِع القرآنُ ببيت العِزّة في السَماء الدّنيا ليَدخُل في حَدّ الدّنيا، ووُضِعت النبوّةُ في قَلب محمّد ﷺ، وجاء جَبْرئيل عليه السلام بالرسالة ثمّ بالوَحْي، كأنّه تعالى أراد أن يُسلّم إلى الأمّة الرحمة التي كانَت حظّها من الله.

وقيل: إنّ السّرّ في نُزولِه جُملةً إلى سَماء الدّنيا، تكريمُ بني آدم وتعظيمُ شأنهم عند الملائكة، وتَعريفُهم عنايةَ الله بهم ورحمَته لهم، ولهذا المعنى أمر الله سَبعين ألف مَلَك أن يُشَيّعوا سورة

الأنعام، وزاد سُبحانه في هذا المعنى بأن أمَرَ جَبْرَئيل بإملائه على السَّفَرةِ الكِرام وإنساخِهم إيّاه وتِلاوتهم له.

وفيه أيضاً التسوية بين نبيّنا ﷺ وبين موسى بن عمران وعيسى بن مريم عليهما السلام في إنزاله كتابَه جملةً كما أنزَل كِتابَيهما جُملتَين، والتَفضيلُ لمحمّد ﷺ في إنزالِهِ عليه مُنَجّماً لِحَكمٍ كثيرةٍ لا يعلَمُها إلّا الله.

أقول: يمكن أن يكون السّرُّ تكميلَ عالَم المَلَكوت ووجود الرّوحانيّين بإيجاد الكتاب الكريم فيهم، وتقريره أن يُقال: المُراد من إنزالِه إلى سماء الدُّنيا أو إلى البيت المَعمور هو إبداعه تعالى وإيجاده كتابه الكريم بوجوده الجوهري وصورته النوريّة في مَلكوت السّماء وعالم الأنوار، بعد وجوده في مكنون عِلمه المعبَّر عنه بالعَرْش تارةً وباللّوح المَحفوظ أُخرى.

ولمّا كان وجود خاتَم النبيّين ﷺ رحمةً للعالمين، حصَل ببَرَكَتِه استِعداد الكَمال لجَميع العَوالم الملكيّة والمَلَكوتيّة، وكما كان للكِتاب العَظيم تأثير عظيم بوجوده اللّفظي والكَتْبي في تكميل النُّفوس المستعدّة في عالم المُلك، كان لوجوده الجَوهريّ النّوريّ في عالَم المَلَكوت تأثيرٌ في تكميل وجود الذوات المُستَعِدّة المَلَكوتية والملكيّة، وبحُصول مرتَبة من الكمال الوجودي لعالَم الوجود صارَ مستحِقّاً لتزيينه بوجود خاتَم النبيّين، وتكميله ببِعْثَتِه، فَشمِلَته هذه الرّحمة العظيمة، وبعثَه الله فيه.

ثمّ بعد هذا الفَيض حصَل له استِعدادُ قَبولِ فَيضٍ آخَر، واستِحقاق رحمةٍ أتمّ من إنزال كتابه الكريم الذي هو تجلّي صِفاته التامّة في العَوالم، وكان إيجادُ الكتاب الكريم في عالم المَلَكوت تكميلَ الرّحمةِ على جميع المَوجودات الملكيّة والمَلَكوتيّة ببَركة وجود نبيّ الرّحمة ﷺ وإرسالِه رَحمةً للعالَمين.

ولعلّ هذا الوَجه الذي ذكرناه، أوجَه في الواقع، وأقرَب إلى الأذهانِ من الوَجهِ الذي ذكره الفَيض رحمه الله في مقدّمات (الصافي) فإنّه بعد نَقلِ الرّوايات الدالّة على نُزول القرآن جملةً إلى البَيت المَعمور في ليلة القَدر؛ قال: كأنّه أُريد به نُزول مَعناه على قلب النبي ﷺ كما قال الله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ ۞ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾[1] ثمّ نزَل في طولِ عشرين سنة نُجوماً مِن باطِن قَلبِه إلى ظاهِر لِسانه

---

١. الشعراء: ١٩٣/٢٦ و ١٩٤.

كلّما أتاه جَبْرَئيل بالوَحْي وقرأه عليه بألفاظِه.

إلى أن قال ﷺ: وبهذا التحقيق حصَل التَوفيق بين نُزوله تَدريجاً ودُفعةً، واستَرَحْنا من تكلّفات المُفَسّرين[١]، انتهى.

مع أنّه ليس فيما ذكرناه حَمل الروايات على خِلاف ظاهِرها، إذ من الواضح أنّه ليس المُراد من القرآن الذي نزَل في البيت المَعمور الأصوات المُعتَمدة على المَخارج، المُعبَّر عنها بالحروف والكلمات، ولا النُقوش المُنْطَبعة في الأوراق والصُّفَحات، بل وجوده الجَوهريّ، فإنّ له صورة في عالم الملَكوت مُغايرة لصُورته في هذا العالم، واستعمال لفظ الإنزال في معنى الإيجاد غير عزيز كما قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِن الأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾[٢] أي أوجَد لكم.

نعم في خبَر المُفَضّل إشعارٌ بتَوجيهه ﷺ حيث قال: قال الصادق عليه السلام: «يا مُفَضّل، إنّ القُرآن نزَل في ثلاث وعشرين سنَة، والله تعالى يقول: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى أُنْزِلَ فِيهِ القُرْآنَ﴾[٣]، وقال: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِيْنَ * فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أمْرٍ حَكِيمٍ * أَمراً مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾[٤]، وقال: ﴿لَوْلا نُزِّلَ عَلَيه القُرآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذٰلكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾[٥].

قال المُفَضّل: يا مَولاي، فهذا تنزيله الذي ذكره الله في كتابه، فكيف ظهَر الوَحْيُ في ثلاث وعشرين سنةً؟

قال: «نعم يا مُفَضل، أعطاه الله القُران في شهر رمضان، وكان لا يبلّغه إلّا في وقتِ استِحقاق الخِطاب، ولا يُؤدّيه إلّا في وقت أمرٍ ونَهيٍ، فهبَط جَبْرَئيل عليه السلام بالوَحْي فبلّغ ما يؤمَر به [وهو قوله: ﴿لا تُحَرِّك بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾»[٦].

فقال المُفَضّل: أشهَدُ أنّكم مِن عِلم الله عَلِمتُم، وبقُدْرَتِه قَدَرتُم، وبحُكْمِه نطَقْتُم، وبأمرِه تعمَلون[٧].

ويمكن حَمْله على ما ذكَرنا من الوجه، أو إبقاؤه على ظاهِره إن كان له ظُهورٌ فيما ذكره ﷺ من التوجيه والقَول بنُزوله في البيت المَعمور وفي قلب النبي صلى الله عليه وآله ولا منافاة بينَهما.

في بيان أسرار نزول القرآن العظيم نجوماً على النبي صلى الله عليه وآله

وأمّا سِرّ نُزوله نُجوماً، فكثيرٌ منه:

[١] ـ أنّه صلى الله عليه وآله بنُزوله نُجوماً كان يتحَدّى بكلّ نَجمٍ من آيةٍ أو سورةٍ تَنزِل عليه، ومن

---

١. تفسير الصافي ١: ٥٧. ٢. الزمر: ٦/٣٩. ٣. البقرة: ١٨٥/٢.
٤. الدخان: ٣/٤٤ ـ ٥. ٥. الفرقان: ٣٢/٢٥. ٦. القيامة: ١٦/٧٥. ٧. بحار الأنوار ٩٢: ٣٨.

الواضح أنّ عَجز الفُصَحاء عن الاتيان بمِثل كلّ واحدٍ من النُجوم أظهر في الإعجاز من عَجْزِهم عن إتيان مثل المَجموع إذا كان نُزوله جملةً واحِدةً إذا كان تحدّى به.

[٢] ـ ومنه: أنّ في إنزاله نجوماً كان لُطفاً على المؤمنين، حيث إنّه كان بنُزولِ نجمٍ يَزدادُ فرَحُهم ويقينُهم، كما قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيْمَاناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [١].

[٣] ـ وأيضاً: كان بنزولِ الآيات في مَواقع الجهاد يَزداد نَشاطُهم ورَغبتُهم وجِدُّهم فيه، وإذا نزَلت بهم بَليّة ثم نزَلت في شَأنهم آيةٌ، كان يَهون عليهم تلك البليّة، وإذا وقَعوا في تَعَبٍ وعَناءٍ، كان نُزول الآياتِ يُزيل تَعَبَهم وعَناءهم بتكميل بَصيرتهم ويقينهم.

[٤] ـ ومنه: أنّ مناسبة الوقائع، وخصوصيّات المَقامات، وانضمام القَرائن الحاليّة، كانت موجبةً لزيادة البلاغة.

[٥] ـ ومنه: أنّ نزول بعض الآيات رَدّاً على الكُفّار في مَواقع مُعارضَتِهم، أو إلقاء شُبُهاتهم، أو تهديداً لهم عند صدور استهزءاتهم والطعون منهم على الاسلام والمسلمين، أو زَجْراً لهم عند إرادتهم الفَساد في الدّين، كانَ أشَدّ تأثيراً في تَبْكيتهم وتقريعهم ورَدْعِهم وزَجْرِهم وهدايتهم وتبعهم إلى الايمان والانقياد للحقّ.

[٦] ـ ومنه: أنّ نزوله مُفرّقاً أدعى لقَبوله وتحمّل إطاعة أحكامه، بخلاف ما لو نزَل جُملةً واحدةً، فإنّه كان يَثقُل قَبولُه على كثيرٍ من الناس لكَثْرَةِ ما فيه من الفَرائض والمناهي.

رُوي عن عائشة أنّها قالت: إنما نزل أول ما نزل منه سورة من المفصّل [٢] فيها ذكر الجنّة والنار، حتى إذا ثابَ الناسُ إلى الإسلام نزل الحلال والحرام، ولو نزَل أوّل شيءٍ: لا تَشْرَبوا الخَمْر، لقالوا: لا نَدَع الخَمْرَ أبداً، ولو نزَل: لا تَزْنوا، لقالوا: لا ندَع الزِّنا أبداً [٣].

وعن الباقر عليه السلام قال: «ليس أحدٌ أرفَق من الله تعالى، فمن رِفْقِه تبارك وتعالى أنّه نقلهم من خَصْلَةٍ إلى خَصْلَةٍ، ولو حَمَل عليهم جُملةً واحدةً لهَلَكوا» [٤].

وفي رواية عنهم عليهم السلام: «أنّ الله تعالى إذا أراد أن يفرض فريضةً أنزَلها شيئاً بعد شيءٍ، حتّى يُوَطّن

---

١. التوبة: ٩/١٢٤.

٢. قيل: المفصل: مجموعة سور تبدأ من سورة محمد صلى الله عليه وآله إلى آخر القرآن، سميت بذلك لكثرة الفواصل بينها. تفسير الصافي ١: ١٨، وراجع: الطرفة (١٣).

٣. صحيح البخاري ٦: ١٤/٣١٨.

٤. الكافي ٦: ٣/٣٩٥، التهذيب ٩: ٤٤٣/١٠٢.

الناسُ أنفسَهم عليها، ويسكُنوا إلى أمرِ الله ونَهيه[فيها]، وكان ذلك من [فعل الله عزّ وجلّ على وجه] التدبير فيهم أصوَب وأقرَب لهم إلى الأخذ بها، وأقلّ لِنِفارِهم منها»[1].

أقول: ولعلّه إلى جميع الوجوه المذكورة أشار سبحانه وتعالى بقوله: ﴿وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلاً﴾ [2].

روي عن ابن عبّاس رضي الله عنه قال: أخَذ موسى الألواح بعد ما سكن[3] عنه الغضَب، فأمرَهم بالذي أمر الله أن يُبلّغَهم من الوظائف، فثقُلَت عليهم وأبَوا أن يُقِرّوا بها حتّى نَتَق الله عليهم الجَبل كأنّه ظُلّةٌ، ودَنا منهم حتّى خافوا أن يقَع عليهم، فأقَرّوا بها[4].

أقول: لعلّه من الآصار التي كانت على بني إسرائيل أنّه نزلَت التّوراة على موسى دُفعةً، وحمل عليهم جميع التّكاليف بَدْواً، فصار ثقيلاً عليهم، فأبوا عن قَبولِها.

الطّرَفة الخامسة

في أنّ جمع القرآن كان في عصر النبي صلى الله عليه وآله وبأمره

الحقّ الذي لا ينبغي أن يُعرَض عنه، هو أنّ جمع القُرآن كان في عصر النبيّ صلى الله عليه وآله وبأمرِه لشَهادةِ الآثار، وحكم العَقل، ومساعدة الاعتبار.

[أولاً]: أمّا الآثار فقد روي عن ابن عبّاس، قال: قلت لعُثمان: ما حَملكم [على] أن عمَدتُم إلى الأنفال وهي من المَثاني، وإلى براءة وهي من المِئين، فقَرَنْتُم بينَهما ولم تكتُبوا بينَهُما سطر ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ﴾ ووضَعتُموهما في السّبْع الطوال[5]؟

فقال عثمان: كان رسولُ الله صلى الله عليه وآله تنزِل عليه [السور] ذوات العَدد، فكان إذا نزَل عليه الشيء دعا بعض من كان يكتُب فيَقول: ضَعوا هذه الآيات في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا، وكانت الأنفال من أوائل ما نزَل بالمدينة، وكانت براءة من آخر القرآن نزولاً، وكانت قصّتها شبيهةً بقصّتها، فظننتُ أنّها منها، فقُبض رسولُ الله صلى الله عليه وآله ولم يُبيّن لنا أنّها منها، فمن أجل ذلك قرَنتُ بينَهما ولم أكتُب بينَهُما سطر

---

١. الكافي ٦: ٢/٤٠٧. ٢. الاسراء: ١٠٦/١٧. ٣. في الاتقان: سكت.

٤. الإتقان في علوم القرآن ١: ١٥٤.

٥. قيل: السبع الطوال هي السبع الأول بعد الفاتحة، والمئين من سوره الإسراء إلى سبع سور، سميت بذلك لأنّ كلّ منها على نحو مائة آية، والمثاني بقية السور. تفسير الصافي ١: ١٨، وراجع: الطرفة (١٣).

﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ﴾، ووضعتهما في السبع الطوال، انتهى[١].

فدلّت هذه الرواية على أنّ كُتّاب الوحي كانوا يكتُبون السُوَر والآيات في عَصر النبي ﷺ مجموعةً مرتّبة بأمره.

وعن أبي عبّدالله عليه السلام قال: «إنّ رسول الله ﷺ قال لعليّ عليه السلام: يا عليّ، القُرآن خَلف فِراشي في الصُحُف والحَرير والقَراطِيس، فخُذوه واجمَعوه، ولا تُضيّعوه كما ضيّعتِ اليهَودُ التّوراة. فانطَلق علي عليه السلام فجمَعه في ثَوبٍ أصفَر وخَتَم عليه في بَيته، وقال: لا أرتدي حتى أجمعه قال: كان الرجُل لَيَأتيه فيَخرُج إليه بغير رداء، حتّى جمَعَه»[٢].

قال: وقال رسول الله ﷺ: «لو أنّ الناس قرءوا القرآن كما أُنزِل، ما اختلف اثنان»[٣]. فإنّ الظاهر منه عدم تأخير أمير المؤمنين عليه السلام في امتِثال أمر النبيّ ﷺ وأنّه جمَعه في حياتِه.

وعن عبدالله بن عمرو بن العاص[٤]، قال: سمعتُ النبي ﷺ يقول: «خُذوا القرآنَ من أربعةٍ: من عبدالله بن مَسعود، وسالم، ومُعاذ، وأُبَيّ بن كَعْب»[٥].

وعن قَتادة، قال: سألتُ أنس بن مالك: مَن جمَع القرآن على عَهدِ رَسولِ الله ﷺ؟ قال: أربعة، كلّهم من الأنصار: أُبَيّ بن كَعْب، ومُعَاذ بن جَبَل، وزَيد بن ثابِت، وأبو زَيد. قلتُ: مَن أبو زَيد؟ قال: أحَد عُمومَتي[٦].

وعن ابن حجر: قد ذكر ابن أبي داود في من جمع القرآنَ قيس بن أبي صَعْصَعة[٧].

وروي عن غيره أنّ أبا زيد الذي جمَع القرآن اسمُه قَيس بن السَّكَن، إلى أن قال: وماتَ ولم يَدَعَ عَقِباً، ونحنُ ورِثناه[٨].

وعن ابن أبي داوُد: أنّه مات قريباً من وفاةِ رسول الله ﷺ فذهب عِلمُه ولم يُؤخَذ عنه[٩].

وقال أبو أحمَد العسكريّ: لم يجمَع القرآن مِن الأوس غير سعد بن عُبَيد[١٠].

---

١. مستدرك الحاكم ٢: ٢٢١.
٢. تفسير القمي ٢: ٤٥١.
٣. تفسير القمي: ٢: ٤٥١.
٤. في النسخة: عبيدالله بن عمر بن العاص، تصحيف، انظر تهذيب الكمال ١٥: ٣٥٧.
٥. الإتقان في علوم القرآن ١: ٢٤٤.
٦. الإتقان في علوم القرآن ١: ٢٤٤.
٧. الإتقان في علوم القرآن ١: ٢٤٩.
٨. الإتقان في علوم القرآن ١: ٢٤٩.
٩. الإتقان في علوم القرآن ١: ٢٥٠.
١٠. في النسخة: سعيد بن عبيد، تصحيف، انظر الطبقات الكبرى ٢: ٣٥٥.

وقال محمّد بن حبيب: سَعد بن عُبَيد أحَد من جمَع القرآن على عهد النبيّ ﷺ[1].

وعن قَتادة، عن أنَس قال: افتَخر الحيّانُ: الأوس والخَزرَج، فقال الأوس: منّا أربعة: مَن اهتزّ العرش له: سَعد بن مُعاذ، ومَن عدَلَت شَهادتُه شهادة رَجُلين: خُزَيمة بن ثابت، ومَن غَسَّلَته الملائكة: حَنْظَلة بن أبي عامِر، ومَن حَمَتْهُ الدَّبْرِ[2]: عاصِم بن ثابت. فقال الخَزرَج: مِنّا أربعةٌ جمَعوا القرآنَ لم يجمَعه غيرهُم[3].

وروي البخاري عن أنس، قال: مات رسول الله ﷺ ولم يجمَع القرآن غير أربَعة: أبو الدَرْداء، ومُعاذ بن جَبَل، وزَيد بن ثابت، وأبو زَيد[4].

قال بعض الفُحول: قد استَنكر جَماعةٌ الحَصْر في الأربعة[5].

وقال المازِني: لا يَلزم من قول أنَس: لم يجمَعه غيرُهم، أن يكون الواقع في نفس الأمر كذلك، إلى أن قال: وقد تمسّك بقَول أنَس هذا جماعةٌ من المَلاحِدَة، ولا مُتمسّك لهم فيه، فإنّا لا نُسلّم حَمْله على ظاهِره[6].

وعن القُرطُبي: قد قُتِل يوم اليَمامة سبعون من القُرّاء، وقُتِل في عَهد النبيّ ﷺ ببِئْر مَعونة مثل هذا العدد. قال: وإنّما خصّ أنَس الأربعة بالذِكر لشِدّة تعلّقه بهم[7].

أقول: الظاهر أنّ القُرّاء مع حِفْظِهم لجَميع القرآن كان عندهم مكتوباً جميعه، فإذا طعَنتِ الملاحِدة على القرآن، وأنكَروا تَواتُرَه، تَمسُّكاً برواية أنَس، فكيف لم يطعَنوا ولا يطعَنون على من اعتَقد أنّ القرآنَ لم يكن مَجموعاً في زمان النبيّ ﷺ بل كانت آياتُه وسُوَره متفرّقة عند النّاس ثمّ تصدّى لجَمْعِه بعد وفاة النبيّ ﷺ أبو بكر وعُمر، مع عدم عِلمهما بجَميع القرآن حتّى جمَعوه ـ على ما قيل ـ بشهادة شاهِدَين؟

وعن النسائي، عن عبدالله بن عمر، قال: جمعت القرآن فقرأتُ به كلّ ليلة، فبلَغ النبيّ ﷺ فقال:

---

١. المحبر: ٢٨٦، الإتقان في علوم القرآن ١: ٢٤٩.

٢. الدَّبر: النَّحل، وعاصم بن ثابت. يسمّى حَميّ الدَّبْر، وذلك لأنّه لما أُصيب يوم الرجيع أراد المشركون أن يأخذوا رأسه، فبعث الله سبحانه عليه مثل الظّلة من الدَّبر فحمته منهم، وكان قد عاهد الله تعالى ان لا يمس مشركاً ولا يمسه مشرك. أُسد الغابة ٣: ٧٣.

٣. الإتقان في علوم القرآن ١: ٢٤٧.

٤. صحيح البخاري ٦: ٢٥/٣٢١.

٥. الإتقان في علوم القرآن ١: ٢٤٥.

٦. الإتقان في علوم القرآن ١: ٢٤٥.

٧. الإتقان في علوم القرآن ١: ٢٤٥.

«إقرأهُ في شهر»[١].

وعن محمّد بن كَعْب القرطبي[٢]، قال: جمَع القرآنَ على عَهدِ رسول الله ﷺ خمسةٌ من الأنصار: مُعَاذ بن جَبَل، وعُبَادة بن الصامِت، وأُبَيّ بن كَعْب، وأبو الدَرْدَاء، وأبو أيوب الأنصاري[٣].

وعن ابن سيرين، قال: جمَع القرآنَ على عهد رسول الله ﷺ أربَعةٌ لا يُختَلف فيهم: مُعاذ بن جَبَل، وأُبَيّ بن كَعْب، وأبو زيد، واختلفوا في رَجُلَين من ثلاثةٍ: أبو الدَرْدَاء وعُثمان، وقيل: عثمان وتَـميم الداري[٤].

وعن الشّعبي، قال: جمَع القرآن في عهد رسول الله ﷺ ستّة: أُبَـيّ، وزَيـد، ومُـعَاذ، وأبـو الدَرْدَاء وسعد بن عُبَيد، وأبو زيد، ومُجَمِّع بن جارية قد أخَذه إلّا سورَتَين أو ثَلاثة[٥].

وعن أبي عُبَيد في كتاب (القراءات) أنّه ذكر القُرّاء من أصحاب النبيّ ﷺ فعَدّ من المُـهاجرين: الخُلفاءَ الأربَعة، وطَلْحَة، وسَعْد، وابن مَسعود، وحُذَيفة، وسالماً. وعَدّ ابن أبي داود من القُرّاء: تَميم الدّاري، وعُقْبَة بن عامِر[٦]. قال: وممّن جَمعه أيضاً أبو موسى الأشعَري[٧].

وروى في (الطبقات): أنّ امرأةً من الصحابيّات جمَعتِ القرآن. وروى عن أُمّ ورقة بنت عبدالله بن الحارث: أنّ رسول الله ﷺ كان يزورُها ويُسَمّيها الشهيدة رحمها الله، وكانت قد جَمعتِ القرآن[٨].

أقول: العجَب كلّ العجَب أنّ أحَداً من هؤلاء لم يَعُدّوا في مَن جمَع القرآن على عَهد النبيّ ﷺ أمير المؤمنين عليه السلام، بل روى ابنُ حَجَر وغيره من علماء العامّة أنّ علياً عليه السلام جمَع القرآن على ترتيب النُزول بعد وفاةِ النبيّ ﷺ[٩].

إن قيل: إنّ المُراد من جَمْعِ القُرآن في الروايات السابقة هو حِفْظُ جَميعِه لا تَدْوينُه في القَراطيس.

قلنا: هذا الاحتِمال في غاية البُعد، إذ لا يمكن عادةً أن ينحَصِر في زمانِ النبي ﷺ حُفّاظ جَميع القرآن في أربعةٍ أو خمسةٍ من الصَّحابة مع وُضوحِ اشتياق المؤمنين إلى تِلاوَةِ القُرآن، وكمالِ قـوّةِ

---

١. الإتقان في علوم القرآن ١: ٢٤٨.
٢. في النسخة: القرطبي.
٣. الطبقات الكبرى ٢: ٣٥٦.
٤. الإتقان في علوم القرآن ١: ٢٤٨.
٥. الإتقان في علوم القرآن ١: ٢٤٨.
٦. الإتقان في علوم القرآن ١: ٢٤٨.
٧. الإتقان في علوم القرآن ١: ٢٤٩.
٨. الطبقات الكبرى ٨: ٤٥٧، الإتقان في علوم القرآن ١: ٢٥٠.
٩. الطبقات الكبرى ٢: ٣٣٨، الصواعق المحرقة: ١٢٨.

حِفْظِهم، وكَونِ تلاوَة القُرآن وتعلّمه من أهمّ مشاغِلهم، وأفضَل عِباداتهم، بل الظاهِر أنّ المُراد من جَمع القُرآن هو تَدوينُه مع ما أفاده النَّبيّ ﷺ من تفسير آياتهِ، وبَيان مُعضِلاتِه، وكيفيّة قراءته وسائر العلوم الراجعة إليه.

وعلى هذا النحو من الجمع يُحمَل ما روته العامّة من أنّه لمّا بويع أبو بكر، وتخلّف عليّ عليه السلام عن بَيْعَتِه، وجلس في بيته، بعث إليه أبو بكر، وقال: ما أبطأك عنّي، أكَرِهتَ إمارَتي؟ قال عليّ عليه السلام: ما كرِهتُ إمارَتك، ولكِن آلَيتُ أن لا أرتَدي بردائي إلّا للصّلاة حتّى أجمَع القُرآن[١].

وكذا ما روي في (الاحتجاج) عن أبي ذرّ رضي الله عنه أنّه لمّا توفّي رسولُ الله ﷺ جمع عليّ عليه السلام القرآنَ، وجاء به إلى المهاجرين والأنصار وعرَضه عليهم، لما قد أوصاه بذلك رسول الله ﷺ، فلمّا فتحَه أبو بكر خرَج في أوّل صفحةٍ فتَحها فضائح القوم، فوَثَب عُمر وقال: أردُدْهُ يا عليّ، فلا حاجَةَ لنا فيه. فأخذَه عليّ عليه السلام وانصرَف[٢].

فإنّ خروج فضائح القوم فيما جمعه عليّ عليه السلام لذِكرِه شَأنَ نزولِ الآياتِ، فإنّ كثيراً منها نزَلت بسَبب عصيان أصحابه، كما روت العامّة أنّه بعد ما أجبر عمر زوجتَه على المُواقعة في ليلة الصِّيام حراماً، نزَل قوله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إلى نِسَائِكُمْ﴾[٣]، وأنّه بعد ما أبىٰ أبو بكر وعبدالرحمـٰن بن عَوْف وجمعٌ من الصَحابة عن قَبولِ آيةِ مُحاسَبة ما في النَّفْس، نزَل قولُه تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إلَّا وُسْعَهَا﴾[٤] وأنّه بعد ما شَرِب جمعٌ من الصَحابة الخمر وتكلّم بعضهم في حال السكر بالكفر نزلت آية تحريم الخَمْر[٥]، أنّه بعد ما قَتل اُسامة مُسلماً ألقى إليه السَلام بطَمَعِ الغَنيمةِ نزَلت آية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَاتَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إلَيْكُمُ السَّلامَ لَسْتَ مُؤْمِناً تَبْتَغُونَ عَرَضَ الحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾[٦] إلى غير ذلك ممّا ذُكِر في مواقعها.

والحاصل: أنّ الكتاب الذي جمَعه أمير المؤمنين عليه السلام كان فيه بَيان شأن نُزول الآيات، وأسماء الّذين نزَلت فيهم وأوقات نُزولها، وتأويل مُتَشابِهاتها، وتَعْيين ناسِخِها وَمَنسُوخِها، وذكر عامّها وخاصّها، وبَيان العُلوم المُرتَبِطة بها، وكيفية قراءتها.

---

١. الطبقات الكبرى ٢: ٣٣٨، الصواعق المحرقة: ١٢٨.
٢. الاحتجاج: ١٥٥.
٣. الدر المنثور ١: ٤٧٧، والآية من سورة البقرة: ٢/١٨٧.
٤. تفسير الرازي ٧: ١٢٥، والآية من سورة البقرة: ٢/٢٨٦.
٥. أسباب النزول: ٨٧.
٦. الدر المنثور ٢: ٦٣٤، والآية من سورة النساء: ٤/٩٤.

ويؤيّد ذلك أنّه نُقِل عن ابنِ سيرين أنّه قال: بلَغني أنّه كتَبه على تَنزيله، ولو أُجيبَ إلى ذلِك الكِتاب لوُجد فيه علم كثير[١].

ونقل عنه أيضاً أنّه قال: كتَب عليّ عليه السلام في مُصْحَفِه الناسِخ والمَنسوخ[٢].

بل يشهَد لِذلك ما رَواه الطَبَرْسِيّ في (الاحتجاج) في جملة احتِجاج أمير المؤمنين عليه السلام على جماعة من المهاجرين والأنصار أنّ طَلْحَةَ قال له في جملة مسائله عنه: يا أبا الحسن، أُريد أن أسألك عن مسألةٍ، رأيتُك خرَجتَ بثَوبٍ مَختومٍ، فقلتَ: «أيّها الناس، إنّي لم أزَل مُشتَغلاً برسول الله صلى الله عليه وآله بغُسله وكَفَنه ودَفْنه، ثمّ اشتغَلتُ بكتابِ الله حتّى جمَعتُه، فهذا كتابُ الله عندي مجموعاً، لم يَسقُط عنّي حرفٌ واحد».

إلى أن قال: فما يمنَعك أن تُخرِج كتابَ الله على الناس، وقد عَهد عُثمان حين أخذ ما ألّف عمَر فجُمع له الكِتاب، وحمَل النّاس على قراءة واحدة، فمزّق مُصحَف أُبَيّ بن كعب وابن مسعود وأحرَقَهما بالنّار؟

فقال له علي عليه السلام: «يا طَلْحَة، إنّ كلّ آية أنزَلها الله عزّ وجلّ على محمد صلى الله عليه وآله [عندي] بإملاء رسول الله صلى الله عليه وآله وخَطّ يدي [وتأويل كل آية أنزلها الله على محمّد، وكلّ حرام وحلال أو حدّ أو حكم أو شيء إليه تحتاج الأُمّة إلى يوم القيامة مكتوب بإملاء رسول الله صلى الله عليه وآله وخطّ يدي] حتّى أرْش الخَدْش»[٣].

قال طَلْحَة: كلّ شيء من صغيرٍ وكبيرٍ، أو خاصّ أو عامّ، كان أو يكون إلى يوم القيامةِ، فهو عندك مكتوب؟!

قال: «نعم، وسوى ذلك أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله أسرَّ إليّ في مرَضِه مِفتاحَ ألف باب [من العلم يفتح من كلّ باب ألف باب] ولو أنّ الأمّة مُنذُ قُبِض رسولُ الله صلى الله عليه وآله اتّبَعوني وأطاعوني، لأكلوا من فَوقِهم ومن تحت أرجُلِهم».

إلى أن قال: ثمّ قال طَلْحَة: لا أراك ـ يا أبا الحسَن ـ أجَبْتَني عمّا سألتُك عنه من أمر القرآن، ألا تُظهِره للنّاس؟ قال: «يا طَلْحَة، عَمْداً كفَفْتُ عن جَوابِك».

---

١. الاستيعاب ـ المطبوع بهامش الاصابة ٢: ٢٥٣.
٢. الإتقان في علوم القرآن ١: ٢٠٤.
٣. الأرش: دية الجراحات.

قال: فأخبِرني عمّا كتَب عُمر وعُثمان، أقُرآنٌ كلّه، أم فيه ما ليس بقُرآنٍ؟ قال: «يا طَلْحَة، بل قُرآنٌ كلّه». قال: «إنْ أخَذتُم بما فيه نَجَوتُم من النّار ودخَلتُم الجنّة، فإنّ فيه حجّتَنا وبَيان حقّنا وفَرض طاعَتِنا». قال طَلْحَة: حَسْبي إذا كان قرآناً فحَسْبي.

قال طَلْحَة: فأخبِرني عمّا في يدَيك من القرآن، وتأويله، وعلم الحلال والحرام، إلى مَن تدفَعُه، ومَن صاحِبُه بعدك؟ قال عليه السلام: «إنّ الذي أمرني رسول الله صلى الله عليه وآله أن أدفعَه إليه وصيّي وأولىٰ الناس بعدي بالنّاس ابني الحسَن، ثمّ يدفَعه ابني الحسن إلى ابني الحسين، ثم يَصير إلى واحِدٍ بعد واحِدٍ [من ولد الحسين] حتى يَرِدَ آخِرُهم على رسول الله صلى الله عليه وآله حَوْضَه [هم مع القرآن] لا يُفارِقونَه والقُرآنُ معهم لا يُفارِقُهم»[1].

وعن جابر عن أبي جعفر عليه السلام أنّه قال: «ما يستطيع أحدٌ أن يَدّعي أنّه جمَع القرآن كلّه، ظاهِره وباطِنه غير الأوصياء عليهم السلام»[2].

وعنه أيضاً، قال: سمِعتُ أبا جعفر عليه السلام يقول: «ما من أحَدٍ من النّاس يقول [إنّه] جمع القرآن كلّه كما أنزل الله إلّا كذّاب، وما جمَعه وما حَفِظه كما أنـزَل الله إلّا عليّ بن أبي طالب والأئمّة من بعده عليهم السلام»[3].

وممّا يؤيّد ما ذكرنا من كَونِ القرآن مجموعاً على عهد النبيّ صلى الله عليه وآله، بل يدلّ عليه، أنّ اسمَ الكِتاب لا يصِحّ إطلاقُه عُرْفاً إلّا علىٰ المَطالب المُجتَمِعة المُرتَّبة المُدوّنة في أوراقٍ مَنضودَةٍ لغرضٍ واحِدٍ، فإذا كانت مَطالب متفرّقة غير مدوّنة أو مدوّنة في أوراقٍ مُتَشَتّة، لا يُسمّى كتاباً، ولا شُبهَة أنّ الله تعالى بعدَ هِجرَةِ النبيّ صلى الله عليه وآله سمّى جميعَ ما أنزَله على النبيّ صلى الله عليه وآله كتاباً بقوله في سورة البقرة التي هي أوّل ما نزَلت في المدينة: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾[4].

وكذا النبيّ صلى الله عليه وآله أطلق على ما اُنزِل عليه لَفظ الكتاب على ما في كثير من الروايات المعتبرة، بل المُتَواتِرة، منها الرواية المتّفق عليها بين الخاصّة والعامّة من قوله صلى الله عليه وآله: «إنّي مُخَلِّفٌ فيكمُ الثّقَلين ما إنْ تمسّكتُم بهما لن تَضِلّوا: كتابَ الله، وعِتْرَتي أهْلَ بيتي» الخبر[5]. فإنّه نصّ في أنّه كان في ذلك الوقت

١. الاحتجاج: ١٥٣. ٢. بصائر الدرجات: ١/٢١٣. ٣. بصائر الدرجات: ٢/٢٣.

٤. البقرة: ٢/٢.

٥. معاني الأخبار: ١/٩٠ ـ ٥، صحيح مسلم ٤: ١٨٧٣ و١٨٧٤، سنن الترمذي ٥: ٣٧٨٦/٦٦٢ و: ٣٧٨٨/٦٦٣، مسند أحمد ٣: ١٤، ١٧ و٤: ٣٦٧، ٣٧١ و٥: ١٨٢، ١٨٩، سنن الدارمي ٢: ٤٣٢، مصابيح السنة ٤: ٤٨٠٠/١٨٥ و: ٤٨١٦/١٩٠.

آياتٌ وسُوَر مدوّنه مستحِقّة لإطلاق اسم الكِتاب عليها، ولا يمكن القول بأنّ هذا الإطلاق كان من باب المُشارَكة حيث[١] إنّه كان يعلم أنّ بعد وفاته ﷺ يُجمَع ما أُنزل عليه ويكون كتاباً، [لأنّا] نعلَم أنّ التَسمية كانت بعد تَدوين مقدار من السّور والآيات المُنزَلة وتحقّق مِصداق الكِتاب، ولذا لم يذكر في السور القِصار المكّيّة التي كانت من أوائِل ما نزَل لَفظ الكِتاب.

والحاصل: أنّ لفظَ الكِتاب بعدَ ثُبوتِ كَونِه حقيقةً عُرفيّةً في مَطالبَ مرتّبةٍ مجموعةٍ مدوّنةٍ ظاهرٌ في أنّ كلّ آية تضمّنته كقوله: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَابُ﴾ أو ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَابِ﴾ أو ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَابَ﴾ أو ﴿تِلْكَ ءَايَاتُ ٱلْكِتَابِ﴾[٢] نزلت بعد تحقّق مِصداقِه وتدوين سور وآيات مرتّبة مجموعة في أوراقٍ وصَفَحاتٍ أو أكتافٍ أو عُسُبٍ مجتَمِعة، ولا يلزَم الالتزام بنُزول جميع الآيات والسُوَر قبل هذا الإطلاق حتّى يعترض عليه بأنّه خِلاف الإجماع والمُتَواتِر من الأخبار من أنّ القرآن نزَل متدرّجاً إلى قُبَيل وَفاتِه بأيّامٍ أو ساعاتٍ.

نعم، يلزَم القول بتَغيير مِصداق الكِتاب صُغراً وكُبراً، بسبَب انضِمام ما ينزِل فيما بعدَ التَدوين إليه تدريجاً، فيرجِع الكَلامُ إلى أنّ جميعَ القرآن في كلّ زمانٍ، وكتاب الله في كلّ وقتٍ، كان مقداراً من هذا المَجموع الذي بأيدِينا، وبضمّ الآياتِ شيئاً فشيئاً بلَغ ما بلَغ.

فما ذكره المرتضى رضوان الله عليه من أنّ القرآنَ كان عَهدِ رسول الله ﷺ محموعاً مؤلّفاً على ما هو عليه الآن، وأن جماعةً من الصَّحابة مثل عبدالله بن مَسعود وأُبيّ بن كَعْب وغيرهما ختَموا القرآنَ على النبيّ ﷺ عّدة خَتَمات[٣]، حقّ غير مَخدوش، فإنّ المُراد جَمعُه وخَتمُه بمِقدار المُنزل في وقتِ الخَتْم والجَمع، فإنّ تمام القرآن كانَ في وقتِ الخَتْمِ ذلك المِقدار الذي خَتَموه، وليس مُراده خَتْم جميع ما أُنزِل إليه إلى حينَ وفاتِه.

ولَيْتَ شِعري، كيف قال عمر في مرَض النبيّ ﷺ بعد أمرِه بإحضارِ الدَواة والكَتِف: إنّ الرجُلَ لَيَهجُر، حَسبُنا كِتابَ الله![٤] مع كون آيات الكتاب متفرّقة بين الأصحاب، وعدم علم أحد غير أمير المؤمنين عليه السلام بجَميعها، وعدم معرفة مثل زيد بن ثابت بها، حتّى نُقل عنه أنه جمعها بشهادة الشهود

---

١. في نسخة: بملاحظة. ٢. البقرة: ٢/٢، السجدة: ٢/٣٢، الزمر: ٤١/٣٩، يونس: ١/١٠.

٣. مجمع البيان ١: ٨٤.

٤. راجع: صحيح مسلم ٣: ١٦٣٧/١٢٥٧، مسند أحمد ١: ٢٢٢، مسند أبي يعلى ٤: ٢٤٠٩/٢٩٨، البداية والنهاية ٥: ٢٠٠، تاريخ الطبري ٣: ١٩٣، تاريخ ابن خلدون ٢: ٤٨٥.

إلّا آية من سورة الأحزاب، فإنّه لم يَجدها إلّا عند خُزَيمة بن ثابت، فأدخَلها في القرآن بشَهادتِه وحده، ولم يكن غيرهُ مُطّلِعاً عليها!

وكيف لم يعترِض أحَدٌ على عمر بأنّك لا تَدري أينَ آيات الكتاب وعند مَن تكون؟ فعُلم أنّ الكتاب كان جَميعه مُعَيّناً مَعلوماً مشهوراً بين الأصحاب.

[ثانياً]: وأمّا حكم العَقْل فبَيانُه: أنّه لا شُبهة أنّ جَمْعَ الآياتِ كان من أهمّ الواجبات لأنّ فيه حِفظ أصلِها من الضَياع، وحِفظُ تَرتيبها ونَظمها من الاختِلال مع أنّ عليها مَدار شَرع الإسلام، وأساس الدّين والأحكام، ولم يكن للنبيّ ﷺ والمسلمين شُغْلٌ واجِب أهمّ منه إلّا الجِهاد، ولم يكن مُزاحماً به في أغلب الأوقات مع كون أمير المؤمنين عليه السلام وكثير من الصَحابة الخُلّصين غالب الحضور، وعنده ﷺ، وكان جمع القرآن وترتيبه في غاية السُّهولة، فكيف يُمكن القول بالتَسامح والتَساهل والتَسويف من النبيّ ﷺ وأمير المؤمنين عليه السلام والخُلّصين من الصَحابة في مدّة عِشرين سنة، وتأخير أمير المؤمنين عليه السلام هذا الواجب إلى بعد وفاة النبيّ ﷺ حتّى يقع كثير من الآيات معرضاً للتَغيير والضياع؟

والحاصل: أنّ جَمعَ الكِتاب وترتيبَ كلّ ما نزَل منه في كلّ وقتٍ وتَدوينَه ونَشْرَه، كانَ من أوجَبِ الواجبات وأهمّ الأمور، لوضُوحِ أنّه كان من أعظَمِ معجزات النبيّ ﷺ وأتمّ الدَلائل على صِدق النبوّة وأساس الشَريعة، ومأخذ الأحكام الإلٰهيّة، ولم يَكُن مُزاحماً بأهمّ منه في أغلب الأوقات، مع أنّا نعلَم أنّه كان أغلب أوقات النبيّ ﷺ والمؤمنين الصادِقين مصروفاً في العبادات، وأيّ عبادةٍ كان أهمّ من جَمع القرآن الذي كان بِجَمْعِه وحِفْظِه حِفْظُ الإسلامِ مع عِلْمِهم بكثرَةِ المُنافِقين والمُعانِدين للدّين مع إقدامِهم في مشاقّ الأمور لحِفظ الاسلام.

وكان جَمع القرآن عليهم في غاية السّهولة، خصوصاً على النبيّ ﷺ مع مُلازَمَة أمير المؤمنين عليه السلام لخِدْمَتِه في اللّيل والنّهار، فالمتأمّل المُنصِف يقطَع بوقُوع الجَمْع مُتَدَرجاً بتدرّج النُزول بأمرِ النبيّ ﷺ وخَطّ أمير المؤمنين صلوات الله عليه، يقطَع بجَمع كثيرٍ من المؤمنين له وتأليف نُسَخٍ كثيرةٍ منه، وعَرْضِها على النبي ﷺ وعدم تَساهلِ كثيرٌ منهم فيه، حيث لم يكن في زَمان النبيّ ﷺ عِلمٌ غير عِلم القرآن، ولم يكن للصَحابة حظٌّ وعِبادَةٌ أكثر من تِلاوة القرآن.

[ثالثاً]: وأمّا العادةُ والاعتِبار فبَيانُه: أنّه كان لعدّةٍ من أصحاب النبي ﷺ مَنصِب كتابَةِ الوَحْي، فلابدّ

لهم بحَسَب العادةِ [من] تَهيئة لوازِم الكتابة من القَلَم والمِداد والأوراق، أو غير ذلك من الأشياء القابلة للكتابة، حتّى لا يكون لهم تعطيل في مَوقع الحاجة والقيام بالوظيفة وحِفظ التّرتيب وإيراد كلّ سورةٍ أو آيةٍ في محلّها ومَوردِها، حتّى لا يَحْصُل لهم تحيّرٌ وكُلْفَةٌ في الكتابة، وبعيد غايته أنّهم كانوا يكتُبون الآيات في أوراقٍ مُتفرّقةٍ غير مُنتَظَمة، بحيث إذا أمرَهم النبي ﷺ أن يضَعوا آيةَ كذا في موضع كذا، كانوا يدوّرون[1] تلك الأوراق ويفتّشون الصّحائف المُتَشتّتة حتّى يجِدوا مَوقِعَها.

والحاصل: أنّ التأمّل الصادِق قاضٍ بأنّ الكُتّاب الذين كان منهم أمير المؤمنين عليه السلام كانوا قد جمَعوا جميع الآيات المُنزَلة على الترتيب الذي كان يأمرُهم به النبيّ ﷺ، ولم يكونوا غير مُعتَنين بجَمْعِه وتَرتيبه، ولا يُمكن القول بأنّهم كتَبوا الآيات في أشياء متفرّقة من غير ترتيب ونَظْمٍ إلى أن دَعا الله نبيّه ﷺ إلى جِواره، وتقمّص أبو بكر خِلافته، وأتّفق قَتل كثير من القرّاء باليَمامة، ولم تكن في جميع المدّة نُسخَةٌ مجموعة من الكتاب العزيز بين المسلمين، وكان أربعةٌ أو خمسةٌ من الصّحابة حافِظين لجَميع القرآن، وتالِين له عن ظَهر القَلب، وغيرَهم لم يكونوا مُطّلِعين إلّا بقليلٍ من آياته، وكان عند كلٍّ منهم جزء قليل منه حتّى صمّم أبو بكر وعمر لِخَوف ذَهاب القرآن، على جَمعِه وتَرتيبه وكتابة نُسخةٍ منه، كما رواه بعضُ العامّة.

روى البُخاري عن زَيد بن ثابت، قال: أرسل [إليّ] أبو بكر بعد مقتل أهل اليَمامة، فإذا عمر بن الخطّاب عنده، فقال أبو بكر: إنّ عمر أتاني فقال: إنّ القَتْل قد استَحَرّ[2] يوم اليَمامة بقُرّاء القرآن، وإنّي أخشى أن يَستَحِرّ بالقُرّاء في المواطن فيَذهَب كثيرٌ من القرآن، وإنّي أرى أن تأمُرَ بجَمعِ القرآن. فقلتُ لعمر: كيف نفعل شيئاً لم يفعَلْهُ رسول الله ﷺ؟ قال عمر: هو والله خيرٌ. فلم يزَل [عمر] يراجِعُني حتّى شرَح الله صَدْري لذلك، ورأيتُ الذي رأى عمر.

قال زيد: قال أبو بكر: إنّك [رجلٌ] شابٌّ عاقِلٌ لا نتّهِمُك، وقد كنتَ تكتُبُ الوَحْي لرسَولِ الله ﷺ، فتَتَبّعِ القرآن واجمَعْهُ. قال زيد: فوالله لو كلّفوني نَقْلَ جَبلٍ من الجِبالِ ما كان أثقَل عليّ ممّا أمرَني به من جَمع القرآن. قلت: كيف تفعلان شيئاً لم يفعَلْه رسول الله ﷺ. قال: هو والله خيرٌ.

فلم يزَل أبو بكر يُراجِعني حتّى شرَح الله صَدْري للّذي شرَح له صَدر أبي بكر وعمر، فتتبّعت

١. كذا، ومراده يبحثون، والكلمة عامية عراقية تؤدّي هذا المعنى.

٢. اسْتحرَ القَتْلُ: اشتدّ.

القرآنَ أجمَعُه من العُسُبِ واللِخاف[١] وصدور الرِجال، ووجدت آخِر سورة التَوبة مع أبـي خُـزَيمة الأنصاريّ لم أجِدْها مع غيره ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [٢] حتّى خاتِمة براءة، فكانت الصُحُف عند أبي بكر حتّى توفّاه الله، ثمّ عند عُمَر حياتَه، ثمّ عند حَفْصَة بنت عمر [٣].

وعن اللّيث بن سَعد، قال: أول من جمَع القرآن أبو بَكْر، وكتَبَه زَيد، وكان الناسُ يأتونَ زيـد بـن ثابت، فكان لا يكتُب آيَةً إلّا بشهادة عَدْلَين، وإنّ آخر سورة براءة لم توجد إلّا مع خُزَيمة بن ثابت، فقال: اكتبوها،فإنّ رسول الله ﷺ جعَل شهادتَه بشهادةِ رجلين، فكتب. وإنّ عُمَر أتـىٰ بآيـةِ الرَّجْـم (الشيخ والشيخة إذا زَنَيا فارجمُوهما بما قَضيا من اللّذّةِ نكالاً من الله والله عزيز حكيم) [٤] فلم يكتُبها لأنّه كان وحده [٥].

وعن ابن أبي داود، قال: قَدِم عمر وقال: من [كان] تلقّى شيئاً من القرآنِ من رسول الله ﷺ فليأتِ به. وكانوا يكتبُون ذلك في الصُحُف والألواحِ والعُسُب، وكان لا يقبَل من أحدٍ شيئاً حتّى يَشْـهَدَ شيهدان [٦].

وعن [ابن] أبي داود: أنّ عمر سأل عن آيةٍ من كتابِ الله، فقيل: كانت مع فُلان، قُتِل يوم اليَمامة. فقال: إنّا لله، وأمَر بجَمْعِ القرآن، فكان أوّل مَن جمَعه [٧].

أقول: لَعَمْري، إنّ في هذه الأخبار تَضعيفُ الثَقل الأكبَر وتَوهينُ نبوّة خاتَم النبيّين ﷺ وتَخريبُ أساس الدّيـن، وتَـلقينُ المُـلحِدين الحجّة فـي إنكـارِ تَـواتُـرِ الكِـتاب المُـبين، وليس بـبَعيدٍ مـن

---

١. العُسُب: جمع العَسيب، وهي جريدة النَخْل المستقيمة، يُكشط خوصها، واللِخافُ: جمعُ اللَّـخْفَة: وهـي حـجرٌ أبيضٌ عريضٌ رقيق.
٢. التوبة: ١٢٨/٩.
٣. صحيح البخاري ٦: ٨/٣١٤، الإتقان في علوم القرآن ١: ٢٠٣.
٤. من الثابت أن القرآن الكريم نقل إلينا بالتواتر، وقد نقلته الجماعة عن الجماعة وذلك مقطوع به عند جميع أهل الإسلام، وآية الرجم المزعومة منقولة بالآحاد، بدليل قوله في آخر الحديث (فلم يكتبها لأنه كان وحده) والقرآن لا يثبت إلّا بالتواتر، وعليه فإن أمثال هذه الروايات لا يؤخذ بها في إثبات القرآن الكريم، فإن أمكن حملها على أحد وجوه الحمل وإلّا فليضرب بها الجدار.
وقد حمل ابن حزم في (المحلّى) آية الرجم على نسخ التلاوة، أي مما نسخ لفظه وبقي حكمه. هو حمل باطل، لأنها لو كانت منسوخة التلاوة لما جاء عمر ليكتبها في المصحف. وفي برهان الزركشي ٢: ٤٣ أن ابن ظفر أنكر في (الينبوع) عدّها مما نسخ تلاوةً وقال: لأنّ خبر الواحد لا يثبت القرآن. وحملها أبو جعفر النحاس على السنة حيث قال: ليس حكمها حكم القرآن الذي نقله الجماعة عن الجماعة، لكنها سنة ثابتة. راجع: سلامة القرآن من التحريف: ٦٤.
٥. الإتقان في علوم القرآن ١: ٢٠٦.
٦. الإتقان في علوم القرآن ١: ٢٠٥.
٧. الإتقان في علوم القرآن ١: ٢٠٤.

المُستَضْعِفِينَ للثَقَل الأصغَر والمُنكِرين لإمـامة أمـير المـؤمنين عليه السلام والمُـعرِضين عـن أهـلِ الذِكـر والحُجَج المَعصومين.

وليتَ شِعْري، ما ألجأ عمر وأبا بكر إلى التوسّل بزيد بن ثابت الشابّ الحَدَث في جمع الكـتاب الكريم مع عدم عِلمه بجَميع الآيات، وأمير المؤمنين صلوات الله عليه بين أظهُرِهم، وهو باتّفاق الأُمّة أعلَم الناسِ بكتابِ الله بعد رسول الله صلى الله عليه وآله؟!

وما السَبب في اعتِمادهم بشهادَة شاهِدَين في كون شيءٍ من كتابِ الله إلّا في آيتَين من آخِر براءة فاكتَفوا فيه بشَهادة خُزَيمة ولم يُراجعوا إلى عليّ بن أبي طالب صلوات الله عليه في شيءٍ مع أنّه كان عنده جميع القرآن، وكان أصدَق وأوثق من خُزَيمة وسائر الأُمّة؟

وكيف قال عمر بعد سؤاله عن آيةٍ من الكتاب واطّلاعه على كَونِها عند قَتيل اليَمامة: إنّـا لله، مـع عِلمه بأنّه لم يَفُت عن أميرالمؤمنين صلوات الله عليه شيءٌ من الآيات، وأنّه لم يكـن يكـتُم آيـات الكِتاب من البَرّ والفاجر؟

الطّرفة السادسة

في أنّ القرآن العظيم جُمع ثلاث مرات أحدها كان بحضرة النبي صلى الله عليه وآله

قال الحاكم في (المستدرك): جُمع القرآن ثَلاث مرّات: أحدها بحَضرةِ النبيّ صلى الله عليه وآله واستدل بحديثِ زيد بن ثابت، قال: كُنّا عند رسول الله صلى الله عليه وآله نُؤلّف القرآن من الرِقاع[1].

الثانية: بحضرة أبي بكر ـ وأستدلّ برواية البُخاري عن زَيد بن ثابت، من بـلوغ خَـبر مـقتَل أهـل اليمامة، وقول عُمر: أنّ القَتل قد استَحَرَّ بقُرّاء القرآن يوم اليمامة .. إلى آخره[2] ـ وقد مرّ ذِكرُه في الطُرفة السابقة.

وعن الحارث المُحاسبي في كتاب (فهم السنن): كتابة القرآن ليست بمُحْدَثَة، فإنّه صلى الله عليه وآله كان يأمُر بكتابته، ولكنّه كان مُفرّقاً في الرّقاع والأكتاف والعُسُب، فإنّما أمر الصدّيق بنَسْخِها من مكانٍ إلى مكانٍ مجتمعاً، وكان ذلك بمَنزِلة أوراق وُجِدت في بيتِ رسولِ الله صلى الله عليه وآله فيها القرآن منتَشِرٌ فجمَعها جامِع،

---

١. مستدرك الحاكم ٢: ٢٢٩.

٢. صحيح البخاري ٦: ١٣٥/١٩٩.

وربطها بخَيطٍ حتّى لا يَضيع منها شيء.

قال: فإنْ قيل: كيف وقعَت الثِقَة بأصحاب الرِقاع وصدور الرجال؟

قيل: لأنهم كانوا يبدون عن تأليف مُعجز ونَظْم معروف، قد شاهدوا تِلاوتَه من النبي ﷺ عشرين سنة، فكان تزوير ما ليس منه مأموناً، وإنّما [كان] الخوفُ من ذَهاب شيء من صُحُفه.

وقد تقدّم في حديثِ [زيد] أنّه جمَع القرآن من العُسُب واللِخاف. وفي رواية: والرِقاع، وفي أُخرى: من قِطَع الأديم، وفي أُخرى: والأكتاف، وفي أُخرى: والأضلاع، وفي أُخرى: والأقتاب[١].

قال الحاكم: والجَمع الثالث هو ترتيب السور في زمن عثمان[٢].

روى البُخاري عن أنَس، أنّ حُذَيفةَ بن اليَمان قَدِم على عُثمان، وكان يُغازي أهلَ الشّام في فَتْح إرمينية وآذربيجان مع أهل العِراق، فافزع حُذَيفة اختِلافهم في القراءة، فقال لعثمان: أدرِك [هذه] الأمّة قبل أن يختلِفوا [في الكتاب] اختِلاف اليَهود والنّصارى، فأرسَل إلى حَفصَة أن أرسِلي إلينا بالصحف نَنْسَخها في المَصاحف، ثمّ نردّها إليك، فأرسَلت بها حَفْصَة إلى عُثمان، فأمر زيد ابن ثابت، وعبدالله بن الزبير، وسعيد بن العاص، وعبدالرحمن بن الحارث بن هشام، فنَسخوها في المَصاحِف، وقال عُثمان للرَهْط القرشيّين الثلاثة: إذا اختَلَفتم أنتُم وزيد بن ثابت في شيءٍ من القرآن، فاكتُبوه بلسانِ قُرَيشٍ فإنه إنّما نزَل بلسانهم، ففعَلوا، حتّى إذا نَسخوا الصُحُفَ في المصاحف، ردّ عُثمان الصُحفَ إلى حَفْصَة، وأرسَل إلى كلّ أُفق بمُصْحَفٍ ممّا نسَخوا، وأمر بما سِواه من القرآن في كلّ صحيفةٍ أو مُصحَفٍ أن يُحرَق.

قال زَيد: ففقدت آية من الأحزاب حين نسَخنا المُصْحَف، قد كنتُ أسمَعُ رسول الله ﷺ يقرأ بها، فالتَمَسْناها فوجَدْناها مع خُزَيمة بن ثابت الأنصاريّ ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَـاهَدُوا ٱللهَ عَلَيْهِ﴾[٣] .. الآية، فألحَقناها في سورتها في المُصْحَف[٤].

وقال جمعٌ من العامّة: إنّ جمعَ عُثمان كانَ لمّا كَثُر الاختِلاف في وجوه القراءة حتّى قرأوه بلغاتهم على اتّساع اللُغات، فأدّى ذلك بعضَهم إلى تخطِئة بعضٍ، فخَشِيَ من تَفاقُم الأمر في ذلك، فنَسخ تلك الصُحُف في مُصحَفٍ واحِدٍ مرتّباً لسوره، واقتَصر من سائر اللغات على لغةِ قريش، مُحتَجّاً بأنّه

---

١. الإتقان في علوم القرآن ١: ٢٠٦.
٢. مستدرك الحاكم ٢: ٢٢٩.
٣. الأحزاب: ٢٣/٣٣.
٤. صحيح البخاري ٦: ٩/٣١٥.

نزَل بلُغَتِهم[١].

وقال الحارث المُحاسِبي: المشهور أنّ جامع القرآن عثمان، وليس كذلك، إنّما حَمل عثمان الناس على القراءة بوجهٍ واحدٍ على اختيار وقَع بينَه وبين من شَهِده من المُهاجرين والأنصار لمّا خَشِي الفِتْنَةَ عند اختِلاف أهلِ العِراق والشّام في حروف القراءات[٢].

أقول: الظاهر من بعض الروايات، وجمع من العُلماء، أنّ الجمعَ الذي وقَع في زمان النبي ﷺ كان مشتَمِلاً على العلوم المرتبطة بالقرآن، من بيانِ شأنِ نزولِ الآيات، ومن التفسيرات والتأويلات المأخوذ من النبي ﷺ ووجوه القِراءات، كما نقل عن ابن سيرين أنّه قال: بلغَني أنّه كتَبه عليٌّ عليه السلام على تَنزيله، ولو أُجيب إلى ذلك الكتاب لوجد فيه علمٌ كثير[٣].

وقال: إنّه كتَب في مُصحَفِهِ الناسِخَ والمَنْسوخ[٤].

وقال بعض العامّة: قد كان بعض الصَحابة يُدخِلون في قراءتهم شيئاً من التفسير إيضاحاً، لأنّهم مُحَقّقون فيما تَلَقّوه من رسول الله ﷺ قرآناً، فهم آمنون من أن يَلبِس بعضُ ذلك ببعضٍ، وربّما كان يكتُبه بعضُهم[٥]، كقراءة ابن عباس: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ﴾[٦] ثمّ يزيد[٧] (في مواسم الحَجّ)[٨].

أقول: ولعلّ قِراءة بعض الآيات المَنسوبة إلى عبدالله بن مَسعود من هذا القبيل، كقراءته قولَه تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً واحِدَةً﴾ فَاخْتَلَفُوا ﴿فَبَعَثَ ٱللهُ ٱلنَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ ومُنْذِرِينَ﴾[٩].

ثم إنّه لمّا كان في هذا الجَمع فَضائح القوم؛ أسقَط أبو بَكْر شَأنَ نُزول الآيات وتَفسيرها وتأويلها، وجمَعه ثانياً مع إثباتِ وجوه القِراءات، ثمّ في زمانِ عُثمان لمّا كثُر الاختِلاف جمَعه ثالثاً على قراءة زَيد بن ثابت، وحمَل الناس على قراءته، وأسقط سائر القراءات وأحرق مصاحف الكُمّلين من قرّاء الصحابة كعبدالله ابن مسعود وأُبَيّ بن كَعْب وغيرهما.

ونُقِل عن ابن مسعود ما يَقرب من هذا المَضمون: لو كان لي مثل ما لهم لفَعلتُ بصُحُفِهم مثل ما

---

١. الإتقان في علوم القرآن ١: ٢١٠.
٢. الإتقان في علوم القرآن ١: ٢١١.
٣. الاستيعاب ـ المطبوع بهامش الاصابة ٢: ٢٥٣.
٤. الإتقان في علوم القرآن ١: ٢٠٤.
٥. النشر في القراءات العشر ١: ٣٢.
٦. البقرة: ١٩٨/٢.
٧. أي بعد الآية للتفسير والايضاح.
٨. صحيح البخاري ٦: ٤٤/٥٩.
٩. البقرة: ٢١٣/٢.

فعَلوا بصَحيفَتي، ولقد قرأت على رسول الله ﷺ سبعين سورةً، وكان زيد بن ثابت في صُلبِ أبيه الكافر ـ أو قال: ـ كان يلعَبُ مع الصِّبيان[١].

الطّرْفة السابعة

في أنّ ترتيب سور القرآن وآياته كان بأمر الله ووحيه

لاريَب في أنّ لآياتِ الكتاب العزيزة وسُوَرِه ترتيباً مَرْضيّاً عند الله، ثابتاً في اللَّوحِ المَحفوظ، مُنزّلاً على النبيّ ﷺ بواسِطة جَبْرَئيل عليه السلام، لأنّ حُسنَ التَرتيب والنَظْمِ مِمّا له مَدْخَلٌ تامٌّ في حُسنِ الكتاب، وفي القرآنِ المجيد الذي هو أحسَن الكُتب، ومَطالِبُه أحسَن الحديث، والعلومُ المُنْطوِية فيه أشرَف العلوم وأعلاها، وبَيانُه في الفَصاحةِ والبَلاغةِ فوق طَوْقِ البَشر، لابُدّ من أن يكونَ تَرتيبُه على أحسنِ الوجوه، ونَظمُه أحسَن النِظام، بَلْ قال بعضُ العلماء: إنّ حُسنَ نَظْم آياتِ القرآن وسُوَره من وجوه إعجازِه، ومن بدائع اُسلوبه، وعلى هذا لابدّ أن يكونَ نَظمُه وترتيبُه من قبل الله تعالى، ولا يكون من البشَر، ويؤيد ذلك أنّ الله تعالى أضاف الكتاب الكريم إلى ذاتِه المُقدّسَة.

ومن الواضح أنّ الكِتابَ اسمٌ لمَجموعِ المَطالِب المُرتّبة المُنَظّمة، فإذا ألّفَ أحَدٌ الأحاديثَ النبويةَ وبوَّبَها وَرتّبَها في دفترٍ، أو جمَع شخصٌ خُطَبَ أمير المؤمنين عليه السلام في ديوانٍ، منضّماً ومُرَتَّباً، لا يُنسَب ذلك الدفتر والديوان إلى النبيّ، وأمير المؤمنين صلوات الله عليهما، بل يُضاف إلى المؤلّف والجامع، وعلى هذا يدلّ إطلاقُ كتاب الله في الآيات الكريمة، والروايات المُتَواتِرة على هذه المَجموعة المرتّبة المُنظّمة، على أنّ علومَها وعباداتها ونَظْمها وتَرتيبها وتأليفها من الله تعالى، لا شريك له فيها من خَلقهِ.

ويدلّ على ذلك ما روي عن عُثمان بن أبي العاص، قال: كنتُ جالساً عند رسول الله ﷺ إذ شَخَص ببَصرِه ثمّ صوّبَه، ثمّ قال: أتاني جَبْرَئيل، فأمرني أن أضَع هذه الآية هذا المَوضِع من هذه السورة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِالعَدْلِ وَٱلإِحْسَانِ وَإِيْتَاءِ ذِى ٱلْقُرْبىٰ﴾[٢] إلى آخرها[٣].

---

١. مستدرك الحاكم ٢: ٢٢٨.
٢. النحل: ١٦/ ٩٠.
٣. مسند أحمد ٤: ٢١٨، الإتقان في علوم القرآن ١: ٢١٢.

وما روي من أنّ جَبْرَئيل عليه السلام لمّا أتىٰ بآية: ﴿وَٱتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَىٰ اللهِ﴾[١] قال: ضَعْها بَين آيتَي الرِبّا والدَّين[٢]. وفي روايةٍ: ضَعْها بعد مائتين وثَمانين آية من سورة البقرة[٣].

وما روي عن النبي صلى الله عليه وآله قال: «أُعطيتُ مكانَ التَوراة السَبْع الطِوال»[٤]، وغير ذلك من الروايات.

وممّا ذكَرنا ظهَر أنّه بعد ما ثبَت أنّ جمعَ الكتاب الكريم كان في زمان النبي صلى الله عليه وآله وبأمرِه، لابُدّ من القَول بكَونِ تَرتيب جَميع آياتِه وسُوَرِه مُطابقاً للتَرتيبِ الذي أوحىٰ اللهُ به إلىٰ نبيّه صلى الله عليه وآله، ومُوافِقاً لِما نزَل به جَبْرَئيل عليه السلام، فكلّما نزَل من الآيات والسُوَر كان يأمُر النبيّ صلى الله عليه وآله كُتّابَ الوَحْـي بِكـتابَتِها فـي مَوضِعها الذي يأمُر جَبْرَئيل بَوضْعِها في ذلك المَوضع، مع أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله كما كان مأموراً بتَبليغ أصلِ الآيات والسور إلى الأمّة، كانَ مأموراً بتبليغِ نَظْمِها وتَرتيبها إليهم، ولا يُمكن منه التَقصير في التبليغ وأداءِ وظيفة الرِسّالة، فكلّ مَن كانَ حافِظاً للآيات والسُوَر، كان عالماً بتَرتيبها ونَظْمِها، وكلّ مَن جمَع القرآن في عصره صلى الله عليه وآله كان جَمعه على الترتيب المأمور به، مع أنّ كثيراً من الصحابة كانوا يَعرِضون على النبي صلى الله عليه وآله كلّ ما حَفِظوه من القرآن أو جمَعوه، فلو لم يكن على التَرتيب المُنزَل لكان النبيّ صلى الله عليه وآله يُغيِّره.

فتحصّل من جميع ذلك أنّ كلّ ما كتبه كُتّاب الوَحْي، وكلّ ما جمعه الصّحابة من القرآن في عصر النبيّ صلى الله عليه وآله، لا جرم كان مُوافِقاً في النَظْم والتَرتيب لما كان له من النَظْم في اللّوح المَحفوظ.

ويؤيّد ذلك ما روي عن ابن الزُبَير، قال: قلتُ لعثمان: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوفَّوْنَ مِـنْكُمْ وَيَـذَرُونَ أَزْوَجاً وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعاً إِلَىٰ الحَوْلِ﴾[٥] قد نسَختها الآية الأُخرى فلم تكتبها أو[٦] تَدَعها؟ قال: يا بـن أخي لا أُغيِّر شيئاً منه من مكانه[٧].

وما رواه مسلم، عن عمر، قال: ماسألتُ النبيّ صلى الله عليه وآله عن شيءٍ أكثَر ممّا سألتُه عن الكلالة حتّى طعَن بإصبَعِه في صدري، وقال: «تكفيك آية الصَيف[٨] التي في آخِر سورة النساء»[٩].

---

١. البقرة: ٢/٢٨١. ٢. الإتقان في علوم القرآن ١: ٢١٧. ٣. تفسير الرازي ٧: ١٠٤.
٤. الإتقان في علوم القرآن ١: ٢١٨. ٥. البقرة: ٢/٢٤٠. ٦. في المصدر: ولم.
٧. الإتقان في علوم القرآن ١: ٢١٣.
٨. قال الجزري في شرح الحديث: أي التي نزلت في الصيف، وهي الآية التي في آخر سورة النساء، والتي في أولها نزلت في الشتاء. النهاية ٣: ٦٨. ٩. الإتقان في علوم القرآن ١: ٢١٣.

وما روَتهُ عائشة من أنّ النبيّ ﷺ كان يقرأ في الليل سورة البقرة، وآل عِمران، والنساء[١].

وقال السيد المرتضى رضوان الله عليه: إنّ القرآن كان يُدرس ويُحفَظ جميعُه في ذلك الزمان، أي عصر النبيّ ﷺ - إلى أن قال: - وإنّ جماعةً من الصحابة مثل عبدالله بن مَسعود وأُبيّ بن كَعب وغيرِهما ختَموا القرآن على النبيّ ﷺ عدّة خَتَمات، وكلّ ذلك يدلّ بأدنى تأمّل على أنّه كان مجموعاً مرتّباً غير مبتورٍ ولا مبثوث[٢].

أقول: كلّ ذلك يورِثُ القَطْعَ بأنّ ترتيبَ الآياتِ والسُوَر لم يكن بأهواءِ الصَّحابة وسلائقهم، بل كان بِوَحْي الله وأمرِ رَسولِه ﷺ.

الطّرفة الثامنة

في أنّ ترتيب القرآن ليس بترتيب النزول بل لمناسبات لطيفة

لا شُبْهَةَ في أنّ التَرتيب المُقّرر عند الله، المُنَزل على النبيّ بينَ الآيات والسُوَر لمُناسبات لطيفة، ورَوابطَ مُنيفة، ونُكَتٍ بديعةٍ، وحِكَمٍ بليغةٍ لا يعلَمُ جَميعها إلاّ الله والراسخون في العِلم، ولا يُدرِكها إلّا مَن نوَّر الله قلبَه، وخَصَّ بالانقياد ربَّه، ووهَب له فَهْمَ القرآن، وباشَر روحه روح الايمان.

قال بعضُ العُلَماء: أكثَر لطائِف القرآن مُودَعَةٌ في الترتيبات والروابط[٣].

وقال آخر: من تأمّل في لَطائف نَظْم السُوَر[٤] وفي بدائع ترتيبها عَلِم أنّ القرآن كما أنّه مُعجِزٌ بحَسَب فَصاحةِ ألفاظِه وشرَف مَعانيه، فهو أيضاً مُعجزٌ بسبَبِ تَرتيبه ونَظْم آياتهِ[٥].

وقال آخر: ارتباطُ آي القرآن بعضُها ببعض حتّى تكون كالكلمة الواحدة مُتَّسِقَة المَعاني، مُنتَظِمة المَباني، علمٌ عظيم[٦].

هذا، ولعمري أنّ ما ذكرتُه بالنظَر إلى حكمة الله البالغة، وعدم إمكان وضَعه الشيء في غير مَوضِعه، وتَرجيحه أمراً بلا مُرَجِّح، من أوضَح الواضِحات وأبْيَنِ البيِّنات، غنيٌّ عن الاستِدلال والتأييد بأقوالِ

---

١. مسند أحمد ٦: ٩٢.   ٢. مجمع البيان ١: ٨٤.   ٣. الإتقان في علوم القرآن ٣: ٣٦٩.
٤. في الإتقان: وقال الإمام الرازي في سورة البقرة: ومن تأمل في لطائف نظم هذه السورة.
٥. الاتقان في علوم القرآن ٣: ٣٧٠.   ٦. الإتقان في علوم القرآن ٣: ٣٦٩.

الرِجال، والعجَب مع ذلك من بعضٍ حيث قال[١]: عِلم المُناسَبة علمٌ حَسَنٌ، لكن يُشترَط في حُسن ارتباطِ الكَلام أن يقَع في أمرٍ متّحِدٍ، مُرتَبِط أوّله بآخِره، فإن وقَع على أسبابٍ مختَلِفةٍ، لم يقع فيه ارتباط، ومَن ربَط ذلك فهو مُتكلّف بما لا يَقدِر عليه إلّا برَبْطٍ رَكيكٍ يُصانُ عن مثله حُسن الحديث، فَضلاً عن أحسَنِه، فإنّ القرآن نزَل في نَيّف وعِشرينَ سنة في أحكام مختلفةٍ شُرّعت لأسبابٍ مختلفة، وما كان كذلك لا يتأتّىٰ رَبْطُ بعضِه ببَعضٍ[٢]، انتهى.

فإنّ مثل هذا الكلام في ترتيب كلام الله لا ينبغي صُدورُه مِن عاقلٍ، فَضلاً عن فاضِلٍ، إذ من الواضِح أنّ كلّ مَن ألّف كتاباً مشتَمِلاً على مَطالب متفرّقة وقَضايا مُتَشتّتة، يلاحظ البتّة في ترتيبها مناسبةً وارتباطاً، فكيف بالحَكيم المُتَعال!

فإنّ المُناسَبات بين القَضايا المتفرّقة والأحكام المختلفة كثيرةٌ جدّاً خصوصاً في نَظَر مَن كان عالماً بحَقائق الأشياء وَجِهات الأُمور، نعم فَهْمُ غيرِ العُلماء الراسِخين الربّانيّين قاصِرٌ عن دَرْكِ جميع المُناسَبات اللّطيفة المَنْظورة للّطيف الخَبير، ولذا لم يَحُم حوله المُفسِّرون، ولم يَخُضْ فيه المُتَبحِّرون.

نعم، تكلّف قليلٌ من علماء العامّة لبَيانها، وأجالوا الفِكْرَ في هذه العَرَصةِ مع عدم كونِهم من فُرْسانِها، وأين لهم التمكّن في هذا القَصْر المَشيد، وأنّىٰ لهم التّناوش من مَكانٍ بعيدٍ؟ حيث إنّهم ما ثَقفوا بحَبل الله المَتين، وما اتّخَذوا سبيلاً مع الهُداةِ الرّاسِخين.

وإنّي وإن سَلَكتُ في هذا الطريق الزّليق، وغُصْتُ في هذا البحر العَميق، وخُضْتُ كالذي خاضوا، وأفضتُ من حيث أفاضوا، غير أنّي لمعرفتي بقُصوري ما غَضَضتُ على ما نِلتُ بضِرْسٍ قاطعٍ، وما حكَمتُ فيما قلتُ على أنّه هو الحقّ الواقع، بل أبدَيتُ ما يَليق بالظّنّ والاحتِمال لئلا يُتوَهَّم في تَرتيب الكِتاب العزيز ما توَهّمَه هذا البعض من الأمر المُحال.

قال الشيخ وليّ الدين المِلّوي: قد وَهِم مَن قال: لا يُطلَب للآي الكريمة مناسبة، لأنّها على حَسَب الوَقائع المفرّقة، وفصل الخطابِ أنّها على حسَب الوقائع تنزيلاً، وعلى حَسَب الحِكمة ترتيباً وتأصيلاً، فالمُصحَف على وفقِ ما في اللّوح المَحفوظ مُرتَّبةٌ سُوَرُه كلّها وآياتُه بالتوقيف كما أُنزل جملةً إلى بيت العِزّة، ومن المُعجِز البيِّن أُسلوبه ونَظْمه الباهِر، والذي ينبَغي في كلّ آيةٍ أن يُبحَثَ أوّل

---

١. هو الشيخ عز الدين بن عبدالسلام.

٢. الإتقان في علوم القرآن ٣: ٣٧٠.

كلّ شيءٍ عن كَونِها مُكَمِّلة لما قَبْلَها أو مُستقلّة، ثم المُستَقلّة ما وَجهُ مُناسبَتِها لما قَبْلَها؟ ففي ذلك عِلمٌ جَمٌّ، وهكذا في السُّوَر، يُطلَب وجه اتّصالها بما قَبْلَها وماسبقَت له[1].

قال بعض العلماء: سورةُ الفاتحة تضمّنت الإقرارَ بالربوبيّة والالتِجاء إليه في دين الاسلام والصِّيانة عن دين اليَهوديّة والنّصرانيّة، وسورة البَقَرة تضمّنَت قواعد الدّين وإقامة الدّليل عليه، وآل عِمران مُكمِّلة لمَقصودِها، فالبَقَرة بمَنزِلة إقامةِ الدّليل على الحُكم، وآل عِمران بمنزلة الجَواب عن شُبُهات الخُصوم، ولهذا ورَد فيها ذِكرُ المُتَشابه لما تمسّكَ به النصارى، وفي البقرة ذكر أنّ الحَجّ مشروعٌ وأمر بإتمامِه بعد الشُروع، وأوجَب الشُروع فيه في آل عِمران[2].

وكان خِطاب النصارى في آل عِمران أكثر، كما أنّ خِطاب اليَهود في البقرة أكثر؛ لأنّ التَوراةَ أصلٌ والانجيلَ فرعٌ لها، والنّبيّ ﷺ لمّا هاجر إلى المدينة دعا اليَهود وجاهدَهم، وكان جِهادُه للنّصارىٰ في آخِرِ الأمر، كما كان دعاؤه لأهل الشِرك قبل أهل الكِتاب، ولهذا كانت السُّوَر المكيّة فيها الدِّين الذي اتّفق عليه الأنبياء، فخوطِبَ به جميع الناس، والسُّوَر المدنيّة فيها خِطاب مَن أقَرَّ بالأنبياء من أهل الكِتاب والمؤمنين فخُوطِبوا بيا أيّها الذين آمنوا، ويا أهل الكتاب، ويا بَني إسرائيل.

وأمّا سورة النِساء فتضمَّنت أحكام الأسباب التي بَين النّاس، وهي نوعان: مخلوقة لله ومَقدورَة لهم كالنَسَب والصِّهر، ولذا افتُتِحت بقوله: ﴿اتَّقُوا رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ ثمّ قال: ﴿وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَاءلُونَ بِهِ وَٱلْأَرْحَامَ﴾[3] فانظُر هذه المُناسَبة العجيبة في الافتِتاح وبَراعةِ الاستِهلال حيث تضمَّنَت الآيةُ المُفتَتَح بها، ما أكثَر السورة في احكامِه، من نِكاح النساء ومُحرّماته والمَواريث المتعلّقة بالأرحام، فإنّ ابتِداء هذا الأمر كان بخَلق آدم، ثمّ خلق زوجته منه، ثمّ بثّ منهما رِجالاً كثيراً ونِساء كثيرة.

وأمّا المائدة فسورةُ العُقود، تَضمَّنت بيان تَمام الشَرائع ومكمّلات الدِّين، والوَفاء بعُهود الرُّسل، وما اُخِذ على الأمّة، وبها تمّ الدِّين، فهي سورةُ التَكميل لأنّ فيها تَحريم الصَّيد على المُحرِمِ الذي هو [من] تمام الإحرام، وتَحريم الخَمر الذي هو [من] تَمام حِفظ العَقل والدِّين، وعقوبة المُعتَدِين من

---

١. الإتقان في علوم القرآن ٣: ٣٧٠.

٢. في الإتقان: النصارى، وأوجب الحجّ في آل عمران، وأما في البقرة فذكر أنه مشروع، وأمر باتمامه بعد الشروع فيه.

٣. النساء: ٤/١.

السُّرّاق والمُحاربين، الذي هو من تَمامِ حِفْظ الدِّماء والأموال، وإحلال الطيّبات الذي هو من تَـمامِ عبادة الله، ولهذا ذكر فيها ما يختصّ بشريعة محمّد ﷺ كالوضوء، والتيمّم، والحكم بالقرآن على كلّ ذي دين.

ولهذا أكثَر فيها من ذِكر الإكمال والإتمام، وذكَر فيها أنّ مَن ارتَدّ عوّض اللهُ بخَيرٍ منه، ولايزال هذا الدين كاملاً، ولهذا ورَد أنّها آخِر سورة نزلت، وفيها من إشارات الخَتْم والتمام، وهذا التّرتيب بين هذه السُوَر الاربَع المَدَنيّات [من] أحسَن التَرتيب[1].

وقال بعضٌ آخر: إذا اعتَبرتَ افتِتاح كلّ سورةٍ وجَدْتَهُ في غاية المُناسبة لما خُتِم به السورة قَبْلَها، ثمّ هو يَخْفى تارةً ويظهَر أُخرى، كافتتاح سورة الأنعام بالحَمْد، فإنّه مناسبٌ لِختام المائِدة من فَصل القَضاء، كما قال تعالى: ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالحَقِّ وَقِيْلَ ٱلحَمْدُ لله رَبِّ ٱلعَالَمِينَ﴾[2].

وكافتِتاح سُورة فاطِر بالحَمْد، فإنّه مُناسِبٌ لِختام ما قَبْلها من قوله: ﴿وَحِيْلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَما فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ﴾[3] كما قال تعالى: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلقَوْمِ ٱلَّذِيْنَ ظَلَمُوا وَٱلحَمْدُ لله رَبِّ ٱلعَالَمِينَ﴾[4].

أقول: الغَرَضُ مِن نَقلِ هذه العبائر والوجوه هو التأييد، وإن قُلنا إنّ المُدّعىٰ لِوضُوحه غَنيٌّ عنه.

الطّرفة التّاسعة

في أسامي الكتاب العزيز ووحيه ومناسبة تسميته بالقرآن

قال بعض[5]: إنّ الله تعالى سمّىٰ كتابَه العزيز بخَمْسَةٍ وخَمسينَ اسماً[6]. كالفُرقان، والذكر، وأحسَن الحديث، وغيرها. والظاهر أنّ جميعَها ألقابٌ وأوصافٌ له، إلّا القرآن فإنّ الأقوى والأظهَر أن يكون عَلَماً له بوَضع الله تعالى.

---

١. الإتقان في علوم القرآن ٣: ٣٨١. ٢. الزمر: ٧٥/٣٩. ٣. سبأ: ٥٤/٣٤.

٤. الإتقان في علوم القرآن ٣: ٣٨٠، والآية من سورة الأنعام: ٤٥/٦.

٥. القائل: هو القاضي أبو المعالي عزيزى بن عبدالملك المعروف بشيذلَة، صاحب كتاب (البرهان في مشكلات القرآن) والمتوفّى سنة ٤٩٤. راجع: شذرات الذهب ٣: ٤٠١، كشف الظنون ١: ٢٤١.

٦. البرهان في علوم القرآن ١: ٣٤٣، الإتقان في علوم القرآن ١: ١٧٨.

وقد ذكروا في اشتِقاقه، ووَجْهِ مُناسبَته وجوهاً، والأظهَر الأشهَر أن يكونَ القرآن مَهموزاً، مِنَ القَرْء بمعنى الجَمْع، ومنه: قَرأتُ الماءَ في الحَوض: أي جمَعتُه، وعلى هذا يكون وَجهُ مناسبةِ التَّسمية كَونه جامعاً لِثَمرات جَميع الكُتب السالِفة المُنْزَلة[١].

قالوا: إنّ الله جمَع جميع الكتُب السّماويّة في التَـوراة والإنـجيل، وجـمع جـميع مـا فـي التَـوراة والانجيل في القرآن[٢].

ويشهَد له ما روي عن النبيّ ﷺ قال: «أُعطيتُ السُوَرَ الطوال مكانَ التَوراة، وأُعطيتُ المِئينَ مكانَ الإنجيل، وأُعطيتُ المَثاني مكانَ الزَبُور، وفُضِّلتُ بالمُفَصَّل ثمان وستون[٣] سورة»[٤].

والأوفىٰ والأنسَب كونُه جامعاً لجميع أنواع العُلوم كلِّها، كما قال الله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيءٍ﴾[٥]، وقال تعالى: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِنْ شَيءٍ﴾[٦].

وعنه عليه السلام: «مَن فَهِمَ القُرآنَ فَسَّر [به] جُمَلَ العِلْم»[٧].

وقال عليه السلام في وَصْفَ القرآن: «ظاهِرُه حُكم، وباطِنُه عِلم، ظاهِرُه أنيق وبـاطِنُه عـَميق، له تُـخومٌ[٨]، وعلى تخومه تُخوم، لا تُحصى عَجائبُه، ولا تَبْلى غرائبُه، فيه مَصابيح الهُدى ومَنار[٩] الحكمة»[١٠].

وعن الصادق عليه السلام قال: «[قد] وَلَدَني رسولُ الله ﷺ وأنا أعلَم كتابَ الله، وفيه بَدْءُ الخَلق، وما هو كائِنٌ إلى يومِ القِيامةِ، وفيه خَبَرُ السَماء وخبَر الأرضِ، وخبَرُ الجنّة والنّار، وخبَرُ ما كانَ وما هو كائن، أعلَمُ ذلك كما أنظُر إلىٰ كَفّي، إنّ الله تعالى يقول: فيه تِبْيان كُلِّ شيءٍ»[١١].

وعن ابن عباس، قال: لَو ضَلّ مِنّا عِقالٌ كُنّا نَجِدُه بالقرآن[١٢]، إلىٰ غير ذلك من الأخبار.

---

١. الاتقان في علوم القرآن ١: ١٨٢.
٢. نحوه في الإتقان في علوم القرآن ٤: ٢٨.
٣. في تفسير العياشي: سبع وستين.
٤. الكافي ٢: ١٠/٤٣٩، تفسير العياشي ١: ١٠٢/١٠٧.
٥. النحل: ٨٩/١٦.
٦. الأنعام: ٣٨/٦.
٧. إحياء علوم الدين ١: ٣٤٢.
٨. التَخْم: منتهى كلّ قرية أو أرض، يقال: فلان على تَخمٍ من الأرض، والجمع تُخُوم، مثل: فَلْسٍ وفُلُوسٍ.
٩. في العياشي: ومنازل.
١٠. تفسير العياشي ١: ١/٧٤.
١١. الكافي ١: ٨/٥٠. والآية من سورة النحل: ٨٩/١٦.
١٢. نحوه في الإتقان في علوم القرآن ٤: ٣٠-٣١.

الطّرفة العاشرة

في أنّ الكتاب الذي بأيدينا هو الكتاب المنزل المجموع بأمر النبي ﷺ بلا تحريف وتغيير وزيادة ونقصان.

الحقّ أنّ الكتاب العزيز الذي بأيدينا، هو ذلك الكتاب المُنْزَل، المَجموعُ، المُرَتَّب بأمر النبيّ ﷺ في عصره بلا تحريفٍ وتغيير، وزيادَةٍ ونُقصان، لتَواتُرِه بين المُسلمين كُلّاً وأبعَاضاً وتَرتيباً وقراءةً، ونهايةُ اهتِمام المسلمين كافّةً، خُصوصاً علماءهم وقُرّاءهم، في حِفْظِه، وتلاوتهِ، والبَحث عنه، لأنّه أساسُ الإسلامِ، وأعظَم مُعجِزات سيّد الأنام عليه وعلى آله الصَّلاة والسلام، ومأخَذ الأحكام، ومَنشور الله إلى خَلْقِه، ونورُه المُبين في أرضِه.

عن السيّد المُرتَضى، على ما حكي عنه في جَواب مَسائِل الطَّرابُلسيّاتُ: أنّ العِلمَ بصِحّة نَقلِ القُرآن، كالعِلم بالبُلدان والحَوادث الكِبار، والوَقائع العِظام، والكتُب المَشهورة، وأشعارِ العرَب المَسْطورة، فإنّ العِنايَة اشتَدَّت، والدَّواعي توفّرت على نَقْلِه وحِراسَتِه، وبلَغت حدّاً لم يبلغه فيما ذكرناه، لأنّ القرآن معجزة النبوّة ومأخَذ العلوم الشرعيّة والأحكام الدينيّة، وعُلَماء المسلمين قد بلَغوا في حِفْظِه وحِمايَتِه الغاية، حتّى عَرَفوا كلّ شيءٍ اختُلِف فيه، من إعرابِه وقراءته وحُروفه وآياته، فكيف يَجوز أن يكونَ مُغيّراً أو مَنقوصاً مع العناية الصادِقَة والضَّبْطِ الشَدِيد؟!

وقال قدس الله روحه أيضاً: إنّ العِلمَ بتفسر القرآن وأبعاضِه في صِحّة نقلِه كالعِلم بجُملَتِه، وجَرى ذلك مَجرى ما عُلم ضرورةً من الكتُب المُصَنّفة، ككتاب سيبويه، والمُزني، فإنّ أهل العِناية بهذا الشأن يعلَمون من تَفصيلهما ما يَعلمونه من جُملَتهما، حتّى لو أنّ مُدخِلاً أدخَل في كتاب سيبويه باباً في النَحْو ليس من الكِتاب لعُرِف ومُيِّز وعُلِم أنّه مُلحَق وليس من أصلِ الكِتاب، وكذلك القَول في كتاب المُزْني، ومعلومٌ أنّ العناية بنَقْلِ القرآنِ وضَبْطِه أصدَق من العِناية بضَبْطِ كتاب سيبويه ودَواوين الشُعَراء.

وذكر أيضاً أنّ القرآن كان على عهدِ رسول الله ﷺ مجموعاً مؤلّفاً على ما هو عليه الآن، واستدلّ على ذلك بأنّ القُرآن كان يدرس ويُحفظ جميعُه في ذلك الزَمان، حتّى عيّن على جماعةٍ من الصَحابة في حِفْظِهم له، وأنّه كان يُعرَض على النبيّ ﷺ ويُتلىٰ عليه، وأنّ جماعةً من الصَحابة مثل

عبدالله بن مَسعود، وأُبَيّ ابن كَعْب وغيرِهما، خَتَموا القرآنَ على النبيّ ﷺ عدّة خَتَمات، وكلّ ذلك يدُلّ بأدنىٰ تأمّل على أنّه كان مجموعاً مُرتّباً غير مبتور، ولا مبثوث، وذكر أنّ مَن خالَف في ذلك [من] الإماميّة والحَشْويّة لا يُعتَدّ بخِلافهم، فإنّ الخِلافَ في ذلك مُضافٌ إلى قومٍ من أصحاب الحَديث نَقَلوا أخباراً ضعيفةً ظَنّوا صِحّتَها، لا يُرجع بمثلها عن المعلوم المَقطوع على صِحّته[1].

ولعَمري، إنّه رضوان الله عليه أبانَ الحقَّ وأجادَ، وأتى بما فوق المُراد، وإن قال الفيض رحمه الله بعد نقله: لقائلٍ أن يقول: كما أنّ الدَواعي كانت متوفّرة على نَقل القرآن وحِراسته من المؤمنين، كذلك كانت متوفّرة على تَغْييره من المُنافقين المُبَدّلين للوصيّة، المُغَيّرين للخِلافة، لتضمّنِه ما يُضادّ رأيهم وهَواهم[2].

أقول: نعم، ولكن كان توفّر دَواعيهم على التَغيير، كتوفّر دَواعيهم على إطفاء نور النبيّ ﷺ وإبطال أمرِه، فكما لم يَنالوا بمَقصودِهم في أمرِ النبوّة لحِفْظ الله وتأييده، وقوّة المُسلمين وكَثْرتَهم بحيث صار المُنافِقون بينَهُم كالشّامَةِ السَوداء في الثَور الأبيَض، لم يَنالوا من القرآن ما كان في قُلوبهم من الغَرَض، بل كان دون نَيْلهم إليه خَرْطُ القَتاد.

ثمّ قال الفيض رحمه الله: والتَغيير فيه إنْ وقَع، فإنّما وقَع قبل انتِشاره في البُلدان، واستِقراره على ما هو عليه الآن، والضَبْط الشَديد إنّما كان بعد ذلِك، فلا تَنافِيَ بينَهُما[3].

أقول: قد ثَبت أنّ القرآنَ كان مجموعاً في زمان النبيّ ﷺ وكان شِدّة اهتِمام المُسلمِين في حِفْظِ ذلك المَجموع بعد النبيّ ﷺ وفي زَمانٍ احتَمل بعضٌ وُقوعَ التَحريف فيه، كاهتِمامهم في حِفْظِ أنفُسِهم وأعراضِهم، ومن الواضِح أنّه لم ينتَشِر الاسلامُ في بِقاع الأرضِ وأقطارِها إلّا بانتِشار الكِتاب المَجيد فيها، حيث إنّ إعجاز القرآن دعا الناس إلى الاسلام والإيمان بخاتَم النبيّين ﷺ، بل كان نَشر الكتاب وشُيوعه بين النّاس أكثر من نَشر الإسلام، إذ الكُفّار المُعانِدين للدّين، لشدّة[4] إعجابِهم بآياتِ الله وسُوَرِ القُرآن، كانوا يحفَظونَها وَيتْلُونها أكثر من حِفْظِهم وقِراءتهم لقصائد[5] شُعَراء العرَب كامرىء القَيس وأضرابه، وخُطَب الفُصَحاء، مع شُيوع قوّة الحافِظَة في أهل ذلك العَصْر بحيث كان كثيرٌ منهم يَحْفَظون الخُطَب الطِوال بسَماعها مرّةً واحدة، ولذا كانت العادةُ مُقتَضِيةً لأن تَكونَ كلّ آيةٍ وسورةٍ في

---

١. مجمع البيان ١: ٨٣، تفسير الصافي ١: ٤٧.
٢. تفسير الصافي ١: ٤٨.
٣. تفسير الصافي ١: ٤٨.
٤. في النسخة: بشدّة.
٥. في النسخة: من قصائد.

حِفظِ جمعٍ كثيرٍ كان عَددُهم فوق حدّ التَواتُر، مع أنّه كان حِفظُ القرآنِ وتِلاوتُه من أعظَم عبادات المسلمين، فالعادةُ تقتضي أن يكونَ جمعٌ كثيرٌ منهم حافِظين لجميع القرآن.

ومن الواضح أنّه كان اهتِمامُهم بحِفظ القرآن من التغيير، وصيانتُهم له من التَحريف؛ كاهتِمامهم بحِفظِ الإسلام وحِفظ النبيّ ﷺ من أن تُصيبَه آفَةٌ وجِراحَةٌ، حيث إنّهم كانوا يَفدُون أنفُسَهم وأولادَهم وأعراضَهم وأموالهم دون نَفسِه الشريفة.

ومن الغرائب، قوله ﵀: بل لقائلٍ أن يقول: إنّه إنّما لا يتغير[1] في نفسِه، وإنّما التغيير في كتابَتِهم إيّاه، وتَلَفُّظِهم به، فإنّهم ما حرّفوا إلّا عند نَسْخِهم من الأصل، وبقي الأصلُ على ما هو عليه عند أهله؛ وهم العلماء به، فما هو عند العلماء به ليس بمُحرَّف، وإنّما المُحَرّف ما أظهَروه لأتباعهم[2]. انتهى.

فإنّ هذا الاحتِمال مَبنيّ على فَرْض كونِ القرآن المَوجود في عصر النبيّ ﷺ وبعده، نُسخَة واحِدة أو نُسختَين عند واحدٍ من الصَحابة أو اثنَين، ثمّ اسْتَنْسَخَه جماعةٌ من المُنافقين مع عدَم اطّلاع أكثَر المسلمين به وبآياته، ثمّ خَفِيَ الأصلُ عن الأنظار، وانتَشر المحرَّف في الأقطار، وهذا الاحتِمال ممّا لا ينبغي انقِداحُه في ذِهنِ أحدٍ، حيث إنّ القرآن كان بآياتِه وسُوَرِه أظهَر من الشمس عند المسلمين، ولم يكن بينهم عِلمٌ غير عِلم القرآن، فكيف يُمكن عدَم اطّلاع أغلَبهم بآياته وسُوَرِه ومحلّ آياته وكيفيّة قراءته!

وقال شيخ الطائفة محمّد بن الحسَن الطوسي رضوان الله عليه: وأمّا الكلام في زِيادَته ونُقصانِه فممّا لا يَليقُ به، لأنّ الزيادةَ فيه مُجْمَعٌ على بُطلانها، والنقصانُ منه فالظاهِرُ أيضاً من مَذهَب المُسلمين خِلافُه وهو الألْيَق بالصحيح من مَذهَبِنا، وهو الذي نصَره المُرتَضى، وهو الظاهِر في الرّوايات، غير أنّه رُوِيتَ روايات كثيرةٌ من جهة الخاصّة والعامّة بنُقصانِ كثيرٍ من آي القرآن، ونَقْلِ شيءٍ منه مِن مَوضعٍ إلى مَوضِع، طَريقُها الآحاد التي لا توجب عِلماً [ولا عملاً] فالأولى الإعراض عنها، وتَرْك التَشاغُل بها، لأنّه يُمكن تأويلها[3].

وقال شيخنا الصَدوق ﵀ في (اعتقاداته): اعتِقادُنا أنّ القرآن الذي أنزَله الله على نبيّه هو ما بين الدَّفتَين و[هو] ما في أيدي النّاس، ليس بأكثر من ذلِك، ومن نَسَب إلَينا أنّا نقول إنّه أكثَر من ذلك فهو

---

١. في تفسير الصافي: إنه ماتغير.

٢. تفسير الصافي ١: ٤٨.

٣. تفسير التبيان ١: ٣.

كاذِب علينا[١]، انتهى.

والعجَبُ مع هذا الكلام من الصَدوق أنّه نسَب إلى الكُلَيني رضوان الله عليه الذي هو من مُجَدّدي المَذهَب الجَعْفَريّ القول بتَحرِيف القرآن[٢]، مُستَنِداً إلى نَقلِه بعض الروايات التي وردت في هذا المعنى، وعدم تعرّضه للقَدح فيها، مع ذكره في أوّل الكافي أنّه كان يَثِق بما رَواه فيه، فإنّه لا دلالة لنَقل الرِوايات والوُثوق بصُدورِها على اعتِقاد الناقِل بمَضْمونِها أو إفتائه به، لإمكان حَمْلِها على مَحامِل، كالتقيّة أو غيرها، أو رَدّ الناقل عِلمَها إلى الراسِخين في العلم، مع أنّ الصَدوق رحمه الله كان أعرَف بمذهب الكُلَينيّ رحمه الله من غيره، وكيف يُمكنِ تكذيبه نسبة التحريف إلى الإمامية مع قول شيخه به.

والظاهر أنّ الصدوق رحمه الله لعلمه بإجماع الامامية، ودلالة روايات كثيرة، بل الكتاب المجيد على عدم تحريفه، وملاحظة لزوم الوَهْن من القول به في أساس الإسلام، وتَواتُر الكِتاب أعرَض عن الروايات الكثيرة الدالّة على وقوع التَّحريف فيه، مع أنّه لِغايَة تعبّده بظَواهِر الأخبار ذهَب إلى القَول بجَواز السَّهو على النبيّ صلّى الله عليه وآله.

نعم، نسب السيّد المُرتَضى رحمه الله الخِلافَ في ذلك إلى قومٍ من أصحابِ الحَديث من الإماميّة مع تَخطِئَةٍ لهم قال: إنّ مَن خالَف في ذلك من الإماميّة والحَشْويّة لا يعتدّ بخِلافهم، فإنّ الخِلاف في ذلك مُضافٌ إلى قومٍ من أصحابِ الحَديث نقَلوا أخباراً ضعيفةً ظنّوا صِحّتها لا يُرجَع بمِثلها عن المعلوم المقطوع على صّحته[٣].

ولعلّ في قوله: (مضاف إلى قومٍ) دلالة على عدم ثُبوت النِسبة عنده، والمُراد من (أصحاب الحديث) عليّ بن إبراهيم القمّي رحمه الله ومن حَذا حَذْوَه.

قال القمّيّ رحمه الله في تفسيره: وأمّا ما كان خِلاف ما أنزَل الله، فقولُه تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ

---

١. اعتقادات الصدوق: ٩٣.

٢. لم نجد في سائر مصنفات الشيخ الصدوق أي تصريح أو تلميح بنسبة القول بالتحريف إلى ثقة الاسلام الكليني، كما لم نجد أحداً نقله عن الشيخ الصدوق، وقد استند بعض المحدثين الذين نسبوا إلى الشيخ الكليني القول بالتحريف (كالفيض في الصافي ١: ٤٧) على جمله من روايات الكافي، مع أنه لا توجد في الكافي رواية واحدة تدلّ دلالة صريحة على التحريف، ولكن اشتبه عليهم حال بعض الروايات، وهي إحدى وستون رواية فقط بجميع أجزاء الكافي، لظهورها باختلاف القراءة أو التفسير، فعدّوا ذلك من أصل المصحف، وقد بيّنت بعض الدراسات الحديثة ذلك بكّل تفصيل. راجع: دفاع عن الكافي ٢: ٢١٩ ـ ٥٠١.

٣. مجمع البيان ١: ٨٣، تفسير الصافي ١: ٤٧.

لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنْكَرِ وَتؤْمِنونَ باللهِ﴾[١] فقال أبو عبدالله عليه السلام لقارىء هـذه الآية: «[خير أُمّة] يقتُلون أمير المؤمنين والحُسَين بن عليّ عليهما السلام؟».

فقيل له: كيف نزَلت يا بنَ رسول الله؟ فقال: «إنّما نزَلت: (كنتم خير أئمّةٍ اخرجت للناس) ألا تَرى مَدْحَ الله لهم في آخِرِ الآية: ﴿تَأْمُرُونَ بِالمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ باللهِ﴾»[٢].

ومثله: أنّه قُرِىء على أبي عبدالله عليه السلام: ﴿الَّذِيْنَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْواجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً﴾[٣] فقال أبو عبدالله عليه السلام: «لقد سألوا [الله] عظيماً أن يجعَلهم للمتّقين إماماً».

فقيل له: يا بن رسول الله، كيف نزَلت؟ فقال: «إنّما نزَلت: (واجعَل لنا من المتّقين إماماً)».

وقوله تعالى: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللهِ﴾[٤] فقال أبو عبدالله عليه السلام: «يحفظ الشيء من أمرِ الله! وكيف يكون المُعَقّب من بين يَدَيه؟»

فقيل له: [و] كيف ذلك يا بن رسول الله؟فقال: «إنّما نزَلت: (له معقّبات من خلفه ورقيبٌ من بين يديه يحفَظُونه بأمر الله)» ومثله كثير.

وأمّا ما هو محذوف عنه[٥] فهو قوله تعالى: ﴿لـكِنِ اللهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْك ـ في عليّ كذا نزلت ـ أَنْزَلَه بِعِلْمِهِ والمَلائِكَةُ يَشْهَدُونَ﴾[٦] وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ ما أُنْزِلَ إِليكَ مِن رَبِّكَ ـ في عليّ ـ وإِن لَمْ تَفعَلْ فَمَا بَلَّغتَ رِسَالَتَهُ﴾[٧] وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَروا وَظَلَمُوا ـ آل محمّد حَقَّهُم ـ لَمْ يَكُنِ اللهُ لِيغفِرَ لَهُمْ﴾[٨] وقوله: ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا ـ آلَ محمّد حَقَّهُم ـ أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾[٩] وقوله: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ لظَّالِمُونَ ـ آلَ محمّد حَقَّهُم ـ فِى غَمَرَاتِ ٱلمَوْتِ﴾[١٠] ومثله كثير نذكُره في مَواضِعه إن شاء الله.

قال: وأمّا التَقدِيم والتأخِير فإنّ آية عِدّة النِساء الناسِخَة التي هي أربعة أشهُر وعَشر، قُدِّمَت على المَنْسوخَة الّتي هي سَنَة، وكان يجب [أوّلاً] أن تُقرأ المَنْسوخة التي نَزلت قبلُ، ثمّ الناسِخَة التي نزَلت بعد.

وقوله: ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِن رَبِهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَاماً وَرَحْمَةً﴾[١١] وإنّما هو: (ويتلوه شاهد منه إماماً ورحمةً ومن قبله كتاب موسى).

---

١. آل عمران: ١١٠/٣. ٢. آل عمران: ١١٠/٣. ٣. الفرقان: ٧٤/٢٥. ٤. الرعد: ١١/١٣.
٥. في المصدر: محرف منه. ٦. النساء: ١٦٦/٤. ٧. المائدة: ٦٧/٥.
٨. النساء: ١٦٨/٤. ٩. الشعراء: ٢٢٧/٢٦. ١٠. الأنعام: ٩٣/٦. ١١. هود: ١٧/١١.

وقوله: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنيا نَمُوتُ وَنَحيَا﴾[١] وإنّما هي (نَحْيا ونَموت) لأنّ الدّهريّة لم يُقِرّوا بالبَعْث بعدَ المَوت، وإنّما قالوا: نحيا ونَموت، فقدّموا حَرْفاً على حَرفٍ، ومِثلُه كثير.

قال: وأمّا الآيات التي هي في سورةٍ وتَمامُها في سورةٍ أُخرىٰ؛ فقولُ موسى عليه السلام: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بالَّذِي هُوَ خَيْرٌ ٱهْبِطُوا مِصْراً فَإِنَّ لَكُمْ مَا سأَلْتُمْ﴾[٢] و﴿قَالُوا يَا مُوسىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْماً جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾[٣] فنصف الآية في سورة البقرة، ونِصفُها في سورة المائِدة.

وقوله: ﴿ٱكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾[٤] فرَدّ الله عليهم ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لَارْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾[٥] فنِصف الآيةِ في سورة الفُرقان، ونِصفُها في سورة العَنْكَبوت، ومثله كثير[٦]، انتهى كَلامُه رُفِع مَقامُه.

أقول: إلى هذِه الأخبار الضِعاف أشارالشيخ رحمه الله بقوله: أنّه ورَدت أخبارٌ كثيرةٌ من جهة الخاصّة والعامّة بنُقصانِ كثيرٍ من آي القرآن ونَقْلِ شيء منه من موضِع إلى مَوضِع، طريقُها الآحاد التي لا تُوجب عِلماً، فالأولىٰ الإعراض عَنها وتَرْك التَشاغُل بها، لأنّه يمكِن تأويلُها.

إلى أن قال: وروايَاتنا مُتَناصِرة بالحثّ على قراءته والتمسّك بما فيه، وردّ ما يَرِد من اختِلاف الأخبار في الفروع إليه، وعَرْضها عليه، فماوافقه عُمِل عليه، وماخالفَه يُجتَنَب، ولم‌يُلتَفت إليه[٧].

أقول: أخبار العَرْض على الكِتاب مُتَضافِرة، بَل مُتَواتِرة معنىً أو إجمالاً، وأخبار وقوع التّحريف والتّغيير مُخالِفة للكتابِ العزيز، فيَشْمَلُها قولُهم عليهم السلام: «ما خالَف كتابَ الله فهو زُخْرُفٌ» أو «باطِل» أو «فاضرِبْه على الجِدار» أو «لَم نَقُلْهُ»[٨].

فإنّ قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[٩] دالٌّ على تَشريف القرآن وتَفْضيله على سائر الكتُب السَماويّة بضَمانهِ تَعالى بحِفظِه من الاندِراسِ والانطِماس، وتَعهّده على صِيانتِه من التّحريف والتغيير إلى يوم القيامة، فكما أنّ ذَهاب جميع القرآن ومَحْوَه من بينِ الناس وجَعْل كتابٍ آخَر فيهم يُنافي ضَمانَه تعالى لحِفْظِه، كذلك إسقاط آيةٍ أوسورةٍ، أو تَغيير كلمةٍ منه أو هَيْئته المُنزَلةَ

---

١. المؤمنون: ٢٣/٣٧. ٢. البقرة: ٢/٦١. ٣. المائدة: ٥/٢٢. ٤. الفرقان: ٢٥/٥.
٥. العنكبوت: ٢٩/٤٨. ٦. تفسير القمي ١: ١٠. ٧. تفسير التبيان ١: ٣.
٨. الكافي ١: ٥٥/باب الأخذ بالسنة وشواهد الكتاب. ٩. الحجر: ١٥/٩.

ينافي ضَمانَه تعالى لحِفْظِه، لأنّ كلّ آيةٍ منه قرآنٌ، ومَحْو شيءٍ منه مادّةً أو كيفيّةً مَحْوٌ للقرآن.

وتقريبه بِبَيانٍ أوضَح: أنّ الله تَعالى فَضّل دينَ الإسلام على سائر الأديان بوَعْدِه بظُهورِه على الدِّين كلّه، ومن الواضِح أنّ ظُهورَ هذا الدِّين المُبين بظُهور القرآن المُبين، وهو بِبَقائِه بين النّاس مَحفوظاً من التّغيير والتّحريف والاندِراس والانطِماس، فلِذا تعهّد سُبحانه وتَعالى بحِفْظِه من جميع ذلك، وفَضّله على سائر الكتب السماويّة بضَمانِ صِيانَتِه من كَيْدِ المُعاندين ودَسّ المُلْحِدين، ولم يَكُن منه تعالى هذا التعهّد والضّمان في سائر الكتُب، ولذا وقع فيها التّحريف والتّغيير، وسقَطت عن الحُجّيّة والاعتبار كسائر الأديان، فَلَو قُلْنا بوُقوعِ التّحريف في القرآن ـ ولو من جهة التّرتيب ـ لنافىٰ الضّمانَ منه تعالى، وارتفَع بمزيّته على الكِتابَين وفَضيلَته من هذه الجهة من البَين.

إن قيل: حِفْظُه تعالى النُسخَةَ التي جمَعها وكتَبها أميرُ المؤمنين عليه السلام وأودَعها عند أوصيائِه المَعصومين صلوات الله عليهم أجمَعين وبقاؤها عند خاتَمِهم إلى الآن، وإلى آخِر الزّمانِ، كافٍ في الوَفاء بالعَهْد وأداءِ الضّمان.

قُلنا: ليست هذه الدرَجة من الحِفْظِ مَزِيَّةً وفَضيلةً له، لكَونِها مُشتَركة بين القرآن وسائر الكتُب السّماويّة، حيث إنّ من المَقطوع أنّه كانَت نُسْخَةٌ واحِدَةٌ غير محرَّفةٍ من سائر الكتُب محفوظةً عند الأنبياء والأوصياء، ولعلّها من مَواريثهم الموجودة الآن عند خاتَم الوصيّين ووارِث علوم الأنبياء المُرسَلين عجّل الله فرجَه، فلا يكون وجودُ هذه النُسْخَة الصَحيحة غير المُحرَّفة منها الذي يكون كوجودها في اللَوح المَحفوظ مَزِيَّةً وفضيلةً للكتاب الكريم.

قال في (كشف الغطاء)[1] في كتاب القرآن، المَبْحَثُ الثامِن في نَقْصِه: لارَيبَ أنّه محفوظٌ من النُقصان بحِفظ المَلِك الدَّيّان، كما دلّ عليه صريحُ القرآن، وإجماعُ العُلَماء في كلّ زمانٍ، ولا عِبْرَةَ بالنادِر، وما ورَد من أخبارِ النَقْصِ تَمنَع البديهةُ من العمَل بظاهِرها، إلى أن قال: فلابدّ من تأويلها بأحدِ وجوه[2].

وعن الشيخ البهائي رحمه الله في تغيير القرآن، قال: والصحيح أنّ القرآن العظيم محفوظٌ عن ذلك، زيادةً كانَ أو نُقصاناً، ويدلّ عليه قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[3] وما اشتَهر بين الناس من إسقاط اسم

---

١. للشيخ جعفر المعروف بكاشف الغطاء المتوفّى سنة ١٢٢٨ هـ.
٢. كشف الغطاء: ٢٩٨.
٣. الحجر: ٩/١٥.

أمير المؤمنين عليه السلام منه في بعض المَواضِع، مثل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ ـ في علي ـ﴾ [١] وغير ذلك فهو غير معتبَرٍ عند العُلَماء [٢].

وعن الشيخ عليّ بن عبدالعالي رحمه الله أنّه صنّف في نَفْي النَقيصَةِ في القرآن رسالةً مستقلّةً، وذكر كلام الصَدوق المتقدّم، ثمّ اعترَض بما يدلّ على النَقيصة في الأحاديث، فأجاب عنها بأنّ الحديث إذا جاء على خِلاف الدَّليل من الكتاب والسنّة المُتَواتِرة أو الإجماع، ولم يُمكِن تأويله ولا حَمْله على بعض الوجوه، وجَب طَرحُه [٣].

وبالجُمْلَة: أخبار التَحريف مع مُخالفَتِها للكِتاب الكريم، ووَهْنِ سَنَدِ كثيرٍ منها، وإعراض أعيان الأصحاب عنها، ومُخالفَتِها لِحُكم العَقل والعادة والاعتبار، غير قابلة لأن يَعتَدَّ بها عاقل، فَضْلاً عن فاضِل، بل نقل كثيرٌ من الأصحاب الإجماعَ على خِلافها كما ظهَر من كاشِف الغِطاء، والشيخ البَهائي وغيرهما قدس الله أسرارهم.

وعن القاضي نور الله رحمه الله في كتاب (مَصائب النَواصب): ما نُسب إلى الشيعة الإماميّة من وقوع التغيير في القرآن، ليس ممّا قال به جُمهور الإماميّة، إنّما قال به شِرْذِمَةٌ قليلة منهم لا اعتداد بهم فيما بينهم [٤].

وعن المفيد رحمه الله أنّه قال: قال جماعة من أهل الإماميّة إنّه لم يُنقَص من كلمة ولا من آية ولا من سورة، ولكن حُذِف ما كان مُثبَتاً في مُصحَف أمير المؤمنين عليه السلام من تأويله وتفسير معانيه على حقيقة تَنْزيله [٥].

وعن المُقدّس البَغدادي قدس الله روحه في (شرح الوافية) [٦]: وإنّما الكلام في النَقيصةِ، والمعروف بين أصحابنا ـ حتّى حُكي عليه الاجماع ـ عدم النَقيصة أيضاً [٧]، انتهى.

مع أنّ ما ذُكِر في الروايات من الساقِطات كآية رَجْمِ الشَيخ والشَيخة وأمثالها، وكلمةُ (من خلفه ورقيب) من قوله: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [٨] وغير ذلك، بعيدٌ من فَصاحَةِ الكِتاب العَزيز وأُسلوبه، بل يَدفعهُا السُنَّة المُتَواتِرة من خبَر الثَّقَلَين.

---

١. المائدة: ٦٧/٥. ٢و٦. آلاء الرحمن ١: ٦٥. ٤. آلاء الرحمن ١: ٦٤.
٥. أوائل المقالات: ٨١.
٦. الوافية في الأُصول: للمولى عبدالله بن محمد، المشهور بالفاضل التوني، المتوفّى سنة ١٠٧١ هـ.
٧. آلاء الرحمن ١: ٦٥. ٨. الرعد: ١١/١٣.

قال الشيخ ﵀: وقد ورد عن النبيّ ﷺ رواية لا يدفعها أحَد، أنّه قال: «إنّي مُخَلِّفٌ فيكم الثَّقَلين، ما إن تمَسّكتُم بهما لن تَضِلّوا: كِتابَ الله، وعِتْرَتي أهلَ بيتي، وإنّهما لن يَفترِقا حتى يَرِدا عليّ الحَوض» قال: وهذا يدلّ على أنّه موجودٌ في كلّ عَصرٍ، لأنّه لا يجوزُ أن يأمُرنا بالتمسّك بما لا نَقدِر على التمسّك به، كما أنّ أهلَ البيت ومن يَجب اتّباع قولِه حاصِلٌ في كلّ وقتٍ، وإذا كان المَوجود بينَنا مُجْمَعاً على صِحّتِه، فينبغي أن نتشاغل بتفسيره وبيان معانيه ونترك ما سواه[1].

وحمل كلامه ﵀ على وجوده جميعاً عند أهلِه كما صدَر عن الفَيض ﵀ خِلاف نَصّه[2]، فإنّ القرآن الذي فيه جميع الأحكام، حتّى أرش الخَدْش، غير مقدورِ التّمسّك به[3]، ولا ينتقض بعدم إمكان التمسّك بالعِترة في زَمان الغَيْبَة، فإنّ المُراد بالتمسّك بهم تَوَلّيهم والأخذ بأقوالِهم، وهذا مُمكِن لكلّ أحَدٍ في كلّ عصرٍ لوجود رواياتهم، وإن لم يُمكن التشرّف بحَضْرَتِهم، واكتِساب الفُيوضات الخاصّة من زيارتهم، واقتِباس الأنوار ببرَكة صُحبَتِهم.

فيتبيّن من جميع ما فصّلناه عدم المَجال لاحتمالِ وقوع التّحريف في القرآن الشريف بوجهٍ من الوجوهِ، فَضْلاً عن القَول به من كلّ وجهٍ.

الطّرفة الحادية عشرة

في عدد سور القرآن، وبيان الاختلاف فيه

المشهور بين الإمامية رضوان الله عليهم أنّ عدد سُوَر الكِتاب العزيز مائةٌ واثنا عشر، لعَدِّهم الضُّحى والانشِراح سورة واحدة، والفيل وقريش أيضاً سورة واحدة، بل ادّعى بعضُ الأساطين الإجماعَ عليه[4]، وعليه النصوص المُعتَبرة عن أهلِ البيت ﵈[5].

ونقل جماعة من العامّة أنّ في مُصحَف أُبَيّ أنّ سورة الفيل وسورة لإيلاف واحدة[6].

ونقل عن طاوُس وغيره من مُفَسّري العامّة، على ما في (إتقان السّيوطي): أنّ الضُّحىٰ وألم نَشْرَح

---

١. تفسير التبيان ١: ٣. ٢. راجع تفسير الصافي ١: ٤٩.

٣. لعلّه يريد به القرآن الذي جمعه أمير المؤمنين علي ﵇، وهو لا يختلف عن الكتاب الذي بين أيدينا إلّا في الترتيب، حيث إنه ﵇ جمعه على ترتيب النزول، وقدّم فيه المنسوخ على الناسخ، وكتب فيه تأويل بعض الآيات وتفسيرها.

٤. اعتقادات الصدوق: ٩٣.

٥. مجمع البيان ١٠: ٧٦٩ و٨٢٧. ٦. تفسير الرازي ٣٢: ١٠٤.

سورة واحدة[١].

وخالف في ذلك أكثرهم، وذهبوا إلى أنّ عدد السور مائة وأربع عشرة، وادّعَوا عليه إجماعَهم[٢].

نعم، قال بعضُهم بكَونِه مائة وثلاث عشرة، بجَعْل الأنفال والبراءة واحدة، لعدم البَسْمَلة بينهما، ولِما روي عن مُجاهد وسُفيان وأبي رَوق[٣]، وهو بمكانٍ من الضَعْف لاشتِهار تعدّدهما وتعدّد اسمهما بين المُسلمين، ولرواية المجمع عن أمير المؤمنين عليه السلام: «لم يَنزِل ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ﴾ على رأس سورة براءة؛ لأنّ ﴿بِسْمِ اللهِ﴾ للأمان والرّحمة، ونزَلت براءة لرفع الأمان بالسيف»[٤].

وعن ابن عبّاس، قالت: سألت علي بن أبي طالب: لِمَ لَمْ تُكتَب في براءة ﴿بسم الله الرّحمن الرّحيم﴾؟ قال: «لأنّها أمانٌ، وبراءة نزَلت بالسيف»[٥].

وقال: قلت لعثمان: ما حَمَلَكُم على أن عَمدتُم إلى الأنفال وهي من المَثاني، وإلى براءة وهي من المِئين، فقَرَنتُم بينهَما ولم تكتُبوا بينهما سطر ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ﴾ ووضَعتُموها في السَبْع الطِوال؟ فقال عُثمان: كان رسول الله صلى الله عليه وآله ينزل عليه السور ذات[٦] العدد...[٧] الخبر، وقد مرّ تَمامةُ في بعض الطَرائف[٨] السابقة[٩].

وروىٰ الصّدوق رحمه الله في (ثواب الأعمال)، والعيّاشي، عن الصادق عليه السلام: «مَن قرأ سورَة الأنفال وسورة البراءة في كلّ شَهرٍ لم يَدخُله نِفاق أبداً»[١٠].

فمن جميع ذلك، ومن عدم ظهور شُبْهَة في تعدّدهما بين الأصحاب، مع تعرّضهم لاتّحاد بعض السُوَر كما مرّ، لا ينبَغي الإشكال في تعدّد البراءة والأنفال، وإنّما رَواه الطَّبْرَسيّ والعيّاشيّ عليهما الرّحمة عن الصادق عليه السلام: «الأنفال وبراءة واحِد»[١١] مُؤَوّل أو مطروح.

---

١. الإتقان في علوم القرآن ١: ٢٢٨.
٢. الإتقان في علوم القرآن ١: ٢٢٥.
٣. الإتقان في علوم القرآن ١: ٢٢٥.
٤. مجمع البيان ٥: ٤.
٥. مستدرك الحاكم ٢: ٣٣٠.
٦. في المستدرك: رسول الله صلى الله عليه وآله مما يأتي عليه الزمان وهو ينزل عليه من السور ذوات.
٧. مستدرك الحاكم ٢: ٣٣٠.
٨. كذا، والطرائف جمع طريفة، أما الطرفة فجمعها طُرَف.
٩. تقدم في الطرفة الخامسة.
١٠. ثواب الأعمال: ١٠٦، تفسير العيّاشي ٢: ١٧٦٨/٢١٣.
١١. مجمع البيان ٥: ٤، تفسير العيّاشيّ ٢: ١٧٧٠/٢١٣.

الطّرفة الثانية عشرة

في بيان معنى السورة، وأنّ اسم كلّ سورةٍ كان بتوقيف من النبيّ ﷺ

السّورة: اسمٌ لطائفةٍ من القرآن ذاتِ فاتِحة وخاتِمة، مُسَمّاةٌ باسمٍ خاصٍّ بتَوقيفٍ من النبيّ ﷺ، وقد نصّ النبيّ ﷺ بأسامي السُّوَر في الأحاديث والآثار.

روي عن عِكْرِمَة، قال: كان المُشرِكون يقولون: سورة البقرة، وسورة العنكبوت، يستهزئون بها، فنزل: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ﴾[1].

ووَجهُ التَسميةِ بالأسامي المعيّنة المعروفة ظاهِر، فإنّ سورةَ الحَمد سميّت بالفاتِحةِ لافتِتاح القرآن بها، وسورة البقَرة لذكر قصّة البَقرة فيها، ولم تذكر في غيرها، وسورة آل عِمران لذِكْرِ آل عِمْران فيها، وهكذا سائر السُّوَر، وأمّا وَجهُ تسمية كلّ قِطْعَةٍ معيّنة بالسورة لارتِفاع مَنزِلتها وشأنها لأنّها كلامُ الله.

وتُطلَق السورة على المَنْزِلة الرفيعة، وقيل: إنّها مأخوذة من سُورِ البَلَد لإحاطَتِها بآياتها، واجتِماعها كاجتِماع البيُوت بالسور، ومنه السُّوار لإحاطَتِه بالسّاعِد.

الطّرفة الثالثة عشرة

في أنّ عدّة سور من القرآن سمّيت بالطوال وعدّة منها بالمئين وعدّه بالمثاني وعدّة بالمفصّل ووجه التّسمية

كما سُمِّيت كلّ سورة باسم خاصٍّ، سُمّيت عدّة سُوَرٍ باسم مخصوص.

عن (الكافي): بإسناده عن سَعْد الإسكاف، عن أبي جعفر عليه السلام، قال: «قال النبيّ ﷺ: أُعطيتُ السُّوَر الطوال مكان التّوْراة، وأُعطيتُ المِئين مَكان الإنجِيل، وأُعطِيتُ المَثاني مَكانَ الزَّبور، وفُضّلتُ بالمُفَصَّل ثَمان وستّون سورة، وهو مُهَيمنٌ على سائر الكتُب، فالتوراة لموسى، والإنجيل لعيسى، والزَبور لداود»[2].

ثمّ اعلم أنّه يُستَفاد من الرواية الشريفة أُمور:

---

١. الإتقان في علوم القرآن ١: ١٨٧، والآية من سورة الحجر: ١٥/٩٥.

٢. الكافي ٢: ٤٣٩/١٠.

الأوّل: أنّ جميع سُوَر القرآن يكون داخِلاً تحت العناوين الأربَعة، لا تخرُج منها سورة.

الثاني: أنّ الطوال مُقدَّم في التَرتيب على المِئين، والمِئين على المَثاني والمَثاني على المُفَصَّل.

الثالث: أنّ الطوال أفضَل من المِئين، لكَونِها بمَنزِلة التَورة التي هي أفضَل من الإنجيل، والمِئين أفضَل من المَثاني لكونها بمنزِلة الإنجيل الذي هو أفضَل من الزَّبور، ويُمكِن استِفادة كَون المُفَصَّل أفضَل من المَثاني، لأنّها ممّا فُضّل به النبيّ ﷺ.

قيل: الطُّوَل كصُرَد. وفي بعض روايات العامّة: الطوال، قيل: سُمّيَت به لكَثْرَةِ طُولها، وسُمّي ما بَعدها مِئين لأنّ كلّ سورة منها تَزيد على مائة آية أو تُقاربها، وسُمّي ما وَليَ المِئين بالمَثاني، لأنّها ثَنَتها أي كانت بَعدَها، فهي لها ثَوانٍ والمِئون لها أوائل.

وقال الفرّاء: المَثاني: هي السُّوَر التي آيها أقَلّ من مائة، لأنّها تُثَنّىٰ أكثر ممّا يُثَنّىٰ الطُّوَل والمِئون.

وقيل: لتَثْنِية الأمثال فيها بالعِبَر والخَبَر، أو لتَثْنِيَةِ القَصَص فيها.

وسُمّي ما وَليَ المَثاني من قِصار السُّوَر بالمُفَصّل لكَثْرَةِ الفُصول التي بين السُّوَر بالبَسْمَلَة. وقيل: لقلّة المَنْسُوخ منه، ولهذا يُسمّى بالمُحكَم أيضاً[1].

في تعيين السور الطوال والمئين والمثاني والمفصّل

روي عن سَعيد بن جُبير، قال: إنّ الذي تَدعُونه المُفَصّل هو المُحْكَم، وآخِرُه سورةُ النّاس بلا نِزاع[2].

ثم لا إشكالَ في أنّ عدَد الطوال سَبْعٌ، لرواية واثِلة عن النبيّ ﷺ قال: «اُعطِيت السَبْعَ الطوال مكان التَوراة»[3].

وعن ابن عباس رضي الله عنه: أنّ السّبع الطوال[4]: البَقَرة، وآل عِمران، والنِساء، والمائدة، والأنعام، والأعراف[5]. قال الراوي: فذكر السابعة فنَسِيتُها. وفي رواية اُخرى عنه: أنّها الكَهْف[6].

وعن مُجاهد وسَعيد بن جُبَير: أنّها يونس[7].

وقال الفيض رحمه الله: الطوال[8] السَبْع بعد الفاتحة، على أن تعدّ الأنفال والبراءة واحدة، لنزولهما جميعاً

---

١. الإتقان في علوم القرآن ١: ٢٢٠.
٢. الإتقان في علوم القرآن ١: ٢٢١.
٣. الإتقان في علوم القرآن ١: ٢١٨.
٤. في الإتقان: الطُّوَل.
٥. الإتقان في علوم القرآن ١: ٢٢٠.
٦. الإتقان في علوم القرآن ١: ٢٢٠.
٧. الإتقان في علوم القرآن ١: ٢٢٠.
٨. في تفسير الصافي: الطُّوَل.

في المَغازي، وتسميتهما بالقَرينتَين[١].

وفيه: أنّه بعد ما ثَبت أنّ الأنفال وبراءة سورتان، كيف يُمكِن عدُّهما واحدة، إلّا أن يُحمَل ما روي عن الصادق عليه السلام من قوله: «الأنفالُ وبراءة واحد»[٢] على تنزيلِهما منزلة الواحِد من هذه الجهة، مؤيّداً بالإشعار النبويّ على تقدّم السَبع الطوال على غيره.

ثمّ قال: والمِئينُ: من بَني إسرائيل إلى سَبع سُوَر [سُمّيت بها] لأنّ كُلّاً منها على نحو مائة آية. والمُفَصّل: من سورة محمّد إلى آخِر القرآن، سمّيت به لكَثْرَة الفَواصِل [بينها][٣].

أقول: هذا مبنيّ على عدّ الضُحى، والانشِراح، والفيل، وقريش، أربع سُوَر، وهذا خِلاف الأخبار والمَعروف بين الأصحاب، وعليه فلابدّ أن يُعَدّ المُفَصّل من الجاثية حتّى تتمّ ثَمان وستّون سورة إلى آخر القرآن على ما في الرواية الشريفة.

ثمّ قال رحمه الله: والمَثاني بقية السُوَر، وهي التي تَقصُر عن المِئين، وتَزيد على المُفَصّل[٤].

أقول: كان عليه أن يكتفي في تعيين المَثاني بذِكر بقيّة السُوَر، إذْ بعضُ المَثاني لا تَزيد على بعض سُوَر المُفصّل على ما حدّه، لأنّ عدد آيات سورة الرحمٰن التي جعَلها في المُفَصّل ثمان وسبعون، وسورة الواقعة سِتّ وتِسعون، وليس في المَثاني بعد الكَهْف سورة تَكون آياتها بهذا العَدد إلّا قليلاً كطٰه، والأنبياء، والمؤمنون، والشُعَراء، والصّافّات.

ونُقِل عن جرير بن عبدالحميد أنّه قال: تأليفُ مُصحَف عبدالله بن مسعود، الطوال[٥]: البقرة، وآل عِمران، والنِساء، والأنعام، والأعراف، والمائدة، ويونس.

والمِئين: براءة، والنَحْل، وهود، ويوسف، والكهف، وبني إسرائيل، والأنبياء، وطه، والمؤمنون، والشُعَراء، والصافّات.

والمَثاني: الأحزاب، والحَجّ، والقَصَص، والنَّمْل، والنّور، والأنفال، ومريم، والعنكبوت، والروم، ويَس، والفُرقان، والحِجْر، والرَّعد، وسَبأ، والمَلائكة، وإبراهيم، وصَ، والذين كفروا، ولقمان، والزُمَر.

والحَواميم: حَم المؤمن، والزُخْرف، والسَجْدَة، وحَمعَسق، والأحقاف، والجاثية، والدُخان.

---

١. تفسير الصافي ١: ١٨.

٢. مجمع البيان ٥: ٤، تفسير العياشي ٢: ١٧٧٠/٢١٣.

٣. تفسير الصافي ١: ١٨.

٤. تفسير الصافي ١: ١٨.

٥. في الإتقان: الطوَل.

والممتَحنات[١]: إنّا فتَحنا لك، والحَشْر، وتَنزيل السّجدة، والطّلاق، ونٓ والقلم، والحُجُرات، وتَبارك، والتّغابُن، والمنافقون، والجُمُعة، والصّفّ، وقُل أُوحي، وإنّا أَرسَلنا، والمُجادَلة، والمُمْتَحَنة[٢].

والمُفَصَّل: من الرّحمـٰن إلى آخِر القرآن[٣].

أقول: الظاهر من هذا الخبر أنّ الممتَحنات والحَواميم عند ابن مسعود قِسْمانِ خارجانِ من الأقسام الأربَعة، وأنّه كان ترتيب السُوَر في مُصحَفِه على خِلاف المُصحَف الذي بأيدينا، إلّا أنّه لا اعتبار بهذا النّقْل.

الطّرْفة الرابعة عشرة

في فوائد تقطيع القرآن سوراً، واختلافها في الطول والقصر والتوسّط

قال الزَمَخْشَريّ: الفائدةُ في تفصيل القرآن وتَقطيعه سُوَراً كثيرة، وكذلك أنزَل الله التَوراة والإنجيل والزَبور، وما أوحاه إلى أنبيائه مُسَوّرة، وبوّب المصَنّفون في كُتبهم أبواباً موشّحة الصُدور بالتَراجم.

منها: أن الجنس إذا انطوَت تحتَه أنواع وأصنافٌ كان أحسنَ وأفخَم من أن يكوَن باباً واحِداً.

ومنها: أنّ القارئ إذا ختَم سورةً أو باباً من الكِتاب، ثم أخَذ في آخَرَ كان أنشَطَ له وأبْعَثَ على التَحصيل منه لو استمرّ على الكِتاب بطولِه، ومِثلُه المُسافر إذا قطَع ميلاً أو فَرْسَخاً، نفَّس ذلك منه ونَشِط للسَّير. ومن ثَمّ جُزِّئ القرآنُ أجزاءً وأخماساً.

ومنها: أنّ الحافِظَ إذا حَفِظ[٤] السورةَ اعتقَد أنّه أخَذ من كتاب الله طائفةً مستقلّةً بنَفسِها، فيَعظُم عنده ما حَفِظَه.

ومنه حديث أنَس: كان الرَجُل إذا قرأ البقرة وآل عِمران جَدّ فينا، ومن ذلك[٥] كانت القراءة في الصَلاةِ بسورةٍ أفضَل.

ومنها: أنّ التَفصيل بسبَب تَلاحُق الأشكال والنَظائر وملائمة بعضها لبعض، وبذلك تتَلاحظ

---

١. (والممتحنات) ليست في الإتقان.
٢. زاد في الإتقان: ويا أيها النبي لم تحرم.
٣. الإتقان ١: ٢٢٣.
٤. في المصدر والإتقان والبرهان: حذق.
٥. في المصدر: ثمة، وفي الإتقان والبرهان: ثم.

المَعاني والنَظْم، إلى غير ذلك من الفوائد، انتهى[١].

وقيل: إنّ الحكمةَ في تَسويرِ القرآن سُوَراً تحقيقُ كونِ السورةِ بمجرّدها معجزةً وآيةً من آيات الله، والإشارة إلى أنّ كلّ سورةٍ نَمَطٌ مُستقلٌ، فسورةُ يوسف تُتَرجِمُ عن قصّته، وسورة براءة تُتَرجِمُ عن أحوالِ المُنافقين وأسرارهِم، إلى غير ذلك.

وأمّا حكمة اختِلاف السُوَر طُولاً وقِصَراً، التَنْبيهُ على أنّ الطُولَ ليس من شرائط الإعجاز، فهذه سورةُ الكُوثر ثلاثُ آياتٍ وهي مُعجِزَة إعجاز سورةِ البقَرة.

وأمّا الحكمة في جَعْلِها مختَلِفةَ المَراتِب في الطُول والقِصَر والتوسّط بينَهما سهولة التَعليم والتعلّم وتدريج الأطفال والمتعلمين من السُوَر القِصار إلى ما فوقها حتّى ينتَهون إلى الأوساط ومنها يتدرّجون إلى الطِوال على اختلاف مَراتبها، وتَيْسير الله على عباده في حِفْظِ كتابه[٢] وفي قراءة سوره في أضيَقِ الأوقات وأوساطها وطوالها في الصَلوات وغيرها، إلى غير ذلك من الحِكَم والمصالح التي لا يعلَمُها إلّا الله تعالى.

الطّرفة الخامسة عشرة

في أنّ البسلمة جزءٌ من كلّ سورة، بل هي أعظم آياتها

لا شُبْهَةَ أنّ البَسْمَلةَ آية من آياتِ القرآن، وجزءٌ من الفاتِحة، وغيرها من السُوَر عدا براءة، بل هي أعظَم الآيات وأفضَلها، حيث روي عن أبي عبدالله عليه السلام قال: ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ﴾ أقرب إلى اسمِ الله الاعظَم من ناظِر العَينِ إلى بيَاضِها»[٣].

وعن الباقر عليه السلام: «سرَقوا أكرَم آية من كتاب الله: ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ﴾[٤] الخبر.

والعياشي، عن الصادق عليه السلام قال: «مالَهم؟ - يعني العامّةِ - قاتلهم الله، عمَدوا إلى أعظَم آيةٍ في كتاب الله فزَعموا أنّها بِدْعَةٌ إذا أظهَروها [وهي ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ﴾]»[٥] إلى غير ذلك من الروايات.

وأمّا كونها جُزءاً من الفاتِحة، فَلِما روِي في الصحيح عن محمّد بن مسلم، قال: سألت أبا

---

١. الكشاف ١: ٩٧، الإتقان في علوم القرآن ١: ٢٢٩، البرهان في علوم القرآن ١: ٣٣٤.

٢. الإتقان في علوم القرآن ١: ٢٢٨.

٣. التهذيب ٢: ١١٥٩/٢٨٩.

٤. تفسير العياشي ١: ٧٧/١٠٠.

٥. تفسير العياشي ١: ٨٩/١٠٣.

عبدالله عليه السلام عن السَبْع المَثاني والقرآن العظيم، أهي الفاتحة؟ قال: «نعم».

قلتُ: ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ﴾ من السبع المَثاني؟ قال: «نعم[١]، أفضَلهنّ»[٢].

وعن الحسن العسكري، عن آبائه عليهم السلام، عن أمير المؤمنين صلوات الله عليه أنّه قال في حديث: «﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ﴾ آية من فاتِحة الكِتاب، وهي سَبعُ آياتٍ تَمامُها ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ﴾»[٣].

وفي (عيون الأخبار) قال: قيل لأمير المؤمنين عليه السلام: أخبِرنا عن ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ﴾، أهِيَ من فاتِحة الكِتاب؟ قال.

فقال: «نعم، فإنّ رسولَ الله صلى الله عليه وآله كان يقرؤها ويعدّها آيةً منها ويقول: فاتحةالكتاب هي السَبع المَثاني»[٤].

وعن أمّ سَلَمة ـ بالطريق العاميّ ـ: أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله كان يقرأ: ﴿بِسْمِ ٱللهِ الرَّحْمٰنِ ٱلرَّحِيمِ * الحَمْدُ للهِ رَبِّ ٱلعَالَمِين﴾[٥] إلى أن قالت: وعَدّ ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ﴾ آيةً، ولم يعدّ: ﴿عَلَيهم﴾[٦].

وعن عليّ عليه السلام أنّه سُئِل عن السَبع المَثاني، فقال: «﴿الحَمْدُ للهِ رَبِّ ٱلعَالَمِينَ﴾» فقيل له: إنّما هي ستّ آياتٍ؟ فقال: ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ﴾ آيةٌ»[٧].

وعن ابن عبّاس، قال: السَبْعُ المَثاني فاتحة الكتاب. قيل: فأينَ السابعة؟ قال: ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ﴾[٨].

وعن أبي هُرَيْرَة، قال: قال رسولُ الله صلى الله عليه وآله: «إذا قرأتم الحَمدَ، فاقرأوا، ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ﴾ فإنّها أمّ القُرآن، وأمّ الكِتاب، والسَبْع المثاني، إحدىٰ ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ﴾ آياتها»[٩].

وأمّا كونها كجزءٍ من سائر السُوَر، فَلِما رُوي عن معاوية بن عمّار،قال: قلتُ لأبي عبدالله عليه السلام: إذا قُمْتُ للصلاةِ، أقَرأ ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ﴾ في فاتِحة القرآن؟ قال: «نعم». قلتُ: فإذا قرأت فاتحة القرآن، أقرأ ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ﴾ مع السّورة؟ قال: «نعم»[١٠].

---

١. في التهذيب: نعم، هي.
٢. التهذيب ٢: ١١٥٧/٢٨٩.
٣. التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام: ١٠/٢٩.
٤. عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ٥٩/٣٠١.
٥. الفاتحة: ١/١ و٢.
٦. سنن الدار قطني ١: ٢١/٣٠٧.
٧. سنن الدار قطني ١: ٤٠/٣١٣، السنن الكبرى ٢: ٤٥.
٨. السنن الكبرى ٢: ٤٥.
٩. سنن الدار قطني ١: ٣٦/٣١٢، السنن الكبرى ٢: ٤٥، وفيهما: إحداها، بدل: إحدى آياتها.
١٠. الكافي ٣: ١/٣١٢، الاستبصار ١: ١١٥٥/٣١١.

وعن يحيى بن أبي عِمران، قال: كتبتُ إلى أبي جعفر عليه السلام: جُعلتُ فداك، ما تقول في رجُلٍ ابتدأ بـ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ﴾ في صَلاتِه وحده في أُمّ الكِتاب، فلمّا صارَ إلى غير أُمّ الكِتاب من السورة ترَكها، فقال العباسي: ليس بذلك بأس؟ فكتَب بخَطّه: «يُعيدُها مرّتين على رَغم أنفِه» يعني العباسي[1]. والظاهر أنّ إيجاب الإعادة لعدَم تماميّة السُورة، لا لِكَونِ البَسْمَلَة واجباً مستقلاً.

ومن طرُق العامّة، ما روي عن ابنِ عبّاس قال: كان النبيُّ صلى الله عليه وآله لا يعرِف فَصْلَ السُورَةِ حتّى تنزِل عليه ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ﴾.

وزاد البَزّاز: فإذا أُنزلَت، عرَف أنّ السورَة [قد] خُتِمت، واستُقبِلَت، أو ابتُدِئَت سورة أُخرى[2].

وعن ابن عبّاس، قال: كان المسلمون لا يعلَمون انقِضاء السورة حتّى تنزِل ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ﴾، فإذا أُنزِلت عَلِموا أنّ السورَة قد انقَضَت[3].

وعنه أيضاً أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله كان إذا جاءه جَبْرَئيل فقرأ: ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ﴾، عَلِم أنّها سورةٌ[4].

وعن ابنِ عُمَر: أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «كان إذا جاءني جَبْرَئيل بالوَحْي، أوّل ما يُلقي عليَّ: ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ﴾»[5].

وعنه أيضاً، قال: «نزَلت ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ﴾ في كلّ سورة»[6].

وعن أنَس، قال: بيْنا رسول الله صلى الله عليه وآله ذات يومٍ بين أظهُرِنا، إذْ أغفى إغفاءةً، ثمّ رَفع رأسَه مُتَبَسِّماً فقال: «أُنزِلت عليَّ آنفاً سورةٌ، فقرأ ﴿بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحْمـٰنِ ٱلرَّحِيمِ * إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾[7].

ولا يَخفى أنّ على ما ذكَرنا اتّفقَتِ الإماميّة رِضوان الله عليهم أجمعين، وأمّا العامّة فقد اختَلفوا على أقوالٍ شتّى، منهم مَن انكَر كونَها من القرآن، وإليه أشار ابن عبّاس بقَوله: استَرَق الشَيطانُ من النّاس

---

١. الكافي ٣: ٢/٣١٣، الاستبصار ١: ١١٥٦/٣١١، والمراد بأبي جعفر الجواد عليه السلام، والعباس هو هشام بن إبراهيم، وكان يعارض الرضا والجواد عليهما السلام، وقوله «يعيدها مرّتين» يمكن أن يكون متعلّقاً بكتب، فيكون من تتمة كلام الراوي، وقال الفيض: «يعيدها» يعني الصلاة أو البسملة، والأول أظهر، «مرتين» متعلق بقوله: «فكتب» لابقوله: «يعيدها» إذ لاوجه لتكرار الإعادة.

٢. الإتقان في علوم القرآن ١: ٢٦٨.

٣. مستدرك الحاكم ١: ٢٣٢.

٤. مستدرك الحاكم ١: ٢٣١.

٥. سنن الدار قطني ١: ١٣/٣٠٥، الإتقان في علوم القرآن ١: ٢٧٠.

٦. الإتقان في علوم القرآن ١: ٢٧٠.

٧. صحيح مسلم ١: ٥٣/٣٠٠، الإتقان في علوم القرآن ١: ٢٧٠، والآيتان من سورة الكوثر: ١٠٨/١.

أعظَم آية من القرآن: ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ﴾[١].

ويقوله: أغفَل النّاس آيةً من كتاب الله لم تَنزِل على أحدٍ سوى النبيّ ﷺ إلّا أن يكونَ سُليمان بن داود، ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ﴾[٢].

وفي ذيل كلامه إشارةٌ إلى ما روي عن النبيّ ﷺ قال: «لا أخرُج من المَسجِد حتّى اُخبِرَك بآيةٍ لم تَنزِل على نبيٍّ بعد سُلَيمان غيري» ثمّ قال: «بأيّ شيءٍ تَفْتَتِح القرآن إذا افتتحت الصّلاة؟» قلتُ: ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ﴾. قال: «هي هي»[٣].

وما عن الباقر عليه السلام: «سرَقوا أكرَم آيةٍ من كتاب الله، ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ﴾»[٤] وينبغي الإتيانُ بها عند افتِتاح كلّ أمر عظيم أو صغير ليُبَارَكَ فيه.

ومنهم من قال إنّها آيةٌ مستقلّة ليست جزءاً من سورةٍ.

ومنهم من قال إنّها جُزءٌ من الفاتِحة دون غيرها من السُّوَر.

واستَدلّ مَن قال منهم بأنّها جُزءٌ من جميع السُّوَر بأنّه يكفي في إثباتِ تَواتُرِ كَونِها من جميع السُّوَر إثباتُها في مَصاحِف الصَّحابة فمن بعدها بخَطّ المُصحَف مع مَنْعِهم أن يُكتَب في المُصحَف ما ليس منه كأسماءِ السُّوَر، وآمّين، وغير ذلك، فلو لم تكن قرآناً لَما استَجازوا إثباتها بخَطّه من غير تَمييز، لأنّ ذلك يحمِل النّاسَ على اعتِقادها قرآناً فيكونون مُغَرّرين بالمُسلمين، حامِلين لهم على اعتِقاد ما ليس بقرآن قرآناً، وهذا ممّا لا يجوزُ اعتِقاده في الصَّحابة.

إن قيل: لعلّه اُثبِتَت للفَصْل بين السُّوَر. اُجيبَ: بأنّ هذا فيه تغريرٌ، ولا يجوزُ ارتِكابُه لمُجَرّد الفَصْل، ولو كانَت لكُتِبَت بين براءة والأنفال.

الطّرَفة السادِسة عشرَة

في أنّ آيات الكتاب العزيز بين محكم ومتشابه وفي تعريف كلّ منها

لا ريب في أنّ آيات الكتاب العزيز قِسمان: مُحكَمٌ ومتَشابه، كما قال الله تعالى: ﴿آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ

---

١. الإتقان في علوم القرآن ١: ٢٦٨.
٢. الإتقان في علوم القرآن ١: ٢٦٨.
٣. الإتقان في علوم القرآن ١: ٢٦٨.
٤. تفسير العياشي ١: ١٠٠/٧٧.

هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾[١] واختلفت في تعريفهما الرواياتُ وكلماتُ العلماء.

والحَقُّ أنّ المُراد بالمُحْكَم: هو الكلام الواضح الدّلالة بحيث لا يكون للعُرف ـ ولو بملاحظة القرائن المُكتَنِفة به ـ تَحيُّرٌ في استِفادة المُراد منه، ولا يحتاج في تعيين المقصود منه إلى الرّجوع إلى العالِم أو إلى القَرائن المنفَصِلة والأدِلّة العقليّة والنَّقليّة الخارجيّة.

والمُراد بالمتَشابه: هو الكلام المُجْمَل أو المُبْهَم الّذي يَشتَبه المُراد منه على العُرف، بحيث لا يكون له بالوضع أو بالقرائن المتّصلة حقيقةً أو حُكماً ظهورٌ في المُراد منه، بل لابدّ في الاستِفادة منه من الرّجوع إلى العالِم الخبير بِمُراد المُتَكلّم، أو إلى الاجتِهاد في تحصيل القرائن المُنفَصِلة عن الكلام من حُكم العَقل المُستَقِلّ، أو سائر كلمات المُتَكلّم.

ولعلّه إلى ما ذكرنا يرجع ما عن العيّاشيّ رحمه الله عن الصادق عليه السلام أنّه سئل عن المُحكَم والمُتَشابه فقال: «المُحكَمُ ما يُعمَلُ به، والمُتَشابه ما اشتَبَه على جاهِله»[٢] فإنّ الظاهر أنّ المُراد من قوله: «ما يعمل به»، هو الكلام الّذي لا يتوقّف العُرف في فَهم المُراد منه والعمل به، وهو جميع آيات الأحكام.

كما روي عن ابن عبّاس، قال: المُحكَماتُ: ناسِخُه، وحَلالُه، وحَرامُه، وحُدودُه، وفرائضه، وما يُؤمَن به ويُعمَل به، والمتشابهات: منسوخُه، ومقدَّمُه، ومُؤخَّرُه، وأمثالُه، وأقسامُه، وما يُؤمَن به ولا يُعمَل به[٣].

وعن مُجاهِد، قال: المحكمات: ما فيه الحَلال والحَرام، وما سوى ذلك منه مُتشابه يصدِّقُ بعضُه بعضاً[٤].

وعن الرّبيع، قال: المُحكَماتُ: هي أوامره وزواجره[٥]. إلى غير ذلك من التعريفات، فإنّ جميعها بيانٌ لمَوارِد التّنصيص والظهور، وهي جميع الأحكام دون غيرها، فإنّ في غير آيات الأحكام كثيراً ما يكون الإجمالُ والإهمال.

في أنّ النبي صلى الله عليه وآله والمعصومين من ذريته عليهم السلام عالمون بتأويل المتشابه، وفي تغليط القائلين باختصاص علمه بالله تعالى

ثمّ إنّه قد غلَط من قال باختِصاص العلم بتأويل المُتَشابهات بالله سبحانه، وإنّه ممّا استأثر به ذاته المقدّسة، ولا يعلَمُه النبيّ صلى الله عليه وآله وأوصياؤه المعصومون صلوات الله

---

١. آل عمران: ٣/٧.
٢. تفسير الصافي ١: ٢٩٥، تفسير العيّاشي ١: ٣٨/٨٧ «نحوه».
٣. تفسير الطبري ٣: ١١٥.
٤. تفسير الطبري ٣: ١١٥، الإتقان في علوم القرآن ٣: ٤.
٥. الإتقان في علوم القرآن ٣: ٥، وفيه: هي الآمرة الزاجرة.

عليهم أجمعين، فإنّ فائدة الكلام تفهيمُ الغَير، فلو خَلا عن هذه الفائدة، ولو بالنسبة إلى الواحد، كان لغواً، والحكيمُ تعالى مُنزّهٌ عنه، مع أنّ النبيّ ﷺ كان يتحدّى بكلّ آيةٍ من الكتاب العزيز، ولا يمكن أن يتحدّى بما لا يعرَف المُراد منه، ولا يُفهَم معناه، مع أنّه تعالى استثنىٰ عن جميع الخَلق غير العالِمين بتأويل المُتَشابهات الراسِخين في العِلم، وقرنَهم بذاتِه المُقدَّسة في العلم بتأويلها، والمُراد بالراسخين في العلم النبيّ ﷺ وأوصياؤه من بعده صلوات الله عليهم كما في رواية. [عن أحدهما عليهما السلام] قال: «فرَسولُ الله ﷺ أفضَل الرّاسخين في العلم، قد علّمه الله جميع ما أنزل عليه من التنزيل والتأويل، وما كان الله ليُنزِلَ عليه شيئاً لم يُعلّمه تأويلَه، وأوصياؤه من بعده يعلمونه كلّه»[1].

وعن أمير المؤمنين ـ في حديثٍ ـ قال: «إنّ الله جَلّ ذِكره بسعة رحمته ورأفتِه بخَلقه، وعلِمه بما يُحدِثُه المُبَدِّلون من تغيير كلامه[2]، قسّم كلامَه ثلاثةَ أقسام؛ وجعل قِسماً منه يعرفه العالمُ والجاهلُ، وقِسماً لا يعرفه إلّا مَن صَفا ذِهنُه، ولَطُف حِسُّه، وصَحّ تَميّزه، ممّن شرَح الله صدَره للإسلام، وقِسماً لا يعرِفُه إلّا الله وأنبياؤه[3] والراسخون في العلم»[4].

وعن العَيّاشيّ: عن الصادق عليه السلام ـ في حديث ـ قال: «نحن الرّاسِخون في العلم، ونحن نعلَمُ تأويله»[5].

وعن ابن عبّاس بطريق عامّي في قوله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِى ٱلعِلْمِ﴾[6] قال: أنا مِمّن يعلَمُ تأويلَه[7].

وعن مجاهد، في قوله: ﴿وَٱلرَّاسِخُونَ فِى ٱلعِلْمِ﴾ قال: يعلَمون تأويلَه، و﴿يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ﴾[8].

وعن الضحّاك، قال: الرّاسخون في العِلم يعلَمون تأويلَه، ولو لم يعلَموا تأويلَه لم يعلَموا ناسِخَه ومنسوخَه[9]، ولا حَلاله ولا[10] حَرامه، ولا مُحكَمه عن[11] مُتَشابهه[12].

وعن النوويّ على مانقله السيوطيّ عنه، أنّه قال في (شرح مسلم): إنّه الأصح؛ لأنّه يَبعُد أن يُخاطِب الله عبادَهُ بما لا سبيلَ لأحدٍ من الخَلْقِ إلى معرفته[13].

ثمّ أنّ مَنشَأ غَلَط أكثر أهل السُّنّة في المقام، توهُّم كَون الواو في ﴿وَٱلرَّاسِخُونَ فِى ٱلعِلْمِ﴾ استئنافاً

---

١. الكافي ١: ٢/١٦٦. ٢. في الإحتجاج: كتابه. ٣. في الاحتجاج: وأُمناؤه.
٤. الاحتجاج: ٢٥٣، تفسير الصافي ١: ٢٩٥. ٥. تفسير العيّاشيّ ١: ٦٤٨/٢٩٣، تفسير الصافي ١: ٢٩٥.
٦. آل عمران: ٧/٣. ٧و ٤. الإتقان في علوم القرآن ٣: ٦. ٩. في الإتقان: من منسوخه.
١٠و٧. في الإتقان: من. ١٢و٩. الإتقان في علوم القرآن ٣: ٦.

و[ما]بعده مبتدأ وقولُه: ﴿يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ﴾[١] خبَرُه، وهو بمكان من الضَّعف لِقوّة ظُهور الواو في العَطْف، وعدَم وجود قرينة في المَقام تليق أن تكون صارفاً عنه.

وأضعَف منه تأييد بعضِهم هذا التَّوهُّم بأن الآية دلّت على ذمّ مُتَّبعي المتشابه، ووَصْفِهم بالزَّيغ وابتِغاء الفتنة، وعلى مَدْح الذين فوَّضوا العلم إلى الله، وسلّموا إليه، حيث إنّ الآية دالّةٌ على ذمّ أهل الزَّيغ غير العالمين بتأويل المُتَشابه، بأنّهم مع جَهْلِهم بتأويله يؤوّلونه ويتّبعونه لا طَلَباً للحقّ، بل ابتِغاءً للفِتنة، ففيهم جهاتٌ عديدة الذمّ.

وأمّا الراسِخون في العلم فإنّهم لعِلمهم بتأويله، ومعرفتهم بالعلوم المُندَرِجة في المُتَشابهات، يتَجاهرون بالإيمان بها، ويشهَدون على رؤوس الأشهاد بأنّها كلام الله كالمُحكَمات.

ولو كان أهلُ الزَّيغِ والعلم مشاركين في الجَهل بالتأويل مُتَفاوتين في الإيمان والنِفاق لم يَحسُن توصيف المؤمنين بالعلم، بل كان الأنسَب أن يقال: (وأما الرّاسِخون في الايمان يقولون آمنّا به كلٌّ من عند ربنا) مع أنّ التأييد المذكور لا يقاوم البرهان الّذي قدّمناه من لزوم اللّغو على الحكيم، وهو محالٌ عند العَدليّة، ومُستبعَدٌ عند من يُجَوّز القبيح على الله من الأشاعرة.

وأمّا استدِلالهم بما رووه بطُرُقهم، عن الأعمش، قال: إنّ في قراءة ابن مسعود (إنْ تأويلُه إلّا عند الله والراسِخون في العلم يقولون آمنّا به)[٢] فموهونٌ سنَداً ودلالةً، لعدم كون ما نُقل عنه قرآناً يقيناً، بل هو تفسيرٌ له، ولعلّ مُراده أنّ الراسِخين لا يؤوّلون المتشابه من قِبَل أنفُسِهم وأهوائهم، بل بتَعليم الله إيّاهم.

فالعلم به أولاً عند الله، ثمّ بإفاضتِه يعلمه الراسِخون ويقولون: آمنّا به كلّ من المُحكَم والمُتَشابه من عند الله، كاشفاتٌ عن العلوم غير المُتَناهية الإلهيّة، وبهذا يُجمع بين الرواية السابقة عن ابن عبّاس، وما روي عنه من قراءته: (وما يعلم تأويله إلّا الله ويقول الراسِخون في العلم آمنّا به)[٣] وما روي عن أُبَيّ بن كَعْب أنّه قرأ: (ويقول الرّاسِخون)[٤].

ومثله في الوَهْن استدلالُهم بما روي عن أبي مالك الأشعري أنّه سَمع رسول الله ﷺ يقول: «لا أخاف على أمّتي إلا ثلاثَ خِلال: أن يَكثُر لهم المال فيتَحاسَدوا فيقتَتلوا، وأن يُفتَح لهمُ الكِتاب

---

١. آل عمران ٣: ٧.
٢. الإتقان في علوم القرآن ٣: ٧. والآية من سورة آل عمران: ٣/٧.
٣. الإتقان في علوم القرآن ٣: ٦.
٤ - ٥. الإتقان في علوم القرآن ٣: ٧.

فيأخُذه المؤمن، يبتَغي تأويله وما يعلم تأويله إلّا الله»[١]. حيث إنّ المُراد من الأُمّة المَخوف عليهم التأويل، غير الرّاسخين في العلم، كما أنّ المُراد من الّذين يُخاف عليهم التّحاسُد والمُقاتلة غير المَعصومين منهم، ولا دلالة لعدم ذكر بقيّة الآية على شيء.

كما أنّ الخِطابَ فيما روي عنه ﷺ أنّه قال: «إنّ القرآن لم ينزل لُيكذِّب بعضُه بعضاً، فما عرفتُم منه فاعمَلوا به، وماتَشابه فآمِنوا به»[٢] متوجّهٌ إلى غير الرّاسخين في العلم العالِمين بتأويله من لَدُن حكيم عليم، فإنّهم الّذين لا يجوز لهم إلّا الإيمان والتعلّم من أهل العِلم والذّكر.

وكذا ما عن ابن مسعود، عن النبيّ ﷺ قال: «كان الكتاب الأوّل ينزلُ من بابٍ واحدٍ على حَرفٍ واحد، ونزَل القرآن من سبعة أبوابٍ على سبعةِ أحرف: زاجر، وآمِر، وحلال، وحرام، ومحكم، ومتشابه، وأمثال، فأحِلّوا حلالَه، وحَرِّموا حرامَه، وافعَلوا ما أُمرتم به، وانتَهوا عمّا نُهيتُم عنه، واعتَبِروا بأمثالِه، واعمَلوا بمُحكَمِه، وآمنوا بمتشابهه، وقولوا آمنّا به كلٌّ من عند ربّنا»[٣].

فحاصلُ مَدلول هذه الروايات، أنّ وظيفة غير الرّاسخين من النّاس السُّكوتُ عن تأويل المُتَشابهات، وعدمُ القَول فيه من قِبَل أنفُسهم، والإيمانُ بها، والإقرارُ بأنّها من عند الله، كما نُقل عن ابن عبّاس رضي الله عنه أنّه قال: نؤمن بالمُحكَم ونَدينُ به، ونؤمن بالمُتشابه ولا نَدين به ـ أي لا نعمل به ـ وهو من عند الله كلُّه[٤].

وأعجب من جميع الاستِدلالات، استِدلالُهم بصَنيع عمر بن الخَطّاب، حيث روي أنّ رجلاً يقال له عبدالله بن صَبيغ[٥] قدِم المدينة فجعل يسأل عن مُتَشابه القرآن، فأرسل إليه عمر وقد أعدّ له عَراجِين النَّخل، فقال: من أنت؟ قال: أنا عبدالله صَبيغ، فأخَذ [عمر] عُرجوناً فضرَبه حتّى أدمى رأسه[٦].

وفي رواية: فضَرَبه بالجَريد حتّى ترَك ظهرَه دَبَرَة ثمّ تركه حتّى برى، ثمّ عاد [له] ثمّ تركه حتّى برئ، ثمّ دعاه ليعود فقال: إن كنتَ تُريد قَتْلي فاقتُلني قتلاً جميلاً، فأذِن له الرّجوع إلى أرضه، وكتب إلى أبي موسى الأشعري: ألّا يُجالِسُه أحدٌ من المسلمين، انتهى[٧].

فإنّ الاستِدلال بهذا الخبر على الطّعن في عُمَر وأنّه أظلَم الظالمين، أولى من الاستدلال به على

---

٣. الدر المنثور ٢: ١٤٩. ٤. الإتقان في علوم القرآن ٣: ٨.

٥. في النسخة: صنيع (بضيع)، وما أثبتناه من المصادر.

٦. تفسير القرطبي ٤: ١٤، الدر المنثور ٢: ١٥٢، الإتقان في علوم القرآن ٣: ٨.

٧. الإتقان في علوم القرآن ٣: ٨.

عدم العلم بتأويل المُتَشابهات حتّى للرّاسِخين، لأنّ فِعلَه لا يكون حجّةً إلّا على ظُلمهِ، ولعلّ ارتِكابَه له في حقّ هذا السائل المتعلّم، من جهة أنّ سؤاله هذا كان سبباً لاهتِدائه إلى باب أمير المؤمنين صلوات الله عليه وشدّة ظهور فَضله على النّاس، وجَهل غيره.

وكأنّ ذَهابَ أكثر شيعَتِه إلى القول بجَهلِ النبيّ ﷺ بالكتاب الّذي اُنزِل عليه، لِتَلازُمِ اعتِرافهم بعلم النّبيّ ﷺ اعترافهم بعلم أمير المؤمنين عليه السلام به، واضطِرار الخَلق إلى بابه، لأنّه ﷺ باتّفاق الأمّة مدينةُ العلم، وعليّ بابُها، وإليه أشار أمير المؤمنين صلوات الله عليه في حديث بيان المُتشابه حيث قال: «إنّما فعَل [الله] ذلك لئلا يدّعي أهلُ الباطِل من المُستَولين على ميراث رسول الله ﷺ من علم الكتاب مالم يجعَله لهم، وليقودَهم الاضطِرار إلى الائتِمار بمن ولّاه أمرَهم فاستكبروا عن طاعته تعزّزاً وافتراءً على الله عزّ وجل...» الخبر[1].

الطّرفة السابعة عشرة

في حكم كون كثير من الآيات متشابهاً، وعدم كون جميعها محكمات

لا يخفى أنّ فوائدَ جَعلِ كثيرٍ من آياتِ القرآنِ متَشابهاتٍ، وعدَم جَعْلِ كلّها مُحكَمات كثيرةٌ وحِكَمَهُ وَفيرةٌ:

منها: ما أشار إليه أمير المؤمنين صلوات الله عليه في الرواية السابقة من اضطِرار النّاس إلى الرّجوع إلى الرّاسِخين في العِلم، والائتمار بأوامِرهم، فإنّهم إذا حضَروا في مجالسهم لاستِفادة علمِ القرآن، عرَفوا شأنَهم وعُلُوَّ مقامِهم، وازدادوا [في] مُوالاتهم ومحبّتهم، واقتَدَوا بأعمالهم، واكتَسبوا من أخلاقهم.

ومنها: تَبيُّن فَضل العلماء على سائر النّاس واختِلاف مَراتبهم.

ومنها: اضطِرار أهل الإيمان إلى التّدبر والتّفكّر في القرآن، فبالتّدبُّر فيه تظهَر دقائقُه، وتُكشَف حقائقهُ، ويحصُل كمالُ التوْحيد، وتمامُ المعرفة، وقوّةُ اليقين، وثَباتُ الإيمان، ولو كان كلُّه مُحكماً لتعلّقوا به لسُهولة مأخَذه، وأعرَضوا عن الغَور في غَوامِضه.

---

[1] الاحتجاج: ٢٥٣.

ومنها: شدّة الاهتمام بحِفظه، وزيادة الحُبّ بمَضامينه، إذ الانسانُ إذا تحمّل المَشقّة في تحصيل شيء، كان له أحَبّ وأحفَظ.

ومنها: زيادة عِظَم القرآن في الأنظار، حيث إنّ العادَة قاضيةٌ بأنّ كلّ كتابٍ كان فَهمُ مَطالبِه أشكَل، كان قَدْرُه عند النّاس أعظَم.

ومنها: فِتْنَةُ الخَلقِ وامتِحانهم بها، وتبيّن الصادِقين في الإيمان من الكاذبين، فإنّ الحكمةَ البالغة مُقتَضِية لأن لا ينسَدّ على أحدٍ بابُ الغيّ والضّلال في حالٍ من الأحوال، ولا يكون لأحدٍ إلجاءٌ وقَهرٌ على الالتِزام بالحقّ وقَبول الرّشاد، وإذا كانت جميع الآيات مُحكَمات لم يكن لأهلِ الزَيغ مجال ابتِغاءِ الفِتنَةِ والفَسادِ مع إتمام الحُجّة عليهم بالأمر بالرجوع فيها إلى الحُجَج البالغة، والزَّجر عن التكلّم فيها، وابتِغاء تأويلها بالأهواء الزائغة.

والحاصل: أنّ الحكيم المُتَعال جعَل كتابه التّدوينيّ مطابقاً لكتابه التّكوينيّ، وكما أنّه جعَل غالِبَ آياتِ الكِتاب التّكويني من موجودات العالم مُتَشابهاتٍ، حيث جعَل الطبائع فيها، والأسباب والمؤثّرات لها، حتّى يبقى للذّوات الخبيثة وذوي الأهواء الفاسِدة والعقول المَغلوبة الكاسِدَة مَجالٌ للقول بخالقيّة الطبيعة، وأُلوهيّة الشّمس وسائر الأجرام الفَلَكيّة، وإنكار الصانع الحكيم لعدم علمهم بتأويلها، وقُصور نظَرهم عن رؤية ما وراء طبائعها وأسبابها، وزَيغ قُلوبهم عن إدراك مُسبّب الأسباب وخالِقها، مع إتمام الحجّة عليهم بإرسال العَقل، العالِم بتأويل تِلك المُتَشابهات إليهم، وجَعلِه هادياً لهم، وتأييده بالأنبياء المُرسَلة والكتب المُنَزلة.

فالذّواتُ الخَبيثةُ بزَيغِ قلوبهم يؤوّلون تلك الموجودات المُتشابهات التكوينيّة من قِبَل أنفُسهم، ويتّبِعون ما تَشابه ابتِغاء الفِتنة، وأمّا الذّوات الطيّبة، والنّفوس الزكيّة، فبِبَصيرةِ قلوبهم يراجعون إلى العقل السليم الذي هو الإمام الراسِخ في العلم، ويتعلّمون منه التأويل، ويتَمسّكون بالبُرهان من عدم إمكان كَون المَخلوق خالِقاً، والمتغيّر واجباً، فعند ذلك يقولون: آمنّا، كلٌّ من المُحكَمات الواضِحات الدلالات على خالِقها، والمُتَشابهات من الموجودات بالأسباب والمؤثّرات التي جميعها آياتُ كتابِ التّكوين، من عند ربّنا.

كذلك جعل كثيراً من آيات كتاب التّدوين وهو القرآن المُبين مُتَشابهات، ليَمتازَ أهلُ الزَيغ والنِفاق من المُتَظاهرين بالإيمان بالكتاب، عن أهلِ الصِدق والإخلاص، فلو لم يكن في موجودات العالَم

تَشابُه، ولم يكن في كتاب التّكوين مُتَشابه، بل كان كلُّها مُحكَمات، لم يحصُل الامتِحان والاختِيار، وكان إيمانُ المؤمن شِبْه الإلجاء والإجبار، وكذلك لو لم يكن في القرآن مُتَشابهات لم يحصُل للمُقِرِّين به الفِتنة والامتِحان ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾[١].

الطّرفة الثامنة عشرة

في أنّ الحروف المقطّعة التي تكون في أوائل السّور من أبين مصاديق المتشابه، وبيان المراد منها

من أبيَن مَصاديق المُتَشابه في القرآن، الحروفُ المُقَطَّعات التي تكون في أوائل السُوَر، ولا شُبهَةَ أنّها رموزٌ وأسرارٌ بين الله تعالى والرّاسخين في العلم، لا يَطَّلِعُ عليها غيرُهم.

عن الشّعبيّ، أنّه سُئِل عن فَواتِح السُوَر، فقال: إنّ لكلّ كتابٍ سِرّاً، وإنّ سِرّ هذا القرآن فواتِحُ السُوَر[٢].

واختلَفت الأخبار في بَيان المُراد منها، وأكثَرها تدلّ على أنّ كلّ حرفٍ منها رمزٌ من اسمٍ من الأسماء الحُسنى، كما عن السّدّي، قال: فَواتح السُوَر أسماءٌ من أسماءِ الربّ جَلّ جلاله، فُرِّقَت في القرآن[٣].

وقال الزّجّاج: إنّ العرَبَ كانوا يَنطِقون بالحَرف الواحد، كنايةً عن الكلمة التي هو منها[٤].

وقال القاضي أبو بكر ابن العرَبي في الحروف المُقَطَّعات: إنّه لولا أنّ العرَب كانوا يعرِفون أنّ لها مدلولاً مُتَداوَلاً بينهم، لكانوا أوّل من أنكَر ذلك على النبي ﷺ بل تَلا عليهم حَم فُصّلت وصَ وغيرهما، فلم يُنكِروا عليه ذلك، بل صرّحوا بالتسليم له في البلاغة والفَصاحة مع تَشوُّقهم إلى عثرته، وحِرْصِهم على زلّته، فدَلّ على أنّه كان أمراً معروفاً بينهم لا إنكار لهم فيه، انتهى[٥].

أقول: كان يكفي تَداوُل التّكنية والإرماز بالحروف المُقطّعة في عدم تمكنهم على الإنكار والاعتِراض، ولا يلزَم معرفتهم بخُصوص المَعنى تُفصيلاً، ولعَلّ مُراده المعرفة الاجماليّة. وقد تظافَرت روايات الخاصّة والعامّة على أنّها رموزٌ وكِناياتٌ عن أسماء الله تعالى وتَعيينها وتَبيينها.

---

١. العنكبوت: ٢٩/٢. ٢. الإتقان في علوم القرآن ٣: ٢٤.
٣. الإتقان في علوم القرآن ٣: ٢٦. ٤. الإتقان في علوم القرآن ٣: ٢٧.
٥. الإتقان في علوم القرآن ٣: ٣٠.

عن (المجمع): عن الصادق عليه السلام: «أنّ (صَ) اسمٌ من أسماء الله تعالى، به أقسَم الله»[١].

وعن ابن عباس، قال: (الٓم) و(طسٓم) و(صَ) وأشباهها قَسمٌ أقسَم الله به، وهو من أسماء الله تعالى[٢].

وعن أبي العالية في (الٓم) قال: هذه الأحرُف الثلاثة من الأحرُف التِسعة والعشرين، دارت بها الألسُن، ليس منها حرفٌ إلّا وهو مفتاحُ اسمٍ من أسمائه تعالى[٣].

أقول: يدلّ على ذلك ما وراه الصدوق رحمه الله في (أماليه) من تفسير المعصوم: «كلُّ حرفٍ من حروف (أبجَد) باسمٍ من أسماءِ الله تعالى»[٤].

وعن تفسير ابن ماجة، من طريق نافع، عن أبي نُعَيم القارئ، عن فاطمة بنت عليّ بن أبي طالب صلوات الله عليه أنّها سمِعت عليّ بن أبي طالب يقول: «يا كٓهيٰعٓصٓ اغفر لي»[٥].

وعن (المجمع): عن أمير المؤمنين صلوات الله عليه أنّه قال في دعائه: «[أسألك يا] كٓهيٰعٓصٓ»[٦].

وعن الصادق عليه السلام في حديث: «وأمّا (الٓم) في [أوّل] آل عِمران فمعناه: أنا الله المجيد»[٧].

وعنه عليه السلام في حديث: «و(المصٓ) مَعناه: أنا الله المُقتَدِر الصادق»[٨].

ومن طريق العامّة عن الضحاك مثله[٩].

وقيل: معنى (المصٓ): المُصَوّر[١٠].

وعن محمد بن كَعْب القُرَظي، قال: (المصٓ) الألف: من الله، والميم من الرحمٰن، والصاد: من الصَّمَد[١١].

وعن ابن عباس: معنى (المصٓ): أنا الله أفصِل[١٢].

وعن الصادق عليه السلام في ﴿كٓهيٰعٓصٓ﴾: «معناه أنا الكافي، الهادي، الوليّ، العالم، الصادق الوعد»[١٣].

وعنه عليه السلام أيضاً: «كافٍ لشعيتنا، هاد لهم، وليّ لهم، عالِم بأهل طاعتنا، صادق لهم وعده حتّى يبلغ

---

١. مجمع البيان ٨: ٧٢٦، تفسير الصافي ٤: ٢٩٠.
٢. الإتقان في علوم القرآن ٣: ٢٧.
٣. الإتقان في علوم القرآن ٣: ٣٠.
٤. انظر أمالي الصدوق: ٥٠٨/٣٩٥.
٥. الإتقان في علوم القرآن ٣: ٢٨.
٦. مجمع البيان ٦: ٧٧٥، تفسير الصافي ٣: ٢٧٣.
٧. معاني الأخبار: ١/٢٢.
٨. معاني الأخبار: ١/٢٢.
٩. الإتقان في علوم القرآن ٣: ٢٥.
١٠. الإتقان في علوم القرآن ٣: ٢٥.
١١. الدر المنثور ٣: ٤١٣.
١٢. الاتقان في علوم القرآن ٣: ٢٤.
١٣. معاني الأخبار: ١/٢٢.

[بهم] المَنزِلة الّتي وعدَهم إياها في نصّ[١] القرآن»[٢].

وعن ابن مسعود وناس من الصحابة، في قوله تعالى: ﴿كٓهيٰعٓصٓ﴾[٣]: قالوا هو هِجاءٌ مُقطّع؛ الكاف من الملك، والهاء من الله، والياء والعين من العزيز، والصاد من المُصَوِّر[٤]. وفي نقل آخر: والصاد من الصَّمَد[٥].

وعن أمّ هاني، عن رسول الله ﷺ قال: «كافٍ، أمين[٦]، عالم، صادق»[٧].

أقول: الظاهر أنّه سقَط من الرواية تفسير الهاء، كما أنّ الظاهر سقوط تفسير الياء أو العين ممّا نقل عن ابن مسعود.

وعن ابن عبّاس في قوله: ﴿كٓهيٰعٓصٓ﴾ قال: الكاف: الكافي، والهاء: الهادي، والعين: العالم، والصاد: الصادق[٨].

وعن عِكْرِمة في قوله: ﴿كٓهيٰعٓصٓ﴾ قال: يقول: أنا الكبير، أنا الهادي، أنا عليٌّ أمينٌ صادق[٩].

وعن ابن عبّاس، قال: الكاف من كريم، والهاء من هادٍ، والياء من حكيم، والعين من عليم، والصاد من صادق[١٠].

وعنه أيضاً: كافٍ، هادٍ، أمين، عزيز، صادق[١١].

وعن محمّد بن كَعْب، في قوله: ﴿طٰه﴾[١٢]، قال: الطاء من ذي الطّول[١٣].

أقول: وفي عدّةٍ من روايات الخاصّة والعامّة، أنّ ﴿طٰه﴾ اسمٌ من أسماء النبيّ ﷺ، وفي بعضها: معناه: يا طالبَ الحَقّ[١٤].

وعن محمّد بن كَعْب، في قوله:﴿طٰسٓمٓ﴾[١٥]، قال: الطاء من ذي الطَّول، والسين من القدّوس، والميم من الرحمـٰن[١٦].

---

١. في المعاني والصافي: بطن.
٢. معاني الأخبار: ٦/٢٨، تفسير الصافي ٣: ٢٧٣.
٣. مريم: ١/١٩.
٤و١٣. الدر المنثور ٥: ٤٧٨.
٦. في الاتقان: كافٍ، هاد، أمين، وفي الدر: كافٍ، هاد.
٧. الإتقان في علوم القرآن ٣: ٢٦، الدر المنثور ٥: ٤٧٨.
٨. الدر المنثور ٥: ٢٥.
٩. الإتقان في علوم القرآن ٣: ٢٦، الدر المنثور ٥: ٤٧٨.
١٠و٣. الإتقان في علوم القرآن ٣: ٢٥.
١٢. طه: ١/٢٠.
١٣. الدر المنثور ٥: ٥٥١.
١٤. معاني الأخبار: ١/٢٢، وزاد فيه: الهادي إليه.
١٥. الشعراء: ١/٢٦، القصص: ١/٢٨.
١٦. الإتقان في علوم القرآن ٣: ٢٦.

وعن الصادق عليه السلام: «أمّا ﴿حٰمٓ﴾[١] فمعناه: الحَميد المَجيد»[٢].

وعن سعيد بن جُبَير، في قوله: ﴿حٰمٓ﴾ قال: الحاء اشتُقّت من الرحمـٰن، والميم اشتُقّت من الرَّحيم[٣].

وعن محمّد بن كَعْب، في قوله: ﴿حٰمٓ * عٓسٓقٓ﴾[٤] قال: الحاء والميم من الرحمـٰن، والعين من العليم، والسين من القدّوس، والقاف من القاهر[٥].

وعن الصادق عليه السلام: «أمّا ﴿حٰمٓ * عٓسٓقٓ﴾ فمعناه: الحَكيم، المغيث[٦]، العالم، السميع، القادر، القويّ»[٧].

وقال بعض العامّة: إنّ القاف هنا اسمُ الجبل المحيط بالأرض وهو مرويّ عن الصادق عليه السلام في تفسير قوله: ﴿قٓ﴾[٨].

وحُكي عن الكرماني في قوله: ﴿قٓ﴾ أنّه حرفٌ من اسمِه قادِرٍ وقاهِرٍ[٩].

وقال بعض في قوله: ﴿نٓ﴾[١٠]: إنّه مفتاح اسمه تعالى: نور وناصر[١١].

ورُوي عن الصادق عليه السلام: «إنّه اسم النبيّ صلّى الله عليه وآله»[١٢].

أقول: يمكن أن يُستَفاد من مجموع الروايات واختِلافها أنّ كلّ حرفٍ من الحروف المُقَطّعات رمزٌ عن الأسماء الحُسنى التي تضَمّنت ذلك الحَرف، فالقاف رمزٌ عن اسمِ القاهر، والقادر، والقيّوم، وغير ذلك، والصاد: رمزٌ عن المصوّر، والصّمد، والصادق، وغير ذلك، والعين: رمزٌ عن العزيز، والعالم، والعليم، وأمثال ذلك.

وفي روايات عديدة: أنّ مجموع الحروف المُقَطّعات رمزٌ عن اسم الله الأعظم.

عن القمّي، عن الباقر عليه السلام، في بيان الحروف المُقَطّعات: «هو حروفٌ من اسمِ الله الأعظم المَقطوع،

---

١. غافر: ١/٤٠، ...
٢. معاني الأخبار: ١/٢٢.
٣. الإتقان في علوم القرآن ٣: ٢٦.
٤. الشورى: ١/٤٢و٢.
٥. الإتقان في علوم القرآن ٣: ٢٦.
٦. في المعاني: الحليم المثيب.
٧. معاني الأخبار: ١/٢٢.
٨. معاني الأخبار: ١/٢٢، الإتقان في علوم القرآن ٣: ٣٣، والآية من سورة ق: ١/٥٠.
٩. الإتقان في علوم القرآن ٣: ٢٦.
١٠. القلم: ١/٦٨.
١١. الإتقان في علوم القرآن ٣: ٢٦.
١٢. مختصر بصائر الدرجات: ٦٧، الخصال: ٢/٤٢٦ عن الباقر عليه السلام.

يؤلّفه النبي ﷺ والامام عليه السلام، فيكون الاسمَ الأعظم الذي إذا دعي الله به أجاب»[١].

وعن المعاني: عن الصادق عليه السلام: «﴿الٓمٓ﴾ هو حرفٌ من حروف اسم الله الأعظم [المقطّع في القرآن الذي] يؤلّفه النبيّ والإمام، فإذا دعا به أُجيب»[٢].

وعن ابن مسعود، بسندٍ صحيح عند العامّة: هو اسم الله الأعظم[٣].

وعن ابن عبّاس، قال: ﴿الٓمٓ﴾ اسمٌ من أسماء الله الأعظم[٤].

ونقل ابن عطيّة عن بعض القول: بأنّها الاسم الأعظم، إلّا أنّالا نعرِف تأليفه منها[٥].

ومقتضى بعض الروايات أنّ الراسِخين في العلم يستفيدون من تأليفاتها ومن أعدادها بحِساب الجُمّل وعلم الحروف، علوماً كثيرةً، كما عن الباقر عليه السلام: «علمُ كلّ شيءٍ في ﴿عٓسٓقٓ﴾»[٦].

وعن (المجمع) عن أمير المؤمنين صلوات الله عليه أنّه قال: «لكلّ كتاب صَفْوَةٌ، وصَفْوَةُ هذا الكتاب حروفُ التَهَجّي»[٧].

وعن (المعاني) و(العياشي): عن الصادق عليه السلام أنّه أتاه رجلٌ من بني أُميّة وكان زنديقاً، فقال له: قول الله عزّ وجلّ في كتابه: ﴿الٓمٓصٓ﴾[٨] أيّ شيءٍ أراد بهذا، وأي شيءٍ فيه من الحَلال والحَرام، وأيّ شيءٍ فيه مما ينتفع به النّاس؟

قال: فاغتاض عليه السلام من ذلك، فقال: «أمسِك ويحك؛ الألف واحد، واللام ثلاثون، والميم أربعون، والصاد تِسعون، كم معك؟» فقال الرجل: مائة وإحدى وستّون. فقال عليه السلام: «إذا انقَضت إحدى وستّون ومائة يَنقضي مُلكُ أصحابِك».

قال: فنظر الرجل فلمّا انقضَت إحدى وستّون[٩] ومائة يوم عاشوراء دخَل المُسوّدة الكوفة، وذهَب مُلكُهم[١٠].

وفي رواية أبي لَبيد المَخزوميّ، عن أبي جعفر عليه السلام قال: «إنّ لي في حروف القرآن المُقَطّعة لَعِلْماً

---

١. تفسير القمي ٢: ٢٦٧.
٢. معاني الأخبار: ٢/٢٣.
٣. الإتقان في علوم القرآن ٣: ٢٧.
٤. الإتقان في علوم القرآن ٣: ٢٧.
٥. الإتقان في علوم القرآن ٣: ٢٧.
٦. تفسير القمي ٢: ٢٦٨، والآية من سورة الشورى: ٤٢/٢.
٧. مجمع البيان ١: ١١٢.
٨. الأعراف: ٧/١.
٩. كذا في العياشي، وفي معاني الأخبار: سنة إحدى وثلاثون، وهو الصحيح الموافق لتاريخ سقوط دولة بني أميه، وللعلامة المجلسي رحمه الله تأويل للتاريخ المذكور (١٦١). راجع بحار الأنوار ١٠: ١/١٦٣.
١٠. تفسير العياشي ٢: ١٥٤٤/١٣٥، معاني الأخبار: ٥/٢٨.

جَمّاً، إنّ الله تبارك وتعالى أنزَل ﴿الٓمٓ * ذَٰلِكَ الكِتَابُ﴾[١] فقام محمّد ﷺ حتّى ظهر نورُه، وثبتت كلمتهُ، وولد يوم ولد، وقد مَضى من الالف السابع مائة سنه وثلاث سنين».

ثمّ قال: «وتبيانُه في كِتاب الله في الحروف المقطّعة إذا عَدَدْتَها من غير تكرارٍ، وليس من الحروف المقطعة حرفٌ تنقضي أيّامه إلّا وقائمٌ من بني هاشم عند انقِضائه».

ثمّ قال: «الألف واحد، واللام ثلاثون، والميم أربعون، والصاد تسعون، فذلك مائة وإحدى وستّون، ثمّ كان بدو خروج الحُسين بن عليّ عليهما السلام ﴿الٓمٓ * اللهُ﴾[٢] فلمّا بلَغت مدّته قام قائم ولد العبّاس عند ﴿الٓمٓصٓ﴾ ويقوم قائمُنا عند انقضائها بـ﴿الٓمٓرٓ﴾ فافهم ذلك وعُدَّ[٣] واكتُمه» الخبر[٤].

ولا يخفى أنّ الرواية من المشكلات التي يجب ردّ علمها إليهم عليهم السلام وإن تصَدّى لشَرحِها جماعة من العُلماء، ولعلّه يُستَفاد من قوله: «أنزل ﴿الٓمٓ * ذَٰلِكَ الكِتَابُ﴾ فقام محمّد ﷺ» وجهُ تَقديم هذه السورة على سائر السُوَر، حيث إنّ فيها إشارة إلى قيام النبيّ ﷺ وبَدْوِ بعثَتِه.

ومن طريق العامّة: عن ابن عبّاس، عن جابر بن عبدالله بن رِياب، قال: مرّ أبو ياسر بن أخطَب في رجالٍ من اليهود برسول الله ﷺ وهو يتلو فاتحة سورة البقرة ﴿الٓمٓ * ذَٰلِكَ الكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ فأتى أخاه حُيَي بن أخطَب في رجالٍ من اليهود، فقال: تعلمون! واللهِ لقد سمِعتُ محمّداً يتلو فيما أُنزِل عليه: ﴿الٓمٓ * ذَٰلِكَ الكِتَابُ﴾ فقال: أنت سمِعته؟ فقال: نعم. فمشَى حُيي في أُولئك النفَر إلى رسول الله ﷺ فقالوا: ألَم تذكُر أنّك تتلو فيما أُنزِل عليك ﴿الٓمٓ * ذَٰلِكَ الكِتَابُ﴾؟ فقال: «بَلى».

فقالوا: لقد بعَث الله قبلَك أنبياء ما نعلمه بيّن لنبيّ منهم ما مدّة مُلكِه وما أجَل أُمّته غيرَك؛ الألف بواحد، واللام بثلاثين، والميم بأربعين، فهذه إحدى وسبعون سنَة، أفَندخُل في دينِ نبيٍّ إنّما مدّة مُلكِه وأجَل أُمّته إحدى وسَبعون سنة؟!

ثمّ قال: يا محمّد، هل مع هذا غيره؟ قال: «نعم، ﴿الٓمٓصٓ﴾». قال: هذه أثقَل وأطول، الأِلف بواحد، واللام بثلاثين، والميم بأربعين، والصاد بتسعين، فهذه إحدى وستّون ومائه سنَة، هل مع هذا غيره؟ [قال: «نعم، الٓر»، قال: هذه أثقل وأطول، الألف واحدة، واللام ثلاثون، والراء مائتان، هذه إحدى وثلاثون ومائتا سنة. هل مع هذا غيره؟] قال: «نعم، الٓمٓر». قال: هذه أثقَل وأطوَل، الألف بواحد، واللام

---

١. البقرة: ٢/١ و٢. ٢. آل عمران: ٣/١ و٢. ٣. في العياشي والبحار: وعه.
٤. تفسير العياشي ٢: ١٥٤٥/١٣٦، تفسير الصافي ١: ٧٧، بحار الأنوار ٩٢: ٢٣/٣٨٣.

بثلاثين، والميم بأربعين، والراء بمائتين، هذه إحدى وسبعون ومائتا سنة.

ثمّ قال: لقد لُبّس علينا أمرك حتّى ما نَدري أقليلاً أُعطيتَ أم كثيراً. ثمّ قال: قوموا عنه.

ثمّ قال أبو ياسر لأخيه ومَن معه: مايُدريكم، لعلّه قد جُمِع هذا كلّه لمحمّد؛ إحدى وسبعون، وإحدى وستّون ومائة، وإحدى وثلاثون ومائتان، وإحدى وسبعون ومائتان، فذلك سبعمائة وأربع وثلاثون سنة. فقالوا: لقد تَشابَه علينا أمره. فيَزْعُمون أنّ [هؤلاء] الآيات نزلَت فيهم: ﴿هُوَ الَّذِى أَنْزَلَ عَلَيْكَ الكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾[١].

وعن (الاكمال) عن الحجّة القائم عجّل الله فرجه في حديثٍ أنّه سُئل عن تأويل ﴿كٓهيعٓصٓ﴾ فقال: «هذه الحروف من أنباء الغَيب، أطلع اللهُ [عليها] عبدَه زكريّا ثم قصّها على محمّد ﷺ، وذلك أنّ زكريّا سأل ربّه أن يُعلمه أسماء الخمسة، فأهبَط الله عليه جَبْرَئيل فعلّمه إيّاها، فكان زكريّا إذا ذكَر محمّداً ﷺ وعليّاً وفاطمة والحسن عليهما السلام سُرّيَ عنه هَمُّه وانجَلى كَربُه، وإذا ذكَر الحسين عليه السلام خنقَتهُ العَبْرَة، ووقَعت عليه البُهرة[٢].

فقال ذات يوم: الـهي، ما بالي إذا ذكَرتُ أربعاً منهم تسليّتُ بأسمائهم من هُمومي، وإذا ذكَرتُ الحسين عليه السلام تَدمَع عَيني، وتَثور زَفْرَتي؟ فأنبأه تبارك وتعالى عن قصّته، فقال: ﴿كٓهيعٓصٓ﴾ فالكاف اسمُ كربلاء، والهاء هَلاكُ العِترة، والياء يزيد لعنه الله، وهو ظالم الحسين عليه السلام والعين عطَشُه، والصاد صَبْرُه. فلمّا سمِع ذلك زكريّا لم يُفارق مَسجِدَه ثلاثة أيّام، ومنَع فيها النّاسَ من الدخول عليه، وأقبل على البُكاء والنَحيب»[٣] الخبر.

ثمّ لا يذهب عليك أنّه لا مُنافاة بين الأخبار لإمكان أن تكون ذاتُ الحروف المُقطّعة كنايةً ورمزاً عن اُمورٍ، وتركيبُها عن اُمورٍ، وعددُها إشارة إلى اُمورٍ.

ويُستفاد بعضُ أنحاءِ استِفادتهم عليهم السلام العلومَ من الكتاب، من الرواية الواردة عن الباقر عليه السلام في تفسير الصّمد حيث سألوه عن مَسائلَ وأجابهم، ثمّ سألوه عن الصّمد، فقال: «تفسيره فيه، الصَّمَدُ خمسةُ أحرُف: فالالِفُ دليلٌ على إنّيّتهِ وهو قوله عز وجل: ﴿شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لَا إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ﴾[٤]، وذلك تنبيهٌ

---

١. تفسير الطبري ١: ٧١، الإتقان في علوم القرآن ٣: ٢٩، والآية من سورة آل عمران: ٧/٣.

٢. البُهرة: تتابع النفس وانقطاعه من الأعياء.   ٣. كمال الدين: ٢١/٤٦١.

٤. آل عمران: ١٨/٣.

وإشارةٌ إلى الغائب عن دَرْكِ الحَواسّ، واللامُ دليلٌ على إلٰهيّته وأنّه هو الله، والألِفُ واللامُ مُدغَمانِ لا يظهران على اللّسانِ ولا يقَعان في السّمع، ويظهَران في الكِتابة، دليلانِ على أنّ إلٰهيّته بلُطفِه خافيةٌ لا تُدرَك بالحَواسّ، ولا تقَع في لسانِ واصفٍ، ولا أُذُنِ سامعٍ، لأنّ تفسير الإلٰه: هو الذي أَلِهَ الخَلقُ عن دَرْك ماهيّته وكيفيّته بحِسٍّ أو بِوَهْمٍ، لأنه مُبدِع الأوهام، وخالِقُ الحَواسّ، وإنّما يظهَر ذلك عند الكِتابة دليل على أن الله تعالى أظهَر ربوبيّته في إبداع الخَلْق وتركيبِ أرواحِهم اللطيفة في أجسادِهم الكثيفة، فإذا نظَر عبدٌ إلى نفسِه لم يَرَ روحَه، كما أنّ لامَ الصّمَد لاتبين[١] ولا تدخلُ في حاسّةٍ من الحواسّ الخمس، فإذا نظَر إلى الكتابة ظهَر له ما خَفِيَ ولَطُف، فمتى تفكَّر العبدُ في ماهيّة الباري وكيفيّته أَلِه فيه وتحيّر ولم تَحْظَ فِكرته بشيءٍ يُتصوّر له، لأنّه عزّ وجلّ خالِقُ الصُّوَر، فإذا نظَر إلى خَلقِه ثَبت له أنّه عزّ وجلّ خالِقُهم ومركّبُ أرواحِهم وأجسادهم[٢].

وأمّا الصّاد فدليلٌ على أنّه عزّ وجلّ صادِقٌ، وقوله صِدقٌ، وكلامُه صدقٌ، ودعا عبادَه إلى اتّباع الصِدْق [بالصدق و] وعد بالصِدق دارَ الصِدْق.

وأمّا الميمُ فدليلٌ على مُلكِه وإنّه المَلِك الحَقّ، لم يزَل ولا يزال [ولا يزول] مُلكُه.

وأمّا الدّالُ فدليلٌ على دَوامِ مُلكِه، وأنّه عزّ وجلّ دائِمٌ متعالٍ عن الكون والزَوال، بل هو عزّ وجلّ مكوّن الكائنات، الذي كان بتكوينه كلّ كائن».

ثمّ قال عليه السلام: «لو وجَدتُ لعِلميَ الذي آتاني الله عز وجلّ حَمَلَةً لنشرتُ التوحيد والإسلامَ والإيمانَ والدِّينَ والشرائع من الصَّمَد،وكيف لي بذلك ولم يَجِدْ جَدّي أمير المؤمنين عليه السلام حَمَلَةً لعِلمه، حتّى كان يتنفّس الصُّعداء ويقول على المِنبَر: سَلوني قبل أن تَفقِدوني، فإنّ بين الجَوانحِ منّي عِلماً جَمّاً، هاهِ هاه، ألا لا أجدُ من يَحمِله، ألا وإنّي عليكم من الله الحجّة البالغة» الخبر[٣].

ثمّ اعلم أنّ ما ذكرناه من الفوائد للحروف المُقطّعة مختَصٌّ بالخَواصّ، وهم الراسخون في العلم، وأمّا فائدتُها لعامّة النّاس فهي على ماقيل: إنّ العرب كانوا إذا سَمِعوا القرآن لغَوا فيه، فأنزَل الله تعالى هذا النظم البديع ليعجَبوا منه، فيكون تعجُّبُهم منه سبباً لاستِماعهم، واستماعهم له سبباً لاستِماع ما بعده، فترِقّ القلوب وتَلين الأفئدة[٤].

---

١. في التوحيد: لا تتبيّن.
٢. في التوحيد: في أجسادهم.
٣. التوحيد: ٦/٩٢.
٤. الإتقان في علوم القرآن ٣: ٣١.

وقيل: إنّه ذُكرت هذه الحروف المُقطّعة إشعاراً بأنّ القرآن مؤلّف من الحروف التي هي (ا، ب، ت) ليدلّ القوم الذين نزَل القرآن بلُغَتِهم أنّه بالحروف التي يعرِفونها ويتداولونها في ألسِنَتِهم، فيكون ذلك تقريعاً لهم ودلالةً على عَجْزِهم أن يأتوا بمِثله بعد أن علموا أنّه مُنْزل بالحروف التي يعرِفونها ويبنون كلامهم منها[1].

وإلى هذا الوجه أشار العسكري عليه السلام في التفسير المنسوب إليه[2].

الطرفة التاسعة عشرة

في بيان معنى التفسير والتأويل، وعدم كون بيان المراد من الظاهر تفسيراً منهياً عنه، واختصاص العلم بالتأويل بالراسخين في العلم

التفسير: هو كشفُ القِناع عن المعنى، وتوضيحُ المَقصود من الكلمة أو الكلام.

والتأويل: هو أول الكلام وإرجاعُه إلى بعض المَعاني البعيدة المُحتَملة منه. وقيل: هما واحِد.

والظاهر أنّ بيان المراد من المحكَمات، نصّاً كانَ المُحكَمُ أو ظاهِراً، ليس من التفسير أو من المَنْهي عنه، لتَواتُر الأمر بالتمسّك بالكتاب والعمل به، وعرض الأحاديث عليه، وترجيح المُتَعارِضات منها به، وتميّز الشروط الصحيحة عن الفاسِدة بمُوافقَتِها له، وسيرة المسلمين والأصحاب على التمسّك بظواهره، فَضلاً عن نُصوصه.

وأمّا غير المُحكَمات فلا شُبهَة أنّ العلم به مخصوصٌ بالراسِخين في العِلم، وأنّه لا يجوز لغَيرِهم التكلّم فيه برأيه ومن قِبَل نفسِه عن جَزْمٍ وبَتٍّ، وعليه تُحمَل الروايات الناهية عن تفسير القرآن بالرأي، أو عليه وعلى القول في المُحكَمات من دون فَحصٍ في الأخبار المعتبَرة عن الهُداة صلوات الله عليهم عن ناسِخها ومُقَيّدها ومُخصّصها ومُبَيّنها.

في نقل تحقيق بعض العامة في وجه الحاجة إلى تفسير الكتاب بالرجوع إلى الراسخين في العلم

وقال بعضٌ في وجه الحاجة إلى تفسير الكتاب بالرّجوع إلى الراسِخين في العلم زائداً على ما ذكرنا: إنّ من المعلوم أنّ الله تعالى خاطَب خَلقَه بما يفهمونه، ولذلك أرسَل كلَّ رسولٍ بلسانِ قومِه، وأنزَل كتابه على لُغَتِهم، ومع ذلك يحتاج إلى التفسير

---

١. الإتقان في علوم القرآن ٣: ٣١.

٢. التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام: ٦٢.

لوَجهٍ يظهَر بعد تقريرِ قاعدةٍ، وهي أنّ كلاً من البشَر إذا وضَع كتاباً فإنّما وضَعه ليُفهَم بذاتهِ من غير شَرْحٍ، وإنّما احتيج إلى الشروح لأمور ثلاثة:

أحدها: كمال فضيلة المُصنِّف، فإنه لقوّته العِلميّة يجمَع المَعاني الدقيقة في اللفظ الوجيز، فربّما عَسُر فَهمُ مُرادِه، فقُصِد بالشَرح ظهور تلك المعاني الخَفيّة، ومن هنا كان شرح بعض الأئمّة تَصنيفَه أدَلّ على المُراد من شرح غيره له.

وثانيها: إغفاله بعض تَتِمّات المسألة، أو شرط[1] لها اعتماداً على وضوحها، أو لأنّها من علم آخر فيحتاج إلى الشارح لبيان المحذوف ومراتبه.

وثالثها: احتمال اللفظ لمَعانٍ، كما في المَجاز والاشتِراك ودلالة الالتِزام، فيحتاج الشارح إلى بيان غرَض المُصنّف وترجيحه، وقد يقع في التَصانيف ما لا يَخلو عنه بَشَر من السَّهو والغَلَط، أو تَكرار الشيء، أو حَذف مُبهَم وغير ذلك، فيحتاج الشارح للتَنبيه على ذلك.

إذا تقرّر هذا فنقول: إنّ القرآن إنّما نزَل بلسانٍ عربيّ في زمان أفصَح العرب، وكانوا يعلَمون ظواهِرَه وأحكامَه، أمّا دقائق باطنه فإنّما كان يَظهَر لهم بعد البَحْثِ والنظَر مع سؤالهم[2] النبيّ ﷺ في الأكثر، كسؤالهم لمّا نزَل قوله: ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيْمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾[3] فقالوا: وأيّنا لم يظلم نفسه! ففسّره النبيّ ﷺ بالشِّرك، واستدلّ عليه بقوله: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[4]، وكسؤال عائشة عن الحساب اليَسير، فقال: «ذلك العَرْض»، وكقصّة عَدّي بن حاتِم في الخيط الأبيض والأسوَد، وغير ذلك ممّا سألوا عن آحادٍ منه، ونحن مُحتاجون إلى ما كانوا يحتاجون إليه، وزيادة على ذلك ممّا لم يحتاجوا إليه من أحكام الظَواهر، لقُصورنا عن مَدارك أحكام اللُّغَة بغير تعلُّم، فنحن أشدّ النّاس احتياجاً إلى التَفسير، ومعلومٌ أنّ تفسير بعضه يكون من قبيل [بسط] الألفاظ الوجيزة وكَشف معانيها، وبعضه من قِبَل ترجيح بعض الاحتمالات على بعض، انتهى[5].

وقال بعض آخر: علمُ التفسير عَسيرٌ يَسير، أمّا عُسرُه فظاهِرٌ من وجوه، أظهَرها أنّه كلام متكلّم لم نَصِل إلى مُراده بالسَماع منه، ولا أمكن الوصول إليه، بخِلاف الأمثال والأشعار ونحوها، فإنّ الانسانَ يمكن علمه به إذا تكلّم بأن يسمَع منه أو مِمّن سَمِع منه، وأمّا القرآن فتفسيرُه على وجه القَطعِ لا يعلَم

---

١. في الاتقان: أو شروط.
٢. في النسخة: والسؤال عن، وما أثبتناه من الإتقان.
٣. الأنعام: ٨٢/٦.
٤. لقمان: ١٣/٣١.
٥. الإتقان في علوم القرآن ٤: ١٩٥.

إلّا بأن يَسمَع مِن الرسول صلى الله عليه وآله[١].

أقول: ولذا ورَد: «إنّما يعرِفُ القرآنَ مَن خوطِبَ به» كما عن الباقر عليه السلام في رواية (الكافي): بإسنادِه عن زَيد الشحّام، قال: دخَل قَتادة على أبي جعفر عليه السلام فقال: «يا قَتادة، أنتَ فقيه أهل البصرة؟». فقال: هكذا يَزعُمون.

فقال أبو جعفر عليه السلام: «بلَغني أنّك تُفسّر القرآن!» قال له قَتادة: نعم.

فقال أبو جعفر عليه السلام: «بِعِلْمٍ تُفَسّرُه أم بجَهْل؟» قال: لا، بل بعِلْم.

فقال له أبو جعفر عليه السلام: «فإنْ كُنتَ تفسّره [بعلم]فأنتَ أنت، وأنا أسألُك» قال قَتادة: بسلني.

قال: «أخبِرني عن قول الله تعالى في سَبَأ: ﴿وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ سِيرُوا فِيها لَيَالِيَ وَأَيَّاماً آمِنِينَ﴾[٢]؟» فقال قَتادة: ذلك: مَن خرَج مِن بيته بِزادٍ وراحِلةٍ وكراءٍ حَلال يريد هذا البَيت، كان آمناً حتّى يرجِع إلى أهلِه.

فقال أبو جعفر عليه السلام: «نشَدتُك بالله يا قَتادة، هل تعلَم أنّه قد يخرُج الرجُل من بيته بزادٍ وراحِلةٍ وكراءٍ حَلال، يريد هذا البيت، فيُقطَع عليه الطَريق، فتَذهَب نفَقَتُه ويُضرَب مع ذلك ضَربةً فيها اجتياحه؟» قال قَتادة: اللّهمّ نعَم.

فقال أبو جعفر عليه السلام: «إن كُنتَ إنّما فسّرت القرآن من تِلقاء نَفسِك فقد هلَكتَ وأهلكت، وإن كُنتَ أخَذتَهُ من الرِجال فقد هلَكت وأهلَكت.

وَيْحَك يا قتادة، ذلك من خرَج من بيته بزادٍ وراحِلةٍ وكراءٍ حَلال يَؤُمّ[٣] هذا البيت عارِفاً بحقّنا، فهوانا[٤] قلبُه، كما قال الله تعالى: ﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِى إِلَيْهِم﴾[٥] ولم يَعْنِ البيت فيقول: إليه، فنحنُ والله دَعوةُ إبراهيم التي من هَوانا قلبُه قُبِلت حِجّته، وإلّا فلا. يا قَتادة، فإذا كان كذلك كان آمناً من عَذاب جَهنّم يوم القيامة».

قال قتادة: لا جَرَم والله، لا فَسّرتُها إلّا هكذا.

فقال أبو جعفر عليه السلام: «وَيْحك يا قَتادة، إنّما يعرِف القرآنَ مَنْ خُوطِبَ به»[٦].

وعنه عليه السلام: «ليس شيء أبعَد من عُقول الرّجال من تفسير القرآن، إنّ الآية ليكون أوّلها في شيء،

---

١. الإتقان في علوم القرآن ٤: ١٩٦. ٢. سبأ: ٣٤/١٨. ٣. في المصدر: يروم.
٤. في المصدر: يهوانا. ٥. إبرهيم: ١٤/٣٧. ٦. الكافي ٨: ٣١١/٤٨٥.

وآخِرُها في شيء، وهو كلامٌ مُتّصل ينصرف[1] على وجوه»[2].

في أنّه لا يجوز العمل بالقرآن إلّا بعد الفحص عن تفسير

فتحصّل ممّا ذكَرنا أنه لا يجوز تفسير المُتَشابهات وبيان تأويلها إلّا بالنّصّ المعتَبر عن النبيّ ﷺ أو أحدٍ من وُرّاث عِلمهِ من أوصيائه المعصومين عليهم السلام.

بل قد ظهَر ممّا قلّمناه أنّ في القرآنِ المَجيد ناسخاً، ومَنسوخاً، وعامّاً اُريد به الخاص، ومُطلَقاً اُريد به المُقيّد، وكذا العَكْس، فلا يجوز العمَل بمُحكَماته إلّا بعد الرجوع إلى العُلماء بها وهم الأئمّة المعصومون عليهم السلام، فإنّ العِلمَ بجَميعها عندهم، ولاحَظَّ لأحدٍ غيرهم فيها إلّا مِن قِبَلهم، كما روي (الكافي): بإسناده عن سُلَيم بن قَيس، عن أمير المؤمنين عليه السلام ـ في حديث ـ قال: «ما نزلَت آية على رسول الله ﷺ إلّا أقرأنيها، وأملاها عليّ، فكتَبتُها بخَطّي، وعلّمني تأويلَها، وتفسيرَها، وناسِخَها، ومَنسوخَها، ومُحكَمَها، ومُتَشابهها [وخاصّها، وعامّها]، ودعا الله أن يُعلّمني[3] فَهمَها وحِفظَها، فما نَسِيتُ آيةً من كتاب الله، ولا عِلماً أملاه عليّ فكتَبتُه منذ دعا، وما ترك شيئاً علّمه الله من حَلالٍ ولا حَرامٍ ولا أمرٍ ولا نَهي، كان أو يكون[4]، من طاعةٍ أو معصيةٍ إلّا علّمَنيه وحَفِظتُه، فلم أنْسَ حَرْفاً واحِداً.

ثمّ وضع يده على صدري ودعا الله أن يملأ قلبي علماً وفَهماً وحكمةً ونوراً. فقلتُ: يا رسول الله بأبي أنت وأمّي، مذ دعوتَ الله لي بِما دَعَوتَ لم أنْسَ شيئاً، ولم يَفُتْني شيء لم اكتُبه، أوَ تتخوّف عليَّ النِسيان فيما بعد؟ فقال: [لا] لست أتخَوّفُ عليك نِسياناً وجَهلاً»[5].

وفي ذيل رواية اُخرى قريبة من هذه: «وقد أخبَرني رَبّي أنّه قدِ استَجاب لي فيك وفي شركائك الّذين يكونون من بعدِك. فقلت: يا رسولَ الله، ومَن شركائي مِن بَعدي؟ قال: الذين قرَنهم الله بنفسِه وبي، فقال: ﴿أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُم﴾[6].

فقلت: ومَن هم؟ قال: الأوصياء مِنّي إلى أن يَرِدوا [عليّ] الحَوض، كلّهم هادون مَهديون[7]، لا يضرّهم من خذَلهم، هم مع القرآن، والقرآنُ معهم، لا يُفارقُهم ولا يُفارِقونه، بهم تُنصر اُمّتي وبهم تُمطَر[8]، وبهم يُدفَع عنهم البَلاء، وبهم يُستَجاب دعاؤهم.

---

١. في العياشي: يتصرّف.
٢. تفسير العياشي ١: ٣٩/٨٧.
٣. في المصدر: يعطيني.
٤. زاد في المصدر: ولاكتاب منزل على أحدٍ قبله.
٥. الكافي ١: ١/٥٢.
٦. النساء: ٥٩/٤.
٧. في العياشي: هاد مهتد.
٨. في العياشي: يمطرون.

فقلت: يا رسولَ‌الله، سمِّهم لي. فقال: ابني هذا ـ ووضَع يده على رأس الحسن عليه السلام ـ ثمّ ابني هذا ـ ووضع يده على رأس الحسين عليه السلام ـ ثمّ ابنٌ لي[١] يقالُ له عليّ، وسَيولَد في حياتك فأقرَأه منّي السلام، ثمّ تَكمِلة اثني عشر من ولده»[٢].

فقلتُ له: بأبي أنت وأُمّي، سَمِّهم لي. فسَمّاهم رجلاً رجلاً. فقال: «فيهم والله ـ يا أخا بني هلال ـ مهديّ أُمّه محمّد، الذي يملأ الأرضَ قِسْطاً وعَدْلاً كما مُلئت ظُلماً وجوراً، والله إنّي لأعرِف مَن يُبايعه بَين الرُّكنِ والمَقام، وأعرِف أسماء آبائهم وقبائلهم»[٣].

وفيه، بإسناده عن أبي جعفر عليه السلام قال: «ما يستطيع أحدٌ أن يدّعي [أنّ] عنده جميع القرآن كلّه، ظاهِره وباطِنه غير الأوصياء»[٤].

وبإسناده، عن أبي عبدالله عليه السلام في قوله: ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِى صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾[٥] قال: «هم الأئمّة عليهم السلام»[٦].

وفي (العلل) بإسناده، عنه عليه السلام أنّه قال لأبي حنيفة: «أنتَ فقيه أهل العراق؟» قال: نعم. قال: «فَبِمَ تُفتيهم؟» قال: بكتاب الله وسنّة نبيّه.

قال: «يا أبا حنيفة، تعرف كتابَ الله حقّ مَعرِفته، وتَعرِف الناسِخ والمَنسوخ؟». فقال: نعم.

فقال: «يا أبا حنيفة، لقدِ ادّعيتَ عِلماً، ويلك ما جعل الله ذلك إلّا عند أهلِ الكتاب الّذين أنزَله عليهم، ويلك ولا هو إلّا عند الخاصّ من ذُرّيّة نبيّنا، وما أراك تعرِف[٧] من كتابه حَرفاً، فإن كنتَ كما تقول، ولستَ كما تقول، فأخبِرني عن قول الله تعالى: ﴿سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّاماً آمِنِينَ﴾[٨] أين ذلك من الأرض؟» قال: أحسَبُه مابين مكّة والمَدينة.

فالتفَت أبو عبدالله عليه السلام إلى أصحابه، فقال: «تعلَمون أنّ النّاس يُقطَع عليهم ما بين المدينة ومكّة فتؤخَذ أموالُهم، ولا يأمَنون على أنفُسِهم، ويُقتَلون؟» قالوا: نعم. فسكَت أبو حنيفة.

فقال: «يا أبا حنيفة، أخبِرني عن قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِناً﴾[٩] أين ذلك من الأرض؟» قال: الكعبة. قال: «أفتَعلم أنّ الحَجّاج بن يوسُف حين وضَع المَنْجَنيقَ على ابنِ الزُبَير في

---

١. في العياشي: له.
٢. في العياشي: من ولد محمّد صلى الله عليه وآله.
٣. تفسير العياشي ١: ٥٢/٩١.
٤. الكافي ١: ٢/١٧٨.
٥. العنكبوت: ٤٩/٢٩.
٦. الكافي ١: ٢/١٦٧.
٧. في المصدر: ما ورثك الله.
٨. سبأ: ١٨/٣٤.
٩. آل عمران: ٩٧/٣.

الكعبة فقتله، كانَ آمناً فيها؟» فسكت، الخبر[١].

وروىٰ العامّة أنّه قال عليّ عليه السلام لقاضٍ[٢]: «أتَعرِف الناسِخَ من المَنْسوخ؟» قال: لا. قال: «هلكْتَ وأهْلَكْتَ»[٣].

إن قلتَ: يلزَم ممّا ذكرتَ عدَمُ جوازِ العمَل بمُحكَماتِ القرآن، لسقُوطِ جميع نُصوص الكِتاب وظَواهِره عن الحُجّيّة، للعِلْمِ الإجمالي بنَسْخِ بعضِ أحكامِها، وتَخْصِيص بعض عُموماتها، وتَقييد بعض مُطْلَقاتِها، وإرادة المَجاز من بعض ظَواهِرها، مع أنّك ادَّعيتَ جَوازَ العمَل بالمُحكَمات للأدلّة المتقدّمة من الأوامر الواردة بالتمسّك بالكتاب وعرض الشّروط والأخبار المُتَعارِضة عليه، وسيرة المُسلِمين.

قُلنا: بعد الفَحْص في الروايات المَرويّة عن المعصومين عليهم السلام وتحصيل الناسِخ، والمُخَصّص، والمُبَيِّن، والمُقَيِّد، بمقدارٍ ينطبق عليه المَعلوم بالإجمال يَنحلّ العِلم الإجمالي وتَبْقى أصالَة الظُّهور وأصالة الحقيقة على حُجّيّتها في البقيّة بلا إشكال.

الطرْفَة العشرون

في تعريف النّسخ وإمكان وقوعه

في أحكام الله تعالىٰ، وبيان الآيات الناسخة

النَّسْخُ: هو رَفعُ الحُكمِ الثابت في الزّمان السابِق وإزالته، ولا شُبهَة في حُكم العَقْل بإمكان وُقوعه في أحكام الله، وليس من البَداء المُحال على الله، ولا يلزم منه الجَهل الممتَنِع عليه، ولا التّجْهيل القَبيح منه.

وقد اتّفقتِ الشرائع على وقوعه، إذ لم تكن شريعة إلّا وهي ناسخة لبعض أحكام الشرائع السابقة، وإنّما المقصود هنا بَيان الآيات الناسِخة، وهي قسمان:

[١] إمّا ناسِخة لأحكام الشرائع السابقة، أو الأحكام الجاهليّة التي لم يردَع عنها النبي صلى الله عليه وآله في بَدْوِ بِعثَتِه لمُداراةِ النّاس، ولم يَنزِل فيها قرآنٌ، وهي كثيرةٌ جدّاً.

[٢] وإمّا ناسِخةٌ لأحكام نزَلت بها آياتٌ قرآنية، فكانت الناسِخة والمَنسوخة في القرآن، ففي هذا

---

١. علل الشرائع: ٥/٨٩. ٢. في الإتقان: لقاصّ. ٣. الإتقان في علوم القرآن ٣: ٦٦.

القِسم اختَلف كثيرٌ من الخاصّة والعامّة، وأفرَده جمعٌ كثيرٌ منهم بالتصنيف.

ولا يذهَب عليك أنّ المُصطلَح في النَسخ هو إزالةُ الحكمِ الذي يكون ظاهِر دليله استمراره بحُكمٍ آخر، وعلى هذا يكون عدُّ بعض الآيات التي نزَلت في الوعدِ والوعيدِ خارجةً عن المُصطلَح الحقيقة، فعدُّ آيةِ: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً واحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إلَّا مَن رَحِمَ رَبُّك وَلِذلكَ خَلَقَهُمْ﴾[1] ناسِخةً لقوله: ﴿إنْ مِنْكُمْ إلَّا وَارِدُها﴾[2] كما عن بعضٍ، ليس على حقيقته، وكذا عَدّ الحكم المُغاير للحُكمِ السابق المغيّىٰ بغاية معيّنةٍ بعد بُلوغ غايته، كقوله تعالى: ﴿فَاعْفُوا وَاَصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمرِه﴾[3] فإنّ حُكمَ وجوبِ الجهاد ليسَ ناسِخاً لحُكمِ وجوب العَفْو والصَّفْح، بل هو أمرُ الله الذي كان غايةً له.

والحاصل: أنّه بعد ملاحظة القُيود المعتبرة في المعنى الحقيقيّ للنَسْخ، وملاحظة المَقصود منه، من كون الناسِخ والمَنسوخِ كليْهما في القرآن، كان عددُ الأحكامِ المنسوخة فيه قليلاً. منها: أربعةُ أحكامٍ في سورة البقرة:

أحدُها: قوله تعالى: ﴿وَقُولُوا للنَّاسِ حُسْناً﴾[4].

عن (التهذيب) و(الخصال): عن الصادق عليه السلام، وعن العياشي عن الباقر عليه السلام: «أنّها نزَلت في أهل الذِّمّة ـ أي أهل الكتاب ـ ثمّ نسخَها قولُه تعالى:

﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلَا باليَوْمِ الآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾»[5].

وعن القُمّي رحمه الله: أنّها نزَلت في اليَهود، ثمّ نُسِخت بقوله تعالى: ﴿اقْتُلُوا المُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُّمُوهُمْ﴾[6].

واُورِد عليه بأنّ قوله تعالى: ﴿وَقُولُوا لِلنّاسِ حُسْناً﴾ حكايةٌ للحُكمِ الذي أخَذ الله الميثاقَ من بَني إسرائيلَ على العمل به، لأنّه في ضِمن آية: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيْثَاقَ بَنِي إِسْرَاءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللهَ وَبِالوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَذِى القُرْبَىٰ وَاليَتَامَى وَالمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنّاسِ حُسْناً وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا

---

١. هود: ١١/١١٨ و١١٩. ٢. مريم: ١٩/٧١. ٣. البقرة: ٢/١٠٩.
٤. البقرة: ٢/٨٣.
٥. التهذيب ٤: ١١٥/٣٣٦، الخصال: ٢٧٥/١٨، تفسير العياشي ٢: ٢٢٨/١٨٠٩، والآية من سورة التوبة: ٩/٢٩.
٦. تفسير القمي ١: ٥١، والآية من سورة التوبة: ٩/٥.

الزَّكاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلاً مِنْكُم وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ﴾[١]. فليس هذا الحكمُ من أحكام هذه الأمّة حتّى يُعَدّ من المَنْسوخ.

ويمكن دفعه بأنّ أخذَ الميثاقِ والعَهْد المؤكّد من بني إسرائيل على هذه الواجبات التي يحكم العَقْل بحُسنها، دالٌّ على جَرَيانه في جميع الأعصار على جميع الأُمَم، ولمّا كان المُراد من النّاس في مُخاطَبة بني إسرائيل خصوص قبيلتهم، لأنهم كانوا مأمورين بالجهاد مع غيرهم من الكفّار، كانوا مخصوصين في هذه الأمّة المَرحومة بحُسنِ القَول والمُخاطبة معهم، وسيَجيء عند تفسير الآية الكريمة بعضُ الكلام فيها إن شاء الله تعالى.

وثانيها: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا ٱلْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ﴾[٢].

عن القمّي، والنُّعماني رحمهما الله وكثير من العامّة، أنّها منسوخةٌ بقوله تعالى في سورة المائدة: ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَاتُ﴾ إلى قوله: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾[٣].

قال القُمّي رحمه الله: وتَرك قوله: ﴿وَلَا تُنْكِحُوا ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا﴾[٤] ولا يخفى أنّه قد اختلَفت رواياتُنا في الناسِخ مِنهُما، وليس في المَقام مجالُ البَسْطِ في الكلام.

وثالثها: قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعاً إِلَى الحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾[٥].

روى العَيّاشي والطَّبْرَسِيّ رحمهما الله عن الصادق عليه السلام: «كان في بَدْوِ الإسلام إذا مات الرجُلُ أنفِقَ على امرأتِه من صُلْبِ المالِ حَوْلاً، ثمّ أُخرِجت بلا ميراث، ثمّ نسَخَتها آيةُ الرُّبع والثُّمن»[٦].

وعنه، وعن الباقر عليهما السلام: «هي منسوخةٌ، نسَخَتها: ﴿يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْراً﴾[٧] ونسَختها آياتُ الميراث»[٨].

أقول: يعني نُسِخت المدّة بآية التَّربُّص، والنَفَقَة بآياتِ الميراث، وهي وإن كانت متقدّمة في

---

١. البقرة: ٨٣/٢. ٢. البقرة: ٢٢١/٢.
٣. تفسير القمي ١: ٧٢؛ تفسير النعماني: ٢٨، تفسير الطبري ٢: ٢٢١، والآية من سورة المائدة: ٥/٥.
٤. تفسير القمي ١: ٧٣، والآية من سورة البقرة: ٢٢١/٢. ٥. البقرة: ٢٤٠/٢.
٦. تفسير العياشي ١: ٥٣٠/٢٤٧، مجمع البيان ٢: ٦٠٢، تفسير الصافي ١: ٢٤٨. ٧. البقرة: ٢٣٤/٢.
٨. تفسير العياشي ١: ٥٢٩/٢٤٧، ومجمع البيان ٢: ٦٠٢ عن الصادق عليه السلام.

التّرتيب والتِلاوة، إلاّ أنّها متأخّرة في النّزول، ويأتي بعض الكلام فيه عند تفسيرها إن شاء الله.

ورابعها: قوله تعالى: ﴿إِنْ تُبْدُوا مَا فِى أَنْفُسِكُمْ أَو تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ الله﴾.

في (الاحتجاج) عن الكاظم، عن آبائه، عن أمير المؤمنين عليه السلام في حديث يذكر مَناقب النبي صلى الله عليه وآله قال: «﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى * فَأَوْحَى إلى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى﴾ [١] فكان فيما أوحى إليه الآية التي في سورة البقرة، قوله تعالى: ﴿للهِ مَا فِى ٱلسَّمَاوَاتِ ومَا فِى الأَرْضِ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِـى أَنـفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ عَلى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [٢]. وقد كانت الآية عُرِضَت على الأنبياء من لَدُن آدم إلى أن بعَث الله تبارك اسمه محمّداً صلى الله عليه وآله، وعُرِضَت على الأمم فأبَوا أنْ يقبَلوها من ثِقَلِها، وقَبِلَها رسولُ الله صلى الله عليه وآله وعرَضها على اُمّته فقَبِلوها، فلمّا رأى الله عزّ وجلّ منهم القَبولَ علم أنّهم لا يُطيقونَها، فلمّا صار [٣] إلى ساقِ العَرش كرّر عليه الكلام ليفهمه فقال: ﴿آمَنَ ٱلرَّسُولُ﴾» [٤].

إلى أن قال الكاظم عليه السلام: «ثمّ قال الله عزّ وجلّ: أمّا إذا قَبِلت الآيةَ بتشديدها وعِظم ما فيها، وقد عرَضتُها على الأُمَم فأبَوا أن يقبَلوها وقبلتها اُمّتُك، فحقٌّ عليّ أن أرفعَها عن اُمّتك، وقال: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إِلَّا وُسعَهَا﴾» [٥] الخبر.

وروى الفخر الرازي في تفسيره، عن ابن عبّاس، أنّه قال: لمّا نزلَت [هذه] الآية جاء أبو بكر وعمر وعبدالرحمـٰن بن عَوف وناسٌ إلى النبي صلى الله عليه وآله فقالوا: يا رسولَ الله، كُلِّفنا من العمَل ما لا نُطيق، إنّ أحَدنا لَيُحدِّثُ نفسَه بما لا يُحبّ أن يَثبُت في قلبه، وأنّ له الدُّنيا.

فقال النبي صلى الله عليه وآله: «فلعلّكم تَقولون كما قال بنو إسرائيل: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾! [٦] قولوا: سَمِعْنا وأطَعْنا».

واشتدّ ذلك عليهم فمكثوا في ذلك حَوْلاً، فأنزَل الله: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا﴾ فـنسَخت هذه الآية، فقال النبيّ صلى الله عليه وآله: «إنّ الله تجاوَز عن اُمّتي ما حَدَّثوا به أنفُسَهم ما لم يعملوا ويتكلّموا به» [٧].

أقول: قد دلّت هذه الرّواية أنّ الرّهطَ الذين شَكَوا إلى النبيّ صلى الله عليه وآله شدّة الآية لم يكونوا داخِلين فيمن قَبِلها، ولذلك قال لهم النبيّ صلى الله عليه وآله: «فلعلّكم تقولون كما قال بنو إسرائيل: سَمِعنا وعَصَينا! قولوا: سَمِعنا

---

١. النجم: ٥٣/٩ و١٠. ٢. البقرة: ٢/٢٨٤. ٣. في المصدر: فلما أن سار.
٤. البقرة: ٢/٢٨٥. ٥. الاحتجاج: ٢٢٠، والآية من سورة البقرة: ٢/٢٨٦. ٦. البقرة: ٢/٩٣.
٧. تفسير الرازي ٧: ١٢٥.

وأطَعْنا». وليس في الرِّواية أنّهم قالوا: سَمِعنا وأطَعْنا بعد [أن] أمرهَم النبيّ ﷺ بهذا القول.

ومنها: في سورة آل عِمران، قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا ٱتَّقُوا ٱللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾[1].

عن العيّاشي: عن الصادق عليه السلام أنّه سُئِل عنها، فقال: «منسوخة». قيل: وما نَسْخها؟ قال: «قول الله: ﴿فَاتَّقُوا ٱللهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾»[2].

ومن طُرُق العامّة: عن ابن عبّاس رضي الله عنه قال: لمّا نَزلت [هذه] الآية، شَقّ ذلك على المسلمين، لأنّ حَقّ تُقاتِه أنْ يُطاعَ فلا يُعصىٰ طَرْفَةَ عَيْن، وأن يُشكَر فلا يُكفَر، وأن يُذكَر فلا يُنسىٰ، والعِبادُ لا طاقةَ لهم بذلك، فأنزَل الله تعالى بعد هذه: ﴿فَاتَّقُوا اللهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ ونسَخت هذه الآية أوّلَها، ولم يُنسَخ آخِرُها[3].

أقول: المُراد من قوله: «والعِبادُ لا طاقَة لهم بذلك» هي الطاقةُ والقدرةُ العُرفيّة، وهي عدم العُسْر والحَرَج في العمَل مع بقاء القدرة العقليّة، فيكون حاصِلُ كلامِه أنّ الله أمرَ عبادَه بالتّقوى التي فيها العُسر والحرَج، ثم خَفّف عنهم بأن أمرَهم بالتّقوى التي استَطاعوها بالاستِطاعة العُرفيّة، وهي ما لا حرَج فيه، فلم يكن في المَنسوخ التكليفُ بغير المَقدور حتّى يُستدلّ به على جوَازه، كما ذهَب إليه المشهور من أهل السُّنّة.

ومنها: في سورة النِساء، قوله تعالى: ﴿وَالَّاتِي يَأْتِينَ ٱلْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّاهُنَّ ٱلْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ ٱللهُ لَهُنَّ سَبِيلاً﴾[4].

عن الصادق عليه السلام أنّه سُئِل عن هذه الآية، قال: «هي منسوخة». قيل: كيف كانت؟ قال: «كانت المرأةُ إذا فجَرت فقام عليها أربعَة شُهود، أُدخِلَت بيتاً ولم تُحدَّث ولم تُكلَّم ولم تُجالَس، وأُوتيت بطَعامِها وشَرابها حتّىٰ تموتَ أو يجعَل الله لَهُنَّ سَبيلاً»، قال: «جعَل السبيل الجَلْدَ والرَّجْم»[5].

وعن العيّاشيّ: عنه عليه السلام: «هي منسوخة، والسبيل [هو] الحُدود»[6].

وعن القمّي رحمه الله فيها وفي الآية التي بعدها: ﴿وَٱلَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنْكُم فَآذُوهُمَا فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللهَ كَانَ تَوَّاباً رَحِيماً﴾[7].

---

١. آل عمران: ١٠٢/٣.
٢. تفسير العياشي ١: ٧٦٠/٣٣٣، والآية من سورة التغابن: ١٦/٦٤.
٣. تفسير الرازي ٨: ١٦١.
٤. النساء: ١٥/٤.
٥. تفسير العياشي ١: ٩٠٣/٣٧٧.
٦. تفسير العياشي ١: ٩٠٢/٣٧٧.
٧. النساء: ١٦/٤.

قال: كان في الجاهليّة إذا زَنىٰ الرجُلُ يُؤذىٰ، والمَرأةُ تُحبس [في بيت] إلى أن تَموت، ثمّ نُسِخ ذلك بقوله تعالى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَاجْلِدُوا﴾[١] الآية.

أقول: لا يَبعُد أن يكون إطلاق النَسخْ بالنسبة إلى الآية الأُولى على خِلاف المُصطلَح، لأنّ الحُكمَ فيها مَعنيّ بجَعل السبيل، فلا يكون جَعلُ السبيلِ، وهو الحدود، ناسخاً.

ومنها: قوله تعالى: ﴿و إِذَا حَضَرَ ٱلقِسْمَةَ أُولُوا ٱلقُرْبَىٰ وَٱليَتَامَىٰ وَٱلمَسَاكِينُ فَأرْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَعْرُوفاً﴾[٢].

عن العيّاشي، عن الباقر والصادق عليهما السلام: «نسَختها آيةُ الفَرائض»[٣].

وعن القمّي رحمه الله: هي منسوخة بقوله: ﴿يُوصِيكُمُ اللهُ ..﴾[٤].

وفي روايةٍ عن الباقر عليه السلام أنّه سُئل: أمَنسوخَةٌ هي؟ قال: «لا، إذا حضَروا[٥] فأعطِهم»[٦].

أقول: نَسخُها بلِحاظ حُكمِ الوُجوب، وعَدمُ نَسخِها باعتبارِ الاستِحباب.

ومنها: في سورة الأنفال، قوله تعالى: ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفاً﴾[٧]. فإنّه نُسِخ بقوله تعالى: ﴿الآنَ خَفَّفَ اللهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَينِ﴾[٨].

عن (الكافي): عن الصادق عليه السلام في حديثٍ ذكر فيه الآية، فقال: «نَسَخ الرَجُلانِ العَشرَةَ»[٩]. وعن القمّي مايقرُب منه[١٠].

ومنها: في سورة الأحزاب، قوله تعالى: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ﴾[١١] فإنّه حكى بعضُ أصحابنا قولاً بأنّها منسوخةٌ بقوله تعالى: ﴿تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ﴾[١٢] ولم أظفَر على روايةٍ دالّةٍ عليه.

ومنها: في سورة المُمتَحَنة، قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَى

---

١. تفسير القمي ١: ١٣٣، تفسير الصافي ١: ٣٩٨، والآية من سورة النور: ٢/٢٤. ٢. النساء: ٨/٤.
٣. تفسير العياشي ١: ٨٧٦/٣٧١ و٨٧٨، تفسير الصافي ١: ٣٩٣.
٤. تفسير القمّي ١: ١٣٢، تفسير الصافي ١: ٣٩٣، والآية من سورة النساء: ١١/٤.
٥. في العياشي: حضرك، وفي الصافي: حضروك. ٦. تفسير العياشي ١: ٨٧٧/٣٧١، تفسير الصافي ١: ٣٩٣.
٧. الأنفال: ٦٥/٨. ٨. الأنفال: ٦٦/٨. ٩. الكافي ٥: ١/٦٩، تفسير الصافي ٢: ٣١٣.
١٠. تفسير القمي ١: ٢٨٠، تفسير الصافي ٢: ٣١٤. ١١. الأحزاب: ٥٢/٣٣.
١٢. تفسير الصافي ٤: ١٩٨، والآية من سورة الأحزاب: ٥١/٣٣.

نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً﴾[١].

عن الباقر عليه السلام أنّه سُئل عن هذه الآية، فقال: «قدّم عليٌّ بن أبي طالب عليه السلام بين يَدي نَجْواه صدقةً، ثمّ نسَخها قولُه: ﴿ءَأَشْفَقْتُمْ ...﴾»[٢].

وقد استدلّ الخاصّة والعامّة بهذه الآية على فَضيلة أمير المؤمنين عليه السلام على غيره من الصحابة[٣]، وتقريره أنّه سبَق سائر الصّحابة إلى العمَل بمَضمونها، وبعد عمَلِه بها نُسِخَت، فكان نُزولها بياناً لأفضَليّته عليهم، لمُسارعتِه إلى قَبول أوامر الله تعالى والعمَل بها قبلهم فكان أفضل منهم.

وقال بعضُ أصحابنا: فيه تكذيبٌ لمَن يدَّعي من أهلِ السُّنّة أنّ أبا بكرٍ ذا مالٍ، وكان يصرفُ أموالَه في سبيلِ الله، حيث إنّ مَن بَخِلَ بصَدَقة دِرْهَم أو دِرْهَمَين بينَ يَدَي نَجْوىٰ النبي صلى الله عليه وآله، ورَضيَ بمُفارقَتِه عَشرة أيّام وترك مُكالمته، كيف يَرضىٰ بإنفاقِ المالِ الكثير؟!.

ومنها: في سورة المُزَّمِّل، قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُ﴾[٤].

عن القمّي، عن الباقر عليه السلام في هذه الآية: «ففعَل ذلك النبيّ صلى الله عليه وآله، وبشّر النّاس به، واشتد ذلك عليهم [وقوله:] ﴿عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ﴾ وكان الرجلُ يقومُ ولا يدري مَتى ينتَصِف الليل، ومتى يكون الثُّلُثان، وكان الرجلُ يقوم حتّى يُصبح مَخافةَ أن لا يَحْفَظه، فأنزَل الله: [﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ﴾ إلى قوله]: ﴿عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ..﴾[٥] يقول: متى يكون النِّصف والثُّلث، نسَخت هذه الآية: ﴿فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرآنِ﴾»[٦].

وأمّا ما عدّه العامّة من الآيات المنسوخة مضافاً إلى ما ذكر، فآيات:

منها: قوله تعالى في سورة النساء: ﴿وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾[٧] قالوا: كان الرجلُ يُعاقِدُ الرجلَ فيقول: دمي دمك، وهَدمي هَدمُك[٨]، وسِلمي سِلمُك، وحَربي حَربُك، وتَرِثُني وأرِثُك، وتَعقِل عنّي وأعقِلُ عنك، فيكون للحَليف السُّدُس من ميراث الحَليف، فنُسِخ بقوله تعالى: ﴿وَأُولُوا

---

١. المجادلة: ١٢/٥٨. ٢. تفسير القمي ٢: ٣٥٧، والآية من سورة المجادلة: ١٣/٥٨.

٣. تفسير الطبري ٢٨: ١٤، الكشاف ٤: ٤٩٤، الدر المنثور ٨: ٨٤، تفسير القمي ٢: ٣٥٧.

٤. المزمل: ٢٠/٧٣. ٥. المزمل: ٢٠/٧٣. ٦. تفسير القمي ٢: ٣٩٢، تفسير الصافي ٥: ٢٤٣.

٧. النساء ٤: ٣٣.

٨. الهَدْم ـ بالفتح ـ: المُهْدَر من الدماء، يقال: دمهُ هَدْمٌ، أي هدرٌ، والهِدْم ـ بالكسر ـ: كساء من صوف، والظاهر أنّ المراد الأوّل.

الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلىٰ بِبَعْضٍ ...﴾[١].

وعن القمّي ﵀: ﴿وَأُولُوا الأَرْحَامِ ...﴾ نسَخت قولَه: ﴿وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ﴾[٢].

وفي (الكافي): عن الصادق ؑ: «إذا وَالى الرجلُ الرجلَ فلَهُ ميراثُه وعليه مَعقلته»[٣]. يعني دِيَة جنايةِ خطأه، فتدلّ هذه الرّواية على أنّها غير منسوخة على الإطلاق، ويُجمَع بينها وبين الروايات السابقة بأنّ آية اُولوا الأرحامِ نسَخت إطلاق حُكمِها وقيَّدَتها بصورة فَقْد اُولي الأرحام، كما عليه الأصحاب.

وقال بعض العامّة: معناه أعطُوهم نَصيبَهم من النُّصر، والعَقل، والرِفد[٤]، ولا ميراث[٥]. وعلى هذا فلا تكون أيضاً منسوخة.

ومنها: قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلىٰ ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾[٦] فكان يحرمُ عليهم الجِماعُ في اللّيلِ، مُطلقاً على قول، أو بعد صَلاةِ العِشاء، أو بعد النوم، وهذا حُكمُ صَومِ أهل الكِتاب، فنُسِخ بقوله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلىٰ نِسَائِكُم﴾[٧] وببالي أنّ به قال النُعماني من أصحابنا[٨].

وفيه: أنّه لا دلالة في قوله تعالى: ﴿كَمَا كُتِبَ عَلَىٰ ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ على حُرْمَةِ الرَّفَثِ في اللّيلِ للصّائم، ولم يرد في أخبار أهل البيت ؑ ما يدلّ على إرادة هذا الحكم من التشبيه، بل فيها ما يدلّ على خِلافه، حيث إنّه فُسّر بأنّ الصومَ واجبٌ عليكم كوجوبه على سائر الأُمم أو على خصوص الأنبياء السَّلَف.

وظاهِرُ هذا التَّفسير تَشبيهُ الوجوب بالوجوبِ، لا تَشبيه الواجِب بالواجب، مع أنّه لمَ يَثبُت أنّ من أحكام صوم الذين من قبلهم حُرمةُ الجِماع عليهم باللّيل، حتّى يدخُلَ في كيفيّات الصّوم الذي هو في الشّرع الإمساك في النّهار عن الأمور المعيّنة.

ومنها: قوله تعالى في تلك السورة: ﴿وَعَلىٰ ٱلَّذِينَ يُطِقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾[٩].

قال بعض العامّة: كان المسلمون مُخَيَّرين بين الصَّومِ والفِدْيَةِ فِي أوّل الأمرِ، ثمّ نُسِخت بقوله

---

١. تفسير الطبري ٥: ٣٤، الدر المنثور ٢: ٥١٠، تفسير الصافي ١: ٤١٤، والآية من سورة الأنفال: ٧٥/٨.
٢. تفسير القمي ١: ١٣٧، تفسير الصافي ١: ٤١٤، والآية من سورة النساء: ٣٣/٤. ٣. الكافي ٧: ٣/١٧١.
٤. في تفسير الطبري: والرفادة. ٥. تفسير الطبري ٥: ٣٥.
٦. البقرة: ١٨٣/٢. ٧. البقرة: ١٨٧/٢. ٨. تفسير النعماني: ١٠. ٩. البقرة: ١٨٤/٢.

تعالى: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنكُم الشَّهرَ فَلْيَصُمْه﴾[١].

والمَرويّ عن الصادق عليه السلام «أنّ المُراد بذلك الحامِلُ المُقرِب، والمُرضِعَةُ القليلةُ اللّبن، والشّيخ والشّيخَة»[٢].

وفي رواية: «المرأة التي تَخاف على ولَدها، والشيخ الكبير»[٣].

وعن الباقر عليه السلام قال: «الشيخ الكبير، والذي يأخُذه العُطاش»[٤].

أقول: على هذه الروايات ليست الآية منسوخة.

ومنها: قوله تعالى في تلك السورة: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إنْ تَرَكَ خيراً الوَصِيَّةُ للوَالِدَين وَالأَقْرَبِينَ﴾[٥].

قال بعض العامّة: إنّها نُسِخَت بآيةِ الميراث[٦].

وأنكر النَسْخَ بعضُ أصحابنا[٧]. وقد ورَدت أخبارٌ كثيرةٌ بِبقَاء حُكْمِه، وإنْ روىٰ العَيّاشيّ عن أحَدِهما عليهما السلام أنّها منسوخةٌ بآيةِ المَواريث[٨]، إلّا أنّها محمولةٌ على التّقيّةِ لمُوافقتِها مذهبَ العامّة[٩].

ويُحتَمل بعيداً حَملُها على نَسْخِ الوجُوب مع بَقاء الاستِحباب والرُّجحان.

ومنها: قوله تعالى في تلك السورة: ﴿يَسْئَلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهرِ ٱلحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ﴾[١٠].

قال بعض العامّة: إنّها منسوخةٌ بقوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا ٱلمُشْرِكِينَ كَافَّةً﴾[١١].

وفيه: أنّ الآية الأُولى مُخصّصة للثانية لا مَنسوخة.

وعن (المجمع): إنّها لم تُنسَخ، لأنّه لا يجوز أن يُبتَدأ المشركون في الأشهرِ الحُرُم بالقتال[١٢].

ومنها: قوله تعالى في المائدة: ﴿وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلحَرَامَ ...﴾[١٣].

---

١. صحيح البخاري ٦: ٣٤/٥٥، سنن أبي داود ٢: ٢٣١٥/٢٩٦ و٢٣١٦، سنن النسائي ٤: ١٩٠، والآية من سورة البقرة: ١٨٥/٢.

٢. تفسير الصافي ١: ٢٠١.

٣. تفسير العياشي ١: ٢٨٦/١٨٤، تفسير الصافي ١: ٢٠٢.

٤. تفسير العياشي ١: ٢٨٥/١٨٤، تفسير الصافي ١: ٢٠٢.

٥. البقرة: ١٨٠/٢.

٦. تفسير الطبري: ٦٨/٢، تفسير الرازي ٥: ٦١.

٧. مجمع البيان ١: ٤٨٣.

٨. تفسير العياشي ١: ٢٧٣/١٨٠.

٩. تفسير الصافي ١: ١٩٨.

١٠. البقرة: ٢١٧/٢.

١١. الإتقان في علوم القرآن ٣: ٧٣، والآية من سورة التوبة: ٣٦/٩.

١٢. مجمع البيان ١: ٥٥٢.

١٣. المائدة: ٢/٥.

قال بعض العامة: إنّ هذا الحُكمَ مَنسوخٌ بآيةِ القِتال[١].

وفيه: أنّه روي عن الباقر عليه السلام «أنّه لم يُنسَخ من سورة المائدة شيء...»[٢] الخبر. مع أنّه لا وَجهَ للقَولِ بالنَسخِ مع إمكانِ التَخصِيص كما ذكَرنا في الآية السابقة.

ومنها: قوله تعالى في تلك السورة: ﴿فَإِنْ جَاءُوكَ فاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَو أَعْرِض عَنْهُمْ﴾[٣].

قالوا: إنّ الآية مَنسوخة بقوله تعالى: ﴿وَأَنِ ٱحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ ٱللهُ...﴾[٤].

وفيه: أنّه روي في (التهذيب) عن الباقر عليه السلام: «أنّ الحاكم إذا أتاه أهلُ التَوراة و[أهل] الإنجيل يتَحاكمون إليه، كان ذلك إليه إن شاء حكَم بينهم، وإن شاء تَركَهم»[٥] انتهى، وعليه لا تكون منسوخة.

ومنها: قوله تعالى في تلك السورة: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةَ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلمَوْتُ حِيْنَ ٱلوَصِيَّةِ ٱثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾[٦] قالوا: هي منسوخة بقوله تعالى: ﴿وَأَشْهِدُوا ذَوَى عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾[٧].

وفيه: أنّ التَّخصيص أولىٰ من النَسْخِ، وقد اتّفق النَّصُّ والفَتْوى على جَوازِ شَهادة أهلِ الكتاب إذا كانوا عُدولاً في دينهم في خصوص الوصيّة في السّفَر إذا لم يَجْدِ المُوصي مُسلِماً[٨].

ومنها: قوله تعالى في سورة البراءة: ﴿انْفِرُوا خِفافاً وَثِقَالاً﴾[٩].

قالوا: هي منسوخة بآيات العُذْرِ[١٠].

وفيه: أنّها مُخَصّصة لا ناسِخة، كما يشهد عليه قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِى ٱلقَاعِدُونَ مِنَ ٱلمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِى ٱلضَّرَرِ وَٱلمُجَاهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللهِ﴾[١١].

ومنها: قوله تعالى في سورة النّور: ﴿الزَّانِى لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذٰلِكَ عَلَىٰ ٱلمُؤْمِنِين﴾[١٢].

---

١. تفسير الطبري ٦: ٣٩، الإتقان في علوم القرآن ٣: ٧٤.
٢. مجمع البيان ٣: ٢٣٩.
٣. المائدة: ٤٢/٥.
٤. الكشاف ١: ٦٣٥، الدر المنثور ٣: ٨٣، الإتقان في علوم القرآن ٣: ٧٤، والآية من سورة المائدة: ٤٩/٥.
٥. التهذيب ٦: ٨٣٩/٣٠٠.
٦. المائدة: ١٠٦/٥.
٧. الإتقان في علوم القرآن ٣: ٧٥، والآية من سورة الطلاق: ٢/٦٥.
٨. الكافي ٧: ٨/٣٩٩، التهذيب ٦: ٦٥٥/٢٥٣.
٩. التوبة: ٤١/٩.
١٠. الإتقان في علوم القرآن ٣: ٧٥.
١١. النساء: ٩٥/٤.
١٢. النور: ٣/٢٤.

قالوا: إنّها منسوخةٌ بقوله تعالى: ﴿وَأَنكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنكُمْ﴾[١].

وفيه: أنّ ظاهِرَ الآيةِ الأُولى يدُلّ على جَواز نِكاح الزّاني المُسلِم للمُشركة، وجَواز نِكاح المُشرِك الزّانيةَ المُسلِمة، والظاهر أنّ هذا الحُكمَ لم يكن في وقتٍ من الأوقاتِ، فلابُدَّ من حَمْلِ الآيةِ على الزّاني والزّانيةِ الكافِرَين، بقَرينةِ قوله: ﴿وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾.

ومن الواضح أنّ حُرْمَةَ نكاحِ الزّاني الكافِرِ والمُشرِكِ للمؤمنةِ ونكاح الزانية الكافِرةِ والمُشرِكةِ للمؤمن غير منسوخة، وروايات أهلِ البَيت وإنْ كانت مُتَعارضة في جَوازِ نكاحِ الزّانية قبلَ التَّوْبَةِ، إلّا أنّ الأخبارَ المانِعةَ غير معمولٍ بها عند المَشهور من أصحابنا، فلابدّ من حَمْلِها على الكراهية.

والحاصِل: أنّه لم يَثبُت من طريقِ أهل البيت عليهم السلام نَسخٌ لِحُكْمِ الآيةِ الأُولى، بل الظاهِرُ من الرّوايات العديدة عَدَمُه، وتَفسيرها بالمَشهورات بالزِنا[٢].

ومنها: قوله تعالى في تلك السورة: ﴿لِيَسْتَئْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلاثَ مَرَّاتٍ﴾[٣].

قال بعضهم: إنّها منسوخةٌ، ولم يَذكُرِ الناسِخَ، وأنكَره بعضٌ آخر[٤]. ولم أظْفَر في رواياتِنا ما يدُلّ على نَسْخِها.

ومنها: قوله تعالى في سورة الأحزاب: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِن بَعْدُ﴾[٥].

قالوا: هي منسوخة بقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي﴾ الآية[٦].

وفيه: أنّه لم أفهَم له وَجْهاً، ولم يَرِدْ فيه خَبَر.

ومنها: قوله تعالى في المُمتَحَنة: ﴿فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا﴾[٧].

قال بعض منهم: إنّها منسوخةٌ بآيةِ السّيف[٨]، وبعضٌ آخر: بآيةِ الغَنيمَة[٩].

ومنها: قوله تعالى في سورة المنافقون: ﴿وَأَنْفِقُوا مِن مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾[١٠].

---

١. الإتقان في علوم القرآن ٣: ٧٥، والآية من سورة النور: ٣٢/٢٤.
٢. راجع: الكافي ٥: ٦/٣٥٥.
٣. النور: ٥٨/٢٤.
٤. الإتقان في علوم القرآن ٣: ٧٦.
٥. الاحزاب: ٥٢/٣٣.
٦. الإتقان في علوم القرآن ٣: ٧٦، والآية من سورة الأحزاب: ٥٠/٣٣.
٧. الممتحنة: ١١/٦٠.
٨. هي الآية الخامسة من سورة التوبة: ﴿فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ ...﴾.
٩. الإتقان في علوم القرآن ٣: ٧٦.
١٠. المنافقون: ١٠/٦٣.

قالوا: مَنسوخةٌ بِآيةِ الزّكاةِ[١].

ومنها: قوله تعالى في سورة التّين: ﴿أَلَيْسَ اللهُ بِأَحْكَمِ الحَاكِمِينَ﴾[٢].

قالوا: منسوخةٌ بآية السّيف[٣]، وفي هذه الآياتِ الثلاث، وإن كان احتِمالُ النَسْخِ قريباً، إلّا أنّه لم يَرِد به نَصٌ من طُرق أصحابنا.

الطّرفة الحادية والعشرون

في إبطال عدّ نسخ التلاوة من أقسام النسخ

قد عَدّ جَمعٌ من العامة من أقسامِ النسخ نَسْخَ التِلاوة، وذكروا لذلك أمثلةً من عبارات مَرويّة عن عمر وابنِه عبدالله وعائشة وغيرهم من الصحابة[٤]، وهذا من الأغلاطِ المَشهورة بينهم، والعباراتُ المَنقولَة التي قالوا إنّها من الآياتِ المَنسوخة التِلاوة لا تُشبه كلمات فُصَحاء العرَب فَضْلاً عن آياتِ القرآن المَجيد. والمتأمِّلُ المُنصِفُ يقطَعُ بأنّها ممّا اختَلَقَهُ المنافِقون لتَخريب أساسِ الدّين، وتَوهين الكتابِ المُبين، ويؤيّد ذلك بل يَشْهَدُ عليه أنّه لم يُنقَل عن أمير المؤمنين عليه السلام وابن عبّاس والمعتَمَدين من أصحابِ الرّسول رضوان الله عليهم أمثال هذه الرّوايات، مع كَونِهم أعرَف بآياتِ القرآنِ من غيرهم.

والعجَبُ من بعض العامّة حيث إنّهم أنكَروا هذا القِسمَ من النَسْخِ، ونَفَوا كون هذه العبارات المَنقولة من القرآن، مستَدِلاً بأنّ الأخبار الواردة أخبارُ آحادٍ، ولا يجوزُ القَطع على إنزال القرآنِ ونَسْخِه بأخبارِ آحادٍ لا حُجةَ فيها، مع أنّ العبارات الباردة المنقولة التي أكثرها رواية ما سَمّوه آيةَ الرّجم، من قَولِهم: (الشّيخ والشّيْخَة إذا زَنَيا فاجلدوهما البتّة بما قَضَيا من اللّذّة نَكالاً من الله والله عزيزٌ حكيم) ممّا يُنادي عند كلّ ذي مسكة بأنّه ليس من كلامالله المُنزل للإعجاز.

بل يُستَفاد ممّا رَواه بعضُهم عن عُمَر أنّه قال: لولا أن يقولَ النّاسُ: زادَ عُمَر في كتاب الله، لكتَبْتُها ـ يعني آيةَ الرّجم ـ[٥] أنّه لم يكن أحدٌ مُطّلِعاً على هذه العبارة التي سَمّوها آية، مع أنّ مُقتَضى كثيرٍ من

١. الإتقان في علوم القرآن ٣: ٧١.
٢. التين: ٩٥/٨.
٣. الإتقان في علوم القرآن ٣: ٧١.
٤. راجع: الإتقان في علوم القرآن ٣: ٨١ ـ ٨٤.
٥. مسند أحمد: ٢٩، الاتقان في علوم القرآن ٣: ٨٥.

رواياتهم أنّه كان يكتُب آيات القرآن بشَهادةِ شاهِدَين[١].

فلعلّ عدم اجتِرائه على كتابتها في القرآن لعِلم جميع الناس بأنّ مثل هذه العِبارة ليس بكلام الله ولا من آياتِ القرآن، وأنّه ليس إضافتها إلى الكتاب العزيز إلّا فِرْيَة وبُهتان.

الطّرفة الثانية والعشرون

في أنّ للقرآن المجيد ظهراً وبطناً، وبيان المراد منهما

قد تضافرت أو تواترت الروايات من طرُق الخاصة والعامّة في أنّ للقرآن العظيم ظَهْراً وبَطْناً.

عن الباقر عليه السلام أنّه قال في حديث: «يا جابر، إنّ للقرآنِ بَطْناً، وللبَطْنِ بطنٌ وظهرٌ، وللظَهْرِ ظهرٌ»[٢].

وعنه، في رواية أُخرى: «ما في القرآن آية إلّا ولها ظَهْرٌ وبَطْن»[٣].

وعن النبيّ صلّى الله عليه وآله بسند عامّي: «إنّ للقرآنِ ظَهْراً وبَطْناً وحَدّاً ومُطّلعاً»[٤] إلى غير ذلك من الروايات.

والظاهر أنّ المُراد من ظَهر القرآن ظَواهِرُ آياتِه التي يفهَمُها كلّ أحدٍ من مَدلولاتها المُطابقيّة والالتزاميّة الظاهِرَة، ومِن باطِنه دلالاته الالتزاميّة الخَفيّة وإشاراته الايهاميّة، ولطائفهُ ودقائقه، وما يُستَفاد منه بعُموم العِلّة أو أقوائيّة الملاك[٥] أو خصوصية الكلمات والحروف، أو بعِلم الحِساب والأعداد، فإنّ كلّ واحد من هذه الطُرق ممّا يُستَفاد به من الآيات علومٌ وفيرة وتكون له بطون كثيرة، كما روي «أنّ للقرآنِ ظهراً وبطناً، ولبَطنِه بطن إلى سبعة أبطُن»[٦].

وقد يُطلَق على ظَهرِه: التَنْزِيل، وعلى بطنه: التأويل، كما روي عن الباقر عليه السلام قال: «ظهرُه تَنزيلُه، وبَطنُه تأويلُه»[٧]. وإلى ما ذكَرنا مِن معنى الظهْرِ والبَطْن أشارَ الصادق عليه السلام بقوله في رواية: «كتابُ الله على أربعة أشياء: العِبارة، والإشارة، واللّطائف، والحَقائق، فالعبارة للعَوام، والإشاره للخَواصّ، واللطائف للأولياء، والحَقائق للأنبياء»[٨].

---

١. الإتقان في علوم القرآن ١: ٢٠٥، كنز العمال ٢: ٤٧٥٩/٥٧٤.

٢. تفسير العياشي ١: ٣٩/٨٧، تفسير الصافي ١: ٢٧.

٣. تفسير العياشي ١: ٣٦/٨٦.

٤. إتحاف السادة المتقين / للزبيدي ٤: ٥٢٧، تفسير الصافي ٢٨/١.

٥. أي قوة الملاك.

٦. تفسير الصافي ١: ٥٢.

٧. بصائر الدرجات: ٧/٢١٦، تفسير الصافي ١: ٢٧.

٨. الدرة الباهرة: ٣١.

وعن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «من ما من آيةٍ إلّا ولها أربعة معانٍ: ظاهرٌ، وباطِنٌ، وحَدٌّ، ومُطّلع، فالظاهِر التِلاوة، والباطن الفهم، والحدّ هو أحكام الحَلال والحَرام، والمُطّلع هو مُراد الله من العَبد بها»[١].

والظاهِرُ من قوله: «والباطِنُ الفَهم» فَهمُ ما وَراء الظاهِر من العلوم الكثيرة بالطرق المَذكورة المعلومة عندهم.

في بيان أنّ علوم النّبيّ والأئمة عليهم السلام جميعاً مستفادة من القرآن

بل يُستَفاد من بعض الأخبار أنّ علوم النّبيّ صلى الله عليه وآله وأوصيائه صلوات الله عليهم مُستَفادة من القرآن العظيم، والقرآنُ مَظهرٌ للعلوم غير المتناهية الإلهيّة ومَجْلاه، ولذا قال الصادق عليه السلام: «لقد تجَلّى الله تعالى [لخلقه] في كلامه، ولكنّ النّاس لا يُبصرون»[٢].

وروي عنه عليه السلام أنّه سُئل: هل عندكم من رسول الله صلى الله عليه وآله شيءٌ من الوَحْي سوى القرآن؟ قال: «لا والذي فلَق الحَبّة وبرَأ النّسمة، إلّا أن يُعطى عبد فَهماً في كتابه»[٣].

والظاهر أنّ المُراد من إعطاء الفَهم إنارَة قَلب العَبد وَتقْوِية عَقْلِه، وجودة ذِهنه، وتكميل قوّته النّظريّة، وتَعليمه طرُق الاستِفادة.

وتوضيح المَقام بمقدارٍ يسَعُه الافهام أنّه لا شُبهَة أنّ لكلّ موجودٍ وجودات مختلفة في عالَم الألفاظ، وعالم الذِهن، وعالَم المُثُل والصُوَر، وعالم الحقائق، على اختِلاف مَراتبها ودرَجاتها قوّة وضَعْفاً وسَعَةً وَضِيقاً، وقد حُقّق في محلّه أنّ كلّ عالَمٍ مرتَبط بالعَوالم الأُخَر وقِشرٌ لما فيه مُستَتر، ولكلّ وجودٍ آثارٌ في عالَمِه، ولكلّ أثرٍ ملاك وأثر وحُكم ومَصالح بلا عدٍّ ومرٍّ، فمَن زَكَت نَفسُه، وكَمُلَت جَودَتُه، ينتَقِل ذِهنُه من عالَمٍ إلى عالَم، ومن مُناسب إلى مُناسِب، ومن مَلزومٍ إلى لازِمٍ، ومن مُؤثِّر إلى أثَرٍ، ومِن أثرٍ إلى أثَر ما شاء الله، فمَن رزَقه الله فَهم كِتابه، يَصِل من ظاهِره إلى لُبابِه، ومنها إلى دَقائقِه، ومنها إلى حَقائقِه، حتّى يبلُغَ إلى درَجةٍ لا يخفى عليه خافية، ويُحيط بحَقائق الأشياء في عَوالمها كما هي.

وقد حكى الفيض رحمه الله عن بعض أهلِ المعرفة ما ملخّصه: إنّ العلم بالشيء إمّا يُستفاد من الحِسّ

---

١. تفسير الصافي ١: ٢٨.
٢. أسرار الصلاة للشهيد الثاني: ١٤٠.
٣. تفسير الصافي ١: ٢٩.

برؤية أو تجربة أو سماع خبَر أو شهادة أو اجتهاد أو نحو ذلك، ومثل هذا العِلم لا يكون إلّا فاسداً متغيّراً محصوراً[١] مُتَناهياً غير محيط، لأنّه إنّما يتعلّق بالشيء في زَمانٍ وجودِه عِلمٌ، وقبل وجودِه علمٌ آخر، وبعد وجودِه عِلمٌ ثالث وهكذا، كعُلوم اكثر النّاس.

وأمّا ما يُستَفاد من مبادِئه وأسبابه وغاياته كان[٢] عِلماً واحِداً كلّيّاً بسيطاً محيطاً[٣] على وجه عقليّ غير متغيّر، فإنّه ما من شيء إلّا وله سبَب ولسببَه سبَب، وهكذا إلى أن ينتَهي إلى مسبّب الأسباب.

وكلّ ما عُرف سببَه من حيث يقتَضيه ويُوجِبُه فلابدّ أن يعرِف ذلك الشيء علماً ضرورياً دائماً، فمَن عرَف الله تعالى بأوصافِه الكماليّة ونُعوته الجَلاليّة، وعرَف أنّه مبدأُ كلّ وجودٍ وفاعِلُ كلّ فَيضٍ وجودٍ، وعرَف ملائكته وعلم ملائكته[٤] المقرّبين، ثمّ ملائكته المدبّرين المسخّرين للأغراض الكلّيّة العقليّة بالعبادات الدائمة والنُسُك المُستَمِرّة من غير فُتورٍ ولغوب، الموجبة لأن يترشّح عنها صور الكائنات، كلّ ذلك على التّرتيب السَّبَبي والمُسَبّبي، فيحُيط علمه بكلّ الأمور وأحوالها ولواحقها عِلماً بريئاً من التغير والشك والغَلَط، فيعلم من الأوائل الثّواني، ومن الكلّيّات الجُزئيّات المُترتّبة عليها ومن البسائط المركبات، ويعلم حقيقة الانسان وأحواله، وما يكمّلها ويزكّيها ويُسعِدها، ويُصعِدها إلى عالَم القُدُس وما يُدَنّسها ويُرديها ويُشقيها ويُهويها إلى أسفَل سافلين، علماً ثابتاً غير قابل للتّغيير، ولا مُحتَمِل لتَطرُّق الريَب، فيعلم الأمور الجزئيّة من حيث هي دائِمة كلّيّة ومن حيث لا كثرة فيه ولا تغيّر، وإن كانت هي كثيرة متغيّرة في أنفُسِها بقِياس بعضِها إلى بعض.

وهذا كعِلم الله سُبحانه بالأشياء، وعلم ملائكته المقرّبين، وعلوم الأنبياء والاوصياء بأحوال الموجودات الماضيه والمُستَقبلة، وعلمهم بما كان وما سيكون إلى يوم القيامة من هذا القَبيل، فإنّه علمٌ كليٌّ ثابتٌ غير مُتَجدّدٍ بتَجدّد المَعلومات، ولا مُتكثّر بتكثّرها، ومن عرَف كيفيّه هذا العِلم، عرَف معنى قوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيءٍ﴾[٥] ويصدّق بأنّ جميع العلوم والمَعاني في القرآن الكريم عِرفاناً حقيقيّاً وتَصديقاً يقينياً على بصيرةٍ لا على وجه التقليد والسماع ونحوهما، إذ ما من أمرٍ من الأمور إلّا وهو مذكور في القرآن، إمّا بنفسه أو بمقوّماته وأسبابه ومبادئه وغاياته، ولا

---

١. في تفسير الصافي: محصوراً.
٢. (كان) ليس في تفسير الصافي.
٣. (محيطاً) ليس في تفسير الصافي.
٤. (وعلم ملائكته) ليس في تفسير الصافي.
٥. النحل: ٨٩/١٦.

يتمكّن من فَهم [آيات] القرآن وعجائب أسراره وما يلزمها من الأسرار[١] والعلوم التي لا تتناهى إلّا مَن كان عِلمُهُ بالأشياء من هذا القبيل، انتهى[٢].

وعن معلّى بن خُنَيس، قال: قال أبو عبدالله عليه السلام: «ما من أمرٍ يختلف فيه اثنان إلّا وله أصلٌ في كتاب الله، ولكن لا تَبلُغه عقولُ الرِّجال»[٣].

عن أبي عبدالله عليه السلام، قال: «إنّ الله أنزَل في القرآن تبيانَ كلّ شيءٍ، حتّى والله ما ترك الله شيئاً يحتاجُ إليه العِباد حتّى [لا] يستطيع عبدٌ يقول: لو كان هذا نزَل في القرآن، إلّا وقد أنزَله [الله] فيه»[٤].

ولا شُبهةَ أنّ العِلمَ ببُطون القرآن بالغاً ما بلغَ مختصٌّ بالأئمّة الطاهرة، وهم بالقرآن يعلَمون، لما كان وما يكون وما هو كائن، وما يمكن أن يعلَمه البشَر.

قال أمير المؤمنين عليه السلام: «إنّ ها هُنا ـ وأشار إلى صدره ـ لَعِلْماً جَمّاً لو وجَدتُ له حَمَلَةً»[٥].

وروىٰ الغَزالي في (الإحياء) والحافظ أبو نُعَيم في (حلية الأولياء) عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: إنّ القرآن نزَل على سبعةِ أحرُف، ما منها حَرفٌ إلاّ وله ظَهْرٌ وبطْنٌ، وإنّ عليّ بن أبي طالب عنده منه عَلمُ الظاهِر والباطن[٦].

وروىٰ النَّقّاش في (تفسيره) عن ابن عباس ما يَقرُب ممّا قال ابن مسعود[٧].

في نقل كلام الغزالي في فضيلة أمير المؤمنين عليه السلام ووفور علمه عليه السلام

وعن الغزالي قال: قال أمير المؤمنين صلوات الله عليه: «إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله أدخَل لسانَه في فَمي، فانفتَح في قَلْبي ألفُ بابٍ من العِلم، مع كلّ باب» ألفُ باب إلى أن قال الغَزالي: وهذه المَرتبة لا تُنال بمُجَرّد التعلّم[٨]، بل يتمكّن المَرْء في هذه الرّتبة بقوّة العِلم اللّدُنّي[٩].

وقال علي عليه السلام لما حكى عهد موسى على نبينا وآله وعليه السلام: «إنّ شَرحَ كتابِه كان أربعين جَملاً، لو أذِن الله ورسولُه لي لا تسرع[١٠] في شرح معاني ألف الفاتحة حتّى يبلُغَ مثل ذلك» يعني أربعين وقراً أو جَمَلاً[١١].

---

١. في تفسير الصافي: من الأحكام.
٢. تفسير الصافي ١: ٥٠.
٣. المحاسن: ٢٦٥/٣٥٥، الكافي ١: ٦/٤٩.
٤. الكافي ١: ١/٤٨.
٥. الخصال: ١٨٦/٢٥٧، نهج البلاغة: ٤٩٦/١٤٧.
٦. حلية الأولياء ١: ٦٥.
٧. مناقب ابن شهر آشوب ٢: ٤٣.
٨. في البحار: العلم.
٩. بحار الأنوار ٩٢: ١٠٤.
١٠. كذا في النسخة والبحار والظاهر: لأشرع.
١١. بحار الأنوار ٩٢: ١٠٤.

وذكر أبو عمر[1] الزاهد أنّ علي بن أبي طالب عليه السلام قال: «يا بن عبّاس إذا صلّيت العشاء الآخرة فالحقني إلى الجَبّان». قال: فصلّيت ولحقته وكانت ليلةً مُقمرةً.

قال: فقال لي: «ما تفسير الألفِ من الحَمد؟» قال: فما عَلِمتُ حَرْفاً أُجيبُه. قال: فتكلّم في تَفسيرِها ساعةً تامّةً.

قال: ثمّ قال لي: «فما تفسير اللّام من الحَمْد؟» قال: فقُلتُ: لا أعلم. فتكلّم في تفسيرها ساعةً تامّةً.

ثمّ قال: «فما تفسير الميم من الحمد؟» فقلت: لا أعلم. قال: فتكلّم في تفسيرها ساعةً تامّةً.

قال: ثم قال: «ما تفسير الدال [من الحمد]؟» قال: قلتُ: لا أدري. قال: فتكلّم فيها حتى برِق عمودُ الفَجْر. قال: فقال لي: «يا بن عبّاس، قم إلى مَنزِلك وتأهَّب لِفَرْضِك».

قال أبو العباس عبدالله بن عبّاس: فقُمتُ وقد وعَيتُ كلّ ما قال، ثمّ تفكّرتُ فإذا عِلمي بالقرآن في عِلم عليٍّ كالقَرارةِ في المُثْعَنْجر[2]، انتهى[3].

قالوا: القَرارَةُ: الغَدير، والمُثْعَنْجر: البَحْر.

وعن عليّ عليه السلام قال: «لو شِئتُ لأوقَرتُ سبعينَ بعيراً من تفسير فاتحةْ الكتاب»[4].

وعن الباقر عليه السلام قال: «لو وجَدتُ لِعِلْميَ الذي آتاني الله عزّ وجلّ حَمَلة، لنشَرتُ التَوحيد والإسلام [والإيمان] والدّين والشَرائع من الصَّمد»[5].

وعن أبي عبدالله عليه السلام قال: «إنّي لأعلَمُ خبَر السَّماءِ، وخبَر الأرضِ، وخَبَر ما كان وما هو كائن، كأنّه في كَفّي».

ثمّ قال: «من كتاب الله أعلَمُه، إنّ الله يقول: (فيه تِبيانُ كلّ شيء)»[6].

وفي رواية عن أبي عبدالله، عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «ليس شيء أبعَد عن عقول[7] الرّجال من تفسير القرآن، وفي ذلك تَحيّر الخلائق أجمَعون إلّا ما شاء الله، وإنّما أراد الله بتعميته في ذلك أن

---

١. في النسخة: أبو عمرو، وهو أبوعمر الزاهد، محمد بن عبدالواحد اللغوي المشهور بغلام ثعلب، المتوفّى سنة ٣٤٥هـ. راجع: فهرست ابن النديم: ١١٣، تاريخ بغداد ٢: ٣٥٦، لسان الميزان ٥: ٢٦٨، وفيات الأعيان ٤: ٣٢٩.

٢. المُثْعَنْجر: الماء وسط البحر وليس في البحر ماء يشبهه، والسيل الكثير، والقَراءة: القاع المستدير يجتمع فيه الماء، يقال: علمي إلى علمه كالقرارة في المُثْعَنْجر، أي مقيساً إلى علمه كالقاع الصغير موضوعاً في جنب البحر.

٣. بحار الأنوار ٩٢: ١٠٤.

٤. إحياء علوم الدين ١: ٣٣٤ و٣٤١، أسرار الصلاة للشهيد الثاني: ١٣٨.

٥. التوحيد: ٦/٩٢.

٦. تفسير العياشي ٣: ٢٤١٥/١٨.

٧. في المحاسن: شيء بابعد من قلوب.

ينتَهوا إلى بابه وصِراطه، وأن يعبُدوه وينتهوا إلى طاعة القُوّامِ بكتابه، والناطِقين عن أمره، وأن يستنبطوا ما[1] احتاجوا إليه من ذلك عنهم لا عن أنفسِهم. ثمّ قال: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إلى الرَّسُولِ وَإلى أُولِى الأَمرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾[2]. وأمّا غيرُهم فليس يعلَمُ ذلِك أبداً، ولا يوجد.

وقد علمتَ أنّه لا يستقيمُ أن يكونَ الخَلقُ كلّهم وُلاة الأمرِ، إذاً لا يَجدون من يأتَمِرون عليه، ولا مَن يُبلّغونه أمرَالله ونَهيهِ، فجعَل [الله] الوُلاةَ خَواصّاً لَيقْتَدي بهم [مَن] لم يخصصهم بذلك.

فافهم ذلك إن شاء الله، وإيّاك وتأويل القرآن برأيك، فإنّ النّاس غير مُشتَركين في عِلمه كاشتِراكهم فيما سِواه من الأُمور، ولا قادِرين عليه ولا على تأويله، إلّا من حَدِّه وبابه الذي جعَله الله له، فافهَم إن شاء الله، واطلُبِ الأمرَ مِن مَكانِه تَجِدْهُ إن شاء الله»[3].

الطّرفة الثالثة والعشرون

في أنّ جميع القرآن في الأئمة وولايتهم ووجوب اتّباعهم وشؤونهم وشؤون أوليائهم وأعدائهم، وتوضيحه

قد استَفاضت الأخبار عن الأئمّة الأطهار صلوات الله عليهم في أنّ جميع القرآن فيهم، وفي ولايتهم، ووجوب اتّباعهم، وشؤونهم وشؤون أوليائهم وأعدائهم.

عن جابر بن عبدالله رضي الله عنه عن النبيّ صلى الله عليه وآله - في حديثٍ ذكر فيه مَحامِدَ أهل بيته عليهم السلام - قال: «نحن مَعدِن التّنزيل، ومعنى التأويل»[4].

وقريب منه ما روي عن أمير المؤمنين صلوات الله عليه في حديثٍ طويلٍ ذكر فيه صِفاتَ الإمام[5].

ولا ينافي ذلك ما رَواه الأصبَغ بن نُباتة عن أمير المؤمنين صلوات الله عليه، قال: «القرآن نزَل على أربعة أرباع: رُبع فينا، ورُبع في عدوّنا، ورُبع سُنَنٌ وأمثال، ورُبع فرائض وأحكام، ولنا كرائم القرآن»[6].

وفي رواية أُخرى عنه عليه السلام: «أنّه نزَل أثلاثاً: ثُلُثي القرآن فينا وفي شيعتنا، فما كان من خَيرٍ فلَنا

---

١. في النسخة: يستنبطوا لما، وفي المحاسن: يستنطقوا ما.
٢. النساء: ٤/٨٣.
٣. المحاسن: ٣٥٦/٢٦٨، بحار الأنوار ٩٢: ٧٢/١٠٠.
٤. مشارق أنوار اليقين: ٤٠، بحار الأنوار ٢٥: ٣٨/٢٢.
٥. مشارق أنوار اليقين: ١١٤.
٦. تفسير فرات: ٢/٤٦.

ولشيعتِنا، والثُلُث الباقي اشرَكنا فيه النّاس، فما كان من شَرٍّ فلِعَدوّنا»[١].

فإنّ الاختِلاف بين الأخبار راجِعٌ إلى اختِلاف اللّحاظ والاعتِبار، فباعتبارٍ يكونُ جميع ماذُكر فيه من مَدح المؤمنين وثَوابهم، وذمُّ الكُفّار وعِقابهم راجعاً إلى شيعتهم وأعدائهم، وجَميع الفرائض والأحكام مرتبطاً بولايتهم، وجميع ماذُكر فيه من قَصص الأنبياء وأُمِمِهم جارياً فيهم.

عن الكاظم عليه السلام في قوله: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَما بَطَنَ﴾[٢] قال: «القرآنُ له ظَهر وبَطن، فجميع ما حرَّم الله في الكتاب هو الظاهر، والباطِنُ من ذلك أئمّة الجَور، وجميع ما أحَلّ الله في الكِتاب هو الظاهر، والباطِنُ من ذلك أئمّة الحَقّ»[٣].

وعن أبي بصير، قال: قال الصادق عليه السلام: «يا أبا محمّد، ما من آيةٍ تقودُ إلى الجَنّة ويُذْكَر أهلها بخير إلّا وهي فينا وفي شيعتنا، وما من آيةٍ نزَلت تَذْكُر أهلها بشَرٍّ وتسوق إلى النّار، إلّا وهي في عَدوِّنا ومَن خالَفَنا»[٤].

وفي (التوحيد) بأسانيده: عنه عليه السلام أنّه قال: «ما من آيةٍ تسوقُ إلى الجَنّة إلّا وهي في النبيّ والأئمّة عليهم السلام وأشياعهم وأتباعِهم، وما من آيةٍ تَسوقُ إلى النّارِ إلّا وهي في أعدائهم ومُخالفيهم»[٥].

وعن الصادق عليه السلام وكثيرٍ من الصّحابة والتابعين «أنّه ما من آيةٍ أوّلها: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا﴾ إلّا وعليّ بن أبي طالب أميرُها وقائدُها وشريفُها وأوّلها»[٦].

وعن (الاحتجاج) عن الباقر عليه السلام قال: «قال النبيّ صلى الله عليه وآله في خُطبةٍ يوم الغَدير: مَعاشِرَ النّاس، هذا عليّ[٧] أحقّكم بي، وأقرَبكم إليّ[٨]، والله عزّ وجلّ وأنا عنه راضِيانِ، وما نزَلت آيةُ رِضاً إلّا فيه، وما خاطَب [الله] الذين آمنوا إلّا بدأ به، وما نزَلت آيةُ مَدحٍ في القرآن إلّا فيه[٩].

معاشِرَ النّاس، إنّ فَضائل عليّ عند الله عزّ وجلّ، وقد أنزَلها عَلَيَّ في القرآن أكثر مِن أن أُحصيها في مكان[١٠] واحد، فمن نبّأكم بها وعَرفها فصدِّقوه»[١١].

أقول: لاريبَ في أنّ كلّ ما نزَل من الآيات في فضائل عليّ عليه السلام فَهوَ جارٍ في أوصيائه

---

١. بصائر الدرجات: ٢/١٤١، بحار الأنوار ٩٢: ١٨/٨٥.
٢. الأعراف: ٣٣/٧.
٣. الكافي ١: ١٠/٣٠٥.
٤. الكافي ٨: ٦/٣٦.
٥. إعتقادات الصدوق: ٩٥.
٦. تفسير فرات: ٤٨ ـ ٤/٥١ و٦ ـ ٩، مناقب الخوارزمي: ١٩٨، ذخائر العقبى: ٨٩.
٧. زاد في المصدر: انصركم لي و.
٨. زاد في المصدر: وأعزكم عليّ.
٩. الإحتجاج: ٦١.
١٠. في المصدر: مقام.
١١. الاحتجاج: ٦٦.

المعصومين صلوات الله عليهم أجمعين أيضاً، كما روي عن الباقر عليه السلام في حديثٍ، قال: «ظَهر القرآن للذين نزَل فيهم، وبَطنُه للذين [1] عَمِلوا بمِثل أعمالهم» [2].

وفي رواية أُخرى: عنه عليه السلام قال: «ولو أنّ الآيةَ إذا نزَلت في قوم، ثمّ ماتَ أُولئك [القوم] ماتَتِ الآية، لَما بقِيَ من القرآن شيء، ولكن القرآنَ يجري أوّله على آخِره ما دامت السماوات والأرض» [3].

وعنه عليه السلام في روايةٍ، قال في قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [4] «عليّ الهادي، ومن الهادي [اليوم]؟» فقلت: أنتَ جُعِلت فداك الهادي. قال: «صدَقتَ، إنّ القرآن حيٌّ لا يَموت، والآيةُ حَيّةٌ لاتموت. فلو كانت الآيةُ إذا نزَلت في الأقوام وماتوا ماتَتِ الآية لماتَ القرآن [5]، ولكن هي جاريةٌ في الباقين كما جرت في الماضين» [6].

وعن الصادق عليه السلام: «إنّ القرآن حيٌّ لا يموت، وإنّه يجري كما يجري اللّيل والنّهار، وكما تجري الشمس والقَمر، ويجري على آخِرنا كما يجري على أوّلنا» [7].

وبالجملة: الرّوايات الّتي تدلّ على أنّ جميع القرآن في شأن الأئمّة عليهم السلام وإيجاب ولايتهم كثيرةٌ جدّاً، بل وردت روايات في آياتٍ ظاهرُها بيانُ الأحكامِ، وباطِنُها بيانُ شأنِهم، كما روي عن عبدالله بن سِنان، قال ذَرِيح المُحارِبيّ: سألتُ أباعبدالله عليه السلام عن قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ﴾ [8] فقال: «المُراد لِقاء الإمام عليه السلام».

[قال عبدالله بن سنان]: فأتيتُ أبا عبدالله صلوات الله عليه وقلت له: جعلت فداك، قول الله عزّ وجلّ: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ﴾؟ قال: «أخذُ الشّارب وقَصّ الأظفار وما أشبه ذلك» فحَكَيتُ له كَلام ذَرِيح، فقال عليه السلام: «صدَق ذَرِيح، وصدَقت [أنت]، إنّ للقرآنِ ظاهِراً وباطِناً، ومن يحتَمِل ما يحتَمِل ذَريح!» [9].

قال الفيض: إنّ جماعة من أصحابنا صنّفوا كتُباً في تأويل القرآن على هذا النّحو، جمَعوا فيها ما ورَد عنهم عليهم السلام في تأويلِ آيةٍ آية، إمّا بهم أو بشيعتهم أو بِعَدُوّهم على ترتيب القرآن، وقد رأيتُ منها

---

١. في تفسير العياشي: الذين.
٢. تفسير العياشي ١: ٣٤/٨٦.
٣. تفسير العياشي ١: ٣١/٨٥، بحار الأنوار ٩٢: ٤/١١٥.
٤. الرعد: ٧/١٣.
٥. في العياشي: في الأقوام ماتوا فمات القرآن.
٦. تفسير العياشي ٢: ٢١٨٥/٣٧٩.
٧. تفسير العياشي ٢: ٢١٨٥/٣٧٩.
٨. الحج: ٢٩/٢٢.
٩. معاني الأخبار: ١٠/٣٤٠.

كتاباً كادَ يقرُب من عِشرين ألف بيت[1].

وقد ذكر أصحابُنا لذلِك أسراراً، أحسَنُها أنّه تعالى لمّا جعَل الأنوارَ المقدّسة في الخَلق مَظاهِرَ لصِفاته الجَلاليّة والجَماليّة بهم عُرِف الله وبهم عُبد، فلا يحصُل لأحدٍ قربٌ إلى الله إلّا بالقُربِ إليهم، ولا الإيمان بالله إلّا بالايمان بهم، ولا يُعرَف الله الّا بمَعرِفتهم، ولا يَنالُ أحدٌ درجةً عند الله إلّا بوِلايتهم.

فكلّ أمرٍ في القرآن بالإيمان بالله وبعِرفانِه وبالقُربِ إليه، يكون أمراً بالإيمان بهم وبعِرفانِهم وبالقُرب إليهم، وكلّ تكليفٍ جُعِل مُقرِّباً إلى الله، يكون مُقرِّباً إليهم، وكلّ مَدحٍ يكون للمؤمنين، يكون لَهُم ولشيعتهم، وكلّ ذمٍّ ووَعيدٍ يكونُ للكُفّار ولأعداء الله، يكون في الواقع راجِعاً إلى الكافرين بِهم وإلى أعدائهم، وكلّ ما هو راجِعٌ إلى اللهِ، راجِعٌ إليهم، فهم صلوات الله عليهم مع الله، واللهُ معهم، لا يُفارقونه في شيء ولا يفارقهم.

ويشهَدُ لما ذُكِر الأخبار الواردة في أنّ ولايتَهم قرينةُ ولاية الله وتوحيده، وأنّهم عِلّةٌ غائيّةٌ لخَلق العالم، وأنّ جميع الأنبياء من أوّل الخَلق، كما كانوا مأمورين بدَعوة اُمَمِهم إلى التَوحيد، كانوا مأمورين بدَعوَتهِم إلى الإقرار بولايتهم ومعرفة حُقوقهم.

في (تفسير الإمام عليه السلام) أنّه قال: «ولاية محمّد وآل محمّد صلوات الله عليهم هي الغَرَض الأقصىٰ والمُراد الأفضَل، ما خلَق الله أحداً من خَلقِه، ولا بعَث أحداً من رُسله إلّا ليَدعوهم إلى وِلايَةِ محمّد وعليّ وخُلفائه صلواتُ الله عليهم، ويأخذ عليهم العَهد ليُقيموا عليه، وليُعلِموا به[2] سائر عوامّ الأمم»[3].

وعن (أمالي الشيخ): عن محمّد بن عبدالرحمٰن، قال: سمِعتُ أبا عبدالله عليه السلام يقول: «ولايتُنا ولايةُ الله التي لم يُبعَث نبيٌّ قطّ إلّا بها»[4].

وفي (الكافي): عن عبدالأعلى، قال: سمِعتُ أبا عبدالله عليه السلام يقول: «ما من نبيّ جاء قطّ إلّا بمَعرِفة حقّنا، وتَفضيلنا على مَن سوانا»[5].

وفيه أيضاً: عن أبي الحسَن عليه السلام قال: «ولا ية عليّ صلَواتُ الله عليه مكتوبة في جميع صُحُفِ الأنبياء، ولم يبعث الله رسولاً إلّا بنبوّة محمّد صلى الله عليه وآله ووصيّة عليّ عليه السلام»[6].

---

١. تفسير الصافي ١: ٢٣، منها تأويل الآيات لشرف الدين النجفي، وكتاب الهداية القرآنية إلى الولاية الإمامية للسيد هاشم البحراني.

٢. في التفسير: وليعمل به.

٣. التفسير المنسوب إلى الامام العسكري عليه السلام: ٢٦٤/٣٧٩.

٤. أمالي الطوسي: ١٤١٢/٦٧١.

٥. الكافي ١: ٤/٣٦٢.

٦. الكافي ١: ٦/٣٦٣.

وعن (تفسير العياشي)[١]: عن الحسَن بن عليّ عليهما السلام أنّه قال: «مَن دفَع فَضْلَ أمير المؤمنين صلوات الله عليه [على جميع من بعد النبيّ صلى الله عليه وآله] فقد كذّب بالتّوراة والانـجيل والزّبـور وصُحُفِ إبـراهـيم وموسىٰ وسائر كتُب الله المُنزَلة، فإنّه ما نزَل شيءٌ [منها] إلّا وأهَمُّ ما فيه بعد الإقرار[٢] بتَوحيد الله عزّ وجلّ والاقرار بالنبوّة، الاعتِراف بولاية عليّ والطيّبين من آله عليهم السلام»[٣].

[وعن (أمالي الشيخ): عن جعفر بن محمّد الصادق، عن أبيه، عن جدّه عليهم السلام،] قال: «قال رسـول الله صلى الله عليه وآله: ما قبَض الله نَبيّاً حتّى أمرَه أن يُوصِيَ إلى [أفضل] عشيرته من عَصَبتِه، وأمرني أن اُوصِي، فقلتُ: إلى مَن يا رَبّ؟ فقال: إلى ابن عَمِّك عليّ بن أبي طالب، فإنّي قد أثبَتّه في الكـتُب السـالِفة، وكتَبتُ فيها أنّه وَصيُّك، وعلى ذلِك أخَذتُ ميثاقَ الخَلائق، ومَواثيق أنبيائي ورُسُلي، أخَذتُ مَواثِيقَهم لي بالرّبوبيّة، ولك يا محمّد بالنبوّة، ولعليّ بالولاية»[٤].

وعن (كتاب سُلَيم بن قَيس الهِلاليّ): عن المِقداد رضي الله عنه، قال: سمِعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وآله يقول: «والذي نَفسي بيَدِه، ما أستَوجَب آدَمُ أن يخلُقَه الله ويَنفُخَ فيه من روحه، وأن يتوبَ عليه ويرُدَّه إلى جَنّتِه إلّا بنبوّتي والولاية لعليّ بَعدي.

والذي نفسي بيَدِه، ما رأى[٥] إبراهيم ملكوت السماوات[٦]، ولا اتّخَذه الله خليلاً إلّا بنبوّتي ومعرفة عليّ بعدي. والذي نَفسيبيَدِه، ما كَلّم الله موسى تكليماً ولا أقام عـيسى آيـةً للـعالمين إلّا بـنبوّتي والإقرار لعليّ بعدي. والذي نَفسي بيَدِه، ما تَنَبّأ نبيّ قَطّ إلّا بمعرِفَتي[٧] والإقرار لنا بالولاية، ولا استَأهَل خَلقٌ من الله النظَرَ [إليه] إلّا بالعبوديّة له والإقرار لعليّ بعدي»[٨].

وعن جابر الجُعفيّ، عن الباقر عليه السلام ـ في رواية طويلة ـ قال: «فنَحنُ أوّل خَلقِ الله، وأوّل خَلقٍ عبَد الله وسبّحه، ونحنُ سبَب خَلْقِ الله الخَلْقَ، وسبَب تَسبيحهم وعبادتهم مِن الملائكة والآدميّين، فـبنا عُرِف الله، وبنا عُبِد الله، وبنا وُحِّدَ الله، وبنا أكرَم الله من أكرَم من جميع خَلقِه، وبنا أثـابَ الله [مـن

---

١. لم نجده في تفسير العياشي، والظاهر أنّه وهمٌ، فقد ورد في التفسير المنسوب إلى الامام العسكري عليه السلام وتأويل الآيات.
٢. في تفسير العسكري وتأويل الآيات: الأمر.
٣. التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام: ٨٨/٤٦، تأويل الآيات ١: ٤/٣٣.
٤. أمالي الطوسي: ١٦٠/١٠٤، بحار الأنوار ٣٨: ٤٤/١١١.
٥. في المصدر: ما أُري.
٦. زاد في المصدر: والأرض.
٧. في المصدر: بمعرفته.
٨. كتاب سليم: ٢٠٦.

أثاب]، وبنا عاقَب مَن عاقَب، ثمّ تَلا قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّافُّونَ * وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ﴾ [١]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ ٱلعَابِدِينَ﴾ [٢] فرسول الله ﷺ أوّل مَن عَبد الله، وأوّل من أنكَر أن يكونَ له وَلَد أو شَريك، ثمّ نَحنُ بعد رسول الله ﷺ» الخبر [٣].

فظهَر من جميع ما ذُكِر أنّ حقيقةَ الدّين وروح الأحكام؛ معرِفتهُم وولايتُهم، وجميعِ الخَلق راجعٌ إليهم، فجَميعُ آياتِ الكتاب تكون فيهم وما يتعلّق بهم.

الطّرفة الرّابعة والعشرون

في دفع توهّم استلزام أمر اشتمال القرآن علىٰ البطون استعمال اللفظ في أكثر من معنى

قد يَتوهّم المُتَوهّم أنّه يلزَم من إرادَة المَعاني الظاهريّة، والبطون الكثيرة من الآيات، إرادَةُ المَعاني الكثيرة من اللّفظ الواحِد في استِعمالٍ واحِد، وقد تقرّر في علم الأُصولِ عدَمُ جَوازِه، بل امتناعُه، وبعد الإحاطة بما ذكَرنا سابقاً من اختِلاف جهاتِ الدلالة واستِنباط المَعاني منها، يَندَفِع هذا التوَهّم، فإنّ الانتِقال من اللفظ إلى المعنى، واستِفادة المَطْلب مِن الكَلام، ليسَ مُنحَصِراً في الدلالة بجهةٍ واحدةٍ ووجهٍ فارِد، بل كلّما استُعمِلت الجُمَل المركّبة من المُفرَدات تركيباً مفيداً، فهي تدُلّ على معانيها الظاهريّة مُطابَقةً، وعلى أجزائها العقليّة والخارجية تَضَمّناً، وعلى عِلَلِها وأجزاء عِلَلِها وشرائِطها، إلى أن ينتهي إلى مبدأ المَبادئ، وعلّة العِلَل ومعلولاتها، إلى ما شاء الله التِزاماً.

هذا بالنسبة إلى الجُمْلةِ الواحدة بالنظر إلى الدّلالات الثّلاث مع قَطْع النّظَر عن انضِمامها إلى الآيات الأُخَر، وعن الدلالات غير الكلاميّة من كيفية الألفاظ وأعداد حروفها وسائر طرُق الاستِفادة منها، التي لا يعلَمُها إلّا الرّاسخون في العِلم.

فبتِلِكَ الوجُوه يكون لكلِّ آية ظاهِرٌ، وظاهِرُها ظاهِرٌ وباطِنٌ وباطِنٌ باطِن إلى ما شاء الله، وبها يُجْمَع بين الأخبار المُتَنافية الوارِدَة في تفسير بعض الآيات كالمُخْتَلِفات في تفسير قوله تعالى: ﴿وَرَابطُوا﴾ في آية ﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا ٱصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا﴾ [٤] ففي بعضها أنّ المُراد منه

---

١. الصافات: ٣٧/١٦٥ و١٦٦. ٢. الزخرف: ٤٣/٨١. ٣. بحار الأنوار ٢٥: ٢٠/٣١.
٤. آل عمران: ٣/٢٠٠.

التوقّف في الثّغور، ورَبْط الخَيل للتهيّؤ للجهاد[١]. وفي بَعضِها الآخر: أنّ المُراد الانتِظار للصّلاة بعد الصّلاة[٢]. وثالث: أنّه لِقاءُ الإمام[٣].

فليس التّعارض بين الروايات المختلفة الوارِدَة في تَفسير آيةٍ من قَبيل التّعارض الذي يجب الرجوع فيه إلى المُرَجّحات المَنصوصة أو غير المَنْصوصة، وعند فَقْدِها يلتزم بالتوّقف أو التّخيير، فإنّ الجَمع الدلاليّ ممكنٌ فيها، ومقدَّم على المُرجّحات السّنديّة.

وكذا الروايات المختلفة الواردة في شأن نزولِ الآيات، فإنّها محمولةٌ على تَقارُنِ الوَقائع، وإنّ جميعَها كان سببَاً للنّزول، أو على أنّ النّزول كان متكرّراً، فإنّه ممكنٌ، بل واقِعٌ، أو على أنّها نزلت عند أوّل واقِعةٍ، ثمّ وقَعت وقائعُ أُخرى كلّ واحدٍ منها مُناسِبٌ لمَضمونِ الآيةِ، فقرأها النبي ﷺ عنده فتوهّم الرّاوي نُزولَها فيه.

نعم، يكون اختلاف الروايات في كيفيّة القراءة من التّعارض الذي ليس فيه جَمعٌ دلاليّ بناءً على ما هو الحقّ المُحقّق من بُطلان القَول بتعدّد القِراءات التي نزَل بها جَبْرَئيل، وفَساد القول بأنّ القِراءات السّبع مُتَواتِرَة عن النبيّ ﷺ.

وإنّ الحقّ أنّ القرآن نزَل على حرفٍ واحدٍ من عند إله واحدٍ، كما نطَقت به بعض الروايات الواردة عن أهل البيت عليهم السلام[٤]، ولكن لا يمكن إثبات كيفيّة القراءة بخبر الواحد، كما لايُمكن إثبات الآية به، نعم يترتّب عليه على تقدير استِجْماعِه شرائط الحجّيّة الحكُم الشَرعيّ الذي يكون لمُؤَدّاه، إن لم تَكُن القراءة المَشهورة مُتَواتِرَة، وإلّا فلابُدّ من طرح تِلك الروايات والقراءة، والعمل بالقراءة المَشهورة، وعند ذلك لا فائدة في تلك الأخبار خصوصاً مع قولهم صلوات الله عليهم «إقرأ كَما يقرأ النّاس»[٥].

فلا يجوز قراءة السور بالقراءات غير المشهورة في صلاة الفريضة، ولو كانت مرويّة عن الأئمّة المعصومين عليهم السلام بسندٍ صحيحٍ معتبر.

---

١. الكشاف ١: ٤٦٠، تفسير روح البيان ٢: ١٥٧.

٢. تفسير الطبري ٤: ١٤٨، مجمع البيان ٢: ٩١٨، تفسير القرطبي ٤: ٣٢٣، تفسير روح البيان ٢: ١٥٧.

٣. راجع: الكافي ٢: ٣/٦٦، غيبة النعماني: ١٣/١٩٩، تفسير القمي ١: ١٢٩، مختصر بصائر الدرجات: ٨.

٤. راجع: الكافي ٢: ١٢/٤٦١ و١٣، تفسير الصافي ١: ٥٣.

٥. راجع: الكافي ٢: ٢٣/٤٦٢.

الطّرفة الخامسة والعشرون

في عدم حجّية الأمارات الدّالّة علىٰ تفسير الآيات غير المرتبطة بالأحكام الشرعية العملية

لا شبهةَ في عدَم حجّيّة الأمارات الشرعيّة في مَوردٍ ليس له بنَفسِه أو بتوسّط اللوازم العقليّة أو العاديّة حكمٌ شرعيّ عمليّ، حيث إنّ الحجّيّة إمّا عبارة عن حُكمٍ شرعيّ تكليفيّ طريقيّ بترتيب الأحكام العمليّة الواقعيّة على مؤدّىٰ الأمارة الدّالّة عليها أو على وجود مَوضوعِها عند جَهْل المكلّف بها أو بمَوضوعها، أو حُكم وضعيّ وجَعل إنشائيّ مِمّن له الحُكم.

والجَعْلُ يكونُ مَنْشأً لاعتِبارٍ عُقَلائي يستتبع الآثار العقليّة من تنجيز الأحكام الشرعيّه الواقعيّة التي تكون مؤدّاها أو العُقَلائيّة كذلك ولو بالوسائط العقليّة أو العاديّة عند الإصابة والعُذر عند الخَطأ و المُوافقة والتجرّي عند المُخالفة، فَلا يتصوّر تحقّق مفهوم الحجّيّة وجَعْلها إلّا لأمارةٍ كانَ مؤدّاها حكماً عملياً، أو موضوعاً[1] ذا حُكم ولو بواسطة اُمور غير شرعيّة، فلا معنى لحجّيّة الأخبار غير العمليّة الواردة في بيان شأن نزول الآيات أو تفسيرها أو بطونها وتأويلها إذا لم يترتّب عليها حكمٌ شرعيّ ولم يكن لها دَخْل في فَهم الآيات الدّالّة على الأحكام التكليفيّة أو الوضعيّة، ولا يجوز ترتيب أثرِ العِلم على تلك الأمارات المَجعولة.

ولو كان العلم مأخوذاً فيها على جهة الكشف والطريقيّة، فعَلى المكلّف أن يرتّب على الأمارات آثار المعلوم، لا آثار العِلم، فعلى هذا لا يجوز الإخبار بتحقّق مؤدّاها لأنّ جَواز الإخبار بالواقع من آثار العلم به لا من آثار نفسِه، فإنّ دليل الحجّيّة لا يَفي بإثبات آثار العِلم للأمارة، وإنّما يُثبِت لها أثر الكَشف عن الواقع الذي للعلم، إلّا أن يقومَ دليلٌ غير دليل الحجّيّة على جَواز ترتيب أثر العِلم على الأمارة.

فعلى هذا لا يجوز الارتِماس في الماء للصائم، ولا يجوز الإخبار بأنّ الارتِماس مُبطِلٌ للصّوم في حكم الله الواقعي، لأنّه كَذِب على الله وعلى رسوله إذا كان الكَذِب هو الإخبار بشيء لا يعلم به.

نعم، له أن يقول: رأيي، أو رأيُ مُقَلّدي عدَم جَواز الارتِماس حال الصّوم، أو يقول: مُقتَضى الأخبار كذا، إلّا أن يُقال: إنّ أقوى دليل حجّيّة الروايات هو بناء العُقَلاء وسيرتهم على العمَل بالخَبر الموثوق

---

١. في النسخة: حكم عمليّ أو موضوع.

به، وكما أنّ سيرتهم قائمةٌ على جواز العمل، كذلك قائِمةٌ على جَواز الإخبار بالواقع الذي يكون مُؤدّاه.

فإذا أخبر أحدٌ بشأن نزول آيةٍ، أو تفسيرِها، أو تأويلها، أو بحُكم من أحكامِ الله الواقعية، ثمّ سُئِل عن مَدرَكِ إخباره، فأجاب بأنّه ورَد خبرٌ معتَبر به، لا يُلام عند العُقَلاء على إخباره، مع عدَم عِلمه به، وتؤيدّه الرواية في جَواز الشّهادة على المُلك الواقعيّ بالاستِصحاب واليَد[١].

والحاصل: أنّ في الحُجَج العُقَلائيّة من خبَر الثِقة وظواهر الألفاظ وغيرها سيرتين منهم، إحداهما: على جَواز العمَل بمؤدّاها على أنّه الواقِع. وثانيتهما: على جَواز الإخبار بالواقِع الذي تكون أمارة عليه.

الطّرفة السادسة والعشرون

في دفع توهّم التناقض والتعارض

بين الآيات الكريمة

قد توهّم الجاهِلون التناقض في جُملةٍ من آياتِ الكتاب العزيز، والتَعارض بين كثيرٍ منها، مع بَداهةِ أنّ كلامَه تعالى مُنزَّهٌ عن ذلك، قال تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ ٱللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ ٱخْتِلافاً كَثِيراً﴾[٢] وقد تعرّض جمعٌ من العُلَماء لذِكر الآيات المؤهِمة لذلك، ولبَيان وجه الجَمع بينها ودَفْع التوهّم فيها.

روي عن سعيد بن جُبَير، قال: جاء رجلٌ إلى ابن عبّاس ﷺ فقال: رأيت أشياء تختَلف عليّ من القرآن. فقال ابن عبّاس: ما هو أشَكّ؟! قال: ليس بشكٍ، ولكنّه اختِلاف، قال: هات ما اختَلف عليك من ذلك.

قال: أسمَعُ الله يقول: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَٱللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾[٣] وقال: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللهَ حَدِيثاً﴾[٤] فقد كتَموا. وأسمَعُه يقول: ﴿فَلَا أَنْسابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾[٥] ثمّ قال: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءلُونَ﴾[٦]. وقال: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ ...﴾ حتّى بلَغ ﴿طَائِعِينَ﴾[٧] ثمّ قال في الآية الأخرى: ﴿أَمِ ٱلسَّمَاءُ بَنَاهَا﴾[٨] ثم قال: ﴿وَٱلْأَرْضَ

---

١. وسائل الشيعة ٢٧: ٣٣٦ ـ باب ١٧. ٢. النساء: ٨٢/٤. ٣. الأنعام: ٢٣/٦.
٤. النساء: ٤٢/٤. ٥. المؤمنون: ١٠١/٢٣. ٦. الصافات: ٢٧/٣٧، الطور: ٢٥/٥٢.
٧. فصلت: ٩/٤١ ـ ١١. ٨. النازعات: ٢٧/٧٩.

بَعْدَ ذٰلِكَ دَحَاهَا﴾[١]. وأسمعُه يقول: ﴿كَانَ ٱللهُ﴾[٢] ما شأنه يقول: وَ﴿كَانَ ٱللهُ﴾؟[٣].

فقال ابن عبّاس ﵁: أمّا قولُه: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ فإنّهم لمّا رأوا يوم القيامة أنّ الله يغفِرُ لأهل الإسلام، ويغفِر الذّنوبَ، ولا يتَعاظَمُه ذَنبٌ أن يَغفِرَه، ولا يغفر شركاً، جحَده المُشرِكون رجاء أن يغفِر لهم، فقالوا: ﴿وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنا مُشْرِكِينَ﴾ فختم الله على افواههم وتكلّمت أيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون فعند ذلك يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ ٱلأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللهَ حَدِيثاً.

وأمّا قوله: ﴿فَلا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءلُون﴾ فإنّه إذا نُفِخَ فِى الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِى ٱلسَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِى ٱلأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاء ٱللهُ، فَلاأَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءلُون، ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ وأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءلُونَ.

وأمّا قوله: ﴿خَلَقَ ٱلأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ﴾ فإن الأرض خُلِقت قبل السماء، وكانت السماء دُخاناً فسوّاهن سبع سماوات في يومين بعد خَلق الأرض.

وأمّا قوله: ﴿وَٱلأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ يقول: جعل فيها جَبَلاً، وجعَل فيها نهراً، وجعَل فيها شجراً، وجعَل فيها بحوراً.

وأمّا قوله: ﴿كَانَ اللهُ﴾ فإنّ الله كان ولم يزل كذلك وهو كذلك عزيزٌ حكيمٌ عليمٌ قديرٌ لم يزَل كذلك

أقول: الظاهر أنّ المُراد من الجواب الآخر أنّ الزّمان ليس بداخلٍ في مفهوم الفِعل وَضْعاً، أو يكون داخِلاً، ولكن صار منسَلِخاً من الزّمان هنا بالقَرينةِ القطعيّة.

ثمّ قال: فما اختلف عليك من القرآن فهو يُشبه[٤] ما ذكرتُ لكَ. وإنّ الله لم يُنزِل شيئاً إلّا وقد أصاب به الّذي أراد، ولكنّ أكثر النّاس لا يعلمون[٥].

وعن [ابن] أبي مُليكة قال: سأل رجلٌ ابن عبّاس ﵁ عن ﴿في يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾[٦] وقوله تعالى: ﴿فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾[٧] فقال ابن عبّاس: هما يومان ذكرَهُما الله في كتابة، الله أعلم بهما[٨].

---

١. النازعات: ٣٠/٧٩. ٢و١٠. آل عمران: ١٧٩/٣. ٤. في النسخة: يشبهها.
٥. الإتقان في علوم القرآن ٣: ٨٨. ٦. السجدة: ٥/٣٢. ٧. المعارج: ٤/٧٠.
٨. الإتقان في علوم القرآن ٣: ٩٣.

وزاد في رواية اُخرى: ما أدري ما هما وأكره أن أقول فيهما ما لا أعلم[١].

قال ابن [أبي] مليكة: فضربتُ البعير حتّى دخَلتُ على سعيد بن المُسَيّب، فسُئِل عن ذلك، فلم يَدْرِ ما يقول. فقلت له: ألا اُخبِرك بما حضرتُ من ابن عبّاس؟ فاخبَرتُه، فقال ابن المُسَيّب للسائل: هذا ابنُ عبّاس قد اتّقى أن يقول فيهما وهو أعلَم منّي[٢].

وفي رواية اُخرى عن ابن عبّاس: إنّ يوم الألف هو مقدار سَير الأمر وعُروجه إليه، ويوم الألف في سورة الحجّ هو أحد الأيّام السّتّة التي خلَق الله فيها السماوات، ويوم الخميس ألفاً هو يوم القيامة[٣].

وعن عِكْرِمَة، عنه ﷺ أنّ رجلاً قال له: حدِّثني ما هؤلاء الآيات ﴿فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ و﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلىٰ الأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَومٍ كانَ مِقدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ وقال: ﴿وَإِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ﴾؟[٤] فقال: يوم القيامة حِساب خمسين ألف سنة، وخلق السماوات والأرض في ستّة أيّام، كلّ يوم يكون ألف سنة. و﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلىٰ الأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَومٍ كانَ مِقدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ قال: ذلك مقدار السَّير[٥]، انتهى[٦].

وقال بعضٌ: إنّ المُراد من اليوم في جميع الآيات يوم القيامة، وأنّ الاختِلاف باعتبار اختِلاف حال المؤمن والكافر[٧].

وقيل: إنّ المُراد من ألف سنة سنين الآخرة، ومن خمسين ألف سنة سنين الدُنيا[٨].

ونقل: أنّه سأل رجلٌ بعضَ العلماء عن قوله: ﴿لَا أُقْسِمُ بِهَـٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾[٩] فأخبر الله أنّه لا يُقسِم به، ثم أقسَم به في قوله: ﴿وهَذا ٱلْبَلَدِ ٱلأَمِينِ﴾[١٠]. فقال: أيّما أحبّ إليك، اُجيبك ثمّ أقطَعك، أو أقطَعُك ثمّ اُجيبك؟ فقال: بل اقطَعْني ثمّ أجِبْني.

فقال: اعلَم أنّ هذا القرآن نزَل على رسول الله ﷺ بحضرة رجالٍ وبين ظَهرانَي قومٍ كانوا أحرصَ الخَلقِ على أن يَجِدوا فيه مَغْمَزاً وعليه مَطْعَناً، فلو كان هذا عندهم مُناقَضةً لتعلّقوا به وأسرَعوا بالرّدّ عليه، ولكنّ القوم عَلِموا وجَهلتَ ولم يُنكِروا ما أنكرتَ.

ثمّ قال له: إنّ العرَب قد تُدخِلُ (لا) في أثناء كلامِها وتُلغي مَعناها، وأنشَد فيه أبياتاً[١١].

---

١. الإتقان في علوم القرآن ٣: ٩٣.
٢. الإتقان في علوم القرآن ٣: ٩٣.
٤. الحج: ٢٢/٤٧.
٥. في الإتقان: المسير.
٦. الاتقان في علوم القرآن ٣: ٩٣.
٧. الإتقان في علوم القرآن ٣: ٩٤.
٨. مجمع البيان ٧: ١٤٢.
٩. البلد: ٩٠/١.
١٠. التين: ٩٥/٣.
١١. الإتقان في علوم القرآن ٣: ٩٩.

وعن بعض العلماء: في المَقامِ كلامٌ ملخَّصهُ: أنّ للاختِلاف أسبابٌ.

أحدُها: وقوع المُخبَر به على أحوال[١] مختلفة وتطويرات شتّى، كقوله في خَلقِ آدم مرّةً ﴿مِن تُرَابٍ﴾[٢] ومرّةً ﴿مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾[٣] ومرّةً﴿مِنْ طِينٍ لازِبٍ﴾[٤] ومرّةً ﴿مِنْ صَلْصَالٍ﴾[٥] فهذه ألفاظٌ مختلفة، ومعانيها في أحوالٍ مختلفة، إلّا أنّ كلّها يَرجِع إلى أصلٍ واحِدٍ وهو التّراب.

وكقوله تعالى: ﴿فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ﴾[٦] في موضع و﴿تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ﴾[٧] في موضع، والجانّ: الصّغير من الحيّات، والثعبان: الكبيرُ منها، وذلك الاختِلاف بلحاظ أنّ خَلقَها خَلقُ الثّعبان العظيم، وحركَتها وخفّتها كحركةِ[٨] الجّانّ وخِفّته.

وثانيها: اختِلاف الموضع[٩]، كقوله: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ﴾[١٠] وقوله: ﴿فَلَنَسْئَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْئَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾[١١] مع قوله:﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْئَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ﴾[١٢]. و ذلك بلِحاظ اختِلاف الأماكن، لأنّ في القيامة مواقفَ كثيرةً، ففي مَوضعٍ يُسألون، وفي آخر لا يُسئلون.

وقيل: إنّ السؤال المُثبَت سؤال تبكيتٍ وتوبيخ، والمَنْفيّ سؤال المَعذِرة وبيان الحُجّة.

وقيل: إنّ السؤال الأوّل عن التوحيد وتصديق الرُّسُل. والسّؤال الثاني عمّا يستَلزِمه الإقرار بالنُبوّات من شرائع الدّين وفروعه.

وكقوله تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾[١٣] مع قوله: ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾[١٤] فمن الأُولى يُفهَم إمكانُ العَدلِ، وممن الثانية عدَمُ إمكانِه، فالأُولى في تَوفِيَةِ الحُقوق، والثانية في المَيل القَلبيّ، وليس في قُدرة الإنسان.

أقول: وقريبٌ من هذا الوجه مرويّ عن الصادق عليه السلام[١٥].

قال: وكقوله: ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَأْمُرُ بِالفَحْشَاءِ﴾[١٦] مع قوله: ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا﴾[١٧] فالأُولى في الأمر التشريعيّ، والثانية في الأمر التكّوينيّ، بمعنى القَضاء والتَقدير.

---

١. في الاتقان: أنواع. ٢. آل عمران: ٥٩/٣. ٣. الحجر: ٢٨/١٥. ٤. الصافات: ١١/٣٧.
٥. الرحمن: ١٤/٥٥. ٦. الأعراف: ١٠٧/٧، الشعراء: ٣٢/٢٦.
٧. النمل: ١٠/٢٧، القصص: ٣١/٢٨. ٨. في الإتقان: كاهتزاز. ٩. في الاتقان: الموضوع.
١٠. الصافات: ٢٤/٣٧. ١١. الأعراف: ٦/٧. ١٢. سورة الرحمن: ٣٩/٥٥.
١٣. النساء: ٣/٤. ١٤. النساء: ١٢٩/٤.
١٥. راجع: تفسير القمي ١: ١٥٥، تفسير العياشي ١: ١١٣٠/٤٤٨. ١٦. الأعراف: ٢٨/٧.
١٧. الإسراء: ١٦/١٧.

وثالثها: الاختِلاف في جِهَتَي الفِعل، كقوله تعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَـٰكِنَّ الله قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـٰكِنَّ اللهَ رَمَىٰ﴾ [١] اُضيف القتْل إليهم والرَّميُ إلى النبيّ ﷺ على جهة المُباشرة، ونفاه [٢] عنهم وعنه ﷺ باعتبار الأسباب [٣].

ورابعها: الاختِلاف في الحقيقة والمَجاز، كقوله: ﴿وتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ﴾ أي من الأهوال مَجازاً، وقوله: ﴿وَمَا هُمْ بِسُكَارَىٰ﴾ [٤] أي من المُسكِر حقيقةً.

امسها: اختِلاف الوَجه والاعتِبار، كقوله تعالى: ﴿فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [٥] مع قوله تعالى: ﴿خَاشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنْظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ [٦] فالأول باعِتِبار زوال المانع، والثاني باعتِبار الخَوف.

وكقوله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللهِ﴾ [٧] مع قوله: ﴿إِنَّمَا المُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [٨] فيظنّ أنّ الوجل خِلاف الطُمَأنينة، وجَوابُه أنّ الطُمأنينة بانشراح الصَّدر بمعرفة الله، والوجَل من خَوفِ الزَّيغ والذَّهاب عن الهدى [٩].

أقول: وكقوله تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَـٰذَا﴾ [١٠] مع قوله: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّاً﴾ [١١] فإنّ النِسيان في الأُولى بمعنى تَرْكِ إثابَتِهم وعدم الأمر لهم بخير، وفي الثانية بمعنى عدم الذِكر.

وكقوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [١٢] مع قوله: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ [١٣] فإنّ النَّظر في الأوّل النظر إلى ثَوابه، أو إلى ربّهم كيف يُثيبهم.

وكقوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾ [١٤] وكقوله: ﴿إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾ [١٥] وقوله: ﴿فَأَتَاهُمُ اللهُ مِن حَيثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا﴾ [١٦] مع قوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ [١٧] [فإنمّا يعني بقوله ﴿لمَحَجْوبُونَ﴾ أي عن ثواب ربّهم يوم القيامة] وإن الذَّهابَ في قوله تعالى: ﴿إِنّى ذَاهبٌ﴾ بمعنى التوجّه والعِبادة، وإتيان الله بمعنى إرسال العَذاب، وكذلك إتيانه بُنيانَهم [في قوله

١. الأنفال: ١٧/٨. ٢. في النسخة: ويفنا. ٣. في الاتقان: باعتبار التأثير.
٤. الحج: ٢/٢٢. ٥. سورة ق: ٢٢/٥٠.
٦. الإتقان في علوم القرآن ٣: ٩٥، والآية من سورة الشورى: ٤٥/٤٢. ٧. الرعد: ٢٨/١٣.
٨. الأنفال: ٢/٨. ٩. الإتقان في علوم القرآن ٣: ٩٦. ١٠. الأعراف: ٥١/٧.
١١. مريم: ٦٤/١٩. ١٢. القيامة: ٢٢/٧٥ و٢٣. ١٣. الأنعام: ١٠٣/٦.
١٤. المطففين: ١٥/٨٣. ١٥. الصافات: ٩٩/٣٧. ١٦. الحشر: ٢/٥٩. ١٧. الحديد: ٤/٥٧.

تعالى: ﴿فَأَتى الله بُنْيَانَهُم مِنَ القَوَاعِدِ﴾[١] بمعنى إرسال العَذاب عليهم.

وكقوله: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيّاً﴾[٢] مع قوله: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ ٱلبَصِيرُ﴾[٣] وقد يسمّى الانسانُ سميعاً وبصيراً، فإنّما عنَى بالأولى: هل تعلَمُ أحَداً اسمه الله غير الله؟

وكقوله: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلمَلائِكَةُ صَفّاً لَا يَتَكَلَّمُونَ إلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَـٰنُ وقَالَ صَوَاباً﴾[٤] مع قوله:﴿قَالُوا وَٱللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾[٥] فالأولى في مَوطنٍ من مَواطن القيامة، والثانية في مَوطنٍ آخر.

روي: أوّلاً يَفِرُّ بعضُهم من بعضٍ ولا يتكلّمون، وفي مَوطنٍ آخَر يُستَنْطَقون فيه، فيقولون: ﴿وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ فيُختَم على أفواههم وتُستَنْطَق الأيدي والأرجُل والجُلود فتشهَدُ بكلّ معصية كانت منهم، ثمّ يُرفَع عن ألسِنتِهم الخَتْم، فيقولون لجُلودِهم: ﴿لِمَ شَهِدْتُّمْ عَلَيْنَا﴾[٦] إلى آخِر الآية.

وببالي أنّ جميع ما ذكرتُ مَرويٌّ عن أمير المؤمنين عليه السلام في روايةٍ طويلة[٧].

الطّرَفة السّابعة والعشرون

في أفضلية الكتاب العزيز على سائر الكتب السماوية

لا يُداني الكتابَ العزيز شيءٌ من الأشياء وكتابٌ من الكتُب في الفَضيلة والشَرف، فإنّ فَضْلَهُ على سائر الكتُب كفَضْلِ الله على سائر خَلْقِه، حيثُ إنّه كلامُه الناطِق، ونورُه السّاطِع، مُضافاً إلى أنّ فضيلةَ الكِتاب بفَضيلةِ ما اشتمَل عليه من العِلم، والكتابُ المَجيد مشتَمِلٌ على أفضلِ العُلوم، من علم المبدأ والمَعاد والمَعارف الإلٰهيّة، وبَيان حقائق الأمور والحِكَم الكامِنَة في الأشياء والأحكام الشرعيّه والآداب الدّينيّة.

عن جابر بن عبدالله رضي الله عنه: خيرُ الحديثِ كتابُ الله[٨].

---

١. النحل: ٢٦/١٦. ٢. مريم: ٦٥/١٩. ٣. الشورى: ١١/٤٢. ٤. النبأ: ٣٨/٧٨.
٥. الأنعام: ٢٣/٦. ٦. فصلت: ٢١/٤١.
٧. الرواية عن أمير المؤمنين عليه السلام في حديث طويل أجاب فيه عليه السلام الزنديق الذي ادّعى التناقض في بعض آي القرآن الكريم بجواب مفصّل يزيل الوهم والشكّ، رواه الشيخ الصدوق في التوحيد: ٥/٢٥٤ والطبرسي في الاحتجاج: ٢٤٠، وعنهما العلامة المجلسي في بحار الأنوار ٩٣: ١/٩٨ و: ٢/١٢٧ والظاهر أنّ المصنف أورد طرفاً منها بالمعنى لا باللفظ، يشهد له قوله (وببالي). ٨. الإتقان في علوم القرآن ٤: ١٢٢.

وعن ابن عمر، مرفوعاً: القرآنُ أحبّ إلى الله من السّماوات والأرض ومَن فيهنّ[١].

وعن (تفسير الإمام عليه السلام) قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: إنّ هذا القرآن هو النّورُ المُبين، والحَبلُ المَتين، والعُروَةُ الوُثقى، والدَرجَةُ العُليا، والشِّفاءُ الأشفى والفضيلةُ الكُبرى، والسّعادةُ العُظمى، مَنِ استَضاء به نورّه الله، ومَن عقَد به اُمورَه عَصَمه الله، ومَن تمسّك به أنقَذه الله، ومن لم يُفارِق احكامَه رفَعه الله، ومَن استَشفى به شَفاه الله، ومَن آثَره على ما سِواه هَداهُ الله، ومَن طلَب الهُدى في غيره أضَلَّه الله، ومَن جعَله شِعاره ودِثاره أسعَده الله، ومن جعَله إمامَه الذي يَقتدي به ومُعَوَّله الذي يَنتهي إليه أدّاه الله إلى جنّات النّعيم والعَيش السليم»[٢].

عن الحارث الأعور، عن أمير المؤمنين صلوات الله عليه ـ في رواية ـ قال: «سَمِعتُ رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: أتاني جَبْرَئيل عليه السلام فقال: يا محمّد ستكون في اُمتّك فِتنَة. قلت: فما المَخْرَجُ منها؟ فقال: كتاب الله، فيه بيانُ ما قَبلكم من خَبرٍ، وخَبَر ما بعدَكم، وحُكمُ ما بينكم، وهو الفَصْلُ ليس بالهَزْل، مَن وَلِيَهُ[٣] من جَبّار فعَمِل بغَيره قصَمة الله، ومَنِ التَمَس الهُدى في غَيرِه أضَلّه الله، وهو حَبلُ الله المَتين، وهو الذِكرُ الحكيم، وهو الصِرّاط المُستَقيم، لا تُزيغُه الأهوِية، ولا تُلبِسُه الألسِنَة، ولا يَخلَق على الرّدّ، ولا تَنقضي عَجائبهُ، ولا يَشبَعُ منه العُلَماء، هو الذي لم تَلبَث[٤] الجِنّ أن قالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً * يَهْدِي إِلَىٰ الرُّشْدِ﴾[٥].

من قال به صدق، ومن عَمِل به اُجِر، ومن اعتصَم به فقد هُدي إلى صراطٍ مستَقيم، هـو الكـتاب العزيز الّذي ﴿لَا يَأْتِيهِ ٱلبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾»[٦].

ومن طرق العامّة، عن الحارث، عن أمير المؤمنين عليه السلام ما يقرُب منه[٧].

وعن أبي عبدالله عليه السلام: «إذا جمَع الله الأوّلين والآخِرين، إذا هم بشَخصٍ قد أقبَل، لم يُرَ قطّ أحسن صورةً منه، فإذا نظَر إليه المؤمنون ـ وهو القرآن ـ قالوا: هذا منّا، هذا أحسَن شيء رأيناه. فإذا انـتهَى إليهم جازَهم، ثمّ ينظُر إليه الشُّهَداء حتّى إذا انـتَهى إلى آخِـرهم جـازَهم، فـيقولون: هـذا القـرآن،

---

١. الإتقان في علوم القرآن ٤: ١٢٠، كنز العمال ١: ٥٢٨/٢٣٦٣.
٢. التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام: ٤٤٩/٢٩٧.
٣. في النسخة: ولاه.
٤. في العياشي والبحار: لم تكنه.
٥. الجن: ٧٢/١ و٢.
٦. تفسير العياشي ١: ٧٥/٢، بحار الأنوار ٩٢: ٢٤/٢٥، والآية من سورة فصلت: ٤١/٤٢.
٧. سنن الدارمي ٢: ٤٣٥، سنن الترمذي ٥: ١٧٢/٢٩٠٦.

فيجوزُهم كلُّهم، حتّى إذا انتَهى إلى المُرسَلين، فيقولون: هذا القرآن، فيَجوزُهم ثمّ ينتَهي حتّى يقِفَ عن يَمِين العَرْش، فيقول الجبّار: وعزّتي وجَلالي، وارتِفاع مَكاني لأُكرِمَنَّ اليَومَ مَن أكرَمَك، وَلأُهينَنَّ مَن أهانَك»[١].

أقول: قد وردت أخبارٌ كثيرةٌ في تَمثُّل القرآن يوم القيامة بأحسَن صورة[٢].

وقال بعض المحقّقين: إنّ للقرآنِ وجوداً كَتبيّاً بين الدّفّتَين، ووجوداً لفظيّاً للقارئ منّا ومن المعصومين عليهم السلام، بل يُمكن أن يُقال: مِن المَلائكة كجَبْرَئيل عليه السلام، ووجوداً علميّاً في لوح النَّفس مكتَسَباً من المَرتبتَين الأولَيين، ووجوداً علميّاً من إلقاء الرّوح الذي من عالَم الأمر إيّاهُ في القَلبِ بأمرِ الله سُبحانه، كما لعلّه يرشد إليه قوله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ المُنْذِرِينَ﴾[٣] أو من انتِقاش الألفاظ الغيبيّة في لوح القلب عند مواجهته لها ومقابلته إيّاها، ولعلّه يؤمى إليه قوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ﴾[٤]، ووجوداً عينياً كتبيّاً في لوح غَيبيّ هو المَبدأ لهذِه النُّقوش الواقعة في لَوح القَلْب، وبه يصَير القلبُ مُصحَفاً لوَجه أوراقه، وتلك النقّوش كتابَته، ولعلّ إليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ * فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ * لا يَمَسُّهُ إِلَّا المُطَهَّرُونَ﴾[٥] ووجوداً لفظيّاً عينيّاً هو كلام الله سبحانه الذي أوجَده وأسمَعه مَن شاء من عِباده من المَلَك والنبيّ، ولعلّ إليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الحَدِيثِ﴾[٦] ووجوداً إجماليّاً قبل التَفصيل، ولعلّ إليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾[٧].

وهو الأصلُ، والباقي تنزّلاتُه ومَراتبه وشؤونه، كأصلِ الشجرة بالنّسبة إلىٰ ساقها واغصانها، ولعلّ إلىٰ هذه المَقامات الإشارة بإطلاق الإنزال والتّنزيل على القرآن في مَواضِعَ كثيرة.

ثمّ إنّ لنا صُعُوداً أيضاً، فإنّ القرآن اللفظيّ الصادِر منّا، يتمثّل بمِثالٍ ويتشكّل بصورةٍ جوهريٍ في عالمٍ أرفَع من هذا العالَم على ما تحقّق وثبَت في محلّه بالآيات والأخبار الكثيرة الواردة في المَوارد الكثيرة، المُعتَضدة بالاستِبصارات العقليّة وغيرها من أنّ الأعمال الحسَنة والسيّئة تتجسّم وتتمثّل وتبقى في عالَم البَرزَخ مع الميّت، وقراءة القرآن منها بل من أولى أفرادِها بهذا الحكم، وكتابة القرآن أيضاً عملٌ يتجسّم كذلك، فيتحقّق في القرآن قَوسان: قوسُ نزولٍ ينتهي إلى وُجودِه اللّفظيّ والكَتبيّ

---

١. الكافي ٢: ١٤/٤٤٠. ٢. راجع الكافي ٢: ١١/٤٣٩. ٣. الشعراء: ١٩٣/٢٦ و١٩٤.
٤. العنكبوت: ٤٩/٢٩. ٥. الواقعة: ٧٧/٥٦ ـ ٧٩. ٦. الزمر: ٢٣/٣٩. ٧. هود: ١/١١.

الواقع في هذه النَشْأةِ، وقَوس صُعودٍ واقع في عالَم البرزخ، كما هو الحال في حقيقة الإنسان.

ثمّ إنّ حقيقة القرآن ليست مقصورةً على عالم الألفاظ والنُقوش الواقعة في عالَم المُلك والمَلَكوت، بل مَداليلُ الكلمات القرآنيّة أولى بالدُخول في حقيقة القرآن منها، ولها وجودٌ في عالَمِها، فهي أيضاً يَصِحُّ أن تُعَدّ مقاماً آخَر له، ومَراتبه المعنويّة تنتهي إلى حقيقة الاسم الالٰهي الذي هو المبدأ للقرآن، ويُشبه أن يكون هو حقيقة اسم الهادي والنّور الذي ربّما أُطلق اسمُه على القرآن في مَواضِع.

ثمّ إنّ عالم القيامة الكبرى لمّا كان يوم الجَمع بين العَوالِم، ويوم إبلاء السَّرائر، وإظهار المكنونات، وإبراز الأمور الغَيبيّة بصورٍ حسّيّة مطابقة لها حتّى تتَوافقُ النَّشآتُ والعوالم ليُنْبِئَهُم بما عَمِلوا، ولِتُبْلىٰ كلُّ نفسٍ ما كسَبت، ويَحصُدُ كلّ زارِعٍ ما زرَع، والزَرعُ تابعٌ للبَذْرِ، لَزِمَه أن[1] يُنزّل القرآن من عالَم الغَيب إلى ظاهر عالَم القِيامة مصوراً بصورةٍ حسَنةٍ حتّى يُوافق حُسنَهالمعنويّ، لأنّه أحسَن ما يكون، وله بهاءٌ وجَمال ونورٌ حسّيّ، كما أنّ هذه الصّفات اليوم في عالَم الغَيب على وجهٍ غيبيٍّ، فإنّ الدُنيا بمنزلة الأمّ للآخِرة.

ثمّ إنّه لابُدّ وأن يمُرّ على صفوف المؤمنين كما يمرّ على قُلوبهم ونُفوسهم في دار الدُنيا ليُطابِق الظاهِرُ الباطِنَ، والقالَبُ الروح، والصورةُ المَعنىٰ، مبتدئاً المرور من الأدنى إلى الأعلى، لأنّه سالِكٌ في الاستِكمال متوجِّه إلى رَبِّ العِزّة، فيَلزَمُه الكونُ مع النّازل قبل الكونِ مع الكامل، وأن يكون مع كلّ صنفٍ منهم بصورة ذلك الصّنف، لأنّه عند كلٍّ منهم واقِعٌ في مَرتبَتِهم بزيادةِ بَهاءٍ وجَمالٍ ونورٍ، لعدَم مُخالطَتِه بما يُضادّ هذه الصّفات من ظُلمةٍ وكدُورةٍ، ولأنّهم لا يُدرِكون منه إلّا المقدار الذي كان لهم في الدنيا، ومنه الشأن المتعلّق بصِفتِهم ومَقامِهم وحالِهم، كما أنّ كُلّاً منهم حال قراءته للقرآن يُشاهد المَعنى المُوافِق لمَقامه من الظاهِر والباطِن وباطن الباطن.

وإن كان الكامِلَ مشتَمِلاً على الناقِص فلابدّ وأن يَظُنَّ كلّ صنفٍ منهم أنّه منهم كما كانوا يظُنّون في الدُنيا أنّه بيان طريقَتِهم وصفة حالهم، وأن يعرِفَه كلٌّ منهم بنَعْتِه وصِفَتِه عند المَواجَهَة، كما كان يعرِف ذلك المِقدار في دار الدُنيا من القرآن ومَعانية، إذ القَدر الظاهِر منه في كلّ مقامٍ يساوي ذلك المَقام.

ولو لم يعرِف أهلُ الصّنف ذلك القَدر الظاهِر، لم يكونوا من أهلِ ذلك المَقام، إلى أن ينتهي إلى

---

١. في النسخة: مصوّرة.

رَبّ العِزّة إلى آخِر قَوسِه الصّعوديّ، فيَسجُد صورةً كما سجَد بالخُضوع المُطلَقِ والفَناء مَعْنىً، وقد كان مصير القرآن إليه سُبحانه في النّشأةِ الاوّلى.

الطّرفة الثامنة والعشرون

في أفضلية تعلّم القرآن وتعليمه علىٰ سائر الأعمال والعبادات

قد ظهر ممّا ذُكر في فضل القرآن أنّ تعليمَه وتعلُّمَه من أفضَلِ الأعمالِ مُضافاً إلى رواياتٍ كثيرةٍ دالّةٍ على فَضْلِهما وكثرة الثّواب عليهما.

عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: تعلّموا القرآن ـ إلى أن قال: ـ ويُكسىٰ أبَواه حُلّتَينِ إن كانا مؤمِنَين، ثمّ يُقال لهما: هذا لِما عَلّمْتُماه القرآن»[1].

وفي حديث أبي ذرّ: لأن تَغدو فتتعلّم آيةً من كتاب الله خيرٌ لك من أن تصلّي مائة رَكْعَة[2].

وعن أبي هُرَيرة: ما من رجلٍ يُعلّم ولدَه القرآن إلّا تُوّج يومَ القيامةِ بِتاجٍ في الجنّة[3].

وفي روايةٍ عن عُثمان: إنّ أفضَلكم مَن تعلّم القرآن وعَمِل به[4].

وفي رواية عن أبي عبدالله عليه السلام: «من تَعلّم منه حَرفاً ظاهِراً كتَب الله له عَشر حسَنات، ومَحا عنه عشر سيّئات، ورفَع له عشر درَجات».

قال: «لا أقول بكلّ آيةٍ، ولكن بكلّ حَرفٍ باء أو ياء أو شِبههما»[5].

وعن ابن عبّاس رضي الله عنه: مَن تعلّم كتابَ الله ثمّ اتّبَع ما فيه، هَداهُ الله به من الضّلالة، ووَقاه يوم القيامة سوءَ الحِساب[6].

وعن سعد الخَفّاف، عن أبي جعفر عليه السلام قال: «تعَلّموا القرآن، فإنّ القرآنَ يأتي يوم القيامة في أحسَن صورةٍ نظر إليها الخَلْقُ ـ إلى أن قال: ـ حتّى يَنتهي إلى ربّ العِزّة فيخِرُّ تحت العرش فيُناديه تبارك وتعالى: يا حُجّتي في الأرض، وكلامَي الصادق النّاطق، ارفَع رأسَك، وسَلْ تُعْطَ، واشفَع تُشَفّع [فيرفع رأسه، فيقول الله تبارك وتعالى]: كيف رأيتَ عِبادي؟ فيقول: يا ربّ منهم مَن صانَني وحافظ عليَّ ولم

---

١. الكافي ٢: ٣/٤٤١.	٢. الإتقان في علوم القرآن ٤: ١٢٤.
٣. الإتقان في علوم القرآن ٤: ١٢٣.	٤. الإتقان في علوم القرآن: ٤: ١٢٣. وفيه: القرآن وعلّمه.
٥. الكافي ٢: ٦/٤٤٨.	٦. الاتقان في علوم القرآن ٤: ١٢٤.

يُضيّع شَيئاً، ومنهم من ضَيَّعني واستخَفّ بي[١] وكذّب بي، وأنا حجّتك على جميع خَلقك. فيقول الله عزّ وجلّ: وعزّتي وجَلالي وارتِفاع مكاني لأُثيبَنّ اليومَ عليك أحسَن الثّواب، ولأُعاقبنّ عليك اليومَ أليمَ العِقاب» الخبر[٢].

قيل: إنّ سجدَةالقرآن كنايةٌ عن فَنائه في‌الله، ورفَع رأسهِ كنايةٌ عن بَقائه به بعد فنائه فيه، و كما أنّه كان في‌الدّنيا مقرّباً للعِباد إلى‌الله، وسبَباً لشُمول رَحمَتِه لَهم ودَفع عذابه عنهم في‌الدّنيا، يكون شفيعاً لهم إلى الله ووسيلةً وسائلاً لثَوابِه العظيم عليهم، ودَفع عَذابه عنهم في الآخرة.

عن الشيخ، بإسناده: عن أمير المؤمنين عليه السلام: «أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله قال: خِيارُكم مَن تعلّم القرآن وعلّمه»[٣].

وعن عُقْبَة بن عمّار، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «لا يُعذّب الله قلباً وَعىٰ القرآن»[٤].

وعن النبيّ صلى الله عليه وآله: «أنّ هذا القرآن مأدُبةُ الله، فتعَلّموا مأدُبَته ما استَطعتُم، إنّ هذا القرآن حَبلُ الله، وهو النّور المُبين»[٥].

وعنه صلى الله عليه وآله قال: «إذا قال المُعلّم للصبيّ: قل ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ﴾ فقال الصبيّ: ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ﴾، كتَب الله براءةً للصبيّ، وبراءةً لوالِدَية وبراءةً للمعلّم من النّار»[٦].

وعن (المجمع): عن مُعاذ، قال: سمعتُ النبيّ صلى الله عليه وآله يقول: «ما من رجلٍ علّم وَلدَه القرآن إلّا توّج الله أبوَيه يوم القيامة بتاج المُلك، وكُسِيَا حُلّتَين لم يَرَ النّاس مثلَهُما»[٧].

وفي (نهج البلاغة) عن أمير المؤمنين عليه السلام قال في خطبةٍ له: «وتَعلّموا القرآن [فإنّهُ أحسنُ الحَديث وَتَفقّهوا فيه] فإنّه رَبيعُ القَلوب»[٨].

وعن عليّ بن ابراهيم: عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «ينبَغي للمؤمن أن لا يَموتَ حتّى يتعَلّم القرآن، أو أن يكون في تعليمه»[٩].

والظاهر من جميع هذه الرّوايات تَعلُّم عبارات آياتِه وكيفيّة قراءته، إلّا أنّه يُحتَمل شُمول كثيرٍ منها تفاسيرها وبُطونها، وجميع العلوم الراجعة إليها، فإنّ تعلُّمَ جميعِها تَعلُّم القرآن، وقد صرّح بعضُ أصحابنا بوجوب تعلُّم القرآن وتعليمه كفاية، وهو الحقّ، لا أحتَمِل فيه خِلافاً بين المُسلمين.

---

١. في الكافي: واستخف بحقي.
٢. الكافي ٢: ١/٤٣٦، بحار الأنوار ٧: ١٦/٣١٩.
٣. أمالي الطوسي: ٧٣٩/٣٥٧، بحار الأنوار ٩٢: ٢/١٨٦.
٤. أمالي الطوسي: ٧/٦.
٥. مجمع البيان ١: ٨٥، كنز العمال ١: ٢٣٥٦/٥٢٦.
٦. مجمع البيان ١: ٩٠.
٧. مجمع البيان ١: ٧٥.
٨. نهج البلاغة: ١٦٤ الخطبة ١١٠.
٩. الكافي ٢: ٣/٤٤٤، عدة الداعي: ٧/٢٨٧.

الطّرفة التاسعة والعشرون

في أنّ حفظ القرآن من أهمّ العبادات

حِفظُ القرآن من أهمّ العبادات، وأوكَد المُستحَبّات، في (الوسائل): عن عُقْبَة بن عمّار، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يعذّب الله قلباً وعىٰ القرآن»[1].

وعنه ﷺ: «من قرأ القرآنَ حتّى يستَظْهِرَه ويَحْفَظَه، أدخَلَه الله الجنة، وشَفَّعه في عَشَرةٍ من أهلِ بَيتِه، كلّهم قد وجبَت لهُم النّار»[2].

وعن أبي عبدالله عليه السلام قال: «من قرأ القرآن وهو شابٌ مؤمنٌ، اختَلَط بلَحمِه ودَمِه، وجعَله الله مع السَّفَرة الكرامِ البَرَرة، وكان القرآنُ حجيزاً عنه يوم القيامة»[3].

أقول: لا يَبعُد أن يكونَ المُرادُ من اختِلاط القرآن باللّحم والدّم حِفظَه، كما قال عليه السلام في روايةٍ أُخرى: «حافِظُ القرآن العامِلُ به مع السَّفَرة الكِرام البَرَرة»[4].

ويحتمل أن يكون المُراد حِفظ ألفاظِه مع حِفظِ مَعانيه، والإيمانِ به، والعمل بمُوجبه، والتَخلّق بما فيه من الأخلاق الإلٰهيّة والآداب الشرعيّة، فيكون أهل القرآن، كما في رواية الكُلَينيّ، بسَنَده عن السَّكوني، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «قال رسول الله ﷺ: إنّ أهلَ القرآنِ في أعلىٰ درجةٍ من الآدميّين ما خَلا النَّبيّين والمُرسَلين، فلا تَستَضعِفوا أهلَ القرآنِ حُقوقَهم، فإنّ لهم من الله العزيز الجبّار لمَكَاناً [عليّاً]»[5].

وما رواه الطَّبْرِسيّ: عن النبيّ قال: «أهلُ القرآنِ هم أهلُ الله وخاصّته»[6].

وفي حديث عُقْبَه بن عامر، عن النبيّ: «لو كان القرآنُ في إهابٍ ما أكلَتهُ النّار».

قال أبو عبيد[7]: أراد بالإهاب قلبَ المؤمن وجَوفه الذي قد وَعىٰ القرآن[8].

وفي حديث أمير المؤمنين عليه السلام: «من قرأ القرآن واستَظْهَره فأحَلَّ حلالَه، وحَرَّم حرامَه، أدخَله الله الجنَّةَ، وشَفَّعَه في عَشَرةٍ من أهلِ بَيتِه، كلّهم قد وجبَت لهُم النّار»[9].

أقول: الظاهر أنّ المُراد من قوله: فاستَظْهَره حَفِظَه وجعَله في ظَهْرِ قَلبه، كما أنّ الظاهِرَ من حَملِ

---

١. أمالي الطوسي: ٦/٧. ٢. مجمع البيان: ١: ٨٥. ٣. الكافي ٢: ٤/٤٤١. ٤. الكافي ٢: ٢/٤٤١.
٥. الكافي ٢: ١/٤٤١. ٦. مجمع البيان ١: ٨٤.
٧. في االنسخة: أبو عبيدة، وهو أبوعبيد القاسم بن سلاّم الهروي المتوفّى سنة ٢٢٤هـ.
٨. الإتقان في علوم القرآن ٤: ١٢١. ٩. الإتقان في علوم القرآن ٤: ١٢٣.

القرآنِ ذلك.

عن الصّدوق، بإسناده: عن النبيّ ﷺ أنّه قال: «أشرافُ أُمّتي حَمَلَةُ القرآنِ وأصحابُ اللّيل»[١].

والظاهر أنّ المُراد بأصحابِ اللّيل الذين يَسْهَرون اللّيلَ بتِلاوَةِ القرآن والقيام بالعِبادة.

وعن (تفسير الإمام عليه السلام): عن النبيّ ﷺ أنّه قال: «حَمَلَةُ القرآن المَخصوصون برَحمةِ الله، المُلبَسون نورَ الله، المُعلّمون كلامَ الله، المُقرّبون عند الله، مَن والاهُم فقد والى الله، ومن عاداهُم فقد عادى الله» الخبر[٢].

أقول: لمّا كان حِفظُ القرآن عن معرفةٍ وإيمانٍ مُورثاً لنورانيّة القَلب وانشِراح الصدّور وانبِساط الرّوح وتهذيب النّفس، كان أجرُه مُسانِخاً له في القيامة من كون الحافظ مغموراً في نور الله، مخصوصاً برحمة الله، مَوسوماً بكلام الله، مقرّباً عند الله.

ثمّ لاشُبهة أنّ حِفظَه بمَشقّةٍ وكُلفَةٍ أعظَم أجراً من حِفظِه بسهولةٍ، لعُموم قَولِه: «إنّ أفضَل الأعمال أحمزها»[٣] ولخصوص ما روي عن الصادق عليه السلام قال: «إنّ الذي يُعالج القرآن ويَحْفَظُه بمشقّةٍ منه، وقِلّةِ حِفْظٍ، له أجْران»[٤].

ومن الأسف أنّ هذه العبادة الفاضلة صارَت متروكةً في زمانِنا هذا بعد شُيوعها في الأزمِنة السابقة، بحيث كان غيرُ الحافِظ له موهوناً بين المسلمين على ما قيل.

الطرفة الثلاثون

في ثواب تلاوة القرآن العظيم

لتِلاوة الكتاب الكريم ثوَابٌ عظيمٌ وفَضلٌ جَسيم.

عن الصادق عليه السلام في وصيّة النبيّ ﷺ لعليّ عليه السلام قال: «وعليكَ بتِلاوة القرآن على كلّ حالٍ»[٥].

وعنه عليه السلام في حديث: «ومَن قرأ نظَراً في غَير صلاةٍ[٦] كتَب الله له بكلّ حرفٍ حسنةً ومحا عنه سيّئةً، ورفَع له درجةً ـ إلى أن قال: ـ ومَن قرأ حرفاً وهو جالِس في صلاة، كتَب الله له به خمسين حسنةً ومحا عنه خمسين سيّئةً، ورفَع له خمسين درجةً. ومن قرأ وهو قائمٌ في صَلاتِه، كتَب الله له مائة

---

١. الخصال: ٢١/٧.
٢. التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام: ١/١٣.
٣. النهاية ١: ٤٤٠، وأحمزها: أي أقواها وأشدها.
٤. الكافي ٢: ١/٤٤٣.
٥. الكافي ٨: ٣٣/٧٩.
٦. في الكافي: من غير صوت.

حسَنة ومحا عنه مائة سيئة، ورفَع له مائة درجة. ومَن ختَمه كانت له دعوةٌ مُستَجابة، مؤخَّرة أو مُعَجّلة».

قال: قلت: جُعِلتُ فِداك، ختَمه كلَّه؟ قال: ختَمه كلّه[١].

وعنه عليه السلام عن النبيّ صلى الله عليه وآله في روايةٍ، قال: «يأتي يومَ القيامة صاحِبُه في صورة شابٍّ جميلٍ، شاحِب اللَون، فيقول له: أنا القرآن الذي كُنتَ أسهَرْتُ ليلك وأظمأت هَواجِرَك، وأجفَفْتُ رِيقَك، وأسبلتُ دَمْعَك[٢] - إلى أن قال: - فأبْشِر فيُؤتى بتاجٍ فيوضَعُ على رأسِه، ويُعطى الأمان بيَمينه، والخُلد في الجِنان بيَساره، ويُكسى حُلّتَين، ثمّ يُقال له: إقرأ وارق، فكُلّما قرأ آيةً صَعِد درجَةً» الخبر[٣].

وعن الكُلَينيّ رحمه الله بسنده: عن حَفْص، قال: سمِعتُ موسى بن جعفر عليهما السلام يقول في حديث: «إنّ درجاتِ الجَنّةِ على قدرِ آياتِ القرآن. يُقالُ له: اقرأ وارق، فيقرأ ثُمّ يرقى»[٤].

وعن الصادق عليه السلام قال: «عليكم بتِلاوة القرآن، فإنّ درجات الجنّة على عدَد آيات القرآن، فإذا كان يومُ القيامةِ يُقال لقارئ القرآن: إقرأ وارق، فكلّما قرأ آيةً رقى درجة»[٥] إلى غير ذلك.

ولعلّ السِّرّ في ذلك أنّ في كلّ آيةٍ علماً ونوراً ومعرِفةً وهِدايةً ودعوةً إلى الله، فبالتمسّك بكلٍّ منها، والمعرِفَة بها، والتخلّق بموجبها، والعمَل بها، يحصُل للعَبدِ درجةٌ في كَمال النَّفس والقـرْبِ إلى الله، وبالتمسّك بجَميعها نهايةُ الكَمال ومُنتَهى القُرب إليه سُبحانَه، ولمّا كانت درجاتُ الجَنّةِ على حَسَب مَراتِب كمالِ العَبْدِ وقُرْبِه، ومُطابقاً لها، بل هي مَعانيها وأرواحُها، والآثار المترتّبة عليها، كانت درجاتُ الجَنّة بعدَد الآيات.

عن الزهريّ، قال: قلتُ لعليّ بن الحسين عليهما السلام: أيّ الأعمال أفضَل؟ قال: «الحالّ المُرتَحِل».

قلتُ: وما الحالّ المُرتَحِل؟ قال: «فَتحُ القرآن وخَتْمُه، كلّما جاء بأوّله ارتَحَل بآخره»[٦].

وعن الصادق عليه السلام قال: «مَن قرأ مائة آية يُصلّي بها في ليلةٍ، كتَب الله له بها قُنوتَ ليلةٍ. ومَن قرأ مائتي آية في غير صَلاةٍ [لم يحاجّه القرآن يوم القيامة، ومن قرأ خمسمائة آية في يوم وليلة في صلاة النهار و] اللّيل، كتب الله له في اللوح [المحفوظ] قِنطاراً من الحسَنات، والقِنطارُ ألف ومائتا أُوقيّة،

١. الكافي ٢: ٦/٤٤٨.
٢. في الكافي: وأسلت دمعتك.
٣. الكافي ٢: ٣/٤٤١.
٤. الكافي ٢: ١٠/٤٤٣.
٥. أمالي الصدوق: ٥٨٦/٤٤٠.
٦. الكافي ٢: ٧/٤٤٢.

والأوقيّة أعظَم من جَبَل أُحُد»[١].

وعن عليّ بن بابَويه، بسَنَده، عن أنَس، عن النبيّ ﷺ قال: «مَن قرأ مائة آية لم يُكتَب من الغافِلين، ومَن قرأ مائتي آية كُتِب من القانِتين، ومَن قرأ ثلاثمائة آية لم يحاجه القرآن»[٢].

وعن (المجمع) عن النبيّ ﷺ: «أفضَل العبادة قراءة القرآن»[٣].

وعن أبي عبدالله عليه السلام عن آبائه صلوات الله عليهم ـ في رواية ـ: «ومن قرأ القرآن ابتِغاء وَجهِ الله وتفقُّهاً في الدّين، كان له من الثواب مثل ما أُعطي[٤] الملائكة والأنبياء والمُرسَلون»[٥].

وعن أبي عبدالله عليه السلام ـ في حديث ـ قال: «ما من عبدٍ من شيعتنا يَتلو القرآن في صلاته قائماً، إلّا وله بكلّ حَرفٍ مائة حسَنة، ولا قرأ في صَلاتِه جالساً، إلّا وله بكلّ حرفٍ خَمسون حسنَة، ولا في غير صَلاةٍ إلّا وله بكلّ حَرفٍ عشر [حسنات]»[٦]. إلى غير ذلك من الرّوايات.

ولعلّ اختِلاف مَراتب الثّواب باختِلاف مَراتب الإيمان والمعرفة والتّدبر، ففي مَرتبةٍ يكونُ ثَوابُ كلّ حرفٍ حسنَة، وفي مَرتبةٍ عَشر حسَنات، هذا مُضافاً إلى أنّ لذّة تلاوة كتاب الله للمؤمن العارِف المُتدبّر أعلى وأتمّ من كلّ لذّةٍ، فإنّه يرى نفسَه حاضِراً في مجلسِ القُربِ، فيُخاطبه ربُّه ومَليكُه ويُشافِهُه بأحسنِ كلامٍ، وألطَفِ بيانٍ، ثمّ إنّ لكّل سورةٍ من السُّوَرِ ثواباً خاصّاً وفضيلةً مخصوصةً، سنذكره إن شاء الله بعد إتمام تفسير كلٍّ منها.

الطّرفة الحادية والثلاثون

في آداب تلاوة الكتاب الكريم

آدابُ تلاوةِ الكتاب العزيز كثيرةٌ:

أحدها: أن يكونَ التّالي مُتَطهّراً حالَ التّلاوة، عن ابن فهد رحمه الله قال: قال عليه السلام: «القارئ القُرآن بكل حرفٍ يقرأه في الصّلاه قائماً مائه حسَنَة، وقاعِداً خمسون [حسنة]، ومُتَطهِّراً في غير الصّلاة خمس وعشرون حسَنة وغير متطهّرٍ عَشر حسَنات» الخبر[٧].

ولعلّ السرّ أنّ المتطهّر أقرَب إلى الاستِفاضة بأنوار القرآن من المُحدِث، كما أنّ طاهِرَ القلبِ أقبَلُ

---

١. الكافي ٢: ٩/٤٥٥. ٢. معاني الأخبار: ٩٦/٤١٠. ٣. مجمع البيان ١: ٨٤.
٤. في عقاب الأعمال: مثل جميع ما يُعطى. ٥. عقاب الأعمال: ٢٩٣.
٦. الكافي ٨: ٢٦٠/٢١٤. ٧. عدة الداعي: ٨/٢٨٧.

لفُيوضاتِه.

ثانيها: أن لا يكونَ عُرياناً، لِما روى عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه نَهى عن قراءة القرآن عُرياناً[١].

ثالثها: الاستِعاذة قبلها، عن (تفسير العيّاشيّ) عن الحَلبيّ، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: سألته عن التّعوّذ من الشّيطان عند كلّ سورةٍ يفتتحها؟ قال: «نعم، فتَعوَّذ بالله من الشّيطان الرّجيم»[٢].

أقول: مقتضى إطلاق قوله تعالى: ﴿فَإِذا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾[٣] استِحبابهُ قبل تِلاوة آيةٍ أو بعضَ آيةٍ.

رابعها: التّسميَة قبل التّلاوة، عن الصادق عليه السلام: «أغلِقوا أبوابَ المَعصِية بالاستِعاذة، وافتَحوا أبوابَ الطّاعة بالتّسميَة»[٤].

خامسها: التِلاوة في المصحَف، وإن كانَ التّالي حافِظاً، عن أبي عبدالله عليه السلام: «مَن قرأ القرآن في المُصْحَفِ [نظراً] مُتِّع ببَصرِه، وخُفِّفَ على والِدَيه وإن كانا كافِرَين»[٥].

وعن إسحاق بن عمّار، عنه عليه السلام قال: جُعِلتُ فِداك، إنّي أحفظ القرآن عن ظَهر قلبي، فأقرأه عن ظَهر قَلْبِي أفضَل، أو أنظُر في المُصْحَف؟

قال: فقال عليه السلام لي: «بل اقرأهُ وانظُر في المُصْحَف، فهو أفضَل، أما علِمتَ أنّ النّظَر في المُصْحَف عِبادة»[٦].

وعن أبي ذَرّ قال: سمِعتُ رسول الله صلّى الله عليه وآله يقول: «النّظَر إلى عليّ بن أبي طالب عبادَة، والنّظَر إلى الوالِدَين بِرأفَةٍ ورحمةٍ عبادة، والنّظَر في الصّحيفة - يعني صحيفة القرآن - عبادة، والنّظر إلى الكعبة عبادة»[٧].

وعن النبيّ صلّى الله عليه وآله قال: «ليس شيء أشَدّ على الشّيطان من القراءة في المُصْحَف نَظَراً»[٨].

وعن أبي عبدالله عليه السلام قال: «قراءة القرآن في المُصْحَف تُخفِّف العَذاب عن الوالِدَين وإن كانا كافِرَين»[٩].

ولعلّ السرّ في كونِ النّظر إليه عبادة، أنّ النّظر إلى كتابته يُورِثُ نورانيّةً في القلب، بل النظر إلى جميع المقدّسات الإلهية وإلى وَجْهِ العالم والمؤمِن، له هذا الأثر، كما أنّ النّظر إلى وَجهِ الكفّار

---

١. بحار الأنوار ٩٢: ١٩/٢١٦.
٢. تفسير العياشي ٣: ٢٤٢٧/٢٣.
٣. النحل: ٩٨/١٦.
٤. دعوات الراوندي: ١٣٠/٥٢.
٥. ثواب الأعمال: ١٠٢.
٦. عدة الداعي: ٢٩٠.
٧. أمالي الطوسي: ١٠١٦/٤٥٤.
٨. أعلام الدين: ٣٧/٣٦٨.
٩. الكافي ٢: ٤/٤٤٩.

والعُصاة، وما هو مَبغوضٌ عند الله كالخَمْرِ والمَيْسِر والأصنام، بل الزَخارِف الدّنيويّة، يؤثر ظلمةً في القَلب، وكُدورةً في النَّفس، كأنّه يقتَبِس الروح من هذه الخَبائث خباثة وشقاوةً، كما يقتَبِس من الطيّبات والمُقَدَّسات طيباً وقَداسةً وسعادةً، مع أنّ في النَّظر الى المُصحَف زيادة توجُّه القَلب إليه، وصَرفُ النَّفس عن شُغلِها بغيره.

سادسها: تَرتيلُ القرآنِ وتِلاوته بُمكْثٍ وبِطاءٍ بلا عَجلةٍ وسُرعَة، عن الصادق عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْآنَ تَرْتِيلاً﴾[1] قال: «قال أمير المؤمنين صلوات الله عليه: بيِّنه تِبْياناً ولا تَهُذّه[2] هذَّ الشِّعر، ولا تنثُره نَثْرَ الرَّمل، ولكن أفزِعوا به قلوبكم القاسية، ولا يكن همُّ أحدِكم آخِر السّورة»[3].

وعن ابن عبّاس، في تفسير الآية: بيّنه تبياناً[4] وأقرأهُ على هيتك[5]، ثلاث آيات، وأربعاً، وخَمْساً[6].

وقيل: التَرتيلُ هو أن يقرأهُ على نَظْمِه وتَواليه، ولا يغيّر لَفظاً ولا يقدّم مؤخّراً[7].

سابعها: تحسينُ الصوتِ به، عن الصادق عليه السلام في تفسير التّرتيل قال: «هو أن تتمكّث فيه، وتُحَسِّن به صوتَك»[8].

وعنه عليه السلام قال: «قال النبيّ صلى الله عليه وآله: لكلّ شيءٍ حِليَةٌ، وحِليَةُ القرآنِ الصَّوتُ الحَسَن»[9].

وعن الرضا عليه السلام قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: حسِّنوا القرآن بأصواتِكم، فإنّ الصّوتَ الحَسَن يَزيدُ القرآنَ حُسْناً»[10].

وعن الصادق عليه السلام قال: «كان عليّ بن الحسين عليهما السلام أحسَن النّاس صَوتاً بالقرآنِ، وكان السّقّاؤن يمرّون فيقفِون ببابِه يسمعون قراءته»[11].

وعن أبي الحسن عليه السلام قال: ذُكِرَ الصّوتُ عنده، فقال: «إنّ عليّ بن الحسين كان يقرأ، فربّما مرّ به المارُّ فصَعِق من حُسن صَوته»[12].

ثمّ لا يذهب عليك أنّ حُسْنَ الصَّوتِ مُغايرٌ للغِناء الذي هو من الأصواتِ المُلْهِيَة المُطْرِبة المَعهودة عند العُرْف، ويُرجَعُ في تمييزها إليهم، وهو من الكبائر، خصوصاً في القرآن.

عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «اقرءوا القرآنَ بألحانِ العَرب وأصواتها، وإيّاكُم ولُحونِ أهلِ الفِسْقِ وأهل

---

١. المزمل: ٤/٧٣.
٢. هذّه: قطعه سريعاً، وهذّ القرآن: أسرع في قراءته، وهذّ قراءته: إذا أسرع فيها.
٣. الكافي ٢: ١/٤٤٩.
٤. في المجمع: بياناً.
٥. الهينة: السكينة.
٦-٨) مجمع البيان ١٠: ٥٦٩.
٩. الكافي ٢: ٩/٤٥٠.
١٠. عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ٣٢٢/٦٩.
١١. الكافي ٢: ١١/٤٥١.
١٢. الكافي ٢: ٤/٤٥٠.

الكبائر، فإنّه سيجيءُ من بعدي أقوامٌ يُرجّعونَ القرآن ترجيعَ الغِناء والنّوح والرّهبانية، لا يَجوزُ تَراقِيهم، قلوبُهمَ مقلوبةٌ وقلوبُ مَن يُعجِبُه شأنُهم»[١].

ثامنها: القراءة بالحزن، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «إنّ القُرآن نزَل بالحزن فاقرءوه بالحزن»[٢].

تاسعها: التِلاوة: كأنّ التالي يُخاطِبُ إنساناً، عن حَفْص: ما رأيتُ أحداً أشَدّ خوفاً على نفسِه من موسى بن جعفر عليهما السلام ـ إلى أن قال: ـ فإذا قرأ فكأنّه يُخاطِبُ إنساناً[٣].

عاشِرُها: التّفكّر في مَعاني القرآن، والاعتِبار والاتّعاظ بما يقتضي الاعتبار والاتّعاظ والتأثّر.

عن (الكافي) عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «إنّ هذا القرآن فيه منارُ الهُدى، ومَصابيحُ الدُّجى، فَليَجْلُ جالٍ بصَرَه، ويفتَح للضّياء نظره، فإنّ التّفكُّرَ حياةُ قَلبِ البَصير، كما يَمشي المُستَنيرُ في الظُّلماتِ بالنّور»[٤].

وعن أبي جعفر عليه السلام قال: «قال أمير المؤمنين صلوات الله عليه: ألا أُخبِرُكم مَن الفقيه حقّاً ـ إلى أن قال: ـ ألا لا خَيْرَ في علمٍ ليس فيه تَفهُّم، ألا لا خَيْرَ في قراءةٍ ليس فيها تَدبُّر، ألا لا خَيْرَ في عبادةٍ ليس فيها تَفَقُّه»[٥].

حادي عَشَرها: خَتْمُ سورةٍ شرَع فيها، عن النبيّ صلى الله عليه وآله أنّه قال لبلال رضي الله عنه: «إذا قرأتَ السورَةَ فأنفِدها»[٦].

ثاني عَشَرها: عدَمُ خَلْطِ بَعض سورةٍ ببَعضِ سورةٍ أُخرى، عن سعيد بن المُسيَّب: أنّ رسولَ الله صلى الله عليه وآله مرّ ببلالٍ وهو يقرأ من هذه السّورة ومِن هذه السورة، فقال: «يا بِلال، مرَرتُ بك وأنتَ تقرأ من هذه السّورة ومن هذه السّورة» قال: أخلطت الطّيب بالطّيب. فقال: «إقرأ السورةَ على وَجْهِها» ـ أو قال: «على نَحوِها»[٧].

ثالِث عَشَرها: أن يقرأ السورةَ مِن أوّلها مستقيماً إلى آخِرها، لا مِن آخِرها منكوساً إلى أوّلها.

عن ابن مَسعود، أنّه سُئل عن رجلٍ يقرأ القرآن منكوساً قال: ذاك منكوسُ القلب[٨].

رابع عَشَرها: حِفْظُ الآدابِ العُرفية، كتَركِ الضّحِك، والعَبَث، ومُكالَمة النّاس، والنَّظَر إلى ما يُلهيه.

---

١. الكافي ٢: ٣/٤٥٠. ٢. الكافي ٢: ٢/٤٤٩. ٣. الكافي ٢: ١٠/٤٤٣. ٤. الكافي ٢: ٥/٤٣٨.
٥. معاني الأخبار: ١/٢٢٦. ٦. الإتقان في علوم القرآن ١: ٣٧٩.
٧و ٨. الإتقان في علوم القرآن ١: ٣٧٨.

قال بعض العلماء: يُكرَه قَطع القراءة لِمُكالَمَةِ أحَدٍ، لأنّ كلامَ الله لا ينبغي أن يُؤثَر عليه كلامُ غيره[١].

خامِس عَشَرها: تَرْكُ الإفراطِ في مِقدار القراءة، على ما يظهَر من جمله الأخبار.

عن الكُلَيني رحمه الله بسَنَدِه عن محمّد بن عبدالله، قال: قلت لأبي عبدالله عليه السلام: أقرأُ القرآنَ في ليلةٍ؟ قال: «لا يعجبني أن تقرأه في أقلّ من شَهر»[٢].

وعن الحسين بن خالد، عنه عليه السلام قال: قلتُ له: في كم أقرأُ القرآن؟ فقال: «إقرأه أخماساً، إقرأهُ أسباعاً، أما إنّ عندي مُصْحَفاً مجزّىً أربعَة عشر جزءاً»[٣].

عن عليّ بن أبي حمزة، قال: سأل أبو بصير أبا عبدالله عليه السلام وأنا حاضِر، فقال له: جُعِلتُ فداك، أقرأ القرآن في ليلةٍ؟ فقال: «لا». فقال: في ليلَتَين؟ فقال: «لا» حتّى بلَغ ستّ ليالٍ، فأشار بيَدِه فقال: «ها».

ثمّ قال [أبو عبدالله عليه السلام]: «يا أبا محمّد، إنّ مَن كان قبلكم من أصحاب محمّد صلى الله عليه وآله كان يقرأ القرآنَ في شهرٍ وأقلّ، إنّ القرآن لا يُقرَأ هَذْرَمَةً، ولكن يُرتَّل تَرتيلاً، إذا مرَرْتَ بآية فيها ذِكرُ النّار وقَفْتَ عندها وتعوذّت بالله من النّار».

فقال له أبو بَصير: أقرأ القرآنَ في رَمَضان في ليلة؟ فقال: «لا». فقال: ففي ليلَتين؟ فقال: «لا». فقال: «ففي ثلاث؟» قال: «ها» وأومأ بيده «نعم، شَهرُ رَمَضان لا يُشبِهه شيءٌ من الشّهور، له حقٌّ وحُرمةٌ، أكثِر من الصّلاةِ ما استَطَعت»[٤].

سادِس عَشَرها: استِشعار الرِّقَّة، واللِّين، والوَجَل، والدَّمْعَة، دون إظهارالغشية.

عن (مصباح الشريعة) عن الصادق عليه السلام، أنّه قال: «مَن قرأ القرآن ولم يخضَع لله، ولم يَرِقّ قلبه، ولا يُنشئ حزناً ووَجَلاً في سرِّه، فقد استَهان بعِظَم شأنِ الله، وقد خَسِر خُسراناً مُبيناً، فقارئ القرآن يحتاج إلى ثلاثة أشياء: قَلب خاشِع، وبَدَن فارغ، ومَوضِع خال»[٥].

عن جابر، عن أبي جعفر عليه السلام قال: قلتُ: إنّ قوماً إذا ذُكِّروا شيئاً من القرآن أو حَدَّثوا بِه، صَعِقَ أحدُهم حتّى ترى أنّ أحدَهم لو قُطِعت يَداه ورِجْلاه[٦] لم يَشعُر بذلك؟ فقال عليه السلام: «سُبحان الله! ذلك من الشّيطان، ما بهذا نُعِتوا، إنّما هو اللِّين، والرِّقَّة، [والدمعة] والوَجَل»[٧].

---

١. الإتقان في علوم القرآن ١: ٣٧٧.
٢. الكافي ٢: ١/٤٥١.
٣. الكافي ٢: ٣/٤٥٢. وفي النسخة: أربعة عشر أجزاء.
٤. الكافي ٢: ٥/٤٥٢.
٥. مصباح الشريعة: ٢٨.
٦. في الكافي: أو رجلاه.
٧. الكافي ٢: ١/٤٥١.

الطرفة الثانية والثلاثون

في بيان ما يستحبّ أن يقال بعد تلاوة بعض الآيات الكريمة

يُستَحبّ سؤال الجنّة بعد تِلاوة آيةٍ فيها ذِكرُ الجَنّة، والتَّعوُّذ من النّار عند تلاوة آيةٍ فيها ذِكرُها، والتّسبيحُ عند آيةٍ فيها الأمرُ به، والسؤالُ عند آيةٍ فيها الأمرُ به، والدُّعاء بعد آيةٍ فيها ذِكرُ الدُّعاء، وذِكرُ قَولٍ كانَ في الآيةِ الأمرُ به.

عن عَوف بن مالك، قال: قُمتُ مع النبي ﷺ ليلةً فقام فقرأ سورة البقرة، وكان لا يمُرّ بآيةِ رَحمةٍ إلّا وقَف وسأل، ولا يمُرّ بآيةِ عذابٍ إلّا وقَف وتعوّذ[١].

وعن حُذَيفة، قال: صلّيتُ مع النبيّ ﷺ ذات ليلة فافتَتَح البَقَرة فقرأها، ثمّ النّساء فقرأها، ثمّ آل عِمْران فقرأها، يقرأ مُتَرَسِّلاً، وكان إذا مرّ بآيةٍ فيها تَسبيحٌ سبّح، وإذا مَر بآية فيها سؤال سأل وإذا مرّ بآية فيها تعوُّذ تعوَّذ[٢].

وعن جابر، أنّ النبيّ ﷺ قرأ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنّى فَإِنّى قَرِيبٌ﴾[٣] الآية فقال: «اللهمّ أمَرتَ بالدُّعاء وتكفَّلتَ بالإجابة، لبَّيكَ اللّهُمّ لَبّيك، لبّيكَ لاشريكَ لكَ لبَّيك، إنّ الحمدَ والنّعمةَ لكَ والمُلْك، لا شَريك لك، أشهَد أنّك فَردٌ أحَدٌ صَمَدٌ، لَم تَلِد وَلَم تُولَد وَلَم يَكُن لك كُفُواً أحَد، وأشهَد أنّ وعدَك حقٌّ ولقاءك حقٌّ، والجَنّةَ حقٌّ، والنّارَ حقٌّ، والسّاعَةَ آتيةٌ لا رَيْبَ فيها، وأنّك تَبعَثُ مَن في القُبور»[٤].

وعن ابن عباس ﵁ أنّ النبيّ ﷺ كان إذا قرأ ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَىٰ﴾[٥] قال: «سُبحانَ ربّيَ الأعلى»[٦].

وعن أمير المؤمنين ﵇: «إذا قرَأتُم مِن المُسَبِّحات الأخيرة، فقولوا: سُبحان ربّيَ الأعلى»[٧] الخبر[٨].

وعن رجاء بن [أبي] الضّحّاك، قال: كان الرضا ﵇ في طريق خراسان يُكثِر بالليل في فِراشِه من تلاوة القرآن، فإذا مرّ بآية فيها ذِكرُ الجنّة أو النّار بكىٰ وسأل الله الجنّة وتعوّذ به من النّار.

---

١. السنن الكبرى ٢: ٣١٠، الاتقان في علوم القرآن ١: ٣٦٩.
٢. الإتقان في علوم القرآن ١: ٣٦٩.
٣. البقرة: ١٨٦/٢.
٤. الإتقان في علوم القرآن ١: ٣٧٠.
٥. الأعلى: ١/٨٧.
٦. الإتقان في علوم القرآن ١: ٣٦٩.
٧. في الخصال: الله.
٨. الخصال: ١٠/٦٢٩.

إلى أن قال: وكان إذا قرأ ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أحَدٌ﴾ قال سرّاً: «الله أحَد» قال: ولمّا فرَغ منها، قال: «كذلك الله ربّي[١] ثلاثاً».

وكان إذا قرأ سورة الجَحْد، قال في نفسه سرّاً: «يا أيّها الكافِرون» فإذا فرَغ منها قال: «ربّيَ الله، ودِينِيَ الإسلام» ثلاثاً.

وكان إذا قرأ ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ﴾ قال عند الفَراغ منها: «بَلى، وأنا على ذلك من الشاهِدين».

وكان إذا قرأ ﴿لاَ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَامَةِ﴾، قال عند الفَراغ منها: «سُبحانَك اللّهمّ بلى»[٢].

وكان يقرأ في سورة الجُمُعة ﴿قُلْ مَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ﴾ للّذين اتّقَوا[٣] ﴿وَاللهُ خَيْرُ الرَّازِقِين﴾[٤].

وكان إذا فرَغ من الفاتحة، قال: «الحمدُ لله ربّ العالمين».

وإذا قرأ ﴿سبِّح اسمَ ربِّكَ الأعلَىٰ﴾ قال سِراً: «سبحانَ رَبِّيَ الأعلىٰ».

وإذا قرأ ﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا﴾ قال: «لبّيك اللّهمّ لبّيك» سِرّاً[٥].

أقول: لا يَبعُد أنّه وقَع في الرّوايةِ سَهوٌ من الراوي، فإنّ قولَه: ﴿لِلذّينَ اتَّقَوا﴾ بعد قوله تعالى: ﴿مَا عِنْدَ اللهِ﴾ أنسَب من ذِكره بعد اللّهو والتّجارة.

وعن أمير المومنين عليه السلام أنّه قرأ ﴿سبّح اسمَ ربّك الأعلى﴾، فقال: «سبحان ربّيَ الأعلى» وهو في الصَّلاة، فقيل له: أتَزيد في القرآن؟ قال: «لا، أُمِرنا بشيءٍ فقلته»[٦].

أقول: يُستَفاد من هذه الرّواية أنّ كلّ أمرٍ في القرآن بقولٍ من إقرارٍ بايمانٍ، أو تسبيح، أو تحميد، أو توكُّل، أو تسليم، أو ذِكر أو دعاء، كقوله تعالى: ﴿قُلِ الحَمْدُ للهِ وسَلامٌ عَلىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰ﴾[٧] أو قوله: ﴿ٱذْكُرُوا اللهَ﴾[٨] وقوله: ﴿وَعلَىٰ اللهِ فَلْيَتَوكَّلِ ٱلمُؤْمِنُونَ﴾[٩] وقوله: ﴿قُولُوا آمَنَّا باللهِ﴾[١٠] وغير ذلك، يستَحبّ امتِثاله عند تِلاوة آيته بأن يقولَ القارئ: آمنتُ بالله وبِما أُنزِل إلينا، وسُبحانَالله، والحَمدُلله، وسَلامٌ على عبادة الذين اصطفَى، وتوكّلتُ على الله.

---

١. في العيون: ربنا. ٢. (بلى) ليس في عيون أخبار الرضا عليه السلام.
٣. الظاهر أنّ هذه الزيادة محمولة على التوضيح والبيان لا على أنّها من القرآن، لثبوت سلامته من الزيادة والنقصان.
٤. الجمعة: ٦٢/١١. ٥. عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ١٨٣/٥.
٦. الدر المنثور ٨: ٤٨٢، كنز العمال ٢: ٣١٧/٤١١٤. ٧. النمل: ٢٧/٥٩. ٨. الأحزاب: ٣٣/٤١.
٩. ابراهيم: ١٤/١١، التغابن: ٦٤/١٣. ١٠. البقرة: ٢/١٣٦.

ولا ينحصر مَورد استِحباب التّسبح بسورة الأعلى، بل يستحَبّ عند قوله: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ [١] بل يستحبّ عند ذكر التسبيح والتحميد كقوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرىٰ﴾ [٢]، وقوله: ﴿نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [٣] للرّواية المرويّة عن أمير المؤمنين عليه السلام.

وكذا يستحبّ الصّلاة على النبيّ صلى الله عليه وآله عند تِلاوة آيةٍ فيها الأمرُ بها، للرّواية المَذكورة، ولـمّا روي عنه عليه السلام في روايةٍ: «وإذا قرأتم ﴿إِنَّ اللهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَىٰ النَّبِيّ...﴾ [٤] فصلّوا عليه، في الصّلاة كُنتم أو في غيرها» [٥].

وكذا يُستَفاد من الرّوايات أنّ كلّ سؤالٍ يُناسِبُ جَوابه من التّالي أن يُجيبَه، كقوله تعالى: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِى خَلَقَ الأَرضَ فِى يَومَيْنِ﴾ [٦]، وكقوله تعالى: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ﴾ [٧] بأن يقول: لا نكفُر، بـل نـؤمِن بألسِنَتنا وقُلوبنا، أو مـا أشـبَه ذلك مـن العِبارات الّتي تدلّ على الإيمان واعتِقاد الحقّ.

عن جابر، قال: خرَج رسول الله صلى الله عليه وآله على الصّحابة فقرأ عليهم سورة الرّحمـٰن من أوّلها إلى آخِرها فسكَتوا، فقال: «لقد قرأتها على الجِنّ فكانوا أحسَن مَردوداً منكُم، كنتُ كلّما أتيت على قوله: ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [٨] قالوا: ولا بشيءٍ من نعمتك [٩] ربّنا نُكذّب، فلَك الحَمد» [١٠].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام في رواية: «وإذا قرأتم (والتّين) فقولوا في آخرها: ونحن على ذلك مـن الشّاهدين» [١١].

وعن التّرمذي [في حديث]: «من قرأ ﴿والتِّينِ وَالزَّيْتُونِ﴾ فانتَهى إلى آخِرها: ﴿أَلَيْسَ اللهُ بأَحْكَمِ الحَاكِمِينَ﴾ [١٢] فليقُل: بلى، وأنا على ذلك من الشّاهِدين [١٣]. ومَن قرأ: ﴿لا أُقْسِمُ بِيَوم القِيَامَةِ﴾ فانتهى إلى آخرها ﴿أَلَيْسَ ذٰلِكَ بقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ المَوتَىٰ﴾ [١٤] فليقُل: بلى ومَن قرأ ﴿وَالْمُرْسَلاتِ﴾ فبلغ إلى قوله [١٥]: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤمِنُونَ﴾ [١٦] فليقُل: آمَنّا بالله» [١٧].

---

١. الحجر: ٩٨/١٥. ٢. الإسراء: ١/١٧. ٣. البقرة: ٣٠/٢. ٤. الأحزاب: ٥٦/٣٣.
٥. الخصال: ١٠/٦٢٩. ٦. فصلت: ٩/٤١. ٧. آل عمران: ١٠١/٣. ٨. الرحمن: ١٣/٥٥ ...
٩. في الإتقان: نعمك. ١٠. الإتقان في علوم القرآن ١: ٣٦٩. ١١. الخصال: ١٠/٦٢٩.
١٢. التين: ٨/٩٥. ١٣. الترمذي ٥: ٣٣٤٧/٤٤٣. ١٤. القيامة: ٤٠/٧٥.
١٥. في النسخة: فبلغ بقوله. ١٦. المرسلات: ٥٠/٧٧.
١٧. الإتقان في علوم القرآن ١: ٣٦٩.

وكذا يستحبّ قول (آمين) بعد آيةٍ فيها الدُعاء للمؤمنين، عن أبي مَيْسَرَة: أنّ جَبْرَئيل لقّنَ النبيّ ﷺ عند خاتِمة البقَرة آمين[١].

وعن مُعَاذ بن جَبَل، أنّه كان إذا ختَم سورة البَقرة، قال: «آمين»[٢].

وعن ابن عباس رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا تَلا هذِه الآيـة ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوّاهَـا * فَأَلْـهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾[٣] وقف ثمّ قال: «اللهم آتِ نفسي تَقواها [أنت وليها ومولاها وخير من زكّاها»[٤].

وعن أبي هريرة سمعت النبيّ ﷺ يقرأ ﴿فَألهَمَهَا فُجُورَهَا وَتقْوَاهَا﴾ قال: اللهم آتِ نفسي تقواها] وزَكّها، أنت خيرُ مَن زكّاها، أنت وَليّها ومَولاها» قال: هو في الصلاة[٥].

أقول: إنّ هذه الرّوايات إمّا عاميّة أو إماميّة ضعيفةٌ لا يُمكِنُ أن يُعتَمد عليها في إثباتِ حُكمٍ شَرعيّ حتى يجوز قَصْد التّعبُّد والورود بما تضَمّنته[٦]، خصوصاً في الصلاة، إذا لم يكن من ذِكر الله، أو من الدُّعاء، كقول: (يا أيها الكافرون) بعد قوله: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الكَافِرُونَ﴾[٧].

نعم، يمكن الحُكم بالاستِحباب بضَميمة الرّوايات الدالّة على أن مَن بلَغه شيءٌ من الثّواب فعَمِله رجاء ذلك الثّواب إلى آخره بناءً على إفادتها الاستِحباب الشّرعيّ كما هو الظّاهر، فعلَيه، لا إشكال في ذِكرها في الصلاة بقَصد التعبُّد والورود، ولو لم يكن من الذِكر والدُّعاء.

الطّرفة الثّالثة والثلاثون

في كراهة ترك تلاوة القرآن لحافظه حتّى يؤدّي إلى النسيان

ذهَب بعضُ العامّة إلى أنّ تَركَ تِلاوة القرآن لِحافِظه حتّى يؤدّي إلى نِسيانه معصيةٌ كبيرةٌ، لما روي عن النبي ﷺ أنّه قال: «عُرِضَت عليّ ذُنوبُ أمّتي فلَم أرَ ذَنْباً أعظَم من سورةٍ من القرآن أو آيةٍ أُوتيها رجلٌ ثمّ نَسِيَها». وما روي أنّه «مَن قرأ القرآن ثمّ نَسِيَه لَقى الله يوم القيامة أجْذَم»[٨].

وفي (الصحيحين): «تَعاهدوا القرآنَ، فوالذي نفس محمّدٍ بيَدِه لَهُوَ أشَدّ تَفلُّتاً من الإبلِ في

---

١. الإتقان في علوم القرآن ١: ٣٧٠.
٢. الإتقان في علوم القرآن ١: ٣٧٠.
٣. الشمس: ٩١/٧ و٨.
٤. الدر المنثور ٨: ٥٢٩.
٥. الدر المنثور ٨: ٥٢٩.
٦. في النسخة: تضمّنها.
٧. الكافرون: ١٠٩/١.
٨. الإتقان في علوم القرآن ١: ٣٦٣.

عُقُلِها»[١].

وعن (أمالي الصّدوق رضوان الله عليه) في مَناهي النبيّ ﷺ أنّه قال: «ألا ومَن تعلّم القرآن ثمّ نَسِيَهُ مُتَعمِّداً، لقي الله [يوم القيامة] مَغلولاً، يُسلّط الله عليه بكلّ آيةٍ منه حيّةً تكون قرينَه إلى النّار، إلاّ أن يغفر له»[٢].

ويؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنْتُ بَصِيراً * قَالَ كَذٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذٰلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَىٰ﴾[٣].

هذا ما يمكن أن يُستدلّ به لحرمة النِسيان، ولم يحضُرني في المسألة قولٌ من أصحابنا، والأظهَر كراهة التَّرْك المَذكور لضَعْفِ سنَدِ ما عدا رواية المَناهي، وعدم دلالة بعضِها إلّا على الكراهة، كقوله: «لقي الله يوم القيامة أجذم» بل دلالة مافي (الصَّحِيحَين) على الارشاد بقَرينةِ ذَيلِهِ، وعدَم رَبْط الآية بالمَقام، لأنّ المُراد بالنّسيان في قوله: ﴿فَنَسِيْتَها﴾ هو تَرك الاعتِناء بها، كما أنّ المُراد من قوله: ﴿تُنْسىٰ﴾ تَركُ الإثابة، مع مُعارضة جَميعِها بما روي عن الهَيْثَم بن عُبَيد، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: سألته عن رجل قرأ القرآن ثمّ نَسِيَه، ـ فرددتُ عليه ثلاثاً ـ : أعليه فيه حَرجٌ؟ قال: «لا»[٤].

وبما رَواه عبدالله بن مُسْكان، عن يعقوب الأحمَر، قال: قلت لأبي عبدالله عليه السلام: جُعِلت فِداك، إنّه قد أصابني همومٌ وأشياء لم يَبْقَ من الخَير إلّا [وقد] تفلّت منّي منه طائفة، حتّى القرآن، لقد تَفلّت منّي طائفةٌ منه. قال: ففزع عند ذلك حين ذكرت القرآن، ثمّ قال: «إنّ الرجل لَيَنْسى السّورةَ من القرآن فتأتيه يوم القيامة حتّى تُشرِف عليه من درجةٍ من بعض الدَّرجات فتقول: السلام عليك، فيقول: وعليكِ السّلام، من أنت؟ فتقول: أنا سورة كذا وكذا، ضيَّعْتَني وتَركْتَني، أما لو تمسّكتَ بي بلَغتُ بك هذه الدَّرجة» الخبر[٥]، فإنّ دلالته على عدم الحُرمة، لدلالته على دُخول الناسي في الجنّة، وسَلامُ القرآن عليه وحِرمانه عن الدّرجات العالية واضِحة.

وأمّا رواية المنَاهي فهي محمولةٌ على تَقديرِ صِحّة السَّنَد أو وَثاقَتِه على النّسيان المُسبب عن الإعراض عن القرآن والتّهاون وعدَم الاعتِناء به والاستخفاف بشأنه، وهو من أشدّ المَعاصي، بل هو في معنى الكُفر.

---

١. الإتقان في علوم القرآن ١: ٣٦٣.
٢. أمالي الصدوق: ٧٠٧/٥١٣.
٣. طه: ٢٠/١٢٤ ـ ١٢٦.
٤. الكافي ٥: ٥/٤٤٥.
٥. الكافي ٥: ٦/٤٤٦.

وعليه يُحمَل أيضاً إن لم يكن ظاهراً فيه، ما رَواه في (البحار) من كتاب (الإمامة والتبصرة): عن سَهْل بن أحمد، عن محمّد بن محمّد بن الأشعَث، عن موسى بن إسماعيل بن موسى بن جعفر، عن أبيه، عن آبائه عليهم السلام، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «عُرِضَت عليّ الذّنوب فلَم اُصِب أعظَم من ذنبِ رجلٍ حمَل القرآن ثمّ تركه»[١].

ويؤيّده أنّه إذا كان حِفظُ القرآن مستحبّاً، فالظّاهر أن يكون كَثْرَة تَعاهُدِه وإبقائه في الحِفْظ مستحبّاً، وبعيد غايته أن يكون واجباً إلّا أن يدُلّ دليلٌ معتَبر عليه من إجماعٍ أو نصٍّ، ولو كان ذلك الدّليل لَعدَّه الفُقَهاء في الواجِبات، ولم أجِد في كتُب أصحابِنا رضوان الله عليهم مَن تعرَّض له.

الطّرَفة الرابعة والثلاثون

في كراهة ختم القرآن في أقلّ من ثلاثة أيّام لمنافاته للتّدبّر والتّفكر في آياته

قد مرّ في آداب التِلاوة كراهة الإفراط في سُرعَة التِلاوة، وقال جمعٌ بكراهةِ خَتْمِ القرآن العظيم في أقلّ من ثلاثة أيّام[٢].

عن ابن مسعود، قال: لا تقرءوا القرآن في أقلّ من ثلاثة أيّام[٣].

وعن مُعَاذ بن جَبَل، أنّه كان يكرَه أن يُقرأ القرآن في أقلّ من ثلاثة أيّام[٤].

وعن النبيّ صلى الله عليه وآله: «لا يَفقَه مَن قرأ القرآنَ في أقلّ من ثلاثة أيّام»[٥].

أقول: مقتضى هذه الروايات عدمُ الكراهةِ في ثلاثة أيّام فما فَوقها.

وعن سعيد بن المُنذِر، قال: قلت لرسول الله صلى الله عليه وآله: أقرأُ القرآنَ في ثلاث؟ قال: «نعم، إن استَطَعت»[٦].

وعن إبراهيم بن العبّاس، قال: كان الرّضا عليه السلام يختِم القرآن في كلّ ثلاث، ويقول: «لو أردتُ أن أختِمَه في أقلّ من ثلاثٍ لختَمْتُه، ولكن ما مرَرتُ بآيةٍ قطّ إلّا فكّرتُ فيها، وفي أيّ شيءٍ نزلت، وفي أيّ وقتٍ نزلت، فلذلك صِرتُ أختِمُ في [كلّ] ثلاثة أيّام»[٧].

ثمّ اعلَم أنّ الظاهِر من الرّواية أنّ تَطويل المُدّة لرعايةِ التّدبُّر والتّفكُّر في الآيات حيث إنّ تلاوتها

---

١. جامع الأحاديث: ١٨، بحار الأنوار ٩٢: ١٤/١٨٩، ولم نعثر عليه في كتاب الإمامة والتبصرة.

٢-٤. الإتقان في علوم القرآن ١: ٣٦١.

٦. الإتقان في علوم القرآن ١: ٣٦١.

٧. عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ٤/١٨٠.

من غير تدبُّرٍ وتفكُّرٍ فيها قليلةُ النفعِ، قال تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾[١] فإنّه تعالى جعَل التدبُّرَ غايةً للإنزال، وقال تعالى توبيخاً: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾[٢] إلى غير ذلك من الآيات.

عن ابن مسعود ﷺ: أنّ رجلاً قال له: إنّي أقرأ المفصَّل في رَكْعَةٍ واحدة. فقال: هَذّاً كهَذِّ الشّعر، إنّ قوماً يقرءون القرآن لا يُجاوِزُ تَراقِيهم، ولكن إذا وقَع في القَلب فرَسَخ فيه نَفَع[٣].

وعنه ﷺ قال: لَا تنثُروه نَثْرَ الدَّقل[٤]، ولا تَهذّوه هَذَّ الشّعر، قِفُوا عند عجائبه، وحرّكوا [به] القلوب، ولا يكون همُّ أحدِكم آخِرِ السورة[٥]، وقد مرّ ما يقربُ من ذلك[٦]. ولذا روي عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «لا يُعجِبُني أن يُقرأ القرآنُ في أقلّ من شَهر»[٧].

فتبيّن من جميع ذلك أنّ مقدارَ فضيلةِ تلاوة القرآن على مِقدار تدبُّر القارئ، فإنّ تلاوة جزءٍ بتدبُّرٍ وتفكُّرٍ فيه أفضَل من قراءة جُزءَينِ أو أكثر في قدر ذلك الزّمان بلا تدبُّرٍ وتفكُّرٍ وتَرتيل.

وحينئذٍ لو فرَضنا قُدرة القارئ على خَتْم القرآن في ليلةٍ واحدة مع حقّ التدبُّر فيه، كان فضيلته أزيَد من خَتمِه في ليلَتين، فالأخبار النّاهية عن خَتْمِه في ليلةٍ أو ليلَتَين ناظِرةٌ إلى حالِ نوع المؤمنين، فإنّهم عاجِزون عن أداءِ حقّ تلاوته في أقلّ من ثَلاث، وعلى هذا تختلف المدّة باختِلاف قُدرة التّالي على الخَتْم مع التدبُّر، ولذا اختلَفتِ الأخبار في تقدير المُدّة على حسَب اختِلاف الأشخاص.

عن عبدالله بن عمر، قال: قال لي رسول الله ﷺ: «اقرأ القرآن في شهر». قلت: إنّي أجِد قوّةً. قال: «اقرأه في عَشر». قلت: إنّي أجِد قوّةً. قال: «اقرَأهُ في سَبْع ولاتزِد على ذلك»[٨].

وفي رواية أُخرى: قال: يا رَسول الله، في كم أقرأ القرآن؟ قال: «في خمسة عشر». قلتُ: إنّي أقوى من ذلك. قال: «اقرَأه في جمعة»[٩].

قيل: كان للسّلف في قَدر القراءة عادات مختلفة، فأكثر ما ورَد في كَثرَة قراءتهم من كان يختِم في اليوم والليلة ثمان خَتمات؛ أربعاً في اللّيل، وأربعاً في النّهار، ويَليه مَن كان يختِم في اليوم واللّيلة

---

١. سورة ص: ٣٨/٢٩. ٢. محمد ﷺ: ٤٧/٢٤.
٣. الإتقان في علوم القرآن ١: ٣٦٧. ٤. الدَّقَل: رَدِيء التّمر ويابِسُه.
٥. الإتقان في علوم القرآن ١: ٣٦٧. ٦. تقدّم في الطرفة الحادية والثلاثين.
٧. إقبال الأعمال: ١١٠. ٨. الإتقان في علوم القرآن ١: ٣٦١.
٩. الإتقان في علوم القرآن ١: ٣٦١.

أربعاً، ويليه ثلاثاً، ويليه خَتْمَتَين، ويَليه خَتْمَة، وقد ذمّت عائشةُ ذلك.

نُقل عن مسلم بن مِخْراق، قال: قلت لعائشة: إنّ رِجالاً يقرأ أحدُهم القرآن في ليلةٍ مرّتين أو ثلاثاً؟ فقالت: قرءوا ولم يقرءوا، كنتُ أقومُ مع رسول الله ﷺ ليلة التمام فيقرأ بالبقرة وآل عمران والنساء، فلا يمُرّ بآيةٍ فيها استِبشار إلّا دعا ورغب، ولا بآية فيها تخويف إلاّ دعا واستَعاذ[1].

وقال بعضُ العامّة: إنّه يُكرَه تأخير خَتمِه أكثَر من أربعينَ يوماً بلا عُذْرٍ، حيثُ روي أنّ عبدالله بن عمر سأل النبيّ ﷺ: في كم أختِم القرآن؟ قال: «في أربعين يوماً»[2].

الطّرفة الخامسة والثلاثون

في أنّ لمن ختم القرآن دعوة مستجابة

قد ظهر ممّا سبَق من بعض الرّوايات أنّ لِمَن ختَم القرآن دعوة مُستَجابةً.

كما روي عن النبيّ ﷺ من طرُق العامّة: «مَن ختَم القرآنَ فلَهُ دعوةٌ مستجابَةٌ»[3]. فعلى المؤمن أن يُبالِغَ في الدُّعاءِ بعد الخَتْمَةِ، وأن يسأل أهم الحوائج وهو غُفران الذُّنوب والنَّجاة من النّار.

عن أنس بن مالك [مرفوعاً] «من قرأ القرآن وحَمِد الرّبَّ وصلّى على النّبيّ ﷺ واستَغفَر ربَّه، فقَد طلَب الخَير [مكانه]»[4].

وقد ورد من طُرق أصحابنا (رضوان الله عليهم) ادعية كثيرة، منها:

ما روي عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «حبيبي رسول الله ﷺ أمَرني أن أدعو عند خَتم القرآن: اللّهمَّ إنّي أسألك إخباتَ المُخْبِتين، وإخلاصَ الموقنين، ومُرافقةَ الأبرار، واستِحقاق حقائق الإيمان، والغَنيمةَ من كلّ برّ، والسّلامةَ من كلّ إثمٍ، ووجوب رَحمَتِك، وعَزائِم مغفِرَتِك، والفوز بالجنّة، والنجاة من النّار»[5].

روي عن عاصِم، عن زِرّ بن حُبَيش، قال: قرأت القرآن مِن أوّله إلى آخِره في مسجد جامع الكوفة على أمير المؤمنين عليه السلام ـ إلى أن قال: ـ فلمّا بلَغتُ رأسَ العِشرين من (حمٓ * عٓسٓقٓ): ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلجَنَّاتِ لَهُمْ مَايَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذٰلِكَ هُوَ ٱلفَضْلُ ٱلكَبِيرُ﴾[6] بكى

---

١. الإتقان في علوم القرآن ١: ٣٦٠.
٢. الإتقان في علوم القرآن ١: ٣٦٢.
٣. الإتقان في علوم القرآن ١: ٣٨٤.
٤. الإتقان في علوم القرآن ١: ٣٨٤.
٥. مكارم الأخلاق: ٣٤٢.
٦. الشورى: ٢٢/٤٢.

أمير المؤمنين عليه السلام حتّى ارتفع نَحيبُه، ثمّ رفَع رأسَه إلى السّماء، وقال: «يا زِرّ، أمِّن على دُعائي» ثمّ قال: «اللّهمّ إنّي أسألك إخباتَ المُخبِتين..» إلى آخر الدّعاء.

ثمّ قال: «يا زِرّ، إذا ختَمْتَ فادعُ بهذِه، فإنّ حبيبي رسول الله صلى الله عليه وآله أمرَني أن أدعو بهِنّ عند خَتْمِ القرآن»[1].

أقول: يُستفاد من قَولِه: «يا زِرّ، أمِّن على دُعائي» استِحباب حضور المؤمنين عند الدُّعاء وتأمينهم له، خصوصاً عند خَتمِ القرآن، ويؤيده ما روي عن أنس: أنّه كان إذا ختَم القرآن جمَع أهلَه ودعا[2].

وعن الحَكم بن عُتيبة[3]، قال: أرسَل إليّ مُجاهد وعنده ابن أبي أُمامة، وقالا: إنّا أرسَلنا إليك لأنّا أرَدنا أن نَختِم القرآن، والدُّعاء يستَجاب عند خَتْمِ القرآن[4].

وعن مجاهد، قال: كانوا يجتَمِعون عند خَتْمِ القرآن، ويقول: عنده تَنزِل الرّحمَة[5].

ومن الأدعية المأثورة: ما روي عن الصادق عليه السلام: اللّهمّ إنّي قد قَرأتُ ما قضَيتَ من كتابك الذي أنزَلته على نبيّك الصادق صلى الله عليه وآله فلك الحَمد ربَّنا، اللّهُمّ اجعَلني ممّن يُحِلّ حَلالَه ويحرِّمُ حَرامَه ويُؤمِن بُمحكَمِه ومُتَشابهه، واجعَله لي أُنساً في قَبْري، وأُنساً في حَشْري، [وأُنساً في نشري] واجعلني ممّن تُرقيه بكلّ آيةٍ قرأتها درجةً في أعلى علّيّين، آمين ربّ العالمين»[6].

والظاهر أنّ هذا الدُّعاء ليس مُختَصّاً بخَتْمِ القرآن، بل يُستحبّ عند الفَراغ من القِراءة، ولو كانت قراءة بَعضِه من سورةٍ أو آيات.

وعن أمير المؤمنين صلوات الله عليه أنّه كان إذا ختَم القرآن، قال: «اللّهُمّ اشرَحْ بالقُرآنِ صَدْري، واستَعمِل بالقرآن بَدَني، ونوِّر بالقرآن بَصَري، وأطلِق بالقرآن لِساني، وأعِنّي عليه ما أبقَيْتَني، فإنّه لا حَوْلَ ولا قوّة إلّا بِك.»[7].

ثمّ لا يذهب عليك أنّه كما نُدِب إلى الدُّعاء بعد خَتمِه نُدِب إليه حين الشُّروع في تِلاوته.

روي عن الصادق عليه السلام أنّه كان إذا قرأ القرآن قال قبل أن يقرأ حين يأخذ المُصحَف: «اللّهمّ إنّي أشهَد أنّ هذا كتابُك المُنزَل من عندِك على رَسولك محمد بن عبدالله صلى الله عليه وآله، وكلامُك النّاطِق على

---

١. بحار الأنوار ٩٢: ٢/٢٠٦.
٢. الإتقان في علوم القرآن ١: ٣٨٢.
٣. في النسخة: الحكم بن عيينة، راجع: تهذيب الكمال ٧: ١١٤.
٤. الإتقان في علوم القرآن ١: ٣٨٢.
٥. الإتقان في علوم القرآن ١: ٣٨٢.
٦. الاختصاص: ١٤١، بحار الأنوار ٩٢: ٢/٢٠٧.
٧. بحار الأنوار ٩٢: ٦/٢٠٩.

لسانِ نبيّك، جعلتَه هادياً منك إلى خَلقِك وَحبْلاً مُتّصِلاً فيما بينَك وبين عِبادك، اللّهمّ إنّي نشَرتُ عَهْدَك وكتابك، اللّهمّ فاجعَل نظَري فيه عبادةً، وقراءتي فيه فِكراً، وفِكري فيه اعتِباراً، واجعَلني ممّن اتّعظ ببيَانِ مَواعظِك فيه، واجتنَب مَعاصيك، ولا تطبَع عند قراءتي على سَمْعي، ولا تجعَل على بصري غِشاوةً، ولا تجعَل قراءتي قراءةً لا تَدبُّرَ فيها، بل اجعَلني أتدبَّرُ آياتِه وأحكامه، آخذاً بشرائع دينِك، ولا تجعَل نظَري فيه غَفْلَةً، ولا قراءتي هَذْراً [إنك] أنت الرؤوف الرّحيم»[1].

الطّرفة السادسة والثلاثون:

في أنّ لبعض سور القرآن فضيلةً على بعض

مقتَضى كثيرٍ من الرّوايات أنّ لبعضِ سُوَرِ القرآن الكريم فضيلةً على بعضٍ، وإن أنكرَها قومٌ من العامّة.

عن أنَس: «أفضَل القرآن ﴿اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ رَبِّ الْعالَمِينَ﴾»[2] أي سورة الفاتحة.

وعن [أبي] سعيد[3] بن المُعَلّى: «أعظَم سورة في القرآن ﴿اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ رَبِّ الْعالَمِينَ﴾»[4].

وعن أُبَيّ بن كَعْب، مَرفوعاً: «ما أنزَل الله في التّوراة ولا في الإنجيل مثل أُمّ القرآن، وهي السّبع المَثاني»

وعن ابن عبّاس: «فاتحة الكتاب تعدل بثُلُثَي القرآن».[5]

وعن سَهْل بن سَعْد: «أنّ لكلّ شيءٍ سَناماً، وسنامُ القرآنِ سورة البقرة، من قرأها في بيته نهاراً لم يدخُله الشّيطان ثلاثة أيّام، ومن قرأها في بيته ليلاً لم يدخُله الشّيطان ثَلاث ليالٍ»[6].

وعن بُرَيْدَة: «تعلّموا سورة البقرة، فإنّ أخذَها برَكةٌ وتَرْكَها حَسْرَةٌ، ولا تستطيعها البَطَلَة،[7] تعلّموا سورة البقرة وآل عِمران فإنّهما الزّهْرَاوان، تُظِلّان صاحِبَهُما يوم القِيامة كأنّهما غَمامَتان».[8]

---

١. بحار الأنوار ٩٢: ٢/٢٠٧.
٢. الإتقان في علوم القرآن ٤: ١٢٥.
٣. في النسخة: سعيد، تصحيف، انظر تهذيب الكمال ٣٣: ٣٤٨.
٤. الإتقان في علوم القرآن ٤: ١٢٥.
٥. الإتقان في علوم القرآن ٤: ١٢٥ وفيه: تعدل ثلثي القرآن، الدر المنثور ١: ١٥.
٦. الإتقان في علوم القرآن ٤: ١٢٦.
٧. البَطَلَة: السحرة أو الشياطين.
٨. الإتقان في علوم القرآن ٤: ١٢٦.

وفي رواية: «الأنعامُ من نَواجِب القرآن».[١]

وعن معقِل بن يسار: «يٓس قلبُ القرآن، لا يقرأها رجلٌ يريدُ الله والدارَ الآخرةَ إلّا غفرَ له، إقرءوها على مَوتاكم».[٢]

وعن أنَس: «أنّ لكلّ شيءٍ قلباً وقلبُ القرآن يٓس، ومَن قرأ يٓس كتَب الله له بقراءتها قراءة القرآن عَشر مرّات».

وعن ابن عبّاس رضي الله عنه: «إنّ لكلّ شيءٍ لُباباً، ولُبابُ القرآن الحَواميم».[٣]

وعن ابن مسعود رضي الله عنه: «الحَواميم دِيباجُ القرآن»[٤].

وفي رواية: «في تَنزيلِ السّجدة وتبارك المُلك فَضل ستّين درجة على غيرِهما من سور القرآن»[٥].

وعن أميرالمؤمنين عليه السلام: «لكلّ شيءٍ عروسٌ، وعروسُ القرآن الرحمـٰن»[٦].

وعن أنس: «مَن قرأ ﴿اذا زلزلت﴾ عُدِلت له بنصِف القرآن»[٧].

وفي رواية: «﴿والعادِياتُ﴾ تَعدِل نصفَ القرآن»[٨].

وفي رواية: «ألا أحدُكم أن يقرأ ألف آية في كلّ يوم؟ قالوا: ومَن يستَطيع أن يقرأ ألف آية؟ قال: أما يستطيع أحدُكم أن يقرأ ﴿الهـٰكم التكاثر﴾؟»[٩]. والظاهر أنّ المُراد أنّ سورة ﴿أَلْهَاكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ تَعدِل ألفَ آية.

وعن أنس: «﴿قل يا أيّها الكافرون﴾ رُبُع القُرآن»[١٠].

وعن ابن عبّاس: «أنّها تُعدَل بُربع القرآن»[١١].

وعن أنس: «﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ ٱللهِ وَٱلْفَتْحُ﴾ رُبع القرآن»[١٢].

وعن أبي هريرة: «﴿قُلْ هُوَ ٱللهُ أَحَدٌ﴾ تعدِل ثُلُثَ القرآن»[١٣].

عن النبيّ صلى الله عليه وآله قال لعُقْبَة: «ألا أُعلّمك سوراً ما أُنزِل في التّوراة ولا في الزّبور ولا في الإنجيل ولا في

---

١. الإتقان في علوم القرآن ٤: ١٢٨، ونَواجِب القرآن: أفاضل سُوره.
٢. الإتقان في علوم القرآن ٤: ١٢٩.　٣. الإتقان في علوم القرآن ٤: ١٢٩.
٤. الإتقان في علوم القرآن ٤: ١٣٠.　٥. الإتقان في علوم القرآن ٤: ١٢٩.
٦. الدر المنثور ٧: ٦٩٠.　٧ـ٧. الإتقان في علوم القرآن ٤: ١٣٢.
١٠ـ١٠. الإتقان في علوم القرآن ٤: ١٣٢.　١٣. الإتقان في علوم القرآن ٤: ١٣٣.

الفرقان[١] مثلُها؟» قلت: بلىٰ. قال: «﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾»[٢].

الطرفة السابعة والثلاثون

في أنّ لبعض الآيات فضيلةً علىٰ بعضٍ

مفاد كثيرٍ من الرّوايات أنّ لبعضِ الآيات فَضيلةً على بعضٍ:

عن العيّاشي رحمه الله في ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ﴾ عن الصادق عليه السلام، قال: «مالهم قاتلهم الله عمَدوا إلى أعظَم آيةٍ في كتاب الله فزعَموا أنّها بِدْعَة إذا أظهَروها»[٣].

وفي رواية: «هي الآية التي قال الله عزّ وجّل: ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهِمْ نُفُوراً﴾»[٤].

وعن الرّضا عليه السلام: «إنّها أقرَب إلى اسمِ الله الأعظَم من ناظر[٥] العيَن إلى بياضها»[٦]. لعلّ المُراد أنّ الاسمَ الأعظَم هي الأسامي المُبارَكات في هذه الآية، أو أنّه يُستَخرج منها.

وعن جابر، عن النبيّ صلى الله عليه وآله ـ في حديث ـ: «قال الله تعالى: وأعطيت لك ولأمّتك كنزاً من كنوز عَرْشي؛ فاتحة الكتاب وخاتمة سورة البقرة»[٧].

وعن أُبَيّ بن كَعْب: «أعظَم آية في كتاب الله آية الكرسيّ»[٨].

وعن أبي هُرَيْرَة: «أنّ سيّدة أي القرآن آية الكرسيّ»[٩].

وفي رواية مرسلة: «أفضَل القرآن سورة البقرة، وأعظَم آية فيها آية الكرسيّ»[١٠].

وفي حديث أنَس: «آيةُ الكرسيّ رُبع القرآن»[١١].

ورُوي عن النبيّ صلى الله عليه وآله: «أنّ فاتحة الكتاب وآية الكرسيّ وآيتَين من آل عمران: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ

---

١. في النسخة: القرآن. ٢. الإتقان في علوم القرآن ٤: ١٣٣.

٣. تفسير العياشي ١: ٨٩/١٠٣.

٤. تفسير العياشي ١: ٧٩/١٠٠، والآية من سورة الإسراء: ٤٦/١٧. ٥. في تفسير العياشي: سواد.

٦. تفسير العياشي ١: ٨٦/١٠٢.

٧. علل الشرائع ١: ٣/١٢٨، الخصال: ١/٤٢٥، معاني الأخبار: ١/٥٠.

٨. الاتقان في علوم القرآن ٤: ١٢٧. ٩. الاتقان في علوم القرآن ٤: ١٢٧.

١٠و٩. الاتقان في علوم القرآن ٤: ١٢٧.

إِلَّا هُوَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِنْدَ اللهِ الإِسْلامُ﴾[١] و ﴿قُلِ ٱللَّـهُمَّ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[٢] مُعلّقات، ما بينهنّ وبين الله حِجاب، قلنَ: يا ربّ أتُهبِطُنا إلى أرضك وإلى مَن يَعصيك؟ قال الله عزّ وجلّ: إنّي حلفتُ لا يقرؤكنّ أحَدٌ دُبر كلّ صَلاةٍ إلّا جعَلتُ الجَنّة مَثواه على ما كان منه، وأسكنْتُه في حظيرة القُدس، ونظَرتُ إليه بعَيني كلّ يومٍ سبعين مرّة، وقضيتُ له سبعينَ حاجةً أدناها المَغفِرة، وأعذتُه من كلّ عدوّ وحاسِد، ونصَرتُه عليهم»[٣].

وفي حديث مُعاذبن أنَس: «مَن قرأ أوّل سورة الكَهْف وآخرها كانت له نوراً من قَدَمِهِ إلى رأسِه»[٤].

وفي رواية: من قرأ في ليلةٍ: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ﴾[٥]. الآية، كان له نور من عَدَن إلى مكّة حَشْوُه الملائكة»[٦].

وفي رواية عن النبيّ ﷺ في المُسبّحات يقول: «فيهن آيةٌ خَير من ألف آية»[٧].

قال بعض العلماء: هي قوله تعالى: ﴿هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ والبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَىءٍ عَلِيمٌ﴾[٨].

وفي حديث: «من قرأ حين يصبح ثلاث آيات من آخر سورة الحَشْر وكّل الله به سبعينَ ألفَ مَلك يُصَلّون عليه حتى يُمسي، وإن مات في ذلك اليَوم ماتَ شهيداً، ومن قالها حين يُمسي كان بتلك المَنزِلة»[٩].

وفي حديث: «من قرأ خواتيم الحَشْر في ليلٍ أو نهارٍ فمات في يومه أو ليلته، فقد أوجب الله له الجنّة»[١٠].

أقول: لا ريبَ أنّ فضيلة الآيات بفضيلةِ ما تَضمّنَته من العلوم والمعارف الإلٰهيّة، وعلى هذا فكلّ آيةٍ يكون فيها بيان التّوحيد والصِفات الجَلاليّة والجَماليّة وعِلم المبدأ والمَعاد تكون أفضَل من غيرها، وعظَمة آية الكرسيّ لكَونها أشمَل، وبهذا المِلاك يُمكن إلحاق بعض الآيات التي تُقاربها في المَضمون بها، والله العالم.

---

١. آل عمران: ٣/١٨ و١٩.
٢. آل عمران: ٣/٢٦ و٢٧.
٣. مجمع البيان ٢: ٧٢٤.
٤. الإتقان في علوم القرآن ٤: ١٢٨.
٥. الكهف: ١٨/١١٠.
٦. الإتقان في علوم القرآن ٤: ١٢٩.
٧. الإتقان في علوم القرآن ٤: ١٣٠.
٨. الإتقان في علوم القرآن ٤: ١٣٠، تفسير ابن كثير ٤: ٣٢٤، والآية من سورة الحديد: ٥٧/٣.
٩. الإتقان في علوم القرآن ٤: ١٣٠.
١٠. الإتقان في علوم القرآن ٤: ١٣١.

الطّرفة الثامنة والثلاثون

في أنّ للقرآن العظيم خواصاً وآثاراً دنيوية مضافاً إلى الآثار الأُخروية

مُضافاً إلى أنّ للقرآن العظيم فَضائلَ وآثاراًكثيرةً أُخروية، له خواصّ وآثار دنيويّة.

عن ابن مسعود رضي الله عنه: «عليكم بالشِفاءين: العَسَل، والقرآن»[١].

وعن واثلة بن أسقع: أنّ رجلاً شكا إلى النبي صلى الله عليه وآله وَجَع حَلْقِه. قال: «عليك بقراءة القرآن»[٢].

وعن أبي سعيد الخُدري، قال: جاء رجلٌ إلى النبيّ صلى الله عليه وآله فقال: إنّي اشتكي صَدري قال: «اقرأ القرآن، يقو ل الله تعالى: ﴿وَشِفاءٌ لِما فِي الصُّدُورِ﴾»[٣].

وعن النبيّ صلى الله عليه وآله: «القرآن مَأدُبَة الله، فتعلّموا مِن مأدُبَةِ الله ما استَطعتُم، فانّه النور المبِين، والشفاءُ النافع، تعلّموه فإنّ الله يُشَرّفكم بتَعلُّمِه»[٤].

عن عليّ بن خَلَف، قال: شكا رجلٌ إلى محمّد بن حُمَيد الرّازي الرَّمَدَ، فقال له: أدِمِ النَّظَرَ في المُصْحَف، فإنّه كان بي رَمَدٌ فشَكَوتُ ذلك إلى جرير بن عبدالحميد فقال لي: أدِمِ النَّظَر في المُصْحَف، فإنّه كان بي رَمَدٌ فشَكَوتُ ذلك إلى الأعمَش، فقال لي: أدِمِ النَّظَر في المُصْحَف، فإنّه كان بي رَمَدٌ فشَكوتُ ذلك إلى عبدالله بن مسعود رضي الله عنه فقال لي: أدِمِ النَّظَرَ في المُصْحَف، فإنه كان بي رَمَدٌ، فشكَوتُ ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فقال لي: «أدِمِ النَّظَرَ في المُصْحَف، فإنّه كان بي رَمَدٌ فشَكَوت ذلك إلى جَبْرئيل، فقال لي: أدِمِ النَّظَرَ في المُصْحَف»[٥].

ومرّ في بعض الرّوايات، في فَضائل القرآن «أنّه الشِفاء الأشفى»[٦]، ومُقتَضى إطلاقه أنّه شِفاء لجَميع الأمراض الظاهِريّة والباطنيّة، بل كما أنّه لا يكون أشفى منه في الأمراض القلبيّة، لا يكون شيءٌ أشفىٰ منه في الأمراض الجِسْمانيّة.

عن الزُّهري، قال: قال عليّ بن الحسين عليه السلام: «لو مات من بين المَشْرِق والمَغْرِب لما استَوحَشْتُ بعد أن يكونَ القرآنُ معي»[٧].

---

١. الإتقان في علوم القرآن ٤: ١٥٨.
٢. الإتقان في علوم القرآن ٤: ١٥٨.
٣. الدر المنثور ٤: ٣٦٦ والآية من سورة يونس: ٥٧/١٠.
٤. التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام: ٣١/٦٠.
٥. المسلسلات: ١٠٩.
٦. تقدّم في الطرفة (٢٧) ص٢١٢.
٧. الكافي ٢: ١٣/٤٤٠.

وعن الرّضا عليه السلام عن آبائه، عن أمير المؤمنين عليهم السلام: «ثلاثةٌ يَزِدْنَ في الحِفظ، ويَذْهَبْنَ بالبَلْغَم: قراءة القرآن، والعسَل، واللُّبَان»[١].

وعنه صلوات الله عليه يرفعه إلى النبيّ صلّى الله عليه وآله قال: «اجعَلوا لِبيُوتكم نصيباً من القرآن، فإنّ البيتَ إذا قرئ فيه القرآن يُسّر على أهلِهِ، وكثُر خَيرُه، وكان سُكّانه في زيادةٍ، وإذا لم يُقرأ فيه ضُيّق على أهلِه، وَقلّ خَيرُه، وكان سُكّانه في نُقصان»[٢].

وعن معاوية بن عمّار، عن أبي عبدالله عليه السلام: «مَن قرأ القرآن فهو غنيّ، ولا فَقْرَ بعدَه، وإلّا ما بِه غِنىً»[٣].

وفي روايةٍ ما يقرُب من هذا المَضمون: «مَن أُوتي القرآن فظَنّ أنّ أحداً أُوتي خيراً منه، فقد حقَّر عظيماً، وعظَّم حقيراً»[٤].

أقول: لأنّ القرآن جامعٌ لجميع الخَيرات الدنيويّة والاُخرويّة.

عن ابن عبّاس، قال: إذا فقَدنا عِقالًنا كُنّا نَجِده بالقرآن[٥].

الطّرفة التاسعة والثّلاثون

في أنّ لبعض سور القرآن خواصاً مخصوصة

قد رُويَت خَواصُّ خاصّةٌ لبعض سُوَر القرآن:

عن العالم عليه السلام: «مَن نالَتهُ عِلّةٌ فليقرأ في جيبه أُمّ الكِتاب سَبْع مرّات، فإنْ سكَنَت وإلّا فليقرأها سبعين مرّةً، فإنّها تَسكُن»[٦].

وعن الصادق عليه السلام أنّه دخَل عليه رجلٌ من مَواليه وقد وَعَك، فقال له: «ما لي أراك متغيّر اللّون؟» فقال: جعلِت فِداك، وَعكتُ وَعْكاً شديداً منذ شهر، ثمّ لم تَنْقَلِع الحُمّى عنّي، وقد عالَجتُ بكلّ ما وصَفه لي المترفّعون فلم أنتفع بشيءٍ من ذلك.

فقال له الصادق عليه السلام: «حُلّ أزرارِ قميصِك، وأدخِل رأسَك في قَميصِك، وأذِّن وأقِم وأقرأ سورة

---

١. مكارم الأخلاق: ١٦٥. ٢. عدة الداعي: ٦/٢٨٧. ٣. الكافي ٢: ٨/٤٤٣.
٤. معاني الأخبار: ٢٧٩ «نحوه». ٥. الإتقان في علوم القرآن ٤: ٣٠ «نحوه».
٦. مكارم الأخلاق: ٣٦٣.

الحَمد سَبع مرّات». قال: ففعَلتُ ذلك فكأنّما نشطتُ من عِقال[١].

وفي رواية جابر، عن النبيّ ﷺ: «أنّها شِفاء من كلّ داءٍ إلّا السّام» يعني الموت[٢].

وعن الصادق عليه السلام قال: «كان رسول الله ﷺ إذا كسِل أو أصابته عينٌ أو صُداع بسَط يدَيه فقرأ فاتحة الكتاب والمُعوِّذتَين، ثمّ يمسَح بهما وَجْهَه، فيذهَب عنه ما كان يَجِد»[٣].

وعن سَلَمة بن مُحْرِز، قال: سَمِعتُ أبا جعفر عليه السلام يقول: «من لم تُبرئه سورة الحَمد و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ لن يُبْرئهُ شيءٌ، وكلّ علّةٍ يُبْرئها هاتَان السُّورتان»[٤].

عن معاوية بن عمّار، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «لو قُرِئت الحَمد على ميّتٍ سبعينَ مرّةً ثمّ ردَّت فيه الرّوح ما كان ذلك عَجَباً»[٥].

وعنه عليه السلام: «مَن نالَته عِلّةٌ فليقرأ في جَيْبِه الحَمد سَبع مرّات، فإن ذهبت العلّة وإلّا فليقرأها سبعين مرّة، وأنا الضّامن له العافية»[٦].

وعنه عليه السلام قال: «مَن لم تُبرئه الحَمد لم يبرئه شيء»[٧].

وعن أبي بكر الحَضْرَميّ، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «إذا كانت لك حاجة فاقرأ المَثاني و سورةأخرى، وصلّ رَكْعَتَين، وادعالله». قلت: أصلحَكالله، وما المَثاني؟ قال: «فاتحة الكتاب»[٨].

وعن العالم عليه السلام أنّه قال: «إذا بدت بك علّةٌ تخوّفتَ على نفسِك منها فاقرأ الأنعام، فإنّه لا يَنالُك من تِلك العلّة ما تكرَه»[٩].

وعن سلامة بن عمرو الهمداني، قال: دخَلتُ المدينةَ فأتيتُ أبا عبدالله عليه السلام فقلتُ له: يا بنَ رسول الله، اعتَلَلتُ على أهل بيتي بالحجّ، وأتيتُك مُستَجيراً مستسرّاً من أهل بيتي من عِلّةٍ أصابتني، وهي الداء الخبيثة، قال: «أقِم في جِوار رسول الله ﷺ وفي حَرَمِه وأمْنِه، واكتُب سورة الأنعام بالعسَل واشربه، فإنّه يذهَب عنك»[١٠].

---

١. طب الائمة عليهم السلام: ٥٢، يقال: كأنما أُنشِط من عقال، أي حُلّ، ويقال ذلك للآخذ بسرعة في أيّ عملٍ كان. وللمريض إذا برئ.
٢. تفسير العياشي ١: ٨٢/١٠١.
٣. طب الأئمة عليهم السلام: ٣٩.
٤. طب الأئمة عليهم السلام: ٣٩.
٥. الكافي ٢: ١٦/٤٥٦.
٦. أمالي الطوسي: ٥٥٣/٢٨٤.
٧. تفسير العياشي ١: ٨٣/١٠١.
٨. تفسير العياشي ١: ٨٤/١٠١.
٩. الفقه المنسوب إلى الإمام الرضا عليه السلام: ٣٤٢.
١٠. طب الأئمّة عليهم السلام: ١٠٥.

وعن أبي بصير، عن أبي عبدالله عليه السلام يقول: «من قرأ سورة يوسف في كلّ ليلةٍ بعثَه الله يوم القيامة وجَمالُه على جمالِ يوسُف» إلى أن قال: «وأومِن في الدّنيا أن يكوَن زانياً [أو] فَحّاشاً»[١].

وعن أبي عبدالله عليه السلام: «من أكثَر قراءة سورة الرّعد لم يُصِبْهُ الله بصاعقةٍ أبَداً ولو كان ناصِبياً»[٢].

وعن أبي جعفر عليه السلام قال: «من قرأ سورة النّحل في كلّ شَهرٍ كُفِيَ المَغْرَم في الدّنيا وسَبعين نوعاً من أنواعِ البَلاء، أهوَنها الجُنون والجُذام والبَرَص»[٣].

وعن أبي جعفر عليه السلام قال: «مَن قرأ سورة المائدة في كلّ خميسٍ، لم يُلبِس إيمانَه بظُلم، ولَم يُشرِك به أبداً»[٤].

وعن أبي بَصير، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «من قرأ سورة الأنفال وسورة براءة [في] كلّ شَـهر، لم يدخُله نِفاق [أبداً]، وكان من شيعة أمير المؤمنين عليه السلام»[٥].

وعن أبي عبدالله عليه السلام: «من قرأ سورة يونس في كلّ شَهْرَين أو ثلاثة، لم يُخَف عليه أن يكونَ من الجاهِلين»[٦] الخبر.

وعن أبي عبدالله عليه السلام: «مَن قرأ سورة بني إسرائيل في كلّ ليلة جمعة، لم يَمُت حتّى يُدرِك القـائم عجل الله فرجه فيكون من أصحابه»[٧].

وعن أبي عبدالله عليه السلام: «من قرأ سورة الكهف كلّ ليلة جمعة لم يَمُت إلّا شهيداً»[٨].

وعن أبي عبدالله عليه السلام قال: «مَن أدمَن قراءة سورة مريم، لم يَمُت حتّى يُصيبَ منها ما يُغنيه في نَفسِه ومالِهِ ووَلده»[٩].

وعنه عليه السلام قال: «مَن قرأ سورة الأنبياء حُبّاً لها كان ممن يرافق[١٠] النبيّين أجمعين في جنّات النّعيم، وكان مَهيباً في أعيُن النّاس في الحياة الدّنيا»[١١].

وعنه عليه السلام: «مَن قرأ سورة الحجّ في كلّ ثلاثة أيّام، لم تخرُج سنة حتّى يخرُجَ إلى بيت الله الحَرام»[١٢] الخبر.

وعن ابن مُسكان[١٣]، عنه عليه السلام: «مَن قرأ سورة المؤمنون ختَم الله له بالسّعادة، إذا كان يُدمِن قراءتها

---

١. تفسير العياشي ٢: ٢٠٧٣/٣٣١. ٢. ثواب الأعمال: ١٠٦. ٣. ثواب الأعمال: ١٠٧.
٤. ثواب الأعمال: ١٠٥. ٥و٣. ثواب الأعمال: ١٠٦ ٧و٥. ثواب الأعمال: ١٠٧.
٩. ثواب الأعمال: ١٠٨. ١٠. في ثواب الأعمال: كمن رافق. ١١و٩. ثواب الأعمال: ١٠٨.
١٣. في ثواب الأعمال: الحسين بن أبي العلاء.

في كلّ جُمُعَة»[١] الخبر.

وعنه عليه السلام قال: «حَصِّنوا أموالكم وفُروجَكم بتلاوة سورة النّور، وحَصِّنوا بها نِساءكم، فإنّ مَن أدمَن قراءتها في كلّ يوم أو في كلّ ليلةٍ لم يَزْنِ أحَدٌ من أهلِ بيته أبَداً حتّى يموت»[٢].

وعنه عليه السلام قال: «من قرأ الطواسين الثلاثة في ليلة الجُمُعة، كان من أولياء الله، وفي جِوار الله وكَنَفه، ولم يُصِبهُ في الدّنيا بؤسٌ أبَداً»[٣].

وعنه عليه السلام قال: «مَن قرأ الحمدَين: حَمد سبأ وحَمد فاطِر في ليلة واحدة، لم يَزل في ليلته في حفِظ الله وكلاءته، ومن قرأهما في نَهاره لم يُصِبه في نَهارِه مكروهٌ، وأعطي من خَير الدُّنيا وخَيرِ الآخِرة مالم يَخطُر على قَلبِه ولَم يَبلُغ مُناه»[٤].

وعنه عليه السلام قال: «لكلّ شيء قلبٌ وقلبُ القرآن يسٓ، مَن قرأها قبل منامه، أو في نَهارِه قبل أن يُمسي، كان في نَهارِهِ من المَحفوظين والمَرزوقين حتى يُمسي، ومن قرأها في ليله قبل أن ينام وكَّلَ الله به ألف مَلك يَحْفَظونه من شرّ كلّ شيطان رجيمٍ ومن كلّ آفة»[٥] الخبَر.

وعن أبي جعفر عليه السلام في روايةٍ ذكَر ثَوابَ تِلاوة يسٓ إلى أن قال: «ولم يُصبِه فَقْرٌ ولا غرم ولا نَصَب ولا جُنونٍ ولا جُذام ولا وَسْواس ولا داء يَضُرّه» إلى أن قال: «وكان ممّن يَضمَن الله له السَّعَة في مَعيشَتِه والفرج عند لِقائه»[٦].

وروي «أنّ يسٓ تُقرأ للدُّنيا والآخِرة، وللحِفظ من كلّ آفةٍ وبليّة في النفس والأهل والمال، وإنّه مَن كان مَغلوباً على عَقلِه قُرِىء عليه، أو كتبه وسَقاه، وإن كتبه بماء الزّعفران على إناء من زُجاجٍ فهو خيرٌ فإنّه مبرئ»[٧].

وفي رواية عن النبيّ صلى الله عليه وآله: «يا عليّ، اقرأ يسٓ فإنّ في يسٓ عَشر برَكات: ما قرأها جائع إلّا شَبِع، ولا ظَمآن إلّا رُوي، ولا عارٍ إلّا كُسي، ولا عَزَب إلّا تَزَوّج، ولا خائِف إلّا أمِن، ولا مَريض إلّا بَرِئ، ولا محبوس إلّا أُخرِج، ولا مُسافر إلّا أُعِينَ على سفَر، ولا يقرأون عند ميّتٍ إلّا خفّف الله عنه، ولا قرأها رجلٌ له ضالّة إلّا وجَدها»[٨].

---

١. ثواب الأعمال: ١٠٨. ٢. ثواب الأعمال: ١٠٩. ٣. ثواب الأعمال: ١٠٩.
٤. ثواب الأعمال: ١١٠، مجمع البيان ٨: ٥٨٨. ٥و٣. ثواب الأعمال: ١١١.
٧. مكارم الأخلاق: ٣٦٤. ٨. جامع الأخبار: ٢٤٥/١٢٦، وفيه: إلّا وجد طريقها.

وفي رواية عن النبيّ ﷺ في سورة يسٓ، قال: «وتدفَع عن صاحِبها كـلّ سـوءٍ، وتـقضي له كـلّ حاجةٍ» إلى أن قال: «ومَن كتبَها ثم شَربِها أدخلت جوفَه ألفَ دَواء، وألفَ نُور، وألفَ يَـقين، وألف بَرَكة، وألف رحمة، ونزَعت عنه كلّ غِلٍّ وداء»[١].

وعن عطاء بن أبي رباح[٢]، قال: بلَغني أنّ رسولَ الله ﷺ قال: «مَن قرأ يسٓ في صَدرِ النّهار قُضِيت حَوائجه»[٣].

وفي روايةٍ عاميّة، قال: «ما مِن ميّت يُقرأ عنده سورة (يسٓ) إلّا هَوّن الله عليه»[٤].

وعن أبي قِلابة، قال: مَن قرأ يسٓ غُفِرَ له، ومَن قرأها وهو جائع شَبع، ومَن قرأها وهو ضالّ هُدي، ومَن قرأها وله ضالّة وجَدها، ومن قرأها عند طعام خاف قِلّته بورك فيه، ومن قرأها عند ميّت هُوّن عليه، ومَن قرأها عند امرأةٍ عَسُر عليها الوَضع، سهل عليها[٥]، الخبر.

وعن ابن عبّاس ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن قرأ يسٓ والصّافات يوم الجمعة ثـم سأل اللهَ أعطاهُ سُؤْلَه»[٦].

وعن أبي عبدالله ﵇ قال: «مَن قرأ سورة الصّافّات في كلّ يوم جُمعةٍ، لم يزَل مَحفوظاً من كلّ آفةٍ، مَدفوعاً عنه كلّ بَليّةٍ في الحَياة الدُّنيا، مَرزوقاً في الدّنيا بأوسَع ما يَكـون مـن الرّزق، ولَـم يُـصِبْهُ الله في مَالِه ولا وَلَدِه ولا بَدَنه بسوءٍ من شَيطانٍ رجيم ولا [من] جبّارٍ عنيدٍ»[٧] الخبر.

وفي رواية: «أنّها تُقرأ للشّرف والجَاه في الدّنيا والآخرة»[٨].

وعن أبي عبدالله ﵇ قال: «مَن قرأ سورة الزُّمَـر اسـتحقها[٩] مـن لسـانه، أعـطاه الله شـرَف الدّنـيا والآخرة، وأعزّه بلا مالٍ ولا عَشيرةٍ حتّى يَهابَه مَن يَراه» الخبر[١٠].

عن أبي عبدالله ﵇: «مَن قرأ سورة حمٓ السّجدة، كانت له نوراً يوم القـيامةِ مَـدَّ بـصَرِه وسُـروراً، وعاش في الدّنيا محموداً مَغبوطاً»[١١].

---

١. الدر المنثور ٧: ٣٨. ٢. في النسخة: عطاء بن أبي رياح، انظر: تهذيب الكمال ٢٠ : ٦٩.
٣. سنن الدارمي ٢: ٤٥٧، الدر المنثور ٧: ٣٨. ٤. الدر المنثور ٧: ٣٨. ٥. بحار الأنوار ٩٢: ٦/٢٩٢.
٦. الدر المنثور ٧: ٧٧. ٧. ثواب الأعمال: ١١٢، بحار الأنوار ٩٢: ١/٢٩٦.
٨. مكارم الأخلاق: ٣٦٤، بحار الأنوار ٩٢: ٢/٢٩٦. ٩. في البحار: استخفها.
١٠. ثواب الأعمال: ١١٢، بحار الأنوار ٩٢: ١/٢٩٧. ١١. ثواب الأعمال: ١١٣.

وروي في حمَ الدُخان ما يقرُب من خَواصّ سوره يسٓ[١].

وعن أبي عبدالله عليه السلام قال: «مَن قرأ سورة ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾[٢] لم يُذنِب[٣] أبداً ولم يَدخُله شَكٌ في دِينه [أبداً] ولم يبتليه الله بفَقْرٍ أبداً، ولا خَوفٍ من سلطانٍ أبداً، ولم يزَل مَحْفوظاً من الشكّ والكُفرِ أبَداً حتّى يموت»[٤] الخبر.

وعنه عليه السلام: «حَصِّنوا أموالَكم ونِساءكم وماملكت أيمانُكم من التَّلف بقراءة ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ﴾»[٥] الخبر.

وعنه عليه السلام قال: «مَن أدمَن في فرائضِه ونَوافله قراءة سورة (قٓ) وسَّع الله عليه رزقَه»[٦] الخبر.

وعن الصادق عليه السلام قال: «مَن قرأ سورة ﴿وَٱلذَّارِيَاتِ﴾ في يَومِه أو في ليلته، أصلَح الله له معيشَتَه، وأتاه برزقٍ واسِع»[٧] الخبر.

وعن الباقر عليه السلام: «مَن قرأ سورة ﴿وَٱلطُّورِ﴾ جمَع الله له خيرَ الدُنيا والآخرة»[٨].

وعن أبي عبدالله عليه السلام: «مَن كان يُدمِن قراءة ﴿وَٱلنَّجْمِ﴾ في كلّ يومٍ أو في كلّ ليلةٍ، عاش محموداً بين النّاس»[٩] الخبر.

وعنه عليه السلام: «مَن قرأ في كلّ ليلةِ جُمعةٍ الواقعةَ أحَبَّهُ الله، وأحبَّهُ إلى النّاس، ولم يَرَ في الدُنيا بؤساً أبداً ولا فَقراً ولا فاقةً ولا آفةً من آفاتِ الدُنيا»[١٠] الخبر.

وفي روايةٍ أُخرى: «مَن قَرأ الواقعة في كلّ جُمعةٍ لم يَرَ [في الدُنيا] بُؤساً»[١١] الخبر.

وعن أبي عبدالله عليه السلام قال: «مَن قرأ سورة الحديد والمُجادلة في صلاة فريضة[١٢] لم يُعذِّبه الله حتّى يموتَ أبداً، ولا يرى في نفسه ولا في أهلِه سوءاً أبداً، ولا خَصاصةً في بدَنه»[١٣].

وعن الثُّماليّ، عن عليّ بن الحسين عليهما السلام قال: «مَن قرأ سورةَ المُمتحنَة في فَرائضه ونَوافِله

١. الدر المنثور ٧: ٣٩٧، بحار الأنوار ٩٢: ٣/٣٠٠.
٢. أي سورة محمد صلى الله عليه وآله.
٣. في ثواب الأعمال: يرتب.
٤. ثواب الأعمال: ١١٤، بحار الأنوار ٩٢: ١/٣٠٣.
٥. ثوال الأعمال: ١١٥، بحار الأنوار ٩٢: ١/٣٠٣.
٦. ثواب الأعمال: ١١٥، بحار الأنوار ٩٢: ١/٣٠٤.
٧. ثواب الأعمال: ١١٥، بحار الأنوار ٩٢: ١/٣٠٤.
٨. ثواب الأعمال: ١١٦، بحار الأنوار ٩٢: ١/٣٠٤.
٩. ثواب الأعمال: ١١٦، بحار الأنوار ٩٢: ١/٣٠٥.
١٠. ثواب الأعمال: ١١٧، بحار الأنوار ٩٢: ١/٣٠٧.
١١. الفقه المنسوب إلى الإمام الرضا عليه السلام: ٣٤٣، بحار الأنوار ٩٢: ١/٣٠٧.
١٢. زاد في ثواب الأعمال والبحار: أدمنها.
١٣. ثواب الأعمال: ١١٧، بحار الأنوار ٩٢: ١/٣٠٧.

امتحَن الله قلبَه للايمان، ونوّر له بَصَره، ولا يُصيبه فقرٌ أبداً ولا جُنونٌ في بدَنِه ولا في ولدِه»[١].

وفي رواية أُخرى: «يكون مَحموداً عند النّاس»[٢].

وعن أبي بصير، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «مَن قرأ ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ في المكتوبة قبلَ أن يَنام، لم يزَل في أمانِ الله حتّى يُصبحَ، وفي أمانِه يوم القيامة حتّى يَدخُل الجنّة»[٣].

وعن النبيّ صلى الله عليه وآله في فضائل تلك السورة المُباركة وقراءتها عند النّوم، قال: «ويبعث الله إليه مَلَكاً من الملائكة يبسُط عليه جَناحه ويَحفظُه من كلّ سوءٍ حتّى يستَيقظ»[٤].

وعن الصادق عليه السلام : «مَن قرأ سورة ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ﴾ في فريضةٍ أو نافلةٍ آمنَه الله عزّ وجلّ [من] أن يُصيبَه فَقرٌ أبداً، وأعاذَه الله إذا مات من ضَمَّةِ القَبْر»[٥].

وعن الصادق عليه السلام: «أكثِروا من قراءة الحاقّة، فإنّ قراءتها في الفَرائض والنّوافل من الإيمان بالله ورَسولِه، لأنّها نزَلت في أمير المؤمنين عليه السلام ومعاوية لعنه الله، ولم يُسلَب قارئُها دينَه حتّى يَلقى الله عز وجل»[٦].

وعنه عليه السلام: «مَن أكثَر من قراءة ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ﴾ لم يُصِبه في الحياة الدّنيا شيء من أعيُن الجنّ ولا نَفْثِهم، ولا من سِحْرِهم ولا من كَيْدِهم»[٧] الخبَر.

وعنه عليه السلام في روايةٍ في فضل تِلاوَةِ سورة المُزَّمِّل في العِشاء الآخِرة وفي آخِر الليل، قال: «وأحياه [الله] حياةً طيّبة، وأماتَه مِيتَةً طيّبة»[٨].

وعن الباقر عليه السلام في فَضْل قراءة سورة المُدَّثِّر في الفريضة، قال في جملتِه: «ولا يُدرِكه[٩] شَقاءٌ أبداً إن شاء الله»[١٠].

وعن أبي عبدالله عليه السلام في تلاوة سورة ﴿عَمَّ﴾ في كلّ يوم، قال: «لم تخرُج سنته[١١] حتّى يزورَ البيتَ» وفي تلاوة سورة ﴿وَٱلنَّازِعَاتِ﴾ قال: «لم يَمُت إلّا ريّاناً»[١٢].

---

١. ثواب الأعمال: ١١٨، مكارم الأخلاق: ٣٦٥، بحار الأنوار ٩٢: ٢/٣١٠.
٢. مكارم الأخلاق: ٣٦٥، بحار الأنوار ٩٢: ٢/٣١٠.
٣. ثواب الأعمال: ١١٩، بحار الأنوار ٩٢: ١/٣١٣.
٤. الدر المنثور ٨: ٢٣٣، بحار الأنوار ٩٢: ٤/٣١٦.
٥. ثواب الأعمال: ١١٩، بحار الأنوار ٩٢: ١/٣١٦.
٦. ثواب الأعمال: ١١٩.
٧. ثواب الأعمال: ١٢٠، مكارم الأخلاق: ٣٦٥.
٨. ثواب الأعمال: ١٢٠.
٩. زاد في ثواب الأعمال: في الحياة الدنيا.
١٠. ثواب الأعمال: ١٢٠.
١١. زاد في المصدر: إذا كان يدمنها كل يوم.
١٢. ثواب الأعمال: ١٢١.

وفي رواية أُخرى، قال: «لا يُدرِكه[١] شَقاءٌ أبداً»[٢].

وعنه عليه السلام في قراءة ﴿إِذَا ٱلسَّماءُ ٱنفَطَرَتْ﴾ و﴿إِذَا ٱلسَّماءُ ٱنشَقَّتْ﴾: «من قرأهما وجعلهما نُصْبَ عينه في صلاة الفريضة والنافلة لم يَحجُبه الله من حاجةٍ»[٣].

وفي رواية: «مَن شَقيَ سُمّاً، أو لَدَغَتْهُ ذو حُمَةٍ[٤] من ذَوات السّموم يقرأ على الماء ﴿وَٱلسَّماءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ﴾ ويُسقى فإنّه لا يَضرُّه إن شاء الله»[٥].

وعن أبي عبدالله عليه السلام أنّه أوصىٰ أصحابه وأولياءه: «مَن كان به عِلّة فليأخُذ قُلّةً[٦] جديدة، وليجعَل فيها الماء وليسق الماء بنَفسِه، وليقرأ على الماء ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ﴾ على الترتيل ثلاثينَ مرّةً، ثمّ لِيَشرب من ذلك الماء، وليتوضّأ، وليمسَح به، وكلّما نقص زاد فيه، فإنّه لا يظهر ذلك ثلاثة أيّام إلّا ويُعافيه الله تَعالى من ذلك الدّاء»[٧].

وعن إسماعيل بن سَهْل، قال: كتَبتُ إلى أبي جعفر عليه السلام: إنّي قد لَزِمَني دَينٌ فادِحٌ؟ فكتَب: «أكثِر [من] الاستِغفار، ورَطِّبْ لِسانَك بقراءة ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ﴾»[٨].

وروي أنّه: «مَن أخَذ قَدَحاً وجعَل فيه ماءً وقرأ فيه ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ﴾ خمساً وثلاثينَ مرّةً، ورشّ ذلك الماء على ثَوبِه، لم يزَل في سَعَةٍ حتّى يَبْلى ذلَك الثّوب»[٩].

وفي رواية: «من قرأها حُبِّبَ إلى النّاس، فلو طلَب من رَجُلٍ أن يُخرِج من مالِه بعد قراءتها حين يُقابِلَه لفعَل، ومَن خاف سُلطاناً فقرأها حين ينظُر إلى وَجهِه غلب له، ومَن قرأها [حين] يريد الخصومة أُعطي الظَفَر، ومن يشفع بها إلى الله شفّعه وأعطاه سُؤْلَه»[١٠].

وفي رواية عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «رَحِمَ الله مَن قرأ ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ﴾» إلى أن قال: «لكلّ شيءٍ عَونٌ وعَونُ الضُعَفاء ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ﴾، ولكلّ شيءٍ يُسرٌ ويُسْرُ المُعسِرين ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ﴾، ولكلّ شيءٍ عِصمَةٌ وعِصمَةُ المُؤمنين﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ﴾، ولكلّ شيءٍ هُدىً وهُدى الصالحين ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ﴾»[١١] الخبر.

---

١. زاد في مكارم الأخلاق: في الدنيا.
٢. مكارم الأخلاق: ٣٦٥.
٣. ثواب الأعمال: ١٢١.
٤. الحُمَة: الإبرة التي تضرب بها العقرب والزنبور ونحوهما.
٥. مكارم الأخلاق: ٣٦٥ «نحوه»، بحار الأنوار ٩٢: ٢/٣٢١.
٦. القُلّة: إناء من الفَخّار يشرب منه.
٧. طب الأئمة عليهم السلام: ١٢٣.
٨. الكافي ٥: ٥١/٣١٦.
٩. مكارم الأخلاق: ١٠٢.
١٠. مصباح الكفعمي: ٥٨٧، بحار الأنوار ٩٢: ١٠/٣٣٠.
١١. مصباح الكفعمي: ٥٨٨، بحار الأنوار ٩٢: ١٠/٣٣١.

وعنه صلوات الله عليه في رواية أُخرى: «هي نِعْمَ رفيق المرء، بها يقضى دينه، ويُعظّم دِينه، ويظهر فَلَجه، ويطول عمره، ويحسن حاله»[١] الخبر.

وفي روايةٍ: «أبىٰ الله أن يَسخَط على قارئها ويُسخِطه». قيل: فما معنى يُسخِطه؟ قال: «لا يُسخِطه بمَنعه حاجته». إلى أن قال: «وأبىٰ الله أن ينام قارئُها حتّى يَحُفّه بألف مَلَكٍ يحفَظونه حتّى يُصبح، وبألفِ مَلَكٍ حتّى يُمسي»[٢] الخبر.

وعن أبي عبدالله عليه السلام قال: «لَا تَملّوا [من] قراءة ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ فإنّ مَن كانت قراءته في نوافله، لم يُصِبه الله عزّ وجلّ بزَلْزَلةٍ أبداً، ولم يَمُت بها ولا بصاعقةٍ ولا بآفةٍ من آفاتِ الدّنيا»[٣] الخبر.

وعنه عليه السلام: «من قرأ ﴿وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ﴾ في فَرائضه نَفَتْ عنه الفَقْرَ، وجلَبت عليه الرِزْقَ، وتدفع عنه مِيتَة السّوء»[٤].

ونقل عن خطّ الشّهيد رضوان الله عليه: عن الصادق صلوات الله عليه أنّه قال: «يقرأ في وجه العدوّ سورة الفيل»[٥].

ونُقل عن الراوندي رحمه الله في (أخبار المُعَمّرين) أنّه ذكر بعضُهم أنّ والده كان لا يعيش له ولَد. قال: ثمّ وُلِدتُ له على كِبَره، ففَرِح بي ثمّ مضى ولي سَبعُ سنين، فكفلني عمّي، فدخَل بي يوماً على النبيّ صلى الله عليه وآله وقال له: يارسول الله، إنّ هذا ابنُ أخي، وقد مَضى لسَبيلهِ، فعلّمني عوذةً أُعيذُه بها. فقال: «أين أنتَ عن ذات القَلاقل ﴿قُلْ يَاأَيُّهَا ٱلْكَافِرُونَ﴾، و﴿قُلْ هُوَ ٱللهُ أَحَدٌ﴾، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾».

وفي رواية: ﴿قُلْ أُوحِيَ﴾.

قال المُعَمَّر: وأنا إلى اليوم أتعوّذُ بها، ما اُصِبتُ بوَلدٍ ولا مالٍ، ولا مَرِضتُ، ولا افتقَرتُ. وقد انتهى بيَ السنّ ما ترَون[٦].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «لدغت النبيّ صلى الله عليه وآله عقرَب وهو يصلّي، فلمّا فرَغ. قال: لعن الله العقرَب لا تدَعُ مُصَلّياً ولا غيره، ثمّ دعا بماءٍ وملح وجعَل يمسَح عليها ويقرأ ﴿قُلْ يَاأَيُّهَا ٱلْكَافِرُونَ﴾،

---

١. مصباح الكفعمي: ٥٨٨، بحار الأنوار ٩٢: ١٠/٣٣١.
٢. مصباح الكفعمي: ٥٨٨، بحار الأنوار ٩٢: ١٠/٣٣٢.
٣. ثواب الأعمال: ١٢٤.
٤. ثواب الأعمال: ١٢٦، بحار الأنوار ٩٢: ١/٣٣٧.
٥. بحار الأنوار ٩٢: ٣/٣٣٨.
٦. دعوات الراوندي: ٢١٦/٨٥.

و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾»[١].

وعن جُبَير بن مُطعِم، قال: قال لي رسول الله ﷺ: «أتُحبّ يا جُبَير إذا خرَجت سفراً أن تكون أمثل أصحابك هيئةً وأكثرَهم زاداً؟» فقلت: نعم، بأبي أنت وأمّي قال: «فأقرأ هذه السور الخمس ﴿قُلْ يَاأَيُّهَا ٱلْكَافِرُونَ﴾، و﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ ٱللهِ وَٱلْفَتْحُ﴾، و﴿قُلْ هُوَ ٱللهُ أَحَدٌ﴾، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ وافتَتِح كلّ سورة بـ ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ﴾ واختِم قراءتَك بـ ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ﴾».

قال جُبَير بن مُطعِم: وكنتُ غنيّاً كثيرَ المالِ، فكنتُ أخرُج في سفرٍ فأكونُ من أبذّهم[٢] هيئةً، وأقلّهم زاداً، فما زلتُ منذ علّمنيهنّ رسولُ الله ﷺ وقرأت بهنّ، أكونُ من أحسَنِهم هيئةً، وأكثرَهم زاداً، حتّى أرجِعَ من سَفَري[٣].

وعن الصادق عليه السلام قال: «من قرأ ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ ٱللهِ وَٱلْفَتْحُ﴾ في نافلةٍ أو فريضةٍ، نصَره الله على جميع أعدائه» إلى أن قال «ويتفتّح له في الدّنيا من أسباب الخَير ما لم يتَمنَّ ولم يَخطُر على قلبه»[٤].

وفي روايةٍ أُخرى: «نصَره الله على جميع أعدائه، وكَفاهُ المُهمّ»[٥].

وعن أبي عبدالله عليه السلام قال: «من أوىٰ إلى فِراشِه فقرأ ﴿قُلْ هُوَ ٱللهُ أَحَدٌ﴾ إحدى عشرة مرّة حُفِظ في دارِه، وفي دُوَيراتٍ حَوله».

وعنه عليه السلام قال: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فلا يَدَع [أن يقرأ] في دُبرِ الفَريضة بـ ﴿قُلْ هُوَ ٱللهُ أَحَدٌ﴾ فإنّه من قرأها جمع [الله] له خير الدّنيا والآخرة».

وعنه عليه السلام قال: «مَن مضت له جُمُعة ولم يقرأ فيها بـ﴿قُلْ هُوَ ٱللهُ أَحَدٌ﴾ ثمّ ماتَ مات على دين أبي لَهَب»[٦].

وعن رجل سمع أباالحسن عليه السلام يقول: «من قدَّم ﴿قُلْ هُوَ ٱللهُ أَحَدٌ﴾ بينه وبين جبّارٍ منَعه الله عنه، يقرأها بين يدَيه ومن خَلفِه وعن يَمينِه وعن شماله، فإذا فعل ذلك رزَقه الله خيرَه، ومنعَه شرّه»[٧].

وعن مفضّل بن عمر، قال: قال أبو عبدالله عليه السلام: «يا مفضّل، أحتَجِز من النّاس كلّهم بـ ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ﴾ و﴿قُلْ هُوَ ٱللهُ أَحَدٌ﴾ أقرأها عن يَمينِك وعن شمالك ومن بين يديك ومن خَلفِك

---

١. الدر المنثور ٨: ٦٥٨. ٢. بذَّ يَبَذُّ بَذذاً، وبَذَاذَةً: ساءت حاله، ورثّت هيئته.
٣. الدر المنثور ٨: ٦٥٨، بحار الأنوار ٩٢: ٣٤٢/٧. ٤. ثواب الأعمال: ١٢٧.
٥. الفقه المنسوب إلى الإمام الرضا عليه السلام: ٣٤٤. ٦. ثواب الأعمال: ١٢٨. ٧. ثواب الأعمال: ١٢٩.

ومن فَوقِك ومن تَحتِك، فإذا دخَلتَ على سلطانٍ جائر فاقرأها حين تنظُر إليه ثلاث مرّات، واعقِد بيدك اليُسرى، ثم لا تُفارِقها حتّى تَخرُج من عِنده»[١].

وعنه عليه السلام أنّه قال: «مَن قرأ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ نَفَتْ عنه الفَقرَ، واشتدّت أساسُ دورِه، ونفعَت جيرانَه»[٢].

وعن أبي جعفر عليه السلام: «مَن لم يبرأه سورة الحَمد و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ لم يبرأه شيء، وكلّ علةٍ تبرأها هاتان السورتان»[٣].

وعن النبيّ صلى الله عليه وآله: «مَن قرأ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ﴾ نظر الله إليه ألف نظرة بالآية الأولى، وبالآية الثانية استَجاب الله له ألف دعوةٍ، وبالآية الثالثة أعطاه الله ألفَ مسألةٍ، وبالآية الرابعة قضى الله له ألفَ حاجةٍ، كلّ حاجةٍ خير من الدُنيا والآخرة»[٤].

وعن أمير المؤمنين صلوات الله عليه عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «مَن أراد سَفَراً فأخَذ بعِضادَتَي مَنزِله فقرأ إحدى‌عشرة مرّة ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ كان‌الله‌تعالى له‌حارساً حتّى يرجِع»[٥].

وعن أنس عن النبيّ صلى الله عليه وآله: «من قرأ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ مرّةً بورِك عليه [ومن قرأها مرتين بورك عليه] وعلى أهل بيته، ومن قرأها ثلاثَ مرّاتٍ بورِك عليه وعلى أهلِ بيته وجيرانه»[٦].

وعن النبيّ صلى الله عليه وآله: «من أتى منزِلَه وقرأ ﴿ٱلْحَمْدُ﴾ و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ نفى الله عنه الفَقر، وكثّر خيرُ بيتهِ حتّى يَفيضَ على جيرانه»[٧].

وعن أبي عبدالله عليه السلام قال: «كان سبب [نزول] المُعَوِّذتَين أنّه وَعَك رسول الله صلى الله عليه وآله فنَزل عليه جَبْرَئيل عليه السلام بهاتين السورتين، فعَوَّذه بهما»[٨].

وعن الرضا عليه السلام أنّه رأىٰ مَصروعاً، فدعا له بقَدَحٍ فيه ماء، ثمّ قرأ عليه(الحَمْد) و(المُعَوِّذتَين)و نفَث في القدَح، ثمّ أمر بَصَبِّ الماء على وَجْهِه ورأسِه فأفاقَ، وقال[له]: «لا يعود إلَيك أبَداً»[٩].

الطرفة الأربعون

في أنّ لبعض الآيات خواصاً وآثاراً دنيوية

قد نطقت الروايات ببيان خواصّ وآثارٍ لكثيرٍ من الآيات.

---

١. الكافي ٢: ٢٠/٤٥٧. ٢. المحاسن: ٧٣/٦٢٣. ٣. طب الأئمة عليهم السلام: ٣٩.
٤. جامع الأخبار: ٢٣٣/١٢٣. ٥. الدر المنثور ٨: ٦٧٥. ٦. الدر المنثور ٨: ٦٧٦.
٧. الدر المنثور ٨: ٦٧٧. ٨. تفسير القمي ٢: ٤٥٠. ٩. طب الأئمة عليهم السلام: ١١١.

عن النبيّ ﷺ: «من حَزنه أمرٌ تَعاطاه، فقال: ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ﴾ وهو مُخلِصٌ لله ويُقبِل بقلبه [إليه]، لم يَنفَكّ من إحدى اثنتَين: إمّا بلوغ حاجته في الدُّنيا، وإمّا يعدّ له عند ربّه ويدّخر لديه، وما عند الله خيرٌ وأبقىٰ للمؤمنين»[1].

وعن أمير المؤمنين صلوات الله عليه عن النبيّ ﷺ عن الله عزّ وجلّ: «كلّ [أمر] ذي بالٍ لم يُذكَر فيه ﴿بِسْمِ اللهِ﴾ فهو أبتَر»[2].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «إنّ العَبد إذا أراد أن يقرأ أو يعمل عمَلاً فيقول ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ﴾ فإنّه يُبارَك له فيه»[3].

وعن الصادق عليه السلام في رواية: «ولربّما ترك بعضُ شيعتِنا في افتتاح أمره ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ﴾ فيمتَحِنه الله بمَكروهٍ لينبّهَه على شُكر الله»[4] الخبر.

وروي أنّه سُئل النبيّ ﷺ: هل ياكُل الشيطان مع الانسان؟ قال: «نعم، كلّ مائدةٍ لم يُذكَر ﴿بِسْمِ اللهِ﴾ عليها، يأكُل الشَيطان معهم، ويرفَع الله البركةَ عنها»[5].

وعن أُبَيّ بن كَعْب، قال: كنتُ عند النبيّ ﷺ فجاء أعرابيّ فقال: يا نبيّ الله، إنّ لي أخاً وبه وَجَع قال: «وما وَجَعُه؟» قال: به لَمَم. قال: «فأتني به» فوضعه بين يديه فعوَّذه النبيّ ﷺ بفاتحة الكتاب وأربع آيات من أوّل سورة البقرة، وهاتين الآيتين: ﴿وَإِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ﴾[6] وآية الكُرسيّ، وثلاث آيات من آخِر سورة البقرة، وآية من آل عمران: ﴿شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لَا إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ﴾[7] وآية من الأعراف: ﴿إِنَّ رَبَّكُم اللهُ﴾[8] وآخِر سورة المؤمنون: ﴿فَتَعَالَىٰ اللهُ المَلِكُ الحَقُّ﴾[9] وآية من سورة الجِنّ: ﴿وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا﴾[10] وعَشْر آياتٍ من أوّل الصّافّات، وثلاث آياتٍ من آخر سورة الحَشْر، و﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾ و(المُعَوِّذَتَين) فقام الرجلُ كأنّه لم يَشْكُ قَطّ[11].

وعن ابن مسعود رضي الله عنه موقوفاً: «من قرأ أربع آياتٍ من أوّل سورة البقرة، وآية الكرسي، وآيتين بعد آية الكرسيّ، وثلاثاً من آخر سورة البقرة، لم يَقْرَبْهُ ولا أهلَه يَومئذٍ شَيطانٌ ولا شيءٌ يكرَهُه، ولا يُقرَأْنَ

١. التوحيد: ٥/٢٣٢. ٢. التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام: ٧/٢٥.
٣. التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام: ٧/٢٥، بحار الأنوار ٩٢: ٢٤٢. ٤. التوحيد: ٥/٢٣١.
٥. جامع الأخبار: ٢٢٠/١٢٠. ٦. البقرة: ١٦٣/٢. ٧. آل عمران: ١٨/٣.
٨. الأعراف: ٥٤/٧. ٩. المؤمنون: ١١٦/٢٣. ١٠. الجن: ٣/٧٢.
١١. الإتقان في علوم القرآن ٤: ١٥٩.

على مَجنونٍ إلّا آفَاق»[١].

وعنه ﷺ قال: قال رجلٌ: يا رسول الله، عَلّمني شيئاً ينفَعُني الله به. قال: «اقرأ آيةَ الكرسيّ، فإنّه ينفعك[٢] وذُرّيّتك، ويحفظ دارَك، حتّى الدُّوَيرات حول دارِك»[٣].

وروي أنّه «مَن قرأ عشر آياتٍ من البقرة عند مَنامِه لم يَنْسَ القرآن، أربع من أوّلها، وآية الكرسيّ وآيتان بعدها، وثلاث من آخرها»[٤].

وعن الباقر عليه السلام: «مَن قرأ آية الكرسيّ مرّةً، صَرف [الله] عنه ألفَ مَكروهٍ من مكروه الدُّنيا، وألف مكروهٍ من مكروهِ الآخرة، أيسَر مكروه الدُّنيا الفقْر، وأيسر مكروه الآخرة عَذاب القَبْر»[٥].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «قال رسول الله ﷺ: مَن قرأ أربع آيات من أوّل البقرة، وآية الكرسيّ، وآيتَين بعدها، وثلاث آيات من آخِرها، لم يَرَ في نفسِه [وأهله] ومالِه شيئاً يكرَهه، ولا يَقْرَبهُ شيطان ولا ينسىٰ القرآن»[٦].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «لِيَقرأ أحدُكم إذا خرَج من بيته الآيات من [آخر] آل عمران، وآية الكرسيّ، و﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ﴾، وامّ الكِتاب، فإنّ فيها قَضاء حوائج الدُّنيا والآخرة»[٧].

وعن الرضا عليه السلام يقول: «مَن قرأ آية الكرسيّ عند مَنامه لم يَخَف الفَالِج، ومن قرأ دبر كلّ صلاة لم يَضُرّه ذو حُمَة»[٨] أي ذو سَمٍّ.

وفي حديث، قال النبيّ ﷺ: «يا عليّ، من كان في بَطنِه ماء أصفَر فكتَب آية الكُرسيّ، وشَرِب ذلك الماء، يبرأ بإذن الله»[٩].

وعن الصادق عليه السلام في روايةٍ: «إذا عاينت الذي تَخافه، فاقرأ آيةَ الكرسيّ»[١٠].

وعنه عليه السلام قال: «في سَمْكِ[١١] البيت إذا رُفِع فوق ثمانية أذرُع صار مسكوناً، فإذا زاد على ثمانية أذرُع فليكتُب على رأس الثمانية أذرُع آية الكرسي»[١٢].

وعن أبي جعفر عليه السلام: «أنّ العَفاريت من أولاد الأبالِسَة تتخَلّل وتدخُل بين مَحامِل المؤمنين، فتَنَفّر

---

١. الإتقان في علوم القرآن ٤: ١٦٠.
٢. في الإتقان: يحفظك.
٣. الإتقان في علوم القرآن ٤: ١٦٠.
٤. الإتقان في علوم القرآن ٤: ١٦١.
٥. أمالي الصدوق: ١٥٥/١٥٨.
٦. تفسير العياشي ١: ١٠٤/١٠٨.
٧. الخصال: ١٠/٦٢٣.
٨. ثواب الأعمال: ١٠٥.
٩. دعوات الراوندي: ٤٤٣/١٦٠.
١٠. المحاسن: ١١/٦٠٩.
١١. السَّمك: السقف.
١٢. المحاسن: ١١/٦٠٩.

عليهم إبِلَهُم، فتَعاهَدوا ذلك بآية الكرسيّ»[١].

ونقل من خطّ الشهيد رضوان الله عليه رواية عن الحسن عليه السلام: «أنا ضامِنٌ لِمَن قرأ عشرين آية أنْ يَعصِمَه الله من كل سلطانٍ ظالم، ومن كلّ شيطانٍ مارِد، ومن كلّ لِصٍّ عادٍ، ومن كلّ سَبُعٍ ضارٍ، وهي: آية الكرسيّ، وثلاث آيات من الأعراف: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ﴾ إلى ﴿الْمُحْسِنِينَ﴾[٢] وعشرٌ من أوّل الصّافّات، وثلاث من الرّحمٰن: ﴿يَا مَعْشَرَ الجِنِّ والإِنْسِ﴾ إلى ﴿تَنْتَصِرَانِ﴾[٣] وثلاثٌ من آخِر الحَشْر: ﴿هُوَ اللهُ الَّذِى﴾[٤] إلى آخِرها»[٥].

وفي رواية: «و ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ العِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ * وَسَلامٌ عَلَىٰ المُرْسَلِينَ * وَالحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ﴾»[٦].

وأخرج ابن السّني عن فاطمة صلوات الله عليها: «أنّ رسولَ الله صلى الله عليه وآله لمّا دنا ولادها أمر أُمّ سَلَمة وَزَيْنب بنت جَحْش أن تأتياها فتقرأ عندها آية الكرسيّ ﴿وإِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ﴾[٧] الآية، ويُعَوِّذاها بالمُعَوِّذَتَين»[٨].

وعن أحدهما عليهما السلام قال: «أيّما دابّة استَصعب على صاحبها من لِجامٍ ونِفارٍ فليقرأ في أُذُنِها أو عليها: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِى السَّمٰواتِ وَالأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَإِلَيْهِ تُرجَعُون﴾»[٩].

وروي أنّ زينَ العابدين صلوات الله عليه مرّ برجلٍ وهو قاعد على باب رَجُلٍ فقال له: «ما يُقعِدُك على باب هذا الرّجل المُترَفِ الجبّار؟» فقال: البَلاء. فقال: «قُم، فأرشِدُك إلى بابٍ خير من بابه، وإلى ربٍّ خير لك منه» فأخذ بيده حتّى انتهى إلى المسجد، مسجد النبيّ صلى الله عليه وآله [ثم] قال: «استقبِل القِبلَة وصلّ ركعَتَين، ثمّ ارفَع يدَيك إلى الله عزّ وجلّ فأثنِ عليه، وصَلِّ على رَسوله صلى الله عليه وآله ثم ادعُ بآخِر الحَشْر، وستّ آياتٍ من أوّل الحَديد، وبالآيتَين في آلِ عِمران، ثم سَلِ الله فإنّك لا تسأل [شيئاً] إلّا أعطاك»[١٠].

أقول: الظاهر أنّ المُراد بالآيتَين في آل عِمران، آية ﴿شَهِدَ اللهُ﴾[١١] وآية ﴿قُلِ اللّهُمَّ﴾[١٢].

---

١. المحاسن: ١٥٩/٣٨٠.
٢. الأعراف: ٧/٥٤ ـ ٥٦.
٣. الرحمن: ٥٥/٣٣ـ٣٥.
٤. الحشر: ٥٩/٢٢.
٥. بحار الأنوار ٩٢: ٢٧١/٢١.
٦. دعوات الراوندي: ١٣٢/٣٢٨، بحار الأنوار ٩٢: ٢٧١/٢٢، والآيات من سورة الصافات: ٣٧/١٨٠ ـ ١٨٢.
٧. الأعراف: ٧/٥٤.
٨. الإتقان في علوم القرآن ٤: ١٦١.
٩. الكافي ٦: ٥٣٩/١٤، والآية من سورة آل عمران: ٣/٨٣.
١٠. دعوات الراوندي: ٥٥/١٣٨.
١١. آل عمران: ٣/١٨.
١٢. آل عمران: ٣/٢٦.

وعن النبيّ ﷺ: «يا عليّ، أمانٌ لأمّتي من السَّرَق ﴿قُلِ ٱدْعُوا اللهَ أَوِ ٱدْعُوا الرَّحْمـٰنَ﴾[1] إلى آخِرِها و﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾[2] إلى آخِرِها»[3].

وفي رواية: «مَن قرأ هاتَين الآيتَين حين يأخُذَ مضجعه، لم يَزَل في حِفْظِ الله مِن كلّ شَيطانٍ مريدٍ وجَبّارٍ عنيدٍ إلى أن يُصبح»[4].

وعن أبي عبدالله عليه السلام: «إذا دخَلتَ مَدخَلاً تَخافه، فاقرأ هذه الآية: ﴿رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلطاناً نَصِيراً﴾»[5].

وعن الرّضا صلوات الله عليه قال: دخَل أبو المُنذِر هشام بن السائب الكلبي على أبي عبدالله عليه السلام فقال: «أنت الذي تُفسّر القرآن؟» قال: نعم.

قال: «أخبرني عن قول الله تعالى لنبيّه ﷺ ﴿وإِذَا قَرَأْتَ القُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤمِنُونَ بالآخِرَةِ حِجَاباً مَسْتُوراً﴾[6] ما ذلك القرآن الذي كان إذا قرأه رسول الله ﷺ حُجِب عنهم؟» قال: لا أدري.

قال: «فكيف قلت إنّك تُفَسِّر القرآن!» قال: يا بن رسول الله، إن رأيتَ أن تُنعِمَ عليّ، وتُعَلِّمنيهنّ؟

قال عليه السلام: «آية في الكهف، وآية في النَّحل، وآية في الجاثية، وهي: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَ جَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾[7] وفي النَّحل: ﴿أُولَـٰئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ اللهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَـٰئِكَ هُمُ الغَافِلُونَ﴾[8] وفي الكهف: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلىٰ الهُدَىٰ فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذاً أَبَداً﴾»[9].

قال الكِسْرَوِيّ: فعلَّمتُها رَجُلاً من أهلِ همدان وكانت الدَّيلَمُ أسَرَتْهُ، فمكَث فيهم عَشْر سِنين، ثمّ ذكَر الثلاث آيات. قال: فجعَلتُ أمُرُّ على مَحالِّهم وعلى مَراصِدهم فلا يَرَوْني، ولا يَقولون شيئاً حتى خرَجتُ إلى أرضِ الإسلام.

قال أبو المُنذِر: وعلَّمتُها قوماً خرَجوا في سفينةٍ من الكوفةِ الى بغداد، وخرَج معهم سَبعُ سفُن

---

١. الإسراء: ١١٠/١٧. ٢. التوبة: ١٢٨/٩. ٣. دعوات الراوندي: ٤٤٣/١٦٠.
٤. عدة الداعي: ٣/٢٩٣. ٥. المحاسن: ١١٨/٣٦٧، والآية من سورة الإسراء: ٨٠/١٧.
٦. الإسراء: ٤٥/١٧. ٧. الجاثية: ٢٣/٤٥. ٨. النحل: ١٠٨/١٦. ٩. الكهف: ٥٧/١٨.

فقطع على ستٍّ وَسَلِمَتِ السفينة التي قرئ فيها هذه الآيات[١].

وعن الحسين بن عليّ عليه السلام عن النبيّ صلى الله عليه وآله ـ في حديثٍ ـ : «أمانٌ لأمّتي من الغرَق[إذا ركبوا] أن يقرءوا ﴿بِسْمِ اللهِ مَجْراهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[٢] و﴿مَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ الآية»[٣].

وعن اللَّيث، قال: بلَغني أنّ هؤلاء الآيات شِفاءٌ من السِّحْر، تُقرَأ على إناءٍ فيه ماء ثُم يُصَبّ على رأسِ المَسْحور الآية التي في سورة يونس: ﴿فلَمَّا أَلْقَوا قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ * وَيُحِقُّ اللهُ ٱلحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾[٤] وقوله: ﴿فَوَقَعَ الحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلونَ﴾[٥] إلى [آخر] أربع آيات. وقوله: ﴿إِنَّما صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُـفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾[٦].

وعن أبي هُرَيْرَة، عن النبيّ صلى الله عليه وآله: «ما لَزِمني[٧] أمرٌ إلّا تمثَّل لي جَبْرَئيل، فقال: يا محمّد، قل: تَوَكَّلْتُ عَلىٰ الحَيّ الَّذِي لَا يَمُوتُ ﴿وقُل الحَمْدُ للهِ الَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِى المُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيراً﴾»[٨].

وعن ابن عبّاس رضي الله عنه: هذه الآية أمانٌ من السَّرَق: ﴿قُلِ ٱدْعُوا ٱللهَ أو ٱدْعُوا الرَّحمـٰنَ أَيّاً مَا تَدْعُوا فَلَهُ ٱلأَسْماءُ الحُسْنىٰ وَلَا تَجْهرْ بِصَلاَتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذٰلِكَ سَبِيلاً * وَقُلِ ٱلْحَمْدُ للهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيْكٌ فِى ٱلمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيراً﴾[٩].

وعن زِرّ بن حُبَيْش [قال]: مَن قرأ آخِر سورة الكهف لِساعةٍ يُريدُ أن يقومَها من اللّيل قامَها: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَـٰهُكُمْ إِلـٰهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّه أَحَداً﴾[١٠].

قال عبدة: فجرَّبناه فوَجدناه كذلك[١١].

وعن سعد بن أبي وقّاص: «دعوَةُ ذي النون إذ دعا بها في بَطْن الحُوت: ﴿لَا إِلَـٰهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ

---

١. عدة الداعي: ٩/٢٩٥. ٢. هود: ٤١/١١.
٣. الإتقان في علوم القرآن ٤: ١٦١، والآية من سورة الأنعام: ٩١/٦. ٤. يونس: ١٠/ ٨١و٨٢.
٥. الأعراف: ١١٨/٧. ٦. الإتقان في علوم القرآن ٤: ١٦٢، والآية من سورة طه: ٦٩/٢٠.
٧. في الإتقان: كربني. ٨. الإتقان في علوم القرآن ٤: ١٦٢، والآية من سورة الاسراء: ١١١/١٧.
٩. الإتقان في علوم القرآن ٤: ١٦٢، والآيتان من سورة الإسراء: ١١٠/١٧ و١١١. ١٠. الكهف: ١١٠/١٨.
١١. سنن الدارمي ٢: ٤٥٤، الإتقان في علوم القرآن ٤: ١٦٢.

إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾[١] لَم يَدْعُ بها رَجلٌ مُسلِمٌ في شيءٍ قَطّ الّا استَجابَ الله له»[٢].

وفي رواية عن النبيّ ﷺ: «إنّي لأعلَم كلمةً لا يقولُها مكروبٌ إلاّ فرّجَ عنه، كلمة أخي يونس: ﴿فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَـٰهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾»[٣].

وعن ابن مسعود ﵁ أنّه قرأ في اُذُنِ مُبْتلىً فأفاق. فقال رسول الله ﷺ: «ما قرأتَ في اُذُنه؟» قال: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنا لَا تُرْجَعونَ * فَتَعَالَىٰ اللهُ المَلِكُ الحَقُّ لَا إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ العَرْشِ الكَرِيمِ * وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَـٰهاً آخَرَ لا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الكَافِرُونَ * وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾[٤]. فقال: «لو أنّ رجلاً مؤمناً قرأ بها على جَبَلٍ لَزالَ»[٥].

عن الصّادق ﵇: «من دخَل على سُلطانٍ يخافُه، فقرأ عندما يُقابله:(كهيعص) ويضُمّ يدَه اليُمنى، كلّما قرأ حَرْفاً ضَمَّ إصبَعاً، ثمّ يقرأ (حمعسق) ويَضمّ أصابع يدَه اليُسرى كذلك، ثمّ يقرأ: ﴿وَعَنَتِ الوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْماً﴾[٦] ويَفتحها في وجهِهِ كُفيَ شرّه»[٧].

و عن النبيّ ﷺ: «مَن اشتكى ضِرسَه فَلْيَضَع إصبَعه عليه وليقرأ هاتين الآيتين سبع مرّات: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلنا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾[٨] و ﴿هُوَالَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأبْصارَ والأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَاتَشكُرُونَ﴾[٩] فإنّه يبرأ بإذن الله»[١٠].

وعن ابن عبّاس موقوفاً في المرأة تَعسُر عليها ولادَتُها، قال: «يُكتَب في قِرطاسٍ [ثم تسقى]: بسم الله الذي لا إلـه إلّا هو الحَليم الكريم، سُبحانَ الله وتعالى ربّ العَرْشِ العَظيم، الحَمْدُ للهِ ربّ العالمين ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَو ضُحَاهَا﴾[١١] ﴿كأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ ما يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا القَوْمُ الفَاسِقُونَ﴾[١٢]

وعنه ﵁: إذا وجَدتَ في نفسِك شيئاً ـ يعني الوَسْوَسَة ـ فقل: ﴿هُوَ الأَوَّلُ والآخِرُ وَالظَّاهِرُ

---

١. الأنبياء: ٨٧/٢١. ٢. الإتقان في علوم القرآن ٤: ١٦٣.

٣. الإتقان في علوم القرآن ٤: ١٦٣، والآية من سورة الأنبياء: ٨٧/٢١.

٤. المؤمنون: ١١٥/٢٣ ـ ١١٨. ٥. الإتقان في علوم القرآن ٤: ١٦٣.

٦. طه: ١١١/٢٠. ٧. عدة الداعي: ٧/٢٩٤. ٨. الأنعام: ٩٨/٦. ٩. الملك: ٢٣/٦٧.

١٠. مكارم الأخلاق: ٦ ـ ٤ «نحوه». ١١. النازعات: ٤٦/٧٩.

١٢. الإتقان في علوم القرآن ٤: ١٦٤، والآية من سورة الاحقاف: ٣٥/٤٦.

وَالبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شىءٍ عَلِيمٌ﴾[١].

وعن أنَس بن مالك: ما أنعَم الله على عَبدٍ نِعمةً في أهلٍ ولا مالٍ ولا ولدٍ، فيقول: ﴿مَا شاءَ اللهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ﴾[٢] فيرى فيه آفةً دونَ المَوت[٣].

ولا يذهب عليك أنّ تأثير القرآن العظيم وسُوَرِه وآياته في الآثار والخواصّ المَرويّة، ليس على نَحوِ العلّيّة التامّة بحيث لا يُمكن تَخلُّفها عنها، بل هو على نحو الاقتِضاء الذي يعتَبر فيه وجود الشَرائط وعدم المَوانع، كالدُّعاء الذي اتّفقَت الآيات والروايات بل العقل على أنّه مُؤثّر في قَضاء الحَوائج وحصول المَطلوب، وكالأدوية المُجرّبة المَسطورة في كتُب الطِبّ، وكغالِب مؤثّرات العالَم، ولا شُبهَة في أنّ من شرائطه الإيمان بالله وبرسوله، واليقين بأنّ القرآن نازِلٌ من قِبَل الله، وأنّه كلامُه.

ومن المَوانع عن التأثير القَضاء الحَتميّ وعِصيان العَبْد وغير ذلك، فلا ينبغي للمؤمن أن يضعف اعتقاده بتلك التأثيرات عند مشاهدته التَخلّف، والله العاصِم.

خاتمة

[في مصادر هذا التفسير]

كلّ ما أودَعتُه من الرّوايات في كتابي هذا طرائفُه وتَفسيره فمأخوذٌ من الكتُب التي في غاية الاشتِهار، كالشمسِ في رائعة[٤] النَّهار.

[١] منها: كتاب (جوامع الجامع) في التفسير، للشّيخ الأجَل البارِع المؤتمَن أمينِ الإسلام، الفَضْل بن الحسَن الطَّبْرِسيّ.

[٢] ومنها: كتاب (بحار الأنوار) للعلامة المُتبَحِّر المَولى محمّد المدعوّ بالباقِر المَجْلسيّ.

[٣] ومنها: (حواشي على كتاب أسرار التّنزيل)[٥] للشّيخ الجليل الكبير، والفاضلِ القليلِ النّظير، المؤيّد المُسَدَّد، محمّد بن حسين بن عبدالصَّمد، المدعوّ ببهاء الدين.

[٤] ومنها: كتاب (الصافي) للمحدِّث المُتقِن، المَولى محمّد، المدعوّ بالمُحسِن، المعروف بالفَيض، والمحدّث الكاشاني قدس الله أسرارهم وأدام في العالمين آثارهم.

---

١. الإتقان في علوم القرآن ٤: ١٦٤، والآية من سورة الحديد: ٥٧/٣.
٢. الكهف: ١٨/٣٩.
٣. الإتقان في علوم القرآن ٤: ١٦٢.
٤. في النسخة: رابعة.
٥. يريد أنوار التنزيل وأسرار التأويل (تفسير البيضاوي) وسيأتي لا حقاً ضمن مصادر المؤلف.

[٥] ومنها: كتاب (مفاتيح الغيب) للبحر القَمْقام المعروف بين العامّة بالإمام محمّد الرازي، الملّقب بفَخْر الدِّين.

[٦] ومنها: كتاب (الإتقان) للقاضي جَلال الدِّين السيّوطي.

[٧] ومنها: كتاب (التفسير) للعلامة أبي السعود.

[٨] ومنها: كتاب (أسرار التنزيل) للقاضي ناصر الدّين أبي الخَير عبدالله بن عمر بن محمّد بن عليّ الفارسيّ البَيضاوي.

[٩] ومنها: كتاب (روح البيان) للشيخ إسماعيل المَدعوّ بحقّي أفَنْدي.

[١٠] ومنها: كتاب (تفصيل وسائل الشيعة) للشيخ الأمجَد، والمحدّث المعتمَد، محمّد بن الحسَن بن عليّ بن محمّد، الحُرّ العامليّ رضوان الله عليه.

في تفسير الاستعاذة

فها أنا أشرَع في المَقصود، مستمداً من الله الوَدود، مُبتدءاً بالاستِعاذة وتَفسيرها، امتِثالاً لأمـر الله الأكيد عند الشروع في كلّ أمرٍ، سيّما القرآن المَجيد.

فأقولُ وأنا العبدُ الأثيم محمّد بن المحقّق النِحرير عبدالرَّحيم النَّهاوَنْدي عاملهُما الله بِلُطْفهِ العَميـم، وإحسانه القَديم:

أعوذُ باللهِ السّميعِ العليم من الشّيطانِ الرّجيم

عن أمير المؤمنين صلوات الله عليه: «(أعوذُ بالله) أمتنعُ بالله (السّميع) لمـقالِ الأخـيار والأشـرار، ولكلّ المَسموعات من الإعلان والإسرار (العَليم) بأفعالِ الأبرار والفُجّار، وبكلّ شيءٍ ممّا كان ومـا يكون وما لا يكون أن لو كانَ كيفَ كانَ يكون (من الشّيطان الرجيم) البعيد من كلّ خَيرٍ المَـرجـوم باللّعن والمَطرود من بِقاع الخَير»[1]

أقول: الظاهر أنّ تفسير كلمة (أعوذ) بأمتَنِع تفسيرٌ باللازم، حيث إنّ صيغة أعوذُ مشتقّةٌ من العَوذ، وله في اللُّغةِ مَعْنَيان: الالتِجاء، والالتِصاق، وعليه يكون المعنى: ألتَجِىء بالله، وألوذُ بحِصْنِه وعِصْمَته، أو ألتَصِق بفَضْلِ الله ورَحمتِه، فيحَصُل بهذا الالتِجاء والالتِـصاق التّـحفظ والامـتِناع مـن وسَـاوس الشيطان المانع من كلّ خيرٍ، المَطرود من بِقاعه ومَحالّه؛ من الجَنّة، ومقام القُـرب، وسـاحة الفَـضل والرحمة.وذكر اسم الجَلالة هنا لاقتِضاء المَقام إظهار عظَمة المُستَعاذ به وقُدرَته وسَطوته، وتوَصيفه باسم السّميع العليم بلِحاظ أنّ للمُستَعيذِ إلتجاء قوليّ وقلبيّ، إذ حقيقة الاستِعاذة والالتِجاء لا تَحصُل للعَبد إلّا بعد أن يَرى العدوّ ـ وهو الشّيطان ـ قوياً قادِراً على إضرارِه، ونَفسُه في غاية العَجْزِ عن دَفعِ شَرِّه، ويعلم أنّ الله قادِرٌ على دَفعِ كلّ شرٍّ، مانِعٌ من كلّ ضُرٍّ، مُجيرٌ لِمَن استَجار به، مأوىً لِمَن التجأ اليه، مُجيبٌ لِمَن دَعاه، رحيمٌ بِمَن نَاداه، كريمٌ لِمَن قصَده وسأله، جوادٌ لِمَن رَجاه وأمّله، عند ذلك

---

1. التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام: ٣/١٦.

يحصُل له اليَقين بأنّه لا حيلةَ له في التخلّص من كَيدِ الشّيطان وحِيَلِه، والنَّجاة من أيدي ذلك العدوّ وحَبائله، مع شدّة بَطْشِه وكَثْرَة خَيْلِه ورَجِلِه، إلّا التّحصّن بحِصن الله الحَصين والاستِجارة بـرُكـنِه الرُّكين، فعند حصول الالتِجاء بجَنابه، يتَضرّع إليه بلِسانه، ويقول: يا إلٰهيَ السَّميع لمَقالي، العليم بضُرّي وعَجْزي واستئصالي وضَعف قوّتي وسوء حالي، احفَظْني وامنَعْني من بأسِ الشّيطان وضُرّه، واحرُسْني من كَيدِه وشَرّه، فعند ذلك تَشمَلُه العِنايةُ فيحصُل له الامتِناع من وَساوِسِه، والسَّلامةُ من دَسائِسه.

ثمّ اعلَم أنّ للشّيطان في القرآنِ أسماء مشؤومةً، وألقاباً مذمومةً، وإنّما وُصِف هنا بالرَّجيم لكَـونِه أجمَع لمَساوئه، فإنّه جامِعٌ لجميع ما يقَع عليه من العقوبات، لأنّ المطروديّة من مَقام الرّحـمة مـن أشدّها، ومُستتْبِعٌ لجميع الدَّرَكات.

وأمّا عداوتُه للإنسان، فمَع أنّها معلومةٌ بدلالة كثيرٍ من الآيات، والمُتواتِـر مـن الرّوايـات، يـظهَر تَفصيلُها مما روي عن ابن عبّاس، قال: خرَج النبي ﷺ ذات يومٍ من المَسجِد، فإذا هو بإبليس، فقال له النبيّ ﷺ: «ما الذي جاء بك إلى باب مَسجدي؟» قال: يا محمّد، جاء بي الله. قال: «فَلِمَ ذا؟» قال: لتَسألني عمّا شِئت.

فقال ابنُ عبّاس رضي الله عنه: [فكان] أوّل شيء سأله الصلاة. فقال [له]: «يا مَلعون لِـمَ تـمنَع أُمّـتي عـن الصّلاة بالجَماعة؟» قال: يا محمّد، إذا خرَجت أُمّتُك إلى الصلوات تأخذُني الحُمّىٰ الحارّة، فلا تندَفِع حتّى يتَفرّقوا.

قال ﷺ: «لِمَ تمنَع أُمّتي عن الدُّعاء؟» قال: عند دُعائهم يأخذُني الصَّمَم والعَمى، فلا يندَفع حتّى يتفرّقوا.

قال ﷺ: «لِمَ تمنَع أُمّتى عن القرآن؟» قال عند قراءتهم أذوبُ كالرَّصاص.

قال ﷺ: «لِمَ تمنَع أُمّتي عن الجهادّ» قال: إذا خرَجوا إلى الجهاد يوضع عـلى قـدمي قَـيدٌ حَـتى يَرجِعوا، وإذا خرَجوا إلى الحَجّ أُسَلسَل وأغلَل حتّى يرجِعوا، وإذا هَمّوا بالصَّدَقةِ توضع على رأسي المَناشير فتَنْشُرني كما يُنشر الخشَب[1].

أقول: الظاهر أنّ الحُمّى والصَّمم، والعَمى، والذَّوب، والقَيد، والتَّغليل، والتّنشير، جميعها كـنايات

---

١. تفسير روح البيان ١: ٥.

عن حالات سيّئة وآلام شديدة تعرِض للشّيطان عند اشتِغال العبد بهذه العبادات لكمال اشمئزازه عنها.

ونُقل أنّه مَن استَعاذ بالله على وجه الحقيقة وعن صميم القلب، جعَل الله بينه وبين الشّيطان ثلاثمائة حِجاب، كلّ حِجابٍ كما بين السماء والأرض[1].

وقيل: إنّ التَعوُّذ بالله رجوعٌ من الخَلقِ إلى الخالِق، ومن الحاجَةِ التامّة التي تكون للنّفس إلى الغِنىٰ التامّ بالحَقّ، ومن العَجْزِ إلى القُدرَة في كلّ الخَيرات، واكتِساب البَركات، ودَفع جميع الشّرور والآفات، ففيه سرٌّ قوله: ﴿فَفِرُّوا إلى اللهِ﴾[2].

ومن الواضِح أنّ لِكثْرةِ فَوائد الاستِعاذة كَثُرت الرّوايات في التّرغيب إليها عند الشّروع في كلّ أمرٍ من الأمور الدينيّة والأعمال الخَيريّة التي من أهمّها تلاوة القرآن العظيم والكتاب الكريم.

قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ القُرْآنَ فاسْتَعِذْ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾[3] فإنّ التأدّب بأدبِ الله مؤدٍّ إلى الفَلاح الدائم والسَعادة اللازمة، ثمّ إنّه بعد ما التَجأ العبدُ إلى الله تعالى بالجَنان واللِسان، وتمكّن في حِصنِ الرّحمـٰن، وامتنَع من مكائد الشّيطان، وحصَل له الأمان، ينبغي أن يستمدّ من ربّه، ويقتَبِس نوراً لقلبِه، حتّى يَقوى على العَمل، ويفوزَ بما رَجاه وأمّل من غير مَلَلٍ ولا فُتورٍ ولا كسل، بل بحضور القلب والانبِساط، وكمال الشَوق والنَشاط، وطمأنينة النَفس وانشراح الصَدر، وليس ذلك إلّا بذكر الله ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللهِ أَلَا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ القُلُوبُ﴾[4] فإنّ بالذِكر بعد الاستِعاذة تحصُل نورانيّة معنويّة للرّوح، كما أنّ به تحصُل طَهارةٌ ظاهِريّة جسمانيّة للحَيوان المُذَكّىٰ، وترتّب الذِكر على الاستِعاذة من جهة تأخّر رُتبَة التَحْليَة على التّخلية، والإقبال على الله على الانقِطاع عمّا سِواه، إذ إنّه ليس للمؤمن حالٌ يكون فيه أقرَب إلى الله من حالٍ يكون ذاكِراً.

---

١. تفسير روح البيان ١: ٥.

٢. تفسير روح البيان ١: ٥، والآية من سورة الذاريات: ٥٠/٥١.

٣. النحل: ٩٨/١٦.

٤. الرعد: ٢٨/١٣.

في تفسير

﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ﴾

عن الرضا عليه السلام عن آبائه عليهم السلام «أنّه مكتوبٌ في التَوراة التي لم تُغيَّر: أنّ موسى سأل ربّه، فقال: يا ربّ أقريبٌ أنتَ منّي فأُناجيك، أم بعيدٌ فأُناديك؟ فأوحى الله عزّ وجلّ [إليه]: يا موسى أنا جليسُ مَن ذكَرني»[1].

ولمّا كان الكُفّار والمشركون يبدأون بأسماء آلهتِهم، فيقولون: باسمِ اللات والعُزّى، فعَلّم الله المُوَحّدِين أن يقولوا عند شروعهم في أمرٍ ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ﴾».

قيل: إنّ الله تعالى افتتح كتابَه الكريم بأوّل ما جرى به القلم في اللّوح المحفوظ، وأوّل ما نزَل على آدم ٧[2].

وفي (الكافي) عن الباقر عليه السلام: «أوّل كلِّ كتابٍ نزَل من السّماء ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ﴾»[3].

وعن الرضا عليه السلام: في تفسير ﴿بِسْمِ اللهِ﴾ قال: «يعني أسِمُ [على] نفسي بسِمةٍ من سماتِ الله، وهي العبادة» قيل له: ما السِّمة؟ قال: «العلامة»[4].

تحقيق بالتفكر فيه حقيق

أقول: توضيحُ ذلك أنّ حقيقة العبوديّة وهي الفَناء والعَجْز والحاجة والتّبعيّة والانقياد، وهي علامة الربوبيّة التي هي كمال الوجود والوجوب والغِنى والجُود والسَلْطَنة والمَولَويّة، فإذا حصَل في العَبد نورُ العبوديّة، ظهَرت فيه آية الربوبيّة، فمَن وَسَم نفسَه بسِمَة العبوديّة ـ وهي حالة العَجْز والحاجة والرَّجاء والفَقْر والعدم والفَناء ـ فقد وَسَم نفسَه بسِمَة الله، حيث إن المخلوق ليس من جهة نفسِه وذاتِه إلّا العدم والقابليّة لقَبول فَيض الحَقّ وفِعله وعَطائه وإنعامه، ويُعَبَّر عن هذه الحَيثيّة بالذّات والماهيّة، وما سواها ليس إلّا فَيض الوُجود وهي آية الحَقّ وتجلّيه.

وكما أنّ جهة ذاتِه جهة الأنانيّة، ومَناط الاحتِجاب، ومبدأ كلّ شرّ، يكون فيض الوجود ـ وهو جهة الربوبيّة ـ مبدأ كلّ خَير، فكلّما اشتدّت فيه هذه الجهة كملت الذّات وكثُرت منها الخَيرات، لأن كلّ خير من آثار الوجود الذي هو بإفاضة الله وجوده، فعَلىٰ العبد أن يسأل حين إرادة القيام بوظائف

---

١. عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ٢٢/١٢٧ «نحوه»، الكافي ٢: ٤/٣٦٠ عن الباقر عليه السلام.
٢. تفسير روح البيان ١: ٦.
٣. الكافي ٣: ٣/٣١٣.
٤. معاني الأخبار: ١/٣.

العبوديّة من التِلاوة وسائر الطاعات، كمال وجوده وقوّة نفسِه، بقَوله بقَصْد الإنشـاء والدعـاء: «أسِـمُ نفسي بسِمَة الله» أي اللهمّ أعلِمْ نَفسي بعَلامتِك، وأكمِلْ فَيض الوجود فِيّ بجُودك وفيّاضيّتك.

وهذا السؤال والطَلَبُ مُلازِمٌ للاستِعانة ومُساوٍ لها، كما أنّ إفاضَة الفَيّاض عليه إجابة منه وإعـانةٌ، فتكون الاستِعانة باسم الله مَدلولاً التِزامياً لقوله: أسِمُ نفسي بسِمَةِ الله.

ولعلّه لكَونِ مفهوم الاستِعانة أقرب إلى أفهام العامّة، فسّر ﴿بِسْمِ اللهِ﴾ في بعض الروايات بقوله: أستَعين بالله[1]، ثمّ يمكن على هذا التفسير أن يكون وجه تعليق الاستِعانة بالاسم مع أنّها في الواقع بالمُسَمّى، وهو ذاتهُ سبحانه وتعالى، أنّ فيه نوع تأدّب في التعبير، أو الإشارة إلى أنّ أسماء الله تعالى من جهة حكايتها عن الذّات المُقدّسة واتّحادها معها اتّحاد الكاشِف مع المَكشوف، لها قوّة نـورانيّة وكـمال وجوديّ به تكون مؤثّرات في الوجود، ويكفي العَبد أن يستَعين بها ويطلُبَ القوّة على العمَل بذِكرها.

وعن (التوحيد): عن الباقر عليه السلام في تفسير لفظ الجَلالة، قال: «الله معناه المعبود الذي أَلِهَ الخَلْقُ عن دَركِ ماهيّته والإحاطة بكيفيّته، ويقول العرَب: أَلِهَ الرجلُ، إذا تَحيّر في الشيء فلم يُحِط به عِلماً. ووَلَه: إذا فزع إلى شيء ممّا يحذَرُه ويخافهُ»[2].

وروي أنّ رجلاً قام إلى أمير المؤمنين عليه السلام فقال: يا أمير المؤمنين، أخبِرني عن ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ﴾ ما معناه؟ فقال: «إنّ قولَك: الله أعظَم [اسم] من أسماء الله عزّ وجلّ، وهو الاسـمُ الذي لا ينبَغي أن يُسمّى به غيرُ الله، ولم يَتَسمَّ به مخلوقٌ».

فقال الرجل: بما يفسر قوله: الله؟ قال عليه السلام: «هو الذي يَتَألَّهُ إليه عند الحَوائج والشَدائد كلّ مخلوقٍ عند انقِطاع الرَّجاء من جميع من [هو] دونَه»[3] الخبر.

في أنّ اسم الجلالة عَلَمٌ لذاته تعالى

أقول: وإن كان الظاهِر من الرّوايتَين أنّ معنى اللَفظ المُبارَك معنىً اشتِقاقيّ إلا أنّ الحقّ أنّه عَلَمٌ للذّاتِ المقدّسَة، لعدم استِعماله وَصْفاً، بل هو في جميع الاستِعمالات يكون موصوفاً، ولِعدَم صَراحة دلالة كلمة الإخلاص ـ وهي: لا إلـه إلّا الله ـ على التَوحيد إلّا إذا كان لَـفظ الجَلالة عَلَماً، ولِبُعدِ أن يكونَ للذّات المُقَدسة في سائر اللغات عَلَمٌ مخصوصٌ دون اللّغة العـربيّة التي هي أوسَع من سائر اللغات وأكملها وأشرفها.

وعلى هذا فلابدّ من حَمْل الروايات على بيان وجه مُناسبة المَعاني الاشتِقاقيّة لوَضْعِه العِلميّ، وإنّ

---

١. راجع: التوحيد ٢٣٠/٥. ٢. التوحيد: ٢/٨٩. ٣. التوحيد: ٢٣١/٥.

الواضِعَ كان هو الله تعالى أو غيرَه لاحظ حين الوَضع العلميّ هذه المُناسَبات، وإنّ كـلّ واحـدٍ مـن المَعاني الاشتِقاقيّة الكلّيّة حَقيقتُها ومِصداقُـها مُـنحَصِرٌ فـي الذّات المُـقدّسة، حيث إنّ المـعبوديّة المطلَقة والمَفزَعيّة لجميع الموجودات حتّى الجَمادات لا يكون إلّا له تـبارك وتـعالى، ولا يـتصوّر لمُشرِك أن يدّعي هذه المَرتَبة من المَعبوديّة والألوهيّة لما اتّخَذه معبوداً وإلـهاً.

والحاصل: إنّ العِبادة عبارة عن الخُضوع التامّ، والقولُ بأنّ الصّنَم أو الكواكب أو غيرهما مـعبودٌ لجميع المَوجودات حتّى الجَمادات غير متصور من ذي مُسْكةٍ وشعورٍ، وأمّا الواجب تعالى فجميع ما سِواهُ خاضِعٌ له، فازِعٌ إليه، ضارِعٌ لدَيه، سائلٌ منه.

وتوضيحُه أنّه قد حُقّق في مَحلّه أنّ الوجود ملازِمٌ للشّعور، وكلّ ماله حظٌّ من الوجود، له بمِقدار حظِّه حَظٌّ من الشّعور، وكلّ ما كان حظّه من الوجود أكثَر كان حظّه من الشّعور أوفَر، ويشهَد لذلك ما يُشاهَد من أثرِ الإدراكِ في كثيرٍ من النّباتات فَضْلاً عن الحيوانات.

وأقلّ مَراتِب الشّعور أنّ المَوجود يُدرِك أنّه معلولٌ للـعلّة، ومـوجودٌ بـالغَير، وإدراك هـذه الجـهة مقتضٍ لنهاية الخُضوع لعلّتِه ومُوجِده، والآيات والرِوايات تُوافِقُنا على أنّ للجَمادات تسبيحاً وخَوفاً وتَضرّعاً إلى الله، بل لها معرفة وطاعة للنبيّ والوَليّ.

فعلى هذا، فجميع الموجودات متوجهون إلى خالِقهم، خاضِعون له، سائِلون فيضه ودوامه، خائفون من انقِطاعه، فهو المعبود المُطلَق، والمَفزَع لجميع الموجودات، والمَألوه لجميع المخلوقات عند الشّدائد والحاجات، وهو المَحجوب عن إدراك المُمكِنات، المَستور عن العقول بحقيقة الذّات وكُنْه الصّفات.

ويؤيدّ ما ذكَرنا من حَمل الرّوايات أنّه لولاه يلزَم استِعمال المشتَرك اللّفظي في أكثر من معنى، أو إرادة بيان أنّ لِمُستَعمِل لَفظ الجَلالة أن يُريد منه كلّ واحدٍ من المَعاني المختلفة، والأوّل مُحال، والثاني بعيدٌ غايتُه.

وفي رواية (التوحيد) المتقدّم صَدرُها في تـفسير ﴿الرَّحمَـٰنِ الرَّحِيمِ﴾ قـال عليه السلام: «الذي يـرحَـم ببَسْطِ الرزقِ علينا، الرّحيم بِنا في أديانِنا ودُنيانا وآخِرتِنا، خفَّف علينا الدّين، وجعَله سَهْلاً خفيفاً، وهو يرحَمُنا بتمييزنا عن أعاديه»[1].

وفي رواية أُخرى: «الرّحمـٰن بجَميع خَلقِه، والرّحيم بالمُؤمنين خاصّة»[2].

أقول: لا ريب أنّ هـٰذين الاسمَين المُبارَكَين بحَسَب اللُّغةِ صِفتَان مُشبَّهتان من الرّحم: وهو التعطّف

---

١. التوحيد: ٥/٢٣٢، وفيه: بتميزنا من أعدائه. ٢. الكافي ١: ١/٨٩.

إلى الغَير بالإحسان إليه، ودَفع المَضارّ عنه، الناشيء عن مبدأ في الذّات، كان هو الرّقّة أو الحِكمة، والظاهر أنّه لا وَجهَ لتَخصيصه برِقّةِ القَلب حتّى يكونَ معناه الحقيقيّ مُختصّاً بالمَخلوقين، ويكون إطلاقُهما على الله مجازاً.

ولعلّه لدلالة (الرحمـٰن) بهيئته على المُبالغة والشِدّة دلّ على الرّحمَة العامّة الشاملة لجميع الموجودات من الخَلق والرِّزق وسائر الإنعامات، فجميع الموجودات في جميع العَوالِم من المُلك والمَلَكوت والبَرْزَخ والآخرة، وجودُها وبقاؤها بشُمول الرّحمة الرّحمانيّة.

وأمّا (الرّحيم) فلعَلّه لعدَم دلالته على المُبالغة والشِدّة، اختَصّ بالرّحمة الخاصّة بالمؤمنين من الهداية إلى الحقّ والتوفيق للإيمان والأعمال الصالحة وحُسن العاقبة والجَنّة والنِعَم الأُخرَويّة الدائمة، ولتقدّم الرّحمة العامّة على الرّحمة الخاصّة قدّم اسمَ الرّحمـٰن على الرّحيم، وإن اقتَضَت إفادةُ الشدّة تأخّره عنه لتأخّر مرتبة الشِدّة عن الضّعف.

في نكتة الاقتصار في البسملة بذكر الأسامي الثلاثة

ولعلّ وجه الاقتصار في المَقام على ذِكر الأسامي الثّلاثة المُباركات جامعيّتها لجميع الخيرات والبَرَكات، حيث إنّ اسمَ الجَلالة مبدأ فَيض الخَلْق والإيجاد، واسم الرّحمـٰن مبدأ فَيض الترتيبيّة و النِعَم الدنيويّة، واسم الرّحيم مبدأ فَيض الهِداية والتَوفيق وسائر التّفضّلات الأُخرَويّة على المؤمنين.

قيل: إنّ لله تعالى ثلاثة آلاف اسم، ألفٌ منها عرَفها الملائكة لا غير، وألف منها عرَفها الأنبياء لا غير، وثلاثمائة في التّوراة، وثلاثمائة في الإنجيل، وثلاثمائة في الزّبور، وتسعة وتِسعون في القرآن، وواحد استأثر الله به نفسه، ومعنى هذه الثلاثة آلاف مُنطَوِية في هذه الأسماء الثّلاثة، فمن عَلِمها وقالَها فكأنّما ذكَر الله تعالى بكُلّ أسمائه[1].

وروي عن النبيّ ﷺ في فضيلة هذه الآية المباركة، أنّه قال: «ليلة أُسري بي إلى السّماء عُرِض عليّ جميع الجنان، فرأيتُ فيها أربعة أنهار: نهراً من ماء، ونهراً من لبن، ونهراً من خَمْرٍ، ونهراً من عَسل. فقلتُ: يا جَبْرَئيل، من أين تجيىء هذه الأنهار وإلى أين تذهب؟ قال: تذهب إلى حوض الكوثر، ولا أدري من أين تجيىء، فادع الله تعالى ليُعلِّمَك، أو يُريَك. فدعا ربّه، فجاء مَلَك فسلّم على النبيّ ﷺ ثمّ قال: يا محمد، غَمِّض عينيك. قال: فغمّضتُ عيني، ثمّ قال: افتح عينيك، ففتَحتُ فإذا أنا عند

---

١. تفسير روح البيان ١: ٩.

شَجرةٍ ورأيتُ قُبّةً مِن دُرّةٍ بيضاء، ولها بابٌ من ذَهَب أحمرَ وقُفْلٌ، لو أنّ جميع ما في الدُنيا من الجِن والإنس وُضعِوا على تلك القُبّة لكانوا مثل طائر جالسٍ على جَبَل، فرأيتُ هذه الأنهار الأربعة تخرُج من تحت القُبّة.

فلمّا أردتُ أن أرجِع قال لي ذلك المَلك: لمَ لا تدخُل القُبّة؟ قلتُ: كيف أدخُل وعلى بابها قُفلٌ لا مِفتاح له عندي. قال: مِفتاحُه ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ﴾ فلمّا دنوتُ من القُفل وقُلتُ: ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ﴾ انفتَح القُفلُ، فدخَلتُ في القُبّةِ، فرأيتُ هذه الأنهار تجري من أربعة أركانِ القُبّة، ورأيت مكتوباً على أربعة أركانِ القُبّة ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ﴾ ورأيتُ نهرَ الماء يخرُج من ميم بسم الله، ورأيتُ نهرَ اللّبن يخرُج من هاءِ الله، ونَهر الخَمر يخرُج من ميم الرّحمٰن، ونَهر العسَل يخرُج من ميم الرّحيم، فعَلِمت أنّ أصل هذه الأنهار الأربعة من البَسْمَلَة.

فقال الله عز وجلّ: يا محمّد، مَن ذكَرني بهذِه الأسماء من اُمّتِك بقَلبٍ خالصٍ من رياءٍ، وقال ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ﴾ سَقَيْتُه من هذه الأنهار»[1].

في بيان فضيلة البسملة

وروي عن النبيّ ﷺ عن جَبْرَئيل، عن ميكائيل، عن إسرافيل عليهم السلام: قال الله تعالى: «يا إسرافيل، بعزّتي وجَلالي، وجُودي وكَرَمي، مَن قرأ ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ﴾ متصلة بفاتحة الكِتاب مرّةً واحِدةً، فاشهَدوا عليّ أنّي قد غفَرتُ له، وقَبِلتُ منه الحَسَنات، وتجاوَزتُ له عن السيئات، ولا اُحرِق لِسانَه بالنّار، واُجيرُه من عَذاب القَبر وعَذاب النّار وعذاب يوم القيامة، والفَزَع الأكبر»[2].

نُقِل عن عارفٍ أنّه كتَب ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ﴾ وأوصى أن يُجعَل في كَفَنِه، فقيل له في ذلك، فقال: أقول يوم القيامة: إلٰهي، أنزلتَ كتاباً وجعَلتَ عُنوانَه ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ﴾ فعامِلني بعُنوانِ كتابك[3].

ففي البسملة مَثار صِفات الحُبّ والحَياء والرّجاء والخَوف التي هي اُصول التّقوى والعبوديّة، ولا ينفكّ العابِد من أحد هذه الأحوال.

وقيل: إنّ البَسْمَلَة تِسعة عشر حَرفاً، والزَبانية تسعة عشر، فالمَرجُوّ من الله أن يدفَع بليّتها بهذه الحروف التسعة عشر[4].

روي أنّه لا يُردُّ دعاءٌ أوّله ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ﴾ الخبر[5].

١و٢. تفسير روح البيان ١: ٩.
٣. تفسير الرازي ١: ١٧٢.
٤. تفسر الرازي ١: ١٧٢ «نحوه».
٥. تفسير روح البيان ١: ٩.

في تفسير فاتحة الكتاب

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمـٰنِ الرَّحِيمِ * ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ * الرَّحْمـٰنِ الرَّحِـيمِ * مالِكِ يَوْمِ الدِّينِ * إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ * آهْدِنَا آلصِّرَاطَ آلْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ آلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ آلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا آلضَّآلِّينَ [١ ـ ٧]

ثمّ شرع في الكتاب بقوله: ﴿الحَمْدُ﴾ والثّناء الجميل ـ بجِنْسِه أو بـجميع أفـرادِه، وتـمَام مَـراتـبِه وأنواعه من القَوليّ والقَلْبيّ، والحاليّ والأفعاليّ ـ خاصٌ ومُلْك ﴿لله﴾ لا شريك له فيه، لاختِصاصِه بحُسن الفِعال من جميع الجهات، ليس فيها شائبة القُبح والنَّقص، فالقَوليّ منه: هو إظهارُه باللِسان، والقلبيّ: هو استِشعارُ القَلْب به، والحاليّ: هو الرِّضا بجميع ما يَصدُر منه تعالى، والأفعاليّ: هو القيام بطاعته وعبادته عن محبّةٍ وشَوقٍ ونشاط.

وأيضاً في تخصيصِ الحَمد به تعالى إشعارٌ بأنّ حُسن أفعال مَن سِواه راجعٌ إليه تـعالى، وحَـمدُ غيره على فِعْلِه يكونُ حَمْدَه، بل لا يجوز حَمْدُ غيرِه إلّا بإذنِه لأنّه هو مستَحِقُّه ومالِكُه، ثمّ لا يُمكن لأحدٍ حَقّ حَمدِه لعدَم إمكان إحصاء نَعْمائه والإحاطة بحقيقة حُسنِ أفعاله، ولذا قال النبيّ ﷺ ليلة المعراج، لمّا أمره الله بالثّناء عليه: «لا أُحصي ثَناءً عليك»[١].

في بيان فضيلة حمده تعالى

وفي افتِتاحه تعالى كتابَه المجيد بالبَسْمَلةِ والتحميد إشعارٌ بأنّه لا ينبغي الشُروع في أمرٍ إلّا بعد البَسْمَلَةِ والحَمْد.

عن أمير المؤمنين عليه السلام: «أنّ رسول الله ﷺ حدّثني عن الله عزّ وجلّ أنّه قال: كلّ ذي بالٍ لم يُذكَر فيه ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ﴾ فهو أبتَر»[٢].

وفي روايةٍ: «كلُّ أمرٍ ذي بالٍ لم يُبدأ فيه بالحَمْد لله فهو أقْطَع»[٣].

---

١. تفسير روح البيان ١: ١١.

٢. التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام: ٢٥/٧.

٣. كنز العمال ١: ٢٥٠٩/٥٥٨.

وعن تفسير الإمام عليه السلام: عن أمير المؤمنين صلوات الله عليه أنّه سُئِل عن تفسيره، فقال: «هو أنّ الله عرّف عِبادَه بعضَ نِعَمِه عليهم جُمَلاً إذ لا يَقدِرون على معرفة جَميعها بالتّفصيل لأنّه أكثَر من أن تُحصى أو تُعرَف، فقال [لهم]: قولوا: الحَمْدُ لله على ما أنعَم به علينا»[1].

وعدم ذِكر ما يُحمَد عليه في الآية، لعدَم الاحتياج في المَقام، ثمّ وصَف ذاته المقدّسة بقوله: ﴿رَبِّ ٱلعَالَمِينَ﴾: للإشعار بعلّة استِحقاقه الحَمْدَ واختِصاصِه به، وهو كونه مُربّي جميع الكائنات والموجودات.

وفي (العيون) و(تفسير الإمام عليه السلام): عن أمير المؤمنين صلوات الله عليه: «يعني مالك الجَماعات من كلّ مخلوق وخالِقهم وسائق أرزاقِهم إليهم من حيث يعلَمون ومن حيث لا يعلَمون، يُقلّب الحيوانات في قُدرَتِه، ويَغذوها من رِزقه، ويَحوطُها بكَنَفه، ويُدبِّر كُلاً منها بمَصْلحتِه، ويُمسِك الجَمادات بُقدرَتِه، [و] يُمسِك ما اتّصل منها من التَهافُت، والمُتَهافِت من التّلاصُق والسَّماء أن تقَع على الأرض إلّا بإذنه، والأرضَ أن تنخَسِف إلّا بأمرِه»[2].

قيل: إنّ الرّبَّ هُنا بمعنى المالِك. وقيل: إنّ المُراد بالعالَمين عالَم المُلك، وعالم الإنس وعالَم الجِنّ، وعالم الأفلاك، وعالم النّبات، وعالَم الحيوان، وقد اختلفت الأخبار في عدد العَوالم.

في ذكر عدد العوالم

عن الصَّدوق في (الخصال) أنّه روي عن الباقر عليه السلام أنّه ذكر في قوله تعالى: ﴿بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾[3]: «إنّ الله قد خلَق ألف ألف عالَم، وألف ألف آدم، ونحن في آخِر العَوالِم وآخِرالآدَميّين»[4].

نُقل عن الهيئة الجديدة التي أسّسها أهلُ الإفرنْج أنّ كلّ كَوكبٍ من الكواكب السَّيّارة، غير القمروالشمس، أرضٌ كأرضِنا تدور حول الشمس، والشمس كالمَرْكَز لها، وزادوا على السيّارات المعروفة سيّارتَين كبيرتَين تُسمّى إحداهما اُورانوس والأُخرى نبتون.

ونُقِل أنّهم وجَدوا سيارات صِغاراً كثيرةً يمتَنِع إدراكُها إلّا بالآلات المُعَدّة لهذا الشأن، واعتقدوا [أن] لكلّ واحدٍ من السيّارات الأُوَل ثمانية أقمار وأقلّ إلى واحِد، تدور تلك الأقمار على تلك

---

١. التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام: ١١/٣٠.
٢. عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ٣٠/٢٨٢، التفسير المنسوب إلى الامام العسكري: ١١/٣٠، تفسير الصافي ١: ٧١.
٣. سورة ق: ١٥/٥٠.
٤. الخصال: ٥٤/٦٥٢.

الأراضي، كما أنّ لأرضِنا هذه قمراً يخصّها، وأنّ لكلّ كوكبٍ من الكواكب الثابتة شمساً كشَمسِنا هذه في فضاءٍ غير مُتَناهٍ مع اختِلافها في القُرب من شَمسِنا والبُعدِ منها، وكلّما كان أبعد كان جُرمُه في أبصارِنا أصغَر، فاستَظهروا من ذلك أنّ لكلّ كوكبٍ منها أراضي كالاراضي التي لشَمسِنا هذه، وحينئذٍ تكون الأراضي خارجة عن حدِّ الإحصاء، والله تعالى ربُّ جَميعها.

فظهَر أنّ معنى هذه الكلمة وحقيقتها شامِلٌ لجميع الموجودات، محيطٌ بها، مُعطٍ لكمالها، ولكون مرتبة هذا الاسم المُبارك تحت مرتبة اسم الجَلالة، لكونه مظهر الآثار الألوهيّة، قرَنه به في الآية وأخّره عنه في الذِكر، ولدلالته على أنّ كلّ خيرٍ منه تعالى، ودفع كلّ شرٍّ إليه، كان فيه غاية التأثير في تهييج حُبّ العارفين، وتَحريك رجاء الرّاجين، ولهذا السرّ كان ثناؤه تعالى في الأدعية بهذا الاسم المبارك أكثَر من ثَنائه بسائر الأسماء، ومن عرَفه بالرّبوبيّة وعرَف نفسه بالمَربوبيّة المُطلَقة من كلّ وجهٍ واعتبار، عرَف ما يُناسب شأنه من الذِلّة والاستِكانة، وقام بوظائفه من الطاعة والعِبادة.

ثمّ لمّا كان مَجال توهُّم القاصِرين أن يكون تربيته للمُمكنات كتربية الأجرام الفَلكيّة والمؤثّرات الكونيّة بغير إرادة واختيار وحكمة ولحاظ صلاحٍ، أشار بتَوصيف ذاته المُقدّسه بقوله: ﴿الرَّحْمـٰنِ﴾ إلى أنّ تربيته العامّة بمَبدأ صِفَة الرّحمانيّة. وبقوله: ﴿الرَّحِيمِ﴾ إلى أنّ تربيته الخاصّة للنّفوس القابلة وتكميلها بمبدأ صِفَة الرَّحيميّة، ومن الواضح أنّ هاتين الصِفَتين مُلازِمتان للعلم والاختيار والارادة والحكمة.

وقيل: إنّ نُكتَة تَكرار هذين الاسمَين هي كمال مَدخليّتهما في استِحقاق الحَمد، أو شِدّة الاهتِمام ببَسْطِ رَجاء العِباد إلى رَحمَتِه.

وفي حديث معراج النبيّ ﷺ في عالم المَلَكوت: «ثمّ قال له: احمَدْني. قال: الحَمدُ لله ربّ العالَمين، فقال النبيّ ﷺ: [في نفسه] شكراً، فقال الله تعالى يا محمّد، قطَعت حَمْدي فَسمِّ باسمي، فمن أجلِ ذلك جعَل في الحَمد ﴿الرَّحمـٰن الرَّحيم﴾ مرَّتَين»[١].

أقول: لعلّ وجه كون الشُكر قاطِعاً للحَمد أنّ في الشُكرِ التوجه إلى النِّعَم، وهو مُلازمٌ للتَوجّه إلى النّفس، وليس في الحَمد إلّا التوجّه إلى مقام الألوهيّة والرّبوبيّة، فلَزِم تَكرارُ اسمِ الحقّ سُبحانه، وحَصْرُ التَوجّه فيه، وإفناء ملاحظة النّفْس.

---

١. الكافي ٣: ١/٤٨٥.

ثمّ وصَف ذاتَه المُقدّسة بقوله: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ لتكميل النُفوس بعد إيقاظها بالرَّجاء بإنعاشِها بالخَوف بتَنْبيهِها بالسُّلطَنَة المُطلَقة في يوم الحِساب والجزاء، وأنّه الحاكِم فيه ليس لِغيرِه فيه حكمٌ وسلطانٌ كما كان لغيره في الدّنيا بظاهِر الأنظار.

عن (تفسير الامام عليه السلام): «يعني القادِر على إقامته، والقاضي فيه بالحقّ والدِّين والحِساب»[1].

وقيل: إنّ في هذه الآية إشعارٌ بأنّ الحَمدَ علّةُ نَيْلِ الرَّحمةِ في الدُّنيا والآخرة، ويؤيده ما روي من أنّ آدم لمّا نُفِخ فيه الرّوح عطَس، فقال: الحمد لله، وأُجيب: يرحمك ربُّك، ولذلك خَلقتُك[2].

فدلّت الآيات الثلاث على أنّه سبحانه منبَع الخَلق ومبدأ الايجاد، وبفَيضِه وإرادته تربية الكائنات، وتكميل المَوجودات، وأنّ رجوعَ جميع الخَلقِ إلى حُكمهِ وأمرِه وسُلطانِه في الآخِرة. فإذا تذكّر العبدُ هذه الصّفات، وتأمّل في أنّ وجودَه وتربيتَه وبقاءه وتَعَيُّشَه في الدّنيا به تعالى، وارتِقاءه من حَضيض الحيوانيّة إلى أعلى مدارج القُرب وكمال الانسانيّة بلُطفِه سُبحانَه، وتفكّر في أنّ مَرجِعَه ومَعاده في الآخِرة إلى حُكمه تعالى وسلطانه، عَلِم أنّ مَن كان إحسانه إليه في زمانِ بُعدِه عنه واحتِياسِه في عالم الطبيعة وانغِمارِه في ظُلّمات الجَهْل والغَفْلَة بمقدارٍ لا يُمكن عَدُّه ولا يُدرَك حَدُّه، لا يُمكن مَنع فَيضه ولُطفه وإحسانه وإنعامه حين وُرودِه عليه ووُفودِه لَدَيه.

فعند ذلك تتكامل معرفته، وتُحيط بالقَلبِ محبّته،فيرتفع حِجابُ غَفلَتِه، وتَتنوّر عينُ بَصيرتِه، وتَتجلّى أنوارُ جَمالِ مَليكه في ضَميره، ويرى نفسَه شاخِصةً بحَضرتِه، فيعترِف بالاخلاصِ في عبوديّته، ويقول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ ولك خاصة نخضع وننقاد ونتذلّل.

عن (تفسير الإمام عليه السلام): «قال الله تعالى: قولوا يا أيّها الخَلْق المُنعَم عليهم: إيّاكَ نعبُد أيّها المُنعِم علينا، نُطيعُك مُخلِصين مُوَحّدِين، مع التَذلُّل والخُضوع، بلا رِياءٍ ولا سُمْعَةٍ»[3].

وعن ابن عبّاس: أنّ جَبْرَئيل قال للنبيّ صلى الله عليه وآله: قل يا محمّد: إيّاك نَعبُد. أي إيّاك نأمّل ونَرجو لا غَيرك[4].

وفي رواية عاميّة عن الصادق عليه السلام: «يعني لا نُريد منك غيرَك، ولا نعبدك بالعِوَض والبَدل كما

١. التفسير المنسوب إلى الامام العسكري عليه السلام: ١٤/٣٨، تفسير الصافي ١: ٧١.
٢. تفسير روح البيان ١: ١٤ «نحوه».
٣. التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام: ١٥/٣٩، تفسير الصافي ١: ٧١.
٤. تفسير روح البيان ١: ١٧.

يعبُدك الجاهِلون بك المُغيَّبون عنك»[١].

أقول: الظاهِرُ أنّ المُراد من قوله: «لا نريد منك غيرَك»، أنّه لا نُريد بعِبادتك نَيْلَ مطلوبٍ من نِعَم الدُّنيا أو ثَواب الآخِرة، ولا دَفْعَ مكروهٍ صوريّ أو معنوي، دُنيويّ أو اُخرَويّ، بل نُريد بها أداء حَقِك حيثُ إنّك مستَحِقّ لها بوجوب الذّات وكمال الصِفّات والنِّعَم السابغات، وهذه هي العبادة الحقيقيّة، وغيرها من سائر الغايات المنظورة هي عبادةُ غيرِه، والتَعبير بصِيغة مع الغير لإدراجِ عبادته في عبادةِ الحَفَظة أو حاضِري صلاة الجَماعة أو سائر العُبّاد المُوَحِّدين المُخلِصين، استِحقاراً لعبادة نَفسِه وإشعاراً بأنّ عبادتَه غير قابلة بأنْ تُذكر أو يُنظَر إليها إلّا بتبَع عبادة المُخلصين.

ثمّ لمّا كان العبد مخلوقاً من الضَّعف، فلا قوّة له على العمَل إلّا بحَوله تعالى، ولا حولَ له إلّا بعَونه، ولا يُرجى منه خيرٌ إلّا بتَسديدِه وتوفيقه، وكان في إسناد العبادة إلى نَفسِه إيهامُ العجب بقدرته واستِقلاله في فِعله وعمَله، أُمر بأن يسأل الإعانة من الله عليها، بقوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ على طاعتِك وعبادتِك والعمَل بمَرْضاتِك، وعلى دَفْع شُرورِ أعدائك وردّ مكائدِهم، وتَخصيصُ الاستِعانة به نتيجةُ التوحيد ومعرِفةُ ربوبيّته تعالى ومربوبيّة نفسِه، حيث إنّ فيه إشارَةَ إلى أنّه القادِرُ المُطْلَقُ، وأنّ قدرةَ غيرِه مُنتَهِية إليه، وأنّه الكافي لجَميع ما سِواه، ولا كافِيَ غيرُه، وفي إدخال استِعانتِه في ضِمْنِ استِعانة المُوَحِّدين استيجابٌ ببَركتهِم.

ثمّ لمّا كان أهمُّ المَقاصِد وأعظمُها هو الهداية إلى عباداتٍ مُوصلةٍ إلى رِضوانِه، مُحصِّلةٍ للسَّعادات الأبديّة من قُربِه وجنانه، خصّ طلَب الإعانة بها، فكأنّه قال تعالى: كيف أُعينك فيقول: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَاطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ ودُلّنا على النَّهجِ الحقّ القَويم.

في ذكر معنى الصراط والجمع بين الأخبار

عن (تفسير الإمام): عن الصادق صلوات الله عليه: «يعني أرشِدنا لِلزومِ الطّريق المُؤدّي إلى محبّتك، والمُبلغ إلى جنّتك، والمانِع من أن نتّبع أهواءنا فنَعْطَب، أو أن نأخُذَ بآرائنا فنَهلَك»[٢].

وعن (المعاني) عنه عليه السلام: «هي الطّريق إلى معرفة الله، وهُما صِرطان: صِراطٌ في الدّنيا، وصِراطٌ في الآخِرة، فأمّا الصِّراطُ في الدّنيا فهو الإمام المُفترَضُ الطّاعة، مَن عرَفه في الدّنيا واقتَدى بهُداه مَرّ على

---

١. تفسير الصافي ١: ٧٢.

٢. التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام: ٢٠/٤٤، تفسيرالصافي ١: ٧٢.

الصّراط ـ الذي هو جِسرُ جهَنّم ـ في الآخِرة، ومَن لم يَعرِفه في الدُّنيا زلّت قَدَمُه عن الصِّراط في الآخِرة فتَرْدىٰ في نارِ جهنّم»[1].

وفي رواية أُخرى: «نحن[2] الصِّراط المستقيم»[3].

وفي أُخرى: «الصِّراط المُستقيم: هو أميرُ المؤمنين عليه السلام ومعرفته»[4] الخبَر.

أقول: لعلّ وجه الجَمع، أنّ حقيقة الصّراط والطريق المؤدّي إلى رِضوان الله هي الشريعة المقرّرة المُركّبة من العَقائد الحقّة، والمَعارف الإلٰهيّة، والأعمال الصالحِة، والأخلاق المَرضيّة، والهداية إليها في هذا العالم لها أنحاء، أظهَرُها وأجلاها بحسَب العادة هو الهداية إليها بوسيلة هادٍ من جنس بني آدم وهو النبيّ والإمام، بل الهِداية إليهما هي الهداية إليها، إذ لو كان للشّريعة المُطهّرة صورة مجسّمة لكانت هي الانسان الكامِل، وهو الإمام والحجّة، إذ هم المُبَيِّنون بكلامهم وأخلاقِهم وأعمالِهم حقيقةَ الدِّين والشَرْع المتين بهداية العبد إلى الدِّين [و] تعريفه إيّاهم، فمَن كان بهم أعرَف كان إلى الصّراط أهدىٰ، فمَعرِفتهُم عينُ معرِفة الصِّراط، والمقتدي بهم مارٌّ عليه في الدُّنيا والآخِرة ومُنتَهٍ إلى رِضوان الله، واصِلٌ إلى الجنّة ونعيم دار القَرار، والمُتخلّف عنهم زالّ عن الصِّراط، وهاوٍ في النّار، ومن الواضح أنّ هذه الهداية من أظهَرِ شؤون الرّبوبيّة، وأجلىٰ آثار صِفة الرَّحيميّة .

ثمّ اعلَم أنّ الهداية الحقيقية إليهم لِست بالاطّلاع على الأدلّة الدالّة على إمامتهم ووجوب اتّباعهم وطاعتهم، بل تكون بالنّور الّذي يَقذِفُه الله في القَلب بحيث يؤثّر في مُلازمَتهِم والاقتِداء بهم وبتَقوية القوّة العاقِلة بحدّ يورِثُ قَطْعَ التعلّقات الجِسمانيّة، وقمع الشّهوات النفسانيّة، والاستِغراق في ملاحظة أسرار الكمال ومطالعة أنوار الجَلال.

روي عن النبيّ صلى الله عليه وآله: «أنّ الله تعالى خلَق الخَلْقَ في ظُلْمَةٍ ثمّ رَشّ عليهم من نُورِه، فمَن أصابَه ذلك النّور فقَدِ اهتَدى، ومن أخطأه فقد ضلّ»[5]. والظاهر أنّ المُراد من الظُّلمة ظُلْمَة الجَهْل، ومِنَ النّور نورَ العِلم والعَقل.

ثمّ لا يذهَب عليك أنّ في الآية دلالةً ظاهِرةً على نَفْي الجَبْر والتفويض، وإثبات الأمر بين الأمرَين،

---

١. معاني الأخبار: ١/٣٢، تفسير الصافي ١: ٧٢.
٢. في النسخة: عن.
٣. معاني الأخبار: ٥/٣٥، ينابيع المودة: ٤٧٧، تفسير الصافي ١: ٧٣.
٤. معاني الأخبار: ٣/٣٢.
٥. تفسير روح البيان ١: ٢٣.

حيث إنّ الظاهر من قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ أنّ الإرادةَ والعَمل والقُدرَة من العبد، ومن قوله: ﴿إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ أنّ الإعانةَ بالهداية والتوفيق من الله.

ثمّ أنّه لمّا كان لإظهار فائدة المَطلوب والمَسؤول وتذكُّرِ مضارّ فَواته تأثيرٌ عظيمٌ في شدّةِ حِرصِ الطالبِ على الطَّلَب، وتَهييجِ رحمةِ المَطلوب منه في الإعطاء والإجابَة، وصَف الصِّراط وبيّنَه بقوله: ﴿صِرَاطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ وطريقة جماعةٍ خَصَصْتَهُم بكَمالِ اللُّطْفِ وتَمامِ الفَضْلِ عليهم من العِصْمَةِ عن الخَطأ والزَّلَل، والمَعرِفة بحَقائق الأُمور واليَقين بالمَبْدَأ والمَعاد لنُورانيّة طِينَتِهم، وقوّة عُقولِهم، وانشِراح صُدورِهم، وهم النَّبيُّون، ثمّ الأوصياء، ثمّ الأولياء.

ثمّ وصَف المَهديّين المُنعَم عليهم بقوله: ﴿غَيْرِ المَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ بسبَب خُبْثِ طينَتِهم وفَسادِ عقائدِهم وأعمالهم، للتَّعريضِ على أنّ الجَاحدين للحقّ المُعاندين له من اليَهود والنُّصّابِ وأضرابِهم في غَضَب اللهِ، وبقوله: ﴿وَلَا ٱلضَّالِّينَ﴾ وهم الذين أعرَضوا عن الحقّ لتَقصِيرهم وجَهْلِهم من غَير عِنادٍ كالنَّصارى الّذين قال الله فيهم: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا ٱلَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى﴾[1] وكالشاكّين الذين لم يَجهدوا في تحصيل معرفة الحقّ للتّعريض على أنهم في ضَلال.

عن الصادق، عن آبائه، عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «لقد سمِعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وآله يقول: قال الله عزّ وجلّ: قسَمْتُ فاتحة الكتاب بَيني وبَين عبدي، فنصِفُها لي ونصِفُها لعَبدي [ولعبدي] ما سأل، فإذا قال العبدُ ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيمِ﴾ قال الله جَلّ جَلاله: بدأ عبدي باسمي، وحقٌّ عليّ أن أُتَمِّمَ له أُمورَه، وأُبارِكَ له في أحوالِه.

وإذا قال: ﴿الحَمدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ﴾ قال جَلّ جَلاله: حَمِدَني عَبدي، وَعلِم أنّ النِّعَم التي له من عندي، وأنّ البَلايا التي اندفعت[2] عنه فبتَطَوُّلي، أُشهِدكم أنّي أُضيفُ له إلى نِعَم الدُّنيا نِعَمَ الآخِرة، وأدفَع عنه بَلايا الآخِرة كما دفَعتُ عنه بَلايا الدُّنيا.

وإذا قال: ﴿الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيمِ﴾ قال الله جَلّ جَلالُه: شَهِد لي بأنّي الرَّحمـٰن الرَّحيم، أُشهِدكم لأُوَفِّرَنَّ من نعِمتي[3] حَظَّه، ولأُجْزِلَنَّ من عَطائي نَصيبَه.

فإذا قال: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ قال الله تعالى: أُشهِدكم كما اعترَف بأنّي أنا المَلِكُ يوم الدِّين،

---

١. المائدة: ٨٢/٥. ٢. في عيون أخبار الرضا عليه السلام: دفعت.
٣. في عيون أخبار الرضا عليه السلام: رحمتي.

لأسَهِّلَنَّ يومَ الحِساب حِسابَه، ولا قبلنّ حسناته، ولأتجاوزنَّ عن سَيّاته.

فإذا قال العبدُ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ قال الله عزّ وجلّ: صدَق عبدي، إيّاي يَعبُد، أُشهِدُكم لأُثيبَنَّهُ على عبادته ثَواباً يَغبِطُه كلّ من خالَفه في عبادته لي.

فإذا قال: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ قال الله تعالى: بيَ استَعان، وإليّ التجأ، أُشهِدُكم لأُعينَنَّهُ على أمرِه، ولأُغيثَنَّهُ في شَدائده، ولآخُذَنَّ بيَدِه يوم نَوائبه. فإذا قال: ﴿آهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ إلى آخِر السورة، قال الله جَلّ جَلاله: هذا لِعَبدي، ولِعَبْدي ما سأل، فقد استَجَبتُ لِعَبدي وأعطَيتُه ما أمّل، وآمنتُه ممّا منه وَجِل»[1].

عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «إبليس رَنَّ رَنيناً لمّا بعَث الله نبيّه محمّداً صلى الله عليه وآله على حين فترةٍ من الرُّسُل، وحين نزَلت أُمّ الكِتاب»[2].

قيل: إنّها أوّل سورة نزَلت بمكّة، وسورة البَقرة أوّلُ سورةٍ نزَلت في المدينة وهي:

---

١. عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ٥٩/٣٠٠، تفسير الصافي ١: ٧٥.

٢. الخصال: ١٤١/٢٦٣.

في تفسير سورة البقرة

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

الَمَ * ذٰلِكَ ٱلكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدىً لِلْمُتَّقِينَ * ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُم يُنْفِقُونَ[١ و ٣]

﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيمِ﴾ قد مرّ تفسيرُه في أوّل الفاتحة، وتفسير:

﴿الَمَ﴾ في طرفة بيان أظهَر مَصاديق المُتَشابهات[١].

ثمّ إنّ وجه النَّظْم بين هذه السورة وسورة الفاتحة، أنّ في تلك السورة سُؤال الهِداية، وفي هذه السورة إجابتَه بقوله: ﴿ذٰلِكَ﴾ القرآن المَجيد هو ﴿ٱلكِتَابُ﴾ المعهود الذي بشَّر الأنبياءُ به اُمَمَهُم، ووعَدك الله يا محمّد أنّه مُنزِله عليك.

عن (تفسير الإمام عليه السلام): «يعني القرآن الذي افتُتح بـ(الَمَ) هو ذلك الكِتابُ الذِي أخبَرتُ به موسى ومَن بعده من الأنبياء، وأخبَروا بني إسرائيل أنّي سأُنزِلُه عليك يا محمّد كتاباً عربيّاً ﴿لَا يَأْتِيْهِ ٱلبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾»[٢] الخبر.

﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ ولا مجالَ لشكٍّ يعتَريه، إنّه مُنزَلٌ من الله تعالى لظُهور آياتِ الصِّدق فيه، فالشّاكُّ فيه كالشّاكِّ في ضَوء الشَّمس إذا كانت في رائعة[٣] النّهار، ويكون الشّكُّ في قَلبِه لا في الكتاب.

روي عن الصادق عليه السلام: «كتابُ عليٍّ لا رَيبَ فيه»[٤] فإنّ صدرَه الشَّريف مرآة اللّوح المَحفوظ.

ثمّ وصَف الله الكتاب بأنّه ﴿هُدَىً﴾ ودليلٌ إلى الرَّشاد، وبيانٌ من الضَّلالة ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ وهم المُحتَرِزون[٥] عن العقائد الفاسِدة والأعمال القبيحة العقليّة، الطالِبون[٦] لمَدارج التَّقوى.

---

١. راجع: الطرفة (١٨).

٢. التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام: ٣٢/٦٢، والآية من سورة فصلت: ٤٢/٤١.

٣. في النسخة: رابعة.

٤. تفسير العياشي ١: ١٠٥/١٠٨.

٥. في النسخة: المحترزين.

٦. في النسخة: الطالبين.

عن (تفسير الإمام عليه السلام): «الذين يتّقون المُوبقات ويتّقون تسليطَ السَّفَه على أنفسِهم، حتّى إذا عَلِموا ما يجب عليهم عَمله، عَمِلوا بما يُوجبُ لهم رضا ربّهم»[1].

وعنه عليه السلام أيضاً، قال: «﴿هُدًىً﴾ بيان وشِفاء للمتّقين من شيعة محمّد وعليّ عليهما وآلهما السلام أنّهم اتّقوا أنواع الكُفر فترَكوها، واتّقوا الذُنوبَ المُوبقات فرَفضوها، واتّقوا إظهارَ أسرار رسول الله صلى الله عليه وآله وأسرارَ أزكياء عبادِه الأوصياء بعد محمّد صلى الله عليه وآله فكتَموها، واتّقوا سَتْر العُلوم عن أهلها المستحقّين لها، وفيهم نشَروها»[2].

في بيان مراتب الهداية

أقول: هذا التفسير مُوافقٌ لما قيل من أنّ المُراد بالمتّقين الكامِلون في التّقوى، فإنّهم المُنتَفِعون به حقّ الانتِفاع ويتوصّلون به إلى أعلى درجاته الذي يتلو مرتبة العصمة، فلا يرد عليه أنّ هداية الكاملين في التّقوى تحصيلُ الحاصلِ، وتوضيحُ الدّفع أنّ الهداية لها مَراتب ثلاثة: هدايةٌ عامّة، وهي الهداية إلى الإسلام لجميع النّاس، وهداية خاصّةٌ لأهلِ الايمان إلى مرتبة التّقوى، وهدايةٌ أخَصّ للكامِلين في الإيمان والتّقوى إلى مقام المُقرَّبين.

عن الصادق عليه السلام: «المُتّقون شِيعَتُنا»[3].

أقول: لأنّهم عليهم السلام أُصول شجرةِالتّقوى، والدُّعاةإليه، وشيعتهم فروع تلكالشّجَرة، والمُجيبون للدّعوة.

ثمّ عرّفهم الله بأنّهم ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالغَيْبِ﴾ ويُصدّقون بما لا تُدرِكه الحَواسّ الظاهِرة من التّوحيد والبَعث والحِساب وجَزاء الأعمال وقيام القائم المنتظَر.

عن جابر بن عبدالله رضى الله عنهم ـ في حديثٍ ـ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «طُوبى للصّابرين في غيبته، طُوبى للمُقيمين على محبّته[4]، أُولئك مَن وصفَهم الله في كتابه، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالغَيْبِ﴾»[5] الخبر.

في بيان اختلاف مراتب اليقين واختلاف الأعمال باختلافها

ثمّ اعلَم أنّ الايمان الظاهريّ هو الإقرار باللِسان، والحقيقيّ منه هو الاعتِقاد القلبيّ واليقين الذي لا يَشوبُه قلق واضطِراب وشكّ، فإنّه مقابل الرَّيب الذي هو الاضطِراب في القَلب، ولا ريب أنّ للمُتّقين مَراتِبَ كثيرةً ضعفاً وشدّةً، وأعلى مراتبه ما لو كُشِف

١. التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام: ٣٢/٦٢.
٢. التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام: ٣٣/٦٧.
٣. تفسير العياشي ١: ١٠٥/١٠٨.
٤. في كفاية الأثر: للمتقين على محجتهم.
٥. كفاية الأثر: ٦٠، بحار الأنوار ٥٢: ٦٠/١٤٣.

الغِطاء عن المُوقِن ما ازداد يقيناً.

ولا شُبهة أنّ العمل يختلف باختِلاف مراتب اليَقين، حيث إنّه نورٌ ساطِعٌ في القلب، سارٍ شُعاعُه إلى الجَوارح، فبحَسَب انبِثاث شُعاعِه ينفُذ روح الايمان في الأعضاء وتتقوّى وتتحرّك للقيام بوظائفه، فبنُفوذ نور الإيمان وروجه في كلّ جارحةٍ يظهَر أثرُه فيه، فأثرُ إيمان القلب المعرفة والانقياد والخضوع، وأثرُ إيمان الدِّماغ التفكُّر والتَدبُّر في آيات الله ودلائل المبدأ والمَعاد، وأثرُ إيمان العَين الغَضُّ عن المحرّمات، والنّظَر إلى الآيات، وأثرُه في سائر الجَوارح أداء كلّ جارحةٍ وظيفتَها.

نعم، بعض الأعمال يشتَرِك فيه جميع الجَوارح كالصلاة، ولذا سمّاها الله بالإيمان في قوله: ﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِيعَ إِيْمَانَكُمْ﴾[1] وأراد به الصّلاة، ولذا خَصّها بالذِكر بعد الإيمان بقوله: ﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَاةَ﴾ ويتمرّنون لأدائها وحفظ أوقاتها وتعديل أركانها ورعاية فرائضها وسُنَنها وآدابها.

ويُمكن أن تكون الصلاة لكونها أهمّ الفرائض البدنيّة كنايةً عن جميع فرائضها في مقابل الفرائض الماليّة، أو تكون كنايةً عن جميع الأعمال التي يرجع صلاحُها إلى عامِلها من غير تعدٍّ إلى غيره، ويكون قولُه تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ ومتّعناهم به في الدّنيا ﴿يُنْفِقُونَ﴾ ويَبْذُلون، كناية عن جميع الفرائض الماليّة، أو جميع الأعمال التي فيها صَلاح الغير من بَذْلِ المالِ، وتَعليمِ العِلْم، وإعانة الغَير بالقُوى البدنيّة والجاه، وغير ذلك ممّا يحتاج إليه غيرُه وينتفع به.

عن الصادق عليه السلام: «وممّا علّمناهم يبُثّون»[2].

وفي رواية: «وممّا علّمناهم من القرآن يتْلون»[3].

والظاهر أنّ المُراد أنّهم يتْلُونه لَغيرِهم حتّى يتعلّموا، وقد جمَعت الآيتان جميعَ الوظائف القلبيّة والجوارحيّة والماليّة، فإنّ كلّها من لوازم التّقوى.

قيل: إنّ هذه الآية نزَلت في مُؤمني العرَب[4].

وَٱلَّذِينَ يُؤمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ * أُولَـٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِن رَبِّهِمْ وَأُولَـٰئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ [٤ و ٥]

---

١. البقرة: ١٤٣/٢.
٢. مجمع البيان ١: ١٢٢.
٣. تفسير القمي ١: ٣٠.
٤. تفسير روح البيان ١: ٤٠.

ثمّ بالغ في توصيفهم ومدحهم بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ﴾ ويُصَدّقون تصديقاً حقيقيّاً لسانيّاً وجَنانيّاً ﴿بِمَا أُنزِلَ﴾ من السّماء متدرّجاً ﴿إِلَيْكَ﴾ من القرآن وجميع أحكام شريعتك، أنّه كلامُ الله، ودِينُه المَرْضيّ عنده، وهذا الإيمانُ مُستلزمٌ للايمان بالرّسالة ﴿وَمَا أُنزِلَ﴾ من الكُتب على سائر الأنبياء ﴿مِن قَبْلِكَ﴾ أنّ جميعها كانت حجّةً من الله على اُمَمِهم وإن نُسِخت.

ولعلّ ذِكر الإيمان بالكتُب بعد الإيمان بالغَيب، لتَنزيله مَنزِلة الإيمان بالمَحسوس لوُفور دَلائل صِدْقها وحَقّانيّتِها ﴿وَبِالآخِرَةِ﴾ والمَعاد لجزاء الأعمال ﴿هُمْ يُوقِنُونَ﴾ لا يدخُل في قُلوبهم شَكٌّ ولا رَيب.

قيل: نزَلت في مؤمني أهل الكتاب[1]، وتخصيصُ اليَقين بالآخرة بالذِكر مع كونِه داخِلاً في الإيمان بالغَيب لكَمالِ مَدخَليّتِه في تَكميلِ النَفس واستِقامة العَمل، فإنّ ثَمَرة اليَقين بالآخِرة الاستعدادُ لها.

في أن المغرورين عشرة

قيل: عشرةٌ من المغرورين: من أيقَنَ أنّ الله خالِقُه ولا يعبُده، ومَنْ أيقَن أنّ الله رازِقُه ولا يَطمئِنّ به، ومَن أيقَن أنّ الدّنيا زائلةٌ ويعتَمِد عليها، ومن أيقَن أنّ الورثة أعداؤه ويجمَع لهم، ومَن أيقَن أنّ الموتَ آتٍ ولا يستَعِدّ له، ومن أيقَن أنّ القَبْرَ مَنزِلُه ولا يعمُره، ومَن أيقَن أنّ الدّيّانَ يُحاسِبُه ولا يُصحّح حجّتَه، ومَن أيقَن أنّ الصّراطَ مَمرُّه ولا يُخَفّف ثِقله، ومَن أيقَن أنّ النّارَ دارُ الفُجّارِ ولا يَهرُب منها، ومَن أيقَن أنّ الجنّةَ دارُ الأبرار ولا يعمَل لها[2].

قال بعضٌ: إنّ اليَقين بالآخِرة داعٍ إلى قصر الأمل، وقصر الأملِ يَدعو إلى الزّهدِ، والزّهدُ يورِثُ الحِكمَة، والحكمةُ تورِثُ النَّظَر في العَواقب[3].

وفي الآية تَعريضٌ علىٰ أهل الكِتاب حيث إنّهم يُثبِتون أمرَ الآخِرة على خِلاف حقيقته، وإنّ قولَهم به ليس عن إيقان، وإنّ اليقينَ ما عليه المُتّقون من المؤمنين بخاتَم النبيّين ﷺ.

وببالي فإنّ في رواية: «ما قُسّم بين العِباد شَيءٌ أقلّ من اليقين»[4].

في بيان الملازمة بين الإيمان بالمبدأ والإيمان بالمعاد

ثمّ لا يذهب عليك أنّ اليقينَ بالمَعاد مُستلزِمٌ لليَقين بالمبدأ، كما أنّ اليَقين بالمبدأ مُستَلزِمٌ لليَقين بالمَعاد، لأنّ اليقين بالصانِع يُلازِم اليقينَ بحكمَتِه، والحِكمةُ مُقتضِيةٌ لأن يكونَ بعد هذا العالَم عالَمٌ آخَر يُثابُ فيه المؤمن، ويُعاقَب فيه العاصي، وإلّا يلزَم

---

١. تفسير روح البيان ١: ٤٠.
٢. تفسير روح البيان ١: ٤٢.
٣. تفسير روح البيان ١: ٤٢.
٤. الكافي ٢: ٦/٤٣.

العبَث في الخَلْق، قال الله عزّ وجلّ: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾[١]، وقال: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَاءَ وَٱلأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ ٱلنَّارِ﴾[٢] إلى غير ذلك.

ثم بيّن سبحانه ثمَرةَ تقواهم وصِفاتهم الكريمة، بقوله ﴿أُولَـٰئِكَ﴾ المَوصوفون بهذه الصِفات الكريمةُ مختَصّون بالرُكوب ﴿عَلَىٰ﴾ طَريقِ ﴿هُدًى﴾ كامِل، وبَيان[٣] مَقامِ المُقَرَّبين بتفضّل كائنٍ ﴿مِنْ﴾ قِبَلِ ﴿رَبِّهِمْ﴾ حيث إنّه أرشَدهم إلى الحقّ، ووفّقَهم للطّاعةِ، وأعانَهم على تَحصيلِ مَرضاتِه ﴿وَأُولَـٰئِكَ﴾ الكامِلون في المَكارم ﴿هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ المُختَصّون بالنَّجاةِ والنَّجاحِ، الفائزون بالبُغْيَةِ والدَّرَجات.

وإنّما أشار إليهم بما يُشار إلى البَعيد، للإشعار بعُلوّ مَنزِلَتِهم ورِفْعَةِ مَقامِهم، وبُعدِهم عن غَيرهم في الأخلاق.

في معنىٰ الفلاح

وفي رواية، في ترجمة الأذان: «فأمّا قوله: حيّ على الفلاح، فإنّه يقول: أقبِلوا إلى بَقاءٍ لا فَناءَ معه، ونَجاةٍ لا هَلاكَ معها، وتعالَوا إلى حياةٍ لا مماتَ معها، وإلى نعيمٍ لا نَفادَ له، وإلى مُلكٍ لا زوال معه، وإلى سُرورٍ لا حُزنَ معَه، وإلى أُنسٍ لا وَحْشَةَ معَه، وإلى نورٍ لا ظُلْمَةَ معَه، وإلى سَعَةٍ لا ضِيقَ فيها، وإلى بَهْجَةٍ لا انقِطاعَ لها، وإلى غِنىً لا فاقةَ معَه، وإلى صِحَّةٍ لا سَقَم معَها، وإلى عِزٍّ لا ذُلَّ معه، وإلى قُوّةٍ لا ضَعْفَ معها، وإلى كرامةٍ يالَهامن كرامةٍ، وعجّلوا إلى سُرورِ الدُّنيا والعُقبى، ونَجاة الآخِرة والأُولى.

وفي المرّة الثانية: حيّ على الفلاح، فإنّه يقول: سابِقوا إلى ما دَعوتُكم إليه، وإلى جَزيل الكرامة، وعَظيمِ المِنَّة، وسَنيّ النِعمة، والفوز العظيم، ونعيم الأبد في جوار محمّد ﷺ في مَقعدِ صِدقٍ عند مليكٍ مُقتَدر»[٤].

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * خَتَمَ اللهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ[٦و٧]

---

١. المؤمنون: ٢٣/١١٥. ٢. سورة ص: ٣٨/٢٧. ٣. كذا، وتُقرأ أيضاً: وتبيان.
٤. معاني الأخبار: ١/٤٠، التوحيد: ١/٢٤٠.

ثمّ بالغ في توصيفهم ومدحهم بقوله: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ﴾ ويُصَدِّقون تصديقاً حقيقيّاً لسانيّاً وجَنانيّاً ﴿بِمَا أُنزِلَ﴾ من السّماء متدرّجاً ﴿إِلَيْكَ﴾ من القرآن وجميع أحكام شريعتك، أنّه كلامُ الله، ودِينُه المَرْضيّ عنده، وهذا الإيمانُ مُستلزمٌ للايمان بالرّسالة ﴿وَمَا أُنزِلَ﴾ من الكُتب على سائر الأنبياء ﴿مِن قَبْلِكَ﴾ أنّ جميعها كانت حجّةً من الله على اُمَمِهم وإن نُسِخت.

ولعلّ ذِكر الإيمان بالكتُب بعد الإيمان بالغَيب، لتَنزيله مَنزِلة الإيمان بالمَحسوس لوُفور دَلائل صِدْقها وحقّانيّتِها ﴿وَبِالْآخِرَةِ﴾ والمَعاد لجزاء الأعمال ﴿هُمْ يُوقِنُونَ﴾ لا يدخُل في قُلوبهم شكٌّ ولا رَيب.

قيل: نزَلت في مؤمني أهل الكتاب[1]، وتخصيصُ اليَقين بالآخرة بالذِكر مع كونِه داخِلاً في الإيمان بالغَيب لكَمالِ مَدخليّتِه في تَكميلِ النَفس واستِقامة العَمَل، فإنّ ثَمَرة اليَقين بالآخِرة الاستعدادُ لها.

في أن المغرورين عشرة

قيل: عشرةٌ من المغرورين: من أيقَنَ أنّ الله خالِقُه ولا يعبُده، ومَنْ أيقَن أنّ الله رازِقُه ولا يَطمئِنّ به، ومَن أيقَن أنّ الدّنيا زائلةٌ ويعتَمِد عليها، ومن أيقَن أنّ الورثة أعداؤه ويجمَع لهم، ومَن أيقَن أنّ الموتَ آتٍ ولا يستَعِدّ له، ومن أيقَن أنّ القبْرَ مَنزِلُه ولا يعمُّره، ومَن أيقَن أنّ الدّيّانَ يُحاسِبُه ولا يُصحّح حجّتَه، ومَن أيقَن أنّ الصِّراطَ مَمرُّه ولا يُخَفِّف ثِقله، ومَن أيقَن أنّ النّارَ دارُ الفُجّارِ ولا يَهرُب منها، ومَن أيقَن أنّ الجنّةَ دارُ الأبرار ولا يعمَل لها[2].

قال بعضٌ: إنّ اليَقين بالآخِرة داعٍ إلى قصر الأمل، وقصر الأملِ يَدعو إلى الزّهدِ، والزّهدُ يورِثُ الحِكمَة، والحكمةُ تورِثُ النَّظَر في العَواقب[3].

وفي الآية تَعريضٌ على أهل الكِتاب حيث إنّهم يُثبِتون أمرَ الآخِرة على خِلاف حقيقته، وإنّ قولَهم به ليس عن إيقان، وإنّ اليقينَ ما عليه المُتّقون من المؤمنين بخاتَم النبيّين ﷺ.

ويبالي فإنّ في رواية: «ما قُسِّم بين العِباد شَيءٌ أقلّ من اليقين»[4].

في بيان الملازمة بين الإيمان بالمبدأ والإيمان بالمعاد

ثمّ لا يذهب عليك أنّ اليقينَ بالمَعاد مُستلزِمٌ لليَقين بالمبدأ، كما أنّ اليَقين بالمبدأ مُستَلزِمٌ لليَقين بالمَعاد، لأنّ اليقين بالصانِع يُلازِم اليقينَ بحكمَتِه، والحِكمةُ مُقتضِيةٌ لأن يكونَ بعد هذا العالَم عالَمٌ آخَر يُثابُ فيه المؤمن، ويُعاقَب فيه العاصي، وإلّا يلزَم

---

١. تفسير روح البيان ١: ٤٠.

٢. تفسير روح البيان ١: ٤٢.

٣. تفسير روح البيان ١: ٤٢.

٤. الكافي ٢: ٤٣/٦.

العبَث في الخَلْق، قال الله عزّ وجلّ: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [1]، وقال: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَاءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [2] إلى غير ذلك.

ثم بيّن سبحانه ثمَرةَ تقواهم وصِفاتهم الكريمة، بقوله ﴿أُولَـٰئِكَ﴾ المَوصوفون بهذه الصِفات الكريمةُ مختصّون بالرُكوب ﴿عَلَىٰ﴾ طَريقِ ﴿هُدًى﴾ كامِل، وبَيان[3] مَقامِ المُقرَّبين بتفضّل كائنٍ ﴿مِنْ﴾ قِبَلِ ﴿رَبِّهِمْ﴾ حيث إنّه أرشَدهم إلى الحقّ، ووفّقَهم للطّاعةِ، وأعانَهم على تَحصيلِ مَرضاتِه ﴿وَأُولَـٰئِكَ﴾ الكامِلون في المَكارم ﴿هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ المُختَصّون بالنَّجاةِ والنَّجاحِ، الفائزون بالبُغْيَةِ والدَّرَجات.

وإنّما أشار إليهم بما يُشار إلى البَعيد، للإشعار بعُلوّ مَنزِلَتِهم ورِفْعَةِ مَقامِهم، وبُعدِهم عن غَيرهم في الأخلاق.

في معنىٰ الفلاح

وفي رواية، في ترجمة الأذان: «فأمّا قوله: حيّ على الفلاح، فإنّه يقول: أقبِلوا إلى بَقاءٍ لا فَناءَ معه، ونَجاةٍ لا هَلاكَ معها، وتعالَوا إلى حياةٍ لا ممات معها، وإلى نعيمٍ لا نَفادَ له، وإلى مُلكٍ لا زوال معه، وإلى سُرورٍ لا حُزنَ معَه، وإلى أُنسٍ لا وَحْشَةَ معَه، وإلى نورٍ لا ظُلْمَةَ معَه، وإلى سَعَةٍ لا ضِيقَ فيها، وإلى بَهْجَةٍ لا انقِطاعَ لها، وإلى غِنىً لا فاقةَ معَه، وإلى صِحَّةٍ لا سَقَم معَها، وإلى عِزٍّ لا ذُلّ معه، وإلى قُوّةٍ لا ضَعْفَ معها، وإلى كرامةٍ يالَهامن كرامةٍ، وعجّلوا إلى سُرورِ الدُنيا والعُقبى، ونَجاة الآخِرة والأُولى.

وفي المرّة الثانية: حيّ على الفلاح، فإنّه يقول: سابِقوا إلى ما دَعوتُكم إليه، وإلى جَزيل الكرامة، وعَظيمِ المِنَّة، وسَنيّ النِعمة، والفوز العظيم، ونعيم الأبد في جوار محمّد ﷺ في مَقعدِ صِدقٍ عند مليكٍ مُقتَدر»[4].

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * خَتَمَ اللهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ[٦و٧]

---

١. المؤمنون: ١١٥/٢٣. ٢. سورة ص: ٢٧/٣٨. ٣. كذا، وتُقرأ أيضاً: وتبيان.

٤. معاني الأخبار: ١/٤٠، التوحيد: ١/٢٤٠.

ثمّ أنّه لما كان من دأبِ الله تعالى في الكتابِ العزيز أنّه كلّما ذكر المؤمنين والمتّقين بخيرٍ ذكَر الكافِرين والفاسِقين بسوءٍ، وكلّما وعَد المؤمنين بالثّواب والرَحمة أوعَد الكفّار بالعَذاب والنّقمة، أردَف هنا ذِكر المُتّقين وتوصيفهم بأحسَن صِفاتهم، ووعَدهم بالفَلاح والنّجاح بذِكر الكُفّار الجاحِدين للحقّ، المُصرّين علىٰ الكُفر، وتوبيخهم بأخبَث أخلاقِهم، وتَوعيدهم بالعذاب والنَّكال، بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله ورسولِه كأبي جَهْل وأبي لَهَب وأضرابِهما من رُؤساء الضَلال الذين كانوا في ذلك العَصر مُصِرّين علىٰ التمرّد واللَّجاج والعِناد للحقّ.

ويُحتَمل أن يكونَ المُراد من المَوصول كلّ مَن صمّم علىٰ الكُفرِ تَصميماً لا يَرْعَوي بعده، دون غيرهم من الذين لم يَبلُغوا ذلك الحال، بقَرينةِ قوله تعالى: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ﴾ ولا يتَفاوت حالُهم ﴿ءَأَنْذَرْتَهُمْ﴾ وخوّفتَهم من عَذاب الله ودعَوتَهم إلى الإيمان ووَعظتَهم ﴿أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ﴾ فإنّ قلوبهم في أعلى مرتَبة القساوةِ، خارجةٌ عن قابلية التأثّر، ولذا سبَق في علم الله أنّهم ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بك وبكِتابك، فلا تُتعِب نفسَك في دَعوتهم، ولا تَطمع في إيمانهم حيثُ إنّه ﴿خَتَمَ ٱللهُ﴾ وطبع ﴿عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ فلا يدخُل فيها شيءٌ من المَواعِظ، ولا ينفُذ فيها نورُ الهِداية كما كانوا يقولون: ﴿قُلُوبُنَا فِى أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ﴾[١].

﴿وَ﴾ ختم ﴿عَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾ لا يدخُل فيه كلماتُ الوَعدِ والوَعيد والإنذارِ والتّهديد كما كانوا يقولون: ﴿وَفِى آذَانِنَا وَقْرٌ﴾[٢] ﴿وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ﴾ كأنّه ﴿غِشَاوَةٌ﴾ وغِطاء لا يخرُج منها نورٌ يَرَون به آيات الحَقّ.

روي عن الرّضا عليه السلام أنّه سُئل عن قول الله عزّ وجلّ: ﴿خَتَمَ ٱللهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِم وعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾ قال: «الخَتْمُ هو الطَبعُ على قلوبِ الكفّار، عقوبةً على كُفرهم، كما قال الله عزّ وجلّ: ﴿طَبَعَ ٱللهُ عَلَيْهَا بِكُفرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلاً﴾»[٣].

وعن العسكري عليه السلام: في تفسير ﴿خَتَمَ ٱللهُ﴾ أنّه قال: «وسمَها بسِمَةٍ يعرفها مَن شاء من ملائكته وأوليائه إذا نظروا إليها، بأنّهم الذين لا يؤمنون»[٤].

---

١. فصلت: ٥/٤١.　　٢. فصلت: ٥/٤١.

٣. عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ١٦/١٢٣، والآية من سورة النساء: ١٥٥/٤.

٤. التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام: ٥٣/٩٨.

ولعلّ المُراد من الخَتْم والسِمَة الظُلْمَة المُحيطة بقُلوبهم بسببِ تَمادِيهم في الكُفر وإصرارهم على العِصيان، يَراها كلّ مَن له بصيرةٌ نافذة، وإسناده إلى الله لكونها بخِذلانه إيّاهم، وهو من أشَدّ العُقوبات، فإذا انتهى حالُ قُلوبِهم إلى أعلى مرتَبةِ القَساوة والظُلْمَة فلا يُمكِن إيمانُهم إلّا بالقَسْر والإلجاء المُنافِيَين للتكليف، وفي تَنكير الغِشاوة إشعارٌ بأنّها ليست من الغِشاوات العاديّة.

في بيان معنى الاختيار وحقيقته

إن قيل: على هذا كان تكليفهم بالايمان بعد الخَتْم تكليفاً بغير مقدور وهو محال.

قلنا: مع ذلك كونهم مكلّفين بالايمان قادرين عليه مختارين فيه، من أوضح الواضحات، وأبدَه البديهيّات.

وتوضيحه أنّ القدرةَ عبارةٌ عن قوّةٍ في الجَوارح، وخصوصيّات فيها، لو أراد صاحبها عملاً تمكّن بها من إيجاد ذلك العمَل، ولذا لا تُضاف إلّا إلى الأفعال الجَوارحيّة الإراديّة بالبَداهة. فكلّ عملٍ يكون من مَبادئ وجودِهِ الإرادةُ، يكونُ من مَبادئ وجودِهِ الإرادي القُدرَة، وكلّ ما لا يكون من مبادئ وجوده الإرادة، لا يكون مقدوراً، فالقُدرَةُ بوجودها العِلمي أو الاحتمالي من شَرائط تحقّق الإرادة، وصدور الفِعل عن الاختِيار.

وعلى هذا لا تكون نفس الإرادة ومبادئها من العَزم والجَزم ممّا يُضاف إليها القدرة، لعدَم كونِها إراديّة، لوضوح أنّ الإرادة لا توجد بأعمال الجَوارح، بل هي معلولة للدّاعي، وهو عِلم الفاعل بصَلاح الفِعل، وهذا يختلِف باختِلاف الأنظار الناشئ من اختِلاف مراتب العُقول والشّهوات، ومن البَديهيّ أنّه لا يُعتَبر في صِحّة التكليف أن يكون عَقلُ المكلّف في أعلى مرتبة الكمال، بحيث لا يصيرُ مغلوباً للشّهوة أبداً، فإنّ هذه مرتبة العِصْمَة.

والحاصل: إنّ الدّاعي المؤثرّ في الإرادة تابعٌ لقوّة العقل وضَعْفِه، والعِلمبالصّلاح في المُراد يكون بنظَر الفاعِل، فالدّواعي الحَسَنة مَعلولة لقوّة العَقل وطِيب الطّينة وجَودة النَظَر وكمال البصيرة، والدّواعي السيئة مُنبَعِثة من ضَعْفِ العَقل وخُبْث الطِّينة وغَلَبة الشَّهْوَة وقُصور النَظَر وعدَم البَصيرة.

فاذا كان الطبعُ مجبولاً على رَذائل الأخلاق والصّفات، والنّفس مَعيوبة ومغمورة في الظُلماتِ، والعَقْل ضعيفاً مغلوباً للشّهوات؛ فلا محالة يَصير القلبُ مغلوباً لا يستقرّ فيه جَواهر الحكم، والبصَر محجوباً لا يُميز النورَ من الظُّلَم، فعند ذلك يَتِيهُ مَن هذا حالُه في وادي الجَهْل والغواية، ولا يُرجى منه الرُشْد والهِداية، ولا ينقَدِح في قَلبِه إرادَة الخَير والصَلاح، ولا يَصدُر منه خيرة الفوز والفَلاح، ويكون

أضَلّ من الأنعام، ويتأنّف من الانقياد للمَلِك العَلّام، ويفتَخِر بعِبادة الأصنام، وتكون لذّته في الشرّ والفَساد، وشَوقُه إلى الظُلم على العِباد.

ومن الواضِح أنّ جميع ذلك بقُدرَتِه وإرادته، إذ القدرَةُ كما قُلنا ليست إلّا التمكّن من إيجاد ما أراد فِعلَه أو تَرك ما أراد تركه، وتناسب جَوارحه لصُدوره من غير ضَعفٍ وقُصور، والإرادةُ هي انبِعاثُ النَّفس إلى إيجاد ما فيه صَلاحٌ بنَظَرِه، وإن كان الانبِعاثُ ناشِئاً من الدَّواعي الشَّهوانيّة وخُبث الذّات والطِّينة، أو بإيجاد الله تلك الدّواعي في قَلبه.

إن قيل: على هذا يَلزَمُ الجَبْر، ويَنْتَفي الاختيار.

في أنّ تعلّق الإرادة التكوينية بأفعال العباد لا يستلزم الجبر ولا ينافي الاختيار

قلنا: لا شُبْهَةَ أنّ الاختيار في اللُّغةِ هو طَلَبُ الخَير، كالاكتِساب والاختيار، وإنّما اُطلِق على الإرادة بِلحاظ أنّها معلولةٌ من العِلم بالخَيرِ والصَّلاح في الفِعل المُراد، ومؤثّرة في إيجاده، إذ ليس وُجودُها الخارجيّ ومِصداقُها الحقيقي إلّا توجّه النَّفس إلى فِعلٍ لاحظَ الفاعِلُ فيه خيرَه، أو تَرك شيءٍ لاحظَ في فِعلِه شَرّه، فإذا وُجِد الفعل وكانَ الجُزء الأخير من علّته تلك الإرادة فهو اختياريّ، أي منسوبٌ إلى الاختيار ومعلولٌ له، ولا معنى لاختياريّة الفِعل غير كونه مَوجوداً بالإرادة، ولا يُعتَبر فيها أن تَكون إرادتُه موجودةً بإرادةٍ اُخرى، بل يستَحيل أن تَكونَ الإرادةُ للتّالي إراديّة، للزوم التَسَلْسُل، وإن أمكَن أحياناً وعلى حسَب الاتّفاق كونُ بَعضِ مَباديها إرادياً إلّا أنّه لابُدّ من انتِهائه إلى ما لا يكون بالإرادة.

وبالجملة لا يُعتبَر في اختياريّة الفِعل إلّا إرادةٌ واحِدةٌ معلولةٌ للعِلم بالصَّلاح في المُراد، وإن كان ذلك العِلم حاصِلاً من غير المَبادئ الاختياريّة أو بإرادة الغَير، فإنّ جميع التسبيبات يكون بإيجاد الدّاعي في ذِهن المُباشر. مثلاً إذا أراد أحدٌ تحريكَ غيرِه وبَعثَه إلى قتلِ نفسٍ محترمةٍ بالإرادة التكوينيّة، لابُدّ له من إيجادِ الدّاعي لِمَن يُريد بَعثَه، وهو يكونُ بوَعْدِه بِما يشتاقُ إليه، ويجعَل بَوعدِه المُلازَمة بين ذلك الفِعْل وَنَيْلِ مَطلوبِه من مالٍ أو جاهٍ، فإنّ الوعدَ في الحقيقةِ جَعلُ المُلازمةِ بينَ المَوعود والموعود عليه، فإذا علم مَن اشتاقَ إلى مالٍ أو جاهٍ بأنّه يكون في قَتْل النَّفْسِ الوُصولُ إلى ذلِك المال أو الجاه، فعند ذلك يؤثّر ذلك العِلم في تعلّق إرادته بالقَتْل، فإذا انقدَح في قَلْبِه إرادَتُه تحرّكت جِوارحُه نحو القَتْل، ولِكَون فِعله معلوماً عنده بعُنوانه ومَوجوداً بإرادته وقُدرَتِه، يستَحِقّ اللّوم والعِقاب، وإن لم يكن وُجود الدّاعي المؤثر في إرادته بفِعله وإرادَتِه، بل بفِعل غَيرِه والوَعد

الحاصِل مِن مُحرّكه.

وبالجُملة لا شُبهَة أنّه يكفي في كَون الفِعل اختيارياً تحقُّق إرادةٍ واحِدة متعلّقة بـه، معلولة لداعٍ مَوجود بالأسباب الاتّفاقية، ولا يَحتاج إلى إرادات طوليّة.

وممّا يوضح ما ذكَرنا أنّ أفعال الله عزّ وجلّ اختيارية بالضّرورة من العقل، وليس إلّا لكَونها صادِرَةً عن إرادَته التي هي عَينُ عِلمه بالصّلاح التّامّ، وهذا العِلم هو عَينُ ذاتِه، ليس موجوداً بعِلمٍ آخَر متعلّق بصَلاحِ ذلك العِلم.

فتحصّل ممّا ذكَرنا أنّه لا يخرُج الفِعلُ إذاكان الدّاعي إليه باقتِضاء الذّات، أو بايجاد الغَير، أو بإفاضة الله، عن كَونهِ اختيارياً، ولا يكون فاعِلُه بالإرادة مجبوراً، لبدَاهةِ التضادّ بين كَونِ الفاعِل مُريداً وكونه مجبوراً، إذ من الواضِح قُبح السّؤال عمّن أخبَر أنّه فعَل فِعلاً بإرادتِه: أكُنتَ مَجبوراً أم مختاراً فيه؟ ولوُضوح أنّه ليس الفارِقُ بين حركة المُختارِ والمُرتَعِش إلّا أنّ المُرتَعش لا تكونُ حركَته بالإرادة، بخِلاف المُختار فإنّها بالإرادَة والدّاعي.

في أنّ ختم القلب وصدور الكفر والمعاصي بخذلان الله وإرادته التكوينية لا ينافي صحة العقوبة عقلاً عليها

وليس تَعريفُ الفِعل الاختياري وحقيقته عند الوُجدان إلّا أنّه لو شاء فعَل، ولو لم يشأ لم يفعَل، وليس في تعريفه وحقيقته أنّه لو شاء شاء، ولا شُبهةَ أنّه إذاكان شَخصٌ بهذه الصِفَة صحّ تكليفه وعقوبته.

ثمّ لا مجَال للإشكال على صِحّة العُقوبة بأنّه مع حصولِ الخَتْم في القَلْب واستِناد الكُفر والعِصيان إلى الإرادة المُستَنِدة إلى الدّاعي غير الاختياري يكونُ العِقابُ عليهما عِقاباً على ما لا بالاختيار، وهو ظُلمٌ وقَبيحٌ.

إذ بعد ثبوت كون الكُفر والعِصيان بالإرادة، وتأثير قُدرَة الكافِر والعاصي في كُفرِه وعِصْيانِه، يَحكم العقلُ بحُسنِ العُقوبة والذّمّ عليهما، إذ لا مَدْخَل لغَيرِ الالتِفات إلى عُنوان الفِعل ووجَهِ كَونِه قَبيحاً وصُدوره عن الإرادة في استِحقاق العقوبة وحُسنِها، وقد تحقّق أنّ العقل هو الحاكم بالاستِقلال في الحُسنِ والقُبْح في المَقام.

وبعبارة أُخرى أنّ حُسن العقوبة والمَثوبة ليس إلّا مُلاءمتها لِمَذاق العَقل، والعقلُ يجدُ المُلائمة بين العُقوبة وصُدور القَبيح إذا كان منتهياً إلى مبدأ الإرادة ولو لم تكن الإرادة بالإرادة، ولا اعتِراض عليه، ولا يُسئل عمّا يَحكُم وهم يُسألون، والظُّلمُ هو العقوبة التي لا يحكُم العَقْل بُحسْنِها، ولا يَجد لها

وقُدرَته ومَيْله وشهوته، بلا قَسرٍ ولا قَهرٍ ولا جَبْر، مع أنّه قد يكون أكلُ ذلك الطعام قبيحاً بالنسبة إلى الآكل لكَونِه غَصباً، وإيجاده بالمقدّمات الإرادية حَسَناً من الله تعالى لكونه مُرتَبطاً بالنظام الأتمّ.

ثمّ اعلم أنّ من العناوين القابلة للوجود المرتبطة بالنظام، عنوان الطاعة والعبوديّة، وعنوان الطُّغيان والمَعْصِية، حيث كان الغرَض من إيجاد المَوجودات معرفته تعالى بأسمائه الحُسنىٰ، وصِفاته الجَماليّة والجَلاليّة، فلو لم توجد الطّاعة والعبوديّة، لم تظهَر صِفة لُطفه ورَحمته ورأفته، ولو لم يوجد عنوان الطُّغيان والكُفر، لم تظهَر صفة قهّاريته، ولو لم يوجد عنوان المَعصية لم تظهَر صِفة عَفْوه وغَفوريّته، فعلى هذا تتعلّق الإرادة التكوينيّة بإيجادها بتوسّط إيجاد أسبابها ومقدّماتها.

ومن الواضح أنّ من جُملة مقدّماتها جَعْل الأحكام التكليفيّة والوَضعيّة، وإرسال الرُّسُل وإنزال الكتُب، والوَعد بالثّواب، والوَعيد بالعِقاب، فتَنشأ الأحكام طبقاً للإرادات التشريعيّة التي هي عين العِلم بحُسن بعض الأفعال وصَلاحه بالنسبة إلى المكلّف، وقُبح بعضِها وفَساده، بالإضافة إليه على اختلاف مراتبهما من الحُسن والقبح المُلزمين وغير المُلزمين، وعلى اختِلاف درَجات الصَّلاح والفَساد من المهمّ وغيره، فبالإنشاء البَعثيّ والزَّجريّ الناشئ من تلك الإرادة التشريعيّة يحدُث الوجوب والاستِحباب، والحُرمة والكراهة.

فظهر من ذلك الفَرق بين الإرادة التكوينيّة والتّشريعيّة، وأنّ الأولىٰ: هي العِلمبحُسن الإيجاد، وارتباط المَوجود بصَلاح النّظام الأتمّ. وأنّ الثانية: هي العلم بحُسن صدور الفِعل من فاعِله وقُبحه، وصَلاحه أو فساده بالنسبة إليه، وأنّه لا تَنافيَ بين قُبح صُدوره من مُباشره وحُسن التسبّب إليه من سبَبه، وإنّه لا تَنافيَ بين كَونِهِ اختياريّاً بالنسبة إلى المُباشرة واستِحقاقه الثواب أو العقاب عليه، وبين انتِهاء وجوده بعِلَلِه الطوليّة إلى إرادة الله، وإنّه لا تَنافيَ بين كون إيجاده وصدوره متعلّقاً بالإرادة التّشريعيّة، وتَركه متعلّقاً للإرادة التكوينيّة، لِما ذكَرنا من أنّ الإرادة التشريعيّة في طول الإرادة التكوينيّة، ومن مبادئ إنفاذِها، حيث إنّه لو لم تكن الإرادة التّشريعيّة، لم توجد الطّاعة والمَعصِية اللّتان تَكونان متعلّقَتين للإرادة التكوينيّة.

في وجه الحاجة إلى ارسال الرسل وإنزال الكتب وأنّ الأحكام التكليفية ألطافٌ من الله تعالى

واتّضح أيضاً وجه الحاجة إلى إرسال الرّسل وإنزال الكتُب وإظهار المُعجزات وفَوائدها.

ثمّ لمّا كانت الأحكام التكليفيّة مُقربات إلى المحسّنات العقليّة، ومُبعّدات عن

قبائحها، لكونها دَواعي الى إتيان ما يأمر به العَقل لحُسنِه أو صَلاحِه، وإلى تَرْك ما ينهىٰ عنه العقل لقُبحِه وفَساده، كانت جميعُها ألطافاً من الله، والتّوفيق للقيام بها رحمة وعُطوفة منه[1]؛ لأنّ العمل بها مؤثّر في كمال النَّفس، ونورانيّة القَلب، والطَّهارة من الأخلاق الرَّذيلة السَّيّئة، والتَّحَلّي بالمَلَكات الجمَيلة الحسنة، ويكون الانسان بها كاملاً في الجهات الانسانيّة، ومظهراً للصفات الإلهيّه، وهذا الكمال والمَظهرية هو حقيقة القُرب إلى ساحة الرّبوبية، والفوز بالمَقصَد الأعلى من التمحّض في العبوديّة، والاستِغراق في بحار الأنوار، والإرتقاء إلى درجةٍ لا تَرقىٰ إليها العُقول والأفكار.

ثمّ إنّه تعالى بعد بَيان تعذيب الكُفّار بالطّبع والخِذلان، هدّدَهم بقوله ﴿وَلَهُمْ﴾ خاصّة في الآخرة أو في الدُّنيا والآخِرة ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ لايُدرِكُ شدّته وعظمَته إلّا الله، أمّا في الدّنيا فبالآلام الواردة عليهم من الأخلاق السيّئة والذّلة والمَسْكَنة والطّرد والشّرد والقَتل وسائر البَليّات، وأمّا في الآخِرَة فبِنَارٍ سجَّرها القهّار بغضَبه، لا يُقضىٰ عليهم فيموتوا، ولا يُخَفّف عنهم ساعةً وهم فيها خالِدون.

في أنّ وجه صحّة تعذيب العصاة وإثابة المطيعين هو الاستحقاق العقلي وحسنهما في حكمه.

ثمّ لا يَخفى أنّ عِلّة تعذيب الكُفّار والعُصاة لا تكون إلّا استِحقاقهم الذي يَحكم به العقل عند عِصيان العَبيد مَواليهم الذين تجِبُ طاعتُهم، فإذا تحقّق الاستِحقاق يجب على الحكيم العمَل بمُقتَضاه، إذِ الحكمةُ هي وَضعُ الشيءِ في مَوضعِه، وإعطاءُ الشّيء مايستَحِقّه.

إن قيل: لا شُبهةَ في أنّ العَفْوَ عن عقوبةِ مَن يستَحقّها حَسَنٌ في حُكمِ العَقل، فيجب على الله بمُقتَضى حِكمَتِه وكَرَمِه.

قلنا: قد تكون المَعصيةُ من القُبحِ بمَرتبةٍ لا يَحسُن العَفو عن عُقوبتِها، ويكون العَفو عنها مُخالِفاً للحكمة، حيث إنّه كما يُعتَبر في الإحسان قابليّة المَحلّ، كذلك يُعتَبر في العَفْو، مثلاً إذا رأىٰ كريمٌ أجنبياً مع زوجته أو بعض مَحارِمه ونَواميسِه كأُمّه وبِنْتِه قَبُح العَفْو عنه، إذِ العَفْو في المَقام كاشِفٌ عن عدَم الغَيرة. ولذا أمَر رسول الله ﷺ علياً بقَتْلِ جُرَيح القِبْطيّ بمُجرَّد سَماع رَمْيِهِ بمُراودة ماريَة عن نَفسِها، وكان ﷺ يقول: «كان أبي إبراهيم غَيوراً، وأنا أغيرُ منه»[2].

ولنوضّح المَقام ببيانِ مقدّمة، وهي أنّ فِعلَ القَبيح عند العَقل والعُقَلاء مُقْتَضٍ لاستِحقاق اللَّوم، والعِصيانُ من العَبد مُقْتَضٍ لاستِحقاق العُقوبة من المَولى، والمُراد من الاستِحقاق حُسن اللَّوم

---

١. كذا، والمصدر من عَطَف: عَطْفاً وعُطُوفاً.

٢. مكارم الأخلاق: ٢٣٩.

والعُقوبة في المَوضِعَين، وحقيقةُ الحُسنِ والقُبحِ هي المُوافَقَة لمَذاق العَقل والمُنافَرة له، ولا شُبهةَ أنّ لكلٍّ منهما مَراتِبَ في الشّدّةِ والضَّعفِ باعتِيار قوّة منشأهما وضَعفه، فقد يكونُ الحُسنُ في فِعلٍ بمَرتَبةٍ لا يُزاحِمُه حُسنٌ آخر إذا دارَ الأمرُ بينَهُما، ولا قَبيح إذا استَلزَمه فيَحسُن ارتِكابه، وإن لَزِم منه وجودُ قبيحٍ آخَر أو فَوتُ حُسنٍ آخَر، وقد تُساوي جِهَةُ حُسنةٍ جِهَةَ حُسنٍ ضِدّه الذي لا يُجامعه في الوجود، أو جِهَة قُبحٍ لازمِه، فتَخيّر الفاعِل بين الضِدّين في الأوّل وبين النَّقيضَيْنِ من الفِعل والتَّرك في الثاني، وقد تترَجّح إحدىٰ الجِهَتَين على الأُخرى رُجحاناً غيرَ لازمِ الرّعاية، فتكون رِعايتُها أحسَن وأفضَل.

إذا تمَهّدَ ذلك نقول: لا شُبْهةَ في أنّ المَعصِية منشأٌ لانتِزاع حُسنِ اللّوم والعقوبة من حيث إنّها كاشِفةٌ عن خُبْثِ النَفس وسوء السَّريرة، ثمّ إنّه قد يُتَدارك بالتّوبة أو بطاعةٍ مقبولةٍ فينتفي بوجود أحدِهما منشأ انتِزاع حُسنِ العُقوبة.

وبعبارةٍ أُخرىٰ التَوبةُ أو الطاعةُ المَقبولَةُ في حُكمِ العَقل مُزاحِمانِ لمُقتَضى الاستِحقاق ومُزيلان له، ومع عدَمِهما قد يكون حُسنُ العَفوِ مُساوياً لحُسنِ العقوبة، وقد يترَجّح عليه برُجحان غير مُلزم فيما لم يكن مُقتَضى العُقوبة في غايةِ القوّةِ، مثلاً الكُفر والشِركُ يكونانِ في اقتِضاء العقوبةِ بدرجةٍ يُخرِجان صاحِبَهما عن قابليّة العَفوِ، حيث إنّهما يُورِثان ظُلمَةً مُحيطَةً بالقَلبِ، بحيث لا تبقى فيه شائبة النور، ويخرُج عن مُسانَخَةِ عالَمِ الأنوار، ويصير مُناسِباً لعالم الظُّلمات، ويكونُ كالشَّجَر اليابِس لا يَليق إلّا للإحراق بالنّار، وكالشَّيطان لا ينبغي إلّا أن يكونَ قَريناً للشّياطِين في دار البَوار، وليس إسكانُه في الجِنان إلّا كإسكانِ الكَلبِ الأجرَب العَقور على سَرير السُّلطان.

في بيان أنّ العفو عن الكافر خلاف الحكمة ووضع الشيء في غير موضعه

والحاصل: إنّ العفوَ عنه، والرَّحمة عليه، والإحسان إليه، خِلافُ الحِكمة، ومن قَبيلِ وَضع الشَّيء في غير مَوضِعه، وقد ورد في الدّعاء المأثور: «وأيقَنتُ أنّك أنتَ أرْحَمُ الرّاحِمينَ في مَوضِعِ العَفْوِ والرَّحْمَة، وأشَدّ المُعاقِبين في مَوضِع النّكالِ والنَّقِمَة»[١]. فإنّ من الواضِح أنّ الشّقاوة ملازمةٌ للبُعد والهَلاك، وإنّما الوَعدُ بالعَذاب في الحقيقة إخبارٌ بوجود الملاك.

١. إقبال الأعمال: ٥٨.

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا باللهِ وَباليَوْمِ ٱلاخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ * يُخَادِعُونَ اللهَ وَٱلَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُون إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ[٨ و ٩]

ثمّ إنّه تعالى بعد ذِكر المتّقين ومَدْحِهم بالصِفات الحَسَنة ووَعدِهم بالهُدى والفَلاح، وذِكر الكُفّار وذمِّهم بالأخلاق السيّئة وتَوعيدِهم بالعَذاب العظيم، شرَع في بيانِ حالِ القِسم الثالثِ من النّاس، وهم المُنافِقون الذينَ يُظهِرون الإسلامَ ويُبطِنون الكُفرَ، بقوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ يَقُولُ﴾ بلسانه ﴿آمَنَّا باللهِ وَباليَوْمِ الآخِرِ﴾ والحالُ أنّهم كاذِبون فيما يقولون ﴿وَمَا هُمْ بِمُؤمِنِينَ﴾ ولا مَعدودِين في زُمرَتِهم لعدَم دُخول الإيمان في قلوبهم.

عن القمّي ﵀: أنّها نزَلت في قومٍ مُنافِقين أظهَروا لرسولِ الله ﷺ الإسلام، وكانوا إذا رأَوا الكُفّار قالوا: إنّا معكم. وإذا لَقوا المؤمنين قالوا: نحن مؤمنون[١].

وعن الصادق ﵇ أنّه قال: «إنّ الحَكم بن عُتيبة ممّن قال الله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا باللهِ وَباليَوْمِ ٱلآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ فَلْيُشَرِّق الحكَم وَلْيُغَرِّب، أما والله لا يُصيبُ العِلمَ إلّا مِن أهلِ بيتٍ نزَل عليهم جَبْرَئيل ﵇»[٢].

وعن (تفسير الإمام ﵇): عن موسى بن جعفر صلوات الله عليهما - في روايةٍ طويلةٍ ذُكر فيها قضيّة يومَ الغَدير، ونَصْبَ رسولِ الله ﷺ عليّاً ﵇ للخِلافة، وأمره الصَّحابة ببَيْعَتِه بإمرة المؤمنين - إلى أن قال: ثمّ إنّ قوماً من متمرّدي جَبابرتهم تَواطؤوا بينهم إن كانت لمحمّد كائنة لندفعنّ هذا الأمر عن عليّ، ولا يترُكونه [له]، فعرَف الله ذلك في قلوبهم. وكانوا يأتون رسولَ الله ﷺ ويقولون له: لقد أقمتَ عليّاً أحَبَّ خَلقِ الله إلى الله وإليك وإلينا، كفَيْتَنا به مُؤنةَ الظَّلَمة والجبابرة، وسياستنا[٣].

وَعلِم الله في[٤] قلوبهم خِلاف ذلك ومواطأة[٥] بعضهم لبعضٍ أنّهم على العَداوةِ مُقيمون، ولدَفعِ الأمر عن مُؤثره[٦] مُؤثِرون، فأخبر الله تعالى محمّداً ﷺ عنهم، فقال: يا محمّد ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا باللهِ﴾ الذي أمرَك بنَصْبِ عليٍّ إماماً وسائساً لأُمّتك ومُدبِّراً ﴿وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ بذلك ولكنّهم مواطئون على هلاكك وهلاكه»[٧] الخبر.

---

١. تفسير القمي ١: ٣٤. ٢. الكافي ١: ٤/٣٢٩. ٣. في المصدر: والجائرين في سياستنا.
٤. في المصدر: من. ٥. في المصدر: ومن مواطأة. ٦. في المصدر: مستحقه.
٧. التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري ﵇: ٥٨/١١٢. وفيه: ولكنّهم يتواطؤون على إهلاكك وإهلاكه.

أقول: الظاهِر ـ بالنّظر إلى الرّوايات ـ أنّ شأنَ نزولِ الآية جَماعة المُنافقين الذين كانوا من أصحابه ﷺ ولكنّها جارية على سائر المنافقين في سائر الأزمنة إلى يوم القيامة، وفيها دلالةٌ على أنّه لا ينبَغي الوُثوق بإيمان كلّ مَن كان داخِلاً في الصّحابة وعَمَله وقَوله حسَناً في الظاهِر، كما هو مبنىٰ مذهب العامّة، وفيها إشعارٌ أيضاً بأنّ أهمّ أركانِ الإيمانِ هو الإيمانُ بالمَبْدأ والمَعاد.

ثمّ قَرعهم الله بقوله: ﴿يُخَادِعُونَ اللهَ﴾ بمُعاملتهم مع رسوله معاملةَ المُخادع، ولكونه ﷺ خليفةَ الله ومظهَر صِفاته وعَينه الناظِرة ويَده الباسِطة وأُذُنه الواعية نَزّل مُخادَعته مَنزِلة مُخادَعة الله.

عن ابن بابويه: عن الصادق عليه السلام عن أبيه «[أنّ رسول الله ﷺ] سُئل: فيما النّجاة غَداً؟ فقال: إنّما النَّجاةُ في أن لا تُخادعوا الله فيَخدَعكم، فإنّه مَن يُخادِع الله يَخْدَعه ويخلَع منه الإيمان، وَنفسَه يخدَعُ لو يَشْعُر. فقيل له: وكيف يُخادع الله؟ فقال: يعمَل بما أمرَه الله عزّ وجلّ به ثم يُريد به غيرَه، فاتّقوا الله واجتنبوا الرياء فإنّه شِرْكٌ باللهِ عزّ وجلّ، إنّ المُرائي يُدعى يوم القيامة بأربعَة أسماء: يا كافِر، يا فاجِر، يا غادِر، يا خاسِر»[1] الخبر.

وفيه دلالة على أنّ مخادعة الله لا تختصّ بالمُنافق المَعروف، بل تعمّ كلّ مَن يُظهِرُ شأناً ومقاماً من الدّين وهو ليس بواجدٍ له، وكلّ مَن يُظهِرُ حَقّاً لا يُوافِقُ ظاهِرُه باطِنَه ﴿وَ﴾ يخادعون ﴿ٱلَّذِينَ آمَنوا وَمَا يَخْدَعُونَ إلّا أَنْفُسَهُمْ﴾ لأنّ ضَرَرَ مُخادَعتِهم راجِعٌ إلى أنفُسِهم لا إلى المؤمنين ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أنّهم بخَدِيعتِهم ونِفاقهم يَضُرّون على أنفُسِهم، بل يَحْسَبونَ أنّهم يجلِبون النَّفْعَ، أو لا يشعُرون أنّه لا يُمكِنُهم الخَديعة بالنّسبة إلى الله ورسوله ﷺ والمؤمنين، فإنّ الخُدعَة فِعلُ ما هو مُضِرٌّ على الغَير مع إخفاء ضُرِّه وإظهار صَلاحِه، والله مُطّلِعٌ على خَفايا اُمورهم، وكُفرِ باطِنهم، وهو يُطْلِعُ نبيَّه والمؤمنين، ويأمُرهم بلَعْنِهم، فيكون الأمرُ بخِلاف ما تخيّلوا، حيث إنّ نِفاقَهم مُضِرٌّ عليهم مع خَفاءِ ضَررَه عنهم، وفي سَلْبِ الحَواسّ الحَيوانية عنهم دلالةٌ على انحطاطهم عن مَرتبة البَهائم.

وفِى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللهُ مَرَضاً وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكذِبُونَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِى ٱلأَرضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ * أَلا إِنَّهُمْ هُمُ ٱلمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ[١٠ ـ ١٢]

---

١. أمالي الصدوق: ٩٢١/٦٧٧.

ثمّ كأنّه يقال: ما سبَب نِفاقهم مع وضوح الحقّ؟ فقال تعالى: ﴿فِى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ عَظيمٌ من الحَسَدِ والكِبر وحُبّ الجَاه والعِناد للحقّ، فأورَث فَسادَ أوراحِهم وهَلاكهم الأبديّ، وأينَ هذا المَرَض من الأمراضِ الجسمانيّة التي غايةُ شِدّتها أن تَنْتَهي إلى المَوت وفساد الجسد!

وفي الحديث: «القلوبُ أربعَة: قلبٌ فيه نِفاقٌ وإيمان، إذا أدرَك المَوتُ صاحِبَه على نِفاقه هَلَك، وإن أدرَكَه على إيمانه نجا، وقلبٌ مَنكوسٌ وهو قلبُ المُشرِك، وقلبٌ مَطبوع وهو قَلبُ المُنافِق، وقلبٌ أزهَر أجرَد وهو قلبُ المؤمن، فيه كهيئةِ السِّراج، إن أعطاهُ اللهُ شَكَر، وإنِ ابتَلاهُ صَبَر»[1] الخبر.

﴿فَزَادَهُمُ اللهُ﴾ بسببِ ظهور الآيات، وتَوافُر المُعجِزات، وزيادة حِشْمَةِ النبيّ ﷺ، وقوّة الإسلام ﴿مَرَضاً﴾ وحسداً زائداً على حَسَدِهم، وبُغضاً وعِناداً أشدّ من بُغضِهم وعِنادِهم السّابق، فإنّ الأمراض القلبية تتزايد، والصِفات الذّميمة تَشْتَدّ إذا لم تُعالَج عند الأطبّاء الروحانيين وهم الأنبياء والأولياء.

ثمّ هدّدهم الله بقوله: ﴿وَلَهُمْ﴾ في الآخِرَةِ ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ بالِغٌ ألَمُه غايتَه ﴿بِما كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ في قولهم: آمَنّا بالله وباليوم الآخِر، أو قولهم: إنّا على البَيعةِ والعَهْدِ مقيمون.

ثمّ بالَغ سبحانه في بَيان غايةِ خُبْثِهم وقَساوَتِهم ببَيان عدَم قَبولِهم النُّصْحَ، بقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ نُصْحاً وَوَعْظاً، والظاهر أنّ القائلَ بعَضُ المؤمنين المُطّلِعين على فَساد نيّتِهم وإفسادهم ﴿لَا تُفْسِدُوا فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

قيل: كان فَسادُهم فيها أنّهم كانوا يُمايلون الكُفّار على المسلمين بإفشاءِ أسرارِهم إليهم، وإغرائهم عليهم، وذلك ممّا يؤدي إلى هَيْجِ الفِتَنِ بينهم.

وقيل: هو مُداراتهم الكفّار ومُخالطته إيّاهم، حيث يُوهم ذلك مع تَظاهُرِهم بالإيمان، ضَعْفَ أمر النبيّ وأصحابه، فيصير سبَباً لطمَع الكُفّار فيهم فتهِيج الفِتَن والحُروب بينَهم.

وقيل: كانوا يَدْعُونَ في السِّرّ إلى تكذيب النبيّ ﷺ، ويُلقونَ الشُّبَهَ في قُلوب المؤمنين.

وعن ابن عبّاس: أنّ المراد بالإفسادِ إظهارُ مَعصِية الله[2]. فإنّ الشرائع سُنَن موضوعة بين العِباد، فإذا تمسّك الخَلقُ بها زال العُدوان ولَزِم كلٌّ شأنَه، فحُقِنَتِ الدّماء، وضُبِطَتِ الأموال، وحُفِظَتِ الفُروج، فكان ذلك صَلاحُ الأرضِ وأهلِها، أمّا إذا أُهمِلَتِ الشريعةُ وأقدم كلّ أحدٍ على ما يَهواه، اشتَعَلتْ نَوائرُ

---

١. الكافي ٢: ٢/٣٠٩.   ٢. تفسير الرازي ٢: ٦٦.

الفِتَن من كلّ جانِب، وحَدَثتِ المَفاسِدُ.

وعن العالم موسى بن جعفر عليه السلام: «أنّه إذا قيل لهؤلاء الناكثين للبيعة في يوم الغَدير: لا تُفسِدوا في الأرض بإظهارِ نَكْثِ البيعةِ لعِباد الله المُستَضْعَفين فتشوّشوا عليهم دينَهم وتحيّروهم في دينهم ومذاهبهم»[١]. الخبر.

أقول: الظاهر إرادة جميع أنحاء الفَساد للإطلاق، وعدم ما يدلّ على إرادة فَسادٍ خاصّ، بل الظاهر من حالهم أنّهم كانوا لا يَترُكون شيئاً ممّا يوجِبُ الفَساد في الدّين وأمر نبوّة خاتَم النبيّين، وكذا في أمرِ خلافة أمير المؤمنين عليه السلام عند قُدرَتِهم عليه، وتَيَسُّرِه لهم.

ومع ذلك ﴿قَالُوا﴾ جَواباً للناصِحين من المؤمنين، وردّاً عليهم: لَسْنَا مُفسِدين، بل ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ بين المُشرِكين والمُسلِمين بالمُداراة معهم، أو المُراد أنّهم قالوا لِمَن كان على طَريقَتِهم وعقيدتهم من الكُفر: إنّ نِفاقَنا وإلقاء الفِتْنَة بين المشركين والمسلمين وإلقاء الشُّبُهات في قلوب المؤمنين مَحْضُ الصَلاح والإصلاح، حيثُ إنّا بتلك الأعمال نَحْفَظ دِينَنا من اليهوديّة والوَثَنيّة، ودِماءنَا وأعراضَنا وأموالَنا بإظهار الإسلام.

وعن موسى بن جعفر عليه السلام: «قالوا - يعني الناكثين لبيعة أمير المؤمنين عليه السلام - إنّما نَحنُ مُصلِحون لأنّا لا نعتقِد دينَ محمّد صلى الله عليه وآله ولا غير دين محمّد، ونحنُ في الدّين مُتَحيِّرون، فنحنُ نُرضي في الظاهِر محمّداً بإظهار قَبول دينه وشريعته، ونقضي في الباطِن على شَهَواتِنا، فنتمتع ونترفّه ونعتِق أنفُسَنا من دين محمّد ونكفّها من طاعة عليّ لكيلا نذلّ في الدُّنيا»[٢]. الخبر.

فرَدّ الله عليهم بقوله: ﴿أَلَآ﴾ تَنَبّهوا أيّها المؤمنون ﴿إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ﴾ في الأرضِ، لا مُفسِد أفسَد منهم، لأنّ عمَلَهم عينُ الفَساد ومَحْضُه، حيث إنّه تَشييدٌ للباطِل، وتَضعيفٌ للحَقّ، وإثارةٌ للفِتَن، وسبَبٌ لِكَثْرَةِ الحرُوب وإراقةِ الدّماء، مع غَلَبَةِ المُسلمين.

أو المُراد «أنّهم مُفسِدون أُمورَ أنفُسِهم بما يفعَلون، حيث إنّ الله تعالى يُعرّف نبيّه صلى الله عليه وآله نِفاقَهم، فهو يَلعَنُهم ويأمُر المسلمين بِلَعْنِهم أيضاً، ولا يَثِق بهم أعداءُ المؤمنين لأنّهم يظنّون أنّهم يُنافِقونهم أيضاً

---

١. التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام: ٦١/١١٨.

٢و٢. التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام: ٦١/١١٨.

كما يُنافِقون أصحابَ محمّد ﷺ فلا ترتَفِع لهم عِندَهم مَنزِلة، ولا يَحلّون عندهم بمحلّ الثِقة»[1] هكذا مرويّ عن المَعصوم.

ثمّ استَدرك الله تعالى، بقوله ﴿وَلَـٰكِن لَا يَشْعُرُونَ﴾ أنّهم مُفسِدون، للإيذانِ بأنّ تمحّضهم في الإفسادِ من المَحسوسات، لكن لا حِسّ لهم حتّى يُدرِكوه، أو المُراد أنّهم لا يَشعُرون بعَدم انتِفاعهم بالنِفاق، بل يتَضرّرُون به أشَدّ الضَرَر، أو المراد أنّهم لا يشعُرون أنّ صَلاحَ أمرِهم في العاجِل والآجِل في الإيمان والتّسليم والوَفاء ببَيعةِ أمير المؤمنين عليه السلام.

قيل: في الآيةِ إشعارٌ بشرَف المؤمنين، حيث تولّى الله عنهم جواب المنافقين[2].

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَـٰكِن لَا يَعْلَمُونَ * وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ * اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ * أُولَـٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ [١٣-١٦]

ثمّ أكّد الله بيانَ خَصْلَتِهم السّيئة بقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ من طَرف المؤمنين، بطريق الأمر بالمَعروف عَقيبَ نَهيهم عن المنكر، إتماماً للنُّصْح وإكمالاً للإرشاد: ﴿آمِنُوا﴾ بالله واليَومِ الآخر ونبوّة محمّد ﷺ وما جاء به إيماناً حقيقيّاً لا يَشوبُه شَكٌّ ولا نِفاق ﴿كَمَا آمَنَ النَّاسُ﴾ المُخلِصون من أصحابِ الرّسول ﷺ الذين لم يُلبِسوا إيمانَهم بظُلم، كسَلمان وأبي ذرّ والمِقداد وأضرابهم ﴿قَالُوا﴾ لأصحابِهم المُطّلعين على سِرّهم، المُوافِقين لهم في كُفْرِهم، إنكاراً وتعجيباً: ﴿أَنُؤْمِنُ﴾ بمحمّد ﷺ ودينه ﴿كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ﴾ الذين هم لِضَعْفِ عُقولِهم رفَضوا دينَ آبائهم، وأعرَضوا عن أرحامِهم وأقربائهم، وترَكوا جاهَهُم وثَرْوَتَهم، ورَضُوا بالذِّلّةِ والمَسْكَنَةِ لأنفُسِهم، واتّبَعوا هذا الرجل الضّعيف، وعن قريب يتهاجم عليهم العرَبُ ويقتُلونهم عن آخرِهم، فينقَطِع خَبرُهم، ويَنْمَحي أثرُهُم.

فرَدّ الله عليهم بقوله: ﴿أَلَا﴾ تنبّهوا أيّها المؤمنون ﴿إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ﴾ القاصِرون عن معرفة النبيّ ﷺ بأنّه مُؤَيّدٌ منصورٌ، وأنّ دينَه يقوىٰ ويَدوم مَرّ اللّيالي والدُّهور، وأنّه نبيّ الرّحمة، وأنّ الذين

---

٢. تفسير روح البيان ١: ٥٨.

اتّبعوه فوق الذين كفَروا إلى يوم القيامة، وأنّه يضرب على مَن خَالَفه الذّلّ والهَوان، وأنّـه بـابُ الله الجاري من أوّل الخلْق إلى آخِر الزّمان، وذلك واضِحٌ لِمَن عَلِم تاريخَ الأنبياء السابقة، والأُمَم السالفة ﴿وَلٰكِنْ﴾ هؤلاء الجَهَلة ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ أحوالَ الأنبياء وتأييداتهم الغيبيّة الربّانية ولا يطّلعون عـلى تَواريخ الأُمَم الماضية.

أو المُراد أنّهم لا يعلَمون أنّهم السُّفَهاءُ، ولا يُحيطون بما هم عليه من داء الجَـهْل، وأنّ المـؤمنين بإيمانِهم وإخلاصهم يَبْعُدون عن السَّفَهِ والجَهالَةِ راغبين[١] في العِلم وطلَب الحقّ.

ثمّ أوضَح الله تعالى كيفيّة نِفاقهم، بقوله:﴿وَإِذَا لَـقُوا الَّـذِينَ آمَـنُوا﴾ وصـادَفوهم ﴿قَـالُوا﴾ لهـم بأفواهِهِم كذباً ﴿آمَنَّا﴾ بما آمَنْتُم به ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلى شَيَاطِينِهِمْ﴾ واجتَمعوا فـي الخَـلْوَةِ مـع سـائرِ المُنافقين المُغوين لَهم ﴿قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ﴾ في الدِّين وتكذيب مـحمّد ومُـخادَعَةِ المـؤمنين ﴿إِنَّـمَا نَحْنُ﴾ بتَصديقِ النبيّ وإظهار الإسلام ﴿مُسْتَهزِءُونَ﴾ بالمؤمنين، ساخِرون منهم، من غير أن يخطِر ببالِنا الإيمانُ، وإنّما نُظهِر مُوافقَتَهم لِنأمَن من شرّهم، ونطّلِع على سرّهم ونَنْكِحَ بَناتَهم، ونُشارِكَهم في غَنائمهم وصَدَقاتهم.

من طريق العامّة: عن ابن عبّاس: أنّ عبدالله بن أُبَي وأصحابَه خرَجوا، فاستَقبلَهُم نَفَرٌ من أصحابِ رَسولِ الله ﷺ وفيهم عليّ بن أبي طالب عليه السلام، فقال عبدالله بن أُبَيّ لأصحابِه: اُنظُروا كيف أردّ[٢] ابنَ عمّ رسول الله، ثمّ قال: يا بن عمّ رسول الله، وسيّد بني هاشم خلا[٣] رسول الله.

فقال عليّ كرّم الله وجهه: يا عبدَالله، اتّقِ اللهَ ولا تُنافِق، فإنّ المُنافِق شَرُّ خَلْقِ الله تَعالى.

فقال: يا أبا الحسَنِ، والله إنّ إيمانَنا كإيمانِكم، ثمّ تفرّقوا، فقال عبدالله بن أُبَيّ لأصحابه: كيف رأيتُم ما فعَلتُ؟ فأثنَوا عليه خَيراً. فأنزل الله على رسوله ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا..﴾ الآية[٤].

قال موفّق بن أحمد راوي الرّواية: فدلّت الآية على إيمان عليّ كرّم الله وجهه ظاهِراً وباطِناً، وعلى قَطْعِه مُوالاةَ المُنافقين، وإظهار عداوتهم[٥].

وعن ابن شهر آشوب: عن الباقر عليه السلام: «أنّها نزَلت فـي ثـلاثةٍ لمّـا قـام النـبيّ ﷺ بـالولاية لأمـير المؤمنين عليه السلام أظهَروا الإيمانَ والرّضا بذلك، فلمّا خَلَوا بأعداء أمير المؤمنين ﴿قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّـمَا

---

١. في النسخة: راغبون. ٢. في المناقب: أرادّ. ٣. في المناقب: ختن. ٤. مناقب الخوارزمي: ١٩٦.
٥. مناقب الخوارزمي: ١٩٦.

نَحْنُ مُسْتَهزِءُونَ﴾»[١].

وعن تفسير الهُذَيل، ومُقاتِل: عن محمّد بن الحَنفيّة ـ في خبر طويل ـ ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ بعليّ بن أبي طالب فقال الله تعالى شأنُه: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ يعني يُجازيهم في الآخِرَة جَزاء استِهزائهم بأمير المؤمنين عليه السلام[٢].

وقيل: إنّ المُراد أن الله يُعامِل معهم في الدُّنيا والآخِرة مُعاملَة المُستهزئ، أمّا في الدُّنيا فبأن جعَل لهم أحكام الاسلام في الظاهر، فيحسَبون أنّ لَهُم عند الله كرامةً، وهم في غايَةِ الهَوان لكُفرِهم.

وأمّا في الآخِرَة: فقد رويَ عن محمدّ بن الحَنَفيّة، عن ابن عبّاس رضي الله عنهما أنّه قال: إذا كان يوم القيامة أمرَ الله الخَلْقَ بالجَواز على الصِّراط، فَيجوز المؤمنون إلى الجنّة، ويسقُط المُنافِقون في جهنّم [فيقول الله: يا مالك استهزئ بالمنافقين في جهنم] فيفتَح مالِك باباً من جهنّم إلى الجنّة، ويُناديهم: معاشِر المُنافقين، هاهنا هاهنا، اصعَدوا إلى الجنّة فيسبَح المُنافقون في بِحار[٣] جهنّم سَبعينَ خَريفاً حتّى إذا بَلَغوا إلى باب الجنّةِ وهمّوا بالخروج أغلَقه دونَهم، وفتَح له باباً من الجنّة من مَوضِع آخر، فيُناديِهم: اخرجوا إلى الجنّة، فيسبَحون مثل الأوّل، فإذا وصَلوا إليه أُغلق دونَهم ويُفتَح من مَوضِعٍ آخر، وهكذا أبدَ الآبدين[٤].

وفي حديث: يُؤمَر بنَفرٍ من النّاس يوم القيامة إلى الجنّة، حتّى إذا دَنَوا منها واستَنشَقوا رائِحتَها، ونظَروا إلى قُصورها وإلى ما أعدّ الله تعالى لأهلِها نُودوا أن انصرفوا[٥] عنها لا نَصيبَ لكم فيها. فيَرجِعون بحَسْرَةٍ ونَدامةٍ ما رَجَع الأوّلون والآخِرون بمِثْلِها، فيقولون: يا ربّنا، لَوْ أدخَلْتَنا النّار قبل أن تُرِيَنا ما أرَيْتَنا من ثَوابِ ما أعدَدْتَ لأوليائك! فيقول: ذلك أردتُ بكم، كنتُم إذا خَلَوتُم بي بارَزْتُموني بالعَظائم، فإذا لَقِيتُم النّاسَ لَقيتمُوهم مخبتين[٦]، تُراؤن النّاس، وتُظهِرون خِلافَ ما انطَوَت قلوبُكم عليه، هِبتُم الدُّنيا ولم تَهابوني، وأجلَلْتُم النّاس ولَم تُجِلّوني، وتَركتُم للنّاس ولم تَتْرُكوا لي، فاليومَ أُذيقكُم أليمَ عَذابي مع ما حَرَمتُكم.

قيل: في الآيةِ إشعارٌ بكرامةِ المؤمنِ على الله، حيث تدلّ على أنّه سبحانه يستَهزئ بِمَن استهزأ

---

١. تفسير البرهان ١: ١٤٥/٣٣٧.
٢. مناقب ابن شهر آشوب ٣: ٩٤.
٣. في المناقب: في نار.
٤. مناقب ابن شهر آشوب ٣: ٩٤، بحار الأنوار ٨: ٣٠١/٥٦.
٥. في النسخة: اصرفوا.
٦. أي خاشعين متواضعين.

بالمؤمن، كأنّه يَنوبُ عن المؤمن في الاستِهزاء بالمُستَهزئ به، ويُجازيهم بالهَوان والخَيْبَة في الدُّنيا، وبتَعذيب يَضْحَك به المؤمن في الآخرة.

ثمّ أكّد الله تعالى تَهديدَهم، بقوله: ﴿وَيَمُدُّهُمْ﴾ وَيزيدُهم ويُقَوّيهم ﴿فِى طُغْيَانِهِمْ﴾ ويتَجاوَزهم عن الحدّ في العِناد والإصرار على الكفر والعِصيان، وإنّما إمدادُه تعالى لهُم يكونُ بالإمهالِ والخِذلان في الدُّنيا بسبب مَنْع الألطافِ عنهم، حتّى يَتزايد في المدّة الطويلة من أعمارِهم الرَّيْنُ والظُّلْمَة في قُلوبهم، فيستحقّون زيادةَ العَذاب والنَّكال في الآخِرَة.

ولذا فسّر القمي ﷺ : المَدّ، بالدَّعَةِ، حيث قال: أي يَدَعُهم[1]، حال كونهم في مدّة تعيُّشِهِم في الدنيا ﴿يَعْمَهُونَ﴾ ويترَدّدون في الضّلالة عُمي القُلوب، حَيارىٰ، لا يَدْرون أينَ يتوجّهون، وفي أيّ طريقٍ يسلِكون، إذ لا يُمكِنهم الجَمْع بين الإسلام والكُفر، وصُحبَة الأبرار والفُجّار، فهم ﴿مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَلَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ﴾[2] بل هذا حال كلّ مَن أراد الجمع بين الدُّنيا والآخِرة مع أنّهما ضَرَّتان.

ثمّ بيّن الله تعالى غايةَ سَفاهتِهم، وَضعْف عُقولهم، بقوله: ﴿أولٰئِكَ﴾ المُنافقون المتميِّزون عن سائر النّاس بأقبَح الصِفات، البَعيدون من رحمة الله، هم ﴿ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا﴾ وبادَلوا ﴿ٱلضَّلَالَةَ بِالهُدَىٰ﴾ واختَاروا لأنفُسِهم الكُفْرَ بعوَضِ الإيمانِ، والباطِلَ بِعوَضِ الحقّ الذي جاءهم من قِبَلِ الله، وكأنّهم تَملّكوه ثمّ رفعَوا اليَدَ عنه، وأخَذوا الكُفْرَ بدَلَه فكأنّهم عاوَضوه به، فأيّ صَفْقَةٍ أخْسَر من هذه؟

ثمّ كأنّه يقال: فَما يكون حالُ المُشْتَرين؟ فيُقال: إذا آشْتَرَوا ﴿فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُم﴾ بل خَسِرَت خُسراناً مُبيناً، حيث فاتَهُم نَعيمُ الأبدِ، ولازَمَهُمُ العَذابُ المُخَلّد ﴿وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ إلى طريق النَّجاةِ وما كانوا عالِمين بصَلاح المُعاملة، ولِذا ابتُلوا بغَايةِ الخسارةِ حيث إنّ المَقصود من التِجارة سلامَة رأس المال مع حُصولِ الرِّبح، وهم لِجَهْلِهم وَغبَاوَتِهم أتلَفوا رأس المالِ من الفِطْرَةِ السّليمة والعقل المستقيم، والعُمر الطويل في مَتْجَر الدُّنيا وسُوقِها المُعَدّ لتَحصيل الرّبح الدائم والثَّواب العظيم، بهذا المَتاع الذي أعطاهم الله إيّاه.

عن العالم عليه السلام: «وما كانوا مُهتَدين إلى الحقّ والصَواب»[3].

وعن القمّي ﷺ في تفسير الضَّلالة والهُدى، قال: الضَّلالَةُ هاهنا: الحَيْرَة، والهُدىٰ: البَيان. فاختاروا

---

١. تفسير القمي ١: ٣٤.   ٢. النساء: ١٤٣/٤.   ٣. التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام: ١٢٦.

الحَيْرَةَ والضَّلالَةَ على الهُدى والبيان[١].

مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ ناراً فَلَمَّا أَضَاءتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ ٱللهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ * صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ * أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ ٱلسَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِى آذَانِهِمْ مِنَ ٱلصَّوَاعِقِ حَذَرَ ٱلمَوْتِ وَاللهُ مُحِيطٌ بِالكَافِرِينَ * يَكَادُ ٱلبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ ٱللهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبصَارِهِمْ إِنَّ اللهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ[١٧ ـ ٢٠]

ثمّ إنّه تعالى بعد بَيان حقيقة حالِ المُنافِقين، عقّبها بضَرْب مثلٍ لها، زيادةً في التّوضيحِ والتقرير ـ حيث إنّ التَمثيلَ ألْطفُ ذريعةٍ إلى تَسخيرِ الوَهْم للعَقْل، وأقوىٰ وَسيلةٍ إلى تَفهيم الجَاهِل الغبيّ حَقائقَ الأمور. قيل: إنّ أمثالَ القُرآنِ العزيز من أعظَم عُلومِه، والنّاسُ في غَفْلَةٍ عنه ـ فقال: ﴿مَثَلُهُمْ﴾ وَحَالُهُم العَجيبَةُ ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَاراً﴾ مَثَلُ حالِ مَن طَلَبَ إيقادَها وارتفاعَ لَهَبِها حتّى ينتَفِع بضَوئها وسائر منافِعها ﴿فَلَمَّا﴾ توقّدَت و﴿أَضَاءتْ﴾ تِلكَ النّارُ المُوقَدَة أطرافَ المُستَوقِد و﴿مَا حَوْلَهُ﴾ مِن الأشياء خَمَدَت وذهَب نورُها وضياؤها بريحٍ أو مَطَرٍ، فحُرِم المُستَوقِدُ من نَفعِها، وبقي عليه التّعَب.

وهذا الجَواب المُقدَّر لِلَمّا يُعلَم من بيان حالِ المُشبَّه، وهُم المُنافقون في قوله تعالى: ﴿ذَهَبَ اللهُ﴾ وأخذ ﴿بِنُورِهِمْ﴾ وهو الإسلامُ الصّوري الظاهِري بتَفْضِيحهم على لِسان رَسولِه أو بإمامتهم، فحُرِموا مِن مَنافِعه في الدّنيا مِن شِركَتِهم في الغَنائم والصَّدَقات والمُناكَحَة وسائر أحكامِ الاسلام ﴿وَتَرَكَهُمْ﴾ اللهُ، وطَرَحهُم ﴿فِى ظُلُمَاتٍ﴾ مُتَراكمةٍ شَديدةٍ غايَة الشِدَّةِ، مِن ظُلْمَةِ الكُفرِ والطُغيان والحَسَد والعِصيان، كما أنّهم في الآخِرة في ظُلمةِ القِيامَة، وظُلْمَةِ الغَيّ، وظُلْمَةِ سَخَطِ الله، فلا يَبْقىٰ لهم من النّور في الدّارَين شيءٌ أبداً.

فإذَن حالُهم أنّهم ﴿لا يُبْصِرُونَ﴾ طريقَ الحقّ وشيئاً من آياتِه، ولا يَرَونَ سبيلَ الخَلاص من ضَرَر المسلمين في الدّنيا، كما أنّهم لا يَجِدون المَناصَ من أهوالِ القيامةِ وعَذابِها في الآخرةِ.

ويُحتَمل أن يكون قوله: ﴿ذَهَبَ ٱللهُ﴾ وما بعدَهُ جَواباً لِلَمّا، وإفرادُ ضميرِ ﴿حَوْلَهُ﴾ العائد إلى

---

١. تفسير القمي ١: ٣٤.

المُستَوقِد باعتِبار لَفظِه، وجَمْعُ سائر الضمائر الراجعة إليه باعتِبار مَعناه، حيث إنّه جِنسٌ صادِقٌ على كثيرين.

عن ابن بابويه ﷺ: بإسناده، عن إبراهيم بن أبي محمود، قال: سألتُ أبا الحسَن الرّضا ﷺ عن قول الله تعالى: ﴿وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ﴾ فقال: «إنّ الله لا يوصَفُ بالتّرْكِ كما يُوصَف خَلقُه، ولكنّه مَتى عَلِم أنّهم لا يَرجِعون عن الكُفرِ والضلال، منَعَهم المُعاوَنَة واللُّطْف، وخَلّى بينَهُم وبين اختيارهم»[1].

أقول: لعلّ المُراد أنّ التّرْكَ بمعنى العَدَم لا يُنسَب إلى الله تعالى، فهو هنا بمعنى الكَفّ والمَنْع الذي هو فِعلٌ وُجوديٌّ قابلٌ لأن يتَّصِف اللهُ به.

ثمّ بالَغ سُبحانَه في تَبيينِ غايَة ضَلالةِ المُنافقين، بقوله: ﴿صُمٌّ﴾ مُنسَدّو المَسامِع، لا يسمَعون المَواعِظ وآيات القرآن وبَراهين الحقّ ﴿بُكْمٌ﴾ خُرسُ الألسُنِ، لا ينطِقون بالحق، ولا يُقِرّون به ﴿عُمْىٌ﴾ فاقِدو الأبصار، لا يَنظُرون إلى المُعجِزات والعِبَر التي تؤدّيهم إلى الهداية، ولا بَصيرةَ لهم حتّى يُميّزوا الحقّ من الباطِل، ولذا يُحشَرون في الآخِرَة عُمْياً [وبكماً وصمّاً] كما قال تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْياً وَبُكْماً وَصُمّاً﴾[2].

﴿فَهُمْ﴾ لا تِّصافِهم بهذه الصِّفات ﴿لَا يَرْجِعُونَ﴾ ولا ينصَرِفون من طريق الضَّلالة إلى سبيلِ الهداية، مع كونهم بحَسَبِ الخِلْقَةِ والفِطْرَةِ قادِرين على الرّجوع، ولكن لمّا ضَيَّعوا فِطْرَتَهم وأفسَدوا عُقولَهم صارَ في حَقِّهم مُمْتَنِعاً بالاختيار في الدّنيا، وإن كانوا لا محالة يرجِعون إليه في الآخِرة ولا يَنفَعُهم.

قال بعضُ العارفين: العَجَبُ كُلّ العَجَب ممّن يَهرُب ممّا لا آنفِكاكَ عنه، وهو مَولاهُ الذي مَنَّ عليه بكلّ خَيرٍ وأولاهُ، ويطلُب مالا بَقاءَ له معَه، وهو ما يُوافق النَّفْسَ مِن شَهْوَته وهَواه[3]، ويُعرِض عن الآخِرَة وهي الدّار الباقية.

ثمّ بالَغ سبحانه وتعالى في توضيح حالِ المُنافقين وشِدّةِ إعراضِهم عن الحقّ بَضربِ مَثَلٍ آخَر أبلغ

---

١. تفسير القمي ١: ٣٤.

٢. في النسخة: يحشرون في الآخرة أعمى كما قال تعالى: ونحشرهم يوم القيامة أعمى، والآية من سورة الإسراء: ٩٧/١٧.

٣. تفسير روح البيان ١: ٦٨.

بقوله: ﴿أَوْ﴾ مَثَلُ حالِ المنافقين بعد نُزول القرآنِ الذي به حَياةُ القُلوب وتَنَوُّر الأبصارِ ﴿كَصَيِّبٍ﴾ قيل: إنّ المُراد مِثل حال ذي صيِّب وصاحِب مَطَر شديد، نافِع للحَيوانات ونباتِ الأرض، بل جميع الموجودات الجسمانيّة، نازل ﴿مِنَ ٱلسَّمَاءِ﴾ وهو السَّقف المُطِلّ، أو جِهَة العلوّ، وذكر هذا القَيْد بناءً على إرادة السّماء المعروفة، لعلّه للإشعار بأنّ أصل جميع الأمطار نازِل منها، كما في كثيرٍ من الأخبار خِلافاً لِمَن يقول بأنّها تتكوّن من الأبخِرَة[١]، وأمّا بناءً على إرادَة جِهَة العلوّ فلعلّه لإظهار إحاطَتِهِ بجميع الأرض، سَهْلِها وجَبَلِها حال كونِه مُستقرّاً، ﴿فِيهِ ظُلُمَاتٌ﴾ ثَلاثٌ: ظلْمَةُ السَّحاب، وظُلْمَةُ الشدَّةِ والتّكاثُف، وظُلْمَةُ اللّيل، ﴿وَ﴾ فيه ﴿رَعْدٌ وَبَرْقٌ﴾.

ثمّ كأنّه يقال: ما يكون عمَلُ أصحابِ الصَّيِّبِ في هذه الحال؟ فيقال: إنّهم ﴿يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُم﴾ جميعَها ويُدخِلونَها ﴿فِى آذانِهِمْ﴾ مِن شِدّة الدّهشَةِ والوَحْشةِ، ولا يكتَفون بجَعْلِ الأنامِل، كما هو المُعتَاد والمُمكِن، وفيه غايةُ المُبالغَة في حِرْصِهم على سَدِّ مَسامِعِهم خَوفاً ﴿مِنَ ٱلصَّوَاعِقِ﴾ قيل: هي رُعودٌ هائِلةٌ تَنْقَضُّ منها شُعلَةُ نارٍ مُحرِقة ﴿حَذَرَ ٱلْمَوْتِ﴾ وتَحَرُّزاً من الهَلاك بسبب انشِقاق قُلوبِهم، وطَلَباً للسّلامة منه ﴿وَٱللَّهُ﴾ العَظيمُ القادِرُ العالِمُ الذي لا يَعزُب عن عِلمِه شيءٌ ﴿مُحِيطٌ﴾ ومُحْدِقٌ بِقُدْرَتِه وعلمه ﴿بالكافِرينَ﴾ المُنافقين وغيرهم، عالِمٌ بأسرارِهم، قادِرٌ على عُقوبَتِهم.

ثمّ كأنّه قيل: كيف يكونُ حالُ أصحاب المَطَرِ حين لَمَعانِ البَرْق؟ فقال تعالى ﴿يَكَادُ﴾ وَيقْرُبُ ﴿البَرْقُ﴾ اللامِعُ مِن السَّحابِ ﴿يَخْطفُ﴾ ويستَلِبُ بسبب شِدَّةِ ضَوئه ﴿أَبْصَارَهُمْ﴾ ونُورَ ناظِرِهم.

ثمّ كأنّه قيل: فما يكون عمَلُهم في هذا الحال؟ فقال تعالى: ﴿كُلَّمَا أَضَاءَ﴾ البَرْقُ ﴿لَهُمْ﴾ في تِلْك الظُّلُمات، وأنارَ طريقَهُم وَمسلَكَهم ﴿مَشَوْا فِيهِ﴾ وخَطَوا خُطُواتٍ يسيرةٍ. قيل: عبَّر عن سَيْرِهم بالمَشْيِ دون السَّعْيِ والعَدْوِ اللذَين فوقَ المَشْيِ للإشعارِ بشدَّةِ دَهْشَتِهم، بحيث لا يَقدِرون عليها ﴿وَإِذَا﴾ خَفِيَ البَرقُ و﴿أَظْلَمَ﴾ الطَريقُ ﴿عَلَيْهِمْ﴾ وصار مَسلَكُهم مُظلِماً ﴿قَامُوا﴾ ووقَفوا في أماكنِهم على ما كانوا عليه من الهيئة، متحيّرين مُتَرصِّدين لحظةً أُخرى، عسى أن يتيسَّر لهم الوصولُ إلى المَقْصَد، أو الالتِجاءُ إلى مَلجأ عاصِم لهم ﴿وَلَوْ شَاءَ ٱللَّهُ﴾ وأراد ﴿لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ﴾ فَيَبقوا في تلك الأهوال والشدائد مأخوذاً عنهم أسباب التخلّص، إذ المَبدأ للخَلاص هو الإدراك،

---

١. قوله تعالى: ﴿مِنَ السَّمَاءِ﴾ إشارة إلى جهة نزول المطر، أي يأتي من جهة السماء، وليس فيه إشارة إلى أن السماء مبدأ تكوّنه، بل الثابت علمياً أن مبدأ تكون المطر من الأبخرة.

والعُمْدَةُ في أسبابه هو السَمْعُ والبَصَر ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ﴾ مُمكنٍ قابلٍ لتعلُّق الإرادةِ بـوجوده ﴿قَدِيرٌ﴾ بذاتِه لا يحتاج إلى معاونةِ غيره، ولا يُزاحِمه شيءٌ في أمرِه.

كذلك حالُ المُنافقين، حيث نزَل عليهم القرآنُ، وأشتَدّ نورُ الآيات البيّنات في أنظارهم، بحيث لم يَبْقَ لهم مَجالٌ للشّكّ والرَّيبِ، وهم بشدّةِ حبّهم الدُّنيا، كلَّما كان في الاقرارِ بالآيات وإظهار تبعيّتِها نفعٌ لهم من العِزّة والشِركةِ في الغَنائم وسائر أحكام الإسلام النـافعة لهـم فـي دُنـياهم، أَقـرّوا بـها، وأظهَروا اتّباعَها والانقياد لها. وإذا كانفيها ضَرَرٌ عـليهم مـن التكـاليف الشـاقّة، كـوجوب الجِـهاد، والإنفاق في سبيل الله، وخَفْضِ الجَناح للمؤمنين وتَرك موادّة الأرحام والأقارب، تـرَكـوا اتّـباعها وأعـرَضوا عنموافقَتِها.

وحاصِلُ الآيتين أنّه تعالى شبّه القرآن وما فيه من المَعارِف والحِكَم التي هيَ مدار الحياة الأبـديّة بالصَّيِّب الذي هو سبَبُ الحياة الأرضيّة، وما عرَض لهم بنُزولها من الشّكـوك والشُـبُهاتِ والغُـمومِ والأحزانِ وانكِسافِ الحال بالظُلُمات، وما فيه من الوَعْدِ والوَعيدِ بالرَّعْدِ والبَـرْقِ، وتـصامُمَهم عـمّا يقرَع أسماعَهم من الوَعيدِ والتَهديدِ بحالِ من يَهولُه الرَّعد والبَرْقُ، فيَخافُ صَـواعِـقَه فـيَسُدّ أُذُنَـه، واهتِزازَهـم لما يَلْمَع لهم من رُشْدٍ يُـدرِكونَه أو رِفْـدٍ يُـحرِزُونَه بـمَشْيِهم فـي مَـطرَحِ ضَـوءِ البَـرْق، وتحيُّرَهم في أمرِهم حين عَنَّ بهم مَعصيةٌ أو رأوا في التكاليف ما يشقّ عليهم أو يُخالِفُ هَـواهُـم بُوقوفهم إذا أظلَم عليهم.

في أن المنافق أسوء حالاً من الكافر

وفي الاقتِصار في ذَمّ الكُفّار وتَهديدِهم بآيتَين، والإكثار في ذمّ المُنافِقين وتهديدهم بثَلاث عشَرة آية، إشعارٌ بأنّ المُنافِقَ أسوءُ حالاً من الكافِر، والاعتِبارُ يساعِدُه لكونهم أشدّ ضَرَراً على الإسلام والمسلمين.

يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلأَرْضَ فِرَاشاً وَٱلسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ ٱلسَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ ٱلثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَكُمْ فَلا تَجْعَلُوا للهِ أَنْدَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ[٢١ و ٢٢]

ثمّ إنّه تعالى بعد ما بيّن أنّ القرآنَ العظيم هادٍ إلى الصِّراط المستقيم، وأنّ المُتّقين هم المُنتَفِعون به المَوفَّقون بسُلوكه، وأنّ الكفّارَ والمُنافقينَ هم المُنحَرِفون منه، شرَع بلُطفِه ورَحمَتِه في دَعوة جميع

المكلّفين إلى السُّلوكِ في طَريقِ الهِدايةِ والقِيام بوَظائف العبوديّة.

ولمّا كان مهمّاً في الغايةِ وشاقاً على نُفوسِ العامّةِ باشَر بذاتِه المُقدَّسة مُخاطَبتهم بطَريقِ المُشافهَة لتَنْجَبِرَ المشقّة بلَذّةِ المُخاطَبة، وتَرتَفِع بحلاوة النّداء مَرارَة الصَّبْر على التَّعَب والعَناء، وتتوجّه القُلوب نحو التَّلَقّي والإصغاء، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعبُدُوا﴾ وأطيعوا ﴿رَبَّكُمْ﴾ وٱخْضَعوا له.

وفي ذِكر صِفَة الربوبيّة دلالةٌ على أنّها مقتَضيةٌ لِنهاية العبوديّة، وأنّ نِعمَه غير المُتَناهية موجبةٌ لغايةِ الشُّكرِ، ومؤثّرة في كَمالِ المحبوبيّة، ولذا عَدَّ بعد تَوصيفِ نَفسِه بها وإضافتها إليهم جملةً من نِعَمِه الفائِقة، أسبَقها وأتمّها وأعلاها نِعمة إيجاد العَبدِ، ولذا قدَّمها فـي الذِكـر بـقَولِه ﴿الَّـذِى خَـلَقَكُمْ﴾ وقدّركم وأنعم عليكم نعمة الوجود التي هي أصل النِّعم، ومن الواضح أنّ هذه النِعمَة أعظَم العِـلَل المُوجِبَة للعبادةِ الخالصةِ، ولو مع قَطْعِ النَظَرِ عن كَونِها نعمةً.

ثمّ أردَفها بذِكر نعمةِ خَلقِ الأُصول التي هي دون الأُولى وفوق سائر النِعَم، بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ مِـنْ قَبْلِكُمْ﴾ من الآباء والأمّهات، حيث إنّ خَلْقَهُم من مقدّمات خَلقِ المُخاطبين، مع أنّ النِعمَة على الآباء والأمّهات من مُوجِبات الشُكر على الأبناء والأولاد، كما قال تعالى: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِى أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِى أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَالِدَىَّ﴾ [1] مع أنّ في ذِكـر هـذا الوَصـف دلالةً عـلى تـفرّده تـعالى بـخَلْقِ المُخاطَبين، إذ لو لـم يكُن خالِقاً لأُصولهم، بل كان خالِقُ أُصولِهم غيرَه، لم تنحَصِر شؤون الخَـلْق - وهي العِبادة- به تعالى، بل شارَكه مَن هو خالِقُ الأُصول، أو مَن كان له في خَلقِهم نصيبٌ.

ويُحتَمل أن يكونَ المُرادُ بالمَوصول جميع السابِقينَ، لكَونِ خَلقِهم من مقدّمات وجود اللاحِقين، ولِكَونهِ في الدّلالة على كمال القدرة أتَمّ.

ثمّ بيّن الله تعالى فائدةَ العبادةِ المأمور بها، بقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ سَخَطَ اللهِ وَعذابه، وتَحترَزون منه بسبَبِ عِبادَتِه، ويحتَمل أن تكون هذه الجملة بياناً لغَرَضِ خَلْقِ النّاس، كـما قـال تـعالى: ﴿مَـا خَلَقْتُ ٱلجِنَّ وٱلإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [2].

عن (تفسير الإمام عليه السلام) في هذه الآية، أنّه قال: «لها وَجْهان:

أحدُهما: [خلقكم] وخلَق الذين من قبلكم لعلّكم كلّكم تتّقون، أي لِتتّقوا، كما قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلجِنَّ وَٱلإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾.

---

١. النمل: ١٩/٢٧، الأحقاف: ١٥/٤٦.

٢. الذاريات: ٥٦/٥١.

والوجه الآخر: اعبُدوا الذي خلقَكم والذين من قبلكم لعلّكم تتّقون، أي اعبُدوه لعلّكم تتّقون النّار، و(لعلّ) من الله واجِبٌ، لأنّه أكرَم من أن يُعنّي عبدَه بلا منفعةٍ، ويُطمِعه في فَضْلِه ثمّ يُخَيّبه، ألا ترى كيف قبح من عبدٍ من عباده إذا قال لرَجلٍ: اخدمني لعلّك تنتفِع بي، ولعلّي أنفَعُك. فيَخدِمُه ثمّ يُخَيِّبه ولا ينفَعه؟ فالله عزّ وجلّ أكرَم في أفعالِه، وأبعَد من القبيح في أعماله من عبادِه».

في بيان أنّ كلمة لعلّ في كلام الله مستعملة في معناها الحقيقي

أقول: لا يَبعُد أن تكونَ كلمةُ لعلّ موضوعة للدلالة على صلاحيّة متعلّقه وشأنيّته، لأن يرغب فيه ويترقّب وقوعه، وعلى هذا يكون استِعماله من الله حقيقةً، حيث إنّ الرّجاء الذي هو مُلازِم التّردِيد والشّك، يكون من اللَوازم الغالبيّة[1] في النفوس البشريّة، ثمّ فيه تنبيهٌ على أنّ التقوى مُنتَهى درجَة الكمال، وتَخصيص المَوجودين بالخِطاب مع محبوبيّة التقوى من كلّ أحدٍ إلى الأبد لأجلِ التّغليب.

ثمّ بعد ذِكر النِعَم الداخليّة من الخَلْق والتربيه، ذكر مهمّات النِعَم الخارجيّة التي كلّ واحِدة منها كافية في وجوب العِبادة، بقوله: ﴿الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَاشاً﴾ وبساطاً.

عن ابن بابويه: عن العسكري، عن آبائه، عن السجّاد عليه السلام في تفسير الآية: «جعَلها ملائمةً لطباعكم، موافِقةً لأجسادِكم، ولم يجعَلها شديدةَ الحمي والحرارةِ فتُحرِقكم، ولا شديدةَ البُرودةِ فتُجمِدكم، ولا شديدةَ طِيبِ الرّيح فتصدَع هاماتِكم، ولا شديدة النّتْنِ فتُعطِبكم، ولا شديدةَ اللينِ كالماء فتُغرِقكم، ولا شديدةَ الصّلابةِ فتمتنِع عليكم في دورِكم وأبنيَتِكم وقبور مَوتاكم، ولكنّه عزّ وجلّ جعَل فيها من المَتانةِ ما تنتَفِعون به وتَتَماسكون، وتَتَماسك عليها أبدانُكم وبُنيانكم، وجعَل فيها ما ينقاد به لدُوركم وقُبوركم وكثير من مَنافِعكم، فلذلك جعَل الأرضَ فِراشاً لَكُم.

ثمّ قال عزّ وجلّ: ﴿وَٱلسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ وسَقْفاً مِن فوقكِم مَحفوظاً يُدير فيها شَمْسَها وقَمَرَها ونُجومَها لِمَنافعكم.

ثمّ قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ ٱلسَّمَاءِ مَاءً﴾ يعني المَطَر، يُنزِله من عُلاً ليَبْلُغَ قُلَلَ جِبالِكُم وتِلالِكُم وهِضابكُم وأوهادِكم، ثمّ فرّقه رُذاذاً ووابِلاً وهَطْلاً وطَلّاً، لتُنشِفه أرَضُوكم، ولم يجعَل ذلك المَطَر نازلاً عليكم قِطعةً واحِدةً فيُفسِد أراضِيكُم، وأشجارَكم وزُروعَكُم وأثمارَكم.

ثمّ قال عزّ وجلّ: ﴿فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ ٱلثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَكُمْ﴾ يعني ممّا يُخرِجه من الأرض رِزقاً لكم»[2].

---

١. كذا، ولعلّه تصحيف الغالبة.

٢. عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ٣٦/١٣٧.

ومَعاشاً مأكولاً وملبوساً.

فانظُر إلى حُسنِ ترتيب استدلاله سُبحانَه على استِحقاقه العبادةَ ووجوبِها، فإنّه استدَلّ أوّلاً بأقرَب نِعَمه إلى العَبد، وهو إيجاده وتربيته، ثمّ الأقرَب وهو خَلقُ الأصول من الآباء والأمّهات، ثمّ الأقرَب وهو نِعمَة المَقَرّ والمَسكن وهو الأرض، ثمّ بعدَها بنعِمَة السّماء التي تكون سَقفاً ومَداراً للكواكب، ومَبْدَءاً لنُزول الخَيرات، ثمّ بنِعمَة الثَّمَرات الحاصلة من بَرَكات السّماء والأرض لتكونَ مَعاشاً لهم.

ومن الواضِح أنّ كلّ واحِدٍ من هذه النِعَم [هي] آيات وَحدانيّته وقُدرَته وَعظَمته وحِكمته، ولذا رتّب عليها النَهي عن التَشْريك، بقوله: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا﴾ ولا تتّخِذوا ﴿لِلهِ اَنْدَاداً﴾ وشُرَكاء في الخَلْقِ والرّزق والعبادة ﴿وَاَنْتُمْ﴾ أيّها العُقَلاء ﴿تَعْلَمُونَ﴾ أنّ الأجسامَ التي اتّخَذتُموها آلِهَةً لا يقدِرون على شيءٍ، والقول الباطِلَ من العالِم ببُطلانِه أقبَح وأفضَح.

قيل: من تأمّل في هذا العالم وجَده كالبيتِ المُعَدّ، فيه كلّ ما يحتاج إليه ساكِنُه، الأرضُ بِساطُه، والسّماء سَقفُه، والنُجوم مَصابيحُه، والإنسانُ ساكِنه، وضرُوبُ النَباتات والحَيوانات والمَعادن مهيّآتٌ لمَنافِعه، مصروفةٌ في مَصالِحه، فتدلّ هذه الجملة على أنّ هذا العالَم مخلوقٌ بتدبيرٍ كاملٍ وتقديرٍ شاملٍ، وقدرةٍ غير متناهيةٍ، وحكمةٍ بالغةٍ.

ومن لطائف ما قيل: إنّ الله تعالى لمّا خلَق السّماء والأرضَ، أوقَع بينهما شِبه عَقد النِكاح، فالسّماء مُظِلّةٌ على الأرض، فيَنزِل الماءُ من المُظِلّة على المُقلّه المفترَشة، فيخرُج من بَطنِها الحَيوانات شِبه النَسل، ثمّ تُرَبّيها في حِجْرِها كالأُمّ، وتُطعِمها، وتُلبِسها من ثمارِها، وتَحفَظُها من الحَرّ والبَرْدِ، فهي رؤوفَةٌ بنا حين نَعيشُ في حِجْرِها وَنُرَبّىٰ بتَربيتِها، فاذا انتقَلنا من حِجْرِها إلى بَطْنِها تكونُ أرأف بنا بشَرْط أن نَدخُل في بَطْنِها كما خرَجنا من بَطنِ أُمّنا طاهِرين من الذُنوب، مُهذَّبين من الرّذائل والعيوب.

في أنّ للشرك مراتبَ كثيرةً وقلّما يخلو الإنسان منه.

ثمّ اعلم أنّ للشِرك مراتِبَ كثيرةً، وقلّما يكون الانسان بريئاً منه، روي: «أنّه أخفىٰ في أمّتي من دَبيبِ النَمْلَةِ على الصَّخرةِ الصَّمّاء»[1].

وفي حديثٍ طويلٍ، عن مُعاذ: «ويصعَد الحَفَظة بعَمِل عبدٍ من زَكاةٍ وصَوم وصَلاةٍ وحَجٍّ وعمرة وخُلُق حَسَنٍ، وذِكر لله، ويشيّعه ملائكةُ السّماوات حتّى يقطعوا الحُجُبَ كلّها إلى الله

---

١. تفسير القمي ١: ٢١٣ «نحوه».

عزّ وجلّ فيقفوا بين يدَيه لِيَشْهَدوا له بالعَمَل الصالِح المُخلِص لله. فيقول الله عزّ وجلّ: أنتُم الحَفَظةُ على عَمَلِ عَبْدي، وأنا الرَّقيبُ على قَلْبهِ، إنّه لم يُرِدْني بهذا العمَل وأراد به غيري فعَليه لعنَتي. فتقول الملائكة: عليه لعنَتُك ولَعنَتُنا، فتلعَنُه السَّماوات السّبع ومَن فيهنّ»[1].

وَإِنْ كُنْتُمْ فِى رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَٱدْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ [٢٣ و ٢٤]

في إثبات رسالة خاتم النبيين ﷺ بكتابه الذي هو من أعظم معجزاته وتحدّيه به.

ثمّ إنّه تعالى بعد الدعوة إلى تَوحيده واستِحقاقه العبادَةَ وإقامَة البُرهان عليهِما، شرَع في الدعوة إلى الايمانِ بكتابه الذي هو من أعظَم الأدلّة على النبوّة بقوله: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِى رَيْبٍ﴾ وشَكٍّ ﴿مِمّا نَزَّلْنَا﴾ نُجوماً وتَدريجاً من القرآن ﴿عَلىٰ عَبْدِنَا﴾ محمّد ﷺ مع أنّه لا مَجالَ للرَّيب في أنّه حقٌّ ونازِلٌ من قِبَل الله، لكَونهِ في أعلىٰ درَجة الإعجاز ﴿فَأتُوا﴾ وهَاتوا أيّها المَاهِرون في الفَصاحَةِ والبَلاغة ﴿بِسُورَةٍ﴾ ولو كانت قصيرةً، وقطِعةِ كلامٍ ولو كانت مختَصَرةً كائنة ﴿مِنْ مِثْلِهِ﴾ وعلى صِفَةِ ما نزّلناه من الفَصاحَةِ والبَلاغةِ، أو من مثل محمّد ﷺ الأُمّيّ الذي لم يقرأ ولم يكتُب ولم يتعلّم من أحدٍ في مُدّة عُمُره، وكلّكم مُطّلِعون على أمره ﴿وَٱدْعُوا﴾ مَعاشِرَ المُشركين ﴿شُهَدَاءَكُمْ﴾ وأصنامَكم الذين تعبُدونها ﴿مِنْ دُونِ اللهِ﴾ وتَسمية الأصنامِ شُهَداء بمُلاحظةِ أنّ مُشركي العرَب كانوا يعتَقِدون أن أصنامَهم يشهَدون عند الله بعِبادَتِهم، ويشفَعون لهم، ويُغيثونَهم عند الشّدائد، ويُنجونهم من البَلايا والشّدائد.

ويُحتَمل أن يكونَ الخِطابُ شامِلاً لجَميعِ أهلِ الكتاب أيضاً، ويكون شُهداؤهم شياطينَهم الذين كانوا يعتَقِدون أنّهم أنصارُهم، وعلى هذا يكون حاصِلُ المعنى: ادعوا ـ أيّها المُشرِكون، ومَعاشِر أهل الكِتاب ـ أصنامَكم وشَياطِينَكم الّذين هم أنصارُكم ليُعينوكم على إتيان مثلهِ، وَيشْهدوا لكم أنّكم أتَيتُم بِعِدْلِه في حُسنِ النَّظْم وفَصاحَةِ البَيان والأسلوب البَديع ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في قولِكُم: إنّ ما أتى به محمّد قول البشر وليس من الله الأكبر، وإنّه تقوّل في ما أتى به وبهتَه على الله وافتَراه ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا﴾ ما أمرتُكم به من المُعارضة، ولم تأتوا بمِثله بعد التّظاهُر والسَّعي والجِدّ والتفكُّر ﴿وَلَنْ

---

١. تفسير روح البيان ١: ٧٧.

تَفعَلُوا﴾ أبداً، ولا يكون مَيسوركم ومقدوركم ولو جِئناكُم بالإنسِ والجِنّ مَدَداً ﴿فَاتَّقُوا﴾ بـالإيمان برسالةِ محمّد ﷺ وتَصديقِ كتابه أنّه كلامُ الله المُنزَل عليه ﴿ٱلنَّارَ ٱلّتِي وَقُودُهَا﴾ ومَا بـه اشـتِعالُها ﴿ٱلنَّاسُ وَٱلحِجَارَةُ﴾ قيل: هي حجارة الكبريت لأنّها أشدّ حَرّاً، وبه رواية[1]. وقيل: حِجارَةُ الأصنامِ المَنحوتة، لأنّهم أحَبّوها في الدّنيا، وقد روي: «مَن أحبَّ حجراً حشَرَه الله معه»[2].

قيل: إنّهم لمّا قرَنوا أنفُسَهم في الدّنيا بها وظَنّوا أنّ بها نَجاتَهم في الآخِرة، كان اقتِرانُـهم بـها فـي العَذابِ مُوجباً لزِيادَةِ الحَسْرَةِ عليهم، كما قال تعالى: ﴿يُرِيهِمُ اللهُ أَعمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ﴾[3].

وهذه النّار ﴿أُعِدَّتْ﴾ وَهيِّئَت في الآخِرَةِ ﴿لِلْكافِرِينَ﴾ بالله ورُسُلهِ والدِّين المَرضِيّ عنده.

ثمّ اعلَم أنّ التّحدّي مِن مدّعي النبوّة بما يعجز النّاس عن الإتيان بمِثله دليلُ صِدْقِه، وقد جاء في القرآنِ على وجوهٍ من البيان:

أحدُها: قوله: ﴿قُلْ لَئِنِ ٱجْتَمَعتِ ٱلإِنْسُ وَٱلجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأتُوا بِمِثْلِ هَذَا ٱلقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعضٍ ظَهِيراً﴾[4].

وثانيها: وهو أقرَعُ من الأوّل، قوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَٱدْعُوا مَنِ ٱسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ﴾[5].

وثالثها: وهو أشدّ تَقريعاً وتَبكيتاً، هذه الآيةُ المُباركة، فتَرتيبُ هذِه الأنحاء من التحدّي نَظير تحدّي مُصنّفِ كتابٍ بقَوله: ائتوني بمِثْلِ هذا الكِتاب، فإن لم تَقْدِروا فَبِنِصْفِه، وإن لم تَقدِروا فبِبابٍ أو مسألةٍ منه.

ثمّ اعلَم أنّ الله تعالى كما جعَل مُعجِزَ موسى في إلقاء العصا لبلوغ عِلم السِحر في زمـانه كـمالَه، ومُعجز عيسى في إبراء الأكمَه والأبرَص وإحياء المَوتى لبُلوغ عِلم الطِّبّ في زمـانِه نـهايتَه، جـعَل مُعجِزَ خاتَم النبيّين ﷺ في فَصاحةِ الكتاب العزيز وبلاغته وحُسنِ أُسلوبه لبُـلوغ عِـلم البَـيان فـي عَصرِه أعلى درَجته.

فلمّا عجَز العرَب وفُرسان مَيدان البَيان بعد هذه التَقريعات عن المُعارضة بالكلمات والحـروف، وبادَروا إلى المُبارَزة بالأسِنَّةِ والسّيوف، وحَمَلَهُم العِنادُ والعَـصبيّةُ عـلى شُـرْبِ كأسِ الحُـتوف، أو

---

١. مجمع البيان ١: ١٥٩.
٢. أمالي الصدوق: ٣٠٨/٢٧٨.
٣. البقرة: ١٦٧/٢.
٤. الاسراء: ٨٨/١٧.
٥. هود: ١٣/١١.

مفارقة العَشيرةِ والوَطن المألوف، ولو قدَروا على إتيان سورةٍ تُماثله في الفَصاحةِ والبَلاغة لأتوا بها، مع شدّة عداوتهم وحِرصهم على مُعارَضته وإبطالِ أمره، وكمالِ جِدُّهم في إطفاء نوره، وهم مَهَرَةُ فَنِّ المُحاورة والكلام، ولم يُدانِهم أحَدٌ من الفُصَحاء مَدّ الدُّهور والأيّام، عَلِمنا أنّ الإتيانَ بمِثله فوقَ طاقَةِ البَشَر، وأنّ كلّ سورةٍ من الكتاب العزيز معجزةٌ قاهرةٌ، وتصديق دَعواه من الله الأكبر.

في إثبات كون القرآن معجزاً وبيان وجوه إعجازه

والحاصل: أنّه لا شُبْهَةَ في أنّ النبيّ ﷺ تحدّىٰ العرَب، بل العالَمين بالقرآن في هذه الآية المُتَضمنَة للتهكّم بآلِهَتِهم بقوله: ﴿وَٱدْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ﴾ وتقريعهم بقوله: ﴿وَلَنْ تَفْعَلُوا﴾ وتوعيدهم بالعَذاب الشديد بقوله: ﴿فاتّقُوا ٱلنَّارَ الّتى وَقُودُها النَّاسُ﴾ ونِسبتهم إلى الكُفر بقوله: ﴿أُعِدَّتْ لِلكَافِرِينَ﴾.

ولا شُبهَةَ أنّ أهلَ ذلك العَصر مع بلوغهم في عِلم الفَصاحةِ غايته، وفي فَنّ الكلام نهايته، بحيث لَمْ يأتِ الزّمان بمِثلهم، ولم يتيسّر للدّهر تربيته عِدلَهم، وفاقوا الأوّل والآخِر، وفُضّلوا على الماضي والغابِر، لم يعارِضوه بالمِثْل في شِدّة عداوتهم للرّسول، ونهاية تأنفهم عن تَلقّي قوله بالقَبول، حتّى هاجَروا الأوطان، وفارَقوا الأولاد والإخوان، وهجَروا العشائر، وأسلَموا النّفوسَ والمُهَج للأسِنّة والبَواتر، ولو كان في وُسعِهم إتيانُ مماثلٍ لأقصَرِ سورةٍ من القرآن، أو مُقاربٍ له في حُسْنِ النَّظم ومَلاحة البَيان، لأتَوا به ولم يتحمّلوا الشِدّة والعتب[1]، وأفحَموه وفضَحوه بلا نَصَب، وأبطَلوا أمرَه، وأطفأوا نورَه، وأخَذوا بنَفَسِه، واستَراحوا من بأسِه، فعند ذلك لم يُمكِن أن يَخْضَرَّ له عودٌ، وأن يقومَ لدِينه عَمودٌ.

فلمّا رأينا أنّه قد غلَب نورُه الظّلامَ، عَلِمنا بعَجْزِ جميع فُصَحاء عَصْرِه عن معارضته بالكلام، كما أنّا لمّا عَلِمنا بعَجْزِ سَحَرة موسى عن معارضته وإتيان مُماثلٍ لما أتىٰ به مع تحدّي موسى بإلقاء عَصاه وصيرورَتها ثُعباناً، عَلِمنا بكونه صادِقاً في دَعواه، مع أنّه لو عارَضوه بسورةٍ تُماثِله لوصَلَتْ الينا بالنّقْل المُتَواتر، وأُثبِتَت في الزّبُرِ والدّفاتر، لتوفّر الدّواعي في نَقْلِه كما توفّرت في نَقْل القرآن.

على أنّه قد تَواتَر اعتِرافهُم بالعَجْز، ودلّ عليه كثير من الآيات، كقوله تعالى: عن قولهم: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾[2] و﴿إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾[3] و﴿ٱللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ ٱلحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا

---

١. كذا، ولعلّها تصحيف التعب.
٢. المائدة: ٥/١١٠، الأنعام: ٦/٧.
٣. المدّثر: ٧٤/٢٤.

حِجَارَةً مِنَ ٱلسَّماءِ أَو آئتِنَا بِعَذابٍ أَليمٍ﴾[١] ولا مجال لاحتِمال كَـذِب نسبة هـذه الأقـوال إليـهم، لاشتِهار هذه الآيات بين جميع الطَّوائف والطبَقات، فلو كانت كَذِباً كَفاه في إبطال دَعوتِهِ ووضـوح فَضيحَتِه وانفِصام عُرْوَتِه.

ثمّ اعلَم أنّ وجه إعجازِ القرآن لعامّة النّاس هو فَصاحَتُه وبَلاغتُه وحُسـنُ أُسلوبِه ونَـظْمِه، وهـذا الوجه يُعلَمُ من وجوه:

منها: نِهايةُ فَصاحةِ كلّ آيةٍ وسورةٍ في نَفْسِها، مع قَطْع النَّظَر عن غيرها.

ومنها: بالنَّظَر إلى سائر الآيات والسُّوَر، وهذا أيضاً من وجوه:

منها: أنّا قد استَقْرَأنا كلمات فُصَحاء العرَب فرأيناهُم مختَلِفين في صناعة الفَصاحة، وأنّ كلّ واحدٍ منهم له مَهارةٌ في فَنّ الكَلام دون فَنٍّ آخر، منهم فصيحٌ في الحَماسَةِ، ومنهم فصيحٌ في المَدْحِ، ومنهم فصيحٌ في الهِجاء، ومنهم فصيحٌ في التَّطريب والتَعَشُّق، إلى غـير ذلك، والقـرآن العَـظيم فـي غـايَةِ الفَصاحة في جميع الفنون من الكلام.

ومنها: أنّ مَضامين القرآن كلّها في المَعارِف، وعـلم الأخـلاق، والحَثّ عـلى الزُّهـد فـي الدُّنـيا، والتَرغيب في الآخرة، وبَيان أحكام العِبادات والمُعامَلات والسِياسات، ومن الواضـح أنّ فـي هـذه الأمور ليس مَجال الفَصاحة ومَيدان البَلاغة، والقرآنُ العَظيم في أعلى درجتها في جميعها.

ومنها: أنّ حُسنَ الكلام ومَلاحَة البَيان موقوفٌ على الكَذِب والاغـراقـات والمُـبالغات، والقـرآن العظيم مع عرائه وتنزّهه عن جميعها في غاية الحُسْنِ والمَلاحة.

ومنها: أنّه ما رُئِيَ فَصيحٌ من الفُصَحاء أتىٰ بكلامٍ طويلٍ إلّا كان بعضُ قَـضاياه أو بـعض كـلماتِه خارجاً عن حَدّ الفَصاحة، أو كان بعضُها أفصَح من بعض، والقرآن العظيم مع أنّه كـتابٌ مُـطَوَّل لم تتنزّل آية منه من أعلى مَرْتَبة الفَصاحة فَضْلاً عن خُروجها عن حَدِّها، وإلى هذا أشار سبحانه وتعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ آختِلافاً كَثِيراً﴾[٢].

وأمّا وَجهُ إعجازِه من غير جهة الفَصاحة والبَلاغة، فأُمور:

منها: أنّه لا شُبْهةَ أنّ النبيّ ﷺ كان أُميّاً، لم يتعلّم من أحَدٍ، ولم يقرأ كِتاباً، وهذا الكتاب العزيز الذي جاء به جامِعٌ لجَميع العُلوم، ما مِن عِلمٍ إلّا وفيه أصلُه بالمعنى الذي مرّ في الطُّرفَةِ الثالثةِ، مثل عِـلم

---

١. الأنفال: ٣٢/٨.　　٢. النساء: ٨٢/٤.

المَعارِف الإلـهيّة، فإنّ مَن نظَر في سائر الكتُب السماويّة، وزُبُـر العُـرَفاء الربّـانيّة، عـرَف أنّ مـا فـي جميعها من المعارِف بالنسبة إلى ما في القرآن المَجيد كالقَطْرَةِ بالإضافَةِ إلى البَحْر المُحيط، ومثل عِلم الحكمة والكَلام، وكعِلم الأخلاق، وعلم الزّهد في الدّنيا، وتفاصيل الآخِرة، ومِثل عـلم الفِـقْه مـن العبادات والمُعامَلات والسياسات.

ومنها: اشتِمالُه على الإخبار بالمُغيّبات عن جزمٍ ويَقينٍ، كقوله تعالى فـي الآيـة السـابقة: ﴿وَلَـنْ تَفْعَلُوا﴾ وقوله تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ﴾[1] وقوله تـعالى: ﴿فَسَـيَكْفِيكَهُمُ اللهُ﴾[2] وقـوله تعالى: ﴿غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾[3] وقوله تعالى: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلحَرَامَ إِن شَاءَ ٱللهُ آمِنِينَ﴾[4] وقوله تعالى: ﴿لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذَىً وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُـوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ﴾[5]. إلى غير ذلك، فإنّ هذه الآيات ونَظائرها إخبارٌ بأُمورٍ قـبل وُقـوعها، ثـمّ وقعَت مطابقةً لها.

ومنها: شِدّة تأثير القرآن العظيم في النّفوس، فإنّه ما من كتابٍ سماويٍّ أو مـعجزةٍ مـن مُـعجِزات الأنبياء السَّلَف له تأثيرٌ في القُلوب كتأثيره.

ثمّ أنّه تعالى بعد ما استدَلّ على وجُودِه وكَمالِه ووجُوب عبادته بمَخلوقاته، وعَظيم نَعْمائه، وعلى رسالةِ عَبْدِه وإعجازِ كتابه، بعَجْزِ جَميعِ الخَلْق عن إتيانِ سورةٍ مثله، شرَع بقوله: ﴿فَاتَّقُوا ٱلنَّارَ﴾ الآية، في ذِكر المَعاد وبَيان عِقاب الكفّار في الآخِرة.

وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا ٱلأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقاً قَالُوا هَذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهاً وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ[٢٥]

ثمّ أردفه بـذكر ثَـوابِ المـؤمنينَ بـقوله ﴿وَبَشِّـرِ ٱلَّـذِينَ آمَـنُوا﴾ بألسِـنَتِهم وقُـلوبهم ﴿وَعَـمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ﴾ بجَوارِحِهم ﴿أَنَّ لَهُمْ﴾ بالاستِحقاق والتَفَضُّلِ ﴿جَنَّاتٍ﴾ وبَساتين عديدة، إذ في التعدُّدِ حَظٌّ ليس في الانفِراد.

---

١. آل عمران: ١٢/٣. ٢. البقرة: ١٣٧/٢. ٣. الروم: ٢/٣٠ و٣. ٤. الفتح: ٢٧/٤٨.
٥. آل عمران: ١١١/٣.

قيل: عدَدُها ثَمان: دارُ الجَلال كلّها من نور، ودارُ القَرارِ كلّها من مَرْجَان، ودارُ السَّلامِ كلّها من الياقوت الأحمَر، وجنَّةُ عَدْنٍ كلُّها مِن زَبَرْجَد وهي مُشرِفَة على الجِنان كلِّها، وجنَّةُ المَأوىٰ كلّها من الذَّهَب الأحمَر، وجنَّة الخُلْدِ كلّها من الفِضّةِ، وجَنَّةُ الفِرْدَوس كلّها من اللؤلؤ، وجنّة النَّعيم كلّها من زُمُرُّد.

وروي أنّ المؤمن إذا دخَل الجنَّة رأىٰ سبعين ألف حديقةٍ في كلّ حديقةٍ سبعون ألف شَجرةٍ، على كلّ شَجرةٍ سبعون ألفَ وَرَقَة، وعلى كلّ وَرَقةٍ: لا إلـه إلّا الله، محمّد رسول الله، اُمّة مُذنِبَة وربٌّ غفور، كلّ ورقةٍ عَرْضُها ما بين المَشرق والمغرب[1].

ثمّ وصَف الجَنّان وأشجارَها، بأنّها ﴿تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ﴾ لازدياد صَفائِها وطَراوَتِها وحُسنِها بها.

قيل: إنّ المُراد بالأنهار جِنسُها.

وقيل: إنّ المُراد الأنهار الأربَعة: نَهرٌ من ماءٍ غير آسِن، ونَهرٌ مِن لَبَنٍ لم يتغيّر طَعْمُه، ونَهْرٌ مِن خَمْرٍ لَذَّة لِلشّارِبين، ونَهْرٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفّى.

ثمّ بعد ذِكر مَسْكَنِهم وشَرابِهم، ذكَر طَعَامَهُم بقوله: ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا﴾ واُطْعِموا ﴿مِـنْها مِـنْ﴾ نـوع ﴿ثمرَةٍ رِزْقاً﴾ وطَعاماً ﴿قَالُوا هٰذا﴾ الثَمَر مِن جِنْسِ الثَّمَر ﴿ٱلَّذِى رُزِقْنَا﴾ وطُعِمنا ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ في الدُّنيا.

في بيان حكم جعل ثمرات الجنة من نوع ثمرات الدُّنيا.

قيل: إنّ الله جعَل ثَمرات الجنّةِ من نوع ثَمَرات الدُّنيا لزِيادة شَوق المؤمنين إليها بعد مَعرِفَة جِنْسِها وطَعْمِها، حيث إنّهم إذا لَم يَعرِفوا طَعْمَها وخاصّيتها، ولم يَشْتَاقوا إلَيها في الدُّنيا، لم يُبادِروا في الجنّة إلى تَناوُلها، ولم يَفْرَحُوا بها في بَدْوِ رُؤيَتِها، وأمّا إذا كانوا مطَّلِعين على طَعْمِها فَرِحوا برُؤيتها، وَعلِموا أنّها مِمّا رُزقوا في الدُّنيا وإن كانَ التَفاوتُ بينَها وبين مارُزِقوا في الدُّنيا كتَفاوتِ الدُّنيا والآخِرة، ولا يَسْتَحيل أحَدُها إلى ما يَسْتَحِيل به ثَمَرات الدُّنيا.

روي أنّه جاء رجلٌ من أهلِ الكتابِ إلى النبيّ ﷺ فقال: يا أبا القاسم، تَزعُم أنّ أهلَ الجنّة يأكُلون ويشرَبون؟ فقال: «نعم، والذي نفسُ محمّدٍ بيَدِه، إنّ أحدَهم ليُعطىٰ قوّة مائة رجل في الأكل والشُّرب

---

١. تفسير روح البيان ١: ٨٢.

والجِماع».

قال: فإنّ الذي يأكُل لَهُ حاجة، والجنّة طيّبة ليس فيها أذى؟ قال ﷺ: «حاجَةُ أحدِهم عَرَقٌ ريحُه كريحِ المِسْك»[1].

ثمّ قال تعالى في وَصْفِ رِزْقِ الجنّة: ﴿وَأُتُوا بِهِ﴾ وجيئوا بذلك الرزق ﴿مُتَشَابِهاً﴾ وُمتَماثِلاً في الحُسْنِ والكَمالِ واللذّةِ والنُّضجِ والطِّيب، ليس فيها غير مَنضوجٍ ولا فاسِد ولا قليل اللّذة، بل كلّها في الصِفات الكماليّة في أعلى درَجةٍ.

﴿وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ﴾ طهَّرهنّ الله من الأدناسِ والأرجاسِ الجسمانيّة، من الحَيْضِ والنِفاسِ والاستِحاضة، ومن الأخلاقِ الرَّذيلةِ والصِفات الخَسيسَةِ.

قيل: فيه إشارة إلى نهاية كرامةِ المؤمنين، حيث إنّ الله تعالى بذاتِه المقدّسة باشَر تَزيين أزواجهم.

عن ابن عبّاس: خلَق الحورَ العين من أصابع رِجْلَيها إلى رُكبَتَيها من الزَعْفَران، ومن رُكبتَيها إلى ثَدْيَيْها من المِسْك الأذفَر، ومن ثَدْييها إلى عُنُقِها من العَنْبَر الأشهب ـ أي الأبيَض ـ ومن عُنُقِها إلى رأسِها من الكافور، إذا أقبلت يَتَلألأ نور وَجهِها كما تتلألأ الشّمس لإهل الدّنيا[2].

قيل: إنّه بعد ملاحظة قوله تعالى: ﴿الطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ﴾[3] يُعلَم أنّهنّ لَا يَكُنَّ إلّا للمُطَهَّرِين من المعَاصي والأخلاقِ السيّئة والصِفات الذَميمة وحُبّ الدّنيا الدنِيّة، المُزَيّنين بالمَلَكاتِ الحَسَنة والصِفات الكريمة.

ثم أنّه قد ورَدت روايات بأنّ زوجةَ المؤمن في الدّنيا إذا كانت مؤمِنَة صالِحة، تختَصّ بزَوجِها في الجنّة، وتَفوق على حور العين في الحُسنِ والجَمال والنّور والبَهاء.

ثمّ اعلَم أنّه لمّا كان اُصول النِعَم في الدّنيا المَسْكَن الطيّب، والشّراب الهنيء، والطَعام اللّذيذ، والزوجة الجَميلة المحبوبة، بشّر الله المؤمِنَ بأنّ له هذه النِعَم في الآخِرَة.

ثمّ لمّا كان خوفُ زَوالِ النِعمَةِ من مُنَغِّصاتِ العَيْش، بَشّر الله تَعالى المؤمنينَ بدوامِ النِعمَةِ وبَقائهم في الجنّة، بقوله: ﴿وَهُمْ فيها خَالِدون﴾ مُقيمونَ أبداً، لا يَخرُجون منها ولا يَموتون، فلا يَخطُر ببالِهم احتِمالُ زَوالِ النِعمَةِ وعَوْدُ البَلايا والمِحَن الدنيويّة.

---

١. تفسير روح البيان ١: ٨٤.
٢. تفسير روح البيان ١: ٨٤.
٣. النور: ٢٤/٢٦.

عن عِكْرِمَة، أنّه قال: أهلُ الجنّةِ وِلدُ ثَلاثٍ وثلاثين سنَة رِجالُهم ونساؤهم، وقامَتُهم سبعون[١] ذراعاً على قامَةِ أبيهم آدَم، جُرْدٌ[٢] مُكحَّلون، عليهم سَبعون حُلّة، لكلّ حُلّة في كلّ ساعةٍ سبعون لوناً، لا يَبزُقون ولا يتمَخّطون، وما كان فوق ذلك من أذى فهو أبعَد، يزدادون كلّ ساعةٍ حُسْناً وجَمالاً كما يزداد أهلُ الدُنيا هَرَماً وضَعْفاً، لا يَفْنىَ شَبابُهم ولا تبلى ثِيابُهُم[٣].

في إثبات المعاد

ثمّ اعلَم أنّ المَعاد الجِسْماني من ضَروريّات دينِ الاسلام، بل وسائر الأديان، والعقل القاطع والنّقل الساطِع حاكِمانِ على إمكانِه ووُقوعِه، أمّا إمكانُه عَقلاً فلوضوح أنّ إيجاد عالَم آخَر، وإعادَة النّاس، ليس من المُمتَنِعات الذاتيّة كشَريك البارِي، ولا من المُحالات العَرَضيّة لعدَم استِلزامه لقَبيحٍ أو مُحالٍ، والقول بأنّ الزائِل لا يُمكِن أن يعود ـ على فَرْضِ تسليمه ـ فإنّما هو العَودُ بعَينِه وبجَميع مُشخّصاتِه الزَمانيّة والمَكانيّة وغيرهما.

وأما تصوير مادتِه بصورةٍ مماثلة لصورتِها السابقة، بحيث يُقال: هذا هو، فليس من الإعادة التي قالوا بامتِناعها، وهذه نَظير لَبِنَةٍ سُوِّيَتْ أولاً بتُرابٍ مَخصوصٍ وقالَبٍ خاصٍّ، ثمّ كُسِرَت وفُتِّتَتْ، ثمّ سُوِّيَتْ ثانياً بذلك التّراب وذلك القالَب، بحيث كلّ مَن رأىٰ اللَّبِنَة الثانية قال: هي اللَّبِنَة الأولى[٤].

وأمّا قُدرَتُه تعالى فلا يُتَصوّر ولا يُعقَل فيها قُصورٌ عن الإعادَةِ، وقد استدّل في مَواضِع من كتابه العَزيز على قُدرَتِه على الإعادَةِ بقُدرَتِه على الإبداء، قال: ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾[٥] وقال: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِى أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾[٦].

بل لا شُبهةَ أنّ الإعادَةَ أهْوَن من الإبداء لكَونِه بلا مِثالٍ سابقٍ كما قال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾[٧] فليَنظُرِ العاقِلُ إلى بَدْوِ خَلْقِه، فإنّ مادّةَ نُطفَتِه كانت ذرّاتٍ متفرّقة في أطرافِ العالَم، فجمَعها الله تعالى في لُقمَةٍ واحدةٍ، ثمّ فرّق فَضْلَةَ الهَضْمِ الرّابعِ منها كالذّرّاتِ في جميع أعضاءِ بَدَنِ الرّجلِ، ثمّ جمَعَها الله تعالى بالقوّة الشهويّة في وِعاءِ المَنِيّ، ولذا تلتَذُّ جميعُ الأعضاءِ بالوِقاع، لحُصول انحِلال ذرّاتِ المَنيّ عنها، ثمّ أخرَجها الله ماءً دافقاً إلى قَرارِ الرَّحِم، فمَن هو قادر

---

١. في تفسير روح البيان: ستون.
٢. في تفسير روح البيان: آدم، شباب جرد مرد.
٣. تفسير روح البيان ١: ٨٤.
٤. وقد ورد حديث عن الامام الصادق عليه السلام في هذا المضمون راجع: الاحتجاج: ٣٥٤.
٥. الاحقاف: ٣٣/٤٦.
٦. يس: ٧٩/٣٦.
٧. الروم: ٢٧/٣٠.

على جَمْعِ الذّرّاتِ المتفرّقة في اللُّقمةِ الواحِدَة، ثمّ تفريق ذرّات فَضْلتِها في جميع أعضاءِ الجسَد، ثمّ جَمْعِها من تلك الأعضاء في وعاءٍ واحدٍ، ثمّ خَلْقِها شَخصاً عاقِلاً بصَيراً سميعاً، كيف يَعجزُ عن جَمْعِ أجزاءِ تُرابِه المتفرّقة بالمَوت وخَلْقِها مرّةً اُخرىٰ بصورتها الأولى؟! بل هو سبحانه بالقُدرةِ على هذا الجَمْع والخَلْقِ أحرىٰ وأولىٰ، وقد نطَق الكتابُ العزيز بهذه الحُجّة في مَواضِعَ:

منها: في سورة الحجّ قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِى رَيْبٍ مِنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ﴾ إلى قوله: ﴿وَتَرَىٰ ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً﴾ إلى قوله: ﴿ذٰلِكَ بِأَنَّ ٱللهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ * وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللهَ يَبْعَثُ مَنْ فِى ٱلْقُبُورِ﴾[١].

ومنها: قوله في الواقعة: ﴿أَفَرَءَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ * ءَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَالِقُونَ﴾[٢] إلى غير ذلك من الآيات.

ثمّ تفكّر في قدرة الله في خَلْقِ الأشجار والزروع كما نبّه الله عليه بقوله: ﴿أَفَرَءَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ﴾[٣] حيث إنّ للأشجارِ نَوَاةً، وللزُروع حُبوباً، ولكلٍّ من النَواة والحُبوب أقسامٌ وأشكال، منها مُطَوّلٌ مَشقوق كنَواةِ التَّمرِ وحَبِّ الحِنْطَةِ والشّعير، ومنها غير مَشقوق كالأرُزّ، ومنها مُثلَّث، ومنها مُرَبّع، ومنها مُدوَّر إلى غير ذلك من الأشكال.

فإذا وقَع الحَبُّ في الأرضِ واستَولت عليه الرُطوبةُ، مع أنّ مُقتَضى الطبيعة أن يتعفّن ويَفسُد، ومع ذلك يحفَظُه الله ويُرَبّيه بَيْنَ المُفْسِدات، ثمّ إذا ازدادَتِ الرُطوبَةُ يظهَرُ في رأسِ الحَبِّ الطَويلِ ثَقْبٌ تَخرُج منه ورَقةٌ طَويلةٌ كزَرْعِ الحِنْطَةِ والشّعيرِ وأمثالِهما، وأمّا الحَبُّ غيرُ الطَّويل فيَنْفَلِقُ فِلْقَتَينِ فيَخرُجُ مِنهُ ورَقتانِ، وأمّا النَّواةُ فمعَ ما فيها مِن الصَّلابة التي يَعْجِزُ عن فَلْقِها أغلَبُ النّاس فتَنْفَلِقُ بإذنِ الله، فيخرُج منها شَجَرانِ: أحدُهما صاعِدٌ إلى السَّماء، لَهُ أوراقٌ وغُصونٌ وثِمارٌ، لكلّ جُزءٍ منه لَونٌ وطَعْمٌ وطَبيعةٌ، مُغايرٌ لسائر الأجزاء، والشجَر الآخر هابِطٌ غائِصٌ في أعماقِ الأرضِ، مع اتّحادِ طبيعةِ النَّواة وعُنْصُرِها الماء والهَواء والتُراب.

ثمّ انظُر كيف أودَعت القُدرَةُ في تَيْنَك الشجَرَتَين الأجزاءَ الناريّة التي تُباين ما استقرّت فيه من جميع الجِهات، فإنّ الشجَرَتَين هابِطَتان كَثيفَتات رَطْبَتان بارِدَتانِ ظُلْمانِيَّتانِ، والنارُ صاعِدةٌ لطيفَةٌ

---

١. الحج: ٢٢/٥ ـ ٧. ٢. الواقعة: ٥٦/٥ ـ ٧. ٣. الواقعة: ٥٦/٥٨و٥٩.

يابِسَةٌ حارّةٌ نورانيّةٌ، وإليه أشار سبحانه بقوله: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ * ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ﴾[١].

والحاصل: أنّ مَن أذعَن بإمكانِ الإعادَةِ ذاتاً ووقوعاً، وأيقَن بقُدرَةِ الله التّامّةِ، لا يَبقىٰ له رَيْبٌ وإشكالٌ، وإنّما اكتَفى سُبحانَه وتَعالى في مَقامِ الاستِدلالِ على الإمكانِ بالمقدِّمَةِ الأخيرَةِ، وهي كَمالُ سَعَةِ قُدرَتِه وشمُولِ حِكْمَتِه الظاهِرَانِ في خَلْقِ السّماواتِ والأرضِ، وإرسالِ الرّياحِ، وإنشاءِ السَّحابِ، وإنزَالِ الأمْطَارِ، وخَلْقِ الأشْجَارِ وجَعْلِها بُيوتَ النّارِ، وإخراجِ الثِّمار، وخَلْقِ النُّطَفِ وغير ذلك.

ولم يتعرّض للمقدّمة الأُولى لعدم رَيْبٍ لمُنكِرِ الحَشْر فيها، نعم أضافَ إليه سبحانه الاستِدلالَ بوُقوع نظائر الحَشْرِ في الدُّنيا، كإحياءِ الأرضِ بعد مَوتِها بإنزالِ الأمطارِ، وإحياءِ القَتيل من بني إسرائيل بِضَرْبِه بجُزءٍ من البقرة، وإحياء الأُلوفِ الذين خرَجوا من ديارهم حَذَر المَوتِ، وجَمْع الأعضاءِ المتفرّقة من الطُّيور الأربَعة وإحيائها لإبراهيم، وإحياء النبيّ الذي مرّ على قريةٍ وهي خاويةٌ على عُروشِها فقال: أنّى يحيى هذه الله بعد مَوتِها، فأماتَهُ الله مائةَ عامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ، وإحياء حِمارِه إلى غير ذلك.

ثمّ اعلَم أنّه تَباركَ وتَعالى أكثَرَ في كتابة العزيز من الاستدِلال على التّوحيد والنبوّة وإمكانِ المَعاد، لوُضوحِ عدم إمكان التَعبُّد فيها، ووضوح حُكم العَقْل بها بالبَراهين الّتي أقامها سبحانة، وإنّما اكتَفى في وقوعِ المَعاد بصَرْفِ الدَعْوىٰ لكِفايةِ إمكانِه وثبوتِ النبوّة وإخبارِ الله ورَسولِه بوُقوعه في ثُبوته، واليَقين به، فإنّ اليَقين بصِدق النبيّ ﷺ في إخبارِه بوقُوعه مستَلزمٌ لليَقين به، مع أنّ العَقْلَ حاكِمٌ بوجوب وُقوعِه لوُجوهٍ:

[١] منها: أنّ حكمةَ خَلْقِ الإنسانِ الذي خُلِق له غيرُه من عالَمِ الأجسام لا يَتِمّ إلّا بالمَعاد، بل لولا المَعاد لكانَ خَلقُه وخَلْقُ العالَمِ عَبَثاً لا يليقُ صُدورُه من الحكيم تعالى شأنه.

أمّا قولنا: إنّ غير الإنسانِ من الموجودات الجِسمانيّة خُلِق له، فَلأنّ موجودات عالَمِ الأجسام بل جميع العَوالِم مرتَبِطاتٌ بعَضُها ببعضٍ كأعضاءِ شَخصٍ واحدٍ، وجميعَها مُحصَّلاتٌ لغرَضٍ واحدٍ ومقدّمات لنتيجةٍ واحدة، كشجرة غُرِسَت لتَحصيلِ ثَمَرتِها.

ومن الواضح أنّ النتيجة متأخّرة عن المقدّمات، والثّمرَة متأخّرة وجوداً عن الشَجرة، لأنّ العِلّة

---

١. الواقعة: ٥٦/٧١ ـ ٧٢.

الغائيّة وإن كانت بوجودها العلمي بتقدمة على معلولها ولكن بوجودها الخارجيّ متأخِّرَة عنه.

فعلى هذا، لمّا علِمنا أنّ وجود السّماوات بما فيها من الكواكب والأرض وما فيها من الجِبال والبِحار، سابقٌ على وجود الإنسانِ،علِمنا أنّ جميعَها مقدّماتٌ لوجُودِه ومخلوقاتٌ له، وأمّا النّباتات وسائر الحيوانات فلمّا رأينا أنّ الإنسانَ قاهِرٌ على جميعها، متفِعٌ بأغلبِها، أكمَلُ مِن كلِّها، علِمنا أنّه عِلّةٌ غائيّةٌ لجَميعِها، لأنّ الأشرَف الأكمَل لا يُمكِن أن يكونَ مقدِّمة للأخَسّ الأنقص، ولا يُعقَل أن يكونَ الأخَسُّ عِلّةً غائيّةً لوجود الأشرَف، فثبَت أنّ غير الإنسان من المَوجودات الجسمانيّة مخلوقٌ له، وهو علّةٌ غائية لإيجادِ غيرِه.

وأمّا قولنا: إنّه لولا المَعاد لكانَ خَلقُ الإنسانِ عَبَثاً، فلأنّه لابُدّ أن يكونَ لِخَلْقِ الإنسانِ الذي هو أعجوبَةُ الكَونِ، وآيَةُ عالَم المُلكِ والمَلَكوت مِن غرضٍ مُهِمٍّ لائقٍ بالحَكيم، وصلاحٍ مُلزمٍ في نَظَر العَقْل السَليم، ولا يُمكن أن يكونَ الغَرَضُ والمَصلحةُ في خَلقِه هو التَعَيُّش في هذا العالَم مدّةً قليلةً، والتمتّع بأمتِعَتِها الخَسيسةِ الرَذيلةِ، مع شَوبِها بالآلامِ الكثيرةِ والأسقامِ الوفيرةِ، والبَلايا والمَنايا، والهُموم والغُموم، والمَضارّ والمَشاقّ، أضعاف ما يُصيب من اللّذّةِ والتمتّع، ثمّ يكون مَوتٌ وانعِدامٌ، لبَداهةِ عدَم صلاحيّته لأن يكونَ غَرضاً للحكيمِ في هذا الخَلْق القَويم الذي أمر ملائكتَهُ بالسجود له[1] الذي هو أعلىٰ مَراتب التَّعظيم.

فإذَن لا يُتصوّر غَرَضٌ آخَر في خَلْقِه إلّا تَحصيله الكَمالات النفسانيّة، واكتسابه المَلَكات الجميلة الروحانيّة وارتِقاؤه إلى درجات القُربِ والعبوديّة بالمَعارف الإلٰهيةِ والأعمال الصالحة، ولا يتِمّ إلّا بجَعْلِ التَكاليف والأحكام المَوْلَويّة وإرسال الرُسُلِ وإنزالِ الكتُب، فلو لم يكن عالم آخَر يُجزى ويُثاب فيه المُطيعُ، ويُجزىٰ ويُعاقَب فيه العاصي، لَزِم كونهما مُتَساويَين، وعدم المَزيّة في البيَن، بل كون العاصي أحسَن حالاً من المُطيع لتلذّذِه بالمُشْتَهيَات النفسانيّة واستِفادته بالأمتِعة الدنيويّة أزيَد من المؤمن المُطيع، لكَونهِ مدّة عُمرِه في تَعَبِ الطّاعة ومشقّة الزُهْدِ والرياضة.

فثبَت أنّه لابُدّ من عالَمٍ آخر يَجِدُ المُطيعُ فيه ثَوابَ طاعَتِه، والعاصي تَبِعاتِ مَعصِيَتِه، قال تعالى: ﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَـٰٓـُٔوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا بالحُسْنى﴾[2].

[٢] ومنها: أنّه لا شُبْهَةَ أنّ الإنسانَ خُلِقَ مَدنيّاً بالطبع، بمعنى أنّه لا يُمكِن لكلّ فردٍ منه التَعَيُّش إلّا

---

١. في النسخة: بسجوده.

٢. النجم: ٣١/٥٣.

بالاجتِماع مع غيره والاستِعانة بسائر بني نوعه لكثْرَةِ حَوائجِه وعدَم إمكان قيام كلّ واحدٍ بجَميعِها، ثمّ أنّه من البديهي أنّ طِباعَ بني آدَم باقتِضاء الجِهَة الحيوانيّة مجبولَةٌ على الظُلْم والعُدوانِ، ولِذا نَرى الغالِب منهم بين ظالِمٍ وَمظلومٍ، وشاتِمٍ وَمَشْتوم، وقاتِلٍ ومَقتولٍ، وغارٍّ ومَغرورٍ، وحاصِرٍ ومَحصورٍ، وكثيراً مالا يَقدِر المَظلومُ في هذه الدُنيا على الانتصار من ظالِمه، ويبقى الظُلم في هذا العالَم بِلا مُكافاةٍ ومُجازاةٍ، ومُقتَضى العَدْل والحِكمة انتصاره تعالى من الظالِم للمَظلومِ، فلو لم يكن عالَمٌ آخَر يُؤخَذ الظالِمُ فيه بظُلمِه، ويُجزَى المَظلومُ على صَبْرِه وكَظْمِه، لَزِم خِلافُ العَدْلِ وعَدَم قيامِه تعالى في عبادِه بالقِسْطِ، تعالى الله عن ذلك عُلوّاً كبيراً.

[٣] ومنها: أنّ من الواجِب في النّظام الأتَمّ بَعْث الرُسُل وجَعْل التكاليف على العِباد، لأنّهما من اللُطفِ الواجِب على اللهِ تعالى، ومن الواضِح أنّه لولا جَعْل المُجازاة على مُوافَقَة التكاليف ومُخالفَتها، والوَعْد بالثَواب والوَعيدِ بالعِقاب على طاعَتِها وعِصْيانِها، لكان البَعْثُ والتكليفُ لَغْواً، لِعدَم إمكانِ اتّباع الأُمَم رُسُلَهم، وتحمّل النّاس مشقّة الطّاعةِ والتِزامِهم بالقَوانين الإلهيّة، لعدَم الداعي في النُفوس إلّا الخَوف والطَمَع، فلابُدّ في الحِكمةِ والنِظام الأتَمّ من جَعْلِ الثَواب والعِقاب على الطاعة والمَعْصِية، إمّا في هذا العالم، أو في عالَمٍ آخَر، ولمّا لم يكن في الدُنيا، فلابدّ من الحَشْرِ في عالَمٍ آخَر حتّى يَنالُ فيه المُستَحقّ ما استَحَقّه من الجَزاء، ولذا لم يُبْعَث رسولٌ إلّا وأخبَر بالحَشْرِ والنَّشْرِ بعد الموت، والثَواب والعِقاب في عالَم الآخِرَة.

في إثبات وجوب كون المعاد جسمانياً بالأدلة العقلية

ثُمّ اعلَم أنّ هذه الوجوه وإن كانت لا تَفي بإثْباتِ أزيدَ مِن المَعاد في الجُملة، والمتيقّن منه المَعاد الرّوحاني، ولذا قال جَمعٌ بأنّه لا طريقَ للعَقْلِ إلى الجِسْمانيّ منه، بل طريقُ إثباتِه مُنحَصِرٌ بالنَقْلِ، إلّا أنّ الحَقّ أنّه أيضاً ممّا يَحكُم به العَقْل لوجوه:

[١] منها: أنّه لا شُبَهَة أنّ حَدّ استِحقاق الثَّواب والعِقاب لابُدّ أن يكونَ في حُكمِ العَقْلِ على حدّ حُسْنِ العَمل وقُبْحِه، ولا رَيْبَ أنّ مَنْشأهما قد يكون في نَفْس العَمَل مع قَطْع النَّظَر عن الجهاتِ الخارجيّة الطارئة، كحُسنِ العَدْلِ والإحسانِ، وقُبْحِ الظُلْم والعُدوان، وقد يكونُ بالنَّظَر إلى الجِهَةِ الخارجيّة الطارئة، وقد يكون للجِهَتين معاً كصَيرورةِ عَمَلٍ قبيحٍ مُتعلّقاً لنَهْي المَولى، لبَداهةِ أنّ حقّ المَولى على العَبْدِ إطاعةُ أوامِره ونَواهيه، فإذا خالَف حُكمَه كان ظالِماً عليه.

ثمّ لا شُبهةَ أنّه تَتفاوت الجِهات الأوّلية في مَنْشَئِيَّتِها لانتِزاعِ الحُسنِ والقُبْحِ شِدَّةً وضَعْفاً، لِبداهـةِ

إقوائيّة مَنْشَأ قُبْح الزنا مِن مَنْشَأ قُبْحِ النَظَر والقُبْلَة، ومَنْشَأ حُسْنِ العدْلِ مِن مَنشأ حُسنِ الإحسانِ، وكذلك تَتَفاوت الجِهات الخارجيّة الطارِئة على العمَل لوُضوح تَفاوُتِ مَراتِب عَظَمَة المَولىٰ ومقدار حُقوقِه ونِعَمه، ودَرَجات تأكّد طَلَبه وأهميّة غَرَضه، وتَفاوتُ قُبْح مَعْصيَتِه وحُسْنِ طاعَتِه بذلك التفاوت، فإنّ في ارتِكاب مُخالفةِ المَولى هَتْكَ حُرمَتِه والجُرأةَ عليه وتَضْييع حقّ مَوْلَويّته وكُفران نِعمَتِه، وفي طاعَتِه تَعظيمه وحِفْظ حُدوده وأداء حقّه وشُكر نِعمته، فكلّما ازداد المَولى عظمَةً ونِعمةً ازدادَ عِصيانُه قُبْحاً وطاعَتُه حُسناً.

إذا تَمَهّد ذلك نقول: لا شُبْهَةَ أنّ عظَمَتَه سُبحانه وتعالى بلا نهايةٍ، ونعِمَته غير معدودة، فلابُدّ أن يكونَ شِدّة قُبحِ مُخالَفتِه وحُسْن طاعَته وكذا استِحقاق العبد العُقوبة على الأُولى والمَثوبة على الثانية غير مُتَناهِيينَ، ثمّ لمّا كان الثّوابُ والعِقاب غير المُتَناهِيَين شِدّةً وكيفيّةً غير مُمكِن الوُجود، فلابُدّ من أن يكونَ الواقعُ محدوداً وإنْ كان الاستِحقاقُ فَوقَه.

ولا شُبْهَة أنّ العَذابَ الجِسمانيّ زائداً على الآلامِ الروحانية ممكِنُ الوُجودِ فلابُدّ من الحُكمِ باستِحقاقه، وكذلك الثّواب، فإذا ثبَت الاستِحقاقُ فلابُدّ أن تُكسىٰ الروحُ كُسْوَةَ الجَسَد ليصير قابلاً لذَوق العَذاب الأشدّ.

إن قيل: إعادَة الجسم واجِبَةٌ إذا كان العَذابُ الجِسمانيّ واجِباً، وأمّا مع حُسْنِ العَفْوِ فلا.

قلنا: مِصداقُ العَفْوِ عن العَذاب الجِسمانيّ لا يتحقّق إلّا مع إمكانِ العذابِ وهو موقوفٌ على وجُودِ الجِسْم.

إنّ قيل: سلّمنا وجوبَ إيجادِ جِسْمٍ تتعلّق به الرّوح لإمكانِ العَذاب الجسمانيّ أو العَفْو عنه، إلّا أنّه لا نُسلّم وجوب إعادَةِ الجِسْمِ الذي كانَ الرّوح متعلّقاً به في الدّنيا.

قلنا: لابدّ من القَول بوجُود مرجّح في الخَلْق الأوّل لعُروضِ الصورةِ المَخصوصَةِ على مادَّتِها الخاصة، ولحُلولِ الروح الخاصّ في الجسَد المَخصوص لئلا يلزَم التّرجيح بلا مُرَجّح، وليس إلّا التّناسُب والسنخِيّة بين العارِض والحَال، وبين المَعروض والمحَلّ المَخصوصين وَعَدمهما مع غيرهما، وهذا المرّجع والمُقتَضي موجود في الخَلْق الثاني، وعلى هذا لا يُمكِن تعلّق الروح المَخصوص إلّا بذلك الجَسَد الذي كانَ متعلّقاً به، فيَجب إعادته.

[٢] ومنها: أنّه لا شُبْهَةَ في أنّ مُقتَضى لزوم سِنخيّة الروح مع جَسَده الخاصّ به، لزوم تعلّق الرّوح

الخَبيث بالجسَد المَخلوق من الطّينة الخَبيثة، وحينئذٍ لابدّ من تأثيرِ كلٍّ منهما بعلاقة المُجاورة في ازدياد خَباثةِ الآخر، فإذا كانا شَريكَين في التّلذّذ بالمُشْتَهَيات والخَباثة ودَخِيلَين في ازديادِها، لابدّ في حُكم العقْل مِن اشتِراكِهما في لوازِم الخَباثةِ والمَعْصِية وهي العَذاب في الآخِرة، وأن يُعاد الجَسَد لا زدياد عذَاب الروح.

[٣] ومنها: أنّه بعد ما عرفَت أنّ الوَعْدَ بالثّواب والعِقاب من مُتَمِّماتِ حِكمةِ التكاليف، ومن الواجبات في النّظام الأتَمّ، لابدّ من القَول بُوجوب الوَعْدِ بالثّواب والعِقاب الجِسْمَانيّين، لقُصورِ فَهْمِ عُمومِ النّاس عن دَرْكِ الرّوحانيّين منهما، فوَجب على الله إعادَة الجسم حتّى يُمكن إنجاز الوَعْد، أو يصحّ العَفْو.

إِنَّ ٱللهَ لَا يَسْتَحْيِى أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا ٱلَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ ٱللهُ بِهٰذا مَثَلاً يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الفَاسِقِينَ * ٱلَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللهِ مِنْ بَعْدِ مِيْثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفسِدُونَ فِى ٱلأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الخَاسِرُونَ * كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُم ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُمْ مَا فِى ٱلأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ ٱسْتَوىٰ إِلىٰ ٱلسَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاواتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىءٍ عَلِيمٌ[٢٦ ـ ٢٩]

ثمّ اعلَم أنّه لمّا ضرَب الله الأمثَالَ العديدةَ للمُنافِقينَ في الآياتِ السّابقةِ، تَعرّض لِدَفْع شُبُهاتِ الكُفّار في ضَرْبِهِ الأمثَال في القرآن.

روي أنّه لمّا ذكَر الله الذُّبابَ والعَنْكَبوتَ في كتابه، وضرَب للمُشرِكين المَثَل بهما، ضَحِكَتِ اليَهودُ وقالوا: ما يُشبِه هذا كلامَ الله[١]، وكأنّهم اعترَضوا على الكِتابِ المجيد باشتِماله على هذه الأمثالِ الّتي لا تَليقُ بعَظَمةِ الرّبوبيّة لِتَوهُّمِهم أنّ هذه الحَيوانات الدّنيّةِ الصغيرةِ لا تُناسب أن يذكُرَها العظيمُ المُتَعال

---

١. تفسير روح البيان ١: ٨٥.

في كلامه.

وقيل: إنّهم قالوا: أما يَسْتَحي ربّ محمّد أن يضرِبَ مَثَلاً بالذُّباب والعَنْكَبوت؟! فرَدّ الله عليهم بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ في نهاية عظَمته وكِبريائه ﴿لَا يَسْتَحْيِ﴾ وَلا يرىٰ على ذاتِه المُقدّسة عَيباً من ﴿أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مَا﴾ من الأمثال، وأيّ مثلٍ كان، كان المُمثَّل به ﴿بَعُوضَةً﴾ قيل: هي أصغر من البَقّ، وفيها من ظُهور قُدرةِ الله ما لا يكون في الفيل؛ لأنّها مع صِغَر حَجْمِها لهَا جميعُ أعضاءِ الفيل مع زيادة جَنَاحَيْها، وخُرطومِها مع كونه مُجَوّفاً وفي غاية الصِغَر يغوصُ في جِلد الفيل والجاموس على ثَخانَتِه كما يَغوصُ إصبَعُ الرّجُلِ في الخَبيص، وذلك لِما رَكّب الله في رأسِ خُرطومها من السُّمّ.

وقيل: إنّها تَحيا ما جاعَت، وتَموت إذا شَبِعَتْ[1].

﴿فَمَا فَوْقَهَا﴾ وما هو الأكبر منها كالذُّباب والعَنْكَبُوت وغيرهما، فإنّ المَنظورَ من التّمثيل تَوضيحُ المَقصودِ وَكَشْفُ المَستورِ بالنَّظير المَحسوسِ، ولا يُنظَر إلى حَقارَةِ المُمثَّل به وجَلالَتِه وصِغَره وكِبَره، ولا إلى دَناءته وشرَفه، بَل يُنظَر إلى مُطابَقَةِ المثل للمُمثَّل له، وهو حاصلٌ في أمثالِ القرآن على النَّحوِ الأَتَمّ الأكمَل.

وقيل: إنّ كلمة (فوق) من الأضدادِ، تُطلَق على الأعلى والأدنى وعلى هذا يُحتَمَل أن يكونَ (ما فوقها) بمعنى: ما دونَها، وما هو أصغَر منها.

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ آمَنُوا﴾ بمحمّد ﷺ وكتابه ﴿فَيَعْلَمُونَ﴾ بسببِ سلامَة عُقولهم، وبَصيرة قُلوبهم، وطهارَةِ نُفوسِهم من الحَسَد والعِناد وحُبّ الدُّنيا حين يسمَعون المَثَل ﴿أَنَّهُ الحَقّ﴾ الثابتُ ﴿مِنْ رَبِّهِمْ﴾ لا مَجالَ لإنكارِه والاعتِراض عليه، لكَونِه في غايَةِ الحُسْنِ والبَلاغةِ، وَكشفه عن العُلوم والحِكَمِ الكثيرة، ونَظيرُ هذه الأمثال جاء في الكتُب السّماويّة كالانجيلِ وغَيره.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ باللهِ وعانَدوا محمّداً ﷺ وجحدوا كِتابَه ﴿فَيَقُولُونَ﴾ عِندَ سَماعِ المَثَلِ، استِحقاراً له، لقُصور عُقولِهم، وقِلّةِ أفهامِهم، وعَمىٰ قُلوبهم، وفسادِ أخلاقِهم: ﴿مَاذَا﴾ وأيّ شيءٍ ﴿أَرَادَ ٱللَّهُ بِهٰذَا﴾ ٱلمَثَل من حيث كَونِه ﴿مَثَلاً﴾؟ فإن كانَ لَه نَفعٌ فَضرُه يُساوي نَفعَه، لأنّه سُبحانَه ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً﴾ من النّاسِ لِجَهْلِهم بَموقعيّة الأمثالِ ﴿وَ﴾ إن كانَ ﴿يَهْدِي بِهِ كَثِيراً﴾ لاعتِقادهم كَمالَ حُسنِه وكَثْرَةَ فَوائدِه، فرَدّ الله عليهم بقوله: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا ٱلفَاسِقِينَ﴾ الخارِجين عَن حُدودِ

---

[1] تفسير روح البيان ١: ٨٥.

العقْلِ وشُؤون الانسانيّة وطريق الحقّ والصَواب.

ثمّ كأنّه قيل: مَن الفاسِقون؟ فعرّفَهم أوّلاً بفَسادِ العَقائِد بقوله: ﴿ٱلَّذِين يَنْقُضُونَ﴾ ويُخالِفونَ ﴿عَهْدَ اللهِ﴾ الذي أخَذ مِنهم على تَوحيده ورسالة رَسولِه وولايةِ عليّ والمَعصومين من ذرّيّتِه عليهم السلام، ووجوب طاعتهم، ومحبّة المؤمنين ومودّتهم في عالَم الذّرّ، بقوله: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾[1] وفي هذا العالم بإقامةِ الحُجَج القاطِعَة والبَراهين السّاطِعَة الّتي هي في حُكمِ العَهْد ﴿مِنْ بَعْدِ مِيْثَاقِهِ﴾ وإحكامِه، وإتقانِه.

ثمّ ذَمّهم ثانياً بالإساءةِ إلى الأقارِب بقوله: ﴿وَيَقْطَعُونَ مَا اَمَرَ اللهُ بِهِ اَنْ يُوْصَلَ﴾ مِن الأرحامِ والقَرابات النَّسَبيَّة الجِسمانيّة بتَرْكِ تَعاهُدهم وَمنْعِ حُقوقِهم، ومِنَ القَراباتِ الرّوحانيّة وهم الأنبياء والأوصياء الذين هم آباءُ أمَمِهم وأشياعِهم لتوليدهم روح الإيمانِ في قُلوبِهم، ولِكَونِ طِينتِهم من سُحالةِ[2] طينتِهم الطيّبة، والمؤمنون الذين هم إخوَة حقيقةً في الدُنيا والآخرة، لكَونِهم بجِهَة إيمانهم أولاد آبٍ واحدٍ وهو نبيّهم، وفي تَربية مُربٍّ واحدٍ هو الإمام والوصيّ، وكون جَميعهم مَخلوقينَ من أصلٍ واحدٍ وطينةٍ واحدةٍ، ولذا جعَل الله بينَهم حُقوق الإخوَة.

في الحديث: «إذا أظهَر النّاسُ العِلمَ وضَيَّعوا العَمل بـه، وتَـحابّوا بـالألسُنِ وتَـباغَضوا بـالقلوب، وَتقاطَعوا الأرحام، لعَنهم الله عند ذلِكَ فأصَمَّهم وأعمىٰ أبصارَهم»[3].

ثمّ ذمّهم ثالثاً بفَسادِ الأعمال بقوله: ﴿وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلاَرْضِ﴾ بـقَبْضِ الحُـقوقِ، وتَشـييدِ الكُـفرِ، وتَضعيفِ الإسلام، والصَّدِّ عن سبيل الحقّ، وإلقاء الشُبَه في قُلوب المؤمنين ﴿أُولَـٰئِكَ﴾ المَوصُوفُونَ بتِلكَ الصِفاتِ الذَميمةِ ﴿هُمُ ٱلخَـاسِرُونَ﴾ فـي تِـجارَتِهم، المَـغْبُونونَ فـي مُـعامَلتِهم، كأنّـه لِـغايَةِ خَسارَتِهِم لا يكونُ خاسِرٌ سِواهُم، حيث إنّهم حُرِموا الجَنّات والنّعيم الأبَد، ولَزِمَهم النّيران والعَذاب المُخَلَّد.

ثمّ لمّا حكىٰ الله تعالى مَقالَة الكُفّار وَتهَكُّمِهم بالقرآنِ، وشِدّة كُفرِهم، ونِهايَةِ طُغْيانِهِم وعِصْيانِهم، وجَّه الخِطابَ إليهم بالتّوبيخِ والتَقريعِ بقوله: ﴿كَيْفَ تَكفُرُونَ بِاللهِ﴾ وبوَحْدانيّتِه، ﴿وَ﴾ الحالُ أنّكُم ﴿كُنْتُمْ اَمْوَاتاً﴾ لا حَياةَ لكُم، ونُطَفاً في أصلابِ آبائِكم وأرحام اُمّهاتِكم ﴿فَاَحْيَاكُمْ﴾ بخَلْقِ الأرواحِ ونَفْخِها في أجسادِكم بلا مِزاجٍ، فبَدأ الله بتَذكيرهِم ما هو الأصل لجَميعِ النِعَم، وهو نِعمَةُ الحَياة، لأنّه

---

١. الأعراف: ١٧٢/٧.	٢. السُحالة: برادة الشيء أو ما يسقط منه أو قشره.	٣. تفسير روح البيان ١: ٨٨.

كلّما عظُمَت نِعمَة المَولىٰ على العَبْدِ عَظُمَت مَعْصِيَتُه إيّاه.

ثمّ ذكّرَهم زَوالَ هذه النِعمَةِ التي صارت سبباً لغرُورِهم بقوله: ﴿ثُمَّ﴾ بعد مدّةٍ طويلةٍ من الإحياء وتَعميرِكم في الدُنيا ﴿يُمِيتُكُمْ ثُمَّ﴾ بعد مدّةٍ من الإماتَةِ التي فيها تُجَهَّزون وتُقْبَرون ﴿يُحْيِيكُمْ﴾ في القُبورِ للسؤال ولتَنعُّم المُطيع ولتعذيبِ العاصي ﴿ثُمَّ﴾ بعد الإماتَةِ في القَبْر ﴿إِلَيْهِ﴾ وإلى سُلطانِه وحُكْمِه ﴿تُرْجَعُونَ﴾ وتُحْيَون ثالثاً للنُشورِ.

وقيل: أي تُرجَعون إلى ما وعَدكم من الثَواب والعِقاب على حَسَب أعمالكم، لا إليه في مكانٍ كما توَهَّمَهُ المُجَسّمة.

إن قيل: كيف استَدلّ عليهم بالاحياء والإماتة في القَبْر، ثمّ بالاحياء في المَحْشَر مع عدم عِلْمِهم بذلك؟

قُلنا: تَمَكُّنهم من تحصيل العِلم جعَلهم بمَنزِلة العالِمين.

ثمّ أردَف سبحانه وتعالى نِعْمَةَ الحياةِ بذِكر سائر النِعَم الجَسيمة التي خلَق لهم في الأرض بقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُمْ﴾ بقُدرَتِه ورَحْمته ﴿مَا فِى ٱلأَرْضِ جَمِيعاً﴾ مِن الأشياء كي تَنْتَفِعوا بها في دُنياكُم ودِينِكم، بأن تستَدِلّوا بها على خالِقكم، وتعتَبِروا بها وتَتوصَّلوا إلى رِضوانه، وتتَّقوا عن نيرانِه، وتُصلِحوا بها أبدانكم، وتَتَقَوّوا بها على طاعةِ ربّكم، وتَقْبَرُوا فيها إلى يوم بَعْثِكم، وفيه دلالة على أنّ خَلْقَ عالَم الاجسام لأجلِ الإنسان وتَبِيعه.

عن ابن عباس ﷺ: أوّل ما خَلق الله جوهرةً طولُها وعَرْضُها مَسيرةُ ألف سنَة في مَسيرة عَشَرة آلاف سنة، فنظر اليها بالهَيْبَة فذابَتْ واضطَربت، ثمّ ثارَ منها دُخانٌ، فارتفَع واجتَمع زَبَدٌ فقام فوقَ الماءِ، فجعَل الزَبَد أرضاً والدُخان سَماءً[1].

﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ﴾ وتَوجّه سُبحانه وتعالى بالإرادةِ والايجادِ، وقَصَد قَصداً سَوِيّاً لا يَلْويه عنه شيء ﴿إِلَى﴾ خَلْقِ ﴿ٱلسَّماءِ فَسَوّاهُنَّ﴾ وخَلَقَهُنّ مُعتَدِلات ﴿سَبْعَ سَمَاوَاتٍ﴾ طِباقاً ليس فيها خَلَلٌ ولا فُطور ولا اعوِجاج.

عن سلمان: اسمُ الأولى رفيع[2] وهي [من] زُمردَة خَضْراء، واسم الثانية أرفلون وهي من فضة

---

۱. تفسير روح البيان ۱: ۹۱.

۲. في تفسير روح البيان: رقيع.

بيضاء، والثالثة قَيدون[١] وهي من ياقوتةٍ حَمراء، والرابعة ماعون وهي من دُرَّةٍ بيضاء، والخامسة ديفاء[٢] وهي من ذهب أحمر، والسادسة وَفناء وهي من ياقوتةٍ صَفْراء، والسابعة عَروباء وهي نورٌ يتلألأ[٣].

﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ﴾ من حقائق الموجودات واستِعداداتها ومَنافِعها ومَصالحِها الراجعة إلى العالم ﴿عَلِيمٌ﴾ مُحيطٌ، لا يَعزُب عنه مِثقالُ ذرّةٍ.

وفي التذييل به دلالة على أنّ عِلّة خَلق الأشياءِ على هذا النَمَطِ الأكمَل، عِلمُه بكُنْهِها ومَصالحها، كما أنّ هذا النَّسق العَجيب، والترتيب الأنيق في الخَلْق دالٌّ على كَمال عِلْمِه تَعالى وحِكْمَتِه.

في بيان أنّ خلق الأرض قبل السّماء

ثمّ اعلَم أنّ المُستَفاد من هذه الآية وغيرها أن خَلْقَ الأرضِ وما فيها كانَ قبلَ خَلقِ السّماوات، ومُقتَضى قوله تعالى في (النازعات): ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ ٱلسَّماءُ بَنَاهَا﴾ إلى قوله: ﴿وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾[٤] أنّ خَلْقَ الأرض كانَ بَعْدَ خَلْقِ السَّماءِ.

وقيل في الجَمْعِ بينَهما: إنّ ﴿ثمّ﴾ في تِلكَ الآياتِ ليس للتَرتيب، بل إنّما هو على جِهَة تَعديد النِعَم، كما يقول الرَجُل لغَيره: أليس قد أعطَيْتُك النِعم العظيمة، ثمّ رفَعتُ قَدرَك، ثمّ دَفَعتُ الخصومة عنك؟ ولعلّ بعض ما أخّر ذِكرَه قد تقدّم[٥].

وقيل: إنّ كلمة ﴿بَعْدَ﴾ في قوله: ﴿وَٱلأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ﴾ بمعنى (مع) مِثل كلمة (بَعْدَ) في قوله ﴿عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ﴾[٦].

وقيل: إنّها على أصلِها، وإنّ خَلقَ الأرضِ كان قبلَ خَلقِ السّماوات، ودَحْوهَا بعدَه، لِما رُوي عن ابن عبّاس قال: خلَق الله الأرضَ قبل السَّماء، فقدَّر فيها أقواتها ولم يَدْحُها، ثمّ خلَق السّماء، ثمّ دحا الأرضَ من بَعدِها[٧].

في اعتراض الفخر الرازي على قول ابن عبّاس وجوابه

وردّ هذا القول بِوَجْهَين:

الأوّل: أنّ الأرضَ جِسمٌ عظيمٌ لا يُمكِن انفِكاكَ خَلْقِها عن التَّدحِيَة، فإذا كانت التَّدحِيَة متأخّرة، كان خَلقُها متأخّراً.

---

١. في تفسير روح البيان: قيدوم.
٢. في تفسير روح البيان: دبقاء.
٣. تفسير روح البيان ١: ٩١.
٤. النازعات: ٧٩/٢٧ـ٣٠.
٥. تفسير الرازي ٢: ١٥٥.
٦. القلم: ٦٨/١٣.
٧. الدر المنثور ٨: ٤١٢.

وفيه: أنّ التّدْحِيَة تَسْوِيَةُ سَطحِها لا توسّعها.

والثاني: أنّ آية ﴿خَلَقَ لَكُمْ﴾ دالّةٌ على أنّ خَلْقَ ما في الأرضِ قَبْلَ خَلْقِ السّماء، وخَلْقَ ما في الأرضِ لابدّ أن يتكوّن بعد التّدحِيَة[1].

وفيه: أنّ خَلْقَ ما فيها من الجِبالِ والمَعادن والأشجار وغيرها، وإن كان لا يستَلزِم تسطيحَ وجهِ الأرضِ، إلاّ أنّ الانتِفاع بها متوقّف عليه، واللهُ العالِم.

إن قيل: مُقتَضى الآية أنّ السماوات سَبعٌ، وأهلُ الرّصْدِ قائِلون بها تِسْعَة.

قلنا: إن صحّ قَولُ الرّصْدِيّين، يُحمَل السّبعُ على ما سِوى العَرْش والكُرسيّ.

وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّى أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ * وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِى بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ[٣٠ ـ ٣٢]

ثمّ أنّه تعالى بعد ذِكر نِعمةِ الحَياةِ ونعِمَةِ خَلْقِ ما في الأرضِ ونِعمَةِ خَلْقِ السّماوات، ذكَر النِعمَة الرابعة وهي خَلْق آدَم وتَعظيمة إيّاه، وتَشريفه بالعِلم على الملائكة، وكلّها من النِعَم الجارية في ذُرّيّتِه، ويمكِنُ أن يكونَ وَجْهُ النَّظْمِ أنّه لمّا ذكَر الله تعالى في الآيةِ السابقة عِلمَه وإحاطتَه بكلّ شيء، وكانَ في قضيّة خَلْقِ آدَم شهادةً على كَمالِ عِلْمِه وإحاطتِه بحَقائق المَوجودات وحُكمِها قبل إيجادِها، شرَع في بَيانِها بقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ﴾ وتَذكّرْ حين أوحى ﴿لِلْمَلائِكَةِ﴾ جميعهم، أو للّذين كانوا في الأرضِ بعد طَرْدِ بَني الجانّ منها ﴿إِنِّى جَاعِلٌ﴾ بالخَلْقِ أو النَّصْب ﴿فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ وبدَلاً منكم ومِمّن كان قَبْلَكم فيها، ورافِعُكم إلى السّماء، هكذا قيل[2].

والأظهَر أنّ المُراد بالخليفة هو الحُجّة على الخَلْق من الله، إذِ الجَعْلُ أظهَر في النّصبِ من الخَلْقِ، كما قال تعالى: ﴿إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً﴾[3] وقال مُخاطِباً لداود عليه السلام: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِى

---

١. تفسير الرازي ٢: ١٥٥.
٢. تفسير روح البيان ١: ٩٣.
٣. البقرة: ١٢٤/٢.

الأرْضِ﴾ [١] وعلى هذا التفسير جَمعٌ من العامّةِ. وقال بعضُهم: إنّ الله يَحْفَظ العالَم بالخَليفةِ كما يَحفَظ الخَزائنَ بالخَتْم [٢].

قيل: إنّ حِكمَة إظهارِ هذه الإرادةِ للملائكة تعليمُ العِبادِ المُشاورَةَ في الأمور، أو سؤال الملائكة عن حِكمةِ الجَعْلِ حتّى يظهَر لهُم شرَفُ آدَمَ وفَضْلُه عليهم، فلمّا سَمِعَت الملائكةُ ذلك الخِطاب ﴿قَالُوا﴾ استِفهاماً لحكمةِ جَعل الخليفة، لا اعتِراضاً على الله: ﴿أَتَجْعَلُ﴾ يا رَبّ، وتَنصِب للخلافَة ﴿فِيها مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا﴾ بالعِصيان والطُغيانِ شأناً واستِعداداً ﴿وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَاءَ﴾ المُحترَمة، كما كان بنو الجانّ يفعَلون فيها ﴿وَنَحْنُ﴾ أولى وأحَقّ بالخِلافة، لأنّه ليس فينا شأنيّة الفَساد والظُلم، بل نَحنُ مَجبولون على عِبادتك، وشُغلُنا أنّا ﴿نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾ ونُنزّهُك عمّا لا يَليقُ بك، مَقروناً بثَنائِك الجَميل على نِعَمِك ﴿وَنُقَدِّسُ﴾ الأرْضَ ونُطَهِّرها ﴿لَكَ﴾.

قيل: الفرقُ بين التّسبيح والتّقديس، أنّ التّسبيحَ: تَنزيهُه تَعالى عمّا لا يَليقُ به. والتّقديسُ: إثباتُ ما يَليق [٣].

فاستَحْقَروا آدَم وذُرّيتَه، ولم يعلَموا أنّه أحَقُّ بخِلافة الله منهم، لأنّه مجمَعُ عوالِم النفّوس والعقول والأجسام، وفيه انطوى العالَم الأكبَر، ولعلّه لِكَونِ سؤالِهم عن حِكمَة الجَعْلِ بصورة الاعتِراض - إذ كان حقّ السّؤال أن يقولوا: ربّنا علِّمنا حِكمةَ هذا الجَعْل - طَرَدهم الله عن حَولِ العَرش، وجعَل البيت المَعمور توبةً لهم على ما روي عن المَعصومين عليهم السلام [٤]. ولا يخفى أنّ هذه الرّوايات تُنافي كونَ المُراد من المَلائكةِ الملائكةَ الذين [٥] كانوا سكّان الأرض.

وعلى أيّ تقدير، ﴿قَالَ﴾ الله في جَوابهم: ﴿إِنّى أَعْلَمُ﴾ من الحِكَم والمَصالح في هذا الخَلْق ﴿مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

وفي روايةٍ، قال: «إنّي أخلقُ خَلْقاً بِيَدي، وأجعَل في ذرّيتهِ الأنبياء والمُرسَلين، وعبادي الصّالحين، وأئمّةً مَهديّين، أجعَلُهم خُلَفائي في أرضي، على خَلْقِي يَهدُونَهم إلى طاعتي، وَيَنْهَونَهم عن مَعصِيتي، وأجعلُهم حُجّةً لي عليهم» [٦].

أقول: في خَلْقِ هذا النوع كمالُ قدرَتِه وكمالُ رحمَتِه وفَضلِه وبعُصاتِهم ظُهور صِفة عَفْوِه

---

١. سورة ص: ٣٨/٢٦.
٢. تفسير روح البيان ١: ٩٣.
٣. تفسير روح البيان ١: ٩٥.
٤. تفسير القمي ١: ٣٧، تفسير العياشي ١: ١١٤/١١٠.
٥. في النسخة: التي.
٦. تفسير القمي ١: ٣٧.

وقَهّارِيّتِه.

ثمّ خلَق ﴿وَعَلَّمَ﴾ بإفاضَتِه ﴿آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾.

عن السجّاد عليه السلام: «علّمه أسماءَ كلّ شيءٍ، وفيه أيضاً أسماء أنبياءِ الله وأوليائه وعُتاة أعدائه»[١].

وعن القمّي رحمه الله قال: أسماء الجِبال والبِحار والأودية والنّبات والحَيوان[٢].

في بيان المراد من الأسماء التي علّمها الله آدم

وقيل: إنّ المُراد بالأسماء حَقائق الأشياء، لكون العِلم بها أنسَب بمَقام التَفضيل على الملائكة من العِلم باللُغات. ولعلّ هذا المعنى هو الظاهِر ممّا روي عن الصادق عليه السلام حيث سُئل: ماذا علّمه؟ قال: «الأرَضين، والجِبال، والشِّعاب، والأودية» ثمّ نظَر إلى بساطٍ تحتَه، فقال: «وهذا البساط ممّا علّمه»[٣].

وعلى هذا، لابدّ من التَقدير في الآية بأن يكونَ التَقدير مسمّيات الأسماء، أو القَول بأنّ الاسمَ عبارةٌ عمّا هو الدّالّ على الذّات، وكما أنّ الأعلام اللفظيّة دالّة على الذّوات، كذلك جميع المَوجودات دالٌّ وكاشِفٌ عن ذاتِه المُقدّسة دلالة المَعلول على عِلّتِه.

فجميع المَوجودات بهذا الاعتِبار أسماء الله تعالى، أو القول بأنّ المُراد من الأسماء عِلَل المَوجودات وأسبابها وأرباب أنواعها، وإطلاق الأسماء عليها في الأدعية وكلمات المعصومين غير عزيز.

والأقرب أنّ يُقال: إنّ المُراد مِن الأسماء هو الألفاظ الدالّة على المُسَمّيات واللُغات المَوضوعَة للمَعاني، كما هو ظاهر الآية المُباركة والروايتين المُتقَدّمتَين، وظاهِرُ ما بِبالي من عبارات التَوراة في سِفْر التَكوين، وعليه جُلّ مُفَسّري العامّة لولا الكُلّ[٤].

ولا ريبَ أنّ معرفة أسامي المَوجودات بحيث لو رأىٰ موجوداً عرَف اسمَه مُستلزِمٌ لمعرفة جَميع المُسَمّيات بخَصوصيّاتها ومُشَخّصاتها إلى يوم القيامة، كما أنّ مَن عرَف أسامي الأدوية، بحيث لو اُحضِر دواءٌ أو معجونٌ عِندَه، قال: هذا اسمُه كذا، لا بُدّ له من معرفةِ مُشَخّصاتِها مِن طَعْمِها ولَوْنِها وأجزائِها، فعلى هذا يكون الاطّلاع على أسامي المَوجودات مُلازماً لمَعرِفتها بماهيّاتها وحقائقها

---

١. تفسير الصافي ١: ٩٦.

٢. تفسير القمي ١: ٤٥، تفسير الصافي ١: ٩٦.

٣. مجمع البيان ١: ١٨٠، تفسير الصافي ١: ٩٦.

٤. الكتاب المقدس: ٥ ـ الاصحاح الثاني من سفر التكوين، وراجع: روح البيان ١: ١٠١، تفسير أبي السعود ١: ٨٤، تفسير الرازي ١: ١٧٥.

ومشخّصات أفرادها إلى يوم القيامة، وللاطّلاع على جَميع المَصنوعات والمُخْتَرَعات التي تحدُث إلى آخِر الدّهر كما قال الصادق عليه السلام: «وهذا البِساط ممّا علّمه».

فتعليم الأسماء يدلّ على تعليم المُسَمَّيات بالدلالة الالتِزامية، ويدلّ عليه ما روي من أنه لمّا نفَخ فيه من روحه عَلّمه أسماءَ المُسَمَّيات - أي ألهَمَه - فوقَع في قَلبه، فجَرى على لِسانه ما في قَلبِه بتَسمية الأشياء، فعلّمه جميع أسماء المُسمَّيات بجَميع اللُّغات بأن أراه الأجناسَ التي خلقَها، وعلّمه أنّ هذا اسمُه فَرَس، وهذا اسمُه بَعير، وهذا اسمُه كذا، وعلّمه أحوالها وما يتعلّق بها من المَنافع الدينيّة والدنيويّة، وعلّمه أسماء المَلائكة وأسماء ذُرّيته كلّهم، وأسماء الحَيوانات والجَمادات، وصَنْعَة كلّ شيء، وأسماء المدن والقُرى، وأسماء الطير والشجر وما يكون، وكلّ نَسَمة يخلُقها إلى يوم القيامة، وأسماء المَطعومات والمَشروبات، وكلّ نعيمٍ في الجنّة، وأسماء كلّ شيءٍ حتّى القَصْعَة والقصيعة، وحتّى الجَفنة والمِحْلَب[١].

وفي الخبَر: لمّا خلَق الله آدَم بثّ فيه أسرار الأحرُف، ولم يبُثّ في أحدٍ من الملائكة، فخرَجت الأحرُف على لسانِ آدم بفُنون اللُّغات، فجعَلها الله صوراً له، وُمثّلت له بأنواع الأشكال[٢].

وفي خبرٍ آخر: علّمه سبعمائة ألف لغة، فلمّا وقَع في أكلِ الشجرَة سُلِب اللُّغات إلّا العربيّة، فلمّا اصطَفاه بالنبوّة ردّ الله عليه جميعَ اللُّغات[٣].

أقول: هذا كمالٌ عِلميٌ وإحاطَةٌ بالمُغيَّبات لا يليق بها الملائكة، حيث إنّه مُتَوقِّف على استِعدادٍ تامٍّ وكَمالٍ وجُوديٍّ كانَ لآدَم والطَّيِّبين من ذُرّيّته.

﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ﴾ أي أشباح المَوجودات، وفي الحَديث «أنّه عَرَضَهُم أمثالَ الذَّرِّ»[٤] ﴿عَلَى المَلَائِكَةِ﴾ وإرجاعُ ضميرِ ذوي العقول إليهم، إمّا لأنّ أشباحَ المَوجودات في عالَمِ المَلَكوت جميعُها ذَوو الأرواح والعقول، وإمّا لتَغليب جانِب ذَوي العُقول منهم.

فقَالَ الله تَعجيزاً لهم: ﴿أَنبِئُونِي﴾ وأخبِروني أيّها الملائكة ﴿بِأسْمَاءِ هَـٰؤُلاءِ﴾ الأشباح والصُور المِثاليّة للمَوجودات ﴿إنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في دَعوى أفضَليّتِكُم على ما أردتُ خَلْقَه، وأوْلَويّتكم بخِلافتي منه، حيث كان الدّعوى مُستفاداً من قولهم: ﴿أتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِماءَ

---

١. تفسير روح البيان ١: ١٠٠.

٢. تفسير روح البيان ١: ١٠٠.

٣. تفسير روح البيان ١: ١٠٠.

٤. تفسير روح البيان ١: ١٠١.

ونَحنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ ولمّا كانَ مُطابِقاً لاعتِقادهم، وإنّ كان مُخالِفاً للواقِع، لم يكن كَذِباً مُنافياً لعِصمَتِهم.

﴿قَالُوا﴾ تَنزِيهاً لَهُ عن فِعْلٍ مُنافٍ للحِكمة أو تَعجيباً مِن أمرِه بما هو خارجٌ عن وُسعِهم من إنبائهم بالأسماء مع عِلمه بجَهْلِهم بها: ﴿سُبْحَانَكَ﴾ إنّك تعلَمُ أنّه ﴿لَا عِلْمَ لَنَا﴾ بِشَيءٍ ﴿إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا﴾ بإفاضَتِك علينا ﴿إِنَّكَ أَنتَ العَلِيمُ﴾ المحيط بجَميع المَصالح والمَفاسد وخَفيّات الأُمور ﴿الحَكِيمُ﴾ في جميع أفعالك، لا يَصدُر منك إلّا ما فيه الصَّلاح الأتَمّ.

قيل: إنّ المؤمن بعد اطّلاعه على قَولِ المَلائكة: ﴿لَا عِلْمَ لَنَا﴾ لا ينبغي أن يتأنّف عن قول لا أدري ولا أعلَم[1].

قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّى أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّماواتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ[٣٣]

ثُمّ ﴿قَالَ﴾ الله: ﴿يَا آدَمُ﴾ أظهِر سَعَةَ عِلمِك للمَلائكة و﴿أَنبِئْهُمْ بِأَسْمائِهِمْ﴾ أي أسماءَ الأشباح.

﴿فَلَمّا أَنْبَأَهُمْ﴾ وأخبرَهم ﴿بأَسْمائِهِم قَالَ﴾ الله تعالى تقريراً لهم: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُم إِنّى أَعلَمُ غَيْبَ السّماواتِ والأَرْضِ﴾ وخَفيّات أسرارِهما وحُكمَ جميع ما خَلقتُه فيها قبل خَلقِه ﴿وأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ﴾ مِن قَولِكم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا﴾[2] إلى آخره ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ وتُخفونَ في ضمائركم من هذا القَول، أو اعتِقاد أنّه لم يخلُق الله خَلقاً أكرَم عليه مِنّا.

وقيل: إنّ المُراد ما كتَم إبليس مِن تَمَرُّدِه لأمرِ الله بالسُّجود لآدم.

وفي الآية دلالة على أفضلية العلم من جميع الكمالات النفسانيّة، حيث احتجّ سُبحانه وتعالى على كمالِ حكمَتِه بظهور عِلم آدم، ولو كانت صِفَة أُخرى أفضَل منه لاحتجّ بها.

في حديث أبي ذرّ ﵁: «حضور مجلس علمٍ أفضَل من صلاة ألف رَكْعَة، وعيادة ألف مريض، وشهود ألف جَنازة» فقيل: يا رسول الله، ومن قراءة القرآن؟ قال: «وهل ينفَع القرآن إلّا بعلم»[3].

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ ٱسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ

---

١. تفسير روح البيان ١: ١٠١.
٢. البقرة: ٢/٣٠.
٣. تفسير روح البيان ١: ١٠٢.

ٱلْكَافِرِينَ [٣٤]

ثُمّ لمّا ذكَر سبحانه وتعالى سَعَةَ علمِه وحِكمةَ خَلْقِ آدم وتشريفه بالعِلم وتنبيه الملائكة بـفَضلِه عليهم، ناسَب أن يذكُرَ جملةً من قَضايا بَدْوِ خِلْقَتِهِ، حيث إنّ منها فوائد عظيمة من وجوب تعظيم العالِم وذمّ الكِبْر والحَسَد، ووَخامة مَعصِية الله وآثار التَوبة وغير ذلك فقال سبحانه: ﴿وَإِذْ قُلْنَا﴾ بعد خَلْقِ آدمَ وتَشريفه بالعِلم ﴿لِلْمَلَائِكَةِ﴾ كافّةً وفيهم إبليس: ﴿اسْجُدُوا﴾ تَعظيماً وإكراماً ﴿لِآدَمَ﴾ أو طاعةً له وتعظيماً للأنوار الطيّبة المُودَعَة في صُلْبِه.

قال عليّ بن الحسين صلوات الله عليهما: «حدّثني أبي، عن أبيه، عن رسول الله ﷺ قال: يا عِبادَ الله، إنّ آدَم لمّا رأىٰ النّورَ ساطِعاً مِن صُلبِه ـ إذ كان الله

تعالى [قد] نقل أشباحَنا من ذُروَةِ العَرْش إلى ظَهْرِه ـ رأى النّور ولم يتبيّن الأشباح، فقال: يا ربّ ما هذِه الأنوار؟ فقال عزّ وجلّ: أنوارُ أشباحٍ نقَلتُهم من أشرَفِ بِقاع عَرْشِي إلى ظَهْرِك، ولذلك أمرتُ الملائكةَ بالسُّجود لك إذ كُنتَ وعاءً لتِلك الأشباح.

فقال آدم: يا ربّ لو بيّنْتَها لي. فقال الله عزّ وجلّ: انظُر يا آدم إلى ذُروَةِ العَرْش، فنظَر آدم ووقع نور أشباحنا من ظَهرِ آدم على ذُروةِ العَرش، فانطَبَع فيه صُوَر أنوارِ أشباحِنا التي في ظَهرِه، كما يَنطَبِعُ وَجهُ الإنسان في المِرآة الصافية، فرأىٰ أشباحنا، فقال: ما هذه الأشباح يا ربّ؟

قال الله: يا آدم، هذه أشباحُ أفضَل خَلائقي وبريّاتي، هذا محمّد وأنا الحميد المحمود في فِعالي، شقَقتُ له اسماً من اسمي، وهذا عليٌّ وأنا العليّ العَظيم، شَقَقتُ له اسماً من اسمي، وهذه فاطمة وأنا فاطِرُ السّماوات والأرض، فاطم أعدائي عن رحمتي يومَ فَصلِ قَضائي، وفاطَمُ أوليائي عَمّا يعروهم، وهذا الحسَن وهذا الحُسَين، وأنا المُحسِن المُجمِل، شَقَقتُ اسمَيْهِما من اسمي، هؤلاء خِيار خَليقَتي، وكِرام بريّتي، بهم آخذُ وبهم أُعطي، وبهم أُعاقِب، وبهم أُثيب، فتوَسّل بهم إليّ.

يا آدم، وإذا دهتْك داهيةٌ فاجعَلْهُم إليّ شفعاءك، [فإنّي] آلَيتُ على نفسي قَسَماً حَقّاً أن لا أُخيّبَ بهِم آملاً، ولا أرُدَّ بهم سائلاً، فلذلك حين زلّت منه الخَطيئة، دعا الله عزّ وجلّ بهم فتاب عليه، وغُفِرَت لَهُ»[1].

---

١. التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام: ١٠٢/٢١٩.

﴿فَسَجَدُوا﴾ كلُّهم من غير رَيْثٍ لكَونِهم مخلوقين من النّور، واقتضِاءُ النّورِ الطاعةَ والانقيادَ ﴿إِلَّا إِبْلِيس﴾ فإنّه كان من الجنّ مَخلوقاً من النّار.

قيل: اسمُه حارِث، واستِثناؤه من الملائكة باعتِبار أنّه كان معهم يعبُد الله حتّى ظَنّوا أنّه منهم، فشَمِله الأمر بالسُّجود، فلمّا عَصىٰ الله تعالى وتمرّد، عَلِموا أنّه لم يكن منهم.

وإنّما سُمّي إبليس لكَونِه مُبلِساً من رحمة الله، فلذلك ﴿أَبَى﴾ وامتنَع من السّجود حسداً ﴿وَٱسْتَكْبَرَ﴾ على آدم.

عن القُمّي، عنه عليه السلام: «الاستِكبار أوّل معصِيةٍ عُصِيَ الله بها». قال عليه السلام: «فقال ابليس: ربُّ اعفِني عن السّجود لآدم، وأنا أعبُدك عِبادةً لم يَعبُدْكَها مَلَكٌ مقرّب ولا نبيّ مرسَل. فقال جَلّ جلاله: لا حاجةَ لي في عبادَتِك، إنّما عبادتي من حيث أُريد لا من حيث تُريد»[١].

﴿وَكَانَ﴾ مِن أجلِ تمرّده عن طاعة أمرِ الله وتكبُّرِه على آدم معدوداً ﴿مِنَ الكَافِرِينَ﴾ بالله، ومن زُمرةِ الطّاغِين عليه.

في (العيون): عن أمير المؤمنين عليه السلام: «إنّه أوّل مَن كفَر وأنشأ الكُفر»[٢].

وَقُلْنَا يَاآدَمُ ٱسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلا مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُما وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّالِمِينَ * فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ [٣٥و٣٦]

﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ ٱسْكُنْ﴾ وٱستَقِرّ ﴿أَنْتَ وَزَوْجُكَ﴾ حوّاء ﴿ٱلجَنَّةَ﴾ قيل: إنّها جَنّة عَدْن.

وعن (الكافي) و(العلل) و(القمي) : عن الصادق عليه السلام: «أنّها كانت من جَنّات الدُّنيا، تطلُع فيها الشّمس والقمر، ولو كانت من جَنّات الخُلد ما خرَج منها أبداً»[٣].

وزاد (القمي) رحمه الله: ولم يدخُلها إبليس[٤].

﴿وَكُلَا مِنْهَا رَغَداً﴾ واسِعاً بلا تقتيرٍ ولا تَضييقٍ ﴿حَيْثُ شِئْتُما﴾ بلا تَعَبٍ ولا نَصَب ﴿وَلَا تَقْرَبَا

---

١. تفسير القمي ١: ٤٢. ٢. عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ١/٢٤٤.
٣. الكافي ٣: ٢/٢٤٧، علل الشرائع: ٥٥/٦٠٠. ٤. تفسير القمي ١: ٤٣.

هذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ كي تنالوا من ثَمَرها.

قيل: إنّها شجَرةُ البُرّ. وقيل: شَجَرةُ التّين. وقيل: شجَرة الكَرْم. وقيل: شجَرة الكافور[١]. وفي رواية: أنّها شجَرة الحسَد.

وفي تفسير الامام عليه السلام: «أنّها شجَرةُ علم محمّد وآل محمّد صلوات الله عليهم آثرَهم الله تعالى بها دون سائر خَلقِه»[٢].

في بيان حكم تسليط الشيطان على آدم

وعن (العيون) عن عبدالسلام بن صالح الهروي، قال: قلت للرّضا عليه السلام: يا بنَ رسولِ الله، أخبِرني عن الشجَرة التي أكل منها آدَم وحَوّاء ما كانت فقد اختلَف النّاسُ فيها، فمنهم مَن يروي أنّها الحِنْطَة، ومنهم مَن يروي أنّها العِنَب. ومنهم مَن يروي أنّها شجَرة الحسَد؟ فقال عليه السلام: «كلّ ذلك حقّ».

قلت: فما معنى هذه الوجوه على اختِلافها؟ فقال: «يا أبا الصَّلْت، إنّ شجَرة الجنّة تَحمِل أنواعاً، وكانت شجَرة الحِنْطَة وفيها عِنَب ليست كشجَرة الدّنيا، وإنّ آدم عليه السلام لمّا أكرَمه الله تعالى بإسجاده ملائكته له وإدخاله الجنّة، قال في نفسه: هل في خَلْقِ الله بَشَرٌ أفضَل منّي؟ فعَلِم الله ما وقَع في قَلبِه، فناداه: ارفَع رأسَك يا آدم، وانظُر إلى ساقِ عَرْشي، فرفَع رأسَه فنَظَر الى ساقِ العَرْش، فوَجد [عليه] مكتوباً: لا إله إلّا الله، محمّد رَسولُ الله، عليّ بن أبي طالب أمير المؤمنين،وزوجَتُه فاطمة سيّدة نساء العالمين، والحسَن والحُسَين سيّدا شباب أهل الجَنّة. فقال آدم: يا ربّ، مَن هؤلاء؟ فقال عزّ وجلّ: هؤلاء مِن ذرّيتك، وهم خيرٌ منك ومن جميع خَلْقي، ولَولاهُم ما خَلَقتُك ولَما خلقتُ الجنّة والنّار، ولا السّماء ولا الأرض، فإيّاك أن تنظُر إليهم بعَين الحسَد [فأُخرجك عن جواري، فنظر إليهم بعين الحسد] وتمنّىٰ مَنزِلتهم، فتسلّط عليه الشّيطان حتّى أكل من الشّجرة التي نُهيَ عنها، وتسلّط على حَوّاء لِنَظَرِها إلى فاطمة عليها السلام بعَين الحسَد حتّى أكَلت من الشّجرة كما أكل آدم، فأخرجَهما الله تعالى من جنّته، وأهبطهما من جواره إلى الأرض»[٣].

أقول: المُراد من الحسَد هنا: الغِبْطَة اللائقة بمَقام الأنبياء، ولمّا كان في اغتِباط آدَم بمَقام آل

---

١. مجمع البيان ١: ١٩٥.
٢. التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام: ١٠٣/٢٢١.
٣. عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ٦٧/٣٠٦.

محمّد ﷺ ـ مع كونه بعيداً عنه بمَراحِل ـ ظُهور نَقْصِه وقلّة معرفته بنفسه وبمَقامِهم، حيث إنّ استِدعاء مَن كان رُتْبَتُه في بابِ السّلطان خِدمةَ الحُضور أن يجعَله السّلطان رئيس وزرائه، كاشِفٌ عن نَقْصِ إدراكه وعدَم معرفته بشأن نفسِه وشأن رئاسة الوزراء، فاقتَضَت الحِكمةُ تَسليطَ الشّيطان عليه حتّى يعرِف أنّ مَن يَغُرّه الشّيطان لا يَليق أن يتمنّى المَقام الشامِخ الذي لمحمّد وآله صلوات الله عليهم، ولعلّ هذا هو المُراد من القُرب إلى شَجرة علم آل محمّد صلوات الله عليهم أجمعين، وتسليطُ الشّيطان عليهما إيكالُهما إلى نَفسِهما وعَقلهما والتّخليَة بينَهُما وبينَ الشّيطان، وتَرْك حِفظِهما عَن كَيدِه، فصارَت الزَلّةُ سَبَباً لعِلمه بنَقْصِه وباعِثاً له إلى تَكميلِ نَفسِه الشّريفة.

ثمّ إنّه تعالى لم يقتَصِر على نَهْيِهما عن الأكل من الشَّجَرة، بل أكّده بِبيَان سوء عاقِبَة عِصْيانه تَتميماً للّطفِ بقوله: ﴿فَتَكُونَا﴾ بعِصْياني ومُخالفَةِ نَهْيي ﴿مِنَ ٱلظَّالِمِينَ﴾ على أنفُسكِم حيث إنّكم تُحرَمون من النِّعَم وتُبْعَدون عن جِوار الله وتُبْتَلون بمَشاقّ المَعيشة ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيطَانُ عَنْهَا﴾ بوَسْوَسَتِه، وأوقَعهُما في الخَبْطِ عن الجنّة بخَديعَتِه.

روي «أنّ ابليسَ دخَل بين لحيي الحَيّة فأدخَلَتْهُ الجنّة، وكان آدم يظنّ أنّ الحيّة هي التي تُخاطِبُه، وبدأ بآدَم، فقال: ﴿مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ﴾ إنْ تَناوَلتُما منها تَعلَمانِ الغيبَ وتقدِران على ما يَقدِر عليه مَن خَصّه الله بالقُدْرة، ﴿أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلخَالِدِينَ﴾ لا تَموتان أبداً، ﴿وَقَاسَمَهُمَا﴾ وحلَف لَهُما ﴿إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّاصِحِينَ﴾[1] فردّ آدَم على الحيّة، فقال: أيّتها الحيّة، هذا من غُرور إبليس، كيف يَخونُنا ربُّنا، أم كيف تُعَظّمين الله بالقَسَم به وأنتِ تَنسُبينَهُ إلى الخِيانة وسوء النَّظَر، وهو أكرَمُ الأكرَمين؟ أم كيف أرومُ التوصّل إلى ما مَنَعني منه ربّي وأتَعاطاه بغير حُكمِه؟!

فلمّا أيس ابليسُ من قَبول آدَم منه، عاد ثانيةً بين لحيي الحيّة، فخاطَب حَوّاء من حيث يُوهِمُها أنّ الحيّةَ هي التي تُخاطِبُها، وقال: يا حَوّاء، أرايت هذه الشجرة التي كان الله عزّ وجلّ حرّمَها عليكُما! لقد أحلّها لكُما بعد تَحريمها لمّا عرَف مِن حُسنِ طاعَتكِما له، وتَوقيركُما إيّاه، وذلك أنّ المَلائكة ـ المُوَكّلين بالشجَرة ـ التي معها الحِراب، يدفَعون عنها سائر حيوانات الجنّة، ولا تدفَعُك عنها إن رُمتِها، فاعلمي بذلك أنّه قد أُحِلّ لكِ، وأبشِري بأنّك إن تَناوَلتِها قبل آدم كُنتِ أنتِ المُسَلّطة عليه الآمِرَة النّاهيَة فوقه.

---

١. سورة الأعراف: ٧/ ٢٠ ـ ٢١.

فقالت [حواء]: سوف أُجَرِّب هذا، فرامَتْ الشجَرة، فأرادت الملائكة أن تـدفعها عـنها بـحِرابـها، فأوحىٰ الله إليها: إنّما تدفَعون بحِرابكم مَن لا عَقْلَ له يَزْجُرُه، فأمّا مَن جعلَتُه مُتمكِّناً مُمَيِّزاً مـختاراً، فكِلوهُ إلى عَقلهِ الذي جعلتُه حُجّةً عليه، فإن أطاعَ استَحقّ ثوابي، وإن عَصىٰ وخالَف أمري استَحقّ عِقابي وجَزائي. فتَركوها ولم يتَعرّضوا لها بعدما هَمّوا بمَنْعِها بحِرابهم. فظَنّت أنّ الله نَهاهُم عن مَنعِها لأنّه قد أحَلّها بعدما حرّمها. فقالت: صدَقتِ الحيّةُ، وظَنّت أنّ المُخاطِبَ لها هي الحيّة، فتَناولت منها ولم تُنكِر من نفسِها شيئاً؛ فقالت لآدَم: ألَم تعلَم أنّ الشجَرة المحرّمة علينا قد أُبيحَت لنا، فتناولت منها ولم يمنعني أملاكُها، ولم أُنكِر شيئاً من حالي؟! فلذلك اغترّ آدَم وغلَط وتناول»[١]. الخبر.

إن قيل: كيف دخَل الشّيطانُ الجنّةَ ولم تَمنَعه الخَزَنَةُ، مع أنّه أُخرِج منها وكان مَنْهِيّاً عن الدُخول فيها؟

قلتُ: لعلّه كان منه عِصيانٌ آخَر، وإنّما لم يمنَعه الخَزَنةُ لأنّ الله أراد ابتِلاء الحيّة وآدَم.

وما قيل في رَدِّه من أنّه كان مَنهيّاً عن الدخول بارزاً لا مُختفياً، ففيه: أنّ الظاهِرَ من الأمرِ بالخُروج هو حُرمَةُ الدُخولِ عليه مُطلقاً، بارزاً ومُستَتِراً، والظاهر أنّ وجَه اختِفائه بين لَـحْيَي الحيّة التـحرُّز ـ بزَعْمِه ـ عن اطلاع الخَزَنَةِ عليه، وعن معرفة آدَم وحَواء إيّاه، حيث إنّهما مع عِلمِهما بكَونه عـدّواً لهُما؛ لم يكونا مُعْتَنِيَين بقَوله.

إن قيل: إذا كان الشّيطانُ قادِراً على أن يدخُل بين لَحْيَي الحيّة، كان قادراً على أن يتصوّر بصورَتِها.

قلت: لعلّ وَجه دُخوله بين لَحْيَيها قَصْدُ إغوائها وإيقاعها في الخَطيئة وتَبْعيدها عن ساحَةِ الرَّحمة، حيث كان هَمُّه ذلك بالنسبة إلى جميع الخَلْق.

إن قيل: إذا لم يكن للحيّةِ عقلٌ، ولم يكن لها تكليفٌ، فكيف يُتَصوّر وقُوعها في الخَطيئة؟

قلت: لعلّه كان لها في ذلك الوقت وذاك العالم مَرتَبَةٌ من العَقْل يصِحّ معها تكليفها ببعض الأمور، فكانت إعانَتها لإبليس على دُخوله في الجنة وموادّتها له خطيئة ومعصية.

إن قيل: إذا كان أكل آدم وحَوّاء من الشجَرة لاعتِقاد إباحَتِها لَهُما ونسخ النَّهْيِ والتَّحريم أو الكراهة والتنزيه، كانا معذورَين في المُخالفة، فكيف عُوتِبا وعُوقِبا عليها؟

قلت: لعلّه كان اعتقادُهما مستَنِداً إلى التّقصير، حيث إنّ الله تعالى باشَر بذاتِه المُقَدّسة مُخاطبتَهما

---

١. التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام: ١٠٤/٢٢٢.

بالنَّهي عن قُرب الشجَرة، وأخبرَهُما بأنّ الشّيطانَ لَهُما عدوٌّ مبينٌ، فإذَن كان عليهم التثبُّت وانتِظار الإذن الصَّريح من الله تعالى، ولم يكن لهما الاعتِماد بقَول الحيّة والأمارات الظّنّيّة، فلمّا اعتَمدا بقول مَن لا حُجّة في قَوله، وعَمِلا بالظّنّ النّاشِئ عن الطّمَع والهوىٰ كان ذلك خِلاف العَزْم والحَزْم، ولذا قال تعالى في حقّ آدم: ﴿وَلَمْ نَجِد لَهُ عَزْماً﴾[1] فقول الفخر الرازي: إنّ هذه الرواية ممّا لا يُلتفت إليها[2]، لتوَهُّمِه ورُودَ بعضِ هذه الاشكالات عليها، ممّا لا يُلتفت إليه.

وعن (العيون) عن الرّضا عليه السلام: «أنّ الله تعالى قال لهما: ﴿لَا تَقْرَبا هٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ وأشار لهما إلى شجَرةِ الحِنْطَة، ولم يَقُل لَهُما: لا تأكُلا من هذه الشَجَرة ولا ممّا كان من جنسها، فلم يَقْرَبا تِلك الشجَرة، فأكلا من غيرهما لمّا أن وَسْوَس الشّيطانُ إلَيهما»[3] الخبر. وفيه إشعارٌ بأنّه كان الأولى أن يُراجِع آدَم عليه السلام ربّه في إباحَةِ ما كانَ من جِنسها أو يحتاطَ، فوَسْوَس إليه الشّيطانُ وأوهَمه نَسْخَ حُرمةِ تلك الشجَرة الخاصّة لترْتَفِع جِهَةُ الاحتياط، وعليه كان جِهَةُ القُبْحِ في أكلِهِ أضْعَف، ومُخالَفَته أهون.

﴿فَأَخْرَجَهُمَا﴾ الشّيطانُ ﴿مِمّا كَانَا فِيهِ﴾ من الجنّة ونَعيمِها ﴿وَقُلْنَا﴾ لآدَم وحَوّاء والحيّة وإبليس: ﴿ٱهْبِطُوا﴾ وتَنزَّلوا من الجنّة إلى الأرض في حال ﴿بَعْضُكُم﴾ مَع نَسلِه ﴿لِبَعْضٍ﴾ آخرَ ولِذَراريه ﴿عَدُوٌّ﴾ ومُبغِضٌ.

قيل: كان إهباطُ الشّيطانِ بعد إخراجِه من الجنّةِ إهبَاطاً من حَواليها.

ثمّ اعلَم أنّ ظاهر غير واحدٍ من الأخبار أنّ الجنّة التي كان آدَم فيها كانت في السّماء، ومُقتَضى ما مرّ[4] مِن قول الصادق عليه السلام «إنّها كانت من جَنّات الدّنيا تطلُع عليها الشّمس والقَمَر» أنّها كانت في الأرض، وعلى هذا يكون المراد من الإهباطِ الانتِقال من أرضِ الجنّة الأرضيّة إلى أرضٍ غيرِها، كقوله تعالى: ﴿ٱهْبِطُوا مِصْراً﴾[5].

في بيان حكمة إسكان آدم الجنّة مع أنّه خلق للخلافة في الأرض، وحكمة ابتلائه بالخطيئة وتبعيده

إن قيل: مُقتَضى قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[6] أنّ خَلْقَ آدَم كان للسّكونَةِ[7] في الأرضِ، فَلِمَ أسكَنَه في الجنّة؟

قلتُ: لعلّه لإظهارِ أنّ مَن لا ذَنْبَ له يستَحِقّ الجَنّة.

---

١. طه: ١١٥/٢٠. ٢. تفسير الرازي ٣: ١٥. ٣. عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ١/١٩٦.
٤. تقدّم في أول تفسير الآيتين (٣٥ و ٣٦) من هذه السورة. ٥. البقرة: ٦١/٢.
٦. البقرة: ٣٠/٢. ٧. كذا ومقتضى الاشتقاق أن يكون للسكن أو السُّكنىٰ.

إن قيل: لأيّ حِكمَةٍ ابتَلاهُ الله بالذّنب؟

قلتُ: كان ابتِلاؤه بالذّنبِ لُطفاً عليه، حيث إنّ فيه تَنبيهَهُ على نَقصِه، وبَعثَه إلى تكميل نَفسِه، حيث إنّ مَن لا يطّلع على مَرضِه لا يهتمّ بعِلاجه، فكان في تَبعيدِه تكميلُه وتَقريبُه.

﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ﴾ وَمَحلّ إقامَةٍ ومَوضِعُ تعيُّشٍ ﴿وَمَتَاعٌ﴾ وانتِفاعٌ بها وبما فيها من الأمتِعة ﴿إلى حِينٍ﴾ الموت. وعن القمّي: إلى يوم القيامة[1]. وهذا إمّا بالنّظر إلى ما رُوي مِن أنّ مَن ماتَ فقد قامَت قِيامتُه[2]. وإمّا إلى أنّ أهلَ البَرزَخِ أيضاً مُتَمَتّعونَ في أرضِ الدّنيا، فإذا كانت القيامَةُ تتبدّلُ الأرضُ غيرَ الأرضِ.

عن العيّاشيّ: عن الصادق عليه السلام «أنّ الله تعالى نفَخ في آدَم رُوحَه بعد زَوال الشّمس من يوم الجُمُعة، ثمّ برأ زوجتَه من أسفَل أضلاعِه [ثم اسجد له ملائكته] وأسكنَه جنّتَه من يَومِه ذلك، فما استقَرّ فيها إلا سِتّ ساعاتٍ مِن يَومِه ذلك حتّى عصىٰ الله، فأخرَجَهما من الجنّة بعد غُروب الشّمس، وصُيِّرا بفِناء الجنّة حتّى أصبَحا، وبَدَت لهما سَوْآتهما، فناداهما ربّهما ألم أنهَكُما عن تِلكما الشّجرة؟ فاستحيى آدم من ربّه وخضَع، وقال: ربّنا ظلَمنا أنفسنا واعتَرفنا بذُنوبنا فاغفِر لَنا. قال الله لهما: اهبِطا من سماواتي إلى الأرض، فإنّه لا يُجاوِرني في جنّتي عاصٍ ولا في سماواتي».

ثمّ قال عليه السلام: «إنّ آدَم لمّا أكل من الشّجَرة ذكَر ما نهاه الله عنها فنَدِم، فذهَب ليَتَنَحّىٰ عن الشّجَرة، فأخذَت الشجَرة برأسِه فجرّته إليها، وقالت له: أفَلا كان فرارك من قبل أن تأكُل منّي؟»[3].

والقمّي عن الصادق عليه السلام: «إن آدم هبَط على الصَّفا، وحَوّاء على المَرْوَة، فمكَث أربعينَ صباحاً ساجِداً، يبكي على خَطيئته وفِراقِه للجنّة»[4].

قيل: وقع آدَم بأرضِ الهِند على جَبَلٍ سرنديب، ولِذا طابَت رائِحَة أشجارِ تلك الأودية، لِما مَعَهُ من رِيح الجنّة، ووقَعت حَوّاء بجَدّة وبينَهُما سبعمائة فَرسَخ، والطاووس بمَرْجِ الهِند، والحَيّة بسِجِستان أو بأصفهان، وإبليس بسَدّ يأجوج ومأجوج[5].

وعن ابن عبّاس: بكىٰ آدم حوّاء مائتي سنة، ولم يأكُلا ولم يشرَبا أربعينَ يوماً، ولم يقرَب آدَم

---

١. تفسير القمي ١: ٤٣. ٢. تفسير روح البيان ٨: ٣٨٧.
٣. تفسير العياشي ٢: ١٥٥٣/١٣٩. ٤. تفسير القمي ١: ٤٣، تفسير الصافي ١: ١٠٧.
٥. تفسير روح البيان ١: ١١١.

وحوّاء مائة سنة[1].

وعن الصادق عليه السلام قال: «نزَل جَبرَئيل على آدَم فقال: يا آدم ألَم يخلُقْكَ الله بيَدَيه، ونفَخ فيك من رُوحِه، وأسجَد لك ملائكته؟ قال: بلى. قال: وأمرَك أن لا تأكُل من تلك الشَّجَرة، فلِمَ عَصَيْتَه؟

قال: يا جَبْرَئيل، إنّ إبليسَ حلَف لي بالله أنّه لي ناصِحٌ، وما ظَنَنتُ أنّ أحَداً خَلَقَه الله يَحلِف بالله عزّ وجلّ كاذِباً. فقال له جَبْرَئيل: يا آدَمُ تُبْ إلى الله»[2].

فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ[٣٧]

﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ﴾ في (الكافي): عن أحَدِهما عليهما السلام: «إنّ الكلمات: لا إله إلّا أنتَ سُبْحَانَكَ اللّهمّ وبحَمْدِك عملتُ سوءاً وظَلَمتُ نفسي، فاغفِر لي وأنتَ خيرُ الغافِرين، لا إله إلّا أنت سبحانَك اللّهمّ وبحَمدِك عملتُ سوءاً وظلمتُ نفسي، فاغفر لي وارحمني إنّك أنتَ أرحَم الرّاحمين، لا إله إلّا أنتَ سُبحانَك اللّهمّ وبحمَدك عَمِلتُ سوءاً وظلَمتُ نَفسي، فتُب عليّ إنّك أنتَ التّوّابُ الرّحيم».

وفي رواية: «بحقِّ محمّدٍ وعليّ وفاطِمةَ والحَسن والحُسَين»[3].

وعن النبيّ صلى الله عليه وآله: «أنّ آدمَ عليه السلام قال: بحَقّ محمّد أن تَغفِر لي»[4].

﴿فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ بالتّائبين، وفي ذِكر الوَصْفَينِ وَعدٌ بليغٌ بالاحسان مع العَفْو والغُفران.

في بيان عصمة الأنبياء بدلالة العقل والنقل والضرورة

ثمّ اعلم أنّ من ضَروريّات مَذهَبِ الإماميّة الاثني عشَريّة عِصمَة الأنبياء والأئمّة والأوصياء، من بَدْو تولُّدِهم في الدّنيا إلى خُروجهم منها، بمعنى امتِناع صدور المَعاصي الكبيرة أو الصّغيرة والقَبائح العقليّة عنهم عليهم السلام عَمْداً أو خَطأً أو سَهْواً أو نِسياناً، والدّليلُ عليه مُضافاً إلى الضّرورة حُكمُ العقْلِ وتَواتُر النَّقْل.

أمّا حُكمُ العقْلِ فتقريرهُ: أنّه لا شُبهةَ في أنّ اللُّطفَ على النّاس بتَقريبهم إلى الطّاعةِ والمُحَسّنات العقليّة وتَبعيدهم عن المَعْصِية واجبٌ على الله، لكَونِه حَسَناً غير مُزاحمٍ بجِهَةِ قُبح، وكما أنّ من

---

١. تفسير روح البيان ١: ١١٤.

٢. تفسير القمي ١: ٤٣، تفسير الصافي ١: ١٠٧.

٣. الكافي ٨: ٤٧٢/٣٠٤، تفسير الصافي ١: ١٠٥.

٤. تفسير روح البيان ١: ١١٣.

اللُّطفِ نَصْبَ الخليفة والسائس والمُرَبّي والآمر والنّاهي لهم، كذلك من كمال اللُّطف تَزْيِينُه بالصِّفاتِ الحَسَنة والمَكارِمِ الجميلة، وتَنزيهه عن الأخلاق السيّئة وما يُوجِبُ نَفرة الطِباع واشمئزاز القلوب عن تَبعيّته وانقياده، حيث إنّه لا رَيْبَ أنّ صُدور القبائح والمعَاصي ـ ولو كان عن سَهْوٍ ونِسيانٍ ـ مُوجِبٌ لانحِطاط قَدرِه وسُقوطه عن الأنظار، والاستِنكاف عن تبعيَّتِهِ وقَبول طاعَتِهِ، وعدَم تأثير نُصحِه ومَوعظَتِه، بخِلاف ما إذا كان من بَدوِ أمرِه وأوّلِ عُمْرِه مُنَزَّهاً عنِ الرّذائل، مُزيَّناً بالأخلاقِ الحَميدة والفضائل، مُحترِزاً عن قبائح الأعمال مكترِثاً عن ذَمائم[1] الخِصال، فإنّ له وَقْعاً في القُلوب، وعظَمَةً في الأنظار، ومَهابةً في الصّدور، ولِكَلامه أثر في النّفوس، فيكون النّاس إلى اتّباعِه أرغَب، ولأوامره ونَواهيه أطوَع.

ولمّا لم يكُن في قُدرَتِه تعالى قُصورٌ عن إيجادِ مَن هو واجِدٌ لهـذِه الخِصال، فالحكمةُ البالِغَةُ والرَّحمَة الشامِلة مُقتَضِية لايجاده واصطِفائه للهداية والرّسالة، وإلّا فهو مُناقِضٌ لحكمته، مُخالِفٌ لشؤون لُطفِه ورَحمَتِه، تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً.

وأمّا النَّقْلُ فَلِتَراكُم الآيات وتَواتُرِ الرّوايات على اعتِبار العِصْمَة بالدلالة المُطابِقيّة أو الالتِزاميّة، حتّى إنّ الأشاعرةالمُنكِرينَ لوُجوب اللُّطف، والجاحِدين للحُسْن والقُبْح، مُلتَزِمون بوجوب عِصْمَةِ الأنبياء للأدلّة النقليّة.

فـي بيان حقيقة العصمة وملاكها

ثمّ لا يذهَب عليك أنّه ليس المُراد من امتِناع صُدور المَعاصي والقَبائح عنهم عدَم قُدرَتهم عليها، أو عدَم وجود مُقتَضيها من الشَّهْوَةِ والغَضَب فيهم، بل المُراد وجود المانِع عن إرادتها فيهم، وهو كمالُ عَقلِهم، وشِدّة يَقينهم بعظَمةِ الله، ووفور عِلْمِهم بَحقائق المَعاصي وقَباحَتها وسوء آثارها، كما يمتنع من العاقل الكامل العالم بحقيقة النّار ومَضرّاتِها إلقاء نفسِه فيها، أو من المُلتَفِت بشِدّة قَذارة بعض الأقذار أكلُه منها، بل لا يخطِر بخاطِره، بل يتغيّر حاله من تصوّره.

فالعِصمةُ من آثار قوّة العَقل وكمال المعرفة واليقين ونورانيّة القلب والطِّينَة المأخوذة من أعلى علّيّين، إذا عرفت ذلك فكلّ ما يكون في الآيات والرّوايات العاميّة والإماميّة من ظُهور نسبة الخَطأ والعِصيان إلى الأنبياء والمُرسَلين والهُداة المَعصومين، محمولٌ على ما لا يُنافي عِصمتَهم من فِعْلِ ما يكونُ تَركُه أولىٰ وتَرك ما يكون فِعلُه أحسن، كما أنّ ما ظاهِرُه نِسبةُ العِصيانِ إلى الملائكة الذين هم

---

١. كذا والصحيح غير مكترثٍ بذمائم.

معصومون باتّفاق الأمّة وإجماع المُسلمين، محمولٌ على ذلك للقرينة العقليّة القطعيّة.

مُضافاً إلى ما ورد من الرّوايات الكثيرة عن أئمّتِنا صلوات الله عليهم في تأويل عِصيان آدَم، وخطيئة داود، وظهور قول ابراهيم عليه السلام: ﴿هَذَا رَبِّى﴾ [1] في الشّرك، وقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾ [2] في الكَذِب، وقوله: ﴿رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْيِ المَوْتَىٰ﴾ [3] في الشّكّ في المَعاد، وسؤال موسى عليه السلام رؤيتَه تعالى في اعتِقاده بالتجسُّم، وظُهور قوله تعالى في حقّ يوسف: ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ [4] في قَصْدِه عليه السلام الفاحشة، وأمثال ذلك.

وأمّا ما في رواية (العيون) عن الرضا عليه السلام من «أنّ الله تعالى قال لَهُما: لا تَقْرَبا هذِه الشّجَرة» إلى أن قال: «وكان ذلك من آدم قبل النبوّة، ولم يكن ذلك بذَنْبٍ كبيرٍ استَحقّ به دُخولَ النّار، وإنّما كان من الصّغائر التي تجوز على الأنبياء قبل نُزولِ الوَحْي إليهم. فلمّا اجتَباه الله تَعالى وجعَله نبيّاً كان معصوماً لا يُذنِب صغيرةً ولا كبيرةً، قال الله تعالى: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ * ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾» [5] فمَحمولٌ على التقيّة لأنّه قولُ العامّة، أو مَطروح.

قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّى هُدىً فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ[٣٨]

ثمّ أنّه تعالى لمّا أمرَهم أوّلاً بالهُبوط إجمالاً، كرّرَ الأمرَ ثانياً به لبيان كيفيتّه بقوله: ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً﴾ لا يتقدّم بعضُكُم بعضاً أو لِبيَانِ تحتّم مُقتَضاه.

وقيل: إنّ الأمرَ الأوّل بالهُبوط لَبيانِ أنّ الغَرَضَ المُعاداةُ والبَليّةُ، والأمرَ الثاني لِبَيان غرَض التّكليف والامتِحان، ويؤيّده قولُه: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّى هُدىً﴾ وجاءكم مِن قِبَلِي رُشْدٌ وشَريعةٌ ﴿فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ﴾ وأقْتَدى بشَريعَتي ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ في الدّنيا ممّا يَنزِل من البَلايا والمِحَن بالتوّكل على الله والتَفويض إليه وبذِكر الله تَطمئِنّ قُلوبُ المؤمنِين، وفي الآخِرةِ من العَذاب، ببِشارةِ الملائكةِ لهم: ﴿أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِى كُنتُم تُوعَدُونَ﴾ [6].

﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ في الدّنيا على ما فاتَهم من الفَوائد الدّنيَويّة لحَقارَتِها في نَظَرِهم، وفي الآخِرة

---

١. الأنعام: ٧٧/٦. ٢. الأنبياء: ٦٣/٢١. ٣. البقرة: ٢٦٠/٢. ٤. يوسف: ٢٤/١٢.
٥. عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ١/١٩٦، والآيتان من سورة طه: ١٢١/٢٠ و ١٢٢. ٦. فصلت: ٣٠/٤٢.

على انحِطاط درَجتِهِم عمّن هو أعلى منهم، لكَمال سُرورِهم بما آتاهمُ الله مِن فَضْلِه.

وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَـٰئِكَ أَصْحَابُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ[٣٩]

ثمّ أنّه تعالى لمّا وعَد مُتَّبِعِي الهُدى بالأمنِ ممّا يُخاف من العَذاب والفَراغ من الحُزنِ، عَقَّبَهُ بذِكر مَن أعدَّ له العَذاب الدائِم بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ برُسُلِنا ﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ المُنْزَلَة عليهم من الإنسِ والجِنّ ﴿أُولَـٰئِكَ أَصْحَابُ ٱلنَّارِ﴾ ومُلازِموها غير مُنفكّين عنها و﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ دائمون.

يَا بَنِي إِسْرَاءِيلَ ٱذْكُرُوا نِعْمَتِيَ ٱلَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ[٤٠]

ثمّ أنّه تعالى بعد ما دَعا عمومَ النّاس إلى الاعتِراف بتَوحيدِه وعبادته والاتّقاء من سَخَطِه وعذابه مُستدِلاً بخَلق نِعَمه العِظام من السّماء والأرضِ والأمطار والثّمار وخَلْق الأُصول ونعمة الحياة وغير ذلك، حيث إنّ كلّ واحدٍ منها دالٌّ على وُجوده ووَحْدانيّتِه واستِحقاقه العبادَة وقدرَتِه على الإعادة والتّعذيب على الشّرك والعِصيان، خصّ خُصوصَ طائفةِ بني إسرائيل منهم بالخِطاب والدّعوة إلى الإيمان بتوحيده ورسالة رَسولِه وتصديقِ كتابه، لكَونِهم في ذلك العَصْر متَخَصّصين باللَّجاج مع النبيّ ﷺ وشدّة المُعانَدة للحقّ، مستَدِلاً بنعِمَه الخاصّة بهم وبآبائهم، حيث إنّ فيها مع ذلك استِمالةَ قلوبِهم، وكسرَ لَجاجهم وعِنادهم، فبدأ سبحانة بتَذكيرهم النِعَمَ الخاصّة بهم إجمالاً بقوله: ﴿يَا بَنِي إِسْرَاءِيلَ﴾ وهُم اليهود الذين كانوا في ذلك العصر في المدينة وحولها.

روي أنّ إسرائيلَ لقَبُ يعقوب عليه السلام ومعناه في العربيّة: عبدالله، لأنّ إسرا: هو العَبد. وَئِيل: هو الله[١]. وقيل: إسرا: هو الإنسان، فالمعنى: رجُل الله[٢]. وفي روايةٍ أُخرى: اسرا: هو القوّة[٣].

﴿ٱذْكُرُوا نِعْمَتِيَ ٱلَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ وهي نعمة هجرة النبيّ ﷺ إلى مدينتهم ووضوح علامات نبوّته ودَلائل صِدقه، أو هي مع سائر النِّعَم التي أنعَم الله على آبائهم، فإنّها إنعامٌ على أبنائهم.

﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي﴾ الذي أخذه أنبياؤكم من أسلافِكم وأمَرُوهم أن يُؤدّوه إليكم وإلى أخلافِكم، وهو أن تُؤمِنوا بمحمّد العربيّ القُرَشيّ المَوصوف في كُتُبِهم.

---

١. تفسير الرازي ٣: ٢٩. ٢. تفسير الرازي ٣: ٢٩. ٣. علل الشرائع: ٢/٤٣.

روي عن ابن عباس أنّ الله تعالى كان عَهِد إلى بني إسرائيل في التّوراة: أنّي باعِثٌ من بني إسماعيل نبيّاً اُمّيّاً، فمَن تَبِعَه وصَدّق [بالنور] الذي يأتي به - أي بالقُرآن - غفرتُ له[1]، إلى آخره.

إن قُلتَ: لو كان هذا العَهد ثابتاً، فكيف يُمكِن جَحْدُه مِن جَماعتِهم؟

قلتُ: يُمكِنُ أن يكونَ العِلمُ بذلك كان حاصِلاً عند علمائهم فأخفوه عن العوامّ حِفْظاً لرئاستهم، أو أوّلوا عبارةَ العَهدِ كما أوّلَ العامّةُ نَصّ الولاية.

﴿أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ من النّعيم الأبد، وأُعطِكم الذي وعَدتُكم جزاءً لإيمانكم به ﴿وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ في مُخالفَةِ محمّد ﷺ والخُروج عن طاعَتِه.

وَآمِنُوا بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقاً لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ * وَلَا تَلْبِسُوا ٱلْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا ٱلْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ[٤١ و ٤٢]

ثمّ بعد تَذكيرهم النّعمةَ ومُطالَبة الوَفاء بالعَهْد وبيَان جزائه، فَسَّر العَهْدَ بقوله: ﴿وَآمِنُوا بِمَا أَنزَلْتُ﴾ من القرآن، حيث إنّكم تَرَونه ﴿مُصَدِّقاً لِمَا مَعَكُمْ﴾ من التّوراةِ، فإنّ التّوراةَ تشهَدُ بأنّه حقٌّ، لأنّها مُبَشِّرةٌ ببِعثَة محمّد ﷺ وبكتابه، فالإيمانُ بالتّوراة مستَلزِمٌ لتَصديقِ محمّد ﷺ وكتابه، وتكذيبُ القرآنِ تكذيبُ التّوراة، وفي نسبة التّصديق إلى القرآن إظهارٌ لشَرَفِه وفَضيلَتِه على التّوراةِ، وتَوصيفِهِ بكَونِه مُصدِّقاً إقامةُ الحُجَّةِ عليهم في وجوب الإيمان بمحمّد ﷺ، لوضوح أنّ شهادةَ الكُتب السّماويّة لا تكونُ إلّا حَقّاً مُضافاً إلى أنّ إخبارَ النبيّ ﷺ بكَونِ القرآن مُصَدّقاً لما في التّوراة من الإخبار بالمُغَيَّبات لتَسالُم الكُلّ على عدَم اطّلاعِه بما في التّوراة بالقراءة والتعلُّم.

ثمّ أردَف الأمرَ بالإيمان الذي هو من المَعروف، بالنّهي عن المُنكَر، بقوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا﴾ أيّها اليهود ﴿أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ﴾ مع أنّ اللائق بكم أن تكونوا أوّلَ مؤمنٍ به، فيَتبعكُم سائر اليَهود وغيرُهم من أهل الكتاب، لِما تَرَون من صفاتِ محمّد ﷺ وصفات أصحابه وصفات كتابه مطابقاً لِمَا في التّوراه، وأنتُم مع ذلك عالِمون بشأنِه وأهلُ النّظَرِ في معجزاته والمُستَفتِحون به.

﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي﴾ وَلا تَأخُذوا بَدَلاً منها ﴿ثَمَناً﴾ وَعِوَضاً ﴿قَلِيلاً﴾ من الحُطام الدّنيويّة، ولا

---

١. تفسير الرازي ٣: ٣٥.

تُحَرّفوا الآياتِ بعِوَض الأمتِعة الدَّنيئة والهَدايا القليلة، وفي التَوصيف بالقِلّة إشعارٌ بأنّ جميع ما يأخذون من الأثمان ولو كان كثيراً في جَنْبِ النِعَمِ الأُخرَويّةِ قليلٌ غايتَه.

عن الباقر عليه السلام: «إنّ حُيي بن أخطَب، وكَعْب بن الأشرَف وآخرين من اليَهود كان لهم مَأْكَلَة على اليَهود في كلّ سنةٍ، فكَرِهوا بُطلانَها، فحرّفوا لذلك آياتٍ من التَّوراةِ فيها صِفَتُه وذِكْرُه، فذلك الثَّمَنُ الذي أُريدَ به في الآيةِ»[1].

﴿وَإِيَّاىَ فَاتَّقُونِ﴾ في كِتمانِ أمرِ محمّد صلى الله عليه وآله ووصيّه عليه السلام.

قيل: الفرق بين الرَّهبَة والاتّقاء، أنّ الرَّهبَة: الخَوفُ في مَعرِض الضَّررَ وعند إمكانِ وُقوعِه، والاتّقاءُ: في مَورِد تَيَقُّنِ الضَّرَر.

﴿وَلَا تَلْبِسُوا ٱلْحَقَّ﴾ المُنْزَلَ في التَّوراةِ ﴿بِالْبَاطِلِ﴾ الذي تَخْتَرِعُونَه، أو المُراد: لا تَلبِسوا نبوّة محمّد صلى الله عليه وآله ودلائلها بالشُّبُهاتِ الباطِلَة الّتي تُلقونَها بين النّاس ﴿وَ﴾ لا ﴿تَكْتُمُوا ٱلْحَقَّ﴾ بالسَّعْيِ في أن لا يطّلع أحَدٌ على دَلائله ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ بأنّ ما تفعَلونه كِتمانٌ للحقّ ومُكابرةٌ لعقولِكم، أو تعلَمون ما في إضلالِ الخَلْقِ من الضَّرَرِ العَظيم، وفِعلُ القَبيح مع العِلم بقُبحِه أقبَح.

عن أمير المؤمنين عليه السلام: «مَن كتَم عِلماً وهو يَقدِر على إظهارِهِ ولا يَمنَعه التقيّة، أُلجِمَ يومَ القيامة بلِجامٍ من النّار»[2].

وَأَقِيمُوا ٱلصَّلَاةَ وَآتُوا ٱلزَّكَاةَ وَٱرْكَعُوا مَعَ ٱلرَّاكِعِينَ [٤٣]

ثمّ بعد ما دَعاهم إلى الإيمانِ بالنبيّ صلى الله عليه وآله دَعاهُم إلى العَمَلِ بشَريعتِه، بقوله: ﴿وَأَقِيمُوا ٱلصَّلَاةَ﴾ المكتوبةَ في دينِ محمّد صلى الله عليه وآله ﴿وَآتُوا ٱلزَّكَاةَ﴾ زكاةَ المالِ والنّفس والفِطْرةَ ﴿وَٱرْكَعُوا﴾ وتَواضَعوا لعظَمةِ الله ﴿مَعَ ٱلرَّاكِعِينَ﴾ المُتَواضِعين له. والمُراد: صَلّوا مع المُصَلّين جماعةً والتَعبيرُ عن الصَّلاةِ بالرّكوع لاختِصاصه بشريعةِ الإسلام دون اليَهود والنَّصارى.

أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ [٤٤]

---

١. مجمع البيان ١: ٢١٠.

٢. بحار الأنوار ٧: ١٢٠/٢١٧.

ثمّ لمّا كان دأبُ علمائهم أن يأمُروا بالبرّ والعِبادات والصّدَقات، مع تَرْكِهم للعمَل بها، وبّخهُم الله تعالى وقرّعهُم بقوله: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ﴾ والصّدقات والعِبادات ﴿وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ تَغفَلون عن حَقّها، كأنّكم نَسِيتُموها ﴿وَأَنتُمْ تَتْلُونَ﴾ وتقرءون ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ وهو التّوراة الآمِرَة بالخَيرات والصّدقات، الناهية عن المُنكَرات ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أنّ أنفُسَكُم أحَقُّ بالأمرِ والنّهي، وعِقابَكُم مع عِلمِكُم أشَدّ من عِقاب الجُهّال!

روي عن أنَس، قال: قال النبيّ ﷺ: «مَرَرتُ ليلةَ أُسري بي على قومٍ تُقرَضُ شِفاهُهم بمَقاريضَ من النّار، فقلتُ: يا أخي جَبْرَئيل، مَن هؤلاء؟ فقال: هؤلاء خُطَباء من أهلِ الدّنيا، كانوا يأمُرونَ النّاسَ بالبرّ ويَنسَونَ أنفُسَهُم»[1].

إنّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجبان على جميع الناس.

وروي عن الصادق عليه السلام قال: «مَن لم ينسَلِخ عن هَواجِسه ولم يتخَلّص من آفات نفسِه وشَهَواتِها ولم يهزِم الشّيطانَ ولم يدخُل في كَنَفِ اللهِ وأمانِ عِصْمَتِه لا يصلُح للأمر[2] بالمعروف والنّهي عن المُنكَر، لأنّه إذا لم يكن بهذِه الصّفَة، فكلّ ما أظهَر [أمراً] يكونُ حجّةً عليه، ولا ينتَفِع النّاسُ به، قال الله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ ويقال له: يا خائن، أتُطالِب خَلْقي بما خُنتَ به نَفسَك وأرخَيْتَ عنه عِنانَك»[3].

ولا يذهب عليك أنّ هذه الرّواية لا تكونُ مقيّدة لوجوب الأمر بالمَعروف والنّهي عن المُنكَر، لأنّهما واجِبان مُطلَقان على جميع الخَلق.

كما روي عن النبيّ ﷺ أنّه قال: «مُرُوا بالمَعروفِ وإنْ لم تَعْمَلوا به، وانْهَوا عن المُنكَرِ وإن لم تَنتَهوا عنه»[4].

بل يجب عليه تحصيلُ هذه الصّفات، فلو ترَكَ الأمرَ بالمعروفِ لعدمِ وجود هذه الصِفات فيه، لكانَ معاقباً على تركِ العمل وترك الأمر، كما أنّ مَن تَركَ العمَل بالواجبات لعدَم الإيمان الذي هو شَرطٌ في صِحّة العمَل، كان مُعاقَباً على تَرْكِ الإيمانِ والعمَل.

---

١. تفسير الرازي ٣: ٤٧. ٢. في مصباح الشريعة: له الأمر. ٣. مصباح الشريعة: ١٨.
٤. تفسير روح البيان ١: ١٢٣.

وَٱسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَٱلصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَاشِعِينَ * ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ [٤٥ و ٤٦]

ثمّ إنّ اليهود لمّا كانوا مُبتَلين بمَرَض حبِّ الدُّنيا، والغَفْلة عن الله والدّار الآخِرة ـ ولذا كان تحمُّل تكاليف الإسلام، وترك الرئاسات، والإعراض عن الجاه والمال شاقّاً عليهم ـ بيَّنَ اللهُ دَواءَ مَرضِهم بقوله: ﴿وَٱسْتَعِينُوا﴾ على تحمُّل مَشاقّ التّكاليف، ومُخالَفة الهَوى ﴿بالصَّبْرِ﴾ وكَفّ النَّفسِ عنها، أو بالصَّوم الذي هو كاسِرٌ للشَّهَوات ومُصَفٍّ للنَّفس ﴿وَٱلصَّلَاةِ﴾ التي هي ناهيةٌ عن الفَحشاء، ومِعراجُ المؤمنِ، فإنّها موجبةٌ لتَوجّه القَلبِ إلى الله وعظَمته وجَلاله، وحقوقِ نِعَمِه وقَهْرِه ورَحمتِه، فتُسهِّل طاعتَه وتَرك مَعاصيه، لأنّه كلّما أقبَل القَلبُ إلى الله تعالى والدّار الآخرة أعرَض عن الدُّنيا ولذّاتِها، وكلّما استَنار القلبُ بذِكرِ الله خرَج من ظُلماتِ هَوى النَّفسِ وشَهَواتِها، وكلّما تفكَّر في خروجه من الدُّنيا هانَت عليه شَدائدُها ومُصيباتُها.

روي عن الصادق عليه السلام: «ما يمنَع أحدَكم إذا دخَل عليه غَمٌّ مِن غُمومِ الدُّنيا أن يتوضّأ ثمّ يدخُل مَسجِدَه فيركع رَكعَتَين فيدعو الله فيهما؟ أما سمِعتَ الله يقول: ﴿وَٱسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَٱلصَّلَاةِ..﴾»[١].

روي عن النبيّ صلى الله عليه وآله إذا حَزَبَهُ[٢] أمرٌ فَزِع إلى الصَّلاة[٣].

وعن ابن عبّاس، أنّه نُعِي له بنت وهو في سفرٍ فاسترْجَع، وقال: عورَةٌ ستَرَها الله، ومؤنَةٌ كفَاها الله، وأجرٌ ساقَهُ الله. ثمّ تنَحّى عن الطّريقِ وصَلّى، ثمّ انصَرَف إلى راحِلَته وهو يقرأ: ﴿وَٱسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَٱلصَّلَاةِ﴾[٤].

﴿وَإِنَّها﴾ أي الاستِعانةُ بهِما، أو أنّ الصَّلاة ﴿لَكَبِيرَةٌ﴾ وثَقِيلَةٌ شَاقَّةٌ على النُّفوس ﴿إِلَّا عَلَىٰ﴾ نُفوس ﴿ٱلْخَاشِعِينَ﴾ الخائفين من عِقابِ الله وسَطواتِه، فإنّ خوفَ العِقاب يُهَوِّن على العبد مَشقّة التّكاليف.

ثمّ وصَف الخاشِعين بأنّهم ﴿الَّذِينَ يَظُنّونَ﴾ ويعتَقِدون ﴿أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ﴾ مُحضَرون في مَحضَرِ عَدْلِه وحُكومتِه ﴿وَأَنَّهُم إِلَيْهِ﴾ وَإلى حُكمه ﴿رَاجِعُونَ﴾ بعد المَوتِ أو بعد الحَشْر، لا يَملِك أمرَهم غَيرُه، والتَّعبيرُ بالرّجوع إليه مع أنّ الانسان لا يخرُج في آنٍ من الآنات عن حكم الله حتّى

---

١. تفسير العياشي ١: ١٣٣/١٤٣، مجمع البيان ١: ٢١٧.
٢. حَزَبهُ الأمر: نابه واشتدّ عليه.
٣. تفسير روح البيان ١: ١٢٤.
٤. تفسير روح البيان ١: ١٢٤.

يرجِع إليه، لأنّه كان قَبل ولادَتِه تحت سَلْطَنَة الله في الظاهِر والواقِع، فلمّا تولَّد دخَل في تربية والِدَيه وغيرهما، وكان لهما ولغَيرِهما ولنَفسِه سَلْطَنَةٌ عليه في الظاهِر، ثمّ يَرجِع بعد المَوت إلى سلطَنةِ الله وحُكمِه كما كان قبل وِلادتِه.

وقيل: إنّ الظَّنّ هُنا بمعنَاه، والمراد أنّهم يَظنّون مُلاقاة رحمةِ الله والرجوع إلى رِضوانـه حيث إنّ المؤمن لا يعلم الوصول إلى رحمة الله إلّا حين المَوت ولا يزال خائفاً من سوء العاقبة حتّى يأتيه اليَقين.

يَا بَنِي إِسْرَاءِيلَ ٱذْكُرُوا نِعْمَتِيَ ٱلَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَالَمِينَ * وَٱتَّقُوا يَوْماً لَا تَجْزِى نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَايُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ[٤٧ و ٤٨]

ثمّ كرّر الله تذكير النِعَم تأكيداً للحُجّةِ وتَحذيراً من تَرك اتّباع النبيّ ﷺ بقوله: ﴿يَا بَنِى إِسْرَاءِيلَ ٱذْكُرُوا﴾ وَٱشْكُرُوا ﴿نِعْمَتِيَ ٱلَّتِى أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ قيل: هي النِعْمَةُ التي أنعمها على أسلافِهم من بَعْثِ موسى وهارون فيهم وهدايتهم إلى نبوّة محمّد ﷺ ووصاية عليّ عليه السلام وإمامة عِترَتِه الطّيّبين صلوات الله عليهم فإنّها فوق النِعَم وأولىٰ بالامتِنان عليهم، ثمّ بعدَها ما أشار إليه بقوله: ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ﴾ بسبَب تَفضيلِ آبائكم الأقدَمين ﴿عَلَى ٱلْعَالَمِينَ﴾ وجميع أهل زَمانِهم بقَبول ولاية محمّد وآله الطاهِرين صلوات الله عليهم أجمَعين وبِتَظليلهم الغَمام، وإنزالِ المَنّ والسَّلوى، وتخصيصهم بسائر النِعَم العِظام[1]، حيث إنّ الإنعام على الآباء وتَشريفهم بالنَعْماء مُوجِبٌ للشُكرِ على الأبناء وتشريفهم، ثمّ قرّب الله تعالى الدّعوة بالوَعيد.

وقيل: إنّ اليَهود كانوا يقولون: نحنُ أولاد إبراهيم الخليل وإسحاق الذَبيح، وهما يُشفّعونَنا في القيامة عند الله، فردّهم الله بقوله: ﴿وَٱتَّقُوا﴾ يا بَني إسرائيل واحتَرِزوا ﴿يَوْماً﴾ فيه حَشْرُكم وحِسابُكم وجَزاؤكم، فإنّه يومٌ لا ﴿تَجْزِى﴾ وَلا تَكفي ﴿نَفْسٌ﴾ مؤمنِةً كانت أم كافِرةً ﴿عَنْ نَفْسٍ﴾ كافرةٍ ﴿شَيْئاً﴾ يسيراً من الإجزاء كما قال الله: ﴿لَنْ تَنْفَعَكُم أَرْحَامُكُم وَلَا أَوْلَادُكُم﴾[2] بل قال: ﴿يَومَ يَفِرُّ المَرْءُ مِن أَخِيهِ﴾[3] الآية.

---

١. تفسير الصافي ١: ١١٢.
٢. الممتحنة: ٣/٦٠.
٣. عبس: ٣٤/٨٠.

روي أنّ الوالد يتعلّق بوَلَده يومَ القيامةِ فيقول: يا بُنيّ، إنّي أنا أبوك في الدُّنيا، وقد احتَجْتُ إلى مِثقال حبّةٍ من حَسَناتِك لَعَلّي أنجو بها ممّا تَرى. فيقول له وَلَدُه: إنّي أتَخوّف مثل الذي تَخوّفتَ أنت، فلا اُطيقُ أن اُعطيك شيئاً. ثمّ يتعلّق بزَوجَتِه فيقول لها: يا فُلانة، إنّي زوجٌ لك في الدُّنيا[1]، الخبر، وحاصلُ السؤال والجَواب قريبٌ ممّا بينَه وبينَ وَلَدِه.

﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا﴾ وفي مَورِدها إذا كانت كافرةٍ ﴿شَفَاعَةٌ﴾ من الشُّفَعاء ﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْها عَـدْلٌ﴾ وفِداءٌ من مالٍ وَمتاعٍ لو فُرِض إمكانُه ﴿وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾ وَلا يُعاوَنون في دَفْعِ العَذاب ولا يُحامَون.

والحاصلُ: أنّ جميع وُجوهِ التخلّص من المَكارة الدُّنيويّة. منقَطِعٌ عنهم، حيث إنّها مُنحَصِرة فـي أربع:

أحدها: نيابة الغَير عنه في تحمّلها.

وثانيها: التَّفْدِيَة بالمال.

وثالِثها: شَفاعةُ الشُّفَعاء.

ورابعها: نُصرَة الأنصار ودِفاع الأحبّة، فلا يَبقى للعاصي طمعُ النَّجاةِ في الآخِرة.

إن قيل: مُقتَضى هذه الآية أنّه لا تنفعُ شفاعةُ شَفيعٍ للعُصاة يوم القيامة، مع أنّ ضرورة المُسلمين؛ أنّ النبيّ ﷺ يَشفَع للعُصاةِ من اُمّته، وأنّه الشّافع المُشـفَّع، وضـرورة الإمـاميّة أنّ فـاطمة عليها السلام والأئـمّة يشفعون لِعُصاةِ شيعَتِهم، بل مُقتَضى كثيرٍ من الرّوايات أنّ العُلَماء أيضاً يشفَعون لِمَن استَفاد علمهم، بل المؤمنين يشفَعون بعضهم لبعضٍ.

قُلنا: لابدّ من تَخصيص هذه الآية وأمثالها بالكفّار ومَن في حُكمِهم من مُـنكِري الوِلايـة وأهـل البِدَع.

وفي رواية عن الصادق عليه السلام في تفسير الآية: «هذا يومُ المَوت فإنّ الشّفاعةَ والفِداء لا يُغني عنه، فأمّا في القِيامة فإنّا وأهلَنا نَجزي [عن] شيعتنا كلّ جزاء، ليكوننّ على الأعراف بين الجنّة والنّـار مـحمّد وعليّ وفاطمة والحسن والحسين والطيّبون من آلِهم، فنَرى بعضَ شيعتِنا في تلك العَرصَات، فمن كان منهم مُقصّراً، وفي بعض شدائدها، فنبعَث عليهم خِيارَ شيعتِنا كسَلمان والمِقداد وأبي ذرّ وعمّار

---

١. تفسير روح البيان ١: ١٢٧.

ونُظَرائهم في العصر الذي يَليهم، ثمّ في كلّ عصرٍ إلى يوم القيامة، فيقعون[١] عليهم كالبُزاة والصُّقور، ويتَناوَلونَهم كما تتناول البُزاة والصُّقور صيدَها، فيزُفّونهم إلى الجنّة زَفّاً، وإنّا لنبعث على الآخرين من محبّينا خِيار شيعَتِنا كالحَمام فيلقُطونهم من العَرَصات كما يلقُط الطّيرُ الحَبّ، وَينقُلونهم إلى الجِنان بحَضْرَتنا.

وسيُؤتىٰ بالواحِد من مُقَصّري شِيعتِنا في أعماله بعد أن حاز الولاية والتقيّة وحقوق إخوانه، ويوقَف بإزائه ما بين مائة وأكثر من ذلك، إلى مائة ألف من النُّصّاب، فيقال له: هؤلاء فِداؤك من النّار، فيدخُل هؤلاء المؤمنون الجنّة، وأُولئك النُّصّاب النّار، وذلك ما قال الله عزّ وجلّ: ﴿رُبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني بالولاية ﴿لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾[٢] يعني في الدُّنيا مُنقَادين للامام[٣]، ليُجعَل مُخالِفوهم فداءهم من النّار»[٤].

وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ[٤٩]

ثمّ شرَع الله تعالى في تَعديد نِعَمه العِظام عليهم وعلى آبائهم مُفصّلاً بقوله: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ﴾ واذكروا حين خلّصنا أسلافكم ﴿مِنْ﴾ تَعَدِّيات ﴿آلِ فِرْعَونَ﴾ وظُلم أشراف قومه.

قيل: كان فِرعَون لقَب مَلكِ العمالقة، كما أنّ كِسرىٰ لقب مَلِك الفرس، وقَيْصَر لقَبُ مَلِك الروم، وخاقان لقَبُ مَلِك التُّرك، والنَّجاشيّ لقَبُ مَلِك الحَبَشة[٥].

وقيل: اسمُ فِرعَون [موسى: هو] الوليد بن مُصْعَب بن رَيّان، وكان من القِبْط، وعمّر أكثَر من أربعمائة سنَة[٦]، وكان اسم فِرعَون يوسُف ريّان، وبينهما أربعماءة سنة[٧].

ثم بيّن سبحانه أوّلاً شِدّة ظُلم فِرعَون وآله إجمالاً، بقوله: ﴿يَسُومُونَكُم﴾ وَيُعذّبونكم ﴿سُوءَ ٱلعَذَابِ﴾ وشَدِيدَه، ثمّ فصّله ثانياً بقوله: ﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ﴾ ويُكثِرون القَتْلَ فيكم ﴿وَيَسْتَحْيُونَ﴾

---

١. في التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام: فينقضّون.
٢. الحجر: ٢/١٥.
٣. في التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام: للإمامة.
٤. التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام: ١١٩/٢٤١.
٥. تفسير روح البيان ١: ١٢٨.
٦. تفسير روح البيان ١: ١٢٨.
٧. تفسير روح البيان ١: ١٢٨.

ويُبقونَ ﴿نِسَاءَكُمْ﴾ لخِدمَتِهم وَليكُنَّ إماءً لهم ﴿وَفِي ذَلِكُمْ﴾ القَتْل واستِحياء النّساء ﴿بَلَاءٌ﴾ ومِحنَةٌ شَديدةٌ كائنةٌ ﴿مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ وكبيرٌ عليكم.

وقيل: إنّ المُراد من البَلاء هُنا العَطاء والنِعْمَة، والمَعنى أنّ في ذلِكُم الإنجاء نِعمة عظيمة عليكم من ربّكم[1].

وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ * وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ * ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ [٥٠ـ٥٢]

ثمّ ذكر النِّعمَة الثانية بقوله: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا﴾ وَشَقَقْنَا ﴿بِكُمُ﴾ ولأجلِ عُبوركم ﴿ٱلبَحْرَ﴾ الذي يُقال له القُلْزُم، أو اساف، وفصّلنا فيه اثني عشَر مَسْلكاً جافّاً ﴿فَأَنْجَيْنَاكُمْ﴾ من القَتْل والغَرق ﴿وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ﴾ وقَومَه في البَحْر ﴿وَأَنْتُمْ تَنظُرُونَ﴾ إلى غَرَقِهم وهَلاكهم.

ثمّ ذكَر النِعمةَ الثالثة بقوله: ﴿وَ﴾ ٱذْكُرُوا ﴿إِذْ وَاعَدْنَا مُوسىٰ﴾ وأمرناه أن يأتيَ الميقاتَ ويَقِف فيه ﴿أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ بأيّامها.

في نكتة تعيين عدد الأربعين للميقات

قيل: وجه تعيين عدد الأربعين، اختِصاصُه بالكمال، لأنّ مَراتِب الأعداد أربع: الآحاد، والعَشَرات، والمئات، والألوف، وعدد العشرة في نفسها عدد كامل، كما قال الله تعالى: ﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾[2] وإذا ضعّفت العَشَرة أربَع مرّات يكون أربعين، ففيه كمال فوق كمال[3].

فذهب عليه السلام بأمر ربّه إلى الميعاد واستخلَف هارون، ﴿ثُمَّ﴾ بعد ذَهابه من بينكم يا بني إسرائيل ﴿ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ﴾ إلٰهاً ﴿مِنْ بَعْدِهِ﴾ وفي غَيْبَتِه ﴿وَأَنْتُم ظَالِمُونَ﴾ على أنفُسِكم حيث اعتقَدتُم أنّ ربّكم حلّ في العِجْل، وصارَ العِجلُ حاوياً له، مع أنّه مُتَعالٍ عن أن تَسَعَه السّماوات والأرض، بل هو على كلّ شيءٍ محيط.

وفي هذه الحكاية تَسْلية للنبيّ صلى الله عليه وآله ممّا كان يُشاهد من مُشرِكي العرَب واليَهود والنّصارى من

١. تفسير روح البيان ١: ١٣٠.
٢. البقرة: ٢/١٩٦.
٣. تفسير روح البيان ١: ١٣٦، وفيه: وإذا ضعّفت العشرة أربع مرات وهو كمال مراتب الأعداد تكون أربعين وهو كمال الكمال.

الخِلاف، وممّا كان يعلَم من أمر الخِلافة بعده، فإنّ إعراضَ الأمّةِ عن وصيّه وخليفته بعد استِخلافه إيّاه وتنْصِيصه على رؤوس الأشهاد بولايته وإمامته ووِصايته، ثمّ إقبالهم وتبعيّتهم لمَن لم يكُن له حظٌّ من العِلم والنَّسَب والحَسَب، ليس بأعجَب وأفضَع من اتّخاذِ قوم موسى العِجْلَ إلٰهاً مع مشاهدة الآيات والمُعجِزات الظاهِرات.

﴿ثمّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ﴾ أي عن أسلافِكم ﴿مِنْ بَعْدِ ذٰلِكَ﴾ الفِعل الشّنيع، وهو عِبادة العِجْل ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ لنِعمَةِ العَفْو التي أنعَمنا بها على آبائكم، فانّها كانت نعمةً عليكم، إذ لو عجّل في عقوبتهم لم يَبْقَ لهم نَسْل.

وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَابَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ[٥٣]

ثمّ ذكر النِعمةَ الرابعة بقوله ﴿وَ﴾ اذكُروا ﴿إِذْ آتَيْنَا﴾ وأعطَينا ﴿مُوسَى ٱلْكِتَابَ﴾ وهو التّوراة ﴿وَ﴾ أعطيناه ﴿ٱلْفُرْقَانَ﴾.

روي أنّه عَهدُ الإيمان بمحمدٍ ﷺ وأوصيائه صلوات الله عليهم أجمعين، فمَن آمن بهم بقَلبِه ظهَر نورٌ في جَبْهَتِه[1].

وقيل: الفُرقانُ: هي المُعجِزاتُ الباهِراتُ الفارِقة بينَ المُحِقّ والمُبْطِل[2].

وقيل: الكتاب والفُرقان واحِد، فإنّ التّوراة جامعة بين [كونها كتاباً] وبين الحُجّيّة والتّفريق بين الحقّ والباطِل[3].

﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ إلى الحقّ بالنَّظَر في الآيات والتَدَبُّر في الكِتاب.

وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَاقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ[٥٤]

ثمّ ذكَر النِعمة الخامِسة بقوله: ﴿وَ﴾ اذكَروا يا بَني إسرائيل ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ﴾ الذين عبَدوا العِجْلَ، شَفَقَةً عليهم: ﴿يَا قَوْمِ﴾ اعلَموا ﴿إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ﴾ وأضرَرْتُم ﴿أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ﴾

١و٢. تفسير الصافي ١: ١١٧.   ٣. تفسير روح البيان ١: ١٣٤.

إلـهاً، إذْ حقّت عليكم كلمةُ العَذاب.

ثمّ كأنّهم قالوا: فما نصنَع إذَن؟ قال: إن ارَدتُم العِلاج ﴿فَتُوبُوا﴾ وآرْجِعوا ﴿إِلىٰ بَارِئِكُمْ﴾ وخالِقِكم الذي بَرّأكُم من العَيب والتَّفاوُت.

ثمّ كأنّهم قالوا: كيف نَتوبُ؟ فقال: إن عزَمتُم على التوبة ﴿فَاقْتُلُوا﴾ أيّها العابِدون للعِجْل ﴿أَنْفُسَكُمْ﴾ بعضكم بعضاً، أو غير العابدين العابدين، فإنّ خالِقَكم ومُوجِدَكم ومُبَرّئكُم من العيوب في الخَلق أمركم بالقَتْل، ورَضِيَ بإعدامِكم لتَبَرّؤوا من الذّنبِ العَظيم، فإنّ ﴿ذٰلِكُمْ﴾ القَتْل وإن كان فيه ذَهابُ الحَياة وزَوال النِعَم الدنيوية، ﴿خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ﴾ من ابتِلائكم بالعَذابات[1] الأُخرَويّة الأبديّة.

ثمّ من نِعَم الله عليكم أنّه وفّقكم حتّى فعَلتُم ما أُمِرتُم به ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ قبل فَناء جميع أسلافِكم، وإلّا لم يَبْقَ والِدٌ ولا وَلَد ﴿إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ﴾ وسريعُ القَبول للإنابَةِ، وهو ﴿الرَّحِيمُ﴾ بعبِاده، لا يَرضى بضَرَرِهم وقَتْلِهم إلّا أن يكون لهم خيراً ولا بعَذابهم إلّا إذا لم يكونوا للعَفوِ والرّحمةِ أهلاً.

قيل: كان عدّة بني إسرائيل ستّمائة ألفاً. وقيل: ستمائة وعشرون ألفَ مقاتِل، لا يَعُدّون منهم ابنَ العشرين لصِغَرِه، ولا ابنَ الستّين لكِبَرِه[2]. وكان عَدد عابدي العِجْل سَبعين ألفاً. وقيل: كان عدد غير العابدين اثنَي عشَر ألفاً[3].

وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ۞ ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ[٥٥ و ٥٦]

ثمّ ذكّرهم النِعمَة السادسة، بقوله: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ﴾ ولن نُصدّقك في دَعوى النبوّة وفي أن التَوراةَ كتابُ الله، وأنّ الله يُكلّمُك ﴿حَتَّىٰ نَرَى اللهَ﴾ رُؤيةً ﴿جَهْرَةً﴾ وظاهِرةً ﴿فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ﴾ وأصابتكم النّارُ المُحرِقةُ النازِلةُ مع الصَّوت الهائل ﴿وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ إلى نُزولها إليكم.

قيل: كان القائلون [غير] السبعين الذين اختارَهم موسى عليه السلام لأن يذهَبوا إلى الطُّور للاعتذار عن

---

١. في النسخة: بالعذاب.
٢. تفسير روح البيان ١: ١٣١.
٣. تفسير الرازي ٣: ٨٢.

عبادة العِجل[١].

﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ﴾ وأحيّيناكم ﴿مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾ وهَلاككم[٢] بالصّاعقة، وفي هذه الآية دلالة صريحة على إمكان الرّجعة إلى الدّنيا بعد المَوت ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ بإقراركم بالتّوحيد، وقيامكم بالطّاعة ﴿تَشْكُرُونَ﴾ نِعمَة الحَياة بعد الموت.

قيل: ماتوا يوماً وليلةً ثمّ بعثَهم الله[٣]، وفيها ردٌّ على مَن يقول إنّ نُعوت محمّد ﷺ لو كان مُخبَراً [عنها] في التّوراةِ، لم يُمكن إنكارها من أهل الكِتاب، فإنّ أسلافَهم مع مشاهدة المُعجِزات الباهِرات قالوا: يا موسى لن نؤمن لك .. إلى آخره.

وفيها أيضاً دلالةٌ على امتِناع الرّؤية، وكُفر المُجَسِّمة.

وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوىٰ كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلٰكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ[٥٧]

ثمّ ذكّرهم النِعمَة السابعة بقوله: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ﴾ وجعَلناه يُظِلّكم من الشّمس، وذلك في التّيه ﴿وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ﴾ قيل: هو التُّرَنْجَبِين، كان ينزِل عليهم باللّيل، أو من طلوع الفَجْر إلى طلوع الشّمس، فيأكُلونه ﴿وَٱلسَّلْوىٰ﴾ وهو السُّمَانيّ. قيل: هو أطيَبُ طيرٍ، فيصَطادونَه، أو كان يقَع على موائِدهم مَشويّاً، فاذا أكلوا وشَبِعوا طار عنهم.

فقُلنا لهم: ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ ولا تدَّخِروا منها شيئاً، فكفَروا وظَلموا وما أدّوا حقّ النِّعَم ﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾ بكُفرهم وادّخارهم ﴿وَلٰكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ حيث ابتَلَوها بضَررِ سيّئاتهم، من استيجاب العَذاب، وسَلْبِ النِعَم، حيث قطِع عنهُم الرّزقُ الذي كان يَنزِل عليهم بلا مُؤنةٍ في الدّنيا، ولا حِسابٍ في الآخِرة، ولم يضُرّوا الله شيئاً.

عن (الكافي): عن الباقر عليه السلام في قوله عزّ وجلّ: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾ قال: «إنّ الله أعظَم وأعزّ [وأجلّ] وأمنَع من أن يظلِم، ولكنّه خلَطَنا بنفسِه، فجعَل ظُلمَنا ظُلمَه، وولايتنا ولايته، حيث يقول: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُه وَالَّذِينَ آمَنُوا ...﴾[٤] يعني الأئمّة»[٥]. الخبر. وتوضيحه: أنّ الله قَرَن ولاية المؤمنين ـ

---

١. تفسير روح البيان ١: ١٣٩.
٢. في النسخة: وهلاكهم.
٣. بحار الأنوار ١٣: ٢٤٧.
٤. المائدة: ٥٥/٥.
٥. الكافي ١: ١١/١١٣.

وهم الأئمّة ـ الكاملين في الإيمان بولايته بشهادة الآية.

وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا هٰـذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوْا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَداً وَٱدْخُلُوا ٱلْـبَابَ سُجَّداً وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُـحْسِنِينَ * فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزاً مِنَ ٱلسَّماءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ[٥٨ و ٥٩]

ثمّ ذكّرهَم النِعمةَ الثامنة، بقوله: ﴿وَ﴾ اذكروا ﴿إِذْ قُلْنَا﴾ بتوَسُّط يُوشَع بـن نـون وصـيّ مـوسى، لأسلافِكم من بني إسرائيل حين خُروجهم من التِّيهِ: ﴿ٱدْخُلُوا هٰـذِهِ ٱلْقَرْيَةَ﴾.

قيل: هي مدينة بيت المَقْدِس. وقيل: قرية أرِيحا[1] من بلاد الشّام قريبة من تِلك المَدينة، فإذا دخَلتُم القرية ﴿فَكُلُوْا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ﴾ بِلا تَعَبٍ ﴿رَغَداً﴾ واسِعاً هنيئاً ﴿وَٱدْخُلُوا ٱلْبَابَ﴾ الذي للقرية.

قيل: كان لمدينة بيتِ المَقْدِس سبعة أبواب، وقد اُمِروا أن يدخُلوا من الثاني المعروف الآن بباب حِطّة حال كونهم ﴿سُجَّداً﴾ لله، شُكراً على نَجاتهم من التِّيه.

وقيل: إنّ المُراد الدخول راكعين مُتَواضعين لله.

﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ ولعلّ المعنى أنّ مسألتَنا من الله أن يَحُطَّ ذُنـوبَنا، فـإن دخَـلتم بـهيئة الرّكـوع أو السّجود، وقلتُم هذا القول ﴿نَغْفِرْ لَكُمْ﴾ ونَستُر عليكم ﴿خَطَايَاكُمْ﴾ السّالِفَة ﴿وَسَنَزِيدُ ٱلْمُـحْسِنِينَ﴾ ثَواباً. قيل: هم الذين لم يُفارِقوا الذُنوب.

﴿فَبَدَّلَ﴾ وغيّر ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ وعَصَوا أمرَ اللهِ ﴿قَوْلاً غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ﴾ فـلم يسـجُدوا ولم يَركعوا، بل رفَعوا أستاهَهُم، أو لم يقولوا: حِطّة، وقالوا: حِنْطَة حمراء، سُخرِيةً واستِهزاءً.

قال الفخر في تفسيره: ذِكرُه نِعمةَ قَبول التّوبة في مَقام الامتِنان مُنافٍ لكَونِه واجباً على الله عقلاً، لأنّه لا امتِنان في الواجبات العقلية[2].

وفيه: أنّ وجوب التّفضّل والاحسان عليه لكونه جَواداً لا يجوزُ عليه البُخل، ومَنعُ التـفضُّل غـير مُنافٍ للامتِنان عقلاً.

﴿فَأَنْزَلْنَا﴾ عَقيبَ ذلك التّبديل ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أنفُسَهم بتبديل كلام الله، أو بفِعلهم خِلافَ

---

١. تفسير أبي السعود ١: ١٠٤.

٢. تفسير الرازي ٣: ٩٠.

أمرِ الله ﴿رِجْزاً﴾ وعَذاباً ﴿مِنَ ٱلسَّماءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ وبسبب خروجهم عن طاعة الله.

قيل: مات بالطّاعون مائة وعشرون ألفاً في بعض اليوم، وهم الذين كانوا في عِلم الله أنّهم لا يؤمنون، ولا يتَوبون[1].

عن (العيّاشي): عن الباقر عليه السلام قال: «نزَل جَبْرَئيل بهذه الآية: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ آل محمّدٍ حَقّهم ﴿غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ آل محمّد حقّهم ﴿رِجْزاً مِنَ ٱلسَّماءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾»[2].

والمراد بإنزال جَبْرَئيل هذه الآية هكذا، بيان تأويلها حين نُزولها على النبيّ صلّى الله عليه وآله وانطِباقها على ظالمي حقّ آل محمّد، لا أنّه كان جُزءاً للآية، فيكون مؤدّاها كما في الرواية السابقة: إنّ الله خَلَطنا بنَفسِه فجعَل ظُلمَنا ظُلمَة.

وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا ٱضْرِبْ بِعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ فَٱنْفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ كُلُوا وَٱشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ ٱللهِ وَلَا تَعْثَوْا فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ [٦٠]

ثمّ ذكّرهم النِعمَة التاسعة، بقوله: ﴿وَ﴾ اذكروا ﴿إِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ﴾ حين عَطِشوا في التِّيه وضَجّوا إليه بالبُكاء ﴿فَقُلْنَا﴾ له بالوَحْي ﴿ٱضْرِبْ بِعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ﴾ المعهود الذي جاء به جَبْرَئيل من الجنّة، وكان وِقْرَ بَعيرٍ، على ما في الرواية[3].

قيل: كان عَصا من آس الجنّة، طولها عشرة أذرع على طول مُوسى، ولها شُعبَتان تَتّقِدان في الظُلمة نوراً، حمَلها آدم، فتَوارثُها الأنبياء حتّى وصَلت إلى شُعَيب، فأعطاها موسى[4]، فضَربه بها داعياً بمحمّد وآله الطيّبين، كما في الرّواية[5].

﴿فَٱنْفَجَرَتْ﴾ وٱنشَقّت ﴿مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً﴾. قيل: كانت الحَجرُ مُرَبّعاً، وانفجَر من كلّ طَرفٍ منه ثلاثة عُيون، لكلّ سِبط عَين[6].

---

١. تفسير الصافي ١: ١٢١.
٢. تفسير العياشي ١: ١٥٣/١٣٥.
٣. الكافي ١: ٣/١٨٠.
٤. تفسير روح البيان ١: ١٤٦.
٥. التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام: ١٢٩/٢٦١.
٦. تفسير الرازي ٣: ٩٥.

﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ﴾ وَسِبْطٍ ﴿مَشْرَبَهُمْ﴾ لا يُزاحِمُ الآخرين، وقال الله: ﴿كُلُوا وَٱشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ ٱللهِ﴾ الذي آتاكُموه مِن المَنِّ والسَّلوى، والماء العَذْب ﴿وَلَا تَعْثَوا﴾ ولا تَعتَدوا ﴿فِى ٱلأَرْضِ﴾ حال كَونِكم ﴿مُفْسِدِينَ﴾ عاصِينَ لأوامرِ الله، أو مُفسِدين بالمُبالغة في التَّنازُع على قِسْمةِ الماء، فإنّ لكلِّ سِبْطٍ يخرُج بقَدَر حاجَتهِم من الماء ثمّ ينقطِع.

وكان من مُعجزات نبيّنا ﷺ أيضاً أنّه استَسْقى لقَومه، روي أنّ أعرابيّاً جاء إلى النبيّ ﷺ يوم الجمعة، وقال: يا رسول الله، هلكتِ الكِراع والمَواشي، وأجدَبَتِ الأرض، فادعُ اللهَ أن يَسْقِينَا. فرفَع يدَيه ودَعا، قال أنس: والسَّماءُ كأنّها زُجاجةٌ ليس بها قَزَعَة، فنشأت سَحابةٌ ومَطَرت إلى الجُمعة القابلة[1].

وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَنْ نَصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِى هُوَ خَيْرٌ ٱهْبِطُوا مِصْراً فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَاءُو بِغَضَبٍ مِنَ ٱللهِ ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ ٱللهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّينَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ذٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ[٦١]

ثمّ نبّهَهُم على كمال لُطفِه به بإجابة مسؤولهم مع ما هم عليه من غاية السَّفَهِ، بقوله: ﴿وَ﴾ اذكُروا يا بني إسرائيل كُفرانكم لنِعمة الله ﴿إِذْ قُلْتُمْ﴾ أي قال أسلافُكم: ﴿يَا مُوسَىٰ لَنْ نَصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ﴾ وغِذاءٍ ﴿وَاحِدٍ﴾ بالنّوع مِن المَنّ والسَّلوى، بل لابدّ لنا من خَلْطٍ معه، أو تبديل. ولعلّه لِمَلالَةِ طِباعهم من الطّعام الواحِد بسبَب مُداومَتهِم عليه، أو لتَوهّم أنّ البَقاء على النّهج الواحِد مُوجبٌ لاختِلال مِزاجِهم. والظاهِرُ من قولهم: لن نصبر، هو الوجه الأوّل.

﴿فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا﴾ كالكُرّاث وغيره، ﴿وَ﴾ من ﴿قِثَّائِهَا﴾ قيل: هو أخَضِرٌ[2] شِبه الخِيار ﴿وَ﴾ من ﴿فُومِهَا﴾. عن (المجمع): عن الباقر عليه السلام: «هو الحِنْطَة»[3].

وقيل: هو الثّوم، بقَرينةِ قوله بعدَه: ﴿وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا﴾ حيث إنّ العَدَس يُطبَخ بالثّوم والبَصَل.

﴿قال﴾ لهم موسى تَعجّباً واستِنكاراً منهم: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ﴾ وتُعاوِضون الطّعام ﴿ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ﴾

---

١. تفسير روح البيان ١: ١٤٨.
٢. في النسخة: خضر.
٣. مجمع البيان ١: ٢٥٢.

وأدْوَن، ولعلّه من حيث المَجموع، وإن كانت الحِنْطَة أشرَف ﴿بالّذِى هُوَ خَيْرٌ﴾ لكم وأنفَع في الدُّنيا والدِّين، لأنّ ما اختارَه الله لهم من الطّعام لابدّ أن يكونَ أصلَح من جميع الجِهات، وعدم رِضاهُم بما رزَقهم الله، واتّباعهم شَهْوَةَ أنفُسِهم، كان من مَذامّ أخلاقِهم.

ومع ذلك أجابَ الله برَحمتِه مسألتَهُم وقال: إن كنتُم تُريدون هذه الأشياء ﴿آهْبِطُوا﴾ وآنزِلوا ﴿مِصْراً﴾ مِن الأمصار ﴿فَإِنَّ لَكُمْ﴾ فيه ﴿مَا سَأَلْتُمْ﴾ مِن البُقول وغيرها ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ﴾ بعد هذه الألطاف ﴿آلذِّلَّةُ وَ﴾ الهَوان بإلزامِهم بالجِزْية، وشملتهم ﴿آلْمَسْكَنَةُ﴾ ولازَمَهم الفَقْرُ والفَاقَةُ.

قيل: إنّهم ولو كانوا أغنياء، يعيشون عيشَ الفُقَراء.

﴿وَبَاءُو﴾ ورَجَعوا أو التجأوا ﴿بِغَضَبٍ﴾ عظيم، ولعنةٍ دائمةٍ كائنة ﴿مِنَ اللهِ﴾.

ثمّ بيّن سُبحانه سبَب ذلك العَذاب واللّعنَة وهو أمران، أعظَمُهما ما فعَلوه في حقّ الله، ولذا بدأ بذِكره بقوله: ﴿ذٰلِكَ﴾ النّكال والغَضَب مُعلّل ﴿بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ دائماً ﴿بِآيَاتِ آللهِ﴾ الباهِرَة، ويُنكِرون معجزات موسى، وقرآن محمّد ﷺ، ثمّ بعدَه ما فعَلوه في حقّ الأنبياء، ولذا ثنّاه بقوله: ﴿وَيَقْتُلُونَ آلنَّبِيِّينَ﴾ كشُعَيب وزكريّا ويحيى وغيرهم، وهم يعلَمون أنّ قَتْلَهم يكون ﴿بِغَيْرِ آلحَقِّ﴾ المُوجِب له.

عن ابن عبّاس: أنّه لم يُقتَل قَطّ من الأنبِياء إلّا مَن لم يُؤمَر بقِتال، ومَن اُمِر بقِتالٍ نُصِر[1].

ثمّ ذكر سبَب وجود الكُفر والطُغيان منهم، بقوله: ﴿ذٰلِكَ﴾ الكُفر والقَتل ﴿بِمَا عَصَوا﴾ الله في أفعالهم الراجِعة إلى أنفُسِهم ﴿وَ﴾ بِما ﴿كَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ في حقوق غيرهم، ويظلمون النّاس، فإنّ عصيانهم أحكام الله واعتداءهم على عباده جَرّهم إلى الكُفر بآياتِ الله وقَتْل النَّبيِّين لوُضوح أنّ صِغار الذُنوب تؤدّي إلى كِبارها.

عن (الكافي) و(العياشي): عن الصادق عليه السلام أنّه تلا هذه الآية، فقال: «واللهِ ما ضرَبوهم بأيديهم، ولا قتَلوهم بأسيافِهم، ولكن سَمِعوا أحاديثهم فأضاعوها، فاُخذوا عليها فقُتلوا، فصار قَتْلاً واعتداءً ومعصيةً»[2].

إِنَّ آلَّذِينَ آمَنُوا وَآلَّذِينَ هَادُوا وَآلنَّصَارىٰ وَآلصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِـاللهِ وَآلْـيَوْمِ

---

١. تفسير روح البيان ١: ١٥١.

٢. الكافي ٢: ٦/٢٧٥، تفسير العياشي ١: ١٥٥/١٣٥.

ٱلْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ[٦٢]

ثمّ إنّه لمّا ذكَر الله تعالى ما حَلّ بكفَرة أهل الكتاب من النّكال والغَضَب والعقوبة، أردَفه بذِكر ما للمؤمنين من الأجر والثّواب العظيم، على عادتِه الجارية في الكتاب العزيز بأن كلّما ذكر العقوبة للكفّار، ذكر المَثوبة للمؤمنين حتّى يُعَلم أنّه كما يَجزي المُسيء بإساءته، يجَزي المُحسن باحسانه، فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله وبالنبيّ ﷺ وبما جاء به ﴿وَٱلَّذِينَ هَادُوا﴾ واتّخَذوا دينَ اليَهوديّة.

قيل: سمّوا بذلك لأنّهم بعد عبادةِ العِجْل وتَوبَتِهم منها، قالوا: إنّا هُدْنا، أو لنِسبَتِهم إلى يَهوذا[١].

﴿وَٱلنَّصارَىٰ﴾ قيل: لُقِبوا بذلك لأنّهم كانوا يَزعُمون أنّهم يتَناصرون في الله.

وعن (العيون) عن الرضا عليه السلام: «أنّهم من قريةٍ اسمُها ناصِرة من بلاد الشّام نزلتها مريم وعيسى بعد رُجوعهما من مصر»[٢].

﴿وَٱلصَّابِئِينَ﴾ القمي رحمه الله: إنّهم ليسوا من أهلِ الكتاب، ولكنّهم يعبُدون الكَواكب والنّجوم[٣].

قيل: إنّهم سمُّوا بالصابئين لأنّهم زَعموا أنّهم صبأوا وخرَجوا إلى دين الحقّ.

روي أنّه جاء أعرابيّ إلى النبيّ ﷺ فقال: لم سُمّي الصابئون صابئين؟ فقال ﷺ: «لأنّهم إذا جاءهم نبيّ أو رسول أخذوه وعَمدوا إلى قِدْرٍ عَظيمٍ فأغلوه حتّى إذا كان مَحميّ صبوه على رأسِه حتّى يتفسّخ»[٤]، الخبر.

فخصوص ﴿مَنْ آمَنَ﴾ منهم ﴿بِاللهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَعَمِلَ﴾ عَمَلاً ﴿صَالِحاً﴾ مَرضيّاً ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ في الآخِرَة حين يَخاف الفاسِقون، ويحزَن المُخالفون.

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذٰلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ ٱلْخَاسِرِينَ[٦٣ و ٦٤]

---

١. تفسير الرازي ٣: ١٠٥.
٢. عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ١٠/٧٩.
٣. تفسير القمي ١: ٤٨، تفسير الصافي ١: ١٢٣.
٤. تفسير روح البيان ١: ١٥٣.

ثمّ ذمّهم سُبحانه بغاية العِصيان والتمرّد بقوله: ﴿وَ﴾ اذكروا ﴿إِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ﴾ والعَهْدَ الوَثيق مِنكم أن تعمَلوا بالتّوراة التي أعطيتُها موسى عليه السلام فأبيتم قبول ذلك ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ﴾.

قيل: أمر الله جَبْرَئيل أن يقلَع قِطعةً من جَبَل فِلَسطين، فَرْسَخاً في فَرْسَخ على قدر عسكر بني إسرائيل، فقطَعها وجاء بها فرفَعها فوق رؤسِهم.

وقيل: الطّور: هو الجبَل المعروف الذي ناجىٰ موسى عليه السلام عليه ربّه، فقال لهم موسى: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ﴾ مِن التّوراة ﴿بِقُوَّةٍ﴾ وبِجِدٍّ وعزيمةٍ.

عن (المحاسن): عن الصادق عليه السلام أنّه سُئل عن هذه الآية، بقوّة في الأبدان أم بقوّة القلوب؟ فقال: «فيهما جميعاً»[1].

ونقل أنّه قال لهم موسى عليه السلام: إمّا أن تأخذوا بما اُمِرتُم به فيه، وإمّا أن اُلقي عليكم هذا الجبَل. فألجِئوا إلى قَبوله كارِهين إلّا من عصَمه الله عن العِناد، فإنّه قَبِله طائعاً مختاراً، ثمّ لمّا قَبِلوه سجدوا وعفّروا، وكثيرٌ منهم عفّر خدّيه لا لإرادة الخُضوع لله، ولكن ينظر إلى الجَبل هل يقع أم لا[2].

قيل: إنّ موسى جاءهم بالألواح فرأوا ما فيها من الأخبار[3] والتكاليف الشّاقّة، فكبُرت عليهم وأبَوا قَبولها، وكان ذلك بعد النّجاة من الغرق وقبل التّيه، فأُمِر جَبْرَئيل فقطَع الطّور من أصلِه ورفَعه وظَلّله فوقهم، وقال لهم موسى: إن قبلتم وإلاّ اُلقي عليكم، فلمّا رأوا أن لا مهرَب لهم منها قَبِلوا وسجَدوا، وجعَلوا يُلاحظون الجَبَل وهم سُجود لئلّا ينزل عليهم، فصارت عادة [في] اليهود لا يسجُدون إلّا على أنصاف وُجوههم[4].

وقد منّ الله على اُمّة محمّد صلى الله عليه وآله أن حمل عليهم فَرضاً بعد فرضٍ، ولم يفرِض عليهم جُملةً، فإذا استقَرّ في قُلوبهم فرَض عليهم الفَرْضَ الآخَر، وأمّا بنو إسرائيل فقد فرَض الفرائض عليهم دُفعةً واحِدةً، فشقّ عليهم فلم يقبَلوا.

قال بعض: إنّ هذا غير جائزٍ، لأنّه يجري مجرى الإلجاء بالإيمان، وهو يُنافي التكليف.

قلنا: الإلجاءُ الذي يوجِبُ سَلْبَ الإرادة والاختيار يُنافي التّكليف، وهذا الإلجاء غير مُوجِب لسَلْبِ

---

١. المحاسن: ٣١٩/٢٦١.
٢. التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام: ١٣٤/٢٦٦، تفسير الصافي ١: ١٢٤.
٣. في تفسير روح البيان: الآصار.
٤. تفسير روح البيان ١: ١٥٤.

الاختيار، بَل هو تَخويف، كالتخويف بالعَذاب الدُّنيويّ والأُخروي، بـل هـذا الانـقياد كـإيمان قـوم يونس عليه السلام لمّا رأوا العَذاب.

﴿وَاذْكُروا مَا فِيه﴾ عن (المجمع): عن الصادق عليه السلام: «واذكروا ما في تَرْكِه من العقوبة»[١].

﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ المُخالَفَة ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُم﴾ يعني تولّىٰ أسلافُكم وأعرَضوا عمّا فـي التّـوراة وعـن الميثاق ﴿مِنْ بَعْدِ ذٰلِكَ﴾ العَهْد الوثيق، بأن كانوا يُخالِفون موسى عليه السلام ويعترِضون عليه ويَلْقَونه بكلّ أذىً، حتّى عوقِبَ بعضُهم بالخَسْف، وبعضُهم بالطّاعون، وبعضُهم بالنّار، مع مشاهدتهم المُعجِزات الباهِرات.

ثمّ فعل متأخّروهم ما فعَلوا من تَحريفِ التّوراة، وقَتْل الأنبياء، وعِبادَة الأصـنام، فـلا عَـجَب فـي إنكارِهم ما جاء به محمّد صلى الله عليه وآله من الكِتاب والمُعجِزات، وجُحودهم لِحَقّه.

﴿فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾ أيّها الحاضرون في هذا العصر، بإمهالكم للتوبة، وعدم أخذِكم بالعَذاب بَغْتةً ﴿لَكُنْتُمْ مِنَ ٱلخَاسِرِينَ﴾ الهالِكين المَغبونين البائعين أنفُسَهم بنارِ جهنّم.

وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ * فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ [٦٥ و ٦٦]

ثمّ لِمَزيد تنبّههم بفَضْل الله عليهم، نبّههم بقصّة بعض الخاسِرين الذيـن لم يُـمهِلهُم الله، بـقوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ﴾ حال ﴿ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا﴾ وعَصوا ﴿مِنْكُمْ فِي ٱلسَّبْتِ﴾ لمّا اصـطادوا السّـمُوك فـيه، حيث أخذَتهم بغتةً ﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً﴾ وكونوا ﴿خَاسِئِينَ﴾ صاغرين مطرودين، وهذا الأمر أمرُ تكوينٍ لا تكليف، وقد يعبرّ عن الإرادة التكوينيّة في مَقام الحكاية بالأمر.

نقل أنّه لمّا أبىٰ المجرمون قَبول النُّصح، قال النّاهونَ: واللهِ لا نُساكِنُكم في قريةٍ واحدةٍ. فـقسّموا القرية بجِدارٍ وصيّروها بذلك ثِنْتَين، فلعَنهم داود وغَضِب الله عليهم [لإصرارهـم عـلى المـعصية]، فمُسِخوا ليلاً. فلمّا أصبَح الناهوهن أتَوا أبوابَها فإذا هي مُغلَقة لا يُسمَع منها صوت، ولا يـعلو مـنها دُخان، فتَسوّروا الحِيطان ودخلوا فرأوهم قـد صـار الشّـبّانُ قِـرَدَةً، والشّـيوخُ خَـنازِير لهـا أذنـاب، يتَعاوون[٢].

---

١. مجمع البيان ١: ٢٦٢.

٢. تفسير روح البيان ١: ١٥٦.

ثمّ أشار سبحانه إلى حكمة تلك المَسْخَة بقوله: ﴿فَجَعَلْنَاهَا﴾ أي المَسْخَة ﴿نَكَالاً﴾ وعقوبةً ﴿لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا﴾ من ذنوبهم المُوبِقات، أو عبرةً للأُمَم، بأن صارت الأمّة المَمْسُوخَة عِبرَةً للسّالفة، حيث أخبر بها أنبياؤهم، وجعَلناها رادِعةً ﴿وَمَا خَلْفَهَا﴾ مِن الذين شاهَدوهم بعد مَسْخِهم، ومن الّذين يسمَعون القضيّة والمَسْخة مِن بعدها ﴿وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾ فهذِه العقوبةُ كانت لهذِه المَصالح لا للتّشَفّي.

وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ ٱللهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُواً قَالَ أَعُوذُ بِاللهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَاهِلِينَ * قَالُوا ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذٰلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ * قَالُوا ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّاظِرِينَ * قَالُوا ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنْ شَاءَ ٱللهُ لَمُهْتَدُونَ * قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا ٱلْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ * وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً فَادَّارَءْتُمْ فِيهَا وَٱللهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ * فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذٰلِكَ يُحْيِ ٱللهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ [٦٧ ـ ٧٣]

ثمّ ذكّرهم بنِعمةٍ عظيمةٍ أُخرى على أسلافِهم، وهي أنّه قُتل قتيلٌ فيهم ولم يعلَموا قاتِلَه، ولمّا كانت هذه الواقعةُ عظيمةً عندهم، وعاراً وعزماً على أكثرهم، سألوا موسى عليه السلام أن يدعوَ الله فيكشِف عن القاتِل، فدعا الله عزّ وجلّ، ثمّ أخبرَهم بما حَكاه الله تَعالى، بقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ ٱللهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ وتَضْرِبوا ببَعضها المقتولَ بين أظهُرِكم ليَقومَ حَيّاً ويُخبِرَكم بقاتِله ﴿قَالُوا﴾ إنكاراً وتَعجيباً: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُواً﴾ وتَسخر منّا؟ كيف يُمكن أن يحيا ميتٌ بضَرْبِ ميتٍ به؟

﴿قَالَ﴾ مُوسىٰ عليه السلام: ﴿أَعُوذُ بِاللهِ﴾ وأستَجيرُ به من ﴿أَنْ أَكُونَ مِنَ﴾ زُمرَة ﴿ٱلْجَاهِلِيْنَ﴾ فإنّ السُّخْرِيَة مِن السَّفَهِ والجَهل، والافتِراء على الله من عمَل الجاهِل بعظَمتهِ وسَطْوَتِه.

فلمّا عَلِموا أنّهم قد أخطأوا فيما توهّموا من الهُزء ﴿قَالُوا﴾: يا موسىٰ ﴿ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن﴾ ويوضّح ﴿لَنَا﴾ أنّ البقرةَ التي أمرَنا بذَبحِها ﴿مَا هِيَ﴾ وما صِفتُها حتّى تتبيّن لنا؟ ﴿قَالَ﴾ موسى عليه السلام،

بعد ما سُئِل، وراجع ربّه وجاءه الوحي من الله: ﴿إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا﴾ هي ﴿فَارِضٌ﴾ كبيرةٌ قاطِعةٌ عُمرها ﴿وَلَا بِكْرٌ﴾ صَغيرَةٌ، بل ﴿عَوَانٌ﴾ ووَسَطٌ ﴿بَيْنَ ذٰلِكَ﴾ الكبيرة والصغيرة، وهو أكمَل أحوالها. وتذكيرُ الإشارة وإفرادُها مع تأنيث المَرجع وتعدُّده، لكَونِه إشارة إلى المَذكور.

ثمّ قال: إذا عَلمِتُم صِفتَها ﴿فافْعَلُوا﴾ وامتَثِلوا ﴿مَا تُؤْمَرُونَ﴾ به. فلمّا عرَفوا السنَّ سألوا عن اللّون، و﴿قَالُوا﴾: يا موسى ﴿آدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا﴾ من الألوان، وما كيفيّةُ لونِها؟ ﴿قَالَ﴾ موسىٰ عليه السلام لهم: ﴿إِنَّهُ يَقُولُ اِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ﴾ هذا أصلُ اللّون، وأمّا كيفيّته فإنّه ﴿فَاقِعٌ لَوْنُها﴾ شديدةٌ صُفرَتُها ﴿تَسُرُّ آلنَّاظِرِينَ﴾ إليها لبَهْجَتِها وحُسْنِها.

قيل في كيفية لونها: إنّها كانت إذا نظَر أحدٌ إليها خُيِّلَ إليه أنّ شُعاعَ الشّمس يخرُج من جِلدها.

ثمّ سألوا موسى زيادةَ توصيفٍ للبقَرة حتّى يكونوا أهدىٰ إليها، و﴿قَالُوا﴾: يا مُوسىٰ ﴿آدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَنَا مَا هِيَ﴾ ويَزيدُ لَنا في صِفَتِها، حيث ﴿إِنَّ آلبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا﴾ ولم يتّضح عندنا كمال الوضوح ﴿وَإنّا اِنْ شَاءَ اللهُ﴾ بعد التَّبيينِ ﴿لَمُهْتَدُونَ﴾ إليه.

وفي [الحديث] النّبويّ: «لو لم يستَثْنوا لَما بُيِّنَت لهم آخِر الأبَد»[1].

﴿قَالَ﴾ موسى عليه السلام بعد مراجعة ربّه: ﴿إِنَّهُ يَقُولُ اِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ﴾ للكَرابِ كي ﴿تُثِيرُ آلاَرْضَ﴾ وتُقلّبها للزّراعة ﴿وَلَا تَسْقِى آلحَرْثَ﴾ والبُستان بالدّوالي والنّواعير، وصِفتُها الأخرى أنّها بقَرةٌ ﴿مُسَلَّمَةٌ﴾ من جميع العُيوب، والأُخرىٰ أنّها ﴿لَاشِيَةَ﴾ ولا لون غير الصُّفْرَة ﴿فِيْهَا﴾ روي أنّها كانت صَفراء الأظلافِ والقرون[2].

فاقتَصروا بهذا التعريف، و﴿قَالُوا آلآنَ جِئْتَ بالحَقِّ﴾ وحقيقته، وتبيَّنتِ البقَرة.

عن (العياشي) عن الرّضا عليه السلام: «لو عمَدوا إلى أيّ بقرة أجزأهم، ولكن شَدَّدوا فشدَّد الله عليهم»[3].

﴿فَذَبَحُوهَا﴾ بعد اشتِرائها ﴿وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ لغَلاء ثَمَنِها، ولِخَوفِ الفَضيحة بالقَتْل، ولكنّ اللّجاج وحِرصَهم على اتّهامهم موسى عليه السلام حمَلهُم على فِعله.

﴿وَإذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً﴾ قيل: كان شيخاً موسِراً، قتَله بنو عمّه طَمَعاً في ميراثه ـ وفي رواية: حسَداً[4]، كما

---

١. تفسير البيضاوي ١: ٦٨، تفسير الصافي ١: ١٢٧.
٢. تفسير الرازي ٣: ١٢١، وفيه: صفراء القرون.
٣. تفسير العياشي ١: ١٦١/١٣٧، تفسير الصافي ١: ١٢٧.
٤. التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام: ٢٧٤.

يأتي - فطرَحوه على باب المَدينة، أو حملوه إلى قريةٍ اُخرىٰ وألقَوه بفِنائها، ثمّ جاءوا يُطالبون بدِيَتِه، كذا قالوا. وتأخيرُ ذِكر القَتْل والتّنازُع فيه مع كونه مُقدَّماً على الأمرِ بذَبحِ البقَرة، لكَونِه المَقصود المُهمّ من الحكاية.

﴿فادّارَأْتُمْ﴾ وتَنازَعتُم ﴿فِيهَا﴾ وأردتم أن تدفعوا القَتْل عن أنفُسكم ﴿وَاللهُ مُخرِجٌ﴾ ومُظهِرٌ لكم ﴿مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ وتستُرون من أمر قاتِله لترتفع الفِتنة والفَساد.

قيل: إنّ الأمر بذَبح البقرة مع قدرة الله على إحياء المَوتىٰ بغير الأسباب، كان لمَصالِحَ، منها: امتِحان بني اسرائيل ببَذْلِ مالٍ كثير. حيث روي أنّ البقرة لم تُوجَد إلّا عند شابٍّ من بَني إسرائيل، فقالوا له: بِكَم تبيع بقرَتك؟ قال: بدينارَين، والخيار لأُمّي. قالوا: رَضِينا بدينار. فسألها، فقالت: بأربَعة. فأخبَرهم، فقالوا: نُعطيك دِينارَين. فأخبَر أُمّه، فقالت: ثمانية. فما زالوا يَطلُبون [على النصف] ممّا تَقول أُمّه، ويرجِع إلى أُمّه فتُضعِف الثمَن، حتّى بلَغ ثَمنُها ملء مَسْكِ ثَور أكثَر ما يكون ملؤه[1] دَنانير، فأوجبَت لهم البَيع ثمّ ذبَحوها[2].

ومنها: وصولُ مالٍ كثيرٍ إلى الشابّ المُطيع لوالدِه أو والدته.

ومنها: أنّ الحجّة على بني إسرائيل بهذا النّحو من الإحياء تكون أوْكَد.

في إحياء القتيل بضربه ببعض البقرة، والاستدلال بتلك القضية علىٰ صحّة الحشر في الآخرة.

﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ﴾ أي المَيت ﴿بِبَعْضِهَا﴾ أي ببَعض البَقرة، فضرَبوه بها، فقام الميّت سويّاً سالِماً، وقال: يا نبيّ الله قَتلني ابنا عمّي، حسَداني على بنت عمّي، فقَتَلاني وألقَياني في محلّة هؤلاء لِيأخُذا دِيَتي، فأخَذ موسى عليه السلام الرَجُلَين فقتَلهما، هكذا روي[3].

وقال بعضٌ في قوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾ تنبيهٌ على أنّ مَن أراد إحياءَ قلبِه لم يتأتَّ له إلّا بإماتةَ نَفسِه، فمَن أماتَها بأنواع الرياضات، أحيا الله قلبَه بأنوار المُشاهَدات[4].

عن (العياشي): عن الرّضا عليه السلام: «أنّ الله أمرَهم بذَبح بقَرةٍ، وإنّما كانوا يحتاجون لذَنَبها [فشدّدوا] فشدّد الله عليهم»[5].

---

١. في النسخة: ملاء، وما أثبتناه من تفسير العسكري عليه السلام.
٢. التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام: ٢٧٨.
٣. التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام: ٢٧٨، تفسير الصافي ١: ١٢٩.
٤. تفسير روح البيان ١: ١٦٣.
٥. تفسير العياشي ١: ١٦٢/١٣٨.

﴿كَذٰلِكَ﴾ الإحياءُ الذي علم به المُنكِرون للحَشر في هذا الميت في الدُّنيا ﴿يُحْيِ اللهُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ في الآخرة، وهذا من أتمّ الدلائل على صِحّة الحَشر والإعادة بعد الموت، حيث إنّه بضَرب الميت بالميت، إذا حَيِيَ الميت[١]، فَبإنزالِ مَطَرٍ يكونُ طبعُه طَبْعَ النُّطفَةِ على تُرابِ الأجساد كانت الحَياة أولى كما حيي في بَدْو الخِلْقَة.

فإن قيل: هذا الاستِدلال لا يتِمّ على المُشركين المُنكِرين للبَعث إلّا إذا ثبتت عِندَهم هذه الواقِعة.

قيل: يتِمّ بكَونِها متواترة، وكونها مَدْلولة لهذه الآيات الباهِرات، فلا مجال لهم لإنكار وُقوعها، فكان عليهم أن يعترِفوا بإحياء جمعٍ كثيرٍ من الأوّلين والآخِرين بعد عِلمهم بوقوع إحياء ميتٍ واحدٍ بقدرةِ الله سُبحانَه، ويُحتَمل أن بعد إحياء الميت قال الله لبني إسرائيل: ﴿كَذٰلِكَ يُحْيِى ٱللهُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ فاستدلّ به على ما حكمت به العقول، وأخبر به الرّسول من إمكانه ووُقوعه، كما وقَع نظيرُ ذلك لإبراهيم عليه السلام بعد سؤاله ﴿كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾[٢].

﴿وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾ الدالّة، من هذه الآية وغيرها، على التّوحيد والنبوّة والمَعاد، بل هذه الآية بمَنزِلة الآيات المتعدّدة لدَلالتها على جميع ما ذكر، أمّا بالنِّسبة إلى بني إسرائيل ونبوّة موسى عليه السلام فواضِحٌ، وأمّا بالنِّسبة إلى نبيّنا محمّد صلى الله عليه وآله فلِكَون إخباره بهذه الواقعة إخباراً بالغَيب، لوضوح كونه اُمّيّاً غير مطّلع على الكُتب إلّا بالوَحْي.

﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ وتتَفكّرون أنّ مَن هو قادِرٌ على إحياءِ نفسٍ واحدةٍ، قادرٌ على إحياءِ الأنفُسِ الكثيرة، أو لكي يكمُلَ عَقلُكم فتعلَموا ذلك.

ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللهِ وَمَا ٱللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ[٧٤]

﴿ثُمَّ قَسَتْ﴾ وغَلُظَت ﴿قُلُوبُكُمْ﴾ أيّها اليهود، حتّى خرَجت عن قابليّة التأثّر بمُطالعة الآيات والدّلائل، بسبَب شِدّة العِناد واللّجاج، وغاية التّوغّل في الكُفرِ والفَساد، بعد أن كانت قابلةً لقَبولِ كلّ

---

١. كذا، ولعل في العبارة تقديماً وتأخيراً، هكذا: حيث إنه إذا حيي الميت بضرب الميت بالميت، ....

٢. البقرة: ٢/٢٦٠.

حقّ، والانقياد لكلّ خَيرٍ.

﴿مِنْ بَعْدِ ذٰلِكَ﴾ المذكور من إحياء الميّت، ومَسْخ القِرَدَة، ورَفْع الجَبَل، وغيرها من الآيات في زمن موسى عليه السلام والمَرئيّ من المُعجِزات الباهرات من محمّد صلى الله عليه وآله.

﴿فَهِيَ﴾ في الغِلْظَةِ واليبُوسة ﴿كَالحِجَارَةِ﴾ لا يُرجىٰ منها خيرٌ، ولا يترشّح منها نَفع ﴿أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ وغِلظةً، ولعلّ الإبهام على السامعين لاختلاف قلوبهم في القَساوة، أو لأنّ الحُكَم بعد التّرديد والتبيين بهذا الإبهام أشدّ تأثيراً في قَبول السّامع، فكأنّه قال: أحكُم بأنّ قلوبَهم أشّدُ قسوه.

قيل: هذا التعبير أدَلّ على فَرْط القَسْوَة من التعبير بأنّ قلوبَهم أقسىٰ[1].

ثُمّ أنّه سبحانه علّل حُكمَه بكَونِ قلوبهم أشَدّ قَساوةً وأصلَب، بأنّ للحِجارة مِنافعَ متعدّدة بخِلاف قلوبهم، وذكر أوّلها بقوله: ﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَارُ﴾ وينفتح منه الماء الكثير الذي فيه كلّ خيرٍ من حياةِ الحَيوان والنَّبات.

وذكر ثانيها بقوله: ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَاءُ﴾ القليل، ولا يُرجىٰ من قلوبكم الخير الكثير ولا القليل.

﴿وَإِنَّ مِنْهَا﴾ أي من الحِجارة، إذا أُقسِم عليها باسمِ اللهِ ﴿لَمَا يَهْبِطُ﴾ ويَنزِلُ مِنَ العالي إلى السّافِل ﴿مِنْ خَشْيَةِ اللهِ﴾ وخَوفِه، وقلبُ الكفّار مع شعور الانسانيّة لا يتأثّر بالخوف من الله وعقابه، مع الإبلاغ في الإنذار والوَعْظ والتّوعيد والتّهديد من الله ورسوله، كما قال تعالى: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا ٱلْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ ٱللهِ﴾[2].

في أنّ الوجود ملازم للشّعور، ولكلّ موجود شعور وخشية وتسبيح وتحميد

والظاهر من هذه الآية وعدّة آيات أُخَر، وكثير من الرّوايات، كرواية تَسبيح الحَصاة في كفّ النبيّ صلى الله عليه وآله وتسليم الجَمادات عليه[3]، وحَنين الجِذع، أنّ للجَمادات مَرتَبة من الشّعور والإدراك والخوَف من الله وعقابه، بل لكلّ خضوع وتسبيح وانقياد لله، ومعرفة واعتِراف به وبأوليائه، وقد مرّ أنّه لا يَبعُد عند العَقل أن يكون الوجود ملازماً للإدراك، كما نرى في كثيرٍ من النبَاتات.

والحاصل: أنّ مرَاتِب الإدراك تختلف باختِلاف مراتب الوُجود، كلّما قوي قوي، وكلّما ضَعُف

---

١. تفسير روح البيان ١: ١٦٤.
٢. الحشر: ٢١/٥٩.
٣. الخرائج والجرائح ١: ٤٦ ـ ٥٨/٤٧ و٥٩ و٦٠، البداية والنهاية ٦: ١٣٨.

ضَعُف، وأوّل المَراتب ما يُدرِك به صانِعَه وَمفزَعه والمُهيمن عليه، فيحصُل له خضوعٌ وانقياد وخَشْيَة من سَلْبِ النِعمة وانقِطاع الفَيض عنه، ويمكن أن يُستَفاد من الآية أنّ كلّ حجَر يسقُط من مكانٍ بلا سبَبٍ ظاهرٍ، يكون سقوطُه بتأثير خَشية الله فيه.

عن النبيّ ﷺ في رواية، قال: «إنّ أبعَد النّاسِ مِن الله القلبُ القاسي»[1].

وحاصلُ مدلول الآية، أنّ الحجَر تُحرّكه الخَشْيَة، والقَلبَ القاسي لا يتحرّك بالإنذار والتخويف.

﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَافِلٍ عَمّا تعمَلُون﴾ لا يَعزُب عن علمِه مِثقالُ ذَرّةٍ من أعمالكم يا معاشر أهلِ الكتاب، ويُجازيكم عليها، إنْ خيراً فَخَير وإنْ شَرّاً فشرّ.

أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلامَ ٱللهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ[٧٥]

ثمّ لمّا كان النبيّ ﷺ وأصحابه حريصين على إيمان النّاس خصوصاً اليهوّد، وهم كانوا في غاية اللجاج مع تلك الحُجَج الباهرة، قال الله تعالى تسليةً لقَلبِ حبيبه ﷺ، وقَطْعاً لطَمَع المؤمنين في إيمانهم: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ اَنْ يُؤْمِنُوا﴾ هؤلاء اليَهود ﴿لَكُمْ﴾ وينْقادوا لدَعوتكم، ويُصدّقوكُم بقُلوبهم ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ﴾ في زمان موسى عليه السلام ﴿يَسْمَعُونَ كَلَامَ ٱللهِ﴾ في طُور سيناء ﴿ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ﴾ ويُغيّرونه ﴿مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ﴾ وفَهِموه ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أنّهُ كلامُ الله، وأنّهم كاذِبون في تَقَوّلِهم، مع أنّ هؤلاء كانوا خِيارَهم، فكيف حال بقيّتهم! مع أنّهم في اللجاج والعِناد لا يَقصُرون منهم، بل يَزيدون عليهم، فلا تحزَنوا من إصرارِهم على الكُفر.

روي أنّ فريقاً من السَّبْعين الذين اختارَهم موسى عليه السلام لميقات ربّه، سَمِعوا كلامَ الله حين كلّم موسى عليه السلام بالطُّور، وما أُمِر به موسى عليه السلام، وما نُهي عنه، ثمّ قالوا: سَمِعنا الله يقول في آخره: إنِ استطعتُم أنْ تفعَلوا هذه الأشياء فافعَلوا، وإنْ شِئتُم أن لا تَفْعَلوا فلا بأس[2].

فإذا كان أسلافُهم بهذه المَرتبة من الخَباثةِ والأخلاق الذَميمة، فأخلافُهم مُماثِلون لهم، ولا يتأتّىٰ منهم إلّا ما أتىٰ مِن أسلافِهم، فلا يُرجىٰ منهمُ الإيمانُ بما أنزَل الله لدعوتكم.

---

١. سنن الترمذي ٤: ٦٠٧/٢٤١١، تفسير روح البيان ١: ١٦٥.

٢. تفسير روح البيان ١: ١٦٦.

وَإِذَا لَقُوا ٱلَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ * أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ * وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَايَعْلَمُونَ ٱلْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ[٧٦ـ٧٨]

ثمّ أكّد سُبحانَه غايةَ حُمقِهم ولَجاجهم بقوله: ﴿وَإِذَا لَقُوا﴾ وصَادَفوا هؤلاء المُنافقون المطّلِعون على التّوراةِ الأشخاصَ ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بمحمّد ﷺ عن صميم القلب، كسلمان وأضرابه ﴿قَالُوا﴾ نِفاقاً ﴿آمَنَّا﴾ بنبوّة محمّد ﷺ كإيمانِكُم، لمّا اطّلَعنا على نُعوتِه في كتُبنا.

﴿وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ﴾ بعد ما نافق المؤمنين بإخبارِهم بما في التّوراة من علائم محمّد ﷺ ونُعوته ﴿إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ لم يعترف بذلك، وكتَم نُعوتَه فيها، اعترض الساكِتون على المُنافقين و ﴿قَالُوا﴾ إنكاراً عليهم: ﴿أَتُحَدِّثُونَهُمْ﴾ وتُخبِرونَهُم ﴿بِمَا فَتَحَ ٱللهُ﴾ وكشَفَه ﴿عَلَيْكُمْ﴾ من صِفات محمّد ﷺ وعلائمِه في التّوراة ﴿لِيُحَاجُّوكُم به﴾ يوم القيامة ﴿عِنْدَ رَبِّكُمْ﴾ ويقولوا: إنْ عَلِمتُم بدَلائل صِدْقِه، فلِمَ لَمْ تُؤمنوا به؟ ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أنّ ما في التّوراة من أوصافِ محمّد ﷺ حجّةٌ عليكم؟

ثمّ ردّ الله عليهم بقوله: ﴿أَ﴾ يلومونَهُم على التّحديث ﴿وَلَا يَعْلَمُونَ﴾ اللائِمونَ لِمَخافة المَحاجّةِ ﴿أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ﴾ من الكُفر وعداوة محمّد ﷺ ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ من الإيمان به، فلا ينفَعهم اللّومُ والعِتابُ والسِّرُّ والكِتمان.

﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ﴾ الذين لا يعرفون الكتابةَ والقِراءةَ، ولأجلِ أُمِّيَّتِهم ﴿لَا يَعْلَمُونَ ٱلكِتَابَ﴾ من التّوراة وغيرها ﴿إِلَّا أَمَانِيَّ﴾ وَما يسمَعونه من مُفتَريات عُلمائهم.

في جواز تقليد العالم الصائن لدينه في الفروع دون الأصول

﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ كونَه حقّاً بتقليد علمائهم المحرّفين لكلماتِ الله، المُغيِّرينَ لأحكامِه، ومع عدم يقينهم يتديّنون به، مع أنّ التّقليد محرّم عليهم في أُصول العقائد، لأنّه لا يُفيد إلّا الظنّ، والظنّ لا يُغني من الحقّ شيئاً، مع أنّهم كانوا يَعرفون علماءهم بالتّحريف والتّغيير والكَذِب، فيكون إيمانُ علمائهم وعوامّهم بالحقّ في غايةِ البُعدِ، أمّا علماؤهم فلانغِمارِهم في محبّة الرّياسة والمال، وأمّا عوامّهم فلالتِزامهم بتَقليد هؤلاء.

رويَ عن الصادق عليه السلام أنّه قال، له رجُلٌ: فإذا كان هؤلاء العوام من اليَهود لا يعرفون الكتابَ إلّا بما يسمَعونه من علمائهم، لا سبيل لهم إلىٰ غيرِه، فكيف ذمّهم بتقليدِهم والقَبول من عُلمائهم؟ وهل

عوامّ اليَهود إلّا كعوامِنّا يقلّدون علماءهم؟ فإن لم يَجُزْ لأولئك القَبول من علمائهم، لم يَجُز لهـؤلاء القَبول من علمائهم.

فقال عليه السلام: «بين عوامّنا وعُلَمائنا، وبين عوامّ اليَهود وعُلمائهم فرقٌ من جهةٍ، وتَسويةٌ من جهةٍ. أمّا من حيث استَوَوا فإنّ الله قد ذمّ عوامَّنا بتَقليدِهم علماءهم كما ذمّ عوامّهم، وأمّا من حيث افترَقوا، فلا».

قال: بيّن لي ذلك يابن رَسولِ الله.

قال عليه السلام: «إنّ عوامّ اليَهود كانوا قد عرَفوا علماءهم بالكَذِب الصُّراح وبأكل الحَرام والرُّشا وتـغيير الأحكام عن واجبها بالشّفاعات والعِنايات والمُصانعات، وعرَفوهم بالتعصّب الشّديد الذي يُفارِقون به إيمانهم[1]، وإنّهم إذا تعصّبوا أزالوا حقوق من تعصّبوا عليه، وأعطَوا مالا يستحقّه من تعصّبوا له من أموالِ غيرهم، وظلَموهم من أجلِهم، وعرَفوهم [بأنّهم] يُقارِفون المُـحرَّمات، واضـطرّوا بـمَعارِف قلوبهم إلى أنّ من فعَل ما يفعَلونه فهو فاسِق لا يجوز أن يصدّق على الله ولا على الوسائط بين الخَلق وبين الله.

فكذلك ذمّهم لما قلّدوا مَن قد عرَفوا ومَن قد عَلِموا أنّه لا يجوز قَبول خبَره ولا تَـصديقه فـي حكايتِه ولا العمل بما يؤدّيه إليهم عمّن لم يُشاهِدوه، ووجَب عليهم النّظَر بأنفُسِهم في [أمر] رسول الله صلى الله عليه وآله إذ كانت دلائلُه أوضَح من أن تَخفى وأشهَر من أن لا تظهَر لهم»[2] إلى آخره.

فإن قيل: كيف أمر الله أهل الكِتاب في مَقام المَحاجّة عليهم بالسؤال عن علمائهم بقوله في غير موضعٍ من كتابه: ﴿فَسْئَلُوا أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[3] مـع كـون عـلمائهم مَـعاندين للـحقّ، مُحَرّفين للكِتاب؟

قلتُ: لم يَكُن جميعُهم بهذه الأوصاف، بل أغلبُهم كانوا كذلك، وأمّا الأمر بالسؤال في الاحتِجاج، فإنّما هو عن المأمونينَ عن الكَذِب، المعروفين عندهم بالصَّلاحِ والسَّداد.

إن قيل: إنّ السؤالَ منهم ليس إلّا التّقليد المُفيد للظّنّ الذي لا يُغني في الأُصـول، بـل هـو مـحرّم إجماعاً؟

قلتُ: إنّما السؤالُ المأمورُ به هو ما يكون مقدّمة لحُصولِ العِلم واليَقين، فـإنّه لا شُـبْهةَ أنّ إخـبارَ

---

١. في تفسير العسكري عليه السلام: أديانهم.

٢. التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام: ٢٩٩/١٤٣.

٣. الأنبياء: ٧/٢١.

جماعةٍ من أهلِ العِلم المأونينَ عن الكَذِب بأمرٍ، سيّما مع انضِمامه بأماراتٍ أُخَر مورثٌ للعِلم بـه، واليقين بتحقّقه. وهذا في الحقيقةِ من الاجتهاد اللّازم في الأُصول.

فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَـٰذَا مِنْ عِنْدِ ٱللهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ [٧٩]

ثمّ شرَع الله تعالى في تَهديد المُحَرّفين للتّوراة بقوله: ﴿فَوَيْلٌ﴾ وهو وادٍ في جهنّم ـ كما عن النبيّ ﷺ، وعذابٌ أليم كما عن ابن عبّاس[١] ـ مُعَدٌّ ﴿لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَابَ﴾ المُحرّف ﴿بِأَيْدِيهِمْ﴾ وبمُباشرَتِهم بحيث لا يُمكِنُهم إنكاره ﴿ثُمَّ يَقُولُونَ﴾: لعَوامّهم ﴿هَـٰذَا﴾ المَكتوبُ من جُملةِ التّوراةِ النازلة ﴿مِنْ عِنْدِ ٱللهِ﴾.

روي أنّ أحبارَ اليَهود خافوا ذَهابَ مأكَلِهم وزَوالَ رِئاستِهم حين قَدِم النبيّ ﷺ المدينة، فاحتالوا في تَعويقِ أسافِل اليَهود عن الايمان، فعَمَدوا إلى صفة النبيّ ﷺ في التّوراة، وكانت فيها: حَسَنُ الوجَه، جَعد[٢] الشَعر، أكحَل العينين، رَبْعَة ـ أي متوسّط القامة ـ فغيرّوها، وكتَبوا مكانَها: طِوال، أزرَق، سَبْط الشَعر، فإذا سألهم سَفِلَتُهم قرءوا عليهم ما كتَبوا[٣]. وقالوا: إنّ صِفاتَ النبيّ المَوعود مُغايِرَةٌ لصفات محمّد.

وفي رواية: قالوا: إنّه[٤] عظيم الجثّة والبَطْن، أصهب الشَعر، ومحمّد بخِلافه، وإنّه يَجيئ بعد خمسمائة سنة[٥].

﴿لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً﴾ من المال والرئاسة على الضُعَفاء، ولأنْ لا يتحمّلوا مُؤنةَ خِدمَةِالنبيّ ﷺ، وهذا من نهاية شقاوتهم، وغاية دَناءتهم حيث رَضُوا بتحمّل العذاب الشديد الدائم الأجلِ، لأجلِ حبّ المال القليل الزائل، والجاه الوَبيلِ العاجِل.

ثمّ أنّه تعالى بعد ما ذكَر استِحقاقَهم الويلَ لكتابةِ الكتاب وتَحريفِه، وافترائهم على الله، وأخذِهم الأموالَ، وكان مجال توهّم أنّ الاستِحقاق يكون بسبب مجموع الأمور، أعاد ذِكر الوَيل لكلّ واحِدٍ

---

١. تفسير الرازي ٣: ١٤٠.
٢. في تفسير أبي السعود: حسن.
٣. تفسير أبي السعود ١: ١٢٠.
٤. زاد في تفسير العسكري عليه السلام: طويل.
٥. التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام: ١٤٥/٣٠٢.

منها، وبيّن أن كلاً منها سببٌ مستقِلٌ لاستحِقاقه، بقوله: ﴿فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ حيث إنّه سببٌ لإضلالِ النّاس، باقٍ في الدنيا ﴿وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾ به من المالِ الحَرامِ والرئاسةِ البَاطِلة، والمَعاصي العَظِيمة.

وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ ٱللهِ عَهْداً فَلَنْ يُخْلِفَ ٱللهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللهِ مَا لَاتَعْلَمُونَ * بَلَىٰ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولٰئِكَ أَصْحَابُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَاخَالِدُونَ[٨٠و ٨١]

ثمّ أشارَ سبحانه إلى بعض مُفْتَرَياتهم الذي صار سبباً لجُرأتِهم على الله بقوله: ﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ﴾ في الآخِرَةِ ﴿إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُودَةً﴾ قليلةً.

قيل: المُراد بها الأيّام التي عُبِد فيها العِجْلُ، وهي سَبعةُ أيّام على قول[1]، أو أربَعون على آخر[2].

وقالوا: ثمّ نَصيرُ بعدَها في النِّعمَةِ الدائمةِ، فلا ينبَغي أن نتحمّل مَكروهَ تبعيّةِ محمّد وذلِّها في الدُّنيا للاحتِراز عن العَذابِ في الأيّام القليلةِ التي تَفْنى وتَنقضي.

فردّ الله عليهم بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمّد توبيخاً لهم وإنكاراً عليهم ﴿أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ ٱللهِ عَهْداً﴾ أنّ عذابَكم على الكُفر مُنقَطِعٌ غيرُ دائم، فإن اتّخذتُم هذا العهد ﴿فَلَنْ يُخْلِفَ ٱللهُ عَهْدَهُ﴾ أبداً، لأنّ خُلفَ العَهْدِ والوَعْدِ قبيحٌ لا يَصدُر من الحَكيمِ إلّا مع الحاجةِ والضّرورَةِ أو الجَهْلِ بقُبحه، وكلّها نَقصٌ وعَيبٌ، والذّات القادِرَةُ المُحِيطةُ بجَميع الكائناتِ مُبرّءٌ من جميع النَقائص ومُستَجمِع لجَميع الكمالات بلاشَكٍّ ورَيب، فإن ادَّعَيتُم أنّ الله تعالى عَهِد إليكم بهذا فأنتُم كاذبون.

﴿أَمْ تَقُولُونَ﴾ مُفْتَرِينَ ﴿عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أنّه من الله.

روي أنّهم إذا مضَت المدّة عليهم في النّار، يقول لَهُم خَزَنَةُ جهنّم: يا أعداءَ الله، ذهَب الأجَلُ، وبَقيَ الأبَد[3]، فأيقِنوا بالخُلود.

﴿بَلَىٰ﴾ العَذابُ الدائمُ ثابِتٌ لكم، حيث إنّ: ﴿مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً﴾ وخطيئةً ﴿وَأَحَاطَتْ بِهِ﴾ واشتَمَلتْ عليه ﴿خَطِيئَتُهُ﴾ بظُلمَتِها ونكبَتِها، واستَوْلَت على قَلْبِه ولِسانِه وجَميعِ جَوارِحه حتّى

---

١. تفسير الرازي ٣: ١٤١.
٢. جوامع الجامع: ١٨، الدر المنثور ١: ٢٠٧.
٣. أسباب النزول الواحدي: ١٨.

أخرَجَتْهُ من دينِ الله، ونزَعَتْهُ عن وِلايته تعالى، وأبعَدَتْهُ من رَحمتِه سبحانه، وأوقعَتْهُ في خُـذلانِه، وهو الشِّركُ بالله، والكُفرُ بنبوّة محمّد ﷺ وولاية أوصيائه المعصومين ﴿فَأُولـٰئِكَ﴾ المُحاطُون بتلك السيّئة ﴿أَصْحَابُ ٱلنَّارِ﴾ ومُلازِموها ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ لا خَلاصَ لهم منها أبداً، ولا يَجِدون عنها مَصْرِفاً، فإنّ مُلازمَة الكُفرِ مُستَلزِمةٌ لمُلازَمة العَذاب.

عن (التوحيد): عن الكاظم عليه السلام: «لا يُخلِّد اللهُ في النّارِ إلّا أهلَ الكُفْرِ والجُحود، وأهـلَ الضَّـلالِ والشِّرك»[1].

وعن (الكافي) عن أحدِهما عليهما السلام، قال: «إذا جحدوا إمامَةَ أمير المؤمنين عليه السلام فأُولئك أصحابُ النّار هم فيها خالدون»[2].

فــي أنّ تـعذيب الكافر أبـداً لكـفره فـي المـدة القـليلة جائز وليس بظلم

فإن قيل: كيفَ يجوزُ تعذيبُ الكافرِ بالعَذابِ الدائمِ لُكفرِه مدّةً قليلةً من العُمرِ، بل ساعةً، وهل هذا إلّا ظلمٌ، تعالى عن ذلك؟

قلتُ: قد مرّ سابقاً أنّ عظمَة المعَصيةِ بمِقدار عظَمَةِ المَعْصيّ وكَثرةِ حُقوقه ونِعَمِه، فإذا كانت عظَمَة المَعْصِيّ ونِعمُه بلا نهايةٍ، فعِظَم مَعصِيَتِهِ ولو كان بغَير الكُـفر بـلا نهاية، ومِقدار العَذاب واستِحقاقه بمقدارِ عظَمةِ المَعْصِيَة.

فلو عذَّبَنا الله تعالى لأصغَر مَعاصيه بالعَذابِ الدائم ما ظَلَم وما تَعَدّى عن حدّ استِحقاقِنا، فكـلّما خفَّف أو عَفا فبِفَضْلِه ورَحمتِه، وأمّا حُسن العَفْوِ فيُعتَبر فيه قابليّة المحلّ، فإذا أخبَر الله بُخلودِ الكافِر، عَلِمنا بخُروجه عن قابليّة العَفو، فلِذا يُعذّب بالعَذاب الدائم، بخلاف سائر المَعاصي فإنّه يبقى معها قابليّة العَفو إمّا ابتداءً أو بعد التوبة، أو مع الشّفاعة، أو بعَد بعضِ الأعمال الصالحة.

وفي بعض الروايات: أنّ الخُلودَ في النّار بسبَبِ نيّه الكافِر أن لو خُلِّد في الدّنيا أبداً لعَـصىٰ الله، فالكفّار بنيّاتهم خُلِّدوا.

وَٱلَّـذِينَ آمَـنُوا وَعَـمِلُوا ٱلصَّـالِحَاتِ أُولـٰئِكَ أَصْـحَابُ ٱلْـجَنَّةِ هُـمْ فِـيهَا خَالِدُونَ[٨٢]

---

١. التوحيد: ٦/٤٠٧. ٢. الكافي ١: ٨٢/٣٥٥.

ثمّ أنّه سبحانه لمّا بيّن حالَ الكفّار في الآخرةِ بأنّهم أصحابُ النّار، أردَفه بذِكر حالِ أهلِ الإيمان، بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ آمَنُوا﴾ باللهِ ورُسُلِه وكتُبِه واليَومِ الآخِرِ ﴿وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ﴾ من التجنّب عن المَعاصي وارتِكاب[1] العبادات والواجبات، حيث إنّ الإيمانَ الواقعيّ غير مُنفَكّ عن العَمل في الجملة ﴿أُولـٰئِكَ أَصْحَابُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ مُتَنَعِّمونَ لا يَخافونَ زَوالَ النِعمةِ.

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِى إِسْرَاءِيلَ لَاتَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَامَىٰ وَٱلْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً وَأَقِيمُوا ٱلصَّلَاةَ وَآتُوا ٱلزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلاً مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ[٨٣]

ثم أنّه تعالى بعد ذِكر نِعمَةِ أخذِ الميثاق من بني إسرائيل على العمَلِ بالتَوراة إجمالاً، ذكَر نِعمَة أخذِ الميثاق على العَمِل بتَمامِ ما لابدّ منه في الدّين تَفصيلاً، بقوله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِى إِسْرَاءِيلَ﴾ والعهد المؤكّد الذي وجَب أن يكون جارياً في أخلافِهم قَرْناً بعد قَرْنٍ، وفي الأمّة المرحومةِ إلى يوم القيامة، وهو أُمور، أهمّها وأعظَمُها أنّه ﴿لَا تَعْبُدُونَ﴾ بقُلوبكم وجَوارِحكم ﴿إِلَّا ٱللهَ﴾ ولا تجعلون له شُرَكاء من الأصنامِ والشّيْطانِ وهَوىٰ النّفسِ وسائر الخَلْقِ.

عن الصادق عليه السلام: «ما أنعَم الله عزّ وجلّ على عبدٍ أجلّ من أن لا يكونَ في قلبِه مع الله تعالى غيره»[2].

وعن النبيّ صلى الله عليه وآله: «مَنْ شَغَلَته عبادَةُ اللهِ عن مسألتِه، أعطاهُ أفضَل ما يُعطىٰ السائِلون»[3].

في وجوب الاحسان بالوالدين الروحانيين و الجسمانيين و حكمته

﴿وَ﴾ تُحسِنون ﴿بِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً﴾ مُكافأة عن إنعامِهما وإحسانِهما، فإنّ حقَّهما بعد حُقوقِ الله، وحقّ الأنبياءِ والأوصياء صلوات الله عليهم أجمعين أعظَم من حقّ كلّ ذي حقٍّ، لأنّهما أصلانِ في وجود الولَد في هذا العالم، مُنعِمان عليه بالتَغذِية والتَربية والحِفْظ عن المحبّة والمودّة، بلا طَمَع في أجرٍ وعِوَضٍ ولا مَلالٍ ولاكلالٍ، ولا يقطَعان عنه الإحسانَ وإن كان مُسيئاً بهِما وعاقّاً لهُما، ويُؤثِرانه على أنفسِهما ولو كانت بهما خَصاصةٌ، فحقٌّ لهما أن يُعظِّمَهما ويَطلُبَ رِضاهُما، ولا يؤذيهما وإن كانا كافِرَين.

عن (الكافي): سُئِل الصادق عليه السلام: ما هذا الإحسان؟ قال: «أن تُحسِنَ صُحبَتَهُما، وأن لا تُكلِّفَهُما أن

١. كذا والظاهر وأداء. ٢. التفسير المنسوب الى الإمام العسكري عليه السلام: ١٨٢/٣٢٨.
٣. التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام: ١٧٥/٣٢٧.

يسألاك شيئاً ممّا يحتاجانِ إليه وإن كانا مُستَغنِيَينِ. أليس الله يقول: ﴿لَن تَنَالُوا ٱلبِرَّ حَتَّى تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾؟»[١]

ثمّ إذا كان حقّ الوالِدَين الجِسمانيَّين بهذه الدّرجة من العِظَم، فما أعظَم حقّ الوالِدَين الروحانيَّين من النبيّ والوصيّ! فإنّ إحسانَهُما وإنعامَهُما بأولادِهما المؤمنين لا يُقاسُ بالوالِدَين الظاهِريّينِ الجِسمانِيَّينِ، فإذا كانا أفضَل وأحَقّ بمَراتِبِ لا تُحصىٰ، كانا بالشُّكرِ أحَقّ وأولى.

عن (تفسير الإمام عليه السلام): قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «أفضَلُ والِدَيكم وأحقُّهما بشُكرِكم محمّد وعليّ»[٢].

وعن علي عليه السلام قال: «سمِعتُ رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: أنا وعليّ أبَوا هذه الأمّة، ولَحقُّنا عليهم أعظَم من حقِّ أبَوي وِلادَتِهم، فإنّا نُنقِذُهم إن أطاعونا من النّار إلى دارِ القَرار، ونُلحِقُهم من العبوديّة بخِيار الأحرار»[٣].

ثمّ أمر بالإحسانِ بذي القُربىٰ بقوله: ﴿وَذِي ٱلقُربَىٰ﴾ وهم الذين يُعَدّون في العُرْفِ أرحاماً وأقرباء للشّخصِ، وإنّما أردَف الأمْرَ بالإحسانِ إليهم بإحسانِ الوالِدَين لأنّ حقّهم تابعٌ لِحقّهما، حيث إنّ الإنسانَ مُتّصِلٌ بهما.

أمّا السبَب الأعظم في التأكيد في رعاية هذا الحقّ، أنّ الارتباط النَّسَبيّ مقتضٍ للاتّحادِ والأُلفةِ، ومنشأٌ لزِيادة حُسنِ الرّعاية والنُّصْرَةِ، فلو لم يحصُل لكانَ أشَقّ على القَلْبِ وأبلَغ في الإيلامِ، وكلّما كان مُوجب التّألّم أقوىٰ كان دَفعُه أوجَب.

عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «مَن راعىٰ حقّ قراباتِ أبَويه، أُعطي في الجنّة ألف ألف درجةٍ»[٤] ثمّ فسّر الدّرجات، ثمّ قال: «مَن راعى حقّ قُربىٰ محمّد وعليّ أُوتِي من فَضائِل الدّرجات وزيادة الثّواب على قَدر زيادةِ فَضْل محمّد وعليّ على أبوي نَسَبه»[٥].

﴿وَٱليَتَامَىٰ﴾: وهم الصِّغار المُنقَطِعون عن آبائِهم الكافِلين لأُمورِهم. ووجه إردافِ الإحسان بهم للإحسان بالأقارب، أنّ في حِفْظِ الصِّغار وتدبير أُمورهم وصُحبَتِهم مع كمال الرعاية لهم مشقّةً

---

١. الكافي ٢: ١/١٢٦، والآية من سورة آل عمران: ٣/٩٢.
٢. التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام: ١٨٩/٣٣٠.
٣. التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام: ١٩٠/٣٣٠.
٤. في تفسير العسكري عليه السلام: ألف درجة.
٥. التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام: ٢٠٢/٣٣٣.

عظيمةً ورياضةً ثقيلة على النَّفسِ، ولذا وَعد الله عليه الأجر العظيم، وأنّهم لضَعْفِهم وقُصورِهم أولىٰ بالرّعايةِ من غَيرِهم بعدَ الأقارب.

ثمّ لا رَيْبَ أنّ الإحسانَ والتكفّل ليَتامى آل محمّد ﷺ وهم المُنقَطِعون عن إمامِهم، الجاهِلونَ بشرائعهم وتكاليفهم، أعظَم أجراً منه، كما روي عن العسكريّ عليه السلام: «أنّ مَن هَداهُ [وأرشده] وعلّمَه شريعتَنا كانَ معَنا في الرّفيع[1] الأعلىٰ»[2].

ثمّ الأولىٰ بعدَهم بالرِعايةِ والإحسانِ الفُقَراء ﴿وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ الذين أسكنَهم الفقْرُ عن الحَركةِ.

روي: «أنّ مَن واساهُم بحَواشي مالِه، وسّع اللهُ عليه جِنانَه، وأنالَهُ غُفْرانَهُ ورِضوانَه»[3].

ثمّ قال: «إنّ مِنْ محبّي محمّد ﷺ مَساكين مُواساتُهم أفضَل من مُواساةِ مَساكين الفَقْرِ، وهم الذين سكَنَتْ جَوارِحُهم وضَعُفَت قُواهُم عن مقابلة أعداءِ اللهِ الذين يُعَيِّرونَهُم بدِينهم ويُسَفِّهون أحلامَهُم، ألا فمَن قَوّاهُم بفِقْهِه وعِلْمِه حتّى أزالَ مَسْكنَتَهُم، ثمّ سلَّطَهُم على الأعداءِ الظاهرين مِن النَّواصِب، وعلى الأعداءِ الباطِنين إبليسَ وَمَرَدَتِه حتّى يَهزِموهُم عن دين الله ويرُدّوهم عن أولياءِ آلِ رَسول الله ﷺ، حوَّل الله تعالى تِلكَ المَسْكَنة إلى شَياطِينهم وأعجَزهم عن إضلالِهم، وقَضى الله بذلك قَضاءً حَقّاً على لسانِ رسول الله ﷺ»[4].

ثمّ بعد ذِكر الطَوائف الأربَع الذين تَجِب رِعايتُهم مالاً وعِشْرَةً، بيَّنَ وجوبَ الإحسانِ إلى غيرهم بقوله: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ﴾ الّذين لا مُؤنَة لهم عليكم، سواءً كانوا من المؤمنين أو من مُخالِفيهم من اليهود وغَيرِهم ﴿حُسْناً﴾ وعامِلوهُم وواجِهُوهم بالبِشْرِ وخُلُقٍ جَميل.

عن الباقر عليه السلام: «قولوا للنّاس [أحسنَ] ما تُحبّون أن يُقالَ لكم»[5].

وفي رواية: «أنّكم لَن تَسَعوا النّاس بأموالِكُم، فَسَعوهُم بأخلاقِكُم»[6].

عن الصادق عليه السلام: «قولوا للنّاس كلِّهم حُسناً مُؤمِنيهم ومُخالفيهم، أمّا المؤمنون فَيبسُطُ لهم وَجْهَه

---

١. في تفسير العسكري عليه السلام: الرفيق.
٢. التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام: ٢١٤/٣٣٩.
٣. التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام: ٢٢٦/٣٤٥.
٤. التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام: ٢٢٧/٣٤٦.
٥. تفسير العياشي ١: ١٦٧/١٣٩، الكافي ٢: ١٠/١٣٢، مجمع البيان ١: ٢٩٨.
٦. من لا يحضره الفقيه ٤: ٨٣٥/٢٨١.

وبِشْرَه، وأمّا المُخالفون فيُكلِّمُهم بالمُداراةِ لا جتِذابِهم إلى الإيمانِ، فإن يَئِسَ من ذلك يكفُّ شُرورهُم عن نَفْسِه و[عن] إخوانِه المؤمنين»[١].

ثمّ قال عليه السلام: «إنّ مُداراةَ أعداءِ اللهِ من أفضَلِ صَدَقةِ المَرْءِ على نَفْسِه وإخوانه، كان رسول الله صلى الله عليه وآله في مَنْزِله إذ استأذَن عليه عبدالله بن أبي سلول،

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: بِئسَ أخو العشيرةِ، ائذنوا له، [فأذنوا له] فلمّا دخَل، أجلسَه وبشَر في وَجْهِه، فلمّا خرَج قالت له عائشة: يا رسولَ الله، قُلتَ فيه ما قُلتَ، وفعَلتَ فيه [من البشر] مافعَلتَ!

فقال رسولُ الله صلى الله عليه وآله: يا عُويَش، يا حُمَيراء، إنّ شرّ النّاسِ عند الله يوم القيامة مَن يُكرَم اتّقاءَ شرِّه»[٢].

في أنّ قوله تعالى: (قُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا) هل هو منسوخ أم لا؟

وفي رواية عن الباقر عليه السلام: «أنّها نزَلت في أهلِ الذِّمّةِ، ثمّ نسَخها قوله تعالى: ﴿قَاتِلُوا ٱلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ باللهِ ولا باليَومِ الآخِرِ﴾[٣] ...» إلى آخر الآية[٤].

القمّي رحمه الله قال: نزَلت في اليَهود، ثمّ نُسِخت بقوله تعالى: ﴿فَاقْتُلُوا المُشْرِكِينَ ...﴾[٥].

وقال الفَيضُ رحمه الله: التَوفيق بأن يُقال: نُسِخت في حقّ اليَهود وأهلِ الذِمّة المأمور بقِتالهم، وبَقيَ حُكمُها في حقّ سائر النّاس[٦].

أقول: ما نُسِخت في حقّ أهلِ الذّمةِ أيضاً مُطلَقاً، بل في مَوقِعٍ أقتَضَتِ المصلحةُ الجهادَ معَهم، وأمّا في موقعِ الهُدنَةِ ومَوقِعٍ يُمكِن دَعَوتُهم واجتِلابُهم إلى الإيمانِ بالمُجادلَةِ الحَسَنةِ، فحُكم الآيةِ باقٍ في حقّهِم أيضاً، وأمّا قوله: نزَلت في أهلِ الذمّةِ أوفي اليَهود، معناه أنّهم المَورِد فلا يُنافي عُمومَ الحُكمِ لغَيْرِهم.

فإن قيل: الروايتان مُتَعارِضَتان، حيث إنّ في إحداهما قال: نُسِخَت بـ﴿آقْتُلُوا المُشْرِكِينَ﴾ وفي الأخرى بـ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ باللهِ﴾؟

قلتُ: يُمكِن الجَمعُ بأنّ كِلتَي الآيتَين بِمَضمونِهما، ناسِخَتان لعُمومِها. حيث إنّ اليهودَ من المُشركين بقَولِهم عُزَير ابنُ الله، والنّصارى بقولهم: إنّ الله ثالِثُ ثَلاثةٍ، أو قَولهم: المَسيحُ ابن اللهِ، وكلا الفريقَين لا يؤمنون بالله واليَومِ الآخِر حقَّ الإيمان.

---

١. التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام: ٢٤٠/٣٥٣.
٢. التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام: ٢٤١/٣٥٤.
٣. التوبة: ٢٩/٩.
٤. تفسير العياشي ١: ١٧٠/١٤٠، عن الصادق عليه السلام.
٥. تفسير القمي ١: ٥١، والآية من سورة التوبة: ٥/٩.
٦. تفسير الصافي ١: ١٣٧.

ثمّ أنّه بعدما بيّن كيفيّة حِفظِ رابطةِ الوِداد بين خَلْقِه، وهو بِبَذْلِ المالِ وحُسْنِ الكَلام والأخلاق، بيّن ما بِهِ يُحفَظ الرَّبطُ بين العَبْدِ وذاتِه المقّدسة، وهو بالعِبادات البدنيّة والماليّة:

أمّا البدنيّة، فلّما كان أهمّها الصّلاة، قال: ﴿وَأَقِيمُوا ٱلصَّلاَةَ﴾ بحِفْظِ مَواقيتِها وإتمامِ رُكوعِها وسُجودِها وأداءِ حقوقها وشرائطها.

وأمّا الماليّة، فلّما كان أهمّها الزّكاة الواجبة، قال: ﴿وَآتُوا ٱلزَّكَاةَ﴾ وفيه دلالةٌ على أنّ المُراد من الإحسانِ بذي القُربىٰ واليَتامى والمَساكين، غير الزّكاة.

ثمّ لمّا كان بيانُ هذِه التّكاليف التي هي من المُحسّنات العقليّة وأخذ الميثاق على العمَل بها نعمةً من الله عليهم حيث إنّه تربيةٌ وهدايةٌ، ذمّهم بأنّهم أساءوا على أنفُسِهم بجَهْلِهم وعدَم تَلَقّيهم هذه النِعمَة العَظيمةِ بالقَبول بقوله: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ﴾ أيّها اليَهود عن الوَفاء بالعَهْدِ الذي أدّاه إلَيكُم أسلافُكم ﴿إِلّا قَلِيلاً مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ﴾ عن العَهْدِ غير مُعتَنِينَ به.

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَاتَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَاتُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ * ثُمَّ أَنْتُمْ هٰؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقاً مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالإِثْمِ وَٱلْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَىٰ تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذٰلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ وَمَا ٱللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ[٨٤و ٨٥]

ثمّ بعد المِنّةِ عليهم بنِعمَةِ هِدايَتِهم إلى الأعمالِ الحَسَنةِ، بيَّنَ مِنّتَهُ عليهم بنِعمَةِ نَهْيِهم عن الأعمالِ القبيحةِ التي أقبَحُها الإضرارُ بالمُرتَبطِينَ إليهم بالنَّسَبِ والدّين، فإنّ جميع المُنتَسِبين بالنَّسَبَيْنِ، بمَنزِلَةِ شَخصٍ وَاحِدٍ، والإضرارُ علَيهِم أقبَحُ من الإضرار على النَّفْسِ، بقوله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ﴾ والعَهْدَ الأكيدَ مِنكُم حيثُ حَكَمْنا عليكم التزمتم بإيمانِكم بالعَمَلِ به، وهو أنّه ﴿لَا تَسْفِكُونَ﴾ وَلَا تُهرِقُون، ظُلْماً ﴿دِمَاءَكُمْ﴾ وَلَا تَقتُلون بعضَكم بَعضاً ﴿وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ﴾ أي بعضَكم بَعْضاً.

﴿مِنْ دِيَارِكُمْ﴾ فإنّ سَفْكَ الدِّماء وإخراجَ المؤمنين مِن دِيارِهم من أشَدّ الظُّلْمِ وأقبَحِ الفَساد.

﴿ثُمَّ﴾ بعد الميثاق ﴿أَقْرَرْتُمْ﴾ والتَزَمْتُم به عند أنفُسِكم ﴿وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ بذلِك الالتِزام والعَهْد

على رؤوس الأشهاد.

﴿ثُمَّ أَنتُم﴾ أيّها اليَهود الحاضِرون ﴿هَٰؤُلَاءِ﴾ المُلتَزِمونَ بمِيثاق اللهِ وعَهْدِه المؤكّد، المُقِرّونَ به، الشاهِدُونَ عليه، والآنَ نَقَضتُموه لِخُبثِكُم وطُغيانِكُم، حيث إنكم ﴿تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ﴾ وتُهرِقوَن دِماءَ بعضِكم في الحروب مع أنّها كَدِمائِكُم ﴿وَتُخْرِجُونَ فَرِيقاً مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ﴾ قَهراً عَلَيْهِم و﴿تَظَاهَرُونَ﴾ أنتُم وأعداؤهم من المُشركين، أو أنتُم أنفُسُكم تتَعاوَنون ﴿عَلَيْهِمْ﴾ مُتَلَبِّسِينَ ﴿بِالإِثْمِ وَٱلعُدْوَانِ﴾ من القَتْلِ والإخراجِ، وفيه دلالةٌ على حُرمةِ الإعانةِ على الظُّلْمِ والعِصْيانِ.

﴿وَإِنْ﴾ كانَ الفريقُ المُخرَجون ﴿يَأْتُوكُمْ﴾ بأن جاءَ بِهِمُ الأعداءُ إليكم، حال كَونِهم ﴿أُسَارَىٰ﴾ ومَشْدودِينَ بقَيْدِ الأعداءِ ﴿تُفَادُوهُمْ﴾ وتُعطُوا العِوَض عنهم من أموالِكُم لتُخَلِّصوهُم مِن الأسرِ ﴿وَهُوَ﴾ أي الشأنُ أو الإخراجُ ﴿مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ﴾ تبيين لِمَرْجِع ضَميرِ الشّأنِ والقِصّة،أو تأكيدٌ له.

ثمّ أنكَر عليهم بقوله: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ﴾ أيّها اليَهود ﴿بِبَعْضِ ٱلْكِتَابِ﴾ مِن وُجوبِ التَّفْدِيَةِ، وتَعْمَلونَ به ﴿وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ آخَرَ مِن حُرْمَة القَتْلِ والإخراجِ، مع أنّ قضيّة الإيمانِ بالكِتابِ، الإيمانُ بِكُلّه، لأنّ كلَّه من عند الله ﴿فَما جَزاءُ مَن يفعَل ذٰلِكَ﴾ التَبعيض في الإيمان والكُفر بالكِتاب ﴿مِنْكُم﴾ يا مَعْشَرَ اليَهود ﴿إلّا خِزْيٌ﴾ وذُلٌّ مع الفَضيحَةِ ﴿فِى ٱلحَيَاةِ ٱلدُّنْيا﴾ مِن القَتْل والأسرِ والإجلاء [عن] الوَطن وضَرْب الجِزْيَةِ عليهم.

نُقِل أنّ الله أخَذ على بني إسرائيلَ في التّوراة أ، لا يَقتُل بعَضُهم بعضاً، ولا يُخرِج بعضُهم بعضاً مِن ديارهم، وأيّما عبد أو أمة وجَدتُّموه من بني إسرائيل فاشترُوه وأعتقوه، وكانت قُرَيْظَةُ والنَّضِيرُ أخَوين، وكَذا الأوسُ والخَزْرَجُ، وهم أهل شِرْكٍ يعبُدون الأصنامَ ولا يَعرِفون القيامَةَ والجنّةَ والنّارَ والحَلال والحَرام، فافترَقوا في حَرْبِ شمر، ووقَعت بينهم عداوةٌ، فكانت بَنو قُرَيْظَة معينة للأوس وحُلفائهم، والنَّضِير معينة للخَزْرَج وحُلفائهم، فكانوا إذا خرَجتِ الأوسُ والخَزْرَجُ للقِتال خرَجتَ بَنو قُرَيْظَة مع أوس، والنَّضِير مع خَزْرَج، فَظَاهَروا حلفاءهم. وإذا غلَبوا خرّبوا دِيارَهم، فإذا انقَضت الحَربُ افتَدَت قُرَيظَة ما كان في أيدي خَزْرَج منهم، وافتَدَت النَّظِير ما كان في أيدي الأوسِ منهم من الأسارىٰ. فَعَيَّرَتْهُم العَربُ بذلك، فقالوا: كيف تَقتُلونَهم و تفادونهم؟! قالوا: اُمِرنا أن نَفْدِيَهُم، وحُرِّمَ

علينا قِتالهم. قالوا: فَلِمَ تُقاتِلونَهم؟ قالوا: إنّا نَسْتَحيِي أن نستَذلّ حُلَفاءنا[1].

﴿وَ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ﴾ لأنّ عِصْيانَهم ـ وهو الكُفرُ ـ أشَدُّ المَعاصي، ولا يُنافي ذلك كون عَذاب مَن هو أكفَر منهم[2] كالدَّهْرِيّةِ أشَدّ من عَذابهم، لتَفاوُتِ مَراتِب الأشَدِّيّة ﴿وَمَا ٱللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ لأنّ الغَفْلَةَ مُمتَنِعةٌ عليه، فبِقُدرَتِه الكاملة واستِحقاقكم الكامِل يُجازيكم على أعمالِكم.

أُوْلٰئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا ٱلْحَيَاةَ ٱلدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ[٨٦]

ثمّ أعرَض سبحانَه عن مُخاطبَتِهم، وأعلنَ في النّاس بِذَمّهم بقوله: ﴿أُولٰئِكَ﴾ الجَماعةُ المَذمّون بغايةِ الذَّمِّ، هم ﴿ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا﴾ واستَبْدَلوا، واختاروا ﴿ٱلْحَيَاةَ الدُّنيا﴾ ومَتاعَها الدنيّة الزائلة ﴿بِالآخِرَةِ﴾ وبِعوَضِ نِعَمِها الدائمة، وآثروا اللذّات الفانية على الجنّة وحُظوظها الباقية ﴿فَلَا يُخَفَّفُ﴾ إذَن ﴿عَنْهُمُ ٱلعَذَابُ﴾ لا كيفيّةً ولا مدّةً ﴿وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾ مِن أحَدٍ، وَلا يُعاوَنون على دَفْعِه.

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنْفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ * وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ ٱللهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلاً مَا يُؤْمِنُونَ * وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ ٱللهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ ٱللهِ عَلَى ٱلْكَافِرِينَ[٨٧ ـ ٨٩]

ثمّ ذكّرهم الله نعمةً أُخرى وكُفرانَهم لها بقوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا﴾ وأعطَينا ﴿مُوسىٰ ٱلكِتَابَ﴾ جُملةً واحِدةً ﴿وَقَفَّيْنَا﴾ وأتبعْنَاهُ ﴿مِنْ بَعْدِهِ بالرُّسُلِ﴾ يَتْبَعُ بعضُهم بعضاً، والشريعةُ واحِدةٌ إلى زمانِ

---

١. تفسير أبي السعود ١: ١٢٥، تفسير روح البيان ١: ١٧٥.
٢. كذا، والقياس: أشدّ كفراً منهم.

عيسى عليه السلام ﴿وَآتَيْنَا عِيسَى ابنَ مَرْيَمَ﴾ الآيات ﴿الْبَيِّنَاتِ﴾ والمُعجزات الباهِرات، وإفراد عيسى عليه السلام بالذِكرِ بعدَ الرُسُلِ؛ لاستِقلاله بالشّريعة، فإنّ شريعتَه ناسِخَةٌ لشَريعةِ موسى عليه السلام.

في وجه تسمية جبرئيل عليه السلام بروح القدس

﴿وَأَيَّدْنَاهُ﴾ وأعنّاه ﴿بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ قيل: هو جَبْرَئيل عليه السلام[1]. حيث إنّه خُلِق بنَفخِه ورُبِيّ بتَربيتِه ورُفِع إلى السّماء معه.

واطلاقُ الرّوح على جَبْرَئيل عليه السلام لأنّه واسِطةُ إفاضَةِ العِلْمِ الذي به حَياةُ القُلوب، ولذلك سُمّيَ القُرآنُ من بين الكُتب السّماويّة بالروحِ؛ لاشتِماله على المَعارِف الإلٰهيّة بمِقدارٍ لا يتحمّل فوقه البَشَر، وعلى علومٍ يحتاج إليها الخَلائقُ إلى يوم القيامة.

قيل: إنّ إضافةِ الرّوح إلى القُدُسِ إضافةُ المَوصوفِ إلى الصِفَة[2]، والمعنى: الرّوحُ المُقدّسة من الذّنب.

ثمّ بعد ذِكْرِ النِعَم العظيمةِ عليهم ذمّهم بكُفْرانِها، وقال تقريعاً وتَوبيخاً لهم: ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ﴾ يا بني إسرائيل ﴿رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمُ﴾ وأتاكم بعهودٍ وأحكامٍ تُخالِفُ مَيْلَ خاطِركم من وجوبِ اتّباع الكامِلين وبَذْلِ الأنفُسِ والأموالِ لِنُصرَةِ الدّينِ، والإيمان برِسالَةِ خاتَم النّبيّين صلى الله عليه وآله ﴿اسْتَكْبَرْتُمْ﴾ واستَثْقَلتُم ما جاءكم به أو أخذَكم الكِبْر ﴿فَفَرِيقاً﴾ من الرُّسُلِ ﴿كَذَّبْتُمْ﴾ كموسى وعيسى ﴿وَفَرِيقاً﴾ آخَر منهم كُنتم ﴿تَقْتُلُونَ﴾ كزَكَرِيّا ويَحيىٰ، كما أنّكم كذّبتُم محمّداً صلى الله عليه وآله وأرَدتُم قَتْلَه. قيل: سَمّوه في خيبر.

وروي عنه صلى الله عليه وآله قال عند موته: «مازالت أكلَةُ خَيبرٍ تُعاوِدُني»[3].

﴿وَقَالُوا﴾ كِنايةً عن نِهايَةِ تأبّيهم عن الايمان ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ ومُغَشّاةٌ بأغشيةٍ مانِعَةٍ من دُخولِ ما جاء به محمّد صلى الله عليه وآله فيها، فَلا نَفْهم ما يقول. فردّ الله عليهم بأنّ قلوبَهم لم تُخلَق كذلك ﴿بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ وخَذَلَهم ﴿بِكُفْرِهِمْ﴾ باللهِ ورَسولِه، فأبطَل استِعدادَهم.

أو المُراد: أنّ قُلوبَنا أوعيةُ العِلْمِ، ومع ذلك لا نَرى لك خبَراً في الكتُب السّماويّة، ولا على لسانِ أحدٍ. فرَدّ الله عليهم بقوله: ﴿بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ وأبعَدهم عن رحمته بسبَبِ كُفرانِهم النِعْمَة ﴿فَقَلِيلاً مَّا﴾ أي إيماناً قليلاً ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ أو ببعضٍ قليلٍ في غايَةِ القِلّة من أحكام الله يُصَدّقون ويلتَزِمون. قيل: أراد

---

١. التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام: ٣٧١/٢٦٠.

٢. تفسير الجلالين ١: ١٣.

٣. تفسير الرازي ٣: ١٧٨، تفسير أبي السعود ١: ١٢٧.

بالقِلَّةِ العَدَم[١].

﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ﴾ ونَزَلَ على هؤلاءِ الحاضرين ﴿كِتَابٌ﴾ عَظيمُ الشّأنِ، وهو القُرآن ﴿مِنْ عِنْدِ اللهِ﴾ بشَهادَةِ أنّه ﴿مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ﴾ مِن التَوراةِ التي بيّن فيها أوصاف محمّد ﷺ من أنّه نبيٌّ اُمّيٌّ مِن وُلْدِ إسماعيلَ، حتّى كانُوا يَعرِفونَه كما يعرِفون أبناءهم.

﴿وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ﴾ أن يظهَر محمّد ﷺ بالرسالة ﴿يَسْتَفْتِحُونَ﴾ من الله ويسألونه الفَتْحَ والظَفَر به ﴿عَلَى الَّذِينَ كَفَروا﴾ وكانَ الله يُجيبُهم ويفتَح لهم، أو المُراد أنّهم يُعرِّفون المشركين أنّ الله يبعَث منهم نبيّاً وقد قَرُب زَمانُه ﴿فَلَمّا جَاءهم﴾ محمّد ﷺ وهو ﴿مَا عَرَفُوا﴾ بنُعوتِه وعَلائِمه ﴿كَفَرُوا بِهِ﴾ وجحَدوا نبوّتَه حَسَداً ﴿فَلَعْنَةُ اللهِ عَلَى الكَافِرِينَ﴾ به.

بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُروا بِمَا أَنْزَلَ اللهُ بَغْياً أَنْ يُنَزِّلَ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُو بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ [٩٠]

ثمّ بالغَ في ذمّهم وتَعييبِهم على فِعْلِهم من الكُفْرِ بنبوّة محمّد ﷺ بقوله: ﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوا بِهِ﴾ مِن الهَدايا والرئاسة الباطلة ﴿أَنْفُسَهُمْ﴾ وأعرَضوا عن النَفْعِ الدائِم، ورَضُوا بالعَذابِ الدائم لها بعِوَض متَاع الدُنيا الفانية.

وقيل: إنّهم لمّا تَملّكوا أنفُسَهم وخَلّصوها من تَبَعيّةِ النبيّ ﷺ بعِوَضِ كُفْرِهم بنبوّته ﷺ فكأنّهم اشترَوا أنفُسَهم.

ثمّ إنّه تعالى فَسّر ما اشتَرَوا به بقوله: ﴿أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللهُ﴾ من القرآنِ المُستَلزِم للكُفْرِ بنبوّة محمّد ﷺ، كما أنّ الإقرارَ بأنّه من الله إقرارٌ بنبوّة محمّد ﷺ.

ثمّ بيّن أنّ كُفرَهم لم يكن جَهْلاً وقُصوراً، بل كان ﴿بَغْياً﴾ وحَسَداً على ﴿أَنْ يُنَزِّلَ اللهُ﴾ نَصيباً ﴿مِنْ فَضْلِهِ﴾ وهو النبوّة والكِتاب ﴿عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِن عِبَادِهِ﴾ ويَختار من بَريّتِهِ وهو محمّد ﷺ الذي أبانَ بالقرآنِ نبوّته، وأظهَر به آيَتَه.

وعن (الكافي) و(العياشي): عن الباقر عليه السلام قال: «بِما أنزَل الله في عليّ بَغْياً»[٢] الحديث، وهذا تاويلٌ

١. تفسير أبي السعود ١: ١٢٨.

٢. الكافي ١: ٢٥/٣٤٥، تفسير العياشي ١: ١٧٥/١٤٣.

وبَطْن.

﴿فَبَاءُو﴾ ورَجَعوا مُلْتَبِسين ﴿بِغَضَبٍ﴾ من الله عليهم حين جحَدوا نبوّة محمّد ﷺ كائن ﴿عَلَىٰ غَضَبٍ﴾ من الله عليهم قَبْلَه حين أنكَروا نبوّة عيسى عليه السلام فصاروا مُستَحقّين اللعنة مرادفة اللعنة حيث اقترَفوا كُفراً إثْرَ كُفر.

﴿وَلِلْكَافِرِينَ﴾ باللهِ ورُسُلِه، كانوا يهوداً أو غيرهم بسبَب كفرِهم ﴿عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ حيثُ أهانوا الله بمُعارَضَتِهِ ورُسُلِه بالتكذيبِ، فناسَب أن يشتَمِل عذابُهم على نِهايَةِ الإهانَةِ زائِداً على ما يُلازم مُطلَق العَذاب.

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ ٱللهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقاً لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ ٱللهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ [٩١]

ثُمّ بالَغ سبحانه في تَوبيخ اليهود بقوله: ﴿وَإِذَا قِيْلَ لَهُمْ﴾ نُصْحاً ومَوعِظةً ﴿آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ ٱللهُ﴾ على محمّد ﷺ من القرآن ﴿قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا﴾ مِنَ التّوراة ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ﴾ وما سِواه من الكتُب السماويّة الّتي أشرَفُها القرآن، ولا يؤمنون به ﴿وَ﴾ الحال أنّه ﴿هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ النازِلُ من الله، والناسِخ للتّوراة، حال كونه ﴿مُصَدِّقاً لِمَا مَعَهُمْ﴾ من التّوراة التي بشّرت بمَجيىء محمّد ﷺ بالرسالة والكتاب.

ولمّا كانوا كاذِبين في دعوى الإيمان بها، ردّ الله عليهم بقوله: ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمّد رَدّاً لِدَعواهُم الإيمانَ بالتّوراة ﴿فَلِمَ﴾ كُنْتُم ﴿تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ ٱللهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ بالتّوراة، فإنّ التّوراة حَرّمت قتل الأنبياء، ولابدّ أن يكون قولُ المُؤمنِ وفِعلُه مُوافِقاً.

عن العياشي: عن الصادِق عليه السلام: «إنّما نزَل هذا في قومٍ [من اليهود] كانوا على عهد رسول الله ﷺ لم يقتُلوا الأنبياءَ بأيدِيهم، ولا كانوا في زَمانِهم، وإنّما قَتَل أوائِلُهم الذين كانوا من قَبْلِهم[١]، فجعَلهم الله منهم، وأضاف إليهم فِعْلَ أوائِلهم بما تَبِعوهم وتوَلّوهم»[٢].

---

١. زاد في المصدر: فنزلوا بهم اولئك القتلة.

٢. تفسير العياشي ١: ١٧٧/١٤٣.

وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ * وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ [٩٢ و ٩٣]

ثمّ أنّه لمّا كانت عِبادَتهم العِجلَ واتّخاذه إلـهاً من أقبَحِ أعمالِهم، وفيها نهاية فَضيحتِهم وظُهور كَمالِ حَماقتِهم كرّر الله ذِكرَه بقوله: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾.

ويمكن أن يكونَ تكرارُه وتكرارُ أخذ الميثاق ورَفْعِ الطُّورِ والأمرِ بأخذِ ما في التَّوراة من الأحكام بقوله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾ وَيَدٍ ﴿وَٱسْمَعُوا﴾ سَماعَ قَبولٍ وطاعةٍ؛ تَوْطِئةً لحِكاية قَولِهم الشّنيع بقوله: ﴿قَالُوا﴾ جَواباً: ﴿سَمِعْنَا﴾ قولَك ﴿وَعَصَيْنَا﴾ أمرَك، وليبان رُسوخِ حبِّ العِجْل في قلوبهم بقوله: ﴿وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾ قيل: إنّهم بسبَبِ كُفرهم أُمِروا بِشُرْبِ الماء الذي ذُرّيت فيه سُحالة[1] العِجْل حتّى وصَل ما شَرِبوه إلى قُلوبهم، حتّى تداخلَها حبّه، ورسَخ فيها صورته لفَرْطِ شَغَفِهم به.

نُقل أنّ موسى عليه السلام لمّا خرَج إلى قَومِه أُمِر أن يُبْرَدَ العِجْل بالمِبْرَد ثم يُذَرّىٰ في النَّهر، فلم يَبْقَ نَهرٌ يومئذٍ إلّا وقَع فيه منه شيءٌ ثمّ قال لَهُم: إشربوا منه، فمَن بقي في قَلبِه شيءٌ من حُبّ العِجْل ظهَرت سُحالة العجل على شارِبه[2].

وروي عن الباقر عليه السلام قال: «لمّا ناجىٰ موسىٰ عليه السلام ربّه، أوحى الله إليه: يا موسى، قد فَتَنْتُ قومَك. قال: بماذا يا رب؟ قال: بالسّامريّ. قال: وما [فعل] السّامريّ؟ قال: قد صاغَ لهم من حُليّهم عِجْلاً.

قال: يا ربّ، إنّ حُليّهم لا يحتمل أن يُصاغ منه غَزال أو تِمثال أو عِجْل، فكيفَ فتَنْتَهُم؟ قال: إنّـه صاغَ لهُم عِجْلاً، فَخارَ.

قال: يا ربّ ومَن أخارَه؟ قال: أنا. فقال عندَها موسى عليه السلام: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ﴾[3].

---

١. سُحالة الشيء: بُرادته، وهو ما يتساقط من الحديد أو نحوه في أثناء برده.
٢. تفسير روح البيان ١: ١٨٣.
٣. الأعراف: ١٥٥/٧.

قال: فلمّا انتَهىٰ موسىٰ عليه السلام إلى قَومِه ورَآهم يَعبُدون العِجْلَ، ألقىٰ الألواحَ من يَدِه فكسّرت».

قال أبو جعفر عليه السلام: «كان ينبَغي أن يكونَ ذلك عند إخبارِ اللهِ تعالى إيّاه. قال: فعمَد موسىٰ عليه السلام فبرد العِجْلَ مِن أنفهِ الىٰ طرَفِ ذَنَبه، ثمّ أحرَقه بالنّارِ فَذَرّهُ في اليَمّ. قال: فكان أحدُهم ليقَع في الماء وما به [إليه] من حاجةٍ، فيتَعرّض بذلِك للرماد[1] ويشربُه، وهو قول الله تعالى: ﴿وَأُشْرِبُوا فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾»[2].

أقول: ظاهِرُ الرّواية أنّ حُبّهم للعِجْلِ صار سبَباً لشُربِهم من الماء، ويُمكن كَون حُبّ العِجْل سبَباً للشُّربِ، ثمّ صارَ الشُّربُ سبَباً لرُسوخِ حُبِّه وَثباتِه في قُلوبِهم.

ثمّ لمّا كان ارتِكابُهم هذه القبائحَ مُبطلاً لادّعائهِمُ الإيمانَ بالتّوراةِ وبموسىٰ وشَريعَتهِ؛ أمَر الله نَبيَّهُ بتَقريعِهم، بقوله: ﴿قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ﴾ وساءَ ما يَبْعَثُكم إليه ﴿إيمانُكُم﴾ بالتّوراةِ من فِعلِ هذه القبائح، ومِن الكُفرِ باللهِ واليَومِ الآخِرِ وبرِسالتي ﴿إن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ بِها.

قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ عِنْدَ ٱللهِ خَالِصَةً مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا ٱلْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَداً بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَٱللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ [٩٤و٩٥]

ثمّ لمّا كانَ مِن عقائدهِم السّخيفةِ ودَعاويهم الباطلةِ أنّ الجنّة ونَعيمَها فـي الآخِرةِ خـالِصةً لهـم ومُختَصّةً بِهم لادِعائهم أنّهم أولياءُ اللهِ المُخلِصون وعِبادهُ الصّالِحون، ولذا قالوا: ﴿لَنْ يَدْخُلَ ٱلجَنَّةَ إلّا مَنْ كَانَ هُوداً﴾[3] فرَدّ الله عليهم بقوله: ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمّد: ﴿إِنْ كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ﴾ مِن جَنّتِها ونَعيمِها ﴿عِنْدَ ٱللهِ خَالِصَةً﴾ ومُختَصّةً ﴿مِنْ دُونِ﴾ سائرِ ﴿ٱلنَّاسِ﴾ قيل: المُـراد مـن النّـاس محمّد صلى الله عليه وآله وأهل بيتهِ وأصحابه[4].

﴿فَتَمَنَّوُا ٱلْمَوْتَ﴾ الذي به تَصِلونَ إليها لقِلّةِ نِعَمِ الدّنيا بالنّسبَةِ إلى نِعَمِ الآخِرَة، مع كونِ نِعَمِ الدّنيا مُنَغّصةً مَشوبةً بالآلامِ والمَكارِه بخِلاف نِعَم الآخِرَة، فكلّ مَن أيْقَن بفَلاحِه ونَجاحِه، لابدّ له من أن يشتاقَ إلى المَوتِ ويتمَنّاهُ، كما قال أميرُ المؤمنين عليه السلام: «واللهِ لابنُ أبي طالب آنَس بالمَوتِ من الطّفلِ

---

١. في النسخة: بذلك إليها.
٢. تفسير العياشي ١: ١٧٨/١٤٤.
٣. البقرة: ١١١/٢.
٤. تفسير الصافي ١: ١٤٨.

بثَدْيِ أُمّه»[١].

وقال عمّار يوم صفّين:

اليومَ ألقي الأحبّة　　　محمّداً وحِزبَه[٢]

عن الصادق عليه السلام: «سُئل أميرُ المؤمنين عليه السلام: بماذا أحببْتَ لِقاءَ ربّك؟ قال: لمّا رأيتُه قد اختارَ لي دينَ ملائكتِه ورُسُلِه وأنبيائِه، عَلِمتُ بأنّ الذي أكرَمني بهذا ليس يَنساني، فأحبَبْتُ لِقاءه»[٣].

فمَن كان صادِقاً في الحُبّ لا محالةَ يتمنّى لِقاء الحَبيبِ، ولذا قال تعالى: ﴿إنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في دَعوى حُبّكم لله وتَولّيكم إيّاه واختِصاصِكم بالجنّة ونَعيمِها. ثمّ الظاهر أنّ المُراد بالتمنّي، التَمنّي القَوليّ، كقولِ: ربّنا أمِتْنا أو عَجِّلْ في وَفاتِنا وأمثال ذلك، دون التَمَنّي القَلبيّ الذي لا يطّلِع عليه أحد.

روي عن النبيّ صلّى الله عليه وآله [أنه] قال لهم بعد ما عرَض هذا عليهم: «لا يقولُه أحدٌ منكم إلّا غَصّ بِريقِه فمات مكانه» وكانت اليهودُ علماءَ بأنّهم كاذِبون، وأنّ محمّداً صلّى الله عليه وآله وأصحابَه هم الصادِقون، فلم يجترِئوا أن يَدعوا به[٤].

شبهة ورفعها

إن قُلتَ: ما الدّليل على أنّه ما وجَد منهم هذا القَول؟

قلتُ: لو قالوا ذلِك لنُقِل إلينا نَقْلاً مُتَواتِراً، لأنّه أمرٌ عظيمٌ، لأنّه بقَولِهم ما يُشعِر بالتَمَنّي، كان النبيّ مَحجوجاً، وكان يُبطِل دَعواه ونُبوّته، وبعَدَمِه يُثبِت صِحّة نبوّته، وما كان كذلك كان من الوقائع العظيمة، فوجَب أن يُنقَل نَقْلاً مُتواتِراً.

وأيضاً لا يُمكن أن يتحدّىٰ النبيُّ صلّى الله عليه وآله الذي كان أعقلَ من جميع أهلِ العالَم بالإخبارِ بعَدم وقوعِ أمرٍ جَزْماً إلّا بإخبارِ الله بعَدمِ وقوعِه، ولا يجوز أن يُخبِرَ بأمرٍ لا يأمَن ولا يثِق بتَحقُّق ما أَخبر بِه، مع أنّه ورَدت رواياتٌ كثيرةٌ متظافِرةٌ بأنّهم ما قالوا، ولو قالوه لَماتوا مَقاعِدَهم ورأوا مَقاعِدَهم من النّار، بل قيل إنّ هذا الإخبار بلَغ مبلَغ التَواتُر.

وهذا من الأدلّة الواضحة على النبوّة، حيث أخبَر عن جَزْمٍ بأنّهم لا يقولون كلمةً دالّةً على تَمنّي المَوت مع سُهولتها عليهم، بل أخبَر بأنّهم لا يقولونها أبدَ الدَهْرِ، بقوله: ﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَداً بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ من الكُفْرِ والمَعاصي.

---

١. نهج البلاغة: ٥/٥٢.　٢. وقعة صفين: ٣٤١، تفسير أبي السعود ١: ١٣٢.　٣. الخصال: ١/٣٣.
٤. التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام: ٢٩٤/٤٤٣.

وروي عن (تفسير الإمام) وعن ابن عبّاس: أنّ المُراد بتَمَنّي المَوت أن يَدعو الفَريقانِ بالمَوتِ على الكاذِب مِنهُما فيكون نَظيرَ المُباهلةِ[1]. وهذا خِلافُ المَشهور بين المُفسّرين.

روي عن نافع أنّه جلَس إلينا يهوديّ يُخاصِمُنا، فقال: إنّ في كتابِكُم ﴿فَتَمَنَّوا الْمَوْتَ﴾ وأنا اتمنّى، فما لي لا أموت؟ فسَمِع ابنُ عُمَر هذا فدخَل بيتَه وأخَذ السّيفَ ثمّ خرَج، فَفرّ اليهوديّ حين رآه. فقال ابنُ عمر: أما والله لو أدرَكتُه لضَربتُ عُنقَه، توهّم هذا الجاهِلُ أنّه لليَهودِ في كلّ وقتٍ، إنّما هو لأولئك الذين يُعانِدونَه ويَجْحَدونَ نبوّتَه بعد أن عَرفوه[2].

إن قيل: إن المؤمنين أجمَعوا على أنّ الجنّة للمؤمنين دون غَيرِهم، ثمّ ليس أحَد منهم يتَمنّى المَوت، فكيف وجه الاحتِجاج على اليهود؟

قلتُ: إنّ المؤمنينَ لم يَدّعوا أنّهم أبناءُ اللهِ وأحِبّاؤه، وأنّ الجنّةَ خالِصةٌ لكلّ واحدٍ منهم كما أدّعاها اليهود.

ثمّ بعد المَحاجّةِ عليهم وتَبْكيتِهم، هدَّدَهم بقوله: ﴿واللهُ عَلِيمٌ بالظّالِمِينَ﴾ على أنفُسِهم بالكُفرِ والطُغيان، لا يَخفى عليه سوءُ حالِهم وشَناعةُ أعمالِهم، فيُجازيهم بأسوأ مُجازاة.

وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَٱللهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ[٩٦]

ثمّ أخبَر الله بأنّهم مأيوسون عن نَعيم الآخرةِ بقوله: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ﴾ طويلةٍ في الدُّنيا، بَل ﴿وَ﴾ أحرَص عليها ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ باللهِ ولَم يؤمنوا بالمَعادِ، فإنّهم لِزَعْمِ أنّ الدُّنيا جَنّةٌ لهم، يكونون أكثَر حبّاً للحياةِ وأشدّ حِرصاً على التعيُّش فيها.

وهؤلاء اليهود مع اعتِقادهم بالمَعادِ والجنّةِ، وادّعائهم أنّها خالِصةٌ لهم، لعِلمهم بأنّهم مَحرومون عن الجنّةِ ونَعيمِها وصائرونَ إلى النّارِ وأشَدّ العَذابِ بسبَبِ وضوحِ كُفرِهم عِندَهم وعِنادهم للحقّ، يكونونَ أحرَص على التعيُّشِ في الدُّنيا من المُشرِكين بحيث: ﴿يَوَدُّ اَحَدُهُمْ﴾ ويتَمنّى ﴿لَوْ يُعَمَّر﴾ فيها ﴿اَلْفَ سَنَةٍ﴾ قيل: تخصيصُ ألف سنَة بالذّكر لأنّ عادَة المَجوس القائلين بالنّور والظّلْمَة أنّهم

---

١. تفسير الرازي ٣: ١٩١، تفسير ابن كثير ١: ١٣٢، التفسير المنسوب إلى الامام العسكري: ٤٤٣.

٢. تفسير روح البيان ١: ١٨٤.

عند العِطاس يقولون: عِشْ ألفَ سنَةٍ، أو ألفَ نَوْروزٍ[١].

﴿وَمَا هُوَ﴾ أي التَّعميرُ الطَّويل ﴿بِمُزَحْزِحِهِ﴾ ومُباعِده ﴿مِنَ ٱلعَذَابِ اَنْ يُعَمَّرَ﴾ لأنّ العُمرَ الطَّويل بعد انقِضائه كطَرْفةِ عَينٍ، ثمّ بعدَه يكونُ العَذابُ الدائِم.

﴿وَٱللهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ في أعمارِهم فيُشدِّد عليهم العَذاب، فيكون طولُ العُمُرِ شرّاً لهم، حيث لا يَنالون فيه إلّا زِيادَة الكُفرِ والطُّغيان والإثمِ والعُدوانِ فيَزداد عَذابُهم، بخِلاف أهلِ الإيمانِ فإنّهم في كلِّ ساعَةٍ من العُمرِ يكتسبون خيراً كثيراً لا يَعْلَمُه إلّا الله.

عن النبيّ ﷺ قال: «طوبىٰ لِمَن طالَ عُمرُه وحَسُن عَملُه»[٢].

قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوّاً لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللهِ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدىً وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ * مَنْ كَانَ عَـدُوّاً للهِ وَمَـلائِكَتِهِ وَرُسُـلِهِ وَجِـبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ ٱللهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ [٩٧ و ٩٨]

ثمّ أنّه لمّا كان من العقائد الفاسدة الزائغة لليهود ومن مَساوئ أقوالِهم اعتقادهم وقولهم: بأنّ جَبْرَئيل عدُو لنا؛ لأنّه أنزَل القُرآن على محمّد ﷺ ونحنُ نُعاديه، أبانَ الله سبحانه سَخافَة هذا الاعتِقاد وشَناعة هذا القَول بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمّد لهم: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوّاً لِجِبْرِيلَ﴾ ومُبغِضاً له، فإنّه مُبطل إذ لا وَجه لعُدوانهِ.

فإنْ قالوا: إنّ العَداوَة بسبَب أنّه أنْزَل القرآن عليك ﴿فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ﴾ مُتَدَرّجاً ﴿عَلىٰ قَلْبِكَ﴾ الذي هو مَوضِع فَهْمِك ﴿بِإِذْنِ ٱللهِ﴾ وبأمرِه، لا مِن قِبَلِ نَفسِه، فهو مأمورٌ وَمحسِنٌ إليهم بتَبْليغه الكِتابَ المُبين الذي يكون ﴿مُصَدِّقاً﴾ ومُوافِقاً ﴿لِمَا بَيْنَ يَدَيهِ﴾ من الكُتبِ السّماويّة ﴿وَهُدىً﴾ من الضّلالةِ ﴿وَبُشْرىٰ﴾ بنبوّةِ محمّد ﷺ وبِرَحمةِ الله وفَضْلِه ﴿لِلْمُؤمِنِينَ﴾ فيجب أن يكونَ جَبْرَئيلُ مَحبوباً مَشكوراً لا مَبغوضاً مَنفوراً.

عن القمّي ﵀: أنّها نزَلت في اليَهود الذين قالوا لرسول الله ﷺ: لو كان المَلَك الذي يأتيك ميكائيل لآمَنّا بك، فإنّه مَلَكُ الرّحمةِ وصَديقُنا، وجَبْرَئيل مَلَكُ العَذابِ وهو عدوّنا[٣].

---

١. تفسير روح البيان ١: ١٨٦.

٢. من لا يحضره الفقيه ٤: ٨٤٢/٢٨٣، تفسير روح البيان ١: ١٨٦.

٣. تفسير القمي ١: ٥٤.

أقول: الأخبارُ الدّالّة على أنّ اليهود كانوا يُظهِرون العَداوة لجَبْرَئيل كثيرةٌ من الخاصّة والعامّة، ولا بُعد فيه لكَثْرةِ جَهالَتِهم، حيث إنّهم الذين قالوا لموسى عليه السلام بعد ماراُوا الآياتِ البيّنات: ﴿اجْعَلَ لَنَا إِلَـٰهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ [1] ثمّ تَمادَوا في الجَهْل والغَوايةِ حتّى انتَهَوا إلى عِبادَةِ العِجْلِ، وكادوا أن يقتُلوا هارونَ.

وما قيل من أنّ اليَهود في الأعصارِ المتأخّرةُ منكِرون مُعانَدة أسلافِهم لجَبْرَئيل، فهو باطِلٌ مَردودٌ؛ لأنّ القرآنَ كان بمَنْظَرٍ ومسمَعٍ من أهل الكتاب من اليَهود والنّصارىٰ، ولم يُبارِزهُ أحَدٌ منهم بالرّدّ والتّكذيبِ في هذه النّسبة، وإلّا لنُقِل إلينا.

اعتراض وردّ

فإنْ قيل: نزَل القرآنُ بالاتّفاق على ظاهِرِ النبيّ صلى الله عليه وآله فكيف قال: ﴿نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾؟

قلنا: نزَل القرآنُ على ظاهِره وباطِنه، ولمّا كان نزوله على باطِنه أشرَف وأنفَع لعُمومِ الخَلْقِ؛ لأنّه بحِفْظِ قَلْبِه حُفِظَ وبقيَ بين النّاس، خَصَّه بالذُّكر كما قال في الشعراء: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ الأَمِينُ * عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُون مِنَ المُنْذِرِينَ﴾ [2]

ثمّ بعد بيان أنّه لا جِهَة لعَداوةِ جَبْرَئيل حيث إنّه عامِلٌ بأمرِ الله ومُطيعٌ لحُكمِه، بل على النّاس أن يحبّوه ويشكروه حيث إنّه واسطة لتبليغ الهداية والبشارة، هدَّد الله المُعانِدينَ له، بل مُعانِد جَميع المقدّسات بقَوله: ﴿مَنْ كَانَ عَدوّاً للهِ﴾ بأن سبَّ الله عُدواناً، أو خالَفَه، أو عانَد أولياءَه، ﴿وَ﴾ عَدُوّ ﴿مَلائِكَتِهِ﴾ المَبعوثين لنُصْرَتِهم ﴿وَ﴾ عدُوّ ﴿رُسُلِهِ﴾ المبلّغين عنه، المُخبِرين بما فيه خير العامّة وصَلاح الخَلْق في الدّنيا والآخِرة، ﴿وَ﴾ عدوّ ﴿جِبْرِيل وَمِيكَالَ﴾.

عن عِكْرِمَة: أن جبروميك وإسراف هي العَبْد بالسّريانيّة، وئيل: هو الله [3]، وتخصيصُهما بالذِكر بعد ذِكر عُمومِ المَلائكةِ لفَضْلِهما، ولِجَرَيانِ ذِكرهما بين الرّسول واليهود.

﴿فَإِنّ ٱللهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾ بعلّة كُفرِهم، وعَداوَةُ هؤلاء الكَفَرة لا تَضُرّ الله وملائكته ورُسلَه وأولياءه، وعَداوةُ الله لهم تَضُرُّهم أشَدّ الضَّرَر.

وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا ٱلْفَاسِقُونَ * أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا

---

١. الأعراف: ١٣٨/٧.   ٢. الشعراء: ١٩٣/٢٦ و ١٩٤.
٣. تفسير روح البيان ١: ١٨٨.

عَهْداً نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ[٩٩ و ١٠٠]

﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ دالّاتٍ على صِدْقِك في نُبوّتِك وفي جميعِ ما تُخبِر به، مُوَضِّحاتٍ عن كُفرِ مَن شكّ فيها ﴿وَمَا يَكْفُرُ بِهَا﴾ ومَا يَجْحَدُها ﴿إِلَّا الْفَاسِقُونَ﴾ الخارِجونَ عن طاعةِ اللهِ وولايتِه، والمُتَجاوِزونَ عن كلّ حَدّ مُسْتَحْسَن في العَقْلِ والشَّرع، فإنّ مَن يكونُ بصِفَةِ التمرّد مجترئ على الكُفرِ بالآيات.

عن ابن عبّاس رضي الله عنه: أنّ اليهودَ كانوا يستَفْتِحون على الأوسِ والخَزْرَج برَسولِ الله ﷺ قبلَ مَبْعَثِه، فلمّا بُعِث من العرَب كفَروا به وجحَدوا ما كانوا يقولون فيه، فقال لهم مُعاذ بن جَبَل: يا مَعْشَر اليَهود اتّقوا اللهَ وأسلِموا، فقد كنتُم تستَفتِحون علينا بمحمّد ﷺ ونحن أهل الشِّرك، وتُخبِرونَنا أنّه مبعوثٌ، وتَصِفون لنا صِفتَه. فقال بعضُهم: ما جاء لنا بشيءٍ من البيِّنات، وما هو بالذي كنّا نَذكُر لكُم، فأنزَل الله تعالى هذه الآية[1].

ولعلّ المُراد من الآياتِ القرآن وسائر المُعجِزات، مِثل امتِناعهم عن المُباهَلة، وعن تَمنّي المَوت، وإشباع الخَلق الكثير من الطّعام القَليل، ونُبوع الماء من بين أصابِعه، وانشِقاق القَمر، وغير ذلك.

ثمّ أنكَر عليهم كُفرَهم بالآياتِ إعظاماً له، وعطَف عليه تَوبيخَهم على نَقضِ عهد الأيمان بمحمّد ﷺ إذا ظهر، وتَعاهُدهم على إخراجِ المُشرِكين من دِيارِهم إذا هاجَر إليهم، وأن لا يُعينوا عليه أحَداً بقوله: ﴿أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْداً﴾ من العهود المَزبورة ﴿نَبَذَهُ﴾ ونقَضَهُ ﴿فَرِيقٌ مِنْهُمْ﴾ حيث كفَروا بمحمّد ﷺ ولم يؤمنوا به، وأعانوا قُرَيشاً عليه يوم الخَنْدَق، وليس هذا الفَريق قليلاً منهم ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بنبوّتِه أبداً بَغْياً وحَسَداً.

وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ[١٠١]

ثمّ أنّه تعالى بعد تَوبيخِهم على الكُفرِ بالمُعجِزات ونَقْضِ العُهود، وَبَخَهم على كُفرِهم بالتّوراةِ وسائر الكتُب السّماويّة بقوله: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ﴾ وهو محمّد ﷺ الذي هو ﴿مُصَدِّقٌ﴾ ومُطابِقٌ [في] صِفاته ﴿لِمَا مَعَهُمْ﴾ مِن التّوراة وسائر الكتُب السّماويّة ﴿نَبَذَ﴾ ورَمى

---

١. تفسير الرازي ٣: ١٩٩.

﴿فَرِيقٌ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ﴾ من اليهود ﴿كِتَابَ ٱللهِ﴾ مِن التّوراةِ وغيرها ﴿وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾ وأعرَضوا وترَكوا العمَل به ﴿كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنّ الكِتابَ كتابُ الله، وأنّ ما فيه حقّ. فكما أنّ الجَاهِلِ بأنّ التّوراةَ كِتابُ اللهِ، لا يَرى تَرْكَ العمَل به قبيحاً لا يَرى هؤلاء العالِمون بأنّ التّوراة كتابُ اللهِ تَرْكَ العمَلِ بها قبيحاً وشَيْنَها[1] على أنفسِهم، وهذا من غاية كُفرِهم وخَباثَتِهم فَمثلُهم ﴿كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً﴾[2].

وَٱتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا ٱلشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلٰكِنَّ ٱلشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ ٱشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِى ٱلْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ * وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَٱتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ ٱللهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ[١٠٢ و ١٠٣]

ثمّ ذكَر الله تعالى نوعاً آخَر من قَبائح أعمالِهم، وهو إقبالُهم إلى السِّحر وعمَلهم به بقوله: ﴿وَٱتَّبَعُوا﴾ بعد تَرْك اتّباعِ كتُب الله ﴿مَا تَتْلُوا﴾ وتقرأه ﴿ٱلشَّيَاطِيْنُ﴾ وكَفَرَةُ الجِنّ من كتُب السِّحْرِ ﴿عَلَىٰ﴾ عَهْد ﴿مُلْكِ سُلَيْمَانَ﴾ وسَلْطَنَتِه، أو افترَوه على مُلكِه بأن ألْقوا لملأ بني إسرائيلَ أن سُليمانَ بن داود عليه السلام إنّما وجَد ذلك المُلكِ بسببَ هذا العِلم.

ثمّ لمّا كانَ السِّحرُ بمَنزلة الكُفرِ في القَباحةِ والمَعْصِية نزّه الله سُبحانَه سُلَيْمَانَ عنه بقوله: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ﴾ بعَملِ السِّحْرِ ﴿وَلٰكِنَّ ٱلشَّيَاطِينَ كَفَرُوا﴾ حيث عَمِلوا بالسِّحْرِ وعلّموه النّاسَ.

ولعلّ اليَهود في زَمانِ سُلَيمان أنكَروا نبوّته، ونسَبوا جميعَ ما كان له من خَوارقِ العادةِ وتَسخيرِ الرياح وعِلْمهِ بمَنْطِق الطَّير وسائر مُعجِزاته إلى السِّحر، كما أنكَر يهودُ عصر النبيّ صلّى الله عليه وآله نبوّته، ونسبَوا الآياتِ والمُعجزات من القرآن المَجيد، وشَقّ القَمَرِ، وطاعةَ الجَماداتِ له، وتَسبيحَ الحَصاةِ في كَفّهِ وغير ذلك إلى السِّحر. وقالوا: نَحنُ أيضاً نُظهِر العَجائب بالسِّحْرِ، ونَسْتَغْني عن الانقياد لمحمّد، ولذا

---

١. كذا، والظّاهر وشينه، أي شينى الترك.

٢. سورة الجمعة: ٥/٦٢.

كفَروا بالآياتِ ونبَذوا العهودَ وَراء ظُهورِهم، فرَدّ الله عليهم بأنه ﴿ما كفَر﴾ وما سحَرَ سُلَيمَان ﴿وَلَـٰكِنَّ الشَّياطِين كفَروا﴾ إذ ﴿يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَ﴾ يُعَلِّمونَهم ﴿مَا أُنزِلَ عَلَىٰ ٱلْمَلَكَيْنِ﴾ اللَّذَين نزَلا ﴿بِبَابِلَ﴾ وهو بلَدٌ بالعِراق. وقيل: جبَل دَماوند. وقيل غير ذلك[1]، وكان اسمُ أحدِهما ﴿هَارُوتَ وَ﴾ اسمُ الآخَر ﴿مَارُوتَ﴾.

قصّة هاروت وماروت

عن الصادق عليه السلام أنه قال: «كان بعد نوحٍ عليه السلام قد كثُر السَّحَرةُ والمموّهون[2]، فبعَث الله تعالى مَلَكَين إلى نبيّ ذلك الزّمان بذِكر ما يَسْحَر به السَّحَرة وذِكر ما يُبطِل به سِحْرَهم ويَرُدّ به كَيْدَهم. فتَلقّاه النبيّ عن المَلَكَينِ وأدّاه إلى عبادِ الله بأمرِ الله عزّ وجلّ، وأمرَهم أن يَقِفوا به على السِّحر، وأن يُبطِلوه، ونَهاهُم أن يسحَروا به النّاس. وهذا كما يدلّ على السّم ما هو، وعلى ما يدفَع به غائِلة السّمّ، ثمّ يقول للمتعلّم: ذلك السّمّ، فمَن رأيتَهُ سُمّ فادفَعْ غائلتَه بكَذا، وإيّاك أن تَقْتُلَ بالسّمّ أحداً. قال: وذلك النبيّ أمَر المَلَكَين أن يَظْهَرا للنّاسِ بصورة بَشَرَيْنِ ويُعلّماهم ما علّمَهُما الله تعالى من ذلك ويَعِظاهم»[3].

عن النبيّ صلّى الله عليه وآله قال: «اتّقوا الدّنيا، فوالّذي نفسي بيَدِه إنّها لأسْحَر من هاروت وماروت»[4].

روي عن أبي محمّد عليه السلام أنّ رجُلاً قال: إنّ قوماً عندَنا يزعُمون أنّ هاروتَ وماروتَ مَلَكانِ اختارَتْهُما الملائكةُ، فلمّا كثُر عِصيان بني آدَم أنزلَهُما الله مع ثالِثٍ لهُما إلى الدّنيا، وأنّهما افْتَتَنا بالزُّهَرَةِ وأرادا الزِّنا بها، وشَرِبا الخَمْرَ، وقَتَلا النَّفْسَ المُحَرّمة، وأن الله يُعذِّبهُما ببابِلَ، وأنّ السَّحَرةَ منهُما يتعلّمون السِّحْرَ، وأنّ الله تعالى مسَخ تلك المرأةَ بالكَوْكَب الذي هو الزُّهَرَة.

فقال الإمام عليه السلام: «مَعاذَ الله عن ذلك، إنّ ملائكة الله مَعصومونَ مَحفوظونَ عن الكُفرِ والقَبائح بألطافِ الله تعالى، قال الله عزّ وجلّ فيهم: ﴿لَا يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾[5] وقال تعالى: ﴿وَلَهُ مَنْ فِى ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ﴾ يعني الملائكة ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ * يُسَبِّحُونَ ٱلَّيلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾[6] وقال في الملائكة: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ * لَا يَسْبِقُونَهُ بالقَوْلِ وَهُمْ بأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ إلى قوله: ﴿مُشْفِقُونَ﴾»[7].

---

١. تفسير أبي السعود ١: ١٣٨، مجمع البيان ١: ٣٣٨.
٢. في النسخة: والموهمون.
٣. التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام: ٤٧٣.
٤. كنز العمال ٣: ٦٠٦٣/١٨٢.
٥. التحريم: ٦/٦٦.
٦. الأنبياء: ١٩/٢١ و ٢٠.
٧. التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام: ٤٧٥. والآيات من سورة الأنبياء: ٢١/٢٦-٢٨.

وفي روايةٍ عن الرّضا عليه السلام أنّه سُئل عمّا يَرويه النّاس من أمرِ الزُّهرَة، وأنّها أمرأة فُتِن بها هاروت وماروت، وما يَرْوُونه من أمر سُهَيل وأنّه كان عَشّاراً باليَمن؟!

فقال عليه السلام: «كذَبوا في قَولِهم إنّهما كوكَبانِ، إنّهما كانتا دَابَّتَين من دَوابِّ البَحْرِ، فغَلَط النّاس وَظنّوا أنّهما الكوكبانِ، وما كان الله عزّ وجلّ ليَمْسَخَ أعداءه أنواراً مُضيئةً ثمّ يبقيها ما بَقِيَتِ السّماواتُ والأرضُ، وأنّ المَسوخَ لم تَبْقَ أكثَر من ثلاثة أيام حتّى ماتَتْ، وما تَناسَل منها شيء، وما على وجه الأرضِ اليوم مِسْخ، وإنّ الذي وقَع عليه اسم المَسوخيّةِ مِثْل القِرْدِ والخِنْزير والدُّبّ وأشباهِها إنّما هي مثل ما مسَخ الله عزّ وجلّ على صُوَرِها قوماً غَضِبَ الله عليهم ولعنهم بإنكارِهم توحيدَ اللهِ وتكذيبهم رُسُله.

وأمّا هاروتَ وماروتَ، فكانا مَلَكَيْنِ علّما النّاسَ السِّحْرَ ليَحْتَرِزوا به عن سِحْرِ السَّحَرَةِ ويُبْطِلوا به كَيْدَهُم»[1] الحديث.

ولا يَخفىٰ أنّ الرّوايات التي تكون مُوافِقة لِما اشتَهر بين العامّة، لابدّ مِن حَملِها على التقيّةِ لمُخالفَتِها الكِتابَ والعَقْلَ.

وقال بعضُ العامّة: إنّ مَدارها مارَوَته اليهود[2]. وأمّا تَوجيهها بالذي تكلّفَه الفَيض رحمه الله[3] وبعض العامّة، ففي غاية البُعد[4]. وحَملها على كَونها أسراراً لا يُناسِب رواتها كعطاء[5] وابن الكوّاء[6] لبَداهَةِ عدَم كونِهما من أهل السّرّ والفَهْم.

والحاصل: أنّ الروايات الدالّة على عِصيان المَلَكَين بالشِّرك والزنا وشُرب الخَمْر وقَتْل النَّفس ومَسْخ الزُّهَرَة، ممّا يَجب رَدّها أو ردّ عِلمها إليهم عليهم السلام لو لم يُمكن حَمْل جَميعِها على التقيّة.

﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ﴾ السِّحْرَ وإبطالَه ﴿مِنْ اَحَدٍ﴾ مِنَ النّاسِ ﴿حتّى يَقُولَا﴾ للمُتعلِّم: إعلَمْ ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ﴾ وامتِحانٌ من اللهِ للعِباد، ليعلَم من يُطيعه فيما يتعلّم بإعماله في إبطالِ السِّحر مِمَّن يَعْصِيه

---

١. عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ٢/٢٧١.
٢. تفسير أبي السعود ١: ١٣٨، تفسير روح البيان ١: ١٩١.
٣. قال الفيض رحمه الله: وأما ما كذبوه من أمر هاروت وماروت ومسخ زهرة وقصّتهم المشتهرة بين النّاس فقد ورد عنهم عليهم السلام في صحتها أيضاً روايات، والوجه في الجمع والتوفيق أن تحمل روايات الصحة على كونها من مرموزات الأوائل واشاراتهم وإنهم لما رأوا أن حكاتها كانوا يحملونها على ظاهرها كذبوها ولا بأس بايرادها وحلها فان هاهنا محلها. الصافي ١: ١٥٦ و١٦٠.
٤. تفسير روح البيان ١: ١٩١.
٥. تفسير العياشي ١: ١٨٠/١٤٥.
٦. تفسير العياشي ١: ١٨١/١٤٩.

باستِعماله في إضرار النّاس ﴿فَلَا تَكْفُرْ﴾ باستِعماله للإضرار.

﴿فَيَتَعَلَّمُونَ﴾ النّاس ﴿مِنْهُمَا﴾ أي مِنَ المَلَكَيْنِ، أو من الصِّنْفَينِ؛ مِن السِّحْرِ ما تتْلوا الشّياطِينُ ومَا أنزِل على المَلَكَيْنِ؛ الأقسامَ المُضِرّة أظهَرها وأشيَعها ﴿مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾ مِنَ الحِيَلِ والتَّمْوِيهات.

﴿وَ﴾ الحال أنّه ﴿مَا هُمْ﴾ أي السَّحَرة ﴿بِضَارِّينَ بِهِ﴾ أي بالسِّحْرِ ﴿مِنْ اَحَدٍ﴾ مِنَ العالَمين ﴿إِلَّا بِإذْنِ آللهِ﴾ وتَعليمِه أو بِسَبَبِ تَخْلِيَتِه بين السّاحر وإرادَته النّاشِئة مِن خُبْثِ ذاتِه وَعَمَلِه القَبيح، ولو شاء أن لا يَصدُر منه لأعجَزَه عنه وحالَ بينه وبينَ قَلْبِهِ وإرادته.

﴿وَيَتَعَلَّمُونَ﴾ هؤلاء اليَهود من السِّحْرِ ﴿مَا يَضُرُّهُمْ﴾ حيث إنّ ضررَه على أنفُسِهم من العقوبةِ الأُخرَوِيّةِ أشَدّ بمَراتِبَ من الضّررِ الذي يَصِل إلى المَسْحور ﴿وَلَا يَنْفَعُهُم﴾ ولا يُفيد لهم فائِدةً يَعتَدُّ بها العُقَلاء.

﴿وَ﴾ الحال أنّهم ﴿لَقَد عَلِمُوا﴾ سبب تِلاوَتِهم التَّوراة المكتوب فيها: أنّه واللهِ ﴿لَـمَنِ آشْـتَرَاهُ﴾ وعاوَض بكتُب السِّحْرِ وتَعلُّمه والعمَل به كتاب اللهِ وأحكامه ﴿مَالَهُ فِى ٱلآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾ ونَصيبٍ من رحمةِ الله، أو خلاصٍ من عِقابه ﴿وَ﴾ بالله ﴿لَبِئْسَ مَا شَرَوْا﴾ هؤلاء اليهود من العمَل بالسِّحْرِ، واستَبْدَلوا ﴿بِهِ اَنْفُسَهُم﴾ حيثُ عَرَّضوها للهَلاكِ الأبد.

وهؤلاء اليهود ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ عِلمَ اليَقينِ أنّ في هذا الاستِبدال خُسراناً ووبالاً ما فَعَلوه.

ثمّ أرشدَهم إلى التّجارة المُرْبِحة بقوله: ﴿وَلَو أَنَّهُم آمَنُوا﴾ بالنّبيِّ وانقادوا له ﴿وَآتَّـقُوا﴾ اللهَ فـي أعمالِهم بالله ﴿لَمَثُوبَةٌ﴾ وأجرٌ واصِلٌ إليهم ﴿مِنْ عِنْدِ اللهِ﴾ ولو كان أقَلّ قليل في الآخِرة ﴿خَيْرٌ لَهُمْ﴾ وأنفَع من الدُّنيا وما فيها، لبَقائِه وزواله ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ ويُدرِكون حقائِقَ الأُمور.

يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا ٱنْظُرْنَا وَٱسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ * مَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَابِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِـنْ خَـيْرٍ مِـنْ رَبِّكُمْ وَٱللهُ يَـخْتَصُّ بِـرَحْمَتِهِ مَـنْ يَشَـاءُ وَٱللهُ ذُو ٱلْـفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ[١٠٤ و ١٠٥]

ثمّ ذكَر الله تعالى في عِداد قَبائح أعمالِ اليَهود إساءتهم الأدَب بساحَةِ النبيّ ﷺ حيث كانوا يُخاطِبونَه بقَولهم: راعِنا.

قيل: كانت هذه اللفظَةُ في اصطِلاحهم بمعَنى اسمَع غير مسمع[١].

وقيل: كانت مُستَعْمَلة عِندَهم في الهُزْءِ والسُّخْرِيَة[٢].

روي أنّ سَعْد بن عُبادة سَمِعَها منهم، فقال: يا أعداءَ اللهِ عليكُم لَعنَةُ اللهِ، والذي نفسي بيدِه لئن سَمِعتُها من رجُلٍ منكم يقولُها لرسول الله ﷺ لأضرِبنَّ عُنُقَه. قالوا: أوَ لَستُم تقولونها؟ فنزلَت: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا ـ للنبيّ ﷺ ـ رَاعِنَا﴾[٣].

قيل: إنّ المؤمنين كانوا إذا سَمِعوا من النبيّ ﷺ شيئاً من العِلم، قالوا: راعِنا يا رسولَ الله، أي أنظِرنا وَتأنَّ بنا حتّى نَفهَم، فلمّا سَمِع اليهودُ ذلك من المؤمنين اتَّخذوه ذَريعةً لسَبِّ النبي ﷺ فنَهىٰ الله المؤمنين عن هذه الكلمة تعريضاً على اليهود[٤]، بقوله: ﴿وَقُولُوا ٱنظُرْنَا﴾ أي انظُر إلينا.

ثمّ وعَظهم بقوله: ﴿وَٱسْمَعُوا﴾ لِما يَحكُم به الله ويأمُركم به الرّسول ﷺ سَماعَ طاعةٍ وقَبولٍ، ولا تَكونوا كاليَهودِ حيث قالوا: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾[٥].

ثمّ هدّدهم بقوله: ﴿وَلِلْكَافِرِينَ﴾ الذين لا يَسلُكون معه مَسلَك الإعظامِ والتَّجليل، بل أهانوه بتَعريضه للسَّبِّ والاستِهزاء كاليَهود ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الآخِرة.

روي عن ابن عبّاس: أنّ الله كان يُخاطِب في التَّوراة بقوله: يا أيّها المَساكين[٦].

قيل: كرامَةُ هذِه الأُمّة اقتَضت مُخاطبتَهم بأشرَفِ الأوصاف وهو الإيمان، ولمّا خاطَب بني إسرائيل أوّلاً بقوله: يا أيّها المَساكين؛ أثبَت عليهم آخِراً المَسْكَنة بقوله: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ﴾[٧] ولمّا خاطَب أُمّة محمّد ﷺ أوّلاً بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا﴾ يُرجىٰ أن يختِم لهم بالإيمان والأمان من العَذاب والهَوان[٨].

ثمّ نبّه اللهُ الرّسولَ والمؤمنينَ بغايَةِ حسَد أهلِ الكِتاب والمُشرِكين عليهم، وشِدّة عَداوتِهم لهم بقوله: ﴿مَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَابِ﴾ من اليَهودِ والنَّصارىٰ ﴿وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ وَما يُحبّون،

---

١. تفسير الطبري ١: ٣٧٤.
٢. تفسير الرازي ٣: ٢٢٤.
٣. تفسير أبي السعود ١: ١٤١.
٤. تفسير روح البيان ١: ١٩٧.
٥. البقرة: ٢/٩٣.
٦. تفسير الرازي ٣: ٢٢٣.
٧. البقرة: ٢/٦١.
٨. تفسير الرازي ٣: ٢٢٣ «نحوه».

بل يُبغِضون ﴿أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ﴾ قَليلٍ أو كثير ﴿مِنْ رَبِّكُمْ﴾ مِن الوَحْي والنبوّةِ والآياتِ والنُّصْرَةِ على الأعداء.

أمّا أهلُ الكِتابِ فلادّعائهم أنّهم أبناءُ الأنبياءِ والناشِئون في مَهابِط الوَحْي، فهم أولى بتلِك الفَضائل من المُسلِمين الّذِينَ هم اُمّيّونَ، وأمّا المُشرِكونَ فلِغُرورِهم بالجَاه والمالِ، وظَنّهم أنّ مَن له الرئاسة الدُنيويّة أولى بالرئاسة الإلٰهيّة. ومن البَديهي أنّ الحَسَد لا أثَر له.

﴿وَٱللهُ﴾ الذي بِيَدِه كلّ خيرٍ ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ﴾ وَفَضْلِه وإحسانه ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾ مِن عِباده على حَسَبِ قابليّتِه واستِعداده ﴿وَٱللهُ ذُو ٱلفَضْلِ ٱلعَظِيمِ﴾ على نبيّه وعلى المؤمنين، ولا يَمْنَعه حَسَدُ الحاسدين.

مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ[١٠٦]

ثمّ أنّه لمّا كانَ من عَقائدهم الفاسِدة امتِناعُ وقوعِ النَّسْخِ في النُبوّاتِ والأحكامِ الإلٰهيّة، وبهذا المَبْنَى طَعنوا في دينِ الاسلامِ وقالوا: إنّ محمّداً يأمُر أصحابَه بأمرٍ ثمّ يَنْهَاهُم عنه، ويقول اليوم قولاً وفي الغَدِ يرجِع عنه[١]؛ ردَّ الله عليهم بقوله: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ﴾ برَفْعِ حُكْمِها ﴿أَوْ نُنْسِهَا﴾ برَفْعِ رَسمِها واستِلاب ذِكرِها وحِفظِها عن القُلوبِ[٢] ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ﴾ وأصلَح ﴿مِنْهَا أَوْ﴾ نَأتِ بآيةٍ ﴿مِثْلِهَا﴾ في الصّلاح والنَّفْع والحِكمة؛ لظُهور أنّ الوظائف الشَّرعيّة والأحكام الإلٰهيّة بالإضافةِ إلى الأمراض القلبيّة والرّوحانيّة، كالأدوية بالنّسبة إلى الأمراض الجِسمانيّة. فكَما أنّ نفع الأدويةِ يختَلِف باختِلاف الأمزِجَةِ والأوقاتِ، كذلك الأعمالُ والوَظائف الشَّرعيَّةُ، لبَداهَةِ اختِلافِ مَصالِحِها باختِلاف القُرونِ والأزمنةِ وتَغيير الجِهات.

في بيان جواز النسخ

إن قيل: كيف يَصِحّ النِّسيانُ في الآياتِ ومَحْوُ رَسْمِها بالكلّيّةِ مع قوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[٣]؟

قلنا: صِدقُ القضيّة الشَرطيّة لا يُلازِمُ صِدقَ طَرَفَيها، وهذا كقولِنا إنْ عُدمت هذه الشَّمس يأتِ اللهُ

---

١. تفسير الرازي ٣: ٢٢٦.

٢. في النسخة: واستلاب عن القلوب ذكرها وحفظها.

٣. الحجر: ٩/١٥.

بشَمسٍ اُخرىٰ، مع أنّه مُعارَضٌ بقوله: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰ * إِلَّا مَا شَاءَ ٱللَّهُ﴾[1].

وروي أنّ قوماً مِنَ الصَّحابةِ قاموا ليلةً لِيَقرءوا سورةً فلم يَذكُروا منها إلّا البَسْمَلَة، فغدوا إلى النبيّ ﷺ وأخبَروه، فقال ﷺ: «تِلكَ سورةٌ رُفِعت بتِلاوتها وأحكامها»[2].

وأمّا الآية فيُتمكِن أن يكون المُراد منها أنّ الله حافِظٌ له مِن تَغيير الخَلْقِ لا مِن تَغييرِ نَفسِه إذا اقْتَضَتْهُ الحِكمَةُ والمَصْلَحةُ.

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فهو قادِرٌ على تصريفِ المُكلَّف تحت مشيئته وحِكمته وحُكمِه، لا دافِعَ لِما أراد، ولا مانعَ لِما يَختار، ويُنزِلُ الخَير، ويختصّ بهِ مَن يشاء، ويَنسِخ الحُكمَ ويُبدِّل الآياتِ، ولا يُسئَل عَمّا يفعَل.

أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُ مُلْكُ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ[۱۰۷]

ثمّ قرّر سَعَة قُدرَتهِ وأنّه مُراعٍ لِصَلاحِ المؤمنينَ وخَيرِهم ما هو أنفَع بحالِهم بقوله: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ﴾ بنُورانيّة قَلبك وكَمالِ مَعرِفَتك ﴿أَنَّ ٱللَّهَ لَهُ مُلْكُ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ بالملكيّة الحقيقيّة الإشراقيّة، له التصرّف فيهما وفيما خلَق بينَهما تصرّف السُّلطان المُطلَق في مَمْلكتِه ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ﴾ ومِن ما سِواه ﴿مِنْ وَلِيٍّ﴾ وَقَيِّمٍ بالأمورِ ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ ومُعين فهو يُقلِّبكم بمَشيئتهِ ويتصرّف فيكم بإرادَتِه، فَلا ناصِرَ لكُم غيره، ولا قادرَ في الوجُود إلّا ذاته.

أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ ٱلسَّبِيلِ[۱۰۸]

ثمّ إنّه قيل: لمّا اقتَرح اليَهودُ على النبيّ ﷺ أن يُنزّل عليهم كتاباً من السّماء، كما حكى الله عنهم في سورة النِساء بقوله: ﴿يَسْئَلُكَ أَهْلُ ٱلكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَاباً مِنَ ٱلسَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ﴾[3] الآية، واقتَرح عليه المُشرِكون وقالوا: ﴿لَنْ نُؤمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ

---

۱. الأعلى: ٦/٨٧ و٧. ۲. تفسير روح البيان ۱: ۲۰۱. ۳. النساء: ١٥٣/٤.

يَنبُوعاً﴾[١] إلىٰ آخِرها؛ وَجّه اللهُ الخِطابَ إلى جَميعِهم بنَحوِ الإضرابِ عن ذكرِ سائر قَبائح أعمالِهم إلى الإنكارِ عليهم هذه الاقتِراحات بقوله: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ﴾ وهَل تَعْزِمون أَيُّها اليَهود والمُشرِكون ﴿أَنْ تَسْئَلُوا رَسُولَكُم﴾ وتَقْتَرِحوا عليه ﴿كَمَا سُئِلَ مُوسىٰ﴾ واقتُرح عليه ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ بقَولهم ﴿أَرِنَـا اللهَ جَهْرَةً﴾[٢] وقولِهم: ﴿ٱجْعَل لَنَا إِلـٰهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾[٣] فإنّ هذه الاقتِرحات لا تَكونُ إلّا من الإصـرارِ على الكُفرِ والإعراض عن الايمان.

﴿وَمَنْ يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ﴾ ويَختاره لنَفسِه عِوَضاً عنه ﴿فَقَدْ ضَلَّ﴾ وأخْطأ ﴿سَوَاءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ ووَسط الطّريق الذي يُوصِلُه إلى كلِّ خَيرٍ في الدّنيا وإلى رَحْمَةِ اللهِ ونَعيمِ الأبَدِ في الآخِرَة، وأخَذ في الطّريقِ المؤدّي إلى نِقْمَةِ اللهِ والعَذابِ الدائم.

وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِنْ عِندِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ فَاعْفُوا وَٱصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ ٱللهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ[١٠٩]

ثمّ إنّه روي أنّ فِنْحاص[٤] بن عازوراء وزَيد بن قَيس ونَفَراً من اليَهودِ قالوا لِحذَيفَةَ بنِ اليَمان وعَمّار بنِ ياسِر رضي الله عنهما بعد وَقْعَةِ اُحُد: أَلَم تَرَوا ما أصابَكُم؟ وَلَو كُنتُم على الحقّ ما هُزِمتُم، فارجِعوا إلى دينِنا فهو خَيرٌ لكم وأفضَل، ونَحنُ أهدىٰ منكم سبيلاً.

فقال عمّار: كيف نَقضُ العَهدِ فيكم؟ قالوا: شَدِيد. قال: فإنّي عاهَدتُ أن لا اكفُر بمحمّد ﷺ ما عِشْتُ. فقالت اليهود: أمّا هذا فقَد صَبأ.

وقال حُذَيفة: أمّا أنا فقَد رَضِيتُ باللهِ ربّاً، وبـمحمّدٍ ﷺ نَـبيّاً، وبـالاسلامِ ديـناً، وبـالقرآنِ إمـاماً، وبالكَعبَةِ قِبلةً، وبالمؤمنين إخواناً.

ثمّ أتَيا رسولَ الله ﷺ وأخبَراه، فقال: «أصَبتُما خيراً وأفلَحْتُما»[٥]. فـنزَلت: ﴿وَدَّ كَـثِيرٌ مِـنْ أَهْـلِ ٱلْكِتَابِ﴾ وتَمَنّوا ﴿لَوْ يَرُدّونَكُمْ﴾ ويُصيّرونكم بشُبُهاتِهم وحِيلَهِم وتَسويلاتهم ﴿مِنْ بَعْدِ اِيمَانِكُم﴾ بالرّسولِ ومعرفتكم الحقّ ووُضوح آياتِه ﴿كُفّاراً﴾ بنبوّة محمّد ﷺ وكتابه مُرتَدّين عن دينِ الإسلامِ

١. الإسراء: ٩٠/١٧. ٢. النساء: ١٥٣/٤. ٣. الأعراف: ١٣٨/٧. ٤. في النسخة: فنيحاص.
٥. تفسير الرازي ٣: ٢٣٦، تفسير أبي السعود ١: ١٤٥.

مع عِلْمكِم بنِهاية شَناعَةِ الكُفْرِ بعد الإيمانِ الراسِخ.

ومن البَديهيّ أنّ هذا الوُدّ والتَمنّي ليسَ لأجلِ تديُّنهِم ومعرفتِهم بحَقّانيّة مَذْهَبهم ونُصحِهم لكم، بل كان ﴿حَسَداً﴾ علَيكم وتشَهّياً ﴿مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ﴾ ومِن خُبْثِ ذاتِهم ﴿مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ﴾ وظَهَر ﴿لَهُمُ الْحَقُّ﴾ من نبوّة محمّد ﷺ وحقّانيّة دينِه وكتابه بدلالة المُعجِزات السّاطِعة والآيات الباهرة، ولِمَا عايَنوا من إخبارِ التّوراةِ بظُهورِه وأوصافِه وعلائِمه المُنطَبِقة عليه.

رُوي أنّ جماعة استأذَنوا رسولَ الله ﷺ في أن يقتُلوا هؤلاء اليهود الذين كفَروا بانفُسِهم، ودَعَوا المُسلِمين إلى الكُفْر[١]، فنزل: ﴿فَاعْفُوا﴾ من عِقابهم ﴿وَاصْفَحُوا﴾ عَن تَثْريبِهم وعِتابهِم ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ فيهم من القَتْل والتَّعْذيب ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ في كلّ وَقْتٍ ﴿قَدِيرٌ﴾ لا يَعجِز عن الانتِقام إذا حانَ حينُه وآنَ أوانُه، فلا تَعْجَل عليهم.

روي عن ابن عبّاس: أنّه مَنسوخٌ بآيةِ السَّيف[٢].

وعن الباقر عليه السلام: أنّه لم يُؤمَر رسولُ الله ﷺ بقتالٍ حتّى نـزَل جَبْرَئيل عليه السلام بـقوله: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا﴾[٣] وقلّده سيفاً، فكان أوّل قِتالٍ قتال أصحاب عبدالله بن جَحْش ببَطْنِ نَخْل، وبعده غَزْوَة بَدْر[٤].

وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ[١١٠]

ثُم إنّه بعد تكليف المؤمنين بالعَفْو والصَّفْحِ لِصَلاح حالِهم وسلامة أنفسهم من رَحْمَةِ الكُفّار، كلّفهم في حالِ الفَراغ بالعِبادات البدنيّة التي أهمّها الصّلاة بقوله: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ المَفروضَةَ، ثمّ بالعِبادات الماليّة التي أهمّها الزّكاة بقوله: ﴿وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ الواجبة، لصلاح حالِهم وسَلامة أنفُسهم من نِقْمَةِ الله. ثمّ بسائر العبادات بقوله: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ﴾ وعمَلٍ صالح من النَّوافِل والزَّكاة المُستَحَبّة وسائر أنواع البرّ ﴿تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ إمّا بصورتِهِ وحَقيقتِه المثاليّة، بناءً على تَجسُّم

---

١. تفسير روح البيان ١: ٢٠٤. ٢. تفسير أبي السعود ١: ١٤٦.
٣. الحج: ٢٢/٣٩. ٤. تفسير الرازي ٣: ٢٤٥.

الأعمال كما هو مدلول كثيرٍ من الأخبار[١]، أو بثَوابهِ وجَزائه.

ثمّ لزيادة التّرغيب على العمل أكّدَ ذلك بقوله: ﴿إِنَّ ٱللهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ مُطَّلِعٌ، لا يَخفى عليه شيءٌ من أعمالِكم، فيُجازيكم على القَليل كما يُجازي على الكثير.

وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ * بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ [١١١ و ١١٢]

ثمّ نُقِل أنّ وَفْدَ نَجْران لمّا قَدِموا المدينةَ آجتَمعوا في مَجلسِ رسول الله ﷺ مع اليهود، فكذّب بعضُهم بعضاً، فقالت اليهود لبَني نَجْران: لَن يَدخُل الجنَّة إلّا اليَهود. وقال بَنو نَجْران [لليهود]: لن يدخُلَها إلّا النَّصارىٰ[٢]. فحكى الله عنهم الدَّعوى بقوله: ﴿وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَىٰ﴾ وإتيان (كَانَ) مُفرداً باعتِبار لَفظ المَوصول وخَبره وهو هود، والنَّصارى جمعاً باعتِبار معنى الموصول وهو جمع، و (أو) التَّرديديّة بلِحاظ اختِلاف القائلين، كما روي في شأن النّزول[٣].

ولمّا كان دَعوى كلّ طائفةٍ مَبنيّة[٤] على حقّانيّة دينِهم، ردّ الله عليهم بقوله: ﴿تِلْكَ﴾ المَقالة التي يَدَّعونها ﴿أَمَانِيُّهُمْ﴾ وأهواؤهم الباطِلة، ومن جُملة مُشتَهيَاتهم الزائِغة التي لا حُجّة لهم عليها.

﴿قُلْ﴾ يا محمّد: ﴿هَاتُوا﴾ وأحضِروا ﴿بُرْهَانَكُمْ﴾ وحُجّتكم على دَعواكم ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ فيما تَدَّعونَهُ.

في عدم صحّة التمسّك بالاستصحاب لإثبات بقاء الشريعة ونبوة النبيّ السابق

إن قيل: بُرهانُهم على اختِصاص الجنّة بهم ثُبوتُ حقّانيّة دينِهم، وعدَم ثُبوتِ نَسْخِه. قلتُ: لَا يكفيهم هذا، بل يجِب عليهم إقامة البُرهان على بَقاء دينِهم، فكَما أنّ الشَّريعة الجَديدة مُحتاجَةٌ إلى البُرهان القاطِع، كذلك بَقاء الشَّرْعِ السابِق مُحتاجٌ إلى الحُجّة والدَّليل الساطِع، ولا يَكفي استِصحاب بَقاء نبوّة النبيّ السّابق وشَريعته، لأنّ الاستِصحاب إنْ كانَ حُجَّةً في الشَّرعِ السابِق فَبَقاؤه أوّل الكلام، وإن كانَت حُجّيّته في الشَّرع اللاحِق، فالمَفروض أنّ المُتَمسِّك به لا يَعترِف بالشَّرع اللّاحق، مع أنّه على فَرْض حُجّيّتهِ في الشَّريعَتَين فإنّما

١. راجع: بحار الأنوار ٧٤: ٤/٤٤.
٢. تفسير روح البيان ١: ٢٠٦.
٣. راجع تفسير الرازي ٤: ٣.
٤. في النسخة: مبنياً.

هو في الفُروع والأحكام العَمليّة لا في اُصول الدّين؛ لأنّه لابُدّ فيها من القَطْعِ واليَقينِ، ولا يَفيد الظّنُّ والتّخْمين كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾[1].

في إبطال القول بامتناع النسخ في الأحكام

فَإن قيل: هذا مبنيّ على إمكان النَّسْخِ، واليهودُ قائِلونَ بامتِناعِه لأنّه يَؤول إلى البَداء، وهو مُحالٌ على الله.

قلنا: أوّلاً: لَيسَ في الحَقيقةِ والواقِعِ نَسْخٌ في الأحكامِ والشَّرائع بَلِ الشَّرْعُ السّابِقُ مُقَيَّدٌ بَقاؤه بعَدم بَعْث النّبيّ اللّاحِقِ المُبَشّر به، فإذا بُعِث انقَضَت مدّته مع أنّه مَنقوضٌ بِنَسْخِ شَرْعِ إبراهيم عليه السلام بشَرْعِ موسى عليه السلام، مُضافاً إلى أنّ من البَديهي اختِلاف مَصالح الأحكام باختِلاف الأشخاص والقُرون والأزمان، فقد يكونُ لِحُكمٍ مَصلحةٌ في زَمانٍ، أو لطائفةٍ دونَ زمانٍ آخرَ وطائِفَةٍ اُخرى.

نعَم، إذا أخبَر النبيّ صلى الله عليه وآله ببَقاء أحكامِه واستِمرارِها إلى يومِ القيامة، كما أخبَر نبيُّنا صلى الله عليه وآله بذلك، كشف عن جامعيّة أحكامِه لمَصالحِ عُمومِ البَشَر إلى يوم القِيامة بخِلافِ ما إذا لم يُخبر بأبديّة دينِه، بل كانَ بَيانُه مُطلَقاً، فإنّه يَحتمِل وقوع التّغيير والنَّسخ وإن ظَنّ من جهة الإطلاق عموم حكمِه للأزمِنة المتأخّرة، وحينئذٍ فإذا دلّ دليلٌ معتَبرٌ على النَّسْخِ كشَف عن خَطأ العُرْفِ في فَهْم الاستِمرار، ودَلّ على كَونِه مُغَيّىً.

وأمّا ما نقَله اليَهودُ من قول موسى عليه السلام: تمسَّكوا بالسَّبتِ أبَداً فغَيرُ ثابتٍ، مع أنّه يُمكِن أن يُراد منه دَوامه ما دام بَقاء شريعته، فيرجِع إلى الإخبار بأنّ السَّبت لا يتغيّر ولا يُنسَخ ما دام بَقاء دينِهِ، مع أنّه مُعارَضٌ بإخباره في عدّةِ مواضِع من التَّوراة بمَجيئ نبيّ آخر بعدَه.

فقول اليهود بأنّ الحقّ منحَصِرٌ في اليهوديّة، وقول النَّصارى بمثل ذلك، ودعوى كلّ طائفةٍ منهم أنّه لا يدخُل الجنّة غيرُهم، بقولٌ بلا بُرهان، بل البُرهان على خِلافه، حيث قال الله تعالى: ﴿بَلَىٰ﴾ يدخُل الجَنّة غيرُهم بل هم لا يفوزون بها.

ثمّ كأنّ قائلاً يقول: فمَن يدخُل الجَنّة؟ فقال: ﴿مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ﴾ وبذَل نفسَه ﴿لِلَّهِ﴾ بالانقياد والخُضوع والتذلّل في طاعته، والتجنّب عن اللَّجاج والعِناد والمَعاصي خالِصاً لله بلا شَوْبِ شِرْكٍ وهَوى ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ لا يكونُ خُضوعه بالأعمالِ القَبيحة، كما نُقل عن بعضِ المُرتاضينَ في الهِنْد

---

١. يونس: ٣٦/١٠.

﴿فَلَهُ أَجْرُهُ﴾ وثوابُه العظيم الذي أدناهُ الدّخول في الجنّة حال كونه ثابتاً ﴿عِندَ رَبِّهِ﴾ اللّطيف به، المالك لأمره.

﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ من انقِطاع الثّواب وزَوال النِّعَم وممّا يُشاهدون من عِقاب الكُفّار ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على فائتٍ عند المَوت، حيث يبشّرهم ربُّهم برحمةٍ منه ورِضوانٍ وهم يقولون ﴿الحَمْدُ للهِ ٱلَّذِى أَذْهَبَ عَنَّا ٱلحَزَنَ﴾[1] وهذه نِهايةُ السّعادَةِ وغايَةُ الاستِرباحِ والاستِفادةِ. وإفرادُ الضّميرِ أوّلاً باعتِبارِ لَفْظِ المَوصُول وجمعه[2] آخِراً باعتِبار المَعنى.

وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَارَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَابَ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ * وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ ٱللهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَا أُولَـٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ[١١٣ و ١١٤]

ثمّ أنّه لمّا حكىٰ الله تعالى دَعوى اليهود والنّصارىٰ صِحّةَ دينِهم، وكونَهم على الحقّ، واختِصاص الجنّة بهم، وتوافُقَهم على أنّ المسلمينَ على الباطِل حكىٰ الله تعالى اختِلافهم فيما بينَهم، وأنّ كلّ واحدٍ من الفَريقَيْنِ ينسُبَ الآخَر إلى الكُفرِ والضّلال من غير تأمُّلٍ في كتابِ الله الذي بينَهم حتّى يُرشِدَهم إلى الحَقّ بقوله: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ من دينِ الحقّ، بَل ما آعتقَدوه باطِلٌ وكُفرٌ. ﴿وَقَالَتِ ٱلنَّصَارَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ من دينِ الحقّ، بلْ هُم على كُفرٍ وضَلالٍ ﴿وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَابَ﴾ الذي أنزلَه الله لِرَفْعِ الاختِلاف من التّوراة والإنجيل، ولا يتأمّلونَ فيهما حقّ التأمّلِ حتّى يعرِفوا الحقّ ويعلَموا دينَ اللهِ بدلالته، بَل ما يقولونه ليس إلا عن تقليدٍ وعَصَبيّةٍ.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ القَولُ الباطِلُ ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ الدِّينَ والكِتابَ من المُشرِكين ﴿مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ إذ هم أيضاً يُكفِّرُ بعضُهم بعضاً ﴿فَاللهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ﴾ الذي هو يومُ فَصْلِ القَضاء ﴿فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ في الدُّنيا بأنْ يُدخِلَ جميعَهُم في النّار ويُريَهُم أنّ الحقَّ مع غيرِهم، ويُبيِّن لهم

---

١. فاطر ٣٥/٣٤.
٢. في النسخة: وجمعيته.

ضَلالَهم وفِسقَهم.

في تحاكم اليهود والنصارىٰ إلى النبيّ ﷺ

عن الحسن بن عليّ بن أبي طالب عليهما السلام: «إنّما نزلت لأنّ قوماً من اليَهود وقوماً من النَّصارىٰ جاءوا إلى رسول الله ﷺ فقالوا: يا محمّد، اقضِ بيننا. فقال ﷺ: قُصّوا عليَّ قصّتكم. فقالت اليهود: نحنُ المؤمنون بالله الواحِد الحكيم، وأولياءه، وليست النَّصارىٰ على شيءٍ من الدِّين والحقّ. وقالت النَّصارىٰ: بل نَحنُ المؤمنون بـالله الواحـد الحكيـم، وأولياؤه، وليستِ هؤلاء اليَهود على شيءٍ من الحقِّ والدِّين.

فقال رسول الله ﷺ: كلّكم مُخطِئون، مُبطِلون، فاسِقونَ عن دينِ الله وأمرِه، فقالت اليَهود: وكيف نكونُ كافِرين وفينا كتابُ الله التَّوراة نقرأه؟ وقالت النَّصارىٰ: كيف نكـونُ كـافِرينَ وفـينا كـتابُ الله الإنجيل نَقرأه؟ فقال رسول الله: إنّكم خالَفتُم أيّها اليَهود والنَّصارى كتابَ الله فَلَم تعمَلوا به، فلو كُنتم عامِلين بالكِتابَين لما كفَّر بعضُكم بعَضاً بغير حُجّةٍ؛ لأنّ كتُبَ الله أنزلها شفاء من العَمى، وبياناً مـن الضَّلالة، يهدي العاملين بها إلى صراطٍ مستقيم، وكتاب الله إذا لم تعمَلوا به كان وَبالاً عليكم، وحُجّة الله إذا لم تَنْقادوا لها كنتُم لله عاصِين ولِسَخَطِه مُتَعرِّضين.

ثمّ أقبَل رسول الله ﷺ على اليهود، فقال: احذَروا أن ينالَكم لخلاف أمرِ الله وخـلاف كـتابه مـا أصابَ أوائِلَكم الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَىٰ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزاً مِنَ ٱلسَّمَاءِ﴾» الخبرَ[1].

والظاهِر أنّهم لمّا تَنازَعوا واكتفَوا بالدَّعوى بغيرِ إقامةِ حُجّةٍ وبُرهانٍ، أجابَهم ﷺ بأنّ كتابَ اللهِ أُنزِل لِرَفعِ الاختِلاف، فلَو تأمّلتُم فيه حقّ التأمُّلِ، وترَكتُم العصبيّة والتَّقليد، وأعطَيتم النَّظَر فيه حقَّه، لارتَفَع الخِلافُ من بينكِم وهُدِيتُم جميعاً إلى الحقّ.

ونُقِل أنّ وفد نَجْران لمّا قَدِموا على رسول الله ﷺ أتاهُم أحبارُ اليَهود فـتَناظَروا حـتّى ارتـفَعت أصواتُهم، فقالت اليَهود: ما أنتُم على شيءٍ من الدِّين، وكفَروا بعيسى عليه السلام والإنجيل. وقالَت النَّصارىٰ لهم نَحوَه، وكفروا بموسى عليه السلام والتَّوراة[2].

ثمّ أنّه تعالى لمّا حكىٰ عن اليَهود والنَّصارى والمُشرِكين دَعوىٰ كلّ واحدٍ أنّه على الحقّ وأنّـهم

---

١. التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام: ٥٤٤/٣٢٥، والآية من سورة البقرة: ٥٩/٢.
٢. تفسير الرازي ٤: ٧.

أولياءُ اللهِ وأحبّاؤه، ردّهم بأنّهم أظلَمُ النّاس، بقوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ ٱللهِ﴾ وهي مَساجِدُ خِيار المؤمنين، أو بلدة مكّة، أو المَسجد الحَرام، أو جميع وَجه الأرض لقول النبيّ ﷺ: «جُعِلت لِيَ الأرضُ مَسجِداً»[1].

﴿أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَا﴾ بالمَنْعِ من عِبادة الله فيها، حيث إنّ تَعميرَ المَساجِدِ بكثْرَةِ العِبادة ﴿أُولَـٰئِكَ﴾ المانِعون عن ذِكرِ اللهِ السّاعون في تَخريبِ بُيوتِ اللهِ ﴿مَا كَانَ﴾ يَحِقّ ﴿لَهُمْ﴾ بعَدْلِ الله وحِكمَتِه ﴿أَنْ يَدْخُلُوهَا﴾ إن كانَ المُراد بلدة مكّة والمَسجد الحَرام، أو يسكُنوها إن كانَ المُراد جميع وَجه الأرض ﴿إِلَّا خَائِفِينَ﴾ من سُيوفِ المؤمنين وسِياطِهم، فهو وَعْدٌ للمؤمنينَ بالنُّصرة واستخِلاص المَساجِد من سُلطَةِ الكُفّار.

وقيل: إنّ المُراد ما كان لهُم أن يَدخُلوها إلّا بخَشْيَةٍ وخُضوعٍ، فَضْلاً عن الاجتِراء على تَخريبها[2].

ومع ذلك ﴿لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ﴾ فَضيعٌ بِطَرْدِهم عن الحَرَم، ومَنْعِهم أن يَعودوا إليه، أو بِضَرْبِ الجِزْيَةِ في حقّ أهلِ الذِّمَّةِ منهم، وبالقَتْلِ في حقِّ أهلِ الحَرب ﴿وَلَهُمْ فِى ٱلْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ في النّار بما ارتكبوا من الظُّلم العظيم، وهو أشدُّ من خِزْيِ الدُّنيا ومن كلّ عَذاب. رُوي أن فُضوح الدُّنيا أهوَن من فُضوح الآخِرة.

عن عليّ بن الحسين عليه السلام: «ولَقد كان من المنافقين والضُّعَفاء وأشباه المنافقين قصدوا إلى تخريبِ المَساجِد بالمدينة وتخريب مَساجِد الدُّنيا كلّها بما هَمُّوا [به] من قَتْل عليّ عليه السلام بالمدينة وقَتل رسول الله ﷺ في طريقهم إلى العَقبة» يعني [في] غزوة تَبوك.

وقيل: إنّ سبَب نُزول الآيةِ أنّ طيطوس[3] الرّوميّ مَلِك النَّصارى وأصحابَه غَزَوا بني إسرائيل، فقتَلوا مقاتلتهم، وسَبُوا ذَرارِيهم، وأحرَقوا التَّوراة، وأخربوا بيتَ المَقدِس، وقَذَفوا فيه الجِيَف، وذبَحوا فيه الخَنازِير، ولَم يزَل خَراباً حتّى بَناه أهل الإسلام في أيّام عمر بن الخَطّاب[4].

﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللهِ إِنَّ ٱللهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [١١٥]

ثمّ أنّه تعالى لمّا ذكَر المَساجِدَ وتَخريبها، أشارَ إلى إنّه لا ينبَغي أن يصيرَ تخريبُ المَساجِدِ أو المَنْعُ

---

١. مجمع البيان ١: ٣٦١.
٢. تفسير أبي السعود ١: ١٤٩، تفسير روح البيان ١: ٢٠٩.
٣. في تفسير أبي السعود: طيطبوس.
٤. تفسير أبي السعود ١: ١٤٩.

من دُخولِ الحرَم أو المَسجدِ الحَرام صارِفاً للمؤمِن عن الصَّلاة والاشتِغال بذِكْرِ الله بقوله: ﴿وَلِلَّهِ﴾ بالمِلكيّة الإيجاديّة ﴿ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ﴾ وجميعَ الجِهات، لا تَختَصّ به جِهةٌ ومَكان ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا﴾ في أيّ مَكانٍ، وتَتَوجّهوا بقُلوبِكُم، وتَستَقبِلوا بوجُوهكُم إلى الله بالدُّعاءِ والصَّلاةِ النَّوافل ﴿فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ وذاتُه المقدّسة، إذ لا يَخلو منه مكانٌ. أو المُراد: فَثَمّ مَرضاتُه، حيث ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَاسِعٌ﴾ ذاتاً وقُدرَةً وفَضْلاً ورَحْمَةً على عِباده، يُبيِّن لهم ما فيه صَلاحُهم كي يَصِلوا إلى رِضوانِه ﴿عَلِيمٌ﴾ بحَقائِق الأُمورِ وما يَصدر عن العِباد من القيام بوَظائف العبوديّة والتَّفريط فيها.

في بيان معنى وجه الله

عن (التّوحيد) عن سلمان الفارسيّ، في حديثِ الجَاثَليق الذي سأل أميرَ المؤمنين عليه السلام عن مسائل فأجابه عنها، أنّ فيما سأله أن قال: أخبِرني عن وَجهِ الرّبِّ تَبارك وتعالى؟ فدعا عليّ عليه السلام بنارٍ وحَطَبٍ فأضرَمه، فلمّا اشتَعلت، قال [علي عليه السلام]: «أينَ وَجهُ هذِه النّار»؟ قالَ النَّصرانيّ: هي وَجهٌ مِن جَميع حُدودِها.

قال عليّ عليه السلام: «هذِه النّار مدبَّرة مصنوعَة لا يُعرَف وَجهُها، وخَالِقُها لا يُشبِهُها ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ لا يخفى على ربّنا خافية»[1].

عن القمي رحمه الله: أنّها نَزلت في صَلاةِ النّافِلة، تُصَلّيها حيثُ توجَّهتَ إذا كُنتَ في السَّفر، وأمّا الفَرائض فقوله تعالى: ﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾[2] يعني الفَرائض لا تُصَلّيها إلّا الى القِبلَة[3].

عن (الفقيه) عن الصادق عليه السلام أنّه سُئِل عن الرجلِ يقوم في الصَّلاة ثمّ ينظُر بعدَ ما فرَغ، فيرى أنّه قد انحرَف عن القِبلة يَميناً أو شِمالاً؟

فقال: «قد مضت صَلاتُه، وما بين المَشرِق والمَغرِب قِبلة، ونزلت هذه الآية في قِبْلَةِ المُتَحيّر ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ﴾» الخبر[4].

في وجه رفع اليد والنظر إلى السماء عند الدعاء

قيل: لمّا نزَل ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[5] قالوا: أينَ نَدعوه؟ فأنزَل الله: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ﴾ .. الآية[6].

إن قيل: فما معنى رَفْع اليَدِ والنظر إلى السَّماءِ عند الدُّعاء مع أنّ الله مُنَزّهٌ عن الجِهَة؟

---

١. التوحيد: ١٨٢/١٦. ٢. البقرة: ١٤٤/٢. ٣. تفسير القمي ١: ٥٩.
٤. من لا يحضره الفقيه ١: ١٧٩/٨٤٦. ٥. غافر: ٦٠/٤٠.
٦. تفسير روح البيان ١: ٢١١.

قلنا: ليس رَفْعُ اليَدِ لأنّ الله في جِهَةِ العُلُوّ، بل لأنّ في السّماءِ خِزائنَ رَحمَتِه، والعَرْشُ مَظْهَرُ استِواءِ صِفَةِ رَحْمَانيّتِه.

وَقَالُوا ٱتَّخَذَ ٱللهُ وَلَداً سُبْحَانَهُ بَلْ لَهُ مَا فِى ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ[١١٦]

ثمّ أنّه بعد ما حكىٰ الله تعالى تَنازُع كلّ فريقٍ من اليَهودِ والنَّصارىٰ ومُشرِكي العرَب في الحقّ والدِّين ووَعد الحُكومة بينَهم في القيامة، حكَم على بُطلانِ دَعوى جَميعِهم في الدُّنيا لقول كلّ طائفةٍ، بما يحكم على خِلافه بَديهةُ العَقلِ بقوله: ﴿وَقَالُوا ٱتَّخَذَ ٱللهُ وَلَداً﴾ إذ قالتِ اليَهودُ: عُزَيرٌ ابنُ اللهِ، وقالت النَّصارىٰ: المَسيحُ ابنُ الله، وقالت مُشركو العرَب: المَلائكةُ بَناتُ الله.

ثمّ ردّ عليهم بقوله: ﴿سُبْحَانَهُ﴾ إنّه مُنزَّهٌ عن التَجَسُّمِ والمَاهيّةِ والسِّنخيّةِ[1] مع خلقه ﴿بَلْ لَهُ مَا فِى ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ كلّه ملكه وتحت قُدرَتِه.

﴿كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ﴾ مُنْقَادونَ مُقِرّونَ بعُبوديّتِه طَبْعاً وَجِبِلّةً، لا يُجانِسونه ولا يُسانِخُونَه. والحال أنّه لابُدّ من السِّنخِيّة بين الوالِد والوَلد، ولمّا كان القُنوتُ في أصلِ اللُّغَةِ بِمعنى الدَّوامِ، كان فيه إشعارٌ بأنّ جميع ما في السماوات والأرض بقاؤه به سُبحانَه لا تَنقَطِع حاجَته عنه، والتعبير بلَفْظِ ﴿مَا فِى ٱلسَّمَاوَاتِ﴾ مع أنّ كثيراً منها عُقَلاء للتَّحقيرِ بشأنِها.

بَدِيعُ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ[١١٧]

ثمّ أنّه بعدَ بيانِ أنّ كلّ ما في السّماوات والأرضِ ملكُه ومَخلوقُه، بيَّن أنّه أيضاً ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ومُنْشِئُهُما من غيرِ مثالٍ.

عن الباقر عليه السلام في تفسير البَديع: «ابتَدَع الأشياءَ كلّها بعِلمِه على غير مثالٍ كانَ قبلَه، فابتدع السّماواتِ والأرضين ولم يكُن قبلهُنّ سماوات ولا أرضون. أمَا تسمَع لقوله تعالى: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَىٰ ٱلمَاءِ﴾؟» الخبر[2].

ثمّ بيّن كيفية الإبداع بقوله: ﴿وَإِذَا قَضَىٰ أَمْراً﴾ وأرادَ شيءٍ، كائناً ما كان ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ﴾ لا

---

١. السنخ: الأصل من كلّ شيء.

٢. الكافي ١: ٢/٢٠٠، والآية من سورة هود: ٧/١١.

بِصَوتٍ يُقرَع، ولا بنداءٍ يُسْمَع، بل بصَرف إرادتِه ﴿فَيَكُونُ﴾ ويوجَد بمجرّدَ نَفاذ قُدرَتِه، ولا يحتاج في خَلقِه إلى فِكرٍ، واستِعانةٍ بشيءٍ، وتحقّقِ مادّةٍ، ومضيّ مُدّةٍ، فتمّ البُرهان القاطِع على امتِناع أن يكونَ شيءٌ ممّا سِواه وَلَداً له، حيث إنّ لازِم الوِلادَة هو الحُدوث والمَسْبوقيّة بالعدَم، وكلّ مسبوقٍ بالعَدمِ مَخلوقٌ بإفاضَةِ الوُجودِ عليه من الواجِب، والمَخلوقُ لا يُعقَل أن يكونَ وَلداً لِخالِقه، والوالِدُ لا يُمكِن أن يكونَ موجداً ومالِكاً. ولذا احتَجّ في مَواضِع من الكِتاب العزيز على القائلين بأن لله وَلَداً بأنّ مَن في السّماوات والأرضِ عَبيدٌ له، وأنّه إذا قَضى أمراً يقولُ له: كُن فيكون.

وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا ءَايَةٌ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ[١١٨]

ثمّ إنّه تعالى لمّا بيّن شِركَهم واتّخاذَهم الوَلَد لله، عقّبة بذِكر شُبُهاتِهم السّخيفة في النبوّة، وإنكارهم لها عن تَعنُّتٍ وعِنادٍ، بقوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ من جَهَلةِ قُرَيش والمُشركين وسُفَهاء أهل الكِتاب ﴿لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ﴾ كما تدّعي أنّه كلّم موسى في الطُّور وكلّمك في مِعراجِك ﴿أَوْ تَأْتِينَا﴾ من السَّماء. ﴿ءَايَةٌ﴾ من كتابٍ وصَحيفةٍ، كما قال تعالى: ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَىٰ صُحُفاً مُنَشَّرَةً﴾ [1] وقال: ﴿يَسْئَلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَاباً مِنَ ٱلسَّمَاءِ﴾ [2].

وتقرير الشُبهةِ أنّ الله حكيمٌ، والحَكيمُ إذا أرادَ الوصولَ إلى غَرضٍ لابُدّ أن يختارَ أقرَب طُرُقِ الوصُول إليه، فإذا أراد الله تعالى هِدايَتنا، فأقرَبُ الطُرُقِ إليها أن يُكلِّمَنا بنفسِه مشافَهةً، كما كلّم المَلائِكة والأنبياء فإنّه أقرَبُ إلى التّصديقِ وأبعَد من الشُّكوكِ والشُبُهات، أو يُنَزِّلَ عَليها كتاباً يُصرّح فيه بنُبوَّتِك، فردّ الله عليهم بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ القَولُ السَّخيفُ ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ﴾ كابَروا أنبياءَهُم ﴿مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ مِن الأُمم الماضية ﴿مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ من التعنّتاتِ والاقتِراحات، بل فَاقوا عليهم بقَولهم: ﴿أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [3] وقالوا لعيسى: ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ ٱلسَّمَاءِ﴾ [4] فهؤلاء والسّابقون عليهم من المُصِرّين على الكُفر ﴿تَشَابَهَتْ﴾ وتَماثَلت ﴿قُلُوبُهُمْ﴾ في العَمى والعِناد وعدَم التفقُّه، لأنّ المُكذّبين للرُّسُلِ طينَتُهم واحِدة وأقوالُهم وأفعالُهم مُتَماثِلة.

﴿قَدْ بَيَّنَّا ٱلْآيَاتِ﴾ الباهِرات، وأوضحنا صِدقَك بهذا القرآن الذي هو من أعظَم المُعجِزات،

---

١. المدثر: ٥٢/٧٤. ٢. النساء: ١٥٣/٤. ٣. النساء: ١٥٣/٤. ٤. المائدة: ١١٢/٥.

ومَجيىء الشَّجَر بأمرِك، وتَسبيح الحَصاة في كفِّك، وتكلُّم الذِئب معك، وإشباع الخَلْق الكَثير بالطعام القليل ﴿لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ بالحَقائق.

فحاصل الجَواب: أنّا قد أيّدنا محمّداً ﷺ بالآيات الباهراتِ والمُعجِزات الظاهِرات، فإن كنتُم طالِبين لليَقينِ فقد جاءكم بأزيَد ممّا تَحتاجون إليه من الدّلالات والبَراهين، وإن كنتُم تَعنتُون فلا يَحسُن إجابتُكم.

إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ ٱلْجَحِيمِ[١١٩]

ثمّ لمّا كثُر إصرارُهم على الكُفر والعِناد، وأغتَمّ قلبُ النبي ﷺ لذلك، سلّىٰ سُبحانه وتعالى قَلْبَ حبيبِه حُبّاً له، ورحمةً عليه، بقوله: ﴿إِنَّا اَرْسَلْنَاكَ﴾ إليهم إرسالاً مقروناً ﴿بالحَقِّ﴾ أو مُصاحِباً للكِتاب المشتَمِل على حقائق المَعارف ودَقائق العُلوم، لِتكونَ أو حال كونِك ﴿بَشِيراً﴾ بالثَّوابِ لِمَن أطاعك ﴿وَنَذِيراً﴾ بالعِقاب لِمَن كفَر وعَصىٰ، فلَيس عليك إتعاب نَفسِك في ازدِياد الدَّعوةِ والمُبالغة في التَّبليغ، فإنّه لا مَزِيد على ما فَعَلتَ، فلا يكثُر هَمُّك مِن إصرارِهم على الكُفر، ومُكابرتهم للحقّ، لأنّه ليس عليك تَبِعَةُ سيّئاتهم.

﴿وَلَا تُسْئَلُ﴾ يومَ القِيامة ﴿عَنْ أَصْحَابِ ٱلجَحِيمِ﴾ ولا تُؤاخَذ بعِصيانهم وكُفرِهم، فإنّ ضَرَرَهُما راجِعٌ إلى أنفُسِهم لا إليك.

عن الباقر عليه السلام: «أنّه على النَّهي»[١].

أقول: قرأ به نافِع أيضاً[٢]، وعلى هذا يكون نَهيُ النبي ﷺ عن السؤال لأجلِ الإشعار بأنّ شدّة عذابِهم وسُوءَ حالِهم ممّا لا يَسَعُه البيان.

في تغليط ماروته العامة في كفر والدي النبي ﷺ والاستدلال على براءة آبائه وأُمهاته من الشرك

ثمّ اعلَمْ أنّ من أغلاطِ كثيرٍ من العامّة أنّ النَّهيَ كان عن سؤالِ النبي ﷺ عن حال أبَوَيه حيث رَوَوا أنّ النبي ﷺ قال: «لَيتَ شِعري ما فَعَل أبَواي» فنَزلت[٣].

أقول: ليتَ شِعْري، كيف يُمكِن خَفاء كذِب هذه الرواية على مَن له أدنىٰ مَرتَبة [من] الشعور والدِراية، لبَداهةِ أنّ النبي ﷺ كان أعلَم الخَلق بأنّ الكُفّار مُعَذّبون بالنّار، وكان أعرَف النّاس بَعقائِد أبوَيه، فمَع اطّلاعه بكُفرِهما ـ تَعاليًا عن ذلك ـ كيف يجُوز

١و٢. مجمع البيان ١: ٣٧١.

٣. تفسير الرازي ٤: ٣٠، تفسير روح البيان ١: ٢١٦.

عليه إظهار الشكّ والتّرديد في حالِهما في الآخِرة بقوله: «ليت شعري ما فعَل أبواي؟» مع أنّ الأنبياء خصوصاً خاتمَهُم لابدّ من كونهم مُنَزّهين من كلّ شَيْنٍ، وأيّ شَيْنٍ أعظَم من كُفرِ الأبَوين!

مع أنّ الله تعالى أمَر خَليلَه إبراهيم عليه السلام بتَطهير بيتِه الخاصّ بعِبادَته من لَوْث المُشركين وأرجاس الأوثان للطّائفين والعاكِفين والرّكّع السّجود، وكيف يُمكِن أن لا يُطهّر بيتاً خصّه بأنوار أنبيائه ونُطَف أصفيائه من أصلابِ الآباءِ وأرحامِ الأمّهاتِ من دَنَس الشِّرْك ورِجْس الوَثَنيّة لهم عليهم السلام مع كونهم أفضَل الّراكعين والساجدين[1] والعَاكِفين!

فآية ﴿طَهِّرْ بَيْتِىَ﴾[2] دالّة بالفَحوى على طَهارَة آباء الأنبياءِ وأمّهاتهم من الشِّرك، ونَزاهَتهم من الكُفر، هذا مضافاً إلى دلالة أخبارٍ كثيرةٍ على أنّهم عليهم السلام لم يتوَلّدوا إلّا من الأصلابِ الشامخة الطّاهرة، والأرحام المقدّسة المُطَهّرة، لم تُنَجِّسْهُم الجاهليّة بأنجاسِها[3].

وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَاءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللهِ مِنْ وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ[١٢٠]

ثمّ أنّه لمّا أراد الله راحَةَ قلبِ حبيبه عن كَثْرَةِ التّدبيرِ لهِدايَةِ اليَهود والسَّعْي في دَعوتِهم إلى الحقّ، ولم يُمكِن أن يحصُلَ له الانصِرافُ ما دام له رَجاء فيهم، بالَغ سُبحانه في إقناطِ رَسوله عن إيمانِهم وقَطْع رَجائِه في اتّباعِهم لدِين الحقّ، بقَوله: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَارَىٰ﴾ بشيءٍ من

---

١. في النسخة: الركعين والسجدين. ٢. الحج: ٢٦/٢٢.

٣. ونضيف هنا ما أوردة الشيخ ابن شهر آشوب في (متشابه القرآن ٢: ٦٤) حول هذه المسألة حيث قال في تفسير قوله تعالى: ﴿الَّذِى يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ * وَتَقَلُّبَكَ فِى السَّاجِدِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٨/٢٦و٢١٩] الثعلبي والواحدي وابن بطة في كتبهم عن عطاء وعكرمة، عن ابن عباس: يعنى نذيرك من أصلاب الموحدين من نبي إلى نبي حتّى أخرجك في هذه الأمة، وما زال يتقلب في أصلاب الأنبياء والصالحين حتّى ولدته أمه، وقد جاء في الخبر: فما زال ينقله من الآباء الأخاير والأمهات الطواهر، وقد من الله عليه بالآباء الطاهرة الساجدة، ولو عنى شيئاً من الأصنام لما مَنّ عليه، لأنّ المَنّ بالكفر قبيح.

وقوله سبحانه: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِنْهُم مَاتَ أَبَداً وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ﴾ [التوبة: ٨٤/٩] يدل على أن آمنة بنت وهب كانت مؤمنة، لأنه روى مسلم في صحيحه في حديث بريدة: أن النبي صلى الله عليه وآله أتى إلى رسم قبر وجلس، وجلس النّاس معه حوله فجعل يحرك رأسه كالمخاطب، ثم بكى فقيل: ما يبكيك يا رسول الله؟ قال: هذا قبر آمنة بنت وهب، وقد استأذنت ربي في زيارة قبر أمي فأذن فزوروا القبور تذكركم الموت.

المُداراةِ معَهم والإحسانِ إليهم ﴿حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ اليَهوديّة وتوافِقَهم في العَقائِد الفاسِدَة، ومع ذلك كيف تتوقّع أن يتّبعوا مِلّتَك الحقّ؟

فإن سألوا منك الدُخولَ في دينِهم ﴿قُلْ﴾ رَدّاً عليهم: ليستِ اليَهوديّةُ دينَ الله وهُداه، بل ﴿إِنَّ هُدَى ٱللهِ﴾ ودينَه الذي رَضِي به وهو الإسلام ﴿هُوَ﴾ حَقيقٌ بأن يُقال له: ﴿ٱلْهُدَىٰ﴾ وطريقٌ مُؤدٍّ إلى رِضوانِ الله ورحمتِه، وأمّا اليهوديّة فإنّ أتباعَها أتباع الهَوى وعينُ الضَّلال، والله منها بريء.

ثمّ هدَّد الله على اتّباعها بقوله: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ﴾ وأنتَ أحَبُّ الخَلق إليّ، وأشرَف المُمكِنات لَديّ ﴿أَهْوَاءَهُم﴾ النّفسانيّة وعقائدهم الناشِئة عن القُوى الشّهوانيّة الّتي سَمّوها دين اليهوديّة ﴿بَعْدَ ٱلَّذِي جَاءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ بدِينِ الحَقِّ عَلىٰ الفَرْض المحال، يُعاقِبك الله عليه، و﴿مَالَكَ مِنَ ٱللهِ﴾ وبأسِه ﴿مِن وَلِيٍّ﴾ وصَديقٍ يشفَع لك ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ ومُعينٍ يَدفَع العِقابَ عنك. وفيه نِهاية التّهديد على اتّباع الهَوى بعد وُضوحِ الهُدى وقِيام الحجّة، كما أنّ في قوله ﷺ: «لَئِن عَصَيتُ لَهَويتُ»[1]. غايَةُ الوَعيد للعُصاة.

﴿ٱلَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ ٱلْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَـٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَـٰئِكَ هُمُ ٱلْخَاسِرُونَ﴾[١٢١]

ثُمّ إنّه لَما كان مَجال أن يُقال: إنّ ملّة اليهوديّة هي الهُدى لأنّها ممّا جاء به موسى عليه السلام، ودلّت عليه التّوراة، فاليَهود آخذون ملّتهم من نبيّ الله وكِتابه، فلابُدّ أن يكون هُدىٰ الله، دَفع الله هذا التوهّم بقوله: ﴿الّذِينَ آتَيْنَاهُم ٱلكِتَابَ﴾ المَعهود الذي نزَل على مُوسى، وهم ﴿يَتْلُونَهُ﴾ مُتَدَبّراً فيه ويقرأونه مُتَفكّراً في مَعانية وحقائقه، وذلك يكون ﴿حَقّ تِلَاوَتِهِ﴾ عَلِموا بدلالته أنّ دِين موسى وكتابَه مَنسوخانِ، وعرَفوا أنّ محمّداً ﷺ نبيّ، وكتابَه حقّ، فالإيمانُ بالتّوراةِ مُلازِمٌ للإيمان بمحمّد ﷺ.

فالذين يؤمنون من أهل الكِتاب بمحمّد ﷺ ﴿أُولَـٰئِكَ﴾ الّذين يُصدّقون بكتاب التّوراة و﴿يُؤمِنُونَ بِهِ﴾ ويختَصّون من بين اليَهود باتّباعه، كبعدالله بن سلّام وأضرابه.

وأمّا من كَفر بمحمّد ﷺ وبكتابه مع دلالة التّوراة على صدقهما، فهو كافِرٌ بكتابِ التّوراة، ومكذّب له ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ﴾ ولا يتّبع ما فيه ﴿فَأُولَـٰئِكَ هُمُ ٱلخَاسِرُونَ﴾ في صَفقَتِهم، المغبونونَ في تِجارَتِهم،

١. الارشاد/للشيخ المفيد ١: ١٨٢، بحار الأنوار ٢٢: ٤٦٧.

إذ لا دِين لهم ولا إيمان، لا بموسى ولا بمحمّد ﷺ، وهذا جارٍ في هذه الأمّة الذين أوتوا القرآن، حيث إنّ المؤمنين به هم الذين يتلونه حقّ تِلاوته، ويتدبّرون فيه، ويتّبعونَ أحكامَه.

عن (المَجْمَع) و(العيّاشيّ) عن الصادق عليه السلام: «يتْلُونَه حقّ تِلاوته بالوقوف عِند ذكر الجنّة والنّار[1]؛ يسأل في الأولى، ويستَعيذ من الأخرى»[2].

وعن (الكافي) و(العياشي): «هم الأئمّة عليهم السلام»[3].

يَا بَنِي إِسْرَاءِيلَ ٱذْكُرُوا نِعْمَتِيَ ٱلَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَالَمِينَ * وَٱتَّقُوا يَوْماً لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَاتَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ[١٢٢و١٢٣]

ثُمّ أنّه تعالى لمّا بدأ عند مَحاجّة اليَهود بتَذكيرِهم نِعمتَه التي أنعَم بها عليهم إجمالاً، ختَم مَحَاجتَهم به لتأكيد الحُجّة، وإبلاغ النُّصْح، والدَّعوة إلى اتّباع الحَقّ، والتّسليم لدِينه وأحكامِه، وتَصديق نبيّه ﷺ وكتابه المَجيد بقوله: ﴿يَا بَنِي إِسْرَاءِيلَ ٱذْكُرُوا نِعْمَتِيَ ٱلَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَالَمِينَ﴾.

ثمّ أردَفه بالتّهديد بماهدّدهم به أوّلاً من قوله: ﴿وَٱتَّقُوا يَوْماً لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾ وقد مرّ تفسيرهما[4].

قيل: نُكتَةُ تقديم عَدم قَبول الفِدْيَةِ في الذِكر هُنا على عدَم قَبول الشّفاعة وتأخيره عليه في الآية السابقة، هي الإشارة إلى اختِلاف النّاس في حُبّ المَال وعلوّ النّفس، فمَن كان حبّه للمَالِ أكثر، يقدّم الاستِشفاع على بَذل المَال، ومَن كان بالعَكس كان عَملُه بالعكس.

وَإِذِ ٱبْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي ٱلظَّالِمِينَ[١٢٤]

ثُمّ لمّا كان مُشرِكو قُرَيش ويَهود المَدينة مِن وُلد إبراهيم عليه السلام وكان هو عليه السلام عظيماً عندَهم، بل عند

---

١. تفسير العياشي ١: ١٥٢/١٨٩.
٢. مجمع البيان ١: ٣٧٥.
٣. الكافي ١: ١٦٨/٤، تفسير العياشي ١: ١٥٢/١٨٨.
٤. تقدم في تفسير الآية (٤٨).

جميع الأُمَم أشار سُبحانَه وتعالى إلى أنّه عليه السلام لم يَنَلْ هذِه الكرامَة إلا بالتّوحيد والطّاعة،وأنّه مع عُلوّ مَقامِه سأل الله تعالى كرامتَه لذُرِّيّتِه، فَما أُجِيبَ في حقّ الظّالِمين والعاصين منهم لعدَم قابليّة الظالِم والعَاصي نَيْلَها، بقوله: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰ﴾ وامتَحَن ﴿إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ﴾ بـرَأفَة ربـوبيّتِه له، وكـمال عِـنايته بـه ﴿بِكَلِمَاتٍ﴾.

في ابتلاء إبراهيم عليه السلام بكلمات، والمراد منها

قيل: المُراد بها التّكاليف الشاقّة، والمَصائب العَظيمة، كإلقائه في النّار، والخِتان وهو ابنُ مائة وعِشرين سنَة، والهِجْرَة من الوَطَن المألوف، وبِناء البيْت، وذَبْح الوَلَد[1].

وعن ابن عبّاس رضي الله عنه: ابتَلاه الله بِثَلاثين خَصْلَة من خِصال الإسلام[2]؛ عشر منها فـي سـورة بـراءة ﴿التَّـائِبُونَ ٱلعَـابِدُونَ...﴾[3] إلى آخـره، وعَشـر فـي الأحـزاب: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَاتِ...﴾[4] إلى آخره، وعشر في سورة المؤمنون: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ إلى قوله: ﴿أُوْلَئِكَ هُمُ ٱلْوَارِثُونَ﴾[5].

وما عن القمّي رحمه الله: ـ هو ما ابتَلاه به ممّا أراه في نَومِه من ذَبْحِ وَلَدِه فأتمّها إبراهيم عليه السلام وعَزم عليها وسلّم[6] ـ فمَحمولٌ على بَيانِ أحدِ أفرادِ الكلِمات.

وعن (الخصال) عن الصادق عليه السلام: «هي الكلماتُ التي تَلقّاها آدَمُ من ربّه فتَاب عليه، وهو أنّه قال: ياربِّ أسألك بمحمّد[7] وعليّ وفاطِمة والحسَن والحُسَين إلّا تُبتَ عليَّ، فتَاب [الله] عـليه إنّـه هـو التّوّاب الرّحيم»[8] الخبر.

﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾: إبراهيمُ عليه السلام وامتَثَلَهُنّ وقامَ بهنّ حقّ القيام.

عن الصادق عليه السلام قال: «يَعني أتمّهُنَّ إلى القائِم عليه السلام اثني عشَر إماماً، تسعة مِن وُلدِ الحُسَين»[9].

وعن (العَيّاشيّ) قال: «أتَمَّهُنّ بمحمّد صلى الله عليه وآله وعليّ والأئمّة من وُلدِ عليّ صلوات الله عليهم»[10].

أقول: الظاهر أنّ المُراد من ابتِلاء إبراهيم عليه السلام بالأسماء المُبارَكات تكليفه بمَعرفة ذَواتِهم المقدّسة والتّصديق بفَضلهم عليه وعلى سائر الخَلْق، فلمّا امتَثله وكملت مَعرِفته بهم إلى قائِمهم، صارَ قـلبُه

---

١. تفسير الرازي ٤: ٣٧ و٣٨ «نحوه».
٢. في مجمع البيان: من شرائع الإسلام.
٣. التوبة: ١١٢/٩.
٤. الأحزاب: ٣٥/٣٣.
٥. مجمع البيان ١: ٣٧٨، والآيات من سورة المؤمنون: ٢٣/١-١٠.
٦. تفسير القمي ١: ٥٩.
٧. في المصدر: بحق محمّد.
٨. الخصال: ٨٤/٣٠٥، معاني الأخبار: ١/١٢٦.
٩. الخصال: ٨٤/٣٠٥، معاني الأخبار: ١/١٢٦.
١٠. تفسير العياشي ١: ١٩٣/١٥٣.

مَخزَن مَعرِفة الله ووِعاء علمِه، فاستَغرَق في بحار أنوارِ رَحمته، فعند ذلك أكرَمه الله بغايةِ الكرامةِ، وشرّفه بمَنصِب الإمامة، و﴿قَالَ﴾ له ثواباً على القيام بالطاعة والصّبر عليها: ﴿إِنِّى جَاعِلُكَ﴾ وناصِبُك ﴿لِلنَّاسِ﴾ كافةً إلى قيام السّاعة ﴿إِمَاماً﴾ ومُقتَدىً يأتَمّونَ بك، ويهتَدون بهُداك، فلِذلك اجتمع أهلُ الأديانِ كلّهم على تعظيمه وأمر النبيّ ﷺ باتّباع مِلّتِه كما قال الله: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً﴾[1].

عن الصادق عليه السلام قال: «إنّ الله تبارك وتعالى اتّخذ إبراهيم عليه السلام عَبداً قبلَ أن يتّخِذَه نبيّاً، وإنّ الله تعالى اتّخذه نبيّاً قبل أن يتّخِذه رسولاً، وإنّ الله تعالى اتّخذه رَسولاً قبل أن يتّخذه خَليلاً، وإنّ الله تَعالى اتّخَذه خليلاً قبل أن يتّخِذه إماماً، فلمّا جمَع له الأشياء قال: ﴿إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً﴾ فمَن عِظَمها في عين إبراهيم عليه السلام ﴿قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِى﴾»[2].

وفي رواية عن الرضا عليه السلام: «فقال الخَليلُ عليه السلام سروراً بها ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِى﴾»[3]. ﴿قَالَ﴾ الله عزّ وجلّ ﴿لَا يَنَالُ﴾ وَلا يَصِل ﴿عَهْدِى﴾ والإمامة التي أمرُها بِيَدِي ﴿ٱلظَّالِمِينَ﴾ من ذُرّيتكِ، والعُصاة من نَسْلِك، فإنّ الإمامَ مانِعٌ عن الظّلم، فلا يجوز أن يكونَ هو ظالماً.

قال الرضا عليه السلام: «فأبطلَت هذه الآيةُ إمامَة كلِّ ظالمٍ إلى يوم القيامة، وصارَت في الصَّفْوَة»[4].

وفي رواية: «مَن عبَد صَنَماً أو وَثناً لا يكونُ إماماً»[5].

وفي أُخرى، قال عليه السلام: «لا يَكونُ السَّفيهُ إمامَ التّقيّ»[6].

وفي هذه الرّوايات من التّعريضِ ما لايَخفى.

وفي رواية القُمّي رحمه الله: «ثمّ أنزَل عليه الحَنيفيّة، وهي الطّهارة، وهي عَشَرة أشياء؛ خمسةٌ في الرأسِ، وخَمسَةٌ في البَدَن، فأمّا التي في الرأس: فأخذُ الشّارب، وإعفاء اللّحى، وَطمّ الشّعر، والسّواك، والخِلال.

وأمّا التي في البَدن: فحلقُ الشّعر من البَدَن، والخِتان، وقَلْم الأظفار، والغُسْل من الجَنابة، والطّهور

---

١. النحل: ١٢٣/١٦.
٢. الكافي ١: ٢/١٣٣، الاختصاص: ٢٢.
٣. الكافي ١: ١/١٥٤، عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ١/٢١٧.
٤. الكافي ١: ١/١٥٤، عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ١/٢١٧.
٥. الكافي ١: ١/١٣٣، الاختصاص: ٢٣.
٦. الكافي ١: ٢/١٣٣، الاختصاص: ٢٢.

بالماء. فهذه الحَنيفيّة الطاهرة التي جاء بها إبراهيم عليه السلام فلم تُنسَخ ولا تُنسَخ إلى يوم القيامة»[١].

في أن الإمامة لابد أن تكون بنصّه تعالى وليس للخلق فيها نصيب

ثمّ لا يَذهَب عليك أنّ هذه الآية أقوىٰ الأدِلّة على أن الإمامة وهي الولاية العامّة والمُطاعيّة المُطلَقة لابدّ أن تكونَ بِجَعْل الله ونَصْبِه، ليس للنّاس نصيبٌ للتّصريح فيها، على أنّها عهدُ الله، فلا يُعقَل أنْ يكون جاعِله غيره، ولدلالتها على أنّها مَرتَبة شامِخة فلا يَّليق أن يكون جاعِلها غير الله، مع أنّه لو أمكن جَعْلُها مِن قِبَل النّاس لما سأل ابراهيمُ عليه السلام ربّه أن يجعَلها لذُرّيّتِه، لإمكان أن يُوصي لأُمّته أن يجعَلوها فيهم.

في الاستدلال على وجوب عصمة الأئمة عن المعصية والخطأ والسهو والنسيان، وكونه عالماً بالأحكام ومصالح النّاس

ثمّ اعلَم أنّ في الآيةِ دلالة واضِحة على لُزوم كَون الإمام مَعصوماً من المَعاصي والزَّلَل لِوَجْهَين:

الأول: أنّ معنى لَفْظ الإمام هو مَن يَجب الائتمام به في جَميع أقوالِه وأفعالِه، وأتّباعه في جَميع أوامِره وحرَكاتِه وسَكناتِه، ومن البَديهيّ أنّ مَن يُمكن صدور المَعصِية منه لا يُمكِن وجُوب اتّباعه على الإطلاق، لِلُزومِ إمكان اجتِماع الأمر والنّهي، وهو بَديهيّ البُطلان كَوُقوعِه.

والثاني: قولُه: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّالِمِينَ﴾ حيث إنّ الظّالم صادِقٌ على مَن تلبّس بمَعصِيته ولو كانت صغيرة، فصِدق عُنوان الظّالم والعاصي على أحدٍ في زَمانٍ مُلازمٍ لحِرمانه عن نَيل هذا المَقام الشامِخ أبداً.

ثمّ اعلَم أنّها كما تدلّ على لُزوم كَونِه مَعصوماً عن المَعاصي، تدلّ على لُزومِ كَونِهِ مَعصوماً عن الخَطأ والسَّهوِ والنِّسيان لعدَم إمكانِ وُجوب اتّباع مَن أمكَن في حقّه ذلك على الإطلاق لِما ذُكر.

ثمّ لابدّ أن يكونَ الإمامُ عالِماً بجَميعِ الأحكامِ حتّى لا يأمُر بخِلاف ما أمر الله ولا يَحكُم بغَيرِ حُكمِه، بل لابدّ أن يكونَ عالِماً بجَميعِ مَصالِح الخَلْقِ ومَفاسِدهم، حتّى لا يأمُر أحداً بما فيه فَسادُه، ولا يَنْهاهُ عمّا فيه صَلاحُه، وأن يكونَ أعلَم النّاس، وإلّا لا يكونُ إماماً لجميعهم، بل يكونُ مأموماً لِمَن يكونُ هو أعلَم منه.

إذا تمهّد ذلك فاعلم أنّه لم تكن هذه الصّفات بعد النبي صلى الله عليه وآله إلّا في عليّ عليه السلام وأحَد عَشَر من وُلدِه، ولم يَدّعِها أحدٌ لِغَيرِهم، بل ثَبت بالضّرورةِ واتّفاقِ الأمّة أنّ غيرَهم كانوا فاقِدين لها، فوجَب أن تكونَ

---

١. تفسير القمي ١: ٥٩.

الإمامةُ مختصَّةٌ بهِم، وعدَم صَلاحيّة غَيرِهم لها.

في أنّ الشيخين لم يكـونا صـالحين للخلافة الإلهية

والحاصل: أنّ الآية الكريمة ظاهرةُ الدلالةِ باتّفاق أصحابنا الإماميّة رضوانُ الله عليهم على عدَم صلاحيّة أبي بَكْر وعُمَر للإمامة لوجوه:

منها: أنّهما كانا مُشركَين باتّفاق الأُمّة، والشّركُ ظُلمٌ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [١] فوجَب عدَم صلاحيّتِهما للإمامةِ بهذه الآية.

إن قيل: إنّهما لم يكونا مُشركَين في زَمان الإمامةِ؟

قلنا: صدق مفهوم الظالِم عليهما في زَمانٍ مُخرِج لهما عن صلاحيّتها أبداً، كما أنّ صِدقَ السارِق على أحدٍ في زمانٍ موجبٌ لقَطْعِ يَدِه أبداً، وليس الحُكْم دائراً مدارَ صِدق العُنوان، لأنّه علّة مُحدِثة لا مُبقِية حتّى يَبقى ببَقائه وينتَفي بانتِفائه، والشاهدُ على ذلك حكُم العقلِ بعدَم تَناسُب الذَّوات التي فيها شائِبة الخَباثة والدّناءة مع هذه المَرتبة الشامِخة الإلـٰهيّة.

ومنها: أنّ مَن كان مُذنِباً في الباطِن والسِّرّ، كان ظالماً في الواقع وإن لم يطّلِع عليه أحـد، وإذا لم تُعرَف طَهارَةُ باطِنة لا يجوز أن يُحكَم بإمامتهِ، فوجَب أن يكونَ معصوماً حتّى يعلَم عدَم كونِه ظالماً في الباطِن، ولا تُعلَم العِصمةُ إلّا بنصِّ الله ورَسولِه ﷺ، ولمّا لم يُعرَف أنّ أبـا بكـرٍ وعـمَر مـاكـانَا ظالِمَين في الظاهِر والباطِن لاتّفاقِ الأمّةِ على أنّهما لم يكونَا مَعْصومَين، لم يَجُزْ أن يُنَصَّبا للإمـامة، ووجَب أن لا تَتحّقق إمامتُهما.

قال الفَخر الرازي: استدلّ الشيعةُ بهذه الآية على وجوب عِصمة الإمام عن المعصية ظاهِراً وباطناً، وأمّا نحن فنقول: مقتضى الآية ذلك، إلّا أنّا ترَكنا اعتِبار الباطِن، فتبقى العَدالةُ الظاهِرةُ مُعتبَرة [٢].

أقول: في هذا الجواب ما لا يَخفى من الوَهْن.

في أنّ الآيات الدالة عـلى عـصيان الأنبياء مؤوّلة

إنّ قيل: إنّ الله تعالى حكى عن يونس عليه السلام أنّـه قـال: ﴿سُبْحَانَكَ إِنِّى كُنْتُ مِنَ ٱلظَّالِمِينَ﴾ [٣] وعن آدم عليه السلام أنّه قال: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا﴾ [٤] وعن موسى عليه السلام أنّه قال: ﴿رَبِّ إِنيِّ ظَلَمْتُ نَفْسِى﴾ [٥] فلا يكون الظلمُ منافياً للنبوّة.

قلنا: إنّ إطلاق الظُلم وإنّ كان منصرفاً إلى ارتِكاب المَنْهِيّات التَّحريميّة، إلّا أنّه لابدّ من تأويلهِ في

---

١. لقمان: ١٣/٣١. ٢. تفسير الرازي ٤: ٤٢. ٣. الأنبياء: ٨٧/٢١. ٤. الأعراف: ٢٣/٧.
٥. النمل: ٤٤/٢٧.

مَورِدهم إلى ارتِكاب النَّواهي التّنزيهيّة بالقَرينةِ القَطْعيّة، وهو ثُبوت عِصمَتِهم عليهم السلام.

وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْناً وَٱتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلّىً وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَٱلْعَاكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ[١٢٥]

ثُمّ أنّه تعالى لمّا وهَب لإبراهيم عليه السلام مَنْصِب الإمامة وأكرَمه به، شرّفه بتَشريفاتٍ لم يُشرّف بها أحداً من أنبيائه، منها: أنّه جعَل البيت الذي بَناهُ بيدِه والحِجر الذي قام عليه شرَفاً عظيماً وفَضْلاً جَسيماً، فلذا نبّه سبحانه بشرَفِهما بعد تَشريفه عليه السلام بالإمامةِ، بقوله: ﴿وَ﴾ اذكُر ﴿إِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ﴾ الذي بَناه إبراهيمُ عليه السلام وهي الكعبَة المُعظّمة ﴿مَثَابَةً﴾ ومَرجِعاً ومَعاداً، أو معبَداً ﴿لِلنَّاسِ﴾ كافّةً من الموحّدِين والمُشركين إلى يوم القيامة.

عن ابن عبّاس: أنّه لا ينصَرِفُ [عنه] أحدٌ إلّا و[هو] يتَمنّى العَودَ إليه[١].

وقيل: إنّ المَثابةَ هي[٢] محَلّ الثّواب، حيث إنّ النّاس يحُجّون إليه فيُثابون به[٣].

﴿و﴾ جعَلناهُ ﴿أَمْناً﴾ ومَأْمَناً، عن (الكافي): عن الصادق عليه السلام: «مَن دخَل الحرَم من النّاس مُستَجيراً [به] فهو آمِنٌ مِن سَخَطِ الله عزّ وجلّ، ومَن دخَله من الوَحْشِ والطَّيرِ كانَ آمِناً مِن أن يُهاجَ حتّى يخرُجَ من الحرَم»[٤].

ونقل أنّ أهلَ الجاهليّة كانوا مُتَمسّكين بتَحرِيمه لا يَهيجون على أحدٍ التجأ إليه، وقد أخَذوه من دين إسماعيل[٥].

ونُقل أنّ كَلْب الصّيد كان يَهُمّ بالظّبي فيَفِرّ الظّبيُ منه فيَتْبَعه حتّى إذا دخَل الظّبيُ الحرَم لم يَتْبَعْهُ الكَلْبُ[٦].

والروايات في تحريم مكّة كثيرةٌ جدّاً، روي عن النبيّ صلّى الله عليه وآله أنّه قال: «إنّ الله حرّم مكّة، وإنّها لم تَحِلّ لأحدٍ قبلي، ولا لأحدٍ بعدي، وإنّما أُحلّت لي ساعةً من نهار، وقد عادت حُرمَتُها كما كانت»[٧].

---

١. تفسير الرازي ٤: ٤٦. ٢. في النسخة: مثابة هو. ٣. مجمع البيان ١: ٣٨٣.
٤. الكافي ٤: ١/٢٢٦. ٥. تفسير الرازي ٤: ٤٧. ٦. تفسير الرازي ٤: ٤٧. ٧. تفسير الرازي ٤: ٤٧.

وقيل: إنّه موضع آمِنٌ من القَحْطِ والجَدْبِ[1] لقوله تعالى: ﴿يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾[2].

﴿وَ﴾ قلنا: ﴿ٱتَّخِذُوا﴾ يا عبادي، وآختاروا ﴿مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ﴾ وهو الحجَر الذي عليه أثَرُ قدَمِه ﴿مُصَلًّى﴾.

شرح مقام إبراهيم عليه السلام

عن الباقر عليه السلام في رواية: «ولقد وضَع عبدٌ من عبادِ الله قدَمه على صخرة، فأمَرنا الله تبارك وتعالى أن نتّخذها مُصلّى»[3].

وعن الصادق عليه السلام: «يعني بذلك رَكْعَتَي طواف الفَريضة»[4].

روي أنّه لمّا أتىٰ إبراهيم بإسماعيل وهاجَر، ووضعهما بمكّة وأتت على ذلك مدّة ونزَلها الجُرهميّون، وتزوّج إسماعيل منهم امرأة وماتَت هاجَر، إستأذن إبراهيم عليه السلام سارَة في أن يأتي هاجَرَ، فأذِنَت له وشرَطت عليه أن لا ينزل.

فقَدِم إبراهيم عليه السلام وقد ماتَت هاجَر، فذهَب إلى بيت إسماعيل فقال لامرأته: أينَ صاحِبُك؟ قالت: ذهَب يتصيّد، وكان إسماعيل يَخرُج من الحرَم يتصيّد. فقال لها إبراهيم عليه السلام: هل عندَكِ ضِيافة؟ قالت: ليس عندي. سألها عن عيشِهم فشكَت إليه، فقال لها: إذا جاء زَوجُك فأقرئيه السلام وقولي له: فَليُغَيِّر عَتَبَة بابه.

وذهَب إبراهيم عليه السلام، فجاء إسماعيل فوجَد ريح أبيه، فقال لامرأته: هل جاءك أحَدٌ؟ قالت: جاءني شيخ صِفَتُه كَذا وكَذا ـ كالمُستَخِفّة بشأنه ـ قال: فما قال لك؟ قالت: قال: اقرئي زوجَك السلام وقولي له فَليُغيِّر عَتَبَة بابهِ. قال: ذلك أبي، وقد أمَرني أن اُفارِقَك، الحَقِي بأهلِك. فطلّقها وتزوّج منهم اُخرى.

فلَبِث إبراهيم عليه السلام ما شاء الله أن يلبَث، ثمّ استَأذَن سارَة في أن يزورَ إسماعيل، فأذِنَت له وشَرَطت عليه أن لا ينزِل. فجاء إبراهيم عليه السلام حتّى انتهَى إلى باب إسماعيل عليه السلام فقال لامرأته: أين صاحِبُك؟ قالت: ذَهب يتصيّد وهو يجيئ الآن إن شاء الله، فانزِل رحمك الله.

قال: هل عندك ضِيافةٌ؟ قالت: نعم. فجاءت باللّبَن واللّحم، وسألها عن عَيشَهم. قالت: نحن في خَيرٍ وسَعَة. فدَعا لهما بالبَرَكةِ، ولو جاءت يومئذٍ بخُبزٍ [أو بُرّ] أو شعيرٍ أو تمرٍ، لكانت أكثر أرض الله بُرّاً أو شعيراً أو تَمراً، وقالت له: انزِل حتّى أغسِل رأسك. فلم يَنزِل، فجاءت بالمَقام فوضَعتْه على

---

١. مجمع البيان ١: ٣٨٧.
٢. القصص: ٥٧/٢٨.
٣. تفسير العياشي ١: ١٩٩/١٥٥.
٤. التهذيب ٥: ٤٥٤/١٣٨.

شقّه الأيمَن فوضع قدَمه عليه وهو راكِب، فغسَلت شِقّ رأسِه الأيمَن، ثمّ حّولت إلى شِقّ رأسِه الأيسَر فبقي[١] أثر قدَميه[٢] عليه[٣].

وروي أنّ ابراهيم عليه السلام قام على هذا الحجر وأذّن بالحَجّ[٤].

وفي رواية: أنّ الرّكنَ والمَقام ياقوتَتان من يَواقيتِ الجَنّة، ولولا مماسّه أيدي المُشركين لأضاءتا ما بين المَشرِق والمَغرِب[٥].

وروي أنّه نزَلت ثلاثةُ أحجارٍ من الجنّة: مقام إبراهيم عليه السلام، وحجر بني إسرائيل، والحَجَر الأسود[٦].

ثمّ من تَشريفاته عليه السلام ما ذكره الله ثانياً بقوله: ﴿وَعَهِدْنَا إِلى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ﴾ وأمَرناهما أمراً أكيداً وألزَمنا عليهما إلزاماً شديداً ﴿أَنْ طَهِّرَا﴾ وَنَزِّهَا ﴿بَيْتِيَ﴾ مِن الأصنامِ والأوثان.

عن الصادق عليه السلام: «نَحِّيَا عنه المُشركين»[٧].

وقيل: إنّ المُراد نَزِّهاهُ عن جميع ما لا يَليقُ به[٨].

﴿لِلطَّائِفِينَ﴾ وهم الذين يَطوفون به ﴿وَٱلعَاكِفِينَ﴾ وهم الذين يُقيمون فيه للعِبادة ﴿وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ وهم المُصَلّون فيه.

عن الصادق عليه السلام أنّه سُئِل: أيَغتَسِلْنَ النّساء إذا أتَين البيتَ؟ قال: «نعم، إنّ الله عزّ وجلّ يقول: ﴿أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَٱلْعَاكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ فينبغي للعبد أن لا يَدخُل إلّا وهو طاهِرٌ قد غسَل عنه العرَق والأذىٰ وتَطهّر»[٩].

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا بَلَداً آمِناً وَٱرْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ ٱلثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللهِ وَٱلْيَومِ ٱلآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ[١٢٦]

ومن تَشريفاته عليه السلام أنّه استَجاب دعوَته في حقّ ساكِني مكّة وأهلِها، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ

---

١. زاد في السخة: فيها. ٢. في مجمع البيان: قدمه. ٣. مجمع البيان ١: ٣٨٣.
٤. تفسير روح البيان ١: ٢٢٦. ٥. تفسير روح البيان ١: ٢٢٦.
٦. مجمع البيان ١: ٣٨٣. ٧. تفسير القمي ١: ٥٩. ٨. تفسير الرازي ٤: ٥١.
٩. تفسير العياشي ١: ٢٠٠/١٥٥، علل الشرائع : ١/٤١١.

إِبْرَاهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هـٰذَا﴾ المَكان ﴿بَلَداً آمِناً﴾ قيل: أي مأموناً من الخَسْفِ والمسخ والقَتْل[١].

﴿وَٱرْزُقْ أَهْلَهُ﴾ وَساكِنيه ﴿مِنَ ٱلثَّمَرَاتِ﴾ والمأكولاتِ التي تخرُج من الأرضِ والشَجَر، من الأطعِمة والفواكة، فجمَع في دعائِه لأهلِه بين الأمنِ والسَّعَةِ وطيب العَيْش.

ثمّ أنّه عليه السلام لمّا رأىٰ احتِجاب دُعائه بالإمامة لذُرِّيَّتِه في حَقّ الظالمين منهم، كأنّه احتمَل احتِجاب هذا الدعاء أيضاً في حقّهم، فخصّه بالمؤمنين بقوله: ﴿مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللهِ وَٱلْيَومِ ٱلآخِرِ﴾.

وأخرَج الظالمين عن مسألة دَرّ الرّزق عليهم، فدفَع الله هذا التوهّم، وكأنّه ﴿قَالَ﴾: لا أُخُصّ الرّزق بالمؤمنين منهم، بل أرزقُ مَن آمَن مِنهم﴿وَمَنْ كَفَرَ﴾ حيث إنّ النعَم الدُّنيويّة ليست كالإمامة، بَل تعُمّ الكافِر والمؤمن، إلّا أنّ المؤمنَ تتّصل نِعَمُه الدُّنيويّة بالنعم الأخرويّة، وأمّا الكافر ﴿فَأُمَتِّعُهُ﴾ تَمْتيعاً ﴿قَلِيلاً﴾ من النِعَم الدُّنيويّة التي لا قَدْرَ لها في المدّة القَليلةِ من عُمره، ثمّ أقطَعُها عنه بمَوته ﴿ثُمَّ أَضْطَرُّهُ﴾ وأُلجِئُه ﴿إِلىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ﴾ الذي لا انقِطاع له ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ والمَرجِع ذلك العَذاب الشّديد الدائِم.

عن (العلل): عن الرضا عليه السلام: «لمّا دَعا إبراهيمُ عليه السلام أن يَرزُق أهله من الثَمرات، أمَر بقِطعَةٍ من الأُردُنّ فسارَت بِثِمارها حتّى طافت بالبَيتِ، ثمّ أمرَها أن تَنصَرِف إلى هذا المَوضِع الذي سُمّي بالطائف، ولذلك سُمّي طائفاً»[٢].

قال بعض: الأُردُنّ، بضَمَّتَين: كورةٌ بالشّام[٣].

قيل: إنّ وجه اختِلاف هذه الآية مع ما في سورة إبراهيم[٤] ـ حيث قال هنا: ﴿ٱجعَل هَـٰذَا بَلَداً﴾ بغير اللّام، وهناك مع اللّام ـ أنّ دعوتَه هُنا كانت قبل بِناء البلَد، وهناك بَعد بنائِه[٥].

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ * رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ * رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَابَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ ٱلْعَزِيزُ

---

١. تفسير روح البيان ١: ٢٢٧. ٢. علل الشرائع: ٢/٤٤٢.
٣. معجم البلدان ١: ١٧٦، لسان العرب ١٣: ١٧٨.
٤. في قوله تعالى: ﴿رَبِّ ٱجعَلْ هَـٰذَا ٱلبَلَدَ آمِناً﴾ ابراهيم: ٣٥/١٤. ٥. تفسير الرازي ٤: ٥٥.

ٱلْحَكِيمُ [١٢٧ ـ ١٢٩]

في شرح بناء الكعبة وفضلها

ومن تشريفاته عليه السلام أنّه أمر ببناء الكعبة، فذكّر الله نبيّه صلى الله عليه وآله به بقوله: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ﴾ والأساس من الكعبة، وكان أساسه من زَمان آدم عليه السلام ثمّ خَرِب بُنيانه، فرفع إبراهيم عليه السلام البُنيانَ على ذلك الأساس.

روي أن آدم عليه السلام اُهبِط بالهِند فقال: يا ربِّ، مالي لا أسمَع صوتَ المَلائكة كما كنتُ أسمَعُها في الجنّة؟ قال: بَخطيَئتك، فانطلِق إلى مكّة فابنِ بها بيتاً تَطوف به كما رأيتَهم يَطوفون[1].

أقول: يعني كما رأيتَهم يَطوفون حولَ العَرْشِ، أو بيت المَعمور. قال: فانطلَق إلى مكّة فبَنى البيت، فكان مَوضِع قدَمي آدم قرىً وأنهاراً وعمارة، وما بين خُطاه مَفاوِز، فحجّ آدم البيتَ من الهِند أربَعين سنةً.

ونقل أنّه سأل عُمَر كعباً، فقال: أخبِرني عن هذا البيت. فقال: إنّ هذا البيت أنزَله الله تعالى من السّماء ياقوتةً مُجوَّفةً مع آدَم عليه السلام، فقال: يا آدَم، إنّ هذا بَيْتي، فَطُفْ حَولَه، وَصَلِّ حوله كما رأيتَ ملائكتي يطوفون حَول عَرْشِي ويصلّون. ونزَلت معه الملائكة فرفَعوا قواعِدَه من حِجارةٍ فوَضع البيت على القَواعِد، فلمّا أغرَق الله قوم نوحٍ، رفَعه الله وبَقِيَت قَوعِده[2].

وروي أنّ أمير المؤمنين عليه السلام قال: «البيتُ المَعمور بيتٌ في السَّماء يقال له الضُّرَاح، وهو بحِيال الكعبة من فَوقِها، حُرمتُه في السّماء كحُرمَةِ البَيتِ في الأرضِ، يصلّي فيه كلّ يوم سَبعونَ ألفاً من المَلائكة، لا يَعودونَ فيه أبداً»[3].

وروي عنه عليه السلام قال: «مرّ عليه الدَّهرُ بعد بِناء إبراهيم عليه السلام فانهدَم فبَنَتْهُ العَمالِقة، ومرّ عليه الدَّهر فانهدَم فبَنَتْهُ جُرْهُم، ومرّ عليه الدَّهر فانهدَم فبَنَتْهُ قُرَيش، ورَسولُ الله صلى الله عليه وآله يومئذٍ شابٌّ. فلمّا أرادوا أن يرفَعوا الحَجَر الأسوَد اختصَموا فيه، فقالوا: يَحكُم بينَنا أوّل رجلٍ يخرُج من هذه السِكّة، وكان رسولُ الله صلى الله عليه وآله أوّل من خرَج عليهم، فقَضى بينَهم أن يجعَلوا الحَجَر في مِرْط ثمّ ترفعه جميع القبائل، فرفَعوا كلّهم فأخذه رسولُ الله صلى الله عليه وآله فوَضعه»[4].

في وجه تسمية البيت بالحرام والكعبة

وروي: أنّ الكعبة إنمّا سميّت بيت [الله] الحَرام، لأنّه حُرّم على المُشركين[5]. وسمّي

---

١. تفسير الرازي ٤: ٥٠. ٢. تفسير الرازي ٤: ٥٠. ٣. تفسير الرازي ٤: ٥١. ٤. تفسير الرازي ٤: ٥١.
٥. علل الشرائع: ١/٣٩٨.

الكعبة لأنّها مربّعة، وصارت مربّعة لأنّها بحِذاء البيت المَعمور وهو مربّع، وصار البيتُ المعمور مربّعاً لأنّه بحِذاء العَرْش وهو مربّع، وصار العَرْش مربّعاً لأنّ الكلمات التي بُني عليها الإسلامُ أربَع، وهي: سُبحانَ الله، والحَمدُ لله، ولا إلـه إلّا الله، والله أكبَر[1].

وعن الزُّهريّ أنّه قال: بلَغَني أنّهم وجَدوا في مَقام إبراهيم عليه السلام ثلاث صفوح في كلّ صَفحٍ منها كتاب، في الصَّفح الأوّل: أنا الله ذو بَكّة، صَنَعتُها يوم صَنَعت [الشمس] والقَمَر،[2] الخبر.

في وجه تسمية البيت بالعتيق

عن الصادق عليه السلام قال: «لمّا بلَغ إسماعيلُ مَبلغَ الرّجال، أمر الله إبراهيمَ عليه السلام أن يبني البَيت، فقال: يا ربِّ، في أيّ بُقعَةٍ؟ قال: في البُقعةِ التي أنزلتُ بها على آدم القُبّة فأضاء لها الحرَم، ولَمْ يَدْرِ إبراهيمُ عليه السلام في أيّ موضعٍ يَبني، فإنّ القُبّة التي أنزَلها الله على آدم كانت قائمة إلى أيّام الطوفان أيّام نوح عليه السلام.

فلمّا غَرِقت الدُنيا رفَع الله تِلك القُبّة وبقي مَوضِعُها لم يَغْرَق، ولهذا سُمّي البيت العَتيق لأنّه أُعتِق من الغَرق. فبعَث الله جَبْرَئيل فخَطّ له مَوضِع البَيت، فأنزَل عليه القَواعِد من الجنّة، وكان الحجَر لمّا أنزَله الله على آدم عليه السلام أشَدّ بَياضاً من الثّلج، فلمّا مَسّتْهُ أيدي الكُفّارِ اَسْوَدَّ، فبَنى إبراهيم عليه السلام البَيت»[3] الخبر.

﴿وَإِسْمَاعِيلُ﴾ يُعاونُه، أو يَرفَعُها معَه. عن (الكافي) في رواية: «فلمّا أذِن الله له في البِناء قَدم إبراهيم عليه السلام فقال: يا بُنيّ، قد أمَرنا الله ببِناء الكعبة. وكشَفا عنها، فإذا هو حجَرٌ واحِدٌ أحمَر، فأوحىٰ الله تعالى إليه أن ضَعْ[4] بناءَها عليه. وأنزَل الله عزّ وجلّ أربعة أملاك يجمَعون إليه الحِجارَة، فكان إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام يضَعان الحِجارةَ، والملائكةُ تُناوِلُهما حتّى تمّت اثنا عَشَر ذراعاً»[5].

وفي رواية: بنى إبراهيم وإسماعيل البيتَ كلّ يوم سافاً حتّى انتَهى إلى مَوضِع الحجَر الأسوَد[6].

قال أبو جعفر عليه السلام: «فنادى أبو قُبَيس [إبراهيم عليه السلام]: إنّ لك عندي ودَيعةً، فأعطاه الحجَر فوضَعه مَوضِعَه»[7].

وعن (العلل) و(العياشي): عن الصادق عليه السلام قال: «إنّ الله عزّ وجلّ أنزَل الحجَر [الأسود] لآدم عليه السلام

---

١. علل الشرائع: ٢/٣٩٨.
٢. تفسير الرازي ٤: ٥١.
٣. تفسير القمي ١: ٦١.
٤. في النسخة: إليه أصنع.
٥. الكافي ٤: ٣/٢٠٣.
٦. الكافي ٤: ٤/٢٠٥.
٧. الكافي ٤: ٤/٢٠٥.

من الجنّة إلى البَيت دُرّة بيضاء، فرفَعه الله إلى السّماء، وبَقي أسّه. فهو بحِيال هذا البيت، يدخُله كلّ يومٍ سبعون ألف مَلَك، لا يَرجِعون إليه أبداً، فأمَر الله إبراهيم وإسماعيلَ عليهما السلام ببنيان البيت على القَواعِد»[1].

في أنّ إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام كانا شريكين في رفع القواعد، وأن إسماعيل أول من نطق بالعربية

واعلَم أنّ ظاهِرَ الآية المُباركة والروايات شركة إبراهيم وإسماعيل عليه السلام في رَفع القَواعِد وبِناء البَيت.

وفي عدّة رواياتٍ أُخَر: أنّ إبراهيم كانَ متفرّداً في بناء البيت، وإسماعيل كان يُناوله الأحجار[2]، كما عن (المجمع) عن الباقر عليه السلام: «أنّ إسماعيلَ أوّل مَن شقّ لِسانَه بالعربيّة، وكان أبوه يقول وهُما يَبنِيان: هاي ابني[3]، أي أعطِني حجَراً، فيقول له إسماعيل بالعربيّة: يا أبه، هاكَ حجَراً، فابراهيم يبني وإسماعيل يُناوِلُه»[4].

ولعلّ وجه الجَمْع أنّ إبراهيم عليه السلام كان شُغْلُه مُنحَصِراً برَفعِ البِناء، وإسماعيل يُشاركه في الرَّفعِ ويُناوِله الحَجَر أيضاً، والملائكة كانوا يُعاوِنونَهما بإعطاء الحجَر.

وهما في هذا الحال يَدعُوان ويقولان: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا﴾ عَمَل بناء بَيتِك ﴿إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ﴾ لدُعائنا ومسألتِنا ﴿ٱلعَلِيمُ﴾ بنياتِنا والمشقّة التي نتحمّلهما خالِصاً لك، وتقرباً إليك.

وفي تَخصيص الوَصفَين به تعالى إشعارٌ بالتّوحيد الصِّفاتي، كأنّهما قالا: إنّ سَمْعَ كلِّ سميعٍ وعِلمَ كلِّ عليمٍ منكَ ورَاجعٌ إليك، وصِفاتُ غيرِك مُندَكّة في صِفاتِك.

وأمّا الدّعوَة الثانية، فقولُهما: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلنَا﴾ بتَوفيقك وتأييدك ﴿مُسْلِمَينَ﴾ مُنقادين ﴿لَكَ﴾ مُسلّمين لأوامِرك وحُكمِك، راضِينَ بقَضائِك وقَدَرِك، خالِصِينَ لِوَجْهِكَ، لا نَعبُد سِواكَ ولا نتوجّه إلى غَيرِك ﴿وَ﴾ آجعَل بعضاً ﴿مِنْ ذُرِّيَّتِنَا﴾ وَنَسْلِنا ﴿أُمَّةً﴾ وجمَاعةً ﴿مُسْلِمَةً لَكَ﴾.

وإنّما خصّا الدّعاء ببعض ذرّيتهم لعِلمهم من قوله: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّالِمِينَ﴾[5] بأنّه لابدّ أن يكونَ بعضُهم ظالِماً، ولم يَعلما أنّ فيهم أهلَ التّسليم والتّفويض، ولذا سألا أن يجعَل الله بعضهم مسلماً مُخلصاً مُنقاداً كي يكونَ صالحاً للإمامة.

---

١. تفسير العياشي ١: ١٥٦/٢٠٣، علل الشرائع: ١/٣٩٨.
٢. تفسير الرازي ٤: ٤٨.
٣. في مجمع البيان: يا إسماعيل هات ابن.
٤. مجمع البيان ١: ٣٨٩.
٥. البقرة : ١٢٤/٢.

وإنّما خصّا ذرّيّتهما بالدّعاء لزيادةِ شفقَتِهما بهم، وكثْرَة ثوابهما بعيادتهم، ولأنّ في صَلاحِ أولادِهم وكَونِهم أنبياء صَلاح عامّة الخَلْق.

عن (العياشي): عن الصادق عليه السلام: «أراد بالأمّة بني هاشِم خاصّة»[1].

وعنه عليه السلام: «هم أهلُ البيت الذين أذهَب الله عنهم الرّجس وطهَّرهم تطهيراً، ولم يزَل في ذرّيّتهما الأنبياء والرّسل والأئمّة والهُداة»[2].

وأمّا الدّعوة الثالِثة فقولهما: ﴿وَأَرِنَا﴾ وعرِّفْنا ﴿مَنَاسِكَنَا﴾ وعباداتنا التي تَلْزَمنا في هذا المَقام.

في وجه تسمية عرفات وحكمة رمي الجمرات

نُقل أنّ جَبْرَئيل عليه السلام أرى إبراهيم عليه السلام المَناسِكَ كلّها حتّى بلَغ عرَفات، فقال: يا إبراهيم، أعرَفتَ ما أرَيتُك من المَناسِك؟ قال: نعَم، فسُمِّيتَ عرَفات، فلمّا كان يوم النَّحر أراد أن يزورَ البَيت، عرَض له إبليس فسَدّ عليه الطّريق، فأمَره جَبْرَئيل عليه السلام أن يَرْمِيَه بسَبْعِ حُصَيّات، ففعَل، فذهَب الشّيطان، ثمّ عرَض له في اليوم الثّاني والثّالث والرّابع، كلّ ذلك يأمُره جَبْرَئيل عليه السلام برَمْي حُصيّات[3].

وأمّا الدّعوة الرّابعة فقولهما: ﴿وَتُبْ عَلَيْنَا﴾ ممّا فرَط منّا مِن تَرْكِ الأولى، والتّوجُّه إلى غيرِك فإنّ توبة الأنبياءِ لا تكون من ذَنْبٍ بَل من أحدِ الأمرَين.

روي عن النبي صلى الله عليه وآله قال: «إنّه لَيُغان[4] على قَلبي، وإنّي لأستَغْفِر»[5] إلى آخره.

﴿إِنَّكَ أَنْتَ ٱلتَّوَّابُ﴾ لِمَن تابَ إليك ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ بِمَنِ آسْتَرْحَمَك.

ثمّ ختما دعاءهما بقَولهما: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ﴾ أي في ولْدِ إسماعيل، أو في الأُمّة المُسلِمَة ﴿رَسولاً﴾ كائناً ﴿مِنْهُمْ﴾ روي أنّه لم يُبعَث فيهم غير نبيّنا محمّد صلى الله عليه وآله[6].

وروي أنّه صلى الله عليه وآله قال: «أنا دعوة [أبي] إبراهيم»[7] وإنّما سألا أن يكون الرّسول في مكة من ذرّيّتِهما ليكونَ بسبب النَّسَبِ أرأف وأشفَق بهم، وأحرَص على دَعوتِهم وهِدايتهم وتربيتهم، وليكونَ له عِزّاً وشرَفاً فوق الشّرَف، فيقوم بدَعوَتِهم وهِدايَتِهم.

﴿يَتْلُوا﴾ ويقرأ ﴿عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ﴾ ودَلائل توحيدك وكمال صفاتك ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلكِتَابَ﴾ المُنزل

---

١. تفسير العياشي ١: ٢٠٦/١٥٧، مجمع البيان ١: ٣٩٣.
٢. تفسير الصافي ١: ١٧٣.
٣. تفسير الرازي ٤: ٦٢.
٤. الغَيْن: الغَيم، وقيل: الغين شجر ملتف.
٥. صحيح مسلم ٤: ٢٧٠٢/٢٠٧٥.
٦. تفسير الصافي ١: ١٧٣.
٧. تفسير القمي ١:٦٢، مجمع البيان ١: ٣٩٥.

من عندِك بمعانيه وحقائقه بعد التّلاوة عليهم ﴿وَ﴾ يعلّمهم ﴿ٱلحِكْمَةَ﴾ وما تكمُل به نُفوسُهم من المعَارف والأخلاق وتَمييز الحقّ من الباطل ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ عن الرّذائل والعُيوب وسيّئات الأخلاق حتّى يقوموا بطاعَتِك وعبوديّتك.

﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلعَزِيزُ﴾ القادِرُ الغَالِبُ الذي لا يُغلَب على ما يُريد ﴿ٱلحَكِيمُ﴾ الذي لا يجهَل شيئاً، ولا يفعَل على غير صَلاحٍ.

وَمَن يَرْغَبُ عَن مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَاهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِى ٱلْآخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّالِحِينَ [١٣٠]

ثمّ أنّه تعالى بعد ما وصَف إبراهيم عليه السلام بكونه إماماً ومتّبعاً للعالمين ومشرّفاً بتشريفات لم يُشرَّف بها أحدٌ من النبيّين، وكونِه أكمَل الموحِّدين، وأسلَم المُسلمين، وكان اللازم أن يحكم العَقل بوجوب اتّباع مثل هذا النبيّ الكريم والشخص العظيم، مع أنّ العقل حاكِمٌ بمُختارِه من التّوحيد والتّسليم، نبّه سبحانه على أنّه لا ينبغي لأحدٍ أن يُعرِض عن اتّباعه، بل ينبغي أن يُعدّ المُعرِض في زُمرَةِ السُّفَهاء والمَجانين، بقوله في مقام التعجّب لِمَن كان أهله: ﴿وَمَنْ يَرْغَبُ﴾ ويُعرِض ﴿عَنْ مِلَّةِ إبرَاهِيم﴾ وهو التّوحيد والتّسليم ﴿إلّا مَنْ سَفِهَ﴾ واستخَفّ وأمتهَن ﴿نَفْسَهُ﴾ إذ كلُّ مَن أعرَض عن طريق يَرغَب فيه العُقَلاء ويُوصل الساعي فيه إلى عِزّ الدّنيا وشرَف الآخرة، لا ينبغي أن يُحسَب في زُمرَة العُقَلاء، بل هو أسفَه النّاس.

ثمّ العجَب من قُرَيش واليهود الذين أعظَم مفاخرهم بالانتِساب إلى إبراهيم عليه السلام الذي قال سبحانه في حقّه: ﴿وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَاهُ﴾ وٱجتبَيْنَاه ﴿فِى ٱلدُّنْيَا﴾ إذ جعَلناه أُمّةً قانِتاً، ومَفخَراً، ومُطاعاً للأُمم العَظيمة ﴿وَوَهَبْنَا لَهُم مِن رَحمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيّاً﴾ [١].

﴿وَإِنَّهُ فِى ٱلآخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّالِحِينَ﴾ الّذين هُم أكرَم النّاسِ منزلةً، وأرفَعُهم درجةً، إنّهم كيف ترَكوا ملّته ولم يُسلِموا لرَسولٍ استَجاب الله به وببعثَتِهِ دعوَتَه!

في الاستدلال على النبوّة

ثمّ اعلَم أنّ في هذه الآياتِ وما بعدَها حجّة بالِغة على اليَهود وغيرِهم على نبوّته صلى الله عليه وآله وصِدق دَعواه، وأنّه المبعوث من الله للرّسالة، حيث إنّ دَعوةَ إبراهيم عليه السلام بأن يبعَث

---

١. مريم: ٥٠/١٩.

الله رسولاً في مكّة كان من المسلّمات، ولم يظهَر فيها مُدَّعٍ للنبوّة إلّا وجودُه المُقدّس، وكانت هذه الآيات بفَصاحَتِها واشتِمالها على الأخبار الغَيبيّة مُعجزةً ظاهِرةً له، إذ لم يكن ﷺ قارئاً للكتُب ومُجالِساً لعُلَماء أهلِ الكِتاب، فثبت أنّه ﷺ هو مسؤول إبراهيم عليه السلام.

إن قيل: كيف يُمكِن القَطع بأنّ جميع ما أخبر به من قصّة إبراهيم، من إتمامه الكلمات، وبناء البَيت، وسائر الدَّعَوات، كان مسلّماً بين أهل الكِتاب، ومَسطوراً في الكتُب؟

قلنا: لو لم يكُن بينَهم من الوضوح بمَكانٍ، لتَسارعوا إلى تكذيبِه مع شِدّة عداوتهم وحِرْصِهم على إطفاء نورِه، ولو كذّبوه في هذِه الأمور لنُقِل إلينا، ولو بأخبارِ الآحاد.

عن (المجمع): عن السجاد عليه السلام [1]: «ما أحدٌ على ملّةِ إبراهيم إلّا نحنُ وشِيعَتُنا، وسائر النّاس منها براء» [2].

إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَالَمِينَ * وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ ٱللهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُم مُسْلِمُونَ [١٣١ و ١٣٢]

ثمّ ذكَر الله عِلّة اصطِفائه بقوله: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ﴾ حين خرَج من الغارِ على ماقيل، بالإلهامِ في قَلبِهِ، وتَقوِيَة عَقلِه، وتَنفيذ بَصِيرَته، وإراءة الآيات الباهِرات ﴿أَسْلِمْ﴾ وأخلِص وَجهَك لله ﴿قَالَ﴾ إبراهيمُ عليه السلام مُبادِراً إلى الطاعة والانقياد باستِعداده الكامل: ﴿أَسْلَمْتُ﴾ وَجهِي وَأخلَصتُ قَلبِي ﴿لِرَبِّ ٱلعَالَمِينَ﴾ بالتّوحيد الكامِل، والعِرفان التّامّ.

والظاهر أنّه كان إقرارُه بلِسانِ حالهِ ورُسوخ المَعرِفة في سَراشِرِ وُجودِه، لا بِلِسان قاله، فلمّا كَمُلت نَفسُه بمَعرِفة الله بادَر إلى الدّعوَةِ إلى مِلّة التَّوحيدِ والإسلام.

﴿وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ﴾ قبل سائر النّاس شَفَقةً بهم، قيل: كانوا أربعاً وقيل: ثَمان [3].

﴿وَيَعْقُوبُ﴾: وَصّى بها بَنِيه أيضاً كجَدِّه إبراهيم عليه السلام وكانت وصيّته أن قال: ﴿يَا بَنِيَّ إِنَّ ٱللهَ

---

١. في المحاسن: الحسين بن علي عليهما السلام.

٢. المحاسن ١: ١٤٧/٥٤، تفسير الصافي ١: ١٧٣، ولم نعثر عليه في مجمع البيان.

٣. تفسير أبي السعود ١: ١٦٣.

ٱصْطَفَىٰ﴾ واستَخْلَص ﴿لَكُمُ ٱلدِّينَ﴾ المَرْضيّ لَهُ، وصَفْوَة الأديانِ الذي اختارَهُ المَلائكة والخلّصون من عِباده، بأن نصَب الدلائل الظاهِرة عليه، ودَعاكُم إليه.

ثمّ عيّن ذلك الدّين صريحاً، وأكّد في وجوب الالتِزام به بقوله: ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ﴾ في حالٍ من الأحوالِ ﴿إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ لله، مُوَحّدون له. والمعنى: لا تُفارِقوا دينَ الإسلام في آنٍ، كي لا يُبادِرَكم المَوتُ وأنتُم على غَيره فيُدرِككُم غايَةُ الخُسران.

قيل: في هذه الحكاية دلالة قويّة على أنّ الالتِزام بدين الإسلام أهَمّ الأُمور، حيث أمر إبراهيم عليه السلام بعنوان الوصيّة، وهو آكدُ من الأمر، وخصّ بها بَنيهِ الّذين كان أشفق عليهم من جميع الخَلق، وما مزج بهذه الوصيّة وصيةً أُخرىٰ، وعبَّر عن حقّانيّتِه بأنّ الله اصطَفاه لكم، وعمَّمَهم بتلك الوصيّة، وما قيّدها بزَمانٍ دون زَمانٍ وحالٍ دونَ حالٍ، وزجَرهم عن أن يَموتوا غير مُسلِمين[1].

ثُمّ لمّا كان عليه السلام مشهوراً بالفَضْلِ والعقْلِ والصَّلاحِ وَحُسْنِ الطَّريقةِ ومَتانَةِ السِّيرةِ، ومع ذلك اهتَمّ بلُزوم هذا الدّين نِهاية الاهتِمام، عرف أنّه أولى الأُمور وأحقّها به.

أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِى قَالُوا نَعْبُدُ إِلٰهَكَ وَإِلٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلٰهاً وَاحِداً وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ[١٣٣]

ثمّ أنّه تعالى بعد بَيان وصيّة إبراهيم ويعقوب عليهما السلام، بيّن أنّ يعقوب عليه السلام ما اكتفى بالوصيّة، بل أخَذ من أولادِه الإقرارَ والعَهْدَ على الالتِزام به بقوله: ﴿أَمْ كُنْتُمْ﴾ قيل: إنّ المُراد بَل أكُنتم أيّها اليَهود الحاضِرون، أو مَعاشِر المسلمين ﴿شُهَدَاءَ﴾ حُضّاراً ﴿إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ﴾ وحين احتَضَر وقَرُب وَفاتُه؟! والاستِفهامُ على الإنكار، والمَعنى ـ والله العالِم ـ ما كُنتُم حاضِرين عند يعقوب حين حضَرَتهُ الوَفاة، بل إن عَلِمتُم به فَبِالوَحْي.

﴿إِذْ قَالَ﴾ حينئذٍ شَفَقةً ﴿لِبَنِيهِ﴾ وهم كانوا اثني عشَر: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعدِى﴾ وأيّ شيءٍ تَتّخِذونه إلٰهاً بعد مُفارَقتي إيّاكم بالمَوت؟ ﴿قَالُوا نَعْبُدُ إِلٰهَكَ وَإِلٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ قيل: عدّ اسماعيل في الآباء لأنّ العمّ صِنْوُ الأبِ، وبِمَنزلتِه في التّعظيم[2].

---

١. تفسير الرازي ٤: ٧٢. ٢. تفسير الصافي ١: ١٧٤.

ثمّ بعد هذا الإقرار الإجمالي صرّحوا بالتّوحيد لاطمئنان قَلب يَعقوب، بقولهم: ﴿إِلٰهاً وَاحِداً﴾ لا شَريكَ له ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ مُنقادون.

قيل: إنّ اليهود قالوا لرسول الله ﷺ: ألستَ تعلَم أنّ يعقوب أوصىٰ بَنيه باليَهوديّة يوم مات؟ فنزلَت[1]. وعلى هذا يُمكن أن تكون كلمة (أم) وصليّة. والتّقدير: أتدَّعون هذا أم كنتُم شُهداء؟ يعني أكانَ أوائِلكُم شاهِدين وأنتُم علمِتم ذلك، فما لكم تدّعون على الأنبياء ما هم منه بُراء؟

وعن بعض التفاسير: أنّ يعقوب عليه السلام لمّا دخَل مِصر ورأىٰ أهلَها يعبدُون النّيران والأوثان خاف على بَنيه الشّرك بعد وَفاتِه، فوَصّاهم بهذِه الوصيّة، وأخَذ منهم الإقرار تحريضاً لهم على التمسّك بعبادة الله[2].

تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْئَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ [١٣٤]

ثمّ لمّا كان اليَهود يفتَخِرون بآبائهم إبراهيم وإسحاق، ويَرَون أنّهم لصَلاحِ آبائِهم لا يُعذّبون؛ ردّهم الله تعالى بقوله: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ﴾ وجَماعةٌ ﴿قَدْ خَلَتْ﴾ ومَضَت، حال كونه ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾ وعمِلت، لا يَرجِع إليكم نَفعُ أعمالِهم ﴿وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ﴾ من أعمالِكم، لا يَرجِع إليهم ثَوابُها ونَفعُها ﴿وَلَا تُسْئَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ولا تُؤاخذون به. فلا تَفْخروا بأوائلكم إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب عليهم السلام اذ لا ينفَعُكم حَسَناتُكم، ولا يضرّكم سيّئاتهم.

وَقَالُوا كُونُوا هُوداً أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ [١٣٥]

ثمّ أنّه تعالى بعد إقامةِ البَراهين على ضَلالةِ اليَهود والنّصارى، بيّن أنّهم مع تلك الحُجَج القاطِعة مُصِرّون على كُفرِهم وضَلالهم واتّباع المُسلمين لهم بقوله: ﴿وَقَالُوا﴾ للمسلمين ﴿كُونُوا هُوداً أَوْ نَصَارَىٰ﴾ يعني قالت اليهود: كونوا هوداً، وقالت النّصارى: كونوا نصارى، حتّى ﴿تَهْتَدُوا﴾ وتُصِيبوا طريق الحقّ.

﴿قُلْ﴾ يا محمّد ردّاً عليهم: لا نتّبع اليهوديّة والنّصرانيّة ﴿بَلْ﴾ نتّبع ﴿مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾ حيث كان

---

١. تفسير الصافي ١: ١٧٤.

٢. تفسير الرازي ٤: ٧٦.

﴿حَنِيفاً﴾ ومائلاً عن كلّ دينٍ باطلٍ إلى دينِ الحقّ.

وفي قوله: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ تَعريضٌ عليهم وعلى غيرهم من أهل الشّرك، لأنّ كلاً منهم كانوا يدّعونَ ملّة إبراهيم عليه السلام والحال أنّهم كاذبون، لأنّه ثَبت أنّ إبراهيم عليه السلام كان على التّوحيد، واليهود كانوا مُشركين بقَولهم: عُزَيرٌ ابنُ الله، والنّصارى بقولهم بالتّثليث، أو إنّ المسيحَ ابنُ الله.

عن (العياشي): عن الصادق عليه السلام قال: «[ان] الحَنيفيّة هي الإسلام»[1].

وعن الباقر عليه السلام، قال: «ما أبقَتِ الحَنيفيّة شيئاً حتّى إنّ مِنها قَصّ الشّارب، وقَلْم الأظفار، والخِتان»[2].

قُولُوا آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ[١٣٦]

ثُمّ أنّه تعالى لمّا ردّ قول اليَهود والنّصارى بأنّهم مُتّبِعون دين اليهوديّة والنّصرانيّة عن تقليدٍ وبغيرِ دليلٍ، وأنّه لو كان بناءُ الدّين على التّقليد كان تقليد إبراهيم عليه السلام الذي عُرِف بالاستِقامة أولىٰ وأقرَب إلى السّلامة، بيّن بُطلان دينِهم بالبُرهان، بقوله: ﴿قُولُوا﴾ أيّها المؤمنون.

عن (الكافي) و(العياشي): عن الباقر عليه السلام [قال]: «إنّما عَنى بذلك عليّاً وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام وجرت بعدهم في الأئمّة عليهم السلام»[3].

﴿آمَنَّا باللهِ﴾ وهو أوّل الواجِبات العقليّة ﴿وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ من اللهِ، وهو القرآن بدلالة المُعجِزات الباهِرات، وفيه الايمانُ بنبوّة مَن جاء به، وهو محمّد صلى الله عليه وآله ﴿وَمَا أُنزِلَ﴾ من الله ﴿إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ﴾ وهم أحفاد يعقوب من أولادِه الاثنَي عشَر، وكان منهم كثيرٌ من الأنبياء.

عن (العيّاشي): عن الباقر عليه السلام أنّه سُئل: هل كان وُلد يعقوب أنبياء؟ قال: «لا، ولكنّهم كانوا أسباطاً أولاد الأنبياء، ولم يكونوا فارَقوا الدّنيا إلّا سُعَداء»[4].

والظاهرُ أنّ المُراد أنّه لم يكن جَميعُهم أنبياء.

---

١. تفسير العياشي ١: ٢٠٨/١٥٨.
٢. تفسير العياشي ١: ٢٠٩/١٥٨.
٣. الكافي ١: ١٩/٣٤٤، تفسير العياشي ١: ٢١٢/١٥٩.
٤. تفسير العياشي ١: ٢١١/١٥٩.

﴿وَمَا أُوتِىَ﴾ من قِبَلِ الله ﴿مُوسَىٰ﴾ بن عِمران من التّوراة ﴿وَعِيسَىٰ﴾ بنُ مريمَ من الإنجيل ﴿وَمَا أُوْتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ﴾ مِن الصُّحُفِ والمُعجِزات حال كَون جميعها مُنزَلاً ﴿مِنْ رَبِّهِمْ﴾ ونَحنُ ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ﴾ بالإيمان بالبَعْضِ والكُفْرِ بالبَعْضِ، كما أنتُم تُفرِّقون بينَهم بالإيمان والتّكذيب، مع أنّهم سواءٌ في الحُجَج والآياتِ الدالّة على صِدْقِهم لو أنتُم تقولون: إنّهم مُتَفرِّقون في اُصـول الدّيـانات، ونَحنُ نقول: إنّهم مُجتَمِعون على اُصول الإسلام.

﴿وَنَحْنُ﴾ باللهِ مؤمنون، و﴿لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ مُنقادون، نتّبع ما أمرَنا ربّنا، ولا نتّبع هَوىٰ أنفُسِنا، فكلّ مَن ظهَرت دَلائلُ صِدقهِ في دَعوىٰ النبوّةِ نُصَدِّقُه ونُـؤمن بـه، فـلذا نـؤمن بـمحمّد ﷺ حيث أظهَر المُعجِزات وأقام الدلائل على صِدْقِه كسائر الأنبياء.

فَإِن ءَامَنُوا بِمِثْلِ مَا ءَامَنْتُم بِهِ فَقَدِ ٱهْتَدَوا وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللهُ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ[١٣٧]

ثُمّ أنّه تعالى لمّا بيّن حقيقةَ الهُدىٰ التي تحكُم العُقول السّليمة بها، وهو الإيمان بـجَميع الكـتُب السّماويّة وسائر الأنبياء الذين أتَوا بالمُعجِزات الباهرات، عارَض قولَهم: ﴿كُونُوا هُوداً أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا﴾[١] بقوله: ﴿فَإِنْ ءَامَنُوا﴾ اليَهود والنّصارى وسائر الكُفّار ﴿بِمِثْلِ مَا ءَامَنْتُمْ بِهِ﴾ من دين الإسلام وما يُشابِهُه في الصِحّة والاستِقامة والسَّداد، وأنّى لهم بتَحصيلِ مثل هذا الدِّين القَويم! وقيل: معنى ﴿مثل ما آمنتم﴾، هو ما آمنتم.

﴿فَقَدِ ٱهْتَدَوا﴾ إلى طريق الفَلاح والنَّجاح، وإن لم يتمكّنوا من تَحصيل دينٍ مثله، فلابُدّ لهم من الإيمان به والانقِياد له.

﴿وَإِنْ تَوَلَّوا﴾ وأعرَضوا عن هذا الدِّين، فأعرِض عنهم ﴿فَإِنَّمَا هُمْ﴾ ثابِتون مُستقرّون ﴿فِى شِقَاقٍ﴾ وعِنادٍ وكُفرٍ ومُشاقّةٍ مع الله ورَسولِه.

ثُمّ لمّا كانَ الشّقاق ممّا يؤدي إلى الجِدال والقِتال لا محالة، أردَف ذلك بتَسلية الرسول ﷺ وتَقوية قلوب المؤمنين بوَعْدِ النَّصْرِ والغَلَبَةِ بقوله: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللهُ﴾ ويدفَعُهم عنك.

قيل: معنى السّين أنّ ذلك كائنٌ لا محالة، وإنْ تاخّر إلى حين[٢]. وفيه دلالة على صِحّة النبوّة لإنجاز

١. البقرة: ١٣٥/٢.
٢. جوامع الجامع: ٢٧.

الله وَعْدَه، فَوافَق المُخبَرُ الخبَر.

﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لِمَا يَنْطِقون به وما تَدعوهم إليه ﴿ٱلعَلِيمُ﴾ بِما يُضمِرونَهُ، فيُعاقِبُهم على ذلك، المُحيطُ بِما في نِيَّتِك وإرادَتِك من إظهار الدّين، وهو مُستَجيبٌ لك. وفي هذا التَّذييل تأكيدٌ لِما سبَق من وَعْدِ الرّسول ﷺ بالنُّصرةِ والغَلَبَة، ووَعْدِ الكُفّار بالقَتْلِ والخِزْي.

صِبْغَةَ ٱللهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ[١٣٨]

ثُمّ لمّا كان دأبُ النّصارى تَغسيل أولادِهم بماءٍ أصفَر، ويُسمّونَه المَعموديّة، ولعلّه المَشهور بغُسل التّعميد، وكان دأبُ اليَهود على ما قيل صِبغُ أولادِهم بالصُّفرَةِ، وكان كلّ طائفةٍ يَعُدّون ويحسَبون ذلك الغُسل والصِّبغ طَهارةً لأولادِهم، وصَف سبحانه دينَ الإسلام الذي حقيقَتُه الإيمان بالامُور المُفصّلة في الآيةِ السابقة بقوله: ﴿صِبْغَةَ ٱللهِ﴾ قيل: إنّ المعنى: قولوا: صَبَغَنا اللهُ صِبْغَتَه[١]. وفسّرها الصادق عليه السلام بالإسلام كما عن (الكافي)[٢]. وقيل: هي فطرة التوحيد التي فطَر النّاس عليها[٣].

وفي رواية اُخرى عنه عليه السلام: «هي صبغ المؤمنين بالوِلاية في الميثاق»[٤].

قيل: إنّ الله تعالى أمر المؤمنين أن يقولوا: آمَنّا، وصَبَغنا الله بصِبغَةِ الإيمان، وأنتُم صبَغتُم أنفُسَكم بصِبغ الصُّفرَة، وصِبغُنا تَطهيرٌ دون صِبْغِكم، حيث طُهِّرنا من دَناسةِ الشِّرْكِ والكُفْرِ والعَقائدِ الفاسدة، بنور التّوحيد والتّسليم والولاية.

قال بعض المُفسِّرين: إنّ إطلاق الصِبغة على العَقائد الحقّة من جهَةِ ظُهور أثرِها عليهم ظُهور الصِّبغ على المَصبوغ وتداخلها قُلوبهم تَداخُل الصبْغ الثَّوب[٥].

وقيل: إنّه من باب مَجاز المُشاكَلة والازدِواج، لزَعْم أهلِ الكِتاب أنّ الصِّبغ بالصُّفرَةِ طَهارةٌ[٦] كما مرّ.

في أنّ إطلاق الصِّبغة على الاسلام والإيمان على الحقيقة

ويمكن أن يُقال إنّ إطلاق الصِّبغ في الآيةِ حقيقيّ بجَميع تَفاسيره، حيث إنّ للعَقائد الحقّة من الإسلام والإيمان والولاية نوراً في القَلبِ وضِياءً في النَّفسِ. وكلّما اشتَدّ اليَقين بها، اشتدّ ذلك النّور حتّى يُحيطَ بجَميعِ الجَوارح، كما أنّ للكُفرِ والعَقائد الفاسِدة ظُلمةً مُحيطةً. ومن الواضِح أنّ لَون النّور في الأنظار هو البَياض، ولَون الظُّلمَة

---

١. تفسير البيضاوي ١: ٩٠.
٢. الكافي ٢: ٢/١٢.
٣. تفسير البيضاوي ١: ٩٠.
٤. تفسير العياشي ١: ٢١٤/١٥٩، تفسير الصافي ١: ١٧٦.
٥. تفسير البيضاوي ١: ٩٠، تفسير الصافي ١: ١٧٦.
٦. تفسير أبي السعود ١: ١٦٨.

هو السّواد، ولذا قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾[١].

وروي: أنّ المؤمنين في القيامة غُرٌّ مُحَجَّلون[٢].

وفي رواية: إن عَمِل خيراً ظهَر في قَلبِه نُقطةٌ بيضاء، ثمّ تَزداد حتّى تُحيطَ به، ومن عَمِل سوءاً ظهَر فيه نُقطَة سوداء[٣].

ومن الواضح أنّ المُراد من السّواد والبَياض في الآية والروايات هو النّور والظُّلْمَة، وعلى هذا فالمؤمنون بِيضُ الوجُوه في الدّنيا والآخِرة، وسيماهُم ذلك البياض، كما أنّ سيماءَ الكُفّار أنّهم سُودُ الوُجوه فيهِما، ويُعرَفان في الآخِرة بسيماهُما، وأمّا في الدّنيا فلا يَرى سيماهُما إلّا مَن له عَينُ البَصيرة.

ثمّ لمّا كان النّور من قِبَل كمال الوُجود الذي هو بإفاضة الله تَعالى وُجودِه يُضاف البَياض والصّبغ الحاصِل منه إليه، وصحّ أن يُقال لذلك البَياض: صِبْغَة الله، كما أنّ ظُلمةَ الكُفرِ والمَعاصي مِن قِبَل النّفس والماهيّة، ويصِحّ أن يُقال: إنّها صِبْغَةُ النّفْس والطبيعة، حيث إنّ النّفْسَ مَبدأ الاحتِجاب عن عالَم الأنوار وَمَنْشأ الانغِمار في الشّهَوات والضّلال.

ثمّ إنّه لمّا كان صِبغُ البَياض أحسَن الأصباغ، سيّما إذا كان حاصِلاً من النّور الذي هو أشرَف المَوجودات، خُصوصاً إذا كان حاصِلاً من الإيمان والولاية، أنكَر الله سُبحانَه كَون صِبغٍ أحسَن منه، بقوله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللهِ صِبْغَةً﴾.

ثمّ لمّا كان الإيمان مُلازماً للقِيام بوَظائِف العُبوديّة، كان قوله: ﴿وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾ بمَنزِلة الاستِدلال على تحقّق صِبغ الإيمان فيهم لدلالة التلبّس بشِعار العِبادة على تَنَوُّرِ القَلْب بنُورِ الإيمان، وصِبغ النّفسِ بأحسَن الأصباغ، فلا يَبقى لأحَدٍ مَجالُ إنكارِه. وكان أصحاب النبيّ ﷺ مُتَمَحّضين بالعِبادة كما قال الله تعالى: ﴿تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنْ اللهِ﴾[٤] فكانَ دَليلُ صِدْقِ دَعواهُم معَهُم.

قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِى ٱللهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ[١٣٩]

---

١. آل عمران: ١٠٦/٣. ٢. سعد السعود: ١٠٩ «نحوه».
٣. الكافي ٢: ٢٠/٢٠٩ «نحوه». ٤. الفتح: ٢٩/٤٨.

ثُمّ نُقِل أنّ اليَهودَ والنَّصارىٰ كانُوا يدَّعون أنّهم أحَقّ بكَرامةِ الله ومَنْصِب النبوّة لادّعائهم أنّهم أهلُ الدّين والكِتاب، وأنّ العرَب عبَدَةُ الأصنامِ، فعلّم الله نبيّه ردَّه بقوله: ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمّد: ﴿أَتُحَاجُّونَنَا فِى﴾ أمرِ ﴿ٱللَّهِ﴾ ونُبوّتِه التي اصطَفانا بها ﴿وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ سَواءٌ إليه نسبتُنا ونِسبتُكم، لا قَرابةَ ولا رَحميّةَ بين أحدٍ وبينَه، ولا كرامةَ لأحدٍ عنده إلّا بالعُبوديّةِ والأعمالِ الصالحة.

﴿وَلَنَا﴾ كما تَرَون ﴿أَعْمَالُنَا﴾ الحسَنة الصالحة ﴿وَلَكُمْ﴾ كما تَعْلَمون ﴿أَعْمَالُكُمْ﴾ السيّئة الشّنيعة، والله مُطّلِعٌ على جَميعها، هذا مع أنّ فَضْلَ الأعمالِ وكرامَةَ العاملِ بخُلوص النيّة.

﴿وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ﴾ في العِبادةِ، وأنتُم به مُشركون فيها، فليس لكم أن تستَبْعِدوا أن نكون أكرَم عنده مِنكُم، وأحَقّ بالتّشريف بمَنْصِب النّبوّة، وأولىٰ بالتّفضيلِ بمَرْتَبَةِ الرّسالَة، فَلم يَبْقَ لكُم حُجّة على وُجوبِ تَخصِيصِكم بهِما، بَل لَنا الحُجّة البالِغة على أولَويَّتِنا منكم.

أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا هُوداً أَوْ نَصَارىٰ قُلْ ءَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ ٱللَّهِ وَمَا ٱللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ * تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْئَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ [١٤٠ و ١٤١]

ثُمّ مِن شُبُهاتِهم ما أشار إليه بقوله: ﴿أَمْ تَقُولُونَ﴾ وتدَّعون أنّ دِينكم يا أهلَ الكتاب دينُ الله لادّعائكم ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا هُوداً أَوْ نَصَارىٰ﴾ وأنتُم مُقتَدون بهم في دينهم.

﴿قُلْ﴾ يا محمّد ردّاً عليهم، وآسألْهم تقريراً منهم: ﴿ءَأَنْتُمْ أَعْلَمُ﴾ بدِينهم ﴿أَمِ ٱللَّهُ﴾ أعلَمُ؟ فإنْ تُقِرّوا أنّه تَعالى أعلَم فإنّه شَهِد في التّوراة والإنجيلِ وسائر الكتُب السّماويّة بأنّهم كانُوا على المِلّة الحَنيفيّة ودين الإسلام، وإنّ مِلّة اليَهوديّة والنّصرانيّة حَدَثَتا بأهواءِ أهلِ الزَّيغِ بعدَهم، وأنتُم مُطّلِعون على تِلك الكتُب، والعالِمون بتلك الشّهادة، وتكتُمونها لِحُبّ الجَاهِ والرّئاسةِ والحُطام الدنيويّة.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ على نَفسِه وعلى سائر النّاس ﴿مِمَّنْ كَتَمَ﴾ وستَر وأخفىٰ من العوامّ ﴿شَهَادَةً﴾ ثابتةً ﴿عِندَهُ﴾ صادِرَة ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ وأظهَر خِلافَها بين الخَلْقِ؟

﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ بل مُطّلِعٌ عليه، وحافِظٌ لجميع سيّئاتكم، من إنكارِ الحقّ، وادّعاءِ

الأباطيل، وكِتمان شَهادتِه، فيُعاقِبُكم عليها أشَدّ العِقاب، فكونوا منه على حَذَرٍ ووَجَلٍ في جميع الآنات[1] والحالات، ولا تَغتَرّوا بصالح أعمالِ آبائكم الأنبياء وحُسن سِيرَتِهم، فإنّ ﴿تِلْكَ﴾ الآباء الكِرام ﴿أُمَّةٌ﴾ وجَماعةٌ صُلَحاء ﴿قَدْ خَلَتْ﴾ وَمَضَتْ مِن الدُّنيا، يكون ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾ مِن نَفعِ أعمالِها والثّواب المَوعود عليها ﴿وَ﴾ يكونُ ﴿لَكُمْ﴾ في الآخِرة ﴿مَا كَسَبْتُمْ﴾ مِن مَنافِع أعمالِكم وأجرِها وتَبِعاتِها، فلا نَصيبَ لكُم من ثَواب أعمالِهم بشيءٍ، كما لا ضَرَر عليكم من سَيِّئاتِهم إن كانت لهم ﴿وَلَا تُسْئَلُونَ﴾ فِي القيامة ﴿عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ في مدّة أعمارِهم في الدُّنيا.

وحاصل الاحتِجاج أنّكم يا أهلَ الكِتاب بأيِّ حُجَّةٍ تتمسّكونَ على دَعوى أولَويّتِكم بفَضْلِ الله وكرامتِه منّا! فإنْ تتَمسّكوا بأنّكم مُوَحِّدون فقَد كذَبتُم، لبَداهةِ أنّنا مُوحِّدون دونكُم، وإنْ تتمسّكوا بأنّكم أتباعُ دينِ إبراهيم عليه السلام وسائر الأنبياء والصُّلَحاء بعده فنَحنُ المتَّبِعون لهم دونكم، وإنْ تَتَمسّكوا بانتِسابكم إليهم فلَيس النَّسَب مُوجباً للكرامة عند الله، ونافِعاً في القِيامة، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ﴾[2].

حكاية هارون وبهلول

حكي أنّ هارون الرّشيد لمّا انصَرف من الحَجّ، أقام بالكوفَةِ أيّاماً، فلمّا خرَج وقَف بُهلول على طَريقِه ونَاداه بأعلىٰ صَوتِه: يا هارون ـ ثلاثاً ـ فقال هارونُ تعجُّباً: مَن الذي يُنادِيني؟ فقيل له: بُهلول المَجنون. فوقَف هارون وأمر برَفْعِ السِّتْرِ ـ وكانَ يُكلّم النّاسَ مِن وراء السّتر ـ فقال له: ألم تَعرِفني؟ قال: بلى أعرِفُك. فقال: مَن أنا؟ قال: أنت الذي لو ظُلِمَ أحَدٌ في المَشْرِق وأنتَ في المَغْرِب سألك الله عن ذلك في القيامة. فبكىٰ هارون وقال: كيف تَرىٰ حالي؟ قال: آعرِضهُ على كِتاب الله، وهي: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ * وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾[3]. قال: وأين أعمالُنا؟ قال: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾[4] قال: وأين قَرابَتُنا مِن رسولِ الله صلّى الله عليه وآله؟ قال: ﴿فَإِذا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ﴾[5].

سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَاءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا عَلَيْهَا قُل لِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ يَهْدِى مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ[١٤٢]

---

١. كذا، والظاهر الآناء. ٢. المؤمنون: ١٠١/٢٣. ٣. الانفطار: ١٣/٨٢ و١٤.
٤. المائدة: ٢٧/٥. ٥. تفسير روح البيان ١: ٢٤٥.

ثُمّ أنّه تَعالى بعد بَيانِ اعتِراضات اليَهود على النبوّةِ وردّها، أخبَر بأنّهم سيَعْتَرِضون على دينِ الإسلام بوُقوع النَّسْخِ فيه بتَغْييرِ القِبْلَة من جِهَةِ بيت المَقْدِس إلى جِهَةِ الكعبةِ المُعَظّمة، بقوله: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ﴾ والخِفافُ العُقول ﴿مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ الراغبين عن ملّة إبراهيم عليه السلام كاليهود.

في اعتراض اليهود على دين الإسلام بوقوع النسخ فيه، وعلى النبي صلى الله عليه وآله بتغيير القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة

قيل: إنّهم ابتدءوا بالاعتِراض لأنّهم كانوا يأنسون بمُوافقة الرّسول صلى الله عليه وآله معهم في القِبلة، وكانوا يَظنّون أنّ هذه المُوافقَة ربّما تَدعوه إلى مُوافقَتِهم بالكلّيّة، ولمّا تحوّل عنها اغتمّوا واعتَرضوا عليه. ثمّ وافقَهُم المُشركون من العرَب لأنّهم كانوا مُتأذّين من تَوجُّهِه إلى بَيتِ المَقدِس، وقالوا: رَغِبَ عن ملّةِ آبائِه، ثمّ رجَع إليها. ثُمّ تَبِعَهُم المُنافقون لحِرْصِهم على الاستِهزاء بالدِّين، فعَابُوا جَميعَهُم على الرّسول والمؤمنينَ بقولهم: ﴿مَا وَلَّاهُمْ﴾ وأيّ صارِفٍ صَرَفَهُم ﴿عَنْ قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا﴾ مُواظِبين ﴿عَلَيْهَا﴾ مُتَوجّهين في صَلاتِهم إليها، وهي بيت المَقْدِس.

عن (الاحتجاج) و (تفسير الإمام عليه السلام): أنّه قال: «لمّا كان رسولُ الله صلى الله عليه وآله بمكّة أمره الله عزّ وجلّ أن يتوّجه نحو بيت المَقْدِس في صلاتِه، ويجعَل الكعبةَ بينَه وبينَها إذا أمكَن، وإذا لم يُمكن استقبَلَ بيتَ المَقْدِس كيفَ كان.

وكان رسولُ الله صلى الله عليه وآله يفعَل ذلك طولَ مَقامِه بها ثلاث عشرة سنةً، فلمّا كان بالمدينة وكان مُتَعبّداً باستِقبال بيتِ المَقدِس استقبَله وانحرَف عن الكعبَةِ سبعةَ عشر شَهْراً. وجعَل قومٌ من مَرَدةِ اليَهودِ يقولون: واللهِ لايدري كيف يصلّي حتّى صار يتوجّه إلى قبلتنا، ويأخُذ في صَلاتِه بهَدْيِنا ونُسُكِنا»[1].

ورُوي من طرُق العامّة: أن النبيّ صلى الله عليه وآله صلّى إلى نحو بيتِ المَقْدِس بعد مَقْدَمِه المدينة نَحْواً من سبعةَ عشَر شَهْراً، تأليفاً لِقُلوبِ اليَهود ثُمّ صارتِ الكعبةُ قِبلةَ المُسلِمين إلى نَفخ الصُّور[2].

وحاصِلُ اعتِراض اليَهود: أنّ البَدء مُحالٌ على اللهِ بالاتّفاق لأنّه مُستَلزِم لجَهْلِهِ بالمَصالح، وأمّا النَسْخ فإن كان واقعياً حقيقياً فهو عينُ البَداء، وإن كانَ صُوَرِياً ظاهِريّاً، بمعنى أنّ الحُكَم الواقعيّ وصَلاحَه كان في الواقِع مُقيّداً بوقتٍ محدودٍ، فعدَمُ إظهارِ الحَدّ وإطلاقِ الحُكْمِ في ظاهِرِ اللّفظِ بحيث يفهَمُ العُرْفُ أبديّتَه، مُستَلزِمٌ للتَّجْهيلِ، وهذا قبيحٌ ومُحَالٌ على اللهِ، فرَدَّهُم الله بقوله: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ

---

١. التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام: ٣١٢/٤٩٢، الاحتجاج: ٤٠.

٢. تفسير روح البيان ١: ٢٤٧.

وَٱلمَغْرِبُ﴾ وبه تختصّ جميعُ الجِهاتِ، ليسَ أحدُها أقرَبُ إليه وأخصّ به من الأُخرى، وهو ﴿يَهْدِى﴾ بأمرِه ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾ هِدايتَه من أهلِ العالَم ﴿إلى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ والطريق المُوصِل إلى قُرْبِه ورضوانه، وهو التوجّه إلى الجِهَةِ التي فيها الحِكمةُ ومَصْلحَة العِبادِ، فتَارةً تكونُ بيتَ المَقْدِس، وأُخرىٰ الكَعْبَة، وإنّما كان التوجّه إلى الكعبة صِراطاً مُستَقيماً لأنّه غير مائل إلى قِبلَةِ اليَهود وهو بيتُ المَقْدِس، وإلى قِبْلَةِ النَّصارىٰ وهو المَشْرِق، فإنّ المَشْرِقَ والمَغْرِبَ مَضَلّة حيث إنّ في التوجّة إليهما مَظنَّة التوجّه إلى الشّمس وعِبادَتِها.

وقيل: وَجه تقديمِ هذه الآيةِ على آيةِ: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ﴾ [1] والإتيان فيها بفِعل المُضارِع، تقدّم نُزولِها على تَحويلِ القِبْلَة وحُصولِ الاعتِراض، حيث إنّ قَبْلَ الرَّمْي يُرَاشُ السَّهم، وقبل توجّه الاعتِراض يُعلَّم المؤمنون بَيانَ ردّه، وفيها دلالةٌ على إمكانِ النَسْخ ووقوعِه.

وحاصِلُ تَقريرِ الجَواب: أنّ جميعَ الأرضِ مُلكٌ للهِ، ونِسبتها إليه تَعالى سَواء، ليس مكانٌ أقرَب إليه وأخصّ به من مكانٍ آخَر، وإنّما المَصْلَحةُ في جَعْلِ جِهَةِ القبلة مُتفاوتَة في الأزمِنة، فقد تكونُ المَصلحةُ في الأمرِ بالتوجّه إلى بيتِ المَقْدِس في بُرهةٍ من الزَمانِ، ثمّ تتغيّر وتكون في الأمرِ بالتوجّه إلى الكعبَة، فتَغيير الحُكمِ ليس من جَهَةِ انكِشاف الخَطأ في تَشخيصِ المَصْلحَة حتّى يلزَم البداء المُحالَ.

وأمّا شُبهَة التَجْهيلِ فواضحة البُطلانِ، فإنّ عدَم الإعلام ليس تجهيلاً قَبيحاً لبَداهةِ عدَم وجوب الإعلام بالتكليف بقُيودِه وغايَتِه قبلَ وقتِ الحاجَةِ.

في بيان حكمة جعل القبلة

ثمّ اعلَم أنّه ذكر بَعضٌ لتَعيينِ القبلةِ حِكَماً عديدة:

إحداها: أنّ الله تَعالى خلَق في الإنسانِ قوّةً عاقِلةً مُدركةً للمُجَرّدات والمَعقولاتِ، وقوّةً خَياليّةً مُتَصَرِّفةً في عالَمِ الأجسامِ والمَحسوساتِ، وقلّما تَنفَكّ القوّة العاقِلَةُ عن مُقارَنة القوّة الخَياليّةِ ومُصاحبتِها والاستِعانة بها.

فإذا أراد الإنسانُ استِحضارَ أمرٍ عقليٍّ مجرّدٍ، وجَب أن يضَع له صورة خياليّة حتّى تكونَ تِلكَ الصوَرةُ الخياليّة مُعينةً على إدراكِ ذلك المَعنى العقليّ، ولذلك يَضع المُهَندس ـ إذا أراد إدراكَ حُكم من أحكامِ المَقادير ـ صورةً معيَّنةً وشَكلاً مُعيَّناً، ليَصيرَ الحِسُّ والخيال مُعينَين على إدراكِ ذلك

---

[1] البقرة: ٢/١٤٤.

الحُكِم الكُلّيّ.

ولمّا كانَ العَبدُ الضّعيفُ إذا دخَل في مَجلس المَلِك العَظيم لابدّ له من أن يستَقبِله بوَجْهه ولا يَكون مُعرِضاً عنه، وأن يُبالِغَ في الثّناءِ عليه والتضرّع له والقيام بخِدمته؛ كان استِقبالُ القِبلةِ في الصّلاةِ جارياً مَجرى كونِه مُستَقبلاً للمَلِك، غيرَ مُعرِضٍ عنه، والقِراءةُ والتّسبيحاتُ جارِيةٌ مَجرى الثّناء عليه، والرّكوع والسّجود جارِيان مَجرى خِدمته.

ثانيها: أنّ المَقصود من الصّلاة حضورُ القَلب، ولا يحصُل إلّا مع السّكونِ وتَرْكِ الالتِفات والحرَكة، وهذا لا يتأتّى إلّا إذا بقي في جميع صلواته مُستَقبِلاً لِجهةٍ واحدةٍ على التّعيينِ، فإذا اختَصّ بعضُ الجِهات بشرَفٍ كانَ الاستِقبالُ إليها أولىٰ.

ونقل عن زَرْدُشْت أنّه قيل له: اجعَل لنا قبلةً إذا أردنا أن نتوجّه إلى الله نتوجّه إليها؟

قال: أشرَف الموجوداتِ الجِسمانيّة هو النّور، فتَوجّهوا له، فبَنوا بُيوت النّارِ فتَوَجهوا إليها بعُنوانِ أنّها قِبلةٌ.

ثالثها: أنّ الله تعالى يحِبّ المُوافقَة والأُلفَة بين المؤمنين، وقد ذكَر المِنّةَ بها عليهم، حيث قال: ﴿وَٱذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿فأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً﴾[1]. ولو توجّه كلّ واحِدٍ في صَلواته إلى ناحيةٍ أُخرىٰ، لكانَ ذلك يُوهِمُ اختلافاً ظاهِراً، فعيّن اللهُ لهم جِهةً واحِدةً، وأمرَهم جميعاً بالتّوجة إليها، ليَحصُل لهم المُوافقة بسبَب ذلك. وفية إشارَةٌ إلى أنّ الله تعالى يُحبّ المُوافَقة بين عِبادِه في أعمالِ الخَير[2].

في حكمةِ جعلِ الكعبة قبلةً

ثُمّ ذكَروا لتَعْيينِ جِهَةِ الكعبَةِ حِكَماً:

أحدها: أنّ الله تعالى خصّ الكعبةَ بإضافتِها إلى نَفسِه بقوله: ﴿طَهِّرْ بَيْتِيَ﴾[3] وخَصّ المؤمنينَ بإضافَتِهم بصِفةِ العُبوديّة إليه، وكلِتا الإضافتَين للتّكريم، فكأنّه تعالى قال: يا مؤمن، أنتَ عبدي، والكعبةُ بَيتي، والصّلاةُ خِدمَتي، فأقبِل بوَجهِك إلى بيتي في خِدْمَتي، وبقَلبِك إلى عَظَمَتي.

ثانيها: أنّه قيل: إنّ بعضَ اليَهود استقبلوا إلى المَغرِب لأنّ النّداء جاءَ إلى موسى عليه السلام منه، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ ٱلغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا﴾[4] والنّصارىٰ استَقبلوا المَشْرِقَ لأنّ جَبْرَئيل ذَهب إلى مريم من جانِب المَشْرِقِ، كما قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَاناً

---

١. آل عمران: ١٠٣/٣. ٢. تفسير الرازي ٤: ٩٤. ٣. الحج: ٢٦/٢٢. ٤. القصص: ٤٤/٢٨.

شَرْقِيّاً﴾[١] فأمر الله المؤمنينَ بالتوجّه إلى الكعبةِ لأنّها قبلةُ خَليلِه.

وقيل: إنّ النّصارى استقبَلوا مَطْلَع الأنوار، والمؤمنون استقبَلوا مَطْلَع سيّد الأنوار وهو محمّد صلى الله عليه وآله الذي خلَق من نورِه جميع الأنوار.

ثالثها: أنّ الكعبةَ سُرّةُ الأرضِ ووَسَطها، وفي الأمرِ بالتوجّه إليها إشارَةٌ إلى أنّه يجب على المؤمنِ التوسُّط والعَدالة في جَميع أُموره[٢].

وَكَذٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مِن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللهُ وَمَا كَانَ ٱللهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ[١٤٣]

ثُمّ أنّه تعالى لمّا منَّ على هذه الأُمّة بجَعْلِ الكَعبة التي هي الوسَط قبلةً لهم، وبهدايتهم إلى الصّراط المستقيم، مَنَّ عليهم أيضاً بقوله: ﴿وَكَذٰلِكَ﴾ المَذكورُ من جَعْلِكم مُهتَدين ﴿جَعَلْنَاكُمْ﴾ ونَصَبْنَاكُم ﴿أُمَّةً﴾ وجَماعةً ﴿وَسَطاً﴾ وخِياراً، أو مُتوسّطين بين الإفراطِ والتَّفريطِ لا يتَجاوزون عن الحقّ، ولا يَميلونَ إلى البَاطِل.

في أن المراد من الأمة الوسط خصوص الائمة المعصومين عليهم السلام

وهم خُصوصُ الأئمّة المَعصومين عليهم السلام لشَهادةِ الوجدان واتّفاق الأمّة على عدَم اتّصافِ جَميعِ أفرادِ المُسلِمين بهذِه الصِّفةِ لظُهور كَونِ أكثَرِهم فُسّاقاً، فلابُدّ من أن يكونَ المُراد من الأُمّةِ بعضهم، نَظير قول موسى لِبَني إسرائيل: ﴿يَا قَوْمِ ٱذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِياءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكاً﴾[٣] مع وضوحِ أنّه لم يكُن كلّ فَردٍ منهم مَلِكاً.

عن القمّي رحمه الله: يعني الأئمّة[٤].

وعن (الكافي) و(العياشي): عن الباقر عليه السلام: «نحنُ الأُمّة الوَسَط»[٥].

وعن (المَناقب): عنه عليه السلام: «فينا أنزَل الله ﴿وَكَذٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً﴾»الخبر[٦].

---

١. مريم: ١٩/١٦. ٢. تفسير الرازي ٤: ٩٥. ٣. المائدة: ٥/٢٠. ٤. تفسير القمي ١: ٦٣.
٥. الكافي ١: ٤/١٤٧، تفسير العياشي ١: ٢١٥/١٦٠. ٦. مناقب ابن شهر آشوب ٤: ١٧٩.

فَلا دلالة في الآيةِ على حُجّيّةِ الإجماع كما ادّعاها بعضُ العامّة، إلّا من جِهَةِ اشتِماله على قَولِ المَعصوم أو كَشْفه بالحَدْس القَطْعيّ عن مُوافَقة قولِ المُجمعين لقَول رئيسهم، ووافقَنا الفَخرُ الرّازي وبعضٌ آخر من العامّة في القَولِ بعدَم حُجّيّةِ الإجماع إلّا من جِهة اشتِماله على قَول مَن هو الوسطَ في الأمّة، وقالوا: إنّا لمّا لا نَعرِف مَن يكون بهذِه الصّفة، نحتاجُ إلى الاتّفاق، إلّا انّهم فارَقونا في أنّهم لا يَعرِفونه بوَجهٍ، ونحنُ بحَمْدِ الله ومِنّتِه نَعرِفه باسمِه ونَسَبه عليه السلام.

وممّا يدلّ على أنّ المُراد من الأمّة الوَسَط خُصوص الهُداة المَعصومين قوله تعالى: ﴿لِتَكُونُوا﴾ يومَ القِيامَةِ ﴿شُهَدَاءَ عَلَىٰ ٱلنَّاس﴾ من سائر الأمم بأنّ الرّسُلَ بلّغوهم في الدّنيا وبيّنوا لهم الحقّ والدِّين.

في رواية (المَناقِب) قال: «ولا يَكون الشّهداءُ على النّاس إلّا الأئمّة والرُّسُل، فأمّا الأمّة فإنّه غير جائزٍ أن يَستَشْهِدَها الله تعالى وفيهم من لا تَجوزُ شَهادتُه في الدّنيا على حُزمة بَقْلٍ»[1].

روي أنّ الأممَ يَجْحَدون يوم القيامة تَبليغَ الأنبياءِ، فيُطالب الله تعالى الأنبياءَ بالبيّنَةِ على أنّهم قد بلّغوا، وهو أعلَم، فيُؤتىٰ بأمّةِ محمّد صلى الله عليه وآله فيَشْهَدون لهم، وهو صلوات الله عليه يُزَكّيهم[2]، وذلك قوله تعالى: ﴿وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً﴾.

وقيل: إنّ المُراد: لِتكونوا شُهَداء في الدّنيا على النّاس[3] - أي حُجَجاً عليهم - تُبيّنون لهم الحقّ والدِّين، ويكونَ الرّسولُ عليكم شَهيداً ومؤدّياً للشَّرْعِ ومُبَيِّناً لكُم أحكامَ دِينه.

ثمّ بيّن الله تَعالى حِكْمَةَ جَعْلِ بَيْتِ المَقْدِس قِبلةً للمُسلمين بقوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا﴾ القبلةَ للصَّلاة ﴿ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنْتَ﴾ مُستَقِراً ﴿عَلَيْهَا﴾ وهي بَيت المَقْدِس لشيءٍ من الأشياء ووَجهٍ من الوجُوه ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ﴾ مِنَ المُسلمين ﴿ٱلرَّسُولَ﴾ ونُمَيِّزَه ﴿مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ ويَرتَدّ عن دينِه الحقّ، ويَرجِع القَهقَرىٰ إلى كُفرِه السابق.

عن (تفسير الإمام) و(الاحتجاج): عنه عليه السلام: «يعني إلّا لِنَعلم ذلك منه موجوداً بعد أن عَلِمناه سَيوجد. قال: وذلك أنّ هَوى أهلِ مكّة كانَ في الكَعْبَة، فأراد [الله] أن يُبيّن متبع[4] محمّد صلى الله عليه وآله ممّن

---

١. مناقب ابن شهر آشوب ٤: ١٧٩.
٢. تفسير الرازي ٤: ١٠٠.
٣. تفسير أبي السعود ١: ١٧٣.
٤. في الاحتجاج: متبعي.

خالَفه[١] باتّباع القِبلةِ الّتي كَرِهَها ومحمّد ﷺ يامُره[٢] بها. ولمّا كان هوى أهلِ المدينةِ في بَيْتِ المَقْدِس أمرَهم بمُخالَفَتِها والتوجّه إلى الكعبةِ، ليتبيّن مَن يوافِق محمّداً عليه السلام فيما يكرَهُه وهو مُصَدّقه وموافِقه»[٣].

وروىٰ بعضُ العامّة أنّ النبيّ ﷺ قبل الهجرة يصلّي إلى الكعبةِ، ثمّ بعدَ الهِجرَةِ ـ لِكَون غالِب أهلِ المَدينةِ اليَهود ـ حوّل القِبلةَ إلى بيتِ المَقدِس تأليفاً لهُم، ثمّ رجَع إلىٰ القِبلةِ التي كان عليها وهي الكعبة[٤].

وعلى هذا حصَل الامتِحان المذكور في الآية بمَجموع التّحويلَين، حيث إنّ العرَب بتَحويلِ القبلةِ إلى بيتِ المَقْدِس، واليهود بِتحوِيلها عنه إلى الكَعْبَة، صاروا مُنْزَجِرينَ عن النبيّ ﷺ ودينه.

ونُقل أنّه رجَع جمعٌ عن الإسلامِ وقالوا: لو كان محمّد على يَقينٍ من أمرِه لَما تغيّر رأيُه. وكانوا يقولون: مرّةً هاهُنا ومرّةً هاهُنا! وقال المُشركون: تحيَّر محمّد في دِينه. وقال اليَهود: اشتَاق إلى بَلَدِ أبيهِ ومُولِده[٥]! ولذا قال تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَتْ﴾ التَوْليةُ من قبلةٍ إلى قبلةٍ، أو القِبلَة المحوَّلة أو الصّلاة إلى بيتِ المَقدس ﴿لَكَبِيرَةً﴾ وثَقِيلَةً مُستَنْكَرة على طِباع جَميع النّاس ﴿إِلّا عَلىٰ﴾ طِباعِ ﴿ٱلَّذِينَ هَدَىٰ ٱللهُ﴾ قلوبَهم، وعرَّفَهم بقوّة عُقولِهم وتنوُّر بَصائرهِم أنّ المَصالِح تتغيّر بتغيّر الأوقاتِ والأشخاص وسائر الجهات، وأنّه تعالى يتعبّد العَبيد بخِلاف ما يُريدونَه ليَبْتَلِيَ طاعتَهم في مُخالفَةِ هَوى أنفسِهم.

ثمّ وَعد المؤمنين الثابتين على الإيمان والمُطيعين للرّسول ﷺ في الصّلاة إلى بيت المَقْدِس بقوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللهُ﴾ وليس من شأنه ﴿لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ وثَباتكم على تَصديقِ الحقّ أو صَلاتكم آلتي صلَّيتُم إلى الصَّخْرَةِ.

عن الصادق عليه السلام في رواية: «ولمّا أن صرَف نبيّه ﷺ إلى الكعبةِ عن بَيتِ المَقْدِس، قال المُسلِمون للنبيّ ﷺ: أرأيتَ صلواتنا الّتي كنّا نُصلّي إلى بيتِ المَقْدِس، ما حالُنا فيها وحالُ من مَضى من أمواتِنا وهم يصلّون إلى بَيتِ المَقْدِس؟ فأنزَل الله ﴿مَا كَانَ ٱللهُ لِيُضِيعَ إِيْمَانَكُمْ﴾ فسَمّى الصّلاةَ إيماناً. فمَن لَقي الله حافظاً لجَوارِحِه، مُوفياً كلّ جارحَةٍ من جَوارحِه ما فرَض الله عليه، لَقِيَ الله مُستكمِلاً لإيمانِه

---

١. في تفسير العسكري عليه السلام: من مخالفه. ٢. في تفسير العسكري عليه السلام والاحتجاج: يأمر.
٣. التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام: ٤٩٥/٣١٢، الاحتجاج: ٤٢.
٤. تفسير الكشاف ١: ٢٠٠، تفسر الرازي ٤: ١٠٣. ٥. تفسير الرازي ٤: ١٠٤.

وهو من أهلِ الجنّةِ، ومَن خان في شيءٍ منها، أو تَعدّى ما أمر الله فيها، لَقِيَ الله ناقِصَ الإيمان»[1].

ونُقِل أنّ جماعةً من المسلمين كأبي أُمامة، وسَعْد بن زُرَارة، وبَراء بن عازِب، وبَراء بن مَعْرور وغيرُهم، ماتوا على القِبلة الأولى، فتوهّم عشائرُهم أنّ الصَّلاة التي أتَوا بها على القِبلة الأُولى كانت ضائعة، لتوهّم أنّ الحُكمَ الأوّل كان باطلاً. فقالوا: يا رسول الله، تُوفّي إخواننا على القِبلَةِ الأُولى، فكيف حالُهم وحال صَلواتهم؟ فنزلت[2].

فحاصِلُ مَفادِ الآيةِ والله أعلَم: أنّ التّكليف الأوّل كالتّكليف الثاني، كِلاهُما عن مصلحةٍ تامّةٍ في وَقْتِهما، والمتمسّك بكلّ تكليفٍ في وَقتِه متمسّك بدِين الله فيُوَفّيه أجرَه، إنّه لا يُضيع أجرَ المُحسِنين.

ثمّ علّل سبحانه تَغيير القِبلة وعدَم الإضاعة بقوله: ﴿إنّ ٱللهَ بالنَّاسِ لَرَءُوفٌ﴾ فَلا يرضى بضَياع أعمالهم ﴿رَحِيمٌ﴾ مُفَضِّلٌ عليهم بنَقْلِهم من صَلاحٍ إلى ما هو أصلَح، ومن نافِعٍ إلى ما وهو أنفع لهم في الدِّين والدّنيا. والمُراد أنّه تَعالى يُعطِيهم زيادةً على أجرِ أعمالِهم من رَحمته وفَضْله ما لا يُتصوّر ولا يُحصى.

قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّماءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَبِّهِمْ وَمَا ٱللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ[١٤٤]

ثمّ أنّه روي عن العسكريّ عليه السلام «أنّه بعد حكاية مَقالات اليَهود في اتّباع النبيّ صلى الله عليه وآله قِبلتَهم، قال: فاشتدّ ذلك على رسول الله صلى الله عليه وآله لِمَا اتّصل به منهم، وكَرِه قِبلتَهم، وأحبّ الكعبَة فجاءه جَبْرَئيل، فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله: يا جَبْرَئيل، لَوَدَدْتُ لو صرَفَني الله عزّ وجلّ عن بيتِ المَقْدِس إلى الكعبة، فلقد تأذّيتُ بما اتصّل بي من قبل اليهود. فقال جَبْرَئيل عليه السلام: فسَلْ ربّك أن يُحَوِّلك إليها، فإنّه لا يردّك عن طَلِبَتِك، ولا يُخَيّبك عن بُغْيَتِك. فلما استتمّ دعاءه صَعِد جَبْرَئيل عليه السلام ثمّ عادَ من ساعَتِه، فقال: اقرأ يا محمّد ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَاءِ﴾»[3] ونُشاهِدُ تَرَدُّدَه في جَهَتِها إلحاحاً في الدُّعاء وتطلّعاً

---

١. تفسير العياشي ١: ١٦١/٢٢٠.	٢. تفسير الرازي ٤: ١٠٦.

٣. التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام: ٣١٢/٤٩٢.

للوَحي.

وروي من طرق العامّة أنّه صلوات الله عليه وآله كان يقَع في رُوعِه ويتوقّع من ربّه أن يُحوّله إلى الكعبة، لأنّها قِبلَةُ أبيه إبراهيم عليه السلام وأقدَم القِبلَتَين. وأدعى للعرَب إلى الايمانِ من حيث إنّـها كـانت مَفْخَرةً لهم وأمناً ومَزاراً ومَطافاً، ولِمُخالفة اليَهود، فإنّهم كانوا يقولون إنّه يُخالِفنا في دينِنا، ثمّ إنّه يتّبع قِبلَتنا، ولولا نحن لَمْ يَدْرِ أين يستَقبِل. فعند ذلك كَرِه أن يتوجّه إلى قِبلَتِهم ـ إلى أن قال ـ إنّـه صلّى الله عليه وآله جعَل يُديم النَّظَر إلى السَّماءِ رَجاءَ أن يأتيَه جَبْرَئيل بالذي سأل ربّه، فأنزَل الله هذه الآية [١].

ثمّ اعلَم أنّ تَوضِيح معنى كراهة النبيّ صلّى الله عليه وآله التوجّه إلى الصّخرة بعد ما اتّصلت به مَقالاتُ اليَهود، أنّه لاتّصال نَفسِه المقدّسة باللّوح المَحفوظ، واطّلاعه على انقِضاء عدّة الصّلاح العارِضيّ الذي كان في التوجّة إلى الصّخرةِ، وتحقّق الصّلاح المُلزم في التّوجّه إلى الكعبة، كَـرِه التـوجّه إلى الأوّل، وأحَبّ التوجّه إلى الثاني، فكان ينتظِر الوَحْي وصُدورَ الأمرِ من الله.

ثمّ لمّا كان تَمام الصّلاح في حُكمِه تعالى متوقّفاً على أن يقَع التَّحويلُ باستِدعائه وإظهارِ رضاهُ بهِ، وكراهتِه عن التوجّه إلى قبلة اليَهود، وكان ذلك مُصادفاً لمَقالاتهم الشّنيعة، أظهَر عليه السلام تلك الكراهـة وذلك الرّضا، وسأل ودَعا، فأبانَ الله عظَمة شأنِ حبيبه عنده بإجابَةِ دُعـائِه ومُـوافَـقَة رِضـاه بـقوله: ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ﴾ ولنُعطِينّك ﴿قِبْلَةً تَرْضَاهَا﴾ ولنجعلنّك متمكّناً من استِقبال جهةٍ تُحبّها لمَصالح دينيّة من غير [دواعي] الهوى النفسانيّة.

قيل: إنّه تعالى قال: ﴿قِبْلَةً تَرْضَاهَا﴾ ولم يقُل قبلةً أرضاها للإشارة إلى أنّ جميع الكائنات يطلب رِضاي وأنا أطلُب رِضاك في الدّارَين، أمّا في الدُّنيا فبتَحويلِ القبلة، وأمّا في الآخِرَة فبالعَفوِ عن أُمّتك حتّى ترضى [٢].

﴿فَوَلِّ﴾ وحَوِّل ﴿وَجْهَكَ﴾ مع جميع مَقاديم بدَنِك في حال صَلاتِك ﴿شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ ونحوه، وفي ذِكر الشَّطرِ إشعارٌ بكِفاية مُراعاة الجِهة وعدَم لُزوم الاستِقبال الحقيقيّ لعَين الكعبَة بحيث إذا خُطّ مُستَقيماً انتَهى إليها.

وقيل: إنّ فيه إشعاراً بوجوب التّوجّه إلى العَين لوقوع الكعبة في شَطْرِ المَسْجِد وهو نِصفُه، والحقّ هو الأوّل.

---

١. تفسير روح البيان ١: ٢٥١.

٢. تفسير الرازي ٤: ٩٥.

في تحول القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة

عن (الفقيه) في رواية: «ثمّ عيّرته اليهود فقالوا: إنّك تابعٌ لقِبلَتِنا. فاغتمّ لذلك غمّاً شديداً، فلمّا كان في بَعضِ اللّيلِ خرَج يقلّب وجهَه في آفاقِ السّماءِ، فلمّا أصبَح صلّى الغَداةَ، فلمّا صلّى من الظُّهر رَكْعَتَين جاءه جَبْرَئيل، فقال له: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ﴾ الآية. ثمّ أخَذ بيدِالنبيّ ﷺ فحوّل وَجْهَهَ إلى الكعبةِ، وحوّل مَن خَلْفَه وُجوهَهم حتّى قام الرِّجال مَقام النّساء، والنّساء مَقام الرّجال. فكان أوّل صَلاتِه إلى بيتِ المَقْدِس وآخِرُها إلى الكَعْبَةِ. وبلَغ الخَبر مسجداً بالمَدينةِ و[قد] صلّى أهلُه من العَصْرِ رَكْعَتَين فحوّلوا نحوَ الكعبة، فكانَت أوّل صَلاتِهم إلى بَيتِ المَقْدِس وآخِرها إلى الكَعْبَة، فسُمّي ذلك المَسْجِد: مَسْجِد القِبلَتَين»[1].

وقيل: كان تَحويلُ القِبلَةِ في رَجَب بعد زَوالِ الشّمسِ قبل قِتال بَدْرٍ بِشَهْرَين، ورسول الله ﷺ في مسجد بني سَلَمة. فسُمّي المَسجِد مَسجد القِبلَتَين[2].

ثمّ لئلّا لا يتوهّم متوهّم أنّ وجوبَ التّوجه إلى الكعبةِ مُختصٌّ ببَلَدِ المدينةِ وبشَخْصِ النبيّ ﷺ وأصحابه الحاضِرين عنده، عَمّم سُبحانه وتعالى الخِطابَ ثانياً بقوله: ﴿وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ﴾ أيّها المُسلِمون، وفي أيّ مكانٍ صلّيتُم ﴿فَوَلُّوا﴾ وَحَوِّلوا ﴿وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ ونحوه.

ثمّ أنّه تعالى لاطمئنان قلوب المؤمنين بأنّ هذا التّحويل من قِبَل الله، أخبَرهم بأنّه مكتوبٌ في الكُتُب السّماويّة، بقوله: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ﴾ بقِراءَتِهم في التّوراة والإنجيلِ [يعلمون] أنّ مِن علائم خاتَم النبيّين ﷺ أنّه يُصَلّي إلى القِبلَتَين، والله ﴿لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ النازل ﴿مِن رَبِّهِمْ﴾ فإذا كان ذلك حالهم، فلا ينبَغي أن تَخْتَلِجَ الشُّبْهَةُ في قلوبكم أيّها المؤمنون، مع عِلْمِكم بصِدْقِ نبيّكم بالمُعجِزات الباهِرة.

﴿وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ من اتّباعِكم النبيّ ﷺ وتَسليمكم لأمره، فيُجازيكم عليه أحسَن جَزاء العاملين.

وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ إِنَّكَ إِذاً لَمِنَ ٱلظَّالِمِينَ [١٤٥]

---

١. من لا يحضره الفقيه ١: ٨٤٣/١٧٨.

٢. تفسير أبي السعود ١: ١٧٤.

ثمّ أنّه تعالى بعد ما ذكَر أنّ أهلَ الكتاب عالمون بأنّ تحويلَ القِبلةِ حقٌّ، بيّن أنّ إصرارَهم على المُخالفةِ من جَهَةِ العِناد واللَّجاج بقوله: ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ﴾ من اليَهود والنّصارىٰ ﴿بِكُلِّ آيَةٍ﴾ باهِرَةٍ وبُرهانٍ قاطِعٍ على أن التوجّه إلى الكَعْبَةِ حقٌّ ﴿مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ﴾ لأنّ مُخالفَتهم ليست عن شُبهةٍ حتّى يُزيلَها البُرهان، بَل عن عِنادٍ ولَجاجٍ ومُكابرَةٍ، لعِلْمِهم بكَونِها حقّاً، والمُكابِر لا تَنْفَعُه الدَلائل ﴿وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ﴾ فليس لهم أن يطمَعوا في رجوعك إليها.

نُقل أنّهم كانوا يتَناجَون في ذلك ويقولون: لو ثبَت محمّد على قبلتِنا، لكنّا نَرجو أن يكونَ صاحِبَنا الذي نَنتَظِره. وكانوا يطمَعون في رُجوعه إلى قبلَتِهم[1].

ثمّ وبّخَهم الله في قوله: ﴿وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ﴾ بأنّهم مع اتّفاقهم على مخالفة النبيّ ﷺ في قِبلَتِه ليسوا مُتَّفِقين على قبلةٍ واحدةٍ، حيث إنّ اليَهودَ كانوا يستَقبِلون إلى الصَّخْرَةِ، والنّصارىٰ إلى المَشْرِق، بل كلٌّ مُعرِضٌ عن قبلةِ الآخَر، لتَصَلُّبِ كلٍّ في التي يَهواها بِهَواه.

ثمّ أنّه تعالى بعد بَيان أنّ دينَهم وثَباتهم على قِبلتِهم صِرف متابعة الهَوى، وأنّها من أشدّ المَعاصي، بالَغ في تَهديدِهم بالكِناية التي هي أبلَغ من التّصريح، حيث وجّه الخِطاب إلى نبيّه ﷺ بقوله: ﴿وَلَئِنِ﴾ وافقتَ أهل الكِتاب و﴿ٱتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم﴾ ومُشتَهياتِ نُفوسِهم في أمر القِبلة ﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءكَ﴾ بفَضْلِ الله ورحمته ﴿مِنَ ٱلعِلْمِ﴾ بأنّ قِبلَة الله هي الكعبة ﴿إِنَّكَ إِذاً لَمِنَ ٱلظَّالِمِينَ﴾ على نفسِك بتَعريضها للهَلاك وأشدّ العَذاب، مع أنّك أشرَف الكائنات عند الله، وأحَبّ الخَلْقِ إليه، فكيف بهؤلاء الكفَرة وهم أبغَض الخَلق عنده!

ٱلَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ ٱلْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقاً مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ[١٤٦]

ثمّ أكّد سبحانه أنّ مُخالفَتهم للنبيّ ﷺ في دينِه مُطلقاً، قبلةً كان أو غيرها، ليست إلّا عن عِنادٍ وعصبيّةٍ وهَوى، لا للشُّبهة في نبوّتِه وصِدقه، بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ ٱلْكِتَابَ﴾ وكان لهم فَهْمُ دِراسَتِه، كالأحبارِ والرُّهبان ﴿يَعْرِفُونَهُ﴾ بالرّسالةِ لمَعرِفَتهم بعَلائمه المذكورة في الكُتُب السماويّة

---

١. تفسير الرازي ٤: ١٢٦.

﴿كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ لا يَشتَبِهونَهم[1] بغيرِهم. والتَّكْنِيَةُ عن الرّسول ﷺ بالضّمير من غيرِ سَبْقِ ذِكرِه لتَعظيمه وتَفْخِيمه وللايذانِ بشُهرَتِه غاية الاشتِهار ومعروفيّته بغاية المَعْرِفَة.

قيل: وَجهُ تَخصيصِ الأبناءِ بالذِكر دون البَنات، أنّهم بصُحْبَةِ الآباءِ ألزَم وبقُلوبهم ألصَق. وإنّما لم يَقُل: كمَا يعرِفون أنفُسَهم، لأنّ الانسانَ لا يعرِف نفسَه إلّا بعد انقِضاء بُرهةٍ من الزمّان من ولادته، ولكن يعرِف ولده حين وِلادَتِه[2].

نقل أنّه سُئل عبدالله بن سَلّام عن رسول الله ﷺ فقال: أنا أعلَم به منّي بابني، لأنّي لستُ أشُكّ في محمّد ﷺ أنّه نبيّ، وأمّا ولَدي فلعلّ والِدَته خانَت[3].

﴿وَإِنَّ فَرِيقاً مِنْهُمْ﴾ وهم المُصِرّون على اللّجاج دون فَريقٍ آخَر كعبدالله بن سلّام وأضرابه ﴿لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ﴾ عِناداً وتحفّظاً لرئاستِهم الباطلة ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أنّ محمّداً نبيٌّ، وأنّ الكعبةَ قِبلةُ الله، وأنّ كِتمانَ الحقّ من أقبَح المَعاصي.

ٱلْحَقُّ مِن رَبِّكَ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ [١٤٧]

ثمّ لمّا كان تغييرُ القبلةِ غريباً في الأنظارِ، ومَجالاً لشُبهات الكفّار ومَقالاتهم، وكانت قلوبُ ضُعَفاء المؤمنين مَعرضاً للتزَلزُلِ والشّكّ في دينِهم، أكّد الله أمرَ القِبلَةِ بقوله: ﴿ٱلْحَقُّ﴾ الذي أنتَ يا محمّد عليه من أمرِ القبلة نازِلٌ ﴿مِنْ رَبِّكَ﴾ اللّطيف، بل المُتَفَضّل عليك، فإذا كان ذلك ﴿فَلَا تَكُونَنَّ﴾ فيه ﴿مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ والشاكّين. والمقصود من نَهْيِهِ نَهي أُمّتِه عن الامتِراء، من باب (إيّاك أعني واسمَعي يا جارة) ومَرجِع نَهيِهم عنه أمرُهم بضِدِّه الذي هو اليَقين وطُمأنينة القَلْب.

قيل: إنّ الحقّ مفعولٌ لِيَعْلَمون، ومَنصوبٌ به.

إن قيل: كيف يُمكن أن يكونَ النبيّ ﷺ أعرَف من أبنائِهم عِندَهم إلّا إذا كان في التّوراة والإنجيلِ بَيانُ جميعِ مُشخّصاته؛ من صِفاته، وصورَته، وشَمائله، واسمهِ، واسم أبيه، وأُمّه، ونَسَبه، وقَبيلته، وزَمان ظُهوره. وإذا كان ذلك كان هو ﷺ معروفاً بين المَشْرِق والمَغْرِب لمعروفيّة الكِتابَين في أطرافِ العالَم. فإذن لم يُمكن لأحدٍ من اليَهود والنَّصارى إنكاره.

---

١. كذا، وفي روح البيان ١: ٢٥٢ لا يشتبه عليهم كما لا يشتبه أبناؤهم.
٢. روح البيان ١: ٢٥٢.
٣. تفسير الرازي ٤: ١٢٨.

قلتُ: يكفي في تَعريفه عليه السلام بيان جُملةٍ من صِفاته في الكِتابَين مُنْضَمّةً إلى مُعجزاته الباهِرات المَشهورات في المدينة ونَواحيها، فلم يكن لأهل الكتابِ الساكنين فيها مَجالٌ للرَّيبِ في أنّه هو النبيّ المَوعود، خُصوصاً مع التَّصريح باسمِه محمّد صلى الله عليه وآله في التَّوراة واسمه أحمَد في الإنجيل، مع إخبار جمع من الكَهَنةِ بقُربِ زَمانِ ظُهورِه، أو ظهوره[1].

وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا ٱلْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ ٱللهُ جَمِيعاً إِنَّ ٱللهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ[١٤٨]

ثمّ أنّه تعالى قرّب أمرَ تحويلِ القبلةِ إلى الأذهانِ، ورفَع استبعاد تَخصيص المُسلمين بوجُوبِ التوجّه إلى الكَعبةِ المُعَظّمة بقَوله: ﴿وَلِكُلٍّ﴾ من الأمم، ولأيّ ملّةٍ من المِلَل ﴿وِجْهَةٌ﴾ معيّنة، وقبلة مختصّة مقرّرة من قبل الله ﴿هُوَ مُوَلِّيهَا﴾ إيّاهم، وآمِرٌ بالتوجّه والاستقبال إليها كلّهم.

بل قال بعض: إنّ لكلّ طائفةٍ من المَلائكةِ أيضاً قِبلةً خاصّةً بهم: العَرْشُ قِبلةُ الحَمَلَةِ، والكُرسيُّ قِبلَةُ البَرَرَة، والبَيتُ المَعمور قِبلَةُ السَّفَرَةِ[2].

وقال آخر: العَرشُ قبلةُ المُقرَّبين، والكُرسيّ قبلةُ الرُّوحانيّين، والبيتُ المَعمور قِبلةُ الكَرُوبيّين، والحقّ قِبلةُ المُتَحيّرين، حيث قال: ﴿أَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ﴾ وبيتُ المَقدِس قبلةُ الأنبياءِ والمُرْسَلين، والكَعبةُ قِبلَةُ إبراهيم عليه السلام وخاتَم النبيّين صلى الله عليه وآله[3]. فأمرُ القِبلةِ راجِعٌ إلى اللهِ، والعِبادةُ والانقِيادُ راجِعٌ إلى العِباد.

إذا تبيَّن ذلك ﴿فَاسْتَبِقُوا﴾ وتَسارَعوا أيّها المُؤمنون إلى ﴿ٱلْخَيْرَاتِ﴾ والطّاعات ومُوجِبات المَثوبات التي منها التِزام التوجّه إلى الكعبةِ والصّلاة إليها.

﴿أَيْنَ مَا تَكُونُوا﴾ وفي أيّ مَكانٍ مِن أطرافِ العالَم تُصَلّون ﴿يَأْتِ بِكُمُ ٱللهُ جَمِيعاً﴾ ويجمَع صَلواتِكم إلى جهةٍ واحدةٍ وهي الكعبة، على ما قيل[4]. أو أينَما مُتُّم من البِلاد يأتِ بكم الله إلى المَحشَر فيُجازيكم على أعمالكم.

﴿إِنَّ ٱللهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ مِن جَمْعِكم في المَحْشَر، وجَمْع أعمالِكم وتأدِية ما تَستحِقّون من

---

١. كذا، والظاهر أو بظهوره. ٢. تفسير الرازي ٤: ٩٥. ٣. تفسير الرازي ٤: ١٣١.
٤. تفسير أبي السعود ١: ١٧٧.

الثّواب ﴿قَدِيْرٌ﴾.

عن (الاكمال) و(العيّاشيّ): عن الصادق عليه السلام: «لقد نزَلت هذه الآية في أصحاب القائم عليه السلام وإنّهم المُفتَقَدون مِن فُرُشِهم ليلاً، فيُصبِحون بمكّة، وبَعضُهم يسيرُ في السَّحابِ نهاراً، نعرِف اسمَه واسمَ أبيهِ واسمَ حِليَتِه ونَسَبِه»[1].

وقريبٌ منها روايات محمولةٌ على بَيان التأويلِ والبَطْن[2].

وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَبِّكَ وَمَا ٱللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ * وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ[١٤٩ و ١٥٠]

ثمّ أنّه تعالى لتأكيد أمرِ القبلة وبَيان أنّه لا يُوجِب اختِلاف مَكان المُصَلّي تغييراً فيه، وأنّه أبديٌّ لا يَطروه النَسْخُ، كرَّرَ الحُكْمَ بقوله: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ﴾ يا نبيَّ الرَّحْمَةِ، وإلى أيّ مَكانٍ سافَرْتَ ﴿فَوَلِّ﴾ وَاَصرِف ﴿وَجْهَكَ﴾ حالَ صَلاتِك ﴿شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ وجانِبَه، واعلَم في هذا التولّي ﴿وَإِنَّهُ﴾ بالله ﴿لَلْحَقُّ﴾ المُوافِقُ للحِكمةِ والمَصْلَحةِ، الثابتُ ﴿مِنْ﴾ قِبَل ﴿رَبِّكَ﴾ لا يَطروه التّغيير والنَسْخ أبَداً.

ثُمّ أردَف الله التأكيد بالوَعْدِ والوَعيدِ على الطّاعة والمُخالفةِ بقوله: ﴿وَمَا ٱللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ مِن التِزامِكم بامتِثال أمرِه، وتَجَرّيكم عليه بعِصيانه، فيُجازيكُم على أعمالِكم، إنْ خَيْراً فَخَير، وإنْ شرّاً فشَرّ.

ثمّ كرّر سبحانه وتعالى قوله: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ﴾ أيّها الرّسولُ ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ﴾ أيّها المُسلمون ﴿فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾.

قيل: في تكرار الحُكم في الآياتِ الثلاث فَوائد:

---

١. اكمال الدين: ٢٤/٦٧٢، تفسير العياشي ٢: ٢٢٤/١٦٦، تفسير الصافي ١: ١٨٣.

٢. راجع البرهان في تفسير القرآن ٢: ٢٠ ـ ٣١.

منها: أنّ في الآيةِ الأُولى ـ وهي قوله: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ﴾[١] ـ بَيان حُكم أهل المَسجد، وفي الآيةِ الثانية بَيان حكم أهل المدينة، وفي الثالثة بَيان حُكم مَن كان في خارج المَدينة وأقطار العالم.

ومنها: أنّ المرّة الأُولى تَوْطِئة لبَيان أنّ أهل الكِتاب يعلَمون أنّ أمْرَ نبوّة محمّد ﷺ وأمْرَ القِبلَةِ حقٌّ. والمرّة الثانية لبَيان أنّ الله يعلَم أنّه الحقّ، والمرّة الثالثة لبَيان ذِكر عِلَلِه، فَلاِخْتِلافِ الفَوائـد حَسُنَ التكرار.

ومنها: أنّ في المرّة الأُولى بَيان حُكم القِبلة، وفي الثانية التّنبيه على أنّه ليس لِمَحْضِ رِضاك بغير مُلاحظة صَلاحٍ فيه، بل لعِلم الله بأنّه الحقّ وذو صَلاحٍ تامٍّ. وفي الثالثة بَيانُ دَوامِ هذا الحُكم، بحيث لا يتطرّق إليه النَّسْخ.

وقيل: إنّ في المرّة الأُولىٰ إشارةً إلى أنّ أحد عِلَل التّحويل حبّ النبي ﷺ إيّاها من حيث إنّها قِبلة إبراهيم ﷺ وأشرَف بِقاع الأرض، ومَورِد توجّه العرَب.

وفي الثانية إشعارٌ بأنّ لكلّ صاحِب دعوةٍ وشَريعةٍ قِبلةً مخصوصةٍ، فاختارَ الله لهذه الأُمّة التي هي أفضَل الأمَم أشرَف البِقاع والجِهات.

وفي الثالثة دلالة على أنّ فيه قَطْع حُجَج اليَهود والمُشركين[٢] حيث قال: ﴿لِئَلّا يَكونَ للنّاسِ﴾ من المُشرِكين واليَهود ﴿عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾ واعتِراضٌ، حيث إنّ مُشرِكي العرَب كـانوا يـقولون إنّ مـحمّداً ليس على ملّة إبراهيم ﷺ إذ قِبلَةُ إبراهيم ﷺ بيت الكَعْبَة وقِبلَة محمّد بَيت المَقْدِس، وإنّ اليَهود كانوا يقولون: إنّ النبيّ المَوعود من صِفاته أنّه يُصلّي إلى الكعبة بعد أن كان يُصلّي إلى الصَّخْرَةِ، فلو دُمتُم على الصَّلاة إلى بيتِ المَقْدِس صِرتُم مُلزَمين بحجّةِ الفَريقَين. وكان يقَعُ الطَعنُ في نبوّة محمّد ﷺ ودينِه، فبتَغيير القِبلةِ آنقطَعت مَقالاتُ النّاس[٣].

﴿إِلّا ٱلّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ أنفُسَهم وعانَدوا الدِّين الحقّ مِن مُشرِكي العَرَب الذيـن يـقولون: بَـدا لمحمّد فرجَع إلى قِبلةِ آبائِه، فيُوشِك أن يرجِع إلى دينِهم. ومن اليَهود الذين يقولون: إنّ محمّداً ما ترَكَ قِبلَتَنا إلّا حُبّاً لبَلَدِه، وَمَيلاً إلى دين قَومِه، ولو كان على الحقّ لَلَزِم قبلةَ الأنبياء ولم يُعرِض عنها. ومن الواضح أنّ هذه الأباطيل غير لائقة للجَواب، وإطلاق الحُجّة عليها تهكّم أو جَري على اعتِقادهم حيثُ إنّهم يَسوقونها مساقَها.

---

١. البقرة: ١٤٤/٢.　　٢. تفسير الرازي ٤: ١٣٧.　　٣. تفسير الرازي ٤: ١٣٩.

وعن القمي رحمه الله: إنّ (إلّا) هاهنا بمعنى ولا[١].

﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ﴾ ولا تَخافوا مِن طَعْنِهم عَليكُم، فإنّه لا يضرُّكم شيئاً ﴿وَٱخْشَوْنِى﴾ في مُخالفة أمري، وآحذَروا عقابي في عُدولِكُم عمّا ألزَمتكُم عليه من التّوجه إلى بيتي.

ثمّ ذكر لتَحويل القبلة علّةً ثانيةً بقوله: ﴿وَلِأُتِمَّ﴾ بالتّحويل ﴿نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ﴾ حيث وجّهتكم إلى القِبلَةِ الوَسَط بعدما أنعمتُ عليكم بنَبيٍّ وَسَط، وجعَلتُكم أُمّةً وَسَطاً.

عن النبيّ صلّى الله عليه وآله: «تَمامُ النِعمَةِ دخولُ الجَنّة»[٢].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «تَمامُ النِعمَةِ المَوتُ على الإسلام»[٣].

أقول: أتمّ النِعَم نِعمَة الولاية، حيث قال الله تعالى: ﴿وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى﴾[٤] والتّلازُم بين دُخولِ الجنّة والاسلام الحقيقي والولاية واضِحٌ، وأمرُ القِبلَةِ بعضُ مُتَمِّماتِ النِعَم.

قيل: إنّ المُسلمين كانوا يفتَخِرون باتّباع إبراهيم عليه السلام أصولاً وفُروعاً، فلمّا أُمِروا بالتوجّه إلى بيت المَقْدِس حصَل الإنكِسارُ والضَّعْفُ فيهم والتّكدُّر في قلوبهم، ولذلك كان النبيّ صلّى الله عليه وآله يُحبّ التّحوّل إلى الكعبةِ، فبالتَّحويلِ تمّت النِعْمَةُ بالنّسبة والإضافة[٥].

ثمّ ذكَر الله تَعالى العِلّة الثالثة بقوله: ﴿وَلَعَلَّكُمْ﴾ بالاهتِداء إلى التّوجّه إلى الكعبةِ ﴿تَهْتَدُونَ﴾ إلى ما فيه خَيرُكم وصَلاحُكم وحُسن عاقِبَتِكم.

كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِنْكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَابَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ * فَاذْكُرُونِى أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا لِى وَلَا تَكْفُرُونِ[١٥١ و ١٥٢]

ثمّ أنّه تعالى بعد ما ذكر أنّ في تَغيير القِبلَة إتمامَ النِعمَة، بيّن أنّه في التّماميّة كإرسال الرّسول بقوله: ﴿كَمَا﴾ أتمَمْنا عليكُم النِعمَةَ حيث ﴿أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً﴾ عظيمَ الشأن كائِناً ﴿مِنْكُمْ﴾ جِنْساً ونَسَباً حتّى يكونَ لكُم شَرفاً، وهو ﴿يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا﴾ الدالّة على نبوّتِه التي هي مَبدأ جَميع الخَيْرات الدُّنيويّة والأُخرويّة.

---

١. تفسير القمي ١: ٦٣، تفسير الصافي ١: ١٨٤.
٢. كنز العمال ٢: ٢٩٦٥/١٧، تفسير الصافي ١: ١٨٤.
٣. تفسير الرازي ٤: ١٤١، تفسير الصافي ١: ١٨٤.
٤. المائدة: ٣/٥.
٥. تفسير الرازي ٤: ١٤١.

﴿وَيُزَكِّيكُمْ﴾ بتَزْبِيَتِه ويُطهِّر نُفوسَكم من رَذائل الأخلاقِ بتَقوِيَةِ عُقولِكم وتَضعيف شَهَواتِكم الحيوانيّة، وتَزهيدِكم عن الدُّنيا وزِينَتِها، وقَطْع عَلائقِكم عنها، حتّى تَكونوا باتّباعه مُهَذَّبِين من النواقِصِ الأخلاقيّة، مُبَرَّئين عن الأهواءِ النَّفسانيّة [illegible]

﴿وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَابَ﴾ المَجَيدَ والقُرآن الحَميد. وفيه إشارةٌ إلى أنَّ تَعليم حَقائِقه ودقائقه بعد تِلاوَتِه نعمةٌ فوقَ نِعمَةٍ، وفي تَقديمِ التَّزكية هنا على التَّعليم إشعارٌ بتَقديمِ التَّخلية على التَّجْلِيَة، وبأنّها العِلّة الغائيّة، وهي مقدّم في القَصْدِ واللّحاظ ومؤخّر في الوُجود والفِعل، ولذا أُخّرت في دعوة إبراهيم عليه السلام.

﴿وَ﴾ يعلّمُكم ﴿ٱلحِكْمَةَ﴾ قيل: هو العلم بأحكام الشريعة[1] ﴿وَيُعَلِّمُكُمْ﴾ بطريق الوَحي ﴿مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ مِن العلوم بغَيره، ولا سَبيلَ لكُم إلى إدراكِه واستِكشافه.

وقيل: إنّ التَّشبيهَ راجعٌ إلى قوله تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِى﴾ فعلى هذا يكون المعنى على ما قيل: كما ذكَرتُكم بإرسال الرّسول فاذكُروني بالطّاعة والانقياد ﴿أَذْكُرْكُمْ﴾ بالثّواب. أو فاذكروني بقُلوبكم أذكُركم برَحمتي. أو اذكُروني بالدُّعاء أذكُركم بالاجابة. أو أذكُروني في الخَلَوات أذكُركم في الفَلَوات. أو اذكُروني بمُجاهَدتي أذكُركم بهِدايَتي. أو اذكُروني بالصِّدْقِ والإخلاصِ أذكُركُم بالخَلاص ومَزيد الاختِصاص. أو اذكُروني بالرّبوبيّة أذكُركم بالرّحمة والعبوديّة.

عن الصادق عليه السلام في حديث: «يا عيسى، اذكُرني في نفسِكَ أذكُرك في نَفسي، واذكُرْني في مَلَئِكَ اذكُرك في مَلإ خيرٍ من مَلَأ الآدَميّين»[2].

وعن (العياشي) عن الباقر عليه السلام قال: «قال النبيّ صلى الله عليه وآله: إنّ المَلَك يُنزِل الصحيفةَ من أوّل النّهار وأوّل اللّيل يَكتُب فيها عمَلكم، فاملُوا في أوّلها خيراً وفي آخِرها خيراً، فإنّ الله يغفِر [لكم] ما بين ذلك إن شاء الله، فإنّه يقول: ﴿اذْكُرُونِى أَذْكُرْكُمْ﴾»[3].

وعنه عليه السلام: «ذِكرُ الله لأهلِ الطاعةِ أكبَر[4] من ذِكرِهم إيّاه، ألا تَرى إنّه يقول: ﴿اذْكُرُونِى أَذْكُرْكُمْ﴾؟»[5].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «اذكُروا الله في كلّ مكانٍ فإنّه معَكم»[6].

---

١. تفسير الرازي ٤: ١٤٣.
٢. الكافي ٢: ٣/٣٦٤، تفسير الصافي ١: ١٨٤.
٣. تفسير العياشي ١: ٢٢٥/١٦٧، تفسير الصافي ١: ١٨٤.
٤. في تفسير القمي: لأهل الصلاة أكبر، وفي تفسير الصافي: لأهل الطاعة أكبر.
٥. تفسير القمي ٢: ١٥٠، تفسير الصافي ١: ١٨٤.
٦. الخصال: ١٠/٦١٣، تفسير الصافي ١: ١٨٤.

قال لُقمان لابنِه: يا بُنيّ، إذا رأيت قوماً يذكُرون الله تعالى فاجلِس معَهُم، فإنّك إن تكُ عالماً ينفَعك عِلمُك. وإنْ تَكُ جَاهِلاً علّموكَ. ولعلّ الله يطّلِع عليهم برَحمتِه فيُصيبك معهم[١].

في أقسام ذكر الله وأنواعه

قيل: الذِكرُ قديكونُ باللّسان، وقديكونُ بالقَلْب، وقديكون بالجَوارح. فالذِكرُ باللّسانِ: أن يَحْمَدوه ويُسَبِّحوه ويُمَجِّدوه ويَقرأوا كتابه. والذِكرُ بالقَلْبِ على ثلاثة أنواع:

أحدها: أن يتفكّروا في الدَلائل الدالّة على ذاتِه وصِفاته، ويتفكّروا في الجَواب عن الشُبَه العارِضة في مُلك الله[٢].

وثانيها: أن يتفكّروا في الدلائل الدالّة على كيفيّة تكاليفه وأحكامِه، وأوامِره ونَواهيه ووعده وَوَعِيده، فإذا عَرفوا كيفيّة التّكليف وعَرفوا ما في الطاعة من الوَعْدِ وفي تَرْكها مِن الوَعيد سَهُلت عليهم.

وثالِثها: أن يَتفكّروا في أسرارِ مَخلوفاتِ الله تعالى حتّى تصيرَ كلّ ذرّة من ذرّات المَخلوقاتِ كالمِرآةِ المَجْلُوّةِ المُحاذِية لعالَم القُدس، فإذا نظَر [العبد] إليها انعكَس شُعاعُ بصَرِه منها إلى عالَم الجَلال، وهذا المَقام مَقامٌ لا نِهاية له.

وأمّا الذِكر بالجَوارح فهو أن تكونَ جَوارِحُهم مُستَغرِقة في الأعمال التي أُمروا بها، وخالية عن الأعمال التي نُهوَا عنها. وعلى هذا الوَجه سَمّى الله تعالى الصَّلاةَ ذِكراً، بقوله: ﴿فَاسْعَوْا إِلىٰ ذِكْرِ اللهِ﴾[٣] فالأمر في قوله: ﴿اذْكُرُونِى﴾ مُتضَمّن لجميع الطّاعات.

كما نقل عن سعيد بن جُبَير، أنّه قال في تفسيره: اذكُروني بِطَاعتي[٤].

ثمّ أنّه تعالى بعد الأمرِ بالذِكر الذي هو بأحدِ الوُجوه أهمّ العِبادات وروحها، أمر بالشُكْرِ بقوله: ﴿وَٱشْكُرُوا لِى﴾ على جميع نِعَمي، ظاهريّة كالصِّحّةِ والأمنيّة وغيرها. وباطِنيّة: كإرسالِ الرّسول والهِداية إلى الدّين القَويم والطريق المستقيم الذي منها تحويل القِبلة.

وهذا أمرٌ بجَميع الطاعات، فإنّ مِن الشُكرِ القِيامُ بالواجِبات، والاهتِمام بتَرْك المُحَرّمات، كما روي عن أمير المؤمنين عليه السلام: «شُكر كلّ نعمةٍ الورَعُ عن مَحارم[٥] الله[٦]». وأقلّ مَراتِب الشُكرِ ثناؤه تعالى

---

١. تفسير روح البيان ١: ٢٥٧.
٢. في تفسير الرازي: الشبهة القادحة في تلك الدلائل.
٣. الجمعة: ٩/٦٢.
٤. تفسير الرازي ٤: ١٤٣، تفسير روح البيان ١: ٢٥٦.
٥. في الخصال وتفسير الصافي: عمّا حَرّم.
٦. الخصال: ٥٠/١٤، تفسير الصافي ١: ١٨٥.

وحَمْدُه.

كما عن (العياشي): عن الصادق عليه السلام أنّه سُئل: هل للشُّكر حدٌّ إذا فعَله الرّجُل كان شاكِراً؟ قال: «نعم». قيل: وما هو؟ قال: «الحَمْدُ لله على كلّ نِعمَةٍ أنعمَها عليّ، وإن كان له فيما أنعَم به عليه حقٌّ أدّاه، ومنه قول الله تعالى: ﴿سُبْحَانَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا﴾»[1].

وعنه عليه السلام في رواية: «عند النِعمة الشُكرُ فَريضةٌ»[2] الخبر.

وإنّما لم يَقُل: اشكرُوني، لما في قوله: ﴿اشكُرُوا لِى﴾ إشعارٌ باختِصاص الشُكرِ به تعالى، وعدم استِحقاق غَيرِه له، لأنّ جميعَ النِعَم بفَضلِه ومُنْتَهِيَةٌ إليه.

ثمّ لتأكيدِ ذلك الأمر نَهىٰ عن ضِدّه بقوله: ﴿وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ نِعمي بجَحْدِها، وعِصيان أمري، بل عليه يكون تَرْكُ الشُكْرِ كُفراناً.

وقيل: إنّ المُراد لا تَكفُرون بي، ولا تجحَدون وَحدانيّتي وأُلوهيّتي، وإنّما خَصّ الكُفرَ به تعالى بالنهي عنه، للتّنبيه على أنّه أعظَمُ قَباحةً بالنِسبة إلى كُفرِ نِعَمِه[3].

يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱسْتَعِينُوا بِالصَبْرِ وَٱلصَّلَاةِ إِنَّ ٱللهَ مَعَ ٱلصَّابِرِينَ * وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِن لَا تَشْعُرُونَ [١٥٣ و١٥٤]

ثمّ لمّا كانَ حقيقَة شُكرِه وهو تذكّر نِعَمِه والقِيام بجَميعِ أوامِره وتَرْكِ ارتِكاب جَميع مَنْهيّاتِه شاقّاً على النّفوسِ وثَقيلاً على الطّباع، أمَر بالصَّبْرِ والتوجّه إلى عظَمَتِه وسَعَةِ رَحْمَتِه بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱسْتَعِينُوا﴾ على طاعَةِ اللهِ والتورّع عَن مَحارِمه وأداء حقّ شُكرِه ﴿بِالصَّبْرِ﴾ على تحمّل مَشاقّ الأُمورِ وبِكَفّ النَّفْسِ عن مُخالَفةِ أحكام الله واتّباع الشّهَوات، فإنّ قوّة تحمّل المَشاقّ من غير جَزَعٍ واضطِرابٍ ذريعةٌ إلى فِعْلَ كلّ خَيرٍ، ومَبْدأُ كلّ فَضْل.

عن النبيّ صلى الله عليه وآله: «الصَّبْرُ مِن الايمانِ بِمَنْزِلَةِ الرّأسِ من الجَسَد»[4].

وقال: «الصَّبرُ خَيرٌ كلّه، فمَن تَحلّى بحِليَةِ الصَّبر سهل عليه القيام بالطّاعات، والاجتِناب عن

---

١. تفسير العياشي ١: ٢٢٦/١٦٧، تفسير الصافي ١: ١٨٥، والآية من سورة الزخرف: ٤٣/ ١٣.

٢. الخصال: ١٧/٨٦، تفسير الصافي ١: ١٨٥. ٣. تفسير روح البيان ١: ٢٥٦.

٤. الكافي ٢: ٣/٧٢، تفسير روح البيان ١: ٢٥٧.

المُنكَرات، وتَحمّل البَلايا والمُصيبات»[١].

عن النبيّ ﷺ في حديث: «ثمّ ينادي مُنادٍ: أين أهل الصَّبرِ؟ فيَقومُ ناسٌ يَسيرون سِراعاً إلى الجنّةِ فتَلَقّاهم المَلائكةُ فيَقولون: إنّا نراكم سِراعاً إلى الجنّةِ، فَمَن أنتُم؟ فيقولون: نَحنُ أهلُ الصَّبْرِ. فيقولون: ما كانَ صَبْرُكم؟ قالوا: كنّا نَصبِر على طاعة اللهِ، ونَصبِر عن معاصي الله. فيقال لهم: أدخُلوا الجنّة»[٢].

وعن الصادق عليه السلام[٣] في رواية: «عند البَلاء من اللهِ الصَّبرُ فَريضَةٌ»[٤].

وقيل: إنّ المُرادَ بالصَّبرِ هنا، الصَّبْرُ على الصَّوم[٥].

ثمّ لمّا كان التوجّه إلى اللهِ وحُضور القَلبِ عنده في الصَّلاة أكمَل وأتَمّ، أمَر بالأستِعانة بها بـقوله: ﴿وَٱلصَّلَاةِ﴾ التي روي أنّها مِعراجُ المؤمن[٦]، وقربانُ كلّ تقيّ[٧]، وأنّها الناهية عن الفَحْشاء والمُنْكَر[٨].

وعنه ﷺ: كان إذا حزَبه[٩] أمرٌ فزَع إلى الصَّلاةِ، وتلا هذه الآية[١٠].

ثُمّ لمّا كانَ الصَّبرُ على الطّاعة مُتَضمّناً للاهتِمام بالصَّلاةِ والقيام بسائر العِبادات أكّد الأمر بالاستِعانه به بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّابِرِينَ﴾ بالتّوفيقِ وإجابَةِ الدَّعوةِ والنُّصْرَةِ على الأعداءِ.

وقيل: إنّ المُراد بالصَّبرِ في الآيَةِ الصَّبرُ على الجِهاد بشَهادَةِ إردافِه بقوله: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وجِهاد أعدائه ونُصرَةِ دينِه وإعلاء كَلِمتِه، أنّهم ﴿أَمْوَاتٌ﴾ مُنقَطِعو الأثَر في الدُّنيا، فـإنّ الميّت مَن لا يَبقى منه أثَر ﴿بَلْ﴾ هُم ﴿أَحْيَاءٌ﴾ حيث إنّهم أحيَوا دِينَ الاسلامِ وسُنَّة الجِهاد، فَما دامَ الاسلامُ باقِياً في الدُّنيا، آثارُهم باقيةٌ وثَوابُ عَملهم غير مُنقَطِع عنهم، لأنّ مَن سَنَّ سُنَّةً حَسَنَةً، كانَ له أجر مَن عَمِل بها.

﴿وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾ بالحَواسّ الظاهِرة هذا النَّحو من الحياة، حيث إنّها أمرٌ معنَويّ لا يُدرَك إلاّ بالعَقْلِ السَّليم أو بالوَحْيِ مِنَ اللهِ وإخبار أنبيائه.

في عدد قتلى بدر وأسمائهم

روي عن ابن عبّاس أنّها نزَلت في قَتْلىٰ بَدْر من المُسلِمين، وهم يومئذٍ أربَعة عشَر رَجُلاً ستّة من المهاجِرين وثَمانية من الأنصارِ، فمِن المُهاجرين: عُبَيدة بن الحارث

---

١. تفسير روح البيان ١: ٢٥٧.
٢. تفسير روح البيان ١: ٢٥٨.
٣. في الخصال وتفسير الصافي: الباقر عليه السلام.
٤. الخصال: ١٧/٨٦، تفسير الصافي ١: ١٨٥.
٥. تفسير الرازي ٤: ١٤٤.
٦. بحار الأنوار ٨٢: ٣٠٣.
٧. عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ١٦/٧.
٨. كما ورد في سورة العنكبوت: ٤٥/٢٩.
٩. حزبه الأمر: نابه واشتدّ عليه.
١٠. تفسير الرازي ٤: ١٤٥.

بن عبدالمُطّلب، وعُمَر بن أبي وَقاص، وذو الشّمالين، وعَمْرو بن نُفَيلة، وعامر بن بَكْر، ومِهْجَع بن عبدالله. ومن الأنصار سعيد بن خَيثمة[١]، وقيس بن عبدالمُنذِر، وزَيد بن الحارث، وتَميم بن الهُمام، ورافِع بن المُعلّى، وحارِثَة بن سُراقَة، ومُعَوّذ بن العَفْراء وعوف بن العَفْراء وكانوا يقولون: مات فُلان، ومات فُلان، فنَهىٰ الله تَعالى أن يُقال فيهم أنهم ماتوا.

وقيل: إنّ الكُفّارَ والمنافقين قالوا: إنّ النّاسَ يقتُلون أنفُسَهم طلَباً لمَرضاةِ محمّد من غير فائدة، فنزَلت هذه الآية[٢].

وعن (الكافي) و(التهذيب): عن يونُس بن ظَبْيان، عن الصادق عليه السلام أنّه قال له: «مايَقولُ النّاسُ في أرواحِ المؤمنين؟» قال: يقولون في حَواصِل طيورٍ خُضْرٍ في قَناديلَ تحتَ العَرْش.

فقال عليه السلام: «سُبْحَان الله! المؤمِن أكرَم على الله مِن أن يجعَل روحَه في حَوْصَلَةِ طيرٍ! يا يُونس، إذا كان ذلك أتاه محمّد وعليّ وفاطمة والحسَن والحُسَين والمَلائكةُ المُقَرّبون، فإذا قبَضه الله تَعالى صيَّر تِلكَ الرّوح في قَالبٍ كَقالَبِهِ في الدّنيا فيأكُلونَ وَيشْرَبون، فإذا قَدِم عليهِمُ القادِمُ عرَفوه بتلك الصّورة التي كانت له في الدّنيا»[٣].

وعن (التّهذيب): عنه عليه السلام أنّه سُئِل عن أرواحِ المؤمنين فقال: «في الجنّةِ على صُوَرِ أبدانِهم، لَو رأيتَه لقُلتَ: فُلان»[٤].

في بيان حال المؤمن في البرزخ

أقول: ظهَر أنّ المُراد من الحَياةِ في الآية هي الحياة البَرْزَخِيّة، التي عبارة عن تعلّق الرّوح بالجَسَد المِثالي الذي هو جَوْهَر هذا الجَسَد الدّنيَويّ، في عالم البَرْزَخ الذي هو عالَمٌ بين العالَمَين، كما دلّت عليه الأخبار المُتَواتِرَة، وضرورة المَذْهَب أو الدّين.

وإنّما اختَصّ هذه الحياة بالشُّهداء والمؤمِنين مع كَونِها للكُفّار والعُصاة أيضاً؛ لأنّ حياة الشُّهدَاء مَقرونةٌ باللّذّةِ والنّعمةِ والبَهْجَةِ والكرامَةِ دونَ حياةِ غَيرِهم، حيث إنّها مقرونةٌ بالعَذابِ والنّقمة، فكأنّها[٥] ليس بحَياةٍ، كما قال تعالى في حقّ أهلِ النّار: ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾[٦].

وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ ٱلْأَمْوَالِ وَٱلْأَنْفُسِ

---

١. في النسخة: سعيد بن خثيمة، وما أثبتناه من تفسير الرازي. ٢. تفسير الرازي ٤: ١٤٥.
٣. الكافي ٣: ٦/٢٤٥، التهذيب ١: ١٥٢٦/٤٦٦. ٤. التهذيب ١: ١٥٢٧/٤٦٦.
٥. في النسخة: فكأنّه. ٦. طه: ٧٤/٢٠.

وَٱلثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ ٱلصَّابِرِينَ[١٥٥]

ثمّ أنّه تعالى لِتَوطينِ العِباد نُفوسَهم على الصَّبر في المَكارِه بعدَ أمرِهم بالاستِعانة به، نبههم على أنّ جَميع البَلايا من جانبِ الله لطفٌ بهم وامتحانٌ لهم بقوله: ﴿وَ﴾ بالله ﴿لَنَبْلُوَنَّكُمْ﴾ ولَـنَخْتَبِرَنَّ كـمالَ نُفوسِكم وقوّةَ إيمانِكم ﴿بِشَىْءٍ﴾ قليلٍ ﴿مِنَ ٱلْخَوْفِ﴾ مِن أعدائكم ﴿وَ﴾ من ﴿ٱلْجُوعِ﴾ العارِض لكم بسَبَبِ الفَقْرِ والقَحْط ﴿وَنَقْصٍ مِنَ ٱلْأَمْـوَالِ﴾ بـالتَّلَفِ بـالسَّرِقة والغَـارَةِ وغَـير ذلك ﴿وَ﴾ مـن ﴿ٱلْأَنفُسِ﴾ بالقَتْلِ والمَرَضِ والمَوتِ وغير ذلك مـن الآفـات الجِسـمانيّة ﴿وَ﴾ مـن ﴿ٱلثَّـمَرَاتِ﴾ وحاصلِ الأشجار والزَّرع بالجَدْبِ وسائر الآفاتِ.

قيل: في تَوصيفها بالقلّةِ إشعارٌ بأنّها وإن كَثُرَت فقَليلةٌ بالنّسبَةِ إلى ما فَوقها[١].

وقيل: إنّ المُرادَ مِن الخَوف خَوفُ اللهِ، ومِن الجُوعِ الصِّيامُ، ومِن نَقْصِ الأموالِ الزَكاةُ والصَّدَقات، ومن نَقْصِ الأنفُسِ الجهاد[٢]، وإنّما صارَتِ البَلايا امتِحاناً لأنَّ الإخلاصَ حالَ البَلاء للمؤمنِ أكثَر من الإخلاصِ حال الرَّفاه والرَّخاء.

ثم أنّه تعالى لازدياد رَغبةِ المؤمنين بالتِزام الصَّبر، وعَدَهم بالثَّواب العظيم إجمالاً بقوله: ﴿وَبَشِّرِ﴾ يا رَسول الله ﴿الصَّابِرِينَ﴾ على البَلايا والمَصائب طلباً لمَرضاةِ اللهِ بالرَّحمةِ الواسِعَةِ والنِعَمِ الدائمَةِ والفَضْلِ الذي لايَسَعُه البَيان.

عن أمير المؤمنين عليه السلام في وصيّةٍ لمحمّد بن الحنفيّة، قال: «ألقِ عنك وارِدات الهُموم بعَزائم الصَّبْر، وَعوِّد نفسَك الصَّبْرَ، فنِعْمَ الخُلُقُ الصَّبْرُ، واحمِلها على ما أصابَك من أهوالِ الدُّنيا وهُمومِها»[٣].

وعن الصّادق عليه السلام، عن أبيه، قال: قال الفَضْل بن العبّاس[٤] في حديثٍ: قـال رسـولُ الله صلى الله عليه وآله: «إن استطَعْتَ أن تَجَمَّل[٥] بالصَّبر مع اليَقين فافعَل، فإن لَم تستطَع فاصبِر فإنَّ في الصَّبرِ على ما تَكْرَه خيراً كثيراً» الخبر[٦].

وعن أبي عبدالله عليه السلام قال: «يا حَفْص، إنّ مَنْ صَبَر صَبَرَ قَليلاً، وإنّ مَن جَزع جَزعَ قليلاً» ثمّ قـال:

---

١. تفسير روح البيان ١: ٢٦٠.
٢. تفسير روح البيان ١: ٢٦٠.
٣. من لا يحضره الفقيه ٤: ٨٣٠/٢٧٦.
٤. في المشكاة والبحار: عبدالله بن العبّاس.
٥. في المشكاة والبحار: تعمل.
٦. مشكاة الأنوار: ٢٠، بحار الأنوار ٧٠: ٥٢/١٨٣.

«عليك بالصّبرِ في جَميعِ اُمورِك، فإنّ الله عزّ وجلّ بعَث محمّداً ﷺ فأمَره بالصّبرِ والرّفق» الخبر [١].

وعنه عليه السلام في رواية: «فمَن صَبَر كُرْهاً ولم يَشْكُ إلى الخَلْق ولم يَجْزَع بهَتْكِ سِتْرِه فهو من العام، ونَصيبُه ما قال الله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّابِرِينَ﴾» الخبر [٢].

في أنّ البلاء والمصيبة من ألطاف الله بالمؤمن

ثمّ اعلَم أنّ الآيةَ صريحةٌ في أنّ البَلاءَ والرَّخاءَ والنِعمةَ والشّدّةَ كلّها من الله، وأنّ البَلاءَ والمُصيبةَ من ألطافهِ تعالى بالمؤمِن؛ لأنّه مقدّمة للصّبر الذي هو من أفاضِل الصّفات وأكمَل الخِصالِ والمَلَكاتِ للنّفس.

روي عن النبيّ ﷺ أنّه قال: «الإيمانُ نِصْفانِ: نِصفٌ صَبْرٌ ونِصفٌ شُكْرٌ، فإذا صَبَر المؤمِنُ عند نُزولِ الشّدائِد كان له درَجات» الخبَر [٣].

نعم، قد يكون كفّارةً للسّيئات كما روي عن (النهج) «أنّ الله يَبتَلي عبادَه عند الأعمال السّيئة بنَقْص الثّمَرات، وحَبْس البَرَكات، وإغلاق خَزائن الخَيرات؛ ليتوبَ تائِبٌ، ويُقلِع مقلِع، ويتذكّر مُتذكّر، ويزدَجِر مُزدَجِر» [٤].

في بيان وجه أفضلية الصبر على الطاعة من الصبر على البلاء

ثمّ أنّه روي: «أنّ الصّبرَ على الطّاعةِ من عَمَلِ الواجبات وتَرْكِ المُحرّمات أفضَل من الصّبر على البَلاء» [٥]، لوضوح أنّه متوقّف على قوّةِ الإيمانِ وشدّة اليَقين، حيث إنّ الانسانَ العاقِلَ البالِغَ المُكلّف له قوّة شَهويّة تَدعوه إلى اللذّاتِ النفسانيّة العاجِلة والاشتِغال بها، وقوّة عاقِلة تَدعوه إلى اللذّات الرّوحانيّة الباقية، ولو كانت آجِلةً، والتجَنّب عمّا يصُدّ عنها، فإذا عرَف العقلُ أنّ الاشتِغال بطَلَب اللذّات الفانِيَة يمنَعه عن الوصول إلى اللذّات الباقية تكون هذه المَعرِفة صادّةً ومانِعةً لداعية الشّهوةِ، فيُسَمّى ذلك المَنْعُ والصّدُّ صَبْراً.

نقل كلام الفخر الرازي وتزييفه

ثمّ من العَجائب، أنّ قال الفَخْرُ الرازي في (تفسيره): إنّ هذه الآية تدُلّ على أنّ الغِذاء لا يُفيد الشّبعَ، وشُربَ الماءِ لا يُفيد الريَّ، بل كلُّ ذلك يحصُل بما أجرىٰ الله العادَةَ به عند هذه الأسباب؛ لأنّ قولَه: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ﴾ صريحٌ في إضافةِ هذه الأمورِ إلى الله، انتهى [٦].

---

١. الكافي ٢: ٣/٧١، بحار الأنوار ٩: ٦٦/٢٠٢.
٢. مصباح الشريعة: ١٨٦، تفسير الصافي ١: ١٨٥.
٣. تفسير الرازي ٤: ١٤٩، إلى قوله: شكر.
٤. نهج البلاغة: ١٩٩ الخطبة ١٤٣، تفسير الصافي ١: ١٨٦.
٥. بحار الأنوار ٧٦: ١٦.
٦. تفسير الرازي ٤: ١٥٣.

وفيه من الوَهن ما لا يَخفى، إذ يكفي في إضافةِ هذه الأُمور إليه تعالى على وجهِ الحقيقة، إضافة إيجادِ أسبابِها إليه. وأمّا قوله: إنّ إضافتَها بواسطةِ الأسبابِ إليه مَجازٌ لا يُصار إليه إلّا بعد تَعَذُّرِ الحقيقةِ، فمَمنوعٌ أشّد المَنْعِ، لوضُوحِ كَونِ إسنادِ الكتابةِ التي تَحصُل بتوسّط القلم إلى الكاتب الشاعر المُختار حقيقة عند العُرفِ. نعم، لو كان الواسِطة فاعلاً عاقلاً مُختاراً، أمكَن أن يكونَ الإسنادُ إلى غير المُباشِر مَجازاً، كإسنادِ فَتْح البَلَد إلى الأمير.

ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ[١٥٦]

ثُمّ أنّه تعالى وصَف الصّابِرين بأنّهم ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَتْهُم﴾ ووصَلَت إليهم ﴿مُّصِيبَةٌ﴾ وبَليّةٌ وكَريهةٌ ﴿قَالُوٓا۟﴾ تَسكيناً لقُلوبِهم، وتَسهيلاً لتحمّلها على أنفُسِهم ﴿إِنَّا﴾ مَملوكونَ ﴿لِلَّهِ﴾ مخلوقونَ بقُدرَتِه، مَقهورونَ تحتَ إرادَتِه، متقلِّبونَ في قَبْضَتِه بمَشيئَتِه ﴿وَإِنَّآ﴾ بعد المَوتِ والخروج من هذه الدُّنيا الفانية ﴿إِلَيْهِ﴾ وإلى حُكمِه ورَحمتِه وقُدرَتِه وسُلطانِه ﴿رَٰجِعُونَ﴾ كما كُنّا قبل ولادَتِنا ودخولنا في تَكفُّلِ الآباءِ تحت قُدرَتِه وسَلْطَنَتِه، لم يَكُن لأحدٍ علينا في العَوالِم السابقة من أصلابِ الآباءِ وأرحامِ الأُمّهاتِ تصرّفٌ وتَدبيرٌ وإرادةٌ وتقدير، بل كُنّا نتقلّب وتعيشُ فيها بالعَيْشِ المُناسِب لها بمَشِيئته وحِكمَتِه وقَضائِه وقَدَرِه.

ففي الجُملةِ الأُولىٰ إقرارٌ بالمَبدأ، وفي الثانية: بالمَعاد. ولا رَيبَ أنّ معرفتهما من أكمل المُسَكّناتِ للقَلْبِ عند نُزولِ ما يشُقّ عليه تحمّله، ورؤية مالا يُلائم طَبْعَه، حيث إنّ العبدَ إذا عرَف أنّه لا وُجودَ له إلّا بإفاضةِ الله، ولا إرادةَ له عند إرادتِه، ولا تَصرّف له في شيءٍ من أُمورِه، ولا مَعرفةَ له بمَصالحِه ومَفاسِده، وأنّ هذه الحياة الدُّنيا مُنقطِعة، ونِعَمَها زائِلة، وأنّه مُنتَقِل منها إلى دارِ الجَزاء وعالَم البَقاء، رضي بِرِضا الله، وسلّم الأمرَ إليه، وهانَ عليه جَميع مايَرِدُ عليه من البَلايا والمكاره.

عن ابن مسعود ﵁: لئن أخِرَّ مِن السّماء أحَبّ إليّ من أن أقولَ في شيءٍ قَضاهُ الله: لَيْتَهُ لم يَكُن[١].

وروي أنّه كلّما اشتَدّ الأمرُ على الحُسَين بن عليّ ﵉ في يوم الطّفّ أشرَق وَجهُه سُروراً[٢]. وأنّ حبيبَ بنَ مَظاهِر كان يضحَكُ في ذلك اليَوم. فقيل له في ذلك، فقال: أيّ مَوضعٍ أحقّ بالسُّرورِ من

---

١. تفسير الرازي ٤: ١٥٥.

٢. بحار الأنوار ٤٤: ٢/٢٩٧.

هذا المَوضِع! واللهِ ما هو إلّا أن يُقبِل علَينا هؤلاءِ القَوم بأسيافِهم، ثمّ نُعانِقُ الحُورَ العِين[١].

وعن سعيد بن جُبَير، قال: ما أُعطيَ أحدٌ في المُصيبةِ ما أُعطيَت هذِه الأُمّة -يعني الاستِرجاع- ولَو أُعطيَه أحدٌ لأُعطِيَ يعقوبُ، ألا تسمَع إلى قوله في قصّةِ فَقْدِ يوسُف ﴿يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾[٢]؟

عن النبيّ ﷺ أنّه طَفِئَ سراجه فقال: «إنّا لله وإنّا إليه راجِعون» فقيل: أمُصيبَةٌ [هي]؟ قال: «نعم، ما[٣] يؤذي المؤمن فهو له مُصيبةٌ»[٤].

أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِن رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ[١٥٧]

ثُمّ بيّن الله تَعالى ما يُبَشِّرُ به الصابِرون تَفْضِيلاً بقوله: ﴿أُولَٰئِكَ﴾ الصابِرونَ المُستَرجِعون ﴿عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ﴾ كثيرة وعطوفات خاصة متتالية كائنة ﴿مِنْ رَبِّهِمْ﴾ ومليكهم اللطيف بهم ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ عظيمةٌ دائِمةٌ غير مُنقَطِعة، وهي شامِلةٌ لإيصالِ جميع المَسارّ إلَيهم، ودَفْع جميع المَضارّ عنهم في الدُنيا والآخرة ﴿وَأُولَٰئِكَ﴾ المُكرَمون عند الله ﴿هُمُ﴾ بالخُصوصِ ﴿ٱلْمُهْتَدُونَ﴾ إلى كلّ حقٍّ وصَوابٍ وخيرٍ وفَلاحٍ، المُرشَدون إلى مَقام القُربِ وطريقِ الجَنّةِ والنِعَمِ الدائِمَةِ.

عن ابن عبّاس، قال: أخبر الله تعالى أنّ المؤمِنَ إذا سلّم لأمرِ الله ورجع واستَرجع عند مصيبته كَتَب الله تعالى له ثَلاثَ خِصالٍ: الصَّلاة من الله، والرَّحمَة، وتَحقيق سَبيلِ الهُدىٰ[٥].

عن (الخِصال) و(العيّاشيّ) عن الصادق عليه السلام عن النبي ﷺ: «أربَعُ خِصالٍ مَن كُنّ فيه، كان في نورِ اللهِ الأعظَم: مَنْ كانَ عصمة أمرِه شَهادةَ أن لا اله إلّا الله وأنّي رَسولُ الله، وَمن [إذا] أصابَتهُ مُصيبةٌ قال: إنّا لله وإنّا إليه راجِعون، ومَن إذا أصابَ خيراً قال: الحَمدُ لله[٦]، ومَن إذا أصابَ خَطيئةً قال: أستَغفِرُ اللهَ وأتوبُ إلَيه»[٧].

وعن (الكافي): عن الباقر عليه السلام: «ما مِن عَبدٍ يُصابُ بمُصيبةٍ فيَستَرجِع عِندَ ذِكرِهِ المُصيبَةَ ويَصبِر حين يفجع إلّا غفَر الله له ما تقدم من ذنبه، وكلما ذكر مصيبته فاسترجع عند ذكر المصيبة غفر الله له

---

١. رجال الكشي: ١٣٣/٧٩.
٢. تفسير روح البيان ١: ٢٦١، والآية من سورة يوسف: ٨٤/١٢.
٣. في تفسير الرازي: نعم كل شيء.
٤. تفسير الرازي ٤: ١٥٥.
٥. تفسير الرازي ٤: ١٥٥.
٦. زاد في الخصال: رب العالمين.
٧. الخصال: ٤٩/٢٢٢، تفسير العياشي ١: ٢٣٤/١٦٩.

كلّ ذنبٍ [اكتسب] فيما بينهما»[١].

وعن (الخصال) و(العيّاشيّ): عن النبيّ ﷺ: قال الله تعالى: «إنّي جعلتُ[٢] الدُّنيا بين عبادي قَرضاً، فمَن أقرَضَني منها [قرضاً] أعطيتُه بكلّ واحدةٍ منهنّ عَشْراً إلى سَبعمائة ضِعف، وما شِئتُ من ذلك، ومَن لم يُقرِضْني [منها قرضاً] فأخذتُ منه قَسْراً أعطيتُه ثلاثَ خِصالٍ، لو أعطيتُ واحِدةً منهنّ مَلائِكتي لَرَضُوا: الصّلوات، والهداية، والرَّحمة. إن الله تعالى يقول: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُصِيبَةٌ﴾» الى آخره[٣].

وفي رواية عن النبيّ ﷺ: «أنّ في الجنّةِ شجَرةً يُقال لها شجَرة البَلْوى، يُؤتى بأهلِ البَلاءِ يومَ القِيامَةِ فَلا يُنشَر لهم دِيوانٌ، ولا يُنصَب لهم ميزانٌ، يُصبُّ عليهِم الأجرُ صَبّاً، ثمّ قرأ ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾»[٤].

إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ ٱللهِ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْراً فَإِنَّ ٱللهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ[١٥٨]

ثُمّ أنّه تعالى بعد أمر المسلمين بالتوجّه إلى الكعبةِ في صَلاتِهم، واتّباع ملّة إبراهيمَ عليه السلام في قِبْلَتِه، أمرَهم باتّباعه عليه السلام في اتّباع سُنَّتِه الأُخرى بقوله: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ﴾ وَهُما جَبَلانِ بمَكّةَ. قيل: سُمِّي أحدُهما بالصَّفا لأنّه جلَس عليه آدم صَفيّ الله، والأُخرى بالمَرْوَة لأنّه جلست عليه امرأتُه حواء[٥].

﴿مِنْ شَعَائِرِ ٱللهِ﴾ وأعلام مَناسِكه وطاعته. قيل: ما بينَهُما قَبْرُ سَبعين ألف نَبيّ[٦].

﴿فَمَنْ حَجَّ ٱلبَيْتَ﴾ وقَصَدَه ﴿أَوِ ٱعْتَمَرَ﴾ وزارَه للنُّسُكَينِ المَعروفَين. روي أنّ الحجّ والعُمْرَةَ عَلَمانِ كالنَّجمِ والبيت في الأعيان[٧].

﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ﴾ وَلا إثمَ له في ﴿أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ وأن يدورَ ويَسعى بينَهُما.

---

١. الكافي ٣: ٥/٢٢٤. ٢. في الخصال والعياشي: أعطيت.
٣. الخصال: ١٣٥/١٣٠، تفسير العياشي ١: ٢٣٢/١٦٩.
٤. تفسير روح البيان ١: ٢٦١، والآية من سورة الزمر: ١٠/٣٩.
٥. تفسير روح البيان ١: ٢٦٢. ٦. تفسير روح البيان ١: ٢٦٣.
٧. جوامع الجامع: ٣٠.

في وجوب السعي بين الصفا والمروة، ونكتة التعبير عنه بنفي الجناح

عن (الكافي): عن الصادق عليه السلام أنّه سُئِل أنّ السَّعْيَ بينَ الصَّفا والمَرْوَة فَريضَةٌ أم سُنَّةٌ؟ فقال: «فريضة».

قيل: أو لَيس قال [الله] عزّ وجلّ: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ اَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾؟ قال: «كان ذلك في عُمرَةِ القَضاء، إنّ رسولَ الله صلى الله عليه وآله شرَط عليهم أن يرفَعوا الأصنام من الصَّفا والمَرْوَة، وتَشاغَل رجلٌ عن السَّعْي حتّى انقضَتِ الأيّام، وأُعيدَتِ الأصنام، فَجاءوا إليه فقالوا: يا رسولَ الله، إنّ فُلاناً لم يَسْعَ بينَ الصَّفَا وَالمَرْوَة، وقَد أُعيدَتِ الأصنامُ! فأنزَل الله عزّ وجلّ ﴿إِنَّ اَلصَّفَا وَاَلْمَرْوَةَ﴾ إلى قوله: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ اَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ [أي] وعليهما الأصنام»[١].

وعن القمّي: «أنّ قُرَيشاً كانت وضَعتْ أصنامَهم بين الصَّفا والمَرْوَة و[كانوا] يتمَسَّحون بها إذا سعَوا، فلمّا كان من أمرِ رسولِ الله صلى الله عليه وآله في غَزْوَةِ الحُدَيْبِيَةِ ما كان، وصدّوه عن البيت، وشرَطوا له أن يُخلوا له البيتَ في العامِ القابل حتّى يقضي عُمْرَتَه ثلاثَة أيّام، ثمّ يَخرُج منها، فلمّا كانت عُمرَة القَضاء في سنةِ سَبعٍ من الهِجرةِ دخَل مكّةَ، وقال لقُرَيش: ارفَعوا أصنامَكم [من بين الصفا والمروة] حتّى أسعىٰ فرَفَعوها» الحديث[٢]. كما [رواه] في (الكافي) بأدنىٰ تَفاوُت[٣].

وفي (الكافي): عنه عليه السلام: «أنّ المسلمين كانوا يظنون [أنّ] السَّعْيَ ما بينَ الصَّفا والمَرْوَة شيءٌ صنَعَهُ المُشرِكون، فأنزَل الله عزّ وجلّ هذه الآية»[٤].

قيل: إنّه كان على الصَّفا صنَمٌ يُقال له إساف، وعلى المَرْوَةِ صنَمٌ يقال له نائِلَة، وإنّهما كانا رجُلاً وامرأةً زنَيا في الكعبة فمُسِخا حجَرين، فوُضِعا عليهما ليُعْتَبر بهما، فلمّا طالَت المدّةُ عُبِدا من دون اللهِ، فكانَ أهلُ الجاهليّةِ إذا سَعَوا بين الصَّفا والمَرْوَةِ مسَحوهما تعظيماً لهُما، فلمّا جاء الإسلامُ وكُسِّرتِ الأوثانُ كَرِهَ المسلمون الطّوافَ بينَهُما لأنّه فِعلُ أهلِ الجاهليّة، فأذِن الله تعالى في الطَّوافِ بينَهُما، وأخبَر أنّهما من شَعائر الله[٥].

وروي أنّ الصَّفا والمَرْوَةَ بابانِ من الجنّةِ، ومَوضِعان من مَواضِعِ الإجابة، وسَعيهُما يَعدِل سبعينَ رقبة[٦].

---

١. الكافي ٤: ٤٣٥/٨. ٢. تفسير القمي ١: ٦٤. ٣. راجع الكافي ٤: ٤٣٥/٨.
٤. الكافي ٤: ٢٤٥/٤. ٥. تفسير روح البيان ١: ٢٦٢.
٦. تفسير روح البيان ١: ٢٦٣.

في حكمة تشريع السعي

قيل في حكمةِ تشريعِ السَّعْي: أنّه لمّا اشتدّ العطَشُ على هاجَر وابنِها إسماعيل، سعَت بينَ الصَّفا والمَرْوَةِ لطَلَبِ الماء، فأغاثَها الله بالماءِ الذي أنبعَه من زَمْزَم، فأمر الله الخَلْقَ بالسَّعْي بينَ الصَّفا والمَرْوَة ليتذكّروا هذه القِصّة، ويعلَموا أنّ الله وإن كان لا يُخلي أولياءه في دارِ الدُّنيا عن المِحَنِ والبَلايا، إلّا أنّ فرَجَه قريبٌ مِمّن دَعاهُ، فإنّه غِياثُ المُستغيثين. فانظُر إلى حالِ هاجَر وإسماعيلَ كيف أغاثَهُما الله، ثمّ جعَل أفعالَهُما طاعةً لجميع المكلَّفين إلى يوم القيامة ليعلَموا أنّ الله لا يُضيعُ أجرَ المُحسنين.

وقيل: إنّ ذلك تحقيقٌ لِما أخبرَ الله تعالى به قبل ذلك من أنّه يَبتَلي عبادَهُ بشيءٍ من الخَوفِ والجوعِ إلى آخِره، فمَن صبرَ على ذلك نالَ السَّعادةَ في الدّارَين، وفازَ بالمَقْصَدِ الأعلى في المَنْزِلَين[1].

عن الصادق عليه السلام: «جُعِلَ السَّعيُ بينَ الصَّفا والمَرْوَةِ مذلّةً للجبارين»[2].

قيل: في إيرادِ التطوّف الذي هو من بابِ التفعُّلِ إشعارٌ بأنّ من حقّ السّاعي أن يتحمّلَ الكُلفَةَ في السَّعيِ ويَبذُلَ جُهْدَه فيه[3].

﴿وَمَنْ تَطَوَّعَ﴾ وتبَرّع بفِعْلِ المُستَحبّاتِ أو أتىٰ بالطّوع والرّغبة عمَلاً ﴿خَيْراً﴾ من الخَيراتِ من السَّعْيِ الزائدِ على القَدر الواجِب، أو غيرِه من سائِر الصّالِحات ﴿فَإِنَّ ٱللهَ شَاكِرٌ﴾ له، مُجازٍ على عمَلِه. وفي التَّعبير عن الجَزاء بالشُّكرِ إشعارٌ بِكَمال اللُّطفِ بِعَبيدِه ﴿عَلِيمٌ﴾ بعَمَلِهِ وحُسنِ نيَّتِه ومِقدار جَزائِه، فلا يُمكِن أن يَبْخَس منه شيئاً.

إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَاتِ وَٱلْهُدَىٰ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلْكِتَابِ أُولٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّاعِنُونَ * إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ[١٥٩ و ١٦٠]

ثمّ أنّه تعالى بعد ما بيّن عِدّةً منَ الأحكام، حذّر النّاسَ عن كِتمانِها وكِتمانِ كلِّ حقٍّ بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ﴾ ويُخفُونَ عن تَعَمُّدٍ وعِناد ﴿مَا أَنزَلْنَا مِنَ﴾ الآياتِ ﴿ٱلْبَيِّنَاتِ وَ﴾ البَراهينِ المُوَضِّحاتِ لأمرِ محمّد صلى الله عليه وآله وصِحّة دينِه، ومن ﴿ٱلْهُدَىٰ﴾ والرَّشادِ إلى كلّ حقٍّ وصَواب.

---

١. تفسير الرازي ٤: ١٥٨.
٢. الكافي ٤: ٥/٤٣٤.
٣. تفسير أبي السعود ١: ١٨١، تفسير روح البيان ١: ٢٦٣.

﴿مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ﴾ وأوضحْناهُ وفصّلناهُ ﴿لِلنَّاسِ﴾ كافّةً، الكاتِمين وغيرِهم ﴿فِى ٱلْكِتَابِ﴾ السّماويّ من التّوراةِ والإنجيلِ وغيرِهما، بحيث يتلقّاه ويفهَمُه كلّ أحدٍ من غير أن يكونَ فيه شُبْهَةٌ وريبٌ

﴿أُولَٰئِكَ﴾ الكاتِمونَ ﴿يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ﴾ ويُبعِدُهم مِن رحمتِه وفَضْلِه في الدّارَين ﴿وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّاعِنُونَ﴾ من الملائكة والجنّ والإنسِ، بَلْ كلّ ما يتأتّى منه اللّعْنُ من سائر الحَيوانات والنّباتاتِ والجَماداتِ بلسانِ حالِهم وقَدر شُعورِهم، بل حتّى نَفس الكاتِم حيث إنّه يقول: لَعَن الله الكاتِمين.

عن العيّاشيّ عن الصادق عليه السلام في قوله: ﴿ٱللَّاعِنُونَ﴾ قال: «نحنُ هم، وقد قالوا: هَوامّ الأرضِ»[١].

عن ابن مسعود رضي الله عنه: ما تَلاعَنَ اثنانِ إلّا ارتفعَتِ اللّعنَةُ بينَهُما، فإن استَحَقّها أحدُهما وإلّا رجَعت على اليَهود الذين كتَموا صِفَةَ محمّد صلى الله عليه وآله[٢].

عن (الاحتجاج) و(تفسير الإمام) عن أبي محمّد عليه السلام قال: «قيل لأميرِ المؤمنينَ صلوات الله عليه: مَن خَيرُ خَلقِ الله بعد أئمّة الهُدىٰ ومَصابيح الدُّجىٰ؟ قال: العُلماءُ إذا صَلَحوا.

قيل: ومَن شَرّ خَلْقِ الله بعد إبليس وفِرعَون وثَمود[٣]، وبعد المُتَسمّين بأسمائِكم والمُتَلقّبين بألقابكِم والآخذِين لأمكِنَتِكم والمتأمّرينَ في مَمالِكِكُم؟ قال: العُلماءُ إذا فسَدوا، المُظهِرون للأباطيلَ، الكاتِمونَ للحَقائق، فهُم الذين قال اللهُ عزّ وجلّ: ﴿أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّاعِنُونَ﴾»[٤].

في حرمة كتمان العلم عن المحتاج الأمين

عن القمّي مرفوعاً: عن النبيّ صلى الله عليه وآله: «إذا ظهَرتِ البِدَع في أُمّتي فَلْيُظْهِر العالِمُ عِلْمَه، ومَن لم يفعَل فعلَيه لَعنةُ الله»[٥].

وعن النبيّ أنّه قال: «من سُئِل عن علمٍ يعلَمُه فكتَمَه، أُلجِمَ يومَ القيامةِ بلِجامٍ من نارٍ»[٦].

وعن العيّاشيّ عن الباقر عليه السلام: «إنّ رجُلاً أتىٰ سلمانَ الفارسيّ، فقال: حدِّثْني فسكَت، ثمّ عادَ فسكَت، ثمّ عادَ فسكَت، فأدبَر الرّجُلُ وهو يتلو هذِه الآية ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ﴾ فقال له: أقبِل، إنّا لَو وجَدنا أميناً لحَدَّثْناهُ» الخَبَر[٧].

فدلّت الرّوايةُ على أنّ مُطلَق الكِتمانِ لا يكونُ مُحرّماً، بل يكون مَشروطاً بكَونِ الطّالب أميناً على

---

١. تفسير العياشي ١: ٢٤٧/١٧٣.
٢. تفسير روح البيان ١: ٢٦٥.
٣. في الاحتجاج وتفسير الإمام: ونمرود.
٤. الاحتجاج: ٤٥٨، التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام: ١٤٤/٣٠٢.
٥. الكافي ١: ٢/٤٤.
٦. مجمع البيان ١: ٤٤٢، تفسير الصافي ١: ١٨٩.
٧. تفسير العياشي ١: ٢٤٤/١٧٢، تفسير الصافي ١: ١٨٩.

العِلم، حافِظاً له كما سَمِعَه، غير مبدّلٍ ولا مُغيّر، وأن لا يكونَ في إظهارِ العِلم ضررٌ على المُظهِر ولا على المُستَمِع، وأن يكونَ العِلمُ ممّا يَحتاجُ إليه السائلُ في عَقيدَتِه وعَمَلِه، بحيث يجب عليه تَحصيلُه. ودلّت الرّوايات أيضاً على أنّ حُكمَ الآيةِ عامٌّ، وإن قيل أنّها نزَلت في رُؤساء اليَهود وأحبارهم[1].

كما روي عن ابن عبّاس أنّه سأل جماعةٌ من الأنصارِ نفراً من اليَهود عمّا في التَّوراةِ من صفات النبيّ ﷺ ومن الأحكام، فكتَموا فنزَلت[2].

وعنه أيضاً أنّه قال: نزَلت في أهلِ الكِتابِ من اليَهودِ والنَّصارىٰ. الخبر[3] لوضوح أنّ خُصوصيّة المَورِدِ لا يُخصِّص عُمومَ الحُكم.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا﴾ ورجَعوا عن كُفرِهم، ونَدِمُوا على كِتمانِهم ﴿وَأَصْلَحُوا﴾ نِيّاتِهم وأعمالِهم وتَدارَكوا ما أفسَدوه ﴿وَبَيَّنُوا﴾ للنّاسِ ما في الكتُب السّماويّةِ من نُعوتِ محمّد ﷺ وعلائِمه. ﴿فَأُولَـٰئِكَ﴾ التّائبون الصالِحون ﴿أَتُوبُ﴾ وأرجِع ﴿عَلَيْهِمْ﴾ بِقَبُولِ التَّوبَةِ والرَّحمةِ المَغْفِرة ﴿وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ﴾ السَّريعُ القَبول للتّوبة، الواسِعُ المَغْفِرة للتّائبين ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ بالمؤمنين.

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَـٰئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللهِ وَٱلْمَلَائِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ * خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ [١٦١و١٦٢]

ثمّ لمّا لم تَكُن في الآيةِ السابقةِ دلالةٌ على استِمرار اللّعنَةِ عليهم، صرّح سُبحانَه وتَعالى بكَونِهم مَلعونين بعد المَوت إذا استَمرّوا على كُفرِهم بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ باللهِ وبآياتِه وكتَموها عن النّاس ﴿وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ لم يَرتَدِعوا عن عَقائدهم الفاسِدة، ولم يَتوبوا من أفعالِهم الشّنيعة. ﴿أُولَـٰئِكَ﴾ المُصِرّون على الكُفرِ ومُعانَدةِ الحقّ، مُستَقِرّ ﴿عَلَيْهِمْ﴾ بَعد خُروجهم من الدّنيا ﴿لَعْنَةُ ٱللهِ﴾ وطَردِهم من رَحمتِه ﴿وَ﴾ لعنة ﴿ٱلْمَلَائِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ حتّى الكفّار منهم، حيث إنّهم يلعنون الكفّار في الدّنيا لادّعائهم أنّهم ليسوا منهم، وقد أخبَر الله تَعالى بأنّ يوم القيامة يَلعَنُ بعضُهم بعضاً.

---

١. تفسير روح البيان ١: ٢٦٤.

٢. تفسير الرازي ٤: ١٦٢.

٣. تفسير الرازي ٤: ١٦٢.

وقيل: إنّ المُراد بالنّاس في الآيةِ المؤمنون منهم لأنّهم المُنتَفِعون بالإنسانيّة، وأمّا الكُفّار فهم كالأنعامِ بَلْ هم أضَلّ[1]، فاللّعنةُ مُحيطةٌ بهم حال كونهم ﴿خَالِدِينَ﴾ ودائمين ﴿فِيهَا﴾ لا خَلاصَ لَهُم منها، فلازِم دوام اللّعنةِ عليهم أنّه ﴿لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلعَذَابُ﴾ كيفيّةً ولا يهوّن عليهم ساعةً ﴿وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ وَيُمْهَلون لحظةً.

وقيل: إنّ المُراد أنّه لا يَنظُر إليهم ربُّهم نظَر الرّحمةِ[2].

وَإِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَـٰنُ ٱلرَّحِيمُ[١٦٣]

ثمّ أنّه لمّا كان الشِّركُ سارِياً في اليَهودِ والنّصارى وغيرهم من العرَب، دعا الله تعالى جَميعَهم بعد محاجّتهم في النّبوّة إلى التّوحيدِ الخالِص بقوله: ﴿وَإِلَـٰهُكُمْ﴾ ومَعبودُكم أو مَفزَعُكم أيّها النّاس ﴿إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ وَمَفزَع أو معبودٌ فارِدٌ لا تَعَدُّد له حتّى تباينوا في المَقصَد وتَتَشعَّبوا في المَسْلَك.

ثمّ قرّر وَحدانيّته وأكّدها بقوله: ﴿لَا إِلَٰهَ﴾ مَوجودٌ ومُتَصَوَّرٌ ﴿إِلَّا هُوَ﴾ فلا تَعبُدوا إلّا إيّاه، ولا تَرجُوا وَلا تَخافوا ما سِواه.

وفي الإتيانِ بضَميرِ الغائب إشعارٌ بأنّه تعالى من غايةِ إبهامِ ذاتِه وكُنْهِ صِفاتِه، يكونُ غَيب الغُيوب وحَقيقتُه من العُقول والأوهام مستوراً ومحجوباً، لا تُدرِكُه الأبصارُ والقُلوب، وهو يُدرِك الأبصارَ والألباب، ليس له دونَ خَلقِه سِترٌ ولا حِجابٌ، محيطٌ بذَرّاتِ الكائناتِ، قَيّومٌ على جَميعِ المُمكِنات، فهو بذاتِه مع قَطْعِ النَّظَرِ عن نِعَمِه مُستَحِقٌّ لأن يَعبُدَه جَميعُ المَوجودات.

ثمّ أضاف إلى استِحقاقه الذاتيّ استِحقاقَه الصِّفاتيّ بقوله: ﴿ٱلرَّحْمَـٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ المَولى بجميع النِعَم، اُصولها وفُروعها، حيث إنّ جميع ما سِواه إمّا نعمة وإمّا مُنعَم عليه من فَضله ورَحمته، فلا يستَحِقّ غيرُه العِبادة.

روي عن أسماء بنت يَزيد أنّها قالت: سمِعتُ رسول الله ﷺ يقول: إنّ في هاتَين الآيتَين اسمَ الله الأعظَم: ﴿وَإِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَـٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ و﴿اللهُ لَا إِلَـٰهَ إِلّا هُوَ الحَيُّ القَيُّومُ﴾[3].

ثمّ أنّه روي أنّه: لمّا قَدِم النبيّ ﷺ المدينةَ، نزَلت عليه آية: ﴿إِلَـٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ فسَمِع [كفّار]

---

١. تفسير روح البيان ١: ٢٦٥. ٢. تفسير روح البيان ١: ٢٦٥.

٣. تفسير روح البيان ١: ٢٦٧ والآية من سورة البقرة: ٢٥٥/٢، وآل عمران: ٢/٣.

قُرَيش فقالوا: كيفَ يسَع النّاسَ إلهٌ واحِدٌ؟ فنزل ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَاوَاتِ﴾ [١].

وروي أنّ المُشرِكين كانَ لهم حول البَيت ثلاثمائة وسِتّون صَنَماً، فلمّا سَمِعوا آيةَ ﴿إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ واحِدٌ﴾. قالوا: إن كُنتَ صادِقاً فَأتِ بآيةٍ نَعرِف بها صِدْقَك، فنزَل ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَاوَاتِ﴾ .. الآية [٢].

وروي عن سعيد [٣] بن مَسروق، قال سألت قريش اليَهود، فقالوا: حدِّثونا بما جاءكم [به] موسى من الآياتِ فحدّثوهم بالعَصا وباليَدِ البَيضاء، وسألوا النَّصارىٰ عن ذلك فحَدّثوهم بإبراءِ الأكمَه والأبرَص وإحياء المَوتى.

فقالت قُرَيش عند ذلك للنَّبيّ ﷺ: ادعوا اللهَ أن يجعَلَ لَنا الصَّفا ذهَباً فنزدادَ يقيناً وقوّةً على عدوّنا فسأل ربّه ذلك، فأوحىٰ الله تعالى إليه أن يُعطِيَهم، ولكن إن كذّبوك بعد ذلك لأُعذّبنّهم عذاباً لا أُعذّبه أحداً من العالَمين!

فقال ﷺ «ذَرْني وقَومي أدعُوهم يوماً فيوَماً»، فأنزَل الله تعالى هذه الآية مبيناً لهم أنّهم إنّ كانوا يُريدون أن أجعَل لهم الصَّفا ذَهَباً لِيَزدادوا يقيناً، فخَلقُ السّماواتِ والأرضِ وسائر ما ذُكر في الآية أعظَم [٤].

أقول: ظاهِرُ الرّواية أنّ قُريشَ الذين اقترَحوا على رسول الله ﷺ أن يجعَل لهم الصَّفا ذَهَباً، كانوا من المؤمنين بهِ، حيث قالوا: فنَزداد يَقيناً وقوّةً على عدُونا، والظاهِر أنّه لم يكن في المؤمنين منهم أجسَر من صَنَمَيْهِم.

إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّماواتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَافِ ٱلَّيلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ ٱللهُ مِنَ ٱلسَّماءِ مِن مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَاحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّماءِ وَٱلْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ[١٦٤]

---

١. تفسير الرازي ٤: ١٧٩، والآية من سورة البقرة: ٢/١٦٤.

٢. تفسير أبي الفتوح ١: ١٨٤، تفسير روح البيان ١: ٢٦٧.

٣. في النسخة: شعبة، وهو سعيد بن مسروق الثوري، راجع: تهذيب الكمال ١١: ٦٠.

٤. تفسير الرازي ٤: ١٧٩.

ثمّ شرَع الله تعالى في إقامة البُرهانِ على وحدانيّتِه، ومن الواضح أنّ الاستِدلال بالآثار على وجُود المؤثّر أقرَب إلى فَهم العامّة، ولذا جرَت سيرَتُه تعالى في الكِتاب العَزيز بالاستِدلال على وُجودِه ووَحْدانيّتِه بمَخلوقاتِه العجيبة ومَصنوعاتِه البَديعة، مع أنّ مَن توغّل في التَفكُّر في مَخلوقاتِه تعالى كان أكثَر عِلماً بجَلالِ اللهِ وعظَمتِه وقُدرَتِه وحِكْمَتِه.

ثمّ لمّا كان من أظهَر الآياتِ وأعظَمِها في أنظارِ العامّة خَلقُ السّماوات، بَدأ بذِكره، بقوله: ﴿إنَّ فِى خَلْقِ آلسَّمَاوَاتِ﴾ السَّبْعِ أو التِسع وإنشائها على سَبيلِ الاختِراع والإبداعِ بلا عَمَدٍ تَمنَعُها من السّقوطِ، وعَلاقةٍ تَحبِسها عن الوُقوع.

ثمّ ثنّاه بذِكر الآية التي هي دون السّماوات وفَوق غيرِها في العَظمة، بقوله: ﴿وَ﴾ في خَلْق ﴿آلأَرْضِ﴾ مع ما فيها من أعاجيبَ وبَدائع الصنائع التي يَعجِز عن فَهمِها عُقول البَشر.

قيل: إنّما جمَع السّماوات وأفرَد الأرضَ، للإشعارِ بأنّ كلّ سَماءٍ ليست من جِنْسِ الأُخرى بخِلاف الأرَضين، فإنّها كلّها من جِنسٍ واحدٍ وهو التُّراب[1].

ثمّ ذكَر الآيةَ الأُخرى التي تكون من تَوابع خَلْقِ السّماواتِ بقوله: ﴿وَآخْتِلَافِ آللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ وتَعاقُبِهما بحيث يَخلُفَ كلُّ واحدٍ منهما الآخرَ، أو المُراد اختِلافُهما بالجنسِ والهيئةِ والصّفاتِ والمَنافع، حيث إن الليلَ جُعِل سَكَناً وراحةً لظُلمَتِه لأن لا يُنهَك الأبدانُ بشدّة الكدّ والتعَب، والنّهارُ مُبصِراً لطَلَبِ المَعاشِ وابتِغاء فَضْل الله.

ثمّ ذكر الآيةَ التي تكونُ من خَواصّ الأرضِ بقوله: ﴿وَآلْفُلْكِ﴾ وهي السُّفُن ﴿آلَّتِى تَجْرِى﴾ وتَسير ﴿فِى آلْبَحْرِ﴾ مصحوبة ﴿بِمَا يَنْفَعُ آلنَّاسَ﴾ من الأمتِعةِ.

في وجه كون الفلك وسيرها في البحر من آيات الله

وإنّما جَعَل خَلْقَ الفُلكِ وسَيرَها من آياتِه مع أنّها مصنوعاتُ خَلْقِه؛ لأنّ في خَلْقِ أجزائها بحيث تستقرّ على البَحر في أمدٍ بعيدٍ لا تَغرَق ولا تَغوص فيه، كما إذا كانَ كلّها من حديدٍ، وتَسخير البَحْرِ لها بحيث تَجري فيه بسهولةٍ، وتَعليم صنعها حُمولة[2] بحيث تُنقَل بها الأمتِعة النافِعة من بَلدٍ إلى بلدٍ، وإرسالِ الرّياح غير العاصفة لتَحريكها وتَسييرِها بسُرعةٍ، وَتقوية القُلوب لرُكوبها، وجَعْل الأمتِعة فيها حتّى ينتَفِعَ عمومُ النّاسِ بأشياء نافِعة مختّصة ببَعض البِلاد، حيث إنّه من الواضح اختِصاص بعض البِلاد ببَعض الأمتِعة التي يحتاج إليها أهل البِلاد

١. تفسير روح البيان ١: ٢٦٧.

٢. كذا.

البَعيدة، من ظُهورِ قُدرَةِ الله وحكمتِه ورحمتِه ما لا يَخْفى على ذي لُبٍّ، حيث إنّه لولا تبعيّة السُّفُن بتَعليم الله وجرَيانها في البِحار، وحفِظهما من تَلاطُم الأمواج، ووُكوف الأمطار[١]، ومُصادَمة الحيَوانات العظيمة، والجِبال والأشجار من خَرْق الألواح، ومُخالفة عواصِف الرّياح، لَما وصَلتْ سَفينةٌ إلى ساحِلٍ سَليمةً، ولَما كثُرت في البِلاد نِعمَةٌ ووقَع[٢] الخَلقُ في مَشقّةٍ عظيمةٍ وكُلفَةٍ وخيمَةٍ.

﴿وَ﴾ كذا في ﴿مَا أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَاءِ﴾ المُطِلّةِ أو من جِهَة العُلوّ، الأمطارَ التي تكون ﴿مِنْ﴾ جنسِ ﴿مَاءٍ﴾ عظيم النَّفع به حياةُ كلّ شيءٍ وبَقاؤه ورزقُه، فإنّ دِلالةَ خَلْقِ المَاء البارِد العَذْبِ وإنزالِه من السَّماء حتّى يُحيطَ بجَميع الأرضِ على كَمالِ القُدرَةِ والحِكْمَةِ أوضَحُ من أن يحتاجَ إلى البَيان.

في أنّ غالب الأمطار نازل من السماء، لا أنّ كلّها متكوّن من الأبخرة

ثمّ اعلَم أنّ ظاهِرَ كثيرٍ من الآياتِ والأخبار أنّ المَطَر نازِلٌ من السَّماء المعروفة إلى السَّحابِ، ومنه إلى الأرض.

وقال الطَّبيعيّون: إنّه من أبخِرَةٍ مُتَصاعِدَةٍ من الأرضِ إلى الجَوّ البارد بتأثيرِ الشمس فيها فتبرُد حينئذٍ وتنقَلِب بذَرّات الماء فتتّصِلُ الذّرّاتُ فتكون قطراتٍ، وليس السَّحاب إلّا تِلكَ الأبخِرَة المُتَراكمة. وادّعوا أنّه مَحسوسٌ لِمَن مارَس، وهذا القول وإن كان في نَفسِه غير بَعيد إلّا أنّه مخالف لظَواهِرِ الآياتِ وصَريح الرّوايات، ولا وَجْهَ لرَفْعِ اليَدِ عنها بعد إمكانِ تحقّق مضمونِها. نعم يُمكن القَول بأنّ الأغلَب أنّه نازِلٌ من السَّماء المعروفة، وقد يوجد بالمَبادئ التي ذكَروها، والله العالم بحقائق الأمور.

﴿فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ وأنبَتَ فيها به أنواع النّباتات والأزهار والزّروع والأشجار، وحصَل لها به حُسْنٌ وَرَوْنَقٌ ونَضَارَةٌ ﴿بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ ويُبوسَتِها حسَب ما تَقتَضِيه طبيعتُها.

قيل: إنّ إطلاق الحياة على حُصول النّماء والإثمارِ استِعارةٌ بعلاقة أنّ الحياةَ الحقيقيّة ـ وهي الرّوح في الأحياء ـ مَنشأٌ لوُجودِ الآثارِ والنّماء والنُّزْهَة والبَهاء، وفيه أنّ الظاهِر أنّ لفظَ الحَياةِ حقيقةٌ في كَونِ الشيء مبدءاً للآثارِ المتوقّعة منه. وبهذا المعنى يُطلَق الحيُّ على الله تعالى، وعلى القُلوب، والمَوت الذي هو ضدّه حقيقة في سقوط الشيء عن قابليّة تلك الآثار.

ولمّا كان الرّوح مَبدأً للآثارِ يُطلَق عليه الحياة، فعَلى هذا يكون لكلّ شيء، ولو كان من الجَمادات،

---

١. وكف المطر: سال وقطر.

٢. كذا، والظاهر: ولوقع.

حياةٌ ومَوت.

﴿وَ﴾ في أنّه تعالى ﴿بَثَّ﴾ في الأرضِ وفرّق ﴿فِيْهَا مِنْ كُلّ دَابَّةٍ﴾ من الانسان وسائر الحيوانات التي تدِبّ وتتحرّك على وَجه الأرضِ، فإنّ من تفكّر في خَلق الحيوانات خصوصاً الانسان، تحصُل له معرفةٌ كاملةٌ بوَحْدانيّة صانِعه وكَمال حِكْمَته، فلينظُرِ العاقِلُ إلى بَدْوِ خِلْقَتِه؛ كانَ نُطفةً متشابهةَ الأجزاءِ، ثمّ بعد استِقرارها في الرَّحِم صارَت دماً مُتشابِهَ الأجزاءِ، ثمّ صار بعد مدّةٍ بعضه عظماً، وبعضه لحماً، وبعضه عَصَباً، وبَعضه عُروقاً، وبَعضه شَحْماً، وبَعضه جِلْداً، مع كَون جميع هذه الأجزاء مُتَخالِفات بالطَّبع والوَصْف والفائدة، حيث إنّ لكلٍّ منها فَوائدَ عظيمةً غيرَ ما للأُخرىٰ.

عن أمير المؤمنين عليه السلام: «سُبحانَ من بَصَّر بشَحْمٍ، وأسمَع بعَظْمٍ، وانطَقَ بلَحم»[1].

في بيان بعض عجائب خلقة الانسان

ثمّ لينظُر إلى عَجائب تَركيب جسَدِه، فإنّ مَن راجَع عِلمَ التَّشريحِ وجَد فيه مِن العجائبِ ما تَحار فيه العُقول وتَضِلُّ فيه الأفهام، ثمّ ليتفكّر في أنّه بعد انفِصاله عن اُمّه طِفلاً لو وُضِعت على فَمِه وأنفِه خِرقةٌ تَمْنَعُه من التنفُّس لَماتَ في ساعَتِه، ومع ذلك بَقِي في رَحِم اُمّهِ حَيّاً من غير تَنَفُّسٍ مدةً قريبة من خَمْسَةِ أشهُر ولم يَمُت.

ثمّ من عَجائب خِلْقَةِ الانسان أنّه بعد ولادَتِه يكونُ من أضعَفِ الحيوانات بَطْشاً وأقلّها إدراكاً، حيث إنّه لايُميّز بين اُمّه وغيرِها، ولا بين الماء والنّار، والنّافع والمُضِرّ، والمُلذّ والمؤذي، ثمّ يَصيرُ بعد استِكماله أعقَل من سائرِ الحيوانات وأذكىٰ من جميع موجودات عالَم الأجسام، بل يَصيرُ بإعمال القوّة النَّظريّة العمليّة جوهراً قُدْسِيّاً وعالَماً عقليّاً، مع أنّ أولاد سائر الحيوانات أقوى شعوراً وأشدّ بَطْشاً منه حالَ صِغَرِه. ومقتضى الطّبع أنّ كلّ ما كانَ في صِغره وبَدْوِ أمره أذكىٰ وأعقَل وأبطَش، كان في كِبَرِه وأوانِ استِكماله أكمَلَ في تِلك الصِفات[2]، وليس هذه المَزِيّة للإنسان إلّا مِن عَطايا القادِرِ الحَكيم المَنّان.

ثمّ من عَجائب خَلْق الانسان كَثْرَة اختِلاف ألسِنَتِهم وألوانِهم وطبائعهم وأمزِجَتِهم وأخلاقهم، وكيفية أشكالهم وأصواتهم بحيث لا يَكاد يُرىٰ فَردان من الإنسان متماثلين في الشَّكلِ وكيفيّة

---

۱. تفسير الرازي ٤: ۱۹۹.

۲. والانسان على الضدّ من ذلك، ويؤيده ما جاء في الحديث عن العبد الصالح عليه السلام: «تستحبّ عرامة الصبي في صغره ليكون حليماً في كبره، ثمّ قال: ماينبغي أن يكون إلا هكذا» الكافي ٦: ۲/٥۱.

الصّوت، مُتَوافِقَين في المزاج وخُصوصيّات الأخلاق بحيث لا يتمايَز أحدُهما عن الآخر، مع أنّ غالِب الحيوانات البريّةِ أو البَحريّةِ لا يكونُ بينَ أكثَر أفرادِ نوعٍ واحدٍ منها تميّز ظاهِر، وليس هذا الاختِلاف في أفرادِ الإنسان إلّا للتّعارُف، ولَولاهُ لاختَلَّت مَعائشهم ونِظامُ أُمورِهم. واستِقصاءُ الكلامِ في عَجائِب خِلقَةِ الإنسان بل كلّ من أنواع الحيواناتِ لا مَطْمَع فيه لأحدٍ، حيث إنّه بَحْرٌ لا ساحِلَ له[1].

في حكمة تمويج الرياح

﴿وَ﴾ في ﴿تَصْرِيفِ ٱلرِّيَاحِ﴾ وتَحريكها وتَمويجها، فإنّ فيه حِكمةً بالغةً والنِظام الأتَمّ، حيث إنّ فيه كمالَ النَّفْع للنّباتات والحيوانات، إذ لكلٍّ منها تنفّس بها، فلو لم يتغير الهواء بهُبوب الرّياح لفسَد، وبِفَسادِه هلكت الحيوانات والنباتات.

قال بعض: لو لم تكن الرّياح والذُّباب لأنْتَنَتِ الدّنيا[2].

في وجه تسمية الهواء المتموّج بالريح وبالمبشّر وبيان أقسام الرياح

قيل: سمّيتِ الرّيحُ ريحاً لأنّ في هُبوبها الرّوح والرّاحة، وفي انقِطاعها الكَرْب والغَمّ[3].

وإنّما سَمّىٰ الله تعالى الرّياح مُبَشِّراتٍ؛ لأنّ فيها مع عِظَم مَنافِعها تَحريكَ السَّحاب المُمْطِر الذي به حَياةُ الأرضِ، وبحَياتِها حَياةُ جَميعِ الحيوانات،فإنّ بالعُشْبِ تَعيشُ الدّوابُّ، وبالثّمارِ يتقوّت الإنسان.

ثمّ اعلَم أنّ للرّياح أقساماً أربَعة:

أحدها: الصَّبا، ويقال لها: القَبول لاستِقبالها الدّبور، وهي شرقية.

وثانيها: الدَّبور، وهي غربيّة.

وثالثها: الشّمال وهي شمالية.

ورابعها: الجَنوب وهي جُنوبيّة.

وكلّ ريحٍ هبّت من بين المَهَبَّينِ من المَهابّ الأربَعة تُسمّى نَكْباء، ولِكلّ واحِدةٍ منها مَنافِع لا تُحصى.

روي عن النبيّ ﷺ أنّه إذا هبّت ريحٌ، قال: «اللهمّ اجعَلْها رياحاً، ولا تَجْعَلها رِيحاً»[4].

ولعلّ فيه إشارة إلى أنّ هُبوبَ الرّياح من جَميع الجَوانب إحاطة الرّحمة بالخَلْق، وأنّ لكلّ ريحٍ

---

١. تفسير الرازي ٤: ٢٠٠.
٢. تفسير روح البيان ١: ٢٦٨.
٣. تفسير الرازي ٤: ٢٠١.
٤. تفسير الرازي ٤: ٢٠٢.

فائدةٌ لا تتِمّ إلّا بسائر الرّياح.

وأمّا القسم الخامِس فهو الرّيح العَقيم التي أهلَك الله بها عاداً، وهي من آياتِ غَضَبه تعالى. عن ابن عبّاس، قال: أعظَم جُنود الله الرّيح والماء[١].

﴿وَ﴾ في ﴿ٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ﴾ المُذَلَّلِ تحتَ إرادَتِه وأمره ﴿بَيْنَ ٱلسَّمَاءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فإنّه لا يُمسِكه مع ثِقلِه بحَمل الماء عن السّقوط على الأرضِ إلّا إرادةُ الله، ولايَسوقُه من بلدٍ إلى بلدٍ إلّا أمرهُ، فلو انقطَع عن بلدٍ عَظُم الضّررُ بسببَ القَحْطِ وفَقْد العُشْب والزَّرع والثّمار، ولو دامَ وقوفُه عليه عَظُم الضّررُ بسبَبِ استِتار ضَوء الشّمسِ وكَثْرَة الأمطارِ، فهو مُسَخَّرٌ تحت حُكم الله يأتي به وقتَ الحاجةِ ويرُدّه عند زَوالها.

في بيان وجه دلالة الآيات الثمانية على وجوده تعالى وقدرته وإرادته وحكمته وتوحيده ووجوب عبادته

ثمّ لمّا كانَ كلّ واحِدٍ من الأُمورِ الثّمانية آيةً عظيمةً ودلالةً واضِحةً على وُجودِ الصّانع الواحِد القادِر المدبّر الحَكيم ووجوب طاعتِه وعِبادتِه، قال: ﴿لَآيَاتٌ﴾ بيّناتٌ ودلائل واضِحات نافعات ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ دلالتها، ويتفكّرون فيها بالإدراك السّليم والفَهم المُستَقيم.

أمّا دلالتها على وجودِه تعالى وقدرتِه، فبأنّه لمّا كان امتِناعُ حدوثِ الحادِث من غير علّةٍ من البَدِيهيّاتِ، كانَ حُدوثُ هذه المَوجوداتِ بعد عَدَمِها دليلاً على وُجود مُوجِدٍ قادِرٍ لَها.

وأمّا دلالتُها على اختِياره وإرادتِه، فبأنّه لو كان المؤثّر مُوجباً لدام الأثَرُ، فتَغييرُ الأثرِ دليلٌ على كَونِ المؤثّر مُريداً مُختَاراً.

وأمّا دلالتها على حِكمَتِه تعالى، فبِظُهورِ كَونِ وُجود هذه المَوجودات وتَغييراتِها على وَفق الحكمةِ والصَّلاح.

وأمّا دلالتها على وَحدانيّته تعالى، فبِكَون جَميع أُمورِها على نَحو الاتّساقِ والانتِظام، ولو كان مُوجِدُها والمتصرّف فيها متعدّداً لاختَلّ نِظامُها.

وأمّا دلالتها على وُجوبِ شُكرِه وعِبادَتِه، فبأنّ كلّ واحدٍ منها نعمةٌ عظيمةٌ، ووُجوب شُكرِ المُنعِم من ضَروريّات العَقْل، ومن شُكرِه طاعَتُه وعِبادَتُه. وإنّما خصّ الآيات بالعُقَلاء لكَونِهم المُنتَفِعينَ بها دونَ غيرِهم، كما أنّ ذَوي الأمزِجَة الصحيحة والحَواسّ غير العَليلة مُختَصّون بالانتِفاع بالأطعمة

---

١. تفسير روح البيان ١: ٢٦٨.

اللّذيذة الدُنيويّة والمَحسوسات بالحَواسّ الظاهريّة.

في بيان دلالة جميع ذرات الموجودات على الصانع ووجوب وجوده وكماله

ثمّ اعلَم أنّ الدلالة على وجُودِه تعالى وكَمالِه في الصّفات غيرُ مُختَصّ بتلك الآياتِ المَعدودة في الآيةِ، بل كلُّ موجودٍ من الموجوداتِ، حتّى النّملة والذّرّة من آياتِ وُجودِه وكَمالِه.

وأتمّ أنحاء الاستِدلال بها وأقصَرها أنْ نَقولَ: إنّا نتَصوّر جميع مالَه حظّ من الوُجودِ بحيث لايشِذّ منه شيءٌ، وحينئذٍ فإمّا أن نَحكُم بأنّ جميعَه واجبٌ قديمٌ، وإمّا أن نَحكُم بأنّ جميعَه مُمكِنٌ حادِثٌ، وإمّا أن نحكُمَ بأنّ بعضَه واجبٌ وبعَضَه مُمكنٌ. ولا سبيلَ إلى الأوّل لامتناعِ تعدّد الواجِب القديم، حيث إنّ التعدّد مُستَلِزمٌ للتّركّب مِمّا به الاشتِراك وما به الامتِياز، والتَركُّب مُستَلِزمٌ للحُدوثِ والحاجة.

أمّا الحُدوث فلأنّ المركّب متأخّر بالطّبع وجوداً عن وجود أجزائه، وأمّا الحَاجَةُ فَلأنّه لو لم تَكُن الأجزاء لم يَكُن المركّب، والواجبُ قديم بالذّات، مع أنّ قِدَم الجميع خِلاف الحسّ والوجدان، ولا سبيل إلى الثاني لبدَاهةِ أنّ الحادِثَ محتاجٌ إلى العلّةِ، والمَفروضُ أنّه لا موجودَ غير ما فرَضناه حتّىٰ يكونَ عِلّةً له، وفَرض كَونِ جميع المَوجودات حادثاً مستَلزمٌ لعدَمِ كَونِها معلولةً لعلّةٍ، وهو مُحال، فتَعيّن الثالِث وهو كَونُ بَعضِه واجباً وبعضِه مُمكناً.

وقد ثَبت امتِناعُ تعدّد الواجِب، فثَبت وَحدتُه، وأنّ ماسِواهُ أثَره وصُنْعه، فتحصّل من جميع ذلك أنّ جميعَ العالم مرآةُ جَمالِ الله وجَلالِه، والانسانُ العاقلُ هو المُشاهد فيها بعيَنِ بَصيرتِه، وإنّما خَصّ سبحانه وتعالى الآياتِ الثّماني بالذِكر لظُهورِ عِظَمِها في الأنظارِ، وإنّها جامعةٌ بين كَونِها دلائلَ على مَعرفَتِه ونُعمَاه على الخَلقِ أجمَعين على أوفَر حظٍّ ونَصيبٍ. وإذا كانت الدّلائل كذلك، كانت انجَع في القُلوبِ وأشدّ تأثيراً في النّفوس.

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ ٱللهِ أَنْدَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللهِ وَٱلَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبّاً لِلهِ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلهِ جَمِيعاً وَأَنَّ ٱللهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ * إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوْا وَرَأَوُا ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ * وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا

تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ[١٦٥ ـ ١٦٧]

ثمّ أنّه تَعالى بعدما قرّر تَوحيدَ ذاتِه المقدّسة بالدّلائل القاهِرَة والبَراهين الظاهِرَة، أردَفه بتَقْبِيح الشِّرْكِ الذي هُوَ ضِدّ التَّوحيد، بقوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ﴾ ويَختار ﴿مِنْ دُونِ ٱللَّهِ﴾ ومِمّا سِواهُ مِنَ الأصنامِ ورؤساءِ الضّلالِ والمطاعين الذين لم يَنْصِبْهم اللهُ للطّاعةِ والاتّباع ﴿أَنْدَاداً﴾ وأمثالاً له في الأُلوهيّة، وشُرَكاء له في العِبادةِ والطّاعةِ، حال كون المُتَّخِذين للأنداد ﴿يُحِبّونَهُمْ﴾ حُبّاً كائناً ﴿كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ ويُسَوّون بينهم وبينه في التّعظيم والطّاعة، بل يتّبِعونَهم فيما خالَف رِضاه.

عن (الكافي) و(العياشي): عن الصادق[1] عليه السلام: «هم وآللهِ أولياءُ فُلانٍ وفُلان [وفلان]، اتّخذوهم أئمّة [من] دون الإمام الذي جعَله الله للنّاسِ إماماً»[2] الخبر.

وعن بعض العُرَفاء: كلّ شيءٍ شُغِف[3] قَلبُك به سوى الله تعالى فقد جعلتَه نِدّاً له[4].

﴿وَٱلَّذِينَ آمَنُوا﴾ وفي رواية: هم آل محمّد صلّى الله عليه وآله[5] ﴿أَشَدُّ حُبّاً لِلَّهِ﴾ من هؤلاء المُشرِكين حيث إنّهم بمَعرِفتهم عظمة الرّبوبيّة لا يَميلون إلى غيره، ولا يتوجّهون إلى ماسِواه، بخلاف المُشرِكين الذين يَعدِلون بِهَوىٰ أنفُسهم من صنمٍ إلى صنمٍ.

عن ابن عبّاس: أن المُشركين كانوا يَعبدُون صنَماً، فإذا رأوا صنماً[6] أحسَن منه ترَكوا ذلك وأقبلوا إلى عبادة الأحسَن، انتهى[7].

وبخِلاف أتباع رؤساء الضَلالة وأئمّة الكُفر فانّهم يَميلون مع كلّ ريحٍ، ويتّبعون كلّ ناعِق.

روي أنّه جاء أعرابي إلى النبيّ صلّى الله عليه وآله فقال: يارسول الله، متى السّاعة؟ فقال صلّى الله عليه وآله: «ما أعدَدْتَ لها؟» فقال: ما أعدَدتُ كثيرَ صلوات ولا صيام، إلّا أنّي أُحِبّ الله ورَسولِه. فقال صلّى الله عليه وآله: «المَرءُ مع مَن أحَبّ». فقال أنس: فما رأيتُ المُسلِمين فَرِحوا بشيءٍ بعد الإسلامِ فَرَحَهم بذلك[8].

وروي أنّ عيسى عليه السلام مرّ بثلاثةِ نفرٍ وقد نَحَلت أبدانُهم وتغيرّت ألوانُهم، فقال لهم: ما الذي بلَغ بكم

---

١. في الكافي: عن الباقر.
٢. الكافي ١: ٣٠٦/١١، تفسير العياشي ١: ١٧٣/٢٤٨.
٣. في تفسير الرازي وتفسير روح البيان: شغلت.
٤. تفسير الرازي ٤: ٢٠٤، تفسير روح البيان ١: ٣٩١.
٥. تفسير العياشي ١: ١٧٤/٢٤٩، تفسير الصافي ١: ١٩١.
٦. في تفسير الرازي: شيئاً.
٧. تفسير الرازي ٤: ٢٠٨.
٨. تفسير الرازي ٤: ٢٠٥.

إلى ما أرىٰ؟ فقالوا: الخوفُ مِن النّار. فقال: [حقّ] على الله أن يؤمنَ الخائف.

ثمّ ترَكهم إلى ثلاثةٍ آخرِين، فإذا هم أشَدّ نُحولاً وتغيّراً. فقال لَهم: ما الذي بلَغ بكم إلى هذا المَقام؟ قالوا: الشّوق إلى الجَنّةِ. فقال: حقّ على الله أن يُعطِيَكم ما تَرجون.

ثمّ ترَكهم إلى ثلاثةٍ آخرين، فإذا هم أشَدّ نُحولاً وتغيّراً، كأنّ وجُوهَهم المَرايا من النّور، فقال: كيف بلَغتُم إلى هذه الدّرجة؟ قالوا: بحُبّ الله. فقال ﷺ: أنتُم الْمقرّبون إلى الله يوم القيامة[1].

ونُقل عن بعض الكتُب: عَبْدي أنا وحقّك، لَك مُحِبٌّ، فبِحَقّي عليك، كُن لي مُحبّاً[2].

ثمّ شرَع الله تعالى في تَهديدِ المُشركين بقوله: ﴿وَلَو يَرَى﴾ ويعلَم ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أنفُسَهم باعتِقادهم الشّرك واتّخاذِهم الأندادَ للهِ ـ والأمثال لمحمّد وآله الأبرار (صلوات الله عليهم) ـ من الكفّار والفُجّار ﴿إِذْ يَرَوْنَ ٱلعَذابَ﴾ ويومَ يُشاهِدون فيه ما أُعدّ لهم من العِقاب والنَّكالِ، وعَجْزِ أنفُسِهم عن الدّفاع ﴿اَنّ ٱلقُوَّةَ للهِ﴾ على الأمور ﴿جَمِيعاً﴾ لا قوّةَ ولاقُدرةَ لأحدٍ غيره ﴿وَاَنّ ٱللهَ شَدِيدُ ٱلعَذَابِ﴾ عليهم، فيَدخُلهم من النّدَم والتحسّر ما لا يَدخُل تحتَ الوَصْف، ويَخرُج عن حدّ التصوّر.

﴿إِذْ تَبَرَّأَ﴾ الأصنام ورؤساءُ الضّلال ﴿ٱلّذِينَ ٱتُّبِعُوا﴾ وأُطيعوا في الباطِل ﴿مِنَ ٱلّذِينَ ٱتَّبَعُوا﴾ هُم وأفنَوا أعمارَهم في عبادتهم وطاعتِهم باعتِقاد أنّهم أوكد أسباب نَجاتِهم في الآخِرة ﴿وَ﴾ الحال أنّ المَتبوعين ﴿رَاَوُا﴾ وعايَنوا ﴿ٱلعَذَابَ﴾ المُعَدَّ لهُم على إضلالِهم ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلأَسْبَابُ﴾ وزالت عنهم وسائلُ النّجاةِ من الشّدائد، من القَرابةِ والموادّة والمُعاهَدة والتابعيّة، فعند ذلك لا يَقدِرون على خَلاصِ أنفُسِهم، فكيف بخَلاصِ أتباعهم؟ ولهذا يتبرّؤون منهم.

ويحتمل أن تكون الجُملَتان بَياناً لحالِ الأتباع، ويكون المعنى: والحالُ أنّ الأتباعَ رَأَوا العَذاب وانقطَعت عنهم الوسائل، فتوسّلوا بالرُّؤساء في نِهاية استئصالهم وشِدّة الحاجة إلَيهم، طمَعاً في إعانَتِهم لهم، وشَفاعتِهم عنهم. فإذا رأوا تَبرُّؤ الرؤساء منهم، يَدخُلهم نِهايةُ الحَسْرةِ وغايةُ النَّدامةِ، ﴿وَ﴾ حينئذٍ ﴿قَالَ ٱلّذِينَ ٱتَّبَعُوا﴾ وأطاعوا رؤساءَ الضّلالِ، تمنّياً: ﴿لَوْ اَنَّ لَنَا كَرَّةً﴾ ورَجْعةً إلى الدّنيا ﴿فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ﴾ فيها عند ابتلائهم بالشّدائد وحاجتهم إلينا ﴿كَمَا تَبرَّءُوا مِنَّا﴾ في الآخِرَة.

﴿كَذٰلكَ﴾ الإراءة الفَظيعة ﴿يُرِيهِمُ ٱللهُ اَعْمَالَهُمْ﴾ حال كونِها ﴿حَسَرَاتٍ﴾ مُستَوليَة ﴿عَلَيْهِمْ﴾ ونَداماتٍ وارِدة بهم، فكأنّهم لا يَرَون أعمالَهم، بل يَرَون مَكانَها الحَسْرَة والنَّدامة.

---

١. تفسير الرازي ٤: ٢٠٥.

٢. تفسير الرازي ٤: ٢٠٥.

نقل أنّهم مع ما رأوا من العَذاب وتَبرُّؤ الرؤساء منهم، تُرفَع لهم الجنّة فينظُرون إليها وإلى بيوتِهم فيها لَو أطاعوا الله، فيُقال لهم: تِلكَ مَساكِنُكم لَو أطَعتم الله. ثمّ تقسّم بين المؤمنين[١].

وعن الصادق عليه السلام في قوله تعالى: ﴿كَذٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ﴾ «هو الرّجل يدَع المال لا يُنفِقُه في طاعَةِ الله بُخلاً، ثمّ يموتُ فيَدعُه لِمَن يعمَل به في طاعةِ الله أو [في] مَعصِيَة الله، فإن عَمِل به في طاعةِ الله يَراهُ في ميزانِ غَيرِه فيَراه حَسْرةً، وقد كان المالُ له، وإن كان عَمِل به في مَعصِية الله، قَوّاه بذلِك المال حتّى عَمِل به في مَعصِيَة الله»[٢].

﴿وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ أبداً. روي أنّه يُساق أهلُ النّارِ إلى النّار، فلا يَبقى منهم عضوٌ إلّا لَزِمه عذابٌ، إمّا حيّة تَنْهَشه، أو مَلَك يَضربه. فإذا ضرَبه المَلَك هوىٰ في النّار مِقدار أربعينَ يوماً لا يَبلُغ قَرارَها. ثمّ يرفَعُه اللّهَب وَيضربُه المَلَك فيَهوي، فإذا بَدَا رأسُه ضَرَبه ـ إلى أن قال ـ فإذا عَطِش أحدُهم طلَب الشّراب فيؤتى بالحَميم، فإذا دَنا من وجَهِه سَقَط وجهُه، ثمّ يَدخُل في فيه فتَسقُطَ أضراسُه، ثمّ يَدخُل بَطنَه فيُقطّع أمعاءَه ويَنضَج جِلدُه[٣].

وعن سعيد بن جُبَير: أنّ الله تعالى يأمُر يوم القيامة من أحرَق نفسه [في الدنيا] على ربوبيّة الأصنامِ أن يدخُلوا جهَنّم مع أصنامِهم، فلا يَدخُلون لِعلمهم أنّ عذابَ جهنّم على الدّوام. ثمّ يقول للمؤمنين بين أيدي الكفار: إن كنتم أحبّائي فادخُلوا جهنّم فيقتَحِمون فيها، ويُنادي مُنادٍ من تحت العَرْش: ﴿وَٱلَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبّاً للهِ﴾[٤].

يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلالاً طَيِّباً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ ٱلشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ * إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَٱلْفَحْشَاءِ وَأَن تَقُولُوا عَلَى ٱللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ[١٦٨ و ١٦٩]

ثمّ أنّه تعالى بعد ما بيّن قُبْحَ الشِّرك، وسُوءَ عاقِبَتِه، وكَون المُشركين مُعذّبين بالنّار، مَحرومين مِن نِعَم الآخرة، بيّن أنّ نِعَم الدُنيا تَعمُّهم وَلا تختصّ بخُصوص المؤمنينَ، بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا﴾

١. تفسير روح البيان ١: ٢٧١.
٢. الكافي ٤: ٢/٤٢، تفسير العياشي ١: ٢٥٠/١٧٤، تفسير الصافي ١: ١٩١.
٣. تفسير روح البيان ١: ٢٧١.
٤. تفسير روح البيان ١: ٢٧١، والآية من سورة البقرة: ١٦٥/٢.

وانتَفِعوا ﴿مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ مِنَ النِعَم، حال كَونِها ﴿حَلَٰلاً﴾ ومُباحاً لكم، ليس من الله عُقدَة الحَظْرِ والحُرْمَة ﴿طَيِّباً﴾ لذيذاً أو طاهِراً من كلّ شُبهَةٍ.

﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ ٱلشَّيْطَانِ﴾ ولا تطأوا على عَقِبِه ولا تَقْتَدوا به، ثمّ علّل النّهيَ بقوله: ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ ظاهِرُ العَداوةِ عند مَن له بَصيرةٌ نافِذة، فلا تتعدّوا عن الحلال إلى ما يَدعوكم إليه الشّيطان من الحَرام.

عن ابن عبّاس: نزَلت الآية في الذين حرّموا على أنفُسِهم السّوائب والوصائل والبَحائر [١]، وهم قومٌ من ثَقيف وبني عامر بن صَعْصَعَة وخُزاعة وبني مُدلج [٢].

ثمّ ذكر الله تَفْصِيلَ عَداوةِ الشّيطانِ بقوله: ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ﴾ ويَدْعُوكُم إلى المَعْصِية ﴿وَٱلْفَحْشَاءِ﴾ قيل: هو أقبَح أنواع المَعاصي، ولذا يُقال للزّنا فاحِشة [٣].

﴿وَأَنْ تَقُولُوا﴾ وتَفْتَرُوا ﴿عَلَى ٱللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أنّ الله قاله وأمر به، وهو أقبَح من الفَحْشاء، فيَدخُل في الآيةِ الصّغائرُ والكبائرُ والشِّرك والبِدْعَة في الدِّين.

عن (الكافي) عن الصادق عليه السلام: «إيّاك وخَصْلَتَين ففيهما هلَك مَنْ هَلَك؛ إيّاكَ أن تُفتي النّاسَ برأيِك، أو تَدين بما لا تَعلم» [٤].

وعن الباقر عليه السلام أنّه سُئل عن حقّ الله على العِباد، قال: «أن يَقولوا ما يعلَمون، ويَقفِوا عند ما لا يعلَمون» [٥].

وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ ٱللهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ[١٧٠]

ثمّ أنّه تعالى بعد إباحةِ نِعَمِه الطيّبة لجميع خَلْقِه، التي هي مُوجِبة لتَوحيدِه وعبادتِه، ونَهيه عن اتّباع الشّيطان، أخَذ في ذَمّ المشركين الذين هُم أخصّ النّاس باتّباعِه، ويَيّنَ نِهايةَ حُمْقِهم، بقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ﴾ وَعْظاً ونُصْحاً ﴿ٱتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ ٱللهُ﴾ في كتابه وعلى لِسانِ رَسولِه من العَقائد الحقّة والأعمال الحَسَنة.

---

١. السائبَةُ: الناقة التي كانت تسيّب في الجاهلية لنذرٍ ونحوه، والوَصِيلَةُ في الجاهليه: النّاقة التي وصَلَت بين عشرة أبطن. والبَحِيرة: الناقة كانت في الجاهلية إذا ولدت خمسة أبطن شقّوا أُذنها.

٢. تفسير الرازي ٥: ٢.

٣. تفسير روح البيان ١: ٢٧٢.

٤. الكافي ١: ٢/٣٣، تفسير الصافي ١: ١٩٢.

٥. الكافي ١: ٧/٣٤، تفسير الصافي ١: ١٩٢.

وفي التَّكْنِيَةِ عنهم بضميرِ الغائب إشعارٌ بالإعراضِ عنهم لعدَم قابليتِهم للمُخاطَبة لفَرْطِ حَماقتِهم، فكأنّه تعالى وجّه الخِطابَ إلى العُقَلاء، وقال: انظُروا أيّها العُقَلاء إلى هؤلاء الحمقى السُّفَهاء، أنّهم مع قيام البَراهين القاطعة على توحيد الله واستِحقاقه العبادة؛ إذا قيل لهم اعمَلوا بكتابِ الله وتديّنوا بتَوحيدِه وخُضُوه بالعبادة ﴿قَالُوا﴾: لا نتّبع كتابَ الله، ولا نَتديّن بدينه ﴿بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا﴾ ووجَدنا ﴿عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ من عبادة الأندادِ، وتحريم الطيّبات، وارتِكاب الفَحْشاء؛ لأنّهم كانوا أعلَم منّا.

فعارَضوا الأدلّة القاطِعة بالتّقليد، فردّ الله عليهم بقَولِه توبيخاً وتقريعاً لهم: ﴿أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ ولا يُدرِكون ﴿شَيْئاً﴾ مِن الدّين الحقّ ﴿وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ إلى شيءٍ من الصَّوابِ. مع ذلك لا يُمكِن جَواز اتّباعهم في حُكم العَقْلِ.

قيل: إنّها نَزلت في مُشرِكي العرَب وكُفّار قُرَيش، اُمِروا باتّباع القرآن وسائر ما أنزَل الله تعالى من البيّناتِ البَاهِرة، فجَنَحوا للتّقليد[١].

ونُقل عن ابن عبّاس: أنّها نزلَت في اليَهود، وذلك حين دَعاهُم رَسولُ الله ﷺ إلى الإسلام،فقالوا: نتّبع ما وجَدنا عليه آباءَنا[٢].

وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ[١٧١]

ثمّ أنّه تعالى لتوضيح نِهاية حَماقة هؤلاء الكفَرة لجَميعِ النّاسِ حتّى لا يَبقى لأحدٍ فيها رَيْبٌ، شبّهَهُم بالبَهائم والأنعام، بقوله: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وحالُهم العَجيبةُ من عبادَتِهم الأصنام، وعدَم فَهمهم آياتِ التّوحيد، وعدم استِماعهم لدَعوة الرُّسُل ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ﴾ ويَصيحُ ﴿بِمَا لَا يَسْمَعُ﴾ مِنَ الدّاعي، ولا يُدرِك مِن كلامه ﴿إلّا دُعَاءً وَنداءً﴾ وغيرَ صوتٍ وصياحٍ مِن غَيرِ فَهْمِ شَيْءٍ مِن مَعناه.

قيل: إنّ الفَرْقَ بين الدُّعاء والنِّداء، أنّ الدُعاء للقَريبِ، والنِّداء للبَعيد[٣].

عن (المَجْمَع): عن الباقر عليه السلام: «أي مَثَلُهم في دُعائك إيّاهم إلى الإيمانِ، كَمَثَلِ النّاعِق في دُعائه المَنعوقَ به من البَهائم التي لا تَفْهَم، وإنّما تسمَعُ الصَّوت»[٤].

---

١. تفسير روح البيان ١: ٢٧٤.

٢. تفسير الرازي ٥: ٦.

٣. تفسير روح البيان ١: ٢٧٤.

٤. مجمع البيان ١: ٤٦٣، تفسير الصافي ١: ١٩٣.

وقيل: إنّ المُراد أنّ مَثَل داعِيهم كَمَثَلِ داعي البَهائم[1]. حيث إنّها لا تسمَع إلّا الصّوتَ ولا تُدرِك المُراد مِنَ الألفاظِ ومَداليلها، فكأنّهم ﴿صُمٌّ﴾ لا يَسمَعون الكلامَ أصلاً ﴿بُكْمٌ﴾ لايَقْدِرُونَ على إجابَةِ الدّاعي ﴿عُمْيٌ﴾ لا يُبْصِرون الطّريق حتّى يَحضُروا عند الدّاعي.

وحاصل المُراد ـ والله أعلم ـ أنّهم لشِدّة إعراضِهم عن الدلائل والمُعجِزات؛ كأنّهم لا يُشاهِدونها ولا يُدرِكونها بالحواسّ.

ثمّ بيّن أنّ عدَم تأثيرِ الدّعوة والبَراهين في قُلوبهم، لقلّة إدراكهم، بقوله: ﴿فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ البُرهانَ ولا يُدرِكون الحقَّ بنورِ العَقْل.

يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَٱشْكُرُوا لِلهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ * إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ ٱللهِ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ ٱللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ[١٧٢و١٧٣]

ثُمّ أنّه تعالى بعد تَرخِيص عُموم النّاس بالانتِفاع من النِّعَم التي خلقَها في الأرضِ، وَجّه الخِطابَ إلى خُصوصِ المؤمنينَ، تَشْريفاً لهم ولُطفاً بهم، وخَصَّهُم بالدَّعْوةِ إلى طَيِّباتِ نِعَمِه والأرشادِ إلى شُكْرِها بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا﴾ وتَمَتَّعُوا ﴿مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ ومُستَلذّاتِ ما أنعَمنا عليكم، فانّها مُباحَة لكم ﴿وَٱشْكُرُوا لِلهِ﴾ على إنعامِها وإحلالِها، وآثنُوا عليه، وآعمَلوا بمَرضاتِه ﴿إِن كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ وله بالعُبوديّة تُقِرّون، وبالالٰهيّةِ تؤمنون، وبنِعَمِه تُذعِنون حيث إنّ عبادَته لا تَتِمّ إلّا بالشُكْرِ.

عن النبيّ ﷺ: «يقول الله تعالى: إنّي والجِنّ والإنْس في نبأ عظيم، أخلُق ويُعبَد غيري، وأرزُق ويُشكَر غَيري»[2].

في بيان جملة من المأكولات والمشروبات المحرّمة والمحلّلة

عن الحسن[3] بن عليّ بن شُعبَة، عن الصادق عليه السلام في حديث: «وأمّا ما يَحِلّ للإنسان أكلُه ممّا أخرَجت الأرضُ فثلاثة صُنوفٍ من الأغذِية: صِنفٌ منها جميع الحَبّ كلّه من الحِنْطَةِ والشّعيرِ والأرزّ والحِمَّص وغير ذلك من صُنوف الحَبّ وصُنوف

---

١. تفسير الصافي ١: ١٩٣.
٢. تفسير الرازي ٥: ١٠، تفسير أبي السعود ١: ١٩٠.
٣. في النسخة: الحسين. راجع: نوابغ الرواة: ٩٣.

السّماسِم وغَيرها، كلّ شيءٍ من الحَبّ ممّا [يكون] فيه غِذاء الإنسانِ في بَدَنِه وقُوته فحَلالٌ أكلُه. وكلّ شيءٍ [تكون] فيه المَضَرّةُ على الإنسانِ في بَدَنِه وقُوته فحَرامٌ أكلُه إلّا في حَالِ الضّرورَةِ.

والصنف الثاني: مما أخرَجت الأرضُ مِن جميعِ صُنوف الثّمارِ كلّها ممّا يكونُ فيه غِذاء الإنسانِ ومَنفعة له وقُوته بِه فحَلالٌ أكلُه، وما كان فيه المَضَرّة على الإنسانِ في أكلِه فحَرامٌ أكلُه.

والصّنف الثالث: جميع صُنوف البُقول والنّبات، وكلّ شيءٍ تُنبِت [الأرض] مِن البُقول كلّها ممّا فيه [منافع الإنسان وغذاءٌ له فحلال أكله، وما كان من صنوف البُقول ممّا فيه] المَضَرّة على الانسان في أكلِه نَظير بُقول السُّموم القاتِلة ونَظير الدِّفْلَى[1] وغير ذلك من صنوف السّمّ القاتِل فحَرامٌ أكلُه.

وأمّا ما يَحِلّ أكلة من لحوم الحَيَوان فلُحوم البَقَر والغَنَم والإبِل، وما يَحِلّ من لُحومِ الوَحْش، وكلّ ما ليس له نابٌ ولا له مَخْلَب.

وما يَحلّ أكلُه من لُحوم الطَّيرِ كلّها ما كانَت له قانِصَة فحَلالٌ أكلُه، وما لَم تكُن له قانِصَة فحَرامٌ أكلُه، ولا بأس بأكلِ صُنوفِ الجَرادِ.

وأمّا ما يجوز أكلُه من البَيض، فكلّ ما اختَلف طرَفاه فحَلال أكلُه، وما استَوى طرَفاه فحَرامٌ أكلُه.

وما يَجوز أكلُه من صَيد البَحرِ من صُنوف السّمك؛ فما كان له قُشورٌ فحَلالٌ أكلُه، وما لم يكن له قُشور فحَرامٌ أكلُه.

وما يجوز من الأشرِبة من جَميع صُنوفها، فمَا لا يُغيّر العَقل كثيرُه فلا بأس بشُربِه، وكلّ شيءٍ منها يغيّر العَقْلَ كثيرُه فالقَليلُ منه حَرام[2].

ثمّ أنّه تعالى بعد تَحليله الانتِفاع بعُموم نِعَمِه، ذكر بعضَ أنواعِها المحرّمة بقوله: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ﴾ والانتِفاع بما فارقَتْهُ الرّوح بغير ذكاةٍ بالانتِفاعات المَقصودة منه، كأكلِ لَحمِه، ﴿وَ﴾ حَرّم ﴿الدَّمَ﴾ المَسفوحَ لا المتخلّف في الذّبيحةِ بعد ذَكاتها، ﴿وَلَحْمَ الخِنزِيرِ﴾ وتَخصيص التّحريم بلَحْمِه مع حُرْمَةِ بعض الانتِفاعات بسائر أجزائه؛ لأنّ المقصود منه للغالب هو أكل لَحمِه.

﴿وَ﴾ حَرّم ﴿ما أهِلَّ﴾ ورُفع الصّوت ﴿بِهِ﴾ عند ذَبْحِه ﴿لِغَيْرِ ٱللهِ﴾.

قيل: إنّ المُشركين كانوا إذا ذَبَحوا لآلِهَتِهم يرفَعون أصواتَهم بذِكرها ويقولون: باسمِ اللّاتِ

---

۱. الدِّفْلَى: نبت مُرّ زهره كالورد الأحمر، يتّخذ للزينة.

۲. تحف العقول: ۳۳۷.

والعُزّى[1].

قيل: وَجهُ تَخصيص الأنواعِ الأربَعة بالذُّكر من بين المُحَرّمات؛ لأنّ العَرب كانوا يستَحِلّونَها ويقولون: تأكُلون ما أمَتُّم ولا تأكُلون ما أماتَه الله! وكانوا يَشرُون الدَّم ويأكُلونَه، وكانوا يأكُلون لَحمَ الخِنْزير وذبائح الأصنام، فنَهىٰ الله هذه الأشياء الأربَعة.

في جواز أكل المحرّمات في المخمصة والضرورة مطلقاً

ثمّ منّ عليهم بإباحة أكلِها في المَخْمَصَةِ[2] بقوله: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ﴾ والتجأ إلى أكلِ شيءٍ من هذه المحرّمات لِمَجاعةٍ أو إكراهٍ، حال كونه ﴿غَيْرَ بَاغٍ﴾ قيل: يعني غير ظالِم على مُضطَرٍّ آخر بالاستئثار عليه[3] ﴿وَلَا عَادٍ﴾ ومُجاوِز في أكلِه عن حَدِّ سَدِّ الرَّمَق والجُوع الشَّديد. وروي أنّ البَاغي: الظّالِم، والعادي الغاصِب[4].

وعن (الفقيه): عن [محمد بن علي] الرّضا عليه السلام عن أبيه عن آبائه عليهم السلام: «سُئل رسولُ الله صلى الله عليه وآله فقيل [له: يا رسول الله] إنّا نكونُ بأرضٍ فتُصيبُنا المَخْمَصَة، فمتى تَحِلّ لنا المَيْتَة؟ قال: ما لم تَصْطَبِحوا أو تَغْتَبِقوا أو تَحْتَفِئوا[5] بَقلاً فشأنكم بهذا»[6].

قال في (المجمع): الاصطِباحُ: أكلُ الصَّبُوح وهو الغَداء، والغَبوق: أكلُ العَشاء، وأصلُهما الشّربُ ثُمّ استُعمِلا في الأكل[7].

قال عبدالعظيم: فقُلتُ له: يا ابنَ رسولِ الله، فما معنى قول الله عزّ وجلّ: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾؟ قال: «العادي: السّارِق. والبَاغي: الذي يَبْغِي الصَّيدَ بَطَراً أو لَهْواً لا لِيَعودَ [به] على عِيالِه، ليس

---

١. تفسير روح البيان ١: ٢٧٧. ٢. أي المجاعة.

٣. تفسير روح البيان ١: ٢٧٧، تفسير أبي السعود ١: ١٩١.

٤. تفسير العياشي ١: ٢٥٧/١٧٦، تفسير الصافي ١: ١٩٤.

٥. في التهذيب: (أو تحتفوا) من احتفى البقل: أخذه بأطراف أصابعه من قصره وقلّته، كما في المغرب ١: ١٣١، وفي القاموس ٤: ٣١٨، احتفى البقل: اقتلعه من الأرض.

ونقل ابن الأثير عن أبي سعيد الضرير أنّه قال: صوابه (تحتفوا) بغير همز، من أحفى الشعر، ومن قال: تحتفئوا مهموزاً هو من الحفأ، وهو البردي، فباطل، لأنّ البردي ليس من البقول.

ونقل عن أبي عبيد قوله: هو من الحفأ، مهموز مقصور، وهو أصل البردي الأبيض الرطب منه، وقد يؤكل، يقول ما لم تقتلعوا هذا بعينه فتأكلوه. ويُروى (تحتفّوا) بتشديد الفاء، من احتَفَفْت الشيء: إذا أخذته كله، كما تحفّ المرأة وجهها من الشعر. النهاية ١: ٤١١.

٦. من لا يحضره الفقيه ٣: ١٠٠٧/٢١٧، التهذيب ٩: ٣٥٤/٨٣، وفي من لا يحضره الفقيه: فشأنكم بها.

٧. مجمع البحرين ٢: ١٠٠٣.

لَهُما أن يأكُلا المَيْتَةَ إذا اَضطُرّا، هي حَرامٌ عليهما في حال الاضطرار»[١] الخَبَر.

وعن (العيّاشيّ): عن الصادق عليه السلام: «الباغي الصَّيد، والعادي: السارِق، ليسَ لهُما أن يأكُلا المَيْتَةَ إذا اضطُرّا، هي حَرامٌ عليهما، ليس هي عليهما كما هي على المُسلِمين»[٢].

وعن (الكافي) عنه عليه السلام: «الباغي: الذي يخرُج على الإمام، والعادي: الذي يقطَع الطَّريق، لا تَحِلّ لهما المَيْتَة»[٣].

أقول: ظاهِرُ تِلكَ الرّوايات سوى النّبويّ، حُرمَةُ أكلِ المَيْتَةِ على كلّ مَنِ اضطُرَّ في طَريقِ مَعصِيَةِ اللهِ وفي السَّفَر الحَرامِ، وفيه إشكالٌ لمُعارَضتها لأدلّةِ نَفْي الحَرَج والضَّرَر مع كونها آبية عن التقييد والتّخصيص، وعلى أيّ حال ﴿فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ في تَناوُلِ مِقدارٍ يَحفَظ نفسَه.

ثمّ لمّا كان فيه مقتضى الحُرمة المُزاحَم بالأهَمّ في الرّعاية، زِيلَ التّرخيصُ بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ وسَتّارٌ لجَميعِ المعَاصي والقَبائح ﴿رَحِيمٌ﴾ بعِبادِه، لا يَرضىٰ بضَرَرِهم وعَطَبِهم وهَلاكِهم.

في حكم حرمة لحم الخنزير والدم والميتة

عن (العلل) و(العيون): عن الرّضا عليه السلام فيما كتَب من جَواب مَسائل: «وحُرِّم الخِنزيرُ لأنّه مُشَوَّهٌ جعَله الله عِظَةً للخَلْقِ[٤] ودليلاً على ما مُسِخ على خِلقَتِه، ولأنّ غذاءهُ أقذَر الأقذار، مع عللٍ كثيرةٍ».

إلى أن قال: «وحرِّمت المَيْتَةُ لِما فيها من فَساد الأبدانِ والآفة، ولِمَا أراد الله أن يجعَل التسمية سبَباً للتَّحليل وفَرْقاً بين الحَلالِ والحَرام، وحرَّم اللهُ الدَّمَ كتَحريم المَيْتَةِ لما فيه من فَسادِ الأبدان، ولأنّه يُورِثُ المَاء الأصفَر، ويُبخِر الفَمَ، ويُنتِن الرِّيحَ، ويُسيء الخُلُقَ، ويُورِثُ القسوة للقَلْب وقلّةَ الرأفةِ والرَّحمَة حتّى لا يؤمَن أن يقتُلَ ولَدَه ووالِدَه وصاحِبَه»[٥] الخَبَر.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً أُولَٰئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا ٱلضَّلَالَةَ بِٱلْهُدَىٰ وَٱلْعَذَابَ بِٱلْمَغْفِرَةِ فَمَا

---

١. من لا يحضره الفقيه ٣: ١٠٠٧/٢١٦.

٢. التهذيب ٣: ٥٣٩/٢١٧، تفسير العياشي ١: ٢٦٢/١٧٧ «نحوه»، تفسير الصافي ١: ١٩٤.

٣. الكافي ٦: ١/٢٦٥.

٤. في العلل والعيون: وعبرة وتخويفاً.

٥. علل الشرائع: ٤/٤٨٤، عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ١/٩٤.

أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ * ذٰلِكَ بِأَنَّ ٱللهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا فِى ٱلْكِتَابِ لَفِى شِقَاقٍ بَعِيدٍ[١٧٤ـ١٧٦]

ثمّ لمّا كانَ مِن دَلائل صِدْقِ النَّبِيِّ مُوافَقَة أحكامِ شَرِيعَتِه للعُقول السَّليمةِ والأذهانِ المُسْتَقِيمَةِ، كانت تِلكَ الأحكامُ دَليلاً على صِدْقِ النَّبيّ ﷺ في دَعوى نُبوّتِه. وعلى أنّه المُبَشَّر به في التَّوراةِ، ومع ذلك أنكَر عليه اليَهود وكتَموا ما يدُلّ على نعُوتِه في كتابهم، فلذلك هَدَّدَهُم على كِتْمانِهم طَلَباً للزَخارِفِ الدُنيَويَّة بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ ٱللهُ مِنَ ٱلْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ﴾ ويَطلُبون بدَل كِتْمانِهم نُعوتَ مُحمّد ﷺ ﴿ثَمَناً قَلِيلاً﴾ وَعِوَضاً يَسيراً من مَتاعِ الدُّنيا.

﴿أُولٰئِكَ﴾ الكاتِمُونَ ﴿مَا يَأْكُلُونَ﴾ وما يَجرون بالمآكل التي[1] يُصيبونَها من سَفِلَتِهم ﴿فِى بُطُونِهِمْ﴾ شَيْئاً ﴿إِلَّا ٱلنَّارَ﴾ في الآخِرة عقوبةً على أكلِهم الرِّشا.

في أنّ للأموال المحرمة صورةً برزخية

قيل: إنّ إطلاق النّار على مآكلِهم من باب إطلاق المُسبَّب على السبَب[2]. ويمكن أن يكونَ الاطلاقُ من باب الحقيقة باعتِبار أنّ الأموال المُحَرّمة صُورتُها البَرْزَخِيّة صورَةُ النّار، ولكِن لا يشعُرون بحَقيقتِها وصُورَتها المعنويّة، حتّى إذا هبّت عليهم رِيح عالَم البَرْزخَ والآخِرَة، فعند ذلِك تَشْتَعِل في بُطونِهم.

ويؤيّده أنّه نُقِل أنّ عالِماً حضَر في مَحضرِ سُلطانٍ ظالمٍ فأمَر السُلطانُ بإحضارِ الطَّعامِ، فأحضَروا الأطعِمَة الطيِّبة، فأمَر السُّلطانُ العالِم بأكلِها، فأبىٰ العالِمُ، فأصرَّ السُّلطانُ، فقال العالم: هذه الأطعِمة دِماءُ المَظلومِين. فقال السُّلطانُ مُستَهزِئاً به: كيف تكونُ هذه الأطعِمةُ اللّذيذَةُ دِماءً؟! فأخَذ العالِمُ لُقمةً مِنها فعصَرها فصَبّ الدّم من بين أصابِعه، وعلى ذلك يُحمَل ما روي من أنّ الشّارِبَ في آنيةِ الذَّهَب والفِضَّة إنّما يُجَرجِرُ في بَطنِه نَارَ جهَنّم[3].

﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللهُ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ﴾ بكَلامٍ فيه لُطْفٌ وعُطوفَةٌ[4] كما يكلّمُ به أهلَ الجنّة.

وقيل: إنّ تَرْكَ الكَلامِ كِنايةٌ عن نِهاية الإعراضِ، حيث إنّ عادة المُلوكِ أنّهم لا يُكلّمون مَنْ يُعرِضُون عنه عند الغَضَب، ويُكلِّمونَ مَن يَرْضَون عنه بالبِشْر واللُّطف[5].

﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾ وَلا يُطَهِّرُهم من دَنَسِ المَعاصِي كما يُطَهّر المؤمنين، لعَدَمِ قابليّة الكافِرِ للتَّطهير.

---

١. في النسخة: الذي. ٢. تفسير روح البيان ١: ٢٧٩. ٣. تفسير الرازي ٥: ٢٧.
٤. كذا، وقياس المصدر: عَطْف أو عُطُوف. ٥. تفسير الرازي ٥: ٢٧.

وقيل: إنّ المُراد بتزكيتهم المَدْح والثّناء عليهم ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وعُقوبةٌ مُوجِعَةٌ بالنّار.

﴿أُولَـٰئِكَ﴾ البَعيدونَ عن العَقْل والإدراكِ هُم ﴿ٱلَّذِينَ﴾ من شِدّة حُمقِهم وخُبْثِ ذاتِهم ﴿ٱشْتَرَوُا﴾ واختاروا لأنفُسِهم ﴿ٱلضَّلَالَةَ﴾ والجَهْلَ واستَبْدَلُوها ﴿بالهُدَى﴾ والعِلم بالحقّ في الدُّنيا، حيث إنّهم مع حصوله لهم ووضُوح صدق النبيّ ﷺ وصِحّة دينِ الإسلامِ عندهم، ادَّعَوْا الجَهْل واختاروا الكُفرَ، فكأنّهم رفَعوا اليَدَ عن الهِدايةِ الحاصِلة، وأخَذوا الضّلالة بدَلاً منها. وهذا العمَل الشّنيع لا يُمكِن أن يَصدُرَ مِمّن شَمّ رائِحةَ العَقْلِ، ﴿وَ﴾ اشترَوا ﴿ٱلعَذَابَ﴾ الأبدي ﴿بِالمَغْفِرَةِ﴾ والرَّحمة الدائمة في الآخِرَةِ، وذلك غايَةُ الخَسارَةِ. فإذَن ينبَغي أن يُقال تعجّباً: ﴿فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَىٰ ٱلنَّارِ﴾! وما أجرَأهم عليها، وكلمةُ التعجّب كِنايةٌ عن استِعظام الأمر.

عن (الكافي) و(العياشي): ما أصبَرهم على فِعْلِ ما يعلَمون أنّه يُصَيّرهم إلى النّار[١].

﴿ذَٰلِكَ﴾ العَذابُ مُعَلّل ﴿بِأَنَّ ٱللهَ نَزَّلَ ٱلكِتَابَ﴾ المَجيدَ والقُرآن الحَميد حال كونه مقروناً ﴿بِالحَقِّ﴾ وشَواهِد الصِّدق، وهم مع وُضوحِ أمرِه عندهم اتَّفَقوا على رَفْضِه وتكْذِيبه، واختَلَفوا في وَجْهِه، فقال بعضٌ: إنَّهُ سِحْرٌ، وبعضٌ: إنّه كِهانةٌ، وبعض: إنّه شِعْرٌ، وبعضٌ: إنّه أساطير.

﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا﴾ في أقاويلهم ﴿فِى ٱلكِتَابِ﴾ العَزيزِ باللهِ ﴿لَفِى شِقَاقٍ﴾ وَعِنادٍ ﴿بَعِيدٍ﴾ عن الصَّواب، أو لفي خِلافٍ بعيد عن الاجتِماع على الحَقّ.

لَيْسَ ٱلْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلآخِرِ وَٱلْمَلَائِكَةِ وَٱلْكِتَابِ وَٱلنَّبِيِّينَ وَآتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَامَىٰ وَٱلْمَسَاكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّائِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَاةَ وَآتَى ٱلزَّكَاةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَٱلصَّابِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَاءِ وَٱلضَّرَّاءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُولَـٰئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولٰئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ[١٧٧]

ثمّ أنّه تعالى لمّا ذكر إصرارَهم على الضَّلال وثَباتَهم على مُعانَدةِ الحَقّ، وكان مِن ضَلالَةِ اليَهودِ والنَّصارى أنَّهم يُكثِرون الخَوْضَ في أمرِ تَحويل القِبلَةِ إلى الكَعْبَة، وكان كلٌّ مِنهُم يقول: إنّ البِرَّ هو التَوجُّه إلى قِبْلَتِنا؛ فرَدّ الله عليهم بقَوله: ﴿لَيْسَ ٱلْبِرَّ﴾ والطّاعةَ التي تَنالون بها رِضا الله وغُفرانَه،

---

١. الكافي ٢: ٢/٢٠٦، تفسير العياشي ١: ١٧٨/٢٦٣.

وتَستَحِقّون بها الجنّة ونَعيمَها ﴿أَنْ تُوَلّوا﴾ وتَصرِفوا يا معشر اليهود والنّصارى ﴿وُجُـوهَكُمْ﴾ فـي الصّلاة ﴿قِبَلَ ٱلمَشْرِقِ وَٱلمَغْرِبِ﴾ وطَرَفهما.

عن السّجّاد عليه السلام: «قالتِ اليَهودُ: قد صلّينا إلى قبلَتِنا هذه الصّلاة الكثيرة، وفينا من يُحيي اللّيل صلاةً إلَيها. وقال كلّ واحدٍ من الفَريقَين: أترىٰ ربّنا يُبطِل أعمالَنا هذه الكثيرة وصَلَواتِنا إلى قبلتنا لأنّا لا نتّبع محمداً على هَواهُ في نَفسِه!»[١] الخَبَر.

ثمّ بعد ذلك أرشَدهم إلى ما هو البِرّ في حُكمِ العَقْلِ والشّرعِ بقَولِه: ﴿وَلٰكِنَّ ٱلبِرَّ﴾ والخَيْرَ الّـذي ينبغي أن يُهتَمّ به بِرُّ ﴿مَن آمَنَ بِاللهِ﴾ وأقَرّ بوَحدانيّته.

وقيل: إنّ المُراد، ولكن ذي البِرّ والبَارّ مَن آمَن بـالله[٢] وعـرَف مـبدأه ﴿وَٱليَـوْمِ ٱلآخِـرِ﴾ ومَـعاده ﴿وَٱلمَلَائِكَةِ﴾ كلّهم، وأنّهم عِبادُ اللهِ لا أولادُه ولَيْسوا بذُكورٍ وَلا إناثٍ، وهُمْ مُكرَمون عنده مُطيعون لأمرِه ﴿وَٱلكِتَابِ﴾ الذي أنزَله الله بتوسّط رُسُلِه، ومنه القرآن ﴿وَٱلنَّـبِيِّينَ﴾ جَـميعاً ذوي الشّـرائـع وغيرهم.

هذا من حيث العقائد، فجمعت الآية الإيمانَ بالأُمورِ الخَمسةِ: الإيمان بالمَبْدَأ، والمَـعاد، وصِـحّة الشّرائع التي نَزلت بتوسّط المَلائكةِ، والكتُب السّـماويّة المُـنَزلة إلى الأنـبياء [والايـمان بـالأنبياء]، واليهود قد أخَلّوا بجَميعها، حيث قالوا بالتّجسيم[٣] والبُخْلِ في المبدأ[٤]، وأنّه ﴿لَنْ تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ﴾ في الآخِرة ﴿إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُودَةً﴾[٥] وقالوا: إنّ جَبْرَئيل عدونا ونحنُ نُعاديه، وأنكَروا الكتُبَ وكفروا ببَعضِها، واقتصَروا بالإيمان بالتّوراةِ، بل كفَروا بكثيرٍ ممّا فيها، وقَتلوا كثيراً من الأنبياء مع أنّ البِرّ لا يكـونُ إلّا الايمان بالأُمورِ الخمسة، ثمّ تَتْميمه بالعمل.

ولمّا كانت الأعمال على قِسمَين: ماليّة وبدنيّة، وكانت الأعمال الماليّة أشَقّ على النّفس من الأعمال البَدَنية؛ قدّم ذكرَها بقَولِه: ﴿وَآتَى ٱلمَالَ﴾ وأعطاه ﴿عَلَىٰ حُبِّهِ﴾ والشّحّ به. وقيل: على حُبّ الله[٦].

وقيل: على حُبّ الإيتاءِ[٧] بأن يكونَ طيبُ النّفسِ بإعطائِه ﴿ذَوِى ٱلقُربىٰ﴾ وأُولي الأرحامِ صـدَقةً وبِرّاً وصِلَةً.

---

١. التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام: ٥٨٩/٣٥٣.
٢. مجمع البيان ١: ٤٧٦.
٣. في النسخة: بالتجسّم.
٤. يريد قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ اليَهُودُ يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ...﴾ [المائدة: ٥/٦٤].
٥. البقرة: ٢/٨٠.
٦. جوامع الجامع: ٣٢.
٧. جوامع الجامع: ٣٢.

عن النبي ﷺ أنّه سُئل: أيّ الصَّدقَةِ أفضَل؟ قال: «أن تؤتيها وأنتَ صحيحٌ شَحيحٌ، تأمَل العَيْشَ وتَخْشىٰ الفَقْر»[١].

وقيل: إنّ المُراد بذَوي القُربىٰ قرابَة النبيّ ﷺ إلّا إنّهم يُعطَون هدِيّةً وبِرّاً، لا صدَقة[٢].

﴿وَٱلْيَتَامَىٰ﴾ قيل: إنّ المُراد بهم يَتامى بَني هاشِم[٣] ﴿وَٱلْمَسَاكِينَ﴾ الكافّينَ عن سؤالِ النّاس ﴿وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ وهو المُسافِر المُنقَطع بِه ولا نَفَقة له ﴿وَٱلسَّائِلِينَ﴾ الذين ألجاتهُم الحاجَةُ إلى أن يتكفّفوا النّاس.

روي أنّ للّسائل حقاً وإن جاءَ على فَرَس[٤].

﴿وَفِى﴾ تخليص ﴿ٱلرِّقَابِ﴾ عن قَيدِ الرّقّيّةِ بشِرائها وإعتاقها، أو بإعانَتِها على أداء مالِ الكِتابةِ، وفي تَرتيب ذِكر الأصناف إشعارٌ بتَرتيبهم في أولويّةِ الرّعاية والإحسان.

عن الشّعبي، قال: إنّ في المالِ حَقّاً سِوىٰ الزّكاةِ، وتَلا هذه الآية[٥]. ولايخفى أنّ صَرْفَ المالِ في هذه الأصنافِ مستَحَبٌّ إلّا إذا توقّف صِلَةُ الرّحِم أو حِفظُ النّفس عَليه.

ثمّ ذَكر سُبحانه جملةً من الأعمالِ البدَنيّةِ مبتدئاً بأهمّها بقوله: ﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَاةَ﴾ المفروضةَ بحُدودِها وشَرائِطها، فإنّها عَمودُ الدِّين. ثُمّ أردفَها بذِكر الزّكاةِ المَفروضةِ بقوله: ﴿وَآتَى ٱلزَّكَاةَ﴾ وأعطاها المؤمنينَ لكَونِها كالصّلاةِ ممّا بني عليه الاسلام. وقيل: ذكر إيتاءِ المالِ أوّلاً لِبَيانِ المَصارِف، وثانياً لبَيان الوُجوب[٦].

﴿وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا﴾ سَواء كان العَهد بينَهم وبين الله كالنَّذْر والأيمان، أوبينَهم وبين الرّسول كالبَيْعَةِ وأمثالها، أو بينَهم وبينَ النّاسِ كالعُقودِ والمُعامَلات، وهذا وإن كان شامِلاً للمُواعَدات إلّا إنّه قد ادّعى الإجماع من الخاصّة والعامّة على عَدم وجوبِ الوَفاء بها.

﴿وَٱلصَّابِرِينَ﴾ قيل: إنّ التقدير: وأخُصّ بالذِكر لفضيلة الصّبر الصّابرين، الذين صَبروا ﴿فِى ٱلْبَأْسَاءِ وَٱلضَّرَّاءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ﴾ عن ابن عبّاس: البَأساءُ: الفَقْر، والضَّرّاءُ: المَرَض، وحين البأس، قال: يُريد القِتال في سبيل الله[٧]. واليهود أخَلّوا بجَميع ذلك فليسوا بارّين، بل ﴿أُولَـٰئِكَ﴾ المَوصوفون

---

١. تفسير البيضاوي ١: ١٠١.
٢. تفسير الصافي ١: ١٩٦.
٣. تفسير الصافي ١: ١٩٦.
٤. جوامع الجامع: ٣٢.
٥. جوامع الجامع: ٣٢.
٦. تفسير أبي السعود ١: ١٩٤.
٧. تفسير الرازي ٥: ٤٥.

بتلك الأوصاف المحمودة هم ﴿الَّذِينَ صَدَقُوا﴾ في دعوى الإيمان واتّباع الحقّ وطَلَب البِرّ، فإنّ العَمل من أعظَم شواهد صِدق القَبول.

﴿وَأُولٰئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ عن الكُفْرِ والرّذائِل في الظّاهر والباطن، وفي تكريرِ الإشارَةِ إشارةٌ إلى عَظَمةِ شأنِهم وعلوّ مَنْزِلَتِهم، وفي تَوسيط الضّميرِ دلالةٌ على اختِصاص التّقوى بهم.

في بيان جميع ما به كمال الإيمان

فالآيةُ جامِعةٌ لبَيانِ الكَمالات الإنسانيّة، حيث إنّها بكَثْرَتِها وَتَشعُّبِها مُنْحَصِرةٌ في ثَلاثةٍ: صِحّة الاعتِقاد، وتَهذِيب النَّفس، وحُسْنِ المُعَاشَرة.

وقد أُشير إلى الأوّل بقوله: ﴿مَنْ آمَنَ﴾ إلى قوله: ﴿وَٱلنَّبِيِّينَ﴾ وإلى الثّاني بقوله: ﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَاةَ﴾ إلى آخِرِ الآية. وإلى الثالث بقوله: ﴿وَآتَىٰ ٱلْمَالَ﴾ إلى قوله: ﴿وَفِى ٱلرِّقَابِ﴾. ولذا رُوي عن النبيّ ﷺ أنّه قال: «مَن عَمِل بهذه الآية، فقَدِ استَكْمَلَ الإيمان»[1].

يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ٱلْحُرُّ بِالْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَٱلْأُنْثَىٰ بِالْأُنْثَىٰ فَمَنْ عُفِىَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِن رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذٰلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ * وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِى ٱلْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ [١٧٨ و ١٧٩]

ثمّ أنّه تعالى بعد ذِكر وَظائف العبوديّة، شرَع في جُملةٍ من الأحكامِ السياسيّة، ولمّا كانَ أهمّها قانون تُحفَظ به الدِّماء والنّفوس قدّمه بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ﴾ في اللّوحِ المَحفوظِ، أو فُرِض ﴿عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى﴾ والمُماثلة في مُجازاةِ جِناية القَتْل والجُرح بأن يُفعَل بالجَاني مثل ما فعَله. أمّا الفَرْض على الجَاني فتَسليمُ نَفسِه، وأمّا على المُجنَى عليه أو وليّه فعَدَم التّجاوُز عن حَدّ المُسَاواة، وأما على سائر المؤمنين فإعانَةُ الجَاني في عدَم التّعدّي عليه، وإعانَة المُجنىٰ عليه في استيفاء حقّه.

ولكن يُشترَط في عدم التّراجُع المُساواة في الحرّية والرّقّيّة والذُكورة والأنوثة بأن يُقتَل ﴿ٱلْحُرُّ بِالْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَٱلْأُنْثَىٰ بِالْأُنْثَىٰ﴾ قيل في سَبَب النّزول: إنّه كان بين حَيَّيْنِ من أحياءِ العَرَبِ دِماءٌ في الجاهِليّة، وكان لأحدِهما طَولٌ[2] على الآخَر فأقسَموا: لَنَقْتُلَنَّ الحُرَّ مِنكُم بالعَبْدِ، والذَّكَرِ بالأنثىٰ

---

١. تفسير أبي السعود ١: ١٩٥.

٢. أي قوة وفضل.

والاثنين بالواحِد. فلمّا جاء الإسلام تحاكموا إلى رسول الله ﷺ فنزلت، وأمَرهم الله أن يتساووا ويتعادلوا[1].

في نُبَذٍ من أحكام القِصاص

عن أمير المؤمنين عليه السلام: «أنّ المَقصود من هذِه الآية بَيان أن بَين الحُرّين والعَبْدَين والذّكَرين والاثنَين يقَع القِصاص، ويَكفي ذلِك فقَط. فأمّا إذا كانَ القاتِل للعَبْدِ حُرّاً أو للحُرّ عَبْداً فإنّه يجب مع القِصاص التّراجُع، وأمّا حُرٌّ قَتل عبداً فهو قَودُه، فإنْ شَاء مَوالي العَبْد أن يقتُلوا الحُرّ قتَلوه، بشَرطِ أن يُسقِطوا ثمَن العَبدِ من دِيَةِ الحُرّ، ويَردّوا إلى أولياءِ الحُرّ بقيّة دِيَتِه.

وإن قتَل عبدٌ حُرّاً فَهُو به قَود، فإن شَاء أولياءُ الحُرّ قتَلوا العَبْدَ وأسقَطوا قِيمة العَبْدِ من دِيَةِ الحُرّ وأخَذوا الدِية الكامِلة، وإن شاءوا أخَذوا كلّ الدِّيَة وترَكوا قَتْلَ العَبْدِ.

وإن قتَل رجُلٌ امرأةً فهو بها قَود، فإن شاء أولياءُ المَرأةِ قتَلوه وأدّوا نِصفَ الدِّيَة. وإن قتَلَتِ المرأةُ رَجُلاً فهي به قَود، فإن شاءَ أولياءُ الرّجُلِ قتَلوها وأخَذوا نِصفَ الدِّيَةِ، وإن شاءوا أخَذوا كلّ الدِّيَة وترَكوها»[2].

عن الصادق عليه السلام قال: «لا يُقتَلُ حُرٌّ بعَبدٍ، ولكن يُضرَب ضَرْباً شديداً ويُغرَم دِيَة العَبْدِ نِصفُ الدِّية، ولا يُقتَل الرّجُل بالمرأةِ إلّا إذا أدّى [أهلها] إلى أهلِه نِصْفَ الدِّية»[3].

﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ﴾ أي إن حصَل العَفْوُ للقاتِل والجَاني ﴿مِنْ أَخِيهِ﴾ وهو وليّ الدّم ﴿شَيْءٌ﴾ قليلٌ من العَفوِ وبَعضُه بأن يَعفي عن بَعضِ الدّم أو بِعِوَض الدِّيَة، وفي التّعبير عن وليّ الدّم بالأخِ إشعارٌ بحُسنِ تعطّف كلٍّ منهما على الآخَر.

﴿فَاتِّبَاعٌ بِالمَعْرُوفِ﴾ والمُستَحْسَن عند الشّرع والعَقْل بأن يُعامَل العافي مع المَعفوّ عنه مُعاملة حَسَنة ولا يُطالبه بالدّية إلّا مُطالَبة جَميلة من غير تَضْييق وتَشْديد ﴿وَأَدَاءٌ﴾ من الجَاني الدِّيَةَ ﴿إِلَيْهِ﴾ مُلْتَبِساً ﴿بِإحْسَانٍ﴾ في الأداءِ بأن لا يَبْخَسَ منها، ولا يُماطِل فيه.

﴿ذٰلِكَ﴾ الحُكْمُ والتَخْييرُ بين القِصاص والعَفْو بالدِّيَة ﴿تَخْفِيفٌ﴾ وتَوْسِعَةٌ عليكم، كائِنٌ ﴿مِنْ رَبِّكُمْ﴾ حيث إنّ أهلَ التّوراة كان عليهم القِصاصُ أو العَفو، ولم يكُن لَهُم أخذُ الدِّيَةِ، وكان على أهلِ الإنجيلِ العَفْوُ وأخْذُ الدِّيَةِ ولم يَكُن لَهُم القِصاصُ ﴿وَرَحْمَةٌ فَمَنِ ٱعْتَدَى﴾ وتجاوَزَ على الجَاني بأن قتَله ﴿بَعْدَ ذٰلِكَ﴾ العَفْوِ أو الصُّلحِ بالدِّيَة ﴿فَلَهُ﴾ في الآخِرَةِ ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وقيل: في الدنيا أيضاً لقول

---

١. تفسير روح البيان ١: ٢٨٤. ٢. تفسير الرازي ٥: ٤٧. ٣. تفسير الصافي ١: ١٩٧.

النبيّ ﷺ: «لا أُعافي أحَداً قتَل بعد أخذِه الدِّيَة»[1].

ثمّ أشار سبحانه إلى حِكمة حُكم القِصاص وغايتِه، بقوله: ﴿وَلَكُمْ﴾ أيّها النّاس ﴿فِى ٱلْقِصَاصِ﴾ مِنَ الجَاني ﴿حَيَاةٌ﴾ عظيمةٌ. وفي هذا الكلام من كمال الفَصاحةِ ما لا يَخْفى، حيث إنّ حكم القِصاص الذي هو مُوجِبٌ لِتَفْويت الحَياة جُعِل ظَرفاً ومقرّاً لها.

قيل: إنّ العرَب كانوا يَقتُلون بالواحِد جَماعةً، وبالمَقتولِ غيرَ القاتِل، فكانت تقَع الفِتنَةُ وَيكثُر القَتْل، فبهذا الحُكم سَلِمَ النّاسُ من القَتْلِ، وحَصل الارتِداع عنه، فَسَلِم النّفسان لخَوف القَود، بل النّفوس الكثيرة.

وعن (الأمالي): عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «أربَعة قلت فأنزَل الله تَصديقي في كتابه ـ وعدّ منها ـ قلتُ: القَتْلُ يُقِلُّ القتْلَ، فأنزَل الله تَعالى ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾»[2].

﴿يَا أُولِى ٱلْأَلْبَابِ﴾ والعُقول. قيل: في نِدائهِم إشعارٌ بكَمالِ حِكمَة الحُكم من حِفظ النّفوس واستِبقاء الأرواح[3] ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ القَتْلَ، أو المُراد: لكي تعمَلوا عمَل أهلِ التّقوى، فإنّ من أعظَمِ حُقوقِ النّاس الدِّماء. وفي رواية: أنّها أوّل ما يُحاسَب بِه[4].

كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْراً ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقّاً عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ * فَمَن بَدَّلَهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ ٱللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * فَمَنْ خَافَ مِن مُوصٍ جَنَفاً أَوْ إِثْماً فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ ٱللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ[١٨٠ ـ ١٨٢]

ثمّ شرَع في بَيانِ حُكمٍ آخَر منها، بقوله: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ وظهَر لنفسِ أماراتُه ﴿إِن تَرَكَ خَيْراً﴾ أو مالاً قليلاً أو كثيراً ﴿ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾ مِمَّن يَرِثُ ومِمَّن لا يَرِث ﴿بِالمَعْرُوفِ﴾ والمُسْتَحسَن في الشَّرع والعَقْلِ، وذلك يحقّ ﴿حَقّاً﴾ ثابتاً ﴿عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾ وهم الّذينَ اتّخَذوا التّقوى طريقةً ومَذْهَباً لأنفُسِهم فَيَشْمَل عامّة المؤمنين، فدَلّت الآيةُ بظاهِرِها على وجوب الوصيّة للأرحامِ، ويؤيّده ما روي عن الصادق عليه السلام عن أبيه، عن أمير المؤمنين عليهما السلام قال: «مَن

---

١. تفسير الرازي ٥: ٥٥. ٢. أمالي الطوسي: ١٠٨٢/٤٩٤. ٣. كنز العرفان ٢: ٣٥٨.
٤. تفسير روح البيان ١: ٢٨٦.

لم يُوصِ عند مَوتِه [لذوي قرابته] ممَّن لا يَرِث، فقَد ختَم عمَلَه بمعصية»[1].

نعم روى العيّاشي عن أحَدِهما عليهما السلام: «أنّها منسوخَةٌ بآيةِ المَواريث»[2].

وقال بعَضُ الأصحابِ: إنّه لا يُنسَخ القُرآنُ بخَبر الواحِدِ. وفيه: أنّه قد حقّق في الأصول جَوازُ نَسخِه به إذا كان جامعاً لشرائط الحُجّيّة، كما أنّه يجوز تَخصيصُه به حيث إنّ النَّسْخَ نوعٌ من التَّخْصِيص.

في استحباب الوصية وكراهة تركها

ويُمكن حَمْل الخبَر الأوّل على شِدّة الكَراهةِ، والخَبَر الثّاني على نَسْخِ الوُجوب مع بَقاءِ استِحبابه جَمْعاً بين الرّوايات، وقد حمَله الشّيخ على التقيّة.

وعن الصادق عليه السلام: «أنّه شيءٌ جَعله الله لصاحِب هذا الأمر». قيل: هل لذلك حدّ؟ قال: «أدنى ما يكون ثُلُث الثُلُث»[3].

وعن الباقر عليه السلام أنّه سُئل عن الوصيّة للوارِث، قال: «تَجوز» ثمّ تَلا هذه الآية[4].

والحاصل: أنّه لا شُبهة في استِحباب الوصيّة وعدَم وُجوبها، وإنّ ظاهِرَ الآية محمّولٌ على تأكّد الاستِحباب.

﴿فَمَنْ بَدَّلَهُ﴾ مِنَ الوَصيّ والشاهِد وغيرهما من سائر النّاس، وغيّر الإيصاء عن الوَجه الذي أوصىٰ به المُوصي ﴿بَعْدَ مَا سَمِعَهُ﴾ وحَقّقه، وثبَت عنده ﴿فَإِنَّمَا﴾ عِصيانُ التَّبديل و﴿إِثْمُهُ﴾ مَحمولٌ ﴿عَلَىٰ ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ﴾ لا على المُوصي ولَا عَلى المُوصىٰ له.

ثمّ هدّد المُبَدِّلينَ بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لمَقالِهم ﴿عَلِيمٌ﴾ بأفعالِهم، فيُعاقِبهم عليها.

عن (الكافي): عن أحدِهما عليهما السلام و(العيّاشيّ): عن الباقر عليه السلام: في رَجُلٍ أوصىٰ بمالِه في سَبيلِ الله، قال: «أعطه لِمَن أوصى له، وإن كانَ يَهودياً أو نَصْرانياً، إنّ الله تبارك وتعالى يقول» وتَلا هذه الآية[5].

ثمّ لا شُبهَةَ أنّ إطلاقها وإطلاق بعض الروايات مُقيّد بالثُلث فما دُونَه، للرّوايات المُتضافرة، منها: ما عن النبيّ صلّى الله عليه وآله: «أنّ الله تصدّق عليكم بثُلُث أموالِكم في آخر أعمارِكم زيادةً لكم في أعمالِكم»[6].

﴿فَمَنْ خَافَ﴾ وتوَقّع، أو عَلِم ﴿مِن مُّوصٍ﴾ في وصيّته ﴿جَنَفًا﴾ ومَيْلاً عن الحقّ. عن الصادق عليه السلام: «يعني إذا اعتَدى في الوصيّة وزَاد على الثُلُث»[7].

---

١. تفسير العياشي ١: ٢٧٢/١٨٠.
٢. تفسير العيّاشي ١: ٢٧٣/١٨٠.
٣. تفسير العياشي ١: ٢٧٤/١٨٠.
٤. مجمع البيان ١: ٤٨٣.
٥. الكافي ٧: ٢/١٤، تفسير العياشي ١: ٢٧٥/١٨١.
٦. تفسير روح البيان ١: ٢٨٨.
٧. تفسير العياشي ١: ٢٧٩/١٨٢، علل الشرائع: ٥٦٧/٤.

وفي بعض الرّوايات: تفسير الجَنَف بالوَصيّة بغَير ما أمر الله[١]، أو في ما لا يَرضى الله به[٢].

﴿أَوْ﴾ خَافَ ﴿إِثْماً﴾ من المُوصي في وصيّته، كأن أوصىٰ بمَعصِيَته من عِمارة بيُوت النّيران، أو تشييد الكُفر، أو ترويج الباطل.

﴿فَأَصْلَحَ﴾ الوَصيّ ﴿بَيْنَهُم﴾ قيل: يعني بين المُوصىٰ لَهُ ووَرَثَة المُوصي[٣]، بأن يـردّ الوَصـيّة إلى الحقّ والجائز ويبدّلها إلى ما هو الصّواب ﴿فَلَا إِثْمَ﴾ وَلا وِزْرَ ﴿عَلَيْهِ﴾ في هذا التّغيير والتّبديل، لأنّه تبديل الباطِل بالحقّ.

﴿إِنَّ ٱللهَ غَفُورٌ﴾ للعُصاةِ ﴿رَحِيمٌ﴾ بالعِباد. قيل: ذكَر المَغفرةَ لمُطابقَةِ ذكر الإثم وكَون الفِعل من جنس ما يُؤثَم به[٤]. وفي هذا التذييل وَعدٌ للمُصلِح بالثّواب والرّحمة.

يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * أَيَّاماً مَعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنْكُم مَرِيضاً أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْراً فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْآنُ هُدىً لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ ٱلْهُدىٰ وَٱلْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنْكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضاً أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ ٱللهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا ٱللهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ[١٨٣-١٨٥]

ثُمّ عاد سُبحانه إلى بَيانِ الأحكامِ العباديّة، وذكر حكم الصّوم الذي هو من أفاضِل العِبادات بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا﴾ وفي تخصيص الخِطاب بالمؤمنين مع عدَم اختِصاص الحُكم بـهم، تَـهييجُ المُكلّفين على العمِل، لأنّ في ذِكر هذا الوَصْف تَشريفٌ وإكرامٌ وإشعارٌ بأنّ القِيامَ بأداءِ التكاليف من وظائف الايمان ولَوازِمه، وإشارة إلى اختصاص التّكليف بالبالِغين العاقلين دون الصّغار والمَجانين.

ولمّا كان في هذا التّكليف مَشَقّةٌ على النّفوس، وجّه إليهم الخِطاب بكلمة النِداء كي يَهونَ عليهِم

---

١. تفسير القمي ١: ٦٥. ٢. تفسير العياشي ١: ٢٧٨/١٨٢. ٣. تفسير ابن عبّاس: ٢٥.
٤. تفسير أبي السعود ١: ١٩٨.

العَناء، كما روي عن الصادق عليه السلام قال: «لذّة [ما في] النِداء أزالَ تَعَب العِبادَةِ والعَناء»[١].

في وجوب صوم شهر رمضان وجملة من أحكامه

﴿كُتِبَ﴾ وفُرِض ﴿عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ وهو الإمساكُ عن الأشياء المُعينة بنيّة القربة، من طُلوع الفَجر إلى المَغْرِب.

قيل: هذا صومٌ عامّ، وأمّا الصَّوم الخاصّ فالإمساكُ عن المَنهيّات التّحريميّة والتّنزيهيّة، وأمّا الأخصّ فالإمساكُ عمّا سِوى الله[٢].

ثمّ لتسهيل الأمرِ عليهم، قال: ﴿كَمَا كُتِبَ﴾ الصَّومُ ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ من الأنبياءِ وأُمَمِهم من لَدُن آدَم، فلا يختصّ هذا التّكليف وتَحميل هذه المَشَقّة بِكُم، والأمر الشاقّ إذا عَمّ سَهُل.

قيل: إنّ النّصارى كُتِب عليهم صَوم شَهر رمَضان فأصابَهم مَوَتان فَزادُوا عَشراً قَبْلَه وعَشْراً بعده، فصار صَومُهم خَمسين.

وقيل: كان وقوعه في الحَرّ الشَّديد أو البَرد الشّديد، فشَقّ عليهم في أسفارِهم ومَعائشهم فحَوّلوه إلى الرَّبيع، وزادوا فيه عِشْرين يوماً كفّارة للتّحويل.

وأمّا اليَهود ففُرِض عليهم صِيام هذا الشّهر، فتَركوه وصاموا يوماً من السّنةِ زعَموا أنّه يومَ غرَق فِرعَون.

وعن الصادق[٣] عليه السلام: «أن صوم شَهر رمَضان كان واجباً على كلّ نبيّ دون أُمّته، وإنّما وجَب على أُمّة محمّد صلى الله عليه وآله محبّةً لهم»[٤] وعلى هذا يكون المراد من ﴿ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُم﴾ خُصوص الأنبياء.

ثمّ أشار إلى فائِدَة الصَّوم بقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ بالمُحافظة عليه وتعظيمه ﴿تَتَّقُونَ﴾ العَذابَ أو المَعاصي، فإنّ الصّائِم أردَع لنَفسِه من مُواقعة السّوء، ولوضوح أنّ الصَّومَ كاسِر الشّهوة، روي: أنّ مَن لم يستَطِع الباه فَلْيَصُم، فإنّ الصَّومَ له وِجاء[٥].

في حكمة إيجاب الصوم وكون الواجبات الشرعية ألطافاً

وفي الآيَة إشارة إلى أنّ الواجبات السّمعيّة ألطافٌ ومقرّبات إلى الطّاعة واجتِناب كثير من المَعاصي، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَاءِ وَٱلْمُنْكَرِ﴾[٦].

عن ابن عبّاس رضي الله عنه: بعَث الله نبيّه صلى الله عليه وآله بشَهادةِ أن لا إله إلّا الله، فلمّا صُدّق زادَ الصَّلاة، فلمّا صُدّق زادَ الزّكاة، فلمّا صُدّق زاد الصيام[٧].

---

١. مجمع البيان ٢: ٤٩٠.
٢. تفسير روح البيان ١: ٢٨٩.
٣. في كنز العرفان: الباقر.
٤. كنز العرفان ١: ٣/٢٠٠.
٥. تفسير الصافي ١: ٢٠٠.
٦. العنكبوت: ٤٥/٢٩.
٧. تفسير روح البيان ١: ٢٩١.

قيل: كان وجُوبه بعد الهِجْرَةِ بثَلاث سِنين.

ثمّ بيّن الله تَعالى زَمان الصّيام ووَقْتِه، بقوله: ﴿أَيَّاماً مَعْدُودَاتٍ﴾ قيل: يعني مقدّرات بعدَد معيّن[١].

وقيل: إنّ المُراد صوموا أيّاماً قَلائل، فإنّ الشيء القليل يعدّ عَدّاً، والكثير يُهال هَيلاً[٢].

ثمّ بيّن حكم ذَوى الأعذارِ بقوله: ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً﴾ يضُرّه الصّوم بتَشْدِيد مَرَضهِ أو إطالَتِه أو عُسر عِلاجه ﴿أَوْ﴾ كانَ راكِباً ﴿عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ إذا تلبّس به قبل الزّوال ﴿فَعِدَّةٌ﴾ مُوافِقة لأيّام مَرَضِه أو سَفَره ﴿مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ واجِبة عليه قَضاءً، ولا يجوز له الصّوم في الحالَين.

عن الباقر عليه السلام قال: «سمّى رسولُ الله صلى الله عليه وآله قوماً صاموا حين أفطَر وقَصرَ عصياناً»[٣].

وعن الصادق عليه السلام أنّه سُئل عمّن صامَ في السّفر؟ فقال: «إن كان بلَغه أنّ رسولَ الله صلى الله عليه وآله نَهى عن ذلِك فعَليه القَضاء، وإنْ لم يَبْلُغه فلا شيءَ عليه»[٤].

وفي رواية اُخرى: «وإن صامَ بجَهالة، لم يَقْضِ»[٥]. والمشهور نَصّاً وفَتوىً أنّ السّفَر ثمانية فَراسِخ، امتِداديّة، أو تَلْفيقيّة.

﴿وعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ﴾ ويَقْدِرون عليه مع المشقّة والعُسْرَةِ، كالشَّيخ والشَّيْخَة وذي العِطاش والحامِل المُقرِب ﴿فِدْيَةٌ﴾ مُقَدَّرةٌ واجبةٌ عليهم إن أفطَروا، وهي ﴿طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ واحِدٍ وإشباعه عِوَضاً عن الصّوم الذي فات منه.

روي عن الصادق عليه السلام أنّ مَعناه: «وعَلى الذّين كانُوا يُطِيقون الصّومَ ثُمّ أصابهَم الكِبَر أو العُطاش أو شِبه ذلك، فِدْيَةٌ لِكُلِّ يوم مُدّ من الطّعام»[٦].

﴿فَمَنْ تَطَوَّعَ﴾ وتبرّع ﴿خَيْراً﴾ وزادَ في الفِدْيَةِ المقرّرة ﴿فَهُوَ﴾ عند ربّه ﴿خَيْرٌ﴾ وأنفَع ﴿لَهُ﴾ وأكثَر مَثوبة في الآخرة.

﴿وَأَنْ تَصُومُوا﴾ أيّها المُطِيقونَ ﴿خَيْرٌ لَكُمْ﴾ وأفضَل من الفِدْيَةِ والتطوّع بالزيادة، وأنتُم أيّها المؤمنون ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ما في الصّوم من الفَضيلةِ اختَرْتُموه لا محالةَ. في الحديث القُدسيّ: «الصّومُ لي، وأنا أجزي به»[٧].

---

١. تفسير الرازي ٥: ٧٣، وفيه: بعدد معلوم.   ٢. تفسير روح البيان ١: ٢٩٠.
٣. الكافي ٤: ٦/١٢٧، تفسير الصافي ١: ٢٠٠، وفيهما: وقصر عصاة.
٤. الكافي ٤: ١/١٢٨، تفسير الصافي ١: ٢٠٠.   ٥. الكافي ٤: ٣/١٢٨، تفسير الصافي ١: ٢٠٠.
٦. جوامع الجامع: ٣٤.   ٧. تفسير روح البيان ١: ٢٩١.

والأيّامُ المَعدودات هي ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ﴾ قيل: سُمّي هذا الشَهر برَمَضان لارتِماض الأكباد واحترِاقها من الجُوع والعَطَش، وأمّا لارتِماض الذّنوب بالصِّيام فيه[1] وما لغير ذلك من الوُجوه الّتي ذكرت في محلّها.

وروي أنّ رمَضان اسمٌ من اسماءِ الله تَعالى، والشَّهر مُضاف إليه. وروي: لا تقولوا: جاء رمَضان، وذَهَب رَمَضان، ولكن قولوا: جاءَ شَهْرُ رَمَضان، فان رمضان اسمٌ مِن أسماءِ الله تَعالى[2].

ثمّ أشار سُبحانَه إلى حِكمةِ تَخصيصِ هذه العِبادة العَظيمة بهذا الشَّهرِ العَظيم، بقوله: ﴿ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ﴾ ابتِداؤه أو بيانُه أو تأويله أو جميعهُ دُفعةً إلى البَيت المَعْمور في ليلةِ القَدْر مِنه.

روي عن (الكافي): عن أبي عبدالله عليه السلام قال: سألتُه عن قول الله تعالى: ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ﴾ وَإنّما اُنزل القرآنُ في عشرين سَنَةً بين أوّله وآخِره؟

فقال أبو عبدالله عليه السلام: «نزَل [القرآن] جملةً واحدةً في شَهرِ رَمَضانَ إلى البَيت المَعمور، ثمّ نَزَل في طولِ عِشْرينَ سَنَةً»

ثمّ قال: «قال النبيّ صلى الله عليه وآله: نزَلت صُحُف إبراهيم في أوّل ليلة من شَهرِ رَمَضان، واُنزلت التَّوراةُ لِستّ مَضَيْنَ من شَهرِ رَمَضان، واُنزِل الإنجيلُ لثلاث عشرة [ليلة] خَلَت مِن شَهر رَمضان، واُنزل الزَّبور لِثَمانِ عَشرة خلَون من شَهرِ رَمَضان، واُنزِلَ القُرآن في ليلة ثلاث وعِشرين من شَهرِ رَمَضان»[3].

وقد تضافرت الرّوايات بأنّها ليلة القَدْر، فتَوصيف هذا الشّهر بذلِك الوَصْف لِبيَان أنّ هذا الشّهر لِفَضيلَتِه وشَرَافتِه الذاتيّة خُصّ بنُزولِ الرَّحْمَةِ ووُفور البَرَكات التي أتمّها نُزول القرآن الذي وصَفه بكَونِه ﴿هُدٗى﴾ ودَليلاً ﴿لِّلنَّاسِ﴾ إلى الحقّ القويم والصّراط المُستَقيم بما فيه من الإعجاز.

﴿وَبَيِّنَٰتٖ﴾ قيل: يعني آياته موضحات[4] ﴿مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ﴾ الذي يكونُ في سائر الكتُب السّماويّة، وكاشِفات عن مُبْهَمات سائر الصُّحُف التي نَزلت لهِدايَةِ النّاس ﴿وَٱلۡفُرۡقَانِ﴾ الذي يكونُ فيها.

والحاصل: أنّ جَميع الكتُب السّماويّة، وإن كان هادِياً إلى الخَير ومفرّقاً بين الحقّ والبَاطِل، إلّا أنّه لا تتمّ هِدايتها وتَفريقها إلّا بتَوضيحات من القرآنِ، فالقُرآنُ بيِّنٌ بنَفسِه ومُبيِّنٌ لغيره من الكتُب. فلذا كان أهدى وأفضَل وأشرَف من سائر الكتُب. وهذا الشَّهر أفضَل وأشرَف بسبَب نُزول القرآنِ فيه. فَحقٌّ

---

١. تفسير روح البيان ١: ٢٩٢.
٢. تفسير روح البيان ١: ٢٩٢.
٣. الكافي ٢: ٦/٤٦٠.
٤. تفسير روح البيان ١: ٢٩٢.

على العِباد أن يشكُروا لله فيه ويَعبُدوه.

﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ﴾ وحضَر في وَطَنِه أو أقامَ في مَكانٍ ولم يَكُن مَريضاً ﴿فَلْيَصُمْهُ﴾ وليَخُصَّه بهذه العبادة الفاضِلة.

﴿وَمَن كَانَ﴾ في هذا الشَّهر ﴿مَرِيضاً﴾ وإن كان مقيماً أو حاضراً ﴿أَوْ﴾ كان ﴿عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ وإن كان صحيحاً سليماً فليُفطِره في الحالَين، فإذا أفطَر ﴿فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ غير شَهْر رَمَضان، يصوم قَضاءً لِما أفطَر.

قيل: في تكرير هذا الحكم تأكيدُ الأمر بالإفطارِ، وإشعارٌ بكَونِه عزَيمَة لا يجوزُ تَركه[١].

ثمَ أشارَ إلى حِكمَةِ الحُكم بقوله: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ﴾ بإباحة الإفطارِ ﴿بِكُمُ ٱلْيُسْرَ﴾ والتَّسهيلَ ﴿وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ والمَشقَّة بالصَّومِ في الحالَين لغايةِ رأفَتِه، وسَعَة رَحْمَتِه.

عن (الكافي): عن الصادق عليه السلام قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: إنّ الله عزّ وجلّ تصدّق على مَرضى اُمّتي ومُسافِريها بالتّقصير والإفطار، أيَسُرُّ أحدَكم إذا تصدّق بصدَقةٍ أن تُرَدّ عليه؟»[٢].

وعن (الخصال): عن النبيّ صلى الله عليه وآله: «إنّ الله تَبارك وتعالى أهدىٰ إليَّ [وإلى] اُمّتي هديّةً لم يَهْدِها إلىٰ أحَدٍ من الأُمَمِ كرامةً مِن اللهِ لَنا». قالوا: وما ذلك يا رسول الله؟ قال: «الافطار في السَّفَر، والتَّقصير في الصَّلاة، فمَن لم يفعَل ذلك فقد ردّ على الله عزّ وجلّ هديّته»[٣].

ثمّ أشار إلى حكمة الأمرِ بالقَضاء بقوله: ﴿وَلِتُكْمِلُوا ٱلْعِدَّةَ﴾ المُعيَنة مِن أيّام الصِّيام بقَضاء الصَّومِ في غَيرِها.

ثُمّ أشارَ إلى حكمةِ الحُكمينَ بقوله: ﴿وَلِتُكَبِّرُوا ٱللَّهَ﴾ وتُعَظِّموهُ وتُمَجِّدوهُ ﴿عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ﴾ وأرشَدَكم إليه من أحكامِه وطريق امتِثالها.

عن (الكافي): عن الصادق عليه السلام: «أما إنّ في الفِطْرِ تَكبيراً، ولكنّه مسنون»[٤].

قال: قلت: وأين هو؟ قال: «في ليلة الفِطرِ في المَغرِب، والعِشاء الآخِرة، وفي صلاةِ الفَجْر، وفي صَلاة العِيد، ثمّ يقطع».

قال: قلت: كيف أقولُ؟ قال: «تقول: اللهُ أكبَر، اللهُ أكبَر، لا إلٰه إلّا الله، والله أكبَر [والله أكبر] ولله الحَمْد، اللهُ أكبَر على ما هَدانا. وهو قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَلِتُكْمِلُوا ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ﴾»[٥].

---

١. تفسير الصافي ١: ٢٠٣. ٢. الكافي ٤: ٢/١٢٧. ٣. الخصال: ٤٣/١٢.
٤. في المصدر: مستور. ٥. الكافي ٤: ١/١٦٦.

عن (الفقيه): عن الرِّضا عليه السلام: «وإنّما جعَل التكبير في صَلاةِ العيد أكثَر منه في غَيرِها من الصَّلَوات؛ لأنّ التكبير إنّما هو تَعظيم الله وتَمجيدهُ على ماهَدى وعافى، كما قال عزّ وعلا: ﴿وَلِتُكَبِّرُوا اللهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ﴾»[١] الخبر.

﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ لله على أفضالِه وألطافِه من إيجابِ الصَّومِ الذي هو موجبٌ لتهذيبِ النُفوس في الشَّهر الذي هو أفضَل الشُّهور وتَسهيلُ الأمرِ فيه، فإنّ من تفكَّر في أنّ الله تَعالى مع كَمالِ جَلالِه واستِغنائِه راعىٰ صَلاحَ عَبيدِه ومَنّ عليهم بالألطافِ العظيمة، عَلِم أنّه مستَحِقّ لغاية الشُّكرِ والثَّناءِ، فيَجِب عليه المُواظَبَة والاهتِمام به بمِقدار قُدرَتِه وطاقَتِه.

وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ[١٨٦]

ثُمّ أنّه تعالى بعد ما أمر بالتَّكبير والشُّكر، رغَّب عَبيدَه في الدُّعاء وطَلَب الحَوائج لتَنْبِيههم بأنّه تَعالى كما يطلُب منكُم الطَّاعة والتكَبير والشُّكر، كذلك هو مع كونه مُنعِماً عليكم بنِعَم لا تُحصىٰ مُجيبٌ لطَلَباتِكم ومُستَجِيبٌ لدُعائكِم.

قيل: إنّه تَعالى لمَا فرَض الصَّوم وكانَ من أحكامِه أنّ الصّائمَ إذا نامَ حرّم عليه الإفطار؛ شَقّ ذلك على بَعضِهم حتّى عَصَوا. ثُمّ نَدِموا وسألوا النَّبيّ صلى الله عليه وآله عن تَوبتهم[٢]، فنزَل: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي﴾ وروي أنّ أعرابيّاً قال لرسولِ الله صلى الله عليه وآله: أقريبٌ ربّنا فنُناجيه، أم بَعيدٌ فنُنادِيه[٣].

﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ منهم لا بالمَكان، بل بالقَيْمُومِيّة والإحاطةِ العلميّة وسَعَةِ الرَّحمَة، حيث إنّه إذا كانَ القُرْبُ بالمَكانِ مُراداً لامتَنع أن تتَساوى نِسبتُه إلى جميع خَلْقِه.

نقل كلام الفخر الرازي في تنزيهه تعالى عن المكان

نقل الفخر الرازي[٤] [يروى أنّ إمام الحرمين] نزَل ببَعضِ الأكابر ضيفاً، فاجتمَع عنده العُلماء وسائر الأكابر، فقال بعض أهلِ المَجلس: ما الدَّليل على تَنزيهِه تَعالى عن المَكان وهو قال: ﴿الرَّحمٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾[٥]؟

---

١. من لايحضره الفقيه ١: ١٤٨٨/٣٣١.
٢. تفسير الرازي ٥: ٩٤.
٣. مجمع البيان ٢: ٥٠٠، تفسير الرازي ٥: ٩٤، لباب النقول: ٣٣.
٤. وجدناه في روح البيان، ولم نجده عن الفخر الرازي.
٥. طه: ٥/٢٠.

فقال: الدَّليلُ عليه قَول يونُس في بَطْنِ الحُوت: ﴿لَا إِلَـٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّالِمِينَ﴾[١]. فتعجَّب مِنه النّاظِرون، فالتَمس صاحِب الضِّيافةِ بَيانه.

فقال الإمام[٢]: ها هُنا فَقيرٌ مديون بألفِ دِرْهَم، أدِّ عنه دَيْنَه حتّى أُبَيِّنَه. فقَبِل صاحِبُ الضِّيافةِ دَيْـنَه، فقال: إنّ رسولَ الله ﷺ لمّا ذهَب في المِعْراجِ إلى ما شاء الله من العُلى، قال: «ربّ لا أُحصي ثَـناءً عليك، أنتَ كما أثْنَيْتَ على نَفْسِك» ولمّا ابتُلي يونُس عليه السلام بالظُّلُماتِ في قَعْرِ البَحْر ببَطْنِ الحُوت، قال: ﴿لَا إِلَـٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّالِمِينَ﴾ فَكُلٌّ مِنهما خاطبه بقوله: (أنتَ) وهو خِطابُ الحُضور، فلو كان الله في مكانٍ لَما صَحَّ ذلك[٣].

ثُمّ قال الله تعالى تَقريراً للقُربَةِ وتَرغيباً للعِباد في دُعائه: ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ﴾ وأُعطي ما سأله السائل ﴿إِذَا دَعَانِ﴾ وسألني حاجَته باللّسان والقَلب في السِّرّ والجَهْر. ومن الواضِح أنّه إذا لم يُخالِف إجابَتَه القَضاءَ المُبْرَم ولم يَكُن في إسعافِ حَوائجِهم مَفْسَدةٌ في دينِهم ودُنياهم.

فإذا كنتُ مُجيباً لدُعائهم ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لِى﴾ وَلْيُبادِروا إلى إجابَةِ دُعائي إلى الإيمان والأعمال الصّالحة، فكأنّه تَعالى قال: أنا مَع غِنائي عنكم أُجيبُ دُعاءَكم، فأنتُم مع نِهايَةِ حاجَتِكم إليَّ في جميع أُموركم أحَقّ وأولى بإجابَةِ دُعائي.

ثُمّ بيّن استِجابَتَهم الواجبة[٤] بقوله: ﴿وَلْيُؤْمِنُوا بِى﴾ فكأنّه قال: إجابَةُ دعائي الإيمانُ بوَحدانيَّتِي وبِرَسولي بجَميع ما جاء به.

عن الصادق عليه السلام: «أنّ مَعناه ليتَحَقّقوا أنّي قادِرٌ على إعطائِهم ما سألوه»[٥].

﴿لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ ويُصيبون الحَقّ ويهتدون إليه، ويُمكِن أن يَكونَ مِن وجُوهِ نَظْم الآيَةِ أنّ من وَظائِف الصّائم الدُّعاء، كما روي أنّ دعوةَ الصّائم لا تُرَدّ[٦].

في بيان بعض موجبات عدم استجابة الدعاء

روي أنّ الصادق عليه السلام قرأ: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾[٧] فسُئل: ما لَنا نَدعو فلا يُستَجاب لنا؟ فقال: «لأنّكم تَدعون مَن لا تَعرِفون، وتَسألون ما لا تَفْهَمون فالاضطِرارُ

---

١. الأنبياء: ٨٧/٢١.

٢. في النسخة: فقال فخر، وما أثبتناه من روح البيان، إذ المراد إمام الحرمين لا الفخر الرازي.

٣. تفسير روح البيان ٥: ٣٦٥.

٤. في النسخة: الواجب.

٥. مجمع البيان ٢: ٥٠٠، تفسير الصافي ١: ٢٠٤.

٦. عدة الداعي: ١٢٨، بحار الأنوار ٩٦: ٣٦/٢٥٦.

٧. النمل: ٦٢/٢٧.

عيْنُ الدِّين، وكَثْرَةَ الدُّعاءِ مع العمى عن الله مِن عَلامةِ الخِذْلان، مَن لم يَشهد ذِلَّة نَفسِه وقَلبِهِ وسِرِّه تحتَ قُدرَةِ الله حكَم على الله بالسّؤال، وظَنّ أنّ سؤاله دُعاء، والحُكم على الله من الجُرْأةِ على الله»[١].

وفي رواية: قيل له عليه السلام: إنّ الله يقول: ﴿أُدْعُونِى أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ وإنّا نَدعو فَلا يُستَجاب لنا؟ فقال: «لأنّكم لا تُوفون بعهده، وإنّ الله يقول: ﴿أَوْفُوا بِعَهْدِى أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾[٢] والله لو وَفَيتُم [لله] لوفى الله لكم»[٣].

في دفع توهّم عدم الفائدة للدعاء

ثمّ اعلَم أنّ بعضَ الجُهّال قالوا: إنّ الدّعاء عديم الفائدة؛ لأنّ المَطلوب بالدُّعاء إن كان مَعلومَ الوقوعِ عند الله تعالى كانَ واجِبَ الوقُوع، وإنْ كان غيرَ مَعلوم الوُقوعِ كان ممتَنع الوقُوع، فَلا فائدةَ في الدُّعاء على التَّقديرَين.

وهو واضِح الفَساد، إذ قد يكونُ أمرٌ مَعلومُ الوقوع على تَقدير الدّعاء حيث إنّ للدّعاء دخالة تامّة في مَصلحة ذلك الأمر، فقد لا تكونُ المَصلحة في إيجاد المَطلوب، وبالدّعاء يوجَد فيه الصَّلاح، والآيات والأخبار المُتَواتِرَة ناصّة على فائدته، بل هي من ضَروريّات الدِّين فَمُنْكِرِهَا كافِر.

في دفع المنافاة بين الدعاء والرضا بقضاء الله

وأمّا ما قيل من أنّه: ثبَت بشَواهد العَقل والأخبار الصّحيحة أنّ الرّضا بقَضاء الله من أجَلّ مَقامات الصّدِّيقِين وأعلاها، والدّعاءُ منافٍ للرِّضا، حيث إنّ فيه تَرجيح مُراد النَّفس على مُراد الله، وطلَب حُظوظ البشريّة.

ففيه: أنّ الدُّعاءَ إظهارٌ لجِهَةِ العُبوديّة من الحاجَةِ والذِّلّة والمَسْكَنَةِ مع الرّضا بقَضاءِ الله وقَدَرِه لعدَم المُنافاة بينَهُما، وذلك من أعظَم مَقاماتِ الأولياء، بل الآيات والأخبار المُتَواتِرة ناصّة على كَونِه من أفضَل العِبادات، بل في تَرْكِه مَظَنّةُ الاستِكبار، ولذا قال سُبْحانَه: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِى أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾[٤].

﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَٱلْـَٔانَ بَـٰشِرُوهُنَّ

١. تفسير الصافي ١: ٢٠٤.
٢. البقرة: ٢/٤٠.
٣. تفسير القمي ١: ٤٦، تفسير الصافي ١: ٢٠٥.
٤. غافر: ٤٠/٦٠.

وَٱبْتَغُوا مَا كَتَبَ ٱللهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَٱشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِى ٱلْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ ٱللهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ[١٨٧]

ثمّ أنه روي أنّ الأكلَ كانَ مُحرماً في شَهْرِ رَمضان باللّيل بعدَ النَّوم، وكان النِّكاحُ حَراماً باللّيلِ والنَّهارِ، وكان رجلٌ مِن أصحابِ رَسولِ الله ﷺ يُقال له مُطْعِم بن جُبَير، نامَ قبل أن يُفطِر وحضَر حَفْرَ الخَنْدَق فأغمي عليه، وكان قومٌ من الشُّبّان يَنكِحون باللّيل سِرّاً في شَهْرِ رَمَضان، فنزَلت[١]: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ﴾ وَأُبيحَ لكُم فيها ﴿ٱلرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ﴾ قالوا: الرَّفَثُ: كنايةٌ عن المُبَاشَرة والجِماع.

ثُمّ أشارَ سُبْحانَه إلى عِلّة التَّرخِيص والإباحة بِقَولِه: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ﴾ وَمُتَّصِلاتٌ بكم إتِّصالَ الثِّياب بالأبدان ﴿وَأَنْتُمْ﴾ أيضاً ﴿لِبَاسٌ لَهُنَّ﴾ ومُخالِطون بهنّ.

قيل: وجَه شَباهة المُخالَطة والمَحْرَميّة باللّباس أنّ الإنسانَ كما لا يُفارِق لِباسَه، ولا يَستُر عنه عَوْرَتَه، بل يستُر عَورتَه به عن غيره، كذلك الزَّوج والزَّوجَة، والصَّديق الحافِظ لأسرارِ صَدِيقه المُؤانِس له، فصارَت شِدّة مُخالَطَة الزَوج والزَّوجَةِ سبباً لِكَمالِ المَشقّة في كَفّ النَّفس عن المُقارَبة والاستِمتاع.

ثُمّ أخبَر الله بعِصيان كثيرٍ من المُسلِمين فيه بقوله: ﴿عَلِمَ ٱللهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ﴾ وتَظْلِمون ﴿أَنْفُسَكُمْ﴾ بتَعريضها للعِقاب بسبَب غَلَبَةِ الشَّهْوَةِ وارتِكاب المَعْصِية ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ لمَا تُبتُم ﴿وَعَفَا﴾ وَمَحا أثَر الخِيانَةِ ﴿عَنْكُمْ﴾ بقَبولِ التَّوبَة.

وروى البيضاوي: أنّ عمر باشَر بعدَ العِشاء مَع عِلمه بحُرمَتِه[٢]، فنَدِم وأتىٰ النبيّ ﷺ وأعتذَر إليه. وقال النبيّ ﷺ: «ماكنتَ جديراً به»[٣] فقام رِجالٌ واعترَفوا بما صنَعوا بعد العِشاء[٤].

وفي روايةٍ: أنّه أرادَ الجِماع، فقالت امرأتُه: إنّي نِمْتُ. فَلَمْ يَقبَل مِنها، ثمّ أخبَر رسولَ الله ﷺ فنزَلت[٥].

﴿فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ﴾ وجامِعوا معَهُنّ في أيّ وقتٍ أرَدتُم من اللّيلِ ﴿وَٱبْتَغُوا﴾ بالمُباشَرَةِ وآطلُبوا بها

---

١. جوامع الجامع: ٣٤. ٢. (مع علمه بحرمته) ليس في تفسير البيضاوي.
٣. (وقال النبيّ ﷺ: ماكنت جديراً به) ليس في تفسير البيضاوي. ٤. تفسير البيضاوي ١: ١٠٦.
٥. الدر المنثور ١: ٤٧٥.

﴿مَا كَتَبَ ٱللَّهُ﴾ في اللَّوحِ المَحفوظِ، وما قدّره ﴿لَكُمْ﴾ من الولدِ، ولا يَكُن غَرَضُكُم منها صِرْفَ قَضاءِ الشَّهوَةِ.

في نقل بعض العامة اعتذار عمر عن عصيانه

ولعلَّ فيه التَّعريض على عُمَر، حيث نقل صاحب (روح البَيان) أنّ عمر اعتَذَر عند النبيّ ﷺ وقال: إنّي رجعتُ إلى أهلي بعد العِشاء، فَشَممْتُ رائِحةً طيّبةً، فسَوّلتْ لي نَفسي. ثمّ قال بعد نَقْلِه: وصارَت زَلّتُه سبباً للرَّحمةِ على جَميع الأُمّة[1]. وذلك من عجائب الكلام، وليتَ شِعري كيف يكونُ لِمَن لم يَقْدِر على كَفِّ نفسِه بسَببِ استِشمام رائحةٍ من زَوجَتِه عن المَعْصِيَة الكبيرةِ، كرامة عند الله! ولعلّ هذه الرّحمة كانت بسبَب رجالٍ شُبّانٍ اعتَرَفوا بالخَطيئةِ وكانوا معذورين فيها.

﴿وَكُلُوا وَٱشْرَبُوا﴾ من أوّل لَيالي الصِّيام ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ﴾ ويتَّضِحَ ﴿لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ﴾ وهو كِناية عن البَياض المُعترِض في الأُفق ﴿مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ﴾ وهو كِناية عن ظُلْمَة غَسَق اللَّيلِ المُمتدّة فوق البَياض، حال كون ذلك البَياض ﴿مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾ وانشِقاق الصُّبحِ الصّادِق.

روي عن سَهْل السّاعِدي: أنّها نزَلت ولم يَكُن قولِه: ﴿مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾ وكان رِجالٌ [إذا صاموا] يشُدُّون في أرجُلِهم خُيوطاً بَيْضاء وسَوداء، فلم يَزالوا يأكُلون ويَشْرَبون حتّى يتبيّنا لهم، ثمّ نزَل البَيان في قوله: ﴿مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾[2].

وعن عَدِيّ بن حاتِم أنّه قال: أخَذتُ عِقالَين أبيض وأسود فجعَلتُهما تحتَ وِسادَتي، وكنتُ أقومُ من اللّيل فأنظر إلَيهما فلم يتبيّن ليَ الأبيض من الأسودَ، فلَمّا أصبَحتُ غَدَوتُ إلى رَسولِ الله ﷺ فأخبرتُه، فضَحِك وقال: إنّك لعَريضُ القَفا[3]، إنّما ذلك بَياضُ النَّهارِ وسَوادُ اللّيل[4].

في ردّ قول بعض العامة بحصر مفطرات الصوم في ثلاثة

ثمّ اعلم أنّ وَجه الاقتِصار في الآية على حُرْمَةِ الجماع والأكلِ والشُّرب، هو كَثْرَةُ الابتِلاء بها، وكَونُها مَرغوباً إليها لنَوع المكلّفين دونَ سائر المُفطِّرات كالحُقْنَة والقَيء والارتِماس في الماء ـ على القول بِمُفطِّريّتِه ـ وأنكر بعضُ العامّة مُفَطِّرِيّةَ غير الثلاثة المَذكورة في الآية، وهو في غاية الفَساد لثُبوت مُفَطِّرية غيرها بالرّوايات المُعتبَرة.

---

١. تفسير روح البيان ١: ٢٩٩.
٢. كنز العرفان ١: ٢١٥/٧.
٣. قيل: هو كناية عن طول النوم وكثرته، وقيل: كناية عن السِّمَن. راجع: النهاية ٣: ٢١٠.
٤. تفسر الرازي ٥: ١٠٩.

في منع الملازمة بين إباحة الجماع في الليل وإباحة الاصباح جنباً

وعن بعض العامّة: أنّ الآية دَالّةٌ على صِحَة صَوم من أصبَح جُنُباً، حيث إنّ (حتى) غايَةٌ لجَوازِالمباشَرَةِ والأكل والشّرب إلى طُلوع الفجر، وجَواز تأخير الغُسل إلى الصُّبحِ لازِم إباحة المُبَاشَرَة في الزّمان المتَّصِل بالصّبح[1].

وفيه مَنْع المُلازَمة، فإنّ حُرمَة الإصباح جُنُباً لا يُنافي جَوازَ المُباشَرَةِ قبل الفَجْرِ، لأنّه إذا باشرَ قبل الصُّبحِ لَم يرتَكِب حَراماً من حيث تِلك المُباشرة، بل بالإصباح جُنُباً.

والحاصل: أنّه لو دلّ الدّليل على مُفطِّرِيّة الإصباح جُنُباً، لا يُعارِضُه ظُهور الآية، بل الآية ساكِتة عن مُفطريّة البَقاء على الجَنابة نَفياً وإثباتاً.

﴿ثُمَّ أَتِمُّوا﴾ وأدِيمُوا **﴿الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾** فإنّ أوّله آخر وقته، ويُعلَم بزَوال الحُمْرَة المشْرِقيّة عن قمّة الرأس.

ثمّ بعدَ بيان حُرْمَة مُباشَرَة النِّساء في زَمان الصِّيام، بيّن حُرمتَها في حال الاعتِكاف بقوله: **﴿وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ﴾** ليلاً ونَهاراً بالجِماع ومقدّماته **﴿وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ﴾** ومُقِيمونَ بقَصْدِ العِبادَةِ المَعهودةِ **﴿فِي الْمَسَاجِدِ﴾** عموماً على قول، وفي كلّ مَسجِدٍ جامعٍ على قولٍ آخَر، أو خُصوص مَسجدٍ جمع فيه النبيّ ﷺ أو الوَصيّ جُمعةً أو جماعةً على قولٍ ثالثٍ، فإن باشَر أحدٌ في حالِ الاعتِكاف ليلاً أو نهاراً يبطل على ما ذَهب إليه بعض الأصحاب.

ثمّ بالَغ في الرَّدْعِ عن مُخالفَةِ أحكامِه بقوله: **﴿تِلْكَ﴾** الأحكامُ **﴿حُدُودُ اللهِ﴾** وحُرُماتُه **﴿فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾** فإنّ النَّهيَ عن القُرْبِ أبلَغ في التَّحريمِ من النَّهي عن المُخالَفَة.

عن النبيّ ﷺ أنّه قال: «ألا وإنّ لكلّ ملكٍ حِمىً، وإنّ حِمىٰ اللهَ محارِمُه، فمَن رتَع حولَ الحِمَى يوشِك أن يقَعَ فيه»[2].

﴿كَذٰلِكَ﴾ التّبيينُ والتَّوضيحُ الذي لا يَبقىٰ الشّكُّ معَه **﴿يُبَيِّنُ اللهُ﴾** ويوضّح **﴿آيَاتِهِ﴾** وحُجَجهِ على تَوحِيده ونبوّة نبيّه وسائر أحكامِه **﴿لِلنَّاسِ﴾** كافّة **﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾** عقابَهُ ويحترِزون عن مُخالَفته.

وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقاً مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ[١٨٨]

---

١. تفسير الرازي ٥: ١١٠، تفسير روح البيان ١: ٣٠٠ ٢. تفسير الرازي ٥: ١١٥.

ثمَ أنّه تعالى بعد نَهْيِ النّاس عن أكلِ أموالِ أنفُسِهم في أيام شَهْرِ رَمَضان، نَهى عن أكلِ أموالِ الغَير على خِلاف حُكمهِ وبِغَير الوَجْه الذي شرَعه في جَميع الأوقاتِ، بقوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ﴾ أي لا يتصرَف بعضُكم في أملاكِ بعضٍ آخَر، ولا تَتَعامَلوا ﴿بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾ وبالوَجْهِ الذي يكونُ مَنْهِيّاً ومحرّماً، كأكلِها بشَهادةِ الزُّور، أو اليَمين الكاذِبة، أو بالصُّلح، مع العلم بعَدَم الحقّ أو غير ذلك من الوجوه غير الجائزة.

قيل: نزَلت في رَجُلَين تَخاصَما في أرضٍ بينَهُما، فأراد أحدُهما أن يَحلِف على أرضِ أخيهِ بالكَذِب، فقال النبيّ ﷺ: «إنّما أنا بَشَرٌ يوحىٰ إليّ وأنتم تَخْتَصِمون إليّ، ولعلّ بعضَكم ألحَن بحُجّته من بعضٍ فأقضي له على نحوِ ما أسمَع منه، فمَن قَضَيتُ له شيئاً من حقِّ أخيه، فإنّما أقضي له قِطعةً من نارٍ» فبَكَيا، وقالَ كلّ واحدٍ منهما: أنا أحِلّ لصاحِبي. فقال: «اذهَبا فتَوخّيا ثمّ استَهِما، ثمّ ليُحلّل كلُّ واحدٍ منكُما صاحِبَه»[1].

عن الصادق عليه السلام: «كانت قريش تقامِرُ الرَجُلَ في أهلِه ومالِه، فنَهاهُم الله»[2].

وعن (المجمع) عن الباقر عليه السلام: «يعني بالباطِل اليَمين الكاذِبة، يُقتَطَع بها الأموال»[3].

وعن (الفقيه) و(العياشي): عن الصادق عليه السلام أنّه سُئل: الرَّجُلُ منّا يكون عنده الشيء يتبلّغ به، وعليه الدين، أيطعِمه عيالَه حتّى يأتيه الله بمَيْسَرَة فيَقضي دَيْنَه، أو يستَقرِض على ظَهرِه في خُبْثِ الزَّمان وشِدّة المكاسب، أو يقبَل الصَّدَقة؟

فقال: «يَقضي بما عِندَه دَيْنَه، ولا يأكُل أموالَ النّاسِ إلّا وعنده ما يؤدّي إلَيهم[4]، إنّ الله عزّ وجلّ يقول: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾[5] -إلى أن قال-: ولا يستَقرِضْ علىٰ ظهره [إلّا وعنده] وَفاء»[6] الخبَر.

في جواز الاستقراض مع عدم القدرة على الوفاء

ولعلّه لهذه الرواية ذهَب أبو الصَّلاح إلى حُرمَةِ الاقتِراض على مَن لا يكون عِندَه ما يَقْتَضِيه ولا يَقدِر لو طُولِبَ على القَضاء[7].

---

١. تفسير أبي السعود ١: ٢٠٢، تفسير روح البيان ١: ٣٠٢.
٢. تفسير العياشي ١: ١٩١/٣١٠، مجمع البيان ٢: ٥٠٦.
٣. مجمع البيان ٢: ٥٠٦.
٤. زاد في تفسير العياشي: حقوقهم.
٥. تفسير العياشي ١: ١٩٢/٣١٣، من لا يحضره الفقيه ٣: ١١٢/٤٧٦.
٦. الكافي ٥: ٩٥/٢.
٧. الكافي في الفقه: ٣٣٠.

وفيه: أنّها مُعارَضة برواية موسى بن بكر[١]، عن أبي الحسَن عليه السلام: «من طَلَب هذا الرّزق من حِلّه لِيَعود به [على] نَفسِه وعِيالِه، كان كالمُجاهِد في سَبيلِ الله عزّ وجلّ، فإن غُلِب عليه فَلْيَسْتَدِن على الله عزّ وجلّ وعلى رَسولِه ما يَقوتُ به عِيالَه، فإن ماتَ ولم يَقْضِه كان على الإمام قضاؤه، فإن لم يَقْضِه كان عليه وِزْرُه، إنّ الله عزّ وجلّ يقول: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَٱلْمَسَاكِينِ﴾ إلى قوله: ﴿وَٱلْغَارِمِينَ﴾[٢] فهو فقيرٌ مسكينٌ مُغْرَم»[٣] ونحوه غيره، والتَرجيحُ معه لتأيّده بإطلاق كثيرٍ من الرّوايات وفَتاوىٰ جُلّ الأصحاب فلابُدّ من حَمْل الرّواية المانِعَة على نَوعٍ من الكَرَاهَة.

ثُمّ لِكَمالِ شِدَّةِ حُرْمَةِ إعطاءِ الأموال رَشْوَةً خَصَّه بالذِكر مع دُخوله في عموم النَّهي السابق بقوله: ﴿وَتُدْلُوا بِهَا﴾ وتُلْقوها ﴿إِلَى ٱلْحُكَّامِ﴾ والقُضاة السّوء بعُنوان الرَّشْوَة ﴿لِتَأْكُلُوا﴾ بأحكامِهم الباطِلة والرَّشوة والمُصانَعة ﴿فَرِيقاً﴾ وقِسمةً ﴿مِنْ أَمْوَالِ ٱلنَّاسِ﴾ مُلابَساً ﴿بِالْإِثْمِ﴾ والمَعصِية والظُلم، أو بسبَب الإثم من اليَمين الكاذِبة.

﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنّكم مُبطِلون ظالِمون، ومن الواضح أنّ ارتِكاب القَبيح مع العِلم بقُبْحِه أقبَح.

في حرمة الترافع عند قضاة الجور

عن القمي رحمه الله: قال العالم عليه السلام: «قد عَلِم الله أنّه قد يكون حُكّامٌ يحكُمون بغَيرِ الحقّ، فنَهى أن يتحاكموا[٤] إليهم؛ لأنّهم لا يَحكُمون بالحَقّ فتَبطُل الأموال»[٥].

وقيل: إنّ المُراد أن لا تُلقوا أمرَ أموالِكم والحكومة فيها إلى الحُكّام لتأكُلوا وتأخذوا باليَمينِ الكاذِبَة وشَهادة الزّور والصُّلح - مع العِلم بعدَم الحَقّ - طائفةً من أموالِ النّاس عِصياناً وظُلماً، فعَلى هذا يكون المُراد من الحُكّام عُموم القُضَاة، والنَّهيُ راجِعٌ إلى أخذِ أموالِ النّاس بالدَّعوى الباطلة.

عن (العيّاشي) عن الرِّضا عليه السلام أنّه كتَب في تَفسيرِها: «إنّ الحُكّامَ القُضاةُ» ثمّ كتَب تَحتَه: «هو أن يَعلم الرّجُل أنّه ظالِم فيَحكُم له القاضِي، فهو غير مَعذورٍ في أخذِه ذلك الذي حكَم له [به] إذا كان قد عَلِم أنّه ظالِم»[٦].

يَسْأَلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا ٱلْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ وَأْتُوا ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ

---

١. في النسخة: موسى بن بكير، راجع: معجم رجال الحديث ٩: ٢٢.
٢. التوبة: ٦٠/٩.
٣. الكافي ٥: ٣/٩٣.
٤. في المصدر: يتحاكم.
٥. تفسير القمي ١: ٦٧.
٦. تفسير العياشي ١: ٣١٢/١٩١، التهذيب ٦: ٥١٨/٢١٩.

لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ[١٨٩]

ثمّ أنّه روي أنّ مُعَاذ بن جَبَل وثَعْلَبَة بن غَنْم، وهم كانا من الأنصار، قالا: يا رسولَ الله، ما بالُ الهِلالِ يَبدو دَقيقاً مِثل الخَيط، ثمّ يَزيد حتّى يَمتلئ ويستَوي، ثمّ لا يَزال يَنقُص حتّى يعودَ كَما بـدأ؟ لم لا يكون على حالةٍ واحدةٍ كالشمس؟ [فنزلت هذه الآية][١].

ولمّا جَرىٰ ذِكرَ شَهرِ رَمَضان لِتَعيين وَقتِ الصَّوم، ذكَـر الله هـذا السؤال وجَـوابَـه هـنا بـقوله: ﴿يَسْئَلُونَكَ عَنِ﴾ حكمةِ اختِلاف حال ﴿ٱلْأَهِلَّةِ﴾ بزيادةِ نورِها ونُقصانِهِ.

قيل: وجه إطلاقِ الهِلال على أوّل ما يَبدو من نور القَمَر إلى ثلاث لَيالٍ أنّ العَرَب كانوا يـرفَعون أصواتَهم بالذِّكر عند رؤيَتِهِ[٢].

وروي عن مُعاذ: أنّ اليَهودَ سألت عن الأهِلّة[٣]، فأجابَهُم الله بقوله: ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمّد أنّ الأهلّةَ ﴿هِيَ مَوَاقِيتُ﴾ ومَعالِمُ جُعِلَت ﴿لِلنَّاسِ﴾ يُوَقّتونَ بها تِجاراتهم ودُيونهم وعدَّة نِسائهم، وعِباداتهم من صَومِهم وفِطْرهم وصَلوات جُمَعِهم وأعيادهم، وسائر ما يحتاجون إلى التَوقيت من اُمور مَعاشِهم ومَعادِهم.

ثمّ لكَثْرَة الاهتِمام بالحَجّ خَصّه بالذِكر بقوله: ﴿وَٱلْحَجِّ﴾ يُعرَف بها وَقتهُ، حيث إنّه مختصّ بالأشْهرِ المُعيَّنةِ، ولا يجوز نَقلُه إلى غيرِها كما كانَتِ العرَبُ تفعَل ذلك في النَّسيئ.

ثُمّ لمّا جَرىٰ ذِكرُ الحَجّ في المَقام، ذكَر الله تَعالى بِدْعةً مِن بِدَعِ المُشـرِكين فـي حـالِ الإحـرامِ استِطراداً.

روي عن الباقر عليه السلام: «أنّهم إذا أحرَموا كانوا لم يَدخُلوا داراً ولا فُسطاطاً مـن بـابه، ولكـنّهم كـانوا يَنقُبون في ظُهور بُيوتِهم نَقْباً يَدخلُون ويَخرُجون منه، ويُسَمُّونه بِرّاً، فنَهاهُم الله عن التَديُّن به»[٤] بقوله: ﴿وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ﴾ ولا القُرْبَةُ إلى الله ﴿بِأَنْ تَأْتُوا﴾ وتَدخُلوا ﴿ٱلْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا﴾ وخَلفِها ﴿وَلٰكِـنَّ ٱلْبِرَّ﴾ ما يُقَرِّبُ إلى جَميعِ الخَيْراتِ الدُنيَويّةِ والاُخرَويّةِ بِرُّ ﴿مَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ ما حرّم الله. كـذا روي عـن الصادق عليه السلام[٥].

---

١. تفسير الرازي ٥: ١٢٠، تفسير روح البيان ١: ٣٠٣.
٢. تفسير روح البيان ١: ٣٠٣.
٣. تفسير الرازي ٥: ١٢٠.
٤. مجمع البيان ٢: ٥٠٨، تفسير الصافي ١: ٢٠٨.
٥. تفسير الصافي ١: ٢٠٨.

قيل في وجه ارتباط هذه الجُملَة بما قبلَها: إنّهم لمّا سألوا عن حِكمَةِ تَغْيير حالِ القَمَر، ردَعَهُم الله عن السؤالات غير المُفيدة للدّين، كأنّه قال سُبْحَانه: لا تسألوا عمّا لا يَهُمّكم، بل اسألوا عمّا البَحثُ فيه أهَمّ، وهو أنكم تَظُنّون أنّ إتيانَ البُيوت من ظُهورها بِرٌّ، وهذا خَطأٌ مَحْض، بل البرّ هو تَقوى الله[1].

في وجوب أخذ العلم من الراسخين في العلم والعلماء الذين يكون علمهم مأخوذاً عنهم

وقيل: إنّهم لمّا سألوا عن حِكمَةِ اختِلاف حال القَمَر[2]، علّمهم الله طريقَ تَحصيلِ العِلم، بقوله: ﴿وأتُوا ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾ وهي كناية عن وجوب السؤال عمّن يعلَم أنّه عالِمٌ بحَقائِقِ الأمورِ والأحكامِ من قِبَلِ اللهِ وهو النبيّ وأوصياؤه صلوات الله عليهم، الذين وصَفَهم الله بالرّاسخين في العِلم، والعُلَماء الذين أخَذوا العِلمَ منهم، دون من يكون عِلمُه مَبْنِيّاً على الخَرْص والظَنّ والقِياس والاستِحسان، وأقوال الرِجال الذين لا يؤمَنون من الافتِراء على الله ورَسوله.

عن (الاحتِجاج): عن أمير المؤمنين عليه السلام: «قد جعَل الله للعِلمِ أهلاً، وفَرض على العِباد طاعتَهم بقوله: ﴿وَأْتُواْ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾ والبُيوتُ هي بيوتُ العِلم الذي استَودِعَه الأنبياء، وأبوابها أوصياؤهم»[3].

وعنه عليه السلام: «نحنُ البيوت التي أمر الله [بها] أن تُؤتى من أبوابِها، نحنُ بابُ الله وبُيوتُه التي يُؤتى منها، فمَن تابعَنا وأقرّ بِولايَتِنا فقد أتى البيوتَ مِن أبوابِها، ومَن خالَفنا وفَضّل علينا غيرَنا فقَد أتى البُيوتَ من ظُهورها»[4].

وفي رواية: «أنّ الله عزّ وجلّ لو شاء عرّف النّاس نفسَه حتّى يعرفوه [وحده] ويأتوه من بابه، ولكنّه جعَلنا أبوابَه وصِراطَه وسبيله وبابَه الذي يُؤتى منه» قال: «فمن عدَل عن ولايتنا وفضّل علينا غيرَنا، فقد أتى البيوت من ظهورها وإنهم عن الصراط لناكبون»[5]، الخبر.

ويمكن أن يكون المُراد من إتيانِ البُيوت مِن أبوابِها، البيوت الظاهريّة المَسْكونَة، والبيوت المعنويّة العِلْميّة بإرادَة القَدر المُشتَرك بين المَعنى الحقيقيّ والمَجازيّ.

﴿وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ﴾ واحتَرِزوا مُخالفَة أحكامِه وتَغييرها ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ وتَفوزون بَجَميعِ الخَيْراتِ الدّنيويّة والأخرَويّة والمَقامات العالية.

---

١. تفسير الرازي ٥: ١٢٦.
٢. تفسير البيضاوي ١: ١٠٨.
٣. الإحتجاج: ٢٤٨.
٤. الإحتجاج: ٢٢٧.
٥. الإحتجاج: ٢٢٨.

وقيل في تأويل الآية: إنّه كان في الجاهليّة مَن همّ بسَفرٍ أو أمرٍ يَصْنَعه فمُنِع من ذلك، لم يَدخُل دارَه من الباب حتّى يَحصُل له ذلك. وكانت قُرَيش وقَبائل العرَب مَن خرَج لسَفرٍ أو حاجةٍ ثمّ رجَع ولم يَظْفَر بذلك، كان ذلك طِيَرَةً، فنَهاهم الله عن ذلك، وأخبَر أنّ الطِّيَرَةَ ليس ببرّ، والبِرُّ [بِرّ] مَنْ توكّل عَلى الله ولم يَخَف غَيْرَه[1].

وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ ٱللهِ ٱلَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ ٱللهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ * وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُم وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذٰلِكَ جَزَاءُ ٱلْكَافِرِينَ * فَإِنِ ٱنتَهَوْا فَإِنَّ ٱللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّالِمِينَ [١٩٠-١٩٣]

ثمّ أنّه تَعالى لمّا أمر بالتّقوى، عقّبه بالأمرِ بأشدّ أقسامِه وأشقِّها على النّفوس، وهو قِتالُ أعداء الله، بقوله: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ ٱللهِ﴾ ولطَلَبِ مَرْضَاتِه، ونُصْرَةِ نَبيِّه، وإعزازِ دينه.

روي أنّه سُئل النبيّ ﷺ عمّن يُقاتِل في سبيل الله، فقال: «هو مَن قاتَل لتكون كلمةُ الله هي العُليا، ولا يُقاتِل رياءً و[لا] سمعةً»[2].

﴿ٱلَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾ مِن الكُفّار. عن (المجمع) عنهم عليهم السلام: «هي ناسِخة لقوله تعالى: ﴿كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ﴾»[3].

وقيل: هذه الآية أوّل آيةٍ نزَلت في القِتال، فلمّا نزَلت كان رسول الله ﷺ يقاتل من قاتله ويَكُفّ عن قِتال من ترَكه، وبقي على هذه الحالةِ إلى أن نزَل قوله تعالى: ﴿ٱقْتُلُوا ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[4].

وقيل: إنّه لمّا رجَع رسول الله ﷺ عن الحُدَيْبِيَة وعاد إلى المَدينة، ثمّ تجهّز في السّنة القابلة، خافَ أصحابُه أن لا يَفُوا قُرَيش بالعَهْد ويَصُدُّوهم ويُقاتِلوهم، وكانوا كارِهينَ لمُقاتَلَتِهم في الشّهرِ الحَرامِ

---

١. تفسير روح البيان ١: ٣٠٤.
٢. تفسير الرازي ٥: ١٢٨.
٣. مجمع البيان ٢: ٥١٠، والآية من سورة النساء: ٤/٧٧.
٤. تفسير الرازي ٥: ١٢٧، والآية من سورة التوبة: ٩/٥.

في الحَرَم، فأنزَل الله تعالى هذه الآيات، وبيّن لهم كيفيّة المُقاتَلة إلى أن احتاجوا إليها، فقال: **﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ ٱلَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾**[١].

﴿وَلَا تَعْتَدُوا﴾ بابتِداء القِتال في الحرَمِ مُحْرِمِين، وبقَتْلِ الصِّبيةِ والنِّساء، وبالمُثْلَةِ **﴿إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾** ولا يُريد بهم خَيراً.

ثمّ شدّد سُبحانَه في قِتال مُشرِكي قُرَيش بقوله: **﴿وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾** وفي أيّ مكانٍ من الحِلّ أو الحَرَم وجَدْتُموهم.

روي عنهم عليهم السلام: «أنّها ناسِخة لقوله تعالى: **﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَافِرِينَ وَٱلْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ﴾**»[٢].

﴿وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ﴾ أي من مكّة، وقد فعَل صلى الله عليه وآله بِمَن لم يُسلِم من كفّار قُرَيش يوم الفَتْح.

وروي أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله أجلىٰ كلَّ مُشرك من الحَرَم. ثمّ أجلاهم من المدينةِ ومن جزيرة العرب، وقال: «لا يجتَمع دينانِ في جَزيرةِ العَرب»[٣].

ثمّ أنّه روي أنّ بعض الصحابة كان قَتل رجلاًمن الكفّار في الشَهْرَ الحَرامِ فعَابَهُ المؤمنونَ على ذلك فنزلت[٤].

﴿وَٱلْفِتْنَةُ﴾ وهي مِحْنَةُ الإخراجِ وَجلاء الوَطَن[٥]. وقيل: هي الشِّرْكُ[٦] وصَدُّهُم المسلمين عن الحَرَم **﴿أَشَدُّ﴾** وأصعَب **﴿مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾** لدَوامِ تَعَبِها وبَقاء ألمَ النَّفْسِ بها.

سُئل بعضُ الحُكَماء: أيّ شيءٍ أشَدّ من المَوت؟ قال: الذي يُتَمَنّى فيه المَوت[٧].

وقيل: إنّ المُشركين كانوا يَستَعظِمون القَتْلَ في الحَرَم، ويَعيبون المُسلمين به، فرَدّ الله عليهم بأنّ الكُفْرَ والشِّرْكَ باللهِ في الحَرَم أشَدّ قُبحاً مِن القَتْل[٨].

ثُمّ بيّن الله تَعالى أنّ شَرْطَ جَوازِ القِتال في الحرَم أن يكونَ بعُنوان الدّفاع، بقوله: **﴿وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ﴾** بادِينَ به **﴿عِنْدَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾** ولا تَهْتِكوا بالقِتال فيه حُرْمَتَه **﴿حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ﴾** وَيُبادروا إلى

---

١. تفسير الرازي ٥: ١٢٧.
٢. مجمع البيان ٢: ٥١٠، والآية من سورة الأحزاب: ٣٣/٤٨.
٣. تفسير الرازي ٥: ١٣٠.
٤. مجمع البيان ٢: ٥١١، تفسير الرازي ٥: ١٣٠.
٥. كذا، والظاهر: والجلاء من الوطن.
٦. تفسير البيضاوي ١: ١٠٩.
٧. تفسير روح البيان ١: ٣٠٦.
٨. الكشاف ١: ٢٣٦.

قِتالكم.

﴿فَإِن قَاتَلُوكُمْ﴾ فيه بادِين به ﴿فَاقْتُلُوهُمْ﴾ فيه دِفاعاً، ولا تُبالوا هَتْكَ حُرمَةِ الحَرَم، لأنّهمُ الذين هتكوا حُرمَتَه وأنتم مُدافِعون عن أنفسِكم ﴿كَذَٰلِكَ﴾ القَتْلُ ﴿جَزَاءُ ٱلْكَافِرِينَ﴾ على مُبادَرَتِهم بالقِتال، فإنّه يُفعَل بهم مِثل ما فعَلوا.

﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْا﴾ وانصرَفوا عن القِتالِ واعتِقاد الشِّرْكِ باللهِ وتابوا إليه ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾ يَغفِرُ لَهم؛ لأنّه ﴿غَفُورٌ﴾ للعُصاةِ وسَتّارٌ للسَّيِّئاتِ ﴿رَّحِيمٌ﴾ بالمؤمِنينَ التائبين.

ثُمّ أكّد الله الأمرَ بقِتال المُشرِكين بقوله: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ﴾ مُجِدّين فيه ﴿حَتَّىٰ لَا تَكُونَ﴾ في الأرض ﴿فِتْنَةٌ﴾ الشِّرك، وحتّى يُسلِموا ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ﴾ في الأرض خالِصاً ﴿لِلَّهِ﴾ لا شِرْكَ للشَّيطانِ والأصنامِ فيه ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْا﴾ وَرَجَعُوا عن الشِّرك إلى التَّوحيد ﴿فَلَا عُدْوَانَ﴾ جائز مُسْتَحْسَن على أحَد ﴿إِلَّا عَلَى ٱلظَّالِمِينَ﴾ على أنفُسِهم باختيار الكُفر.

قيل: تَسمِيةُ الجَزاءِ عُدواناً مِن باب المُشاكَلَةِ والازدِواج[1].

عن (العيّاشي): عن أحدِهما عليهما السلام: «أي لا عُدوانَ إلّا على ذُرّيّةِ قَتَلَةِ الحُسين عليه السلام»[2] وقريبٌ منه روايةٌ أُخرى[3].

وعن (العيّاشي): عن الرِّضا عليه السلام أنّه سُئِل: يا بنَ رَسولِ الله، ما تقول في حديثٍ روي عن الصادِق عليه السلام أنّه قال: «إذا خرَج القائِم قتَل ذَراري قَتَلَةِ الحُسين عليه السلام بِفِعالِ آبائهم؟» فقال عليه السلام: «هو كذلك».

فقيل: فقول الله عزّ وجلّ: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾[4] ما معناه؟ فقال: «صدَق الله في جميع أقوالِه، لكنّ ذَراري قَتَلَةِ الحُسَين عليه السلام رَضُوا بفِعال آبائِهم، وَيفْتَخِرون بها، ومَن رَضي شيئاً كان كَمَن أتاهُ، ولو أنّ رَجُلاً قُتِل في المَشْرِق فَرَضِيَ [بقتله] رجُلٌ في المَغرِب، لكانَ الرّاضي عند الله شَريكَ القاتِل. وإنّما يقتُلهم القائم إذا خرَج لِرِضاهم بفِعل آبائهم»[5].

ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ

---

١. تفسير الصافي ١: ٢١٠.
٢. تفسير العياشي ١: ٣٢٠/١٩٣.
٣. تفسير العيّاشي ١: ٣٢٢/١٩٣.
٤. الزمر: ٧/٣٩.
٥. علل الشرائع: ١/٢٢٩، عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ٥/٢٧٣.

فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ وَٱتَّقُوا ٱللهَ وَٱعْلَمُوا أَنَّ ٱللهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ * وَأَنْفِقُوْا فِى سَبِيلِ ٱللهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ ٱللهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ[١٩٤ و ١٩٥]

ثمَ أنّه تعالى بعد ما رخّص المُسلِمين في قِتالِ المُشركين في الحَرَم دِفاعاً؛ رَخَّصَهم فيه في الأشهُر الحُرُمْ قِصاصاً، بقوله: ﴿الشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ﴾ يُقابَلُ ﴿بالشَّهْرِ ٱلْحَـرَامِ﴾ فَلا تُبالوا بهَتْكِه بإزاء هَتْكِ المُشركين إيّاه.

روي: أنّ المُشركين قاتَلوا المُسلِمين في عام الحُدَيْبِيَة في ذي القَعْدَة[١]. ونقل أنّ بعد صَدِّ المُشرِكين المُسلمينَ، وقَع بينَهُم تَرامٍ بسِهامٍ وحِجارةٍ، ولمّا اتّفق خُروج المُسلمين لعُمْرَةِ القَضاء في ذلك الشَّهر كَرِهوا أن يقاتِلوهم، فنزَلت الآية[٢].

ثُمّ عَمَمَ حُكَم القِصاص بقوله: ﴿وَٱلْحُرُمَاتُ﴾ وجميعُ الأُمورِ التي يَجِب رعايةُ حُرمَتِها، يَجري فيها ﴿قِصَاصٌ﴾ وحكمُ المُعامَلةِ بالمِثْل، فإنْ صَدّكُم المُشركون عن دُخولِ الحَرَم عُنْوَةً فادخُلوا أنتُم عليهم عُنْوَةً، وإن قاتَلوكم في الحَرَمِ وفي الشَّهر الحَرام فقَاتِلوهم، حيثُ إنّ الحُرمات لا تُراعى في حَقّ مَن لا يُراعيها.

عن (التهذيب) و(العياشي): أنّه سُئل عن المُشركِين أيبتدئهم المُسلِمون في القتال في الشَهْرِ الحَرام؟ فقال: «إذا كان المُشرِكون ابتدؤوهم باستحلالهم ثم رأى المُسلِمون أنّهم يظهَرون عليهم فيه، وذلك قوله تعالى: ﴿ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِالشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ﴾»[٣].

ثمَ أنّه تعالى لِتَقريرِ ما بيَّنَه من الحُكْم ذَكر فَذْلَكَةً لَهُ بقوله: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَى﴾ وتَجاوَز عَلَيكُم نَفْساً أو عِرضاً أو مالاً ﴿فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ﴾ وعاقِبوهُ ﴿بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾ من الجِناية، ولا تَتَجاوَزوا عن الحَدّ المُرخَّص فيه.

عن الصادق عليه السلام في رجل قتَل رجلاً في الحرَم، وسرَق في الحَرَم، فقال: «يُقامُ عليه الحَدّ [في الحرم] صاغراً، إنّه[٤] لم يَرَ للحرَمِ حُرمةً، وقد قال الله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ

---

١. تفسير الصافي ١: ٢١٠.
٢. تفسير روح البيان ١: ٣٠٧.
٣. التهذيب ٦: ٢٤٣/١٤٢، تفسير العيّاشي ١: ٣٢١/١٩٣.
٤. في النسخة: وصغار له، لأنه.

مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ يعني في الحَرَم، وقال: ﴿فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّالِمِينَ﴾»[١].

﴿وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ﴾ واحذَروا غَضَبه، فلا تَتَجاوَزوا عمّا رخّص لَكُم، ولا تُفاتِحوا بالقِتالِ في الحَرَمِ وفي الشَّهرِ الحَرامِ ﴿وَٱعْلَمُوا أَنَّ ٱللَّهَ﴾ بالنُّصَرةِ والمَعونةِ والحِفْظ ﴿مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾.

ثمّ روي أنّه لمّا نزَلت ﴿ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِالشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ﴾ قال رجلٌ من الحاضِرين: يا رسول الله، مالَنا زادٌ، وليس أحدٌ يُطعِمُنا، فأمر رسول الله ﷺ أن يُنفقِوا في سَبيلِ الله، وأن يتَصدّقوا، وأن لَا يكُفّوا أيدِيَهُم عن الصّدقة ولو بشِقّ تَمْرةٍ تحمَلُ في سبيل الله، فنزلت [هذه الآية] على وَفْقِ رَسولِ الله ﷺ [٢].

﴿وَأَنفِقُوا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ ونُصرَةِ دينه، وطَلَبِ مَرْضاتِه من الجِهاد وسائر أبوابِ الخَير، وهذا أمرٌ بالجِهاد بالمالِ بعد الأمرِ بالجِهاد بالنَّفْس.

في وجوب الاقتصاد في الانفاق

﴿وَ﴾ لكن ﴿لَا تُلْقُوا﴾ أنفُسَكم، ولا تَطرَحوها ﴿بِأَيْدِيكُمْ﴾ وبمُباشَرَتكِم ﴿إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ والتَّلَفِ بسبَبِ الإسرافِ في الإنفاق وتَضْييعِ أمرِ المَعاشِ وسائر ما يؤدّي إلى الهَلاك.

عن أبي أيّوب الأنصاريّ، قال: إنّ الله تعالى لمّا أعزّ دِينَه ونَصَر رسولَه ﷺ قُلنا فيما بينَنا: إنّا قد تركنا أهلَنا وأموالَنا حتّى فَشَا الإسلامُ ونَصَر الله نَبيَّه ﷺ فلو رجَعنا إلى أهلِنا وأموالِنا فأقمنا فيها وأصْلَحْنا ما ضَاع منا؟ فأنزَل الله هذه الآية. فالتَّهلُكَة ما كانَ سبباً للهَلاك من الإقامةِ في الأهلِ والمَالِ وتَركِ الجِهاد[٣].

في وجوب طاعة السلطان

عن النبيّ ﷺ قال: «طاعَةُ السُّلطانِ واجبَةٌ، ومَن ترَك طاعةَ السُّلطانِ فقد ترَك طاعةَ الله تعالى، ودخَل في نَهْيِه، إنّ الله يقول: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾[٤]».

عن (الكافي): عن الصّادق عليه السلام قال: «لو أنّ رجُلاً أنفَق ما في يَدَيهِ في سَبيلٍ من سبيل الله، ما [كان] أحسَنَ ولا وُفِّق، ألَيس يقول الله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾»[٥].

ثمّ أكّد سُبْحانَه الأمَر بالإنفاقِ، بالأمرِ بالإحسانِ، من الإنفاقِ وسائر الأعمال الصّالحة بقوله:

---

١. الكافي ٤: ٤/٢٢٧، تفسير الصافي ١: ٢١٠.
٢. تفسير الرازي ٥: ١٣٥.
٣. تفسير روح البيان ١: ٣٠٩.
٤. أمالي الصدوق: ٥٥٣/٤١٨.
٥. الكافي ٤: ٧/٥٣.

﴿وَأَحْسِنُوا﴾ إلى الفُقَراءِ وَتَفَضَّلُوا عليهم مُراعِينَ للاقتِصاد، أو التَزِموا بالأعمال الحَسَنة ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ ومنهم المُقتَصِدون في الإنفاق.

وقيل: إنّ ممّا يؤدّي إلى الهَلاكِ، تَرْكَ الإنفاقِ في أصحابِ الجِهاد، فيَستَوْلي عليهم العدوّ فيُهلِكُهم[١].

وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ[١٩٦]

ثمّ أنه روي أنّ النّبيّ ﷺ لمّا رجَع في العام القابِل إلى مكّةَ فمنَعَه الكُفّار عن الحَجّ والعُمْرَةِ فنزَلَت: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾[٢] وآتوا بهِما كامِلَين بشَرائِطِهما وأركانِهما خالِصَين لوَجْهِ الله.

عن (الكافي) و(العيّاشي) سئل الصادق عليه السلام عن هذه الآية، فقال: «هُما مَفْروضان»[٣].

وعنه عليه السلام قال: «العُمْرَةُ واجِبَةٌ على الخَلْقِ بمَنْزِلَةِ الحَجّ على مَن استَطاع؛ لأنّ الله يقول: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾»[٤].

وفي رواية، قال: يعني بتَمامِها أداءهما واتّقاء ما يَتّقي المُحرِم فيهما[٥].

وعن (المجمع): عن أمير المؤمنين عليه السلام والسَّجّاد عليه السلام: «يعني أقيموها إلى آخِر ما فيها»[٦].

وفي رواية: «تَمامُهما اجتِناب الرَّفَث، والفُسوق، والجِدال في الحَجّ»[٧].

وعن (الكافي): عنه عليه السلام قال: «إذا أحرَمْتَ فعليكَ بتَقْوىٰ الله، وذِكر الله كثيراً، وقِلّة الكلام إلّا بِخَيرٍ، فإنّ مِن تَمام الحَجّ والعُمْرَةِ أن يحفَظَ المَرءُ لِسانَهُ إلّا من خَير»[٨].

في أنّ زيارة الإمام تمام الحجّ

وعن الباقر عليه السلام: «تَمامُ الحَجّ لِقاءُ الإمام»[٩].

---

١. مجمع البيان ٢: ٥١٦.
٢. تفسير الرازي ٥: ١٤٤.
٣. الكافي ٤: ٢/٢٦٥، تفسير العيّاشي ١: ٣٣٠/١٩٥.
٤. علل الشرائع: ١/٤٠٨.
٥. الكافي ٤: ١/٢٦٥، تفسير الصافي ١: ٢١١.
٦. مجمع البيان ٢: ٥١٨.
٧. الخصال: ٩/٦٠٦.
٨. الكافي ٤: ٣/٣٣٧.
٩. عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ٢٩/٢٦٢.

وعن الصادق عليه السلام: «إذا حجَّ أحدُكم فليَختِم حَجَّه بزيارَتِنا؛ لأنّ ذلك من تَمامِ الحَجّ»[١].

أقول: وذلك لأنّ الحَجّ زيارةُ الله في بيته، ولمّا كان الإمام عليه السلام عينَ الله الناظِرة، ويَدَه الباسِطَة، وجَنْبَهُ، وبابَهُ الذي يُؤتىٰ منه، وخازِنَ عِلمِه، ومَعْدِنَ حِكمَتِه، كانت زيارَتُه زيارةَ الله في عَرْشِه، ولذا عُدَّت من تَمام الحَجّ.

ثُمّ بيّن الله تَعالى حُكْمَ المَحصُورِ منه بقوله: ﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ﴾ ومُنِعْتُم مِن الحَجّ بَعدَ إحرامِه لِخَوفٍ مِن عَدوٍّ أو لِمَرَضٍ، وَأرَدتُم التَّحليلَ من الإحرام ﴿فَمَا ٱسْتَيْسَرَ﴾ وما تَيَسَّر لَكُم ﴿مِنَ ٱلْهَدْيِ﴾ واجِبٌ عليكم، أعلاهُ البَعير، وأوسَطُه البقَرة، وأقلُّه الشّاة. وقيل: كلّ ما تيسّر، وإنّما سُمّيَ هَدْياً لأنّه بمَنزِلَةِ الهديَةِ التي يُهديها العَبدُ إلى ربّه[٢]، وما تيسّر من شيءٍ واجبٍ عليكم.

﴿وَلَا تَحْلِقُوا﴾ أيّها المَحصُورون ﴿رُءُوسَكُمْ﴾ وَلا تُحِلّوا من إحرامِكم ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُ﴾ وتَعلَموا أنّ هَديَتكم التي بَعَثْتُموها قد بلغت مِنىٰ الذي يَجِبُ النَّحرُ أو الذَّبحُ فيه إنْ كان الإحرامُ بالحَجّ، أو مَكّةَ إنْ كانَ الإحرامُ بالعُمرَةِ.

في حكم المحصور بعد الإحرام

عن (الكافي) عن الباقر عليه السلام: «المَصدودُ يذبَحُ حيث صُدَّ، ويَرجِع صاحِبُه فيأتي النّساء، والمَحصورُ يبعَثُ بهَدْيِه ويَعدهُم يوماً، فإذا بلَغ الهَدْيُ أحَلّ هذا في مكانه»[٣].

وعن الصادق عليه السلام: «يَجزِيه شاةٌ، والبَدَنَةُ والبَقَرَةُ أفضَل»[٤].

﴿فَمَن كَانَ مِنكُم﴾ في حالِ الحَصْرِ ﴿مَّرِيضًا﴾ يحتاجُ إلى حَلْقِ الرّأس ﴿أَوْ بِهِۦٓ أَذًى﴾ وألَمٌ كائنٌ ﴿مِّن رَّأْسِهِۦ﴾ كقَمْلٍ أو صُداعٍ ﴿فَفِدْيَةٌ﴾ معيّنةٌ عليه إذا حلَق، كانت الفِدْيَةُ ﴿مِّن صِيَامٍ﴾ في ثَلاثةِ أيّامٍ ﴿أَوْ صَدَقَةٍ﴾ وهي إطعامُ سِتّةِ مَساكين، لكلّ مَسكينٍ مُدّانِ، أو عَشَرةِ مَساكين لكُلّ مُدّ ﴿أَوْ نُسُكٍ﴾ وهو الذّبيحة، أقَلُّها شاة، وأوسَطُها بقَرة، وأعلاها بَدَنَة.

عن (الكافي) و(العيّاشي): عن الصادق عليه السلام: «مرّ رسولُ الله صلى الله عليه وآله على كَعْب بن عُجْرَة، والقَمْلُ يتَناثَرُ من رأسِه وهو مُحْرِمٌ، فقال له: أتؤذيك هَوامُّك؟ فقال: نعم. فأُنزِلت هذه الآية، فأمرَه رسولُ الله صلى الله عليه وآله أن يَحلِق، وجعل الصِّيامَ ثلاثَة أيّام، والصَّدَقة على ستّة مَساكين، لكلّ مسكينٍ مُدّان والنُّسك

---

١. عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ٢٨/٢٦٢. ٢. تفسير روح البيان ١: ٣١١.
٣. الكافي ٤: ٩/٣٧١. ٤. تفسير العياشي ١: ٣٣٣/١٩٦.

شاة»[١].

قال أبو عبدالله عليه السلام: «وكلّ شيء في القرآن (أو) فَصاحِبُه بالخِيار، يَختار ما شاء، وكلّ شيءٍ في القرآن (فَمَنْ لَمْ يَجِد كَذا فعلَيه كَذا) فالأولى الخِيار»[٢] الخبر. والظاهِرُ من الخِيار الأخِير الجَزْي بالاختيار.

في حكم حجّ التمتّع في الأمن

ثمّ أنه لمّا ذكَر حُكمَ المَحصور لعدوٍّ أو مرَضٍ، بيّن حُكمَ حالِ الأمن والسَّعَةِ، بقوله: ﴿فَإِذَا أَمِنتُمْ﴾ من خَوفِ العَدوّ وبَرِئتُم من المَرَض ﴿فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ﴾ وانتفَع بما كانَ يَحرُم عليه بعد التَّحليل من إحرامِها مستَمرّاً عليه ﴿إِلَى الْحَجِّ﴾ وإحرامه به ﴿فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ عليه، وهو شاةٌ، على ما روي عن الصادق عليه السلام[٣].

﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ﴾ الهَدْيَ ﴿فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ﴾ واجبٌ عليه في وَقتِ الحَجّ، أو أيّام اشتِغاله به.

عن (الكافي): عن الصّادق عليه السلام في المُتَمَتِّع لا يَجِد الهَدْيَ؟ قال: «يَصومُ قَبْلَ التَّرْوِيَة [بيوم ويوم التروية] ويوم عرَفة».

قيل: قد قَدِم يوم التَّروِيَة؟ قال: «يَصومُ ثَلاثَة أيّامٍ بَعد التَّشريقِ».

قيل: لَم يُقِم عليه جَمّالُه؟ قال: «يصوم [يوم] الحصبة[٤] وبعدَه يومَين».

قيل: وما الحصبة[٥]؟ قال: «يوم نَفْرِه».

قيل: يَصومُ وهو مُسافِر؟ قال: «نعَم، ألَيس [هو] يوم عَرَفة مُسافِراً! إنّا أهلُ بيتٍ نَقول ذلك لقول الله عزّ وجلّ: ﴿فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ﴾ يقول: في ذي الحجّة»[٦]. ﴿وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾ إلى أهالِيكُم ﴿تِلْكَ﴾ الجُملَة ﴿عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ وفيه زيادة توصية بصيامها.

في (التهذيب): عن الصادق عليه السلام أنه سأل سُفيانَ الثَّوريّ: «أيّ شيءٍ يعني بكاملة؟» قال: سبعة وثلاثة. قال: «و[يَخْتَلُّ] ذا على ذي حِجاً، إنّ سبعةً وثلاثة عَشَرة».

قال: فأيّ شيءٍ هو أصلَحَك الله؟ قال: «أنظُر!» قال: لا عِلْمَ لي، فأيّ شيءٍ هو أصلَحك الله؟ قال: «الكاملة كَمالُها كَمالُ الأُضحِيَة، سواء أتيتَ بها أو لم تَأتِ»[٧] انتهى. وعلى هذا يكون المَعنى أنه لا

---

١. الكافي ٤: ٢/٣٥٨، تفسير العياشي ١: ٣٣٦/١٩٧.

٢. الكافي ٤: ٢/٣٥٨، تفسير العياشي ١: ٣٣٦/١٩٨، تفسير الصافي ١: ٢١٣.   ٣. الكافي ٤: ١/٤٨٧.

٤. في النسخة: الخطيئة.   ٥. في النسخة: الخطيئة.   ٦. الكافي ٤: ١/٥٠٦، تفسير الصافي ١: ٢١٣.

٧. التهذيب ٥: ١٢٠/٤٠، تفسير الصافي ١: ٢١٤، وفي التهذيب: أتيت بها أو أتيت بالأضحية تمامها كمال الأضحية.

تَنقُص ثَواب صِيام العَشَرة عن الأُضحِيَّة.

و﴿ذَٰلِكَ﴾ التمتُّع بمُحرَمات الإحرام جائز بين العُمْرَةِ والحَجّ ﴿لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ بأن يكونَ بينَهم وبين المَسجِد اثنَى عَشَر ميلاً فما دونها من كلّ جانِب.

عن (الكافي): عن الصادق عليه السلام في هذه الآية: «مَن كان مَنزِلُه على ثمانية عَشَر ميلاً مِن [بين يديها، وثمانية عشر ميلاً من] خَلفِها، وثمانية عشر ميلاً عن يَمينها، وثمانية عَشَر ميلاً عن يسارها، فلا مُتعَةَ له، مثل مُرّ[١] وأشباهِها»[٢].

﴿وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ﴾ فيما فرَض عليكم، كما عن ابن عبّاس[٣] ﴿وَٱعْلَمُوا أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ لِمَن تَهاوَن بحُدودِه ولَم يُحافِظ على أوامرِه ونَواهيه.

ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُونِ يَا أُولِى ٱلْأَلْبَابِ[١٩٧]

في بيان أشهر الحجّ

ثُمَ بَيَّنَ اللهَ تَعالى زَمانَ الحَجِّ بقوله: ﴿ٱلْحَجُّ﴾ وَقتُه ﴿أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ﴾ مُعيَّناتٌ عند اللهِ، معروفاتٌ عند النّاس، وهيَ: شوّال، وذو القَعْدَة، وذو الحِجَّة، على ماروى عن الصادقين عليهما السلام قالا: «ليس لأحدٍ أن يحُجّ فيما سِواهنّ، ومَن أحرَم بالحَجّ في غير أشهُر الحَجّ فلا حجّ له»[٤].

﴿فَمَنْ فَرَضَ﴾ وأوجَب على نَفسِه ﴿فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ﴾ بأن اشتغَل به وشرَع فيه.

عن (الكافي) و(العيّاشي) قال: قال الصادق عليه السلام: «الفَرض: التّلبية والإشعار والتّقليد، فأيّ ذلك فعَل فقد فرَض الحجّ»[٥].

أقول: فيه دلالة على وجوب إتمام الحجّ بالاشتِغال به والدّخول فيه وإن كان مندوباً ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ﴾ جائز ﴿فِى﴾ وَقتِ ﴿ٱلْحَجِّ﴾ وزَمان الاشتِغال بمَناسكِه.

---

١. مُرّ: واد في بطن إضم، وقيل: بطن إضم، والمُرّ أيضاً: أرض بالنجد من بلاد مَهْرَة بأقصى اليمن.

٢. الكافي ٤: ٣/٣٠٠. ٣. تفسير الرازي ٥: ١٦٠.

٤. تفسير العياشي ١: ٣٥٥/٢٠٣ و٣٥٦، تفسير الصافي ١: ٢١٤.

٥. الكافي ٤: ٢/٢٨٩، تفسير العياشي ١: ٣٥٨/٢٠٣.

عن (الكافي): عن الصادق عليه السلام: «الرَّفَث: الجِماع، والفُسوق: الكَذِب والسِّباب، والجِدال: قَولُ الرَّجُلِ: لا والله، وبلى والله»[١].

وقال: «في الجِدال شاة، وفي [السباب و] الفُسوق بَدَنَة[٢]، والرَّفَث فَساد الحَجّ»[٣].

والمُراد من النَّفي، النَّهي بأبلَغ بيان، وتَخصيص تَحريم الثَّلاثة بالحَجّ مع كونِها حراماً مُطلقاً لكون الحُرمةِ فيه أشدّ، كلِبس الحَرير في الصَّلاة.

ثمّ حثّ المؤمنين إلى الأعمال الحَسَنة بعد النَّهي عن القَبائح بقوله: **﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ﴾** وعمَلٍ صالحٍ وبِرٍّ **﴿يَعْلَمْهُ اللهُ﴾** فيُجازيكم به أحسَن الجَزاء **﴿وَتَزَوَّدُوا﴾** بالأعمالِ الصالحة لسَفَر الآخِرة **﴿فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ﴾** فيه **﴿التَّقْوىٰ﴾**.

أو المُراد التزوّد بالمَؤونة في السَّفَر الدُّنيويّ ولو بسبَب التَّقوى، كما قال تعالى: **﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ﴾**[٤]. نُقل أنّهم كانوا يحُجّون بغير زادٍ، فيكونون كَلّاً على النّاس، فأمَرَ الله المؤمنين بالتزوّد للسَّفَر، لأنّه لا ينبغَي استِطعام النّاس والتّثقيل علَيهم[٥].

ثمّ بعد بَيانِ فائدةِ التّقوى، وأنّه خيرُ الزّاد، أمر به بقوله: **﴿وَاتَّقُونِ﴾** في مُخالَفَتي واحتَرِزوا عِقابي **﴿يَا أُولِي الأَلْبَابِ﴾** وتوجيهُ الخِطاب إلى ذَوي العُقول السّليمة، لأنّ العَقْلَ يَحُثّ العاقِل على التَّقوى ومُلازَمته، فمَن لا تَقوى له لا عَقْلَ له، لأنّه ترَك ما فيه خيرَ الدّنيا والآخِرة.

لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلاً مِن رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنْتُمْ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ[١٩٨]

ثمّ أنّه روي عن ابن عبّاس أنّه كان ناسٌ من العرَب يحتَرِزون [من] التِجارة في أيّام الحَجّ، وإذا دخَل العَشْرُ بالَغوا في تَرك البيع والشِراء بالكلّيّة، وكانوا يُسَمّون التاجر في الحَجّ الدّاج، ويقولون: هؤلاء الدّاج وليسوا بالحاج، ومعنى الدّاج المُكتَسِب المُلتَقِط.

وبالَغوا في الاحتِراز عن الأعمال إلى أن امتنعَوا عن إغاثَةِ المَلهوفِين، وإعانَةِ الضُعَفاء، وإطعام

---

١. الكافي ٤: ٣/٣٣٨.　٢. في الكافي: بقرة.　٣. الكافي ٤: ٦/٣٣٩.　٤. الطلاق: ٦٥/٢ و٣.
٥. تفسير الصافي ١: ٢١٥.

الجائع، فأزال الله هذا الوَهم[١]، بقوله: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾ وبأسٌ في ﴿أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً﴾ وَرِبحاً كائناً ﴿مِنْ رَبِّكُمْ﴾ وتَطلُبوا مالاً بالتّجارة المُحلّلة.

قيل: إنّ عُكاظَ ومَجَنّةَ وذا المَجَاز كانوا يتّجرون في أيّام المَوسِم فيها، وكانت معائشهم منها، فلمّا جاء الإسلامُ كَرِهوا أن يتّجِروا في الحَجّ بغَير الإذن، فسألوا رسولَ الله ﷺ فنزَلت[٢].

عن (العيّاشي): عن الصادق عليه السلام: «﴿فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ﴾ يعني الرِّزق، إذا أحَلّ الرجُل من إحرامِه وقَضى نُسكَه فليبع وليشترِ في المَوسِم»[٣].

وفي رواية أُخرى ﴿فَضْلاً﴾ أي مغفرة[٤].

وروي عن الباقر عليه السلام: «﴿أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ﴾ هُوَ أن يَبْتَغي الأنسانُ حال كونه حاجّاً أعمالاً أُخرى تكون مُوجِبة لاستِحقاق فَضْلِ الله ورحمته، مثل إغاثة المَلهوف، وإعانة الضَّعيف، وإطعام الجائع»[٥].

وقال بعض علماء العامّة معترضاً عليه: إنّ هذه الأعمال بين واجبٍ ومَندوبٍ، ولايصِحّ أن يُقال فيها: (لا جُنَاحَ) فإنّ هذا التّعبير مختصّ بالمُباحات[٦].

وفيه: أنّ استِعمال (لَا جُنَاحَ) في الواجبات غير عزيز إذا كان في مَوردِ توهّم الحَضْر كقوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ ٱلصَّلَاةِ﴾[٧].

ثمّ اعلَم أنّه لا تَعارُض بين الرّوايات المُفسِّرة للفَضْلِ، لأنّ كلَّ واحدٍ منها محمولٌ على بَيانِ نوعٍ من أنواعِه.

﴿فَإِذَا أَفَضْتُمْ﴾ ودفَعتُم أنفُسَكم للرجوع ﴿مِنْ عَرَفَاتٍ﴾ بكَثْرَةٍ ومضَيتُم منها إلى المُزدَلِفة، [كما عن (تفسير الإمام عليه السلام)[٨] وعرَفاتٌ علَمٌ للمَوقِف.

روي: أنّه تَمثّل جَبْرَئيل لإبراهيم فيه، فلمّا رآه عرَفه، فسُمّي ذلك المَوضِع عَرَفات[٩].

ونُقِل: أنّ جَبْرَئيل كان يَدورُ به في المَشاعِر، ويَقول: عرَفت؟ فلمّا رآه، قال: عرَفتُ[١٠].

---

١. تفسير الرازي ٥: ١٧١.
٢. تفسير الرازي ٥: ١٧١.
٣. تفسير العياشي ١: ٣٦٦/٢٠٦.
٤. عوالي اللآلي ٢: ٢٤٦/٩٢.
٥. تفسير الرازي ٥: ١٧٢.
٦. تفسير الرازي ٥: ١٧٢.
٧. النساء: ١٠١/٤.
٨. التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام: ٣٥٨/٦٠٥.
٩. تفسير روح البيان ١: ٣١٦.
١٠. تفسير روح البيان ١: ٣١٦.

ونُقِل أيضاً: أنّ آدَم وحوّاء اجتمَعا بعَرَفات وتَعارَفا[١].

﴿فَاذْكُرُوا اللهَ﴾ وجوباً بالدّعاء والتّكبير والتّهليل ﴿عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ﴾ وهو جبَلٌ سُمّي قُزَح[٢]، ولقّب بالمَشْعَر لأنّه مَعْلَمُ العِبادَةِ، ووُصِف بالحَرام لحُرمَتِه[٣].

روي عن جابر: أنّ النّبيّ ﷺ لمّا صلّى الفَجْرَ بالمُزْدَلِفَةِ بغَلَسٍ، رَكِب ناقَته حتّى أتى المَشْعَرَ الحَرام، فدَعا وكبّر وهلّل، ولم يزَل واقِفاً حتّى أسفَر[٤].

﴿وَاذْكُرُوهُ﴾ ذِكراً حَسَناً، على ما قيل[٥] ﴿كَمَا هَدَاكُمْ﴾ هِدايةً حَسَنةً إلى المَناسِك وغيرها من العِبادات. أو المراد اذكُروه لأنّه علّمَكُم دِينَ الإسلامِ، أو علّمكم كَيفَ تَذكُرونَه.

﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ﴾ أي قَبْلَ الهُدى أو التّعليم ﴿لَمِنَ الضَّالِّينَ﴾ بكيفيّة ذِكرِه وعبادَتِه.

نُقل عن ابن عبّاس أنّه نظَر إلى النّاسِ في هذا اللّيلة، وقال: كانَ النّاسُ إذا أدرَكوا هذه لم يَناموا[٦].

ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْراً فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِى الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ * وَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِى الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ * أُولٰئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ[١٩٩ـ٢٠٢]

ثمّ أنّه نُقِل أنّ قُرَيشاً وجماعةً من حُلفائِهم كانوا يُسَمّون بالحُمْسِ لتَشدُّدِهم في دينهم، لم يكونوا يَقِفونَ بعرَفات، بل كان وقوفهم بالمُزْدَلِفَة، ولا يتَجاوَزون عنها لأنّهم كانوا يترفّعون على النّاس، ويقولون: نَحنُ أهلُ اللهِ، ولا نُحِلّ حرَمَ الله، وأنّ الحرَم أشرَف من غيره، فالوقوفُ به أولىٰ، وسائرُ النّاس كانوا يَقِفون بعرَفات، فأمَر الله المؤمنينَ بالوُقوف بعرَفات[٧]، بقوله: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا﴾ وآرجِعوا. وكلمة (ثمّ) للتّرتيب في الرُّتبَة، ولتَكُن إفاضَتكُم ﴿مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾.

عن الصادق عليه السلام: «يعني بالنّاس إبراهيم، وإسماعيل، وإسحاق، ومَن بعدَهم ممّن أفاضَ من

---

١. تفسير روح البيان ١: ٣١٦.
٢. في النسخة: بقرج.
٣. تفسير البيضاوي ١: ١١٢، تفسير أبي السعود ١:٢٠٨.
٤. تفسير البيضاوي ١: ١١٢.
٥. تفسير البيضاوي ١: ١١٢.
٦. تفسير الرازي ٥: ١٧٨.
٧. مجمع البيان ٢: ٥٢٧.

عرفات»[١].

وعن (الكافي): عن الحسين بن علي عليهما السلام: «نحن النّاس»[٢].

وعن الصادق عليه السلام في حديث حجّ النبيّ صلى الله عليه وآله قال: «ثمّ غدا والنّاس معه، وكانت قُرَيش تُفيض من المُزدَلِفة وهي جَمْع، ويمنَعون النّاس أن يُفيضوا منها. فأقبَل رسولُ الله صلى الله عليه وآله وقُرَيش تَرجو أن تكونَ إفاضَتُه [من] حيث كانوا يُفيضون، فأنزَل الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ﴾»[٣].

﴿وَٱسْتَغْفِرُوا ٱللَّهَ﴾ مِن تَغْييرِكُم المَناسِكَ في الجاهليّة، ومن سائر المَعاصي ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ وستّارٌ للذُّنوبِ ﴿رَحِيمٌ﴾ بعِباده المؤمنين، لا يقطَع عنهم إحسانَه.

عن النبيّ صلى الله عليه وآله: «أنّ الله يُباهي ملائكتَه بأهلِ عرَفات، ويقول: أنظُروا إلى عِبادي جاءوا من كلِّ فَجٍّ عَميقٍ شُعَثاً غُبراً [اشهدوا] أنّي غفَرتُ لهم»[٤].

وعن النبيّ صلى الله عليه وآله: «أعظَم النّاس ذَنْباً مَن وقَف بعرَفة فظَنّ أنّ الله لا يَغفِر له»[٥].

﴿فَإِذَا قَضَيْتُم﴾ وأدّيتُم أيها المؤمنون ﴿مَّنَاسِكَكُمْ﴾ وأعمال حجّكم، وفرَغتُم منها ﴿فَاذْكُرُوا ٱللَّهَ﴾ وآلاءَهُ ونَعْماءَه عندكم، وإحسانَه إليكم، وبالِغوا فيه ﴿كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ﴾.

عن ابن عبّاس: أنّ العرَب كانوا عند الفَراغ من حجّهم بعد أيّام التّشريقِ، يَقِفُون بينَ مَسجِد مِنى وبين الجبَل، ويذكُر كلّ واحدٍ منهم فَضائل آبائه في الشجاعة[٦] والحَماسة وصِلَة الرَّحِم، ويتَناشَدون فيها الأشعارَ، ويتكلّمون بالمنثور من الكلام، ويُريد كلّ واحدٍ منهم من ذلك الفِعل حُصولَ الشُّهرَةِ والترفُّع بمآثَر سَلَفِهِ، فلمّا أنعَم الله [عليهم] بالإسلام، أمرَهم أن يكونَ ذِكرُهم لربّهم كذِكرِهم لآبائهم[٧] ﴿أَوْ أَشَدَّ﴾ وأبلَغ ﴿ذِكْراً﴾.

عن (تفسير الإمام عليه السلام): «خيّرهم بين ذلك، ولم يُلزِمهم أن يَكونوا [له] أشدّ ذِكراً منهم لآبائهم وإن كانت نِعَمُ الله عليهم أكثَر وأعظَم من نِعَم آبائهم»[٨].

وقيل: إنّ المراد أنّ الانسان كما لا يَنسى ذِكرَ أبيه، كذلك يجب أن لا يغفَل عن ذِكر الله[٩].

وقيل: إنّ المعنى: اذكُروا الله بالوَحدانيّة كذكرِكم آباءَكم بالوحدانيّة، فإنّ الواحد منهم لو نُسِب إلى

---

١. تفسير الصافي ١: ٢١٦.
٢. الكافي ٨: ٣٣٩/٢٤٤.
٣. الكافي ٤: ٤/٢٤٧.
٤. تفسير روح البيان ١: ٣١٨.
٥. تفسير روح البيان ١: ٣١٨.
٦. في تفسير روح البيان: السماحة.
٧. تفسير روح البيان ٥: ١٨٣.
٨. التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام: ٣٥٨/٦٠٦.
٩. تفسير الرازي ٥: ١٨٥.

والِدين لتَأذّى واستَنْكَف، ومع ذلك يُثبت لنَفسِه آلِهةً، والحال أنّ المُبالَغة في التّوحيد أولى[١].

وقيل: إنّ المُراد أنّ الطّفل كما يَرجِع إلى أبيه في طَلَب المُهِمّات، ويكون ذاكراً له بالتّعظيم، فكونوا أنتُم كذلِك في ذِكر الله[٢].

وروي عن ابن عبّاس أنّه قال في تفسير الآية: هو أن تغضَب له لو عُصِيَ أشَدّ مِن غضَبِك لوالِدك إذا ذُكِر بسوء[٣].

وحاصل جميع الوجوه أنّه يجب على العَبد أن يكونَ دائِمَ الذِكْر، ودائِم التّعظيم، ودائِمَ الرّجوع إلى ربِّه، ودائمَ الانقِطاع عمّن سِواه.

قيل: معنى ﴿أَوْ أَشَدَّ ذِكْراً﴾ بل أشدّ ذِكراً، لأنّ مُوجِبات ذِكر آبائهم قليلة، وصِفات الله الكماليّة وحُقوقه على عِباده غير مُتَناهية[٤].

ثمّ أنّه لمّا كان ينبَغي للعَبْد بعد أداء مَناسِك الحَجّ ـ الذي به تَنْكَسِر النَفْس وتُرفَع عنها غَواشي الشَّهَوات، وتوجّهه إليه بذِكره الذي به تَنْجَلي في القُلوب أنوارُ عظَمتِه وإشراقات جَلالِه ـ أن يشتَغِل بالدُّعاءِ والطَّلَب للمُهمّات، ولذا بيّن الله تعالى اختِلافَ هِمَم النّاس بقوله: ﴿فَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ الذين يشهَدون هذا المَوقِف العظيم الذي تُستَجاب فيه الدَّعَوات ﴿مَنْ يَقُولُ﴾ في مَقامِ الدُّعاء افتِتاناً بلَذّاتِ الدّنيا، ونِسياناً للآخِرَةِ ونعيمِها ﴿رَبَّنَا آتِنَا﴾ نَصيبنا، وأعطِنا حَظّنا ﴿فِى ٱلدُّنْيَا﴾ من الجَاهِ، والغِنَى، بدَلاً من الآخِرةِ.

ويُجيب الله مسؤوله إن شاء ﴿وَمَالَهُ فِى ٱلآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾ ونَصيبٍ من كرامةِ اللهِ ورحمَتِه وثَوابِه، لأنّ هَمّه كان مقصوراً على الدّنيا الدّنِيّة الزائلة ولَذائذِها الفانية، وأعرَض عن النِّعم الدائمة الباقية لقُصور العقل، وعدَم اليَقين بالمَعاد.

عن ابن عبّاس: أنّ المشركين كانوا يقولون، إذا وقفوا: اللّهمّ ارزُقنا ابلاً وغَنَماً وبَقَراً وعَبيداً وإماءً، وكانوا لا يَطلُبون التّوبَة والمَغفِرَة لأنّهم كانوا يُنكِرون البَعْثَ والمَعاد[٥].

أقول: وذلك جارٍ في حقّ بعضِ المؤمنينَ الّذين يكون همُّهم في الدّنيا، ويعمَلون لها، وذلك

---

١. تفسير الرازي ٥: ١٨٥.
٢. تفسير الرازي ٥: ١٨٥.
٣. تفسير الرازي ٥: ١٨٥.
٤. تفسير الرازي ٥: ١٨٦.
٥. تفسير الرازي ٥: ١٨٧.

مَبلَغهم مِن العِلم، مع أنّ مُقتَضى الإيمان الإعراضُ عن الدُّنيا وما فيها، والسّعي في تَحصيلِ النِعَم الباقية والرّاحة الدّائمة، فلا يطلُب المؤمن من الدّنيا إلّا مقداراً يكونُ له وسيلةً إلى نَيلِ السّعادةِ الأُخرَويّة، ولذا قال تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا﴾ وَهَبْ لَنا ﴿فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ وهي كلّ ما فيه السّعادة الدّنيويّة، وهي: روحانيّة وجسمانية داخليّة وخارجية.

في أنّ السعادة الدنيوية روحانية وجسمانية

أمّا السّعادة الروحانيّة: فكَمالُ القوّةِ النّظريّة بالعِلم، وكمال القوّة العملية بالأخلاقِ الجَميلةِ الفاضِلَة، فإنّهما زينَةُ المَرء في الدّارَين، وأمّا السّعادة الجِسمانيّة الداخليّة: وهي السّعادة البدَنيّة من الصِحّة والجَمال.

وأمّا السّعادة الخارجيّة فهي: المال والجاه والأقارب والأولاد، وهذه السّعادات كما أنّها حُظوظٌ في الدّنيا [فهي] مُقدّمات ووسائل لتَحصيلِ حُظوظ الآخِرة.

والظاهِر أنّ المُراد من الحَسَنة جميعُ ما لَه نفعٌ في الآخِرةِ، وليس حبُّها وطلَبُها من حبِّ الدّنيا وطَلَبِها، بل عينُ حُبِّ الآخِرة.

عن ابن عبّاس: أنّ رجلاً دعا ربّه فقال: ربّنا آتِنا في الدّنيا حسَنةً وفي الآخِرةِ حسَنةً وَقِنا عذابَ النّار. فقال النّبيّ ﷺ: «ما أعلَمُ أنّ هذا الرجُلَ سأل شيئاً من أمرِ الدّنيا».

فقال بعضُ الصّحابة: بَلىٰ يا رسول الله، [إنه] قال: ربّنا آتِنا في الدّنيا حسنةً! فقال رسول الله ﷺ: «إنّه يقول: آتِنا في الدّنيا عمَلاً صالِحاً»[١].

وعن الصادق عليه السلام في روايةٍ: «السّعَةُ في الرِزقِ [والمعاش] وحُسن الخُلق في الدّنيا»[٢].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «[أنّ الحسنة] في الدّنيا المَرأة الصالحة»[٣].

وقيل: إنّ المُراد بالحسَنةِ العِلم والعِبادة[٤]. والظاهِرُ أنّ جميع المذكورات أنواعُها، والجامِعُ ما ذكَرنا، وهو جميع ما يكون له نَفعٌ في الآخِرة، وما يكونُ مُعيناً على تَحصيلها.

ثُمَ أنّه لإظهارِ شِدّة الاهتِمام بالآخِرة، وأنّها المَطلوب النّفسيّ، خَصّ نِعَمَها أوّلاً بالذِّكرِ صَريحاً، بقوله: ﴿وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً﴾ وهي الثّواب والرّحمة[٥]. وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «هي الحَوراء»[٦].

---

١. تفسير الرازي ٥: ١٨٩.
٢. مجمع البيان ٢: ٥٣٠، تفسير الصافي ١: ٢١٧.
٣. تفسير روح البيان ١: ٣١٩، تفسير الصافي ١: ٢١٧.
٤. تفسير الصافي ١: ٢١٧.
٥. تفسير روح البيان ١: ٣١٩.
٦. تفسير روح البيان ١: ٣١٩، تفسير الصافي ١: ٢١٧.

وعن الصادق عليه السلام: «رِضوانُ الله والجَنّة»[١].

وتنكيرُ الحَسَنَةِ لعلّهُ لإظهارِ المَذلّة وعدم القابليّة لجَميعِ حسَناتِ الدّنيا والآخِرة، ولإظهارِ جنسها كأنّه يقول: يُغنيني حسنَةٌ واحِدة، فكيف بأكثَر منها؟ وملخّصه: أكثِروا من ذكر الله واسألوا سعادَتكم في الدّارَين.

ثمّ لإظهار أنّ أهمّ الأمور النّجاة من العِقاب، خصّه بالذِكر بقوله: ﴿وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ بالمُحافظة من ارتِكاب الشّهَوات واللذات المُؤدِّية إليه وبشُمول العَفو والمَغْفِرة.

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «هو عذابُ امرأة [السوء]» الخبر[٢]. ولعلّه لأنّ المرأة السّوء تُوقَعُ الرّوحَ في المَعاصي.

﴿أُولَـٰٓئِكَ﴾ الدّاعون بهذا الدُّعاء على هذا الوَصْفِ ﴿لَهُمْ نَصِيبٌ﴾ وافِرٌ حاصِلٌ وكائنٌ ﴿مِّمَّا كَسَبُوا﴾ وهو الدّعاء الذي هو من أعظَم العِبادات، أو المُراد: لهُم نَصيبٌ من جنسِ ما كسَبوا من الأعمالِ الصّالحة الحسَنة، فإنّ لكلّ عَملٍ ما يُسانِخُه من الأجر.

في كيفية الحساب

﴿وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال: «معناه أنّه يُحاسب الخلائق دُفعةً كما يَرزقهم دُفعةً»[٣].

وعن (تفسير الإمام عليه السلام) «لأنّه لا يَشْغَله شأنٌ عن شأنٍ، ولا مُحاسَبة عن مُحاسبة، فإذا حاسَبَ واحِداً فهو في تلك الحال مُحاسِبٌ للكُلِّ، يُتِّم حِسابَ الكُلّ بتَمام حِساب الواحد، وهو كقوله: ﴿مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾»[٤].

وتوصيف نفسه تعالى بسُرعةِ الحِساب لعلّه لأن لا يَخاف الدّاعي من طول الوُقوف في مَوقفِ الحِساب، بل يَطمئنّ بوُصولهِ إلى ما أُعدّ له في القيامة بأسرَع زَمان.

وقيل: إنّ المُراد من الحِساب مُجازاة الخَلق على أعمالهم[٥].

وقيل: إنّ الله يخلُق كَلاماً يسمَعُه الخَلقُ، يعلم به ما لَهُ وما عليه[٦].

عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه سئل: كيف يُحاسِب الله سُبحانَه الخَلْقَ ولا يَرَوْنَه؟ قال: «[كما] يرزُقُهم

---

١. التهذيب ٦: ٩٠٠/٣٢٧.
٢. تفسير أبي السعود ١: ٢٠٩، تفسير روح البيان ١: ٣١٩.
٣. مجمع البيان ٢: ٥٣١.
٤. التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام: ٣٥٨/٦٠٦، والآية من سورة لقمان: ٢٨/٣١.
٥. مجمع البيان ٢: ٥٣١.
٦. تفسير الرازي ٥: ١٩١.

ولا يَرَونَه»[١].

ونقل عن ابن عبّاس أنّه قال: لا حِسابَ على الخَلْق، بل يقِفون بين يدي الله تعالى، ويُعطَون كتُبَهم بأيمانِهم، فيها سيّئاتُهم، فيُقال لهم: هذه سيّئاتُكم قد تجاوزَتُ عنها، ثمّ يُعطَون حسَناتهم، ويقال: هذه حسَناتُكم قد ضاعَفتُها لكم[٢].

وَٱذْكُرُوا ٱللهَ فِى أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ فَمَن تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلا إِثْمَ عَلَيهِ لِمَنِ ٱتَّقَىٰ وَٱتَّقُوا ٱللهَ وَٱعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ[٢٠٣]

ثمّ أنّه تعالى لمّا ذَكر الوقوف في عرفات والمَشْعَر، وبيّن جملةً من وظائفهما، ذكر بعض أحكام الوُقوف بمِنى، بقوله: ﴿وَٱذْكُرُوا ٱللهَ﴾ بالتكبيرات في أعقابِ خَمس عَشرة صلاة من ظُهرِ يوم النَّحْرِ إلى صَلاة الفَجْرِ من اليَوم الثالِث ﴿فِى أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ﴾ قليلاتٍ مُسَمَّياتٍ بأيّام التَّشريق لِمَن كانَ بمِنى، وعَشْر صَلَواتٍ لِمَن كان بغَيرِ مِنى. وكيفيّة التّكبير: «الله أكبَر، الله أكبَر، لا إله إلّا الله، والله أكبَر، الله أكبَر، ولله الحَمد. الله أكبَر على ما هَدانا، الله أكبَر على ما رزَقنا من بَهيمةِ الأنعام» كذا روي عنهم عليهم السلام[٣].

وروي أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله أمر مُنادياً ينادي: «الحجّ عَرَفة، مَن جاء ليلة جَمْع[٤] قبلَ طُلوعِ الفَجْر فقد أدرَك الحَجّ، وأيّامُ مِنى ثلاثةُ أيّام» الخبر[٥].

﴿فَمَنْ تَعَجَّلَ﴾ في النَّفرِ وطلَب الخُروج مِن مِنى ﴿فِى يَوْمَيْنِ﴾ بعد يوم النَّحْرِ، إذا فرَغ من رَمْي الجِمار ﴿فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ في التَّعجيل ﴿وَمَنْ تَأَخَّرَ﴾ النَفر حتّى رمىٰ في اليوم الثالث ﴿فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ بالتأخير، فيكون الحاصل التَّخيير بين الأقلّ والأكثَر.

وقالوا: هذا رَدٌّ على أهلِ الجاهليّة، فإنّ منهم من آثَم وعيَّب المُتعجّل، ومنهم من عيَّب المُتأخِّر وآثَمه، فرَد الله عليهم بأنّه لا إثمَ في التّعجيل والتأخير[٦].

عن الصادق عليه السلام أنّه سئل عن هذه الآية، فقال: «ليس هو على أنّ ذلك واسع، إن شاء صنع ذا وإن شاءَ صنَع ذا، لكنّه يرجِع مغفوراً له لا إثمَ عليه ولا ذَنب له»[٧].

---

١. نهج البلاغة: ٥٢٨/٣٠٠. ٢. تفسير الرازي ٥: ١٩٠.
٣. تفسير الصافي ١: ٢١٨.
٤. جَمْع: علم للمزدلفة، سمّيت به لأنّ آدم عليه السلام وحواء لمّا أُهبطا اجتمعنا بها. ٥. تفسير الرازي ٥: ١٩٢.
٦. تفسير روح البيان ١: ٣٢١، تفسير الصافي ١: ٢١٩. ٧. من لا يحضره الفقيه ٢: ١٤٢٧/٢٨٩.

وهذا التّرخيص والتّخيير ثابتٌ ﴿لِمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ الله عزّ وجلّ. رُوي عن الباقِر والصادق عليهما السلام قال: «لِمَنِ اتّقى الصَّيد ـ يعني في إحرامِهِ ـ فإن أصابَه لم يكن له أن ينصَرِف[1] في النّفر الأوّل»[2].

وعن الباقر عليه السلام: «لِمَن اتّقى منهم الصَّيد، واتّقى الرَّفَث والفُسوقَ والجِدال وما حرّم الله عليه في إحرامِه»[3].

والحاصل: أنّ التّخيير ليس مطلقاً بالنسبة إلى كلّ حاجٍّ، بل هو لِمَن اتّقى. واختلف فيه على قولَين:

الأول: من اتّقى الصَّيد والنِساء في إحرامِه.

والثاني: من اتّقى سائر المحرّمات في الإحرام[4].

وعن الباقر عليه السلام: «اتّقى الكِبْرَ، وهو أن يجهَل الحقّ ويطعَن على أهلِه»[5].

عن الباقر عليه السلام أنّه سُئل عن هذه الآية، قال: «أنتم والله هم، إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال: لا يثبُت على ولاية عليّ عليه السلام إلّا المُتّقون»[6].

﴿وَٱتَّقُوا اللهَ﴾ أيّها الحاجّ المَغفور لهم ذُنوبهم، فلا تُعاوِدوا المُوبِقات فتعودَ إليكم أثقالُكم، فإنّ السيّئات تذهَب بالحَسَنات ﴿وَٱعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ فيُجازيكم بما تعمَلون.

قيل: كانوا إذا رجَعوا من الحَجّ يجتَرئون على الله بالمَعاصي، فشَدّد في تَحذيرهم[7].

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِى ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ * وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ وَٱللهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ[٢٠٤ ـ ٢٠٦]

ثمّ أنه تعالى لمّا أمر النّاس بالتّقوى، وكانت حقيقَتُه هو اليَقين بالله واليوم الآخِر، والخَوف الكامِن في القَلب، الباعث على العمَل بإخلاص النيّة وصميم القلب، ذكَر حال المُنافقين المُظهِرين للإيمان

---

١. في التهذيب والصافي: ينفر.
٢. التهذيب ٥: ٩٣٣/٢٧٣، وتفسير الصافي ١: ٢١٩ عن الصادق عليه السلام.
٣. تفسير العياشي ١: ٣٨٤/٢١٠، تفسير الصافي ١: ٢١٩.
٤. كنز العرفان ١: ٤/٣٢٠.
٥. تفسير الصافي ١: ٢٢٠.
٦. تفسير العياشي ١: ٣٨٩/٢١١.
٧. تفسير روح البيان ١: ٣٢١.

والتَقوى، المُبطنِين للكُفرِ والعِناد بقوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ﴾ ويَروقك ويَعظُم في قَلبك ﴿قَوْلُهُ﴾ بسبَب تَزيينِ البَيان بالورَع والتَقوى ليَطلُب حَظاً، إلّا أنّه يكون إعجابُه وحُسنه ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ من غير أن يكون لكلامِه المُعجب أثَر في الآخِرة، فإنّ الظَواهر تفيد في هذا العالم، وأمّا الآخِرة فهي عالَمُ كَشْفِ الحَقائق والواقعيّات، ليس فيها سِتر واشتِباه.

﴿وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ﴾ من اليَقين والإخلاص، ويحلِف بالله أنّ باطِنَه مُطابِق لظاهِرِه، ومُصَدِّق لكَلامِه ﴿وَهُوَ﴾ في هذه الحالةِ ﴿أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ﴾ وشَديد المُعارضة والعَداوة لله ولرَسوله وللمؤمنين.

في نفاق الأخنس بن شريق الثقفي

نقل أنّها نزَلت في الأخنَس بن شَريق الثَقفي، وهو حليف لبَني زُهرة، أقبَل إلى النَبيّ ﷺ وأظهَر الإسلام والمحبّة لرسول الله ﷺ ويحلِف بالله على ذلك، وهذا هو المُراد بقوله: ﴿يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ﴾ إلى آخره[1].

ورُوي عن ابن عبّاس أنّ كفّار قُرَيش بعَثوا إلى النَبيّ ﷺ: أنّا قد أسلَمنا، فابعَث إلينا نفَراً من عُلماءِ أصحابِك، فبعَث إليهم جَماعة فنزَلوا ببَطْنِ الرَّجيع، ووصَل الخبَر إلى الكُفّار، فرَكِب منهم سبعونَ راكباً وأحاطوا بهم وقتَلوهم وسلَبوهم، ففيهم نزَلت[2]. ويُرجّح الأوّل.

قوله: ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ﴾ وانصرَف من عندِك، وإذا صار غالِباً ووالياً ﴿سَعَىٰ﴾ واجتَهد ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ جَميعها، لا يتفاوت في نظَرِه مكان ﴿لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ﴾ نُقل أنّ الأخنَس لمّا انصرَف من عند النَبيّ ﷺ وخرَج من المدينة، مرّ بزَرعِ المسلمين فأحرق الزَّرع وقتَل الحُمر[3].

وقيل: كان بينه وبين ثَقيف عداوة، فأتاهُم ليلاً فأحرَق زَرْعَهُم وأهلَك مَواشيهم[4].

فإنّ هذه الآية أوفَق بما روي عن الأخنَس ممّا يُروىٰ عن ابن عبّاس.

وقيل: إنّ الأخنَس سعىٰ في إدخالِ الشُبْهَة في قُلوبِ المُسلمين، وتَقْوِيَة الكُفْر[5]، وتَضعيف الاسلام. وهذا هو السَّعي للفَساد في الأرضِ لأنّه مُوجِبٌ للاختِلاف بين النّاس وتَفريق كلمتهم، فيتَبرّأ بعضُهم من بعض، ويتقطّعون أرحامَهم، ويشتَغِلون بالحَرْب، فيُهلك الحَرْثَ والنَّسل.

---

١. تفسير الرازي ٥: ١٩٧.
٢. تفسير الرازي ٥: ١٩٧.
٣. تفسير الرازي ٥: ١٩٧.
٤. تفسير روح البيان ١: ٣٢٣.
٥. تفسير الرازي ٥: ٢٠٠.

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «﴿وَيُهلِكَ الحَرثَ والنَّسلَ﴾ بظُلمِهِ وسوء سِيرَتِه»[1] الخبر، ويُحتَمل كَون المُراد أنّ الظُّلم مُوجبٌ لانقِطاع الرَّحمة وارتِفاع البرَكة.

وعن الصادق عليه السلام: «الحَرثُ في هذا المَوضِع الدِّين، والنَّسلُ: النّاس»[2].

﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ﴾ ولايُريد بالإرادةِ التَّشريعيّةِ ﴿ٱلْفَسَادَ﴾ في الآفاقِ والأنفُسِ، أو لا يُريد بالإرادة التّكوينيّة والتّشريعيّة الفَسادَ المَحْض الذي لا يَشوبُه صَلاح.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ﴾ عِظَةً ونُصْحاً ﴿ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ وخَفْ عذابَه، واترُكِ الفَسادَ، واحذَرْ سُوءَ عاقِبته ﴿أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ﴾ والأنَفَةُ ﴿بِالإِثْمِ﴾ وحمَلَتْهُ عليه لَجاجاً ﴿فَحَسْبُهُ﴾ وكافِيه ﴿جَهَنَّمُ﴾ جَزاءً ونَكالاً على سُوءِ فِعاله ﴿وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ والفِراش المُمَهَّد والمُستَقرّ المؤبَد هي.

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَاءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ[٢٠٧]

ثمّ أنّه تعالى لمّا بيّن حال المُنافِق الذي باعَ دينَه بدُنياه، عقّبه بذِكر حال المؤمن المُخلِص الذي باعَ دُنياه بدِينه، بقوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ المؤمنين ﴿مَن يَشْرِى﴾ ويَبيع ﴿نَفْسَهُ﴾ من الله ﴿ٱبْتِغَاءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾ ويبذُل شَراشِر وُجودِه[3] في سَبيل الله، وطَلَباً لرِضوانه ﴿وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ المؤمنين، يدفَع عنهم كلّ ضُرٍّ، وينزل عليهم بكلّ خَير.

عن (تفسير الإمام عليه السلام): «هؤلاء خِيار أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله عذّبهم أهل مكّة ليضلّوهم عن دينِهم، فمنهم بِلال وَصُهَيب وخبّاب وعمّار بن ياسِر وأبَواه»[4].

وعن ابن عبّاس: أنّ هذِه الآية نزَلت في صُهَيب بن سِنان مولى عبدالله بن جُدْعان[5]، وفي عمّار بن ياسر، وفي سُمَيّة أُمّه، وفي ياسر أبيه، وفي بِلال مولى أبي بكر، وفي خَبّاب بن الأرَتّ، وفي عابِس مولى حُوَيطِب، أخَذهم المُشركون فعذّبوهم، فأمّا صُهَيب فقال لأهل مكة: إنّي شيخٌ كبيرٌ، ولي مالٌ ومَتاع، ولا يَضُرّكم كنتُ مِنكم أو من عدوّكم، تكلّمتُ بكلام وأنا أكرَه أن أنزِل عنه، وأنا أُعطيكم مالي

---

١. تفسير العياشي ١: ٣٩٤/٢١١، الكافي ٨: ٤٣٥/٢٨٩.

٢. تفسير القمي ١: ٧١، مجمع البيان ٢: ٥٣٤.

٣. أي جميع وجوده وكيانه، والشراشر: أطراف الأجنحة، والجسم بجملته ويقال: ألقى عليه شراشره، أي اعباءَه وهمومه، أو ألقى عليه نفسه حرصاً ومحبّةً.

٤. التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام: ٣٦٥/٦٢١.

٥. في النسخة: عبدالله بن صرحان.

ومَتاعي، واشتري منكم ديني، فرَضوا منه بذلك وخَلّوا سبيلَه، فانصرَف راجعاً إلى المَدينة، فنزلت.

وأمّا خَبّاب بن الأرَتّ، وأبو ذرّ، فقد فرّا وأتَيا المدينة. وأمّا سُمَيّة فرُبطَت بين بَعيرَين ثمّ قُتِلت، وقُتِل ياسر. وأمّا الباقون فأعطَوا بسبَب العَذاب بعضَ ما أراد المُشرِكون فترِكوا. الخبر[1].

وعنه أيضاً: أنّها نزَلت في رجلٍ أمَر بالمَعروف ونَهى عن المُنكَر[2].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «أنّ المُراد بالآيةِ الرّجل يُقتَل على الأمرِ بالمَعروف والنّهي عن المُنكَر»[3].

في قصة ليلة المبيت

وقال الفخر في (تفسيره): والرواية الثالثة: أنّها نزَلت في عليّ بن أبي طالب عليه السلام باتَ على فِراش رسول الله صلى الله عليه وآله ليلةَ خُروجِه إلى الغار.

قال: ويُروى أنّه لمّا نامَ على فِراشه قامَ جَبْرَئيل عند رأسِه، وميكائيل عند رِجلِه، وجَبْرَئيلُ ينادي: بَخٍ بَخٍ، مَن مِثلُك يا بن أبي طالب، يُباهي الله بك المَلائكةَ؛ ونزلت الآية[4].

وقال الفيض رحمه الله: روت العامّة عن جماعةٍ من الصَّحابة والتّابعين، والعيّاشيّ، وعدّة من أصحابنا عن أئمّتنا عليهم السلام في عدّة أخبارٍ أنّها نزَلت في أمير المؤمنين عليه السلام حين باتَ على فِراش النبيّ صلى الله عليه وآله. الخبر[5].

ويمكن الجَمْع بين الرّوايات بالقَول بتكرّر نُزول الآية بعد نُزولها أوّلاً في مكّة في أميرِ المؤمنين عليه السلام ليلَة المَبيت.

وأمّا قول أمير المؤمنين عليه السلام: «المُراد الرّجُل يُقتَل» إلى آخِره، فلعلّ المُراد أنّ مَورِد نُزوله وإنْ كان خاصّاً، إلّا أنّ عنوانَ الآية بعُمومِه يَشمُل هذا المَقتول، بَل يَشمُل كلَّ مَن نصَر دين الله، وبذَل نفسَه في سبيلِ الله، وإن كان أفضَلهم وسَيّدهم ومُقتَداهم أمير المؤمنين عليه السلام.

والعَجَب كلّ العجَب مِمّن يروي قولَ جَبْرَئيل في عليّ عليه السلام: مَن مِثلُك، إلى آخِره، ثمّ يُفضّل غيرَه عليه.

يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱدْخُلُوا فِى ٱلسِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ ٱلشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ * فَإِن زَلَلْتُم مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ ٱللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ [٢٠٨ و ٢٠٩]

١. تفسير الرازي ٥: ٢٠٤.
٢. تفسير الرازي ٥: ٢٠٤.
٣. مجمع البيان ٢: ٥٣٥.
٤. تفسير الرازي ٥: ٢٠٤.
٥. تفسير الصافي ١: ٢٢١.

ثمّ أنّه تعالى لمّا حكى عن بعض النّاس مضادّة الإسلام، وعن بعضٍ الخُلوصَ فيه، أمر كلّهم بالانقِياد، بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا ٱدْخُلُوا فِي ٱلسِّلْمِ﴾ والطّاعَةِ، والانقِيادِ لله ورَسولِه ﴿كَافَّةً﴾ وجميعها. أو المُراد: التَزموا أحكامَ الإسلامِ بألسِنَتِكُم وقُلوبِكم جميعاً ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ ٱلشَّيْطَانِ﴾ بالتفرّق والتفريق، أو بمُخالفة ما اُمِرتُم به.

قيل: نزَلت في طائفةٍ من مُسلِمي أهلِ الكِتاب، كعبدِالله بن سَلّام وأصحابه، وذلك لأنّهم حين آمنوا بالنّبيّ ﷺ أقاموا بعدَه على تعظيم شرائع موسى عليه السلام فعظّموا السّبتَ، وكَرِهوا لُحومَ الإبلِ وألبانِها، وكانوا يقولون: تَركُ هذه الأشياء مُباحٌ في الإسلام وواجِبٌ في التّوراة، فنحنُ نترُكها احتياطاً، فكَرِه الله ذلك منهم وأمرَهم أن يَدخُلوا في السِّلم كافّةً، أي في كافة شرائع الاسلام[1].

وعن (تفسير الإمام عليه السلام): «[يعني] في السّلام[2] والمُسالَمة إلى دين الإسلام ﴿كَافَّةً﴾ جماعةً[3] فيه، وادخلوا في جميع الإسلام، فتقبّلوه واعمَلوا به، ولا تَكونوا ممّن يَقبَل بعضَه ويعمَل به، ويأبىٰ بعضَه ويَهجُره. ومنه الدّخول في ولاية علي عليه السلام فإنّه كالدّخول في نبوّة رسول الله ﷺ، فإنّه لا يكونُ مُسلِماً مَن قال إنّ محمّداً رسول الله، ولم يعتَرِف بأنّ عليّاً وصيُّه وخَليفتُه وخَيرُ اُمّتِه. ﴿خُطُوَاتِ ٱلشَّيْطَانِ﴾ ما يتخَطّى بكم إليه من طُرق الغَيّ والضلالة، ويأمُركم [به] من ارتِكاب الآثام والمُوبِقات»[4].

وعن (العيّاشيّ): عن الصادق عليه السلام: «ولاية عليّ عليه السلام والأئمّة الأوصياء من بَعدِه، وخُطُوات الشّيطان: ولاية فُلان وفُلان[5]». وفي رواية: «الثّاني والأوّل»[6].

عن النّبيّ ﷺ قال: «إنّ الله تعالى أظهَر الشكايةَ مِن اُمّتي، وقال: إنّي طرَدتُ الشّيطانَ لأجلِهم، [فهم] يَعصُونَني ويُطِيعون الشّيطان»[7].

واعلَموا ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ ظاهِرُ العَداوةِ ﴿فَإِنْ زَلَلْتُمْ﴾ وأخطَأتُم الحَقّ، وكَففتُم أنفُسَكم عن الدّخول في السّلم ﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ﴾ الآياتُ ﴿ٱلْبَيِّنَاتُ﴾ والحُجَجُ الظاهِرات، على أنّ ما دُعِيتم إليه حقّ ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ ٱللهَ عَزِيزٌ﴾ غالِبٌ لا يَعجِزُ عن الانتقام، ولا يمنع عن مُراده شيء، لكَمالِ قُدرَتِه،

---

١. تفسير الرازي ٥: ٢٠٧.　　٢. في المصدر: السلم.　　٣. زاد في المصدر: ادخلوا.
٤. التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام: ٦٢٦/٣٦٦.
٥. تفسير العياشي ١: ٢١٣/٣٩٨.　　٦. تفسير العياشي ١: ٢١٤/٤٠٣.
٧. تفسير روح البيان ١: ٣٢٦.

وقوّة سُلطانِه ﴿حَكِيمٌ﴾ لا يَنتَقِم إلّا بالحَقّ، ولا يعذّب إلّا بالاستِحقاق.

هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ[٢١٠]

ثمّ أنّه تعالى بعد انهماك بَيانِ المُنافقين والمُشركين في العِناد واللّجاج، وثَباتهم على الكُفر والفَساد، أعرَض عن مُخاطَبَتِهم بالالتِفات إلى الغَيْبَة كأنّه يُخاطِب العُقَلاء ويَستَفْهِم عن سبَب عِنادهم، تَوبيخاً وإنكاراً عليهم، بقوله: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ﴾ وَينتَظِرون من عدَم الدُخول في الاستِسلام والوقوف على الكُفر والنِفاق بعد إتمام الحُجّة، ومَشاهَدة ما يُمكن ظُهوره من الآيات والمُعجِزات وقَطع العُذر في التمرّد والمُخالفة ﴿إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللّهُ﴾ ببأسِه وعَذابِه الكائِن ﴿فِى ظُلَلٍ﴾ وقِطَعِ مُظَلّلاتٍ ﴿مِنَ ٱلْغَمَامِ﴾ والسَّحاب الذي يتوقَّع منه الرَحمة، فيَنزِل به العَذاب والنَقمة، ﴿وَ﴾ يأتيهم ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ الذين هم وسائط العَذاب. أو المراد: أو يأتيهم العَذابُ في جَمعٍ من المَلائكة ﴿وَ﴾ الحال أنّه ﴿قُضِىَ الأَمْرُ﴾ وتمّ إهلاكُهم، وفُرِغ منه، وبدا لهم ما لم يكونوا يَحْتَسِبونَ ويتوقّعونَ، فوُضِع الماضي مَوضِع المستقبَل لتحقّق الوقوع. وملخّصه أنّ الحجّة قد قامت وتمّت عليهم بحيث لم يبقَ لهم انتِظار إلّا نُزول عَذاب الاستئصال، ويمكن أن يكون المُراد: بل ينتَظِرون يومَ القيامة الذي تَشَقّق فيه الغَمام، وتَنزّل الملائكةُ تنزيلاً.

﴿وَإِلَى اللّهِ﴾ في ذلك اليوم ﴿تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ كلّها، ومنها تعذيب اُولئك المصرّين على الكُفر. والتعبير برجوع الاُمور إليه باعتِبار أنّه تعالى قد مَلّك النّاس اُموراً في الدّنيا امتِحاناً، فإذا جاء يومُ القيامة تُرجَع جميعُ الاُمور في الظاهِر والواقع من غيرِه إليه وحدَه، لا قُدرَة لغَيره على شيءٍ ولو في الظاهر.

عن (تفسير الإمام عليه السلام) في تفسير الآية: «أي هل ينظُر هؤلاء المكذّبون بعد إيضاحِنا لهم الآيات، وقَطْعِنا معاذِيرَهم بالمُعجِزاتِ إلّا أن يأتِيَهمُ الله في ظُلَلٍ من الغَمام وتأتيهم الملائكةُ، كما كانوا اقترَحوا عليك اقتِراحَهم المُحال في الدّنيا، في إتيانِ اللهِ الذي لا يَجوزُ عليه الإتيانُ، واقتِراحهم الباطِل في إتيانِ الملائكةِ الذين لا يأتون إلّا مع زَوالِ هذا التعبّد لأنّه[1] وقت مَجيء الأملاك بالإهلاك، فهم

١. في المصدر: التعبد، وحين وقوع هلاك الظالمين بظلمهم ووقتك هذا وقت تعبّد لا.

في اقتِراحِهم مجيىءَ الأملاكِ جاهِلون ﴿وقُضِيَ الأَمرُ﴾ أي هل يَنظُرون [إلّا] مجيء الملائكة، فإذا جاءوا وكان ذلك ﴿قُضِيَ الأمرُ﴾ بهَلاكهم» الخبرَ[١].

وأمّا ما عن القمي رحمه الله: عن الباقر عليه السلام قال: «إنّ الله إذا بدَا له أن يُبيِّن خَلْقَه ويجمَعَهم لِما لابُدّ منه، أمرَ مُنادِياً يُنادي فاجتَمع الجِنُّ والإنسُ في أسرَع من طَرْفَة عين، ثمّ أذِن لسماء الدُنيا فتَنزل فكان من وراء النّاس، وأذِن للسماء الثانية فتَنزِل، وهي ضِعفُ التي تَلِيها، فإذا رآها أهلُ السماء الدُنيا، قالوا: جاء ربُّنا؟ قالوا: لا، وهو آتٍ ـ يعني أمره ـ حتّى تَنزِل كلُّ سَماءٍ، تكون كلُّ واحدةٍ منها من وراء الأُخرى، وهي ضِعفُ التي تَلِيها.

ثمّ ينزِل أمرُ اللهِ في ظُلَلٍ من الغَمامِ والملائكةُ وقُضِيَ الأمرُ وإلى ربك تُرجَع الأمور. ثمّ يأمر [الله] منادياً ينادي ﴿يَا مَعْشَرَ ٱلجِنِّ وَٱلإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلأَرْضِ فَٱنفُذُوا لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾»[٢] فلا ظهور له في تفسير الآيةِ، بل هو بيانُ بعضِ أهوالِ يوم القيامة، وإن عبّر عن بعضِها بعِبارة الآية.

وأمّا ما عن العيّاشي رحمه الله: عنه عليه السلام في هذه الآية، قال: «ينزِل في سَبعِ قِبابٍ من نورٍ، لا يُعلَم في أيِّها هو حين ينزِل في ظَهرِ الكوفة، فهذا حين يَنزِل»[٣]. فهو تأويلٌ للآيةِ، كالرّواية الأُخرىٰ، عنه عليه السلام قال: «كأنّي بقائِم أهلِ بيتي قد عَلا نَجَفَكُم، فإذا عَلا فوق نَجَفِكم نشَر رايةَ رسول الله صلى الله عليه وآله، فإذا نشَرَها انحَطَّتْ عليه ملائكةُ بدر»[٤].

وقال: «إنّه نازِلٌ في قِبابٍ من نورٍ حين يَنزِل بظَهرِ الكوفةِ على الفاروق، فهذا حين ينزِل، وأمّا ﴿قُضِيَ الأَمرُ﴾ فهو الوَسْمُ على الخُرطومِ يوم يُوسَم الكافِر»[٥] فتأويل.

ويمكن أن يكون المعنى: هل ينتظِر هؤلاء الكفَرةُ في تأخيرهم الايمانَ مَجيءَ وقتٍ لا ينفَع الذين كفَروا إيمانُهم ولا هم يُسْتَعتَبون؟ وهذا الوقت إمّا وقت نُزول عذاب الاستئصال بالغَمام والملائكة، كعذاب قوم شُعَيب، أو وقت ظهور القائم المُنتظَر عليه السلام، ورَفع التّوبة، وهو القيامة الصُّغرىٰ، أو يوم القيامة الكُبرىٰ.

---

١. التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام: ٣٦٧/٦٢٩.
٢. تفسير القمي ٢: ٧٧، والآية من سورة الرحمن: ٣٣/٥٥.
٣. تفسير العيّاشي ١: ٤٠٥/٢١٤.
٤. تفسير العيّاشي ١: ٤٠٦/٢١٤.
٥. تفسير العياشي ١: ٤٠٧/٢١٥.

وإن كان الأظهَر والأشهر ما ذكرنا من حَمْل رواية التَفسير، أو هي مع رواية القمّي رحمه الله عن الباقر عليه السلام على التَفسير، وحَمل رواية العيّاشي وما هو على مضمونه على البَطْن والتأويل.

سَلْ بَنِى إِسرَاءِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللهِ مِن بَعْدِمَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ ٱللهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ[٢١١]

ثمَ أنَه تعالى بعد بيان حال الكفَار والمنافقين، وشِدّة لجاجهم على الباطل، وتهديد المُعاندين للحقّ على الزَّلَل والعِصيان؛ ذكَر حالَ أمّة موسى عليه السلام وشِدّة جَهْلِهم وعِنادِهم للحقّ بعد ظُهور الآياتِ لهم مُبالغةً في زَجْرِ حاضِري عَصْر النّبيّ صلى الله عليه وآله وتَسْليةً لِقَلْبه الشريف بقوله: ﴿سَلْ بَنى إِسْرَاءِيلَ﴾ لا لتحصيلِ العِلم، بل لأخذِ الاعتِراف منهم والتَّبكيتِ والتَقريع عليهم ﴿كَمْ آتَيْنَاهُم﴾ وأنزلنا إليهم ﴿مِن آيَةٍ﴾ ومعجزةٍ أو دلالةٍ ﴿بَيِّنَةٍ﴾ ظاهرةٍ واضحةٍ على صِدق الأنبياء، إذ [إنّ] في الكتب السماوية التي عندهم دلالةً ظاهرةً على صِدق محمّد صلى الله عليه وآله.

ومن الواضح أنّ كلَ واحدٍ من المُعجزات الدّالّة على صِدق الأنبياء، والآيات الدّالّة على صِحّة دين الإسلام وصِدْقِ محمّدٍ نعمةٌ عظيمةٌ موجبةٌ لهدايتهم إلى الحقّ، ونَجاتهم من الضّلال، فبدّلوا هذه النعمة بأن جعَلوها سبباً لضَلالهم، إن كان المُراد من الآية معجزات الأنبياء، أو بأن حرّفوها، إن كانت آيات الكُتب، وشَواهد صِدق النبيّ صلى الله عليه وآله ودينه.

﴿وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللهِ﴾ ويُغيّرها عن جِهَتِها أو يحرّفها ﴿مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ﴾ النّعمةُ، يُعاقِبه الله بعقوبةٍ شديدةٍ ﴿فَإِنَّ ٱللهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ لأنّه عظيمُ الجرم.

زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ٱلْحَيَاةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ وَٱللهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ[٢١٢]

ثمَ ذكر الله سبحانه سبب تَغييرهم النّعمةَ وتَبديلِهم الآيات بقوله: ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بنعمةِ الله، وحَسُنَت في أعيُنِهم ﴿ٱلحَياةُ الدُّنيا﴾ وأمتِعَتُها ولذائذها لِضَعْفِ عُقولهم وقوّة شَهواتهم ﴿وَ﴾لذا ﴿يَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ آمَنُوا﴾ ويستهزئون بهم حيث ترَكوا الدُّنيا وزَهِدوا فيها واختاروا الآخِرَة.

عن ابن عبّاس: نزَلت في أبي جَهْل ورؤساء قُرَيش، كانوا يَسْخَرون من فُقَراء المُسلمين كعبدالله

بن مَسعود، وعَمّار، وخَبّاب، وسالم مولى أبي حُذَيفَة، وعامِر بن فُهَيْرَة، وأبي عُبَيْدَة بن الجَرّاح، بسبَب ما كانوا فيه من الفَقْر والضُّر، والصَّبر على أنواع البَلاء، مع أنّ الكفّار كانوا في النِّعم والرّاحة[١].

وقيل: نزَلت في رؤساء اليهود وعلمائهم من بني قُرَيْظَة والنَّضِير والقَيْنُقاع، سَخِروا من فقراء المُسلمين المُهاجرين حيث أُخرِجوا من ديارهم وأموالهم[٢].

وقيل: نزلت في المُنافقين عبدالله بن أُبَيّ وأصحابه، كانوا يسخَرون من ضعفاء المُسلمين و[فقراء] المهاجرين[٣].

أقول: ويُمكنِ القولُ بنُزولها في جَميعهم.

﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا﴾ واجتنَبوا مخالفة أحكام الله من المؤمنين ﴿فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ﴾ لأنّ المُتَّقِينَ في أعلىٰ عِلِّيِّين والدّرجةِ الرفيعةِ من الجِنان، والساخِرينَ في أسفَل السّافلين من النّار وحَضيض الذلّة والهَوان. ويُحتَمل أن يكون تفوّقهم من حيث السّخرية، فإنّ سُخرِية المؤمنين في القيامة فوق سُخرِية الكُفّار في الدّنيا.

ثمّ أنّه لمّا كان للكُفّارِ أن يقولوا: اذا كان المؤمنون المُتّقون أكرَم عند الله فَلِمَ يَعيشون في الشدّة والفَقْر؟ فرَدّهم بقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ﴾ من خَلقِه في الدُّنيا ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ وتقديرٍ، فيوسّع استِدراجاً تارةً، وابتِلاءً أُخرىٰ، أو المُراد أنّ رِزقَ الدُّنيا قليلٌ، ويَرزُق في الآخرةِ مَن يشاء مِن عبادِه بغير حسابٍ وينعّم المؤمنين في الجنّة بلا إحصاء.

كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَابَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَاتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا لِمَا ٱخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ[٢١٣]

ثُمّ بيّن الله تعالى أنّ هذه المُعانَدة والمشاقّة مع الأنبياء ليست ممّا حدَث في هذا الأوان أو بعد موسى، بل كانت من قديم الزّمان قبل نوحٍ وبعد آدم، بقوله: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ﴾ جميعُهم في أوّل الأمرِ بعد وفاة آدَم ﴿أُمَّةً واحِدَةً﴾ وجماعةً مُجتَمِعين على الجَهل، لا يدرون ما الإيمانُ وما الكُفر وما

---

١. تفسير الرازي ٦: ٥. ٢ و ٢. تفسير الرازي ٦: ٥.

الشِّرك، وكانوا على الفِطْرةِ والاستِعداد لقَبول الحقّ، كما عن (المجمع) عن الباقر عليه السلام: «أنّهم كانوا قبل [نوح] أمّةً واحدةً على فِطرةِ الله، لا مُهتَدين ولا ضُلّالاً»[1] الخبر.

﴿فَبَعَثَ آللّهُ﴾ فيهم ﴿النَّبِيِّين﴾ حال كَونِهم ﴿مُبَشِّرِينَ﴾ للمؤمنين بوَحدانيّته وأنبيائه وشرائعه، بفَضلِه وثَوابه ﴿وَمُنْذِرِينَ﴾ للكافِرين بها من عقابه.

عن (الكافي): عن الصادق عليه السلام قال: «كان [النّاس] قبل نوحٍ أمّةً ضلال، فبدا لله فبعَثَ النبيّين، وليس كما يقولون: لم يزل، [و]كذبوا، يَفرُق [الله] في ليلة القَدر ماكان من شِدّةٍ أو رَخاء أو مَطَر بقدر ما شاء أن يَقدِّر إلى مثلِها»[2] الخبر.

لعلّ المُراد أنّ الله لم يترُك الخَلْقَ سُدىً، وما كانت يَدُه مغلولةً، فكما أنّه يُدبر أمورَ معاشِهم في كلّ آنٍ ويُقدّرها في كلّ سنةٍ، كذلك يُدبّر أُمورَ دينهم ببَعْثِ الرُّسُلِ.

إشكال وحلّ

فإن قلتَ: يلزَم على الرّوايتَين أن يكون زمانٌ [ما] خالياً من الحُجّةِ، وهو خِلافُ ما عليه الإماميّة وما دلّت عليه الرّوايات المُتَظافِرة إن لم تَكُن مُتَواتِرة.

قلتُ: لعلّ التّرتُّب المُستَفاد من الفاء هو التّرتُّب العَقليّ لا الزّماني، فإنّ النّبيّ وإن كان قبل الخَلْق، ولكن البَعث لايتحقّق إلّا بعد وجُود المَبعوث إليه، فيكون مَفاد الآية ـ والله العالم ـ أنّه لو لم يكن بَعثُ النَّبيّين، لم يَكُن اختِلافٌ بينَ النّاس لأنّ كلّهم كانوا جُهّالاً وضُلّالاً، فلمّا بُعِث الرُّسلُ حدَث الاختِلاف بينَهم، ولم يَحدُث إلّا بوجود الاخلاق الرّذيلة من الحسَد والبَغْي على النّبيّ صلّى الله عليه وآله.

توضيح بتمثيل

وهذا نَظير ما قيل من أنّ الأجسام ليس لها لَون وإنّما اللّون إذا أشرَقت الأجسام، فإذا وقَع الشُّعاع على الجِسم فبِحَسب الاستعداد الّذي يكون للجِسم يحصُل للنّور لَونٌ مُناسبٌ لما في كون الجِسم من الاستِعداد والخُصوصيّة، ففي الحقيقة الألوان المختلفة تكون للنّور لا للجِسم، وانّما يظهَر كلُّ لونٍ من الألوان للنّور بسببَ انعِكاسه على الجِسم الذي تكون فيه خصوصيّة مناسبة لذلك اللّون، فكذلك النُّفوس البَشريّة ليس فيها فعليّة الاختِلاف في الإيمان والكُفر، ولو لم يَكُن إشراقُ نور شَمسِ النبوّةِ والهداية، كانت جَميع النُّفوس مُتساوية. فإذا أشرَق نور النبوّة ظهَر الاختِلاف فيهم بالإيمان والكُفرِ على حسَب اختِلاف الاستِعدادات والخصوصيّات، فمَن كانت نَفسُه مستعِدّة لقَبول الحقّ، ولم يغلِب عليها الحسَد والبَغْي يكون من أهلِ الإيمان على اختِلاف مَراتِبه، ومَن فيه الخَباثة

---

١. مجمع البيان ٢: ٥٤٣.

٢. الكافي ٨: ٨٢/٤٠، تفسير الصافي ١: ٢٢٤.

والحسَد وحُبّ الجَاه يكون من أهلِ الكُفر والعِناد على اختِلاف مَراتبِهما.

ويمكن أن يقال كما قيل: إنّ الخَلق قبلَ بَعثِ الرُّسلِ ـ حتّى آدَم عليه السلام ـ كانوا على العقائد العقليّة، كوحدة الصّانع، والأحكام العقليّة كوجوب شُكرِه وقُبح الظُّلم والكِذب، وحُسن العَدْل والاحسان وغير ذلك، فلمّا نزلت الأحكام الشرعية من العبادات والسياسات على آدم عليه السلام وبُعِث على أولاده انقادوا له، ثمّ حصَل الاختِلاف بين قابيل وهابيل، وأبدِع الكُفر.

ثمّ بعد وفاة آدم عليه السلام وبعد بُرهةٍ من الزّمان نَسُوا الشّرائع الالٰهيّة ورجَعوا إلى الشرائع العَقليّة، ثمّ بعَث الله النبيّين، ثمّ اختلَفوا لأسبابٍ مُفَصّلة، وللأخلاق الرّذيلة.

وأشيرَ إلى هذا المعنى فيما روي عن الصادق عليه السلام قال: «[كان] هذا قبل بعثِ نوحٍ، كانوا اُمّةً واحِدةً فبدا لله فأرسَل الرُّسُلَ قبل نوح».

قيل: أعلى هُدىً كانوا أم على ضلالٍ؟ قال: «بل كانوا ضُلّالاً، لا مؤمنينَ ولا كافِرين ولا مُشرِكين»[1].

وفي رواية عنه عليه السلام قال: «ذلك أنّه لمّا انقرَض آدَمُ وصالِحُ ذُرّيّته، بقي شيث وصيُّه لا يَقدِر على إظهارِ دينِ الله الذي كان عليه آدم وصالِحُ ذُرّيّته، وذلك أنّ قابيل توعّده بالقَتْل كما قتَل أخاه هابيل، فسار فيهم بالتقيّة والكِتْمان فازدادوا كلّ يومٍ ضَلالاً حتّى لَحِق الوصيُّ بجَزيرةٍ في البَحْرِ يعبُد الله، فبدا لله تبارك وتعالى أن يبعَث الرُّسُلَ. ولو سُئِل هؤلاء الجُهّال لقالوا: قد فرَغ من الأمرِ، وكذَبوا، إنّما شيءٌ يحكم به الله في كلّ عامٍ [ثمّ قرأ]: ﴿فيهَا يُفرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾[2] فيُحكم الله تعالى ما يكون في تِلك السنَة مِن شِدّةٍ أو رَخاء، أو مطَر أو غير ذلك».

قيل: أفي ضَلالةٍ كانوا قبل النبيّين أم على هُدى؟ قال: «لم يكونوا على هُدى، كانوا على فِطْرَة الله التي فطرهم عليها لا تَبديلَ لخلق الله، ولم يكونوا ليَهتَدوا حتّى يهدِيهمُ الله، أما تسمَع قول إبرهيم عليه السلام: ﴿لَئِن لَم يَهْدِنِى رَبِّى لأَكُونَنّ مِنَ القَوْمِ الضَّالِّينَ﴾[3]؟ أي ناسياً للمِيثاق»[4] الخبر.

في ذكر غيبة القائم عليه السلام وعدم استلزامها منع اللطف

وليُعلَم أنّ غيبةَ شِيث كغَيبةِ القائم المُنتَظر عليه السلام في آخر الزّمان، ولا يلزم منها مَنْع لُطفٍ على الله، فإنّ تأسيس الدِّين وإتمام الحُجّة على الخَلْقِ كان سبَبَة النبيُّ الشارع والأوصياء بعد الأنبياء، الذين هم ذَوو الشرائع كوَصيّ خاتم النّبيين صلى الله عليه وآله حفّاظ

---

١. تفسير العياشي ١: ٤١٠/٢١٥، تفسير الصافي ١: ٢٢٤.
٢. الدخان: ٤/٤٤.
٣. الأنعام: ٧٧/٦.
٤. تفسير العياشي ١: ٤١٣/٢١٦، تفسير الصافي ١: ٢٢٤.

للشّرع، فإذا مُنِعوا عن إظهار الحقّ وحفاظته، وآتّقوا من الجبابِرة، لم يكن للنّاس على الله حُجّة لكونِ ذلك بسوءِ آختيارهم، مع أنّ بركاتهم في غَيْبَتِهِم متّصِلة إلى المَوادّ المُستَعدَة، لو توَجّهوا إليهم واستَمَدّوا منهم.

ثمّ تَوصيفهم [في كتاب] الله تعالى بأنّهم مُبَشِّرين ومُنذِرين دلالة على أنّ الأحكام والشرائع لو لم يقترنا بالتّبشير بالثّواب والأجر والإنذار بالعَذاب أو العِقاب لكانَ جعلُها لَغواً، حيث إنّه لو لم يكُن الطّمع والخَوف، لم يعمَل أحَد بحُكم من الأحكام، ولا يجري شرَعٌ من الشّرائع في الأنام.

ثمّ بيّن سُبحانَه أنّه لم يقنَع في الهِداية بإرسال الرُّسل، بل ﴿وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَابَ﴾ مُتَلَبِّساً ﴿بِالحَقِّ﴾ ودلائل الصِّدق.

والظاهر أنّ المُراد بالكِتاب جِنسُه، فإنّ المَرويّ أنّ عدَد الأنبياء مائة وأربعة وعِشرون ألفاً، والمُرسَل منهم ثلاثمائة وثلاثة عشَر، والمذكور منهم في القرآن [باسم العَلَم] ثمانية وعشرون[1] ولم ينزل مع كلّ واحدٍ منهم كتابٌ، بل الأنبياء بعد موسى عليه السلام كان كِتابهُم هو التّوراة، وكانوا حافِظين لأحكامِها، وكذلك الأنبياء بعد عيسى عليه السلام كان كتابهم الإنجيل، وكانوا حافِظين له، وإن كان لبَعضِ النّبيّين كداود عليه السلام كتابٌ ولكن لم يكن فيه أحكام.

﴿لِيَحْكُمَ﴾ النّبيُّ أو الكِتاب المُنزَل عليه ﴿بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ وليكونَ المَرجِعُ عِندَهم ﴿فِيمَا ٱخْتَلَفُوا فيه﴾ من الحقّ والدّين ﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ فيه إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ﴾ وأُنزِل إليهم لرَفعِ الاختِلاف من بَينِهم، فجعَلوا الكتابَ الذي أُنزِل لرفع الاختِلاف وسيلةً لشِدّة الاختِلاف ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَاتُ﴾ والدّلائل الواضِحات على الحَقّ بحيث لم يكُن مَجالٌ لأن يشتَبِه عليهم، وإنّما كان الاختِلاف ﴿بَغْياً﴾ وَظُلْماً وحسَداً ﴿بَيْنَهُمْ﴾ لحِرْصِهِم على الدُّنيا وزخارِفها.

﴿فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ منهم، وهم أُمّة محمّد صلى الله عليه وآله ﴿لِمَا ٱخْتَلَفُوا﴾ سائر النّاس ﴿فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِ﴾ وتَبْيِينه وتَوفيقه لفَهْمِه وقَبوله.

روي أنّه صلى الله عليه وآله قال: «نحن الآخِرون السّابقون يوم القيامة، ونحنُ أوّل النّاس دخولاً في الجنّة يوم القيامة، بيد أنّهم أُوتوا الكِتاب من قَبلِنا وأُوتيناهُ من بعدِهم، فهدانا الله لِما اختَلفوا فيه من الحقّ بإذنه، فهذا اليوم الذي هَدانا الله[2]، والنّاسُ لنا فيه تَبعٌ، وغداً لليَهود، وبعد غدٍ للنّصارى»[3].

---

١. راجع: تفسير البيضاوي ١: ١١٥.

٢. في تفسير الرازي: هدانا له.

قيل: إنّ النّاس اختلفوا في القِبْلَة، فصلّتِ اليهود إلى بيتِ المَقدِس، والنّصارى إلى المَشرِق، فهَدانا الله للكعبة، واختلَفوا في الصيّام، فهَدانا الله لشهر رمَضان، واختلفوا في إبراهيم عليه السلام فقالت اليَهود: كان يهوديّاً، وقالت النّصارى: كانَ نَصْرانيّاً. فقلنا: إنّه كان حَنيفاً مُسلِماً. واختلَفوا في عيسى عليه السلام فاليَهود فرّطوا، والنّصارىٰ أفرَطوا، وقُلنا القولَ العَدْل[٤].

﴿وَٱللَّهُ﴾ بلُطفِه وفَضْلِه ﴿يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ بحسَب الاستِعداد والطِّينَة ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ مُوصِلٍ إلى الحَقِّ القَويمِ، فإنّ الهداية والضّلالة لا تكونُ إلّا بتَوفيقِ الله وخِذلانه.

أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ[٢١٤]

ثمّ أنّه تعالى لمّا بيّن أنّ المؤمنين هم المُهتَدون إلى الحَقّ وإلى طريق مستقيم ـ ومن الواضح أنّ العَقائد الحقّة لابُدّ أن تكون موثراً في القَلبِ بحيث تبعث الجَوارح على الأعمال الشّاقّة في جَنْبِ الله، فالفتور في الجَوارح عن القيام بالوَظائف الإلٰهيّة لا يكون إلا لِضَعفِ اليَقين وعدَم رسوخ الحقّ في القَلْب ـ بيّن أنّ امتحانَ المُهتَدين إلى الحَقِّ المُوجِب لدخولِ الجنّةِ لا يكونُ إلا بالصَّبرِ على الطّاعةِ كما صبَر السّابقون من أهل الايمان، بقوله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ﴾.

قيل: إنّ التّقدير: فصبَر الذين هُدوا إلى الحَق على الشّدائد، فتسلُكون سَبيلَهم ﴿أَمْ حَسِبْتُم أَنْ تَدْخُلُوا ٱلْجَنَّةَ﴾ من دون تحمُّل المَشاقّ ﴿وَلَمَّا يَأْتِكُمْ﴾ ولم ينزل عليكم بعد ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا﴾ وَمَضَوا ﴿مِنْ قَبْلِكُم﴾ مِن المؤمنين ولم تتحملوا مثل ما تحَمّلوه من البَلايا التي كانت في الشِّدّة مثلاً.

ثمّ كأنّه قيل: كيف كان مثَلهم؟ فبيّنه تعالى بقوله: ﴿مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ﴾ من الخوفِ والفاقةِ ﴿والضَّرَّآءُ﴾ من القَتْل والأمراض، والخروج عن الأهل والمال ﴿وَزُلْزِلُوا﴾ وأُزعِجوا إزعاجاً شديداً لمّا دهَمتهم الأهوال والأفزاع ﴿حَتَّىٰ﴾ بلغت الشِدّة إلى أن ﴿يَقُولَ ٱلرَّسُولُ﴾ مع أنّه أصبَر النّاسِ وأعلَمهم بتأييد الله ونَصْرِه ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُۥ﴾ وآقتَدَوا به: ﴿مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ﴾ وأيّ وقتٍ يكون عَونُه؟ قد أبطأ إنجازَ وَعْدِه وطالَ زَمانُ الشّدّةِ والعَناء بنا، وعجز الصَّبرُ عن تحمُّلِ البَلاء. فإذا بلغت

---

٣. تفسير الرازي ٦: ١٦.　　٤. تفسير الرازي ٦: ١٦.

بهم المِحنَةُ إلى الغايةِ وآلضُّرُ والبؤس إلى هذه الدَرجة العظيمة، قيل لهم: **﴿أَلَا إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾**.

والحاصل: أنّ المؤمنين الذين خَلَوا، كانوا في هذه المَرتبة من البَلاء والمِحَن، وصبَروا ولم يتغيّر دينُهم حتّى أتاهُم النَّصرُ والفرَج، فكونوا أيّها المسلمون كذلك.

روي أنّه ﷺ قال: «حُفَّتِ آلجنّة بالمَكارِه، وحُفَّتِ النّارُ بالشَّهَوات»[1].

وروي عن خَبّاب بن الأرَتّ، قال: شَكَونا إلى رسولِ الله ﷺ ما نلقىٰ من المشركين، فقال: «إنّ من كان قبلكم من الأمم كانوا يُعذَّبون بأنواعِ البَلاء، فلَم يَصْرِفهم ذلك عن دينهِم، حتّى أنّ الرَّجُلَ يوضَع على رأسِه المِنشارُ فيُشَقّ فِلْقَتَين، ويُمشَّط الرَّجل بأمشاطِ الحديد فيما دون العَظْم من اللّحم والعَصَب، وما يَصرِفه ذلك عن دينه، وَايمُ اللهِ ليَتِمّنّ هذا الأمر حتّى يسير الراكب ما بين صنعاء إلى حضرموت لا يخشى إلا الله والذِئبَ على غَنَمِه، ولكنّكم تعجَلون»[2].

وعن ابن عبّاس: لمّا دخَل رسولُ الله ﷺ المدينةَ آشتَدّ الضُّرَر عليهم، لأنّهم خرَجوا بلا مالٍ وترَكوا ديارَهم وأموالَهم في أيدي المُشرِكين، وأظهَرتِ اليهودُ العداوةَ لرسول الله ﷺ فأنزَل الله تَطْييباً لقلُوبهم **﴿أَمْ حَسِبْتُمْ﴾**[3].

وقيل: إنّها نزَلت في غزوة الخَنْدَق حين أصاب المسلمين ما أصابهم من الجهدِ والحُزن، وكان كما قال سبحانه: **﴿بَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾**[4].

وقيل: نزَلت في حرب أُحُد لمّا قال عبدالله بن أُبَيّ لأصحاب رسولِ الله ﷺ: إلى متىٰ تقتلون أنفُسَكم وتَرجون الباطِل؟ ولو كان محمّد [نبياً] لَما سلّط الله عليكُم الأسر والقَتل، فأنزَل الله هذه الآية[5]. ويمكن الجَمع بينهما بالقَولِ بتكرُّر النّزول.

يَسْئَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَامَىٰ وَٱلْمَسَاكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ[٢١٥]

ثمّ أنّه تعالى بعد بَيان أنّ الصَّبرَ على الضَّرّاء مِن وظائف الإيمان، وكان الإنفاقُ في سبيل الله أيضاً من وظائف الإيمان، حكى الله تعالى سؤالَ المؤمنين عن خصوصيّاته بعد حثّ النبيّ ﷺ بقوله:

---

١. نهج البلاغة: ٢٥١ الخطبة ١٧٦.
٢. تفسير الرازي ٦: ٢٠.
٣. تفسير الرازي ٦: ١٩.
٤. تفسير الرازي ٦: ١٩، والآية من سورة الأحزاب: ١٠/٣٣.
٥. تفسير الرازي ٦: ١٩.

﴿يَسْئَلُونَكَ مَاذا يُنفِقُون﴾.

عن ابن عبّاس: أنّ الآية نزلت في عمرو بن الجموح وكان شيخاً كبيراً هَرِماً، وهو الذي قُتل يوم أُحد وعنده مالٌ عظيم، فقال: ماذا نُنفِق من أموالنا وأين نضَعها؟ فنزلت هذه الآية[١]. فأجاب َ الله عن السؤالَين بقوله: **﴿قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِن خَيْرٍ﴾** أيَ خيرٍ كان **﴿فَلِلْوَالِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَامَىٰ وَٱلْمَسَاكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾** وقد مرّ تفسير جَميعها ووجَه تَرتيبها[٢].

وعن ابن عبّاس: نزَلت هذه الآية في رجُلٍ أتىٰ النبيَّ ﷺ فقال: إنّ لي ديناراً. فقال: «أنفِقْهُ على نَفْسِك» قال: إنّ لي دينارَين، قال: «أنفقهما على أهلِك» قال: إنّ لي ثلاثة. قال: «أنفِقها على خادِمك». قال: إنّ لي أربعة؟ قال: «أنفِقها على والِدَيْك». قال: إنّ لي خمسة. قال: «أنفِقها على قرابَتِك». قال: إنّ لي ستّة. قال: «أنفِقها في سبيل الله، وَهو أحسَنُها»[٣].

وعدم التعرّض في الآية للسائلين وفي الرّقاب لعلّه لدخولها تحت عموم قوله: **﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِن خَيْرٍ﴾** فإنّه عامٌّ لكلٍّ ما فيه مَرضاة الله من العبادات والصَدَقات، وفي قوله: **﴿فَإِنَّ ٱللهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾** وعَد بالثّواب العظيم.

كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَٱللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ[٢١٦]

ثمّ أنّه سُبحانه بعد التّرغيب في الإنفاقِ في سبيل الله ـ الذي هو الجهاد بالأموال ـ حثّ على الجِهادِ بالأنفُس.

قيل: لم يكن النبيّ ﷺ مأذوناً في القِتال مدة إقامته في مكة، فلمّا هاجَر إلى المدينة أُذِن له في قِتال مَن يُقاتله من المُشركين، ثمّ أُذِن له في قِتال عامّتِهم، وفَرض الله عليه الجِهاد[٤] بقوله: **﴿كُتِبَ﴾** وفُرِض **﴿عَلَيْكُمُ القِتَالُ﴾** مع الكفّار **﴿وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ﴾** غيرُ مُلائِم لطِباعكم البشريّة، لأنّ فيه الإقدام على بذل المُهَج وتحمّل المَشاقّ، وخطَر الرّوح، وإن كان المؤمن بعد أمر الله يُحبُّه ويشتاقُ إليه على خلاف الطبيعة، وإطلاقُ الكُرهِ للمُبالغة وهو بمعنى المَكروه.

---

١. تفسير الرازي ٦: ٢٣.
٢. الآية (١٧٧) من هذه السورة.
٣. تفسير الرازي ٦: ٢٢.
٤. تفسير الرازي ٦: ٢٦.

﴿وَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً﴾ لِما ترون فيه من المشَقّة والضّرَر على النَّفسِ والمَالِ من غير صلاحٍ ظاهر ﴿وهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ في الحقيقة، وصلاحُكم في الواقع، كما أنّ المَريض إذا كانَ جاهلاً بنَفعِ شُربِ الدّواء المُرّ النّتِن، لا يتحمّل شُربَه إلّا بكُرهٍ وجَبْرٍ، بخِلاف ما إذا عَلِم بكَون شِفائه في شُربهِ، فإنّه يشتاق إليه أكثَر من اشتياقه إلى شُربِ الأشربة الحلوة الطيّبة.

﴿وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئاً﴾ وتشتاقوا إليه لِجَهْلِكُم بضُرّه وشَرّه، ومُوافقتِه لطِباعكم ﴿وَهُوَ شَرٌّ لَكُم﴾ يكون فيه فَسادُكم وهَلاكُكم، فإنّ الطِّفْلَ يَشتاقُ إلى أن يلعَب بالحيّةِ لحُسنِ مَنظرِها ولِيْنِ لمسها، وجَهلِه بأنها قاتِلة، وأنّ في قُربِها هَلاكَه.

﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ﴾ واقعَ صَلاحِ الأشياءِ وفَسادِها ﴿وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ شيئاً إلّا بتَعليمِ الله، فَما أمرَكم به فاعلَموا أنّ فيه خَيْرَكم وصَلاحَكم، ولا تَنظُروا إلى كَونِه مكروهاً لطِباعكم أو مَفسدة في اعتِقادكم، فعليكم البِدار إلى طاعة أوامره ولو كان بإلقاء أنفُسِكم في المَهالك وتحت أظِلّة السّيوف.

في دفع توهّم التنافي بين التكاليف الشرعية الشاقة وبين نفي الحرج

فإن قيل: التّكليف بالأعمال الشاقّة والحَرَجيّة والضَّرَريّة يُنافي قوله سبحانه: ﴿مَا جَعَلَ عَلَيْكُم فِى الدِّينِ مِن حَرَجٍ﴾ [1] وقوله: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [2] وقوله ﷺ: «لا ضَرَر ولا ضِرار في الإسلام» [3].

قلنا: المُراد من العُسر والحرَج والضَرر، ما يكونُ بجهاتٍ طارئةٍ على متعلّق التّكليف، لا ما هو في نوع المُكلّف به وحقيقته، مثلاً التّكليف بالجِهاد والزّكاة يكون في نَوعِهما الضَّرر والحَرَج، وهما باللّحاظ الأوّليّة مقتضي لثُبوت التّكليف لا رافع له، ولا يمكن أن يكون مقتضي الشيء مانعاً عنه أو رافعاً له، بخِلاف العسر والحرَج والضَّرَر الطارئ على التكليف، كأن يكون المكلَّف مريضاً أو يكون أداءالزّكاة موجباً ـاتّفاقاًـ لضَرَر بَذل مال آخر فيإيصاله إلىالفقير، فإنّ دليلَ نَفيالحَرج والضَّرَر رافعٌ للتّكليفِ فيهذهالصّورة ولا منافاة.

والحاصل: أنّ مفاد قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ أنّ الله تعالى أراد من كلّ عملٍ أمرَكم به، الصنف الذي ليس فيه مشَقّةٌ زائدةٌ على ما اقتَضتْه طبيعة ذلك العمَل، ولم يُرِد منكم الصِّنف الذي فيه الضَّرَر والعُسر الزائِد بالنسبة إلى أصل الطَّبيعة المأمور بها، مثلاً الوضوء بالماء، مع كون المَشقّة العظيمة في تَحصيله وإن كان موجباً للطَّهارة ولكنّ الله لم يَرْضَ بتحمُّلِ تلك المشَقّةِ

---

١. الحج: ٧٨/٢٢.	٢. البقرة: ١٨٥/٢.	٣. من لا يحضره الفقيه ٤: ٧٧٧/٢٤٣.

لِعباده إذا كان في التَيمُّم بالتُّراب مصلحةٌ مُقتَضِيةٌ لبدَليّته عن الوضوء في تلك الحال، ففي صورة عدم وجدان الماء لم يكلّفنا الله بتَحصيل الماء وتحمُّلِ المشَقّة والحرَج له، بل اكتَفىٰ بعمَل الطَّهور السَهل الذي لا مشَقّة فيه، وهو التيمُّم بالتُّراب.

يَسْئَلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللهِ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ وَلاَ يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَاعُوا وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَأُولٰئِكَ أَصْحَابُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِى سَبِيلِ ٱللهِ أُولٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللهِ وَٱللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ[٢١٧ و ٢١٨]

ثمّ أنّه تعالى لمّا أمَر بالقِتال وأوجَبه، سأل الكُفّار عن حُكمِه في الأشهُر الحرُم، فحكى الله ذلك السؤال توطئةً لجَوابِه بقوله: ﴿يَسْئَلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ﴾ عن ﴿قِتَالٍ فيهِ﴾ وقيل: إنّ السائلين هم المسلمون، وكان السؤال بعد واقِعة عبدالله بن جَحْش الأسَدي، وهو ابن عمّة رسول الله ﷺ [١].

عن ابن عبّاس ﵁ أنّه قال: إنّ رسول الله ﷺ بعَث عبدالله بن جَحْش قبل قِتال بدر بشَهْرين، وبعد سَبعة عشَر شَهراً من مَقْدمِه المدينةَ في ثمانية رَهْطٍ، وكتَب له كتاباً وعهداً دفعه إليه وأمره أن يفتَحه بعد منزِلتَين، ويقرأه على أصحابه ويعمَل بما فيه، فإذا فيه: «أمّا بعد، فسِر على بركةِ الله بمَن اتَّبعَك حتّى تنزِل بَطْنَ نَخْلٍ فترَصَّد بها عِيرَ قُرَيش لعلّك أن تأتِيَنا منه بخير».

فقال عبدالله: سمعاً وطاعةً لأمره، فقال لأصحابه: مَن أحَبّ منكم الشَّهادةَ فلينطلق معي فإنّي ماضٍ لأمرِه، ومَن أحبّ التخلّف فليتخلّف، فمَضىٰ حتّى بلَغ بطنَ نَخْلٍ بين مكّة والطّائف. فمرّ عليهم عمرو بن الحَضْرَمي وثلاثة معه، فلمّا رأوا أصحابَ رسولِ الله ﷺ حلَقوا رأسَ واحدٍ منهم وأوهَموا بذلك أنّهم قومٌ عُمّار [٢]، ثمّ أتىٰ واقد بن عبدالله الحَنْظَليّ ـ وهو أحد من كان مع عبدالله بن جَحْش ـ ورمى عمرو بن الحَضْرَمي فقتَله، وأسروا اثنين وساقوا العِير بما فيه حتّى قَدِموا على رسولِ الله ﷺ

---

١. مجمع البيان ٢: ٥٥١.

٢. أي قادمون للعمرة.

فضَجّت قريش وقالوا: قد استَحلّ محمّد الشّهرَ الحَرام، شهراً يأمَن فيه الخائف، فيَسفِك فيه الدِّماء، والمسلمون أيضاً قد استَبْعَدوا ذلك، فقال ﷺ: «إني ما أمرتكم بالقتال في الشهر الحرام».

فقال عبدالله بن جَحْش: يا رسول الله، إنّا قتَلنا ابن الحَضْرَمي، ثمّ أمسَيْنَا فنظَرنا إلى هِلال رَجَب، فلا نَدري أفي رَجَبٍ أصَبناه أم [في] جُمادىٰ. فوقَف رسول الله ﷺ العيرَ والأُسارىٰ فنَزلت [هذه الآية]، فأخذ رسول الله ﷺ الغنيمة[1].

وعن القمّي ﷺ في رواية: فكتبت قُرَيش إلى النبيّ ﷺ: إنّك استَحْلَلْتَ الشّهرَ الحرام، وسفَكْتَ فيه الدَم، وأخذتَ المالَ. وكثُر القولُ في هذا. قال الصحابة: يا رسول الله، أيحلّ القَتْل في الشّهر الحَرام؟ فنزلت[2].

وعن ابن عبّاس [أنّه] قال: مارأيتُ قوماً كانوا خيراً من أصحابِ رسول الله ﷺ ما سألوه إلّا عن ثلاث عشرة مسألة حتّى قُبِض، كلّهنّ في القرآن، منها ﴿يَسْئَلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ﴾[3] أي عن قتالٍ فيه.

وقيل: سأل الكُفّار عن هذا حتّى لو أخبرَهم بأنّه حلالٌ فتَكوا به واستَحلّوا قِتالَه فيه[4]، فأجابهم الله بقوله: ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمّد: ﴿قِتَالٌ فِيهِ﴾ أيَ قِتالٍ كان هو إثمٌ ﴿كَبِيرٌ﴾ وذنبٌ عظيم.

وقيل: إنّ تَنكير القِتال في الجَواب لإظهار أنّ القِتَال الذي هو إثمٌ كبيرٌ ليس قتال عبدالله بن جَحْش الذي كان لاشتِباه الشَّهر، أولنُصرةِ الإسلام وإذلال الكُفْر أو للدّفاع، بل قِتالٌ آخَر، وهو القِتال الذي فيه هَدم الإسلام، أو سائر الأغراض الفاسدة[5]. ﴿وَصَدٌّ﴾ مخصوصٌ ﴿عَن سَبِيلِ ٱللهِ﴾ وهو مَنع النّاس عن الإيمان بالله، أو منع المُسلمين من أن يُهاجروا إلى رسول الله ﷺ، أو منعهم عن العُمْرَةِ عام الحُدَيْبيَة، وعلى هذا الاحتِمال يكون إخباراً بما وقَع بعد مُدّة ﴿وَكُفْرٌ بِهِ﴾ أي بالله.

وقيل: المُراد: الكُفر بأنّه مُرسِل الرّسول وكَونه مستحقّاً للعِبادةِ وقادِراً على البَعْث[6].

﴿وَ﴾ صَدٌّ عن ﴿ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ بناءً على أن يكون عطفاً على سبيلِ الله، أو المُراد: والكُفرُ بالمَسجِد الحَرام، بناءً على كَونِه عَطْفاً على الضّمير المَجرور قبله. والمراد من الكفر بالمَسجِد: مَنع المُسلمين عن الصّلاة فيه وزيارة البَيت والطَّواف به ﴿وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ﴾ وهم الرّسول والمؤمنون

---

١. تفسير الرازي ٦: ٢٩. ٢. تفسير القمي ١: ٧٢. ٣. تفسير الرازي ٦: ٣٠. ٤. تفسير الرازي ٦: ٣٠.
٥. تفسير الرازي ٦: ٣١. ٦. تفسير الرازي ٦: ٣٤.

﴿مِنْهُ﴾ أي من المسجِد، كلّ واحدٍ من هذه الأمور إثمٌ من قريش ﴿أَكْبَرُ عِنْدَ اللهِ﴾ وفي عِلمه من قتالِ سَريّةٍ وقَتل ابن الحَضْرَميّ في الشّهر الحَرام؛ لأنّ القِتالَ فيه قد يَحلّ والكفرَ بالله لا يحلّ بحالٍ.

قيل: إنّ عدّة المسلمين من أهل المسجِد مع كونهم خارِجين عن مكّة، لكونِهم قائمين بأداء وظائفهِ حافظين لحُدودهِ[١].

﴿وَٱلْفِتْنَةُ﴾ والفسادُ في الأرض، وقيل: إنّ المُراد منها الشّرك بالله وإخراج أهل المسجد[٢] ﴿أَكْبَرُ﴾ وِزراً، وأشدّ قُبحاً ﴿مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ الصادِر من المُسلمين على سبيلِ الخَطأ، وبظَنّ عدَم دُخول الشّهر الحَرام.

نقل أنّه لمّا نزلَت، كتب عبدالله بن أُنَيس إلى مؤمني مكّة: إذا عيَّركُم المُشركون بالقِتال في الشّهرِ الحَرام، فعيِّروهُم أنتم بالكُفرِ وإخراج رسولِ الله ﷺ من مكّة، ومَنعِهم المُسلمين عن البَيت[٣].

ثمّ بيّن سبحانه، أنّهم كيف يُعيِّرونَكم على قَتلِ واحدٍ ﴿وَ﴾ هم ﴿لَا يَزَالُونَ﴾ في جميع الأوقات ﴿يُقَاتِلُونَكُمْ﴾ ويُديمونَ على عَداوتِكم ولاينفكّون عنها ﴿حَتَّى يَرُدُّوكُمْ﴾ وكي يَصرِفوكم ﴿عَنْ دِينِكُمْ﴾ الحقّ إلى دينِهم الباطِل ﴿إِنِ ٱسْتَطَاعُوا﴾ وأنّىٰ لهم ذلك لتَصلُّبِكم في إيمانكم، وثبَاتِكم في دينكِم، وفيه تَطييبٌ لقُلوبِ المؤمنين.

ثمّ أنّه تعالى بعد استبعاد ارتِداد أهل الإيمان، أخذ في تَحذيرِ مَن يَرتدّ بإضلالهم، بقوله: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ﴾ وينصرف ﴿مِنْكُمْ﴾ أيّها المسلمون ﴿عَن دِينِهِ﴾ الحقّ إلى الباطِل، وعن التّوحيد إلى الشّرك ﴿فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ﴾ ولم يَتُب عن ارتداده، ولَم يَرجِع إلى الإسلام، وفيه ترغيبٌ في الرّجوع إلى الاسلام بعد الارتِداد وقبل المَوت، ودلالة على قبول توبة المُرتَدّ ﴿فَأُولَٰئِكَ﴾ المُرتَدّونَ البَعيدونَ عن رحمَةِ الله ﴿حَبِطَتْ﴾ وضاعَت ﴿أَعمَالُهُم﴾ الصالحة التي عَمِلوها حالَ إسلامهم، ولا يترتّب عليها نَفعٌ وأثرُ خيرٍ ﴿فِى ٱلدُّنْيَا﴾ فإنّ للأعمال الخيريّة آثاراً وفَوائِدَ دُنيويّة كحُسن الذِّكر عند المؤمنين، وطَلَب المَغفِرَة له منهم، وجَواز المُناكحة، والمُوادّة، وألطاف خاصّة من الله في أعقابه.

روي عن الصادق عليه السلام: «أنّ الله ليُصلِح لصلاح[٤] المؤمن ولده وولد ولده، ويَحفَظه في دُوَيرَتِه ودُوَيراتِ حولَه، فلا يزالون في حِفْظِ الله لكَرامته على الله»[٥] الخبر. فبالارتِداد تزولُ تلك الآثار

---

١. تفسير الرازي ٦: ٣٤. ٢ و٥. تفسير روح البيان ١: ٣٣٥.

٤. في تفسير العياشي: بصلاح الرجل. ٥. تفسير العياشي ٣: ٢٦٨٧/١٠٦.

والكرامات الدنيويّة، بل يَجب قَتلُه عند الظَّفر به.

﴿وَ﴾ في ﴿ٱلآخِرَةِ﴾ فإنّهم لا يُثابون عليها فيفوتُهم ثَوابُها في الدّارين، وفيه دلالة على اشتِراط حَبط الأعمال، وثوابها، والخُلود في النّار، بالمَوت على الكُفر.

﴿وَأُولٰئِكَ أَصْحَابُ ٱلنَّارِ﴾ ومُلازِموها ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ لا مَناص ولا خَلاص لهم منها أبداً.

ثُمّ روي أنّه قال عبدالله بن جَحْش: يا رَسول الله، هَبْ أنّه لا عِقاب علينا فيما فعَلنا، فهل نَطْمَع منه أجراً وثَواباً؟ فأنزَل الله تعالى[١] ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا﴾.

وقيل: إنّه قال قومٌ: إنّ أصحابَ السَّريّة إن سَلِموا من الإثـم فـلا أجـرَ لهـم، فـنزلت:[٢] ﴿وَٱلَّـذِينَ هَاجَرُوا﴾ مِن أوطانِهم طلَب صُحبَةِ الرّسولِ ﷺ ﴿وَجَاهَدُوا فِى سَبِيلِ ٱللهِ﴾ وطلَب مَرضاتِه ـ وفي ذِكْرِ الأوصاف إيماءٌ إلى عبدالله وأصحابه حيثُ إنّهم كانوا مؤمنين مُهاجرين مجاهدين ـ ﴿أُولٰـئِكَ يَرْجُونَ﴾ بأعمالِهم الصّالِحَة ﴿رَحْمَتَ ٱللهِ﴾ وثَوابَه. وٱلتَعبيرُ بالرّجاء لأنّ المؤمن لا يَزال في خَوفٍ ورَجاءٍ، ولا يقطَع بالفَلاح إلّا عند الاحتِضار.

﴿وَٱللهُ غَفُورٌ﴾ لِزَلّاتِ المؤمنين ﴿رَحِيمٌ﴾ بهِم بإجزالِ الأجرِ.

يَسْئَلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَفْعِهِمَا وَيَسْئَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ كَذٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللهُ لَكُمُ ٱلآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ * فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلآخِرَةِ وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلاَحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَٱللهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ وَلَو شَاءَ ٱللهُ لأَعْنَتَكُمْ إِنَّ ٱللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ [٢١٩ و ٢٢٠]

والسؤال الرابع من المُسلمين، ما بيّنه الله بقَوله: ﴿يَسْـئَلُونَكَ عَـنِ ٱلْخَـمْرِ﴾ وعـن حُكـم شُـربِ المُسكِر، أحَلالٌ شُربه أم حَرام؟

قيل: نزَلت في الخَمْرِ أربَعُ آياتٍ، نزَلت بمكّة آية ﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ ٱلنَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً وَرِزْقاً حَسَناً﴾[٣] فطَفِق المُسلمون يَشْرَبونها، ثمّ إنّ جَمْعاً من الصَّحابةِ قالوا: أفتِنا يا رسول الله في الخَمْرِ، فإنّها مُذهِبة للعَقْل؟ فنزَلت هذه الآية، فشَربها قومٌ وترَكها آخَرون، ثمّ دعا عبدالرحمن بن

---

١. تفسير الرازي ٦: ٣٩. ٢. مجمع البيان ٢: ٥٥٣، تفسير البيضاوي ١: ١١٨. ٣. النحل: ٦٧/١٦.

عوف ناساً منهم، فشَرِبوا وسَكِروا، وقام أحدُهم فقرأ: قل يا أيّها الكافِرون أعبد ما تعبدون، إلى آخِر الخبَر[١].

﴿وَ﴾ عن ﴿المَيسِر﴾ وهو كلّ ما قُومِرَ عليه، عن أمير المؤمنين عليه السلام في تفسير المَيْسِر: «كلّ ما ألهى عن ذِكر الله فهو [من] المَيْسِر»[٢].

﴿قُلْ فِيهِما﴾ وفي استِعمالِهما ﴿إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾ وذَنْبٌ عَظيمٌ.

في ذكر مفاسد شرب الخمر والقمار

روي عن الصادق عليه السلام قال: «الخَمْرُ رأسُ كلِّ إثم، ومِفتاحُ كلِّ شَرّ»[٣].

وروي عن النبيّ صلى الله عليه وآله: «أنّ المَلائكةَ لتَنفِر عند الرِّهان، وتلعَنُ صاحِبَه، ما خَلا الحافِر، [والخفّ] والرِّيش، والنَّصْل»[٤] الخبر.

واعلَم أنّ مَفاسِد الخَمر والمَيسِر أظهَر مِن أن تَخفىٰ على ذي مُسْكَة[٥]، أمّا الخَمْر فأظهَر مَفاسِدها أنّها مُذهِبة للعَقْل.

نقل عن العباس بن مِرداس أنّه قيل له في الجاهليّة: لِمَ لا تَشْرَب الخَمْرَ فإنّها تَزيد في جرأتِك؟ فقال: ما أنا بآخِذ جَهْلي بيَدي فأُدخِله جَوفْي، ولا أرضىٰ أن أُصبح سيّد قومٍ وأُمسِي سَفِيهَهُم[٦].

وقال بعض: لو كان العقلُ يُشرى ما كان شيء أنفَس منه، فالعجَب لِمن يشتري الحُمق بماله فيدْخِله في رأسِه فيَقيء في جَيْبِه ويَسْلَح في ذَيلِه[٧].

وأمّا المَيْسِر، فَأظهَر مَفاسِده أنّه مُذهِب للمالِ لاهٍ عن ذِكر الله، ومِن مفاسِدهما أنّ تَعاطِيهما مُوقِعٌ في العَداوةِ والبَغْضاء كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلعَدَاوَةَ وَٱلبَغْضَاءَ فِى ٱلخَمْرِ وَٱلمَيْسِرِ﴾[٨].

ثمّ ذكَر سُبحانَه مُقتَضىٰ إباحتِها بقوله: ﴿وَ﴾ فيهما ﴿مَنَافِعُ﴾ كثيرةٌ جسمانيّة ومادّيّةٌ ﴿لِلنَّاسِ﴾.

قيل: إنّ مِن مَنافِع الخَمْرِ أنّ النّاسَ كانوا يتعاملون[٩] بها إذا جلَبوها من النّواحي، وكان المُشتَري إذا ترَك المماكسة[١٠] في الثّمن، كانوا يَعُدّون ذلك فضيلةً له فكانت تَكثُر أرباحُهم[١١].

---

١. تفسير أبي السعود ١: ٢١٨.
٢. أمالي الطوسي: ٦٨١/٣٣٦.
٣. الكافي ٦: ٤/٤٠٣، تفسير الصافي ١: ٢٢٧.
٤. من لا يحضره الفقيه ٣: ٨٨/٣٠.
٥. المُسْكَة: العقل.
٦. تفسير الرازي ٦: ٤٦.
٧. تفسير روح البيان ١: ٣٤٠.
٨. المائدة: ٩١/٥.
٩. في تفسير الرازي: يتغالون، أي يبيعونها بثمن غالٍ.
١٠. أي التقليل من الثمن.
١١. تفسير الرازي ٦: ٤٧.

ومنها: أنّه يقوّي الضّعيف، ويَهضِم الطّعام، ويُعين على الباه[١]، ويسلّي المَحزون، ويشجّع الجَبان.

وقيل: إنّ من منافع المَيْسِر التّوْسِعَة على ذَوي الحاجة[٢].

نقل عن الواقدي أنّه قال: كان الواحِد مِنهُم ربما قمَر في المَجلِس الواحِد مائة بَعير، فيَحصُل له مالٌ كثير ثمّ يَصرِفه في المُحتاجِين، فيكتَسِب منه المَدْح والثّناء[٣].

ثمّ بيّن سُبحانه أنّ مُقتَضىٰ الحُرمةِ فيهما آثَم وأقوىٰ مِن مُقتَضىٰ الإباحة، بقوله: ﴿وَإِثْمُهُما﴾ وضرَرُهما ﴿أَكْبَرُ﴾ وأعظَم ﴿مِنْ نَفْعِهِما﴾ لأنّ ضَرَرهما روحانيّ ونَفعُهما جِسمانيّ، ولا يُعادِل أضعافُ ما يُتَصوَّر لهُما مِن النَّفعِ لأقلّ قليلٍ من غَيرِهما.

روي من طرُق العامّة أنّ جَبْرَئيل عليه السلام قال للنبيّ صلى الله عليه وآله: إنّ الله تعالى شكَر لجَعفر بن أبي طالب أربَع خِصالٍ كان عليها في الجاهليّة وهو عليها في الإسلام. فسأل النبيّ صلى الله عليه وآله جعفراً عن ذلك فقال: يا رسول الله، لولا أنّ الله أطلَعَك عليها لما أخبَرتُك بها: ما شَربتُ الخَمْرَ قَطّ، لأنّي رأيتُها تُزيل العَقْل، وأنا إلى أن أزِيد فيه أحْوَج منّي إلى أن أُزيلَه، وما عبَدت صنَماً قَطّ لأنّي رأيتُه لا يَضُرّ ولا يَنْفَع، الخبر[٤].

في تنزيه عبدالله وأبي طالب عليهما السلام من الشرك وشرب الخمر

أقول: بعد وضوح أنّ عبدالله وأبي طالب عليهما السلام كانا أعقَل وأكمَل منه، كانا أجَلّ وأنزَه من أن يَعبُدا صَنَماً أو يشرَبا خَمْراً.

وعن بعض العامّة، عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «لو وقعَت قطرةٌ من الخَمْرِ في بحْرٍ ثُمّ جفّ فنبَت فيه الكلأ لم أرْعَه»[٥]. وببالي أنّ ما يَقرُب منه مرويّ بطرُق أصحابِنا.

وعن الباقر عليه السلام قال: «ما بعَث الله عزّ وجلّ نبيّاً قَطّ إلّا و[في] عِلْم اللهِ تبارك وتعالى أنّه إذا أكمَل [له] دينَه كان فيه تَحريمُ الخَمرِ، ولم يزل الخمر حراماً، وإنّما يُنقَلُون من خَصْلَةٍ ثمّ خَصْلَة[٦]، ولو حمل[٧] ذلِك عليهم جملةً لقطع بهم دون الدّين»[٨].

وقال عليه السلام: «ما أحد أرفَق من الله تعالى، فمِن رفقه تَبارك وتعالى أنّه ينقلهم من خَصْلةٍ إلى خَصْلَةٍ، ولو حمل عليهم جملةً لَهلَكوا»[٩].

---

١. في النسخة: الباءه. ٢. تفسير الرازي ٦: ٤٧. ٣. وكذا.

٤. تفسير روح البيان ١: ٣٣٩. ٥. تفسير أبي السعود ١: ٢١٨، تفسير روح البيان ١: ٣٤٠.

٦. في الكافي: من خصلة إلى خصلة. ٧. زاد في النسخة: من.

٨. الكافي ٦: ٣/٣٩٥، تفسير الصافي ١: ٢٢٨. ٩. الكافي ٦: ٣/٣٩٥، تفسير الصافي ١: ٢٢٨.

وعنهم عليهم السلام: «أنّ أوّل ما نزَل في تَحريم الخَمْر قول الله تعالى: ﴿يَسْئَلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ فلمّا نزلَت هذة الآية أحسّ القوم بتَحريمها [وتحريم الميسر] وعلِموا أنّ الأثمَ ممّا ينبَغي اجتِنابه، ولا يحمل الله عزّ وجلّ عليهم من كلّ طريقٍ، لأنه قال: ﴿وَمَنافِعُ للنّاسِ﴾ ثمّ أنزَل الله تعالى آيةً أُخرىٰ: ﴿إِنَّما ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وٱلأَنصَابُ وٱلأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُم تُفْلِحُونَ﴾ فكانت هذه الآية أشَدّ وأغلظ في التَّحريم، ثمّ ثَلّث بآيةٍ أُخرىٰ فكانت أغلَظ من الآيةِ الأولىٰ والثّانية وأشَدّ، فقال تعالى: ﴿إِنَّما يُرِيدُ ٱلشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلعَدَاوَةَ وَٱلبَغْضَاءَ فِى ٱلخَمْرِ وَٱلمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللهِ وَعَنِ ٱلصَّلاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾[١] فأمَر الله تعالى باجتِنابهما» الخبر[٢].

وعن بعض العامّة: لمّا نزَلت الآية، قال عمر: قد انتهينا يا رَبّ[٣].

أقول: فيه دلالة على أنّه كان يَشْرَبه.

قيل: حُرّمت الخَمْرُ في السنّة الثالثة من الهِجْرَة بعد غَزْوةِ الأحزاب بأيّام[٤].

وقيل في وَجْهِ تَحريمِ الخَمْرِ على هذا التّرتيب: إنّه تَعالى عَلِم أنّ القَوم كانوا ألِفوا شُرْبَ الخَمْرِ، وكان انتِفاعُهم به كثيراً، وعلم أنّه لو منَعهم دُفعةً واحِدةً لشَقّ عليهم، فلا جَرَم استَعْمَل في التّحريم التّدريج والرفق.

ثمّ لمّا أُنزِل التّحريم اُريقَتِ الخَمْر[٥]. قال ابن عُمر: خَرجنا بالحِباب إلى الطّريقِ فمِنّا مَن كسَر حُبَّه، ومِنّا مَن غسَله بالماء والطِّين، ولقد غُودِرَت أزقّة المَدينة بعد ذلك حيناً كلّما مطَرت استَبان فيها لونُ الخَمر، وفاحت منها ريحها، [وحرّمت الخمر] ولم يكن يومئذٍ للعرَب عيشٌ أعجَب منها، وما حرّم الله عليهم شيئاً أشَدّ من الخَمر[٦].

ثمّ أنّه تعالى حكىٰ السؤال الخامس بقوله: ﴿وَيَسْئَلونَكَ مَاذا يُنْفِقُونَ﴾ وأيّ مقدارٍ من أموالهم يَبذُلون؟ قيل: إنّ السائل عمرو بن الجَموح، حيث سأل أوّلاً عمّا يُنفَق من الأموال، وعن مَصْرَفِه، ثمّ سأل عمّا يُنفقَ من حيث المِقدار والكمّيّة[٧]، فأجاب سُبحانَه بقوله: ﴿قُلِ ٱلعَفْوَ﴾ قيل: إنّه الزائد عمّا

---

١. المائدة: ٥/٩٠ و٩١. ٢. الكافي ٦: ٢/٤٠٦، تفسير الصافي ١: ٢٢٨.
٣. تفسير الرازي ٦: ٤٠، تفسير روح البيان ١: ٣٣٩. ٤. تفسير روح البيان ١: ٣٣٩.
٥. تفسير روح البيان ١: ٣٣٩. ٦. تفسير روح البيان ١: ٣٣٩.
٧. تفسير أبي السعود ١: ٢١٩.

يحتاج إليه المُنفِق[١]. وقيل: أن يُنفِق ما يسهل ويتيسَر[٢].

وعن الصادق عليه السلام قال: «العَفوُ: الوَسَط»[٣].

وعن النبيّ صلى الله عليه وآله أنّه قال: «خَيرُ الصَّدقةِ ما أبقَت غِنىً و[لا] يلام على كَفاف»[٤].

وعن جابر بن عبدالله، قال: بينما نحن عند رسول الله صلى الله عليه وآله إذ جاءه رَجلٌ بمِثل البَيْضَة مِن ذَهَبٍ، فقال: يا رسول الله، خُذها صدَقة، فوالله لا أمِلك غيرَها، فأعرَض عنه رسول الله صلى الله عليه وآله ثمَ أتاه من بين يَدَيه فقال: «هاتِها» مُغضباً، فأخَذها منه ثمَ حذفه بها بحيث لو أصابته لاوجَعتهُ، ثمَ قال: «يأتيني أحدُكم بمالِه لا يَملِك غيرَه ثمَ يَجلِس يتكفَف النَاس، إنّما الصَّدَقة عن ظَهْر غِنىً، خُذْها فَلا حاجةَ لَنا فيها»[٥].

وعن الباقر عليه السلام: «أنّ العَفوَ ما يفضُل عن قُوتِ السَّنَة»[٦].

وعن النبيّ صلى الله عليه وآله أنّه كان يَحبِس لأهلِه قُوتَ سنةٍ[٧].

قال بعض الحُكَماء: الفَضيلةُ بين طَرَفَي الإفراطِ والتَّفريط، فالإنفاقُ الكثيرُ هو التَّبذِير، والتَّقليل جدّاً هو التقتير، والعَدْلُ هو الفضيلة[٨].

﴿كَذٰلِكَ﴾ التبيين والتَوضيح لأحكام الإنفاق **﴿يُبَيِّنُ اللهُ﴾** ويوضّح **﴿لَكُمُ﴾** أيّها المسلمون **﴿الآيَاتِ﴾** الدَالّة على سائر الأحكام التي تَحتاجون إليها **﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفكَّرُونَ﴾** ولكي تَنظروا وتأمّلوا **﴿فِي﴾** أُمورِكم الرَاجِعة إلى **﴿الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ﴾** وتعلَموا مَصالِحَكم فيهما، وتَختاروا ما هو أصلَح وأنفَع لكم.

وقيل: إنّ المُراد كبَيان الأحكام في كمال الوضوح، يبيّن الله لكم دَلائل المَعاد، لكي تتفكّروا في أنّ أيّهما خَيرٌ وأبقىٰ فتعمَلون بما هو أنفَع وأصلح لكم[٩].

والسؤال السادس: ما حكاه الله بقوله: **﴿وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ﴾** مُخَالطةِ **﴿الْيَتَامىٰ﴾** وحُكم التصرّف في أموالِهم.

وعن الصادق عليه السلام: «لمّا نزَلت **﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْماً﴾**[١٠] خرَج كلّ من كان عنده

---

١ و ٥. تفسير الرازي ٦: ٤٨.
٣. تفسير العياشي ١: ٢١٩/٤١٨.
٤. تفسير الرازي ٦: ٤٩.
٥. تفسير الرازي ٦: ٤٩.
٦. مجمع البيان ٢: ٥٥٨.
٧ و ١١. تفسير الرازي ٦: ٤٩.
٩. تفسير أبي السعود ١: ٢٢٠.
١٠. النساء: ٤/١٠.

يتيم، وسألوا رسول الله ﷺ في إخراجهم»[١].

قيل: كان سبَب ذلك أنّ النّاس في الجاهليّة كانوا قد اعتادوا الانتِفاع بأموالِ اليتّامى، وربّما تزوّجوا باليتيمةِ طمَعاً في مالِها، ثمّ لمّا نَهىٰ الله تعالى عن مقاربة مالهم وحُرمةِ أكلِه، وهدَّد وشَدّد عليه، ترَك المؤمنون[٢] مُخالطةَ اليَتامى والمقاربة من أموالِهم، والقِيام بأمورِهم، فعند ذلك اختلّت مَصالح اليَتامى وساءت معايشهم[٣]، فثَقُل ذلك على النّاس[٤].

روي: لمّا نزَلت الآيات اعتزلوا أموال اليَتامى واَجتنَبوا مُخالطتَهم في كلّ شيءٍ حتّى كانوا يضعون لليتيم طعاماً فيَفضُل منه شيء فيَترُكونَه ولا يأكلونه حتّى يفسُد، وكان صاحب اليتيم يُفردُ له منزلاً وطعاماً وشَراباً، فعَظُم ذلك على ضعفاء المسلمين، فقال عبدالله بن رَواحة: يا رسول الله، مالِكُلّنا مَنازِل تسكُنها الأيتام، ولا كلّنا يجد طعاماً وشراباً يُفرِدهما لليَتيم[٥]. فنزَلت ﴿قُلْ﴾: يا محمّد ﴿إِصْلَاحٌ لَّهُمْ﴾ ومُداخلَتهم على نحوٍ يكون فيها صَلاح حالِهم وأموالهم ﴿خَيْرٌ﴾ لَكُم ولليَتامى مِن إخراجِهم ومُجانَبتِهم.

﴿وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ﴾ وتُعاشِرُوهم وتتصَرّفوا في أموالِهم بجِهَة الإصلاح والاستِرباح لهم ﴿فَإِخْوَانُكُمْ﴾ فِي اَلدينِ.

ومن المعلوم أنّ علاقة الأُخوّة الدينيّة أقوى من علاقة الأُخوة النَّسبيّة، وحقّ الأُخوّة رعاية صَلاح الأخ والسّعي في إيصال النَّفع إليه وحُسن المُخالَطة والعِشْرَة معه.

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ﴾ لمالِ اليَتامىٰ، وغيره ﴿مِنَ الْمُصْلِحِ﴾ له إذ هو وليّ اليَتيم، فعلَيه أن يُطالب المُفْسِدَ ويُجازيه على إفسادِه، ويَشكُر المُصلِح ويُثيبه على إصلاحه.

عن (الكافي) عن الصادق عليه السلام أنّه قيل له: إنّا ندخُل على أخٍ لنا في بيت أيتامٍ ومعهم خادم [لهم]، فنقعُدَ على بِساطهم ونشرَب من مائِهم ويَخدمنا خادِمهُم، وربّما طعِمنا فيه الطَّعام من عند صاحِبنا وفيه من طَعامهِم، فما ترى في ذلك؟ فقال: «إن كان في دُخولِكم عليهم منفعة لهم فلا بأس، وإن كان فيه ضَرَر فلا».

---

١. تفسير القمي ١: ٧٢.   ٢. في تفسير الرازي: القوم.
٣. في تفسير الرازي: معيشتهم.   ٤. تفسير الرازي ٦: ٥٠.   ٥. تفسير الرازي ٦: ٥١.

وقال: «﴿بَلِ الإنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ﴾[١] فأنتم لا يَخفىٰ عليكم، وقد قال الله عزَ وجل: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلمُفسِدَ مِنَ ٱلمُصْلِحِ﴾»[٢].

﴿وَلَو شَاءَ ٱللَّهُ﴾ إعناتَكم وإيقاعَكم في المشقّة ﴿لَأَعْنَتَكُمْ﴾ وأوقعَكم فيها بتَحريم المُداخلة والمُعاشَرة عليكم، ولم يجوّز لكم المُخالطة بهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ غالِبٌ على أمرِه لا يَعجِز من الإعنات ﴿حَكِيمٌ﴾ لا يفعَل إلّا ما فيه حُسن وصَلاح مِن غير حرَج.

وَلَا تَنكِحُوا ٱلْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِن مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنْكِحُوا ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِن مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ وَٱللَّهُ يَدْعُوا إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ[٢٢١]

ثمَ أنه لمّا كانَ النَكاح مربوطاً بإصلاح أُمورِ اليَتامىٰ كما قال في سورة النساء: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي ٱليَتَامَىٰ فانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِنَ ٱلنِّسَاءِ﴾[٣] ذكر الله تعالى حُكم النَكاح بقوله: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا﴾ ولا تتزوَّجوا النّساء ﴿ٱلْمُشْرِكَاتِ﴾ في حالٍ من الحالاتِ، ووقتٍ من الأوقات ﴿حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾ بالله.

عن ابن عبّاس: أنّ النبيَ ﷺ بعَث مَرْثَد بن أبي مَرْثَد ـ وكان حليفاً لبني هاشم ـ إلى مكّة ليُخرِج منها أُناساً من المُسلِمين سِرّاً، فعند قُدومِه جاءته امرأة يقال لها: عَناق ـ خليلة له في الجاهليّة، أعرَضت عنه عند الإسلام ـ فالتمَست الخَلْوةَ فعرّفها أنّ الاسلامَ يمنَع من ذلِك، ثمّ وعدَها أن يستأذِن الرّسولَ ﷺ ثمّ يتزَوج بها. فلمّا آنصَرف إلى رسول الله ﷺ عرّفه ما جَرى من أمر عَناق، وسأله: هل يحِلّ له التزويج بها؟ فأنزَل الله تعالى هذه الآية[٤].

وروي أنّها مَنسوخةٌ بالنَسبة إلى الكِتابيّة ـ التي هي داخِلة في المُشركات ـ بقوله تعالى في المائدة: ﴿وَٱلمُحْصَنَاتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلكِتَابَ مِن قَبْلِكُم﴾[٥] وسورة المائدة كلّها ثابتةٌ غير منسوخٍ منها شيء[٦]، وباقية على الحُرمةِ في غيرها.

---

١. القيامة: ٧٥/١٤. ٢. الكافي ٥: ٤/١٢٩. ٣. النساء: ٤/٣. ٤. تفسير الرازي ٦: ٥٤.
٥. المائدة: ٥/٥. ٦. تفسير الرازي ٦: ٥٨، تفسير أبي السعود ١: ٢٢١، تفسير روح البيان ١: ٣٤٥.

ثم علّل سبحانه الحُكمَ بقَوله: ﴿وَلَأَمَةٌ مُؤمِنَةٌ﴾ موحّدَةٌ مع ما بها من حَسَنات الرِّقِّ وفقدانها الشَّرَف والمال، لكَونها متزَيِّنة بزينةِ الإيمانِ والتَّوحيد ﴿خَيْرٌ لَكُم﴾ بحسَب الدِّين والدُّنيا ﴿مِن﴾ امرأةٍ حُرّةٍ ﴿مُشْرِكَةٍ﴾ مع مالَها من شرَف الحريّة ورِفعَة الشّأن وكَثْرة المال ﴿وَلَوْ أعْجَبَتْكُم﴾ تِلكَ المُشرِكة بسبَب جَمالِها ومالِها ونسَبِها وشَرَفِها، حيث إنّ حِكْمَة النّكاح الموادّة بين الزّوج والزّوجة، وطِيب الولادة، وكلاهما مُنتَفِيان في نكاحهنّ لعدَم حصول الموادّة بين المؤمن والمُشرِكة كما قال تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْماً يُؤمِنُونَ باللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوادّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ﴾ [1] ولعدَم تحقّق طِيب الولادة في نَسْلِهنّ؛ لأن في خَباثة الأمّ ونَجاسةِ لَبَنها أثَرٌ عظيمٌ في خَباثةِ الوَلد كما قال: ﴿الخَبِيثُونَ لِلخَبيثَاتِ﴾ [2].

ولذا أكّد سبحانه القضيّة بلام الابتداء التي تُشبه لامَ القَسَم، ثمّ لِعَينِ ما ذُكر من المِلاك نَهىٰ الله تعالى عن إنكاح المُشركين بقوله: ﴿وَلَا تُنْكِحُوا﴾ ولا تُزوّجوا النِّساء المؤمناتِ كُنّ حُرّاتٍ أو إماء ﴿الْمُشْرِكينَ﴾ سواءً كانوا من أهلِ الكتاب أو غيرهم ﴿حَتّىٰ يُؤمِنُوا﴾ ويُصَدِّقوا بالله ورَسوله ويدخُلوا في دين الإسلام، ولا خِلافَ في هذا الحُكمِ بين المسلمين.

﴿وَلَعَبْدٌ مُؤمِنٌ﴾ مع ما به من ذُلِّ العُبوديّةِ وفَقدِ المالِ والشَّرفِ وكَونِه كَلّاً على مَولاه ﴿خَيْرٌ مِن مُشْرِكٍ﴾ مع مالَهُ من عزّ الحريّة والثّروة ونُفوذ التصرّفات ﴿وَلَو أعْجَبَكُمْ﴾ جَمالُه ومالُه وعِزُّه وخِصالُه.

ثمّ بعد النّهي عن مُزاوجةِ الكُفّار وبَيان عدَم الصّلاح فيها، وأنّ الصّلاح في مُواصلة المؤمنين، بيّن مَفْسَدة عظيمة في مُزاوجة الكُفّار هي عُمدة عِلَل النّهي عنها، بقوله: ﴿أُولٰئِكَ﴾ المُشرِكون والمُشرِكات ﴿يَدْعُونَ﴾ مَن يُعاشِرهم إلى الشِّرْكِ والفِسْقِ والعِصيان الذي يؤدّي ﴿إلى النّار﴾ فلا ينبغي للعاقِل أن يُقارِبهم ويُواليهم.

نُقِل أنّ مُسلماً رأى نصرانيّةً سمينةً فتمنّى أن يكون [هو] نصرانيّاً حتّى يَتزَوّجها بكفر [3].

﴿وَاللهُ﴾ برَحمَتِه ولُطفِه ﴿يَدْعُوا﴾ بالنَّهيِ عن مُواصلَتِهم، وأمرِكم بالإيمانِ ومُواصلةِ أهلِه ﴿إلَىٰ الجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ﴾ قدّم الجنّة لمُقابلة النّار، وهذه الغاية القُصوى لا تحصُل لأحدٍ إلّا ﴿بِإِذْنِهِ﴾ وتوفيقه.

---

١. المجادلة: ٢٢/٥٨. ٢. النور: ٢٦/٢٤.

٣. تفسير روح البيان ١: ٣٤٦. وفيه: يكفر وهذا من حماقته...

ثمّ لمّا كانت هذه الأحكام المُحكَمات آياتُ ربوبيته ورحمتِه لكَونها جامعة لصَلاح العباد، قال: ﴿وَيُبَيِّنُ آياتِهِ﴾ ودَلائل ربوبيّته ورحَمتِه ﴿لِلنَاسِ﴾ كافّة ﴿لَعَلَّهُم يَتَذَكَّرُون﴾ بها، ويتفكّرون فيها، فيعمَلون بما هو صَلاحهم ونَجاحهم.

قيل: إنّ إيراد التذكّر هنا للإشعار بأنّه لوضوحِها غير محتاجة إلى التفكّر والتَدبُّر[١].

وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذىً فَاعْتَزِلُوا ٱلنِّسَاءَ فِى ٱلْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللهُ إِنَّ ٱللهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ[٢٢٢]

ثمّ لمّا بيّن سبحانه حكم النّكاح الذي هو غير مُنفَكّ عن المُواقعة غالباً، حكىٰ السُّؤال السابع الذي كان عن حكم المُواقعةِ في حال الحَيْض بقوله: ﴿وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ ٱلمَحِيضِ﴾ وعن مُخالطة النِّساء في حالِ تلوثُّهِنَ بالدَّم الخاصّ الخارج من الرَّحِم.

قيل: إنّ حكاية الأسئلة الثلاثةُ مقترِنة بواو العَطف لِكَون جميعِها في وقتٍ واحدٍ بخِلاف ما عَداها فإنّهم سألوها في أوقاتٍ متفرّقة[٢].

وقيل: إنّ سبَب السؤال أنّ اليهود والمَجوس كانوا يتَباعدون عن المرأةِ الحائض بحيث لا يُساكِنونها ولا يُواكلونها، والنّصارى كانوا بِخلاف ذلك حتّى إنّهم لم يُبالوا بجِماعها، وأهل الجاهليّة كانت رؤيتهُم رؤية اليَهود، فسأل أبو

الدَّحداح ونَفرٌ من الصّحابة عن الحكم، فنزَلت[٣] ﴿قُلْ هُوَ أَذَىً﴾ وقَذارةٌ مؤذية لِمن يَقْرَبهُنَ ﴿فَاعْتَزِلُوا ٱلنِّسَاءَ﴾ وآجتَنِبوا مُجامَعَتهنَ ﴿فِى ٱلمَحِيض﴾ ومَجرى الدّم الخاصّ، وهو الفَرْج.

عن أبي عبدالله عليه السلام في رواية: «أنّ دَم الحَيض حارٌ عَبيطٌ أسوَدٌ، له دَفعٌ وحَرارة»[٤]. الخبر.

وفي حُكمه ما يَخرُج في أيّام العادَة ولو كان فاقِداً للصّفات، لقول النبيّ صلى الله عليه وآله لزينب بنت جحش[٥]: «دَعي الصَّلاةَ أيّامَ أقرائِك»[٦].

---

١. تفسير أبي السعود ١: ٢٢٢، تفسير روح البيان ١: ٣٤٦.
٢. تفسير الرازي ٦: ٦٢، تفسير أبي السعود ١: ٢٢٢.
٣. تفسير الرازي ٦: ٦٣.
٤. الكافي ٣: ١/٩١.
٥. في تفسير الرازي: لفاطمة بنت أبي حبيش.
٦. تفسير الرازي ٦: ٦٧.

قيل: إنّ المُسلمين أخَذُوا بإطلاق الاعتِزال[١] فأخرَجوهنّ من بُيوتِهنّ، فقال جَمعٌ من الأعرابِ: يا رسول الله، البَردُ شَديدٌ والثِّياب قليلةٌ، فإن آثَرناهُنّ بالثِّيابِ هلَك سائر أهل البَيت، وإن آسْتَأثَرناها هلَكت الحائض. فقال ﷺ: «إنّما أمَرتُكم أن تعتَزِلوا مُجامعَتهنّ إذا حِضْنَ، ولَم آمُركم بإخراجهنّ من البيوت كفِعْلِ الأعاجم» فلمّا سَمِع اليَهود ذلك، قالوا: هذا الرَّجل يُريد أن لا يدَع شيئاً من أمرِنا إلا خالَفَنا فيه.

ثمّ جاء عباد بن بشير وأُسَيد بن حُضَير إلى رسول الله ﷺ فأخبَراه بذلك، وقالا: يا رسول الله، أفلا نَنْكِحهُنّ في المَحيض؟ فتغيّر وجه رسول الله ﷺ حتّى ظنَنّا أنّه غَضِب عليهما، فقاما فجاءته هديّة من لبَنٍ، فأرسَل النبيّ ﷺ إلَيهما فسَقاهُما، فعَلِمنا أنّه ﷺ لم يغضَب عليهما[٢].

ثمّ أنّه ورَد في أخبارٍ كثيرةٍ أنّ أقلّ الحَيْضِ ثلاثَة أيّام وأكثَرهُ عَشَرة[٣].

ثمّ بيّن سُبحانَه غايةَ وجوب الاعتِزال بقوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ﴾ بالمُجامعةِ في القُبُل ﴿حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ﴾ من الحَيْضِ وينقَطِع الدّم عن باطِن الفَرْج، ويعلم ذلك بالاختبار.

وفي رواية: (حتّى يَطَّهَّرْنَ) بالتشديد[٤]، أي يَغْتَسِلْنَ.

عن الصادق ﷺ [سئِل]: ما لِصاحب المرأةِ الحائض منها؟ فقال: «كلّ شيءٍ ما عَدا القُبُل بعَينهِ»[٥].

وعنه ﷺ قال: «تَرى هؤلاء المُشَوَّهين في خَلْقِهم؟ «قال: قلت: نعم. قال: «هؤلاء الذين آباؤهم يأتون نساءَهم في الطمث»[٦].

وعن النبيّ ﷺ: «مَن جامَع امرأتَه وهي حائض فخرج الولدُ مجذوماً أو أبرص فلا يَلومَنّ إلّا نَفْسَه»[٧].

﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ﴾ واَغتَسَلْنَ غُسْلَ الحَيضِ، وقيل: إنّ المُراد: إذا طَهُرنَ ﴿فَأْتُوهُنَّ﴾ وجامِعوهنّ، وليَكُن الإتيانُ والمُجامعة ﴿مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ﴾ عن ابن عباس: مَن حيث أمرَكم الله بتَجَنُّبِه، وهو محلّ الحَيض، أعني القُبُل[٨].

وقيل: من حَيث الطُّهر دون الحَيض[٩].

---

١. في تفسير الرازي: أخذ المسلمون بظاهر الآية. ٢. تفسير الرازي ٦: ٦٣. ٣. تفسير الرازي ٦: ٦٧.
٤. تفسير الرازي ٦: ٦٨. ٥. الكافي ٥: ١/٥٣٨. ٦. الكافي ٥: ٥/٥٣٩.
٧. من لايحضره الفقيه ١: ٢٠١/٥٣. ٨ - ٤. كنز العرفان ١: ٦/٤٥.

وعن محمّد بن الحنفيّة: من قِبل النّكاحِ دونَ الفُجور[١].

وقيل: من الجِهةِ الّتي يحِلّ أن يُؤتَين منها، ولا تَقرَبوهن من حيث لا يحِلّ، بأن يَكُنّ مُحْرِمات، أو مُعتَكِفات، أو صائِمات[٢].

في جواز إتيان النساء بعد النقاء وقبل الغسل على كراهة

ثمّ أنّ مُقتَضى ظُهور قولِهِ: ﴿هُوَ أَذًى﴾ في كونِه علّة لحُرمةِ الوِقاع المُستلزِمة لدَوَران الحُكمِ مَدارَها، وظُهور الأمر باعتِزالهنّ في المَحيض في حالِ حَصْرِهِ بحالِ الحَيْض، وظُهور قوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ﴾ بناءً على قراءة التّخفيف في كَونِ غاية النّهي النّقاء مِن الدَّم؛ هو جَواز المُواقعة بعد النّقاء وقَبل الغُسل، فيُعارض ظهور قوله: ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ﴾ بناءً على إرادة الغُسل من التّطهير، حيث إنّ مُقتَضاه عدَم جواز الإتيان قبلَه، فلابُدّ مِن حَمْلِ الجُملةِ الشّرطيّة على كَونِها شَرْطاً للإباحةِ الخالية عن المرجوحيّة، أو حَمْل يَطْهُرن على معنى طَهّرنَ كما قيل.

وأمّا الرّوايات الواردة عن المَعصومين عليهم السلام فعِدّة منها دالّة علىٰ جَواز الإتيان بعد النقّاء وقَبل الغُسل، كرواية عبدالله بن بُكير، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «إذا انقَطَع [الدم] ولم تغتَسِل، فليأتِها زوجُها إن شاء»[٣].

وعدّة منها دالّة على الحُرمةِ كما روي عنه عليه السلام قال: سألتُه عن مرأة حاضَت في السّفر، ثمّ طَهُرت ولم تَجِد ماءً يوماً أو اثنين، أيحِلّ لزَوجِها أن يُجامِعَها قبل أن تغتَسِل؟ قال: «لا يصلُح حتّى تغتَسِل»[٤].

وفي رواية: قلت: فيأتيها زوجُها في تلك الحال ـ أي في السَّفَر مع عدَم وُجدانِ الماء ـ قال: نعم، إذا غسَلت فَرْجَها وتيَمّمت فلا بأس[٥].

فلابُدّ مِن حَمْل النّواهي على الكراهة، خُصوصاً مع ظُهورِ لا يصلح فيها، وشهادة ما روي عن أبي الحسَن عليه السلام عليها قال: سألته عن الحائِض تَرى الطُّهرَ، أيقَع عليها زَوجُها قبل أن تغتَسِل؟ قال: «لا بأس، وبعد الغُسلِ أحَبّ إليّ»[٦]. وعلى هذا يتعيّن القول بالكراهة.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ﴾ حيث إنّ التّوبة تَطهيرٌ للنّفس مِن رِجْسِ المَعاصي ﴿وَيُحِبُّ

---

٢. مجمع البيان ٢: ٥٦٣.
٣. الاستبصار ١: ٤٦٤/١٣٥.
٤. الاستبصار ١: ٤٦٥/١٣٦، التهذيب ١: ٤٧٨/١٦٦.
٥. الكافي ٣: ٣/٨٢.
٦. التهذيب ١: ٤٨١/١٦٧، الاستبصار ١: ٤٦٨/١٣٦.

﴿ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ من أرجاسِ الأحداثِ ونَجاسات الأقذارِ الجسمانيّة.

عن (الكافي): عن الصادق عليه السلام: «أنّ الله يُحبّ العبدَ المُفتّنَ[١] التّوّاب، ومن لا يكون[٢] ذلك منه كان أفضَل»[٣].

وعن (العلل) و(العياشي) عنه عليه السلام قال: «كان النّاس يَستَنجون بثَلاثةِ أحجارٍ لأنّهم كانوا يأكلون البُسر فكانوا يَبعَرون بَعراً، فأكل رجلٌ من الأنصار الدُّبّاءَ فَلانَ بَطنُه وآستَنجى بالماء، فبعَث إليه النبيّ صلى الله عليه وآله قال: فجاء الرَّجل وهو خائفٌ أن يكونَ قد نزَل فيه أمر يسوؤه في استِنجائه بالماء، فقال صلى الله عليه وآله له: هل عَمِلتَ في يَومِك هذا شَيئاً؟ فقال: [نعم] يا رسول الله إنّي ـ والله ـ ما حملَني على الاستِنجاء بالماء إلّا أنّي أكلتُ طَعاماً فلانَ بَطْني فلم تُغنِ عنّي الحِجارةُ شيئاً، فاستَنْجَيتُ بالماء.

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: هَنيئاً لك، فإنّ الله عزّ وجلّ [قد] أنزَل فيك آيةً، فأبشِر **﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾** فكنتَ أنتَ أوّل من صنَع هذا، وأوّل التّوابين، وأوّل المُتَطَهِّرين[٤]».

قيل: كان الرَّجل الأنصاري هو البَراء بن مَعْرُور[٥].

وقيل: إنّ المُراد من المُتَطَهِّرين: المُتَنزِّهين عن الفَواحش والأقذار، كمُجامعَة الحائِض[٦]. ولعلّه المُراد من قول الصادق عليه السلام: «ومَن لا يكون[٧] ذلك منه كان أفضَل»[٨].

﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [٢٢٣]

ثمّ لمّا أذِن الله تعالى في الانتِفاع بالنِّساء في غير محل الحَيض حالته، وفيه أيضاً: بعد النَّقاء منه، صرّح بتَعميمِ الإباحةِ من حيث مكان الانتِفاع وكيفيّته بقوله: **﴿نِسَآؤُكُمْ﴾** وأزواجُكم **﴿حَرْثٌ لَّكُمْ﴾** ومَواضع إلقاء بُذورِكم منهنّ، تَحرثون الولَد واللّذّة. ووجه الشَّبه بين النُّطفة والبَذْر ظاهرٌ، فكما أنّ صاحب الحَرْثِ له أن يأتي حَرْثَه من أي مَكانٍ وبأيّ كيفيّة، كذلك الزّوج.

ثمّ لمّا شبّه الأزواج بامكِنة الحَرْث عبّر عن مُجامعَتهنّ بالإتيان في قوله: **﴿فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ**

---

١. أي المُمْتَحَن، يمتَحِنه الله بالذنب ثم يتوب، ثم يعود ثم يتوب. ٢. في المصدر: لم يكن.
٣. الكافي ٢: ٩/٣١٦. ٤. تفسير العياشي ١: ٤٣٢/٢٢٣، علل الشرائع: ١/٢٨٦.
٥. من لا يحضره الفقيه ١: ٥٩/٢٠، تفسير الصافي ١: ٢٣٢.
٦. تفسير روح البيان ١: ٣٤٧. ٧. في الكافي: لم يكن. ٨. الكافي ٢: ٩/٣١٦.

شِئْتُم﴾ ومن أيَ مكانٍ وبأيَ كيفيَةٍ أرَدتُم.

عن الصادق عليه السلام عن الرَجل يأتي المرأة في دُبُرِها، قال: «لا بأس إذا رَضِيت».

قيل فأين قول الله عزَ وجلَ: ﴿فَأْتُوهُنَّ مِن حَيْثُ أَمَرَكُم اللهُ﴾؟ قال: «هذا في طَلَب الوَلد، فاطلبوا الولد مِن حيث أمرَكم الله، إنّ الله تعالى يقول: ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾»[١] الخبر.

والظاهر أنّ الاستِشهاد بقوله: ﴿نِسَاؤُكُم حَرْثٌ لَكُم﴾ لِجَواز الإتيانِ في الدُّبُر، والرَوايات الكثيرة دالّة على جَوازِه مع كراهة شَدِيدة.

وقيل: إنّ المُراد أيَّ كيفيَةٍ شِئتُم، ومن أيَ جِهةٍ أرَدتُم، بعدَ أن يكون المأتيُّ قُبُلاً[٢].

نُقل أنّ سبَب نزول الآية أنّ اليَهود كانوا يَزعُمون أنّ مَن أتىٰ امرأته في قُبُلِها من دُبُرِها يأتي ولَدُه أحول، فذُكر ذلك للرَسول صلى الله عليه وآله فنزَلت الآية ردّاً عليهم[٣].

وعن الرضا عليه السلام: «أنّ اليهودَ كانت تقول: إذا أتىٰ الرَجلُ المرأةَ من خلفها خرَج ولدُه أحول، فانزَل الله: ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ من خَلْف أو قُدّام، خِلافاً لقول اليَهود، ولم يَعْنِ في أدبارِهنّ»[٤].

قيل: كانت الأنصارُ تُنكِر أن يأتي الرَجل المرأةَ من دُبُرها في قُبلها، وكانوا أخَذوا ذلك من اليَهود وكانت قريش تفعَل ذلك، فأنكَرت الأنصار ذلك عليهم[٥].

ونُقل عن ابن عبّاس أنّ عُمَر جاء إلى النبيّ صلى الله عليه وآله فقال: يا رسول الله هلَكتُ، وحكىٰ وقوع ذلك منه، فنزَلت[٦].

وعن الصادق عليه السلام في تفسير الآية: «أي مَتىٰ شِئتُم في الفَرْج»[٧].

وفي رواية اُخرى عنه عليه السلام: «من قُدّامِها ومن خَلفِها في القُبل»[٨].

وفي اُخرى عنه عليه السلام: «أيَ ساعةٍ شِئتُم»[٩].

---

١. التهذيب ٧: ١٦٥٧/٤١٤.
٢. تفسير روح البيان ١: ٣٤٧.
٣. تفسير روح البيان ١: ٣٤٧.
٤. تفسير العياشي ١: ٤٣٧/٢٢٤.
٥. تفسير الرازي ٦: ٧١.
٦. وكذا.
٧. تفسير القمي ١: ٧٣.
٨. تفسير العياشي ١: ٤٣٦/٢٢٤.
٩. تفسير العياشي ١: ٤٣٩/٢٢٥.

وروىٰ العامّة عن النبيّ ﷺ في حديث: «ملعونٌ من أتىٰ امرأتَه في دُبُرِها»[١]. والأظهَر ما ذكرنا من الجَواز مع الكراهةِ الشّدَيدة.

ثمّ لمّا ذكَر الله تعالى أنّ النِّساء حَرثٌ، أشار إلى أنّ الدُّنيا أيضاً حَرثُ الآخِرة، بقوله: **﴿وَقَدِّمُوا﴾** من الأعمال الصالحة **﴿لِأَنفُسِكُم﴾** في الدُّنيا ما تنتَفِعون به في الآخِرة، وأعمَلوا ما يكونُ ثَوابُه ذخراً لكُم ليوم حاجَتكم.

قيل: إنّ المُراد طَلَب الولَد من إتيان النّساء، حيثُ إنّه ينفَع الوالد في الآخِرة، ولا تَكونوا فـي قَـيد قَضاء الشَّهوة[٢].

وعن ابن عبّاس: أنّ المُراد التَّسمية قبل الجِماع[٣].

ثمّ بعد الأمر بالطاعة أمر بالاجتِناب عن المعاصي، بقوله: **﴿وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ﴾** وخافوا عِقابَه في مُخالفةِ أوامِره ونَواهيه التي من جُملتِها ما ذكر من الأُمور **﴿وَٱعْلَمُوا أَنَّكُم﴾** في الآخِرةِ **﴿مُلَاقُوهُ﴾** وتَـرَون جزاءه، فتزَوّدوا ما لا تفتَضِحوا به عنده، وفيه بيان علّة وجوب التَّقوىٰ حيث إنّه لولا الثّواب والعِقاب لكانَ تحمّل المشَقّة عَبَثاً.

ثمّ أردَف الوَعيد بالوَعْدِ بقوله: **﴿وَبَشِّرِ﴾** بثَوابٍ يقصُر عـنه البَيان، وبـالكرامـة العـظيمة عـند الله **﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾** الذين يتَلقون أوامِر اللهِ ونَواهيهِ بحُسن القَبولِ والامتِثال.

وَلَا تَجْعَلُوا ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَانِكُمْ أَن تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ[٢٢٤]

ثمّ لمّا أمرَ سُبحانه عبادَه بالطّاعةِ والتّقوىٰ، ذكَر أنّ الحِلْفَ بالله على تَركِهما لا أثَر له ولا يكون مانعاً عنهما بقوله: **﴿وَلَا تَجْعَلُوا ٱللَّهَ عُرْضَةً﴾** ومانِعاً وحاجزاً **﴿لِّأَيْمَانِكُم﴾** ولأجلِ حِلْفِكم به على تَـرْكِ عمَل بِرٍّ من **﴿أَن تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾**.

روي أن بشير بن نُعمان الأنصاري كان قد طلّق زوجتَه التي هي أُخت عبدالله بن رَواحة، وأراد أن يتزوّجها بعد ذلك، وكان عبدالله قد حلَف على أن لا يدخُل على بشيرٍ ولا يُكلّمه، ولا يُصلح بـينه وبين أُختِه، فإذا قيل له في ذلك، قال: [قد] حلَفتُ بالله على أن لا أفعَل، ولا يَحِلّ لي إلّا أن أحـفَظ

---

١. تفسير روح البيان ١: ٣٤٧.　٢. تفسير الرازي ٦: ٧٤.　٣. ايضاً.

يَميني وأبَرّ فيه، فأنزل الله تعالى هذه الآية[١].

وعن بعض العامّة: أنّها نزلت في أبي بكر حين حلَف أن لا يُنفِق على مِسطَح لخَوضِه في حديث الإفك[٢].

وعن الصادق عليه السلام في تفسيرها: «إذا دُعِيتَ لصُلحٍ بين الاثنين فَلا تقُل: عليَّ يمينٌ أن لا أفعل»[٣].

وقيل: إنّ المُراد لا تجعَلوا الله مَعرَضاً لأيمانِكم بإكثار اليَمين به[٤]. وعلّة هذا النَّهي إرادة أن تَبَرُّوا، أي تَكونوا بارِّينَ متَّقِين مُصلِحين بين النّاس حيث إنّ من عرَفه النّاس بالبِرّ والتَّقوى يَقبَلون قولَه في مقام الإصلاح.

عن الصادق عليه السلام: «لا تَحلِفوا بالله صادِقين ولا كاذبين، فإنّ الله يقول: **﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ﴾**»[٥] الخبر.

﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لأيمانِكم **﴿عَلِيمٌ﴾** بضَمائِركم ونيّاتِكم.

لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ * لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن فَاءُو فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ [٢٢٥-٢٢٧]

ثمّ لمّا ذكَر الله تعالى عدم كونِ الحِلف مانعاً عن عمَل الخير، ذكَر بعض أحكام الحِلْف من عدَم العُقوبة والكَفّارة على ما يكون منه لغواً وساقِطاً عن الاعتبار، بقوله: **﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾** وهو كقَول العرَب: لا والله، وبَلىٰ واللهِ، وذلك مرويّ عن الصادقَين عليهما السلام[٦]. فإنّه لا يكون معَه قَصدٌ وعَقدٌ في القَلْبِ على الحِلفِ، بل يَجري على اللِّسان على حسَب العادَة أو بقَصدِ تأكيد الكَلام.

وقيل: إنّه حِلفُ الرّجلِ بالله على شيءٍ يظُنّ أنّه صادِقٌ فيه، وليس كذلك[٧].

وقيل: في وَجه تسميةِ الحِلف باليَمين: إنّ العرَب كانوا إذا حلَفوا تصافَحوا باليمين. أو أنّ أحد

---

١. تفسير روح البيان ١: ٣٤٩.
٢. تفسير أبي السعود ١: ٢٢٣.
٣. تفسير العياشي ١: ٢٢٦/٤٤٤، تفسير الصافي ١: ٢٣٤.
٤. جوامع الجامع: ٤٠.
٥. مجمع البيان ٢: ٥٦٧، تفسير الصافي ١: ٢٣٤.
٦. مجمع البيان ٢: ٥٦٨، تفسير الصافي ١: ٢٣٤.
٧. تفسير روح البيان ١: ٣٥٠.

معاني اليَمين: القوّة، والحالِف يتقوّى بحِلفه على العمَل بما حلَف عليه[١].

﴿وَلٰكِن يُؤَاخِذُكُم﴾ اللهُ ويعاقِبكم على حِنْثِ الحِلْفِ في الدُّنيا بإيجابِ الكَفّارةِ، وفي الآخِرةِ على تقدير عدَم التّكفير بالعَذاب ﴿بِمَا كَسَبَتْ﴾ وَآنطَوت عليه ﴿قُلُوبُكُم﴾ وضَمائركُم من الجِدِّ به واقترَفت مِن الكَذِب فيه.

قيل: كَسبُ القَلبِ هو التّعمُّد، وكَسبُ اللِّسانِ هو الخَطأ فيه.

قيل: إنّ المُؤاخَذة في هذه الآية عقوبة الآخِرة. وفي قوله: ﴿وَلٰكِن يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُّم الأَيْمانَ﴾[٢] المؤاخَذة بالكَفّارة[٣].

﴿وَاللهُ غَفُورٌ﴾ وسَتّارٌ للذُّنوب، كثيرُ الإغماضِ عن العقوبةِ، فلا يؤاخِذ علىٰ يمينِ اللّغوِ مع كونِه ناشئاً من عدَم المُبالاة والتّقصير في التّحفُّظ ﴿حَلِيمٌ﴾ غير عَجول بالعقوبةِ في مورِد استِحقاقها غير الصالح للعَفْو.

في بيان شرائط الإيلاء

ثمّ لمّا ذكر سبحانه القِسْمَين لليمين، ذكَر حُكمَ نوعٍ خاصٍّ منه، وهو حِلفُ الزّوج على تَرك وَطء زوجته بقوله: ﴿لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ﴾ ويَحلِفون على التّباعد ﴿مِن نِسَائِهِم﴾ بتَركِ المُجامعة ﴿تَرَبُّص أربَعَة أشْهُرٍ﴾ وانتِظار انقضائها من زَمان الحِلْف.

﴿فَإِنْ فَاءُو﴾ ورجَعوا عن حِلفهم بأن جامَعوهنّ قبل انقِضاء المُدّة مع أداء الكَفّارة ﴿فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ﴾ للمَولىٰ، وسَتّارٌ لمَعصِية حِنْثِه اليَمين وقَصْدِه الإضرارَ بالمرأةِ إذ الفَيْئُ مع الكَفّارة توبة له ﴿رَحِيمٌ﴾ بعِباده.

﴿وَإِنْ عَزَمُوا﴾ وقصَدوا ﴿ٱلطَّلَاقَ﴾ وطلّقوهنّ ﴿فَإِنَّ اللهَ سَمِيعٌ﴾ لمَقالِهم في الطّلاق ولسائر المَقالات التي لا يخلو الطّلاق منها عادة ﴿عَلِيمٌ﴾ بضَمائِرهم وأغراضِهم، وفيه تهديدٌ ووعيد.

قال بعض الفقهاء: يستفاد من الآية وجوب مُجامعة الزّوج زوجتَه في أربعة أشهر مرّة[٤].

وفيه: أنّ الاستِفادة موقوفةٌ على تقدير المُدّة مِن زمانِ الجِماع لا مِن زمان الحِلف، أو الرّفع إلى السُّلطان، وهو خِلافُ ظاهِر الآية والرّوايات.

---

١. تفسير روح البيان ١: ٣٥٠.
٢. المائدة: ٥/٨٩.
٣. تفسير روح البيان ١: ٣٥٠.
٤. كنز العرفان ٢: ٢٩٣.

عن (العيّاشي) عن الرِّضا عليه السلام في روايةٍ: «أنّ أجَل الإيلاءِ أربعَة أشهرٌ بعدما يأتيان السّلطانَ»[١].

وعن الحَلَبي، عن أبي عبدالله عليه السلام في حديث قال: «أيّما رجُلٍ آلىٰ من امرأتِه ـ والإيلاءُ: أن يقولَ: واللهِ لا أُجامِعك كذا وكذا، والله لأُغيضَنّك، ثمّ يُغاضبها ـ فإنّه يتربص بها أربعة أشهر، ثمّ يؤخذ بعد الأربعَة الأشهُر فيُوقَف فإذا فاء ـ وهو أن يُصالح أهلَه ـ فإنّ الله غفورٌ رحيم، وإن لم يَفِئ أُجبِر على الطَّلاق، ولا يقَع بينَهما طَلاق حتّى يُوقَف»[٢].

وعنه عليه السلام قال: «كان أمير المؤمنين عليه السلام يجعل له حظيرة من قصَب ويحبسه[٣] فيها، ويمنَعه من الطَّعام والشّراب حتّى يُطلّق»[٤].

وعنه عليه السلام في المَولىٰ: «إمّا أن يَفيئ أو يُطَلّق، فإن قَبِل وإلّا ضُربت عنقُه»[٥].

وعن الباقر عليه السلام في رواية قال: «لا يكون إيلاءٌ حتّى يَحلِف على أكثَر من أربعة أشهُر»[٦].

وعن الصادق عليه السلام في رواية: «لا إيلاء[٧] حتّى يدخُلَ بها»[٨].

وعن الرضا عليه السلام قال: سألتهُ عن الرَّجل يؤلي من أَمَتِهِ؟ فقال: «لا، كيف يُؤلي وليس لها طَلاق؟!»[٩].

وَٱلْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللهُ فِى أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذٰلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلاحاً وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَٱللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ[٢٢٨]

ثمّ لمّا ذكَر الله سبحانَه الطَّلاقَ، تعرّض لبيان بَعض أحكامِه بقوله: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَاتُ﴾ من النّساء الحَرائر المَدخولِ بهِنّ، غير الحاملات إذا كُنَّ ذَوات أقراءٍ ﴿يَتَرَبَّصْنَ﴾ ويَنْتَظِرْنَ ﴿بِأَنْفُسِهِنَّ﴾ بأن يَحْمِلنَها على تَرْك التّزويج ﴿ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ وهي الأطهار عندنا.

عن أبي جعفر عليه السلام قال: «الأقراءُ هي الأطهار»[١٠].

---

١. تفسير العياشي ١: ٤٥٠/٢٢٧.
٢. الكافي ٦: ٢/١٣٠.
٣. في النسخة: يحفر له حفيرة من قصب ويجعله.
٤. الكافي ٦: ١٠/١٣٣.
٥. الكافي ٦: ١١/١٣٣.
٦. التهذيب ٨: ١٢/٦، الاستبصار ٣: ٩٠٧/٢٥٣.
٧. في الكافي: لا يقع الإيلاء.
٨. الكافي ٦: ٢/١٣٤.
٩. قرب الإسناد: ١٢٩٩/٣٦٣.
١٠. الكافي ٦: ٤/٨٩.

وعنه عليه السلام في رواية أخرىٰ: «القُرْءُ مابينَ الحَيْضَتَين»[١].

وفي التَعبير عن الأمر بصِيغة المُضارع دلالةٌ على تأكّد الوجُوب؛ لأنّ فيه إشعارٌ بأنّ هذا الوجُوب مُلازِمٌ للعمَلِ، ويكونُ امتِثاله معه، كما أنّ في تقديم المُطلّقاتِ على فِعل (يترَبّصن) دلالةٌ على قوّة الوجوب.

ثمّ لمّا كان انقِضاء العِدّة بالأقراء، ولا يُمكن الاطّلاع عليها إلّا مِن قِبَل النِّساء، نَهاهُنّ عن كِتمانها بقوله: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ﴾ ويُخْفِين ﴿مَا خَلَقَ ٱللهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ﴾ من الحَيض والحَبل بأن تقول المرأة: لستُ بحاملٍ؛ لحُبِّ تَعجيلِ الطّلاق، حيث إنّ الزّوج إذا عَلِم أنّها حامِل يمنَعه حبّ الوَلَد عن الطّلاق. أو تقول: لَسْتُ بحائضٍ؛ وهي حائضٌ، لكَراهةِ التّعجيل، حيث إنّها إذا كانت في طُهرِ المُواقعَةِ لا يجوز طَلاقُها، ولابُدّ من انتِظار حَيْضِها وطُهْرها بعدَه، وقد يكون كِتمانُ الوَلَدِ لحُبِّ سُرعةِ انقِضاء العِدّة إذا كانت عِدّة الوَضْع أطوَل من مدّة الأقراء، وكتمانُ الحَيضِ لكراهة سُرعةِ الانقَضاء، فتدّعي بقاءَ العِدّة وتأخير الحَيْض حتّى يرجِع إليها الزّوج.

في حجية قول المرأة في الحمل والحيض والطهر

ثمّ أنّه استدلّ بحُرمةِ الكِتمان على حجّيّة قَول النّساء بالنّسبة إلى الحَيض والطُهر والحَمل إثباتاً ونَفْياً، ولا شُبهةَ فيها نصّاً وفتوىٰ، وليس تعليق الحُكم على الإيمان بالمبدأ والمَعاد في قوله تعالى: ﴿إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ لبَيان اشتِراط حُرمة الكِتمان به، بل إنّما هو لزيادة التّرغيب على تَركِه، والتّهديد على فِعْلِه، فيكون المَفاد أنّ الإيمانَ مانِعٌ عن الكِتمان، وأنّ الكاتمةَ لا إيمان لها.

ثمّ بيّن الله تعالى الحكمَ الثاني في الطّلاق بقوله: ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ﴾ وهم الأزواج الذين طلّقوهنّ رجعيّاً، كما يُنبئ عنه التّعبير بالبُعولةِ التي هي جَمع بَعْل، وهو في الأصل المالِك للأمر ﴿أَحَقُّ﴾ وأملَك ﴿بِرَدِّهِنَّ﴾ إلى الزوجيّة بإنشاء الرّجوع، أو بالتمتُّعات التي لا تنبغي إلّا للزّوج، كالقُبلة والجِماع ﴿فِى ذَٰلِكَ﴾ الزّمان والأجَل المَضروب للتربُّص ﴿إِنْ أَرَادُوٓا﴾ الأزواج بالرّجوع إليهنّ ﴿إِصْلَاحاً﴾ لما بينهم وبينهنّ، أو إحساناً إليهنّ، ولم يُريدوا مضارّتهنّ، وليس هذا الشّرط لتأثير الرّجوع في عَود العُلقة وزَوال أثرَ الطّلاق، بل للحَثّ على الإحسان، والزّجرِ عن الإضرار.

﴿وَلَهُنَّ﴾ على أزواجِهنّ من الحقوق ﴿مِثْلُ﴾ الحَقّ ﴿ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ﴾ لأزواجهنّ في تحتّم

---

١. الكافي ٦: ٣/٨٩.

المُحافظة ووجوب الرِّعاية والحقوق المقرّرة ملابِسات ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ المُقرّر عند الشّرع والعُقَلاء، فلا يكلّف أحدُهما الآخرَ بما ليس له بحقّ.

عن ابن عبّاس: إنّي لاتزيّن لامرأتي كما تتزيّن لي، لقوله تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِي عَلَيْهِنَّ﴾[١].

﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ﴾ في الحقوق ﴿دَرَجَةٌ﴾ زائِدَةٌ، ومَرْتبة فاضِلة، لكَونهم قَوّامين عليهنّ.

سُئل الصادق عليه السلام عن حقّ المرأةِ على زَوجها. قال: «يُشبع بَطْنَها، ويَكسو جُثّتَها، وإن جَهِلت غفر لها»[٢].

وعن الباقر عليه السلام قال: «جاءت امرأة إلى رسول الله صلّى الله عليه وآله فقالت: يا رسول الله، ما حقّ الزّوجِ على المرأة؟

فقال لها: أن تُطيعه ولا تَعصيه، ولا تتصدّق من بيته بشيء إلّا بإذنِه، ولا تَصوم تطوّعاً إلّا بإذنِه، ولا تمنعه نفسَها وإن كانت على ظَهْرِ قَتَب[٣]، ولا تخرُج من بيتها إلّا بإذنِه، فإن خرَجت بغير إذنِه لعَنَتْها مَلائكةُ السَّماءِ وملائكةُ الأرضِ وملائكةُ الغَضَب وملائكة الرّحمة حتّى تَرجِع إلى بيتِها.

فقالت: يا رسول الله مَن أعظَم النّاسِ حقّاً على الرّجل؟ قال: والداه.

قالت: فمن أعظَم النّاس حقّاً على المرأة؟ قال: زوجها.

قالت: فما لي من الحقّ عليه مثل مالَه عليّ؟ قال: لا، ولا من كلّ مائة واحدة.

فقالت: والذي بعَثك بالحقّ نبيّاً لا يَملِك رقبتي رجلٌ أبَداً»[٤].

وفي حديث: «جهادُ المرأةِ حُسن التبَعُّل»[٥].

﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ﴾ وغالِبٌ على خَلْقِه، لا يَعجِز عن الانتِقام مِمَّن خالَفه ﴿حَكِيمٌ﴾ يشرّع الأحكام على طِبْق الصّلاح.

ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا مِمَّا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئاً إِلَّا أَن يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا

---

١. تفسير الرازي ٦: ٩٤.   ٢. من لا يحضره الفقيه ٣: ١٣٢٧/٢٧٩، تفسير الصافي ١: ٢٣٦.

٣. القتب: الرّحل الصغير يوضع على سنام البعير.

٤. من لا يحضره الفقيه ٣: ١٣١٤/٢٧٦، الكافي ٥: ١/٥٠٦، تفسير الصافي ١: ٢٣٧.

٥. تفسير روح البيان ١: ٣٥٥.

يُقِيمَا حُدُودَ آللهِ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا آفْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ آللهِ فَلاَ تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ آللهِ فَأُولٰئِكَ هُمُ آلظَّالِمُونَ * فَإِن طَلَّقَهَا فَلا تَحِلُّ لَهُ مِن بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ فَإِن طَلَّقَهَا فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَن يُقِيمَا حُدُودَ آللهِ وَتِلْكَ حُدُودُ آللهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ [٢٢٩ و ٢٣٠]

ثمّ لمّا ذكَر الطّلاقَ الرّجعيَ، بيّن عدده بقوله: ﴿الطَّلَاقُ﴾ الرّجعيّ الذي للزّوج حقُّ الرّدِّ في عِدّتِه ﴿مَرَّتَانِ﴾ ودفعتان لا أزيَد، وفيه دلالة على عدَم وقوع الطّلْقَتَين دفعةً، بل لابدّ من التّفريق فيهما.

في حديث ابن عمر: أنّ رسولَ الله ﷺ قال له: «إنّما السّنّة أن تستَقْبِل الطُّهرَ استِقبالاً فيُطلّقها بكُلّ طُهرٍ تَطْلِيقةً»[1] وبه وردت روايات أهل البيت عليهم السلام من طرق أصحابنا، وفيه أيضاً دلالة على شرعيّة الرجّوع لأنّ طَلاق المُطلّقة غير مُتَصوَّر عقْلاً.

قيل: كان الرّجل في الجاهليّة يُطلّق المرأة[2] ثمّ يُراجِعها قبل أن تَنْقَضي عِدّتَها، ولو طلّقها ألفَ مرّةٍ كانت القُدرة على المُراجعة ثابتةً له، فجاءت امرأةٌ إلى عائشة، فشَكَت أنّ زوجَها يُطلّقها ويُرجعها ويضارّها بذلك، فذكَرت ذلك عائشة لرسول الله ﷺ فنزلت ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَان﴾[3] لا يَـزيد الرّجـل عليهما، وأن يؤدّي جميع حقّها ولا يَذكُرها بسوء.

ثمّ إذا أوقَع التّطليقَتان، يكون الواجب على الزّوج أحد الأمرَين:

أحدُهما: ما ذكره الله تعالى بقوله: ﴿فَإِمْسَاكٌ﴾ للزّوجةِ وأخذ بعَلاقة الزّوجيّة بالرّجوع إليها مقروناً ﴿بِمَعْرُوفٍ﴾ وحسْنِ العِشْرَةِ، ولُطف السِّيرة، والالتِزام بحُقوق الزوجيّة.

وثانيهما: ما ذكره بقوله: ﴿أو تَسْرِيحٌ﴾ وإرسالٌ مقرون ﴿بإِحْسَانٍ﴾ بان لا يُراجِعهاحتّى تـنقَضي عِدّتها، ويُحتمل أن يُراد منه التّطليقة الثالثة، كما رويعن النبيّ ﷺ سُئل: أينَ الثالثة؟ فقال ﷺ: «أو تسريح بإحسان»[4].

قيل: إنّ المُراد منه أن لايضُرّها حتّى تبذُل شيئاً وتَفدي نفسَها.

ثمّ بيّن الحكم الرابع بقوله: ﴿وَلَا يَحِلّ لَكُم﴾ أيّها الأزواج ﴿أَنْ تَأْخُذُوا﴾ بعِوَض الطّلاق أو لسائر الأسباب ﴿مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ﴾ وأعطَيْتموهنّ بعنوان الصّداق أو غيره ﴿شَيْئاً﴾ قليلاً أو كثيراً ﴿إلّا﴾

---

١. تفسير الرازي ٣٠: ٣٠.
٢. في تفسير الرازي: يطلق امرأته.
٣. تفسير الرازي ٦: ٩٦.
٤. تفسير البيضاوي ١: ١٢٢.

بسبَب ﴿أَنْ يَخَافَا﴾ الزَوجان ﴿أَلَّا يُقِيمَا﴾ وَلا يَرْعَيا ﴿حُدُودَ ٱللَّهِ﴾ وحُقوقه التي جعَلها فيما بينَهُما من وظائف الزَوجيّة، وفيه التِفاتٌ من الخِطاب إلى الغَيْبَة.

في طلاق الخُلع وجملة من أحكامه

﴿فَإِنْ خِفْتُمْ﴾ أيها الحُكّام مِن الزّوْجَين ﴿أَلَّا يُقِيمَا﴾ وَلا يَرْعَيا ﴿حُدودَ ٱللَّهِ﴾ من حقوق الزوجيّة وأحكامها الواجبة، بأن أظهَرت الزَوجة البِذاء وسوء الخُلق والتعدّي في القَول، بأن تقول له: لا أبرّ لك قسماً، ولا أُطيع لك أمراً، ولأُوطِئَنّ فِراشَك مَن تَكرَهه وغير ذلك، فيُخاف من الزَّوج التَّعدِّي عليها وإيذاؤها وحصَل من الزَوجة أيضاً خوف التعدِّي بظُهور الكراهة منها لزَوجها وهو أمارةٌ قويّة مُوجِبة لخَوف الفِتنة، فإذا كان ذلك ﴿فَلَا جُنَاحَ﴾ ولا بأسَ ﴿عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ﴾ الزَوجةُ ﴿بِهِۦ﴾ مِن نفَسِها ليُطَلِّقَها زوجُها، وفي أخذ الزَوج منها الفِداء بعِوَض طَلاقها [سواء أ]كان الفِداء مساوياً للصَداق أو أزيَد منه أو أنقَص.

روي أنّ هذه الآية نزَلت في جَميلة بنت عبدالله بن أُبَيّ، وفي زَوجها ثابت بن قَيْس بن شَمّاس، وكانت تَبغُضه أشَد البُغْض، وكان يُحِبّها أشَدّ الحُبّ، فأتَت رسول الله ﷺ فقالت: فرِّق بيني وبينَه فإنِي أبغُضه، ولقد رفَعتُ طرَف الخِباء فرأيتُه يَجيءُ في أقوامٍ، فكان أقصَرَهم قامةً وأقبحهم وَجهاً، وأشَدَّهم سواداً، وإنّي أكرَه الكُفْرَ بعد الإسلام.

فقال ثابت: يا رسول الله، مُرْها فَلتَرُدّ عليّ الحديقة التي أعطَيتُها. فقال لها: «ما تَقولين؟» قالت: نعَم وأزيدُه. فقال ﷺ: «لا، حديقته فقط». فقال: لِثابت: «خُذ منها ما أعْطَيتَها وخَلِّ سبيلَها» ففعَل، وكان ذلك أوّلَ خُلعٍ في الإسلام[١].

وفي روايةٍ: أنّ المرأة كانت حَفْصَة بنت سَهْل الأنصاريّة[٢].

وعن (العياشي) عن الصادق عليه السلام في المُختَلِعة، قال: «لا يَحلّ خُلعُها حتّى تقولَ: واللهِ لا أبَرّ لك قسماً، ولا أُطيع لك أمراً، ولأُوطِئَنّ فِراشَك، ولأُدْخِلَنّ عليك بغير إذنِك، فإذا هي قالت ذلك حلّ خُلعُها وحَل [له] ما أخذ منها من مَهرِها وما زاد، وهو قوله تعالى: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ﴾ فإذا فعَلت[٣] ذلك فقد بانَت منه بتَطليقةٍ، وهي أملَك بنَفسِها، إن شاءت نكَحته، وإن شاءت فَلا، فإن نكَحته فهي عنده على ثِنْتَين»[٤].

---

١. تفسير الرازي ٦: ١٠٠.

٢. تفسير الرازي ٦: ١٠٠.

٣. في المصدر: وإذا فعل.

٤. تفسير العياشي ١: ٤٧٠/٢٣٢.

عن النبيّ ﷺ قال: «ومَن أضرّ بامرأته حتّى تَفتَدي منه نفسَها، لم يَرْضَ الله له بعقوبةٍ دون النّار، لأنّ الله يغضَب للمرأةِ كما يغضَب لليَتيم».

إلى أن قال: «وأيما امرأةٍ خُلِعَت من زوجِها لَمْ تزلْ في لعنةِ اللهِ وملائكتِه [ورسله] والنّاسِ أجمعين حتى إذا نزلَ بها مَلَكُ الموتِ قالَ لها: أبشري بالنّار. فإذا كانَ يومُ القيامةِ قِيلَ لها: ادخلِي النّارَ مَعَ الدّاخلين، ألَا وإنّ الله ورسولَه بريئانِ مَن المختلعاتِ بغيرِ حقٍّ، ألَا وإنّ الله ورسولَه بريئانِ مِمنَ أضَرَّ بامرأتِه حتى تُخلعَ منه»[1].

في حرمة أخذ العوض للطلاق مع عدم كراهة الزوجة

ثُمّ أنّ ظاهر الآيةِ وكثيرٍ من الرواياتِ حُرمةُ أخذِ العِوَضِ للطّلاقِ على الزوج، وعدمُ صحّةِ طَلاقِ الخُلعِ معَ عدمِ كراهةِ الزّوجةِ؛ ومع ذلكَ ذهبَ بعضُ الأصحاب إلىٰ جوازِ الطّلاقِ بالعِوَض معَ عدمِ تحقُّق شرائِط الخُلعِ والمباراة لوُجوهٍ لا ينبغي أن يُعتَمد عليها؛ لكونها اجتهاداً في مُقابِل النصِّ.

فعلىٰ هذا يكونُ نفيُ الجُناحِ في الآيةِ عن الزوجِ والزوجةِ باعتبارِ أنّ الزّوجَ عندَ خوفِ الفتنة يحِلُّ له أخذُ الفِديةِ، ولا بأسَ عليهِ فيهِ، ويصِحُّ طلاقُ الزوجةِ خُلعاً، ولا بأسَ عليها بالتزوّج بالغير.

و﴿تِلْكَ﴾ الأحكام ﴿حُدُودُ اللهِ﴾ الّتي يجبُ رِعايتُها، والمُحافظةُ عليها، والعَملُ بها ﴿فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ أيُّها المُؤمنونَ بالرفضِ وعدم المحافظة.

ثُمّ أتبعَ النهيَ بالتوعيدِ بقولِه: ﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ﴾ ويتجاوز ﴿حُدُودَ اللهِ﴾ وأحكامَهُ ﴿فَأُولَـٰئِكَ﴾ المتعدّونَ ﴿هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ أنفسَهُم بتعريضِها لِسَخَطِ اللهِ وعذابِهِ.

في حرمة المرأة المطلقة ثلاثاً على زوجها إلّا بعد المحلّل وجملة من أحكامه

ثُمّ بَيّنَ اللهُ تعالى الحكمَ الخامسَ من أحكامِ الطّلاقِ بقولِهِ: ﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا﴾ ثالثةً، وهو اختيارُ التّسريحِ بالإحسانِ بعدَ التخييرِ بَيْنه وبَيْن الإمساكِ ﴿فَلَا تَحِلُّ لَهُ﴾ المرأةُ المُطلّقةُ بالرجوعِ أو بالعقدِ ﴿مِنْ بَعْدُ﴾ الطّلاق الثّالث. هذا إذا كانتْ المُطلّقةُ حُرّة، وأمّا إذا كانت أمَةً فمقْتضىٰ الرواياتِ أنها بَعدَ الطلاقِ الثاني لا تَحِلّ ﴿حَتَّىٰ تَنْكِحَ﴾ وتَتزوّج تلكَ المرأةُ ﴿زَوْجاً غَيْرَهُ﴾ وتذوقَ عُسَيْلَتَه[2]، لِمَا رُويَ أنّ امرأةَ رِفاعَةَ[3] قالتْ لرسولِ

---

١. عقاب الأعمال: ٢٨٥ و٢٨٧.

٢. العُسيلة: تصغير العسل، قطعة منه، والمراد لَذّة الجِماع، والتصغير إشارة إلى القدر القليل الذي يحصُل به الحِلّ.

٣. هي عائشة بنت عبدالرحمن بن عتيك زوجة رفاعة بن وهب بن عتيك، وهو ابن عمها. أُسد الغابة ٢: ١٨٥.

اللهِ ﷺ: إنّ رفاعةَ طلّقَني فَبَتَّ طَلاقي[١]، وإنّ عبدَالرّحمٰن بن الزبير تزوّجَني، وإنّ ما معَه مثلُ هُدْبَةِ الثوب[٢] فقال ﷺ: «أتُريدِينَ أنْ ترجِعي إلى رِفاعَة» قالتْ: نَعمْ. قالَ ﷺ: «إلّا أنْ تَـذُوقي عُسَيْلَتَه، ويذوقَ عُسَيْلَتَكِ»[٣].

عن (الكافي): عن الصادق عليه السلام في الرّجُل يُطلِّقُ امرأتَه الطّلاقَ الذي لا تَحِلُّ له حتّى تَنْكِحَ زوجاً غيرَه، ثمّ تزوّج رجَلاً[٤] ولم يَدخُلْ بها. قال عليه السلام: «لا، حتى يَذُوقَ عُسَيْلتَها»[٥]. وفي التعبيرِ عن الجِماع بذوقِ العُسيلةِ دَلالةٌ على اعتبارِ الوَطْءِ في القُبُل لعدمِ كونِ الوَطءِ في الدُّبُر ذَوْقَ العُسَيْلةِ.

قيل: إنّ اشتراطَ الوَطْءِ يستَفادُ مِن لفظِ النِّكاحِ المَوضوعِ للوَطْءِ، والعَقْد يُستفادُ مِن إسنادِه إلى الزّوج[٦].

وعن (الكافي): عنه ﷺ أنّه سُئِل عن رَجُلٍ طَلّق امرأتَه طَلاقاً لا تَحِلُّ له حتّى تَنكِحَ زوجاً غيرَه وتَزَوّجها رجلٌ مُتْعَةً. أيَحِلُّ له أنْ يَنْكِحَها؟ قال: «لا، حتى تدخل في مِثلِ ما خرجتْ منه»[٧].

وفي رِوايةٍ اُخرى: «المُتعةُ ليسَ فيها طلاقٌ»[٨] ففيها دَلالةٌ على أنّ اشتراطَ الدوامِ في عقدِ المُحَلِّلِ مُستفادٌ مِن قوله: ﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا﴾ الزّوجُ الثاني المُحَلِّل وانقضتْ عِدّتُها ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيهِمَا﴾ أي الزوج الأوّل والمرأة ﴿أن يَتَرَاجَعَا﴾ بالعَقدِ الدائِم، أو الانقطاع ﴿إِن ظَنَّا﴾ وحَسِبا ﴿أَن يُقِيمَا حُدُودَ اللهِ﴾ التي وجب رِعايتُها من حُقوقِ الزوجيّة ﴿وَتِلْكَ﴾ الأحكامُ المُبيَّنةُ ﴿حُدُودُ اللهِ﴾ وشرائعه المُعينة التي يحفَظُها مِن التغييرِ والمُخالفة، وهو بذاته المُقدّسة ﴿يُبَيِّنُهَا﴾ ويُوضِّحُها ﴿لِقَومٍ يَعلَمُونَ﴾ حُسْنَ الطاعةِ، وقُبْحَ المعصيةِ، ويَعْقِلون أنّ في العملِ بأحكام الله خير الدّنيا والآخرةِ، فإنّهم المُنتَفِعونَ بها، وإنْ كانت الأحكام عامّةً.

وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَاراً لِتَعْتَدُوا وَمَن يَفْعَلْ ذٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ ٱللهِ هُزُواً وَٱذْكُرُوا نِعْمَتَ ٱللهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُم مِنَ ٱلْكِتَابِ

---

١. البتُّ في الطلاق: هو تطليق الزوجة طلاقاً لا رجعة فيه.
٢. هُدْبَةُ الثوب: طرفُهُ الذي لم يُنسج، تريد أنه لا يملك شيئاً.
٣. تفسير البيضاوي ١: ١٢٣.
٤. في المصدر: تزوّجها رجلٌ آخر.
٥. الكافي ٥: ٤/٤٢٥.
٦. تفسير أبي السعود ١: ٢٢٧.
٧. الكافي ٥: ٢/٤٢٥.
٨. التهذيب ٨: ١٠٣/٣٤.

وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِ وَٱتَّقُوا ٱللهَ وَٱعْلَمُوا أَنَّ ٱللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ[٢٣١]

ثُمَّ أنّه لَمّا كان الإضرارُ بالمرأةِ الضّعيفةِ مِن القبائحِ السّخيفةِ ـ ومِن أقسام الإضرار: أن يُطلّقَ ثُمّ يعبر عليها[١] حتى إذا بلغَتْ العِدّةُ آخِرَها راجعَها، ثُمّ يطلّقُها، فتكون مدّةُ عدّة الطلقات الثّلاث ما يقربُ من تسعةِ أشهرٍ ـ نهى اللهُ تعالى عنه، وكرّر التخييرَ السابق توطئةً للزجرِ عنه، بقولِه: ﴿**وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ**﴾ وما يَقرُبُ آخِرَ عِدّتِهن فأنتُم بالخِيار، فإذا أحببْتُم إمساكَهُنّ ومُراجَعَتَهُنّ ﴿**فَأَمسِكُوهُنَّ**﴾ مَقروناً ﴿**بِمَعرُوفٍ**﴾ والإحسانِ إليهنّ غيرَ مُضارِّينَ بِهِنّ ﴿**أَو سَرِّحُوهُنَّ**﴾ وخَلّوهُنّ على حالِهنّ مُتَلَبِّسِينَ ﴿**بِمَعرُوفٍ**﴾ وإيصالِ نفعٍ وخيرٍ. وهذا التعليقُ لبيانِ لُزومِ مُراعاةِ الصَّلاحِ في تجديدِ العَقْدِ، لا لبيانِ اشتراطِ الصِحّةِ به.

في حرمة الاضرار بالزوجة

﴿**وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَاراً**﴾ ولا ترجِعوا إليهِنّ لتُضارُّهُنّ من غيرِ رغبةٍ فيهِنّ بل ﴿**لِتَعتَدُوا**﴾ وتظلِمُوا، وتتجاوَزُوا عليهِنّ بالتضييقِ في المعيشةِ وسوءِ المُعاشرةِ وتطويل العِدّة.

عن (الفقيه): سُئِلَ الصادقُ عليه السلام عن هذهِ الآيةِ فقال: «الرَّجُلُ [يطلّق] حتّى إذا كادَ أن يخلُو أجلُها [راجعها] ثمّ طلّقَها، يفعلُ ذلك ثلاثَ مراتٍ، فنهىٰ الله عزّ وجلّ عن ذلك»[٢] الخبر.

قيل: نزلتْ في ثابت بن يَسَار الأنصاري، طلّقَ امرأتَه، حتّى إذا قَرُب انقضاءُ عِدّتِها راجعَها، ثُمّ طلّقَها بقصد مُضارّتِها[٣].

ثُمّ لشدّةِ الاهتمام بترِك الإضرار، عقّب اللهُ النهيَ بالتّهديدِ بقوله تعالى: ﴿**وَمَن يَفعَلْ ذَلِكَ**﴾ الإضرارَ ﴿**فَقَد ظَلَمَ**﴾ وأضرَّ ﴿**نَفسَهُ**﴾ بتعريضِها لسَخَط اللهِ وعذابهِ، وبتَفويتِ المَنافِعِ الدُنيويّةِ والأُخرَويّةِ عليها.

ثُمّ بالغَ سُبحانه في التهديد على الإضرارِ وتركِ مُراعاةِ الحُقوقِ الواجبةِ بقولِه: ﴿**وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللهِ**﴾ سَواء كانتْ مُتضمِّنة الأحكام أو غيرها ﴿**هُزُواً**﴾ ولَعِباً؛ بأن تكونوا مُستخِفّين بها مُتهاوِنينَ فيها، مُعرِضِينَ عنها. فإنّ أشقىٰ الأشقياءِ المُتجَرّئون على اللهِ، المُستخِفّون بأحكامِه.

رُوي أنّه كانَ الرّجُلُ في الجاهليّةِ يُطلّقُ ويقولُ: طلّقتُ وأنا لاعِبٌ، ويعتِقُ وينكِحُ ويقولُ مثلَ ذلك.

---

١. كذا، والعبارة غير واضحة، والذي في أكثر التفاسير: ثمّ يمسك عنها.

٢. من لا يحضره الفقيه ٣: ١٥٦٧/٣٢٣.

٣. تفسير روح البيان ١: ٣٦٠.

فأنزَل اللهُ تعالى هذه الآية، فقرأها رسولُ الله ﷺ، قال: «مَن طلّقَ، أو حرّر، أو نَكَح، فزعَم أنه لاعِبٌ، فهو جِدٌّ»[١].

ثمّ بعدَ المُبالغةِ في التّهديدِ بِبَياناتٍ مختلفةٍ رغّبهم في الطّاعةِ بتذكِير نِعَمِه بقولِه: ﴿وَٱذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ﴾ التي أنعمَها ﴿عَلَيكُم﴾ فإنّ مِن أتمّها وأكملِها هِدايتَكم إلى ما فيه صَلاحُكم في الدنيا والآخرةِ ﴿وَمَا أنزَلَ عَلَيكُم﴾ بِبَركةِ النبيّ الأُمّي ﴿مِنَ ٱلكِتَابِ﴾ المَجيدِ ﴿وَٱلحِكْمَةِ﴾ من العلومِ النّظريّةِ والمَعارفِ وكشفِ الحقائق، والعلومِ العمليّةِ مِن الأحكامِ والأخلاق، لأن ﴿يَعِظُكُم بِهِ﴾ ويُؤدّ بكم بآدابِه. فقابِلُوا نِعَمَهُ بالشُّكرِ، وأطيعوا أحكامَه ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللهَ﴾ واحذروهُ في مخالفتِه وعِصيانِه ﴿وَٱعلَمُوا أنّ اللهَ بِكُلِّ شَىْءٍ﴾ مِن مَصالِحِكم ومَفاسِدِكم، وأعمالِكم ونِيّاتِكم ﴿عَلِيمٌ﴾ لا تَخفىٰ عليهِ خافيةٌ، فيُجازيكم بِمَا تستحقُّون. وهذا تهديدٌ فوقَ التّهديداتِ السابقةِ.

وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَٱللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ[٢٣٢]

ثُمّ بيّن اللهُ تعالى الحُكمَ السادسَ مِن أحكامِ الطّلاقِ، وهو حكمُ طَلاقِ المرأةِ بعَد انقضاءِ عِدّتِها بقوله: ﴿وَإِذَا طَلَّقتُمُ﴾ أيُّها المؤمنونَ ﴿ٱلنِّسَاءَ﴾ والأزواجَ، بأنْ وقَع الطّلاقُ مِن بعضٍ ـ وهذا مِن بابِ نسبةِ الفِعْلِ إلى القَبيلةِ بِوُقوعِه مِن أحدِهم ـ ﴿فَبَلَغْنَ﴾ واستَوْفَيْنَ ﴿أَجَلَهُنَّ﴾ المضروبَ لعِدّتِهِنّ ﴿فَلَا تَعضُلُوهُنَّ﴾ ولا تمنَعوهُنَّ من ﴿أن يَنْكِحْنَ﴾ ويتزَوَّجْنَ ﴿أزوَاجَهُنَّ﴾ الّذِين طلّقُوهُنّ.

فيكونُ حاصلُ المعنىٰ، واللهُ العالِم: إذا صدرَ مِن أحدِكم طَلاقٌ، فلا يصدُرْ مِن أحدِكم منعٌ عن التّزوّجِ بأزواجِهنّ ظُلماً ﴿إِذَا﴾ كانَ الزوجانِ ﴿تَرَاضَوْا﴾ بالمُواصَلةِ ﴿بَيْنَهُم﴾ مُلابِسِينَ ﴿بِالمَعرُوفِ﴾ والمُستحسن عندَ الشرعِ بإيقاعِ العقدِ وحفظِ شرائِطِ الصحّةِ ورِعايةِ الأحكامِ والحقوقِ.

ورُوي أنّ مَعْقِل بن يَسَار زوّجَ أُختَهُ جميلَ بن عبدالله بن عاصم، فطلّقها ثُمّ تركها حتّى انقضتْ عِدّتُها، ثمّ نَدِمَ فجاء يخطُبُها لنفسِه، فرضيَتْ المرأةُ بذلك، فقالَ لها مَعقِل: إنّه طلّقكِ ثُمّ تُريدِينَ

---

١. تفسير الرازي ٦: ١١٠.

مُراجعتَه، وَوَجْهي مِن وجْهِكِ حرامٌ إنْ راجعتِهِ. فانزلَ اللهُ تعالى هذِه الآيةِ، فدَعا رسولُ اللهِ ﷺ مَعقِلَ بن يَسَار وتَلا عليه هذِه الآية، فقال [مَعْقِل]: رَغِمَ أنفي لأمرِ ربِّي، اللّهُمّ رضِيتُ وسلّمتُ لأمرِك. وأنكَح أُختَه زوجَها[1].

ورُيَ أنّ جابر بن عبدِاللهِ كانتْ له بنتُ عمٍّ، فطلّقها زوجُها وأراد رَجعتَها بعدَ العِدّةِ، فأبىٰ جابرٌ، فأنزلَ اللهُ تعالى هذهِ الآيةِ، وكانَ جابرٌ يقولُ: فِيَّ نزلَتْ هذه الآية[2].

ويُحتمَلُ أن يكونَ المرادُ مِن التّراضي بالمعروفِ، هُو التراضي بِمَا فيه الصّلاحُ، فإذا تراضَوْا على شروطٍ يكونُ للمرأةِ فيها فَسادٌ، فليسَ منعُ الوَليِّ عنِ التزويج مَنهيّاً.

﴿ذَلِكَ﴾ النَهيُ مِمّا ﴿يُوعَظُ﴾ ويَرتدِعُ ﴿بِهِ مَنْ كَانَ مِنكُم يُؤْمِنُ بِاللهِ وَاليَومِ الآخِرِ﴾ فإنّ مَنْ كانَ مِن أهلِ الإيمانِ ينتفِعُ وينتهي به، وفيه تهديدٌ مُؤكّدٌ للنّهي.

ثُمّ أتبعَه بالتّرغيبِ على الطّاعةِ بقوله: ﴿ذَلِكُم﴾ العَملُ بحُكمِ اللهِ ﴿أزكَىٰ لَكُم﴾ وأثرُ في تهذيبِ نُفوسِكم مِنَ الأخلاقِ الرّذيلةِ ﴿وَأطهَرُ﴾ لقُلوبِكم مِن أدناسِ الآثام ﴿وَاللهُ يَعلَمُ﴾ ما بهِ تزكيةُ نفوسِكم وتطهيرُ قُلوبِكم ﴿وَأنتُم﴾ لِقُصُورِ عُقولِكم ﴿لَا تَعلَمُونَ﴾ ولا تدرِكون نتائجَ الأعمالِ ومُقتضَيات الأفعال.

﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ[٢٣٣]﴾

ثُمّ أنه تعالى بعدَ بيانِ جُملةٍ مِنْ أحكامِ الطّلاقِ، بيّن بعضَ أحكامِ الأولادِ، لمُناسبةِ أنّه قَد يقعُ التّشاجرُ بين الزّوجِ والزّوجةِ فِيهِم، فإنّه قَد يُريدُ الزّوجُ أنْ يأخُذَ الولدَ مِن الزّوجةِ، أو يُريدُ أنْ يُرضِعَه مجّاناً وبِلا أُجرةٍ، وقد تُريدُ الزّوجةُ الاستِنْكافَ عن إرضاعِ الولدِ بُغضاً لزوجِها، أو تُريدُ إلزامَ الزّوجِ

---

١. تفسير الرازي ٦: ١١١.

٢. تفسير الرازي ٦: ١١١.

بإعطاءِ الزّائدِ على ما هُو المعروفُ مِنَ الأجرِ.

فبيَّن اللهُ تعالى أنه ليسَ لِلزوجِ أخذُ الرّضيعِ مِن اُمِّه بقولِه: ﴿وَالوَالِدَاتُ﴾ [سواء أ]كُنَّ مُزوَّجاتٍ أو مُطلَّقاتٍ ﴿يُرضِعْنَ أولَادَهُنَّ﴾ وُجُوباً إنْ توقَّفت حياتهم على إرضاعِ الوالداتِ، كأن لَمْ تكُن مُرضِعةٌ اُخرىٰ، أو لَم يأخذُوا ثدي غيرهِنّ، أو كانَ لبنُ غيرهِنّ مُضِرّاً. أو جوازاً في غيرِ الصُّوَرِ [المذكورة] مَعَ حقِّ الأوْلَوِيَةِ لهُنّ، فلا يجوزُ للزّوجِ أخذُ الولدِ منهُنّ ﴿حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾ تامَّينِ بالتّدقيقِ، لا على المُسامحةِ والتّصرُّفِ.

هذا ﴿لِمَن أرَادَ﴾ مِنَ الوَالِد والوالِدةِ ﴿أنْ يُتِمَّ﴾ ويُكمِلَ ﴿الرَّضَاعَةَ﴾ إذْ تَمامُ الحَولَينِ أقصىٰ مُدّةِ الرضاعِ، ويجوزُ أنقصُ مِنهُما.

ورُوي أنّه: «ما نقَصَ عن أحد وعِشرينَ [شهراً] فهُو جَوْرٌ على الصَّبيّ»[1].

ورُويَ عَن ابنِ عبّاسٍ: «أنّ هذا الحَدَّ ليس لكُلِّ مَولودٍ، ولكِن لمن وُلِدَ لِستّةِ أشهُرٍ، وإنْ وُلِدَ لسبعةِ [أشهر] فثلاثةٌ وعِشرُون، وإنْ ولِدَ لِتسعةِ [أشهر] فأحد وعِشرون شهراً[2]. فإنْ لَمْ يَرِدْنَ تكميل الرضاع فليس للآباء إلزامُهنّ على الارضاعِ في تمامِ الحَولَين».

في (الكافي) عن الصادقِ عليه السلام: «لا تُجبرَ الحُرّةُ على إرضاعِ الولدِ، وتُجبَرُ اُمُّ الولدِ»[3].

وعن النّبي صلى الله عليه وآله: «ليس للصبيِّ لَبَنٌ خيرٌ مِن لَبَنِ اُمِّه»[4].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «مَا مِن لَبَنٍ اُرضِع[5] به الصبيّ أعظمُ بركةٍ [عليه] من لَبَنِ اُمِّه»[6].

﴿وَعلَى المَوْلُودِ لَهُ﴾ عبّر به عن الوالِد للإشارة إلى أنّ الولدَ للوالد، والاُمّ وعاءٌ، وتجب نفقتُه عليه، وأجرُ إرضاعه هو ﴿رِزْقُهُنَّ﴾ ومأكُولُهنّ ﴿وَكِسْوَتُهُنّ﴾ ومَلبُوسُهنّ ﴿بِالمَعْرُوفِ﴾ بَيْن النّاس مِمّا يُناسب حالَ المرأة.

ثمّ لمّا كان مجالٌ أن يُقال: لِمَ لَم تجبْ مؤنةُ الاُمّهات على أنفسِهِنّ ولِمَ قُيِّد إيجابُ الإنفاق على الوالد بكَوْنه بالمعروف؟ فأجاب سُبحانه بقوله: ﴿لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ﴾ مِنْ كُلٍّ مِنَ الوالدين الاُخرىٰ ﴿إلَّا وُسْعَهَا﴾ ومَا يسهُل تَحمُّلُه عليها، فإنّ إلزام الاُمّ على مؤنة نفسِها، مع ضَعفِها وعدمِ قُدرتِها على

---

١. مجمع البيان ٢: ٥٨٦.
٢. مجمع البيان ٢: ٥٨٦.
٣. الكافي ٦: ٤/٤٠.
٤. عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ٦٩/٣٤.
٥. في الكافي: يُرضَع.
٦. الكافي ٦: ١/٤٠.

التّكسُّب، إلزامٌ بمَا هو خارجٌ عن وُسعِها.

وكذا إلزام الأب على الإنفاق، فوقَ حدِّ المعروف، إلزامٌ بما هُو خارجٌ عن وُسْعِه، ولعلّه للإشارة إلى ذلك قال: ﴿لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ﴾ والداً ﴿بِوَلَدِهَا﴾ بأن تطلُبَ مِنه مَا ليسَ بعَهْدِ مِنَ الرّزق والكُسْوة، أو تمنعَ زوجها من نفسِها مَخافةَ الحَمْل ﴿وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ﴾ والدةً بولدِه بأنْ يأخذَ الولدَ منها، أو يمنعَها شيئاً من حقِّها ﴿بِوَلَدِهِ﴾.

وقيل: إنّ المعنىٰ أنّه لا يجُوزُ أن يُغيظَ أحدُهما صاحِبَه بسببِ الولد، مِثْل أن ينزِعَ الأبُ الولدَ مِن اُمِّه مع رغبتِها في إمساكه، أو يُضيِّقَ عليها في الرِّزق والكُسْوة، أو تطلُبَ منه المُواقَعة ويتمنَّع عليها، وإضرارُ الاُمِّ على الأبِ مِثْل أن تمتَنِعَ من إرضاعِه غيظاً على الأب وتُلقيه إليه، او تطلُبَ منه فوقَ العَدْل والمعروف، أو تمتنع مِن التّمْكين للزّوج.

عن (الكافي): عن الصادق عليه السلام، سُئِل عن هَذِه الآية، فقال: «كانتْ المَراضِع تدفعُ إحداهُنّ الرّجُل إذا أرادَ الجِماعَ، تقول: لا أدَعُك إنّي أخاف أن أحبَل، فأقتُل ولدي هذا الذي اُرضِعُه. وكان الرّجُل تدعُوه المرأة، فيقول: أخاف أن اُجامِعَكِ فأقتُل ولدي، فيدَعها فلا يُجامِعُها. فنهىٰ الله تعالى عَن ذلِك أن يُضَارَّ الرّجُلُ المرأةَ، والمرأةُ الرجلَ»[١].

وعنه عليه السلام: «إذا طلّق الرّجُل امرأته وهي حُبْلىٰ، أنفَق عليها حتى تضعَ حَمْلَها، فإذا أرضعتْه أعطاها أجرها ولا يُضارّها، إلّا أن يجِد مَن هُو أرخص أجراً منها، فإن رضِيتْ بذلك الأجر فهي أحقّ بابنها، حتى تفطِمه»[٢] الخبر.

ثمّ بيّن الحُكمَ بَعد مَوتِ الأب بقوله: ﴿وَعَلَى الْوَارِثِ﴾ مِن الوالد، يجب ﴿مِثْلُ ذَلِكَ﴾ الرّزق والكُسْوة الواجبين على الأب مِن نَصيب الولدِ مِن تَركة أبيه.

عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قضىٰ في رجلٍ تُوفّي وترَك صبيّاً، واسْتَرضع له: «أنّ أجر رضاع الصّبيّ ممّا يرث مِن أبيه واُمّه»[٣].

وعن (الكافي): عن الصادق عليه السلام، في قوله تعالى: ﴿وعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ﴾: «أنّه نهى أن يُضارّ بالصّبيّ، أو تُضارّ اُمّه في رضاعه. وليس لها أن تأخُذ في رضاعة فوقَ حَولَين كامِلَين»[٤].

---

١. الكافي ٦: ٦/٤١.   ٢. الكافي ٦: ٢/١٠٣.   ٣. من لا يحضره الفقيه ٣: ١٤٨٧/٣٠٩.
٤. الكافي ٦: ٣/١٠٣.

وعنه عليه السلام، أنه سُئِل عنه فقال: «لا ينبغي للوارثِ أن يضارّ المرأة، فيقول: لا أدَعُ ولدَها يأتيها، ويضارّ ولدها، إن كان لهُم عنده شيء، فلا ينبغي [له] أن يقتّر عليه»[1]. ويُحتمَل أن يُراد مِن الوارث وارث الرّضيع مِن رَحِمه الذي تجبُ عليه نَفَقَتُه.

﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالاً﴾ وفِطاماً عن الرضاع، قبلَ الحَولَين -كما رُوي عن الصادق عليه السلام [2] - صادراً ﴿عَن تَرَاضٍ﴾ مَبنيٍّ على صَلاح الولد، كائنٍ ﴿مِنْهُمَا﴾ لا مِن أحدِهما، ﴿وَتَشَاوُرٍ﴾ كاملٍ مِن كُلٍّ مع الآخر؛ لأنّ الأب وَلِيٌّ والأمّ شَفيقةٌ، أو تَشاوُرهما مع أهل التّجارِب، واستِجْماع الآراء على صَلاحِ فِطام الولد، وعدَم تضرُّره به ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ في الفِطام، فإنّه قد يتّفِق أن تَمَلّ الأُمّ مِن الرَّضاع، والأب مِن إعطاء الأجر، فيتَوافقان على الفِطام، مع كَونه ضَرَراً على الولد، ولكِن قلّما يتّفق هذا لرأفتِهما على الولد، سيَّما مع المُشاورة مع أرباب التّجارِب، فيَنْسَدّ بابُ احتمال الضَّرَر على الولد.

قيل: يُفهَم مِن هذه الشّرائط أنّ رِعاية الله تعالى للضُّعفَاء أكثر، وعِنايته بهم أشدّ، ورحمتَه عليهم أوفر.

ثمّ أنّه تعالى لمّا أمر الوالداتِ أن يُرضِعْنَ أولادهُنّ، أوهِم أنّه لا يجُوز استِرضاع غيرهِنّ مُطلقاً، حتى مع رضا الأمّ، أو تعذُّره عليها، لانقطاع اللّبَن وأمثاله، فأزال التّوهُّم بقوله: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمْ﴾ أيُّها الآباء ﴿أَن تَسْتَرْضِعُوا﴾ المَراضِع ﴿أَوْلَادَكُمْ﴾ وتستأجروا لإرضاعهم عندَ سُقوط حقّ أولويّة الأمّ ﴿فَلَا جُنَاحَ﴾ ولا إثْمَ ﴿عَلَيْكُمْ﴾ في استِرضاع غيرِ الأمّ ﴿إِذَا سَلَّمْتُم﴾ إلى المُرضِعة ﴿مَا آتَيْتُم﴾ وأعطيتم للوالداتِ، أو ما ألزمتُم وشرطتُم إعطاءه للمُرضَعات مقروناً ﴿بِالمَعْرُوفِ﴾ والوجه المُتَعارَف المُستحسَن شرعاً.

وليس التسليم هُنا شرطاً لجواز الاستِرضاع، بلِ الغرَض مِن التعليق التنبيهُ على أنّ المُرضِعة ينبغي أن تكون طيِّبة النّفس حتى تَقْبَل الطِّفل بقلبِها وتراعي مصلحتَه حَقّ المُراعاة.

عن أمير المؤمنين عليه السلام: «انظُروا مَنْ تُرضِع أولادكم، فإنّ الولد يشِبّ عليه»[3].

وعن النبيّ صلى الله عليه وآله: «لا تسترضِعُوا الحَمْقاء والعَمْشاء[4]، فإنّ اللّبَن يَعْدِي»[5].

ثمّ حَثّ سبحانه على العمَل بما شرَع في أمر الأطفال والمَراضِع بقوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ واحذَرُوا

---

١. تفسير العياشي ١: ٢٣٧/٤٨٧.
٢. مجمع البيان ٢: ٥٨٨.
٣. الكافي ٦: ٤٤/١٠.
٤. العمشاء: هي الضعيفة البصر.
٥. عيون أخبار الرضا ٢: ٣٤/٦٧.

عِقابه في التّهاوُن في ما شرع مِن أحكام الأولاد والمَراضِع.

ثمّ أردفه بالتّهديد بقوله: ﴿وَٱعْلَمُوا أَنَّ ٱللهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فيُجازيكم به إنْ خيراً فخير وإن شرّاً فشرّ.

وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْراً فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيما فَعَلْنَ فِى أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَٱللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ[٢٣٤]

ثُمّ أنّه تعالى بعدَ ما ذَكَر عِدّة المُطلّقة، وأنّها ثلاثةُ قُرُوء بيّن عدّة المُتوفىٰ عنها زوجُها بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ﴾ وتُقبَض أرواحُهم بالمَوت ﴿وَيَذَرُونَ﴾ ويَترِكونِ مِن بعدِهم ﴿أَزْوَاجاً﴾ كبيراتٍ أو صغيراتٍ، حائلاتٍ أو حاملاتٍ ـ إذا وضَعْنَ قبلَ المُدّة ـ دائماتٍ أو منقطعاتٍ على قول، حرائرَ أو إماء على المشهور المنصور، مدخولاً بِهِنّ أو غير مدخولٍ بهِنّ ﴿يَتَرَبَّصْنَ﴾ ويمتَنِعْنَ عَن التّزويج ﴿بأنْفُسِهِنَّ﴾ ويَعْتَدِدْنَ ﴿أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْراً﴾ مِن زمانِ العِلْم بالمَوتِ، أو بُلوغ خَبرِه.

عَن (العياشي): عن الصادق عليه السلام: «لمّا نزَلَتْ هذه الآية، جِئْنَ النِّساء يُخاصِمْنَ رسولَ اللهِ صلى الله عليه وآله، وقُلْنَ: لا نصبِرُ. فقال لَهُنّ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وآله: كانتْ إحداكُنّ إذا ماتَ زوجُها أخذَتْ بَعْرةً فألقَتْها خلفَها في دُوَيْرِها[١] ثمّ قعدَتْ، فإذا كان مِثْلُ ذلِكَ اليومِ مِن الحَوْل أخذَتْها ففتّتْها، ثمّ اكتحلَتْ بها، ثمّ تزوّجتْ. فوضَع اللهُ عنكُنّ ثمانيةَ أشهرٍ»[٢].

عن الصادق عليه السلام: «لأنّ حُرْقة المُطلّقة تسكُنُ في ثلاثةِ أشهرٍ، وحُرْقة المُتوفىٰ عنها [زوجها] لا تسكُنُ إلّا في أربعةِ أشهرٍ وعَشراً»[٣].

وقيل: إنّ الحِكْمة في هذا التّقدِير أنّ الجَنِين في الغالب يتحرّك لثلاثة أشهرٍ إن كان ذَكَراً، ولأربعةِ أشهرٍ إن كان أُنثىٰ، فأُعْتُبِر أقصىٰ الأجلَيْن، وزِيدَ عليه العَشْر اسْتِظهاراً، ورُبّما[٤] تضعف حركتُه في البادِئ فلا يُحَسُّ بها[٥].

---

١. زاد في المصدر: في خدرها.

٢. تفسير العياشي ١: ٢٣٧/٤٨٩.

٣. علل الشرائع: ٢/٥٠٨.

٤. في تفسير البيضاوي: إذ ربما.

٥. تفسير البيضاوي ١: ١٢٦.

﴿فَإِذا بَلَغْنَ﴾ النّساءُ ﴿أَجَلَهُنَّ﴾ المَضروب لعِدّتِهِنّ، وانقضَتْ المُدّة ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ أيُّها المؤمنون، والأولياء، والحُكّام ﴿فِيمَا فَعَلْنَ فِى أَنْفُسِهِنَّ﴾ من التّزيين والتّزويج إذا كان ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ المُقرَّر في الشرع، وليس لأحدٍ منعُها مِن التّعرُّض للتّزويج، وسائر مُحرَّمات المُعتدّة ﴿وَٱللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيما عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِى أَنْفُسِكُمْ عَلِمَ ٱللهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلٰكِن لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرّاً إِلَّا أَن تَقُولُوا قَوْلاً مَعْرُوفاً وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَابُ أَجَلَهُ وَٱعْلَمُوا أَنَّ ٱللهَ يَعْلَمُ مَا فِى أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَٱعْلَمُوا أَنَّ ٱللهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ * لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعاً بِالْمَعْرُوفِ حَقّاً عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ * وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا ٱلَّذِى بِيَدِهِ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ وَأَن تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَلاَ تَنسَوُا ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ ٱللهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ[٢٣٥ ـ ٢٣٧]

ثُمّ بيَّن اللهُ تعالى بعضَ أحكام عِدّة البائِنة بقوله: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيما عَرَّضْتُمْ﴾ ولَوّحتُم ﴿بِهِ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَاءِ﴾ المُعتدّاتِ، وطلَبِ نِكاحِهِنّ.

في جواز التعرّض بالنكاح في العدّة

وحاصلُ الآية ـ واللهُ العَالِم ـ أنّه لا بأس بإظهار المَيْل إلى نِكاح المُعتَدّات في عِدّتهِنّ، بالإشارة مِن غيرِ صَراحة، كأن يقول لها: إنّك جميلةٌ، أو صَالِحةٌ، وإنّي رَاغِب إلى نِكاح امرأةٍ مُتّصِفةٍ بصِفَةٍ كذا، ويذكُر بعضَ صِفاتِها، وأمثال ذلِك مِمّا يُوهِم أنّه راغِب إلى نِكاحِها، ولا يُصرِّح بالنِكاح.

﴿أَوْ أَكْنَنتُمْ﴾ وأضمرتم ﴿فِى أَنْفُسِكُمْ﴾ وقُلوبِكم مِن التّصميم على تزوُّجهِنّ ﴿عَلِمَ ٱللهُ أَنَّكُمْ﴾ لا محالةَ ﴿سَتَذْكُرُونَهُنَّ﴾ وتنطِقون برغبتِكم في نِكاحِهِنّ لِمَالِهِنّ أو جَمالِهِنّ، ولا تصبِرون على السُّكوت وعدم إظهار الرّغبة فِيهِنّ، لخَوْف أن يسبِق إليهِنّ غيرُكم، وفيه تَعْرِيض على ضَعْف نُفوسِهم، وقِلّة ثَباتِهم.

فإذا كان الأمر كذلك، فاذكُروهُنّ بالتّعريض والتّلويح ﴿وَلَٰكِن لَا تُوَاعِدُوهُنَّ﴾ في مَكانٍ ﴿سِرّاً﴾ للتّصريح بالخُطبَة، ولا يَصدُر مِنكم شيءٌ في المَوْعِد ﴿إِلَّآ أَن تَقُولُوا﴾ فيهِ لهُنّ ﴿قَوْلاً مَعْرُوفاً﴾ لا يُنكِره الشّرع، وهُو التّعريض بالنِكاح.

عن الصادق عليه السلام، أنّه سُئِل عَن هذه الآية: ﴿وَلَكِنَ لَا تُوَاعِد وهُنَّ سِرّاً إِلَّا أَن تَقُولُوا قَوْلاً مَعرُوفاً﴾ فقال: «هَو الرّجلُ يقولُ للمرأةِ قبلَ أن تَنقضِي عِدّتُها: أُواعِدُك بَيْت آلِ فُلان، لِيعَرِّض لها بالخُطبة. فعَنَىٰ بقوله: ﴿إلّا أن تَقُولُوا قَولاً مَعرُوفاً﴾ التّعريض بالخُطبة»[1].

نُقِل أنّ الرّجُل كان يدخُل على المرأةِ وهو يُعَرِّض بالنِكاح، فيقول لها: دَعِيني أُجامِعْكِ، فإذا أتمَمْتِ عِدّتَك أظهرْتُ نِكاحَك، فإنّه تعالى نهىٰ عَن ذلك[2].

ثُمّ نَهىٰ اللهُ تعالى عَن إيقاع عَقْد النّكاح بنحوٍ أبلغ بقوله: ﴿وَلَا تَعْزِمُوا﴾ ولا تقصِدُوا، أو لا تُواجِبُوا ﴿عُقْدَةَ النِّكَاحِ﴾ ورابِطته وعَلاقته ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ الكِتَابُ﴾ وهُو العِدّة المَكتُوبة ﴿أَجَلَهُ﴾ وآخِره، فإذا بلَغ فلا بأسَ في إيجاب العَقْد.

ثُمّ أردَف النهيَ بالتّهديد بقوله: ﴿وَٱعْلَمُوا أَنَّ ٱللهَ يَعْلَمُ مَا فِى أَنْفُسِكُمْ﴾ وقُلوبكم مِن نِيّاتِ السُّوء ﴿فَاحْذَرُوهُ﴾ في مُخَالفتة سِرّاً وعَلانِيةً ﴿وَٱعْلَمُوا أَنَّ اللهَ غَفُورٌ﴾ في مَورِد المَغفِرة ﴿حَلِيمٌ﴾ في مَورِد العُقُوبة، لا يَعجَل بها، فلا تغترّوا بتأخيرها.

في أنّ المطلقة ليس لها مهر إذا طلقت قبل الدخول، وإنّما يجب إمتاعها بشيء

ثُمّ أنه تعالى بعدَما بيّن جُملةً مِن أحكام المُطلّقة، المدخولَ بها، المُسمّى لها المَهْر، ذكَر حُكم المُطلّقة التي لم يدخَل بها، ولَم يُسَمَّ لها مَهرٌ، بقوله: ﴿لَا جُنَاحَ﴾ ولا تَبِعَة ﴿عَلَيْكُمْ﴾ مِن حَيثِ المَهْر، بَل ولا مِن جِهَة الانتظار والتّربُّص بالأطهار، فإنّ غيرَ المَدخُول بها تُطلّق على كُلّ حال ﴿إِن طَلَّقْتُمُ﴾ وفارَقْتُم ﴿ٱلنِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ﴾ ومِن قَبل أن تُجامِعُوهُنّ ﴿أَوْ تَفْرِضُوا﴾ أي إلّا أن تُقَدِّروا وتُسَمّوا ﴿لَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ ومَهراً مُقدّراً في ضِمْن العَقْد.

والحاصِل: أنّه لا تستحِقّ الزّوجةُ المَهْر إلّا باشتِراطِ المَهْر في العَقد، أو بالدُّخول مع عدَمِ الاشتراط، فإنْ اشترَط وطلّق قبلَ الدُّخول بها فلها النِّصْف، وإنْ لَم يشترِطْ ودخل بها فمَهرُ المِثْل. هذا مِمّا اتّفق عليه النّصّ والفَتوىٰ.

---

١. الكافي ٥: ١/٤٣٤. ٢. تفسير الرازي ٦: ١٣٢.

ثُمّ أنّه تعالى بعدَ نَفي استِحقاقِ المَهر، أثبتَ لهُنّ حقّ المُتعَة وُجوباً بقوله: ﴿وَمَتِّعُوهُنَّ﴾ بشيءٍ مِن أموالِكم وأعطُوهُنّ مِنها ما يَنتَفِعنَ به.

في رِوايةٍ عن الباقر عليه السلام: «فإنّهُن يرجِعْنَ بكآبةٍ وحُزْنٍ[1] وهَمٍّ عظيم وشَماتةٍ مِن أعدائِهنّ، فإنّ الله عزّ وجلّ كريمٌ يَستحي، ويُحِبُّ أهلَ الحَياء، إنّ أكرَمكُم أشدُّكم إكراماً لِحَلائِلهم»[2].

وعن الصادق عليه السلام: «أنّ مُتعَة المُطلّقة فريضةٌ»[3].

وعن الباقر عليه السلام، أنّه سُئِل عن الرّجُل يُريد أن يُطلّق امرأتَه قبلَ أن يَدخُل بها، قال: «يمتّعُها قبلَ أن يُطلّقها، فإنّ الله تعالى قال: ﴿وَمَتِّعُوهُنَّ﴾» الآية[4].

وهذه المُتْعة واجبة ﴿عَلَى الْمُوسِعِ﴾ والغَنِيّ الذي هُو في سَعَة مِنَ المَال ﴿قَدَرُهُ﴾ وحَدُّ سَعَته ﴿وَعَلَى الْمُقْتِرِ﴾ والفَقِير ﴿قَدَرُهُ﴾ ووُسْعه، وعلى قَدْر حالِه ﴿مَتَاعاً﴾ أي تَمْتيعاً مَقرُوناً ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ وبالوَجْه الذي تَستحسِنه الشّريعة والمُروءة.

وهذا التّمتُّع يَحَقُّ ﴿حَقّاً﴾ ويُفرَض فرضاً ﴿عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾ على أنفُسِهم بفِعْل الطّاعاتِ، واجتِنابِ المَعاصي.

عن (فقه الرضا عليه السلام): «يُمتّعها بشيءٍ قَلّ أو كَثُر، على قَدْر يَساره، فالمُوسِع يُمتّع بخادمٍ أو دابّة، والوسَط بثَوبٍ، والفقير بدِرْهَمٍ أو خاتَم»[5].

وعن (الفقيه)، رُوي أنّ الغَنِيّ يُمتّع بدَارٍ أو خادمٍ، والوسط بثَوبٍ، والفقير بدِرْهَمٍ أو خاتَمٍ[6].

ورُوي أنّ أدناه الخِمار وشِبْهه[7].

في أنّ المطلقة غير المدخول بها إذا فرض لها مهر، لا تستحقّ أزيد من نصف المهر المفروض

وفي خَبَر الحَلَبي: «إنْ كان الرّجُل مُوسِعاً؛ عليه أن يُمتّع امرأته العبدَ والدّابّة، والفقير[8] يُمتّع بالحنطة والزّبيب والثّوب والدِرْهَم...» الخبر[9]. والظّاهر أنّ جميعَ ما ذُكِر في الرّواياتِ خارجٌ مَخْرج التّمثّل.

ثُمّ بيّن سُبحانه حُكْم القِسم الثّالث مِن المُطلّقات مِن حيث المَهْر وهِي التي لَم يُدخَل بها وقد سُمّي لها المَهْر بقولِهِ: ﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾

---

١. في من لا يحضره الفقيه: ووحشة.
٢. من لا يحضره الفقيه ٣: ١٥٨٠/٣٢٧.
٣. التهذيب ٨: ٤٩٠/١٤١.
٤. التهذيب ٨: ٤٨٩/١٤١.
٥. الفقه المنسوب إلى الإمام الرضا عليه السلام: ٢٤٢.
٦. من لا يحضره الفقيه ٣: ١٥٨٢/٣٢٧.
٧. من لا يحضره الفقيه ٣: ١٥٨٣/٣٢٧.
٨. في الكافي: والمُقْتِر.
٩. الكافي ٦: ٣/١٠٥.

وتَدخُلوا بِهِنَ ﴿وَقَدْ فَرَضْتُمْ﴾ وسَمَّيتُم فـي ضِمْن عَـقد النِّكـاح ﴿لَـهُنَّ فَـرِيضَةً﴾ ومَـهراً مُـقدَّراً ﴿فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾ مِنَ المَهْر يستقِرُّ في مِلْكِهِنَّ ويَرجع إليكم النِّصف الآخر. فحينئذٍ يجِب عليكم إعطاء ما استقرَّ للمُطلّقات في كُلّ حال ﴿إِلَّا أن يَعْفُونَ﴾ أزواجَهُنَ مِن النِّصف، بأن يبذُلنها لَهُم ولا يُطالِبنَهم إنْ كُنَّ كِباراً غيرَ مُولّىٰ عليهِنّ ﴿أوْ يَعْفُوا﴾ مِن النِّصف الوَلِيّ ﴿ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ﴾ وفـي سَـلطَنَته ﴿عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ﴾ وهُو الأب، والجَدُّ للأب، إذا كُنَّ قاصِراتٍ عَن التّصرُّف، كالصَّغيرة والمَجنونة، هذا هُو المَعروف بَينْ الإماميّة، وتضافرت به أخبارُ أهلِ البيت عليهم السلام.

وعن أميرِ المؤمنين عليه السلام: «هُو الزوج»[1]. وعليه جُلُّ العامّة، سِوىٰ الشّـافِعي[2]. ومـعنىٰ عَـفْو الزوج إعطاء جميع المَهْر.

وعن جُبَيْر بن مُطعِم، أنّه تزوّج امرأة وطلّقها قبلَ الدُّخول، وأكمل لها الصَّداق، وقـال: أنـا أحـقّ بالعَفْو[3].

﴿وَأن تَعْفُوا﴾ أيُّها المُطلّقات والأولياء، ويُمكن إدخال الزوّج في الخِطاب على التـفسير الثـاني، وتَذْكير الخِطاب لتَغْليب جانِب الذُّكُور، فيكون المُراد أنّ العَفْو مِن الزوج والزوجة وأوليائِها ﴿أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ فإنّ مَن سَمَح بحقّه الحَلال يكون أقرب إلى تَرك الظُّلم، والتّجنُّب عَن المَال الحَرام وسائر المَعاصي.

عن (الكافي): عن الباقر عليه السلام، أنّه حَلَف على ضَرب غُلامه، فلَمْ يَفِ به، فلمّا سُئِل عنه قال: «أليسَ اللهُ يقول: ﴿وأنَ تَعْفُوا أقرَبُ لِلتّقوىٰ﴾ ؟...» الخبر[4]. وفيه تَنْبيهٌ على أنّ حُسْن العَفْو لا يختصُّ بالمَهْر، بَل يَعُمُّ جَميعَ ما يَلِيق لِلعَفْو.

ثُمّ لمّا كان الطّلاق قَبْل المَسِيس سبباً لتأذّي المرأة، وإعطاءُ نِصْف المَهْر قَبْل الدُّخول مُوجِباً لتأذّي الزوّج، أكّد الله تعالى الأمر بالعَفْو والإحسان بالنّهْي عن تَرك التّفضُّل بقوله: ﴿وَلَا تَنسَوُا﴾ ولا تَترُكوا ﴿ٱلْفَضْلَ﴾ والإحسان فيما ﴿بَيْنَكُمْ﴾.

ثُمّ بَعْد التأكيد أردَفَه بالوَعْد بقوله: ﴿إِنَّ اللهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فلا يَكَاد يَضِيعُ عملُكم مِنَ التّفضُّل والإحسان. ويُحتمَل أن تكون الجُملة تَهديداً على تَرك التفضُّل.

---

١. تفسير الصافي ١: ٢٤٥.
٢. مجمع البيان ٢: ٥٩٧.
٣. تفسير البيضاوي ١: ١٢٨.
٤. الكافي ٧: ٤/٤٦٠.

عن الباقر عليه السلام، قال: «قال رسولُ الله صلى الله عليه وآله: يأتي [على النّاس] زمانٌ عَضُوض يَعَضُّ كُلّ أمرىءٍ على ما في يَدَيه، ويَنْسون الفَضْل بَيْنهم، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَنسَوُا الفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾»[1].

حافِظُوا عَلَى ٱلصَّلَوَاتِ وَٱلصَّلاةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلهِ قَانِتِينَ * فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالاً أَوْ رُكْبَاناً فَإِذَا أَمِنتُمْ فَاذْكُرُوا ٱللهَ كَمَا عَلَّمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ [٢٣٨و٢٣٩]

ثُمّ لمّا بيَّن سُبحانَه ما يُوجِب الفَصْل بَيْن الأزواج وأحكامه، ذكَر ما يُوجِب الوَصْل بَيْن ذاتِه تعالى وبَيْن خَلْقه بقوله: ﴿حَافِظُوا عَلَى ٱلصَّلَوَاتِ﴾.

ويُحتمَل وَجْهٌ آخر للنَّظْم، هُو أنّه تعالى لمّا بَيَّن جُملةً مِن أحكام الشَّرْع، وبالَغ في التّهديد على مُخالفتها، بيَّن ما يُستعَان به على الطّاعة وزوال كُلْفة امتِثالها؛ وهُو الصّلاة كَما قال: ﴿ٱسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾[2] الآية، وما يُوجِب الرّدْع عن مُخالفتِها، كما قال: ﴿ان الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الفَحشَاءِ وَالمُنكَرِ﴾[3].

والمُراد مِن المُحافظة المُداوَمة عليها، ومُراعاة أوقاتِها وشَرائِطِها وحُدُودِها.

وعن الصادق عليه السلام: الصَلَوات الخَمْس المَفرُوضات، مَن أقام حُدُودهُنّ، وحافَظ على مَواقيتهِنّ لقيَ اللهَ يومَ القِيامة ولَه عِنْده عَهْدٌ يُدخِله به الجنّة، ومَن لَم يُقِم حدُودَهُنّ، ولَم يُحافِظ على مَواقيتهِنّ لقيَ اللهَ ولا عَهْدَ له، إن شاء عذّبهُ وإن شاء غَفَر له»[4].

وعن (الكافي): عن النّبيّ صلى الله عليه وآله، قال: «لا يَزال الشيْطان ذَعِراً مِن المؤمن ما حافظ على الصَلَوات الخَمْس، فإذا ضيّعهُنّ تجرّأ عليه فأدخَله في العظائم»[5].

وعن الباقر عليه السلام: «أنّ الصّلاة إذا ارتفعتْ في[6] وقتِها، رجَعتْ إلى صاحِبها وهِي بَيضاء مُشرِقة، تقول: حفظتَني حفِظَك الله، وإذا ارتفتْ في غيرِ وقتِها، بغيرِ حُدودِها، رجعت إلى صاحِبها سَوداء مُظلِمة، تقول: ضيَّعتَني ضيَّعك الله»[7].

وعن القُمّي، عن الصادق عليه السلام، في رِواية تفسير المُحافظة، قال: «هُو إقبال الرّجُل على صَلاته حتى

---

١. تفسير العياشي ١: ٥١٧/٢٤٤. ٢. البقرة: ٤٥/٢. ٣. العنكبوت: ٤٥/٢٩.
٤. الكافي ٣: ١/٢٦٧. ٥. الكافي ٣: ٨/٢٦٩. ٦. زاد في الكافي: أول. ٧. الكافي ٣: ٤/٢٦٨.

لا يُلْهِيه ولا يَشغَلُه عنها شيءٌ»[١].

في تعيين المراد من الصلاة الوسطى

ثُمّ خَصَّ مِن بَيْن الصَلَواتِ أفضلَهُنّ، بالأمر بالمُحافَظة، اهتِماماً بشأنِهابقوله: ﴿وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾ التي هِي أفضل الصَلواتِ المَفرُوضات.

في (الكافي) و(التهذيب): عن الباقر عليه السلام، قال: «هِي صَلاةُ الظُّهر، وهِي أوّل صَلاة صلّاها رسُولُ الله صلى الله عليه وآله، وهِي وَسَط النّهار، ووَسَط صلاتين بالنّهار؛ صلاة الغَدَاة وصلاة العَصر»[٢].

وفي بعض القِراءات: (حَافِظوا على الصَلوات والصَلاة الوُسطى و[٣] صلاةِ العَصْر وقُومُوا لله قانِتِين)[٤] والعَطْف دالٌ على المُغايَرة.

قال[٥]: «نزلَتْ هذه الآية يومَ الجُمُعة، ورسُول الله صلى الله عليه وآله في سَفَرٍ، فقَنت فيها رسُول الله صلى الله عليه وآله[٦] وترَكها على حالِها في السَفَر والحَضَر، وأضاف للمُقيم ركعتين، وإنّما وُضِعتْ الرَّكعتَان اللّتان أضافهُما النبيّ صلى الله عليه وآله يومَ الجُمُعة للمُقيم، لِمَكان الخُطْبة مع الإمام، فمَن صلّى يومَ الجُمُعة في غَيرِ جَماعةٍ، فليُصلِّها أربَع رَكَعات، كَصلاة الظُّهر في سائر الأيام»[٧]، الخبر.

وبهذا التّفسير ورَدت عن أهلِ البَيت عليهم السلام رِوايات مُتضافِرة، وادَّعىٰ عليه بعضُ الأساطين إجماع الإماميّة.

وقيل: إنّها صَلاةُ الفَجْر، واسْتَدلُّوا عليه بقوله تعالى: ﴿إنَّ قُرآنَ الفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً﴾[٨] حَيْث إنّه فُسِّر بصَلاةِ الفَجْر[٩].

وقيل: إنّها صلاةُ العَصْر، ورواه العامّة عن أمير المؤمنين عليه السلام[١٠].

ورُوي عنه عليه السلام قال: «أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله قال يومَ الخَنْدَق: شَغَلُونا عن الصَلاة الوُسطىٰ، مَلأ اللهُ بُيوتَهم وقُبُورهم ناراً»[١١].

وفي رِوايةٍ: «شَغَلونا عن الصَلاة الوُسطىٰ، صَلاة العَصْر»[١٢].

---

١. تفسير القمي ١: ٧٩.
٢. الكافي ٣: ٢١/٢٧١، التهذيب ٢: ٩٥٤/٢٤١.
٣. (و) ليس في الكافي والتهذيب.
٤. الكافي ٣: ٢١/٢٧١، التهذيب ٢: ٩٥٤/٢٤١.
٥. أي الإمام الباقر عليه السلام في تتمة الرواية المتقدمة.
٦. (رسول الله صلى الله عليه وآله) ليس في التهذيب.
٧. الكافي ٣: ١/٢٧١، التهذيب ٢: ٩٥٤/٢٤١.
٨. الإسراء: ٧٨/١٧.
٩. مجمع البيان ٢: ٥٩٩.
١٠. مجمع البيان ٢: ٥٩٩، تفسير الرازي ٦: ١٥٠.
١١. تفسير الرازي ٦: ١٥٠.
١٢. تفسير الرازي ٦: ١٥٠.

واستَدلّوا أيضاً بما رُوي فيها مِن التأكيدات مِمّا لَم يَرِد في غَيرِها، قال ﷺ: «مَن فاتَه صَلاةُ العَصْر فكأنّما وَتَر أهلَه ومالَه»[١].

وأيضاً أقسم اللهُ تعالى بها فقال: ﴿وَالعَصْرِ * إِنَّ الإِنسَانَ لَفِى خُسْرٍ﴾[٢] فدَلَّ على أنّها أحبُّ السّاعاتِ إلى الله تعالى[٣]، وأيّدوه بوُجوهٍ اعتِباريّة.

والحقّ هُو الأوَل، وما سِواه في غَايةِ الوَهْن.

وقيل: إنّ الله تعالى أخفاها في الصّلَوات الخَمْس، ليَصِير اختِصاصُها بالفَضْل مُوجِباً لزِيادة الاهتِمام بجميع الصّلوات.

نُقِل عن الرّبيع بن خيثم أنّه سُئِل عنها فقال: يا بْنَ عَمّ، الوُسْطىٰ واحِدةٌ مِنهُنّ، حافِظ على الكُلّ تكُن مُحافِظاً على الوُسْطى. ثمّ قال الربيع: لو عَلِمتَها بعَيْنِها لكُنتَ مُحافِظاً لها ومُضيِّعاً لسائرهِنّ[٤].

﴿وَقُومُوا﴾ خَالِصين ﴿لله﴾ في صَلواتِكم حال كَوْنِكم ﴿قَانِتِينَ﴾ داعِين في قِيامِكم. وهُو مَروِيٌّ عن الصادق عليه السلام[٥].

وقيل: أي: مُطِيعِين، رُوي عن النبيّ ﷺ أنّه قال: «كُلّ قُنوتٍ في القرآن فهُو الطّاعة»[٦].

ثُمّ بيَّن الله تعالى أنّ المُحافَظة على الأجزاء والشّرائط مخصُوصةٌ بحالِ الأمن، بقوله: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ﴾ مِن عَدُوٍّ، أو لِصٍّ، أو سَبُعٍ، أو غيرِه ﴿فَرِجَالاً﴾ مَاشِين صلّوا ﴿أَوْ رُكْبَاناً﴾ سائِرين.

عن (الفقيه): عن الصادق عليه السلام، في صَلاة الزّحْف، قال: «تَكْبيرٌ وتَهْليلٌ»، ثمّ تَلا الآية[٧].

وعنه عليه السلام: «إن كُنتَ في أرضٍ مَخُوفةٍ، فخَشِيت لِصّاً أو سَبُعاً، فصَلِّ الفَريضة [وأنت] علىٰ دابّتِك»[٨].

وفي رِوايةٍ: «الذي يَخَاف اللصُوص يُصلّي إيماءً علىٰ دابّته»[٩].

﴿فَإِذَا أَمِنتُمْ﴾ علىٰ أنفُسِكم مِن المَخُوفات ﴿فَاذْكُرُوا اللهَ﴾ وصلُّوا ﴿كَمَا عَلَّمَكُم﴾ مِن صَلاة الأمن ﴿مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾.

قيل: إنّما عبّر سُبحانه عن الصّلاة بالذِّكْر لكَونه مُعْظَم أركانِها، أو لأنّه روحُها.

---

١. تفسير الرازي ٦: ١٥١. ٢. العصر: ١٠٣/١ و٢. ٣. تفسير الرازي ٦: ١٥١.
٤. تفسير الرازي ٦: ١٤٧. ٥. مجمع البيان ٢: ٦٠٠ «نحوه».
٦. تفسير الرازي ٦: ١٥٢. ٧. من لا يحضره الفقيه ١: ١٣٤٤/٢٩٥.
٨. من لا يحضره الفقيه ١: ١٣٤٥/٢٩٥. ٩. من لا يحضره الفقيه ١: ١٣٤٦/٢٩٥.

وقيل: إنّ المُراد: فاشكُروا اللهَ شُكراً يُوازي تَعَلُّمَكم الشَرائِع، التي منها كَيفيّة صَلاة الخَوف والأمن[1].

وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعاً إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقّاً عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ * كَذٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ [٢٤٠ ـ ٢٤٢]

ثُمّ بيَّن سُبحانه حُكْم نَفَقَة المُتوفىٰ عنها زوجُها، بقوله: ﴿**وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ**﴾ ويُشرِفون علىٰ المَوْت ﴿**مِنكُمْ وَيَذَرُونَ**﴾ ويَتركون مِن بَعْدِهم ﴿**أَزْوَاجاً**﴾ يجب عليهم أن يُوصُوا ﴿**وَصِيَّةً**﴾ نافِعة ﴿**لِأَزْوَاجِهِم**﴾ وهِي أن يتمتَّعْنَ مِن تَرِكة أزواجِهِنّ ﴿**مَتَاعاً**﴾ ونَفَقاً كافِياً لهُنّ ﴿**إِلَىٰ ٱلْحَوْلِ**﴾ الكامِل من حِينِ الوفاة، حال كَوْنهِنّ مُقيمَاتٍ في بُيُوتِ أزواجِهِنّ ﴿**غَيْرَ إِخْرَاجٍ**﴾ أي مُخرَجاتٍ منها.

فلا تدُلُّ الآية إلى هُنا علىٰ أنّ عِدّة الوَفاة كانتْ سَنةً، بَل ظَاهِرها وُجُوب الوَصيّة علىٰ الزَوج، بالإنفاق والإسكان إلى الحَوْل، وهذا مَنسُوخٌ بآية الإرْث، وإنْ قُلْنا بعَدَم الدَّلالة علىٰ الوُجُوب بَل علىٰ الجَواز والاستِحباب، فحُكْمها باقٍ بِلا نَسْخ.

ولكِنّ قولَه تعالى: ـ﴿**فَإِنْ خَرَجْنَ**﴾ مِن مَنزِل أزواجِهِنّ باختيارهِنّ ﴿**فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ**﴾ أيُّها المؤمنون ﴿**فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ مِن مَعْرُوفٍ**﴾ الزِّينة والزَّواج، وهُو ما لا يكون في الشَرْع مَنهِيّاً، بِناءً علىٰ كَوْن المُراد مِن عَدَم الجُناح بَعْد الخُروج: عَدَم وُجُوب نهيِهِنّ عن الزِّينة والتَّزوّج، إنْ خرَجْنَ بَعد تَمامِ الحَوْل ـ يدُلُّ علىٰ وُجُوب الحِداد وتَرْك التَّزوّج قَبلَ تمامِ الحَوْل، ووجُوب نهيِهِنّ عنهما، فتكون عِدّة الوَفَاة تَمام الحَوْل، ويكون مَنسُوخاً بآية: ﴿**يتَرَبَّصْنَ بأنفُسِهِنّ أربَعَةَ أشهُرٍ وَعَشراً**﴾[2].

وإنْ كان المُراد مِن الخُروج: قَبْلَ تَمامِ الحَوْل، يكُون مَحمُولاً علىٰ ما بَعْد ﴿**أربعة أشهرٍ وعَشراً**﴾ ولا نَسْخ أيضاً.

وفي عِدّة رِوايات عن الباقر والصادق عليهما السلام: «هِي مَنسُوخةٌ، نسخَتْها آيةُ: ﴿**يتربَّصْنَ بأنفُسِهِنّ أربعة**

---

١. تفسير روح البيان ١: ٣٧٣.

٢. البقرة: ٢/ ٢٣٤.

أشهُرٍ وَعشراً﴾ ونسخَتْها آيةُ المِيراث»[١].

ورُوي بطريقٍ عامّي: أنّ رَجُلاً مِن أهل الطائف يُقالُ لَه حكيم بن الحارث هاجَر إلى المدينة وله أولاد، ومَعَه أبواه وامرأته ومات، فأنزَل الله هذه الآية، فأعطىٰ النبيُّ ﷺ والديْهِ وأولادَه مِن مِيراثِه، ولَم يُعطِ امرأته شيئاً، وأمرهم أن يُنفِقوا عليها مِن تَرِكة زوجِها حَوْلاً.

وكانت عِدّة الوفاة في بَدْو الإسلام حَوْلاً، وكان يحَرُم على الوارِث إخراجُها مِن البيت قَبْل تَمام الحَوْل، وكانت نَفَقَتها وسُكْناها واجِبةٌ مِن مَالِ زوجِها ما لَمْ تخرُج ولَم يكُن لها ميراث، فإن خرجَتْ مِن بيت زوجِها سقطَتْ نَفَقَتُها، وكان علىٰ الرَّجُل أن يُوصِي بها، فكان كذلك حتّىٰ نزلَتْ الآية[٢] فنَسَخ اللهُ تعالى نَفَقة الحَوْل بالرُّبْع عِند عَدَم الولد، والثُّمن مَع الوَلَد[٣].

﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ﴾ وغَالِب علىٰ خَلْقه، قادِر علىٰ الانتِقام مِمّن خالَفه ﴿حَكِيمٌ﴾ يُراعِي مَصالِح العِبَاد في أحكامِه وشرائِعه.

ثُمّ أنّه تعالى بَعدَ بَيان مَتاع المُتوفّىٰ عنها زوجُها ـ وإن كان مَنسُوخاً ـ بيَّن مَتاع المُطلّقة بقوله: ﴿وَلِلْمُطَلَّقَاتِ﴾ البائِناتِ، أو مُطلقاً ولَو كُنّ رَجعِيّاتٍ ﴿مَتَاعٌ﴾ وتَمتُّع ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ عِندَ الشَّرْع، والعَادة. وهذا التّمتِيع يَحِقُّ ﴿حَقّاً﴾ ويَثبُت ثُبوتاً ﴿عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾ فإنّ مِن لَوازِم التّقوىٰ التّبرُّع بالمُتعَة تَطيِيباً لِقَلْبِها وإزالةً لِضَعْفِها.

في استحباب امتاع المطلّقات مطلقاً

عن أبي عبدالله عليه السلام، في رَجُلٍ يُطلّق امرأته أيُمتّعُها؟ قال: «نعم، أمَا يُحِبّ أن يكونَ مِن المُحسِنين، أما يُحِبّ أن يكونَ مِن المُتّقِين»[٤].

عن الحَلَبي، عن أبي عبدالله عليه السلام، في الرّجُل يُطلّق امرأته قَبْل أن يَدخُل بها، قال: «عليه نِصْف المَهْر إن كان فَرَض لها شيئاً، وإن لَمْ يكُن فَرَض لها شيئاً فليُمتّعْها علىٰ نَحْوِ ما يُمتّع به مِثْلها مِن النّساء»[٥] الخبر، وهذا مَحمُولٌ علىٰ إرادة مِثْلها باعتِبار حالِ الزّوج.

عن الطبرسي، في قوله تعالى: ﴿وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ﴾[٦] قال: «إنّما

---

١. تفسير العياشي ١: ٥٢٩/٢٤٧، مجمع البيان ٢: ٦٠٢، تفسير الصافي ١: ٢٤٨.
٢. في تفسير روح البيان: نزلت آية الميراث.
٣. تفسير روح البيان ١: ٣٧٥، وفيه: الولد وولد الابن والثُّمن عند وجودهما.
٤. تفسير العياشي ١: ٤٩٩/٢٤٠، الكافي ٦: ١/١٠٤. ٥. الكافي ٦: ٣/١٠٦. ٦. البقرة: ٢/٢٣٦.

تجب المُتعَة للتي لَم يُسَمَّ لها صَدَاق خاصّة»[1]. وهُو المَروِيّ عن الصادق عليه السلام - إلى أن قال -: وعن ابن عبّاس، قال: هذا إذا لَمْ يكُن [قد] سَمّىٰ لها مَهراً، فإذا فرَضَ لها صَدَاق فلها نِصْفه، ولا تستحق المُتْعة. قال: وهُو المَرويّ عن أئمّتنا عليهم السلام.

وعن أبي الصبّاح[2]، عن أبي عبدالله عليه السلام، قال: «إذا طلّق الرَّجُل امرأتَه قَبْل أن يَدخُل بها فلها نَصْفُ مَهرِها، وإن لَم يكُن فَرَض لها مَهراً فمَتاعٌ بالمَعرُوف»[3] الخبر. وهذا إذا لَم يَدخُل بها، وإلّا فمَهْر المِثْل.

فعلىٰ هذا، فالآية والأخبار المُطلَقة مَحمُولة في غَير المُفوّضة علىٰ الاستِحباب المُؤكّد، كرواية الحَلَبي، عن أبي عبدالله عليه السلام، في قوله تعالى: ﴿وَلِلمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالمَعْرُوفِ حَقّاً عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾ قال: «مَتَاعها بَعدَ ما تنقضِي عِدّتُها علىٰ المُوسِع قَدَرُه، وعلى المُقتِرِ قَدرُه. وكَيْف [لا] يُمتِّعها وهي في عِدّتِها تَرجُوه ويَرجُوها، ويُحدِث الله عزّ وجلّ بَيْنَهُما ما يشاء»[4] الحديث.

﴿كَذٰلِكَ﴾ التّبيين والتّوضِيح ﴿يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آياتِهِ﴾ الدّالّة على التّوحِيد، وصِفاته ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ بدَلالتِها تَخرُجون عن حَدِّ السّفاهة ﴿تَعْقِلُونَ﴾ وتفهَمون إن لكم إليها[5] منه بَدْءكم، وإليه عَوْدكم وإيابكم، وعليه حِسابكُم.

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللهُ مُوتُوْا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ ٱللهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ * وَقَاتِلُوا فِى سَبِيلِ ٱللهِ وَٱعْلَمُوْا أَنَّ ٱللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ[٢٤٣ و ٢٤٤]

ثمّ أنّه تعالى بَعدَ بَيان جُملةٍ مِن الأحكام، ذكَر قَضيَةً دالّةً على وَحدانِيّته، وكَمال قُدْرَته، وصِدْق نِيّته في دَعْوىٰ نبوّته، لأنّها إخبارٌ بالغَيْب، وفيها دَلالة على إمكان المَعَاد، ليُفِيد المُستمِع اليَقِينَ والاعتِبار، والتّجنُّب عن التَمرُّد والعِناد، ويَزِيده الخُضُوع والانقِياد.

ولمّا كان إخبارُ الله تعالى - لقُوّة تأثِيره في العِلْم - بمَنزِلة الرُؤية والمُشاهدة لِما أخبَر به، وكان نُورُ

---

١. مجمع البيان ٢: ٥٩٥، تفسير الصافي ١: ٢٤٩.
٢. في النسخة: أبي الصلاح، وما أثبتناه من تفسير العياشي، راجع معجم رجال الحديث ٢١: ١٨٩.
٣. تفسير العياشي ١: ٥٠٠/٢٤٠.
٤. الكافي ٦: ٣/١٠٥.
٥. كذا، ولعلها: وتفهمون بها أن.

نبيّه ﷺ في عالَم الأشباح مُحيطاً ومُشاهِداً لجميع وقائع هذا العالَم، خاطب نبيّه ﷺ بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ ولَم تنظُر ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ﴾ وقيل: المُراد ألَم يَنْتَهِ عِلْمُك إليهم؟[١] ﴿وَهُمْ أُلُوفٌ﴾ كثيرةٌ ﴿حَذَرَ ٱلْمَوْتِ﴾ ولأجل الفِرَار منه ﴿فَقَالَ لَهُمُ ٱللهُ﴾ أو بلِسَان مَلَكٍ ﴿مُوتُوا﴾ وإسنادِه إلى ذاته المُقدّسة للتّهوِيل والتّخوِيف، أو المُراد مِن القَوْل وصُورة الأمر تعلّق إرادته التكوينيّة بمَوْتهم، كما كنّىٰ عن إرادة الإيجاد بقوله: ﴿كُن﴾ فماتُوا جميعاً دُفعةً في مكانِهم ﴿ثُمَّ أَحْيَاهُمْ﴾.

عن الباقر والصادق عليهما السلام: «أنّ هؤلاء أهل مدينةٍ مِن مَدائن الشام، وكانوا سَبعين ألف بيتٍ، وكان الطّاعُون يقَع فيهم في كُلّ أوان، فكانوا كُلّما أحسُّوا به خَرَج مِن المدينة الأغنياءُ لقوّتِهم، وبَقِيَ فيها الفُقَراء لضَعْفهم، فكان المَوْت يكثُر في الذين أقاموا، ويَقل في الذين خَرجُوا، فيقول الذين خَرجُوا: لَوْ كُنّا أقمْنا لكثُر فينا المَوت. ويقول الذين أقاموا: لَو كُنّا خَرَجنا لقَلّ فينا المَوت. فاجتَمَع رأيُهم جميعاً على أنّه إذا وقَع طاعُون [فيهم] وأحسُّوا به خَرجُوا كُلُّهم مِن المدينة، فلمّا أحسّوا بالطّاعُون خَرجُوا جميعاً، وتَنَحَّوا عن الطّاعُون حذرٌ الموت، فساروا في البلاد ما شاء الله.

ثمّ أنّهم مَرّوا بمدينةٍ خَربة قد جَلا أهلُها عنها وأفناهم الطّاعُون، فنَزلُوا بها، فلمّا حَطّوا رِحالَهم وأطمأنّوا قال لَهُم الله عزّ وجلّ: مُوتُوا جميعاً، فماتوا مِن ساعتِهم وصَاروا رميماً يَلُوح، وكانوا على طريق المارّة، فكَنَسهم المارّة ونحّوهم وجمَعوهُم في مَوضِع، فمرّ بهِم نبيٌّ مِن أنبياء بني إسرائيل يُقال له حَزْقيل، فلمّا رأىٰ تلك العِظام بَكىٰ واستَعْبَر وقال: يا رَبّ لَو شِئْت لأحيَيْتهم السّاعة كما أمتَّهم، فعمَروا بِلادَك ووَلَدُوا عِبادَك وعَبَدوك معَ مَن يعبُدُك مِن خَلْقك، فأوحىٰ الله تعالى إليه: أفتُحِبّ ذلك؟ قال: نعَم يا رَبّ، قال: فأوحىٰ الله عزّ وجلّ [إليه] أن قُل كذَا وكذَا، فقال الذي أمره الله عزّ وجلّ أن يقوله ـ قال أبو عبدالله عليه السلام: وهُو الاسمُ الأعظم ـ فلمّا قال حَزْقيل ذلك نظَر إلى العِظام يطِير بعضُها إلى بعضٍ، فعادُوا أحياءً ينظُر بعضُهم إلى بعَضٍ؛ يسبّحون الله عزّ وجلّ، ويُكبِّرونه ويُهَلّلونه، فقال حَزْقيل عِند ذَلك: أشهدُ أنّ الله على كُلّ شيءٍ قديرٌ».

فقال أبو عبدالله عليه السلام: «فيهم نزلَتْ هذه الآية»[٢].

أقول: تدُلّ الرِواية على أنّ الإماتة كانت عُقوبة لهم.

وفي رِواية عن الباقر عليه السلام، أنّه سُئِل: أماتَهم، أم رَدّهم إلى الدُّنيا حتى سَكَنوا الدُّور، وأكلوا الطّعام؟

---

١. تفسير روح البيان ١: ٣٧٧.
٢. الكافي ٨: ١٩٨/٢٣٧.

قال: «لا بَل رَدّهم الله حتى سَكنُوا الدُور، وأكلوا الطّعام، ونَكَحوا النّساء، ومَكَثوا بذلك ما شاء الله، ثمّ ماتوا بآجالهم»[١].

ورُوي أنّ حَزْقيل نَدَب قومَه إلى الجِهاد فكرِهوا، فأرسَل الله عليهم المَوت، فلمّا كثُر فيهم خرجُوا مِن ديارهم فِراراً مِن المَوت، فلمّا رأىٰ حَزقيل ذلك قال: اللّهمّ إلٰهَ يَعقُوب وإلٰهَ مُوسى تَرَى خَطيئة عِبادِك، فأرِهِم آيةً في أنفُسِهم تدُلُّهم على نَفَاذ قُدرَتِك، وأنّهم لا يَخرُجون مِن قَبْضَتك. فأرسَلَ الله عليهم المَوت، ثمّ أنّه عليه السلام ضَاق صَدرُه بسَبَب مَوتهم، فدَعا مرّةً أُخرى، فأحيَاهم الله[٢].

ورُوي عن ابن عبّاس أنّ مَلِكاً من مُلوك بني إسرائيل، أمر عَسكَره بالقِتال، فخافُوا القِتال، وقالوا لمَلِكهم: إنّ الأرض التي تذهبُ إليها فيها الوَبَاء، ونحنُ لا نذهبُ إليها حتى يَزول ذلك الوَباء، فأماتَهم الله تعالى بأسرِهم، وبَقُوا ثمانِيَة أيامٍ حتى انتَفَخوا. وبلَغ بَني إسرائيل موتُهم، فخَرَجوا لدَفْنِهم، فعَجَزوا مِن كَثْرتِهم فحَظَروا عليهم حَظائِر. فأحياهم الله بَعْد الثّمانية، وبَقِيَ فيهم شيءٌ مِن ذلك النَّتَن، وبقيَ ذلك في أولادِهم إلى هذا اليوم[٣].

وقيل: إنّ حَزْقيل هُو ذُو الكِفل؛ لأنّه تَكفّل بشأنِ سبعين نبيّاً وأنجاهم مِن القَتْل[٤]. ولعلّ المُراد مِن مَلِك بني إسرائيل ـ في رواية ابن عبّاس ـ هُو حَزقيل.

وقيل: إنّه ثالثُ أوصياء موسى عليه السلام، وكان أوّلهم يُوشَع بن نون، وثانِيهم كَالب بن يوحَنّا، وثالِثهم حزقيل بن يوز، ويُقال له: ابن العجوز، لأنّ أُمّه كانت عجُوزاً، فسألت الله ولداً بَعدَ ما كَبِرتْ وعقِمتْ، فوَهَبه الله لها.

﴿إنَّ اللهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ جميعاً، حيثُ إنّه بتلك الإماتة والإحياء عرّفهم نفسَه بالقُدْرة الكامِلة، والرّحمة الشامِلة، وحثّهم على التّوكُّل والتّسليم والإذعان بالمعَاد **﴿وَلٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ﴾** لانهِماكِهم في الشّهَوات **﴿لَا يَشْكُرُونَ﴾** فَضْله وإحسانَه، ولا يعتَبِرون بهذه الآيات، ولا ينتَفِعون بها.

وقيل: إنّ الله سُبحانه سَاق القِصّة للحثّ على الجِهاد، لدلالة قوله بعده: **﴿وَقَاتِلُوا فِى سَبِيلِ اللهِ﴾** ونُصْرة دِينه لإعلاء كَلِمته، فإنّ الفِرار من المَوْت ليسَ بمُنْجٍ مِنه، كما قال تعالى: **﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا**

---

١. مجمع البيان ٢: ٦٠٥.
٢. تفسير الرازي ٦: ١٦٣.
٣. تفسير الرازي ٦: ١٦٢.
٤. تفسير الرازي ٦: ١٦٤.

﴿يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ﴾[1] فلا تتركوا الجِهاد بسَبَب خَوف المَوت ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ سَمِيعٌ﴾ لمَقالِكم في التَرغيب إلى الجِهاد والتَرهيب منه ﴿عَلِيمٌ﴾ بمَا في قُلوبكم مِن الدَواعي الدِينيَة والدُنيَويَة.

مَن ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً وَاللهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ[٢٤٥]

ثُمَ لمَا كان الجِهاد مَوقُوفاً على الإنفاق على نَفسِه، وعلى غَيرِه [من] العَاجِزين عن نَفَقة السَفر ومُؤنة الجِهاد، أردَف الأمر بالجِهاد بالتَرغيب الأكيد فيْ أداء الصَدَقات بقوله: ﴿مَن ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللهَ﴾ بالإنفاق على الفُقَراء مِنَ المُؤمنين بإخلاصِ النيّة وطِيْب النَفس ﴿قَرْضاً حَسَناً﴾ ومالاً حَلالاً طيباً. وإطلَاق القَرض على الصَدَقة باعتِبار أنَ الصَدَقة قَطْعُ قِطْعةٍ مِن المَال عن نفسِه، بعِوضَ الأجر المَوعُود مِن الله.

رُوي أنَ النبيَ ﷺ قال: «مَنْ تَصدَق بصَدَقةٍ، فلَه مِثْلها في الجنَة». فقال أبو الدَحْدَاح ـ واسمه عمر[2] بن الدَحْدَاح ـ: [يا رسول الله] إنَ لي حديقَتَين، إن تصدَقتُ بإحداهما فإنَ لي مثليها في الجنَة؟ قال: «نعم»، قال: وأمَ الدَحْدَاح مَعِي؟ قال: «نعم»[3].

وفي رواية قال: والصِّبْيَة مَعي؟ قال: «نعم». فتصدَق بأفضل حديقَتيْه[4].

وفي رِواية ابن عبَاس: كانتْ تُسمىٰ الحنينة، فدفَعها إلى رسُولِ الله ﷺ، فضَاعَف اللهُ صَدَقته ألفَي ألف، وذلك قوله تعالى: ﴿أَضْعَافاً كَثِيرَةً﴾.

قال: فرجَع أبو الدَحْدَاح، فوَجَد أمَ الدَحْدَاح والصِّبْيَةَ في الحديقة التي جعَلَها صَدَقة، فقام على باب الحديقة، فكره أن يدخُلَها، فنادى: يا أمَ الدَحدَاح، قالت: لبَيْك يا أبا الدَحدَاح، قال: إنِي قد جعلتُ حديقتي صَدَقةً، [واشتريت مثليها في الجنَة وأمَ الدَحدَاح معي والصِّبْيَة معي] قالت: بارَك الله في ما شَرَيْت وفي ما اشتَرَيتَ. فخرَجُوا منها، وأسلموا الحديقة إلى النبيَ ﷺ[5].

﴿فَيُضَاعِفَهُ لَهُ﴾ في الأجر والثَوَاب ﴿أَضْعَافاً كَثِيرَةً﴾ لا يعلَمُها إلّا الله. وقيل: الواحِد بسبعمائة؛ نظراً إلى قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ﴾[6].

---

١. النساء: ٧٨/٤. ٢. في مجمع البيان: عمرو. ٣ و٣) مجمع البيان ٢: ٦٠٨.
٥. مجمع البيان ٢: ٦٠٨، تفسير الرازي ٦: ١٦٦. ٦. البقرة: ٢٦١/٢.

وعن (المعاني): عن الصادق عليه السلام: «لمّا نزلَتْ: ﴿مَنْ جَاءَ بِالحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا﴾ [١] قال رسول الله صلى الله عليه وآله: اللّهمّ زِدْني، فأنزَل الله سُبحانَه: ﴿مَنْ جَاءَ بِالحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [٢]. فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: اللّهمّ زِدْني، فأنزَل الله عز وجل: ﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً﴾ فعَلِم رسول الله صلى الله عليه وآله أنّ الكثير مِنَ الله لا يُحصىٰ وليس له مُنتهىٰ» [٣].

وعن (الكافي): عنه عليه السلام، قال: «ما مِن شَيءٍ أحبّ إلى الله مِن اخراج الدِّرْهَم إلى الإمام، وإنّ الله ليَجْعَل لَه الدّرْهَم في الجنّة مِثْل جَبَل اُحدٍ».

ثمّ قال: «إنّ الله يقول في كِتابه: ﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرضاً﴾ إلى قوله: ﴿أضعَافاً كَثِيرَةً﴾ قال: هُوَ والله في [صلة] الإمام» [٤] الخبر.

ثمّ أزال خَوْف الفَقْر عَن القُلُوب، بقوله: ﴿واللهُ يَقْبِضُ﴾ ويمنَع عن الخلق ﴿وَيَبْسُطُ﴾ ويُوسّع عليهم، فإنّ الغِنى والفَقْر بتَقْدير الله وبيَده، فلا يُفقِركُم الإعطاء، ولا يُغنِيكم البُخْل، فتزوّدوا في يَومِكم هذا ليومِ لِقاء الله، فإنّكم إليه تُقلَبون ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ فيُوفّي ما اقتَرَض مِنكم بأحسَن وَفاءٍ، ويُجازِيكم بأوفر جَزاءٍ.

وفيه تنبيهٌ على أنّ الغَنِيّ يُفارِق مالَه بالمَوْت، فليُبادِر إلى الإنفاق قَبل الفَوت، وفي تأخير البَسْط عن القَبْض إشارة إلى أنّ الله تعالى قد يُوسّع على العَبْد بَعد التّقتير، ففيه التّسلِيَة للفقراء.

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِن بَنِي إِسْرَاءِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكاً نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلاً مِنْهُمْ وَٱللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ * وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكاً قَالُوا أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ ٱلْمَالِ قَالَ إِنَّ ٱللهَ ٱصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ وَٱللهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَٱللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ[٢٤٦ و ٢٤٧]

---

١. النمل: ٨٩/٢٧. ٢. الانعام: ١٦٠/٦. ٣. معاني الأخبار: ٥٤/٣٩٧.
٤. الكافي ١: ٢/٤٥١، تفسير الصافي ١: ٢٥١.

ثُمّ أنه تعالى لمّا أمر بالقِتال، ذكَر قِصّة مُخالَفة بَني إسرائيل، وَغلَبة فِئةٍ قليلةٍ مِنهم فِئةً كثيرةً، ليعلم المؤمنون قُبْحَ مُخالفةِ أمرِ الجِهاد، وليَتّكِلُوا في النُّصْرة على الله لا على الكَثْرة والعَدَد والعُدّة. ولعلّه لاظهار إحاطة قَلْب النبيّ ﷺ - في عالَم الأشباح - بجَميع وقائع العالَم مِن بَدء الخِلْقة كما مَرّ، قال مُخاطباً له ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى﴾ حَال ﴿ٱلْمَلَإِ مِن بَنِى إِسْرَاءِيلَ﴾ وأشرافِهم؟ وهذا الاستِفهام لتَقْرِير مَن بَلَغ إليهم القِصّة بالتواتر، أو العَجَب مِن شأن المَلأ وهُم كانوا ﴿مِن بَعْدِ﴾ وَفَاة ﴿مُوسَىٰ﴾ ابن عِمْران ﴿إِذْ قَالُواْ لِنَبِيٍّ لَّهُمُ﴾ قيل: هُو يُوشَع بن نون وَصِيّ مُوسىٰ، وهُو مِن وُلْد يُوسُف. وقيل: شَمعُون مِن وُلْد لاوي بن يعقُوب. وقيل: إشمونل مِن بني هارُون[1].

نُقِل أنه لمّا ادّعىٰ النبوّة كذّبه بَنو إسرائيل، وقالوا له: إن كُنتَ صادِقاً فأتِنا بآيةٍ. ولمّا كان قِوام بَني إسرائيل بالاجتِماع على المُلوك، وطاعة المُلوك لأنبيائهم، وكان المَلِك يُسيِّر الجُمُوع، والنبيّ يُقِيم أمره، ويُشِير عليه، قالوا له: إن كُنتَ نبياً ﴿ٱبْعَثْ﴾ وانهض ﴿لَنَا مَلِكاً﴾ وأميراً نَصدر عن رأيه وتَدبِيره في قِتال كُفّار العَمالِقة، حتى ﴿نُّقَاتِلْ﴾ مَعَه ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ ونُصْرة دِينه.

عن (العَيّاشي): عن الصادق عليه السلام قال: «فإنّ المَلِك في ذلك الزّمان هُو الذي يَسِيرُ بالجُنُود، والنبيّ يُقِيم له أمرَه وينبئه بالخَبَر مِن عِند ربّه»[2].

في استيلاء جالوت رأس العمالقة على بني إسرائيل بعصيانهم وتغييرهم دين الله وعُتوّهم عن أوامره

عن الباقر عليه السلام: «أنّ بني إسرائيل مِن بَعدِ مُوسىٰ عَمِلوا بالمَعاصي، وغيّروا دِين الله، وعَتَوْا عن أمر ربِّهم، وكان فيهم نبيٌّ يأمُرهم وينهاهُم، فلم يُطيعُوه، فسلّط الله عليهم جَالُوت، وهُو مِن القِبْط، فآذاهم وقَتل رِجالَهم، وأخرَجهم مِن دِيارِهم، وأخذ أموالَهم، واستَعْبَد نِساءهم، ففزِعوا إلى نبيِّهم، وقالوا: اسأل الله تعالى أن يبعَث لنا مَلِكاً نُقاتِل في سَبيلِ الله. وكانت النُبوّة - في بني إسرائيل - في بَيتٍ، والمُلْك في بَيتٍ آخر، لَم يَجمعِ الله لهم النُبوّة والمُلْك في بيتٍ واحد، فمِن ذلك قالوا: ابعَثْ لنا مَلِكاً»[3] الخبر.

﴿قَالَ﴾ النبيّ ﴿هَلْ عَسَيْتُمْ﴾ وقَاربْتُم ﴿إِن كُتِبَ﴾ ووَجَب ﴿عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُواْ﴾ جُبْناً وخَوْفاً، فإنّي أظُنّ وأتوقّع جُبْنكم عن القِتال.

﴿قَالُواْ وَمَا﴾ العُذْر ﴿لَنَا﴾ وأيّ داعٍ يُتصوّر في ﴿أَلَّا نُقَاتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وأن نَترُك نُصْرة دِينه

---

١. تفسير الرازي ٦: ١٧٠.

٢. تفسير العياشي ١: ٥٤١/٢٥٠.

٣. تفسير القمي ١: ٨١، بحار الأنوار ١٣: ٤/٤٣٩.

﴿وَ﴾ الحال أنّا ﴿قَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا﴾ وطُرِدنا مِن أوطانِنا، وأغترَبنا مِن أهلِنا ﴿وَأَبْنَائِنَا﴾ وكُلٌّ مِن هذه المَصائِب والبَلِيّات أقوىٰ المُهَيِّجات إلى القِتال.

وقيل: إنّ جَالُوت كان رأس العَمَالِقة ومَلِكهم، وهُو مِن أولادِ عِمليق بن عاد، وكان هُو والعَمالقة يسكُنون ساحِل بَحْر الرُّوم بَيْن مِصر وفِلَسطين، وظهروا على بني إسرائيل، وأخذوا دِيارهم، وسَبَوا أولادهم، وأسِروا مِن أبناء مُلوكِهم أربعمائة وأربعين نفساً وضَرَبوا عَليهم الجِزيَة وأخذوا توراتهم[١].

﴿فَلَمَّا كُتِبَ﴾ وفُرِض ﴿عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ﴾ بَعْد دُعاء النبيّ وبَعْث المَلِك، آلَ أمرُهم إلى أن ﴿تَوَلَّوْا﴾ وتخَلَّفوا عن القِتال. قيل: لأنّهم علّلوا قِتالهم بحُظوظ النّفس، فخذلوا وظلموا عِند الامتِحان ﴿إِلَّا قَلِيلاً مِنْهُمْ﴾ وهُم ثَلاثمائة وثَلاثة عَشَر، بعَدَد أصحابِ بَدْر، وأصحاب القائِم عليه السلام ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ على أنفُسِهم بالتّقاعُد عن الجِهاد.

في اصطفاء طالوت للسّلطنة

ثُمّ بَيّن الله تعالى تَفْضيل بَعْث المَلِك، وتَوَلّي القَوم بقوله: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ﴾ بَعْد مُراجَعة الله ووَحْيِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكاً﴾ فأطِيعُوه وقاتِلوا عدُوّكم مَعَه.

رُوي أنّه عليه السلام لمّا دعا ربّه أن يجعَل لَهم مَلِكاً، أتىٰ بعَصَا يُقاس بها مَن يملِك عليهم، فلَم يُساوِها إلّا طَالوت[٢].

قيل: إنّ اشموئل[٣] جاء بعصا وقرن فيه دُهْن القدس، قال: إنّ صاحِبكم الذي يكون مَلِكاً طُوله طُول هذه العصا، ونُقل أنّه ضلّت حَمِير لأبي طالوت، فأرسَله أبوه في طَلَبها، فمرّ ببَيت إشموئل، فدَخل عليه حتى يَسأله عن الحَمِير، فقاسَهُ طالوت بالعَصا، فكان على طُولها، فقال لطالوت: قرّب رأسك فقرّبه، فدَهَنه بدُهن القُدس، ثمّ قال له: أنت مَلِك بني إسرائيل الذي أمرَني الله أن اُمَلّكه عليهم، قال: بأيّ آيةٍ؟ قال: بآيةِ أنّك تَرجِع وقد وَجَد أبوك حَمِيره، فكان كذلك[٤]. ثمّ أخبر إشموئل بني إسرائيل بنَصْب طَالوت للسَلْطَنة.

وقيل: لمّا كانت السَلْطَنة في بَيت يَهُودا، وكان طالوت مِن سِبْط بِنْيامين، وكان سِبْط بِنْيامين قليلاً مُسْتَحْقَراً بَيْن بني إسرائيل.

﴿قَالُوا﴾ مُتعجِّبين مِن قَول النبيّ، ومُنكِرين له: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ﴾ والسَلْطَنة ﴿عَلَيْنَا﴾ وكَيف يُمكِن أن يكون ذلك ﴿وَنَحْنُ﴾ لشَرَافةِ بُيوتنا ﴿أَحَقُّ﴾ وأوْلىٰ ﴿بِالْمُلْكِ﴾ والسَلْطَنة ﴿مِنْهُ﴾ فتَقدِيم

---

١. تفسير أبي السعود ١: ٢٣٩.
٢. تفسير أبي السعود ١: ٢٤٠.
٣. في النسخة: الشموئل.
٤. تفسير روح البيان ١: ٣٨٣.

غَير المُستَحِقّ على مَن هُو أحقّ قبيحٌ، كتقديم أبي بَكر على عليّ أمير المؤمنين عليه السلام في الخِلافة.

ثمّ أعترَضُوا ثانياً، بقولهم: ﴿وَ﴾ الحَال أنّ طالوت ﴿لَمْ يُؤْتَ﴾ ثَروة ولم يُعط ﴿سَعَةً مِنَ الْمَالِ﴾ فيَشرُف بالمال إذا فاتَه شَرَفُ الحَسَب، بَل هُو فَقِير مُعْدِم، لا مال له كَي يتَقَوىٰ به في تأسيس مُلْكه وسُلْطانه. قيل: كان راعِياً، وقيل: مُكارياً[1]، وقيل: دبّاغاً، وقيل: سَقّاءً[2].

﴿قَالَ﴾ النبيّ ردّاً عليهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ بحِكْمَته ﴿اصْطَفَاهُ﴾ واستَخلَصه للمُلْك واختَاره ﴿عَلَيْكُمْ﴾ وليسَ لكم أن تعترِضوا على الله في ما اختَاره واصطَفاه.

ثُمّ بَعد الجَواب الإجمالي، شَرَع في الجَواب التَفصِيلي بقوله: ﴿وَزَادَهُ بَسْطَةً﴾ وسِعَةً ﴿فِي الْعِلْمِ﴾ بأحكام الدّين وسِياسة المُلْك وشؤون الحَرب، ﴿وَ﴾ بَسْطةً في ﴿الْجِسْمِ﴾ وعظمةً في الجُثّة، وطُولاً في القَامة، وشِدّة في البَطْش.

في أنّ عليّ بن أبي طالب عليه السلام كان أحقّ بالخلافة من غيره

وتَوضيح الجَواب: أنّ شَرافة النَسَب، وكَثْرة المال ليسَتا مِن الكَمالات الحَقيقيّة، ومِمّا له دخل في لِياقة المُلْك وأهليّة الإمارة، وإنّما الدّخِيل في استِحقاق هذا المَنْصِب العِلْم بأحكام الدّين، وسِياسة المُلْك، وعَظَمة الجِسْم، وكَمَال القِوىٰ، والشّجاعة.

فبالعِلْم تُدبَّر المَمْلَكة وتُنظَم الأمور، وبالجَسَامة تَعْظُم مَهابتُه في الأنظار، وبالشّجاعة يُكايِد الأعداء، ويُقاوِم في الهَيْجاء، ولذا كان أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام أحقَّ بالخِلافة مِن سائر الصّحابة؛ لأنه كان أعلَم وأزهَد وأشجع مِن جميع النّاس بَعْد رَسُول الله صلّى الله عليه وآله فكان بخِلافته أولىٰ، وهذا مَع قَطْع النّظر عن اصطِفائه [من قبل] الله ونَصْبه بالنَصّ الصَريح على وِلايته.

قيل: كان طَالوت أطوَل مِن جميع بني إسرائيل برأسه ومَنْكِبه، حتى إنّ الرّجُل القائِم كان يَمُدّ يَدَه فينَال رأسه، وكان أجمَل وأقوىٰ مِن جميعِهم.

﴿وَاللَّهُ﴾ الذي بيَده المُلْك والمَلَكُوت ﴿يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ﴾ مِن عِباده. وفيه دَلالة على أن لا مُلْك لغَيْره ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ﴾ حِكْمةً وفَضْلاً ورَحْمةً، فيُوسِع على الفَقِير ويُغْنِيه ﴿عَلِيمٌ﴾ بمَصالِح العالَم وقابِليّات بني آدم.

في اعتراض الفخر الرازي على الإمامة وجوابه

قال الفخر: هذه الآية تدُلّ علىٰ بُطلان قَوْل مَن يقول: إنّ الإمامة مَوروثة[3]، ولعلّ

---

١. المُكاري: هو الذي يُكرِي، أي: يؤجّر الدّواب ـ من البغال والحمير ـ لغيره.
٢. تفسير الرازي ٦: ١٧٣.
٣. تفسير الرازي ٦: ١٧٣.

اعتِراضه علىٰ أصحابِنا الإمامية.

وفيه: أنهم لا يقولون بأنها مَورُوثةٌ، بَل يقولون بأنها مَنصُوصةٌ لمَن كان في الأصلاب الشَامِخة والأرحَام المُطهَّرة والنُفوس الزَكيّة التي طَهَّرها الله مِن كُلّ رِجْسٍ.

ثمَ إنّا نقول: إنّ الآية تدُلّ على بُطلان إمامة مَن اختاره الخَلْق، وعدم أهلِيّة غَير الأعلَم والأفضَل، ومَن يقول: أقِيلوني، ولستُ بخَيرِكم وعليٌ فيكم لها.

وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِن رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِن كُنْتُم مُؤْمِنِينَ [٢٤٨]

ثُمَ أنّه تعالى -بَعْد نَصْب طالُوت للسَلْطنة؛ بإخبار النبيّ الذي كان قَولُه حُجَة- جعل لقَطْع العُذر، ودَفْع اعتِراض بَني إسرائيل، دليلاً وآيةً على صِدْق النبيّ، وكَوْن سَلْطنة جالُوت بنَصْبه، وهُو ما أشار إليه بقوله: ﴿**وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ**﴾ مِن قِبَل الله، وعَلامة سَلطَنته الإلٰهيّة ﴿**أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ**﴾.

وقيل: إنّه قال ذلِك بَعد طلَب بَني إسرائيل مِن النبيّ آيةً على سَلطَنة طالُوت.

في ذكر خصوصيات تابوت بني إسرائيل وآثاره

قيل: كان التّابُوت صُندوقاً أنزله الله على موسى عليه السلام، فوضعَتْه اُمّه فيه فألقَتْه في اليَمّ، فلمّا حضَر موسى عليه السلام الوَفاةُ، وضع فيه ألواح التَوراة ودِرْعه وما كان عِندَه من آيات النُبُوّة، وأودعه يُوشَع بن نون وَصِيّه.

ونُقِل أنّ الله أنزل على آدام تابوتاً، فيه صُوَر الأنبياء مِن أولاده، فتوارثه أولادُ آدم إلى أن وَصَل إلى يَعقوب، ثمَ بقيَ في أيدي بَني إسرائيل، فكانوا إذا اختَلفوا في شيءٍ تكلّم وحَكَم بيْنهم، وإذا حَضَروا القِتال قدّموه بَيْن أيدِيهم، يستَفْتِحون به على عدُوّهم، وكانت الملائِكة [تحمله] فوقَ العَسْكر وهُم يُقاتِلون العدُوّ، فإذا سَمِعوا مِن التّابوت صَيْحةً استَيْقَنوا بالنُّصْرة[1].

ورُوي أنّ سعته كانت ثلاثة أذْرُع في ذِراعَين[2].

ورُوي أنّه إذا وُضِع التّابوت بيْنَ المُسلِمين والكُفّار، فإن تقدّم التّابوت رجلٌ، لا يرجِع حتى يُقتَل أو

١. تفسير الرازي ٦: ١٧٦.

٢. معاني الأخبار: ٢/٢٨٤.

يَغلِب، ومَن يرجع عنه كَفَر، وقَتله الإمام[١]. فلمّا عَصَوا وفَسَدوا واستَخَفّوا به ـ حتى إنّ الصِّبيان كانوا يلعَبون به في الطُّرُقات ويستَخِفّون به ـ سَلّط الله عليهم العَمَالِقة، فغَلبوهم على التّابوت، وسَلَبوه، فلمّا سألوا نبيَّهم آيةً على مُلك طالُوت، قال ذلِك النبيّ: إنّ آيةَ مُلْكه أنّكم تَجِدون التّابُوت في داره.

ثمّ أنّ الكُفّار الذِين سَلَبوا ذلك التّابوت، كانوا قد جَعَلوه في مَوضِع البَوْل والغائِط، فدعا النبيّ في ذلِك الوقت، فسلّط الله على اُولئك الكُفّار البَلاء، حتىّ إنّ كُلّ مَن بال عِنده أو تَغوّط، ابتَلاه الله بالبَوَاسِير.

ونُقِل أنّه هَلَك مِن بِلادهم خَمْسُ مدائِن، فعَلِم الكُفّار أنّ ذلِك لأجل استِخفافهم بالتابوت، فأخرَجوه ووضَعوه على ثَوْرَين فأقبل الثَوْران يَسِيران، ووكّل الله بهما أربعةً مِن الملائكة يسوقونها حتى أتَوا مَنزِل طالُوت، ثمّ أنّ قوم ذلِك النبيّ رأوا التّابوت، فعَلِموا أن ذلِك دَليلٌ على كَوْنه مَلِكاً.

فعلى هذا، نِسْبةُ الإتيان إلى التّابوت مِن بَاب التَوسُّع والمَجاز، كما يُقال رَبِحَتْ التِّجارة[٢].

وعن ابن عبّاس: أنّ التّابوت صُندوقٌ، كان موسى يضَع فيه التَوراة، وكان مِن خَشَب، وكانوا يَعْرِفونه، ثمّ أنّ الله رَفَعه بَعْد ما قَبضَ موسى؛ لسَخَطه على بَني إسرائيل، قال نبيُّ اُولئك القَوْم: إنّ آيةَ مُلْك طالُوت أن يأتيكم التّابوت مِنَ السّماء[٣].

عن الصادق عليه السلام: «حيثما دَار التّابوت في بني إسرائيل دَار المُلْك، وأينَما دَار السلاح فينا دَار العِلْم»[٤].

وفي رِوايةٍ: «أنّ مَثَل السِّلاح فينا مَثَل التّابوت في بَني إسرائيل، كانت بنو إسرائيل، أيُّ أهلِ بَيْتٍ وُجِد التّابوت على بابِهم أُوتُوا النُّبُوّة، فمَن صَار إليه السِّلاح مِنّا أُوتِيَ الإمامة»[٥].

﴿فِيهِ سَكِينَةٌ﴾ كائِنةٌ ﴿مِن رَبِّكُمْ﴾ سُئِل الكاظم عليه السلام عن السَّكينة؟ فقال: «رِيحٌ تخرُج مِن الجَنّة، لها صُورةٌ كصُورة الإنسان، ورائِحةٌ طَيِّبة، وهِي التي نزلَتْ على إبراهيم، فأقبلَتْ تَدُور حَوْل أركان البَيت وهُو يضَع الأساطين»[٦].

وفي رِوايةٍ اُخرى: عنه عليه السلام، قيل: وما السَّكينة؟ قال: «رُوحُ الله يتَكلّم، كانوا إذا اختلفوا في شَيء

---

١. تفسير القمي ١: ٨٢. ٢. تفسير الرازي ٦: ١٧٦. ٣. تفسير الرازي ٦: ١٧٦.
٤. الكافي ١: ١٨٥/٢. ٥. الكافي ١: ١٨٥/١. ٦. قرب الإسناد: ١٣٢٧/٣٧٣.

كلّمهم وأخبرهم ببَيان مايريدون»[١].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «أنّ السَّكينةَ التي كانَتْ فيه ريحٌ هَفّافةٌ مِنَ الجَنّة، لها وَجهٌ كوَجْه الإنسان»[٢].

﴿وَ﴾ فيه ﴿بَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ﴾ عن الباقر عليه السلام: «أنّ البَقِيّة عَصا مُوسى ورُضَاض[٣] الألواح»[٤].

وفي رِوايةٍ: عن الرضا عليه السلام، قال: «كان فيه ألواح مُوسى التي تكسّرت، والطِّسْت التي يُغسَل فيها قُلُوب الأنبياء»[٥].

وفي رِواية: «البَقيّة ذُرِّيّة الأنبياء»[٦] والظّاهِر أنّ المُراد مِنَ الذُّرّيّة، ما بقيَ مِن الأنبياء.

ثُمّ بيَّن الله كَيْفيّة إتيان التّابوت بقوله: ﴿تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ﴾.

عن (الكافي): عن الباقر عليه السلام: «فجاءت به الملائِكة تَحْمِله»[٧].

وفي رِواية: «يَحْمِله ثَوْران والملائِكة تسُوقُهما»[٨].

وفي رِوايةٍ: «لَمْ تَحمِله الملائِكة ولا الثوران، بَل نَزَل مِنَ السَّماء إلى الأرض، والملائِكة يحفَظُونه»[٩].

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ المَذكُور مِن إتيان التّابوت في مَنْزِل طالُوت بحَمْل الملائِكة ﴿لَآيَةً﴾ عظيمةً، ومُعْجِزةً باهِرةً ﴿لَكُمْ﴾ يا بني إسرئيل ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ بشيءٍ مِن الآيات.

ثمّ لمّا أذعَنوا له بالمُلْك جَهَز الجَيْش لِقتال العَمالِقة. رُوي أنّ طالُوت قال لقَوْمه: لا ينْبَغي أن يخرُج معي رَجُلٌ يبني بناءً لَمْ يفرَغ مِنه، ولا تاجِرٌ مُشتَغِلٌ بالتِّجارة، ولا مُتزوّج بامرأةٍ لَم يَبْن عليها، ولا أبغِي إلّا الشابّ النّشِيط الفارغ. فاجتَمَع إليه مِمّن اختار ثَمانُون ألفاً[١٠].

﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي

---

١. معاني الأخبار: ٢/٢٨٥.
٢. مجمع البيان ٢: ٦١٤.
٣. في النسخة: رضراض، والرُّضاض: هو فُتات الشيء وقطعه المتبقية بعد تحطّمه وتكسّره، أما الرضراض: فهو الصغير من الحجارة والحصى.
٤. مجمع البيان ٢: ٦١٤ عن الصادق عليه السلام.
٥. تفسير العياشي ١: ٥٤٦/٢٥٣.
٦. تفسير العياشي ١: ٥٤٥/٢٥٢.
٧. الكافي ٨: ٤٩٨/٣١٦.
٨. تفسير الرازي ٦: ١٧٦.
٩. تفسير الرازي ٦: ١٧٦.
١٠. تفسير الرازي ٦: ١٧٩.

وَمَن لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّى إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلاً مِنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُلَاقُوا ٱللهِ كَم مِن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللهِ وَٱللهُ مَعَ ٱلصَّابِرِينَ[٢٤٩]

﴿فَلَمَّا فَصَلَ﴾ وفارَق وجاوَز ﴿طَالُوتُ﴾ البلَد، وقيل: هُو بَيْت المَقْدِس مُصاحَباً ﴿بِـالجُنُودِ﴾ والعَسَاكِر. قيل: كانوا ثَمانِين ألفاً، وقيل: سبعون ألفاً، وقيل: ثَلاثون ألفَ مُقاتِل.

في بيان كيفية ابتلاء بني إسرائيل بنهر

﴿قَالَ﴾ طَالُوت عَن نفسِه، أو إخباراً عن النبيّ. ورُوي أنّ القائِل للجُنُود هو النبيّ[١] ﴿إِنَّ ٱللهَ مُبْتَلِيكُم﴾ ومُمْتَحِنُكم ﴿بِنَهَرٍ﴾ حتى يعْلَم المُجاهِدين والصَّابِرين.

عن ابن عبّاس: أنّه كان بَيْن الأُردُن وفِلَسطين[٢].

وقيل: كان الوقتُ قَيْظاً، فسَلَكوا مَفَازةً فسألوا أن يُجرِي الله لَهم نَـهْراً فـقال: إنّ الله مُـبتَلِيكم بـما أقتَرَحْتُموه مِن النَهر[٣] ﴿فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى﴾ ومِن أصحابي المُطيعِين ﴿وَمَن لَمْ يَطْعَمْهُ﴾ ولَم يَذُقْه ﴿فإِنَّهُ مِنِّى﴾ ومِن أصحابي، وأهل طاعَتي ﴿إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةً﴾ مِن المَاء ﴿بِيَدِهِ﴾ فلا بأسَ بشُرْب غُرْفَةٍ واحِدةٍ، فاختَصّ المَنْعُ بشُرْبٍ يكون بوَضْع الفَم في ماء النَهر.

رُوي عن ابن عبّاس: كانت الغُرْفة يَشْرب مِنها هُو ودَوابّه وخَدَمه، ويَحْمِل منها. الخبر[٤]، ولعلَه لبَرَكة الله بإعجاز النبيّ.

فلمّا انتهىٰ الجُنُود إلى النَهر وابتُلوا به ﴿فَشَرِبُوا مِنْهُ﴾ كالدَوابّ، ولَم يقنَعوا بالغُرْفة فَضْلاً عن أن لا يشرَبوا ﴿إِلَّا قَلِيلاً مِنْهُمْ﴾.

وعن الرضا عليه السلام في روايةٍ: «وقال لهم نبيُّهم: يا بني إسرائيل، إنّ الله مُبتَلِيكم [بنهر] في هذه المَفَازة، فمَن شَرِب مِنه فليس مِن حِزب الله، ومَن لَم يشرَب فهُو مِن حِزب الله إلّا مَن اغتَرَف غُرْفة بيَده. فلمّا ورَدُوا النَهر أطلَق الله لهم أن يغتَرِف كُلُّ واحدٍ منهم غُرْفة [بيده]، فشرِبوا منه الّا قـليلاً مـنهم. فالّذِين شربوا منه كانوا سِتين ألفاً»[٥].

ونُقِل أنّ مَن لَم يقتصِر على الغُرْفة غَلَب عطشُه، واسوَدّت شَفَتُه، ولَمْ يقدِر أن يمضي، وبقيَ على

---

١. تفسير القمي ١: ٨٣، تفسير الرازي ٦: ١٧٩. ٢. الدر المنثور ١: ٧٥٩. ٣. تفسير الرازي ٦: ١٨٠.
٤. تفسير الرازي ٦: ١٨٢. ٥. تفسير القمي ١: ٨٣، تفسير الصافي ١: ٢٥٦.

شطِّ النَهر. فعَرَف طالُوت المُوافِق مِنَ المُخالِف.

وأعلَمْ أنّ مَثَل الدُّنيا مَثَل هذا النهر، فمَن لم يقنَع بالكَفَاف لا يشبَع إلّا بتُراب القَبْر.

وعن الصادق عليه السلام أنّه قال: «القَلِيل ـ الّذِين لَمْ يشرَبوا، ولم يغترِفوا ـ ثلاثمائة وثلاثَة عَشَر رجُلاً»[1].

﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُ﴾ أي عَبَر النَهر ﴿هُوَ﴾ أي طَالُوت ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ رأوا قوة جَالُوت وكَثْرة جُنوده، خافوا و﴿قَالُوا﴾ عن الصادق عليه السلام، في رِوايةٍ: «قال الّذِين شربوا منه»[2]: ﴿لَا طَاقَةَ﴾ ولا قُوَة ﴿لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾ وبمُحارَبَتِهم.

قيل: كانوا مائةَ ألف مُقاتِل، كُلّهم شَاكِي السِّلاح[3]، وكان جالُوت رأس العَمالِقة ومَلكِهم، وكان مِن أشدِّ النّاس وأقواهم، وكان يهزِم الجُيُوش وحدَه.

﴿قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُلَاقُوا اللهِ﴾ ويتيقّنون بالمَعاد ولِقاء كرامة الله وثوابه، ولَم يُلْهِهم حُبُّ الدُّنيا ولذّاتها، للمَرعُوبين مِن كَثْرة عِدّة العَدوّ وشَوْكتهم: اثبِتوا في القِتال ولا تنظُروا كَثْرة العَدُوّ فإنّه ﴿كَم مِن فِئَةٍ﴾ وفِرْقَة ﴿قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ﴾ وهزَمت ﴿فِئَةً﴾ وجَماعة ﴿كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهِ﴾ وإرادته ونُصْرته ﴿وَاللهُ﴾ بتأييده ومَعُونته ﴿مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ في طَاعَته وقِتال عدُوِّه، فلا عِبْرة بكَثْرة العَدُوّ ﴿إِن يَنصُرْكُمُ اللهُ فَلَا غَالِبَ لَكُم وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُم مِن بَعْدِهِ﴾[4]

وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ * فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلٰكِنَّ اللهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ [٢٥٠ و ٢٥١]

﴿وَلَمَّا بَرَزُوا﴾ في مَيْدان الحَرْب ﴿لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾ وتهَيّأوا لقتالهم مَع ما رأوا مِن قلّة عَدَدِهم وضَعْفِهم، وكَثْرة عدُوِّهم وشَوكتهم، تضرّعوا إلى الله في طَلَب الإعانة والنُّصْرة ﴿قَالُوا﴾[5] ﴿رَبَّنَا﴾ ويَا مَن بيده تدبير أُمورِنا على وَفْق صَلاحِنا ﴿أَفْرِغْ﴾ واصْبُبْ ﴿عَلَيْنَا صَبْراً﴾ في مُنازَلتهم، وأعْطِنا

---

١. تفسير القمي ١: ٨٣. ٢. تفسير القمي ١: ٨٣.

٣. تفسير روح البيان ١: ٣٨٨، ورجل شاكي السلاح: تام السلاح كامل الاستعداد. ٤. آل عمران: ١٦٠/٣.

٥. في النسخة: بقولهم.

قُوَة تحمُّل البَلايا والمَكارِه والآلام في مُقاتَلتهم ﴿وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾ في مُزاوَلة النِّزال، ومَعْركة القِتال ﴿وَٱنصُرْنَا﴾ بإعانَتك وتأيِيدك ﴿عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَافِرِينَ﴾ الَّذِين لا يليقون لرَحمتك ورأفتك. فحقَّق الله ظنَّهم، وأجاب لهم دَعْوتَهم ﴿فَهَزَمُوهُم﴾ وفرّقوا جَمْعَهم وكَسَروا شَوْكتهم ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ ونَصْره.

قصّة قتل جالوت وانهزام عسكره

عن القُمّي، عن الرضا عليه السلام: «فأوحى الله إلى نبيّهم: أنّ جَالُوت يقتُله مَن يستوي عليه دِرْع مُوسى عليه السلام، وهو رَجُلٌ مِن وُلْد لاوي بن يَعقُوب، اسمُه دَاود بن آسي، وكان آسي راعِياً، وكان له عَشرة بَنِين أصْغَرهم داود. فلمّا بُعِث طَالُوت إلى بني إسرائيل وجَمَعهم لحَرْب جَالُوت، بعَث إلى آسي أن احضر وأحضِر وُلدك، فلمّا حَضَروا دعا واحداً واحداً مِن وُلده، فألبَسَه الدِّرع - دِرْع مُوسى - فمِنهم مَن طالَتْ عليه، ومِنهم مَن قَصُرت عِنه، فقال لآسي: هَل خلَّفتَ مِن وُلدك أحداً؟ قال: نَعم، أصغَرهم تَرَكْتُه في الغَنَم راعياً. فبعث إليه [ابنه] فجاء بِه، فلمّا دُعي أقبَل ومعه مِقلاع[1]. قال: فنادتْه ثلاثُ صَخْراتٍ في طريقه، فقالت: يا داود خُذْنا، فأخذها في مَخلاته[2]، وكان شَدِيد البطش قَوياً في بَدَنه شُجاعاً، فلمّا جاء إلى طالُوت ألبَسَه دِرْع مُوسىٰ، فاستَوتْ عليه»[3].

وفي رِواية العيّاشي: «أنّ داوُد لمّا دخَل العَسْكر، سمِعهم يتعظمون أمرَ جَالُوت، فقال لهم: ما تُعظّمُون مِن أمره، فَوَالله لَئِن عايَنْتُه لأقتُلَنَّه. فحدّثوا بخَبَره حتّى أُدخِل على طالُوت، فقال: يا فَتىً، وما عِنْدك مِنَ القُوّة، وما جربت مِن نَفْسك؟ قال: كان الأسَدُ يعْدُو على الشّاة مِن غَنَمي فأُدْرِكُه، فآخُذُ برَأسه فأفُكُّ لَحْيَيْه[4] منها، فآخُذُها مِن فِيه. قال: فقال: ادْعُ إليَّ بِدرْعٍ سابِغة[5]، قال: فأتىٰ بدِرْعٍ، فقَذَفها في عُنُقه فتَمَلَّأ[6] مِنها. قال: فقال طَالُوت: والله لعَسَىٰ الله أن يقتُله به، قال: فلمّا أن أصبَحوا ورجِعوا إلى طَالُوت، والتقىٰ النّاس...»[7].

وفي رِواية القُمّي: «ووقَفَ داوُد بحِذاء جَالُوت، وكان جَالُوت على الفِيل، وعلى رأسِه التّاج، وفي جَبْهته ياقُوتة يلمَع نورُها، وجُنُوده بَيْن يدَيْه، فأخَذ داود مِن تلك الحِجارة حَجَراً فرمىٰ به [في] مَيْمَنة جَالُوت، فمَرّ في الهَواء ووقَع عليهم فانهَزَموا، وأخذ حَجراً آخرَ فرمىٰ به [في] مَيْسَرة جَالُوت فانهَزَموا، ورمىٰ جَالُوت بحَجَرٍ[8] فصَكّ الياقوته في جَبْهته، ووصَل إلى دِمَاغه، ووقع إلى الأرض

---

١. المِقلاع: ما يرمى به الحجر.
٢. المَخلاة: ما يوضع فيه العلف ويعلق في عنق الدابة.
٣. تفسير القمي ١: ٨٢، تفسير الصافي ١: ٢٥٥.
٤. اللَّحيان: العظمان اللذان فيهما الأسنان.
٥. سابغة: أي واسعة.
٦. أي امتلأت به، واستوت عليه فكانت بقدر حجمه.
٧. تفسير العياشي ١: ١٣٤/٤٤٥، تفسير الصافي ١: ٢٥٦..
٨. زاد في المصدر: ثالث.

ميتاً»[١].

رُوي عن ابن عبّاس: أنّ داوُد كان راعِياً، وله سَبعة إخوة مع طالوت، فلمّا أبطأ خَبَر إخوَته على أبيهم إيشا، أرسل ابنه داوُد إليهم ليأتيه بخَبَرهم، فأتاهم وهُم في المَصَافّ[٢]، وبَدَر جالُوتَ الجَبّار ـ وكان مِن قَوْم عادٍ ـ إلى البِراز، فلَم يخرُج إليه أحد، فقال: يا بَني إسرائيل، لَو كُنتُم على حَقٍّ لبارَزَني بعضُكم. فقال دَاوُد لإخوته: أمَا فيكم مَن يخرُج إلى هذا الأغلف[٣]؟ فسكَتوا، فذهب إلى ناحيةٍ مِن الصَّف ليس فيها إخوته، فمَرّ به طَالُوت وهُو يُحرِّض النّاس؛ فقال له داود: ما تصنعون بمَن يَقتُل هذا الأغلف؟ فقال طَالُوت: أُنكِحَه ابنتي وأُعطِيه نِصْف مُلْكي، فقال داود: فأنا خارِج إليه، وكان عادَته أن يُقاتِل بالمِقلاع الذِّئبَ والأسد في المرعىٰ، وكان طَالُوت عارفاً بجَلَادته. فلمّا هَمّ داوُد بأن يخرُج إلى جَالُوت مرّ بثلاثة أحجار، فقُلْن: يا داوُد، خُذْنا مَعَك، ففينا مِيتَة جَالُوت. ثمّ لمّا خرَج إلى جَالُوت رماه فأصابه في صَدْره، ونَفَذ الحَجَر فيه[٤] ﴿وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ﴾ وقتَل بَعْده ناساً كثيراً، فهَزَم الله جُنُود جَالُوت.

وفي رِواية العيّاشي: «وقال النّاس: قَتَل داوُد جَالُوت، ومَلَك النّاس حتّى لَم يكُن يُسمَع لطَالُوت ذكرٌ، واجتَمعت بنو إسرائيل على داوُد»[٥] الخبر.

وفي رِواية ابن عبّاس: فحَسَده طَالُوت، فأخرَجه مِن مَمْلَكته، ولَم يَفِ له بوَعْده، ثمّ نَدِم فذهب يطلُبه إلى أن قُتِل[٦].

﴿وَآتَاهُ اللهُ المُلْكَ﴾ والسَلْطَنة على عامّة بَني إسرائيل، فاستَمْلك جميع أراضيهم، ولم يتجمَعوا قَبْل داوُد على مَلكٍ واحد ﴿وَ﴾ آتاه ﴿الحِكْمَةَ﴾ قيل: هِي النُّبوة، ولَم يجتَمع المُلْك والنبوّة في بني إسرائيل قَبْله إلّا له، بَل كان المُلْك في سبط يَهودا، والنّبوة في سبط لاوي. وفي رِواية: وأنزل الله عليه الزّبوُر[٧].

---

١. تفسير القمي ١: ٨٣، تفسير الصافي ١: ٢٥٦.
٢. المَصَافّ: جمع مَصَفّ، وهو موقف الحرب؛ حيث يقف ويصطف المقاتلون صُفوفاً متقابلة مع العدو.
٣. الأغلف: الذي لم يختن.
٤. تفسير الرازي ٦: ١٨٨.
٥. تفسير العياشي ١: ٥٤٩/٢٥٥، تفسير الصافي ١: ٢٥٧.
٦. تفسير الرازي ٦: ١٨٨.
٧ و٤. تفسير العياشي ١: ٥٤٩/٢٥٥.

﴿وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ﴾ وفي رواية: علّمه صَنْعة الحَديد، وليّنه له[١]. وقيل: مَنْطِق الطَّير والنَّمْل. وقيل: الحُكْم والقَضاء. وقيل: الألحان[٢]. ولا يَبعُد أن يكون المُراد هُو الجميع.

ثمّ بعد بَيان مِنّته على بَني إسرائيل بدَفْع جَالُوت وجُنُوده عنهم ونِعَمِه عليهم، بيّن أنّ هذه النِّعْمة عامّة لجميع أهل العالَم بقوله: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُم﴾ الكُفّار ﴿بِبَعْضٍ﴾ المُؤمنين.

ورُوي عن أمير المؤمنين عليه السلام: «أي يدفَع الهَلاك بالبَرّ عن الفَاجِر»[٣] الخبر. ولعلّ المُراد أنّ الله يدفَع البَلاء ببَرَكة الأخيار عن الفُجّار، فيَسْلَم ويعيش أهلُ الفُسْق والفُجُور بسبَب وجُود عِباده الصَالِحين، ولَولاهُم لَمنَعَت السّماوات والأرض بَرَكاتِها.

ويُحتَمل أن يكون المُراد: لَولا دَفْع الله النّاس بَعْضَهم عن المُنكَرات؛ بنَهْي بعضِهم ﴿لَفَسَدَتِ الأَرْضُ﴾ بمَن فيها ﴿وَلٰكِنَّ اللهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى العَالَمِينَ﴾ جميعاً، فيدفَع بفَضْلِه هذا النَّحو مِن الدَّفع حتى لا يعمّهم الفَسَاد، فيمتَنِع الكافِر بكُفْره قليلاً، ويربَح المُؤمن بكَسْبه جزيلاً.

﴿تِلْكَ آيَاتُ ٱللهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [٢٥٢]

﴿تِلْكَ﴾ القِصَص العَجيبة الخارِقة للعَادة ﴿آيَاتُ اللهِ﴾ ودَلائِل صُنْعه، وتوحِيده، وحِكْمته ﴿نَتْلُوهَا عَلَيْكَ﴾ وَحْياً، أو نُنزِّلها إليك بتوسُّط جَبْرئيل حال كَوْنها مقرونةً ﴿بِالحَقِّ﴾ المُطابِق للواقِع، لا يعْتَريه شَكٌّ ولا رَيْب ﴿وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ فاتْلُ تِلك الآيات على النّاس ليعْتَبِروا ويهتَدوا، وإن أصرّوا على الكُفْر، فإنّما عليك البَلاغ المُبين، وفيه إشعار بأنه غنيٌّ عن الاعتِبار بتِلك الآيات، فإنّ الشُّهُود والعِيان مُغنٍ عن الدّليل والبُرهان، وإنّما عليه تِلاوَتها على النّاس؛ لأنّ وظيفته الرِّسالة.

﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِنْهُم مَن كَلَّمَ ٱللهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ ٱللهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِن بَعْدِهِم مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَاتُ وَلٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا فَمِنْهُم مَنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَن كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ ٱللهُ مَا ٱقْتَتَلُوا وَلٰكِنَّ ٱللهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [٢٥٣]

---

٢. مجمع البيان ٢: ٦٢١، تفسير روح البيان ١: ٣٩١، تفسير الرازي ٦: ١٨٩.

٣. مجمع البيان ٢: ٦٢١، تفسير الصافي ١: ٢٥٧.

ثُمّ ذكَر الله تعالى اختِلاف أُمَم الأنبياء، ووُقُوع القِتال بَيْنهم، مع أنّ الأنبياء كانوا في كَمال العَظَمة وعلوّ المقام تَسلِيةً لقَلْب حَبِيبه، بقوله: ﴿**تِلْكَ**﴾ جَمَاعة ﴿**الرُّسُلُ**﴾ الّذِين أرسلناهم لإصلاح الأرض، ودَفْع الفسَاد، وهِداية العِباد ﴿**فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ**﴾ في المَقامات المَعنويّة، ومَرتبة الرسالة ﴿**عَلَى بعْضٍ**﴾ آخر ﴿**مِنْهُم مَن كَلَّمَ اللهُ**﴾ وشافَهَهُ بالمُخاطَبة كخاتَم النَبِيِّين ﷺ في لَيْلة المِعْراج وغيرها، وكمُوسى بن عِمران ﴿**وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجاتٍ**﴾ كثيرةً، لا يُقاس بغيره.

في أفضلية خاتم النبيين ﷺ على جميع الأنبياء والمرسلين والملائكة المقرّبين

ولعلّ الفَرْق بَيْن التّفضِيل المَذكُور في الصَدْر، والرَفْع المَذكُور هُنا، أنّ الأوّل لبيان أفضلِيّة بَعْض الرُّسل على بعضٍ، وتفاوُت مَراتِب بَعْضهم بالقِياس إلى [بعض] آخر، وهنا لبَيان الرِّفْعَة المُطلَقة مِن غَيْر إضافةٍ ونِسْبةٍ إلى بعضٍ آخر، كما أنّ رِفْعة السُّلطانِ رِفْعة مُطلَقة بالنِّسبة إلى الفقير، ولا يُقال: إنّ السُّلطان أرفع قَدْراً من الفقير الصُّعلُوك، فإنّ رُتبْة الفقير لَيْس بقابِلٍ أن تقَع [في] طرَف النِّسبة لُرتْبة السُّلطان، بخِلاف رُتْبة السُلطان بالنِّسبة إلى سُلطانٍ آخر.

وهذه المَرتَبة مِنَ الرِّفعة لخاتَم النَبِيِّين ﷺ، حَيثُ إنّه أُوتِي ما لَم يُؤتَ أحدٌ مِنَ المُرسَلين، ولَو أنّ إبراهيم ومُوسى وعيسى عليهم السلام كانوا في زَمانه عليه السلام لَمْ يَسَعْهم إلّا الايمان به واتِّباع دِينه.

عن (العُيون): عن النبيّ ﷺ: «ما خَلَق الله خَلْقاً أفضَل مِنّي، ولا أكرَم عَلَيه مِنّي».

قال عليّ عليه السلام: «فقلت: يا رسول الله أنت أفضل أم جِبْرئيل؟»

فقال: «إنّ الله فَضّل أنبياءه المُرسَلين على ملائِكته المُقرّبين، وفضّلني على جميع النَبِيِّين والمُرسَلين، والفَضْل بَعدي لك يا علي، وللأئمّة مِن بَعْدِك، وإنّ المَلائِكة لخُدّامنا، وخُدّام مُحِبِّينا»[1].

عن ابن عبّاس، قال: قال رسول الله ﷺ: «أُعطِيتُ خَمْساً، لَم يُعْطَهُنّ أحدٌ قبلي ولا فَخْر: بُعِثْتُ إلى الأحمر والأسود وكان النبيُّ قبلي يُبْعَث إلى قوْمه، وجُعِلَتْ لِيَ الأرْض مَسْجِداً وطَهُوراً، ونُصِرْتُ بالرُّعب أمامي مَسِيرة شَهرٍ، وأُحِلّتْ لِيَ الغَنائم ولم تكن لأحدٍ قبلي، وأُعطِيتُ الشَفاعة فادّخَرتُها لأُمّتي، فهِي نائلة إن شاء الله لمَن لا يُشرِك بالله شيئاً»[2].

وروىٰ البَيْهقي في (فضائل الصَحابة) على ما نقله الفَخْر الرّازي مع نِهاية عصبيّته: أنّه ظَهَر عليّ عليه السلام مِن بَعيد، فقال النبيّ ﷺ: «هذا سَيِّد العَرَب» فقالَت عائشة: ألستَ أنتَ سيِّد العَرَب؟ فقال: «أنا سيِّد

١. عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ٢٢/٢٦٢، تفسير الصافي ١: ٢٥٨.

٢. تفسير الرازي ٦: ١٩٨.

العَالَمين»[١].

وقال بعضُ العُلماء: إنّ كُلّ أمير تكون مُؤنته على قَدْر رَعِيّته، وسَعَة مَمْلَكته. فالأمير الذي تكون إمارته على قَرْية تكون مُؤنته بقَدَر تلك القرية، ومَن مَلَك المَشرِق والمَغرِب احتاج إلى أموالٍ وذخائرٍ أكثر مِن أموالِ أمير القَرية، فكذلك كُلّ رسُولٍ بُعِث إلى قَومه، أُعْطِيَ مِن كُنوز التَوحيد وجَواهِر المَعْرفة على قَدْر ما حُمِّل مِن الرّسالة، فالمُرسَل إلى قَوْمه في طَرَف مَخصُوصٍ مِن الأرض، إنّما يُعطى مِن كُنوز الرّوْحانيّة بقَدَر ذلك المَوضِع، والمُرسَل إلى كُلّ أهل المَشْرِق والمَغْرِب إنسهم وجِنّهم، لابدّ وأن يُعطى مِن المَعرِفة بقَدَر ما يُمكِنه أن يقوم بأمور أهل الشّرْق والغَرْب.

وإذا كان كذلك، كانت نِسبةنُبُوّة محمّد ﷺ إلى نُبُوّة سائر الأنبياء، كنِسبة مُلْك كُلّ المَشارق والمَغارِب إلى مُلْك بَعْض البِلاد المَخصُوصة[٢]، فلا جَرَم بلَغ في العِلْم والحِكْمة والمَعْرِفة إلى حَدٍّ لَمْ يبلُغْه أحدٌ مِنَ البَشَر، قال تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾[٣] وفي الفَصَاحة ـ إلىٰ أن قال: «أُوتِيتُ جَوامِع الكَلِم» وصار كِتابه مُهَيمِناً على سائر الكُتُب، وصارَتْ أُمّته خَيْر الأُمَم[٤].

ثُمّ خَصّ الله تعالى عِيسىٰ بن مَريم بالذكر، بقوله: ﴿وَآتَيْنَا عِيسَى ٱبنَ مَرْيَمَ﴾ الآيات ﴿ٱلْبَيِّنَاتِ﴾ والمُعْجِزات البَاهِرات كإحياء الطَّير المُسَوّىٰ مِن الطِّين بالنَّفخ فيه، وإحياء المَوْتىٰ وغَير ذلك، مع كَوْن مُعْجِزات مُوسىٰ عليه السلام أكثر لتَوْبيخ اليَهُود على عدم الإيمان به، مع وفور مُعْجِزاته ﴿وَأَيَّدْنَاهُ﴾ وأعناه ﴿بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ قيل: إنّ القُدُس هُوَ الله، ورُوحه جَبْرَئيل.

والإضافة تشرِيفيّة، فإنّ الله أعانه بجَبْرَئيل في أوّل أمره، حيثُ قال: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُوحِنَا﴾[٥] وفي وَسَطه حيثُ علّمه العُلوم، وفي آخره حيثُ إنّه رفعَه إلى السّماء[٦].

وهؤلاء النّبِيّون مع عُلُوّ شأنهم وإتيانهم المُعْجِزات البَاهِرات، اختَلفت أُمَمهم في الكُفْر والإيمان حتى تقاتَلوا ﴿وَلَوْ شاءَ اللهُ﴾ وأراد ـ إرادة تكوينيّة ـ توافُقَهم على الحقّ، وتَسَالُمهم عليه، وتَرْك مُقاتَلتهم، لاتّفقوا على الإيمان بالقَهْر والجَبْر ﴿مَا ٱقْتَتَلَ﴾ أُمَمهم ﴿ٱلَّذِينَ﴾ كانوا ﴿مِن بَعْدِهِم﴾ وغِبّ[٧] وَفاتِهم ﴿مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ﴾ مِن قِبَل رُسُلِهم، الآيات ﴿ٱلْبَيِّنَاتُ﴾ وشاهدوا المُعْجِزات،

---

١. تفسير الرازي ٦: ١٩٨.

٢. زاد في تفسير الرازي: ولمّا كان كذلك لا جرم أُعطي من كنوز الحكمة والعلم ما لم يعط أحد قبله.

٣. النجم: ١٠/٥٣.

٤. تفسير الرازي ٦: ١٩٨.

٥. التحريم: ١٢/٦٦.

٦. تفسير الرازي ٦: ٢٠٣.

٧. أي بعدها.

ووضَحت لهم دَلائل الحَقّ المُوجِبة لاتّفاقهم واجتِماعهم على الإيمان بهم، والمُوادّة بَيْنهم.

﴿وَلٰكِنِ﴾ مَع ذلك ـ حَيْث لَم يشأ الله قَهرهم على التّوافُق في الإيمان لكَوْنه خِلاف الحِكمْة، وأتمّ النِّظام ـ ﴿ٱخْتَلَفُوا﴾ بأهوائِهم الزّائِغة اختِلافاً شديداً فاحِشاً ﴿فَمِنْهُم مَنْ آمَنَ﴾ بالرُّسُل وما جاءوا به، وأطاع ﴿وَمِنْهُم مَن كَفَرَ﴾ بهم، وعصىٰ ﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ﴾ بَعْد وُقُوع الاخْتِلاف بَيْنهم، عدم اقْتِتالهم ﴿ما ٱقْتَتَلُوا﴾ بأن لَم يتحرّك مِنهم عُضو للقِتال، ولَم يحدُث في قُلُوبهم داعٍ إليه ﴿وَلٰكِنَّ ٱللهَ﴾ بقُدْرَتة الكامِلة ﴿يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ من الخِذْلان والعِصْمة عَدْلاً وفَضْلاً.

عن (الكافي): عن الباقر عليه السلام: «في هذه الآية دَلالة على أنّ أصحاب محمّد صلى الله عليه وآله قد اختَلفوا مِن بَعْده، فمِنهم مَن آمن، ومِنهم مَن كَفَر»[1].

عن العيّاشي: سُئِل أمير المؤمنين عليه السلام يوم الجَمَل: كَبّر القَوْم وكبّرنا، وهَلّل القَوْمُ وهلّلنا، وصَلّى القَوْم وصلّينا، فعَلَام نُقاتِلهم؟ فتَلا هذه الآية، ثمّ قال: «نَحْن الّذِين مِن بَعْدهم»، وقال: «فنَحْن الّذِين آمنّا، وهُم الّذِين كَفَروا»[2].

وفي رِوايةٍ، قال: «فلمّا وقع الاختِلاف كُنّا نَحْن أولىٰ بالله عزّ وجلّ وبالنبيّ والكِتاب وبالحَقّ، فنَحْن الّذِين آمنوا، وهُم الّذِين كَفَروا، وشاء الله تعالى قِتالهم بإرادته ومشيئته»[3].

يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُم مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلاَ شَفَاعَةٌ وَٱلكَافِرُونَ هُمُ ٱلظَّالِمُونَ[٢٥٤]

ثُمّ لمّا كان في الآية السّابِقة إشعارٌ بلُزُوم القِتال بَيْن المُؤمنين والكافِرين، ومن الواضِح أنّه مُتوقِّف على صَرْف المال، أردَفه بالأمر بإنفاقه، بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا﴾ في الجِهاد، وسائر سُبُل الخَيْر، شيئاً ﴿مِمَّا رَزَقْنَاكُم﴾ وتفضّلنا به عليكم إحساناً وكَرَماً.

وفيه دَلالة على أنّ كُل ما بأيدي النّاس مِن الأموال، مِن مَواهِب الله وإنعامه عليهم وليس لهم شيءٌ مِنها، وعلى هذا لا ينبَغي أن يصعُب على احدٍ إنفاقه، بَل عليه أن يُنفِقه بسُهُولةٍ وبِلا مِنّة ﴿مِن قَبْلِ أن يَأْتِيَ﴾ يَومٌ فاقِة جَميع النّاس، وغاية استئصالهم، وهُو يَومُ القِيامة، حَيْث إنّه ﴿يَوْمٌ لَا بَيْعٌ﴾ و[لا]

---

١. الكافي ٨: ٣٩٨/٢٧٠، تفسير الصافي ١: ٢٥٨.
٢. تفسير العيّاشي ١: ٥٥٢/٢٥٦، تفسير الصافي ١: ٢٥٨.
٣. أمالي الطوسي: ٣٣٧/١٩٨، تفسير الصافي ١: ٢٥٨.

تِجَارة يُكتَسَب بها ﴿فِيهِ﴾ مالٌ يُفيد أحداً، ويكون فِداء لنَفسٍ ﴿وَلَا خُلَّةٌ﴾ وصَداقة فيه بيْن النّاس، بَل الأخِلّاء يومئذٍ بَعْضُهم لبَعْضٍ عَدُوّ ﴿وَلَا شَفَاعَةٌ﴾ نَافِعة إذ الشُّفَعَاء لا يشفَعون إلّا لِمَن ارْتضى.

والحاصل: أنّه لمّا كانت أسباب جَلْب المَنافِع في الدُّنيا مُنحَصِرةً بالمعاوضات، وعُمْدَتها البَيْع، وبالمُوادّة بالصِّلات والهَدايا، وبالمُعاونة للغَيْر، وعُمْدَتها الشّفاعة، والإنسان مُنقَطِعٌ عن جميعها في الآخرة، فعليه أن يكتسِب نَفْع الآخرة في الدُّنيا بالإنفاق والعَمَل الصّالِح.

ويُحتَمل أن يكون المُراد مِنَ الإنفاق بَذْل جَميع ما كان واجِداً له بعَطاء الله مِنَ النَّفْس في الجِهاد، والقُوى في الطاعات، والعِلْم في هِداية الخَلْق، والمَال لفُقَراء المُؤمنين، والجَاه في قَضاء حَوائِج العِباد، وغير ذلك مِمّا يُمكِن صَرْفه في تَحْصيل مرضاة الله.

﴿وَٱلْكَافِرُونَ﴾ بتَرْك الطّاعة وعدم الإنفاق ﴿هُمُ ٱلظَّالِمُونَ﴾ على أنفسهم ولبُلُوغهم في هذا الوَصْف غايَته، كأنّ المُتّصِّف بهذا الوَصْف صار مُنحَصِراً بهم، لا يشْرَكهم فيه غيرُهم.

وقيل: المُراد مِنَ الكَافِرين المؤمنون التّارِكُون للزّكاة، والتعبير عنهم بالكافِرين للإشعار بأنّ تَرْك الزّكاة بمنزلة الكُفْر بالله. وقال بعضٌ: الحَمْد لله الذي قال: ﴿والكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ ولَم يقُل الظّالِمُون هُم الكافِرُون[١].

ٱللهُ لَا إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي ٱلسَّمَاوَاتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَا يَؤُدُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ[٢٥٥]

ثُمّ أنّه تعالى بعدما ذكَر جُملةً مِنَ الأحكام والقِصَص، عاد إلى بَيان التّوحِيد وصِفاته الكامِلة الجَلاليّة، ليحصُل للقُلُوب نُورٌ ونشَاط، وللصُّدُور انشِراح وانبِساط، بقوله: ﴿ٱللهُ﴾ وفي ذِكْر اسم الجَلالة أوّلاً إشارةٌ إلى التّوحِيد الذّاتي، لإشعار ذِكْره بانفِراده بأنّ المَوجُود القابِل للذِّكر هُو الذّات المُقدّسة، وما سِواه عَدَم مَحْضٍ وليس صِرْف، كما قال: ﴿قُلِ الله ثُمّ ذَرْهُم﴾[٢] الآية.

ثُمّ أشار إلى التّوحيد الصِّفاتي بقوله: ﴿لَا إِلَـٰهَ﴾ ولا مَعْبُود يستحِقّ بذاته عُبُوديّة جميع المَوجُودات

---

١. تفسير الرازي ٦: ٢٠٧.

٢. الأنعام: ٩١/٦.

﴿إِلَّا هُوَ﴾ وَحْده، لا شَريك له في الألوهِيّة، وفيه تنزيهُه مِن جميع النّقائص.

ثمّ بَعْد إثبات الصفات الجَلالِيّة إجمالاً، أثبت له الصِّفات الجَمالِيّة بذِكْر الصِّفة الجَامِعة لها، وهي ﴿ٱلْحَيُّ﴾ قيل في مَعْناه: الدّائِم، البَاقِي، الفَعّال، المُريد. وقيل: إنّه المُدْرِك بذاته، والقادِر بإرادته.

و﴿ٱلْقَيُّومُ﴾ وهُو المُتقوِّم بذاته، المُقوِّم لِكُلّ ما عَدَاه في ماهِيّته ووُجُوده، والعَالِم بتَدبِير جميع الخَلْق وحِفْظهم، فيدُلّ هذا الوَصْف على كَوْن ذاتِه المُقدّسة قَدِيمةً، أزليّةً، دَائِمةً، غَنِيّةً، قَادِرةً، عَالِمةً.

رُوي عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال: «لمّا كان يَومُ بَدْرٍ قاتلْتُ، ثمّ جئتُ إلى رسُول الله صلى الله عليه وآله أنظُر ماذا يصنَع ـ قال ـ فجئتُ وهُو ساجِد، يقول: يا حَيّ يا قَيّوم؛ لا يزيد على ذلك، ثمّ رجَعتُ إلى القِتالِ، ثمّ جئتُ وهُو يقُول ذلك، فلا أزال أذهبُ وأرجِع وأنظُر إليه، وكان لا يَزِيد على ذلك، إلى أن فتَح الله له»[١]. وقال بعضٌ: إنّه الاسمُ الأعظم[٢].

رُوي عن ابن عبّاس أنّه كان يقول: أعظَم أسماء الله الحَيّ القَيّوم[٣].

ونُقِل أنّ عيسى عليه السلام إذا أراد أن يحْيِي المَوْتىٰ يقول: يا حَيّ يا قَيوم[٤].

وقيل: دُعاء مَن خاف الغَرَق في البَحْر: يا حَيّ يا قَيّوم[٥].

ثُمّ قرّر تعالى صِفة القَيْمُومِيّة بذِكْر لازِمها، بقوله: ﴿لَا تَأْخُذُهُ﴾ ولا تَعْترِيه ﴿سِنَةٌ﴾ وفُتُور، أو نُعاس ﴿وَلَا نَوْمٌ﴾ قيل: هُو كِناية عن عَدَم غَفْلته عن تَدبِير الخَلْق[٦]، كما أنّه يُقال لمَن غَفَل عن شيءٍ وضيّعه: إنّك وَسْنان نائِم.

ثُمّ أكّد قَيْمُومته، واحتَجّ على تفرّده بالتّدبِير بأنّ ﴿لَهُ مَا فِى ٱلسَّمَاوَاتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ إذْ هُو خَالِق جميع المُمْكِنات ومُبدِعها، فكُلّها مِلْكه وتحت قُدْرَته وسُلْطانه، ليس لغَيْره في عَوالِم الوُجُود تَصَرُّف ولا حُكْم ولا نُفُوذ إرادة.

ثُمّ لمّا كانَتْ قُرَيْش يعبُدُون الأصنام بزَعْم أنّها شُفَعَاء عِنْد الله، عَظّم كِبْرياءه، وأثبت توحُّده في العِبادة، وأنكر عليهم اعتِقادَ كَوْنِهم شُفَعاء بقوله: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُ﴾ في شيءٍ مِنَ الأشياء وأمرٍ مِنَ الأمور ﴿إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ وإجازَته ورِضاه، ومِنَ الواضِح أنّه لا إذن إلّا لِمَن له كَرَامة لَدَيْه، ومَقام مَحمُود عِنْده، كالنبيّ وخُلَفائه وصُلَحاء أمّته، دون الأصنام والكُفّار.

---

١. تفسير الرازي ٧: ٣. ٢. تفسير روح البيان ١: ٤٠٠. ٣. تفسير الرازي ٧: ٣.

٤ و٦. تفسير الرازي ٦: ١٧٦.. تفسير روح البيان ١: ٤٠٠. ٦. تفسير الرازي ٧: ٦.

عن النبيّ ﷺ، قال: «أتاني آتٍ [من عند ربي] فخيّرني بيْن أن يَدخُل نِصْفُ اُمّتي الجَنّة وبيْن الشُّفاعة، فاختَرتُ الشّفاعة»[١].

ثُمّ بيّن سَعَة عِلمه، وقُصور غيره عن مَعْرفة شيءٍ بغير إفاضةٍ منه بقوله: ﴿يَعلَمُ ما بَيْنَ أَيْـدِيهِمْ﴾ قيل: المُراد ماكان قَبْلهم في الوُجود، ومِن قوله: ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ ما لَم يكُن بَعْد.

وهُو مَروِيّ عن الرِّضا عليه السلام[٢]، وقيل: ﴿ما بَيْنَ أيدِيهِم﴾ أي الآخِرة؛ لأنّهم يَقْدمون عليها ﴿وَمَا خَلفَهُم﴾ أي الدُّنيا؛ لأنّهم يَخلُفُونها وراء ظُهُورهِم[٣].

﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِنْ عِلْمِهِ﴾ ولا يطّلِعون على جُزءٍ مِن مَعْلُوماته ﴿إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ أن يَعلمه غيرُه، ويطّلِع عليه.

عن القمّي رحمه الله: إلّا بما يُوحي إليهم[٤]. وفيه دَلالةٍ واضِحة على أنّ جميع العُلُوم بإفاضته تعالى، ولولا إفاضته لَم يَعْلم أحدٌ شيئاً حتى نَفْسه.

ثمّ أوضح سُبحانه سَعَة مُلْكه، وعَظَمة سُلطانه، وكَمال إحاطته وعلمه بقوله: ﴿وَسِعَ﴾ وأحاط ﴿كُرْسِيُّهُ﴾ وهُو اسمٌ للسّماء، الذي دُون العَرْش، وفَوْق سائر المَوجُودات ﴿السَّمَاوَاتِ﴾ وما فيها ﴿وَٱلأَرْضَ﴾ وما عليها. فعليه يكون الكُرسِيّ مُحيطاً بجميع المَوجُودات سِوى العَرْش، وإنّما سُمّيت تلك السّماء باسم الكُرسِيّ تشْبيهاً له بمَقرّ سَلْطَنته.

وعن العيّاشي، عنه عليه السلام: أنّه سُئِل: إنّ السّماوات والأرض وَسِعْنَ الكُرسِيّ، أم الكُرسّي وَسِع السّماوات والأرض؟ فقال: «إنّ كُلّ شَيءٍ في الكُرسِيّ»[٥].

وعن القُمّي رحمه الله: أنّ عليّاً عليه السلام سُئِل عن هذه الآية، فقال: «السّماوات والأرض وما فيهما في جَوْف الكُرسِيّ، وله أربعة أملاك يحمِلونه بإذن الله»[٦].

وفي الحَديث النّبَويّ: «ليس[٧] السّماوات السّبْع، والأرضون السّبْع مع[٨] الكُرسِيّ إلّا كحَلْقةٍ مُلْقاة في فَلَاة، وفَضَل العَرْش على الكُرسِيّ كفَضْل تِلْك الفَلَاة على تِلْك الحَلْقة»[٩].

---

١. تفسير روح البيان ١: ٤٠٢.
٢. تفسير القمي ١: ٨٤، تفسير الصافي ١: ٢٥٩.
٣. تفسير الرازي ٧: ١٠.
٤. تفسير القمي ١: ٨٤، تفسير الصافي ١: ٢٥٩.
٥. تفسير العياشي ١: ٥٥٨/٢٥٨، تفسير الصافي ١: ٢٦٠.
٦. تفسير القمي ١: ٨٥، تفسير الصافي ١: ٢٦٠.
٧. في تفسير روح البيان: ما.
٨. في تفسير روح البيان: من.
٩. تفسير روح البيان ١: ٤٠٤.

عن (التّوحيد): عن الصادق عليه السلام أنه سُئِل عَن العَرْش والكُرسِيّ ما هُما؟ فقال: «العَرْش في وَجْهٍ هُو جُمْلة الخَلْق، والكُرسِيّ وِعاؤه. وفي وَجْهٍ [آخر] العَرْش هُو العِلْم الذي أطْلَع اللهُ عليه أنبياءه ورُسُله وحُجَجه، والكُرسِيّ هُو العِلْم الذي لَم يُطلِع عليه أحداً مِن أنبيائه ورُسُله»[1].

ثُمّ بيّن سُبحانه كَمال قُدْرَته بقوله: ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ﴾ ولا يَشُقّ عليه إقامة السّماوات والأرض و﴿حِفْظُهُمَا﴾ عن الخَلَل والفَساد.

ثُمّ بيّن كَمال تَعاليه وعَظَمَته بَعْد ذِكْر تِلْك الصِّفات بقوله: ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ﴾ بذاته عن الأنداد، وبصِفاته عن الأشياء، وهُو المُتعالِي بالقَدْر والشأن عن جميع ما سِواه، وهُو ﴿الْعَظِيمُ﴾ بالمَهابة والقَهر والكِبْرِياء، ترتَعِد مِن خَشْيَته جميعُ الأشياء.

في بيان وجه فضيلة آية الكرسي على غيرها من الآيات

ثُمّ لمّا كانت الآية الكريمة حَاوِية لجميع المَعارِف الإلٰهيّة، مُتضمِّنة لأُمّهات مَسائِل العُلُوم الرّبّانية ـ لكَوْنها ناطِقة بُوجُوده تعالى وتَفرُّده، ووُجُوب ذاته وحياته، وكَمال صِفاته، وتنَزُّهِه عن التّحيُّز والحُلُول والتّغيير والفُتُور، وكَوْنه مُوجِداً لجميع الكائنات قائِماً بتدبيرها، وكَوْنه مَالِك المُلْك والمَلَكوت، ومُبدِع الأُصول والفُرُوع، ذا البَطْش الشّدِيد، لا يشفع عِنْده إلّا لِمَن أذِن له، عالماً بجميع الأشياء جَليِّها وخَفِيِّها، واسِع المُلْك والقُدْرة، ولا يَشقّ عليه شَاقٌّ، ولا يَشْغَله شأنٌ عن شأن، مُتعالِياً عمّا تَناله الأوهام، عظِيماً لا تُدرِكه العُقُول والأفهام ـ كانت لها فَضِيلةٌ فائِقة، وعَظَمَةٌ كامِلة على سائر الآيات.

كما رُوي عن النبيّ صلى الله عليه وآله: «أنّ أعظم آيةٍ في القرآن آية الكُرسِيّ، مَن قرأها بعَث الله مَلَكاً يكتُب مِن حسَناته ويَمْحُو مِن سيِّئاته إلى الغَد مِن تِلْك السّاعة»[2].

وروىٰ كثيرٌ مِن العامّة، عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه تَذاكر الصَحابة أفضَل ما في القُرآن، فقال عليّ عليه السلام: «أين أنتُم مِن آية الكُرسِيّ؟».

ثمّ قال: «قال رَسُول الله صلى الله عليه وآله: يا عليّ، سَيِّد البَشَر آدم، وسَيِّد العَرَب مُحمّد ولا فخر» إلى أن قال: «وسيِّد الكَلام القُرآن، وسَيِّد القُرآن البَقرة، وسيِّد البقرة آيةُ الكُرسيّ»[3].

وفي رِوايةٍ أُخرىٰ، عنه صلى الله عليه وآله: «يا عليّ، علِّمها ولدك وأهلك وجِيرانك، فما نزَلتْ آيةٌ أعظَم منها»[4].

---

١. معاني الأخبار: ٢٩/١، تفسير الصافي ١: ٢٦٠. ٢. تفسير أبي السعود ١: ٢٤٩.
٣. تفسير الرازي ٧: ٣. ٤. تفسير روح البيان ١: ٤٠٦.

لَا إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا وَٱللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ[٢٥٦]

ثُمَّ أنَه بَعْد ما بيّن الله تعالى أُصولَ المَعارِف الحقّة ـ مِن تَفرُّده بذاته وتَعاليه بالشؤون الجَليلة الجَميلة التي تحكُم بها العُقول السَليمة، وجُملةً مِنَ الأحكام التي تُوافِق العَادات والحِكَم الكامِلة، وكان فيها الدَّلالة الواضِحة على صِحَة دِين الإسلام، بحيث لَم يكُن لأحدٍ مَجالُ الشَك والتردِيد فيه ـ بيّن أنه لا عُذر في الإقامة على الشِّرْك وعدم قَبول الإسلام بقوله: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِى﴾ قَبول ﴿ ٱلدِّينِ﴾ القَويم الذي جاء به محمّد ﷺ، ولا مِصداق لمَفهُومه، حيث إنّه بالأدلّة العَقليّة والآيات الباهِرة ﴿قَد تَّبَيَّنَ﴾ واتّضَح ﴿ٱلرُّشْدُ﴾ وسَبِيل الحَقّ، وهُو مِلّة التَوحِيد ودِين الإسلام، وتميّز ﴿مِنَ ٱلْغَىِّ﴾ وطَرِيق الضَّلال، وهُو مَذهَب الوثنيّة، وسائر الأديان الباطِلة.

إن قيل: في تشرِيع الجَهاد إكراهُ الكُفّار، فكيف يُنفىٰ مِصداقه؟

قُلنا: ليس الإكراه إلزام الغَيْر بما لا يرى فيه صَلَاحاً وخَيْراً، وبَعْد وُضوح الحَقّ يكُون الامتِناع عن قَبوله عِناداً ولَجاجاً، فيكون قَتْل المُعانِد الجَاحِد عُقُوبةً له كسائر الحُدود المَشرُوحة لا إكراهاً على قَبول الدِّين، فالإسلام للكَافِر تَوْبة مِن تِلْك المَعْصية.

قيل: إنّ الآية نزلَتْ في المَجُوس، وأهل الكِتاب فإنّهم لا يُكرَهون على الإسلام، بَل تُقبل مِنهم الجِزْية.

وفيه: أنّه لا يندَفِع به الإشكال، لوُضُوح صِدْق الإكراه عِنْد الإلزام بأحد الأمرين تَخْييراً، مع أنّ الإكراه على الإسلام يتحقّق بتَوَعُّد المُكْرَه وتَخْيِيره بَيْن القَتْل وبَذْل المال مع الصَّغار.

رُوي أنّه كان لأنصاري مِن بني سالم بن عَوْف ابنان، قَد تنصَرا قَبْل مَبعَثه ﷺ، ثمّ قَدِما المدينة فألزَمهما أبوهما، وقال: والله لا أدَعكُما حتى تُسْلِما، فأبَيا، فاختَصموا إلى رسُولِ الله ﷺ، فنزلَت، فخَلّاهما[1].

أقول: هذا مَحمُول على ماقَبْل تشرِيع الجِزْية على أهل الكِتاب، ويُمكِن أن يُراد بالدِّين التَشيُّع والوِلاية.

---

١. تفسير أبي السعود ١: ٢٤٩.

﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ﴾ ويُعرِض عن كُلّ معبود غَيْرِ الله، وكُل مُطْغٍ عَن طاعَة الله مِنَ الشَياطين والأصنام ومَرَدة الجِنّ والإنس وأئمّة الضَّلال.

وعن القُمّي: هُم الذِين غَصَبوا آلَ محمّدٍ حَقّهم[1].

﴿وَيُؤمِن بِاللهِ﴾ إيماناً خالِصاً صادِقاً. ومِنَ المَعْلوم أنّ الإيمان الحَقيقي به سُبحانه مُستَلزِم للإيمان بكُتُبه ورُسُله وحُجَجه وأحكامه، والعَمَل بها، وفي تقديم الكُفْر بالطّاغُوت على الإيمان بالله إشعارٌ بتقدّم التّخليه على التّحلية والتبرّي على التولّي ﴿فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ﴾ وبالَغ في الأخذ ﴿بِالْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ والحَلْقة الوَكيدة التي ﴿لَا ٱنفِصَامَ﴾ ولا انقِطاع ﴿لَهَا﴾ أبداً.

وكما أنّ المُتمسّك بالحَلْقة الوَكيدة، والحَبْل المُحْكَم مأمونٌ مِنَ التَردّي في البِئر، أو الغَـرَق فـي البَحْر، كذلِك المُلازِم للعَقائد الحَقّة مِن التّوحِيد والرِّسالة والوِلاية مأمون مِنَ التَردّي في جُبّ الهَوى وبَحْر الفِتَن، وأمواج الشَّهَوات في الدُّنيا، وفي نار جَهنّم في الآخرة.

عن النبيّ ﷺ: «مَن أحبّ أن يستَمْسِك بالعُرْوة الوُثْقىٰ التي لا انفِصام لها، فليتمَسّك بوِلاية أخي ووَصِيّي عليّ بن أبي طالب، فإنّه لا يَهلَك مَن أحبّه [وتولّاه]، ولا ينجُو مَن أبغضَه وعاداه»[2].

وعن الباقر عليه السلام: «هِي مَودّتُنا أهل البَيْت»[3].

ثُمّ وَعَد الله المُؤمنين وأوعَد الكافِرين بقوله: ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لمَقال المُـؤمن والكـافِر مِـن إظـهار الإيمان والكُفْر ﴿عَلِيمٌ﴾ بما في ضمائِرهم وقُلُوبهم مِن العقائد الحَـقّة والبـاطِلة، والنِّـيّات الحَسَـنة والسَّيِّئة، ومِن حُبّ الله وبُغْضه، ووِلاية رَسُوله وأوليائه ومُعاداتهم، فيجزي كُلّاً على وَفْق قَوْله وعَقْد قَلْبه وعَمَله. وفيه غاية التَرغِيب إلى الإيمان والطّاعة،والتّرهِيب من الكُفْر والمَعصِية.

وعن ابن عبّاس رضي الله عنه، قال في تفسيره: كان رَسُول الله ﷺ يُحِبّ إسلام أهل الكِتاب مِـنَ اليَـهُود الّذِين كانوا حَوْل المَدينة، وكان يسأل الله ذلِك سِرّاً وعَلانية. فمعنىٰ قوله: ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ يُريد: لِدُعائِك يا محمّد بحِرصِك عليه واجتِهادك[4].

ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَاتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ

---

١. تفسير القمي ١: ٨٤، تفسير الصافي ١: ٢٦١.
٢. معاني الأخبار: ١/٣٦٨، تفسير الصافي ١: ٢٦٢.
٣. مناقب ابن شهر آشوب ٤: ٣، تفسير الصافي ١: ٢٦٢.
٤. تفسير الرازي ٧: ١٧.

ٱلطَّـٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ[٢٥٧]

ثُمّ بالَغ سُبحانه في التّرغيب والتّرهيب بقوله: ﴿**ٱللَّهُ**﴾ تعالى بلُطْفه وإحسانه ﴿**وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا**﴾ ومُدَبِّر اُمور الّذِين أراد إيمانهم. أو المُراد مُحِبّ الّذِين التزَموا بالإيمان وناصرهم.

ومِن تدبيره لاُمورهم، أو مِن ثَمَرات حُبّه إيّاهم أنّه: ﴿**يُخْرِجُهُم**﴾ بتَوْفِيقه وتَكْميل عُقُولهم ﴿**مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ**﴾ ظُلْمة الضّلال والجَهْل والمَعاصي ﴿**إِلَى ٱلنُّورِ**﴾ الذي يَعُمّ نُور الإيمان والإيقان، والطّاعة والعِلْم.

عن الصادق، عن آبائه، عن أمير المؤمنين عليهم السلام قال: «المُؤمن يتقلّب في خَمْسةٍ مِنَ النُّور: مَدْخَله نُور، ومَخْرَجه نُور، وعِلْمه نُور، وكَلامه نُور، ومَنْظَره يومَ القِيامة إلى النُّور»[١].

وقال بعضٌ: إنّ المُؤمنين ثلاثُ طوائِف: عَوامّهم، وخَواصّهم، وخَواصّ الخواصّ منهم. فالعَوامّ يُخرِجهم الله مِن ظُلُمات الكُفْر والضّلالة إلى نُور الإيمان والهِداية، والخَواصّ يُخرِجهم مِن ظُلُمات الصِّفات النّفسانيّة والجِسمانيّة إلى نُور الرّوحانيّة الربّانيّة، وخَواصّ الخواصّ يُخرِجهم مِن ظُلُمات وُجودهم إلى نُور الفَنَاء في الله، وكُلّها مِن شؤون رُبُوبيّته ووِلايته لهم[٢].

﴿**وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا**﴾ وخَبُثَتْ فِطْرَتهم، وسَبَق في عِلْمه تعالى ضَلالتهم، فيكِلهم الله إلى أنفسهم، فعِنْد ذلك ﴿**أَوْلِيَآؤُهُمُ**﴾ ومُدَبِّر اُمورهم ﴿**ٱلطَّـٰغُوتُ**﴾ مِن الشّياطِين ورُؤساء الضلال.

عن الباقر عليه السلام: «أولياؤهم الطّواغيت»[٣].

وعن القُمّي رحمه الله: هُم الظّالِمون لآل محمّد ﴿**أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّـٰغُوتُ**﴾ وهُم الّذِين تَبِعوا مَن غَصَبهم[٤].

ومِن شؤون وِلايتهم لإهل الكُفْر أنّهم ﴿**يُخْرِجُونَهُم**﴾ بوَساوِسهم وتَسْوِيلاتهم وسائر وسائل الإضلال ﴿**مِّنَ ٱلنُّورِ**﴾ الذي هُو الإيمان والعقائِد الحَقّة ﴿**إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ**﴾ الثلاث المَذكُورة.

قيل: إنّ القضيّة الاُولى نزلَتْ في قَوْمٍ مِن أهل الكِتاب آمنوا بالنبيّ، والاُخرى في قَوْمٍ ارتَدّوا عن الإسلام.

عن الصادق عليه السلام: «النُّور آل محمّد صلّى الله عليه وآله، والظُّلُمات عَدُوّهم»[٥].

---

١. الخصال: ٢٠/٢٧٧، تفسير الصافي ١: ٢٦٢.
٢. تفسير روح البيان ١: ٤٠٩.
٣. الكافي ٨: ٤٣٦/٢٨٩، تفسير الصافي ١: ٢٦٢.
٤. تفسير القمي ١: ٨٥، تفسير الصافي ١:٢٦٢.
٥. تفسير العياشي ١: ٥٦٥/٢٦٠، تفسير الصافي ١: ٢٦٢.

وعن ابن أبي يَعْفُور، قال: قلتُ لأبي عبدالله عليه السلام أُخالِطُ النّاس، فيكثُر عَجَبي مِن أقوامٍ لا يتولَّونكم، و يتولَّون فُلاناً وفلاناً، لهم أمانةٌ وصِدْقٌ وَوَفاءٌ، وأقوام يتولَّونكم ليست لهم تِلكَ الأمانة ولا الوَفاء و الصِدْق!

قال: فاستَوى أبو عبدالله عليه السلام جالِساً، فأقبل عَلَيَّ كالمُغْضب[1]. ثمّ قال: «لا دِين لمَن دَان الله بوِلاية إمامٍ جائرٍ ليس مِن الله، ولا عَتَب على مَن دان الله بوِلاية إمامٍ عادِلٍ مِن الله».

قلتُ: لا دِين لأُولئك، ولا عتَبَ على هؤلاء؟ قال: «نعم، لا دِين لأُولئك، ولا عَتَب على هؤلاء».

ثمّ قال ـ: «ألا تسمَع لقَوْل الله عزّ وجلّ: ﴿**ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ**﴾؟ يعني ظُلُمات الذُّنُوب إلى نُور التَّوبة والمَغْفِرة بولايتهم كُلّ إمامٍ عادِلٍ مِن الله عزّ وجلّ، وقال: ﴿**وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ**﴾ إنّما عنىٰ بهذا أنّهم كانوا على نُورِ الإسلام، فلمّا أن تولَّوا كُلّ إمامٍ جائرٍ ليس مِنَ الله، خَرَجوا بوِلايتهم مِن نُور الإسلام إلى ظُلُمات الكُفْر، فأوجَب الله تعالى لهم النّار مَع الكُفّار»[2].

وزاد العيّاشي بَعْد قوله: إلى الظلمات، قال: قلتُ: أليسَ الله عنىٰ بهذا الكافِر[3] حينَ قال: ﴿**وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا**﴾؟ قال: فقال: «وأي نُورٍ للكافِر وهُو كافر به[4] فأُخرِج منه إلى الظُّلُمات؟! إنّما عنىٰ بهذا ...»[5] إلى آخِر الحديث.

﴿**أُوْلَٰٓئِكَ**﴾ الكافِرون بالله ورُسُله، أو بوِلاية وُلاةِ الحَقّ ﴿**أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ**﴾ ومُلازِمُوها ﴿**هُمۡ**﴾ خاصّة ﴿**فِيهَا خَٰلِدُونَ**﴾ مَاكِثون أبداً.

وفي روايةٍ: «فأعداء أمير المُؤمنين عليه السلام هُمُ الخالِدون في النّار، وإن كانوا في أديانهم على غاية الورَع والزُهْد والعِبادة»[6].

قيل: إنّه تعالى لَم يَقُل بَعْد قَوْله: ﴿**يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ**﴾ أُولئك أصحاب الجَنّة هُم فيها خالِدون تعظيماً لشأن المُؤمنين وإشعاراً بأنّ البَيان[7] لا يفي بما أُعدّ لهم مِنَ الثَواب[8].

---

١. في الكافي وتفسير الصافي: كالغضبان.
٢. الكافي ١: ٣/٣٠٧، تفسير الصافي ١: ٢٦٢.
٣. في تفسير العياشي: بها الكفار.
٤. أي بالاسلام.
٥. تفسير العياشي ١: ٥٦٤/٢٥٩، تفسير الصافي ١: ٢٦٣.
٦. تفسير العياشي ١: ٥٦٦/٢٦١، تفسير الصافي ١: ٢٦٣.
٧. زاد في تفسير روح البيان: اللفظي.

ثمَ اعلَمْ أنَ الأشاعرة استَدلَوا بقوله: ﴿يُخرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إلى النُّورِ﴾ على أنَ الإيمان بخَلْقِ الله مِن غَيْر تأثير لإرادة العَبْد وقُدْرته. والمُعتزلة استَدلَوا بقوله: ﴿يُخرِجُونَهُم مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾ على أنَ الكُفر والعِصيان مُستَنِدان إلى الخَلْق استقلالاً، مِن غَيْر دَخْل الله تعالى فيهما، وكِلاهُما في غاية الفسَاد لوُضُوح استِناد الإيمان والكُفر إلى إرادة العَبْد وقُدْرَته وانتِهائهما بالتَسبيب إلى إرادةالله.

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِى حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِى رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّىَ الَّذِى يُحْيِىْ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِى وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللهَ يَأْتِى بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِى كَفَرَ وَاللهُ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * أَوْ كَالَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِىْ هٰذِهِ اللهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْماً فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ[٢٥٨و٢٥٩]

ثمَ أنه تعالى استَشْهد على وِلايته للمُؤمنين، ووِلاية الطَاغُوت للكافِرين بقِصَة مُحاجَة إبراهيم ومَلِك زمانِه حيث قال مُخاطباً لنبيّه: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ قد مَرَ سابقاً أنَ في هذا التَعبير إشعاراً بإحاطته صَلَواتُ الله عليه في عالم الأشباح بجميع وقائع هذا العالَم، وحُضُوره عندها.

في محاجّة نمرود إبراهيم

وقيل: إنَ المَعنىٰ: ألم ينتَهِ عِلْمُك الذي يُضاهي الرؤية والعِيان، الحاصِل بسبَب إخبارنا، المُوجب لكمَال الإيقان ﴿إِلَى﴾ نمرود بن كَنْعان ﴿الَّذِى حَاجَّ﴾ وجادَل وخاصَم ﴿إِبْرَاهِيمَ﴾ لادّعائه الرُّبوبيّة لنفسه ﴿فِى﴾ شأن ﴿رَبِّهِ﴾ وفي التَعريض لعُنوان الرُّبوبيّة مع إضافته إليه عليه السلام تَشْريف له، وإيذان بتأييده بالحُجَة. وكانت مُخاصَمة نمرود لأجل ﴿أَنْ آتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ﴾ والسَلْطنة الواسِعة العظِيمة فاغتَرَ بها وبَطِر حتى ادّعى الرُّبوبيّة.

عن مُجاهِد: أنَه لَم يملِك الدُّنيا إلّا أربعة: مُسلِمان وكافِران، فالمُسلِمان: سُلَيمان وذو القَرنَين،

---

٨. تفسير روح البيان ١: ٤٠٩، وفيه: أعدّ لهم في دار الثواب.

والكافِران: نمرود وبُخْت نَصَر، وهُو شدّاد بن عَاد الذي بنىٰ إرَم في بَعْض صَحاري عَدَن[١].

وعن البَرقي، مَرفوعاً، ما يقرُب مِنه، إلى قوله: وبُخْت نَصَر[٢].

ونُقِل: أنّ نمرود أوّل مَن وَضع التّاج وتجبّر، ودعا النّاس إلى عِبادته[٣].

وقيل: أنّ المُراد أنّه حاجّ إبراهيمَ عليه السلام شكرَ الله لأجل أن آتاه المُلْك، على طريقة العَكْس، كقولك: عادَيْتَني لأنّي أحسنتُ إليك.

قيل: إنّ المُحاجّة كانتْ بَعْد كَسْر إبراهيم عليه السلام الأصنام، وقَبْل إلقائه في النّار.

رُوي مِن طُرُق العامّة أنّه عليه السلام لمّا كسَر الأصنام سَجَنه نمرود، ثمّ أخرَجه ليُحرِقه، فقال: مَن ربُّك الذي تدعونا إليه؟[٤].

وعن الصادق عليه السلام أنّه كان بعد إلقائه في النّار[٥].

ثُمّ شرَح الله المُحاجّة بقوله: ﴿إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ﴾ بَعْد سؤال نمرود عَن ربّه: ﴿رَبِّيَ﴾ القادِر ﴿الَّذِي يُحْيِي﴾ المَيْت ﴿وَيُمِيتُ﴾ الحَيّ، فاستدَلّ بفِعْله الذي لا يُشارِكه فيه أحدٌ مِنَ الخَلْق. وتقدِيم الإحياء لكَونْ القُدرة فيه أظهر.

فعارَضه نمرود و﴿قَالَ﴾ لِغَاية بَلادَته، أو للتّمْوِيه والتّلبِيس على النّاس: ﴿أَنَا﴾ أيضاً ﴿أُحْيِي﴾ المَيْت ﴿وَأُمِيتُ﴾ الحَيّ.

رُوي أنّه دعا برجُلَين قد حبَسهما، فقتل أحدهما، وأطلق الآخر، فقال: قد أحيَيْتُ هذا وأمتُّ هذا[٦].

وعن الصادق عليه السلام: «أنّ إبراهيم عليه السلام قال له: أحْيِ مَن قتَلْتَه إن كُنتَ صادِقاً»[٧].

ثُمّ أعرَض عن جَواب مُعارَضته الفاسِدة، لكَونْ بُطلانِها مِنَ الظُّهور بحَيْث لا يكاد يخفىٰ على أحدٍ، وأتىٰ بحُجّةٍ لا يقدِر الأحمق على مُعارضتها بمِثْل هذا التّمْوِيه ﴿قَالَ إبراهِيمُ﴾ عليه السلام: إنْ كُنتَ قادِراً على مِثْل مَقدُوراتِ الله ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ﴾ إلى المَغرِب قَسْراً، بمشيئته وقُدْرته، لُوضُوح أنّ الحرَكة ليستْ مِن لَوازِم ذاتِ الجِسْم، وإلّا لَم يُوجَد جِسْمٌ مُنفكّاً عن الحرَكة، وهُو خِلاف الحِسّ والوِجدان، فلابدّ أن يكون مُحرِّك جُرْم الشّمس مَع كمال عَظَمَته هُو خالِقُها، وليسَ إلّا الله

---

١. تفسير روح البيان ١: ٤١٠.
٢. الخصال: ٢٥٥/١٣٠، تفسير الصافي ١: ٢٦٣.
٣. تفسير روح البيان ١: ٤١٠، وفيه: وتجبّر، وادعى الربوبية.
٤. تفسير روح البيان ١: ٤١٠.
٥. مجمع البيان ٢: ٦٣٥، تفسير الصافي ١: ٢٦٣.
٦. تفسير روح البيان ١: ٤١٠.
٧. مجمع البيان ١: ٦٣٦، تفسير الصافي ١: ٢٦٣.

الذي هُو خالِقُ سائر المَوجُودات، فهو بُقدرَته يُسيِّرها وبحِكْمَته يُحرِّكها إلى المغرِب. فإن كُنتَ تدّعي الألُوهيّة المُلازِمة للقُدرَة الكامِلة ﴿فَأْتِ﴾ وسيِّر ﴿بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ﴾ إلى المَشرِق.

﴿فَبُهِتَ﴾ وتحيَّر المَلِك ﴿ٱلَّذِى كَفَرَ﴾ في الجَواب، وصار كالمَدهُوش، لَم يَجِد للرَدّ مقالاً، وللمُعارَضة مَجالاً؛ لبَداهة أنّه ليسَ للبَشَر التَصرُّف في الفَلَكيّات، سيّما مِثْل هذا التَصرُّف ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى﴾ ولا يُوفِّق للرُّشْد إلى صِراط الحَقّ وطريق الجَنّة ﴿ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ على أنفسهم باختيار الكُفْر والضَّلال؛ لخُبْث طِينَتهم، وسُوء سَريرَتهم، فاستَحقّوا الخِذْلان والنَّكال.

قصّة النبي الذي مرّ على قرية

ثُمّ أنّه تعالى ـ بَعْد إقامة البُرهان على التوحِيد؛ بذِكْر مُحاجّة إبراهيم عليه السلام ـ أخذ في إقامة البُرهان على إمكان المَعَاد بذِكْر قِصّةٍ مُتضمِّنةٍ لوُقُوع نظيره الذي هُو أقوىٰ البَراهين على إمكانه، بقوله: ﴿أَوْ﴾ رأيت ﴿كَـ﴾ النبيّ ﴿ٱلَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ﴾ بَيْت المَقْدِس. وهَل اطلَعْتَ على لُطْف ربّك باحدٍ مِثْل لُطفه بذلك النبيّ؟ حَيْث إنّ الله هَدَاه إلى المَعرِفة الكامِلة بالمَعَاد، وكيفِيّة البَعْث وإحياء الرِّمَم، حتى بلَغ مِن مَرْتبة عِلْم اليَقِين إلى درَجة عَيْن اليقِين، وذلك من شؤون وِلايته للمُؤمنين.

رُوي أنّ بني إسرائيل لمّا بالَغوا في تعاطِي الفسَاد سلّط الله عليهم بُخْت نَصَر، فسَار إليهم في سِتّمائة ألف راية، حتى وطِئ الشّام، وخرّب بَيْت المَقْدِس، وجعَل بني إسرائيل أثلاثاً: ثُلُثاً منهم قتلَهم، وثُلُثاً منهم أقرّهم بالشّام، وثُلُثاً منهم سبَاهم. وكانوا مائة ألفِ غُلامٍ يافِع وغَيْر يافع، فقسّمهم بَيْن المُلوك الّذِين كانوا معه، فأصاب كُلّ مَلِك مِنهم أربعة غِلْمَة، وكان عُزَير مِن جُملَتهم[1].

وعن ابن عبّاس: أنّه كان مِن عُلَمائهم[2]، وجاء بهم إلى بَابِل، فلمّا نجّاه الله مِنهم بَعْد حِين مرّ بحِماره على بلْدَة بَيْت المَقْدِس، فرآها ﴿وَهِيَ خَاوِيَةٌ﴾ وساقِطة بحِيطانها ﴿عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ وسقُوفها، خالية مِن أهلها. فلمّا رأىٰ العُزَير الأجساد البالية ﴿قَالَ﴾ ـ استِعظاماً لقُدْرَة الله، واعتِرافاً بقُصُور فَهْمه عن كيفِيّة الإحياء، أو تلهُّفاً على القَرْية وأهلها، وتشوقاً إلى عِمارتها مع استِشعار اليأس عنها، لاشكّاً وإنكاراً ـ: ﴿أَنَّىٰ يُحْيِى هَٰذِهِ﴾ العِظام، أو هذه القَرية، وكيف يبعَثها ﴿ٱللَّهُ﴾ أو يُعمِّرها ﴿بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ وبَلائها، أو بَعْد خرَابها وعَفْو آثارها.

عن ابن عبّاس رضي الله عنه: أنّ عُزَيراً دخَل يوماً تِلْك القَرية، ونزَل تَحْت شَجَرة وهُو على حِمار، فربَط

---

١. تفسير روح البيان ١: ٤١٢.

٢. تفسير الرازي ٧: ٣١.

حِماره، وطاف في القَرية، فلَم يَرَ فيها أحداً، فعَجِب من ذلك، وقال: ﴿أَنَّىٰ يُحْيِي هٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ لا على سبِيل الشكّ في القُدْرة، بَل على سبِيل الاستِبعاد بحسَب العَادة، وكانت الأشجار مُثمِرة، فتناوَل مِنَ الفَاكِهة التِّين والعِنَب، وشَرِب مِن عصِير العِنب، ونام[١] ﴿فَأَمَاتَهُ اللَّهُ﴾ وقبَض رُوحه في مَنامه، وأبقاه على المَوت ﴿مِائَةَ عَامٍ﴾.

وعن النبيّ ﷺ، في حديثٍ: «فبعَث الله عُزَيراً نبيّاً إلى أهل القُرىٰ التي أمات الله عزّ وجلّ [أهلها]، ثمّ بعثَهم، وكانوا مِن قُرىً شتّىً، فهرَبوا فَرَقاً مِنَ المَوت فنزلوا في جِوَار عُزَير، وكانوا مُؤمنين، وكان [عزيز] يختَلِف إليهم ويسمَع كلامهم وإيمانهم فأحبّهم على ذلك وآخاهم عليه، فغاب [عنهم] يوماً واحداً، ثمّ أتاهم فوجَدهم صَرْعىً مَوْتى، فحزِن عليهم وقال: ﴿أَنَّىٰ يُحْيِي هٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ تعجُّباً من[٢] حَيْث أصابهم، وقد ماتوا أجمعين في يومٍ واحد، فأماته الله»[٣] الحديث.

وفي رِوايةٍ ذُكِر فيها تسلُّط بَخْت نُصَر على بني إسرائيل، وقَتْله إيّاهم، وسَبْيِه ذَرارِيهم، واصطفى مِن السَّبْي دَانْيال وعُزَيراً، وهُما صغيران، وكان دَانْيال أسيراً في يَده سبعين[٤] سنة ـ إلى أن قال ـ: «وفوّض بَخْت نُصَر إليه أُمور مَمَالِكه، والقضاء بَيْن النّاس، ولَم يلْبَث إلّا قليلاً حتّى مات، وأُفضي الأمر بَعْده إلى عُزَير، فكانوا يجتمِعون إليه ويستأنِسون به، ويأخُذون عنه مَعالِم دِينهم، فغيَّب الله عنهم شَخْصه مائة عام، ثمّ بعَثه»[٥]. والظاهِر أنّ المُراد بالغَيْبة المَوت.

وفي رِواية القُمّي والعَيّاشي: عن الصادق عليه السلام: «أنّ المارّ على القَرْية هُو أرميا»[٦]. وعليه بَعضُ المُفسِّرين مِنَ العامّة، ثمّ أنّهم اختَلفوا فقال بعضُهم: إنّه أرميا بن حلقام[٧]، وبَعْضهم قالوا: إنّ أرميا هُو الخِضْر بعَينه[٨] والأشهر الأقوى هُو الأوّل.

وعن (المَجْمع): عن أمير المؤمنين عليه السلام: «أنّ عُزَيراً خرَج مِن أهله وامرأته حامِل، وله خمسُون سَنة، فأماته الله مَائة عام»[٩].

---

١. تفسير الرازي ٧: ٣١. ٢. في كمال الدين وتفسير الصافي: منه.
٣. كمال الدين: ٢٠/٢٦٦، تفسير الصافي ١: ٢٦٨. ٤. في كمال الدين وتفسير الصافي: تسعين.
٥. كمال الدين: ١٥٧ و١٧/١٥٨، تفسير الصافي ١: ٢٦٩.
٦. تفسير القمي ١: ٨٦، تفسير العياشي ١: ٥٧٠/٢٦٢، تفسير الصافي ١: ٢٦٤.
٧. في تفسير أبي السعود: أرميا بن حلقيا. ٨. تفسير أبي السعود ١: ٢٥٢.
٩. مجمع البيان ١: ٦٤١، تفسير الصافي ١: ٢٦٩.

وفي رِوايةٍ: أعمىٰ الله تعالى عنه عُيون المَخلُوقات فلَم يَرَه أحدٌ، فلمّا مضىٰ مِن مَوْته سبعون سَنة وجّه الله عزّ وعَلا مَلِكاً عَظِيماً مِن مُلُوك فارِس، يقال له: يُوشك إلى بَيْت المَقْدِس ليُعمِّره، ومعه ألف قَهرَمان[1]، ومع كُلّ قَهرَمان ثلاثمائة ألف عامل، فجعَلوا يعمُرونه، وأهلَك الله بَخت نُصَر ببَعُوضة دخلَتْ في دِماغه، ونجّىٰ الله مَن بقيَ مِن بني إسرائيل، وردّهم إلى بَيْت المَقْدِس، فتراجَعَ مَن تفرّق مِنهم، فعمَروه ثلاثين [سنة]، فلمّا تمّت المائة مِن مَوْت عُزَير أحياه الله[2]، وذلك قولُه: ﴿ثُمَّ بَعَثَهُ﴾ والتّعبير عَن الإحياء بالبَعْث للدّلالة على السُّرعة، وسُهُولته على الله، مع كَوْنه بَعْد المَوْت في مُدّة طويلة.

وفي رِواية القُمّي: عن الصادق عليه السلام أنّه لمّا سلّط الله بَخْت نُصَر على بني إسرائيل هرَب أرمِيا، ودخَل في عَيْنٍ وغاب فيها، وبقي ميّتاً مائة سنة، ثمّ أحياه [الله تعالى] وأوّل ما أحيا منه عينيه في مِثْل غِرْقِيء[3] البَيْض، فنظر[4] ثمّ ﴿قَالَ﴾ الله وَحْياً ﴿كَمْ لَبِثْتَ﴾ وبقِيت مَيّتاً.

وفي رواية ابن عبّاس رضي الله عنه: ونُودِي مِن السّماء: يا عُزَير كَمْ لَبِثْت بَعْد المَوْت؟[5] قيل: كان السُّؤال لأجل أن يظهر له عَجْزه عن الإحاطة بشؤون الرُّبُوبيّة، وليعْلَم بالبُرهان أنّ إحياءه كان بَعْد مُدّة طويلة حتى تَنْحسِم مادّة استِبعاده بالمرّة[6].

﴿قَالَ﴾ عُزَير أو أرميا - على وَجْه الحُسْبان والتّخمِين -: ﴿لَبِثْتُ يَوْماً﴾ ثمّ نظَر إلى ضَوء الشّمس باقِياً في رؤوس الجُدْران كما رُوي، فقال: ﴿أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ وقيل: إنّه قال: يوماً أوبعضَ يوم، اقتِصاراً لمُدّة لَبْثه[7].

ثُمّ ﴿قَالَ﴾ الله ما لَبِثْت المُدّة اليَسِيرة ﴿بَل لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ﴾ قيل: فائِدة إماتَته مائة عام وإعلامه بها - مع كِفاية الإحياء بَعْد مَوْت سَاعة لثُبُوت المَطْلوب، وهُو القُدْرَة على الإحياء بَعْد المَوْت - أنّ الإحياء بَعْد مِثْل هذه المُدّة الطَويلة أدلُّ على القُدْرَة؛ لأنّ إحياء العِظام الرَّمِيم أبْعَد في العُقُول، كما هُو واضِح.

ثمّ كأنّه قال الله: إن شِئْت أن يزيد عِرْفانك بكمَال قدرتي ﴿فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ﴾ مِن التّين والعِنَب اللذين يفسُدان مِن غاية اللّطافة في اليَوم واللّيلة ﴿وَشَرَابِكَ﴾ من العَصير أو اللّبَن، مع أنّهما يتغيّران

---

١. القَهْرَمان: أمين المَلِك ووكيله الخاص.
٢. تفسير أبي السعود ١: ٢٥٣.
٣. الغِرْقِيء: القشرة الرقيقة الملتزقة ببياض البيض.
٤. تفسير القمي ١: ٩٠، تفسير الصافي ١: ٢٦٧.
٥. تفسير الرازي ٧: ٣١.
٦. تفسير روح البيان ١: ٤١٣.
٧. تفسير روح البيان ١: ٤١٣.

في بَعْض يومٍ واحِد ﴿لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾ ولم يتغيّر في السِّنين المُتطاولة.

رُوي أنّه رأى تِينة وعِنبة كما جنىٰ، وعصِيره كما عصَر[١]، ثُمّ لمّا رأىٰ ذلك، وكان مَجال توهُّم الاستِدلال به على قِصَر مُدّة مَوْته، دفَع الله ذلك التوهُّم بإقامة دَليلٍ قاطِع على طُول مُدّة مَوْته بقوله: ﴿وَٱنظُر إلى﴾ عِظَام ﴿حِمَارِكَ﴾ كيفَ صار رَميماً، ليتبيَّن لك مَوْتك في المُدّة المَدِيدة، وإنّما فعَلْنا ما رأيتَ مِن الإماتة وإحياء الرِّمَم، وحِفْظ التِّين والعَصير مِنَ التّغيير والفسَاد، لتشاهِد كمال قُدْرَتنا وتزدَاد يقِيناً بالمَعَاد ﴿وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً﴾ نافِعة ﴿لِلنَّاسِ﴾ جميعاً، حيث يزدادون بقضيّتك مَعرِفة ويقيناً.

ثُمّ لمّا أمره أوّلاً بالنّظر إلى الحِمار البالِي؛ لتَبْيين طُول مُدّة مَوته، أمره ثانياً بالنّظر إلى عِظام نفسه، أو عظام حِماره بقوله: ﴿وَٱنظُرْ إِلَى ٱلعِظَامِ﴾ المُتفرّقة الرَّميمة ﴿كَيْفَ نُنشِزُهَا﴾ ونرفَع بعضَها إلى بَعْضٍ، ونرُدّها إلى أماكِنها مِنَ الجَسَد ﴿ثُمَّ نَكْسُوهَا﴾ ونُلبِسها ﴿لَحْماً﴾ ونستُرها به؛ ليُشاهِد به كَيْفِيّة الإحياء في نَفسه، أو في غَيْره، بَعْدما شاهَدها في نَفسه.

في روايةٍ عن القُمّي، عن الصادق عليه السلام: «فجعَل ينظُر إلى العِظام البالية المُتفطِّرة تجتَمِع إليه، وإلى اللَّحْم الذي قد أكلَتْه السِّباع، يتألّف إلى العِظام مِن هَاهُنا وهَاهُنا ويلتزِق بها، حتى قام وقام حِماره»[٢].

وفي روايةٍ أُخرىٰ: ونظَر إلى عِظامه كَيْف تلتَئِم وتلبس اللّحم، وإلى مَفاصِله وعُرُوقه كَيْف تُوصَل، فاستَوىٰ قاعِداً[٣] ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ﴾ كَمال قُدْرَة الله بما عايَن مِن إحياء الرِّمَم ﴿قَالَ أَعْلَمُ﴾ الآن بالشُّهُود ﴿أَنَّ اللهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ مِمَا أمكن وأراد ﴿قَدِيرٌ﴾ لا يستَعْصي عليه أمر.

قصّة عزير النبيّ

رُوي أنّه رَكِب حِماره وأتىٰ مَحَلّته، فأنكره النّاس، وأنكَر النّاسَ، وأنكَر المَنازِل، فانطلَق على وَهْمٍ مِنه حتّى أتىٰ مَنزِله، فإذا هُو بعَجُوز عَمْياء مُقْعَدة قد أدركَتْ زمن عُزَير، فقال لها عُزَير: يا هذه، هذا مَنزِل عُزَير؟ قالت: نعَم. وأين ذِكْرىٰ عُزَير وقد فقَدْناه مُنْذ كَذا وكَذا! فبكت بُكاءً شديداً، قال: فإنّي عُزَير، قالت: سُبحان الله أنّىٰ يكون ذلك؟ قال: قد أماتَني الله مائة عامٍ، ثمّ بعثَني.

قالت: أنّ عُزَيراً كان مُستَجاب الدَّعوة، فادْعُ الله برَدِّ بَصَري حتى أراك، فدَعا ربّه، ومَسَح بَيْن عَيْنَيها ففُتِحَتا، فأخذ بيدِها، فقال: قُومي بإذن الله، فقامَتْ صَحِيحة كأنّها أُنشِطَت من عِقال[٤]، فنظَرت إليه،

---

١. تفسير روح البيان ١: ٤١٣.
٢. تفسير القمي ١: ٩٠، تفسير الصافي ١: ٢٦٧.
٣. الاحتجاج: ٣٤٤، تفسير الصافي ١: ٢٦٨.
٤. أُنشِطَت من عِقال: أي أُطلقت من قيدها.

فقالت: أشهَدُ أنَك عُزَير. فانطَلقت إلى مَحَلّة بني إسرائيل وهُم في أندِيتهم، وكان في المَجْلِس ابن العُزَير، قد بلَغ مائة وثَماني عَشَرة سنة وبنُو بَنِيه شُيُوخ، فنادَتْ: هذا عُزَيرٌ قد جاءكم، فكذّبوها، فقالت: انظُروا؛ فإنّي بدُعائه رجَعتُ إلى هذه الحَالة، فنهَض النّاس، فأقبلوا إليه، فقال ابنُه: كان لأبي شَامة سَوْداء بَيْن كَتِفيْه مِثْل هذا الهِلال، فكشَف فإذا هُو كذلك، وقد كان قتَل بَخْت نُصَر بِبَيْت المَقدِس مِن قُرّاء التّوراة أربعين ألف رَجُل، ولَمْ يكن بَيْنهم يومئذٍ نُسْخةٌ مِن التّوراة، ولا أحد يعرِف التّوراة، فقرأها عليهم عن ظَهْر قَلْبه مِن غَيْر أن يَخرِم منها حرفاً ـ أي يَنقِص ويَقطَع ـ فقال رَجُلٌ مِن أولاد المَسبِيّين، مِمّن ورَدَ بَيْت المَقْدِس بَعْد مَهْلِك بَخت نُصَر: حدَّثَني أبي، عن جَدّي أنّه دَفَن التّوراة يومَ سَبْينا في خَابِيةٍ في كَرْم، فإنْ أرَيتُموني كَرْم جَدّي أخرَجتُها لكم، فذهبوا إلى كَرْم جَدّه ففتّشوه فوَجدوها، وعارَضُوها[1] بما أملىٰ عليهم عُزَير عن ظَهْر القَلْب، فما اختَلفا في حَرْفٍ واحِد، فعِنْد ذلك قالوا: عُزَيرٌ ابنُ الله[2].

وعن (المَجمع): عن أمير المؤمنين عليه السلام: «أنّ عُزَيراً خرَج مِن أهله، وامرأته حامِل، وله خمسُون سنة، فأماته الله مَائة عام ثمّ بعثَه، فرجَع إلى أهله ابن خمسِين، وله ابنٌ له مائة سنة، فكان ابنه أكبَر مِنه، فذلك من آيات الله»[3].

اعلَمْ أنّ الرِوايات في هذه القضّية، وإن كانت مُختلِفة مِن جِهاتٍ عدِيدة، إلّا أنه لا يهمّنا الجَمْع بَيْنها بالتّكليف، لعَدَم حُجّيّتها، وعدم تَرتُّب أثرٍ عليها، وأنّها كانت تدُلُّ على قُدْرة الله وصِحّة المَعَاد الجِسماني.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْيِى ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِى قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءاً ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْياً وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ ٢٦٠

ثُمّ أنّه تعالى ـ لازْدِياد يقِين المؤمنين بالمَعَاد حتّى يخرُجوا مِن ظُلُمات الجَهْل أو ضَعْف اليقِين إلى نُور حَقّ اليقِين ـ أردَف قِصّة عُزَير بقِصّة تُضاهِيها عن إبراهيم عليه السلام، وكان دليلاً آخر على وِلايته تعالى

---

١. عارضوها: أي قابلوها.

٢. تفسير أبي السعود ١: ٢٥٥، تفسير روح البيان ١: ٤١٤.

٣. مجمع البيان ١: ٦٤١، تفسير الصافي ١: ٢٦٩.

للمؤمنين، وكأنه تعالى قال: **﴿وَ﴾** ألم ترَ، أو **﴿وَ﴾**اذكرْ **﴿إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ﴾** استدعاءً واستعطافاً: **﴿رَبِّ أَرِنِى﴾** بلطفك على أنك **﴿كَيْفَ تُحْيِى ٱلْمَوْتَىٰ﴾** وبصّرني كيفية الإحياء وهيئته بعد العلم بأصله إجمالاً.

قيل: إنّه تعالى ذكر اسم إبراهيم هُنا لإظهاره العُبوديّة، وحِفْظه للأدب، حَيثُ أثنى على الله أوّلاً بتوصيفه بالرُّبوبيّة، بخِلاف النبيّ الذي مرّ على القَرْية، ولذلك جَعَل الله الإماتة والإحياء في قِصّة إبراهيم عليه السلام في الطُّيور، وفي قِصّة النبيّ في نفسه. ويُمكن أن يكون وَجْه ذِكْر اسمه عليه السلام عَظَمة شَأنه وكَرامته عِنْد الله، زِيادة على عُزَير وعلى مَن هُو أعظم مِنه.

وفي قَوْل إبراهيم: (رَبّي) إشعارٌ بأنّ مِن كمَال الدُّعاء ومُوجِبات سِرعة الإجابة، الثَّناء على الله قَبْل الدُّعاء.

وعن جَمْعٍ مِنَ المُفَسّرين أنّ إبراهيم رأىٰ جِيْفة مَطرُوحة في شَطّ البَحْر، فإذا مَدّ البَحْر أكل [منها] دَوابُّ البَحْر، وإذا جَزَر جاءتْ السّباع فأكلت، وإذا ذَهبَتْ السّباع جاءت الطُّيور فأكلت وطارَت. فقال إبراهيم: ربّ أرِني كيفَ تجمَع أجزاء الحَيوان مِن بُطُون السّباع والطَّيور ودَوابّ البَحْر.[١]

﴿قَالَ﴾ الله وَحْياً: ألَم تَعلَم **﴿أَوَلَمْ تُؤْمِن﴾** بأنّي قادِرٌ على الإحياء كيفَ أشاء؟! **﴿قَالَ﴾** إبراهيم: **﴿بَلَىٰ﴾** آمنتُ وأيقنتُ **﴿وَلَـٰكِن﴾** سألتُ هذا**﴿لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾** وينضَمّ عِلْمي بالبُرهان؛ بالشُّهود والعِيان.

قيل: إنّ سؤال الله تعالى مع عِلْمه بقُوّة يقِين إبراهيم؛ ليُعلِم النّاسَ أنّه عليه السلام لَم يكُن على شَكّ، وللإشعار بأنّ على المُؤمن أن يكون في طَلَب زِيادة اليقِين والارتِقاء إلى دَرَجة الشُّهود.

عن العَيّاشي: سُئِل الرضا عليه السلام أكان في قَلْب إبراهيم شكٌّ؟ قال: «لا، كان على يقين،[٢] ولكنّه أراد مِن الله الزيادة في يقِينه».[٣]

وقيل: إنّه عليه السلام بَعْد مُناظَرته مع نمرود لمّا قال: **﴿رَبِّىَ الَّذِى يُحْيِى وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِى وَأُمِيتُ﴾**[٤] فأطلق مَحبوساً[٥] وقتل رجُلاً، قال [إبراهيم]: ليس هذا بإحياءٍ وإماتة، وعند ذلك قال: **﴿رَبِّ أَرِنِى**

---

١. تفسير الرازي ٧: ٣٨. ٢. (كان على يقين) ليس في المصدر.
٣. تفسير العيّاشي ١: ٥٧٦/٢٦٦، تفسير الصافي ١: ٢٧٠. ٤. البقرة: ٢٥٨/٢.
٥. أي نمرود.

﴿كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ﴾ لتنكشف هذه المسألة عِند نمرود.[١]

وقيل: إنّ نمرود قال له: قُل لربِّك حتى يُحيِي وإلّا قتلتُك، فسأل الله ذلك. وقولُه: ﴿لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾ أي بنجَاتي مِن القَتْل، أو ليطمَئِنّ قلبي بقُوّة حُجّتي وبُرهاني.[٢]

عن ابن عبّاس، وسعيد بن جبير: أنّ الله أوحى إليه: أنـي مُتّخِذٌ بشَـراً خَـليلاً، فاستَعْظم ذلك إبراهيمُ عليه السلام وقال: إلهي ما عَلامَة ذلك؟ فقال: علامته أن يَحيا المَيِّت بدُعائه. فلمّا عَظُم مَقام إبراهيم عليه السلام في دَرَجات العُبُودية، وأداء الرِّسالة، خَطَر ببَاله: إنّي لعَلّي أكون ذلك الخَليل. فسأل إحياء المَيّت، فقال الله: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾ بأنّي خَليلٌ لك[٣]

فإذَن ﴿قَالَ﴾ الله مُستجيباً لدُعائه: إن أردتَ ذلك ﴿فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ﴾ قيل: إنّما خصّ الطَّيْر؛ لأنّه أقرَب إلى الإنسان، وأجمَع لخَواص الحَيَوان[٤] ﴿فَصُرْهُنَّ﴾ واضممهنّ ﴿إِلَيْكَ﴾ كَي تتأمّلها وتعرِف أشكالها مُفصّلة حتى لا يلتَبِس عليك أحدٌ مِنها بَعْد الإحياء.

عن الرضا عليه السلام: «فأخذ إبراهيم عليه السلام نَسْراً وبَطّاً وطاوُوساً ودِيكاً».[٥]

وفي رِوايةٍ، بدَل البَطّ: الغُراب[٦]. وفي أُخرىٰ: الهُدهُد[٧]. وفي ثالثة، بدَل النَّسْر: الحَمامة[٨]. وفي رابعة: النَّعامة[٩]. وفي خامسة: الصُّرَد[١٠].

عن الصادق عليه السلام: «فذبحَهُنّ وعزَل رؤوسَهنّ، ثمّ نَحَزَ[١١] أبدانَهن في المِنْحَاز بريشِهِنّ ولُحُومِهنّ وعِظامِهنّ حتى اختلطَتْ»[١٢].

وعنه عليه السلام، في حديثٍ: «أنّ إبراهيم دعا بمِهْراسٍ فدَقّ فيه الطَّير جميعاً، وحبَس الرُّؤوس عِنْده»[١٣].

وفي رواية (الكافي): «فقطعهنّ واخلطهنّ كما اختَلطَتْ هذه الجِيفة في هذه السِّباع التي أكل

---

١. تفسير الرازي ٧: ٣٨. ٢. تفسير الرازي ٧: ٣٨. ٣. تفسير الرازي ٧: ٣٨.
٤. تفسير أبي السعود ١: ٢٥٦، تفسير الصافي ١: ٢٧٢.
٥. عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ١/١٩٨، تفسير الصافي ١: ٢٧١. ٦. تفسير الرازي ٧: ٤٠.
٧. تفسير العياشي ١: ٥٧٩/٢٦٧، تفسير الصافي ١: ٢٧٢. ٨. تفسير الرازي ٧: ٤٠.
٩. تفسير العياشي ١: ٥٧٥/٢٦٥.
١٠. تفسير العياشي ١: ٥٨١/٢٦٩، والصُّرَد: طائر أكبر من العصفور ضخم الرأس والمنقار يصيد صفار الحشرات.
١١. النَّحز: الدق والسحق والهرس بأداة كالهاون والمِهراس.
١٢. الخصال: ١٤٦/٢٦٥، تفسير الصافي ١: ٢٧١. ١٣. تفسير العياشي ١: ٥٧٧/٢٦٦، تفسير الصافي ١: ٢٧١.

بعضُها بعضاً»[١].

﴿ثُمَّ﴾ غِبَ[٢] اختِلاطِهِنَ ﴿ٱجْعَلْ﴾ وضع ﴿عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ﴾ من الجِبال التي حَوْلَك ـ عن الصادق عليه السلام: «أنّها عَشرة»[٣]. وقيل: كانت سبعة، وقيل: أربعة[٤] ـ ﴿مِّنْهُنَّ جُزْءاً﴾ مِن الأجزاء المُختلِطة ﴿ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ﴾ بأسمائِهنّ إليك، وقل لهُنّ: تعالَيْنَ بإذن الله، فإذا دَعوتهن ﴿يَأْتِينَكَ﴾ ويسعَيْنَ إليك ﴿سَعْياً﴾ سريعاً طيراناً، أو مشياً.

عن الرضا عليه السلام: «جعَل مناقيرَهُنّ بَيْن أصابعه، ثُمّ دعاهُنّ باسمائِهنّ، ووضَع عِنده حَبّاً وماءً، فتطايرَتْ تلك الأجزاء بعضُها إلى بعضٍ حتّى استوَتْ الأبدان، وجاء كُلّ بَدَن حتى انضمَ إلى رَقَبته ورأسه، فخلّىٰ إبراهيم عن مناقيرِهنّ فطِرْنَ، ثمّ جِئْنَ وشَرِبْنَ مِن ذلك الماء، والتقطْنَ مِن ذلك الحَبّ وقُلْنَ: يا نبيّ الله أحيَيْتنا أحياكَ الله، فقال إبراهيم عليه السلام: بَل اللهُ يُحيِي ويُمِيت، وهُو على كُلِّ شيءٍ قدِير»[٥].

وعن الصادق عليه السلام، ـ في حديثٍ ذكر فيه أخْذ إبراهيم الطَّيُور الأربعة، وخَلْط أجزائهِنّ، وجَعْلها على عَشرة أجْبل ـ قال: «هذا تفسِيره في الظّاهِر، وتفسِيره في الباطِن: خُذْ أربعةً مِمّن يحتَمِل الكلام فاستَودِعهم عِلْمك، ثمّ ابعثْهم في أطراف الأرضِين حُجَجاً[٦]، وإذا أردت أن يأتوك دعوتَهم بالاسم الأكبر يأتونك سَعْياً بإذن الله» الخبر[٧]. هذا أحد بُطون الآية.

وقيل: إنّ مِنها أنّ إبراهيم عليه السلام سأل مِن الله حَياة قَلْبه؛ فأشار إليه بذَبْح الطَّيُور: الطّاوُوس كِناية عن الزِّينة، والغُراب عن الأمل، والدِّيك عن الشّهوة، والبَطّ عن الحِرْص. فأشار إلى أنّه ما لَمْ يذبَح نفسه بالمُجاهَدة، ولَم يقلَع هذه الرّذائل عن النّفس، لَم يحيَ قلبُه بالمُشاهدة[٨].

﴿وَٱعْلَمْ﴾ بالشُّهُود بَعْد البُرهان ﴿أَنَّ ٱللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ غالِبٌ على أمره، قادِرٌ على إنفاذ إرادته ﴿حَكِيمٌ﴾ في أفعاله، لا يصدُر عنه مِن العادِيّات وخوارِقها إلّا ما فيه الصَّلاح التّام.

مَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ

---

١. الكافي ٨: ٤٧٣/٣٠٥، تفسير الصافي ١: ٢٧٠.
٢. أي بَعْد.
٣. تفسير العياشي ١: ٥٧٤/٢٦٥.
٤. تفسير الرازي ٧: ٤٢، تفسير أبي السعود ١: ٢٥٧.
٥. عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ١/١٩٨، تفسير الصافي ١: ٢٧١.
٦. زاد في الخصال: لك على النّاس.
٧. الخصال: ١٤٦/٢٦٥، تفسير الصافي : ٢٧١.
٨. تفسير روح البيان ١: ٤١٦.

سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَٱللهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَٱللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ[٢٦١]

ثمّ بَعْدما بيّن الله تعالى مِن اُصول العِلْم بالمَبدأ والمَعَاد، والاستِدلال بالوقائع المُسَلَّمة بين أهل الكِتاب على صِحّتهما، شرع في بيان جُملةٍ مِنَ الشّرائع والأحكام، ولمّا كان مِن أشقّها التّكليف ببَذْل المال والإنفاق على الفُقراء وفي سائر وُجوه الخَير، بدأ بترغيب العِباد فيه بقوله: ﴿مِثْلُ﴾ نفقة المُؤمنين ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ﴾ ويصرفون ﴿أَمْوَالَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللهِ﴾ وطريق الخَير، ووُجوه البِرّ ﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ﴾ وقيل: إنّ المُراد مَثَل المُنفِقين كمَثَل باذِر حبّةٍ صحيحة، زُرِعت في أرضٍ عامرة مُغِلّة[1]، فعِند ذلك ﴿أَنبَتَتْ﴾ وأخرجت تلك الحَبّة سبعة سوقٍ، لكُلّ ساق سُنْبُلة، فيكون المَجمُوع ﴿سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ﴾ كما يُشاهد في الذُّرَة والدُّخن، مع أنّه تمثِيل لتصوير مُضاعفة الثّواب، ويكفي فيه كَوْنه مَعقُولاً وإن لم يكُن له مِصداق في الوُجود، مع أنّه يحتَمل أنّ زَرْع الحُنطة كان سُنبُله في بَدْو الخِلْقة أو في بعض الأراضي المُغِلّة كذلك.

﴿وَٱللهُ يُضَاعِفُ﴾ ثَواب المُنفِق زائداً على تِلك المُضاعفة إلى ما شاء الله ﴿لِمَن يَشَاءُ﴾ أن يُضاعِف له بِفَضْله، وعلى حَسْب حال المُنفِق والإنفاق، من إخلاصه وتَعَبه وخَصاصته ومَصْرف إنفاقه، ككَوْنه في الجِهاد، أو على الوالِدَين، أو العُلَماء، أو ذَراري الرّسُول، فإنّه يتفاوَت ثَواب الأعمال بتفاوُت الجِهات والخُصُوصيّات.

عن الصادق عليه السلام: «هذا لِمَن أنفق ماله ابتِغاء مرضاة الله»[2].

وعنه عليه السلام: «إذا أحسن العَبْد عمله ضاعَف الله عَمَله بكُلّ حَسَنة سَبعمائة ضِعْف»[3].

وفيهما دَلالة على أنّ تِلك المُضاعفة جارِية في جميع الأعمال والعِبادات.

﴿وَٱللهُ وَاسِعٌ﴾ جُوداً وفضْلاً لا يضِيق عليه إعطاء الزِّيادة كائناً ما كان

﴿عَلِيمٌ﴾ به، وبنيّة المُنفق وخُلوصه ومِقدار إنفاقه.

ٱلَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنّاً وَلَا أَذىً لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِم وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ[٢٦٢]

---

١. المُغلّة: الأرض المنتجة للغلات.

٢. نفسير القمي ١: ٩٢، تفسير الصافي ١: ٢٧٢.

٣. ثواب الأعمال: ١٦٨، تفسير الصافي ١: ٢٧٢.

ثمّ بيّن الله تعالى ما يُعتبَر في صِحّة الإنفاق بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ من جِهاد أو غيره مِن وُجوه الخَيْر ﴿ثُمَّ﴾ بعد التّوفيق بهذا العَمَل الصّالح النّافع ﴿لَا يُتْبِعُونَ﴾ ولا يُعقِبون ﴿مَا أَنفَقُوا مَنًّا﴾ وإظهار حَقٍّ على المُنفَق عليه، وحُسْن اصطِناع به ﴿وَلَا أَذًى﴾ وإساءةً بكلامٍ أو فِعْلٍ فيسُوؤه، كأن يقول للفقير: تأذّينا مِنك، أو: لا نستريح مِن شَرِّك وزَحْمتك، أو يتَطاوَل عليه، وأمثال ذلك. وتقدِيم ذِكْر المَنّ لكَوْنه أكثر وُقوعاً مِن الأذىٰ، وذِكْر كلمة (ثمّ) لإظهار مُبايَنة الإنفاق لهما، وكمال البُعْد بَيْنه وبَيْنهما.

عن الصادق عليه السلام عن النبيّ صلى الله عليه وآله: «مَن أسدى إلى مُؤمن مَعروفاً، ثمّ آذاه بالكلام، أو مَنّ عليه، فقد أبطل الله صدَقَته»[١].

فتحصّل مِن الآية المُباركة والرِواية الشّريفة أنّ الصّدَقة، بَل كُلّ مَعرُوف، كزَرْع المُؤمن، والمَنّ والأذى آفتاه، فعلى المُؤمنين أن يحفَظوا زَرْعهم مِن الآفة، فإذا حفِظوه مِنها كان ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾ وثَوابهم المَوعُود، في الآية السّابِقة، المَذخُور ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ ومَليكهم اللّطيف بهم ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ من نقْص الأجر، والابتلاء بالعَذاب ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على ما خلّفوه من الدُّنيا، وما فاتَهم مِن مَطلُوب.

روى العامّة أنّها نزلَتْ في عُثْمان حين جهّز جيش العُسْرة في غَزوة تَبُوك، بألف بعير بأقتابها وأحلاسها، وألف دينار[٢]. وفي عبدالرّحمٰن بن عَوْف حيث تصدّق بأربعة آلاف دِرْهَم على رواية، أو دينار على أُخرى، أو بنِصْف ماله على ثالثة[٣].

وعلى هذا يُحتَمل أن يكون في ذِكْر المَنّ والأذى التّعرِيض عليهما، والإشارة إلى مَنّهما على النبيّ صلى الله عليه وآله والمُؤمنين بصَدَقتهما، كما يُستفاد مِمّا رُوي عن النبيّ صلى الله عليه وآله أنّه قال: «ما مِن النّاس أحدٌ أمَنَّ علينا في صُحْبته وذات يَدَيه مِن ابن أبي قُحافة»[٤]. أنّه مَنّ بإسلامه وصُحْبته على النبيّ صلى الله عليه وآله وكان مِن مَصاديق قوله تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا﴾[٥].

في ردّ ما روته العامّة في قضية أبي بكر

وقد أوّلَ بعضُ العامّة المَنّ في الحديث بكَثْرة إنعامه بماله. وفيه: أنّه ما نُقِل مِن أحدٍ

١. تفسير القمي ١: ٩١، تفسير الصافي ١: ٢٧٢.
٢. الأحلاس جمع حِلس: وهو كلّ ما على ظهر الدابة تحت الرّحل والقتَب والسَّرج.
٣. تفسير الرازي ٧: ٤٥، تفسير أبي السعود ١: ٢٥٨، تفسير روح البيان ١: ٤١٩.
٤. تفسير الرازي ٧: ٤٦.
٥. الحجرات: ١٧/٤٩.

أنه كان قَبْل البِعْثة وبعدها غنياً ذا ثَرْوة، مع وُضوح كَوْن أمير المؤمنين عليه السلام أمَنّ عليه صلى الله عليه وآله منه، حيث إنّه عليه السلام بَذَل في محبّته نفسَه وماله. وكيف كان أبو بكر كثير الإنعام مع بُخْله بصَدَقة دِرْهَم لنَجْوىٰ النبيّ صلى الله عليه وآله؟! ولذلك ترَك مُكالَمة النبيّ صلى الله عليه وآله ونَجْواه عَشرة أيّام.

والحاصل: أنّه لا دَلالة في الآية إلّا علىٰ اشتِراط أجر الصَّدَقة بخُلُوّها عن المَنّ والأذىٰ، وأنّهما مُبطِلان لها ومُحبِطان لأجرها، وكَوْنها عند الاقتِران بهما حَسْرةً ووَبالاً، ولا صراحة بل لا ظُهور لها في المَدْح، وإنّما الصَراحة فيما نزَل في صَدَقة أمير المؤمنين عليه السلام مِن قوله تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وأَسِيراً﴾[1].

رواية عامية في فضيلة الحسن بن علي عليهما السلام

ورویٰ بعضُ العامّة ـ في شأن نُزول الآية ـ أنّ الحسن بن علي عليهما السلام اشتهىٰ طعاماً، فباع قَميص فاطمة عليها السلام بسِتّة دَراهم، فسأله سائل فأعطاها، ثمّ لقي رَجُلاً يبيع ناقةً، فاشتراها بأجلٍ وباعها مِن آخر، فأراد أن يدفع الثّمن إلى بائعها فلَمْ يَجِدْه. فحكىٰ القضيّة إلى النبيّ صلى الله عليه وآله فقال: أمّا السائل فرضوان، وأمّا البائع فميكائيل، وأمّا المُشتري فجَبرائيل، قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ...﴾ الآية[2].

أقول: الرِوايةُ قرينةٌ علىٰ سَوْق الآية في غاية المَدْح.

قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذىً وَٱللهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ[٢٦٣]

ثُمّ أكّد سُبحانه اشتِراط قَبُول الصَّدَقة بعدم اقتِرانها بالمَنّ والأذىٰ بقوله: ﴿قَوْلٌ مَعْرُوفٌ﴾ ورَدٌّ جَمِيلٌ عند عدَم الإنفاق، كأن يقول للفقير: أنا مُنفعِلٌ مِنك، ومُعتذِرٌ إليك والله يرزُقك، ويُوسّع عليك، حتىٰ يُسَرّ قلبُه ويَطِيب خاطِره ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ وسَتْرٌ لإلْحاف السّائل في المسألة، وعَفْوٌ عن تَعَدّيه في القول وبذاءة لِسانه، وصَفْحٌ عن إساءتِه ﴿خَيْرٌ﴾ لكم عند ربّكم، وأنفع ﴿مِن صَدَقَةٍ﴾ تحسَبونها خيراً، إذا كان ﴿يَتْبَعُهَا أَذىً﴾ وإساءة؛ لأنّ في الكلام الجَميل مَسرّةَ قلبِ الفقير بلا ضرَر عليه، بخِلاف الإعطاء مع المَنّ والأذىٰ، فإنّ فيه ضرَراً بما يكون تحمُّله أشقّ عليه مِن تحمُّل مَرارة الفَقْر ﴿وَٱللهُ غَنِيٌّ﴾ عمّن يُنفِق على الفُقَراء الذِين هُم عِياله، وعن إنفاقكم، حيث إنّه بفَضْله ورَحْمته يرزُقهم مِن حيث لا يحتسبون، بل أنتم مُحتاجُون إلىٰ الإنفاق حتّىٰ يكون ذُخراً لكُم، وهُو ﴿حَلِيمٌ﴾ غير عَجُولٍ

---

١. الإنسان: ٨/٧٦.　　٢. تفسير روح البيان ١: ٤١٩.

بعُقوبة المَانّ والمُؤذي في صَدَقته، وفيه مِنَ السُّخط والوَعيد لهم ما لا يخفىٰ.

يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَالَّذِى يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْداً لَا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَٱللهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَافِرِينَ [٢٦٤]

ثمّ أكّد سُبحانه اشتِراط صِحّة الإنفاق وحُسْنه بعدم الإتْباع بالمَنّ والأذىٰ، بالنّهي الصّريح، والتّنصِيص بالبُطلان بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم﴾ ولا تُحبِطوا أجرها وثَوابها المَوعُود لكم ﴿بِالمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾ وفي التوجّه مِن الغَيْبة إلىٰ الخِطاب، وتَوْصيف المُخاطَبين بالإيمان غايةُ التّهيّج وكمال التّرغِيب إلىٰ العَمل بمُوجِب النّهي اهتماماً به.

ثمّ للمُبالَغة في تَوضِيح البُطلان ضرَب الله مَثَلاً معقُولاً، وهُو ما أفاد مِن أنّ إبطال المانّ والمُؤذي إنفاقهما ﴿كَالَّذِى﴾ أي مِثْل إبطال المُنافِق الذي ﴿يُنفِقُ مَالَهُ﴾ في وجُوه البِرّ وسُبُل الخَير، حال كَوْنه مُريداً بإنفاقه ﴿رِئَاءَ ٱلنَّاسِ﴾ ونِفاقهم، غير قاصِد لوَجه الله والتّقرُّب إليه؛ لأنّه لا يُصدِّق بقَلْبه ﴿وَلَا يُؤْمِنُ﴾ في ضَميره ﴿بِاللهِ﴾ حتىٰ يكون في طَلَب رضاه ﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ ودَار الجَزاء، حتىٰ يهتمّ في تحصيل الثّواب والنّجاة من العِقاب. فبُطلان هذا المُنافق لكُفْره وفسَاد نِيّته أظهر مِن الشّمس، فكذلك بُطلان عمل المَانّ والمؤذي.

عن العيّاشي: عنهما عليهما السلام: «نزلتْ في عُثمان، وجرَت في مُعاوية وأتباعهما»[1].

ثمّ مع وُضوح حَبْط الصَّدَقات بالرِّياء، بالغ سُبحانه في توضيح خُسران المُرائي، بضَرْب مَثَل مَحسُوس له بقوله: ﴿فَمَثَلُهُ﴾ وحاله المُعْجِب في إبطاله إنفاقه بالرِّياء ﴿كَمَثَلِ صَفْوَانٍ﴾ وحَجَر صَلْب أملَس كان ﴿عَلَيْهِ تُرَابٌ﴾ يَسير ﴿فَأَصَابَهُ﴾ وانصَبّ عليه ﴿وَابِلٌ﴾ ومطَرٌ شَديدٌ عظيمُ القطْر، فغَسَل كلَّ ما علىٰ الحَجَر مِن التُّراب ﴿فَتَرَكَهُ صَلْداً﴾ أملَس ليس عليه شيء من الغُبار.

ثمّ بيّن وَجه شَباهة اُولئك المُبطِلين لإنفاقهم بقوله: ﴿لَا يَقْدِرُونَ﴾ اُولئك الخاسرون بسبَب المَنّ والايذاء والرِّياء ﴿عَلَىٰ﴾ ثَواب ﴿شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا﴾ وعمِلوا ولا يستطيعون [علىٰ] الانتفاع بما فعَلوا؛

---

١. تفسير العياشي ١: ٥٨٦/٢٧١، تفسير الصافي ١: ٢٧٣.

لحَبْط أعمالهم وضَياعها، وعدم استحقاقهم الأجر عليها.

فالكافِر المُنافِق كالحَجَر الأملس، وإنفاقه كالتُّراب علىٰ الحَجَر، والكُفْر والرِّياء كالمَطر الشَّديد، وكذلِك المُنفِق والمُؤذي كالحَجَر، والمَنّ والأذىٰ كالمطَر الشَّديد يُذهِبان بما للإنفاق من الأجر والثَّواب.

ثُمّ أشار سُبحانه إلىٰ سبَب هذا الخُسْران بقوله: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى﴾ و لا يُوفِّق لسُلُوك طريق الخَير والرَّشاد ﴿ٱلْقَوْمَ ٱلْكَافِرِينَ﴾.

وفيه تَعْريض علىٰ المَانّ المُؤذي في إنفاقه، وإشعار بأنّ الخِصَال المَزبُورة مِن خِصال الكُفّار، والمُؤمن مُنزّه عنها، أو إيماء علىٰ أنّ المَانّ المؤْذي والمُرائي يَموتون كُفّاراً، ويحشرون كفاراً.

نُقِل عن بعضٍ أن مَثَل مَن يقصُد بالطّاعة الرِّياء والسُّمْعة، كمَثَل رَجُل خرَج إلى السُّوق وملأ كِيسه حَصَىً، فيقول النّاس: ما أملأ كِيس هذا الرّجُل! ولا مَنفَعة له سِوىٰ مَقالة النّاس، فلو أراد أن يشتري به شيئاً لا يُعطىٰ به شيئاً.

نُقِل أنّ بعضاً بالغوا في إخفاء الصَّدَقة، وكانوا يطلُبون فقيراً أعمى لا يعلَم مَن المُتصدِّق، أو كانوا يربِطون في ثَوب الفقير وهو نائم، أو كانوا يُلقونها في طريق الفقير ليأخذها[1].

عن النبيّ ﷺ قال: «إنّ أخوَف ما أخاف عليكم الشِّرك الأصغر» قالوا: يا رسول الله، وما الشِّرك الأصغر؟ قال: «الرِّياء، يقول الله لهم حين يُجازِي العِباد بأعمالهم: اذْهَبوا إلى الذين كُنتم تُراءُون لهم، فانظُروا هَل تجِدون عندهم جزاء؟»[2].

وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ٱبْتِغَاءَ مَرْضَاتِ ٱللهِ وَتَثْبِيتاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَٱللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ[٢٦٥]

ثُمّ أنّه سُبحانه بَعْد ذِكْر المَثَل لإنفاق المَانّ والمُؤذي والمُرائي، ذَكَر مَثَلاً لإنفاق المُؤمن المُخلِص في إنفاقه وكَثْرة ثَوابه بقوله: ﴿وَمَثَلُ﴾ إنفاق المُؤمنين ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ﴾ في وُجوه الخَير قاصِدين بإنفاقهم ﴿ٱبْتِغَاءَ مَرْضَاتِ ٱللهِ﴾ وطلَب ثَوابه ﴿ وَتَثْبِيتاً﴾ لبعضٍ ﴿مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ وجَعْلاً

---

١. تفسير روح البيان ١: ٤٢٣.

٢. تفسير روح البيان ١: ٤٢٣.

لمِقدارٍ مِنها مُستقِرّاً عَلَىٰ الإيمان، وترسخاً لليَقين في قُلوبهم.

قيل: إنّ العَلائِق الدُّنيويّة تُعلِّق القَلْب بيْن الدّنيا والآخرة وبيْن الإيمان والكُفْر، فما لَمْ يقطَع المُؤمن جميع العَلائق الدُّنيويّة مِن قَلبه لا يستقِرّ قَلبُه علىٰ الإيمان ويتمحّض للآخرة، ولاشَك أنّ مِن العَلائق حُبّ المال، ومِنها حُبّ الحَياة، ومنها حُبّ الأهل والأولاد، فكلّما قطَع عَلاقة مِنها حصَل له بعضُ الثَّبات، أو حصل لبعضِ نفسه الاستِقرار على الإيمان، ولبعضِ قلبه التَوجُّه إلى الحَقّ.

أقول: لا رَيْب أنّ المُواظَبة علىٰ العِبادات والرِّياضات النَفسانيّة تُورِث القلب نُوراً وضِياءً تزول به ظُلمة الشُّكوك والشُّبُهاتـن ويزدَاد به اليَقين فيها حتىٰ تكون المَعارِف والعَقائد الحَقّة راسِخة فيها فتكون كُلّ عِبادة مِن العِبادات مُوجِباً لزيادةِ مَرْتَبة مِن اليَقين، وثَبات بَعضِ القَلب علىٰ الإيمان.

فالإنفاق لهذَيْن الغَرَضَيْن يكون مَثَله في كَثْرة النَّفْع والثّواب ﴿**كَمَثَلِ جَنَّةٍ**﴾ واقِعة ﴿**بِرَبْوَةٍ**﴾ ونظِير بُستان كائِن في مكان مُرتفِع مَصُون مِن أن يُفسِده البَرْد لِلَطَافة الهَواء وهُبُوب الرِّياح.

قيل: إنّ الأشجار الواقِعة في الرَّبْوَة تكون أحسن مَنظراً وأزكىٰ ثمراً، وأمّا الأراضي المُنخفِضة فقلّما تسلَم ثِمارُها مِن البَرْد، لكثافة هوائها برُكُود الرِّياح[1].

وقيل: إنّ المُراد مِن الرَبْوة الأرض اللَّيِّنة الجَيِّدة، بحيث إذا نزَل عليها المطَر انتفخَتْ ونمَتْ، فإذا كانت الأرض كذلك يكثُر رَيْعُها، وتكمُل ثِمارُها وأشجارها[2]، بخِلاف الأراضي المُرتفِعة، فإنّها يقِل انتِفاعُها مِن الأنهار، وتكثُر فيها الرِّياح المُضِرّة.

وعلىٰ أي تقدِير يُفرَض أنّ تِلك الجَنّة العالية ﴿**أَصَابَهَا**﴾ ونزَل عليها ﴿**وَابِلٌ**﴾ مطَرٌ نافِعٌ عظِيمُ القَطْر ﴿**فَآتَتْ**﴾ تِلك الجَنّة صاحِبَها حِينئذٍ ﴿**أُكُلَهَا**﴾ وثِمارَها ﴿**ضِعْفَيْنِ**﴾ قيل: يعني مِثْلَي ما كان يعْهَد مِن هذا البُستان مِنَ الثَّمر[3].

عن ابن عبّاس: حملَتْ في سنةٍ مِن الرَّيْع ما يحمِل غيرُها في سنتَيْن. وقيل: الضِّعْف: مِثْلَي الشيء، وضِعْفَيْه: أربعة أمثاله[4].

﴿**فَإِن لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ**﴾ ومطَر صغِير القَطْر، يكفيها لمُضاعَفة ثَمَرها، لكَرَامة مَنْبَتها، وجَوْدَة

---

١. تفسير روح البيان ١: ٤٢٥.
٢. وكـــــذا.
٣. تفسير روح البيان ١: ٤٢٥.
٤. تفسير روح البيان ١: ٤٢٥.

مَحلِّها، وبُرُودة هوانها.

قيل: إنّ المَطَر الخَفيف ورُطُوبة الهواء إذا داما يُفيدان فائِدة المَطر العَظِيم.

وقيل: إنّ المُراد أنّ الطَلّ يكفي لأن يكون لها ثَمَر، إن كان ثمرُها دون الضِّعف، وعلىٰ أي تقدير لا تبقىٰ بِلا ثمر.

عن العَيّاشي: عن الباقر عليه السلام: «أنّها نزلَتْ في عليّ صَلَواتُ الله عليه»[1].

﴿وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من الإنفاقات وسائر العِبادات ﴿بَصِيرٌ﴾ ومطّلعٌ كالناظِر إليه، لا يُمكِن أن تخفىٰ عنه قليلةٌ وكثيرةٌ؛ فيُجازي بأضعاف الجَزاء وأحسنه.

أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِن نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللهُ لَكُمُ ٱلآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ[٢٦٦]

ثمّ أنّه تعالىٰ للمُبالَغة في تَوْضيح بُطلان صَدَقات المَانّ والمُؤذي وحَسْرَتهما علىٰ حَبْطها، مع كَمال الحَاجة إليها، ضَرَب مَثَلاً آخر بقوله: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ﴾ أيُّها المُؤمنون العُقَلاء ﴿أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ﴾ وبُستان تكون أكثر أشجارها ﴿مِن نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾ هما أنفَع الأشجار وأشرفها، ومع ذلك ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ﴾ فإذَن تكون في غاية الحُسْن والنَّظارة والنَّفع، ثمّ مع هذَيْن الجِنْسَين مِن الأشجار الجَامِعة لفُنُون المَنافِع يكون ﴿لَهُ فِيهَا﴾ رِزقٌ وافِر، وحَظٌّ مُتكاثِر ﴿مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَاتِ﴾ الأُخَر.

وتخصِيصُ النَخْل والعِنَب ـ مع دُخُولهما في عُمُوم الثَّمَرات ـ وتقِديمُهما، لكَوْنهما الأصل والرُّكن فيها، وأكرم الأشجار وأنفعها.

ثُمّ بعدَ بَيان صِفَة الجَنّة، وكمال نَفْعها بحيث لا يُتصوَّر أحسَن وأنفَع مِنها، بَيّن شِدّة حاجة صاحِبها إليها، وإلىٰ منافِعها بقوله: ﴿وَ﴾ الحَال أنّه ﴿أَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ﴾ والهَرَم والضَّعف الذي هُو مُقتضي لشِدّة الحَاجة إلىٰ منافِعها، والعَجْز عن تدارُك أسباب المَعاش مِن غيرها ﴿وَلَهُ﴾ مع ذلك الهَرَم والضَّعف ﴿ذُرِّيَّةٌ﴾ وأولاد ﴿ضُعَفَاءُ﴾ عَجَزة عن تحصيل القُوت الذي يسدّون به الرَّمَق، لأجل الصِّغر والضَّعف، فكلّهم صاروا كَلّاً علىٰ والدِهم الضَّعيف، وحياتهم ومَعاشهم علىٰ هذا الفَرْض مَنوطان

---

١. تفسير العياشي ١: ٥٨٩/٢٧٢.

بثِمار تِلك الجَنّة ومنافعها، بحيث لَو لَم تكُن لوقعوا جميعاً في المَخمَصة والهَلاك ﴿فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ﴾ وريح عاصِفة شَديدة تستَدير في الأرض، ثمّ تنعكِس مِنها ساطِعة إلىٰ السّماء كهَيْئة العَمود. قيل: يُسمِّيها العَرَب الزَّوْبَعة[1]، والعَجَم (گِرْد بَاد).

ومنِ الواضِح أنّ هذه الرِّيح بنفسها قالِعة للأشجار ومُعدِمة للجَنّة، ومع ذلِك كانت ﴿فِيهِ نَارٌ﴾ شدَيدة مُحرِقة ﴿فَاحْتَرَقَتْ﴾ بها الجَنّة وأشجارُها، وذهبَتْ ثِمارُها، وخرِّبتْ ومَحَتْ آثارَها.

فانظُر كيف يبقىٰ صاحِب هذه الجَنّة مُتحيِّراً، حيث إنّه لا يجِدْ ما يعُود علىٰ نفسه وعِياله، ولا يَقْوىٰ أن يغرِس مِثلها ولا يُعِينه أحَدٌ مِن ذُرِّيّته، إذَن لكَوْنهم في غاية العَجْز والضَّعف، فليس لهم إلّا الهَلاك.

كذلك مَن يُنفِق ماله، أو يفعل الأعمال الحَسَنة، ثمّ يُحبِط أجرها بالمَنّ والأذىٰ والرِّياء وغيرِها مِن الآفات، لا ينتفِع بها يومَ القِيامة مع شِدّة الحَاجة إليها، فكما لا يَوَدّ أحدٌ أن يكون له شأن تِلك الجَنّة، كذلك لا يَوَدّ أن يُحبِط أجر أعماله وصَدَقاته، لكَونْ حَسْرَته وأسفه أشدّ مِن صاحِب الجَنّة.

﴿كَذٰلِكَ﴾ التَبيين الواضِح لسُوء عاقِبة المَنّ والأذىٰ والرّياء في الصَّدَقات والعِبادات ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ﴾ ويُوضِّح ﴿لَكُمُ ٱلآيَاتِ﴾ الدّالّة علىٰ وِلايته للمُؤمنين، والدّلائل المُثبِتة للشَّرْع المَتين، والعِبارات المُبيِّنة لحِكَم أحكام الدِّين ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ فيها، ولِكَي تتدبروها، وتعتبِروا بها، وتلتزِموا باتِّباعها.

يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِنَ ٱلْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلَّا أَن تُغْمِضُوا فِيهِ وَٱعْلَمُوا أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ [٢٦٧]

ثمّ أنّه تعالى بعدَما بَيّن شرائِط صِحّة الإنفاق، مِن حيث نِيّة المُنفِق وأخلاقه وسُلُوكه مع الفقير، بيّن شَرْط صِحّته أو كماله، مِن حيث نَفْس المال، بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا﴾ وتصدّقوا في سبيل الله ﴿مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾ بالتِّجارة مِن الأموال، ومِن جِياد ما استفدْتُم مِن الارباح.

رُوي أنّها نزلَتْ في قوم لهم مال مِن رِبا الجاهلِيّة، وكانوا يتصدّقون منه، فنهاهُم الله عن ذلك وأمرهم بالصَّدَقة بالحَلال[2].

وعن الصادق عليه السلام: «كان القوم قد كَسَبوا مَكاسِب [سُوء] في الجاهلِيّة، فلمّا أسلموا أرادوا أن

---

١. تفسيرالرازي٧: ٦٠. ٢. مجمع البيان٢: ٦٥٥.

يُخرِجوها مِن أموالهم ليتصدّقوا بها، فأبىٰ الله تبارَك وتعالىٰ إلّا أن يُخرِجوا مِن طيِّب[١] ما كسَبوا»[٢].

ورُوي أنّ الله طَيِّبٌ، ولا يقبَل إلّا الطيِّب[٣]، وعلىٰ هذا تكون الآية في بَيان شَرْط صِحّة الإنفاق.

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «أنّها نزلَتْ في قومٍ كانوا يأتون بالحَشَف فيُدخِلونه في تَمْر الصَّدَقة»[٤]. وعليه تكون بياناً لشَرْط كماله. ويُحتَمل أن يكون المُراد مِن الطيِّب القَدَر المُشتَرَك بَيْن الحلال والجَيِّد.

وقيل: إنّ شَرْط الحِلِّيّة مُستَفادٌ مِن الأمر حيث إنّ الإنفاق مِن الحَرام لا يُؤمر به، ومن قوله تعالى بعده: ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ﴾ والخَبيث هو الرّديء المُستخبَث، واعتِبار جَوْدة المال يُستفاد مِن قوله: ﴿طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾.

اعتراضٌ ودفعٌ

إن قيل: قد ثَبَت في الشَّرع علىٰ مَذْهب الإمامية وُجُوب أداء الخُمْس مِن المال المختلط بالحَرام، إذا لَم يُعلَم مالِكه وقَدْره ـ وهُو مُنافٍ لمَدلُول الآية مِن اعتِبار الحِلِّيّة في المال ـ فإنّ الأمر بأداء الخُمْس مِن المال المُختلِط بالحرام، أمرٌ بالإنفاق مِن المال الحَرام.

قلنا: يُستفاد مِن تَشْريع الخُمْس تحقُّق المُعاوَضة القَهريّة مِن مالِك المُلُوك الذي هُو وَلِيّ المُؤمنين، بأن يصِير مال الحرام حِين الاختِلاط مُلْكاً للمُتصرِّف بعِوَض الخُمْس الذي يصرِفه في مَصارِفه.

﴿وَ﴾ أنفِقوا ﴿مِمَّا﴾ مِن طَيِّبات ما ﴿أَخْرَجْنَا﴾ وأنبَتْنا ﴿لَكُم مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ من الحُبُوب والثِّمار والمَعادِن ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا﴾ ولا تقصِدوا حِين إرادة الإنفاق ﴿ٱلْخَبِيثَ﴾ مِن المال، وهُو المال الحرام، أو المَعيُوب حال كَوْنهم ﴿مِنْهُ﴾ خاصّة ﴿تُنفِقُونَ﴾ في سبِيل الله، وتختارون لأنفسكم الحَلال والجَيِّد. وفيه إشعارٌ بأنّه لا بأس بالإنفاق مِن الرّديء إذا كان كُلّ المال رَديئاً.

وقيل: إنّ قوله: ﴿مِنْهُ تُنفِقُونَ﴾ بتقدِير هَمْزة الاستِفهام التّوبيخي، فيكون المعنىٰ: أمِن الخَبيث تُنفِقون؟! ﴿وَ﴾ الحال أنكم ﴿لَسْتُم بِآخِذِيهِ﴾ مِن أخْذِه عِوَضاً مِن حُقُوقكم، أو في مُعاملاتكم في وقتٍ مِنَ الأوقات، أو بوَجْهٍ مِن الوُجُوه ﴿إِلَّا أَن تُغْمِضُوا﴾ وتُسامِحوا ﴿فِيهِ﴾ مَخافة فَوْت حَقِّكم، أو لاحتِياجكم إليه.

---

١. في الكافي: أطيب. ٢. الكافي ٤: ٤٨/١٠، تفسير الصافي ١: ٢٧٤.
٣. صحيح مسلم ٢: ٧٠٣/١٠١٥. ٤. مجمع البيان ٢: ٦٥٥، تفسير الصافي ١: ٢٧٥.

وقيل: إنّ المُراد أنّه لَوْ أُهدِي إليكم الرّديء لا تأخُذونه إلّا عن استِحْياءٍ وإغماض.

عن الصادق عليه السلام قال: «كان رسُول الله صلى الله عليه وآله إذا أمر بالنّخْل أن يُزكّىٰ، يَجيء أقوام بألوان مِنَ التّمْر هُو مِن أردأ التّمْر، يُؤدّونهُ مِن زكاتهم، تمرة يُقال لها الجُعْرُور[1] والمعافارة، قليلة اللّحاء، عظيمة النّواة، وكان بعضُهم يجيء بها عن [التمر] الجيّد، فقال رسُول الله صلى الله عليه وآله: لا تَخرُصوا هاتين التّمرتين، ولا تجِيئوا منهما بشيء. وفي ذلك نزَل: ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ﴾»[2] الخبر.

﴿وَٱعْلَمُوا أَنَّ ٱللهَ غَنِيٌّ﴾ عن إنفاقكم، وأمره به ليس لحَاجةٍ إليه، بل إنّما هُو لنَفْعكم وحاجتكم إليه في تكمِيل نُفوسكم ﴿حَمِيدٌ﴾ قيل: يعني مُستحِقٌّ للحَمْد علىٰ نِعَمِه عليكم، وقيل: إنّ مَعناه أنّه حامِدٌ علىٰ إعطاء الجَيّد، ومُثِيبٌ عليه.

وفي الأمر بالعِلْم إشعارٌ بأنّ إعطاء الرّديء لا يكون إلّا لأجل الجَهْل بغَنائه تعالىٰ، ولتَوهُّم حاجته واضطِراره إلىٰ هذا الرّديء، فيقبله البتّة، وأما إذا عَلِم أنّ ما يُعطِيه بمَنْزِلة البَذْر، ليحصُد حاصِله في يوم فَقْره وفاقته، فلابدَ مِن أن يُبالِغ في جَوْدَته.

ٱلشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَٱللهُ يَعِدُكُم مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلاً وَٱللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ[٢٦٨]

ثُمّ لمّا رغّب سُبحانه في الإنفاق بجِياد المال، وكان الشّيطان يمنَع عنه بوَسْوَسته، ويردَع عنه بتَسْويله، نبّه المُؤمنين به، وبقُبْح طاعته بقوله: ﴿ٱلشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ﴾ ويُوَسْوِس في قُلُوبكم أنّ عاقِبة إنفاقكم عدَم المال، وصفر اليَد، والابتِلاء بشِدّة الحاجَة ﴿وَيَأْمُرُكُم﴾ بتَسْويله ويُغريكم ﴿بِالْفَحْشَاءِ﴾ والقَبَائح العَقليّة مِن البُخْل ومَنْع الحُقُوق الواجِبة ﴿وَٱللهُ يَعِدُكُم﴾ في إنفاقكم ﴿مَغْفِرَةً﴾ وستراً كائِناً ﴿مِنْهُ﴾ لذُنُوبكم ﴿وَفَضْلاً﴾ وزيادةً في المال والأجر.

عن ابن مَسعُود: أنّ للشّيطان لَمّة[3]؛ وهِي الإيعَاد بالشّرّ، وللمَلَك لَمّة؛ وهِي الوَعْد بالخَيْر، فمَن وجَد ذلك فليَعْلَم أنّه مِن الله، ومَن وجَد الأوّل فليتعَوّذ بالله مِن الشّيطان الرّجِيم. ثمّ قرأ هذه الآية[4].

﴿وَٱللهُ وَاسِعٌ﴾ ومُنبسِطٌ فَضْله على المُنفِقين في وُجوه الخَيْر ﴿عَلِيمٌ﴾ بمُقدار إنفاقهم وخُلُوص

---

١. الجُعْرور: ضربٌ من التمر صغار لا يُنتفع به.
٢. الكافي ٤: ٩/٤٨، تفسير الصافي ١: ٢٧٥.
٣. لَمّة الشيطان: هي هَمّتُهُ وخَطْرتُه في قلب الإنسان.
٤. تفسير الرازي ٧: ٦٤.

نيّاتهم؛ فيُنجز ما وَعَده علىٰ إنفاقكم، ولا يُضِيع أجركم.

يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُوْلُوا ٱلْأَلْبَابِ[٢٦٩]

ثُمّ أنّه تعالىٰ ـ بعدما نبّه علىٰ وَعد الشيطان وتَسْويله، ووَعْد الرّحمٰن وإلهامه ـ أشار إلىٰ أنّ ترجيح الثاني علىٰ الأوّل مُتوقِّف علىٰ العَقْل السليم والعِلْم والتّوفيق للعَمَل بقوله: ﴿يُؤْتِى﴾ الله ﴿الحِكْمَةَ﴾ قيل: هي العِلْم، وتَوفِيق العَمَل[١].

عن الصادق عليه‌السلام: «الحِكمة: المَعْرفة، والفِقْه في الدِّين، فمن فَقِهَ مِنكم فهُو حَكيم، وما [من] أحد يَمُوت من المؤمنين أحبُّ إلىٰ إبليس مِن فَقِيهٍ»[٢].

وعنه عليه‌السلام قال: «طاعَةُ الله، ومَعْرِفة الإمام»[٣].

وعنه عليه‌السلام في رواية اُخرى: «مَعْرِفة الإمام، واجتِناب الكَبائِر»[٤].

وقيل: هِي القُرآن وما فيه مِن المَواعِظ وعَجائِب الأسرار[٥]. ومَرجِع الجَميع إلى المعنىٰ الواحد، وهُو مَعْرِفة الله والعِلْم بالأحكام، ومِن الواضِح أنّ طريقهما مُنحصِرٌ بمَعْرفة النبيّ والإمام، والعِلْم بحِقيقة القُرآن وأسراره.

والتّوفيق للعَمَل مُلازِمٌ لهذه المَعَارِف، فإنّ جميعها هُو الحِكْمة التي تكون فَضْلاً مِن الله يُعطيه ﴿مَن يَشَاءُ﴾ ويختاره مِن النُّفُوس الزّكِيّة والذّوات الطَيِّبة ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ﴾ مِن قِبَل الله، وبإفاضته وتفضلُه ﴿فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً﴾ ونَفْعاً ﴿كَثِيراً﴾ لا يَعْدِله خَيْرٌ في الدُّنيا والآخِرة.

عن الصادق عليه‌السلام: «الحِكْمة ضِياء المَعْرِفة، ومِيرَاث[٦] التّقوىٰ، وثَمَرة الصِّدْق. وما أنعَم الله علىٰ عِباده بنِعْمة أنْعَم وأعظَم وأرفَع وأبهىٰ مِن الحِكْمة»[٧].

قيل: إنّما سمّىٰ الله الدُّنيا بأسرها قليلاً حيثُ قال: ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾[٨]. وَسمّىٰ الحِكْمة خَيْراً

---

١. تفسير روح البيان ١: ٤٣١.
٢. تفسير العياشي ١: ٦٠٣/٢٧٦، تفسير الصافي ١: ٢٧٦
٣. الكافي ١: ١١/١٤٢، تفسير الصافي ١: ٢٧٦.
٤. الكافي ٢: ٢٠/٢١٦، تفسير الصافي ١: ٢٧٦.
٥. تفسير الرازي ٧: ٦٧.
٦. في مصباح الشريعة: وميزان.
٧. مصباح الشريعة: ١٩٨، تفسير الصافي ١: ٢٧٦، وفي مصباح الشريعة: الحكمة للقلب.
٨. تفسير الرازي ٧: ٦٧، والآية من سورة النساء: ٧٧/٤.

كثيراً؛ لأنّ الدُّنيا مَحدُودة مِن جميع الجِهات، والعِلْم لا نِهاية لمَراتِبه ومُدّة بقائه، فالعِلْم والحِكْمة خَيْرٌ مِن الدُّنيا وما فيها.

﴿وَمَا يَذَّكَّرُ﴾ لِتلك الفَضيلة، ولا يتَنبّه لهذه المَزِيّة للحِكْمة أحدٌ ﴿إِلَّا أُوْلُوا ٱلْأَلْبَابِ﴾ وذوو العُقول السَّليمة، الخالِصة عن شوائِب الأوهام، الغالِبة علىٰ الشَّهَوات. وهُم الحُكَماء الرّبانِيّون والعُلَماء بالله، لوضُوح أنّ مَن لا غَلَبة لعَقْله علىٰ هَوَاه ليس له ذلِك التّنبُّه والاتِّعاظ.

وَمَا أَنْفَقْتُم مِن نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِن نَذْرٍ فَإِنَّ ٱللهَ يَعْلَمُهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ[٢٧٠]

ثُمّ أنّه تعالىٰ ـ لشِدّة الاهتِمام بالانفاق الذي هو أحسن الأعمال وأنفعها ـ أكّد أمره به بالوَعْد بالثّواب العَظيم، والتّحذير عن تَرْكه بالعِقاب الشّديد، بقوله: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُم﴾ في سبيل الله ﴿مِن نَفَقَةٍ﴾ وبأيّ شيءٍ تصدّقتم مِن قليلٍ أوكثير، في حَقٍّ أو باطِل، في سِرٍّ أو عَلانية ﴿أَوْ نَذَرْتُم﴾ والتَزمتُم علىٰ أنفسكم ﴿مِن نَذْرٍ﴾ والتِزام مُعلّق أو مُطلَق، في طاعة كنَذْر أمير المؤمنين وفاطمة عليهما السلام صيام ثلاثة أيّام لشِفاء ولدهما، أو مَعصِية كنَذْر نُسْوة مِن قبيلة بني أود أن تنحَر كُلّ واحِدةٍ مِنهُن عَشْر قَلائِص[1] إن قُتِل الحسين عليه السلام، علىٰ ما نقله ابن أبي الحديد[2] ﴿فَإِنَّ ٱللهَ يَعْلَمُهُ﴾ فيُثيب علىٰ مُستَحْسَنها، ويُعاقِب علىٰ قبيحها. وفيه ـ مع كمَال اختِصاره ـ وَعْدٌ عظيم وَوَعِيدٌ شديد.

ثمّ أكّد الوعيد بقوله: ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ﴾ علىٰ أنفسهم بتَرْك الإنفاق الواجِب، أو إبطاله بالرِّياء والسُّمْعة أو المَنّ والأذىٰ، أو بالصَّرْف في تشييد الكُفْر وتضعيف الحَقّ، أو بنَذْره في المعصِية ﴿مِنْ أَنْصَارٍ﴾ وأعوان مُدافِعين عنهم بأس الله وعذابه، فلا شَفاعة ولا مُدافَعة. وإيراد (الأنصار) بصيغة الجَمْع لمُقابلة الجَمْع وهُو (الظالمين) وعَطْف النَّذْر علىٰ الإنفاق، لغَلَبة استِلزامه إيّاه.

إِن تُبْدُوا ٱلصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُم مِن سَيِّئَاتِكُم وَٱللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ[٢٧١]

---

١. القَلائِص: جمع قَلُوص، والقَلُوص من الإبل: الفتية من حين تركب إلى التاسعة من عمرها.

٢. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٤: ٦١.

ثمَ بَيّن سُبحانه مَراتِب رُجحان الصَّدَقات مِن حيث الإعلان والإسرار، وتفاوتهما في الأجر بقوله: ﴿إن تُبْدُوا﴾ وتُظهِروا ﴿ٱلصَّدَقَاتِ﴾ المَفرُوضة والمَندُوبة، كما هُو ظاهِر عُمُوم اللَفظ ﴿فَنِعِمَّا هِيَ﴾ أي شَيءٌ مَمْدوح، ذلك الإبداء عِنْد الله إنْ سَلِم مِن السُّمعة والرِّياء.

﴿وَإِن تُخْفُوهَا﴾ مِن النّاس ﴿وَتُؤْتُوهَا﴾ الذِين عَلِمْتُموهم ﴿ٱلْفُقَرَاءَ﴾ وغير المَالِكين مُؤنة سَنَتهم ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ وأحسَن وأفْضل عِنْد الله مِن الإبداء، حيث إنّ الإعطاء في الخَفَاء أبعد مِن الرِّياء، وأحفظ لعِرْض الفُقَراء.

قيل: وَجْه التَصريح عِنْد الإخفاء بالإيتاء للفقراء ـ مع أنّه واجِب في الإبداء أيضاً ـ أنّ الإخفاء مَظنَّة الالتِباس، فإنّ الغَنِيّ رُبّما يدّعي الفَقْر ويقبَل الصَّدَقة سِرّاً، ولا يفعل ذلِك عِنْد النّاس[1].

﴿وَيُكَفِّرُ﴾ الله ويستُر ﴿عَنكُم﴾ بعَفوه بعَضاً ﴿مِن سَيِّآتِكُم﴾ وشيئاً مِن ذُنُوبكم، وقيل: إنّ (مِن) زائدة، والمعنىٰ: يمحُو عنكم جميع ذُنُوبكم[2]. فجعل الله سِتْر الذُّنُوب جَزاءً لستر الصَّدَقات.

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ مِن الصَّدقات وسائر العِبادات، ولو كان في السِّرّ والخُفْيَة ﴿خَبِيرٌ﴾ ومُطّلِع، فمَن يطلُب بها مرضاة الله يحصل مَطلُوبه بإتيانها في السِّرّ، إذْ لا تخفىٰ علىٰ الله خافية.

عن النبيّ ﷺ: «صَدَقة السِّرّ تُطفِئ غَضَب الرّبّ، وتَدْفع[3] الخطيئة، كما يُطفئ الماء النّار، وتدفع سبعين باباً مِن البلاء»[4].

وعنه ﷺ: «سبعة يُظِلُّهم الله بظِلّه يوم لا ظِلّ إلّا ظِلّه ـ إلى أن قال ـ: ورجُل تصدّق بصَدَقةٍ فأخفاها، حتىٰ لا تعلَمُ يمينُه ما أنفَق بشِماله»[5].

وعن الباقر عليه السلام، في قوله عزّ وجلّ: ﴿إن تُبْدُوا ٱلصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ﴾ قال: «يعني الزّكاة المَفرُوضة» قال: قلتُ: ﴿وإن تُخفُوها وتُؤتُوهَا الفُقَراء﴾؟ قال: «يعني النّافِلة»[6].

وعن الصادق عليه السلام، في قوله: ﴿تُخْفُوهَا﴾ قال: «هِي سِوىٰ الزّكاة، إنّ الزّكاة عَلانِيَة خَيرٌ له»[7].

وعنه عليه السلام: «فإنّ كُلّ ما فَرَض الله عليك فإعلانه أفضل مِن إسراره [وكُلّ ما كان تطوّعاً فإسراره أفضل مِن إعلانه] ولَو أنّ رَجلاً حمَل زكاته على عاتِقه، فقسّمها عَلانِيَة، كان ذلك حسَناً جَميلاً»[8].

---

١. تفسير روح البيان ١: ٤٣٢ و٤٣٣. ٢. تفسير الرازي ٧: ٧٦. ٣. في مجمع البيان: وتطفئ.
٤. مجمع البيان ٢: ٣٨٥. طبعة شركة المعارف الإسلامية. ٥. مجمع البيان ٢: ٦٦٣.
٦. الكافي ٤: ١/٦٠. ٧. الكافي ٣: ١٧/٥٠٢، وفيه: علانية غير سِرّ. ٨. الكافي ٣: ١٦/٥٠١.

وعن ابن عبّاس ﵁: صَدَقة السِّرّ في التَّطوُّع تفضُل عَلانِيَتها بسَبعين ضَعفاً، وصَدَقة الفَريضة عَلانِيَتُها أفضل مِن سِرِّها بخمسةٍ وعشرين ضِعفاً[1].

لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلٰكِنَّ ٱللهَ يَهْدِى مَن يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلأَنْفُسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَاءَ وَجْهِ ٱللهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ[٢٧٢]

ثمّ أنّه قيل: لمّا كثُر المُسلِمون[2] نهىٰ رسُول الله ﷺ عن الإنفاق علىٰ المُشركِين حتّىٰ تحمِلهم الحاجةُ علىٰ الدُّخول في الإسلام، فنزلَتْ[3] ﴿لَيْسَ﴾ بالواجب ﴿عَلَيْكَ هُدَاهُمْ﴾ وإرشادهم جبراً، وإدخالهم في دين الإسلام اضطِراراً، بَل إنّما عليك البَلاغ والإرشاد بالبَيان والدّعوة إلىٰ الحَقّ، والمُجادَلة بالتي هي أحسن والوَعْظ والنُّصح ﴿وَلٰكِنَّ ٱللهَ﴾ بتَوْفيقه وتأييده ﴿يَهْدِى﴾ ويُوصِل إلىٰ الحَقّ ﴿مَن يَشَاءُ﴾ هِدايته وإيصاله إليه مِن النُّفُوس الزكِيّة والذَّوات المُستعِدّة القابِلة التّابِعة للعَقْل.

ورُوي أنّ نتيلة اُمّ أسماء بِنْت أبي بكر جاءتْ إلىٰ ابنتها تسألها، وكذلك جدّتها ـ وهما مُشرِكتان ـ فقالت: لا اُعطِيكما حتىٰ أستأمر رسُول الله ﷺ، فإنّكما لستُما علىٰ ديني، فاستأمَرتْهُ في ذلك، فنزلَتْ [الآية] فأمرها رسُول الله ﷺ أن تتصدّق عليهما[4].

وقيل: كان اُناس مِن الأنصار لهم قَرابة مِن قُريظة والنّضير، وكانوا لا يتصدّقون عليهم، ويقولون ما لَمْ تُسلِموا لا نُعطِيكم شيئاً[5].

وقيل: جيء بها علىٰ طريق تَلْوين الخِطاب، وتَوْجِيهه إلىٰ شَخْص النبيّ ﷺ للمُبالَغة في إقبال المؤمنين علىٰ الامتثال.

ثمّ صرّح بتأكُّد رُجْحانه وكَثْرة الثواب عليه لعُمُوم المؤمنين بقوله: ﴿وَمَا تُنفِقُوا﴾ وأي شيءٍ تتصدّقوا أيُّها المُسلِمون ﴿مِنْ خَيْرٍ﴾ ومال، كان المُنفَق عليه كافِراً أو مُسلِماً ﴿فَلأنفُسِكُمْ﴾ نَفْعُه وثَوابُه، لا لغَيْركم، ولا يضُرّكم كُفْرُ الفَقير.

---

١. تفسير أبي السعود ١: ٢٦٤، تفسير روح البيان ١: ٤٣٣.

٢. في تفسير أبي السعود وتفسير روح البيان: كثر فقراء المسلمين.

٣. تفسير أبي السعود ١: ٢٦٤، تفسير روح البيان ١: ٤٣٤.

٤. تفسير الرازي ٧: ٧٦.

٥. تفسير الرازي ٧: ٧٦.

﴿وَمَا تُنفِقُونَ﴾ ولا تتصدّقون علىٰ المُشركين ـ ولو كانوا مِن أرحامكم وأقاربكم ـ لعِلَةٍ مِنَ العِلَل، أو وَجْهٍ مِن الوُجوه ﴿إِلَّا ٱبْتِغَاءَ وَجْهِ ٱللهِ﴾ وطَلَباً لمَرضاته، لا لتأييدهم في كُفرهم، ولا للرُّكون إليهم في باطِلهم، فإنّ الله عالِمٌ بما في قُلوبكم مِن الإخلاص، وقَصْد صِلَة الرَّحِم، وسَدّ خَلَّة المُضطرّ. وأمّا تَلَبُّسهم بالكُفْر فليس بمانعٍ عن الإنفاق، إلّا إذا كان مِن الصَّدَقات المَفرُوضة كالزّكاة والفِطرة، أو كان في الإنفاق عليهم تَقْويةُ الباطِل وتَضْعيف الحَقّ، ففي الصُورتين لا يجوز الإنفاق علىٰ غير أهل الحَقّ.

ثمّ بالنَّظر إلىٰ العَداوة الدِّينيّة بَيْن المُسلمين والكُفّار الرّادِعة للمُسلمين عن الإنفاق عليهم، وقُوّة توهُّم مَرجُوحيّة الإنفاق عليهم في نَظَر المُسلمين، أكّد الله سُبحانه فَضْله وكَثْرة ثوابه بقوله: ﴿وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ﴾ ومالٍ علىٰ المُسلِم أو الكافِر ﴿يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾ أجرُه المُضاعَف، ويُوَفَّر لكم ثَوابه، مُضافاً إلى مايُخلِفه كما رُوي عنه ﷺ: «اللهمّ اجْعَل للمُنفِق خَلَفاً، وللمُمسِك تَلَفاً»[1].

﴿وَأَنتُمْ﴾ أيُّها المُنفِقون لوَجْه الله ﴿لَا تُظْلَمُونَ﴾ في حَقِّكم، ولا تُنقَصون مِن أجركم، فلا ينبغي التّسامُح فيه.

قال بعضٌ: لو كان الفَقير شَرّ خَلْق الله، لكان لكَ ثَواب نَفَقَتك[2].

لِلْفُقَرَاءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ ٱللهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْباً فِي ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافاً وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللهَ بِهِ عَلِيمٌ[٢٧٣]

ثمّ أنّه تعالىٰ لمّا بَيّن تَعْميم استِحباب الصَّدقة للمُؤمن والكافِر، بيّن أولويّة المُؤمنين الخُلّص؛ بالإنفاق، وأفضليّة التَصدُّق عليهم بقوله: ﴿لِلْفُقَرَاءِ﴾ مِن المُؤمنين الخُلّص، اجْعَلوا صَدَقاتكم، وهم ﴿ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا﴾ وحُبسوا عن تحصِيل المَعَاش، لاستِغراق أوقاتهم بالعِبادات مِن الجِهاد ﴿فِي سَبِيلِ ٱللهِ﴾ ونُصْرة الدِّين، ومنهم العُلَماء المُروِّجون للشَّرع، والمُشتغِلون بتَحْصيل العُلُوم الدِّينيّة، فإنّهم ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ لكَثْرة اشتِغالهم بالعِبادات والمَهام الإسلاميّة ﴿ضَرْباً﴾ وسَيْراً ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ للتِّجارة، وطَلَب المَعيشة.

ذكر أصحاب الصّفة وأوصافهم

قيل: نزلَتْ في فُقَراء المُهاجِرين، وكانوا نَحْواً مِن أربعمائة، لم يكُن لهم مَسكن

---

١. تفسير أبي السعود ١: ٢٦٥.
٢. الكشاف ١: ٣١٧، تفسير الرازي ٧: ٧٨.

وعشائر بالمدينة، وكانوا مُلازمين للمَسْجد ساكِنين في صُفَّته[١]؛ وهي مُسَقَّفة، يتعَلَّمون القُرآن باللَّيل، ويستَغْرِقون أوقاتهم بالتَّعلُّم والعِبادة والجِهاد، ويَخرُجون في كُلّ غَزْوة وسَرِيّة بعثَها رسُول الله ﷺ[٢].

عن ابن عَبّاس، قال: وقف رسُول الله ﷺ يوماً علىٰ أصحاب الصُّفَّة، فرأى فَقْرهم وجَهْدهم[٣]، فطَيَّب قُلُوبهم فقال: «أبشِروا يا أصحابَ الصُّفَة، فمَن لقِيَني مِن اُمّتي علىٰ النَّعْت الذي أنتم عليه: راضياً بما فيه، فإنّه مِن رفقائي»[٤].

وعن ابن عبّاس ﵁، في تفسير الآية قال: هؤلاء قَوْم[٥] حَبَسهم الفَقْر عن الجِهاد في سبيل الله، فعذَرهم الله[٦].

ثمّ بَعْد بَيان واقِع حالهم، بيّن حال عِشْرتهم وسُلُوكهم مع النّاس بقوله: ﴿يَحْسَبُهُمُ﴾ ويظُنّهم ﴿الجَاهِلُ﴾ بحالِهم وشأنهم غير المُختبِر لأمرهم كَوْنهم ﴿أَغْنِيَاءَ مِنَ﴾ أجل غاية ﴿ٱلتَّعَفُّفِ﴾ وكَفّ النَّفْس عن مسألة النّاس، وإظهار الحَاجة إليهم. رُوي أنّهم كانوا يقومون باللّيل للتَّهجُّد، ويحطِبون بالنَّهار للتّعَفُّف[٧].

ثمّ كأنّه قيل: فكيف يُعرَف فَقْرُهم؟ فقال سبحانه: ﴿تَعْرِفُهُم﴾ بالفَقْر والفَاقة ﴿بِسِيمَاهُمْ﴾ وعلامات الفَقْر فيهم من صُفْرة اللّون، ونُحُول الجِسْم، وضَعْف القُوىٰ، ورثَاثة الثِّياب، وأمثال ذلك.

ثمّ لمّا كان الإنسان لا يَكاد يَخْلوا عن الاضطِرار إلىٰ السؤال وطلَب الحاجة مِن الغَيْر، ولو بالغ في التّعفُّف، وصفهم سُبحانه ـ بَعْد توصِيفهم بالمُبالَغة في التّعفُّف ـ بأنّهم قومٌ إذا اضطرّوا إلىٰ سؤال حاجةٍ دُنيويّة ﴿لَا يَسْئَلُونَ النَّاسَ﴾ حاجتَهم ﴿إلْحَافاً﴾ وإلحاحاً.

عن ابن مَسعود: أنّ الله يُحِبّ العَفيف المُتَعفِّف، ويَبْغُض الفاحِش البذيء.

وقيل: السائل المُلحِف: الذي إن اُعطِي كثيراً أفرَط في المَدْح، وإن اُعطي قليلاً أفرَط في الذَّمّ[٨].

وعن رسُول الله ﷺ: «لا يفتَح أحدٌ بابَ مَسألةٍ إلّا فتَح الله عليه باب فَقْرٍ، ومَن يستَغْنِ يُغْنِه الله، ومن يستعفف يعفَه الله، لأن يأخُذ أحدُكم حَبْلاً يحتَطِب فيَبيعه بمُدّ مِن تَمْر، خَيْر له مِن أن يسأل

---

١. الصُّفَّة: المكان المظلّل في مسجد المدينة، حيث كان يأوي إليه فقراء المهاجرين ويرعاهم الرسول ﷺ، وهم أصاب الصُفَّة.
٢. تفسير الرازي ٧: ٧٩.
٣. في تفسير الرازي: وجدهم.
٤. تفسير الرازي ٧: ٧٩، وفيه: من رفاقي.
٥. زاد في تفسير الرازي: من المهاجرين.
٦. تفسير الرازي ٧: ٨٠.
٧. تفسير الرازي ٧: ٨١.
٨. تفسير الرازي ٧: ٨١.

النّاس»[١].

وعنه صلى الله عليه وآله: «لأن يأخُذ أحدُكم حَبْله، فيذهب فيأتي بحُزمة حَطَبٍ على ظَهره، فيَكُفَ بها وَجْهه، خَيرٌ له مِن أن يسأل النّاس أشياءهم؛ أعطَوْه أو مَنَعُوه».

وعنه صلى الله عليه وآله: «إنّ الله يُحِبّ الحَيِيّ الحَلِيم المُتَعَفِّف، ويبغُض البذيء السّائل المُلحِف»[٢].

وقيل: إنّ المُراد مِن الآية نَفي السُّؤال والإلحاف جميعاً، أي لا يسألون النّاس أصلاً فيكون إلحافاً[٣].

ثمّ حَثّ سُبحانه على مُطلق الإنفاق، سيّما على المَوصُوفِين بتِلْك الصِّفات، بأبلَغ بيانٍ وأخصره وأوجزه بقوله: ﴿وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ﴾ ومالٍ، أو مِن كُلّ ما وجدتُموه، مِمّا ينتَفِع به الغَيْر؛ عِلْماً أو جاهاً أو مالاً ﴿فَإِنَّ اللهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ فيُجازيكم به أحسَن الجَزاء.

﴿ٱلَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِالَّيلِ وَٱلنَّهَارِ سِرّاً وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَانُ مِنَ ٱلْمَسِّ ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَا وَأَحَلَّ ٱللهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَا فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِن رَبِّهِ فَانْتَهَىٰ فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى ٱللهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولٰئِكَ أَصْحَابُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * يَمْحَقُ ٱللهُ ٱلرِّبَا وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَاتِ وَٱللهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ [٢٧٤-٢٧٦]

ثمّ بيّن شُمُول حُسْن الإنفاق لجميع الأوقات والأحوال بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُم﴾ في أيّ وَقْتٍ مِن الأوقات كان ﴿بِالَّيلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ وفي أيّ حالٍ مِن الأحوال كان ﴿سِرّاً وَعَلَانِيَةً﴾ لا يخُصّون إنفاقهم بوَقْتٍ دون وَقت، وبحالٍ دون حال. ولعَلّ وَجْه تقديم اللّيل والسِّرّ، مَزيّتهما على النّهار والعَلانِيَة ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾ وثَوابهم المَوعُود المُدّخر ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ ومَليكهم اللّطيف بهم ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ مِن مَكرُوهٍ آت ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ مِن مَحبُوبٍ فات.

ذكر فضيلة لأمير المؤمنين عليه السلام

عن ابن عبّاس رضي الله عنه: أنّ علياً عليه السلام ماكان يملِك غَير أربعة دَراهم؛ فتصدّق بدِرْهَمٍ ليلاً، وبدِرْهَمٍ نهاراً، وبدِرْهَمٍ سِرّاً، وبدِرْهَمٍ عَلانِيَةً. فقال النبيّ صلى الله عليه وآله: «ما حمَلَك على هذا»

---

١. وكذا. ٢. تفسير روح البيان ١: ٤٣٥.

٣. تفسير روح البيان ١: ٤٣٥.

فقال عليه السلام: «استَوجِبُ ما وعدَني ربّي» فقال صلوات الله عليه: «لكَ ذلِك» فأنزل الله هذه الآية[١].

وعن العيّاشي والطّبرسي: عن الصادقين[٢] عليهما السلام، ما يقرُب مِنه[٣].

ومِن عجائِب الرِّوايات ما عن الزّمخشري، وبعض العامّة: أنّها نزلَتْ في أبي بكر حين تصدّق بأربعين ألف دينار؛ عَشْرة آلاف في اللّيل، وعَشْرة آلاف في النّهار، وعَشْرة آلاف في السِّرّ، وعَشْرة آلاف في العَلانِيَة[٤]. فإنّه لَم يُنقَل أنّ أبا بكر كان في زمان شِرْكه غنيّاً، بل المَنقول أنّه وأباه كانا في مكّة مِن الفُقَراء، ولَيْتَ شِعْري، مِن أين وَجَد في المدينة تِلك الثّروة العظيمة؟

وعن بعض العامّة: أنّه لمّا نزَل قولُه تعالىٰ ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِى سَبِيلِ اللهِ﴾ بعَث عبدَالرّحمٰن بن عَوْف إلى أصحاب الصُّفَّة بدنانير، وبعث عليّ عليه السلام بوَسْقٍ[٥] مِن تَمْرٍ ليلاً، فكان أحبّ الصّدَقَتَيْن إلى الله صدَقَته[٦]. ويُمكِن القَول بوُقُوع كِلْتا الصّدقتَيْن مِن أمير المؤمنين عليه السلام.

وعن الفقيه: أنّها نزلَتْ في النفقة علىٰ الخَيْل[٧].

وعن أبي هُرَيرة، أنّه إذا مَرّ بفَرَس سمين قرأ هذه الآية[٨].

والحَقُّ أنّها نزلَتْ في شأن أمير المؤمنين عليه السلام لاتّفاق رِوايات الخَاصّة والعامّة عليه، فلا يُعبأ بغَيرِها.

بيان معنى الرّبا وأقسامه

ثمّ لمّا كان بَيْن النَّفقة والرِّبا مُناسبة التَّضادّ ـ حيث إنّ الإنفاق مُوجِبٌ لتنقيص المال مع رُجْحانه والأمر به، والرِّبا مُوجِبٌ لازدِياد المال مع مَبغُوضيّته والنّهي عنه ـ عقّب سُبحانه بيان أحكام النّفَقات ببيان جُملةٍ مِن أحكام الرِّبا بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَا﴾ ويتعاملون في مُتّحدِي الجِنْس بزيادةٍ ويأخذونها. قيل: عبّر عن التّصرُّف بالأكل؛ لأنّه المَقصُود الأعظم منه، ولشُيُوعه في المَطعُومات.

قال الفاضل المقداد رحمه الله: كان الرّجُل في الجاهليّة إذا حَلّ له دَيْنٌ علىٰ غيره وطالَبه، يقول له الغَريم: زِدْني في الأجل [حتى] أزيدَك في المال[٩].

---

١. تفسير الرازي ٧: ٨٣.
٢. في تفسير العياشي: عن أبي إسحاق.
٣. تفسير العياشي ١: ٦٠٧/٢٧٧، مجمع البيان ٢: ٦٦٧.
٤. الكشاف ١: ٣١٩، تفسير الرازي ٧: ٨٣، تفسير روح البيان ١: ٤٣٥.
٥. الوَسْقُ: مِكْيَلةٌ معلومة، وهي ستون صاعاً، والصاع خمسة أرطال وثلث.
٦. تفسير الرازي ٧: ٨٣.
٧. من لا يحضره الفقيه ٢: ٨٥٢/١٨٨، تفسير الصافي ١: ٢٧٨.
٨. تفسير الرازي ٧: ٨٣.
٩. كنز العرفان ٢: ٣٥.

أقول: الرِّبا في الشَّرع قِسْمان: رِبا المُعاوَضة، ورِبا القَرْض.

أمّا الأوّل: فهُو مُعاوضةُ جِنْسٍ بجِنْسه -إذا كانا مَكِيلَيْن أو مَوزونَيْن- مع الزِّيادة في أحد العِوَضين. فيُعتَبر في الرِّبا المُعامَلي أمران: اتّحاد الثَّمَن والمُثْمَن في الجِنْس، وكَوْنه مَكيلاً أو مَوزوناً. فإذا تحقّق الشَّرْطان تُعتبَر المُساواة، وتحرُم الزِّيادة، بِلا خِلافٍ نَصّاً وفَتْوىً، سَواءٌ كانَتْ المُعامَلة بصِيغة البَيْع أو الصُّلْح أو غيرهما على الأظهر، لإطلاق الرِّوايات وعُمُوم العِلّة.

وأمّا الثاني: فهُو إقراضُ مالٍ -مَكيلاً كان أو مَوزوناً، أو غيرهما- مع شَرْط النَّفْع بالعَيْن، أو الصِّفة، أو تَمْديد أجَل الدَّين بشَرْط النَّفْع.

ولا رَيْب أنّه بكِلا قِسْمَيْه مِن الكبائر، حيثُ أوعَد الله الآكِلين له والمُتصرِّفين فيه بأنّهم ﴿**لَا يَقُومُونَ**﴾ مِن قُبُورهم حين بَعْثِهم منها ﴿**إِلَّا كَمَا يَقُومُ**﴾ المَصْرُوع ﴿**ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ**﴾ ويصرَعه ﴿**ٱلشَّيْطَانُ مِنَ ٱلْمَسِّ**﴾ قيل: إنّ مِن عذاب آكِل الرِّبا أنّه يُحشَر في القِيامة مَجنوناً، ويكون ذلك سِيماهُم يعْرَفون به في المَحْشَر.

وقيل: إنّ التَّعبير عن الجُنُون أو الصَّرع بالخَبْط الحاصِل مِن مَسِّ الشَّيطان، مَبنِيٌّ على زَعْم العَرَب مِن كَوْن الجُنُون والصَّرع حاصلين مِن مَسّ الشَّيطان والجِنّ.

وقيل: إنّ آكِل الرِّبا يعظُم بَطْنُه في المَحْشَر، بحيث يقوم ويسقُط مِن ثِقْله، وسائر النّاس يُوفِضُون إلى المَحْشَر، وهُو لا يقدِر على سُرْعة المَشْي، بَل لعُظْم بَطْنه وثِقْله بسبَب أكل الرِّبا، ينهَض ويسقُط كالمَصْروع[1]، لا أنّه يصِير مَصْروعاً أو مَجنوناً.

عن القُمّي ﵀ و (المجمع): عن الصادق ﵇ قال: «قال رسُول الله ﷺ: لمَا أُسري بي إلى السَّماء رأيتُ قوماً يُريد أحدُهم أن يقوم فلا يقدِر لعُظم بَطْنه، فقلتُ: مَن هؤلاء يا جَبْرئيل؟ قال: هؤلاء الذِين يأكلون الرِّبا، لا يقومون إلّا كمَا يقوم الذي يتخبّطه الشّيطان من المَسّ، فإذا هُم بسَبيل آل فِرْعون يُعرَضون على النّار غُدُوّاً وعَشِيّاً، يقولون: ربّنا متى تقوم السّاعة» الخبر[2]. وفيه دَلالةٌ على وُجود عالَم الصُّوَر والمِثال.

﴿**ذَٰلِكَ**﴾ العَذاب المُقرَّر للمُربين[3] مُعَلّل ﴿**بِأَنَّهُمْ**﴾ بَنَوا على حِلِّيّة الرِّبا، حتّى جعَلوه أصلاً، وشبّهوا

---

١. تفسير روح البيان ١: ٤٣٦.

٢. تفسير القمي ١: ٩٣، مجمع البيان ٢: ٦٦٩، تفسير الصافي ١: ٢٧٨.

٣. المُرْبِي: من يأتي الربى.

البَيْع به في الحِلِّيَة و﴿قَالُوا إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ﴾ في الحِلِّيَة، وفي الفائِدة ﴿مِثْلُ الرِّبَا﴾ فكما يجُوز بَيْعُ سِلْعة تكون قيمتُها دِرْهماً بِدرهَمين، كذلك يجُوز بَيْعُ عَيْن الدِّرْهَم بدِرْهَمين، وكما يجُوز بَيْع ما يُساوي دِرْهماًبدِرْهَمين إلىٰ شَهر، يجُوز بَيْع دِرْهَم أو قَرْض دِرْهَم بدِرْهَمين أو بشَرْط أداء دِرْهَمين إلىٰ شَهر لعَدَم الفَرْق عقلاً. فنظَموا الرِّبا والبَيْع في سِلْكٍ واحِد، لإفضائهما إلىٰ الرِّبْح، فخالَفوا الله بهذه التَسْوِية الاعتِبارية التي لا اعتِبار بها.

فردّ الله عليهم بقوله: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ﴾ العالِم بحَقائِق الأشياء، وواقِعِيّات مصالِح الأمور ومفاسِدها ﴿ٱلْبَيْعَ﴾ لوُجوب مِلاك حُسْنِ تَرْتِيب الأثر فيه، ومُعامَلة الصِّحّة معه ﴿وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ لوُجود مِلاك القُبْح فيه، وترتُّب الفَساد عليه. فعليكم التَسْلِيم والانقِياد لقُصُور عَقْلكم، والدِّين والأحكام لا يُصاب بالعُقُول القاصِرة.

عن (الكافي): «إنّما حَرّم الله الرِّبا لِئلّا يمتَنِع النّاس مِن اصطِناع المَعروف»[١].

أقول: الظّاهِر أنّ المُراد بالمَعرُوف هُنا القَرْض الحَسَن والمُواساة والإحسان بالإخوان.

﴿فَمَن جَآءَهُۥ﴾ وبلَغه ﴿مَوْعِظَةٌ﴾ وزَجْرٌ ﴿مِن رَّبِّهِۦ﴾ عن أكل الرِّبا لتربِيَته بالخِصال الحَسَنة، وصَرْفه عن الأخلاق السيِّئة علىٰ حَسْب وظيفة الرُّبوبيّة ﴿فَٱنتَهَىٰ﴾ عنه واتَّعظ بالمَوعِظة الإلٰهِيّة واتَّبع النَّهْي وتاب ﴿فَلَهُۥ﴾ مِن تِلْك الزِّيادة ﴿مَا سَلَفَ﴾ أخْذُه، وأخَذَه قَبْل العِلْم بالنَّهْي.

عن (الكافي) و(الفقيه): عن الصادق عليه السلام: «كُلّ رِباً أكلَه النّاس بجَهالة ثمّ تابوا، فإنّه يُقْبَل مِنهم إذا عُرِف مِنهم التَّوبة».

وقال: «لَو أنّ رَجُلاً ورِث مِن أبيه مالاً، وعَرَف أنّ في ذلك المال رِباً، ولكن قد اخْتَلط في التِّجارة بغيره حلالاً[٢]، كان حلالاً طيِّباً فليأكله، وإن عرَف مِنه شيئاً معزولاً [أنه رِباً] فليأخُذْ رأس ماله وليَرُدَّ الرِّبا، وأيّما رَجُلٍ أفاد مالاًكثيراً قد أكثر فيه [من] الرِّبا، فجهِل ذلك ثمّ عرَفه بَعْدُ، فأراد أن ينزِعه، مضىٰ فلَهُ، ويدَعه فيما يُستأنَف»[٣].

﴿وَأَمْرُهُۥٓ﴾ وشأنه راجع ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ يُجازيه في الآخرة بحَسَب ما عِلم مِن صِدْق نِيّته في الانتِهاء، وقيل: يحكُم في شأنه في القِيامة[٤]. وليس مِن أمره إليكم شيء فلا تُطالِبوه به.

---

١. الكافي ٥: ٨/١٤٦، تفسير الصافي ١: ٢٧٩.
٢. في الكافي: حلال.
٣. الكافي ٥: ٤/١٤٥، من لايحضره الفقيه ٣: ٧٨٧/١٧٥ و٧٨٨، تفسير الصافي ١: ٢٧٩.
٤. جوامع الجامع: ٥٠.

﴿وَمَنْ عَادَ﴾ إلىٰ مُعامَلةٍ رَبَوِيّة، وأخذ الرِّبا مُستحِلاً له، بَعْد عِلْمه بالنَّهي ﴿فَأُوْلَئِكَ﴾ المُستَحِلّون ﴿أَصْحَابُ ٱلنَّارِ﴾ ومِلازِمُوها ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ مُقيمون أبداً.

عن النبيّ ﷺ: «دِرْهَم مِن الرِّبا أعظم عِنْد الله مِن سبعين زَنْيَة بذاتِ مَحْرَم، في بَيْت الله الحَرام»[1].

وعن أمير المُؤمنين عليه السلام: «لعَن رسُول الله ﷺ في الرِّبا خَمْسَةً: آكِله، ومُوكِله، وشاهِديه، وكاتِبه»[2].

ثمّ بَعْد النَهي عن أكله، وبَيان عُقوبته المُترتِّبة عليه، بيَن سُبحانه عدَم نَفْع دُنيَوي فيه بقوله: ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَا﴾ ويذهب به، حتّىٰ لا يبقىٰ مِنه شيءٌ يُنتفَع به.

قيل: إنّ الله يُذهِب بَرَكته، ويهلِك المال الذي يدخُل فيه، ولا ينتفِع به ولده، وتبقىٰ علىٰ المُربِي تَبِعَتُه وعِقابُه.

﴿وَيُرْبِي﴾ الله ويُضاعِف ﴿ٱلصَّدَقَاتِ﴾ ويزيد في ثَوابها في الآخرة، بَل تكون الصَّدَقة التي هِي تَنقِيصٌ في المال سبباً لزِيادته، بخِلاف الرِّبا الذي هُو سَبَبٌ لتَكْثير المال، فإنّه بالمال مُوجبٌ لتنقِيصه، حيث إنّه يتلَف بنفسه، ويُتلِف المال الذي يدخُل فيه.

عن النبيّ ﷺ: «ما نقَص مالٌ عن صَدَقة»[3].

ورُوي عنه ﷺ: «أنّ المَلَك يُنادي كُلّ يَوم: اللّهم يَسِّر لكُلّ مُنْفِقٍ خَلَفاً»[4].

وعنه ﷺ: «أنّ الله يقبَل الصَّدقة ويُربّيها، كما يُربِّي أحدُكم مُهْرَه»[5].

وعن الصادق عليه السلام مِثْله[6].

وعنه ﷺ: «ما نقَصَت زكاةٌ مِن مالٍ قطّ»[7].

﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ﴾ بَل يبغُض ﴿كُلَّ كَفَّارٍ﴾ مُصِرّ علىٰ تَحْليل المُحرَمات، وكُلّ ﴿أَثِيمٍ﴾ مُنهَمِك في المَعاصي واتِّباع الشهوات، فيُعاقِبهم في الآخرة بأشدّ العُقوبات.

إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا ٱلصَّلَاةَ وَآتَوُا ٱلزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ[٢٧٧]

---

١. من لا يحضره الفقيه ٤: ٨٢٤/٢٦٦.
٢. مجمع البيان ٢: ٦٧١.
٣. جوامع الجامع: ٥٠، تفسير الصافي ١: ٢٨٠.
٤. تفسير الرازي ٧: ٩٥.
٥. تفسير روح البيان ١: ٤٣٦، تفسير أبي السعود ١: ٢٦٧، والمُهْر: أول ما يُنتج من الخيل والحُمُر الأهليه وغيرها.
٦. تفسير العياشي ١: ٦١٥/٢٧٩.
٧. تفسير أبي السعود ١: ٢٦٧، تفسير روح البيان ١: ٤٣٦.

ثمّ بَعْدما بيّن سُبحانه إعراضه عن الكَفَرة العُصاة وبُغْضُه إيّاهم، أعلن بحُبّه لأهل الإيمان، وإقباله برَحْمته وثَوابه إلىٰ المُطيعِين ومُعطِي الزّكاة والصّدقات بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله، ورسُوله، وكِتابه، ودِينه ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ التي تكون مِن وظائِف الإيمان ﴿وَأَقَامُوا ٱلصَّلَاةَ﴾ وأتَوا بها بحُدُودها مِن أجزائِها وشَرائطها وما يُعتبَر في صِحّتها ﴿وآتَوُا الزَّكَاةَ﴾ وصَرَفوها في مَصارِفها المُقرَّرة وفي تَخْصِيص الصّلاة والزّكاة بالذِّكْر مع دُخولهما في الأعمال الصّالحات، دَلالة علىٰ كَمال الاهتِمام بِهما وكَوْنهما مِن أعظم الواجِبات ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾ وثَوابهم المَوعُود، حَال كَونه مَذخُوراً ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ ومالِكهم الرّؤوف بهم ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ مِن لِقاء مَكرُوهٍ، ونَقْص أجْرٍ ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ علىٰ مُفارَقة الدُّنيا وما فيها، وَتَنَزُّل الدَّرجة في الآخرة.

عن ابن عبّاس ﷺ: لا خَوْف عليهم فيما يستقبِلهم مِن أحوال القِيامة، ولا هُم يحزَنون بسبَبَ ما ترَكوه في الدُّنيا[1]، وعلى ما فاتهم مِن النِّعَم الزّائدة التي حصلَتْ لغَيْرهم مِن السُّعداء.

يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا ٱتَّقُوا ٱللهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَا إِن كُنْتُم مُؤْمِنِينَ * فَإِن لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ ٱللهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ * وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ [٢٧٨ ـ ٢٨٠]

ثمّ أنّه تعالىٰ بَعْد بَيان حِلِّيَة الرِّبا الذي كان قَبْل النَّهْي عنه، بيّن اختِصاصها بالرِّبا المَقبُوض مِن الغَريم دون غير المَقبُوض، بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا ٱتَّقُوا ٱللهَ﴾ واحْذَرُوه في مُخالَفة حُكْمه وصُونوا أنفسكم مِن عِقابه ﴿وَذَرُوا﴾ واتْرُكوا ﴿مَا بَقِيَ﴾ عِنْد الغَريم ﴿مِنَ ٱلرِّبَا﴾ بالكُلِّيَة، ولا تُطالِبوا مِنه ما لَم تقبِضوه ﴿إِن كُنْتُم مُؤْمِنِينَ﴾ بالله واليَوْم الآخِر، فإنّ لازِم الإيمان الالتِزام بأحكام الله، وتَرْك مُطالَبة بقيّة الرِّبا. وفيه غاية التّهدِيد، لدَلالته علىٰ أنّ مُطالِب البقيّة خارجٌ عن الإيمان.

عن الصادق[2] عليه السلام: «أنّ الوليد بن المُغيرة كان يُربِي في الجَاهِليّة، وبقي له بقايا علىٰ ثقيف، فأراد خالد بن الوليد المُطالبة بها ـ بَعْد أن أسلَم ـ فنزلَتْ [الآية]»[3].

---

١. تفسير الرازي ٧: ٩٧.　　٢. في مجمع البيان وتفسير الصافي: عن أبي جعفر الباقر.

٣. مجمع البيان ٢: ٦٧٣، تفسير الصافي ١: ٦٧٣.

وقيل: كان العبّاس بن عبدالمطلب وخالد شَريكَيْن في الجاهليّة يُسلِفان في الربا، فجاء الإسلام، ولهما أموال عظيمة [في الرِّبا] فأنزل الله [هذه] الآية، فقال النبيّ ﷺ: «ألا إنّ كُلّ رِباً في الجاهليّة مَوضُوع، وأوّل رِباً أضعه رِبا العبّاس بن عبدالمطلب، وكُلّ دَمٍ في الجاهليّة مَوضُوع، وأوّل دَمٍ أضعه دَم ربيعة بن الحارث ابن عبدالمطلب»[1].

وعن القُمّي ﵀: لمّا نزلت ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَا﴾ قام خالد بن الوليد، فقال: يا رسُول الله ربا[2] أبي في ثَقِيف، وقد أوصاني عِنْد مَوْته بأخذه، فأنزل الله[3]: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا﴾ ما اُمِرتم به من الاتّقاء، وتَرْك بقايا الرِّبا، فقد عارَضتُم الله، وتجرّأتم عليه ﴿فَأْذَنُوا﴾ واعلَموا ﴿بِحَرْبٍ﴾ عظيمة، وغَضَبٍ شديد، وعذاب أليم، كائن ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ بالنّار ﴿وَ﴾ مِن ﴿رَسُولِهِ﴾ بالقِتال والسّيف.

رُوي أنّه كان لثقيف مالٌ علىٰ بَعْض قُرَيش، فطالَبوهم عِنْد المَحل بالمال والرِّبا، فنزلَتْ الآية، فقالَتْ ثقيف: لابدّ لنا بحَرْب الله ورسُوله[4].

﴿وَإِن تُبْتُمْ﴾ مِن أخذ الرِّبا بَعْد ما سمِعتُموه مِن النَّهي والوَعيد ﴿فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ﴾ أن تأخذُوها كامِلاً ﴿لَا تَظْلِمُونَ﴾ غُرماءكم بأخذ الزِّيادة ﴿وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ أنتم مِن قِبَلهم بالتَنقِيص والمُماطَلة.

﴿وَإِن كَانَ﴾ ووجِد في غُرمَائكم ﴿ذُو عُسْرَةٍ﴾ وغير مُتمكّن مِن تَهيئة المال ـ زائداً علىٰ المُستَثْنيَات المَعهُودة في الفِقه ـ بسبَب التّلف، أو كسَاد المَتاع، أو انقِطاع تصرُّفه عنه مع وجوده، بظُلْم ظالِم ونحوه ﴿فَنَظِرَةٌ﴾ وإمهال واجبٌ عليكم ﴿إِلَىٰ﴾ زمان حُصُول ﴿مَيْسَرَةٍ﴾ وقُدرة علىٰ الأداء، فلا يجُوز مطالبته بالدَّيْن.

عن الصادق ﵇، قال: «خَلّوا سبيل المُعْسِر كما خلّاه الله»[5].

رُوي أنّه لمّا نزَلَتْ آية ﴿فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ قالت الإخوة الأربعة الذين كانوا يُعاملون بالربا: بَل نتوب إلىٰ الله، فإنّه لا طاقة لنا بحَرْب الله ورسُوله، فرضُوا برأس المال، وطالبوا بني المُغيرة بذلك، فشكا بنو المُغيرة العُسْرة، وقالوا: أخّرونا إلى أن نُدرِك الغَلّات، فأبَوا أن يؤخّروهم، فنزلت

---

١. مجمع البيان ٢: ٦٧٣.
٢. كذا، والظاهر رابىٰ بمعنىٰ أعطى ماله بالربا.
٣. تفسير القمي ١: ٩٣، تفسير الصافي ١: ٢٨١.
٤. تفسير أبي السعود ١: ٢٦٧.
٥. الكافي ٤: ٣/٣٥، تفسير الصافي ١: ٢٨٢.

﴿وإنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ﴾[١].

وفي التَعبير بـ(ذُو عُسْرة) دُون (ذا عسرة) دَلالة علىٰ عُمُوم الحُكْم لعُمُوم المَديُونِين، وعدم اختِصاصه بالرِّبا.

عن النبيّ ﷺ: «لا يحِلّ دَيْن رَجُلٍ مُسلِم فيُؤخِّره، إلّا كان له بكُلّ يومٍ صَدَقه»[٢].

وعنه ﷺ: «مَن أنظَر مُعْسِراً أو وضَع له، أنجاه الله مِن كرب يوم القيامة»[٣].

عن الصادق عليه السلام قال: «صَعِد رسُول الله ﷺ المِنْبَر ذاتَ يومٍ، فحَمِد الله وأثنىٰ عليه، وصَلّى علىٰ أنبيائه، ثمّ قال: أيُّها النّاس ليُبلّغ الشاهِدُ مِنكم الغائِبَ، ألا ومَن أنظر مُعْسِراً، كان له علىٰ الله في كُلّ يومٍ صَدَقةٌ بمِثْل ماله، حتىٰ يَسْتَوفيه ـ ثمّ قال أبو عبدالله عليه السلام ـ: ﴿وَإن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إلَىٰ مَيْسَرَة﴾» الخبر[٤].

عن العيّاشي: عن الرضا عليه السلام أنّه سُئِل عن هذه النَّظِرة التي ذَكَرها الله عزّ وجلّ في كتابه، لها حَدٌّ يُعْرَف، إذا صار هذا المُعْسِر لابدّ له مِن أن يُنظَر، وقد أخَذ مال هذا الرَّجُل وأنفقه علىٰ عِياله، وليس له غَلّة ينتظِر إدراكها، ولا دَيْن ينتظِر مَحِلّه، ولا مال غائِب ينتظِر قُدُومه؟ قال: «نَعَمْ، ينتظِر بقَدَر ما ينتهي خَبَرُه إلىٰ الإمام، فيقضِي عنه ما عليه مِن سَهْم الغارِمين، إذا كان أنفقه في طاعة الله، فإن كان أنفقه في مَعْصية الله فلا شيء له علىٰ الإمام» قيل: فما لهذا الرَّجُل الذي ائْتَمنه، وهو لا يعلَم فيما أنفقه، في طاعة الله أم في معصيته؟ قال: «يَسعىٰ له في ماله، فيرُدّه وهُو صاغِر»[٥].

وعن القمّي رحمه الله: عن النبيّ ﷺ: «ما مِنْ غرِيمٍ ذهَب بغرِيمه إلىٰ والٍ مِن وُلاة المُسلِمين، واسْتَبان للوالي عُسْرَته، إلّا بَرِئ هذا المُعسِر مِن دَيْنه، وصار دَيْنُه علىٰ والِي المُسلِمين فيما في يَدَيه مِن أموال المُسلِمين»[٦].

﴿وَأَن تَصَدَّقُوا﴾ علىٰ المُعْسِرين بإبراء ذِمّتهم مِن الدَّيْن كُلّه، فهُو ﴿خَيْرٌ لَكُمْ﴾ وأكبر ثواباً مِن الإنظار و﴿إن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ذلك عِملتُم به.

عن الصادق عليه السلام: «إن كُنتم تعلَمون أنّه مُعْسِر، فتصدّقوا بما لكُم عليه»[٧].

---

١. تفسير الرازي ٧: ١٠٢.
٢. تفسير الرازي ٧: ١٠٣.
٣. مصابيح السنة ٢: ٢١٣١/٣٤١، تفسير روح البيان ١: ٤٣٨.
٤. الكافي ٤: ٤/٣٥.
٥. تفسير العياشي ١: ٦٢٥/٢٨١، تفسير الصافي ١: ٢٨٢.
٦. تفسير القمي ١: ٩٤، تفسير الصافي ١: ٢٨٢.
٧. الكافي ٤: ٤/٣٦، تفسير الصافي ١: ٢٨٢.

وعنه عليه السلام: «مَن أراد أن يُظِلّه الله يوم لا ظلّ إلّا ظله ـ قالها ثلاثاً، فهابَه النّاس أن يسألوه، فقال ـ: فلينظِر مُعسِراً، أو ليدَعْ له مِن حقّه»[١].

رُوي أنّه جاء رَجُلٌ إلىٰ أبي عبدالله عليه السلام فقال له: يا [أبا] عبدالله قَرضٌ إلىٰ مَيْسَرة. فقال له أبو عبدالله عليه السلام: «إلىٰ غَلّة تُدرَك» فقال الرّجل: لا والله. قال: «فإلىٰ تِجارةٍ تؤوب» قال: لا والله. قال: «فإلىٰ عُقْدَةٍ[٢] تُباع» فقال: لا والله، فقال أبو عبدالله عليه السلام: «فأنتَ مِمّن جَعَل الله له من أموالنا حَقّاً» ثمّ دعا بكيسٍ فيه دَراهم، فأدخل يدَه فيه، فناوله مِنه قَبْضة[٣].

وَٱتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ [٢٨١]

ثمّ ختَم سُبحانه أحكام الرِّبا والمُعْسِر بالتّوعيد بالعِقاب علىٰ المُخالَفة، والوَعْد بالثّواب علىٰ الطّاعة بقوله: ﴿وَٱتَّقُوا يَوْماً﴾ عظيماً، كثيرَ الأهوال والشّدائد ﴿تُرْجَعُونَ﴾ وتُرَدُّون ﴿فِيهِ﴾ قَهراً ﴿إِلَىٰ ٱللهِ﴾ وحُكْمه، فيُحاسِب فيه أعمالكم ﴿ثُمَّ تُوَفَّىٰ﴾ وتُعطىٰ كامِلاً ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ مِن المُطيع والعاصِي ﴿مَا كَسَبَتْ﴾ وحصَلت مِن جزاء أعمالها في الدُّنيا مِن الطّاعة والعِصيان ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ مِن قِبَل الله بتنقيص ثوابٍ أو زِيادة عِقاب. وفيه تأكيد لتَوْفية الجَزاء، وإشعار بأنّ العَذاب ـ وإن كان مُؤبداً، وفي أعلىٰ مَرتَبة الشِّدة ـ لا يكون ظُلماً، بَل هُو علىٰ حَسَب الاستِحقاق.

عن ابن عبّاس رضي الله عنه: هذه الآية آخر آيةٍ نزلَتْ علىٰ رسُول الله صلى الله عليه وآله، وذلك لأنه صلى الله عليه وآله لمّا حَجّ نزلَتْ ﴿يَسْتَفْتُونَكَ﴾[٤] وهِي آية الكَلاله، ثمّ نزَل وهُو واقِف بعرَفة ﴿اليَوْم أكمَلْتُ لَكُم دِينَكُم وَأتْمَمْتُ عَلَيكُم نِعْمَتى﴾[٥] ثمّ نزَل ﴿وَاتّقُوا يوماً تُرجَعون فيهِ إلىٰ الله﴾ فقال جَبْرَئيل: يا مُحمّد، ضَعْها علىٰ رأس ثمانين آية ومائتي آية من البقرة، وعاش رسُول الله صلى الله عليه وآله بَعْدها أحداً وثمانين يوماً[٦].

أقول: قيل: أحداً وعشرين، وقيل: سبعة أيّام، وقيل: ثلاث ساعات[٧]. ولا يُنافي ذلك مارُوي مِن أنّ سُورة النَّصر آخر ما نزل؛ لأنّها آخر سُورة، وهذه آخر آية.

---

١. الكافي ٤: ١/٣٥، تفسير الصافي ١: ٢٨٢.
٢. العُقدة: كلّ ما يمتلكه الإنسان من ضَيْعة، أو عَقَار، أو متاع، أو مال ...
٣. الكافي ٣: ١٤/٥٠١، تفسير الصافي ١: ٢٨٢. ٤. النساء: ١٧٦/٤. ٥. المائدة: ٣/٥.
٦ و٤. تفسير الرازي ٧: ١٠٤.

يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِي عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ وَلْيَتَّقِ ٱللهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئاً فَإِن كَانَ ٱلَّذِي عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهاً أَوْ ضَعِيفاً أَو لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَٱسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِن رِجَالِكُمْ فَإِن لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَاءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْئَمُوا أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيراً أَوْ كَبِيراً إِلَىٰ أَجَلِهِ ذٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَن تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَٱتَّقُوا ٱللهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللهُ وَٱللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ * وَإِن كُنْتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِباً فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضاً فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِي ٱؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ ٱللهَ رَبَّهُ وَلَا تَكْتُمُوا ٱلشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَٱللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ[٢٨٢ و ٢٨٣]

ثمَ أنّه تعالىٰ بعدَ بيان حُكم دَيْن المُعْسِر مِن وُجُوب إنظاره، واستِحباب التّصدُّق عليه، بيّن طَرِيق حِفْظ الدَّيْن عن التَّوَرىٰ[١] والتّلف بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُم﴾ وتعامَلتم ﴿بِدَيْنٍ﴾ وبعِوَضٍ في الذِّمّة، سَلماً كانت المُعاملة أو نَسِيئَةً ﴿إِلَىٰ أَجَلٍ﴾ وأمَدٍ ﴿مُسَمًّى﴾ ومُعَيَّن مَشرُوط في العَقْد كاليَوْم والشّهر والسنة، دون غير المُعيَّن عِند المُتعامِلين كالحَصَاد والدِّياس[٢] وقدوم الحاج لعَدَمِ الخِلاف ظاهراً في أنّ التّوقِيت بأمثالها مُفسِدٌ للمُعامَلة.

عن ابن عبّاس ﷺ: أنّها نزلَتْ في السَّلَف؛ لأنّ النبي ﷺ قَدِم المدينة وهُم يُسلِفون في التَّمر السّنتَيْن والثلاث، فقال ﷺ: «مَن أسلَف فليُسلِف في كَيْلٍ مَعلُوم، ووَزْنٍ مَعلُوم»[٣].

قيل: في ذِكْر الدَّيْن مُنَكَراً دَلالةٌ علىٰ أنّ اشتِراط كَوْن الدَّيْن في المُعامَلة واحِداً، ثَمَناً كان أو مُثمناً،

---

١. التَّوَرىٰ: أي الهلاك والتلف.

٢. الدِّياس: دَوس الحصيد ليخرج الحبّ منه، وذلك بوطئه بالأرجل أو غيرها.

٣. تفسير الرازي ٧: ١٠٨.

وعليه لا يجُوز بَيْعُ الدَّيْن بالدَّيْن؛ لأنه مُعامَلة بديْنَيْن لابدَيْن، وهُو المَعرُوف بالكالي[١]، ولا خِلاف في بُطلانه.

قيل: ما مِن لَذَّة، ولا مَنْفَعة، يُوصَل إليها بطرِيق مُحرَّم، إلّا جَعَل الله سُبحانه للوصُول إلىٰ تِلْك اللَّذَة والمَنْفعة طريقاً حلالاً، وسبيلاً مَشروعاً[٢]. ولمّا حرَم الله استِفادة الرِّبْح بطريق الرِّبا، أذِن في بَيْع السَّلَم والنَّسِيئة؛ لُوجُود جميع المَنافِع المَطلُوبة في الرِّبا فيهما.

ثمّ بيّن سُبحانه طريق الاحتِياط في الأجل والكَيْل والوَزْن في الدَّين بقوله: ﴿فَاكْتُبُوهُ﴾ بجِنْسه وصِفاته وَوَزْنه وأجله؛ لكَوْن الكتب أوثَق وأدفع للنِّزاع. ولا شُبْهة أنَ الأمر هُنا ليس للوُجُوب النَّفسي، بَل للإرشاد أو الاستِحباب.

عن (العِلَل): عن الباقر عليه السلام: «أنّ الله عزّ وجلّ عرَض علىٰ آدم أسماء الأنبِياء وأعمارهم، قال: فمَرّ بآدم اسْمُ دَاوُد النبيّ، فإذا عُمْره في العالَم أربعون سَنة، فقال آدم: يا رَبِّ ما أقلّ عُمْر دَاوُد وأكثر عُمْري! يا رَبِّ إنْ أنا زدتُ[٣] داوود ثلاثين سَنةً ثبَت ذلِك له؟ قال: نَعَم يا آدم، قال: فانّي قد زِدْتُه مِن عُمْري ثلاثين سَنةً، فأنفِذْ ذلك وأثبِتْها له عِنْدك، واطْرَحْها مِن عمري».

قال أبو جعفر عليه السلام: «فأثبَت الله عزّ وجلّ لدَاوُد في عُمْره ثلاثين سَنةً، وكانت له عِند الله[٤] مُثبَتة. فذلك قولُه عزّ وجلّ: ﴿يَمْحُوا اللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الكِتَابِ﴾[٥] فمحا الله ما كان عِنده مُثبتاً لآدم، وأثبَت لدَاوُد مالَمْ يكُن عِنده مُثبتاً.

قال: فمضىٰ عُمْر آدم فهَبَط مَلَك المَوْت لقَبْض رُوحِه، فقال له آدم: يا مَلَك المَوْت إنّه قد بقي مِن عُمْري ثلاثون سَنة، فقال له مَلَك المَوْت: يا آدم ألَم تَجعَلْها لابْنِك داود النبيّ، وطرَحتها مِن عُمْرك حِينَ عُرِض عليك أسماء الأنبِياء مِن ذُرِّيَّتك، وعُرِضت عليك أعمارُهم، وأنت يومَئِذٍ بوادي الأحياء[٦]؟ فقال له آدم: ما أذكُر هذا.

قال: فقال له مَلَك المَوْت: يا آدم لا تجْحَد، أفلَم تَسأل الله عزّ وجلّ أن يُثبِتها لدَاوُد ويمحُوها مِن عُمْرك، فأثبَتَها لدَاوُد في الزَّبُور ومَحاها مِنْ عُمْرك في الذِّكْر؟ قال آدم: حتىٰ أعلَم ذلك».

---

١. الكالي: أي المتأخر. ٢. تفسير الرازي ٧: ١٠٨. ٣. في النسخة: ازددت.
٤. في النسخة: عند ذلك. ٥. الرعد: ٣٩/١٣.
٦. في المصدر: بوادي الدخياء.

قال أبو جعفر عليه السلام: «وكان آدم صادقاً» قال: «لَمْ يذكُر، ولَمْ يجحَدْ، فمِن ذلك اليوم أمر الله تبارَك وتعالىٰ العِباد أن يكتُبوا بَيْنهم إذا تَداينوا وتعامَلوا إلىٰ أجلٍ، لأجْل نِسيانه[1] وجُحُوده [ما] علىٰ نفسه» انتهىٰ[2].

أقول: مع وُضوح مَصلحة كِتابة الدَّيْن علىٰ كُلّ ذي مُسْكَةٍ[3]، مِن غَيْر حاجةٍ إلىٰ الاطِّلاع علىٰ وُقوع هذه القَضِيّة مِن آدم، ففي تِلْك الرِواية وُجُوهٌ مِن الإشكال:

أحدُها: دلالتها على نِسيان النبيّ مع ثُبوت عِصْمته مِنه عقلاً.

وثانيها: جُحُود آدم ما أخبر المَلَك المَعصُوم بثبوته، مع أنّه مُوجِب للقَطْع به.

وثالثها: أنّ آدم كيف بذَل سِنين مِن عُمْره لداود بسبب اطِّلاعه علىٰ قِصَر عُمْره، ولَمْ يبذُل يوماً مِنه ليَحيىٰ وعيسىٰ، مع أنّهما أفضل وأقصر عُمْراً مِن دَاودَ.

والحاصل: أنّ الرواية مِن المُشكلات التي يَجِب رَدُّ عِلْمها إلىٰ الرّاسِخين في العِلم صلَوتُ الله عليهم.

ثمّ أنّه تعالىٰ بَعْدما أمر بكتابة الدَّيْن المُؤجَّل إجمالاً، بيّن كيفيّتها والصِّفة المُعتَبرة فيمَن يتولّاها بقوله: ﴿**وَلْيَكْتُب**﴾ كِتاب الدَّيْن ﴿**بَيْنَكُمْ**﴾ أيّها المُتعامِلون ﴿**كَاتِبٌ**﴾ كان من كان، ولكن لابُدّ مِن كَوْن كِتابه مُلتبساً ﴿**بِالعَدْلِ**﴾ والتَسْوِية بَيْن الدائن والمَدْيُون، مِن غَيْر مَيْلٍ إلىٰ أحَدهما، بحَيْث لا يَزِيد في مِقْدار الدَّيْن والأجل ولا يَنقِص ولا يُغيِّر.

وقيل: إنّ مِن عَدْل الكاتِب أن لا يُجمِل ولا يُهمِل في عِبارة الكِتاب، وأن يكتُبه علىٰ نَحْوٍ تكون صِحّتُه مُتّفَقاً عليها بَيْن العُلَماء، حتىٰ لا يتردّد فيها عالِم.

وقيل: في ذِكْر (بَيْنِكم) إشْعارٌ بأنّ للكاتِب أن يكتُب السَّند، مع حُضُور المُتداينَيْن، ولا يكتفي بتَقْرير أحَدهما.

فإذا دعا المُتعامِلان كاتِباً ينبغي له إجابتهُما ﴿**وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ**﴾ مِن الكُتّاب، ولا يمتَنِع مِن ﴿**أَن يَكْتُبَ**﴾ كِتاب الدَّيْن ﴿**كَمَا عَلَّمَهُ اللهُ**﴾ ومِثْل ما عرَف بفَضْله تعالىٰ مِن كَتَبَة الحُجَج والوثائق، مِن إيضاح مَداليله وشَرائِطه، بلا إغلاق ولا خَلَل.

---

١. في المصدر: إلى أجل مسمى لنسيان آدم.
٢. علل الشرائع: ١/٥٥٣.
٣. المُسكة: الرأي والعقل.

وقيل: إنّ المُراد مِن أن لا يأبَ الكاتِب، مِن أن ينتفِع النّاس بكِتابته، كما نفَعَه الله بعِلْمها وعلّمه إيّاها، فيكون نظير: أحْسِنْ كما أحسَنَ اللهُ إليك.

ثمّ أكّد سُبحانه الأمر بالكِتابة بالعَدْل؛ بقوله: ﴿فَلْيَكْتُبْ﴾ الكاتِب كِتاب الدَّيْن مُطابِقاً لإملاء المَدْيُون، المُستفاد مِن قوله: ﴿وَلْيُمْلِلِ﴾ المُطالِب، وليُقرّرها علىٰ الكاتِب المعامِل ﴿ٱلَّذِى﴾ ثَبَت ﴿عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ﴾ واستقَرّ علىٰ ذِمّته الدَّيْن؛ لأنه المُقِرّ والمَشهُود عليه ﴿وَلْيَتَّقِ﴾ المَديُون المُمْلِي في إملائه ﴿ٱللَّهَ رَبَّهُۥ﴾.

وفي الجَمْع بَيْن اسْم الجَلالة والنَّعْت الجمِيل مُبالَغة في التَّحذير مِن الإملاء بنَحْوٍ يكون فيه ضَياع حَقّ الدّائِن، لِمَا في المُمْلِي مِن الدّاعي النّفساني إلىٰ تغيير الدَّيْن، ودَفْع الضَّرَر عن نَفْسه، وتَخْفيف ما في ذِمّته.

ولذا أكّد الأمر بالاتّقاء بالنَّهي عن البَخْس بقوله: ﴿وَلَا يَبْخَسْ﴾ مِن الدَّين ولا ينقِص ﴿مِنْهُ شَيْئاً﴾ وإن كان مِثْقال ذَرّة مِن خَرْدَل ﴿فَإِن كَانَ﴾ العَامِل ﴿ٱلَّذِى﴾ استَقَرّ ﴿عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ﴾ والدَّيْن ﴿سَفِيهاً﴾ ناقِص العَقْل غير مُمَيِّز بَيْن المُعاملة النّافِعة والمُضِرّة.

عن الصادق عليه السلام: «السَّفيه: الذي يشتري الدِّرْهَم بأضعافه»[١].

وقيل: إنّ المُراد المُبذِّر الذي يصرف المال في الأغراض غير العُقلائية[٢].

﴿أَوْ﴾ كان ﴿ضَعِيفاً﴾ لصَباوة أو شَيْخُوخة أو هَرَمٍ بحيث صار مُخْتَلّ الحَوَاس.

عن (تفسير الإمام عليه السلام): «يعني ضعيفاً في بدَنه، لا يقْدِر أن يُمِلّ، أو ضعيفاً في فَهْمه وعِلْمه، لا يقدِر أن يُمِلّ ويُميِّز الألفاظ التي هِي عَدْل عليه وله، مِن الألفاظ التي هِي جَوْر عليه وعلىٰ حَمِيمه»[٣].

﴿أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ﴾ مقصُوده علىٰ الكاتِب، لخَرَس أو جَهْل.

عن (تفسير الإمام عليه السلام): «هُو بمعنىٰ أن يكون مَشغُولاً في مَرَمّةِ[٤] المعاش[٥]، أو تَزوُّد المعاد[٦]، أو لذّة في غير مَحْرَم. فإنّ تلك الأشغال التي لا ينبغي لعاقل أن يشرَع في غيرِها»[٧].

أقول: الظاهِر أنّ المُراد مُطلَق مَن يتعذّر أو يتعسّر عليه الحُضُور عِنْد الكاتِب، أو البيان والإملاء

---

١. التهذيب ٩: ٧٣١/١٨٢، تفسير الصافي ١: ٢٨٤. ٢. في النسخة: العقلانية.
٣. التفسير المنسوب إلىٰ الإمام العسكري عليه السلام: ٣٦٩/٦٣٤، تفسير الصافي ١: ٢٨٤.
٤. مَرمّة المعاش: إصلاحه والسعي فيه. ٥. في المصدر: لمعاش. ٦. في المصدر: لمعاد.
٧. التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام: ٣٦٩/٦٣٤، تفسير الصافي ١: ٢٨٤.

عليه، مع استِجماعه شرائِط نُفوذ الإقرار، مِن البُلوغ والعَقْل.

وحينئذٍ ﴿فَلْيُمْلِلْ﴾ وليُقرِّر علىٰ الكاتِب بَدَلاً مِن المَديُون ﴿وَلِيُّهُ﴾ ومَن إليه أُموره شَرعاً، مِن الأب والجَدّ للأب، في السَّفيه الذي بلغ فاسِد العقل وفي الصَّبيّ، ومِن الفَقيه العادِل، في السَّفَه والجُنُون المُنفصِلَين الطَّارِئَيْن بَعْد البُلُوغ ـ على الأظهر الأشهر ـ، ومِن عُدُول المُؤمنين عِنْد فَقْد أولئك الأولياء، ومِن الوَكيل والمترَجِم في غير الأضعاف المذكورة. ولابُدّ مِن أن يكون إملاؤهم مُلتَبِساً ﴿بِالعَدْلِ﴾ والتَوسُّط مِن غَير نَقْصٍ ولا زِيادة ولا تَغْيير.

﴿وَٱسْتَشْهِدُوا﴾ وأحضِروا لتَحَمُّل الشَّهادة علىٰ الدَّيْن وخُصُوصِيّاته، عِند الكِتابة ﴿شَهِيدَيْنِ﴾ كائِنَيْن ﴿مِن رِجَالِكُمْ﴾ وأهل دِينكم، مِن البالِغين العاقِلين، فلا تُقبَل شَهادة الصَبيّ، والكافِر.

وعلىٰ مَذهَبنا يعتَبر فيهما أن يكونا مِن أهل الوِلاية، فلا تُقبَل شَهادة غَيْرِهم. وإطلاق الشَّهيد قَبْل تحمُّل الشَّهادة مَجاز بعَلاقة المُشارَفة.

وعن بعض الفُضَلاء: الفَرْق بَيْن الشاهِد والشَّهيد: أنّ الشاهِد بمعنىٰ الحُدُوث، والشَّهيد بمعنىٰ الثُّبوت، فإذا تحمَل الشَهادة فهُو شاهِد باعتِبار الحُدُوث والتَحمُّل، فإذا[1] ثبَت تحمُّله زمانَيْن أو أكثر فإنّه شهيد[2].

﴿فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ﴾ لإعْوازِهما، أو لِعِلّةٍ أُخرىٰ ﴿فَرَجُلٌ﴾ واحِد ﴿وَٱمْرَأَتَانِ﴾ كافٍ في الشَهادة، وإثبات الحَقّ، حَيْث إنّهم يقُومون مَقام رَجُلَيْن ﴿مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ﴾.

رُوي في تفسيره عليه السلام: «مِمَن تَرْضَوْن دِيْنه وأمانَته، وصَلاحه وعِفَّته، وتيقظه في ما يشهَد به، وتحصِيله وتمييزه، فما كُلُّ صَالحٍ مُمَيِّز ولا مُحصِّل، ولا كُلّ مُحصِّل مُميِّز صالِح، وإنّ مِن عِباد الله لمَن هُو أهلٌ لصَلاحه وعِفّته، ولَو شهِد لَم تُقبَل شَهادتُه لقلّة تَمْييزه»[3] الخبر. وتَخْصِيص الرّجُل وامرَأتين بالوَصْف ـ مع اعتِباره في الشّاهِد مُطلقاً ـ لقلّة اتِّصاف النِّساء به.

ثمّ بيّن سُبحانه عِلّة اعتِبار التَعدُّد في النِّساء بقوله: ﴿أَن تَضِلَّ﴾ وتنسىٰ الشَّهادة ﴿إِحْدَاهُمَا﴾ ذلِك تَوْطِئة لبيان العِلّة الحَقيقيّة ومُحقّق لمَوضُوعها، وهِي قوله: ﴿فَتُذَكِّرَ﴾ النّاسيةَ ﴿إِحْدَاهُمَا الأُخْرَىٰ﴾ لوضُوح أنّه لَوْلَا النِّسْيان لا يتحقّق التّذكار.

---

١. في كنز العرفان: حدوث تحمله وإذا.
٢. كنز العرفان ٢: ٥٠.
٣. التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام: ٣٧٥/٦٧٢، تفسير الصافي ١: ٢٨٤.

وحاصِلُ الآيةِ أنّ اعتِبار التَعدُّد لأجل أن تُذَكّر إحداهما الأخرىٰ، إن ضلّت الأولىٰ ونَسِيَتْ الشهادة.

في أنّ المراد من نهي الشهداء عن الإباء، الإباء عن التحمل، وإمكان إرادة الأعم

ثمَ أنه تعالىٰ ـ كما نهىٰ الكاتِب عن الامتِناع مِن الكِتابة ـ نهىٰ الشاهِد عن الإباء عن الحُضُور لتحمُّل الشَهادة أو لأدائها، بقوله: ﴿**وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ**﴾ عن التَحمُّل أو أداء الشّهادة ﴿**إِذَا مَا دُعُوا**﴾ إلىٰ التَحمُّل أو الأداء.

في الصَحيح عن أبي عبدالله عليه السلام، في قَوْل الله عزّ وجلّ: ﴿**وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ**﴾ قال: «قَبل الشّهادة»[١].

وعنه عليه السلام، في تفسير الآية، قال: «لا ينبغي لأحَدٍ إذا دُعِي إلىٰ شَهادةٍ ليشهد عليها، أن يقُول: لا أشهد لكم عليها»[٢].

وقريب مِنها أو مِثْلها عِدّة روايات أُخر، الظّاهِرة في كَوْن المُراد حُرمة الإباء عن التَحمُّل[٣]. ولا مُعارِض لها، إلّا ما عن (تفسير الإمام عليه السلام): عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «تفسير هذه الآية: مَنْ كان في عُنُقه شَهادة، فلا يأبَ إذا ما دُعِي لإقامتها»[٤].

ومن الواضِح أنّ هذه الرِّواية مع ضَعف السَّند، لا تُكافِئ الرِّوايات الكثيرة المُعتَبرة، مع إمكان الجَمْع بالقَوْل بأنّ مُتعلّق ﴿**إِذَا مَا دُعُوا**﴾ أعمّ مِن التَحمُّل والأداء، ولا يَرِد عليه مَا قاله الفاضِل المقداد رحمه الله مِن استِلزامه استِعمال المُشترَك في أكثر مِن معنىٰ[٥]، لوَضُوح أنّه علىٰ تَقْدير جَعْل المِقدار الأعمّ مِن التَحمُّل والأداء، لَم يُستَعمل لَفْظ الدَعوة في غير مَعناه الظّاهِر، وتكون الكَثْرة في المَحذُوف، وهُو المَدْعُو إليه.

ويُمكِن أن يكون نَظَره رحمه الله إلىٰ أنّه علىٰ تَقْدير إرادة الأعمّ، لَزِم استِعمال لَفْظ الشُّهداء في المعنىٰ الحقيقي والمَجازي، حيث إنّ استِعماله في مَنْ لَم يتحمَّل بَعْد، مَجازٌ بعَلاقة المُشارَفة، فتأمّل.

ثمّ إنّ النَّهي عن الإباء دَالٌّ بالالتِزام علىٰ الأمر بالإجابة، فتكون الإجابة واجِبة، ولابُدّ مِن القَول بكَوْن وُجُوبها كِفائياً لمَعلُوميّة الغَرَض، كما أنّ وُجُوب الكِتابة علىٰ الكاتِب كذلك، ولا مُنافاة بَيْن كَوْن أمر المَديُون بالاستِكتاب والاستِشهاد إرشادِيّاً أو نَدْبيّاً، وبَيْن كَوْن الأمر بالكِتابة وتحمُّل الشّهادة علىٰ

---

١. الكافي ٧: ٤/٣٨٠، تفسير الصافي ١: ٢٨٥.
٢. الكافي ٧: ١/٣٧٩، تفسير الصافي ١: ٢٨٥.
٣. الكافي ٧: ٣/٣٨٠ ـ ٦.
٤. التفسير المنسوب إلىٰ الإمام العسكري عليه السلام: ٣٧٨/٦٧٦، تفسير الصافي ١: ٢٨٥.
٥. كنز العرفان ٢: ٥٤.

الكاتِب والشّاهِد وُجُوبيّاً مَوْلوِيّاً، كما لا يخفىٰ.

ثمّ وَجّه سُبحانه الخِطاب إلىٰ المَديُونِين ونَهاهُم عن التّواني في الكتِابة بقوله: **﴿وَلَا تَسْئَمُوا﴾** ولا تَمَلّوا لكَثْرة مُداييناتكم، أو لِقِلّة هذا الدَّين، مِن **﴿أَن تَكْتُبُوهُ﴾** سَواءٌ كان **﴿صَغِيراً﴾** وقَليلاً كدينار أو دِرْهَم **﴿أَوْ كَبِيراً﴾** وكثيراً كمائة أو ألف، حال كَوْنه مُستقِرّاً في الذِّمّة **﴿إِلَىٰ أَجَلِهِ﴾** المُعيَّن، ووَقْته المَعلُوم.

قال بعضٌ: المَلالة والكَسالة مِن الشّيطان.

وعن النبيّ ﷺ أنّه قال: «لا يقول المُؤمن كسِلتُ»[1].

ثمّ بيّن سُبحانه فوائِد الكَتْب بقوله: **﴿ذَٰلِكُمْ﴾** الكَتْب **﴿أَقْسَطُ﴾** وأعدَل **﴿عِندَ اللهِ﴾** وفي حُكْمه، حيث إنّ فيه حِفظ الحَقّ **﴿وَأَقْوَمُ﴾** وأثبَت **﴿لِلشَّهَادَةِ﴾** وأعوَن علىٰ إقامتها **﴿وَأَدْنَىٰ﴾** وأقرَب إلىٰ **﴿أَن﴾** تكونوا مُوقنِين به **﴿لَا تَرْتَابُوا﴾** ولا تشُكّوا فيه مِن حَيْث الجِنْس والمِقدار والوَصْف والأجل، وسائر ما اعتُبِر فيه.

فتحصَّل مِن الآية أنّ للكِتابة ثَلاث فوائِد:

الأُولىٰ: كونها أقسط باعتِبار أنّ المُتداينَيْن إذا وَجَدوا كِتاباً، فلابُدّ لهم مِن العَمَل، فلا يقَع التّعدّي مِن أحدهما علىٰ الآخر.

والثانية: أنّ الشّاهِدين إذا نَسُوا القَضِيّة، تكون الكِتابة سبباً لحِفْظها وتذكُّرها، ثمّ أنّه قد يكون المُتداينان حاضِرَين لأداء الحَقّ، ولكِن قد يكون في قَلْبهما رَيْب؛ إمّا في أصله، أو في مقداره، أو أجله.

والفائدة الثالثة: أن تكون الكِتابة مُوجِبة لزَوال رَيْبهما.

قيل: إنّه تعالىٰ بالَغ في هذه الآية المُباركة في التّأكيد، والبَسْط الشّديد في الأمر بكِتابة الدَّيْن والإشهاد عليه، بَعْد المَنْع عن تَحْصيل المال بالرِّبا، مع بنائه تعالىٰ في بيان الأحكام في الكِتاب المَجيد علىٰ الاختِصار، نظراً إلىٰ حِفْظ المال الحَلال عن الضَّياع والبَوَار، حتى يتمكّن المُؤمن مِن الإنفاق في سبِيل الله، والإعراض عن مُساخَطته مِن طلَب المال بالرِّبا، وسائر الوُجُوه المُحرَّمة.

ثمّ بيّن سُبحانه عدَم الرُّجحان للكِتابة في المُعاملة النَّقْدِيّة بقوله: **﴿إِلَّا أَن تَكُونَ﴾** المُعاملة **﴿تِجَارَةً**

---

١. تفسير أبي السعود ١: ٢٧١.

حَاضِرَةً﴾ ومُعامَلة نَقْدِيَة ﴿تُدِيرُونَهَا﴾ وتَتعاطَونها ﴿بَيْنَكُمْ﴾ يداً بيَد، فإن كانت المُعاملة هكذا ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾ وضَرَر ﴿أَن لا تَكْتُبُوهَا﴾ لبُعْدها عن النّسْيان والتّنازُع ﴿وَ﴾ لكن ﴿أَشْهِدُوا﴾ شهيدَيْن ﴿إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾ مُطلقاً، سواءً كان البَيْع نَقْدِيّاً أو سَلَماً أو نَسيئةً، لكَوْنه أحفظ ﴿وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾ يُحتمَل كَوْن الفِعْل مَبنيّاً علىٰ الفاعل، وعلىٰ المَفعُول؛ فعلىٰ الأوّل يكون نَهْياً للكاتِب والشّاهِد عن الإضرار بالمُتداينَين، بتَرْك الإجابة، أو التَغيير، أو التّحريف في الكُتُب والشّهادة. وعلىٰ الثاني يكون نَهْياً للمُتداينَين عن الإضرار بهما[1]، بأن يُعجِلاهما عن مُهِمّاتهما، أو يُلزِماهما علىٰ الخُرُوج عن الحُدُود الشّرعِيّة في الكِتابة والشّهادة، أو لا يُعطِيا الكاتب جَعْله، والشّاهِد مُؤنة مَجيئه.

والثاني هُو الأظهر، لقوله تعالىٰ بَعْده، مُخاطِباً للمُتداينَين: ﴿وَإِن تَفْعَلُوا﴾ ما نهيتكم عنه مِن الإضرار ﴿فَإِنَّهُ فُسُوقٌ﴾ وخُرُوج عن حُدُود الشّرع والعَقل، مُلتبِس ﴿بِكُمْ﴾.

ثمّ أكّد الوَعِيد بقوله: ﴿وَاتَّقُوا اللهَ﴾ في مُخالَفة أحكامه التي مِن جُملتها حُرمة الإضرار ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ اللهُ﴾ ما فيه صَلاح دِينكم ودُنْياكم ﴿وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ﴾ مِن مَصالح الأمور ومَفاسِدها، وحُسْن الأشياء وقُبْحها ﴿عَلِيمٌ﴾ لا تخفىٰ عليه خافية.

وتكرير لَفْظ الجَلالة في الجُمَل الثّلاث، لتَربيه المَهابة وقيل: للتّنبيه علىٰ استِقلال كُلٍّ مِنها بمعنىً على حِياله، حيث إنّ الأولىٰ حَثٌّ علىٰ التّقوىٰ، والثّانية وَعْدٌ بالإنعام، والثّالثة تَعْظيمٌ لشأنه تعالىٰ.

أقول: في الجُملة الثّانية إشعارٌ بحِكْمة الأمر بالتّقوىٰ، وإنّه لصَلاحٌ راجِع إلىٰ العِباد لا إليه سُبحانه، وفي الثّالثة دَلالة علىٰ عَدَم إمكان الخطأ والاشتِباه مِنه تعالىٰ في ما عَلِمه مِن الصّلاح والفَساد.

ثمّ اعْلم أنّ الآية المُباركة أطوَل آيةٍ في الكِتاب العَزيز، وفيها دَلالة علىٰ كَمال لُطْفه علىٰ عِباده، ونِهاية رِفْقه بهِم، وأنّه تعالىٰ إذا كان حافِظاً لمَصالح دُنْياهم بهذه المَرتَبة مِن الاهتِمام، يكون لمَصالح آخرتهم أحْفَظ بمَراتب، وأنّه لا يرضىٰ بُوقُوع الظُّلم والتّنازُع بَيْنهم، وأنّه يُحِبّ القِيام بحَوائِجهم، وإعانتهم علىٰ إحقاق حُقُوقهم.

عن القُمّي ﷺ: في [سورة] البقرة خَمْسمائة حُكْم، وفي [هذه] الآية خمسة عشر حُكْماً[2].

فـي شرعية أخـذ الرهن للدين وعـدم اختصاصها بالسفر

ثمّ بيّن سُبحانه طريقاً آخرَ لحِفْظ الدُّيُون، أوثق مِن الكِتابة، وهُو أخْذ الرّهْن والوَثِيقة عليها، بقوله: ﴿وَإِن كُنتُمْ﴾ راكِبين ﴿عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ ومُتلبِّسين بـه، أو مُشرِفين عـليه

---

١. أي بالكاتب والشاهد.

٢. تفسير القمي ١: ٩٤، تفسير الصافي ١: ٢٨٦.

ومتوجِّهين إليه، واحتَجْتُم إلىٰ التّدائن ﴿وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِباً﴾ يكتُب الدَّيْن بحيث تَستَوثِقون بكِتابته ﴿فَرِهَانٌ﴾ ووَثائِق مِن الأعيان ﴿مَقْبُوضَةٌ﴾ ومُسَلَّمة إليكم، قائمة مَقام الكِتابة، بَل أحفَظ مِنها للدَّيْن.

وإنّما شَرَط السَّفر في جَواز الرَّهْن ـ مع عَدَم كَوْنه مَشرُوطاً به، بَل يجُوز في الحَضَر إجماعاً ـ لكون السَّفر مَظنّة شَدّة الحاجة إليه، وانحِصار طريق الاستيثاق به، لغَلَبة إعواز الكاتِب فيه. فالكلام خرَج علىٰ الأعمّ الأغلَب، وليس في الواقع علىٰ سبِيل الاشتِراط.

رُوي أنه رَهَن رسُول‌الله ﷺ دِرْعه في المدينة مِن يَهودي بعِشرين صاعاً مِن شعير، وأخذه لأهله[1].

في بيان اشتراط صحّة الرهن بالقبض

ثمّ أنّ ظاهِر الآية اشتِراط صِحّه الرَّهْن بالقَبض، ويعضُده ما رُوي عن الصادق عليه السلام: «لا رَهْن إلّا مَقبُوضاً»[2]، وادّعِي شُهْرَته بَيْن الأصحاب. والإشكال في دَلالة الآية، وسَنَد الرِّواية ـ بَل ودَلالتها ـ ضعيف في الغاية.

ثمّ بيّن سُبحانه القِسْم الثّالث مِن الدَّيْن، وهُو ما لَم يُؤخذ عليه كِتاب ولا رَهْن، بقوله: ﴿فَإِنْ أَمِنَ﴾ الدّائن الذي هُو ﴿بَعْضُكُم﴾ ومِن جُمْلتكم ﴿بَعْضاً﴾ آخر، وهو المَديُون، واطمأنّ قلبُه به، بحيث لا يخاف مِنه الجُحُود والإنكار، حتّىٰ يحتاج إلىٰ الاستيثاق بالكِتاب والرَّهْن ﴿فَلْيُؤَدِّ﴾ المَديُون ﴿الَّذِى اؤْتُمِنَ﴾ علىٰ الدَّيْن إلىٰ الدائن ﴿أَمَانَتَهُ﴾ وحَقّه. وإطلاق الأمانة عليه، لمُعاملة الدّائن مع المَديُون ودَيْنه مُعاملة الأمين والأمانة، مِن عدَم أخذ الكِتاب والرَّهْن والشُّهود عليه ﴿وَلْيَتَّقِ﴾ المَديُون أن يعصي ﴿اللهَ رَبَّهُ﴾ ومَليكه اللّطِيف بإنكار هذا الدَّيْن الذي هُو بمَنزِلة الأمانة، والمُماطَلة في أدائه.

ثمّ لمّا كانت الشَّهادة علىٰ الدَّيْن بمَنزِلة أمانة الدائِن عندَ الشّاهِد، أمر سُبحانه بأدائِها ونهىٰ عن كِتمانها بقوله: ﴿وَلَا تَكْتُمُوا﴾ أيُّها الشُّهود ﴿الشَّهَادَةَ﴾ علىٰ حُقُوق النّاس إذا دُعِيتُم لأدائها ﴿وَمَن يَكْتُمْهَا﴾ وأمتنعَ مِن أدائها عندَ الحاجة إليها ﴿فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ﴾ قيل: إنّ إسناد الإثم إلىٰ القلب، لا سْتِلزامه إثْم جميع الجَوارح، لكَون القلب رئيسها، فمَن كان قلبُه آثِماً كانت جميع جَوارِحه آثِمة.

عن الباقر عليه السلام، قال: «كافِرٌ قلبُه»[3].

---

١. تفسير أبي السعود ١: ٢٧٢.

٢. تفسير العياشي ١: ٦٣٠/٢٨٣، التهذيب ٧: ٧٧٩/١٧٦ عن الباقر عليه السلام، تفسير الصافي ١: ٢٨٦.

٣. من لا يحضره الفقيه ٣: ١١٥/٣٥، تفسير الصافي ١: ٢٨٦.

وقيل: كِتمان الشّهادة هُو أن يُضمِرها ولا يتكلّم بها، فلمّا كان[١] مُقترَفاً بالقلب اُسنِد إليه، لوُضوح أنّ إسناد الفِعْل إلىٰ الجَارِحة التي يعمَل بها أبلغ، كما يُقال: هذا مِمّا أبصرَتْه عَيْني، وعرفه قلبي[٢].

وقيل: هذا الإسناد؛ لئلا يُظَنّ أنّه مِن الآثام المُتعلّقة باللّسان فقَط، وليُعلَم أنّ القلب أصْل مُتعلّقه، ومَعْدِن اقتِرافه، واللّسان تُرْجُمان عنه، ولأنّ أفعال القُلوب أعظم من أفعال الجَوارِح، إذْ هِي لها كالأصل الذي تنشعِب مِنه. ألا ترىٰ أنّ أصل الحسَنات والسَيّئات الإيمان والكُفر، وهُما من أفعال القُلوب، فإذا جُعِل كِتمان الشّهادة مِن آثام القلب، فقد شَهِد له بأنّه مِن مُعظّمات الذُّنُوب[٣].

عن ابن عبّاس رضي الله عنه: أكبر الكبائِر الإشراك بالله، لقوله تعالىٰ: ﴿فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الجَنَّةَ﴾[٤] وشَهادة الزُّور، وكِتمان الشّهادة[٥].

وفي حديث مَناهي النبيّ صلى الله عليه وآله: «ونهىٰ عن كِتمان الشّهادة ... بقوله: ﴿ومَن يَكتُمْها فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُه﴾[٦].

﴿وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من الطّاعة والمعصِية، والخِيانة في الأمانة وردّها، وكِتمان الشّهادة وأدائها ﴿عَلِيمٌ﴾ فيُجازيكم أوفق الجَزاء. وفيه غاية التهديد.

لِلّهِ مَا فِى ٱلسَّمَاوَاتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَإِن تُبْدُوا مَا فِى أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَٱللهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ[٢٨٤]

ثمّ لزيادة التّرهيب علىٰ المُخالفة والكِتمان، ذكّر العِباد سَعَة قُدْرته وإحاطة عِلْمه، ونبّههم بهما. أما سَعَة قُدْرته فبقوله: ﴿لِلّهِ﴾ بالمُلْكية الحقيقية الإشراقيّة، لا الاعتباريّة الإضافِيّة ﴿مَا فِى ٱلسَّمَاوَاتِ ومَا فِى الأرْضِ﴾ جميعاً، لا يخرُج موجود مِن المَوجُودات ـ في عوالِم المُلْك والمَلَكُوت، قَويُّها وضَعيفها وعَظيمها وحَقيرها ـ مِن تَحْت قُدْرته وسُلْطانه، فلا عَجْز له مِن عُقوبة مَن عَصاه، وإثابة مَن أطاعه، هذا سَعَة قُدْرته.

وأمّا إحاطة عِلْمه سُبحانه فبقوله: ﴿وَإِن تُبْدُوا﴾ تُظهِروا بالقَول أو الفِعل ﴿مَا فِى أَنفُسِكُمْ﴾

---

١. أي الكتمان. ٢. تفسير روح البيان ١: ٤٤٣.
٣. تفسير روح البيان ١: ٤٤٣. ٤. المائدة: ٧٢/٥.
٥. تفسير روح البيان ١: ٤٤٣. ٦. من لايحضره الفقيه ٤: ١/٧، تفسير الصافي ١: ٢٨٦.

وقُلوبكم مِن الإيمان والكُفر، والإرادات الحَسَنة والسَّيِّئة ﴿أَوْ تُخْفُوهُ﴾ وتستُروه مِن كُلّ أحَدٍ، مِن الإرادات والعزمات، دون الوَساوس وخُطُورات النَفس التي لا عَقْد ولا عَزيمة فيها، لعدَم الوُسْع في دَفْعها ﴿يُحَاسِبْكُم﴾

ويُؤاخِذْكم ﴿بِهِ اللَّهُ﴾ يَومْ الحِساب.

عن ابن عبّاس رضي الله عنه أنّه قال: لمّا نزَلَتْ [هذه] الآية جاء أبو بكر وعُمر وعبدالرحمٰن بن عوف[1] وناسٌ إلىٰ النبيّ صلى الله عليه وآله، فقالوا: يا رسُول الله، كُلِّفْنا مِن العَمَل ما لا نُطيق، إنّ أحدَنا ليُحدِّث نفسه بما لا يُحِبّ أن يَثْبُت في قَلْبه، وأنّ له الدُّنيا. فقال النبيّ صلى الله عليه وآله: «فلعلّكم تقولون كما قال بنو إسرائيل: سمِعنا وعَصَينا، قولوا: سمِعنا وأطعنا».وأشتدّ ذلك عليهم، فمكَثوا في ذلك حَولاً، فأنزل الله: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا﴾[2] فنسخَتْ هذهالآية، فقال النبي صلى الله عليه وآله: «إنّ الله تجاوَز عن اُمّتي ما حدَّثوا به أنفسَهم، ما لم يعملوا ويتكلّموا به»[3].

في رد استدلال العامّة بآية المحاسبة علىٰ بطلان مذهب الخاصة

أقول: فيالاعتِراض وفيالجَواب مِنالدَّلالة علىٰفساد ضمائِر المُعترِضين ما لا يخفىٰ.

قيل: إنّما قدّم الإبداء علىٰ الإخفاء؛ لأنّ المُتعلّق بما في أنفسهم هُو المُحاسبة، والأصل فيها الأعمال البَادية[4].

وقال جَمْعٌ مِن العامّة: إنّ في الآية رَدٌّ علىٰ مُنكِري المُحاسبة بما في النَفس، مِن الإمامية والمُعتَزِلة[5].

وفيه: أنّه إنْ اُرِيد بما في النَفس الخُطُورات القلبيّة وحديث النَفس، فأصحابنا الإمامية متّفِقون علىٰ عدَم المُحاسبة به، وما مِن ذي مُسْكَة يُخالِفهم في ذلك. ولا شُبْهة أنّ عُموم الآية -بقرِينة حُكْم العقَل بقُبْح المُؤاخذة علىٰ ما لا يُطاق- مَخصوصٌ بغيره.

وإن اُريد به[6] العَزْم والإرادة، فانكار المُحاسبة ليس مِمّا اتّفقَتْ عليه الإمامية، لذَهاب كثيرٌ مِنهم إلىٰ ثبوت المُحاسبة به، والعِقاب عليه، مُستدِلّين بحُكم العقَل، وكثيرٍ مِن الرِّوايات. وأمّا ذَهاب كثيرٌ مِنهم الى المَعفُوّ عنه، فلتقييدهم الآية بطائِفة اُخرىٰ مِن الأخبار المُعتبَرة، وحَمْلم إطلاقها علىٰ الكُفر

١. زاد في تفسير الرازي: ومعاذ.
٢. البقرة: ٢/٢٨٦.
٣. تفسير الرازي ٧: ١٢٥.
٤. تفسير أبي السعود ١: ٢٧٢.
٥. تفسير أبي السعود ١: ٢٧٢، تفسير روح البيان ١: ٤٤٤.
٦. أي وإن اُريد بما في النفس.

والعَقائِد الباطِلة، أو مع النِّيات السَّيِّئة بالنسبة إلىٰ غير المؤمن.

وعلىٰ هذا يكون قولُه تعالىٰ: ﴿فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ﴾ وَعْداً بالمَغفِرة لمَن تاب وآمن، فلا يُواخَذ بنِيَّته المعاصي الجَوارِحِيَّة، ما لَم يقترِفْها، وقوله: ﴿وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾ تَعْذِيبه، وَعيداً لمَن مات علىٰ الكُفر والعَقائِد الباطِلة.

في الاستدلال علىٰ العفو عن النيات السيئة المجرّدة عن العمل

ومِمَّا يَدُلُّ علىٰ العَفْو عن نِيّات السُّوء، وعدَم المُحاسبة بها، قولُه ﷺ في الرِّواية السابقة: «إنّ الله تجاوَز عن أُمّتي ما حدَّثوا به أنفسهم، ما لَمْ يعمَلوا، أو يتكلَّموا به»[1].

فإنّه نصٌّ صريح في عُمُوم العَفْو للنِيّات والارادات المُجرّدة عن العمَل.

ورواية ابن عبّاس: أنّ الله تعالىٰ إذا جمع الخلائِق يُخبِرهم بما كان في نُفُوسهم، فالمُؤمن يُخبِره ثمّ يعفُو عنه، وأهل الذُّنُوب يُخبِرهم بما أخفَوا مِن التّكذِيب والذنب[2].

وأمّا ما عَن أمير المؤمنين عليه السلام، في (نهج البلاغة) مِن قوله: «وَبِمَا في الصُّدُور تُجَازَى العِباد»[3]. فالظّاهِر أنّ المُراد أنّ العِباد بنِيّاتهم يُجازَوْن علىٰ أعمالهم، فمساقه مساق قوله ﷺ: «الأعمال بالنِّيّات»[4].

وتوضيح المَرَام أنّ حُسْن الأعمال والعِبادات وقُبْحها، دائران مَدار القَصْد والنِّيّة، لوُضوح أنّ ضَرْب اليَتِيم بقَصْد التّأدِيب حَسَنٌ، وبقَصْد الإيذاء قَبِيح، وكذا الكَذِب بقَصْد الإصلاح حَسَنٌ، وبغيره قَبِيح، والعِبادات بقَصْد الإخلاص تكون حَسَناً، وبقَصْد الرِّياء والسُّمْعة تكون شِرْكاً وقبيحاً.

فظهر أنّ حُسْن الأعمال وقُبْحها بحَسَب النِّيّات التي في الصُّدُور، فالاعتِراض علىٰ الإمامية ـ تمسُّكاً بإطلاق الآية المُباركة ـ ناشِئٌ عن عدَم فَهْم السُّنّة وعدَم التمسُّك بالثَّقَلَيْن اللذين [هُما] كُلٌّ مُبيِّن للآخر.

ثمّ قرّر سُبحانه تعالىٰ سَعَة قُدْرته وأكّدها بقوله: ﴿وَاللهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ مِن المُحاسبة، والتّعذِيب، والمَغفرة، وغيرها مِمّا يكون في حَيِّز الإمكان ﴿قَدِيرٌ﴾ ولا قُصُور في قُدْرته، ولا مانِع عن نُفُوذ إرادته.

رَوىٰ الطَّبْرسي رحمه الله في (الاحتجاج)، عن أمير المؤمنين عليه السلام، في ضِمْن بيان قِصّة المِعْراج: «فكان

---

١. تفسير الرازي ٧: ١٢٥.
٢. تفسير الرازي ٧: ١٢٦.
٣. نهج البلاغة: ١٠٣/الخطبة ٧٥، تفسير الصافي ١: ٢٨٦.
٤. التهذيب ١: ٨٣/٢١٨.

قاب قَوسَين بَيْنهما أو أدنىٰ، فأوحىٰ الله إلىٰ عَبْده ما أوحىٰ، فكان فيما أوحىٰ إليه الآية التي في سُورة البقرة: ﴿لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَاوَاتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ الآية، وكانت الآية مِمّا[1] عُرِضت علىٰ الأنبياء ـ مِن لَدُن آدم إلىٰ أن بعث (تبارَك اسمُه) مُحمّداً ﷺ ـ وعلىٰ الأُمَم، فأبَوا أن يقبَلوها مِن ثِقْلها، وقبِلها رسُولُ الله ﷺ، وعرضها علىٰ اُمّته فقبِلوها»[2].

أقول: المُراد مِن الأُمّة التي قبلتها أمير المؤمنين عليه السلام والأوحَدي مِن أصحابه، لظُهور أنّ الّذِين شَكَوا إلىٰ رسُول الله ﷺ مِن ثِقْل الآية، فقال لهم: «لعلّكم تقولون كما قال بنو إسرائيل: سمِعنا وعَصَينا، قولوا: سمِعنا وأطعنا» ـ علىٰ ما في الرِّواية السّابقة ـ لَم يكونوا مِمّن قبِلها؛ لأنّهم لَم يقولوا: سمِعنا وأطعنا، بل رُوي أنّه اشتدّ ذلك [عليهم]، فمكثُوا في ذلك حَولاً[3].

آمَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِن رَبِّهِ وَٱلْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِن رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ[٢٨٥]

ثمّ أنّه تعالىٰ ـ لمّا بيّن التّكاليف الكثيرة، ثمّ عقّبها بآية المُحاسبة ـ مدَح النبيّ ﷺ والمُؤمنين به بكمال الإيمان والسّمع والطّاعة بقوله: ﴿آمَنَ ٱلرَّسُولُ﴾ حَقّ الإيمان بالمُشاهدة والعِيان، لا بالدّليل والبُرهان ﴿بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِن رَبِّهِ﴾ مِن المَعارِف والحِكَم والأسرار وحقائِق الأشياء التي يُمكِن تحمُّلها، المُنطَوية في القُرآن المَجيد.

قيل: إنّه تعالىٰ لمّا بيّن في فاتِحة السُّورة الكريمة؛ أنّ الكِتاب العَظِيم الذي أنزله علىٰ رسُوله، هُدىً للمُتقين المُتّصِفين بالصِّفات الفاضِلة، ولَم يُبيِّن مِصداقاً لهم، عيّن في خاتِمتها المُتّصِفين بها، وحَكَم بعُنوان الشّهادة لهم بكمَال الإيمان وحُسْن الطّاعة، وإنّما بدأ تعالىٰ بذِكْره ﷺ بطريق الغَيْبة، مع ذِكْره هُناك بطريق الخِطاب، لِمَا أنّ حَقّ الشّهادة الباقِية مَرّ الدُّهُور أن لا يُخاطَب بها المَشهُود له.

وإيراده بعُنوان الرِّسالة المُنبِئة عَن كَونه ﷺ صاحِب كِتاب وشَرْع تمهيداً لقوله: ﴿بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ﴾، والتّعرُّض لعُنوان الرُّبُوبيّة مع إضافته إليه تَشْريفٌ له، وتَنْبيه علىٰ أنّ إنزاله إليه تربيةٌ وتكميلٌ له ﷺ.

ثمّ أتبَع مَدْحه بمَدْح تابعيه بقوله: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ المَعهُودون المَعرُوفون، الخاصُّون الصّدِّيقون

---

١. في المصدر: قد. ٢. الاحتجاج: ٢٢٠، تفسير الصافي ١: ٢٨٩. ٣. تفسير الرازي ٧: ١٢٥.

﴿كُلٌّ﴾ مِنهم ببَرَكة هِداية ذلك الرّسُول المُكرَم ﴿آمَنَ بِاللهِ﴾ وبوَحدانيّته وبصِفاته الجَلاليّة والجَماليّة، بحقيقة الإيمان، وصَمِيم القلب، كما قال سيّدهم وأميرهم[1]: «لَو كُشِف الغِطاء ما ازْدَدْتُ يقيناً»[2].

ثمّ أنّه تعالىٰ عِنْد تفصِيل العقائِد المُعتَبرة في الإيمان ومَدْح المُؤمنين بها، قدّم الإيمان بالملائِكة والكُتُب في الذِكْر علىٰ الإيمان بالرُّسُل بقوله: ﴿وَمَلَائِكَتِهِ﴾ مِن حَيْث إنّهم عِباد مُكرَمون له، لا يسبِقونه بالقول، وهُم بأمره يعمَلون، ومِن شأنهم التّوسط بَيْنه تعالىٰ وبَيْن الرُّسُل بإنزال الكُتُب وإلقاء الوَحْي ﴿وَكُتُبِهِ﴾ المُنزَلة لِهداية الخَلْق وإقامتهم بالقِسْط ﴿وَرُسُلِهِ﴾ المَبعُوثين مِن قِبَله تعالىٰ، لتربيَة النُّفُوس، وإتمام الحُجّة، وتبيين الأحكام.

مع أنّ الرُّسُل أرفَع شأناً مِن الملائِكة، بمقتضىٰ الرِّوايات المُتضافِرة، بَل المُؤمنون أكرم عِنْد الله مِنهم؛ لأنّ الملائِكة وسائط الوَحْي، والكُتُب مَنشُور الله وَوَحْيه، فترتِيب النَظْم مُقتضي لتقدِيم المُرسِل، ثمّ واسِطة الإرسال، ثمّ الرِّسالة والمَرسُول، ثمّ المُرسَل إليه.

وأمّا تغيير الأُسلوب بإضافة إيمان الرّسُول إلىٰ ما أُنزِل إليه - مع كَوْن الإيمان بالملائِكة والكُتُب والرُّسُل داخلاً فيه بنَحْو الإجمال، وذِكْر التّفصِيل في إيمان المُؤمنين - فإنمّا هُو لتَعظِيم الرّسُول وتشرِيفه، بحيث ينبغي أن يُقال في التّعبير: الملائِكة والرُّسُل آمنوا بالرّسُول، فتعظيمه صَلَواتُ الله عليه اقتضىٰ الاكتِفاء في بيان ما آمَن به بذلك الإجمال الذي يُعلَم تفصِيله مِن تفصيل ما آمن به المُؤمنون بذلك الرّسُول.

ثمّ بَعد وَصْف المُؤمنين مِن حيث العقائِد والمَعارِف، وصفَهم مِن حيثُ المَقال بأنّهم قائلون: نحن ﴿لَا نُفَرِّقُ﴾ ولا نُميِّز ﴿بَيْنَ أَحَدٍ مِن رُسُلِهِ﴾ مِن حيثُ الإيمان والكُفْر، والتّصدِيق والتّكذِيب، ولا نقول كما قال اليَهُود: نُؤمن بِبَعْضٍ ونَكفُر بِبَعْض ﴿وَقَالُوا﴾ إظهاراً للانقِياد لأحكام الله: ربّنا ﴿سَمِعْنَا﴾ نِداء مُنادي الإيمان، وتِلاوة آيات القُرآن، وفهِمنا ما جاءنا مِن الحَقّ والأحكام ﴿وَأَطَعْنَا﴾ أوامِرك ونَواهيك، وأجبْنا ذلك المُنادي بالإيمان والانقِياد والطّاعة، فإذَن نسألُ ﴿غُفْرَانَكَ﴾ خطايانا وذُنُوبنا يا ﴿رَبَّنَا﴾ ومَالِك أمرنا اللّطيف بِنا، فإنّك مرجِعنا في القِيامة ﴿وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ والمُنقلَب بعدَ الموت، وعندَ الحَشْر.

قيل: لمّا نزلَتْ الآية قال جَبْرَئيل للرّسُول ﷺ: إنّ الله قد أثنىٰ عليك وعلىٰ أُمّتك، فسَلْ تُعْطَ، فقال

---

١. أي أمير المؤمنين علي عليه السلام.

٢. مناقب ابن شهر آشوب ٢: ٣٨، بحار الأنوار ٦٩: ٢٠٩.

[الرسول ﷺ]: «غُفرانك ربّنا»[1].

وفي نِدائه بعُنوان الرُّبُوبيّة مُضافاً إلىٰ أنفسهم مُبالغةً في التّضرُّع، وجَلْب العُطُوفة[2]. وتقديم ذِكْر السّمْع والطّاعة علىٰ سُؤال المَغفِرة، لكَوْنه أدعىٰ إلىٰ القَبُول والإجابة، وفي الإقرار بالمَعاد بقوله: ﴿وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ بيانٌ لعِلّة كمال الحاجة إلىٰ المَغفِرة.

وفي رِواية (الاحتِجاج): عن أمير المؤمنين عليه السلام في قِصّة مِعْراج النبيّ ﷺ قال: «فلمّا أن صار إلىٰ ساق العَرْش كرّر عليه الكلام ليفهَمه، فقال: آمن الرّسُول بِما أُنزِل إليه مِن ربّه، فأجاب ﷺ مُجيباً عنه وعن اُمّته فقال: والمُؤمنون كُلٌّ آمن بالله وملائِكته وكُتُبه ورُسُله، لا نُفرّق بَيْن أحد مِن رُسُله، فقال جلّ ذِكْرُه: لَهم الجَنّة والمَغفِرة علىٰ أن فعلوا ذلك، فقال النبيّ ﷺ: أمّا إذا فعلتَ ذلك بِنا فغُفْرانك ربّنا وإليك المَصير ـ يعني المَرجِع في الآخرة ـ قال: فأجابه الله جل ثناؤه: قد فعلْتُ ذلك بك»[3].

لَا يُكَلِّفُ ٱللهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَافِرِينَ[٢٨٦]

ثمّ بعدما بَيّن الله طاعة المُؤمنين وانقِيادهم له، ذكَر مِنّته عليهم بالتّسهيل في الأحكام بقوله: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللهُ نَفْساً﴾ ولا يُلزِم علىٰ نَسَمة عملاً ﴿إِلَّا وُسْعَهَا﴾ وما يسهُل عليها، وتسَع له قُدرَتُها؛ بحيث لا يكُون عليها فيه ضِيق ولا حَرَج، فضلاً منه ورحمةً علىٰ هذه الأُمّة.

عن الصادق عليه السلام: «ما اُمِر العِبادُ إلّا دون سَعَتهم، وكُلّ شيءٍ اُمِر النّاسُ بأخذه فهم مُتّسِعون [له]، وما لا يتّسِعون [له] فهُو مَوضُوعٌ عنهم، ولكنّ النّاس لا خَيْر فيهم»[4].

ثمّ بعَد بيان المِنّة عليهم بالتّخفيف والتّسهيل في التّكليف، رَغّب في الطّاعة بقوله: ﴿لَهَا﴾ ثَواب ﴿مَا كَسَبَتْ﴾ وعمِلت مِن خيرٍ وطَاعة، لا لغيرها. ثمّ رهّب عن المُخالفة والعِصيان بقوله: ﴿وَعَلَيْهَا﴾ عِقاب ﴿مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ وحصّلت مِن الشّرّ والضُّرّ والمَعصية، لا علىٰ غيرها.

---

١. تفسير روح البيان ١: ٤٤٧.

٢. كذا، وقياس المصدر: العطف أو العُطُوف.

٣. الاحتجاج: ٢٢١، تفسير الصافي ١: ٢٨٩.

٤. التوحيد: ٦/٣٤٧.

ثمّ عادَ سُبحانه إلىٰ بيان مقال المؤمنين في مَقام الدُّعاء والتَضرُّع والخَوْف بقوله: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾.

وفي رِواية المِعْراج: «فقال النبيّ ﷺ لمّا سمِع ذلك: أما إذا فعلْتَ [ذلك] بي وبأمّتي فزِدْني، قال: سَلْ، قال: ربّنا لا تُؤاخذنا إن نَسِينا أو أخطأنا، قال الله تعالىٰ: لستُ أُؤاخذ أمّتك بالنِسْيان والخطأ لكرامتك عَلَيّ. وكانت الأمَم السَالِفة، إذا نَسُوا ما ذُكِّروا به، فتحْتُ عليهم أبواب العَذاب، وقد رفعتُ [ذلك] عن أمّتك. وكانت الأمَم السَالِفة إذا أخطئوا أُخذهم بالخطأ وعُوقِبوا عليه، وقد رفعتُ [ذلك] عن أمّتك لكرامتكَ عَلَيّ» الخبر[1].

توضيح المراد من رفع الخطأ والنسيان

توضيح الآية والرِّواية: أنّ المُراد مِن النِّسْيان والخطأ العمَل الذي صدَر عن النِّسيان والخطأ في الحُكْم أو المَوضُوع، لوضوح أنّ صِفة النِّسيان والخطأ ليستا مِن مُتعلقات التكليف، ولا قابلتين للمُؤاخذة عليهما حتىٰ يُرفع عنهما، وما ليس قابلاً للوَضْع ليس قابلاً للرَّفْع.

إن قيل: كما لا يُمكِن جَعْل المُؤاخذة علىٰ نَفْس الصِّفتين، لا يُمكِن جَعْلها علىٰ العَمَل الصَادِر عنهما، فكيف يصِحّ الامتِنان بَرفْعها عنه؟

قُلتُ: نعَم، ولكِن يُمكِن جَعْل المُؤاخذة علىٰ عدَم المُبالاة وعدَم المُحافظة المُؤدِّيَيْن إلىٰ الخطأ والنِّسيان، لكَوْنهما مُستَنِدين إلىٰ الاختِيار والتَقصِير، ويصِحّ جَعل العُقوبة عليهما بجَعل وُجُوب الاحتِياط وإيجاب التَحفُّظ. فمعنىٰ رَفع المُؤاخذة والعُقُوبة علىٰ العمَل الصادر عن الخطأ والنِّسيان، رَفع إيجاب التَحفُّظ.

وقيل: إنّ المُراد مِن النِّسيان تَرْك العمل، ومن الخطأ الذَنب.

وعن ابن عبّاس رضي الله عنه: أنّ مَعناه لا تُعاقبنا إن عصَيناك جاهِلين، أو مُتعمِّدين[2].

﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ﴾ ولا تجعَلْ ﴿عَلَيْنَا إِصْراً﴾ وتكليفاً شاقّاً ثقيلاً ﴿كَمَا حَمَلْتَهُ﴾ وجَعَلْتَه ﴿عَلَى﴾ الأمَم ﴿الَّذِينَ﴾ كانوا ﴿مِن قَبْلِنَا﴾.

ذكر الآصار التي كانت على الأمم

وفي الرِّواية المِعَراجيّة السّابِقة: «فقال النبيّ ﷺ: اللهم: إذا أعطيتني ذلك فزِدْني، فقال الله تعالى: سَل، قال: ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ

---

١. الاحتجاج: ٢٢١، تفسير الصافي ١: ٢٨٩.
٢. جوامع الجامع: ٥٢.

قَبْلِنَا﴾ يعني بالإصْر الشَّدائِد التي كانت علىٰ مَن كان قبلنا، فأجابه الله تعالىٰ [إلىٰ] ذلك، فقال تبارَك اسْمُه: قد رفعْتُ عن اُمّتك الآصار التي كانت علىٰ الأُمَم السّالِفة، كنتُ لا أقبل صَلاتهم إلّا في بِقاعٍ مِن الأرض المَعلُومة[١] اختَرتُها لهم وإن بَعُدت، وجعلتُ الأرض كُلّها [لأمّتك] مَسجِداً وطَهُوراً، فهذه مِن الآصار التي كانت علىٰ الأُمَم قبلك، فرفعتُها عن اُمّتك.

وكانت الأُمَم السّالِفة إذا أصابهم أذىً مِن نجاسة قرَضوها مِن أجسادهم، وقد جعلتُ الماء طَهورا لأمّتك، فهذه مِن الآصار التي كانَتْ عليهم، فرفعتُها عن اُمّتك.

وكانت الأُمَم السّالِفة تحمِل قَرابينها علىٰ أعناقها إلىٰ بَيْت المَقْدِس، فمَن قبِلْتُ ذلك مِنه أرسلْتُ إليه ناراً فأكلَتْه فرجَع مَسرُوراً، ومَن لَم أقبَل ذلك مِنه رجَع مَثبُوراً، وقد جلَعتُ قُربان اُمّتك في بُطُون فُقَرائها ومَساكِينها، فمَن قبِلتُ ذلِك مِنه أضعفتُ ذلك له أضعافاً مُضاعفة، ومَن لَم أقبَل منه رفعتُ عنه عُقُوبات الدُّنيا.

إلىٰ أن قال: وكانت الأُمَم السّالِفة صَلَواتها مَفرُوضة عليها فى ظُلَم اللّيل وأنصاف النهار، وهِي مِن الشَّدائد التي كانت عليهم، فرفعتُها عن اُمّتك، وفرضتُ عليهم صَلَواتهم في أطراف اللّيل والنّهار، وفي أوقات نشاطِهم.

وكانت الأمم السّالِفة قد فرضتُ عليهم خمسين صلاةً في خمسين وقتاً، وهِي مِن الآصار التي كانت عليهم، فرفعتُها عن اُمّتك، وجعلتُها [خمساً] في خمسةِ أوقات»[٢].

وقيل: إنّ مِن الآصار: قَتْل النَفس في التّوبة، وقَطْع الأعضاء الخاطِئة، وحُرمة أكل الصائِم بعد النّوم وبَعْض الطَّيِّبات عليهم بالذُّنُوب، وكتابة ذَنْب اللّيل علىٰ الباب بالصُّبْح، وكَوْن الزّكاة رُبْع ما لهم، وغير ذلك مِن الشّدائِد. وقد عصَم الله عزّ وجلّ هذه الأُمّة مِن أمثال ذلك، وأنزل في شأنهم ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾[٣]، وقال ﷺ: «بُعِثتُ بالحَنيفيّة السّهلة السَّمِحة»[٤].

ثمّ كرّر النِّداء بقوله: ﴿رَبَّنَا﴾ إظهاراً لمَزِيد الضَّراعة ﴿وَلَا تُحَمِّلْنَا﴾ ولا تُنزل بذُنُوبنا وإسرافنا علىٰ أنفسنا ﴿مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ ولا صَبْر لنا عليه، مِن البَلايا والعُقُوبات النازِلة علىٰ الأُمَم السّالِفة.

واستَدل الأشاعِرة به علىٰ جَواز التّكليف بما لا يُطاق.

---

١. في المصدر: بقاع معلومة من الأرض.
٢. الاحتجاج: ٢٢١، تفسير الصافي ١: ٢٨٩.
٣. الأعراف: ١٥٧/٧.
٤. تفسير روح البيان ١: ٤٤٩.

وفيه: أنّه لا مَوقِع لاستِدعاء عَدم تحمِيل التّكليف بغير المَقدور، بعدَ سُؤال عَدم تحميل الإصْر الذي هُو التّكاليف الشّاقة، وإجابته مِنه تعالىٰ.

إن قيل: إنّ المُراد بالإصْر البَلايا والعُقُوبات.

قلنا: مُضافاً إلىٰ أنه خِلاف المَشهُور بَيْن المُفسِّرين، وكثير من الروايات، لا يُمكِن حَمْل ما لا يُطاق علىٰ غير المَقدُور؛ لحُكْم العَقل بقُبْح التّكليف به، فلابُدّ مِن حَمْله علىٰ غير المَقدُور العُرْفي، وهُو ما يكون فيه حَرَج ومَشَقّة.

وفي الرّواية المِعرَاجيّة: «قال: فقال النبيّ ﷺ: إذا أعطيتني ذلك فـزدْني، قـال: سَلْ: قـال: ﴿وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ قال تبارَك اسْمُه: قد فعلْتُ ذلك بك وبأمّتك، وقد رفعتُ عنهم عظيم بَلايا الأمَم؛ وذلك حُكْمي في جميع الأمَم أن لا اُكلِّف خلقاً فوق طاقتهم»[١].

ثمّ أنّه تعالىٰ بعدَ حِكاية سُؤال المُؤمنين أهمّ حوائِجهم في الدُّنيا، حكىٰ عنهم سُؤال أهمّ حوائِجهم في الآخرة بقوله: ﴿وَٱعْفُ عَنَّا﴾ ذُنُوبنا ﴿وَٱغْفِرْلَنَا﴾ سيّئاتِنا ﴿وَٱرْحَمْنَا﴾.

والفَرْق بَيْن العَفْو والمَغفِرة والرّحمة، أنّ العَفْو: هُو التّجاوز عن عُقُوبة الذّنْب. والمَغْفِرة: هي سَتْر الذَّنب أو مُطلق السَّتْر، ذَنباً كان المَستُور أو نقصاً وعَيْباً، بحيثُ لا يطَّلِع عليه أحدٌ. والرّحمة: هي التعطّف بإعطاء الثّواب، أو بالأعمّ مِنه ومِن دَفْع البلاء والمِحَن والكُرُوب وأهوال القِيامة.

ثمّ حكىٰ خَتْمهم الدُّعاء بأهمّ الحوائِج بقوله: ﴿أَنتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَافِرِينَ﴾ وفيه دَلالة علىٰ أنّ إعلاء كلِمة الحَقّ والجِهاد في سبِيل الله، والغَلَبة علىٰ الكُفّار، والنُّصْرة علىٰ أعداء الدِّين بالسّيف والحُجّة، غايةُ آمال المُؤمنين.

ولمّا كان في الأدعِية الثّلاثة الأُوَل مَقام إظهار غاية الضّراعة، كان الأنسب تَـوْصيفه تـعالىٰ بـصِفة الرُّبوبِيّة؛ لإشعارها بكَمال ذِلّة الدّاعي، وتأثيرها في سُرعة إجابة الدّعاء.

وأمّا في السّؤال الرابع؛ وهُو طَلَب النُّصْرة علىٰ الكُفّار، فلَمّا كان مقام الاستِعانة والانتِصار، كـان المُناسب توصِيفه تعالىٰ بالمَوْلَوِيّة، حيثُ إنّ المَوْلىٰ إن كان بمعنىٰ النّاصِر والمُعِين، أو بمعنىٰ المَالِك والسّيِّد، فالمُناسبة ظاهِرة، حيثُ إنّ مِن وظيفة السّيِد والمَالِك أن يكون ناصِراً لعَبْده وحافِظاً له، وإن كان بمعنىٰ مُتولّي الأمور فيدخُل فيه النُّصرة علىٰ الأعداء.

---

١. الاحتجاج: ٢٢٢، تفسير الصافي ١: ٢٩١.

وفي الرّواية المِعْراجية: عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «قال صلى الله عليه وآله: ﴿وَآعْفُ عَنَّا وَآغْفِرْ لَنَا وَآرْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا﴾ قال الله تعالىٰ: قد فعلْتُ ذلك بتائبي اُمّتك. قال صلى الله عليه وآله: ﴿فَانصُرْنَا عَلَىٰ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ قال الله جلّ اسْمُه: إنّ اُمّتك في الأرض كالشّامة البَيْضاء في الثّوْر الأسود، هُم القادِرون، وهم القاهِرون، يَستخدِمون ولا يُستخدَمون لكرامة اُمّتك[1] عَلَيّ، وحَقٌّ عليّ أن اُظهِر دِينك علىٰ الأديان، حتىٰ لا يبقىٰ في شَرْق الأرض وغَرْبها دِينٌ إلّا دِينك، ويُؤدّون إلىٰ أهل دِينك الجِزْية»[2].

ورُوي مِن طُرُق العامّة أنّه لمّا اُسري برسُول الله صلى الله عليه وآله انتُهي به إلىٰ سِدْرة المُنتهىٰ، وهِي في السّماء السّادسة، إليها ينتهي ما يُعرَج به مِن الأرض فيُقبَض منها، وإليها ينتهي ما يُهبَط به مِن فَوْقها فيُقبَض مِنها. قال: ﴿إِذْ يَغْشَىٰ السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ﴾[3] قال: فِراش من ذَهَب، قال: فاُعطي رسُول الله صلى الله عليه وآله ثلاثاً: اُعطي الصلوات الخَمْس، واُعطي خَواتِيم سُورة البقرة، وغُفِر لمَن لا يشرِك بالله شيئاً مِن اُمّته[4].

قال صلى الله عليه وآله: «قرّبني الله وأدناني إلىٰ سَنَد العَرْش، ثمّ ألهمني الله أن قلتُ: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَبِّه وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ باللهِ ومَلَائِكَتِه وكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِن رُسُلِهِ﴾ كما فرَقَت اليَهُود والنَّصارىٰ».

قال: فما قالوا؟ قلتُ: «قالوا: سمِعنا وعَصَينا، والمُؤمنون قالوا: سمِعنَا وأطَعنا». فقال: صدَقت، فسَلْ تُعْطَ، فقلتُ: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ قال: قد رفعتُ عنك وعن اُمّتك الخطأ، والنِّسيان، وما استُكرِهُوا عليه.

فقلت: ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا﴾ يعني اليَهُود. قال: لك ذلك ولاُمّتك.

قلتُ: ﴿وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ قال: قد فعلتُ.

قلتُ: ﴿وَآعْفُ عَنَّا وَآغْفِرْ لَنَا وَآرْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَىٰ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ قال: قد فعلتُ[5].

عن مَعاذ: أنّه كان إذا ختَم سُورة البقرة يقول: آمين[6].

ثمّ اعلَمْ أنّ مُقتضى هذه الرِّوايات؛ أنّ آية ﴿آمَنَ الرَّسُولُ﴾ إلىٰ قوله ﴿وَإِلَيكَ المَصِيرُ﴾، ومِن قوله:

---

١. في المصدر: لكرامتك.
٢. الاحتجاج: ٢٢٢، تفسير الصافي ١: ٢٩١.
٣. النجم: ١٦/٥٣.
٤. تفسير روح البيان ١: ٤٤٩.
٥. تفسير روح البيان ١: ٤٤٩.
٦. تفسير روح البيان ١: ٤٥٠.

﴿رَبَّنا لَا تُؤاخِذْنَا﴾ إلىٰ قوله: ﴿فانْصُرْنَا عَلَىٰ القَوْمِ الكَافِرِينَ﴾ مِن كلام الرَسُول في ليلة المِعْراج، وإنّما حكاه الله في كتابه؛ وليس بكلام الله. مع أنّ الإجماع والضَّرُورة مِن الدِّين حاكِمان بأنّ جميع مابَيْن الدَّفَتَيْن كلام الله، ليس كلام المَخلُوق، إلّا أن يُقال: أنّ الله تعالىٰ حكىٰ المَعاني بكلام نفسه، والمَعصُوم حكاها بكلام الله.

ثمّ أنّه تعالىٰ حكىٰ الدُّعاء، ولَم يَحْكِ الإجابة؛ لظُهُورها بقرينة سَعَة الرَحمة، وظُهُور استِحقاق الدَّاعي للإجابة.

في تفسير سورة آل عمران

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓمٓ * ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ[١ و ٢]

وجه إرداف البقرة بآل عمران

ثمّ أنّه تعالىٰ لمّا ختم السورة المباركة بالدعاء بالنصرة على الكافرين بالسيف والحُجّة، وكان رُبْعها أو أزيد تقريباً في المُحاجّة مع اليَهود، اقتضىٰ حُسْنُ النَّظْم إردافها بسُورة آل عمران، المُتضمّنة لإجابة ذلك الدُّعاء، مِن جِهَة دَلالتها علىٰ غَلَبة النبيّ والمُسلمِين؛ بنُصْرته تعالىٰ، علىٰ النَّصارى، بالحُجّة والمُباهلة، وبِشارة المُؤمنين بغَلَبتهم علىٰ الكُفّار، ونُصْرته لهم بقوله: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ﴾[١]، واشتِمالها علىٰ خِذْلان الكُفّار في غَزْوَة اُحُد، وكَوْنها إلىٰ بِضْع وثمانين آية في المُحاجّة مع النَّصارىٰ.

قصة وفد نصارىٰ نجران

رُوي أنّه قِدم علىٰ رسُول الله ﷺ وَفْدُ نَجْران، وكانوا سِتّين راكِباً، فيهم أربعة عشَر رَجُلاً مِن أشرافهم؛ ثلاثةٌ مِنهم أكابر، إليهم يؤُول أمرُهم، أحدُهم أميرُهم وصاحِب مَشْوَرتهم العاقِب، واسمُه عبدُالمَسِيح، وثانيهم وزِيرُهم ومُشِيرهم السيِّد، واسمُه الأيهم، وثالثهم حَبْرُهم واُسقُفُّهم وصاحب مدارسهم يُقال له أبو حارِثة بن علقمة أحد بني بكر بن وائل، وقد كان ملوك الرُّوم شرّفوه وموّلوه وأكرموه لِما بلَغَهم مِن عِلمه واجتِهاده في دِينهم، وبنَوا له كَنائِس، فلمّا خرَجوا مِن نَجْران ركِب أبو حارثة بَغْلَته، وكان أخوه كُرْز بن علقمة إلى جَنْبه، فبَيْنا بَغْلة أبي حارثة تسير إذْ عَثَرت، فقال كُرْز تَعْساً للأبعد ـ يُرِيد به رسُول الله ﷺ ـ فقال له أبو حارِثة: بل تَعِستْ اُمُّك، فقال كُرْز: ولِمَ يا أخي؟ [فقال أبو حارثة:] إنّه والله النبيّ الذي كُنّا ننتظِره.

فقال أخوه كُرْز: فما يمنَعُك عنه، وأنتَ تعلَم هذا؟! قال: لأن هَؤلاء المُلوك أعطَونا أموالاً كثيرةً

---

١. آل عمران: ١٢/٣.

وأكرمونا، فلَو آمنّا به لأخذوا مِنّا كُلّ هذه الأشياء، فوقَع ذلِك في قَلب كُرْز، وكان يُضمِره إلى أن أسلم، فكان يُحدِّث بذلك.

فأتَوا المدينة، ثمّ دخلُوا مَسجِد رسُول الله ﷺ بعدَ صلاة العَصْر، عليهم ثِياب حَبِرات، مِن جُبَب وأردِية فاخِرة، يقول بعضُ مَن رآهم مِن أصحاب النبي ﷺ: ما رأينا وفداً مِثلهم. وقد حانَتْ صلاتهم فقاموا ليُصلُّوا في المَسجِد، فقال ﷺ: «دَعُوهم» فصَلُّوا إلى المَشْرِق.

ثمّ تكلّم أولئك الثّلاثة مع رسُول الله ﷺ، فقالوا تارةً: عيسى هُو الله؛ لأنّه كان يُحيي المَوتى، ويُبرئ الأسقام، ويُخبِر بالغُيُوب، ويخلُق مِن الطِّين كهَيْئة الطَّير؛ فينفُخ فيه فيطير، وتارة أُخرى: هُو ابن الله؛ إذ لَم يكُن له أب يُعلَم، وتارةً أخرىٰ: إنّه ثالِثُ ثلاثةٍ؛ لقوله تعالىٰ: (فعلناه) و(قلنا) ولو كان واحداً لقال: فعلتُ وقلتُ.

فقال لهم رسُول الله ﷺ: «أسلموا». فقالوا: أسلَمنا قَبْلك. قال ﷺ: «كَذَبتم، كيف يصِحّ إسلامُكم وأنتُم تُثبِتون لله ولداً، وتعبُدون الصَّليب، وتأكُلون الخِنْزير؟»

قالوا: إن لَم يكُن ولدَ الله فمَن أبوه؟ فسكت رسُول الله ﷺ، فأنزل الله تعالىٰ في ذلِك أوّلَ سُورة آلِ عِمْران[1].

﴿بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ ﴿الٓمٓ﴾ وقَد مَرّ تفسيرُ البَسْمَلة، وتأويل الحُروف المُقطّعة، وإنّما بدأ السُّورة بها لتَوْجيه الأذهان إلىٰ إصغاء ما بَعْدها مِن البَراهِين القاطِعة علىٰ التَوحيد، وإبطال الشِّرك.

ولمّا كان مَقام الاحتِجاج مع النّصارىٰ، بدأ سُبحانه ـ علىٰ قانُون الجَدَل ـ ببَيان التَوحيد الذاتي، الذي هُو المُدَّعىٰ الأوّل بقوله: ﴿ٱللهُ﴾ حيثُ إنّه عِلْمٌ للذات الواجِب، المُستجمِع لجميع الكَمالات، المُمتنِع تَعدُّده وتَكثُّرة، ثمّ ثنّاه ببَيان التَوحيد العِبادَتي بقوله، مُخبِراً عن ذاته بأنّه ﴿لَآ إِلَـٰهَ﴾ ولا مَعبُودَ مُتصوَّرٌ أو مَوجُودٌ ﴿إِلَّا هُوَ﴾.

فالجُملة الخَبَريّة دلّتْ علىٰ نَفي أُلوهِيّة عيسىٰ ومَعبُودِيّته، ردّاً علىٰ النَّصارىٰ، حيثُ إنّ طائِفة مِنهم كانوا يقولون: عيسىٰ هُو الخالِق والمَعبُود لا غيره، وطائِفة أُخرىٰ يقولون: هُو أحَدُ المَعبُودِين الثّلاثة، وثالثة يقولون: هُو أحَد المَعبُودِين لكَوْنه ابنَ الله.

ثمّ أخَذ سُبحانه في الاستِدلال علىٰ وَحدانِيّة ذاته بقوله مخبراً عنه بأنّه ﴿ٱلْحَيُّ﴾ الذي لا يموت

---

١. تفسير الرازي ٧: ١٥٤، تفسير روح البيان ٢: ٢.

و﴿ٱلْقَيُّومُ﴾ الذي بيَده تَدبيرُ كُلّ شيءٍ، فإذا حَكَم العَقل بأنّ خالِق العالَم لابدّ مِن أن يكون واجِداً لهذَين الوَصْفين، حكم بفَساد القول بكَوْن عيسىٰ إلٰهاً؛ لضَرورة حَياته بعدَ مَوْته، ومَوْته بعدَ حَياته، وعَجْزه عِن الاستِقلال بتَدْبير نفسه، فضلاً عن تَدبير السَماوات والأرض وما فيهما.

وفي الرِّواية السّابقة لمّا قالوا: فمَن أبوه؟ فقال ﷺ: «ألَستُم تعلَمون أنّه لا يكون وَلَد إلّا ويشبه أباه؟!» فقالوا: بلى، قال ﷺ: «ألَستُم تعلَمون أن رَبّنا حَيٌّ لا يموت، وأنّ عيسىٰ يأتي عليه الفناء؟» قالوا: بلىٰ، قال ﷺ: «ألَستُم تعلَمون أنّ رَبّنا قَيّومٌ علىٰ كلِّ شيءٍ يحفَظه ويرزُقه؟» قالوا: بلىٰ، قال ﷺ: «فهل يملِك عيسىٰ مِن ذلك شيئاً؟» قالوا: لا[1].

ورُوي أنّ هَذيْن الاسْمَين اسْمُ الله الأعظم[2].

نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ ٱلتَّوْرَاةَ وَٱلْإِنجِيلَ * مِن قَبْلُ هُدىً لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ ٱلْفُرْقَانَ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ ٱللهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَٱللهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ [٣ و ٤]

ثمّ استدَلّ سُبحانه علىٰ انحصار استِحقاق العِبادة فيه، بنِعَمِه العِظام التي أهمّها إنزال الكُتُب السَماوية لهِداية البَشر إلىٰ العقائد الحَقّة، والمُحسّنات العقليّة، والمَصالِح الدُّنيويّة، بقوله مخبراً عن ذاته المقدّسة بأنّه ﴿نَزَّلَ﴾ نُجوماً وتَدريجاً ﴿عَلَيْكَ﴾ يا مُحمّد؛ لهِداية الخَلْق إلىٰ يوم القِيامة ﴿ٱلكِتَابَ﴾ المَجيد والقُرآن الحَميد.

قيل: عبّر سُبحانه عنه باسْم الجِنْس للإشعار بتفوّقه في الكَمالات الجِنسِيّة كأنّه الحَقيق بهذا الاسم دُون غيره مِن الكُتُب.

ثمّ استَدَلّ علىٰ كونه مُنَزلاً مِن الله بكونه مُلتبِساً ﴿بِالحَقِّ﴾ والعَدْل، أو بالصِّدق في أخباره، التي مِن جُمْلتها خَبَر التَوحيد، وسائر المَعارِف، وما فيه مِن الوَعْد والوَعِيد، أو مَقرُوناً بدَلائل الصِّدق؛ مِن إعجاز البَيان، والإخبار بالمُغيّبات، والاشتِمال علىٰ العُلُوم غير المُتناهية، مع كَون مَن أتىٰ به اُمّيّاً، حال كونه ﴿مُصَدِّقاً لِمَا﴾ نزَل ﴿بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ مِن الكُتُب السَماويّة؛ حيثُ إنّه أخبَر جميعُها ببِعْثَة نبيٍّ مِن ولد إسماعيل، له نُعُوت وصِفات خاصّة، وكِتاب ناسِخ لسائر الكُتُب.

---

١ و٢. تفسير أبي السعود ١: ٣.

وجميعُ هذه العَلائِم المَذكُورة في الكُتب مُنطبِقة على مُحَمّد ﷺ وكتابه، فلَو لَم يكُن صادِقاً في دَعوىٰ رِسالته وكِتابه مُنزَلاً مِن الله، لكان إخبار الكُتُب السّماويّة كِذباً، فجميع الكُتب المُنَزلة شَواهِدُ صِدْق القُرآن، وأدلّة كونه مُنزَلاً مِن الله، فكُلّ مَن آمَن بها يلزَمه الإيمان به.

ثمّ استدَلّ سُبحانه بنِعَمه السّابقة علىٰ الأُمَم السّالفة بقوله: ﴿وَأَنزَلَ﴾ سُبحانه دُفعة ﴿ٱلتَّوْرَاةَ﴾ علىٰ مُوسىٰ بن عِمْران ﴿وَٱلْإِنجِيلَ﴾ علىٰ عيسىٰ بن مَرْيَم ﴿مِن قَبْلُ﴾ وفي الأزمنة السّابقة علىٰ نُزُول القُرآن؛ لأجل أن يكون كُلّ واحِدٍ مِنهما ﴿هُدًى﴾ ودَليلاً مُرشِداً ﴿لِلنَّاسِ﴾ المُكلّفين باتِّباعهما إلى الحَقّ والرّشاد.

ولا يذهَب عليك أنّه ظهَر مِن تفسيرنا الفَرْق بَيْن التّنزيل والإنزال، وأنّ التّنزيل مُتضمّن للكَثْرة والتّدرُّج في النُّزُول دون الإنزال. ولمّا كان القُرآن جامِعاً بَيْن الجِهتَين، باعتِبار نُزُوله دُفعةً إلىٰ البَيْت المَعمُور، وتدرِيجاً إلىٰ الأرض، أُسنِد إليه التّنزيل في أوّل الآية.

ثمّ للدّلالة علىٰ كَوْنه أعظم شأناً، وأتمّ نِعْمةً مِن غيره، أعاد ذِكْره بقوله: ﴿وَأَنزَلَ﴾ الكِتاب الذي جَعَله ﴿ٱلْفُرْقَانَ﴾ بَيْن الحَقّ والبَاطل، والمائز بَيْن الضّلال والرّشاد، والمُبيِّن لمُشتبَهات سائر الكُتُب السّماويّة، والمُهَيمِن عليها.

عن الصّادق عليه السلام: «القُرآن جُمْلة الكِتاب، والفُرقان المُحكَم الواجِب العَمَل به»[١].

وفي رِوايةٍ: «الفُرقان كُلُّ آيةٍ مُحْكَمة»[٢].

وعن النبيّ ﷺ «سُمّي القُرآن فُرقاناً؛ لأنّه مُتفرِّق الآيات، والسُّوَر اُنزِلت في غيرِ الألواح وغير الصُّحُف[٣]، والتّوراة [والإنجيل] والزّبُور اُنزِلت كُلُّها جُملةً في الألواح والأوراق»[٤].

أقول: لا مُنافاة بَيْن هذه الأخبار، لإمكان إطلاق هذا الوَصْف عليه بكِلا الاعتِبارَيْن، فتحصَّل مِن الآيات أنّ مَن كان كَمالُ قُدْرته، وسَعَة لُطْفه ورحمَته، ووُفُور نِعْمته بهذه المرتبة، كان هُو المَعبُود بالاستِحقاق دون عيسىٰ وغيره مِن الخَلْق.

ثمّ بعد وُضُوح الحَقّ وإبطال الشِّرْك بالبَراهين القاطِعة، أخذ سُبحانه في التّهدِيد علىٰ الكُفر

---

١. الكافي ٢: ١١/٤٦١، تفسير الصافي ١: ٢٩٢.
٢. جوامع الجامع: ٥٣، تفسير الصافي ١: ٢٩٢.
٣. في علل الشرائع: وغيره من الصحف.
٤. علل الشرائع: ٣٣/٤٧٠، تفسير الصافي ١: ٢٩٢، وفيهما: الألواح والورق.

والشِّرك، وإنكار كُلّ حَقّ بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وألحدوا ﴿بِآيَاتِ ٱللهِ﴾ ودلائل تَوحيده، ومُعجِزات نبيّه، من القرآن وغيره، قد هيّأ ﴿لَهُمْ﴾ في الآخرة ﴿عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ غاية الشِّدّة، خارج عن حدّ البَيان ﴿وَٱللهُ عَزِيزٌ﴾ غالِبٌ على أمره، قاهِرٌ على خَلْقه ﴿ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ عظيم مِن أعدائه، ومُنكِري تَوحيده، ورِسالة رسُوله، ودينه.

إِنَّ ٱللهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَاءِ * هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ[٥ و ٦]

ثمّ عاد سُبحانه إلىٰ الاستِدلال علىٰ تَوحيد ذاته ـ المُلازم لاستِحقاقه العِبادة دون غيره، بسَعَة عِلْمه، وكمال إحاطته بجميع ذرّات الكائنات وخَفايا أحوالها ـ بقوله: ﴿إِنَّ ٱللهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ﴾ مِن الأشياء، وذرّة مِن الذّرّات، وحال مِن أحوالها، لا ما كان ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ حتّىٰ خَطَرات القُلوب، ومَكنُونات الضَمائِر، مِن التّوحيد والشِّرك والإيمان والكُفْر، والإرادات الحَسَنة والسيئة ﴿وَلَا﴾ ما كان ﴿فِي ٱلسَّمَاءِ﴾ حتّىٰ ضمائِر المَلائكة، ومَكتُوماتهم.

وفيه مَزيدُ تهدِيد، حيثُ إنّ القُدْرة الكامِلة علىٰ العُقُوبة غير كافية في الرّدْع عن المَعاصي الخَفيّة والعقائد السيّئة، إلّا إذا عُلِم أنّ المُنتقِم مُطّلِعٌ علىٰ الخَفِيّات، عالِمٌ بالسّرائِر والمَستُورات.

والتّعبِير عن عِلْمه بعَدَم خَفاء شيء عليه، للإشعار بأنّ عِلْمه بالأشياء بحُضُورها عِنده، والإحاطة التّامّة القَيمُوميّة عليها، لا بالصُّوَر الذِّهنِيّة، فلا يشبه عِلْمه عِلْم المَخلُوقين.

وفي ذِكْر الأرض والسّماء تأكيدٌ لسَعَة عِلْمه، وتَصْريحٌ بشُمُوله، ولدَفْع توهُّم اختِصاص عِلْمه بخُصُوص ما في الأرض، وفي تقدِيم ذِكْر الأرض إشعارٌ بكمال الاعتِناء بإحاطته بأحوال أهلها.

وفي رِواية مُحاجَة النبيّ ﷺ معَ وَفْد نَجْران: قال ﷺ: «ألَستُم تعلَمون أنّ الله لا يخفىٰ عليه شيءٌ في الأرض ولا في السّماء؟!» قالوا: بلىٰ، قال ﷺ: «فهَلْ يعلَم عيسىٰ شيئاً إلّا ما عُلِّم؟» قالوا: لا[١].

ثمّ أوضح سُبحانه كَمال قُدْرته، وسَعَة إحاطته بقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ﴾ ويخلُقكم علىٰ هَيْئةٍ خاصّة، وشَكْلٍ مَخصُوص، وأنتم ﴿فِى﴾ مَضائق ﴿ٱلْأَرْحَامِ﴾ وظُلُماتها الثلاث: ظُلْمة البَطن، وظُلْمة المَشِيمة، وظُلْمه الرَّحْم ﴿كَيْفَ يَشَاءُ﴾ لكم مِن الصُّوَر، مِن الذُّكُورة والأُنوثة، والتّمام والنّقص،

---

١ و٢. تفسير روح البيان ٢: ٣.

والطُّول والقِصَر، والحُسْن والقُبْح.

وفي رِواية المُحاجَة: قال ﷺ: «أَلَسْتُم تعلَمون أنّ رَبّنا صَوّر عيسىٰ في الرَّحْم كيف شاء، وأنّ رَبّنا لا يأكُل ولا يشرَب ولايُحدِث؟» قالوا: بلىٰ، قال ﷺ: «ألَستُم تعلَمون أنّ عيسىٰ حمَلَته أُمّه كما تحمِل المرأة، ووضعَتْه كما تضَع المرأة ولدَها، ثمّ غُذّي كما يُغذَىٰ الصَّبِيّ، ثمّ كان يطعَم الطَّعام، ويشرَب الشَّراب، ويُحدِث الحَدَث؟» قالوا: بلىٰ، قال: «فكيف يكون هذا كما زَعَمتم؟ فسكتوا، فأبَوا إلّا جُحُودا»[1].

وفي الآيتَيْن أيضاً تَقريرٌ لصِفَتَي حياته وقَيمومِيّته.

ثمّ أعاد سُبحانه ذِكْر المُدّعىٰ وهُو التّوحيد ـ بعدَ إقامة البُرهان عليه تَفصيلاً، لإشرابه في القُلوب ـ بقوله: ﴿لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ فنزّه ذاته المُقدّسة عن أن يكون عيسىٰ مِثْله وشَبيهه في الأُلُوهِيّة.

ثمّ أعاد حاصِل البُرهانَيْن المَذكُورَيْن، بقوله: ﴿الْعَزِيزُ﴾ الغالِب غير المُتناهي في قُدْرته ﴿الْحَكِيمُ﴾ والمُتقِن في أفعاله ومَخلُوقاته. فعيسىٰ مَقهُوره وَمغلُوبه وبَدِيع صُنْعه، لكونه مُركباً مِن المادّة والصُّورة، ومُحتاجاً إلىٰ المُركِّب، ومُعرّضاً للانحِلال والفَناء.

وحاصِل ما استُفيد مِن الآيتين في الرَدّ علىٰ النَّصارىٰ: أنّهم إن تمسّكوا في أُلوهِيّة عيسىٰ بعِلْمه بالمُغيّبات، حيث كان يُنبئهم بما يأكلون وما يدّخِرون. ففيه: أنّ عِلْمهُ كان مقصُوراً ببَعْض الأُمور الجُزئيّة، والعِلْم اللّائق بمَقام الأُلُوهِيّة هُو العِلْم المُحِيط بجميع جُزئيّات الكائِنات، وأجزاء الموجُودات، وصِفاتها، وأحوالها، وإن كان مِثْقال حَبّةٍ مِن خَرْدَلٍ في صَخْرة في الظُّلُمات، وبالضَّرُورة لَمْ يكُن هذا العِلْم الشّامِل، لعيسىٰ ولا لغيره.

وإن تمسّكوا بقُدْرته علىٰ ما لايَقدِر عليه البشَر؛ مِن إبراء الأكمه والأبرص، وخَلق الطَّير وإحياء المَوتى، ففيه: أنّها قُدْرة ناقِصة مُفاضَة إليه مِن خالِقه ومُصوِّره، إذ مِن الواضِح أنّه مَصنُوعُ غيرِه، صَوَّره قادِرٌ مُطلَق في رَحْم أُمّه من غيرِ أبٍ، لبَدَاهة أنّه عليه السلام لَم يَخلُق أُمّه، ولَم يُصوِّر نفسَه في رَحْمها.

فـي كـيفية خـلق الجنين في الرحم ومقدّماته

عن (الكافي): عن الباقر عليه السلام، قال: «إنّ الله تعالىٰ إذا أراد أن يخلُق النُّطفة، التي هِي مِمّا أخذ عليه[2] الميثاق، من[3] صُلْب آدم، أو ما يبدو له فيه، ويجعلَها في الرَّحِم، حرّك الرَّجُل للجِماع، وأوحىٰ إلىٰ الرَّحِم أن افتَحي بابك حتّىٰ يلِج فيك خَلْقي وقضائي

---

١. تفسير روح البيان ٢: ٣.　　٢. في المصدر: عليها.　　٣. في المصدر: في.

النّافِذ وقَدَري، فتفتح الرَّحِم بابها، فتصِل النُّطفة إلى الرَّحِم، فتردّد فيه أربعين يوماً، ثمّ تصِير عَلَقةً أربعين يوماً، ثمّ تصِير مُضْغةً أربعين يوماً، ثمّ تصِير لَحْماً تجرِي فيه عُرُوق مُشتبِكة، ثمّ يبعَث الله إليه مَلَكين خَلّاقَيْن يخلُقان في الأرحام ما يشاء الله، يقتَحِمان في بَطْن المرأة مِن فَم المرأة فيصِلان إلىٰ الرَّحْم، وفيها الرُّوح القدِيمة المَنقُولة في أصلاب الرِّجال وأرحام النساء، فينفُخَان فيها روح الحياة والبقاء، ويشُقّان له السَّمْع والبَصَر وجميع الجَوارِح وجميع ما في البَطْن بإذْن الله تعالىٰ»[١] الخبر.

أقول: الظّاهِر أنّ المُراد مِن قوله: (وما يبدو له) مَنْ يُريد خَلْقَه مِمّن لَم يأخُذ عليه الميثاق، وهُم الّذِين يمُوتون قَبْل البُلُوغ والتعبير بالبَداء لكَوْن الغرَض في خَلْقهم مُترتِّباً علىٰ الغَرَض مِن خَلْق مَن أخذ عليه الميثاق، ومُتأخِّراً عنه في الرُّتْبة، فكأنّه حدثت إرادته بعد إرادته.

ومِن قوله: (حرَّك الرَّجُل للجِماع) أنّه أوجَد مَبادِئ هَيَجان الشَّهوة. ومِن قوله: (فأوحىٰ إلىٰ الرَّحْم) جعَل قُوّة الانفِتاح فيه، وتعلَّقَتْ الإرادة التّكوينيّة بفَتْحِه. ومِن قوله: (فتردّد فيه) تغيّر شيئاً فشيئاً، ومِن حالٍ إلىٰ حال، حتّىٰ تصِير عَلَقة.

ومِن قوله: (الرُّوح القديمة) استِعدادُ صَيْرورته إنساناً. ومِن قوله: (البقاء) هُو رُوح البقاء، وقُوّة التّغذِية والتنمِية. وأنّ المُراد مِن الواو في قوله: (ويَشُقّان) الجَمْع المُطلَق، كما هُو مُقتضىٰ العَطْف به، لا الترتِيب، فلا يُنافي تَسْوية الأعضاء والأحشاء قَبْل وُلُوج الرُّوح.

إلىٰ أن قال عليه السلام: «ثمّ يُوحي الله إلىٰ المَلَكين اكتُبا عليه قضائي وقَدَري ونافِذ أمري، واشْتَرِطا لِي البَداء فيما تكتُبان. فيقولان: يا رَبّ ما نكتُب؟ قال: فيُوحي الله عزّ وجلّ إليهما: أن ارْفَعا رؤوسكما إلىٰ رأس أمّه، فيرفعان [رؤوسهما]، فإذا اللّوح يقرع جبهة أمّه، فينظُران فيه فيجِدان في اللّوح صُورته وزِينته وأجله وميثاقه، شَقِيّاً أو سعيداً، وجميع شأنه.

قال: فيُملي أحدُهما علىٰ صاحبه، فيكتُبان جميع ما في اللّوح، ويشترِطان البَداء فيما يكتُبان، ثمّ يختِمان الكتاب، ويجعَلانه بَيْن عينَيه، ثمّ يُقيمانه قائماً في بَطْن أمّه. قال: فربّما عتا فانقَلب، ولا يكون ذلك إلّا في كُلّ عاتٍ أو مارد»[٢].

وعن الصّادق عليه السلام، في روايةٍ: «أنّ الله تبارَك وتعالىٰ إذا أراد أن يخلُق خَلقاً جمَع كُلّ صُورة مابيَنه

---

١. الكافي ٦: ٤/١٣، تفسير الصافي ١: ٢٩٣.

٢. الكافي ٦: ٤/١٤، تفسير الصافي ١: ٢٩٣.

وبَيْن آدم[١]، ثمّ خلَقه علىٰ صُورة إحداهنّ[٢]، فلا يقولَنّ أحدٌ لوَلَده: هذا لا يُشبهَني ولا يُشبه أحداً من آبائي»[٣].

هُوَ ٱلَّذِى أَنْزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَاءَ ٱلْفِتْنَةِ وَ ٱبْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا ٱللهُ وَٱلرَّاسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا ٱلْأَلْبَابِ[٧]

ثمّ أنّه رُوي أنّ الوَفْد قالوا: يا مُحمّد، ألَسْتَ تزعَم أنّ عيسىٰ كَلِمةُ الله ورُوح مِنه؟ قال ﷺ: «بلىٰ» قالوا: حسبُنا[٤].

والظّاهِر مِن قَوْلهم: (حسبُنا) أنّك اعترفْتَ بقولك: (إنّه كلمة الله) أنّه ابنُه، وبقولك: (أنّه رُوحٌ مِنه) بأنّه ثالِثُ ثلاثةٍ.

فنزَل في ردّهم قوله تعالى: ﴿**هُوَ ٱلَّذِى أَنْزَلَ عَلَيْكَ**﴾ هذا ﴿**ٱلْكِتَابَ**﴾ المَجيد المُسمّىٰ بالقُرآن، حال كَوْنه مُشتمِلاً علىٰ نوعَيْن: نَوْع ﴿**مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ**﴾ قَطْعيّات الدّلالة، ناصّات في المُراد، أو ظاهرات فيه، بنفسها أو بالقرائِن المتّصلة؛ مِن اللّفظيّة أو العقليّة أو المقاميّة.

وتِلك الآيات ﴿**هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَابِ**﴾ وأصلٌ فيه، باعتِبار وُجُوب إرجاع سائره إليها، فقوله: ﴿**وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّاً**﴾[٥] مرجِع لقوله: ﴿**نَسُوا اللهَ فَنَسِيَهُم**﴾[٦]، وقوله: ﴿**إِنَّ اللهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ**﴾[٧] مرجِع لقوله: ﴿**وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا**﴾[٨]، وقوله: ﴿**قُلِ الرُّوحُ مِن أَمْرِ رَبِّى**﴾[٩] مرجِع لقوله: ﴿**وَرُوحٌ مِنْهُ**﴾[١٠] لوُضُوح أنّ المَخلُوق لا يُمكِن أن يكون جُزءاً لخالِقه، إلىٰ غير ذلك.

ونَوعٌ مِنه آيات ﴿**وَأُخَرُ**﴾ هُنَّ آيات ﴿**مُتَشَابِهَاتٌ**﴾ الدّلالة، مُحتَمِلات لمعاني مُتعدِّدة، لا رُجْحان لبعضها علىٰ بعض في استِحقاق الإرادة بها، ولا يتّضح المَقصُود مِنها إلّا بالقَرائِن المُنفصِلة، كالمُجمَلات والمُبهَمات، أو الظَواهِر التي يكون مَدلُولها مخالِفاً للعَقل السّليم، كقوله: ﴿**يَدُ اللهِ فَوْقَ**

---

١. في العلل: صورة بينه وبين أبيه إلىٰ آدم.
٢. في العلل: أحدهم.
٣. علل الشرائع: ١/١٠٣ باب ٩٣، تفسير الصافي ١: ٢٩٣.
٤. تفسير الرازي ٧: ١٥٥.
٥. مريم: ٦٤/١٩.
٦. التوبة: ٦٧/٩.
٧. الأعراف: ٢٨/٧.
٨. الإسراء: ١٦/١٧.
٩. الإسراء: ٨٥/١٧.
١٠. النساء: ١٧١/٤.

أيديهم﴾[١]، وقوله: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾[٢] وقوله: ﴿الرَّحْمٰنُ عَلَىٰ العَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾[٣] لحُكم العَقل بتنزُّه خالِق الأجسام والأمكنة عن الجِسْم والصُّورة والمكان والحَركة.

في معنىٰ المحكم والمتشابه

عن الصّادق عليه السلام أنّه سُئِل عن المُحْكَم والمُتشابِه، فقال: «المُحْكم: ما يُعمَل به، والمُتشابِه: ما اشْتَبه علىٰ جاهِله»[٤].

والظّاهِر أنّ المُراد مِن قوله: (ما يعمل به) ما لايتوقّف العُرْف في مَدلُوله ومَفاده.

وعن (الكافي): عنه عليه السلام، في تأويله: «أنّ المُحْكَمات أمير المُؤمنين والأئمّة عليهم السلام، والمُتشابِهات فُلانٌ وفُلان»[٥].

ثمّ اعْلَم أنّ تقسيم الكِتاب بجعل بعضه مُحكَماً وبعضه مُتشابِهاً، لا يُنافي تَسمِية كُلّه مُحكَماً في قوله: ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ﴾[٦]، وأنّ معناه: أنّه اُتقِنَتْ مَطالِبُه، بحيثُ لا يُتوهَّم التّناقُض فيها، وحُفِظَتْ مِن أن يَعْتريها الخَلَل والتّحرِيف والنّسْخ، ولا تَوْصيف كُلّهبالمُتشابِه في قوله: ﴿كِتَاباً مُتَشَابِهاً مَثَانِيَ﴾[٧] لأنّ معنىٰ المُتشابِه هُنا: المُتماثِل الآيات في صِحّة المعاني، وجَزالة النَّظْم، وحَقِّيّة المَدلُول.

وقد سبَق في الطُّرْفة السّابعة عشرة بيان فوائِدكثيرة وحِكَم وفيرة في جَعْل كثير مِن الآيات القُرآنية مُتشابِهاً، وعدَم جَعْل جميعها مُحكَمات، مَنْ أراد الاطِّلاع عليها فليُراجِعها، وعُمْدة حُكْمها ابتِلاء الخَلْق، والتَمْييز بَيْن الثّابت علىٰ الحَقّ وأهل الزَّيْغ.

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ﴾ كان ﴿فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾ وَمَيْلٌ عن الحَقّ إلىٰ اتّباع الهَوىٰ، وانحِراف عن الصِّراط المُستقِيم إلىٰ شُعَب الضّلال ﴿فَيَتَّبِعُونَ﴾ مِن ذلك الكِتاب ﴿مَا تَشَابَهَ مِنْهُ﴾ ويتمسّكون ـ لإثبات عقائِدهم الفاسِدة وأعمالهم الباطِلة ـ بظاهِر آياتٍ مُخالِفٍ للمُحكَمات، أو بمُجمَلات غير ظاهِرة الدِّلالة، ويُؤوّلونها بالظُّنُون والاستِحسانات، لا تحرِّياً للحَقّ وطلَباً للصَّواب، بَل ﴿ٱبْتِغَاءَ ٱلفِتْنَةِ﴾ وقَصْد إلقاء الشُّبُهات في قُلوب ضُعَفاء العُقول والإيمان، وسَعْياً في إضلال النّاس عن طريق الحَقّ والهُدى ﴿وَٱبْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾ وطَلَباً لتطبيقه علىٰ باطِلهم، وإرْجاعه إلىٰ ما هُو مُشتهىٰ أنفُسهم مِن

---

١. الفتح: ١٠/٤٨. ٢. الفجر: ٢٢/٨٩. ٣. طه: ٥/٢٠.
٤. تفسير العياشي ١: ٦٤٣/٢٩٢، تفسير الصافي ١: ٢٩٥.
٥. الكافي ١: ١٤/٣٤٣، تفسير العياشي ١: ٦٤٢/٢٩٢، تفسير الصافي ١: ٢٩٥. ٦. هود: ١/١١.
٧. الزمر: ٢٣/٣٩.

الخُرافات، وإرْجاعه إلىٰ معنىً يُوافِق ما رَامُوه مِن الكُفْر، لحُبّ الغَلَبة علىٰ الخَصْم، وحِفْظ الجَاه والمال، كتمسُّك الوَفْد بقوله: ﴿إِنَّ اللهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ﴾[1] وبقوله: ﴿وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ﴾[2] لإثبات أنّ عيسىٰ ابنُ الله، أو ثالِثُ ثلاثةٍ، مع قُصُور دَلالتهما ومُعارَضتهما لحُكْم العَقل ومُحكَم الآيات مِن قوله: ﴿مَا كَانَ لِلهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ﴾[3] وقوله: ﴿لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُن لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ﴾[4] و﴿خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾[5].

﴿وَ﴾الحال أنّه ﴿مَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ﴾ وحقيقة المُراد مِن المُتشابِهِ أحَدٌ ﴿إِلَّا اللهُ﴾ العالِم بحقائِق الأمور ﴿وَالرَّاسِخُونَ﴾ الثّابتون المُتمكِّنون ﴿فِي الْعِلْمِ﴾ المُستَغرِقون في بَحْر الحِكْمة والمَعرِفة، المُقالُون بتأييد الله عن العَثْرة في مَزالّ الأقدام، السّالِكون بنُور الهِداية في ظُلُمات الأهواء والأوهام، وهُم النبيُّ وأوصياؤه الكِرام.

في تعريف الراسخين في العلم

عن (الكافي): «الرّاسِخون في العِلْم مَنْ لا يَختلِف في عِلْمه»[6].

أقول: الظّاهِر أنّ المُراد مِنه مَنْ لا يكون عِلْمه عن رأيٍ واجتِهاد، حتىٰ تتغيّر فَتواه ويختلِف حُكْمه، وهُم الذين يكون عِلْمُهم بإفاضة الله وإلهامه، كالنبيّ وأوصيائه وخُلَفائه.

رُوي أنّه قال أبو عبدالله عليه السلام لأبي حَنيفة: «أنت فَقيهُ أهل العِراق؟» قال: نَعم، قال: «فبأيّ شيءٍ تفتي؟» قال: بكِتاب الله وسُنّة نبيّه، قال: «يا أبا حَنيفة، تعرِف كِتاب الله حَقّ مَعرِفته [و] تعرِف النّاسِخ مِنَ المَنسُوخ؟» قال: نعَم، قال: «يا أبا حنيفة، لقد ادّعيتَ عِلْماً، وَيْلَك ما جعَل الله ذلك إلّا عِنْد أهل الكِتاب الّذِين أُنزل عليهم، وَيْلَك ما هُو إلّا عِنْد الخاصّ مِن ذُرّيّة نبيّنا، وما ورّثك الله مِن كِتابه حَرْفاً»[7].

في (الاحتجاج): عن أمير المؤمنين عليه السلام، في حديثٍ قال: «إنّ الله جَلّ ذِكْرُه -لِسَعَة رَحمته، ورَأفته بخَلْقه، وعِلْمه بما يُحدِث المُبدّلون، مِن تَغْيير كلامه[8]- قسّم كلامه ثَلاثة أقسام؛ فجعل قِسماً مِنه يَعرِفه العالِم والجَاهِل، وقسماً لا يعرِفه إلّا من صَفا ذِهْنُه ولَطُف حِسّه وصَحّ تميزه، مِمّن شرَح الله

---

١. آل عمران: ٤٥/٣. ٢. النساء: ١٧١/٤. ٣. مريم: ٣٥/١٩. ٤. الإسراء: ١١١/١٧.
٥. الأنعام: ١٠١/٦. ٦. الكافي ١: ١/١٩٠، تفسير الصافي ١: ٢٩٥.
٧. علل الشرائع: ٥/٨٩، تفسير الصافي ١: ٢٢. ٨. في الاحتجاج: كتابه.

صَدْره للإسلام، وقِسماً لا يعرِفه إلّا الله وأنبياؤه[1] والرّاسِخون في العِلْم، وإنّما فعَل [الله] ذلك لِئلَا يدّعي أهلُ الباطِل - مِنَ المُستَوْلين علىٰ ميراث رسُول الله ﷺ - مِن عِلْم الكِتاب ما لَم يجعَلْه لهُم، وليقُودهم الاضطِرار إلىٰ الائتمار بمن ولّاه أمرَهم، فاسْتكبروا عن طاعته تَعزُّزاً وافْتِراءً علىٰ الله عزّ وجلّ، واغْتِراراً بكَثْرة مَن ظاهرَهم، وعاوَنهم، وعاند الله جَلّ اسْمُه ورسولَه»[2].

ورَوىٰ الفَخْر الرّازي عن ابن عبّاس أنّه قال: تفسير القُرآن علىٰ أربعة أوجُه: تفسيرٌ لا يَسَع أحداً جَهْلُه، وتفسيرٌ تعَلّمه العَرَب بألسِنتها، وتفسيرٌ يعلمه العلماء، وتفسيرٌ لا يعلَمه إلّا الله[3].

عن (الكافي): عن الصّادق عليه السلام: «نحنُ الرّاسِخون في العِلْم، ونحنُ نعلَم تأويله»[4].

وفي رِوايةٍ: «فرسُول الله ﷺ أفضل الرّاسِخين في العِلْم، قد علّمه الله جميع ما أنزل عليه مِن التّنزيل والتأويل، وما كان الله ليُنزِل عليه شيئاً لم يُعلِّمْه تأويله، وأوصياؤه مِن بعدِه يعلَمونه كُلّه»[5].

ثمّ وصَف سُبحانه وتعالىٰ الرّاسِخين في العِلْم بأنّهم - مع عِلمْهم بالتّأويل، وفَهمهم حقيقة المُتشابِه كالمُحكَم - ﴿يَقُولُونَ﴾ بألسِنتهم طِبْقاً لِمَا في قُلوبهم: ﴿آمَنَّا بِهِ﴾ وصدّقنا بحقيقة المُراد مِنه، فإنّه ﴿كُلٌّ﴾ مِن الآيات المُتشابِهات، أو مِنها ومِن المُحكَمات، حَقٌّ نازِل ﴿مِنْ عِندِ رَبِّنَا﴾.

ويُمكِن أن يكون حِكاية هذا القَول عنهم، لتعليم المُؤمنين الّذين لا يعلمون التّأويل أن يقولوا مِثْله، ولا يُشكَوا - لعَدَم فَهم المُراد مِن المُتشابِه - في أنّه مِن عِنْد الله، ولا يخُوضوا في تفسيره بالظنون والاسْتِحسانات، بَلْ عليهم أن يُؤمنوا به، ويُسلِّموا له، ويفوِّضوا عِلْمه إلىٰ الله تعالىٰ، وإلىٰ خُزّان عِلْمه ومَهابِط وَحْيه.

ذكر قول بعض العامة ورده

قيل: إنّ ﴿الراسِخون فِى العِلْم﴾ مُبتدأ، وقوله: ﴿يقولون آمنّا به﴾ خَبَره، وإنّ المُتشابِه هُو ما اسْتأثر اللهُ بعِلْمه وبمَعرفة الحِكْمة فيه، كعَدَد الزّبانِيَة، وعِدّة بقاء الدُّنيا، ووَقت قِيام السّاعة، إلىٰ غير ذلك[6].

وهذا القول في غاية الفسَاد، إذ يلزَمه أن يكون الرّسُول جاهِلاً بكثيرٍ مِنَ الآيات، وغيرَ مُطّلِع بالمُراد مِمّا أُنزِل إليه، مع أنّ القُرآن نَزَل ليَنتَفِع النّاسُ به، ولَو ببَيان حَمَلته وأوعِية عِلْمه، فلَو كان فيه ما لا

---

١. في الاحتجاج: وأُمناؤه.
٢. الاحتجاج: ٢٥٣، تفسير الصافي ١: ٢٩٥.
٣. تفسير الرازي ٧: ١٧٨.
٤. الكافي ١: ١/١٦٦، تفسير الصافي ١: ٢٩٥.
٥. الكافي ١: ٢/١٦٦، تفسير الصافي ١: ٢٩٥.
٦. تفسير روح البيان ٢: ٥.

يعلَمُه إلّا الله لكان تَنْزيله لَغْواً، لعدَم انتِفاع أحدٍ به، تعالىٰ عن ذلك.

﴿وَمَا يَذَّكَّرُ﴾ ولا يفهَم حقيقة تأويل المُتشابِهات، وحِكْمة نُزُولها حَقَّ التَّذكُّر والتَّفهُّم أحدٌ ﴿إِلَّآ أُوْلُوا ٱلْأَلْبَابِ﴾ وأصحاب العُقُول السَّليمة مِن غَلَبة الشَّهَوات، وذَوُو الأفهام المُستقيمة الخَالِصة عن شَوائِب الأهواء الزائغات.

ومِن الواضح أنّ هذا المَدْح الفائِق، والثّناء الرّائِق، لا يَلِيق إلّا بمَنْ يُصِيب الحَقّ، ويهتَدي إلىٰ حقيقة المُراد، ويصِل إلىٰ أصل المَقصُود مِن كلام المَلِك العلّام، بجَوْدة الذِّهْن، وإصابة النَّظَر، وتنوُّر الفِكْر، وتجرُّد العَقل عن غَواشِي الحِسّ والأوهام.

رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ * رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ[٨ و ٩]

ثمّ لمَا كان جميعُ الخَيْرات والكمالات حُدُوثاً وبقاءً بإفاضة الله ولُطْفه وتَوْفيقه، كان علىٰ المُؤمن اللَّبيب أن لا يغترّ بوِجْدان خَيْرٍ، ولا يطمئِنّ ببقاء كمالٍ ودوام فضيلةٍ، بَل عليه أن يتضرّع إلىٰ الله، ويسأل إدامته مِنه تعالىٰ.

فلِذا مدَح الله الرّاسِخين في العِلْم بأنّهم الّذِين يقولون، تضرُّعاً واستِكانةً: ﴿رَبَّنَا﴾ ويَا مَنْ بلُطْفه تكمِيل نُفُوسنا، وتَوفِيق هِدايتنا ﴿لَا تُزِغْ﴾ ولا تُمِل ﴿قُلُوبَنَا﴾ عن نَهْج الحَقّ، في تأويل المُتشابِهات وغيره، إلىٰ الباطل والضّلال ﴿بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ إلىٰ الحَقّ والصّواب، في العقائِد والأعمال والتّأويل والتّفسير.

وقيل: إنّ المُراد: لا تَبْتَلِنا ببلاءٍ تَزيغ مِنه قُلُوبُنا.

رُوي عن النبيّ ﷺ: «قلبُ ابن آدم بيْن إصبعين مِن أصابع الرّحمٰن، إنْ شاء أقامه علىٰ الحَقّ، وإنْ شاء أزاغه عنه»[١].

والظّاهِر أنّ كلمة (الإصبعين) كناية عن رضا الله وغضبه، أو عن المَلَك المُرشِد والشّيطان المُغوي، أو عن التّوفيق والخِذلان.

ثمّ أنّهم ـ بعدَ سُؤال أنْ لا يسلُب الله عنهم ما ألبسهم مِن الكَمال، ولا يستردّ ما أعطاهم مِن العِلْم

---

١. تفسير أبي السعود ٢: ٩.

وتوفيق الرُّشد إلىٰ الحَقّ ـ سألوا زِيادة الرَّحمة والعِلْم والتّوفيق بقولهم: ﴿وَهَبْ لَنَا مِن لَدُنكَ﴾ ومِن خزائِن جُودك ﴿رَحْمَةً﴾ نفوز بها إلىٰ أعلىٰ دَرَجات قُربك ورِضوانك ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ للخَيْرات، المُعطي المُعطي للسُّؤلات. والتّذييل به للإشعار بأنّ هذا المَسؤول في جَنْب عَطاياه الكثيرة، في غاية القِلّة.

عن الكاظم عليه السلام، في حديثٍ: «يا هِشام، إنّ الله تعالىٰ قد حكىٰ عن قوم صالِحين أنّهم قالوا: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ حين عَلِموا أنّ القُلوب تَزيغ وتعُود إلىٰ عَماها ورَداها، إنّه مَنْ لَمْ يَخَفِ الله[1] لَمْ يعقِل عن الله، ومَن لَمْ يعقِل عن الله لَمْ يعقِد قلبَه علىٰ معرفةٍ ثابتةٍ يُبصِرها ويجِد حقيقتها في قلبه، ولا يكون أحدٌ كذلك إلّا مَن كان قوله لفِعْله مُصدِّقاً، وسِرُّه لعَلانِيَته مُوافِقاً؛ لأنّ الله تعالىٰ لَم يدُلّ علىٰ الباطِن الخَفِيّ مِنَ العَقل إلّا بظاهِرٍ مِنه، وناطِقٍ عنه»[2].

عن العيّاشي، عن الصّادق عليه السلام: «أكثِروا مِن أنْ تقولوا: ﴿ربّنا لا تُزِغ قُلُوبنا بعدَ إذْ هَدَيتنا﴾ ولا تأمنوا الزَّيغ»[3]. وفي الآية دَلالةٌ علىٰ أنّ الهِداية والضّلال بتَوْفيق الله وخِذلانه.

ثمّ لبَيان شِدّة افتِقارهم إلىٰ التّحفُّظ عن الزَّيْغ وشُمول الرَّحمة، عرَضوا علىٰ ربّهم كَمال اطمئنانهم وقُوّة يقِينهم بالمَعَاد والحَشْر في القِيامة، للجزاء علىٰ العقائِد والأعمال، بقولهم: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ﴾ وعدْتَ العِباد في كِتابك الحَقّ، وبلِسان نبيّك الصّادق، أنّك ﴿جَامِعُ ٱلنَّاسِ﴾ بعدَ المَوت، وحاشِرهم ﴿لِيَوْمٍ﴾ عظيم، حتّىٰ تُحاسِب فيه أعمال العِباد، وتُثِيب فيه المُؤمن المُطيع، وتُعاقِب فيه الكافِر والعاصِي، و﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ لنا، ولكُلّ عاقلٍ بصير مِن حيثُ وُقُوعه وعظمته وشِدّة أهواله، وإنّ مَنْ زاغ قلبُه لَيُبتلىٰ بعَذابٍ أليم دائِم، ومَن أعطيته التّوفيق والهِداية وشَمِلَتْه الرَّحمة، يَنال السّعادة والكَرامة والنِّعَم الباقية كما وعدت ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ وذِكْر اسْم الجَلالة لبَيان مُباينة خُلْف الوَعْد لألُوهيّته المُستلزِمة للحِكْمة والغِنىٰ والتنزُّه عن كُلّ نَقْص.

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِنَ ٱللَّهِ شَيْئاً وَأُولٰئِكَ هُمْ

---

١. في الكافي: إنه لم يخف الله من.
٢. الكافي ١: ١٢/١٤، تفسير الصافي ١: ٢٩٦.
٣. تفسير العياشي ١: ٦٤٩/٢٩٤، تفسير الصافي ١: ٢٩٧.

وَقُودُ ٱلنَّارِ[١٠]

ثمّ ـ لمّا عُلِم أنّ هذا الإيمان هَمّهم في طَلَب الهِداية إلىٰ الحَقّ في الدُّنيا، ونَيْل الرّحمة، والفَوْز بالسّعادة في الآخرة، لا في المال والأولاد والحُطام الفانية، بخِلاف الكُفّار وأهل الزَّيْغ المُتّبِعين للمُتشابِهات، كما نُقِل أنّ بعضَ الوَفْد[١] بعدَ اعتِرافه بأنّ مُحمّداً ﷺ هُو النبيّ المَوعُود المُنتَظر، قال: إنْ آمنّا به أخذَ مِنّا أموالَنا وذهَب جاهُنا عندَ المُلوك ـ بيّن الله حال الكُفّار في الآخرة، وهدّدهم بشَديد عِقابه، وأنّ أموالهم لا تُنجِيهم مِنه بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ مِن نَصارىٰ نَجْران، وسائر صُنُوف المُعانِدين للحَقّ، تنقطِع عنهم وسائِل النّجاة مِن العذاب في الآخرة، حيثُ إنّه ﴿لَن تُغْنِيَ﴾ ولا تُجزي أبداً ﴿عَنْهُمْ﴾ في الآخرة، أو فيها وفي الدُّنيا ﴿أَمْوَالُهُمْ﴾ التي جمَعوها واكتَسبوها في الدُّنيا، بقَصْد جَلْب المَنافع ودَفع المضارّ عن أنفسهم بها ﴿وَلَا أَوْلَادُهُم﴾ الّذِين يُعوِّلون عليهم في الخُطُوب، ويتناصَرون بهم في دَفع الكُرُوب ﴿مِنَ﴾ عَذاب ﴿ٱللَّهِ﴾ أو مِن عندِ الله ﴿شَيْئاً﴾ قليلاً مِنَ الإغناء، أو مِن العَذاب.

وتخصيصُ الأموال والأولاد مِن وسائل الدِّفاع والنَّجاة بالذِّكْر، لكَوْنهما مِن أهمّها وأقواها، وتقديم ذِكْر الأموال لأنّها أوّل عِدّة يُفزَع إليها عندَ المُلِمّات.

﴿وَأُوْلَـٰئِكَ﴾ البَعيدون عن رَحمة الله، بعدَ قَطْع أُمنِيات الخَلاص ﴿هُمْ﴾ خاصّة ﴿وَقُودُ ٱلنَّارِ﴾ فتشتَعِل نارُ جهنّم فيهم كاشْتِعالها في الحَطَب والحشائِش. وهذا أوضحُ بيانٍ لكمال مُلابستِهم بالنّار، ولسُوء حالهم، وتَهْويل شأنهم.

كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ * قُل لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ[١١ و ١٢]

ثمّ بيّن الله تعالىٰ أنّ عادة هؤلاء الكُفّار وشأنهم؛ في التّمادي في الكُفر، وتكذِيب الرّسُول، والتّمرُّد عن الحَقّ ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ ومِثْل شأنهم ﴿وَ﴾ شأن ﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ مِنَ العُتاة والمَرَدة ومُعاملتهم مَعك كمُعاملتهم مَع مُوسىٰ عليه السلام وسائر الأنبياء العِظام عليهم السلام.

---

١. وفد نصارىٰ نجران المتقدّم ذكره في أول السورة.

ثمّ كأنّه قيل: كيف كان شأنهم وحالهم مع الأنبياء؟ فأجاب سبحانه: بأنهم ﴿كَذَّبُوا بِـآيَاتِنَا﴾ وجَحدوا المُعجِزات التي أظهروها، وأعرضوا عن البَراهِين العَقليّة التي أقاموها، فنسَبوا المُعجِزات البَاهِرات إلىٰ السِّحْر، والبَراهِين السّاطِعات إلىٰ أساطير الأوّلين وتَلفيقات المَجانين ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ﴾ وعذّبهم ﴿بِذُنُوبِهِمْ﴾ المُوبِقة في الدُّنيا بأنواع العَذاب؛ مِنَ الغَرَق والخَسْف والصَّيْحة وغيرها ﴿وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ وذِكْر اسْم الجلالة وتَكراره لإظهار الرَّوْعة وتربيةالمَهابة.

ثمّ أكّد سُبحانه تَهديد الكُفّار والمَرَدة ـ لازدياد الرُّعب في قُلوبهم ـ بتَوْعيدهم بعَذاب الدُّنيا؛ مِنَ القَتْل والتشريد، مع عذاب الآخرة، بقوله: ﴿قُل﴾ يا مُحمّد ﴿لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله، وبمَا اُنزِل إليك؛ مِنَ اليَهود والنَّصارىٰ وعَبَدة الأوثان: إنّكم أيُّها الطُّغاة ﴿سَتُغْلَبُونَ﴾ عَن قريبٍ، وتُقهَرون بأيدي المُسلِمين وسُيوفهم في الدُّنيا ﴿وَتُحْشَرُونَ﴾ من قُبوركم، وتُساقون في الآخرة ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ والفِراش، وساء المَقَرُّ الذي هيّأتُموه لأنفسكم مِن النّار.

رُوي أنها نزلَتْ قَبْل وقْعَة بَدْر، فإنّه ﷺ قال لمُشركي قُرَيش يوم بَدْر: «إنّ اللهَ غالِبُكم وحاشِرُكم إلىٰ جهنّم، وبِئْس المِهاد»[١].

وعن ابن عبّاس: أنّ يَهود المَدينة لمّا شاهَدوا وَقْعة بَدْر، قالوا: والله هذا هُو النبيّ الأُمّيّ الذي بشّرنا به مُوسىٰ في التَوْراة، ونعتَه بأنّه لا تُرَدُّ له راية، وهمّوا باتِّباعه، فقال بعضُهم: لا تعجَلوا حتّىٰ ننظُر إلىٰ وَقعَةٍ اُخرىٰ له. فلمّا كان يوم اُحُد شَكُّوا ـ وقد كان بَيْنهم وبَيْن رَسُول الله ﷺ عَهْدٌ إلىٰ مدّة فنقَضُوه ـ وانطلق كَعْب بن أشرف في ستّين راكِباً إلىٰ أهل مكّة، فأجمعوا أمرهم على قِتال رَسُول الله ﷺ، فنزلَتْ [الآية][٢].

ورُوي عن بعض العامّة، ونُسِب أيضاً إلىٰ رِوايات أصحابنا: أنّه لمّا أصاب رَسُول الله ﷺ قُرَيشاً ببَدْر، وقدِم المدينة، جمع اليَهُود في سُوق بني قَيْنُقَاع، فقال: «يا مَعشَر اليهُود، أحْذَروا مِنَ الله بمِثْل ما نزَل بقُرَيش يوم بَدْر، وأسلِموا قبلَ أن ينزِل بكم ما نزَل بهم، وقد عرَفتم أنّي نبيٌّ مُرسَل» فقالوا: يا مُحمّد لا يغُرّنّك أنّك لقِيت قوماً أغماراً[٣] لا عِلْم لهم بالحَرْب، فأصبْتَ مِنهم فُرصةً، أمَا والله لو قاتَلْتَنا لعرِفتَ أنّا نحنُ النّاس، فنزلت [الآية][٤].

---

١. تفسير أبي السعود ٢: ١١.
٢. تفسير أبي السعود ٢: ١١.
٣. الأغمار: جمع غَمر، وهو من لم يُجرِّب الأُمور، ولا علم له بها.
٤. مجمع البيان ٢: ٧٠٦.

في إخبار القرآن بالغيب ووهمٌ ودفع

وعلىٰ أيِّ تَقْدير، فهذه الآية دَالَّةٌ علىٰ إخبار الله بغَلَبة المُسلمين علىٰ اليَهُود وسائر المُشرِكين، قَبْل وُقُوعها، عن جَزْمٍ ويقينٍ، مع وُجُود الأمارات العادِيَة ـ مِن ضَعْف المُسلِمين، وشَوْكة الكُفّار ـ علىٰ خِلافِه.

ثمّ صدّق الله الوَعْد بقَتْل بني قُرَيْظة، وإجلاء بني النَّضِير، وفتح خَيْبَر، ووضع الجِزْية علىٰ مَن بقي مِنهم، وخِذلان المُشرِكين ومَغلُوبيّتهم وطَرْدهم وتشريدهم مع كَثْرة شَوْكتهم. فلا شُبْهة أنّ هذا الإخبار ـ كإخبار عيسىٰ عليه السلام بما يأكلون وما يدَّخِرون ـ مِن آيات النُّبوّة، وصِدْق النبيّ في دَعْواه.

إنْ قيل: لعلّ وُقُوع ما أخبر به كان مِنَ الاتّفاقيّات، وكم مِن فِئةٍ قليلة غلَبت فِئةً كثيرة.

قُلنا: مِنَ المُتفَق عليه بَيْن العُقَلاء أنّ مُحمّداً صلى الله عليه وآله كان أعقل أهل عصره، لَو لَم يكُن أعقل عُقلاء العالَم، ولا رَيْب أنّ العاقِل إذا أدّعىٰ أمراً كالنُّبوّة، وكان ظُهُور كِذْبه في خَبَرٍ مُبطِلاً لدَعواه، يمتنِع أن يُخبِر عن الجَزْم واليَقين بأمرٍ يكون في نفسه احتِمال خِلافه، وقد أخبر النبيّ صلى الله عليه وآله بغَلَبته علىٰ الكُفّار عن جَزْم ويقين، مع تراكُم الأمارات العادِيَة علىٰ خِلافها، وعدم إمكان الجَزْم إلّا بالوَحْي.

فإنْ قيل: لعلّ الجَزْم به حصَل له بطريق الجَفْر والحِساب، أو عِلم النُّجُوم، أو الكِهانة.

قلنا: مُضافاً إلىٰ أنّ هذا الاعتِراض وارِدٌ علىٰ إخبار عيسى عليه السلام ـ وغيره مِنَ الأنبياء ـ بالمُغَيّبَات، فما كان دافِعاً لهم في إخبارهم كان دافِعاً له في إخباره صلى الله عليه وآله، فإنّه لا شُبْهة أنّ تحصِيل هذه العُلُوم مُحتاجٌ في العَادة إلىٰ التَّعلُّم مِن أهلها، والحُضُور عندَهم، ومِن المُسَلَّم أنه صلى الله عليه وآله كان أُمّيّاً لَمْ يحضُر عندَ عالِم، ولَم يتعلّم مِن أحَدٍ، ولَم يُراجِع كِتاباً، فلابُدّ مِنَ اليقين بكَوْن إخباره بالمُغَيّبات بالوحي.

قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ وَٱللهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَآءُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِى ٱلْأَبْصَارِ[١٣]

ثمّ استشهد سُبحانه علىٰ صِدْق هذا الإخبار الذي كان مَعدُوداً مِنَ المُحالات، وتحقُّق وُقُوعه فيما بعدُ بتأييده تعالىٰ ونَصْره، لا بكَثْرة العَدَد والعُدّة، بقضيّة بَدْر التي أشار إليها إجمالاً بقوله: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ﴾ أيُّها اليَهُود في وَقْعة بَدْر ﴿ءَايَةٌ﴾ عظيمة، ودَلالة واضِحة علىٰ نُبوّة مُحمّد صلى الله عليه وآله وصِدق الإخبار بغَلَبة المُسلِمين، وهِي ما وقع ﴿فِى﴾ شأن ﴿فِئَتَيْنِ﴾ وفِرقتَيْن مُتبارِزَتَيْن، حين ﴿ٱلْتَقَتَا﴾ وتراءتا في

وادي بَدْر؛ إحداهُما ﴿فِئَةٌ﴾ مُؤمِنة، قليلة العُدّة والعَدَد، وهُم الرّسول ﷺ، وثلاثمائة وثلاثة عشر مِن أصحابه، وكانت تِلْك الفِئَة ﴿تُقَاتِلُ﴾ وتُجاهِد ﴿فِى سَبِيلِ اللهِ﴾ وطَاعته، وطَلَباً لمَرضاته، ﴿وَ﴾ فِئَة ﴿أُخْرَىٰ﴾ منهما ﴿كَافِرَةٌ﴾ بالله ورَسُوله، وهِي طائِفة قُرَيش، وفيها صناديدُهم وشُجْعانهم، حيثُ صمّموا علىٰ قِتال الرّسول ﷺ وأصحابه حِين سمِعوا أنه ﷺ قصَد عِيرَهم.

وإنّما لَمْ يُوصَف قِتال الفِئَة الكَافِرة بكَوْنه في سَبيل الطّاغُوت؛ لوَضُوح أنّ قِتالهم كان علىٰ ضِدّ قِتال الفِئَة المُؤمِنة، ولعدَم الاعتِداد بقِتالهم، وللإشعار بأنّهم لَم يكُونوا قاصِدين له لِمَا اعْتَراهُم مِنَ الرُّعْب.

رُوي أنّ المُشرِكين كانوا تِسعمائة وخمسين رَجُلاً مُقاتِلاً، وكان رأسهُم عُتْبة بن رَبيعة بن عبد شَمْس، وفيهم أبو سُفيان بن حَرْب وأبو جَهْل، وقادوا مائة فَرَس، وكان فيهم سَبعمائة بَعِير، وأهل الخَيْل كانوا كُلّهم دارعين، وكان في الرجّالة دروع سِوىٰ ذلك، ومِن أصناف الأسلِحة عَدَد لا يُحصىٰ.

وكان المُسلِمون ثلاثمائة وثلاثة عشر رجُلاً؛ سبَعة وسبعُون رَجُلاً مِنَ المُهاجِرين، ومائتان وستة وثلاثون مِنَ الأنصار، وكان صاحِب راية النبيّ ﷺ والمُهاجرين عَلِيّ بن أبي طالب صلوات الله عليه، وصاحِب راية الأنصار سَعَد بن عُبادة الخَزْرجي، وكان في العَسكر تِسعُون بَعيراً وفرسان، أحدهما للمِقداد بن عَمْرو والآخر لمَرْثد بن أبي مَرْثد، وست أدرع وثمانية سيوف[١].

فلمّا تراءت الفِئتان كان المشركون إذا نظروا إلىٰ المُسلمين ﴿يَرَوْنَهُم﴾ مَع كَونهم قريباً مِن ثُلْثهم ﴿مِّثْلَيْهِمْ﴾ وضِعْف عَدَدهم ـ أي ستمائة ونَيْفاً وعشرين، بناءً علىٰ إرجاع ضمير (مِثْلَيهم) إلىٰ المُسلِمين، ويُحتَمل رُجُوعه إلىٰ المُشركين، فيكون عَدَد المُسلمين في نظرهم ألفاً وتسعمائة[٢] ـ رُؤيةً ظاهِرةً لكَونها ﴿رَأْىَ ٱلْعَيْنِ﴾ لا يُحتمَل الالتِباس فيها، كما يُحتَمل في سائر المُعايَنات، وقيل: إنّ المُراد رُؤية المُعايَنة، مِن غير مُحاسبة.

قيل: إنّ الله تعالىٰ قلّل المُسلِمين أوّلاً في أعيُن المُشركين، حينَ الْتَقتْ الفِئتان، ليتجرّأوا علىٰ قِتال المُسلِمين، وقلّل المُشرِكين في أعين المُسلمين، لِئلَا يتخاذلوا في قِتالهم ﴿لِيَقْضِىَ اللهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً﴾[٣] كما في سورة الأنفال، فلمّا تبارزوا للقِتال، واشتبكت الحَرْب، كَثّر الله المُسلمين في أعيُن

---

١. تفسير الرازي ٧: ١٨٩، تفسير أبي السعود ٢: ١٣. ٢. في النسخة: ألفاً وست مائة.
٣. الأنفال: ٤٢/٨.

المُشركين، ليَخذُلهم بالرُّعب، فكان التَّقليل والتَّكثير في حالَين مُختلِفين، وكان أبلغ في القُدرة وإظهار الآية[١].

روِيَ عن سَعد بن أوس أنّه قال: أسَر المُشركون رَجُلاً مِنَ المُسلمين، فسألوه: كَم كُنتُم؟ قال: ثلاثمائة وبِضعة عشر. قالوا: ما كُنّا نَرَاكم إلّا تَضعَفون علينا[٢].

ويُحتَمل أن يكون المُراد أنّ الله قلّل المُشركين في أعيُن المُسلمين حتّىٰ رأوا أنفسهم مِثلي المُشركين، ويُمكِن كَون تكثير المُسلمين في نظَرهم أو في نظَر المشركين بدُخول المَلائِكة فيهم، أو بالتَّصرُّف في القُوّة الواهِمة.

في بيان معجزات النبي ﷺ في وقعة بدر

ثمّ اعْلَم أنّه كانت في تِلك الواقِعة آياتٌ كثيرة، ومعْجزاتٌ عدِيدة ظاهِرة.

منها: إخبار النبيّ ﷺ أصحابَه بنُصْرتهم علىٰ قُرَيش قبلَ الواقِعة.

ومنها: التّقليل والتّكثير اللّذان حَكاهُما الله تعالىٰ في هذه الآية وفي سُورة الأنفال.

ومنها: إخبارُه ﷺ قبلَ القِتال بأنّ هُنا مَصرَع فُلان، وهُنا مَصرع فُلان، فلمّا أنقضَتْ الوقعة رأوا ما وقَع مُطابِقاً لِمَا أخبر به.

ومنها: تأييد الله تعالىٰ المُسلمين بألفٍ مِنَ الملائِكة مُردِفين[٣] رُوي أنّه كان سيماء الملائكة أنّه كان علىٰ أذناب خُيُولهم ونَواصيها صُوفٌ أبيض[٤].

﴿وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ﴾ ويُقوّي ﴿بِنَصْرِهِۦ﴾ وعَوْنه، بِلا توسيط الأسباب العادِيّة ﴿مَن يَشَآءُ﴾ نَصْره مِن عِباده، كما أيّد أصحاب بَدْر بالمَلائِكة، وأيّد الرّسُول والمُؤمنين علىٰ الكُفّار بالحُجَج البالِغة ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ المَذكُور مِن إراءة الجَمْع القليل كثيراً ﴿لَعِبْرَةً﴾ عظيمة ومَوعِظة وهِداية ظاهِرة كائِنة ﴿لِّأُوْلِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ الصَّحيحة، وذوي البصائِر النّافِذة، والعُقول السّليمة.

زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ[١٤]

---

١. تفسير روح البيان ٢: ٨.
٢. تفسير أبي السعود ٢: ١٣، تفسير روح البيان ٢: ٨.
٣. كما في سورة الأنفال: ٨/٩.
٤. تفسير الرازي ٧: ١٩٠.

ثمّ أنّه تعالىٰ ـ بعدَ بَيان آية التّوحِيد والنُّبوّة الظّاهِرة في قضِيّة بَدْر والتّنبيه علىٰ لُزُوم اعتِبار ذوي الأبصار بها ـ بَيّن عِلّة عَمىٰ القُلُوب وعدَم تأثّرها بها بقوله: ﴿زُيِّنَ﴾ وحُسّن بوَساوِس الشّيطان واقتِضاء الطّبيعة ﴿لِلنَّاسِ﴾ نَوعاً ﴿حُبُّ الشَّهَوَاتِ﴾ وتعلّق القُلوب بالنّفسانِيّات والمُستلَذّات.

وفي التّعبِير عنها بالشّهَوات دون المُشتهَيات إيذانٌ بأنّهم مِن شِدّة حُبّها، كأنّهم يُحِبّون شَهوتَها، وإشعارٌ بغاية رَذالتها، لوضوح أنّ الشّهوة مِن صِفات البَهائِم.

وتزيّن حُبّها بحُسبانهِم أنّ حُبّها مُقتضىٰ العَقل وكمال النّفس، ولذا يلُومون المُعرِض عنها ويَنْسُبونه إلىٰ السَّفَه، مع وُضُوح أنّ حُبّها لا يكون إلّا مِن ضَعْف العَقل وغَلَبة الحَيْوانِيّة وفَقْد البَصِيرة بحقائِقها.

ثمّ فصّل سُبحانه عُمَد المُشتهَيات بأنّها ﴿مِنَ﴾ قَبيل جِنْس ﴿ٱلنِّسَاءِ﴾ اللّاتي لعِرافَتِهنّ في معنىٰ الشّهوة عُدِدْنَ مِن حبائِل الشّيطان، وقُدِّمْنَ في الذِّكْر.

ثمّ أردِفْنَ بقوله: ﴿وَٱلْبَنِينَ﴾ الّذِين هُم مِن أعظم الفِتَن، كما قيل: أولادُنا فِتنةٌ، إن عاشوا فتنونا، وإن ماتوا أحزنونا[١].

وتخصِيصُ البنين بالذِّكْر مِن بَيْن الأولاد، لكَونْ حُبّهم ـ مِن جِهَة السُّرور والتّكثُّر ـ أكثر مِن حُبّ البَنات، بل كان العَرَب يكرَهُونَهنّ، كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بالأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً وَهُوَ كَظِيمٌ﴾[٢].

والافتِتَان بهم يشغل القَلْب بهم عن ذِكْر الله، والاهْتِمام بحِفْظ خاطِرهم بالتّعرُّض لمَعصِيته، والحِرْص علىٰ جَمْع الأموال لهم مِنَ الحلال أو الحرام، ولذا عقّب ذِكْرهم بقوله: ﴿وَٱلْقَنَاطِيرِ﴾ وهُو جَمع قِنْطار.

رُوي عن الباقر والصادق عليهما السلام: «أنّه[٣] مِلء مِسْك ثَوْر مِنَ الذّهب»[٤]، وقيل: مائة ألف دينار. وقيل: ثمانون ألف. وقيل: سبعون ألف: وقيل: أربعون ألف مِثْقال مِنَ الذّهَب. وقيل: ألف ومائتا مِثْقال. وقيل: ألفا دينار[٥]. وقيل: ألف. وقيل: أثنا عشر ألف دِرْهم[٦]. وعلىٰ أي تقدير هِي كِناية عن المَال الكثير.

---

١. تفسير روح البيان ٢: ١٠.
٢. النحل: ١٦/٥٨.
٣. أي القنطار.
٤. مجمع البيان ٢: ٧١٢، تفسير الصافي ١: ٢٩٨.
٥. تفسير أبي السعود ٢: ١٤.
٦. تفسير الرازي ٧: ١٩٦.

﴿**المُقَنطَرَةِ**﴾ مأخُوذة مِن القِنْطار، قيل: جيء بها للتأكيد. وقيل: معناه: الكثيرة، المُنضَدة بعضُها على بعضٍ. وقيل: المَضرُوبة المَنقُوشة، حالَ كَوْنها ﴿**مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلفِضَّةِ**﴾.

وعلّة حُبّهما كَونهما ثَمَن سائر الأشياء، فمالِكهما كمالِك جميع الأشياء، ولذا قدّمهما سُبحانه بالذِّكر على قوله: ﴿**وَٱلخَيْلِ ٱلمُسَوَّمَةِ**﴾ والأفراس المُرسَلة مِن كثرتها، للرَّعي ﴿**وَٱلأنعامِ**﴾ الثَلاثة مِنَ الإبِل والبَقَر والغَنَم، بأصنافها ﴿**وَٱلحَرْثِ**﴾ مِنَ الغَرْس والزَّرْع.

وحُبّ هذه الأشياء وإن كان مِمّا يقوم به نِظام العالَم ويتِمُّ عيش بني آدم، إلّا أنّها لمّا كانت في الأغلب مُلهِية عن ذِكْر الله وشاغِله عن طاعته، ذَمّها سُبحانه بقوله: ﴿**ذٰلِكَ**﴾ المَذكُور مِن المُشتهيات ﴿**مَتَاعُ ٱلحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا**﴾ الدَّنيّة الفَانية، ومَلذّاتها اليسِيرة الزائِلة.

فلا ينبغي للعاقِل المُؤمن أن يتوجَّه إليها، ويتعلّق قلبُه بها، ويصرِف همّه فيها، بَل عليه أن يتوجَّه بكُلّه إلىٰ الله والدّار الآخرة، ويجعَل حُبّ هذه الأمور تابِعاً لحُبّ الله، وتحصِيلها وُصْلةً إلىٰ طاعة الله ومَرْضاته؛ لوُضُوح أنّ جميع هذه النِّعَم مُقدِّمات للأعمال الصّالِحة، ووسائِل لتحصِيل الدَّرَجات الأُخرَوِيّة.

في أنّ المؤمن يحبّ الدنيا لتحصيل الآخرة بها

فالمُؤمن اللّبيب يُحِبّ المال ويكتسِبه للإنفاق في سبِيل الله، والإرفاق بعباده؛ ويحرث لأن يُوفّق لأداء الزكاة، ويتّجِر للتّوْسِعة علىٰ العِيال والصَّدقة علىٰ الفُقراء، ويتزوّج لتحصِين الفَرْج مِنَ الحَرام وحِفْظ الإيمان وتكثير النَّسْل وتَثْقيل الأرض بالوَلَد المُوحِّد الصّالح، ويأكُل ويشرَب للتّقَوّي علىٰ الطّاعة، والقيام بوَظائف العُبُودِيّة.

والحاصِل: أنّ المُؤمن يُحبّ الدُّنيا وما فيها لغرض تحصيل الآخرة، ولذا فُسّر قوله تعالىٰ: ﴿**رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً**﴾[1] بالمرأة الصّالحة وسَعَة الرِّزْق. فاتّضح أنّ حُبّ الدُّنيا لحُبّ الله وطَلَب مَرْضاته، ليس الحُبّ المَذمُوم، بل هُو مَمْدُوح غايته، لكَوْنه عَيْن حُبّ الله وحُبّ طاعته ومَرْضاته، فإنْ مَنْ يتحمّل شُرْب الدّواء المُرّ للبُرْء مِنَ المَرَض وطَلَب السَّلامة مِنه، لايُعَدّ مُحِبّاً للدّواء، بل هُو مُحِبٌّ للبُرْء مِنَ المَرَض، وطالِبٌ له.

والحاصل: أنّ المُؤمن الكامِل لا ينال مِن الدُّنيا إلّا لنَيْل الآخِرة، والقُرْب مِنَ الله، ومع قَطْع النَّظر عن ذلك يكون مُبغِضاً لها ومُعرِضا عنها، وتكون عِنْده أهون مِن عُراق[2] خِنْزير في يد مَجذُوم، وأضرّ مِن

---

١. البقرة: ٢٠١/٢. ٢. العُراق: العَظم أُكِلَ لحمه.

السّمّ، فكيف يلتذّ المُؤمن بلذائِذ الدُّنيا، ويشتاق إليها، وهُو يعلَم أنّه مُفارِقُها، وتبقىٰ عليه تِبعاتُها؟ التي أقلّها أن يُقال له في الآخرة: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾[١].

﴿وَٱللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ ٱلْمَآبِ﴾ والمَرجِع مِنَ الجَنّة ونِعَمها الباقية.

قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ بَصِيرٌ بِالعِبَادِ[١٥]

ثمّ بعدَ الإشارة الإجماليّة الىٰ فضيلة نِعَم الآخِرة علىٰ نِعم الدُّنيا، ذَكَر سُبحانه أُصُول نِعَم الآخـرة تفصيلاً بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا مُحمّد، لأمّتك: ﴿أَؤُنَبِّئُكُم﴾ وهَلْ أُخبِركم ﴿بِخَيْرٍ﴾ وأحسَن ﴿مِّن ذَٰلِكُمْ﴾ المُشتهَيات الدُّنيوِيّة؟

ثمّ لمّا كان السُّؤال مُقتضِياً للجواب، فكأنّه قيل في الجواب: نعَم أنبِئْنا وأخبِرْنا، فقال: ﴿لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا﴾ الله، وخافوا عِقابه في مُخالفة أحكامه وعِصيان تكاليفه، وأعرضوا مِنَ الدُّنيا، وأقبلوا إلىٰ الآخرة ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ اللّطيف بهم تفضُّلاً مِنه عليهم ﴿جَنَّاتٌ﴾ مُتعدِّده لكُلّ واحِدٍ مِنهم. وقيل: إنّ التّعدُّد بلِحاظ تعدُّد الأشخاص.

ثمّ وصف نضارتها بأن لها أشجاراً ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ﴾ الكثيرة، أو الأربعة المَعهُودة، حال كَوْنهم ﴿خَالِدِينَ﴾ ومُقيمين ﴿فِيهَا﴾ أبداً، غير خائفين مِنَ الخُرُوج مِنها، وزَوال نِعَمها.

عن النبيّ ﷺ: «شِبْرٌ من الجَنّة خَيرٌ مِنَ الدُّنيا وما فيها»[٢].

ثمّ لمّا كان مِن تَمام النِّعْمة الزّوجة الصّالِحة المُوافِقة الأنيسة، بشّر الله المُؤمنين بها بقوله: ﴿وَ﴾ لهم ﴿أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ مُنزّهة، طهّرهُنّ الله مِن دَنَس الحَيْض والنِّفاس والكثافات[٣] الجِسمانيّة، ونزّههُنّ مِنَ العُيُوب والأخلاق السّيّئة؛ كالحَسَد والغضب والطّمَع والنّظر إلىٰ غير أزواجهِنّ.

ثمّ بشّرهم بعدَ النِّعَم الجِسمانيّة بأعلىٰ النِّعَم الرُّوحانيّة بقوله: ﴿وَرِضْوَانٌ﴾ عظيم لا يُوصَف ببَيان، كائِن ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ مِن تجَلّي أنوار جَلاله تعالىٰ، الذي هُو أقصىٰ الآمال، وأعلىٰ الحُظُوظ، ومُنتهىٰ الكرامة للمُؤمن ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌ بِالعِبَادِ﴾ المُتّقين، فيُثيبهم علىٰ حَسَب دَرَجاتهم، ويُجازِيهم علىٰ قَدْر زُهْدهم في الدُّنيا، وإقبالهم إلىٰ الله، وقِيامهم بوظائِف العُبُوديّة.

---

١. الأحقاف: ٢٠/٤٦. ٢. تفسير روح البيان ٢: ١٠. ٣. يريد بها الأوساخ.

ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا ءَامَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ * ٱلصَّـابِرِينَ وَٱلصَّادِقِينَ وَٱلْقَانِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ[١٦ و ١٧]

ثمّ عرّف الله سُبحانه عِباده المُتّقين، المُعَدّ لهم هذه الكَرامات، ومدَحهم أوّلاً بـاليقين بـالمَبدأ والمَعاد، والخوف والخَشية بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ﴾ بلِسان قالهم وحالهم: ﴿رَبَّنَا إِنَّنَا ءَامَنَّا﴾ بوَحدانيّتك، ونُبُوّة نبيِّك، وصِدْق كِتابك، ودار ثوابك وعقابك ﴿فَاغْفِرْ لَنَا﴾ بحُرمة الإيمان ﴿ذُنُوبَنَا﴾ وإسرافنا علىٰ أنفسنا، واستُرْ خطايانا يومَ كَشْف السّرائِر ﴿وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ واحْفَظْنا مِنه. وفيه دَلالةٌ علىٰ أنّ أهمّ حَوائِج المُؤمن في الدُّنيا غُفْران الذُّنوب والنَّجاة مِنَ العَذاب.

ثـمّ بـعدَما مدَحهم الله بـالإيمان والخَـوف، مجّدهم بكَمال الأخلاق النّفسانيّة ثـانياً بـقوله: ﴿الصَّابِرِينَ﴾ علىٰ تحمُّل مَشاقّ الطّاعات، مِن أداء الواجِبات، واجتِناب المُحرّمات، الحابسين أنفسهم عن الجَزَع مِمّا ينزِل بهم مِنَ المِحَن والشّدائِد والبَليّات. وفي ذِكْر صِفَة الصَّبْر ـ مِنَ الصِّفات الكَماليّة النّفسانيّة والاقتِصار عليها ـ دَلالةٌ علىٰ أنّها أكمل الصِّفات، وكَوْنها جامِعة لسائر الكَمالات.

ثمّ وصفَهم ثالثاً بحُسْن القَوْل والفِعْل بقوله: ﴿وَٱلصَّادِقِينَ﴾ في أقوالهم وأفعالهم ونيّاتهم، علىٰ ما قِيل مِن أنّ الصِّدْق، كما يكون في القَول بمُطابقته للواقِع، يكون فـي الفِـعْل بـالجِدّ بـإتمامه وعـدَم الانصِراف عنه، ويكون في النِّيَّة بإنفاذ الإرادة وإمضاء العَزْم ﴿وَٱلْقَانِتِينَ﴾ المُواظبِين علىٰ الطّاعات المُداومين علىٰ العِبادات ﴿وَٱلْمُنفِقِينَ﴾ ما زاد عن كَفافهم مِنَ الأموال في القُرُبات ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾.

عن (المَجمع): عن الصادق عليه السلام: «المُصلِّين وقت السَّحَر»[١].

وعنه عليه السلام: «مَن قال في وِتْره إذا أوْتَر: أستغفِرُ الله وأتوبُ إليه، سبعين مرّة، وهُو قائِم، فواظَب علىٰ ذلك حتىٰ تمضيٰ له سَنة، كتبه الله عِنده مِنَ المُستغفرين بالأسحار، ووَجَبت له المَغفرة مِنَ الله»[٢].

في أنّ أفضل أوقات الدعاء وقت السحر

وفي رِوايةٍ: «مَن استَغْفر سبعين مرّة[٣]، فهُو مِن أهل هذه الآية»[٤].

وفي تخصِيص الاستِغفار بالأسحار إشعارٌ بأنّها أفضل أوقات الدُّعاء والعِبادة، لأنّ

---

١. مجمع البيان ٢: ٧١٤، تفسير الصافي ١: ٢٩٩.
٢. الخصال: ٣/٥٨١، تفسير الصافي ١: ٢٩٩.
٣. في مجمع البيان: استغفر الله سبعين مرة في وقت السحر.
٤. مجمع البيان ٢: ٧١٤، تفسير الصافي ١: ٢٩٩.

النّفس فيها مُصَفّاة والعِبادة أشقّ.

وعن مُجاهد: في قول يعقوب عليه السلام: ﴿سَوفَ أَستَغفِرُ لَكُم رَبِّى﴾[١] أخّره إلىٰ وقت السَّحَر، فإنّ الدُّعاء فيه مُستجاب. وقال: إنّ الله لا يشغَله صَوت عن صَوت، لكنّ الدُّعاء في السَّحَر دَعْوة في الخَلْوة، وهي أبعَد مِنَ الرِّياء والسُّمعة فكانت أقرب إلىٰ الإجابة[٢].

شَهِدَ ٱللهُ أَنَّهُ لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا ٱلْعِلْمِ قَائِماً بِالْقِسْطِ لَا إِلٰه إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ[١٨]

ثمّ اعلَمْ أنّه تعالى بَعْد جَعْل ذاته المُقدّسة أوّلاً في المُحاجّة مع النّصارىٰ، مُدّعِياً لتَوْحيده الذّاتي والصِّفاتي ـ وإقامة البَراهين العَقليّة القَطعيّة عليه، والحُكْم بكُفْر جاحِدِيه، وتهدِيدهم بالعُقُوبة الدُّنيويّة والأخرَويّة، وتنبِيه النّاس بعِلّة اختِيار الكُفْر، مِن تزيين مُشتهيّات الدُّنيا في نظَرهم، وأمر نبيّه ببِشارة المُوحِّدين بالثّواب العظيم، ومدَحهم بالصِّفات الحميدة الفائِقة جعل ثانياً نبيّه مُدَّعِياً.

ثمّ أقام الشُّهود الذين[٣] لا يُمكِن رَدّهم، علىٰ صِدْق دَعْواه، تأييداً للبُرهان بها بقوله: ﴿شَهِدَ ٱللهُ﴾ عن عِلمه الحُضُوري، وأخبر في كِتابه التّكويني بدَلالة كلماته التّامة ـ التي هِي صَنائعه البَديعة، واتِّساق نِظامها الأتمّ ـ علىٰ ﴿أَنَّهُ لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ ولا خالِق ولا معبود سِواه، ﴿وَ﴾ شهدت ﴿المَلَائِكَةُ﴾ بلِسان الحال والمقال، وبَدلالة الأفعال، لمُعاينتهم عظَمَته وقُدْرته، ﴿وَ﴾ شهِد ﴿أُولُوا ٱلْعِلْمِ﴾ مِن عِباده، عن العِلْم البُرهاني والعِياني، بما شهد به سُبحانه.

رُوي عن الباقر عليه السلام: «أنّ أولي العِلْم هُم الأنبياء والأوصياء»[٤].

ثمّ لمّا كان المُعتَبر عَدالة الشّاهِد، وعدَم جَوره في الشّهادة، أثنىٰ سُبحانه علىٰ نفسه في المَقام بكَوْنه ﴿قَائِماً بالقِسْطِ﴾ وعاملاً بالعَدْل في جميع الامُور، مِن قسمة الأرزاق، والإثابة، والتّعذيب. ومِن عَدْله أمْرُ عِباده بالعَدل والتّسوِية، وعدم رِضاه بالظُّلْم والجَوْر. وفيه بَيان كماله تعالىٰ في أفعاله، إثْرَ بيَان كماله في ذاته.

وفي الرِّواية السّابقة، عن الباقر عليه السلام بعدَ تفسير ﴿أُولُوا العِلْم﴾ بالأنبياء والأوصياء، قال: «وهُم قِيام

---

١. يوسف: ٩٨/١٢. ٢. تفسير روح البيان ٢: ١١. ٣. في النسخة: التي.
٤. تفسير العياشي ١: ٦٥٨/٢٩٦، تفسير الصافي ١: ٢٩٩.

بالقِسْط»[١].

والظّاهِر أنّ المُراد أنّ الأنبياء والأوصياء، لمّا كانوا مَظاهِر صِفاته تعالىٰ، كان ظُهُور صِفة قِيامِه تعالىٰ بالقِسْط في قيامِهم به، فكان قِيامه تعالىٰ بالقِسْط عَيْن قِيامهم به، ويُمكِن كَوْن (قائماً) حالاً لأولي العِلم وأفراده بلحِاظ كُلّ واحِد مِنهم.

ثمّ كرّر سُبحانه ذِكْر التّوحيد المَشْهُود به بقوله: ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ تأكيداً له، واهتِماماً به، وتقريراً لقيامه بالقِسْط، حيثُ إنّ الأُلُوهيّة لا تجامِع الظُّلْم والجَوْر، وتوطِئةً للشّهادة علىٰ كمال قُدْرته وعلمه بقوله: ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ حتّىٰ يعلَم أنّه المَنعُوت بهما دون غيره.

وتقدُّم صِفة العَزيز لتقدُّم العِلْم بقُدْرته علىٰ العِلْم بحِكْمته. وفيه تهدِيدٌ بالانتِقام مِمّن لا يُوحِّده بما لا يقدِر عليه غيرُه، وبالحُكْم بما يُريد في خَلْقه.

قيل: نزلَتْ الآية حينَ جاء رجُلان مِن أحبار الشّام، فقالا للنبي ﷺ: أنتَ مُحمّد؟ قال: «نعَمْ» فقالا: أنتَ أحمد؟ قال: «أنا مُحمّد وأحمد» قالا: أخبِرنا عن أعظم الشّهادة في كِتاب الله، فأخبَرهما[٢].

عن ابن عبّاس: خلَق الله تعالىٰ الأرواح قبلَ الأجساد بأربعة آلاف سنَة، وخلَق الأرزاق قبلَ الأرواح بأربعة آلاف سَنة، فشهد لنفسه قبلَ خَلْق الخَلْق، حين كان ولم تكن سَماء ولا أرض، ولا برّ ولا بَحْر، فقال: ﴿شَهِدَ ٱللهُ...﴾ الآية[٣].

رُوي عن سعيد بن جُبَيْر أنّه كان حَوْل البَيت ثلاثمائة وسِتُّون صَنَماً، فلمّا نزلَتْ هذه الآية الكريمة خرّوا سُجّداً[٤].

رُوي عن النبيّ ﷺ أنّه قال: «يُجاء بصاحِبها[٥] يومَ القِيامة، فيقول الله عزّ وجلّ: إنّ لِعَبْدي هذا عِنْدي عَهْداً، وأنا أحقُّ مَنْ وفىٰ بالعَهْد، اُدخِلوا عَبْدي الجَنّة»[٦].

إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللهِ ٱلْإِسْلَامُ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ ٱللهِ فَإِنَّ ٱللهَ سَرِيعُ ٱلحِسَابِ[١٩]

ثمّ أنّه تعالىٰ بعدَ إثبات تَوْحيد ذاتِه بالبَراهِين العَقليّة وشَهادة الشُّهُود العُدُول، أشار إلىٰ النّتيجة

---

١. وايضاً. ٢ و٢. تفسير روح البيان ٢: ١٢. ٤. تفسير أبي السعود ٢: ١٧.
٥. أي صاحب الشهادة. ٦. تفسير أبي السعود ٢: ١٧.

بقوله: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ﴾ الحَقّ المَرضِيّ ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ مِن لَدُن آدم إلىٰ قِيام السّاعة هُو ﴿الإِسْلَامُ﴾ والانقِياد له، والالتِزام بالتّوْحيد الخالِص عن شَوْب الشِّرْك، المُستلزِم للاعتِقاد بالمَعَاد والإيمان بالرُّسُل والشَّرائِع، بالضَّرُورة مِنَ العَقْل ودَلالة الأدِلّه القاطِعة، بحيث لا مَجال للشّكّ فيه.

ففيه دَلالة علىٰ أنّ أصل الدِّين في جميع الأزمنة واحِد، وإنّما الفَرْق في بَعض الفُرُوع والأحكام. ومع ذلِك اختَلف النّاس فيه، وأنكروا التّوحيد وتديّنوا بالشِّرْك ﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ﴾ فيه اليَهُود والنّصارىٰ ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ﴾ مِنَ التّوْراة والإنجيل، وما اختاروا الشِّرْك بقولهم: عُزَيرٌ ابنُ الله، أو المَسيح ابنُ الله، أو ثالِثُ ثلاثةٍ، في حالٍ من الأحوال، أو وقتٍ من الأوقات ﴿إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾ بالتّوحيد، وصِحّة دِين الإسلام، ونُبُوّة مُحمّد ﷺ.

ولَم يكُن اختِلافهم لخَفاء الحَقّ والشُّبهة فيه، بَل كان ﴿بَغْياً﴾ وحَسَداً كائِناً فيما ﴿بَيْنَهُمْ﴾ حيثُ إنّ الاختِلاف بعدَ وُضوح الحَقّ غايَته، لا يُمكِن تحقُّقه الّا لأجل الأخلاق الذَّميمة، وحُبّ الدُّنيا والرِّئاسة. وفيه غاية التّشنيع، ودَلالة علىٰ تَرامي حالهم في الكُفْر والضَّلالة.

ثمّ هدّد الجاحِدين بقوله: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ ٱللَّهِ﴾ الدّالّات علىٰ الحَقّ، ويُعرِض عن الحُجَج السّاطِعة على الصّواب ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾ يُحاسِبه ويُجازيه بأشدّ العِقاب مِن غَيْر بُطْء ومُهْلة، حيثُ إنّه ﴿سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ يُحاسِب جميع الخَلائِق في أقلّ مِن لَمْحة.

فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ وَٱلْأُمِّيِّينَ ءَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ ٱهْتَدَوْا وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَاغُ وَٱللَّهُ بَصِيرٌ بِٱلْعِبَادِ[٢٠]

ثمّ أنّه تعالىٰ بعدَ ظُهُور لَجاج الكُفّار وعِنادهم، بحيث لا تنفعهم الحُجَج، قال لنبيّه ﷺ: ﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ﴾ في التّوحيد، وجادَلوك في الحَقّ، وعارضوك في النُّبوّة ﴿فَقُلْ﴾ في جَوابهم، مُعرِضاً عنهم: إنّي ﴿أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ﴾ وأخلصتُ قَلبي ونَفسي وشَراشِر[١] وُجُودي ﴿لِلَّهِ﴾ وحدَه لا أُشرِك في انقِيادي [إليه] غيرَه. ﴿وَ﴾ أسلم له أيضاً ﴿مَنِ ٱتَّبَعَنِ﴾ وآمَن بي واهتدىٰ بهُداي ﴿وَقُل﴾ بعدَ ذلك ﴿لِّلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ﴾ من اليَهُود والنّصارىٰ ﴿وَٱلْأُمِّيِّينَ﴾ الّذِين لا عِلْم لهم ولا كتاب، من مُشركي

١. الشَّراشِر: معظم الشيء وجملته.

العَرب، تقريراً: ﴿ءَأَسْلَمْتُمْ﴾ بعدَ وُضوح الحَقّ، وتَمام الحُجّة، وظُهُور المُعجِزات الباهِرة، كما أسلم أتباعي، أم أقمتم بعدُ لَجاجاً وعِناداً علىٰ كُفْركم؟ وفيه تَعْيِيرهم علىٰ اللَّجاج بقِلّة الإنصاف، وتَوْبِيخهم بالبَلادة والجَهْل، وتَهْيِيجهم علىٰ الانقِياد والتبعية.

﴿فَإِنْ أَسْلَمُوا﴾ للهِ، والتَزموا بالتَوحيد، واعتَرَفوا بنُبوّتك وصِحّة دينك ﴿فَقَدِ ٱهْتَدَوْا﴾ إلىٰ الحَقّ، وسلَكوا الصِّراط المُستقيم، وفازوا بالنَجاة مِنَ العَذاب، وأصابوا جميع الخَيرات ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ عن قَبُول قَولك، وأعرضوا عن الإسلام والإيمان بك، فليس لك مسؤولية، وما عليك مِن تَبِعة ﴿فَإِنَّمَا﴾ الواجِب ﴿عَلَيْكَ ٱلْبَلَاغُ﴾ والدَعْوة، وإقامة الحُجّة، وإيضاح الحَقّ، وقد أدّيتَ ما عليك بما لا مَزيد عليه، وبالغتَ في تبليغك بلا تَوانٍ ولا فُتور ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌ بِٱلْعِبَادِ﴾ ومُطّلِع علىٰ فِطْرتهم، وسجِيَّتهم، وسُوء أخلاقهم، وقبائح أعمالهم. وفيه غايةُ التَهديد.

رُوي أنّ رسُول الله ﷺ لمّا قرأ هذه الآية علىٰ أهل الكِتاب، قالوا: أسلمنا، فقال ﷺ لليَهُود: «أتشهدون أنّ عِيسىٰ كَلِمةُ الله وعَبْدُه ورَسُولُه؟» فقالوا: معاذَ الله.

وقال ﷺ للنَصارى: «أتشهدون أنّ عيسىٰ عَبْدُ الله ورسُوله؟» فقالوا: معَاذَ الله أن يكون عِيسىٰ عبداً، وذلك قوله: ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا﴾[1].

إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ ٱللهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِن نَاصِرِينَ[٢١ و ٢٢]

ثمّ اعْلَم أنّه تعالىٰ بعدَ تَهديد المُصرِّين علىٰ الكُفْر، المُعرِضين عن الإسلام ـ بنَحْو الإجمال ـ هدّدهم بعدَ بَيان خُبْث ذاتهم، وشَناعة أعمالهم تفصيلاً بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ﴾ توحيد ﴿ٱللهِ﴾ ويجحَدون الحَقّ ودَلائِله، ويُنكِرون نُبوّة نبيّه ومُعجزاته ﴿وَيَقْتُلُونَ﴾ لعِنادهم الحَقّ ﴿ٱلنَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ يُتصوَّر، ومِن غيرِ استِحقاق في نظَرهم، كما قتلَهم أسلافُهم.

ورُوي أنّ نِسبة القَتل إلىٰ الّذين في عَصْر النبيّ ﷺ باعتِبار رِضاهم بفِعْل أوائِلهم.

﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ﴾ ويدعُون إلىٰ الحَقّ والعَدْل ﴿مِنَ ٱلنَّاسِ﴾.

---

١. تفسير أبي السعود ٢: ١٩، تفسير روح البيان ٢: ١٤.

عن أبي عُبَيدة [بن] الجَرّاح: قال: قلتُ يا رسُول الله، أيّ النّاس أشدّ عذاباً يومَ القِيامة؟ قال: «رجُلٌ قتل نبيّاً أو رجُلاً أمر بالمَعروف أو نهىٰ عن المُنكر» ثمّ قرأها، ثمّ قال: «يا أبا عُبَيدة، قتلَتْ بنو إسرائيل ثلاثة وأربعين نبيّاً مِن أوّل النّهار، في ساعةٍ واحِدة، فقام مائة رجُل واثني عشر رجُلاً مِن عُبّاد بني إسرائيل، فأمروا مَنْ قتلَهم بالمعروف، ونهَوْهم عن المُنكر، فقتلوهم جميعاً مِن آخر النّهار في ذلك اليوم، وهو الذي ذكره الله»[1].

قيل: إنّ تكرير الفِعل للإشعار بالتّفاوُت بيْن القَتْلَين مِنَ الفَظاعة، أو باختلافهما في الوقت.

ثمّ لمّا كان اشتِياق هؤلاء إلىٰ الفَحْشاء والمُنكر بمَنْزِلة اشتِياقهم إلىٰ العَذاب، عبّر عن إنذارهم بالعَذاب بالتّبْشير بقوله: ﴿فَبَشِّرْهُم﴾ يا نبيّ الرّحمة ﴿بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ في الآخرة.

﴿أُولَٰئِكَ﴾ البعيدون عن رَحمة الله، المُبتلَوْن بأسوأ الأحوال، هُم ﴿ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ﴾ وبطَلَتْ ﴿أَعْمَالُهُمْ﴾ الخَيْريّة وأفعالهم الحَسَنة في الدّارَيْن، فلا يترتّب عليها الأثر المَرغُوب مِنها، مِنَ المَدْح والثّناء والعِزّ والرّفاه والبَركة والسّلامة ﴿فِى الدُّنْيَا﴾ ـ بَل يُذمّون عليها ويُلعَنون بها ويُقتَلون ويُغار عليهم[2] ويُسبَوْن ويُستَرقّون ـ ﴿وَ﴾ لا في ﴿الآخِرَةِ﴾ مِن الخَلاص من النّار، والفَوْز بالجَنّة، بَل يُحرَمون مِنها، ويُساقُون إلىٰ جَهنّم وأشدّ العذاب ﴿وَمَا لَهُم﴾ حينئذٍ ﴿مِن نَاصِرِينَ﴾ يَنصُرونهم علىٰ الله، أويشفَعون لهم عِنْده، أو يدفَعون عنهم عذابه.

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ ٱلْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَابِ ٱللهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُم مُعْرِضُونَ[٢٣]

ثمّ أنّه تعالىٰ ـ لتَوضيح غاية خُبث ذاتهم، وشِدّة لَجاجهم، ودَفْع العجب مِن نهاية تمرُّدهم عن الإيمان بخاتَم النّبيّين ﷺ وبكتابه المُشتمِل علىٰ الإعجاز ـ ذَكَر تمرُّد عُلمائهم عن أحكام التّوراة التي كانوا مُعترِفين بكَوْنها الحَقّ المُنْزَل مِنَ الله؛ بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ يا محمّد ﴿إِلَى﴾ ما يعجبك مِن صَنيع أحبار اليَهُود ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُوا﴾ مِن جَانب الله ﴿نَصِيباً﴾ وافِراً، وحظّاً مُتكاثِراً ﴿مِنَ﴾ العُلُوم التي في ﴿ٱلْكِتَابِ﴾ الذي عَلِموا أنه حَقٌّ مُنزَل مِنَ الله تعالىٰ، وهُو التّوراة، وأعتَرفوا بصِحّة جميع ما فيه. وقد أخبر الله فيه ببِعْثة محمّد ﷺ وصِفاته ونُعُوته وحقّانيّة دِينه.

---

١. تفسير الرازي ٧: ٢١٤، وفيه: اليوم فهم الّذين ذكرهم الله تعالى.

٢. في النسخة: ويغارون.

ثمّ كأنه قيل: ماذا يصنَعون مِنَ العَجائب حينَ ينظر إليهم؟ فأجاب سُبحانه: ﴿يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَابِ ٱللَّهِ﴾ الذي أُوتوا نصيباً مِنه، وآمنوا به ﴿لِيَحْكُمَ﴾ ذلِك الكتاب بأوضح بَيان (فيما) وقَع الاختِلاف فيه ﴿بَيْنَهُمْ﴾ وبَيْن النبيّ والمُسلِمين.

﴿ثُمَّ﴾ يقَع مِنهم ما هُو في غاية المُبايَنة مِن إيمانهم بالكِتاب، وهُو أنّه ﴿يَتَوَلَّىٰ﴾ عن تِلْك الدَّعْوة ولا يُجيبها ﴿فَرِيقٌ مِنْهُمْ﴾ بعدَ عِلمهم بوجُوب الرُّجُوع إليه، والالتِزام بما فيه ﴿وَهُم﴾ في هذا الحال ﴿مُعْرِضُونَ﴾ عن ذلك الكِتاب وأحكامه بقُلُوبهم.

وقيل: إنّ المُراد: أنّ دَيْدَنهم الإعراض عن الحَقّ، والإصرار علىٰ الباطِل.

رُوي أنّ رسُول الله ﷺ دخَل مَدارِس اليَهُود، فدعاهم إلىٰ الإيمان، فقال له رئيسُهم نُعَيم بن عمرو: وعلىٰ أيّ دِين أنت؟ قال ﷺ: «علىٰ مِلّة إبراهيم» قال: إنّ إبراهيم كان يَهُودياً، قال ﷺ: «إنّ بَيْننا وبَيْنكم التّوراة فهاتوها»، فأبَوا، فنزلَتْ[١] [الآية].

وعن الكَلْبي: أنّها نزلَتْ في الرَّجْم: فجَر رجُلٌ وامرأة مِن أهل خَيْبر، وكانا في شَرَف مِنهم، وكان في كِتابهم الرَّجْم، فأتوا رسُول الله ﷺ رجاءَ رُخصةٍ عِنْده، فحَكَم عليهم بالرَّجْم، فقالوا: جُرْتَ علينا، ليس عليهما الرَّجْم، فقال ﷺ: «بَيْني وبَيْنكم التَّوراة» قالوا: قد أنصَفتنا، قال: «فمَن أعلَمكم بالتوراة؟» قالوا: ابن صُوريا، فأرسلوا إليه، فدعا النبيّ ﷺ بشيءٍ مِن التَّوراة فيه الرَّجْم دلّه علىٰ ذلك ابن سَلَام، فقال له: «اقرأ» فلمّا أتىٰ علىٰ آية الرَّجْم وضَع كفّه عليها، وقام ابن سَلَام فرفَع إصْبَعه عنها، ثمّ قرأ علىٰ رسُول الله ﷺ وعلىٰ اليَهُود: إنّ المُحْصَن والمُحصَنة إذا زَنيا، وقامت عليهما البيِّنة رُجِما، وإنْ كانت المَرأة حُبلىٰ تربص حتىٰ تضَع ما في بَطْنها. فأمر رسُول الله ﷺ باليَهوديين فرُجِما، فغضِب اليَهُود لذلك، فرجعوا كُفّاراً، فأنزل الله هذه الآية[٢].

ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ[٢٤]

ثمّ بيّن الله سُبحانه عِلّة تَولّيهم عن الكِتاب، وجُرأتهم علىٰ الله بقوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ التّولّي عن إجابة الدّعْوة، والإعراض بالقَلب عن الكِتاب، كان ﴿بِأَنَّهُمْ قَالُوا﴾ اختِلافاً مِن عِند أنفسهم، وافتِراءً علىٰ الله

---

١. تفسير روح البيان ٢: ١٥.

٢. تفسير روح البيان ٢: ١٥.

﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ﴾ فِي الآخرة بسَبب الكُفْر والمَعصية أبداً ﴿إِلَّآ أَيَّاماً مَعْدُودَاتٍ﴾ قلائِل. رُوي أنّهم كانوا يقولون: مُدّة عذابنا سَبعة أيّام، وقيل: هي أربعون يوماً، مقدار عِبادة بَني إسرائيل العِجْل[١].

فهوّن عليهم الذُّنوب والخُطُوب رسُوخ اعتِقادهم علىٰ ذلك ﴿وَغَرَّهُمْ﴾ وخدَعهم ﴿فِى﴾ مُخالفة ﴿دِينِهِم﴾ وأحكامهم ﴿مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ علىٰ الله مِن قولهم: أنّه تعالىٰ وعَد يعقُوب أنْ لا يعذِّب أولاده إلّا تَحِلّة قَسَم[٢].

عن ابن عبّاس ﷺ: زعَمت اليَهُود أنّهم وجَدوا في التّوْراة: أنّ ما بَيْن طَرَفي جَهنّم أربعون سنة إلىٰ أن ينتهوا إلىٰ شجرة الزَّقُّوم، وإنّما نعذّب حتّىٰ نأتي إلىٰ شجرة الزَّقُّوم، فتذهب جهنّم وتهلِك، وأصل الجحيم سَقر، وفيها شجرة الزَّقُّوم، فإذا اقتَحموا مِن باب جهنّم وتبادروا في العَذاب حتّىٰ انتهَوا إلىٰ شجرة الزَّقُّوم وملأوا البُطُون قال لهم خازِن سَقَر: زعَمتم أنّ النّار لن تمسّكم إلّا أيّاماً مَعدُودات، قد خلَتْ أربعون سنة وأنتم في الأبد[٣].

أقول: فيه دَلالة علىٰ أن المراد مِنَ الأيّام المَعدودات أربعون سنة وعبّر عنها بها تقليلاً لها.

فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ[٢٥]

ثمّ أبطل الله سُبحانه ما غرّهم باستِعظام عذابهم، وتهوِيل ما يحِيق بهم بقوله: ﴿فَكَيْفَ﴾ يكُون حالُهم ﴿إِذَا﴾ أخرَجناهم مِن قُبُورهم و﴿جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ﴾ عظيمٍ شديدِ الأهوال يكون وُقُوعه مِمّا ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ لعَاقِل.

روي أنّ أوّل راية تُرفَع يومَ القِيامة مِن رايات الكُفر راية اليَهُود، فيفضَحهم الله عزّ وجلّ علىٰ رؤوس الأشهاد، ثمّ يأمر بهم إلىٰ النّار[٤].

﴿وَ﴾ في ذلِك اليوم ﴿وُفِّيَتْ﴾ وأعطِيت مِن غير نَقْصٍ ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ مِنَ النُّفُوس جَزاء ﴿مَا كَسَبَتْ﴾ وحصّلت مِن عملِ خَيْرٍ أو شرّ ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ بتنقيص الثواب، أو زِيادة العِقاب. وفيه دَلالة علىٰ أنّ الثّواب والعِقاب يكونان بالاستِحقاق.

---

١. تفسير الرازي ٧: ٢١٨. ٢. تفسير روح البيان ٢: ١٦.
٣. نفس المصدر. ٤. تفسير روح البيان ٢: ١٦.

وأستدَلّ بعضُ العامّة به على أنّ العبادة لا تُحبَط[١]. وفيه: أنّ إيفاء جَزاء المعصية يكون بحَبْط ثواب العبادة، كما أنّ إيفاء ثواب العبادة يكون بالعَفو عن عُقوبة المعصية.

﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَالِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ ٱلخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ * تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيلِ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[٢٦ و ٢٧]

ثمّ ـ لمّا كان مِن أباطيل اليَهود قولهم: بأنّه لابُدّ أن تكون النُّبوّة والمُلْك فيهم، وأنّهم أحقُّ بهما لكَوْنهم مِن بيُوت الأنبياء، ومِن أهل العِلْم والكِتاب، ولا يجوز أن يكونا في العَرَب لكَوْنهم أُمِّيِّين ـ أمر الله نبيّه ﷺ بأن يثنيه بالقُدْرة الكاملة والفَضْل الشّامِل الدّالَّيْن على بُطلان قولهم، بقوله: ﴿قُلِ﴾ يا مُحمّد ﴿ٱللَّهُمَّ﴾ يا ﴿مَالِكَ ٱلْمُلْكِ﴾ مُلْكاً حقيقياً إشراقيّاً ويا سُلطان عالَم الوُجود، لا شَريك لك فيه ولا مُعادِل، تتصرّف فيه كيف تَشاء، إيجاداً وإعداماً وإحياءً وإماتةً وفَضْلاً ومَنْعاً وتعذيباً وإثابةً، وتُدَبِّره كيف تُريد؛ ومِن تدبيرك وسُلطانك أنّك ﴿تُؤْتِى﴾ وتهَب ﴿ٱلْمُلْكَ﴾ والسَّلْطنة أو النُّبوّة ﴿مَن تَشَاءُ﴾ أنْ تُملِّكه وتُشرِّفه بفَضْلك ﴿وَتَنزِعُ﴾ وتسلُب ﴿ٱلْمُلْكَ﴾ والسَّلْطنة الدُّنيويّة والدِّينيّة، وهي النبوة ﴿مِمَّن تَشَاءُ﴾ أن تنزِعها عنه، وتنقُلها إلى قومٍ آخرين. وفيه إشعارٌ بأنّ السَّلْطنة الحقيقيّة مُختصّة به تعالى، وسَلْطنة غيره بطريق المَجاز.

﴿وَتُعِزُّ﴾ في الدُّنيا، أو في الآخرة، أو فيهما ﴿مَنْ تَشَاءُ﴾ أن تُعِزّه في الدُّنيا بمَنصِب النُّبُوّة، والمُطاعية المُطلقة، والفضائِل الكريمة، والهِداية والتّوفيق، والنّصر والغَلَبة، وفي الآخرة بالجَنّة العاليه، والمَقامات الرّفيعة، والنِّعَم الدّائِمة ﴿وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ﴾ ذِلّةً في الدُّنيا، أو في الآخرة، أو فيهما، بالخِذْلان والبُعْد عن الرّحمة، والكُفْر والضّلال والأخلاق الرّذيلة، والفَقْر والمَسكنة واللَّعْنة الدّائِمة ﴿بِيَدِكَ﴾ وقُدْرتك خاصّة دُون غيرك ﴿ٱلخَيْرُ﴾ كُلّه، قبضاً وبسطاً، على حَسَب مشيّئتك وحِكْمتك، وعلى ما تقتضِيه قابِليّة القَوابِل، واستِعداد المُمْكِنات.

وإنّما خَصّ الخَيْر بالذِّكْر ـ معَ أنّ جميع الأمور بيدِه حتّى الشّرّ ـ لكَوْن الكلام في ما يسُوقه سُبحانه

---

١. تفسير الرازي ٧: ٢١٩ ـ ٢٢٠.

إلىٰ المُؤمنين، مِنَ النّبوّة والهِداية والكِتاب، أو لأنّ كُلّ ما هُو مِن قِبَل الله تعالىٰ، مِن النّافِع والضّار، عَيْن الخَيْر والصَّلاح، ومُوافِقٌ للحِكْمة والنِّظام الأتَمّ، أو لأنّ الشُّرُور مِن قِبَل المَاهِيّات والخَيْرات، مِن قِبَل الوُجود المَفاض مِنه تعالىٰ، أو لمُراعاة الأدَب، لوُضُوح مُنافاته لخِطابه: بأنّ الشّرّ مِنْك.

رُوي أنّ رسُول الله ﷺ لمّا خَطّ الخَنْدق عام الأحزاب، وقطَع لكُلّ عشِيرة[1] مِن أهل المدينة أربعين ذراعاً، وجميع مَن وافىٰ الخَنْدق مِنَ القبائِل عشرة آلاف، فأخذوا يحفِرونه، خرج مِن بَطْن الخَنْدق صَخْرة كالفيل العظيم، لَم تعمل فيها المَعاوِل، فوجّهوا سلمان ﷺ إلىٰ رسُول الله ﷺ يُخبِره.

فجاء ﷺ وأخذ المِعْوَل مِن سَلمان، فضرَبها ضَربةً صدَعتْها مِقدار ثُلثها، وبرِق منها بَرْقاً أضاء ما بين لا بَتَيْها[2]، كأنّه مِصباح في[3] بيتٍ مُظلم، فكبّر وكبّر معه المُسلمون، وقال: «أضاءتْ لِي مِنها قُصُور الحِيْرة كأنّها أنياب الكِلاب»، ثمّ ضرب الثّانية، فقال: «أضاءت [لي] مِنها قُصُور الحُمْر في أرض الرُّوم» ثمّ ضرب الثّالثة، فقال: «أضاءتْ لِي قُصُور صَنْعاء، وأخبرني جِبْرَئيل ﷺ أنّ اُمّتي ظاهِرة علىٰ الأُمَم كُلّها؛ فابشِروا».

فقال المُنافِقون: ألا تَعجَبون؟ يُمنّيكم ويَعدِكم الباطِل، ويُخبِركم أنّه يُبصِر[4] قُصُور الحِيْرة، ومَدائِن كِسرىٰ، وأنّها تُفتَح لكم، وأنتُم إنّما تحفِرون الخَنْدق مِنَ الفَرَق[5]، لا تستطيعون أن تبرُزوا، فنزلت [الآية][6].

ثمّ قرّر سُبحانه سَعَة قُدْرته، وأكّدها بقوله: ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ﴾ من إيتاء المُلْك ونَزْعه، والإعزاز والإذلال، وغيرها مِنَ الأمور المُمْكِنة ﴿قَدِيرٌ﴾ لا يُتصوَّر فيك عَجْزٌ ولا قُصُور.

﴿تُولِجُ﴾ وتُدخِل ﴿الَّيْلَ فِى النَّهَارِ﴾ بتَعقيبه إيّاه، أو تنقِيص الأوّل وزِيادة الثّاني، حتّىٰ يصِير النّهار خَمْس عَشْر ساعة، واللّيل تِسْع ساعات[7] ويُمكِن أن يكون تأويله، إدخال ظُلْمة الكُفْر في نُور الفِطرة ﴿وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيلِ﴾ بالتّعقِيب، أو الزّيادة والنُّقْصان، بعَكْس الأوّل. ويُمكِن أن يكون مِن بُطُونه[8]

---

١. في تفسير روح البيان: عشرة.
٢. أي لابَتَي المدينة، مثنىٰ لابة، وهي الحَرَّة، أي الأرض ذاتُ الحجارة السُّود، والمدينة تقع بين لابتين.
٣. زاد في تفسير روح البيان: جوف.
٤. زاد في تفسير روح البيان: من يثرب.
٥. أي الخوف.
٦. تفسير روح البيان ٢: ١٨.
٧. في النسخة: آيات.
٨. أي من بطون تفسير هذه الآية، بمعنىٰ التأويل.

إدخال نُور الإيمان أو نُور المَوجُود في ظُلمة المَاهِيّة.

﴿وَتُخرِجُ ٱلحَىَّ﴾ وتخلُقه ﴿مِنَ﴾ الجِسْم ﴿ٱلمَيِّتِ﴾ ومِن مادّةٍ لا حياةَ لها مِن تُراب، أو نُطفة، أو بَيْضة. أو المُراد: تخلّق العالِمَ مِنَ الجاهِل ﴿وَتُخرِجُ ٱلمَيِّتَ﴾ كالنُّطفة والتُّراب وغيرِهما ﴿مِنَ﴾ المَبْدأ ﴿ٱلحَىِّ﴾ كالإنسان وغيره مِنَ الحَيَوانات.

وعن (المَعاني): عن الصادق عليه السلام: «أنّ المُؤمن إذا مات لم يكُن مَيِّتاً، وأنّ المَيِّت هُو الكافر»، ثمّ فسّر الآية: بأنّ المُؤمن يخرج مِن الكافِر، والكافِر مِنَ المُؤمن[1].

﴿وَتَرزُقُ مَنْ تَشَاءُ﴾ أن ترزُقه ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ وتعَبٍ، أو بغيرِ تَقْتير.

عن أبي العبّاس المُقري، قال: ورَد لَفْظ الحِساب في القرآن علىٰ ثَلاثة أوْجُه: بمعنىٰ التّعَب، قال تعالىٰ: ﴿وَتَرزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾، وبمعنىٰ العَدَد، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[2]، وبمعنىٰ المُطالَبة، قال تعالىٰ: ﴿فامْنُنْ أَو أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[3].

لَا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللهِ فِى شَىْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللهُ نَفْسَهُ وَإِلَى ٱللهِ ٱلْمَصِيرُ[٢٨]

ثمّ بعدما بَيّن الله سُبحانه أنّ المُلْك والعِزّة والخَيْر والرِّزْق كُلّه بيَد الله، نهىٰ المُؤمنين عن مُوالاة الكُفّار بطَمَع الخَيْر والعِزّة والمال بقوله: ﴿لَا يَتَّخِذِ﴾ ولا يختار ﴿ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ لقَرابةٍ، أو صَداقةٍ جاهِليّة، أو جِوار أو غيرها مِنَ الأسباب ﴿ٱلْكَافِرِينَ﴾ الّذين هُم أعداء الله، وأعداء دِينهم ﴿أَوْلِيَاءَ﴾ وأحِبّاء لأنفسهم ﴿مِنْ دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ الّذين هُم أولياء الله وأحِبّاؤه، وبَدَلاً مِنهم، مَع كَوْنهم للأُخُوّة الحَقيقيّة المَعنويّة أحِقّاء بالمُوالاة، والكُفّار أحِقّاء بالمُعاداة للمُبايَنة الدِّينيّة.

فليس للمُؤمن أن يُؤثِر وِلاية أعداء الله والمُبايِنين له في الدِّين علىٰ وِلاية أحِبّائه وأُخُوّتِهم الدِّينيّة ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذٰلِكَ﴾ الفِعْل الشَّنيع مِن اتِّخاذ أعداء الله أولياء ﴿فَلَيْسَ مِنَ﴾ وِلاية ﴿ٱللهِ فِى شَىْءٍ﴾ يصِحّ أن يُطلَق عليه اسْم الوِلاية، ويكون خارِجاً عنها ومُنسلِخاً مِنها رأساً، لكمال التّنافي بَيْن وِلاية

---

١. معاني الأخبار: ١٠/٢٩٠، تفسير الصافي ١: ٣٠١. ٢. الزمر: ١٠/٣٩.
٣. تفسير روح البيان ٢: ١٨، والآية من سورة ص: ٣٩/٣٨.

المُتعادِيَيْن.

فلا يَجُوز أن تتولّوا الكُفّار ظاهِراً وباطِناً في حالٍ مِنَ الأحوال ﴿إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا﴾ وتَخافوا ﴿مِنْهُمْ﴾ وتتحذّروا مِن شَرّهم وضَرّهم ﴿تُقَاةً﴾ باطِنيّةً وحَذَراً واقعيّاً، فلا بأس بإظهار مُوالاتهم مع اطمِئنان النّفس بعَدَاوتهم وبُغْضهم، حتّىٰ يزُول مُقتضىٰ التَّقيّة، فيجِب عندَ ذلك مُعاداتهم ظاهِراً وباطِناً.

في وجوب التقية

عن (الاحتجاج): عن أمير المؤمنين عليه السلام، في حديثٍ: «وآمرُك أن تستعمِل التَّقيّة في دِينك، فإنّ الله يقول: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ الآية ـ إلىٰ أن قال ـ: وإيّاك ثُمّ إيّاك أن تتعرّض للهَلاك، وأن تترُك التَّقيّة التي أمرتُك بها، فإنّك شائِطٌ بدَمِك[1] ودماء إخوانك، معرِّض لنِعَمك ونِعَمهم للزّوال، تُذِلّهم في أيدي أعداء دِين الله، وقد أمرك الله بإعزازهم»[2].

وعن العَيّاشي: عن الصادق عليه السلام قال: «كان رسُول الله صلى الله عليه وآله يقول: لا إيمان لِمنْ لا تَقِيّة له»[3].

وعنه عليه السلام: «التَّقيّة تُرْس الله بَيْنه وبَيْن خَلْقه»[4].

وفي رِواية: «التَّقيّة دِيني ودِين آبائي»[5].

ثمّ أردف الله سُبحانه النَّهْي بالتَّهدِيد بقوله: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ ويُخوّفكم مِن سَطْوته، كَيْ لا تَعصوه فتستحِقّوا عِقابه.

ثمّ أكّد التَّهدِيد والتَّحذِير بقوله: ﴿وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ والمُنقَلب لعامّة الخَلْق، فلا يخرُج أحَد عن سُلْطانه و [مِن] تحت قُدْرته. وفي تَكرِير اسْم الجَلالة إدخال الرَّوْعة وتربية المَهابة.

﴿قُلْ إِن تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [٢٩]

ثمّ لمّا أذِن سُبحانه وتعالىٰ في التَّقيّة، وإظهار المُولاة لهم، وكان مَدارها الخَوف القَلْبي ـ وهُو أمر باطِنيّ لا يطّلِع عليه أحَد، وقد يُجعَل مَنْدُوحةً للمُعاشرة والمَودّة في الظّاهِر، معَ عدَم تحقُّق خَوف مِنهم في الباطِن، بَل المُوالاة الباطِنيّة صارت مَنشأً للمُوالاة الظّاهِريّة، ولكِن عندَ اعتِراض المؤمنين

---

١. شاط دمه: أي ذهب هدراً.
٢. الاحتجاج: ٢٣٩، تفسير الصافي ١: ٣٠٢.
٣. تفسير العياشي ١: ٦٦٤/٢٩٧، تفسير الصافي ١: ٣٠٢.
٤. الكافي ٢: ١٩/١٧٥، تفسير الصافي ١: ٣٠٢.
٥. جامع الأخبار: ٦٥٧/٢٥٣.

الصَادِقين عليهم، يعتذِرون لهم بالخَوْف ـ أمر الله سُبحانه نبيّه ﷺ بإعلام المُنافقين المُحتالِين في مُوالاتهم بسَعَة عِلْمه تعالىٰ بالسَّرائِر كالظَّواهِر، بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا مُحمَّد: ﴿إِن تُخْفُوا﴾ أيُّها المُنافقون ﴿مَا فِى صُدُورِكُمْ﴾ وضمائِركم مِن نِيّات السُّوء ومُوالاة الكُفّار ﴿أَوْ تُبْدُوهُ﴾ وتُظْهِروه للنّاس ﴿يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ﴾ ويطَّلِع عليه.

فإنّه لا سِرَّ إلّا وهُو عِندَه تعالىٰ عَلانِيَة، ولا باطِن إلّا وهُو عندَه ظاهِر، وكيف يخفىٰ عليه سَرائِركم ﴿وَ﴾ هُو ﴿يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّماواتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ مِنَ الخَفايا والدَقائق، فإنّ وُجود جميع ما فيها بإفاضته وتدبِيره، فإذا كانت إحاطته بهذه المَرتبة مِنَ الكمال، يجِب علىٰ العِباد أن يحذروا مِن مُخالفته في الباطِن والسِّرّ أيضاً؛ لأنّه يعلَمها ويُعاقِب عليها ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ﴾ مِنَ العُقُوبة وغيرها ﴿قَدِيرٌ﴾ وفيه غاية التَّهديد والوَعيد.

يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُ وَٱللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ * قُلْ إِن كُنْتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَاتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ[٣٠ و ٣١]

ثمّ بَيّن الله تعالىٰ صِفَة اليوم الذي يكون مَصير الخَلْق فيه إليه، ويجِب علىٰ النّاس الحَذَر مِنه تعالىٰ فيه، بقوله: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ﴾ مِن النُّفوس المُكلَفة ﴿مَا عَمِلَتْ﴾ في الدُّنيا ﴿مِنْ خَيْرٍ﴾ وصالِح ﴿مُحْضَراً﴾ عِندها، أحضره الله بصُورته المِثاليّة التي تكون لذلك العمَل في عالَم المُثُل والصُّوَر، لِمَا حُقِّق في مَحلِه مِن أنّ لكُلّ شيء في هذا العالَم ـ ولو كان مِنَ الأعراض ـ صُورةً جَوْهريّةً في عالَم الصُّور والمُثُل المُعلّقة، كما هُو مُستفاد من كثيرٍ مِنَ الأخبار. أو المُراد إحضاره بوُجوده الكَتْبي في صحيفة الأعمال، أو بجَزائه وآثاره.

﴿وَ﴾ كذا تجِد ﴿مَا عَمِلَتْ﴾ النّفس ﴿مِن﴾ عَمل ﴿سُوءٍ﴾ وقَبيح مُحضراً عندَها بصُورته الجَوهريّة أو بجزائه، فتضجَر وتستَوحِش مِنه، بحَيْث ﴿تَوَدُّ﴾ قيل: كأنّه يُقال: حالُ النّفس التي عمِلت الخَير مَعلومٌ أنها في سُرور وأمن، فما حالُ النّفس الشِّرّيرة التي عِملت السُّوء؟ فقال تعالىٰ: تَوَدّ وتتمنّىٰ تلك النّفس، حينَ ترىٰ السُّوء ﴿لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَداً﴾ وبَوْناً ﴿بَعِيداً﴾ مِن سُوء المنظر ووَخامة

الآثار.

وقيل: معنىٰ الآية: تَوَدّ وتتمنّىٰ كُلّ نفسٍ، يومَ تجد صحائِف أعمالها، أو جزاء أعمالها، مِنَ الخَير والشَّرّ حاضِرةً، لَو أنّ بَيْنها وبَيْن ذلك اليوم وهَوله أمداً بعيداً[1].

وقيل: المعنىٰ: اذكُروا يوم تجِد كُلّ نفسٍ و(تودّ) حالٌ مِن الضَمير في (عَمِلت) أو خَبَر لـ(ماعَمِلَت مِن سُوء).

ثمّ بالغ سُبحانه في التّحذِير وأكّده بتَكرار قوله: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ فاحذَروا سَخَطه وبأسه.

ثمّ لتربِيته الخَوف والرّجاء في القلوب أردف الوَعيد بالوَعْد، وأعلن برأفته، بقوله: ﴿وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ﴾ سَريع الرِّضا، وكثير الرَّحمة ﴿بِٱلْعِبَادِ﴾ المُؤمنين.

ويُحتمل كَوْن التّذيِيل به، لبَيان عِلّة التّحذير، وهِي الرأفة العظيمة مِنه بهم، حيثُ يكُون تَحذيره كتَحذير الوالِد الشّفيق وَلَده عمّا يُوبِقه ويَضُرّه.

في أن حبّ الله مستلزم لحبّ محبوباته

ثمّ لمّا قالت اليَهود والنّصارىٰ: نحنُ أبناء الله وأحِبّاؤه، أمر الله رسُوله برَدّهم بقوله: ﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ﴾ كما تقولون، فلازِم حُبّه طاعته والانقِياد له، وطلَب القُرْب مِنه بالقِيام بمَرضاته، حيثُ إنّ الحُبّ هُو مَيْل النّفس إلىٰ شيء، لإحرازها كمالاً وحُسْناً فيه، بحيث يحمِلها إلىٰ ما يُقرِّبها إليه.

فإن علِمتم أنّ ذاته المُقدّسة مُستجمِعة لجميع الكَمالات، بَل لا كمال لأحدٍ إلّا هُو مِنه وبإفاضته، فعلَيكم أيّها المُدّعون لمَحبّته أن تطلِبوا رِضاه وقُرْبه بطاعته.

ثمّ لمّا تبيّن لكُم أنّي رسُوله إليكم، وأنّه ما مِن شيءٍ يُقرِّبكم إليه إلّا [و] أنا آمِركم به، وما مِن شيءٍ يُبعِدكم عنه إلّا وأنا ناهِيكم عنه، إذَن ﴿فَٱتَّبِعُونِى﴾ في ما أدعُوكم إليه، وآمرُكم به مِنَ الإقرار برِسالتي، والعمَل بأحكامي، فإذا فعلتُم ذلك ﴿يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ ويرضىٰ عنكم، ويقرِّبكم إليه.

وهذا أجزَل الأجور وأعظَم المَثُوبات، لوُضُوح أنّ أقصىٰ آمال المُحِبّ كَوْنه مَحبُوباً عندَ حبيبه، ولا يتحقّق إلّا بإتيان مَحبُوباته، وحُبّ أحِبّائه.

ومِن الواضِح أنّ أحَبّ النّاس إلىٰ الله رسُوله وخلفاؤه، ولذا قال الصادق عليه السلام: «هَلِ الدِّين إلّا الحُبّ»[2]، ومَن أحَبّ الرّسُول وأوليائه وخُلَفائه، أطاعهم وأوفَق رِضاهم.

---

١. تفسير روح البيان ٢: ٢١.

٢. الخصال: ٢١/٧٤، تفسير الصافي ١: ٣٠٣.

وفي (الكافي): عنه عليه السلام، في حديث: «مَنْ سرّه أن يعلَم أنّ الله يُحِبّه، فليعمَل بطاعة الله وليتّبِعنا، ألَم تسمَع قول الله عزّ وجلّ لنبيّه: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ والله لا يُطِيع اللهَ عبدٌ [أبداً] إلّا أدخل اللهُ عليه في طاعته اتّباعنا، ولا والله لا يتّبِعنا عبدٌ أبداً إلّا أحبّه[١] الله، ولا والله لا يدَع أحدٌ اتّباعنا أبداً إلّا أبغضن عدوّنا[٢]، ولا والله لا يُبغِضنا أحدٌ أبداً إلّا عصىٰ الله، ومَن مات عاصياً لله أخزاه الله، وأكبّه علىٰ وَجْهه في النّار»[٣].

ثمّ أشار سُبحانه إلىٰ أدنىٰ ثَمرات حُبّه له، بقوله: ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ ويستُر بعَفْوه سيّئاتكم ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ﴾ للمَعاصي، وستّارٌ للقبائح ﴿رَّحِيمٌ﴾ لِمَن تحبّب إليه بطاعته واتّباع رُسُله وخُلَفائه.

قيل: نزلتْ حينَ دعا رسُول الله صلّى الله عليه وآله كَعْب بن أشرف ومَن تابعه إلىٰ الإيمان، فقالوا: نحنُ أبناء الله وأحِبّاؤه.

وقيل: نزلتْ في وَفْد نَجْران، لمّا قالوا: إنّا نعبُد المَسيح حُبّاً لله[٤].

وقيل: نزلت في أقوامٍ زعَموا علىٰ عَهْده صلّى الله عليه وآله أنّهم يُحِبّون الله، فأمِروا أن يَجعلوا قولهم مُطابِقاً لعَمَلهم[٥].

وعن ابن عبّاس: أنّ النبيّ صلّى الله عليه وآله وقَف علىٰ قُرَيش وهُم في المَسجِد الحَرام يعبُدون الأصنام، وقد علّقوا عليها بَيْض النّعام، وجعَلوا في آذانها الشُّنُوف[٦]، فقال رسُول الله صلّى الله عليه وآله: «يا مَعْشَر قُرَيش، قَدْ خالفتم مِلّة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام» فقالتْ قُرَيش: إنّما نعبُدها حُبّاً لله ليُقرِّبونا إلىٰ الله زُلفىٰ، فقال تعالىٰ لنبيّه: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ﴾ وتعبُدون الأصنام لتُقرّبكم إلىٰ الله ﴿فَٱتَّبِعُونِى﴾ أي اتّبِعوا شريعَتي وسُنّتي ﴿يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ فأنا رسُوله إليكم، وحُجّته عليكم[٧].

قُلْ أَطِيعُوا ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَافِرِينَ [٣٢]

ثمّ أنّه رُوي أنّه لمّا نزلَتْ آية ﴿قُلْ إنْ كُنتُم تُحِبّون الله﴾، [قال] عبدالله بن أُبَيّ: إنّ محمّداً يجعلُ

---

١. في النسخة: لمحبّة. ٢. في الكافي والصافي: لا يَدَع أحدٌ اتباعنا أبداً إلّا أبغضنا.
٣. الكافي ٨: ١/١٤، تفسير الصافي ١: ٣٠٤. ٤. تفسير أبي السعود ٢: ٢٥.
٥. تفسير أبي السعود ٢: ٢٥.
٦. الشُّنُوف: جمع شَنف، وهو القُرط من الدُّر أو الذهب والفضّة وكل ما يُعلّق في شحمة الأُذن أو فوقها من الزينة.
٧. تفسير أبي السعود ٢: ٢٥.

طاعته كطاعة الله، ويأمُرنا أن نُحبّه كما أحَبّت النّصارىٰ عيسىٰ، فنزلَتْ[1] ﴿قُلْ﴾ يا مُحمّد، ردّاً لشُبْهة المُنافِقين: ﴿أَطِيعُوا اللهَ﴾ لكَوْنه بالذّات مُستحِقاً للطّاعة، ﴿وَ﴾أطيعوا ﴿ٱلرَّسُولَ﴾ لكَونه رسُولاً ومُبلِّغاً عن الله، لا لأهليّة نفسه، كما تقول النّصارىٰ في عيسىٰ ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ وأعرضوا عن طاعة الله في أحكامه التي جاء بها رسُوله، فقد كَفروا بنِعَمه، واستَوجبوا سَخَطه ﴿فَإِنَّ ٱللهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَافِرِينَ﴾ به وبنِعَمه، بَل يَبغُضهم ويُعذّبهم بأشدّ العَذاب.

ففيه دَلالة علىٰ أنّ وُجُوب طاعة النبيّ، لكَوْنها مِن شؤون وُجُوب طاعة الله، فمَن أدّعىٰ مَحبّة الله، وخَالف أوامِر نبيّه ونَواهيه، فهُو كاذِبٌ في دَعْواه.

إِنَّ ٱللهَ ٱصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى ٱلْعَالَمِينَ *ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ وَٱللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ[٣٣ و ٣٤]

ثمّ أنّه لمّا بيّن سُبحانه أنّ مَحبّته لا تنفكّ عن طاعة الرُّسُل، بيّن عُلُوّ دَرَجاتهم، وشَرَف مَناصِبهم، تحريصاً عليها؛ بقوله: ﴿إِنَّ ٱللهَ ٱصْطَفَىٰ﴾ واختَار مِن جميع خَلْقه ﴿آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ﴾ وأشراف ولده، وهُم إساعيل وإسحاق والأنبياء مِن ذُرّيّتهما، ولا شُبْهة أنّ أشرَفهم مُحمّد ﷺ وذُرّيّته الطّيِّبة.

عن الباقر عليه السلام، أنّه تَلا هذه الآية، فقال: «نحنُ مِنهم، ونحنُ بقِيّة تِلك العِتْرة»[2]

وعن الصادق عليه السلام، قال: «قال مُحمّد بن أشعث بن قَيس الكِنْدي عليه اللّعنة للحُسين عليه السلام: يا حُسين بن فاطِمة أيّة حُرْمة لَك مِن رسُول الله ﷺ ليسَت لغيرك؟ فتَلا الحُسين عليه السلام هذه الآية، ثمّ قال: والله إنّ محمّداً ﷺ لِمَنْ آلِ إبراهيم، وإنّ العِتْرة الهادِية لَمِنْ آلِ مُحمّد عليهم السلام»[3].

وفي (العيون)، في حديثٍ: فقال المأمون: هَلْ فضّل الله العِتْرة علىٰ سائر النّاس، فقال أبو الحسَن عليه السلام: «إن الله تعالى أبان فَضْل العِتْرة علىٰ سائر النّاس في مُحْكم كِتابه».

فقال المأمون: أين ذلك مِن كِتاب الله؟ فقال له الرّضا عليه السلام: «في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ اللهَ اصطَفَىٰ آدَمَ

---

١. تفسير الرازي ٨: ١٩. ٢. تفسير العياشي ١: ٢٩٩/٦٦٩، تفسير الصافي ١: ٣٠٥.
٣. أمالي الصدوق: ٢٢١/٢٣٩.

وَنُوحاً وآلَ إبْرَاهِيم﴾ الآية»[١]. وقد فسّر آل إبراهيم بآل مُحمّد ﷺ.

﴿وآلَ عِمرَانَ﴾ قيل: هُم مُوسىٰ، وهارون؛ ابنا عِمران بن يصهر بن فاهث[٢] بن لاوي بن يعقوب، وأولادهما النبيّون.

وقيل: عيسى وأُمه مريم بنت عمران بن ماثان، وإنّ ما ثان كان مِن نَسْل سُلَيمان بن داود، وكان ينتهي بسبعة وعشرين أباً إلىٰ يهودا بن يعقوب. وبين العِمْرانَيْن ألف وثمانمائة سنة[٣].

وفي رِواية: هُو آل إبراهيم وآل محمّد علىٰ العالَمين، فوضعوا اسْماً مَكان اسم[٤].

وعن (المجمع): وآل محمّد علىٰ العالَمين[٥].

وعن القُمّي رحمه الله، قال: قال العالم عليه السلام: «نزَل آل إبراهيم[٦]، وآل عِمْران، وآل محمّد ﷺ على العالَمين»[٧].

وعن الصادق عليه السلام قال: «آل محمّد كانت فمحَوْها»[٨].

وفي تخصِيص آل عِمْران أو آل محمّد ﷺ بالذِّكْر مَع دُخُولهم في آل إبراهيم، إظهارٌ لكمال الاعتِناء بشأنهم وشَرَفهم.

فهؤلاء الّذِين أنعَم الله عليهم بالنَّفس القُدسيّة، والمَلكات الجَميلة الرُّوحانيّة، والفضائِل الجِسمانيّة، فضّلهم الله بمَنْصِب الرِّسالة ﴿عَلَىٰ ٱلعَالَمِينَ﴾ وجميع الخَلْق أجمعين مِن أوّل الدُّنيا إلىٰ يوم الدِّين مِن المَلائكة والجِنّ والأنس وسائر مَوجُودات عالَم المُلْك والمَلَكوت، حال كَوْن جميع المُصطفَيْن ﴿ذُرِّيَّةً﴾ واحِدة مُسلسَلة مُنشعِبة ﴿بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ﴾.

عن الصادق عليه السلام: «أنّ الّذِين اصْطفاهم الله؛ بعضُهم مِن نَسْل بعضٍ»[٩].

وعن (العياشي): عنه عليه السلام، قيل: ما الحُجَة في كَتاب الله أنّ آل محمّد ﷺ هُم أهل بَيْته؟ قال: «قول الله عزّ وجلّ: (إنّ اللهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ وَآلَ مُحمّد علىٰ العالَمين) هكَذا

---

١. عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ١/٢٣٠، تفسير الصافي ١: ٣٠٥.

٢. في تفسير البيضاوي: قاهث.

٣. تفسير البيضاوي ١: ١٥٦.

٤. تفسير العياشي ١: ٦٧٠/٢٩٩، تفسير الصافي ١: ٣٠٥.

٥. مجمع البيان ٢: ٧٣٥، تفسير الصافي ١: ٣٠٥.

٦. (آل إبراهيم) ليس في المصدر.

٧. تفسير القمي ١: ١٠٠، تفسير الصافي ١: ٣٠٥.

٨. تفسير العياشي ١: ٦٧٤/٣٠١، تفسير الصافي ١: ٣٠٥.

٩. مجمع البيان ٢: ٧٣٥، تفسير الصافي ١: ٣٠٦.

نزلَتْ (ذُرِّيَّة بعضُها مِن بعض والله سَمِيع عَليم) ولا تكون الذُّرِّيَّة مِنَ القَوم إلّا نَسْلهم مِن أصلابهم»[1].

والظاهِر أنّ السائِل احتَمل أن يكون المُراد بالآل جميع المؤمنين، كما عليه بعض المُفسرين مِنَ العامّة، مُستشهِدين له بقوله تعالىٰ: ﴿أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾[2].

﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لأقوال النّاس ﴿عَلِيمٌ﴾ بضمائِرهم وأخلاقهم، ومَلكَاتهم وأعمالهم، فيختار مِنهم مَن هُو أحسن قولاً، وأصلح عملاً، وأزكىٰ قلباً، وأخلص نِيّةً، وأقوىٰ بصيرةً، كما قال تعالىٰ: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾[3].

في أن الأنبياء مخالفون لغيرهم في القوىٰ الروحانية والجسمانية

نقل الفخر الرّازي في تفسيره عن الحليمي كلاماً يُعجِبني أن أذكُره بطوله، لاشتِماله علىٰ ذِكْر مُعجزاتٍ عديدة للنبيّ ﷺ، وفضيلةٍ فائِقة لأمير المُؤمنين ﵇.

قال الحليمي: إنّ الأنبياء ﵈ لابُدّ أن يكونوا مُخالِفين لغيرِهم في القُوىٰ الجِسمانيّة، والقُوىٰ الرُّوحانيّة. أمّا القُوىٰ الجِسمانيّة، فهِي إمّا مُدرِكة وإمّا مُحرِّكة. أمّا المُدرِكة فهِي إمّا الحَواسّ الظاهِريّة، وإمّا الحَواسّ الباطِنيّة. أمّا الحَواسّ الظاهِريّة؛ فهي خمسة:

أحدها: القُوّة الباصِرة، ولقد كان الرّسُول ﷺ مَخصوصاً بكمال هذه الصِّفة، ويدُلّ عليه وَجْهان؛ الأوّل: قوله ﷺ: «زُوِيت[4] لي الأرْض فأُرِيتُ مَشارِقها ومَغارِبها»، والثّاني: قوله ﷺ: «أقِيموا صُفُوفكم وتَراصُّوا، فإنّي أراكم مِن وَراء ظهري». ونظير هذه [القوة] ما حصل لإبراهيم، وهو قوله تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾[5] ذكروا في تفسيره: أنّه تعالىٰ قوّىٰ بصَره حتّىٰ شاهد جميع المَلكُوت مِنَ الأعلىٰ والأسفل.

قال الحليمي: إنّ[6] البُصَراء يتفاوَتون، فرُوي أنّ زَرْقاء اليَمامة كانت تُبصِر مِن مَسيرة ثلاثة أيّام، فلا يبعُد أن يكون بصَر النبيّ أقوىٰ من بصَرها.

وثانيها: القُوّة السامِعة، وكان ﷺ أقوىٰ النّاس في هذه القُوّة، ويدُل عليه وَجْهان؛ أحدهما: قوله ﷺ: «أطّتْ[7] السّماء وحَقّ لها أن تئطّ، ما فيها مَوضِع قَدَم إلّا وفيه مَلَك ساجِد لله تعالى» فسمِع أطيط السّماء والثاني: أنّه سمِع دَوِيّاً، وذكَر أنّه هَوِي صَخْرةٍ قُذِفَت في جهَنّم، فلم تبلُغ قَعرها إلىٰ

---

١. تفسير العياشي ١: ٦٧٥/٣٠١، تفسير الصافي ١: ٣٠٦.
٢. تفسير الرازي ٨: ٢٢، والآية من سورة المؤمن: ٤٦/٤٠.
٣. الأنعام: ١٢٤/٦.
٤. زوى الشيء: قبضه وجمعه.
٥. الأنعام: ٧٥/٦.
٦. في المصدر: وهذا غير مستبعد لأنّ.
٧. أطّ الشيء: صوّت.

الآن.

قال الحليمي: ولا سبيل للفلاسِفة إلىٰ استبعاد هذا، فانّهم زعَموا أن فيثاغورس راضَ نفسه حتّىٰ سمع حفيف المَلك[1]. ونظير هذه القوّة لسُلَيمان عليه السلام في قصّة النّمْل: **﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ﴾**[2] فالله تعالىٰ أسمع سُليمان كلام النّمْلة وواقفه على معناه. وهذا داخِلٌ أيضاً في باب تَقْوية الفَهْم، وكان حاصِلاً لمُحمّد صلى الله عليه وآله حين تكلّم مع الذِّئب ومع البعير.

وثالثها: تقوية قُوّة الشّمّ، كما في حَقّ يعقوب عليه السلام، فإنّ يوسُف لمّا أمر بحَمْل قميصه إليه وإلقائه علىٰ وَجْهه، فلمّا فَصَلَتِ العِيرُ قال يعقوب: إنّي أجِد ريحَ يوسُف، لولا أن تُفَنّدون. فأحسّ بها مِن مسيرة أيّام.

ورابعها: تقوية قُوّة الذَّوْق، كما في حَقّ رسُول الله صلى الله عليه وآله حين قال: «إنّ هذا الذراع يُخبِرني أنّه مَسمُوم».

وخامسها: تقوية القوة اللّامسة، كما في حَقّ الخَليل، حيثُ جعلَ الله تعالىٰ النّار برداً وسلاماً عليه، وكيف يُستبعَد هذا، ويُشاهد مِثْله في السَّمَنْدَل[3] والنّعَامة؟!.

وأما الحَواسّ الباطنة، فمنها قُوّة الحِفْظ، قال تعالىٰ: **﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَىٰ﴾**[4] ومنها: قُوّة الذّكاء، قال عليّ عليه السلام: «علّمني رسُول الله صلى الله عليه وآله ألفَ بابٍ مِنَ العِلْم، واستنْبطتُ مِن كُلّ باب ألف باب». فإذا كان هذا حال الوَلِيّ، فكيف حال النبيّ؟

وأمّا القُوىٰ المُحرّكة، فمِثْل: عُرُوج النبيّ صلى الله عليه وآله إلىٰ المِعراج، وعُروج عيسىٰ حَيّاً إلىٰ السّماء، ورَفْع ادريس وإلياس، علىٰ ما ورَدتْ به الأخبار، وقال تعالىٰ: **﴿قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾**[5].

وأمّا القُوىٰ الرُّحانيّة العقليّة فلابُدّ أن تكون في غاية الكَمال، ونِهاية الصّفاء.

اعلَم أنّ تمام الكلام في هذا الباب أنّ النَفس القُدسيّة النّبويّة مُخالِفة بماهيّتها لسائر النُّفُوس، ومِن لوازِم تِلْك النّفْس الكمال في الذّكاء والفِطْنة والحرية، والاستِعلاء والتّرفُّع عن الجِسمانيّات

---

١. في المصدر: خفيف الفلك. ٢. النمل: ٢٧/١٨.
٣. السَّمندَل: طائر بالهند لا يحترق بالنار فيما زعموا، ونسيج من ريش بعض الطيور لايحترق.
٤. الأعلى: ٨٧/٦. ٥. النمل: ٢٧/٤٠.

والشهوات، فإذا كانت الرُّوح في غاية الصَّفاء والشَّرف، وكان البدَن في غاية النَّقاء والطَّهارة، كانت هذه القُوىٰ المُحرَكة والمُدرِكة في غاية الكمال؛ لأنّها جارية مَجرىٰ الأنوار الفائِضة مِن جَوْهر الرُّوح، الواصلة إلىٰ البَدن، ومتىٰ كان الفاعل والقابِل في غاية الكمال، كانت الآثار في غاية القُوَة والشَّرف والصَفاء.

ثمَ أنّ الله تعالىٰ بعدما اصطفىٰ آدم بالقُوّة الكامِلة، وضَع كمال القُوّة الرُّوحانيّة في شُعبة معيّنة مِن أولاد آدم عليه السلام هُم شِيث وأولاده إلىٰ إدْريس، ثمَ إلىٰ نُوح، ثمَ إلىٰ إبراهيم، ثمّ حصَل مِن إبراهيم شُعبتان: إسماعيل وإسحاق، فجعل إسماعيل مَبْدأً لظُهور الرُّوح القُدسيّة لمحمّد صلى الله عليه وآله، وجعل إسحاق مَبْدأً لشُعبتَين: يعقوب وعيص[1]، فوضَع النّبوّة في نَسْل يعقُوب، ووضع المُلْك في نَسْل عيص[2]، واستمرّ ذلك إلىٰ زمان محمّد صلى الله عليه وآله، فلمّا ظهر محمّد صلى الله عليه وآله نُقِل نُور النّبوّة ونُور المُلْك إلىٰ محمّد صلى الله عليه وآله، وبقيا ـ أعني الدِّين والمُلْك ـ لأتباعه إلىٰ يوم القيامة، ومَن تأمّل في هذا الباب وصلَ إلىٰ أسرار عجيبة، انتهى[3].

وفيه مواضِع للنَّظر والتَخطِئة، والعَجَب أنّه التزَم بانتِقال نُور النّبوّة والمُلْك في نَسْل المصطَفَين إلىٰ محمّد صلى الله عليه وآله، ولم يلتزم به في ذُرّيّة محمّد صلى الله عليه وآله بَل جعله لأتباعه.

إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّراً فَتَقَبَّلْ مِنِّى إِنَّكَ أَنْتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ* فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَٱللهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنْثَىٰ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّى أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَانِ ٱلرَّجِيمِ* فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتاً حَسَناً وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقاً قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ ٱللهِ إِنَّ ٱللهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ [٣٥ـ٣٧]

ثمَ ذكَر سُبحانه [و] تعالىٰ قضيّة ولادة مَرْيم وعيسىٰ ـ استِشهاداً بها علىٰ اصطِفائه آل عِمْران، وردّاً علىٰ النَّصارىٰ القائلِين بألوهيّة عيسىٰ، أو أنّه ثالث ثلاثة، أو أنّه ابن الله ـ بقوله: ﴿إِذْ قَالَتِ﴾ قيل: الظَرْف مُتعلّق بـ(السميع العليم) والمعنىٰ: والله سميعٌ للدُّعاء، عليمٌ بالضَّراعة، حين دعَتْ وتضرَّعَتْ

---

١ و٢. في المصدر: عيصو. ٣. تفسير الرازي ٨: ٢١.

حنَة بِنْت فاقوذ ﴿ٱمْرَأَتُ عِمْرَانَ﴾ ابن ماثان، أمّ مريم.

في قضية ولادة مريم وعيسىٰ

عن عِكْرِمة: أنّها كانت عاقراً لا تلِد، وكانت تغبط النّساء بالأولاد.[١]

وعن محمّدبن إسحاق: أنّها ماكان يحصُل لها ولد حتّىٰ شاخت، وكانت يوماً في ظِلّ شجرة فرأت طائراً يُطعِم فَرْخاً له، فتحرّكت نفسُها للولد، فدعتْ ربّها أن يهَب لها ولداً، فحمَلت بمريم، وهلَك عِمْران، فلمّا عرفت حَمْلها جعلَتْه لله بقولها: ﴿رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى﴾ مِنَ الوَلَد ﴿مُحَرَّراً﴾ وعاهدتُك أن أجعله خادِماً للمَسْجِد، أو لمَن يدرُس الكِتاب، أو مُخلَصاً للعِبادة، أو عتيقاً مِن أمر الدُّنيا لطاعةِ الله.

قيل: كان الأمر في دِين بني إسرائيل أنّ الوَلَد إذا صار بحيثُ يُمكِن استِخدامه، كان يجب عليه خِدْمة الأبوين، فكانوا بالنَّذر يترُكون ذلِك النَّوع مِنَ الانتِفاع، ويجعلونه مُحرّراً لخِدْمة المَسجِد، وطاعة الله.[٢]

وقيل: كان المُحرَّر يُجعَل في الكنيسة، يقوم بخِدمتها حتّىٰ يبلُغ الحُلْم، ثمّ يُخيَّر بَيْن الذَّهاب والمَقام، فإن أبىٰ المقام وأراد أن يذهب ذهب، وإن اخْتار المَقام فليس له بعد ذلك خِيار. ولَمْ يكُن نبيّ إلّا ومِن نَسْله مُحرَّر في بيت المَقْدِس، ولَم يكُن التَّحرير جائزاً إلّا في الغُلْمان.[٣]

قيل: إنّ تحرِير حَنّة كان بإلهام الله[٤] ثمّ أنّها لإظهار أنّ هذا النَّذر كان لطَلَب مَرضاة الله وتقرُّباً إليه، قالَتْ: ﴿فَتَقَبَّلْ﴾ هذا التَّحرير، وتلقَّه ﴿مِنِّىٓ﴾ بالرِّضا ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لدُعائِي ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بخُلُوص نِيَّتي وحقيقة ضَراعتي، وفي تخصِيص الوَصْفين به تعالىٰ إظهارٌ لقُوّة يقِينها، وإشعارٌ باختِصاص دُعائها به تعالىٰ، وانقِطاع رَجائِها مِن غيره.

ثمّ أنّه كان في ظنّها أنّ النَّسمة التي في بَطْنها غُلام ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا﴾ ورأتْ أنّها أُنثىٰ، ولَم تكُن الجارِية صالِحة للتَّحرير؛ لخِدمة المَسجِد، ومُلازمته، لِمَا يُصِيبها مِنَ الحَيْض والأذىٰ ﴿قَالَتْ﴾ تحزُّناً وتحسُّراً علىٰ خيبة رجائِها ﴿رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ﴾ حال كَوْنها ﴿أُنثَىٰ﴾.

ثمّ لمّا كانت جاهِلة بقَدْرها وشأنها، قال سُبحانه تعظيماً لها وإظهاراً لجلالتها: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ﴾ مِن غيره ﴿بِمَا وَضَعَتْ﴾ حَنّة، وبما علِق بها مِن عظائِم الأُمور.

وقُرِئ (وَضَعْتِ) علىٰ الخِطاب، والمعنىٰ أنّك لا تعلَمين قَدْر هذه المَوهُوبة، ومالها مِن عُلُوّ الشّأن

---

١. تفسير الرازي ٨: ٢٥. ٢. تفسير الرازي ٨: ٢٥. ٣. تفسير الرازي ٨: ٢٥. ٤. تفسير الرازي ٨: ٢٥.

وسُمُوّ المَقام. وفي قراءة (وَضَعْتُ) علىٰ المُتكلّم، علىٰ أنّه مِن كلامها، تَسلية لنفسِها، وهُو مَرويٌّ عن أمير المُؤمنين عليه السلام[١].

ثمّ أنّه تعالىٰ زاد في تبيين عَظَمة مَوضِعها ورِفعه مَنزِلتها ومقامها بقوله: ﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ﴾ الذي كانت تطلُبه، وتتمنّىٰ أنّه يكون كواحِد مِن سَدَنة المَسجِد ﴿كَالأُنثَىٰ﴾ التي وهبتها لها، في الفَضيلة والشّرف والكَرامة عِنْدي.

عن (الكافي) و(القمي): عن الصادق عليه السلام قال: «إنّ الله أوحىٰ إلىٰ عِمْران أنّي واهِبٌ لك ذكراً سَوِيّاً مُباركاً يُبرِئ الأكْمَه والأبرَص، ويُحيِي المَوتىٰ بإذني، وجاعله رسُولاً إلىٰ بني إسرائيل، فحدّث عِمْران امرأته حَنّة بذلك ـ وهِي أُمّ مَرْيم ـ فلمّا حمَلت بها كان حَمْلها عندَ نفسها غُلاماً، فلمّا وضعَتْها قالت: [رَبِّ] إنّي وَضَعْتُها أُنثىٰ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنثَىٰ، [أي] لا تكون البِنْت رسُولاً، يقول الله تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾ فلمّا وهَب لمَرْيم عيسىٰ، كان هُو الذي بَشّر به عِمْران ووعَدَه إيّاه»[٢].

وعنه عليه السلام: «أنّ المُحرَّر يكون في الكنيسة لا يخرُج منها، فلمّا وضعَتْها [أنثىٰ] قالت: رَبِّ إنّي وضعتُها أُنثىٰ[٣] وليسَ الذَّكَر كالأُنثىٰ، إنّ الأُنثىٰ تحِيض، فتخرُج مِنَ المَسجِد»[٤].

وفي رِواية أُخرىٰ عنه عليه السلام: «وليس الذَّكَر كالأُنثىٰ في الخِدْمة»[٥].

ومُقتضىٰ هذه الرِّوايات أنّ الجُمْلة المُعترضة في الآية قوله: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾ فقط، وأنّ قوله: ﴿لَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنثَىٰ﴾ مِن كلام حَنّة، وهُو المَعطوف عليه لقوله: ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾.

قيل: إنّ مَريم بالعِبْرانيّة بمعنىٰ: العابِدة أو خادِمة الرَّبّ، وإنّ إظهار تَسْلِيتها بهذا الاسم لإظهار بقائِها علىٰ نيّة وَقْفها لعِبادة رَبّها؛ غير راجِعة عنها، فكأنّها قالت: إنّ هذه الأُنثىٰ، وإنْ لَمْ تكُن خَليقة لوَقْفها لخِدمة المَسجِد وسِدَانة بَيت المَقْدِس، فلتكُن مِنَ العَابِدات فيه.

وفي تصدِّيها للتّسمِية إشعارٌ بمَوت عِمْران قبلَ وِلادة مَرْيم؛ لأنّ مُقتضىٰ العَادة أنّ الأب يتولّىٰ تَسمِية الوَلَد إذا كان حَيّاً[٦].

ثمّ لمّا كانت حَنّة عالِمة بأنّ الشّيطان يطمَع في إغواء كُلّ مَوْلُود خُصوصاً النّساء، قالت: ﴿وَإِنِّي

١. جوامع الجامع: ٥٧. ٢. تفسير القمي ١: ١٠١، الكافي ١: ١/٤٤٩، تفسير الصافي ١: ٣٠٧.
٣. زاد في العياشي: والله أعلم بما وضعت. ٤. تفسير العياشي ١: ٦٧٧/٣٠٢، تفسير الصافي ١: ٣٠٧.
٥. تفسير العياشي ١: ٦٧٨/٣٠٢، تفسير الصافي ١: ٣٠٧. ٦. تفسير روح البيان ٢: ٢٧.

﴿أُعِيذُهَا بِكَ﴾ وأُجيرها بلُطفك وأُلجنها بحِفْظك، **﴿وَ﴾** كذا **﴿ذُرِّيَّتَهَا﴾** ونَسْلها **﴿مِنَ﴾** كَيْد **﴿ٱلشَّيْطَانِ ٱلرَّجِيمِ﴾** المَطرُود مِن كُلّ خَير.

عن النبيّ ﷺ: «ما مِنْ مَولُود يُولَد إلّا والشَّيطان يمَسّه حينَ يُولَد، فيستهِلّ صارِخاً[1]، إلّا مَريم وابْنها».[2]

قيل: لمّا قالت حَنّة هذه الكَلِمات، وتضرّعت إلىٰ الله في قَبُول مَريم لعِبادته، وحِفْظها مِن إغواء الشَّيطان، لفَتْها في خِرْقة، وحمَلتها إلىٰ المَسجد، ووضَعتْها عندَ الأحبار، أبناء هارون، وهُم في بيت المَقْدِس كالحَجَبة في مَسجد الحرام، وقالت: خُذُوا هذه النَّذيرة، فتنافسوا فيها؛ لأنّها كانت بِنت إمامهم، وكان بنو ماثان رؤوس بني إسرائيل وأحبارهم ومُلوكهم، فقال لهم زكَريّا: أنا أحَقُّ بها، عندي خالَتها، فقالوا: لا حتّىٰ نُقرِع عليها، فانطَلقوا ـ وكانوا سبعاً وعشرين ـ إلىٰ نَهرٍ فألقَوا فيه أقلامهم ثلاث مرّات في النَّهر. وقيل: نَهر الأردُنّ. ففي كُلّ مرّة ارتفع قلَم زكريّا فوق الماء ورسَبت أقلامهم، فسلّموها إلىٰ زكريّا.

قيل: هُو معنىٰ قوله: **﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا﴾** ومَلِيكها، ومُكمِّل نفسها بكمالاتٍ لائقة بها **﴿بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾** فكأنّه أخذَها ربُّها مِن أمّها وسلّمها لزكريّا.[3]

قيل: إنّ الحُكْم في تِلك الشَّريعة أنه لَم يكُن التَّحرير جائزاً، إلّا في غُلامٍ عاقلٍ قادرٍ علىٰ خِدْمة المَسجد، ومِنْ حُسْن القَبُول أنّ الله بعدَ تضرُّع حَنّة، قَبِلَ تَحرير بِنتها حالَ صِغَرها، وعدَم قُدْرتها علىٰ خِدْمة المَسجد[4] وفي لَفْظ التَقبُّل إشعارٌ بشِدّة الاعتِناء بقَبُولها.

﴿وَأَنبَتَهَا﴾ رَبُّها **﴿نَبَاتاً حَسَناً﴾** وربّاها تَربيةً صالِحة كامِلة، وهيّأ لها جميع ما يُصلِحها.

قيل: إنّها تكلّمت في صِباها كما تكلّم المَسيح، ولَم تلتَقِم ثَدْياً قطُّ، وكانت تنمو في اليوم مِثْل ما ينمُو المَولود في عام **﴿وَكَفَّلَهَا﴾** الله **﴿زَكَرِيَّا﴾** وجعله ضامِناً لمصالِحها، وقائِماً بتَدبير أُمورها.

وفي عِدّة رِوايات مِن طُرُق أصحابنا أنّه ﷺ كان زَوْج أُختها، لا زَوْج خالتها.

ورُوي أنّها لمّا صارَتْ شابّة، بنىٰ زكريّا لها غُرفَة، وفي رِوايةٍ: مِحراباً في المَسجد، والظّاهِر أنّ المِحْراب والغُرفة واحد، ولا يُصعَد إليها إلّا بسُلّم، ولا يدخُل عليها غيرُه، وإذا خرَج أغلق عليها سَبعة

---

١. زاد في تفسير الرازي: من مسّ الشّيطان. ٢. تفسير الرازي ٨: ٢٨. ٣. تفسير الرازي ٨: ٢٨.
٤. تفسير الرازي ٨: ٢٨.

أبواب.[١]

ومعَ ذلك ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقاً﴾ رُوي أنّه كان يأتيها رِزقها مِنَ الجَنّة، وأنّه كان يجد عندَها فاكِهة الشِّتاء في الصَّيْف، وفاكِهة الصَّيف في الشِّتاء[٢]، فتعجّب زكريّا و﴿قَالَ﴾ لها: ﴿يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَذَا﴾ الرِّزْق، ومِنْ أين جاءك، ومَنْ أتاكِ به، والأبواب مُغلقة عليك؟ ﴿قَالَتْ﴾ مَريم في جوابه: ﴿هُوَ﴾ نازِلٌ عَلَيَّ ﴿مِنْ عِنْدِ ٱللَّهِ﴾ فلا تعجَبْ ولا تستبعِدْ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ بفَضْله وجُوده ﴿يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ﴾ أنْ يرزُقَه ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ وتقدِيرٍ لكَثْرته، أو بغيرِ استِحقاق، قيل: إنّ الذَّيْل[٣] مِن كلامه عزّ وجلّ.

فـي نـزول مـائدة الجنة لفـاطمة عليها السلام كما نزلت لمريم

ثمّ أنّه رَوىٰ أبو السُّعود والبَيْضاوي في تفسيرهما أنّ فاطمة الزَهراء عليها السلام أهدت إلىٰ رسُول الله صلى الله عليه وآله رغيفين وبَضْعة لَحم، فرجَع بها إليها، فقال: «هَلُمّي يا بُنيّة» فكشفَت عن الطَّبَق، فإذا هو مَملوء خُبْزاً ولَحْماً، وقال لها: «أنّىٰ لك هذا؟» قالت: ﴿هُوَ مِن عِنْدِ اللهِ إنّ اللهَ يرزُق مَنْ يَشاءُ بغيرِ حِسابٍ﴾ فقال صلى الله عليه وآله: «الحَمْد لله الذي جعلَكِ شَبيهةً بسيّدة نساء بني إسرائيل»، ثمّ جمَع علياً والحَسَن والحُسين عليهم السلام وجميع أهل بيته، فأكلوا وشبِعوا، وبقي الطَّعام كما هُو، فأوسعت علىٰ جيرانها[٤].

وعن العيّاشي: عن الباقر عليه السلام، قال: «إنّ فاطمة عليها السلام ضمِنت لعليّ عليه السلام عمَل البيت والعَجْن والخَبْز وقَمّ البيت[٥]، وضمِن لها عليّ عليه السلام ما كان خلَف الباب [من] نَقْل الحَطَب، وأن يجيء بالطَّعام. فقال لها يوماً: يا فاطمة، هَل عندَك شيءٌ؟ قالت: لا، والذي عَظّم حَقّك، ما كان عندنا مُنذُ ثلاثة أيّام شيء نُقريك[٦] به، قال: أفلا أخبَرْتِني؟ قالت: كان رسُول الله صلى الله عليه وآله نهاني أن أسألك شيئاً، فقال: لا تسألي ابن عمّك شيئاً، إن جاءك بشيءٍ عفواً وإلّا فلا تسأليه.

قال: فخرج عليّ عليه السلام فلقي رجُلاً فاستَقرض مِنه دِيناراً، ثمّ أقبَل به وقد أمسى، فلقي المِقْداد بن الأسود فقال للمِقداد: ما أخرجك في هذه السّاعة؟ قال: الجُوع، والذي عظّم حقّك يا أمير المُؤمنين، قال [عليه السلام]: فهُو أخرجني، وقد استقرضتُ ديناراً، وسأُوثرك به؛ فدفعه إليه، فأقبل فوجد رسُول

---

١. تفسير الرازي ٨: ٣٠، تفسير روح البيان ٢: ٢٩.
٢. تفسير روح البيان ٢: ٢٩.
٣. الذيل هو قوله تعالىٰ: ﴿إنّ اللهَ يرزُق مَنْ يَشاءُ بغيرِ حِسابٍ﴾.
٤. تفسير أبي السعود ٢: ٣٠، تفسير البيضاوي ١: ١٥٨.
٥. أي كنسه.
٦. مِن القِرَىٰ، وهو ما يُقدّم إلىٰ الضيف من طعام وشراب.

الله ﷺ جالساً وفاطمة عليها السلام تُصلّي، وبَيْنهما شيء مُغطّىٰ، فلمّا فرَغت اجترَت[1] ذلك [الشيء]، فإذا جَفْنةٌ مِن خُبزٍ ولَحْمٍ، قال: يا فاطمة، أنّىٰ لكِ هذا؟ قالت: ﴿هُو مِن عِندِ الله إنّ الله يرزُق مَن يَشاءُ بغيرِ حِسابٍ﴾ فقال رسُول الله ﷺ: ألا أحدِّثك بمِثْلك ومِثْلها؟ قال: بَلىٰ، قال: مِثْل زكريّا إذ دخَل علىٰ مريم المِحراب فوجَد عندها رِزقاً ﴿قالَ يا مَريمُ أنّىٰ لَكِ هذَا قالَتْ هُوَ مِن عِندِ الله إنّ الله يَرزُقُ مَن يَشاءُ بِغَيرِ حِسَابٍ﴾. فأكلوا مِنها شَهْراً، وهِيَ الجَفْنة التي يأكُل منها القائم، وهِيَ عندنا»[2].

هُنالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَاءِ * فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقاً بِكَلِمَةٍ مِنَ ٱللهِ وَسَيِّداً وَحَصُوراً وَنَبِيّاً مِنَ ٱلصَّالِحِينَ [٣٨ و ٣٩]

ثمّ لمّا رأىٰ زكريّا كرامة مريم عندَ الله، ومَنزِلتها لَدَيْه، تمنّىٰ أن يكون له مِن أيشاع زوجته وَلَد مِثْل ولد حَنّة في الجَلالة والكَرامة، وهُوَ عندَ مَريم ﴿هُنالِكَ﴾ وفي مكانه ذلك ﴿دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ﴾ وكان دُعاؤه أن ﴿قَالَ رَبِّ هَبْ لِى﴾ وأعطِني ﴿مِن لَدُنْكَ﴾ ومِن مَحْض قُدْرتك ﴿ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ ووَلَداً صالِحاً مُبارَكاً تقِيّاً مَرضِيّاً، تُستَطاب أخلاقُه وأفعالهُ، كما وهَبت لحَنّة ﴿إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَاءِ﴾ ومُجيبه ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّى﴾ لرَبّه ﴿فِى ٱلْمِحْرَابِ﴾ الذي كان مكان مَريم في المسجد: ﴿أَنَّ ٱللهَ يُبَشِّرُكَ﴾ يا زكريّابوَلَدٍ ذَكَر يكون مُسَمّىً ﴿بِيَحْيَىٰ﴾.

قيل: إنّه سُمّي به؛ لأنّه يَحيا به رَحِمُ أمّه، حيثُ كانت عَجوزاً عاقِراً، أو تحيا [به] القلوب ويحيا به أهلُ الجَنّة والنّار في الآخرة؛ لإنّه هُو الذي يذبَح المَوْت حينَ يُجاء به بصُورة الكَبْش الأملح في المَحْشر.

في أن يحيىٰ أول مَن صدّق بنبوة عيسىٰ عليه السلام

ومِن كَمالات ذلك الوَلَد أنّه يكون ﴿مُصَدِّقاً﴾ برِسالة عِيسىٰ المُلقّب ﴿بِكَلِمَةٍ مِنَ ٱللهِ﴾.

رُوي أنّه كان أوّل تَصْديق يحيىٰ بعِيسىٰ أنّه كان لا يصعَد إلىٰ مَريم في صَوْمَعتها غير زكريّا، وهُو يصعَد إليها بسُلّم، فإذا نزَل أقفَل عليها، ثمّ فتَح لها مِن فَوق الباب كُوّةً صغيرةً يدخُل عليها مِنها الرّيح، فلمّا وجَد مريم وقد حبِلتْ، ساءه ذلك وقال في نفسه: ما كان يصعَد إلىٰ هذه أحَدٌ غيري

---

١. في تفسير الصافي: اختبرت، واجترّته: أي جذبته نحوها.

٢. تفسير العياشي ١: ٦٨١/٣٠٣، تفسير الصافي ١: ٣٠٨.

وقد حبِلت! والآن افتضِح في بني إسرائيل لا يشكّون أنّي أحبلتُها، فجاء إلىٰ امرأته وقال لها ذلك، فقالت: يا زكريّا، لا تخَف، فإنّ الله لا يصنَع بك إلّا خيراً، فأتني مَريم حتّىٰ انظُر إليها وأسألها عن حالها.

فجاء بها زكريّا إلىٰ امرأته، فكفىٰ الله مَريم مُؤنة الجواب عن السّؤال. ولمّا دخلَتْ إلىٰ اُختها، وهِي الكُبرىٰ ومريم الصُّغرىٰ، لَمْ تقُم إليها امرأة زكريّا فأذِن الله تعالىٰ ليحيىٰ، وهُو في بَطْن اُمّه، فنخس[1] بيده في بَطنها وأزعجها، وناداها: يا أُمّتِ، تدخُل إليك سيِّدة نِساء العالَمين، مُشتمِلة علىٰ سيّد رِجال العالَمين فلا تقومي [إليها]! فانزَعجتْ وقامَتْ إليها، وسجَد يحيىٰ وهُو في بَطن اُمّه لعيسىٰ بن مريم، فذلك كان أوّل تصدِيقه له، فلذلك قال رسُول الله ﷺ في الحسن والحسين: «إنّهما سيّدا شَباب أهل الجَنّة، إلّا ما كان مِن ابنَي الخالة عيسىٰ ويحيىٰ»[2].

﴿وَسَيِّداً﴾ فائِقاً علىٰ قومه، وعلى سائر النّاس في أنّه لَم يهُمّ بمعصية.

رُوي عن النبيّ ﷺ: «ما مِن نبيّ إلّا وقد عصى أو هَمّ بمَعصِية، غير يحيىٰ فإنّه لم يَعْصِ، ولم يهُمّ»[3].

والمُراد بالمعصِية، علىٰ تقدير صِحّة الرِّواية، هُو تَرْك الأولىٰ.

وعن تفسير الإمام [العسكري عليه السلام]: في تفسير (السيِّد) قال: «رئيساً في طاعة الله علىٰ أهل طاعته»[4].

وعن ابن عبّاس: السيِّد: الحَليم. وقيل: الفقيه: العالم، وقيل: المُتقدِّم المَرجُوع إليه[5].

﴿وَحَصُوراً﴾ مُبالِغاً في حَبْس نفسه عن مُشتهيَاتها مع القُدْرة عليها.

رُوي أنّه مَرّ في صِباه بصِبيان فَدعَوه إلىٰ اللّعِب، فقال: ما للّعِب خُلِقت[6].

وعن الصادق عليه السلام في تفسير (الحَصُور): «هُو الذي لا يأتي النِّساء»[7].

﴿وَنَبِيّاً﴾ صالِحاً مَعدوداً ﴿مِنَ﴾ الأنبياء ﴿ٱلصَّالِحِينَ﴾ أو ناشِئاً مِنهم؛ لأنّه كان مِن أصلاب الأنبياء والصُّلَحاء.

---

١. نَخَسَ الدابة: طعن مؤخرها بعود أو نحوه. ٢. التفسير المنسوب إلىٰ الإمام العسكري عليه السلام: ٦٦٠.
٣. تفسير الرازي ٨: ٣٧. ٤. التفسير المنسوب إلىٰ الإمام العسكري عليه السلام: ٣٧٤/٦٦٠.
٥. تفسير الرازي ٨: ٣٦. ٦. تفسير أبي السعود ٢: ٣٢، تفسير الصافي ١: ٣١٠.
٧. مجمع البيان ٢: ٧٤٢، تفسير الصافي ١: ٣١٠.

قيل: إنّ تَوْصيفه بكَونه مِنَ الصّالِحين، مع أنّ جميع الأنبياء صُلَحاء، مُشعِرٌ بأنّ صَلاحه كان أتَمّ مِن صَلاح سائر الأنبياء، فيكون المعنىٰ: أنّه مِنَ الصّالِحين مِن بَيْن سائر الأنبياء. وفي الصّلاح ينتظِم الخَير كُلّه.

وعن تفسير الإمام عليه السلام: «ما ألحق الله صبياناً بِرجالٍ كامِلي العُقُول إلّا هؤلاء الأربعة: عيسى بن مريم، ويحيىٰ بن زكريّا، والحَسن، والحُسين عليهم السلام»[١].

قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِىَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِى عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ * قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّى ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزاً وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيراً وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَارِ [٤٠ و ٤١]

ثمّ لمّا كان قول جَبْرئيل عن الله، وحِكايةً لقوله، خاطب زكريّا رَبّه و﴿قَالَ﴾ اسْتِبعاداً عادِيّاً، أو تعجُّباً، أو استِفهاماً وسُروراً بالوَلَد: ﴿رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ﴾ وكيف يحصُل ﴿لِى﴾ بحَسَب العَادة ﴿غُلَامٌ﴾ ووَلد ذَكَر ﴿وَ﴾الحال أنّه ﴿قَدْ بَلَغَنِىَ ٱلْكِبَرُ﴾ في السِّنّ، وأدركني الهَرَم؟

قيل: كان له سِتُّون سنة. وقيل: خَمْس وستُّون. وقيل: سبعُون. وقيل: خَمْس وسبعُون. وقيل: خَمْس وثمانون. وقيل: اثنتان وتِسعُون. وقيل: تِسْع وتِسعُون. وقيل: مائة وعشرون.

وفيه إشعارٌ بأنّ كِبَر السِّنّ، مِن حيثُ إنّه طَلَائع المَوت، طالِبٌ للإنسان.

ثمّ بعدَ ذِكْر قُصُور نفسه، ذَكَر قُصُور زَوجته بقوله: ﴿وَٱمْرَأَتِى عَاقِرٌ﴾ لَم تَلِد أبداً، والكِبَر والعُقْم مُنافِيان للوِلادة غايةَ المُنافاة.

قيل: كان لزوجته مع عُقْمها، ثمان وتسعون سنة[٢].

﴿قَالَ﴾ الله تعالىٰ، أو المَلَك: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ الفِعْل العَجيب مِن خَلْق الوَلَد مِن شَيْخٍ فَانٍ وعَجُوز عاقِر ﴿ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ أن يفعَله مِن تَعاجِيب الأفاعيل الخارِقة للعَادة.

ثمّ نُقِل أنّه جاء الشّيطان زكريّا عندَ سَمَاعة البِشارة، فقال: إنّ هذا الصَّوْت مِنَ الشّيطان، وقد سَخِر مِنْك، فلِذا اشتَبه الأمرُ علىٰ زكريا[٣] و﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّى ءَايَةً﴾ عَلامة دالّة علىٰ أنّ تِلْك البِشارة مِنَ

---

١. التفسير المنسوب إلىٰ الإمام العسكري عليه السلام: ٦٥٩/٣٧٤، تفسير الصافي ١: ٣١٠.

٢. تفسير الرازي ٨: ٣٩. ٣. تفسير الرازي ٨: ٣٩.

الوَحْي وكلام المَلائكة، لا مِن إلقاء الشّيطان.

وقيل: إنّ المُراد: اجْعَلْ لِي عَلامة تدُلُّ علىٰ تحقُّق مسؤولي، ووُقُوع الحَبَل والعُلُوق؛ لأنّه أمرٌ خَفِيّ، حتّىٰ أتلقّىٰ تِلك النِّعْمة الجَليلة بالشُّكر مِن حين حُصُولها[١].

وقيل: إنّ سُؤال الآية كان بعدَ البِشارة بثلاثة أشْهُر. وقيل: بثلاث سنين. وهذا الاختِلاف مَبْنِيٌّ علىٰ الاختِلاف في التّفاوُت بَيْن سِنّ يحيىٰ وعيسىٰ أنّه سِتّة أشهُر أو ثلاث سِنين.

ثمّ عَقِيب سُؤال الآية بلا فَصْل ﴿قَالَ﴾ الله تعالىٰ، أو المَلَك: ﴿آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ﴾ ولا تقدِر علىٰ النُّطْق بغير الذِّكْر والتّسبيح والشُّكر ﴿ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾ مُتوالِياتٍ بلَياليها ﴿إِلَّا رَمْزاً﴾ وإشارةً بيَدٍ، أو رأس، أو غيرهما.

قيل: إنّما جُعِل عَجْزه عن الكلام الدُّنيوي آيةً ليخْلِص أوقاته بالذِّكْر والشُّكر قضاءً لحَقّ هذه النِّعْمة العظيمة[٢].

عن العيّاشي: عن الصادق عليه السلام: «أنّ زكريّا لمّا دعا ربّه أن يهَب له ولداً[٣] ونادَتْه الملائكة بما نادَته به، أحَبّ أن يعلَم أنّ ذلك الصَّوت مِن الله، فأوحىٰ إليه أنّ آية ذلك أنْ يُمسَك لِسانه عن الكلام ثلاثة أيّام، فلمّا أمسك لِسانه ولَم يتكلّم، عِلم أنّه لا يقدِر علىٰ ذلك إلّا الله»[٤].

عن العيّاشي: عن أحدِهما عليهما السلام: «أنّه كان يُوْمئ برأسه»[٥].

وقيل: إنّ المُراد مِنَ التّكلُّم: كلُّ ما أدّىٰ المُراد ولو كان غيرَ اللّفْظ، وعلىٰ هذا يكون الاستِثناء مُتّصِلاً.

وقيل: إنّه عليه السلام عُوقِب بذلك مِن حَيث سُؤال الآية بعدَ بِشارة المَلائكة، فأخذ الله لِسانه، وصَيّره بحيثُ لا يقدِر علىٰ الكلام[٦].

﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ﴾ في حَبْس لِسانك ذِكْراً ﴿كَثِيراً﴾ أداءً لشُكْر النِّعْمة ﴿وَسَبِّحْ﴾ رَبّك ﴿بِٱلْعَشِيِّ﴾ وهُو مِنَ الزّوال إلىٰ الغُرُوب ﴿وَٱلْإِبْكَارِ﴾ وهُو مِنْ طُلُوع الفَجْر إلىٰ الضُّحىٰ. وقيل: إنّ المُراد بالتّسبيح هُو الصَّلاة[٧].

---

١. تفسير روح البيان ٢: ٣١.
٢. تفسير روح البيان ٢: ٣١.
٣. في المصدر: ذكراً.
٤. تفسير العياشي ١: ٦٨٣/٣٠٥، تفسير الصافي ١: ٣١١.
٥. تفسير العياشي ١: ٦٨٤/٣٠٥، تفسير الصافي ١: ٣١١.
٦. تفسير الرازي ٨: ٤١.
٧. تفسير الرازي ٨: ٤٢، تفسير أبي السعود ٢: ٣٤.

وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ ٱللهَ ٱصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ ٱلْعَالَمِينَ [٤٢]

ثمّ عاد سُبحانه إلىٰ قِصّة اصطِفاء مريم، عطفاً علىٰ قوله: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَةُ عِمْرَانَ﴾[١] بقوله: ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَائِكَةُ﴾ وفي العُدول عن (نادَت) إلىٰ (قالَتْ) إشعارٌ بأنّ مَريم رأتْ جَبْرَئيل، فخاطَبها وشافَهها بقوله: ﴿يَا مَرْيَمُ إِنَّ ٱللهَ ٱصْطَفَاكِ﴾ أوّلاً بأنْ تقبلكِ مِن اُمّك لخِدمة المَسجد بقَبُولٍ حَسَن، وأنبَتَكِ نباتاً حَسَناً، وربّاكِ في حِجْر زكريّا، ورزَقكِ مِن فَواكِه الجَنّة، وأكرمكِ بكراماتٍ سَنيّة.

عن الباقر عليه السلام: «معنىٰ الآية: اصْطفاكِ مِن ذُرّيّة الأنبياء»[٢].

﴿وَطَهَّرَكِ﴾ مِن رِجْس الكُفْر، ودَنَس المعاصي، ورذائِل الأخلاق الرُّوحانيّة، وذمائِم الصِّفات النَّفسانيّة، والشَّهَوات الحَيوانيّة، ومَسيس الرِّجال، والأنجاس الجِسمانيّة مِنَ الحَيْض والنِّفاس وغيرهما مِنَ الأذىٰ.

وعن الباقر عليه السلام: «طهّركِ مِنَ السِّفاح»[٣].

﴿وَٱصْطَفَاكِ﴾ آخِراً وفضّلكِ ﴿عَلَىٰ نِسَاءِ ٱلْعَالَمِينَ﴾ بأنْ وهَب لكِ عيسىٰ مِن غيرِ أب - كما عن الباقر عليه السلام ما يقرُب منه[٤] - وشرّفكِ بصُحْبته وخِدمته إيّاك، وجعلكِ وابنَكِ آيةً للعالَمين.

في نقل كلام الفخر الرازي وردّه

قال الفَخْر الرّازي: رُوي أنّه صلى الله عليه وآله قال: «حَسْبُكَ مِن نِساء العالَمين أربعٌ: مَريم، وآسية امرأة فِرْعون، وخدِيجة، وفاطمة عليهنّ السلام».

ثمّ قال: فقيل: هذا الحديث دَلّ علىٰ أنّ هؤلاء الأربع أفضل مِن سائر النساء، وهذه الآية دلّتْ علىٰ أنّ مريم عليها السلام أفضل مِن الكُلّ، وقول مَن قال: المُراد أنّها مصطَفاة علىٰ عالَمَي زمانها، فهذا تَرْك للظّاهِر[٥].

أقول: بَل هُو عمَلٌ بنَصّ النبيّ صلى الله عليه وآله، في الرِّواية التي تكُون مِن المُسلَّمات بَين الفَرِيقَيْن، مِن قوله: «الحَمدُ للهِ الذي جعلَكِ شَبيهةً بسيِّدة [نساء] بني إسرائيل»[٦] فإنّه صرَيحٌ في أنّ سِيادتها مُختّصةٌ بِنساء بني إسرائيل. وقد دلّتْ الرِّوايات الكثيرة مِن طُرُق أصحابنا علىٰ أنّ فاطِمة عليها السلام أفضل مِنَ الكُلّ.

---

١. آل عمران: ٣/٣٥.　　٢. مجمع البيان ٢: ٧٤٦، تفسير الصافي ١: ٣١١.
٣. مجمع البيان ٢: ٧٤٦، تفسير الصافي ١: ٣١١.　　٤. نفس المصدر.　　٥. تفسير الرازي ٨: ٤٣.
٦. البداية والنهاية ٦: ١١٥، الدر المنثور ٢: ١٨٦.

في أنّ فاطمة كانت أفضل من مريم

في (العِلَل) عن الصادق عليه السلام: «سُمِّيتْ فاطمة مُحَدَّثة؛ لأنّ المَلائِكة كانتْ تهبِط مِنَ السّماء تُناديها كما تُنادي مريم بِنْت عِمْران، فتقول: يا فاطمة، إنّ الله اصْطفاكِ وطهّركِ واصْطفاكِ على نساء العالَمين، يا فاطمة اقْنُتي لرَبّك وأسْجُدي وارْكَعي معَ الرّاكِعين، فتُحدِّثهم ويُحدِّثونها، فقالتْ لهُم ذاتَ ليلةٍ: ألَيسَتْ المُفضّلة علىٰ نِساء العالَمين مَريم بنت عِمْران؟ فقالوا: إنّ مريم كانت سيِّدة نِساء عالَمها، وإنّ الله عزّ وجلّ جعلَكِ سيِّدة نِساء عالَمكِ وعالَمها، وسيِّدة نِساء الأوّلين والآخِرين»[١].

مُضافاً إلىٰ أنّ فضائِلها الخَاصّة بها ـ مِن كَوْن والِدها رسُول الله صلّى الله عليه وآله وخاتِم النّبِيِّين، وأنّها رُوحه التي بَيْن جَنْبَيْه، وأحبّ الخَلْق إليه، وأنّ والِدتها خديجة سيِّدة نِساء العالَمين، وتربِيتَها في حِجْرهما، وأن زَوجها علي بن أبي طالب، وهُو بنَصّ الكِتاب نَفْس الرّسُول، وبنَصّ النبيّ صلّى الله عليه وآله سيِّد العَرَب، ووَلَداها الحَسَن عليه السلام والحُسين عليه السلام سيِّدا شَباب أهل الجنّة، ومَعارِفها وعِلْمها مَعارِف أبيها مُقتبَسة ومأخوذةٌ مِنه، وشريعتها أكمل الشّرايع، وذُرِّيّتها أفضل الذّراري، وكَونها أعبد أهل زمانِها، وكانت مشيتها مشية أبيها، وكَوْنها مُطهَّرة بنَصّ آيةِ التَّطهِير ـ تدُلّ علىٰ أنّها أفضل، حيثُ إنّه لا تُقاس هذه الفضائِل بفضائِل مريم التي هِي بِنْت عِمْران وحَنّة، والمَرْبَاة في حِجْر زكريّا، الوالِدة لعيسىٰ المُنقِطع نَسْلها به، العامِلة بشريعة ولدِها وشريعة مَنْ قَبْلها.

مع أنّ فضيلة هذه الأمّة علىٰ سائر الأُمَم مُقتضِيةٌ لأن يكون نبيُّها أفضل مِن سائر الأنبياء، ووَصِيُّ نبيِّها أفضل مِن سائر الأوصِياء، وشَرْعُها أكمل مِن سائر الشّرائِع، ومَعارِفُها أتَمّ مِن مَعارِف سائر الأُمَم، وسيِّدة نِسائِها أفضل مِن سيدات نِساء سائر الأُمَم.

يَا مَرْيَمُ ٱقْنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِي وَٱرْكَعِي مَعَ ٱلرَّاكِعِينَ[٤٣]

ثمّ ناداها جبْرَئيل بعدَ تَذْكيرها بالنِّعَم، ترغيباً لها في الطّاعة: ﴿يَا مَرْيَمُ ٱقْنُتِي﴾ وقُومي إلىٰ العِبادة، أو أطِيلي القِيام فيها شُكراً ﴿لِرَبِّكِ﴾ الذي أنعَم عليكِ بالنِّعَم العِظام ﴿وَٱسْجُدِي﴾ وعفِّري خدّكِ خُضوعاً له. وإنّما قدّم الأمرَ بالسُّجود علىٰ الأمر بالرُّكُوع بقوله: ﴿وَٱرْكَعِي﴾ لكَوْن السُّجود غاية الخُضوع، حال كَونكِ ﴿مَعَ ٱلرَّاكِعِينَ﴾ وفي جَماعتهم، وقيل: إنّ المعنىٰ: ارْكَعِي كرُكُوعهم[٢]. وفيه

---

١. علل الشرائع: ١/١٤٦ ب١٤٦، تفسير الصافي ١: ٣١١.

٢ و٢. تفسير الرازي ٨: ٤٤.

إشعارٌ بكَمالها، حيثُ عدَّها في عِدَاد الرِّجال، حيثُ قال: (مَعَ الرَّاكِعِين) ولَم يقُلْ: (مَعَ الرَّاكعات).

وقيل: إنّ المُراد بالقُنُوت: إدامة العِبادة، وبالسُّجود: خُصُوص الصَّلاة، والتَّكنِّي عنها به، لكَونه أفضل أركانها، وبالرُّكوع: الخُشُوع والإخبات[1].

رُوي أنّها لمّا اُمِرتْ بذلِك قامَتْ في الصَّلاة حتّىٰ تورّمَتْ قَدَمَاها[2]، وكذلِك رُوي في حَقّ فاطِمة عليها السلام[3] كما رُوي في حَقِّها كُلّ فضيلةٍ كانت لمريم مِن نُزُول مائِدة الجنّة لها[4]، ومُحادثة الملائِكة[5]، والاجتِهاد في العِبادة، والزُّهْد في الدُّنيا، وغير ذلك.

ذٰلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ[٤٤]

﴿ذٰلِكَ﴾ المَذكور مِن قِصّة حَنّة وزكريّا، ومريم وعيسىٰ، يكون ﴿مِنْ أَنْبَاءِ ٱلْغَيْبِ﴾ لا طريق لأحَدٍ إلىٰ العِلْم به إلّا الوَحْي، ونحن ﴿نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ ونُنْزِله بوساطة جَبْرئيل ببَيان فيه الإعجاز.

ثمّ أنّه تعالىٰ ـ بعدَ وُضُوح انحِصار طريق العِلم بالقضايا الماضِية في قراءة الكُتُب والسَّماع مِنَ العالِم، أو المُشاهدة، أو الوَحْي، وبَداهة كَوْنه صلى الله عليه وآله اُمّيّاً لم يقرأ كِتاباً، ولَم يصحَب عالِماً ـ قرّر كَوْن عِلْمه صلى الله عليه وآله بهذه القضايا بالوَحْي بنَفي مُشاهدته بقوله: ﴿وَمَا كُنتَ﴾ حاضِراً ﴿لَدَيْهِمْ﴾ حتّىٰ تطّلِع علىٰ قَضاياهم بالمُشاهدة، وماكنتَ شاهِداً ﴿إِذْ يُلْقُونَ﴾ وحينَ يَنبِذون في الماء ﴿أَقلَامَهُمْ﴾ التي كانوا يكتُبون بها التَّوراة، ليُقرِعوا بها، وليعلَموا ﴿أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾ ويتشرّف بحَضانتها وخِدْمتها، قيل: اخْتاروا تِلك الأقلام للقُرْعة تبرُّكاً بها ﴿وَمَا كُنْتَ﴾ حاضِراً ﴿لَدَيهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ وحينَ يتنازَعون في شأنها تنافُساً في كُفالَتها، والتَعهُّد للقِيام بتدبِير اُمورها، وحِفْظ مَصالِحها.

ويُحتَمل أن يكون هذا الكلام مَسوقاً لبَيان إظهار نِهاية غرابته، ونِهاية اُعجوبته.

إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ ٱللهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ

---

٢. تفسير أبي السعود ٢: ٣٥، تفسير روح البيان ٢: ٣٣.

٣. المناقب/لابن شهر آشوب ٣: ٣٤١، مقتل الحسين/للخوارزمي ١: ٨٠، ربيع الأبرار/للزمخشري ٢: ١٠٤.

٤. الدر المنثور ٢: ١٨٦، البداية والنهاية ٦: ١١٥، أمالي الطوسي: ٦١٤ ـ ١٢٧١/٦١٥ و١٢٧٢.

٥. علل الشرائع ١: ٢١/١٨٢، دلائل الامامة: ٢٠/٨٠.

مَرْيَمَ وَجِيهاً فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ[٤٥]

ثمّ أنّه تعالىٰ بعدَ ذِكْر اصطِفاء مريم بالكَمالات النّفسانيّة والكَرامات الفائِقة، شرَع في بَيان قِصّة ولادة عيسىٰ بقوله: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَائِكَةُ﴾ وقد مَرّ أنّ المُراد خُصُوص جبرئيل ـ علىٰ ما قيل ـ: ﴿يَا مَرْيَمُ إِنَّ ٱللهَ يُبَشِّرُكِ﴾ ويُسرّ قَلْبكِ بالإخبار ﴿بِكَلِمَةٍ﴾ تامّةٍ كائنةٍ ﴿مِنْهُ﴾ ويُفرحكِ بولَدٍ يهَبه لكِ، بإرادته التّكوينيّة التي يُعبر عنها بكَلِمة (كُنْ) مِن غيرِ مَبادِئ عادِيّة ﴿ٱسْمُهُ﴾ عندَ الله ﴿ٱلْمَسِيحُ﴾ قيل: هُو مُعرَّب مَشيخا بالعِبْريّة، ومعناه: المُبارك[1].

والمُراد مِن لَفْظ الاسْم هُنا، ما يَحكىٰ عن ذاتٍ مُعيّنة، ولَو كان لَقَباً وأمّا عَلَمه فهُو ﴿عِيسَىٰ﴾ قيل: هُو مُعرّب إيشوع[2]، وكُنْيَته ﴿ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ وهُو يكون ﴿وَجِيهاً﴾ وشَريفاً ﴿فِى ٱلدُّنْيَا﴾ بمَنصِب النُّبوّة، ومُطاعية النّاس، ﴿وَ﴾ في ﴿ٱلْآخِرَةِ﴾ بالشّفاعة، وعُلوّ الدّرجة في الجنّة، ومَعدُوداً ﴿مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ عند الله، قيل: فيه إشارة إلىٰ رَفْعه إلىٰ السّماء[3].

وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلاً وَمِنَ ٱلصَّالِحِينَ[٤٦]

ثمّ بشّرها بكمال عِلْمه بقوله: ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ﴾ بكَلِمات الأنبياء الجَامِعة للحِكْمة والمَوْعِظة، حال كَوْنه طِفلاً كائِناً ﴿فِي المَهْدِ وَ﴾ كَوْنه ﴿كَهْلاً﴾ بالِغاً إلىٰ كَمال البَشَريّة، من غير تَفاوُت بيْن الحالَين، وهذا مِن أعظم مُعجزاته.

بَل نُقِل أنّه قالَتْ مريم: إذا خَلَوتُ أنا وعيسىٰ، حدّثني وحدّثته، فإذا شغَلني عنه إنسانٌ كان يُسبّح في بَطني وأنا أسمَع[4].

وفي ذِكْر أحواله المُختلِفة إشارةٌ إلىٰ أنّه بمَعْزِل مِن الألُوهيّة.

في نقل إنكار النصارىٰ تكلّم عيسىٰ في المهد وردّه

قيل: إنّ النّصارىٰ أنكرت تكلّمه في المَهْد[5]، ولو كانت هذه المُعجزة لتَواترَتْ بيْنهم، وكانوا أحَقّ بمعرِفتها مِن غيرهم، ولا يُمكِن مِنهم إخفاؤها مع إفراطهم في مَحبّته، حتّىٰ ذهَبوا إلىٰ ألُوهيّته.

---

١ و٢. تفسير روح البيان ٢: ٣٥.
٣. تفسير أبي السعود ٢: ٣٧.
٤. تفسير روح البيان ٢: ٣٥.
٥ و٦. تفسير الرازي ٨: ٥٢.

وفيه: أنّ القَدَر الثّابِت مِن تكلُّمه في المَهْد، ما كان مِنْه لبَراءة اُمّه مِنَ الفَحْشاء[١] بعدَ اعتِراض اليَهود عليها وإشارتها إليه، مِن قوله: ﴿إِنِّي عَبْدُاللهِ آتَانِي الكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيّاً﴾[٢] إلىٰ آخِر الآيات. وعلىٰ هذا يُمكِن كَوْن الحاضِرين عِنده قليلاً مِنَ اليَهود المُعانِدين، فأخفَوا هذه المُعجِزة عِناداً، أو خَوفاً مِن تكذِيب سائِر اليَهود.

ولَم يُؤمن به أحَدٌ إلّا بعدَ بُلُوغه في العُمْر ثلاثين سنة أو أكثر، وهؤلاء المُؤمنون لَم يطّلِعوا علىٰ كراماته السّابقة، وبقي الأمرُ مُكتوماً إلىٰ أن اُخبِر به محمّد ﷺ بالوَحْي مِنَ الله تعالىٰ، مع أنه نُقِل عن جَعْفر بن أبي طالب أنّه لمّا قرأ علىٰ النّجاشي سُورة مريم، قال النّجاشي: لا تفاوت بيْن واقِعة عيسىٰ وبيْن المَذكُور في هذا الكلام بذَرّة[٣].

وأمّا تكلُّمه في الكُهُولة، فقد قال جَمْعٌ: إنّه يكون بعدَ نُزُوله مِنَ السّماء في آخِر الزّمان؛ حيثُ إنّ سِنّ الكُهُولة أربعون سنة، وهو ﷺ [قد] رُفِع قَبْل بُلُوغه ذلِك السِّنّ[٤].

رُوي أنّه لمّا بلَغ عُمْرُه ثلاثين سنة أرسلَه الله إلىٰ بَني إسرائيل، فمكَث في رِسالته ثلاثين شهراً، وفي قول: ثلاث سنين وسِتّة أشهر، ثمّ رُفِع إلىٰ السّماء[٥]. ولذا قيل: إنّ الآية نَصٌّ في نُزُوله مِنَ السّماء[٦].

وقال جَمعٌ: إنّ الكَهْل في اللُّغة: ما اجْتمع قُوّتُه وكَمَل شَبابُه[٧]، وهذا الحال في الإنسان ببُلُوغ ثلاثين سنة، ثمّ يكون علىٰ حال الوَقْف لا يَزِيد ولا ينقُص إلىٰ أربعين، فمبدأ الكُهُولة ثلاثون، ومُنتهاها أربعون. وعلىٰ هذا، كان بَعْثه في الكُهُولة، وهذا القول هُو الأظهر والأوفَق بالآية.

ثمّ مدَحه سُبحانه بقوله: ﴿وَ﴾ هُو ﴿مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ قيل: في ذِكْر هذه الصِّفة بعدَ الحالات الثّلاث دَلالةٌ علىٰ أنّها أعلىٰ المَراتِب وأعظمها؛ حيثُ إنّ المَرْء لا يكون صالِحاً علىٰ الإطلاق، إلّا بكَوْنه في جمَيع أفعاله وتُرُوكه مُواظِباً علىٰ النَّهج الأصلَح الأكمل[٨]. ومِنَ الواضِح أنّ ذلِك يتناوَل جميعَ المَقامات العالِية الدِّينيّة والدُّنيويّة، وكمال أفعال القُلُوب والجَوارِح.

قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذٰلِكِ اللهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ[٤٧]

---

٢. مريم: ١٩/٣٠. ٣. تفسير الرازي ٨: ٥٢. ٤ و٣. تفسير روح البيان ٢: ٣٥.
٦. تفسير الرازي ٨: ٥٢. ٧. تفسير الرازي ٨: ٥١. ٨. تفسير روح البيان ٢: ٣٥.

ثمّ كأنّه قيل: فما قالَتْ مريم بعدَ تِلك البِشارة؟ فقال سُبحانه: ﴿قَالَتْ﴾ مريم ـ استِبعاداً لوقُوع هذا الأمر الخارِق للعَادة، واستِعظاماً لقُدْرة الله، أو استِفساراً مِنْ أنّه [قد] يكون الوَلَد بسَبب التّزوُّج، أو بغيره ـ: ﴿رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ﴾ ومِنْ أين يُوجَد ﴿لِي وَلَدٌ﴾؟ إذْ هُو مُتوقِّف علىٰ مُباشَرة الفَحْل ﴿وَ﴾ أنا إلىٰ الآن ﴿لَمْ يَمْسَسْنِي﴾ ولَم يقرَبني ﴿بَشَرٌ﴾ وهذه حالة مُنافية للولادة علىٰ حَسَب العَادة ﴿قَالَ﴾ الله تعالىٰ أو جبْرَئيل عليه السلام: ﴿كَذٰلِكِ﴾ الخَلْق العَجيب الخارِق للعَادة ﴿ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ أنْ يخلُقه.

ولمّا كان لَفْظ الخَلْق مُشعِراً بالاختِراع ـ ولذا كان ذِكْره أنسَب بِولادة العَذْراء مِن غير أبٍ، مِنْ وِلادة عَجُوزٍ عاقِر مِن شَيْخ فانٍ هَرِم ـ عقّبه ببَيان كَيْفيّة الاختِراع بقوله: و﴿إِذَا قَضَىٰ﴾ الله وحتَم ﴿أَمْراً﴾ مِنَ الأُمور بالإرادة التّكوينيّة، وتمّ صَلاح وُجود شيءٍ مِنَ الأشياء ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ﴾ وهُو كِناية عن تعلُّق الإرادة التّكوينيّة بوُجوده ﴿فَيَكُونُ﴾ ويُوجَد مِن غيرِ توقُّف علىٰ مادّة ومُدّة، ومِن غيرِ حاجةٍ إلىٰ مُؤنة وعُدّة.

في كيفية احتبال مريم ومكالمة يوسف معها

عن ابن عبّاس رضي الله عنه: أنّ مريم كانتْ في غُرفة، قد ضَربت دُونها سِتراً، إذا هِي برَجُل عليه ثِياب بِيض، وهُو جَبْرَئيل عليه السلام تمثّل لها بشَراً سَوِيّاً، أي تامّ الخَلْق، فلمّا رأتْه قالتْ: ﴿أَعُوذُ بِالرَّحْمٰنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيّاً﴾[1] ثمّ نفَخ في جَيْب دِرْعها، حتّىٰ وصلَتْ النَّفْخة إلىٰ الرَّحِم فاحتبلت[2].

وعن وَهَب: أنّه كان معها ذُو قرَابة يُقال له يُوسُف النَّجّار، وكان يُوسُف هذا يستعظِم ذلك، فإذا أراد أن يتّهِمها ذَكَر صَلاحَها، وإذا أراد أن يُبرِّئها رأىٰ ما ظهر عليها، فكان أوّل ما كلّمها أنْ قال لها: قد دخَل في صدري شيءٌ أردْتُ كِتمانه، فغلَبني ذلك، فرأيت الكلام أشفىٰ لصَدري. قالت: قُلْ. قال: فحدّثيني هَلْ ينبُت الزَّرْع مِن غيرِ بَذْرٍ؟ قالت: نعَم. قال: فهَلْ ينبُت شَجَرٌ مِن غيرِ أصْلٍ؟ قالت: نعَم. قال: فهَلْ يكون وَلَدٌ مِن غيرِ ذَكَرٍ؟ قالت: نعَم، ألَم تعلَم أنّ الله أنبت الزَّرْع يومَ خلَقه مِن غيرِ بَذْرٍ، والبَذْر يومئذٍ إنّما صار مِنَ الزَّرْع الذي أنبت الله مِن غيرِ بَذْر، ألَم تعلَم أنّ الله خلَق آدم وحَوّاء مِن غير أُنثىٰ ولا ذَكَر. فلمّا قالت له ذلك، وقَع في نفسه أنّ الذي بها شيءٌ أكرمها الله به[3].

وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَابَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَاةَ وَٱلْإِنْجِيلَ * وَرَسُولاً إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِن رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْئَةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنْفُخُ

---

١. مريم: ١٨/١٩.	٢. تفسير روح البيان ٢: ٣٦، وفيه: الرّحم فاشتَملَت.	٣. تفسير روح البيان ٢: ٣٦.

فِيهِ فَيَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ ٱللهِ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْيِى ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ [٤٨ و ٤٩]

ثمّ أنّ جَبْرَئيل بعدَ أن بشّرها بوِلادة عيسىٰ بقوله: ﴿يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ﴾[١] عطَف عليه تبشيرها بكماله العِلْمي، ومَرتبة رِسالته، بقوله: ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَابَ﴾ السّماوي الذي نزَل علىٰ آدم ومَنْ بَعْده، وقيل: المُراد: الكِتابة والخَطّ[٢]، ﴿وَ﴾ يُعلّمه ﴿ٱلحِكْمَةَ﴾ والعُلوم العَقليّة والشّرعيّة، وتهذيب الأخلاق ﴿وَٱلتَّوْرَاةَ وَٱلْإِنْجِيلَ﴾ وإفرادهما بالذِّكر بعدَ ذِكر جِنْس الكِتاب الشّامِل لهما، لزِيادة فَضْلهما، وإنافتهما علىٰ غيرِهما.

رُوي أنّ عيسىٰ عليه السلام حفِظ التّوراة وهُو في بَطن اُمّه، وكانت مريم تسمَع عيسىٰ وهُو يدرُس في بَطنها[٣].

في بيان زهد عيسىٰ عليه السلام

ثمّ لمّا شرّف عالَم الشّهود أعطاه [الله] الزّهادة في الدُّنيا؛ فإنّه كان يلبَس الشَّعر، [و] يتوسّد الحجَر، ويَسْتنير القمَر، وقد كان له قَدَح يشرَب فيه الماء، [ويتوضّأ] فيه فرأىٰ رَجُلاً يشرَب بيدِه. فقال لنفسه: يا عيسىٰ، هذا أزهَد مِنْك، فرمىٰ القَدَح وكسَره.

واسْتظلّ يوماً في ظِلّ خَيْمة عَجُوز؛ وكان قَد لحِقه حَرٌّ شدِيد، فخرَجت العَجُوز فطردَتْه، فقام وهُو يضحَك فقال: يا أمَة الله، ما أنتِ أقَمْتِني، وإنّما أقامَني الذي لَمْ يجعَلْ لِي نَعيماً في الدُّنيا ولمّا رُفِع إلىٰ السّماء، وُجِد عندَه إبْرة كان يرقَع [بها] ثَوبه، فاقتضَتْ الحِكْمة الإلٰهيّة نُزُوله في السّماء الرّابعة[٤].

﴿وَ﴾ يبعَثه ﴿رَسُولاً﴾ في حال الصِّبا، أو بعدَ البُلُوغ، أو بعدَ ثلاثين سنة ﴿إِلَىٰ بَنِى إِسْرَٰءِيلَ﴾ حال كَوْنه قائِلاً: ﴿أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم﴾ يا بَني إسرائيل ﴿بِآيَةٍ﴾ عظيمةٍ، ومُعجِزةٍ باهِرة، دالّة علىٰ صِدْق نُبُوّتي، كائِنة ﴿مِن رَبِّكُمْ﴾ ومُكمِّل نُفُوسكم، ومُصلِح اُمور دُنياكم وآخِرتكم.

قيل: إنّ أوّل أنبياء بني إسرائيل يُوسُف، وآخِرهم عيسىٰ[٥].

رُوي في (الإكمال): عن الباقر عليه السلام: «أنّه اُرسِل إلىٰ بني إسرائيل خاصّة، وكانَتْ نُبُوّته ببيت

---

١. آل عمران: ٤٥/٣. ٢. تفسير الرازي ٨: ٥٤، تفسير روح البيان ٢: ٣٧. ٣. تفسير روح البيان ٢: ٣٦.
٤. تفسير روح البيان ٢: ٣٦. ٥. تفسير أبي السعود ٢: ٣٨، تفسير روح البيان ٢: ٣٧.

المَقْدِس»[١].

ثمَ بيّن الآية وفصّلها بقوله: ﴿أَنِّى أَخْلُقُ﴾ وأصوِّر وأسوِّي ﴿لَكُم﴾ شيئاً ﴿مِنَ الطِّينِ﴾ بهَيئةٍ وصورةٍ ﴿كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ﴾ ومِثْل صُورته ﴿فَأَنفُخُ فِيهِ﴾ فتَلِج فيه الرُّوح ﴿فَيَكُونُ طَيْراً﴾ حَيّاً طيّاراً كسائر الطُّيُور ﴿بِإِذْنِ اللهِ﴾ وأمره وقُدْرته، لا بقُدْرةٍ مِنّي.

رُوي أنّه عليه السلام لمّا ادّعىٰ النُّبُوّة، وأظهر المُعجِزات، طالبوه بخَلْق الخُفّاش، فأخذ طيناً وصوّرة ونفَخ فيه، فإذا هُو يطير بَيْن السّماء والأرض، قال وهَب: كان يطير ما دام النّاس ينظُرون إليه، فإذا غاب عن أعينهم سقَط مَيّتاً، ليتميّز مِن خَلْق الله تعالىٰ[٢].

قيل: إنّما طلَبوا خَلْق الخُفّاس؛ لأنّه أكمل الطَّيْر خَلْقاً، وأبلغ دَلالةً علىٰ القُدْرة؛ لأنّ له ثَدْياً وأسناناً، وهِي تحِيض وتطهُر وتلِد كسائر الحَيوَانات، وتضحَك كما يضحَك الإنسان، وتطير بغَير رِيشٍ، ولا يُبصِر في ضَوء النّهار ولا في ظُلْمة اللّيل، وإنّما يرىٰ في ساعتين ساعة بعدَ الغُرُوب، وساعة بعدَ طُلُوع الفَجْر[٣].

قيل: لم يخلُق عيسىٰ غيرَ الخُفّاش. وقيل: خلَق أنواعاً مِنَ الطَّيْر[٤].

﴿وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ﴾ ومَنْ وُلِد أعمىٰ، أو أعوج العَيْن ﴿وَالْأَبْرَصَ﴾ وهُو المُبتلىٰ بمَرَض البَرَص، وهُو لَون مُختلِط حُمْرةً وبياضاً أو غيرهما، ولا يحصُل إلّا مِن فَساد المِزاج وخَلَل في الطَّبيعة، ولَم تنفِر العَرَبُ مِنْ شيءٍ نَفْرتها مِنه وتخصِيص هذَيْن الدّاءَيْن؛ لأنّهما مِمّا أعْيىٰ الأطِبّاء، مع كَوْنهم في غاية الحَذَاقة [في] زمنه عليه السلام.

قيل: كان يجتمِع عليه عليه السلام ألُوف مِنَ المَرضىٰ، مَنْ أطاق مِنهم أتاه، ومَنْ لَمْ يُطِقْ أتاه عيسىٰ عليه السلام، وما يُداويهم إلّا بدُعاء[٥].

﴿وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللهِ﴾ وتكرير (بإذن الله) للاهتِمام بدَفْع تَوهُّم الألُوهية.

في أن عيسىٰ أحيا أربعة من الأموات

قيل: سألوا جَالِينُوس عنه عليه السلام، فقال: المَيِّت لا يُحيا بالعِلاج، فإن كان هُو يُحيِي المَوتىٰ، فهُو نبيّ وليس بطبِيب. فطَلَبوا أن يُحيِي المَوْتىٰ، فأحيا أربعة أنفُس: [احيا]

---

١. كمال الدين: ٢٢٠/٢، تفسير الصافي ١: ٣١٢.
٢. تفسير الرازي ٨: ٥٦، تفسير روح البيان ٢: ٣٧، وفي تفسير روح البيان: ليتميز فِعل الخلق من فعل الله.
٣. تفسير روح البيان ٢: ٣٧. ٤. تفسير الرازي ٨: ٥٦. ٥. تفسير روح البيان ٢: ٣٨.

العازر، وكان صديقاً له، فأرسل اُخته إلىٰ عيسىٰ عليه السلام أنّ اخاك العازر يموت فأته، فكان بينه وبينه مَسيرة ثلاثة أيّام، فأتاه هو وأصحابه، فوَجدُوه قد مات مُنذُ ثلاثةَ أيّام، فقال لأُخته: انطَلِقي بِنا إلىٰ قَبْره [فانطلقت معهم إلىٰ قبره] وهو [في] صَخرة مُطبّقة، فقال عيسىٰ عليه السلام: اللّهمّ ربّ السّماوات [السبع] والأرضِين السَّبْع، إنّك أرسلتَني إلىٰ بني إسرائيل أدعُوهم إلىٰ دِينك، وأُخبِرهم أنّي اُحيِي المَوتىٰ، فأحْيِي العازر، فقام العازر ووَدَكُه[1] يقطُر، فخرَج مِن قَبْره، وبقي ووُلِد له.

وأحيا ابن‌عجوز مُرَّ به ميّتاً علىٰ عيسىٰ عليه السلام، علىٰ سَرير يُحمَل، فدعا الله عيسىٰ عليه السلام، فجلَس علىٰ سَريره، ونزَل عَن أعناق الرِّجَال ولبَس ثِيابه، وحمَل السَّرير علىٰ عُنُقه، ورجَع إلىٰ أهله، فبقي ووُلِد له.

وأحيا ابْنةَ العاشِر الذي يأخُذ العُشُور، قيل له: أحْيِها، وقد ماتَتْ أمس، فدعا الله تعالىٰ، فعاشَتْ، وبقِيتْ ووُلِدَ لها.

فقالوا: يُحْيِي مَنْ كان قَريب العَهْد مِنَ المَوت، فلعلّهم لَم يمُوتوا، بَل أصابَتْهم سَكْتة، فأحيي لنا سَام بن نُوح، فقال عيسىٰ: دُلّوني علىٰ قَبْره، فخرَج والقوم مَعه حتّىٰ انتهىٰ إلىٰ قَبْره، فدعا الله تعالىٰ بالاسْم الأعظم، فخرج مِن قَبْره وقد شابَ رأسُه، فقال عيسى: كيف شاب رأسُك، ولَم يكُن في زمانك شَيْب؟ قال: يا رُوح الله، لمّا دَعَوتني سمِعتُ صوتاً يقول: أجِبْ رُوحَ الله، فظَنَنْتُ أنّ القِيامة قد قامَتْ، فمِنْ هَوْل ذلِك قد شابَ رأسي. فسأله عن النَّزْع، فقال: يا رُوحَ الله، إنّ مَرارته لَم تذهَبْ مِن حَنْجَرتي وقد كان مِن وَقْت مَوته أكثر مِن أربعة آلاف سنة، فقال للقوم: صدِّقوه فإنّه نبيّ، فآمَن به بعضُهم وكذّبه آخرون، ثمّ قال له: مُتْ، قال: بشَرْط أن يُعيذَني الله سَكَرات الموت، فدعا الله ففعل[2].

وعن (الكافي) والعيّاشي: عن الصادق عليه السلام أنّه سُئِل هَل كان عيسىٰ بن مريم [قد] أحيا أحداً بعدَ مَوته، حتّىٰ كان له أكْل ورِزْق ومُدّة ووَلَد؟ فقال: «نعَم، إنّه كان له صديق مُؤاخٍ له في الله تعالىٰ، وكان يمُرّ به وينزِل عليه، ثمّ إنّ عيسىٰ غاب عنه حِيناً، ثمّ مَرّ به ليُسلِّم عليه، فخرَجتْ إليه اُمّه فسألها عنه، فقالت: مات يا رسُول الله، فقال: أفتَحِبِّين أنْ تَرَيْه؟ قالَتْ: نعَم، فقال لها: فإذا كان غداً فآتِيك حتّىٰ أُحْيِيه لكِ بإذن الله تعالىٰ، فلمّا كان مِنَ الغَدْ أتاها، فقال لها: انْطلِقي معي إلىٰ قَبْره، فانطلقا حتّىٰ إذا أتَيَا قَبره، فوقَف [عليه] عيسىٰ عليه السلام ثمّ دعا الله، فانْفرَج القَبر وخرَج ابنُها حَيّاً، فلمّا رأتْه اُمّه ورآها بَكَيا فرحِمهما عيسىٰ عليه السلام فقال: أتحِبّ أن تبقىٰ مع اُمّك في الدُّنيا؟ فقال: يا نبيّ الله، بأكْلٍ ورِزْقٍ ومُدّةٍ، أم

---

١. وَدَك الميت: ما يسيل منه.

٢. تفسير روح البيان ٢: ٣٨.

بغيرِ أكْلٍ ولارِزْقٍ ولا مُدّةٍ؟ فقال له عيسىٰ: بأكْلٍ ورِزْقٍ ومُدّةٍ، وتعمّر عِشرين سنة، وتُزوَّج ويُولَد لك. قال: نعَم [إذاً] قال: فدفَعه عيسىٰ إلىٰ أمّه، فعاش عشرين سنة، [وتزوّج] ووُلِد له»[1].

نُقِل أنّه كان يُحيي المَوتىٰ بـ(يا حَيُّ ويا قَيُّوم)[2].

في إحياء خاتم النبيين جمعاً من الأموات

ثمّ اعلَمْ أنّه كان لنبيِّنا ﷺ هذه المُعجِزة، رُوي في (الاحتِجاج): عن الحُسين بن علي عليهما السلام[3]، وفي (التوحيد): عن الرضا عليه السلام، في حديثٍ: «لقد اجتمعَتْ قُرَيش إلىٰ رسُول الله ﷺ، فسألوه أن يُحيي لهم مَوتاهم، فوجّه معهم عليّ بن أبي طالب عليه السلام، فقال له: أذهبْ إلىٰ الجَبّانة[4]، فنادِ بأسماء هؤلاء الرَّهْط الذين يسألون عنهم بأعلىٰ صوتِك: يا فُلان، [ويا فُلان و] يا فُلان، يقول لكم محمّد [رسُول الله] ﷺ: قُوموا بإذن الله، فقاموا ينفضون التُّراب عن رؤوسهم، وأقبلتْ قُريش تسألهم عن أُمورهم، ثمّ أخبروهم أنّ محمّداً ﷺ قد بُعِث نبيّاً، وقالوا: وَددْنا أنّا كُنّا أدركْناه، فنُؤمِن به» الخبر.

ومِن المعلوم أنّ هذا الإحياء أعجب مِن إحياء عيسىٰ عليه السلام بمَراتب.

ورُوي عنهم عليهم السلام أنّه ﷺ أبرأ الأكمَهَ والأبرَص والمَجانين، وكلّمه البَهائِم والطير [والجنّ] والشياطين[5].

ثمّ أخبر الله بأعظم مُعجزاته الباهِرة، وَهُوَ إخباره بالمُغَيّبات، بقوله: ﴿وَأُنَبِّئُكُم﴾ وأخبِركم ﴿بِمَا تَأْكُلُونَ﴾ مِن أنواع المأكولات ﴿وَمَا تَدَّخِرُونَ﴾ مِن شيءٍ، وتُخفونه مِن مَتاع ﴿فِى بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ المَذكُور مِنَ الخَوارِق للعَادات ﴿لَآيَةً﴾ عظيمةً ودَليلاً واضِحاً ﴿لَّكُمْ﴾ علىٰ صِدْق دَعواي ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ بآيةٍ مِنَ الآيات.

عن القُمّي: عن الباقر عليه السلام: «أنّ عيسىٰ عليه السلام كان يقول لبَني إسرائيل: إنّي رسُول الله إليكم، وإنّي ﴿أَخْلُقُ لَكُم مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْئَةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ ٱللهِ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ﴾ والأكمه: هُو الأعمىٰ، قالوا: ما نرىٰ الذي تصنَع إلّا سِحْراً، فأرِنا آيةً نعلَم أنّك صادِق، قال: ارأيتكم إنْ أخبرتُكم ﴿بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ﴾ يقول: ما أكلتُم في بيوتكم قَبل أن تخرُجوا، وما

---

١. الكافي ٨: ٥٣٢/٣٣٧، تفسير العياشي ١: ٦٩٠/٣٠٨، تفسير الصافي ١: ٣١٣.

٢. تفسير روح البيان ١: ٤٠٠.

٣. كذا في تفسير الصافي ١: ٣١٤ أيضاً، والحديث الآتي مرويّ في الاحتجاج عن الامام الرضا عليه السلام.

٤. الجَبّانة: المقبرة.

٥. التوحيد: ١/٤٢٣، الاحتجاج: ٤١٩، تفسير الصافي ١: ٣١٤.

ادّخرتُم بالليل، تعلمون أنّي صادِق؟ قالوا: نعم، وكان يقول: أنتَ أكلتَ كذا وكذا، وشربت كذا وكذا، ورفَعت كذا وكذا، فمِنهم مَن يَقْبَل مِنه فيؤمن، ومِنهم مَن [يُنكِر] فيكفُر»[١].

قيل: ويُخبِر الصِّبْيان وهُو في المَكتب، بِما يصنَع أهلُهم، وبِما يأكُلون ويخبّئون لهم، وكان الصَّبي ينطلِق إلىٰ أهله ويبكي عليهم حتّىٰ يُعطوه ما خَبّأوا له، ثمّ قالوا لِصبيانهم: لا تلعبوا مَع هذا السّاحِر. الخبر[٢].

وَهمٌ ودَفْعٌ

ثمّ اعلَم أنّ صُدُور هذه المُعجزة مِن نبيّنا ﷺ أكثر مِن أن يُحصىٰ.

فإن قيل: إنّ طُرُق الإخبار بالغَيْب لا تنحصِر بالوَحْي والإعجاز، بَلْ يُمكِن بطريق عِلْم النُّجُوم والجَفْر.

قلنا: هذِه الطُّرُق مُحتاجةٌ إلىٰ التّعلُّم والاستِعانة بالآيات، وتقدُّم السؤال، والتّفكُّر في الحِساب، وكُلّ ذلِك كان مُنتفياً في إخبار الأنبياء، فلابُدّ أنْ يكون بالوَحي والإلهام.

﴿وَمُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَاةِ وَلأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِن رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا ٱللهَ وَأَطِيعُونِ * إِنَّ ٱللهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هٰذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾[٥٠ و ٥١]

ثمّ أنّه عليه السلام بعدما أخبر بمُعجِزاته وأتىٰ بها، بيّن ما أُرسِل به بقوله: **﴿وَ﴾** إنّي جِئتُكم لأكون **﴿مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ﴾** وما تقدّمني **﴿مِنَ ٱلتَّوْرَاةِ﴾** وتقرير غالِب أحكامها، وبَيان أسرارها، وحَلّ مُشكلاتها وغَوامِضها، وإزالة شُبُهات مُنكِريها، ودَفع التّحْريف مِنها **﴿وَلأُحِلَّ﴾** وأُرخّص **﴿لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾** أكْله في شَريعة مُوسىٰ مِنْ لُحُوم السَّمَك، ولُحُوم الإبل، والشُّحُوم.

قيل: كان الأحبار قد وضَعوا مِن عندِ أنفسهم شرائِع باطِلة، ونسبُوها إلىٰ مُوسىٰ عليه السلام، فجاء عيسىٰ عليه السلام ورفَعها وأبطلها، وأعاد الأمر إلىٰ ما كان في زمَن مُوسىٰ عليه السلام[٣].

ثمّ أنّ الله قد حرّم بعض الأشياء علىٰ اليَهُود عُقُوبةً لهم علىٰ بعض ما صدَر عنهم مِنَ الجِنايات، ثمّ جاء عيسىٰ عليه السلام ورفَع بعض التّشديدات عنهم.

---

١. تفسير القمي ١: ١٠٢، تفسير الصافي ١: ٣١٣.
٢. تفسير روح البيان ٢: ٣٨، تفسير الرازي ٨: ٥٧.
٣ و٣. تفسير الرازي ٨: ٥٩.

وقيل: إنّ عيسىٰ عليه السلام رفَع كثيراً مِن أحكام التّوراة، ولم يكن قادِحاً في كَوْنه مُصدِّقاً بالتّوراة[1].

عن العيّاشي: عن الصادق عليه السلام قال: «كان بَيْن دَاوُد وعيسىٰ بن مريم أربعمائة سنة، وكانت شريعة عيسىٰ عليه السلام أنّه بُعِث بالتّوحيد والإخلاص، وبما أوصىٰ به نُوح وإبراهيم ومُوسىٰ عليهم السلام، وأُنزِل عليه الإنجيل، وأُخِذ عليه المِيثاق الذي أُخِذ علىٰ النّبيِّين، وشُرِّع له في الكِتاب إقام الصّلاة مع الدِّين، والأمر بالمَعروف والنّهي عن المُنْكر، وتَحريم الحَرام وتَحليل الحَلال، وأُنزِل عليه في الإنجيل مَواعِظ وأمثال وحُدُود، ليسَ فيها قِصاص ولا أحكام حُدُود، ولا فَرْض مَواريث، وأُنزِل [عليه] تَخْفيف ما كان [نزل] علىٰ مُوسىٰ في التّوراة، وهُو قول الله عزّ وجلّ في الذي قال عيسىٰ بن مريم لبني إسرائيل: ﴿**وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ**﴾ وأمر عيسىٰ مَنْ معه مِمَن يتبعه مِنَ المُؤمنين أن يُؤمنوا بشريعة التّوراة والإنجيل»[2].

ثمّ أعاد قوله: ﴿**وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ**﴾ عظيمة، شاهِدةٍ علىٰ رِسالتي، كائِنة ﴿**مِن رَّبِّكُمْ**﴾ للإنجاع في القُلوب، وازدِياد التّأثير في الطِّباع المألوفة بالعَادات.

ثمّ خَوّفهم بقوله: ﴿**فَاتَّقُوا ٱللَّهَ**﴾ وخَافُوه في تكذِيبي ومُخالَفة أحكامي ﴿**وَأَطِيعُونِ**﴾ في أوامري ونَواهِيَ.

ويُحتمل أن يُراد مِنَ الآية التي جاء بها قوله: ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ**﴾ وفيه دَعوة إلىٰ التّوحيد الخالِص، وإشعارٌ بأنّ أوّل الكَمال وأعلىٰ الفضائِل هُو الحِكْمة النَظريّة التي غايتها مَعرِفة الله بالوَحدانيّة ذاتاً وصِفاتاً وأفعالاً، وفي قوله: ﴿**فَاعْبُدُوهُ**﴾ دَعوة إلىٰ الكَمال الثاني، وهُو الحِكْمة العَمليّة، وهي القِيام بالطّاعة، ووظائِف العُبُودية.

ثمّ قرّر ذلِك بقوله: ﴿**هٰذَا**﴾ الذي هَدَيْتُكم إليه مِنَ التّوحيد والعِبادة ﴿**صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ**﴾ وطريق سَوِيّ يُوصِلكم إلىٰ مَحَلّ القُرْب، وأوْج الكَرامة، ومُستَقَرّ الرّحمة، ونِعَم الجنّة.

ووَجْه كَوْنه آيةً صِدْقه أنّ ما دعا إليه مِمّا يشهَد به العَقْل المَتِين والحَقّ الذي اتّفَق عليه جميعُ الأنبياء والمُرسلين.

فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِى إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ

---

٢. تفسير العياشي ١: ٦٩١/٣٠٩، تفسير الصافي ١: ٣١٤.

أَنْصَارُ ٱللهِ آمَنَّا بِاللهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ * رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّاهِدِينَ * وَمَكَرُوا وَمَكَرَ ٱللهُ وَٱللهُ خَيْرُ ٱلْمَاكِرِينَ[٥٢ ـ ٥٤]

ثمّ أنّه ـ بعدَ البِشارة بولادته، وعُلوّ مَقامه، وبُهور مُعجزاته، وحُسْن دَعْوته ـ بيّن أنّ النّاس مع جميع ذلِك، عارَضوه بالكُفر والجُحود، بقوله: ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ﴾ وشاهَد ﴿عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ﴾ بأنْ سمِع مِنهم صَريح الإنكار، أو تيقّن به بحَيث صار كالمَحسُوس له، وعرَف عَزْمهم علىٰ قَتله.

في بـدو ظـهور أمر عيسىٰ عليه السلام

قيل: إنّ اليَهُود كانوا عارِفين بأنّه هُو المَسيح المُبشَّر به في التّوراة، وأنّه يَنسَخ دِينهم، فأخذوا في الطَّعْن عليه، وصمّموا علىٰ قَتْله، فلمّا أظهر الدّعوة اشتدّ غضبُهم، وأصرّوا في إيذائه وإيحاشه، وطلَب قَتْله[1].

وقيل: إنّه تعالىٰ لمّا بعثَه رسُولاً إلىٰ بني إسرائيل، جاءهم ودَعاهم إلىٰ دِين الله، فتمرّدوا وعَصَوا، فخافهم واخْتفىٰ عنهم، وكان أمرُ عيسىٰ عليه السلام في قومه كأمر محمّد صلى الله عليه وآله وهُو بمكّة، فكان مُستضعَفاً، وكان يختفي مِن بني إسرائيل، كما اختفىٰ النبيّ صلى الله عليه وآله في الغار وفي مَنازِل مَنْ آمَن به لمّا أرادوا قتله.

ثمّ أنّه عليه السلام خرَج مع أمّه يَسيحان في الأرض، فاتّفق أنّه نزَل [في] قريةٍ علىٰ رَجُل فأحسَن الرجل ضِيافته، وكان في المدينة مَلِكٌ جَبّارٌ، فجاء ذلك الرّجُل يوماً حَزيناً، فسأله عيسىٰ عليه السلام عن السَّبَب، فقال: مَلِك هذه المدينة رَجُل جبّار، ومِن عَادته أنّه جعَل علىٰ كُلّ رَجُلٍ مِنّا يوماً يُطعِمه ويَسقِيه هُوَ وجُنُوده، وهذا اليوم نَوْبتي، والأمر مُتعذّر عَليّ.

فلمّا سمِعت مريم ذلك قالت: يا بُنَي أُدْعُ الله ليَكفي ذلك، فقال: يا أمّاه، إنْ فعلْتُ ذلك كان فيه الشَّرّ، فقالت: قد أحسَن وأكرم، ولابُدّ مِن إكرامه. فقال عيسىٰ عليه السلام: إذا قرُب مَجيء المَلِك فاملأ قُدُورك وخَوابيك ماءً ثمّ أعْلِمْني، فلمّا فعل ذلك دعا الله تعالىٰ، فتحوّل ما في القُدُور طَبيخاً، وما في الخَوابي خَمْراً، فلمّا جا الملك أكل وشرِب، وسأله: مِن أين هذا الخَمْر؟ فتعلّل الرّجُل في الجَواب، فلَم يزَلْ المَلِك يُطالِبه بذلِك حتّىٰ أخبره بالواقِعة.

فقال: إنّ مَن دعا الله حتّىٰ جعَل الماء خمراً، إذا دعا أن يُحيي الله وَلَدي لابُدّ وأن يُجاب. وكان ابنه قد مات قَبل ذلِك بأيّام، فدعا عيسىٰ عليه السلام وطلَب مِنه ذلك، فقال عيسىٰ عليه السلام: لا تفعل، فإنّه إن عاش

---

١. تفسير الرازي ٨: ٦١.

كان شَرّاً، فقال: ما أُبالي ما كان إذا رأيته، وإنْ أحيَيْته ترَكتُك علىٰ ما تفعل، فدعا الله عيسىٰ، فعاش الغُلام، فلمّا رآه أهل مَمْلكته قد عاش تَبادَروا بالسِّلاح واقْتَتلوا، وصار أمرُ عيسىٰ مَشهُوراً في الخَلْق، وقصَده اليَهُود[1]، وأظهَروا الطَّعْن فيه، والكُفْر به[2].

فإذَن ﴿قَالَ﴾ عيسىٰ عليه السلام لِمَنْ آمن به وصدَّقه: ﴿مَنْ أَنصَارِى﴾ وأعواني مِنكم؛ حال كَوْنه سالِكاً و مُتوجِّهاً ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ بطاعته ونُصْرة دِينه؟ ﴿قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ﴾ وهُم صَفْوة أصحابه وخُلَّص المُؤمنين به.

في وجه تسمية اثني عشر من أصحاب عيسىٰ بالحواريين

عن (العيون): عن الرِّضا عليه السلام أنّه سُئِل لِمَ سُمِّي الحَوارِيُّون حَوارِيِّين؟

قال: «أمّا عندَ النّاس، فإنّهم سُمّوا حَوارِيِّين؛ لأنّهم كانوا قصّارِين يُخلِّصون الثّياب مِنَ الوَسَخ بالغَسْل، وهُو اسمٌ مُشتَقّ مِنَ الخُبز الحُوّار[3]، وأمّا عندنا فسُمِّي الحَوارِيُّون حَوارِيِّين؛ لأنّهم كانوا مُخلصين في أنفسهم، ومُخلِّصين غيرهم مِن أوساخ الذُّنُوب بالوَعْظ والتّذكير»[4].

وعن (التوحيد): عنه عليه السلام: «أنّهم كانوا اثني عشَر رَجُلاً، وكان أفضلهم وأعلمهم لوقا»[5].

وقيل: كان بعضُهم مِنَ المُلُوك، وبعضُهم مِن صيّادي السّمك، وبعضُهم مِنَ القَصّارين[6]، وبعضُهم مِنَ الصبّاغين[7].

نُقِل أنّ عيسىٰ عليه السلام لمّا دعا بني إسرائيل إلىٰ الدِّين وتمرّدوا عليه، فرّ مِنهم وأخذ يَسِيح في الأرض، فمَرّ بجماعة مِن صيّادي السّمك، وكان فيهم شَمْعُون ويعقُوب ويُوحنّا أبناء زبدي؛ وهُم مِن جُملة الحَوارِيِّين الاثني عشر، فقال عيسىٰ عليه السلام: الآن تصيد السّمك، فإن اتّبعتَني صِرتَ بحيثُ تصيد النّاس لحَياة الأبد، فطَلَبوا منه المُعجِزة، وكان شَمْعُون قد رمىٰ شَبَكته تِلك اللّيلة في الماء، فما اصْطاد شيئاً، فأمره عيسىٰ عليه السلام بإلقاء شَبَكته في الماء مرّة أُخرىٰ، فاجْتمع في تِلك الشَّبَكة مِن السَّمَك ما كادت تتمزّق مِنه، فاستعان بأهل سَفينة أُخرىٰ، وملأوا السَّفينتين، فعندَ ذلِك آمنوا بعيسىٰ عليه السلام[8].

وقيل: إنّ واحداً مِنَ المُلُوك صنَع طعاماً وجمع النّاس عليه، وكان عيسىٰ عليه السلام علىٰ قَصعَة لا يزال

---

١. في تفسير الرازي: وقصد اليهود قتله. ٢. تفسير الرازي ٨: ٦٠.
٣. كذا، والحُوّارَىٰ، هو الدقيق الأبيض، وهو لباب الدقيق. وخُبز الحُوّارىٰ: الخبز المعمول من هذا الدقيق.
٤. عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ١٠/٧٩، تفسير الصافي ١: ٣١٥.
٥. التوحيد: ١/٤٢١، تفسير الصافي ١: ٣١٥، وفي التوحيد: الوقا، بدل: لوقا. ٦. القَصّار: المبيّض للثياب.
٧. تفسير أبي السعود ٢: ٤٢. ٨. تفسير الرازي ٨: ٦١.

يأكُل مِنها ولا تنقُص، فذكروا ذلك للمَلِك، فاستَدعاه عليه السلام [و] قال له: مَن أنت؟ قال: أنا عيسىٰ بن مريم، فترَك مُلكه وتَبِعه مع أقارِبه، فأولئك هُم الحَوارِيُّون[1].

وقيل: إنّه سلّمته أمّه إلىٰ صبّاغ، فأراد الصّبّاغ يوماً أن يشتغِل ببعض مُهمّاته، فقال له عليه السلام: هاهُنا ثِيابٌ مُختلِفةٌ قد جَعَلتُ لكُلّ واحِدٍ مِنها عَلامةً مُعيَّنةً، فاصْبُغها بتِلك الألوان فغاب، فجعل عليه السلام كُلّها في جُبٍّ واحِدٍ، فقال: كُوني بإذن الله كما أُريد، فرجَع الصّبّاغ فسأله، فأخبره بما صنَع، فقال: أفسدْتَ عَلَيَّ الثّياب! قال: قُمْ فانْظُر، فجعل يُخرِجُ ثوباً أحمر، وثوباً أخضر، وثوباً أصفر، إلىٰ أن أخرَج الجميع علىٰ أحسَن ما يكون حَسَب ما كان يُريد، فتعجَّب مِنه الحاضرون وآمنوا به عليه السلام، وهُم الحَوارِيُّون[2].

قيل: إنّهم كانوا إذا جاعوا قالوا: جُعنا يا روح الله، فيضرِب بيَده الأرض، فيخرُج مِنها لكُلّ واحِدٍ رَغيفان، وإذا عطِشوا قالوا: عطِشنا، فيضرِب بيَده الأرض فيخرُج منها الماء فيشرَبون، فقالوا يوماً: من أفضل مِنّا؟ قال عليه السلام: أفضل مِنكم مَن يعمَل بيَده، ويأكُل مِن كَسْبه، فصاروا يغسِلون الثّياب بالأجرة[3].

وقيل: إنّه عليه السلام قال للحَوارِيِّين الاثنَي عشر: ﴿مَنْ أَنصَارِى إِلَى اللّهِ﴾؟ وهذا لمّا طلَبتْه اليَهود للقَتل، وكان هُو في الهَرَب مِنهم، فأراد: أيُّكم يُحِبّ أن يكون رَفِيقي في الجنّة علىٰ أن يُلقىٰ عليه شَبَهي، فيُقتَل مَكاني؛ فأجابه إلىٰ ذلك بعضٌ، وذلكِ قوله تعالىٰ: ﴿نَحْنُ أَنصَارُ اللّهِ﴾ وحُماة دِينه، وأعوان أنبيائه في إعلاء كلِمته، ودِفاع أعدائه، حيثُ إنّا ﴿آمَنَّا بِاللّهِ﴾ والإيمان به مُقتِضي لمحبّته المُقتضِية لبَذْل النّفس والمال في سَبيله ﴿وَاشْهَدْ﴾ أنتَ يا نبيّ الله يومَ القِيامة، حيَن يشهَد الرُّسُل علىٰ أُمَمِهم عندَ الله ﴿بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ لك مُنقادون لأمرك، مُخلِصون في محبّتك وطاعتك.

ثمّ توجّهوا إلىٰ الله مُتضرِّعين إليه بقولهم: ﴿رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ﴾ مِنَ الإنجيل ﴿وَاتَّبَعْنَا﴾ بقُلوبنا وجَوارِحنا ﴿الرَّسُولَ﴾ الذي أرسلْتَه إلينا بالحَقّ، في جميع ما يأتي وما يذَر.

ثمّ أنّهم ـ بعدَ عَرْض الإيمان بالرّسُول وبما جاء به، وإظهار الانقِياد والطّاعة له ـ سألوا رِفْعة المَقام عندَ الله، والدُّخُول في زُمْرة أوليائه الكِرام بقوله: ﴿فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ لَك بالتّوحيد، ولأنبيائك بالتّصديق، أو مع أُولي العِلْم الذين قرَنْتَهُم بنفسِك في آية ﴿شَهِدَ اللّهُ﴾[4]، أو مع محمّد صلى الله عليه وآله وأُمّته الذين هُم شُهَداء علىٰ جميع الأُمَم، وهُو مَرويّ عن ابن عبّاس[5]، أو مع الأنبياء الذين هُم شهَداء علىٰ

---

١. تفسير الرازي ٨: ٦٤، تفسير أبي السعود ٢: ٤١.
٢. تفسير أبي السعود ٢: ٤٢.
٣. تفسير أبي السعود ٢: ٤١.
٤. آل عمران: ١٨/٣.
٥. مجمع البيان ٢: ٧٥٧.

أمَمِهم.

قيل: إنّه تعالىٰ قد أجاب دَعْوتهم، وجعَلهم أنبياءً ورُسُلاً، فأحْيَوا المَوتىٰ وصنَعوا ما صنَع عيسىٰ عليه السلام[1].

في اجتماع اليهود علىٰ قتل عيسىٰ ورفعه إلىٰ السماء

ثمّ إنّ كُفّار بني‌إسرائيل أصرُّوا علىٰ عَداوة عيسىٰ عليه السلام ﴿وَمَكَرُوا﴾ به وسَعَوا خُفْيَةً في قَتْله، بأن وكَلُوا به مَن يقتُله غِيلةً ﴿وَمَكَرَ ٱللهُ﴾ بأن دبّر ما يدفَع القَتل عنه، مِنْ رَفْعه إلىٰ السّماء، وإلقاء شَبَهه علىٰ أحَد مُحبِّيه وحَوارِيه، أو علىٰ الذي دَلّ أعداءه عليه مِنهم.

قيل: إنّ يَهُودا مَلِك اليَهُود أراد قتل عيسىٰ عليه السلام، وكان جَبْرَئيل لا يُفارِقه ساعةً، فأمره أن يدخُل بيتاً فيه رَوْزَنة[2]، فلمّا دخلُوا البيت أخرجه جَبْرَئيل مِن تِلْك الرَّوْزَنة، وكان قد ألقىٰ شَبهَه علىٰ غيره، فأخذوه وصَلَبوه[3].

﴿وٱللهُ خَيْرُ ٱلمَاكِرِينَ﴾ وأقواهم كَيداً وتدبيراً، وأقدَرهم علىٰ الإضرار بمَن يُريد الضَّرَر بأوليائه.

إِذْ قَالَ ٱللهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ[٥٥]

ثمّ بيّن الله أنّ ذلِك المَكْر كان ﴿إِذْ قَالَ ٱللهُ﴾ وحينَ أوحىٰ إليه بِلا واسِطة جَبْرَئيل: ﴿يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾ وقابِضُك كامِلاً مِنَ الأرْض، أو مُتوفِّي أجلك المُسمّىٰ، عاصِماً إيّاك مِن قَتْلهم ﴿وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ وإلىٰ مَحَلّ كَرامتي ومَقَرّ ملائِكتي، برُوحك وجَسَدك ﴿وَمُطَهِّرُكَ﴾ ومُخلِّصك ﴿مِن﴾ أيدي ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ومِن سُوء جِوارهم، وخُبْث مُرافَقتهم.

قيل: إنّ اليَهُود لمّا عَزموا علىٰ قَتله، اجتمع الحَوارِيُّون في غُرفة، فدخل عليهم المَسيح مِن مِشْكاة الغُرفة، فأخبر بهم إبليس جميع اليَهُود، فركِب مِنهم أربعةُ آلاف رَجُلٍ فأخذوا باب الغُرفة، فقال المسيح للحَوارِيِّين: أيُّكم يخرُج ويُقتَل ويكون معي في الجنّة، فقال واحِدٌ مِنهم: أنا يا نبيّ الله، فألقىٰ عليه مِدْرَعةً من صُوفٍ وعمامةً مِن صُوف، وناوَله عُكّازة، وألْقي عليه شَبَه عيسىٰ، فخرَج علىٰ اليَهُود

---

١. تفسير الرازي ٨: ٦٤.
٢. الرَّوزنة: هي الكُوّة في الحائط، غير نافذة يوضع فيها المصباح، وتُسمى بالمِشكاة.
٣. تفسير الرازي ٨: ٦٥.

فقَتلوه وصلَبوه[١].

وفي رِواية عن ابن عبّاس: فقال المَلِك لرَجُل خَبيث مِنهم: ادخُل عليه فاقتِلْه، فدخَل البيت، فألقىٰ الله عزّ وجلّ شَبَهه عليه، فخرَج يُخبِرهم أنّه ليس في البيت، فقتلوه وصلبوه[٢].

وقيل: إنّه عليه السلام جمَع الحَوارِيّين ليلةً وأوصاهم، ثمّ قال: ليَكفُرَنّ بي أحدُكم قبل أن يصِيح الدِّيك ويبيعني بدَراهم يسيرة، فخرَجوا وتفرّقوا، وكانت اليَهُود تطلُبه، فنافَق أحدُهم فقال لهم: ما تجعلون لي إن دَلَلْتُكم علىٰ المَسيح، فجعلوا له ثلاثين دِرْهماً، فأخذها ودَلّهم عليه، فألقي عليه شَبَه عيسىٰ عليه السلام، فرفعه إلىٰ السماء، فأخذوا المُنافق وهُو يقول: أنا دَليلُكم، فلَم يلتفِتوا إلىٰ قوله وصلَبوه، ثمّ قالوا: وجْهُه يُشبِه وَجْه عيسىٰ وبَدَنُه يُشبِه بَدَن صاحِبنا، فإن كان هذا عيسىٰ فأين صاحِبنا، وإن كان صاحِبنا فأين عيسىٰ؟! فوقَع بَيْنهم قِتالٌ عظيم[٣].

قيل: حمَلت مريم عليها السلام بعيسىٰ عليه السلام وهِي بِنْت ثلاث عشرة سنة، ووضعَته ببيت لَحْم من أرض أورشليم، لمُضي خمسٍ وستّين سنة مِن غَلَبَة الاسكَنْدر علىٰ أرض بابل، وأوحي إليه علىٰ رأس ثلاثين سنة، ورفعَه الله إليه مِن بيت المَقْدس ليلة القَدْر مِن شَهر رَمَضان، وهُو ابن ثلاثٍ وثلاثين سنة، وعاشت أمّه بعدَ رَفْعه سِتّ سنين[٤].

وقيل: لمّا صُلِب المَصلُوب جاءت مريم عليها السلام ومعها أمرأة أبرَأها الله مِنَ الجُنُون بدُعاء عيسىٰ عليه السلام، وجعَلَتا تبكِيان علىٰ المَصلُوب، فأنزل الله عيسىٰ عليه السلام فجاءهما فقال: علام تبكِيان؟ [فقالَتا: عليك]. فقال: إنّ الله تعالىٰ رفعَني، ولَمْ يُصِبْني إلّا خَيْر، وإنّ هذا شيءٌ شُبِّه لهم[٥].

قيل: إنّ الله تعالىٰ كَساه الرِّيش والنُّور، وألبَسه النُّور، وقطَع عنه شَهْوة المَطْعَم والمَشرَب، فطار مَع الملائكة[٦].

في افتراق أصحاب عيسىٰ عليه السلام بعد رفعه علىٰ ثلاث فرق

ثمّ أنّ أصحابه حين رأوا ذلك تفرّقوا ثلاث فِرَق، فقالت فِرْقةٌ: كان الله فِينا ثمّ صعِد إلىٰ السّماء، وهُم اليَعقُوبيّة، وقالت فِرْقة أُخرىٰ: كان فِينا ابنُ الله ما شاء الله ثمّ رفعه

---

١. تفسير أبي السعود ٢: ٤٣.
٢. تفسير روح البيان ٢: ٤٠، والرواية ليست عن ابن عبّاس.
٣. تفسير أبي السعود ٢: ٤٢.
٤. تفسير أبي السعود ٢: ٤٣.
٥. تفسير أبي السعود ٢: ٤٣، تفسير روح البيان ٢: ٤٠.
٦. تفسير أبي السعود ٢: ٤٤، تفسير روح البيان ٢: ٤٠.

إليه، وهُم النَطورِيّة[١]، وقالت فِرْقة أُخرىٰ مِنهم: كان فِينا عبدُ الله ورَسُوله ما شاء الله، فرفعَه الله إليـه، وهؤلاء المُسلِمون، فتظاهَرت عليهم الفِرْقتان الكافِرتان فقتلوهم، فلَمْ يزَلْ الإسلام مُنطمِساً إلىٰ أن بعَث الله محمّداً ﷺ.

ثمّ اعلَمْ أنّه لمّا كان النَصارىٰ مُعتقِدين بأنّ اليَهود أخذوا المَسيح وصلَبوه في مَشهَدِ جَمٍّ غَفيرٍ مِنَ النّاس، وكانوا يستهزِئون به ويسخَرون مِنه وهُو مَصلُوب، حتّىٰ شهِق علىٰ الخَشَبة شَهْقةً ومات، وكان قَتل النبيّ خصُوصاً بهذه الذِّلّة والمَهانة مِن أعظم المَصائِب علىٰ أُمّته ومَن يعتقِد بنُبُوّته، كان إخبار الله تعالىٰ في كتابه المُنزَل علىٰ محمّد ﷺ وإخبار الرّسُول بكِذْب القائِلين بُوقُوع هذه الأمور، وتخطِئة النَصارىٰ في هذا الاعتِقاد، وقوله ﷺ بأنّه ما قُتِل وما صُلِب وما أصابه وَهْنٌ وضُرٌّ، بَلْ رفعَه الله حيّاً في غاية الكَرامة إلىٰ السّماء، وكان المَقتُول والمَصلُوب عدوّه، أو المُـنافِق الدّالّ عـليه أو غـيرهما، تَسْلِيةً عظيمةً للنَّصارىٰ ومُحبّي عيسىٰ عليه السلام، فينطبِق علىٰ نبيِّنا ﷺ جميعُ ما أخبَر عيسىٰ عليه السلام حَوارِيِّيه بمجيء مُسَلٍّ بعدَه، وأمْره إيّاهم بطاعته واستِماع قوله، حيثُ لَم يَجِئ أحدٌ بعدَه بهذه الصِّفة إلّا خاتَم النَبيِّين ﷺ.

فـي إخـبار عـيسىٰ ببعثة خاتم النبيين

وفي إنجيل يوحنّا المُترجم بالفارسية: (اين سخنان را بشما گفتم وقتيكه با شما بودم، لكن تسلّى دهنده؛ يعنى روح القدس، كه پدر او را باسم مَن مى‌فرستند او همه چيز را بشما تعليم خواهد داد وانچه بشما گفتم بياد شما خواهد آوريد).

إلىٰ أن قال: (والآن قبل از وقوع، بشما گفتم تا وقتيكه واقع گردد ايمان آوريد، بعد از اين بسيار با شما نخواهم گفت، زيرا كه رئيس اين جهان ميايد ودر من چيزى ندارد).

إلىٰ أن قال: (لكن چون تسلّى دهنده كه او را از جانب پدر نَزْد شما مى فرستم ايد، يـعنى روح راستى كه از پدر صادر مى گردد او بر من شهادت خواهد داد.

إلىٰ أن قال: (ومن بشما راست مى گويم كه رفتن من براى شما مفيداست، زيرا اگر نروم تسلّى دهنده نزد شما نخواهد آمد، امّا اگر بروم او را نزد شما مى فرستم، وچون او آيد جهان را بر [عدم] گناه وعدالت وداورى ملزم خواهد نمود)[٢].

---

١. كذا، والظاهر أنها النَّسطُوريّة.

٢. جاء في النسخة العربية من انجيل يوحنا ـ الاصحاح (١٤ ـ ١٦): وأمّا المعزّي الرّوح القدس الذي سيُرسلُه الأب

إن قيل: إن جوّزنا إلقاء شَبَه إنسان علىٰ إنسان لزِم السَّفسَطة بحيث يُحتمَل أنّ كُلّ مَن نَراه يكون غيرَه تصوَّر بصُورته، ويلزَم بُطلان الشَرائع، إذْ الشَرائِع لا تثبُت إلّا بالأخبار المُتواتِرة عن المَحسُوسات، فإذا احتُمِل الخطأ في الحِسّ ووُقُوع الغَلَط فيه، لا نقطع بقولهم: إنّ النبيّ قال كذا، أو فعل كذا، وأنّهم رأوا النبيّ، بَل يُحتمَل أنّهم رأوا غيرَ النبيّ بصُورته.

وفيه: أنّ وُقُوع هذا الأمر بالمُعجزة في مَورِد لا يُوجِب الشَّكّ في سائر المَوارد، كما أنّ مَسْخ الإنسان قِرْداً أو خِنْزيراً لا يُوجِب احتِمال أنّ كُلّ خِنْزير تَراه كان إنساناً مُتصوِّراً بصُورة الخِنْزير، مع أنّ المَسْخ مُسلّم الوُقُوع في بعض الأُمَم، أو إذا رأينا أنّ مُوسىٰ ألقىٰ عصاه فصارت ثُعباناً، لا يُحتَمل أنْ ينقلِب كُلّ خَشَب ثُعباناً.

والحاصل: أنّ الإعجاز سبَب انقِلاب صُورة بصُورة، فإذا لَمْ يُحتمَل وُجُود السَّبَب، لا يُحتمَل وُجُود المُسَبَّب.

إن قيل: إنّ جَبْرَئيل كان مُلازِماً لعيسىٰ، وكان قادِراً علىٰ إهلاك اليَهُود، وكذا عيسىٰ كان قادِراً على إحياء المَوتىٰ وإماتة الأحياء، فكانا قادِرَين علىٰ إهلاك جميع اليَهُود.

قلنا: كان صَلاح النِّظام في رَفْعه إلىٰ السَماء، وحِفْظه عن اليَهُود بهذا النَّحْو، وكان مِن صَلاحه أن يكون حُجَةً علىٰ مَن يُنكِر طُول عُمْر الحُجّة بن الحَسن عليه السلام، لشُبْهة امتِناع بقاء الإنسان في هذا المِقدار مِنَ الزَمان الطَويل بلا شَيْب وهَرَم.

إن قيل: إنّ النَصارىٰ علىٰ كَثْرتهم في مَشارِق الأرض ومَغارِبها، وشِدّة مَحبّتهم للمَسيح، أخبروا أنّهم شاهدوه مَقتُولاً مصلُوباً، فلوا أنكَرْنا ذلك كان طَعْناً فيما ثبَت بالتَواتُر، وهذا يُوجِب الطَّعْن في نُبُوّة خاتَم النَبِيِّين.

قلنا: إنّما ثبَت بالتَّواتُر أنّهم رأوا مَنْ كان بصُورة عيسىٰ مَقتُولاً، ولَولا إخبار الله بخطئهم في الحِسّ، لقطَعْنا بقَتل عيسىٰ عليه السلام. وأمّا الإشكال في جَواز الخطأ في الحِسّ فهُو الإشكال الأوّل، وجوابه جوابه.

باسمي فهو يعلّمكم كُلّ شيء ويُذكّركم بكلّ ما قلته لكم -إلى أن قال: -وقلتُ لكم الآن قبل أن يكون حتى متى كان تُؤمنون. لا أتكلّم أيضاً معكم كثيراً لأنّ رئيس هذا العالم يأتي وليس له فيّ شيءٌ -إلى أن قال: -ومتى جاء المعزّي الذي سأرسله أنا إليكم من الأب روح الحقّ الذي من عند الأب ينبثق فهو يشهد لي -إلى أن قال: -لكني أقول لكم إنّه خيرٌ لكم أن أنطلق. لأنّه إن لم أنطلق لا يأتيكم المُعزّي. ولكن إن ذهبت أُرسله إليكم. ومتى جاء ذاك يُبكّت العالم على خطيّةٍ وعلى بِرٍ وعلى دَينونةٍ.

إن قيل: إنَه ثبَت بالتّواتُر أنّ المَصلُوب بقِي حيّاً زماناً طويلاً، فلو لَم يكُن ذلك عيسىٰ بَل كان غيره لأظهر الجَزَع ولقال: إنّي لَسْتُ بعيسىٰ، بَل إنّما أنا غيرُه، ولبالَغ في تعريف ذلك، ولو ذكَر ذلك لاشْتَهر عندَ الخَلْق، فلمّا لَم يكُن مِن ذلِك أثَرٌ، ولَم يُوجَد في دَفتر، عَلِمنا أنّه لَيس الأمر كما ذُكِر.

قلنا: أمّا علىٰ تقدير كَوْن المَصلُوب مُؤمناً قد قَبِلَ هذا الأمر لنفسِه، فهُو لَم يكُن يُظهِر الأمر البتّة، وأمّا علىٰ تقدير كَوْنه عَدُوّاً، أو مُؤمناً مُنافِقاً، فقد نُقِل أنّه أظهر ذلِك، وقال: إنّي لَسْتُ بعيسىٰ، فلَم يقبَلوا مِنه، وكان عاجِزاً عن إثبات دَعْواه.

ثمّ أنّه تعالىٰ بعدَما بشّره بالبِشارتَين الرّاجِعتين إلىٰ نفسه المُقدّسة، بشّره بكرامة أتْباعه المُؤمنين به حَقّ الإيمان بقوله: ﴿وَ﴾إنّي ﴿جَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ﴾ في العقائِد والأعمال، وآمنوا بكَ حَقّ الإيمان، ولَم يغلُوا فيك كمحمّد ﷺ وأتباعه المُؤمنين به ﴿فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بكَ مِنَ اليَـهُود المُكـذّبين، والنّصارىٰ الغَالِين فيك، بالغَلَبة عليهم بالسّيْف، والعِزّة والحُجّة، مِنَ الآن ﴿إِلىٰ يَوْمِ ٱلقِيَامَةِ﴾ وجاعل الذين خالَفوك تحت سُلطان المُؤمنين، أذِلّاء مَقهُورين ﴿ثُمَّ إِلَيَّ﴾ فـي يـوم القِيامة ﴿مَـرْجِعُكُمْ﴾ ومرجِع مُخالِفيكم بالبَعْث والنُّشُور ﴿فَأَحْكُمُ﴾ إثْرَ رُجُوعكم إلَيّ في ذلك اليوم ﴿بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ﴾ في الدُّنيا ﴿فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ وتتنازَعون مِنَ الكُفْر والإيمان، والعقائِد والأعمال.

فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيداً فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَمَـا لَـهُم مِـن نَاصِرِينَ[٥٦]

ثمّ بيّن سُبحانه كيفيّة حُكُومته بَيْنهم مُفصّلاً بقوله: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله، وجحَدوا رِسـالتك ودِينك ﴿فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيداً فِى ٱلدُّنْيَا﴾ بالقَتْل، والسَّبْي، والذِّلّـة، والمَسْكَنة، وأخْـذ الجِـزْية، والأمراض والمَصائِب التي هِي العُقُوبات الزائِدة في حَقّ الكُفّار علىٰ عُقُوبات الآخِرة، ومِن ألطافه تعالىٰ في حَقّ المُؤمنين، لكَوْنه ابتِلاءً لهم، ورفع دَرَجة. وفي ﴿ٱلآخِرَةِ﴾ بالنّار، والسّلاسِل والأغلال، وسائر ما أعِدّ للكُفّار ﴿وَمَا لَهُم مِن نَاصِرِينَ﴾ وحامين يُنجونهم مِن أحَد العَذابَين فَضْلاً عن كليهما.

فهرس المحتوى